ما وراء الطبيعة

المجموعة الثالثة

التحويل الى حر الكتروني

التجميع في مجلد واحد







الأعداد من (41) الى (60)

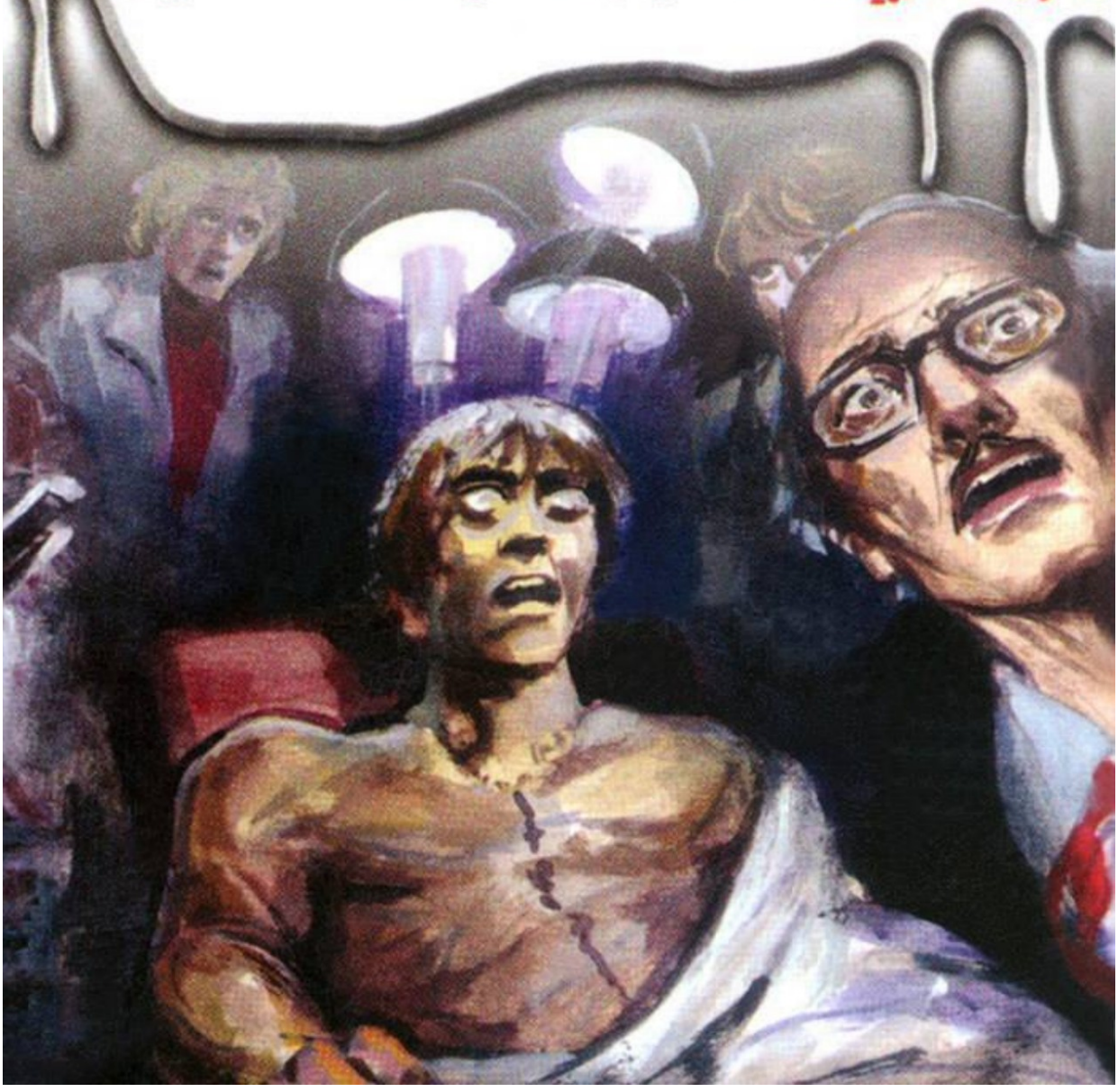
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

41

أسطورة فرانكنشتاين

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم السابق الذي صار شيخًا ثرثارًا، لا يكف عن سرد ذكريات ماضيه... حمدًا لله على أنني لم أبدأ بعد في الكلام عن البيضة التي ثمنها مليم، والدجاجة التي ثمنها خمسة مليمات، بدلًا من هذا أتكلم عن الأشباح والمذءوبين، والتوابيت التي تنفتح عند دقات الساعات في منتصف الليل..

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم السابق الذي عاش أو عرف العديد من القصص الغريبة، والذي شاء الله (تعالى) أن يجد له من يهوى سماع هذه القصص، لذا صارت سلواه الوحيدة - وهو بلا ولد ولا زوجة وحاليًا بلا صديق - أن يرقب الوجوه الشابة المحيطة به، وقد اتسعت عيونها شوقًا إلى القصة التالية.. تنتهي القصة فتتضارب الآراء..

البعض يصرخ: سخيييفة! هرااااء! والبعض يراها جيدة.. البعض يراني مغامرًا لا يُشقّ له غبار، والبعض يراني أكبر كذاب عرفه القرن العشرون، حتى إنني جدير بالانضمام إلى البارون (منخاوزن) أكبر كذاب في تاريخ أوربا..

آراء لا تنتهي.. لكنكم - ويا لفرحتي - تضعون في النهاية القبضات تحت الذقون، وتتسع عيونكم أكثر، وتقولون:

- «هلمّ احك قصة أخرى، ولكن لتكن مرعبة هذه المرّة.. هل تسمعنا أيها العجوز؟ مرعبة!»

فأقول وأنا أحك صلعتي مفكرًا:

- «ليكن.. اليوم أحكي لكم قصة (فرانكنشتاين)...

كلا.. ليس (فرانكنشتاين) هو الوحش المرعب الذي تعرفونه.. بل هو مخترعه! الوحش لا اسم له، وهذا خطأ شائع إلى حد أنه صار غير قابل للتصحيح.. اليوم أحكي لكم القصة، ودعونا نرجئ الأسئلة إلى ما بعد أن أنتهي..»

كانت القصة كما يلي.....

١ - عن الأسطورة وصانعة الأسطورة..



البرق يلتمع في السماء، يليه الرعد.. القلعة المهدمة ترتج فوق جبلها المخيف.. القرية ثائرة والرجال الفلاحون السويسريون - ويعلم الله أنهم شرسون حقًّا- يلوحون بالمشاعل، وفي عيونهم يتوهج ما هو أكثر شراسة من النار:

- «يجب أن نصعد إلى القلعة ونمنع ذلك المجنون من الاستمرار في تجاربه..»

يا له من وقت غير مناسب للثورة! إن الطبيعة ثائرة بما يكفي، وسيول الأمطار تجعل الرؤية أو التعقل أمرين مستحيلين..

وتزداد الصواعق سخاء.. وتهوي الألسنة الملتهبة فوق جهاز منع الصواعق الذي ابتكره (فكتور فرانكنشتاين)، فتسري الكهرباء في دوائر غاية في التعقيد إلى الجهاز العملاق والجسد الميت المسجى تحت ملاءته المتسخة.. كهرباء قادرة على تحريك الجبال.. تتوهج الغرفة كلها بالنور الساطع، وتشم رائحة اللحم المحترق، وتسمع الأنين.. الأنين العميق من تحت الملاءة!

☆ ☆ ☆

هذه هي العوالم التي لم تكن موجودة قبل أن تبتدعها فتاة في التاسعة عشرة من عمرها.. فتاة تدعى (ماري ولستونكرافت شيللي).. قصصية إنجليزية من المرحلة الرومانسية، ولدت عام ١٧٩٧ وتوفيت عام ١٨٥١.. ابنة الفيلسوف (ويليام جودوين)، وأمها من زعيمات الحركة النسائية الشهيرات.. توفيت الأم سريعًا بعد إنجاب ابنتها، ولم يستطع الأب أن يغفر هذا لـ (ماري) كأنها السبب فيما حدث، وهي نقطة نفسية مهمّة يجب ألا ننساها..

وقد نشأت (ماري) في (لندن) في بيئة أدبية مغرقة، حتى إنها رأت (كولردج) الأديب البريطاني العظيم في دارها، وعمرها مازال عامين.. ثم تزوجت من الشاعر (بيرسي شيللي)، وهو من هو بالنسبة للأدب الرومانسي الإنجليزي مع زملائه (بيرون) و(كيتس).. وعام ١٨١٨ قدمت أول وأهم أعمالها (فرانكنشتاين)، وقد قدمت بعد هذا أربعة كتب تعكس ليبرالية اجتماعية واضحة، لكنّها - شأن الأدبيات عامّة - لم تشتهر إلا برواية واحدة هي التي نتكلم عنها اليوم..

وتوفيت (ماري شيللي) عام ١٨٥١ بورم في المخ، ومن السخرية أن وفاتها تزامنت مع المعرض العلمي الإنجليزي، الذي قدم اكتشافات مثيرة تذكرنا بما قدمته هي في رواية (فرانكنشتاين)..

☆ ☆ ☆

كان (فكتور فرانكنشتاين) عبقريًا منذ نعومة أظافره.. دائمًا كان يملك الكلمة النهائية في أي جدل علمي بينه وبين (إليزابيث) أخته - بالتبني فحسب - وصديق عمره (هنري).. لقد نشأ الجميع في بيت آل (فرانكنشتاين) قرب (جنيف)، وسرعان ما رزق أبواه بطفل جميل سموه (ويليام)..

كان ذكاء (فكتور) مربكًا مخيفًا من البداية، ولم يكف عن التساؤل والتجريب قط، غير أنّ هناك حادثة خاصة تتعلق بالبرق، فتحت عينيه على الإمكانيات الهائلة لتلك الكهرباء الطبيعية رخيصة الثمن، وهو درس ظل يذكره حتى كبر..

وفيما بعد تحكي القصة كيف أن الأصدقاء تفرقت بهم السبل.. ذهب (فرانكنشتاين) إلى ألمانيا ليدرس العلوم في (إنجولشتاد)، وكما هو الحال مع القصص دائمًا يتوصل إلى سر الأسرار بينما هو مازال طالبًا.. كأن الأمور بهذه البساطة..

ويتجه (هنري) - وهو بالمناسبة راوي القصة - من (جنيف) إلى ألمانيا لزيارة صديق طفولته، فيجده قد صار غريب الأطوار يداري سرًا مروعًا لا يرحب بالكلام عنه.. إن للفتي معملًا، وهذا المعمل يتركز حول ما يشبه حوض الاستحمام الذي نكتشف - بعد تدقيق النظر ـ أنه يحوي أجزاء من اللحم البشري، وما هو أقرب إلى جثة شبه متحللة تسبح في مادة حافظة..

وتبدأ التجربة الرهيبة التي يحاول فيها (فرانكنشتاين) أن يبعث الحياة في جسد هذا الكيان الذي قام بتلفيقه من بقايا جثث سرقها من المشارح، والذي حرص على جعله جميلًا كرسوم الفنانين العظام.. ويرى (فرانكنشتاين) أن الأمر سهل شبيه بما نقوم به حين تتعطل الساعة وكل أجزائها سليمة، من ثم نهزها مرّتين فتعود إلى الدوران، واليد العملاقة التي ستهز هذه الجثة هنا هي الصاعقة الكهربية..

كانت تجربة (بنيامين فرانكلين)[1] الأمريكي مع البرق قد أحدثت دويًا كبيرًا، وبدا للناس وقتها أن كل المشاكل يمكن حلّها بمجرد تطيير طائرة ورقية وسط عاصفة رعدية.. راجع قصة (عرين الدودة البيضاء) لـ (برام ستوكر) على سبيل المثال..

افترضت (ماري شيللي) الشيء ذاته، وهكذا قام (فرانكنشتاين) بتمرير تيار كهربي مروع في جسد الكائن.. لقد استطاعت السينما الأمريكية أن تخلد هذا المشهد في ذهن كل من رأى فيلم (فرانكنشتاين) عام ١٩٣١، والأجزاء التي تلته، وصارت هذه هي مفردات الكلام عن (فرانكنشتاين) التي لا يمكن أن تتحدّث عنه من دونها، خاصة مع المكياج الخالد الذي يذكره الجميع للكائن، والأداء الخارق لـ (بوريس كارلوف) من تحت ذلك القناع الجامد، والمؤثرات الخاصّة الفريدة لـ (ستريكفادين)..

وهنا يحدث المشهد الذي تكرر كثيرًا في كل أفلام الرعب: الكائن لا ينهض.. من ثم يذهب الصديقان للنوم شاعرين بخيبة أمل، لكن بعد أن ينام (فرانكنشتاين) وضيفه يستيقظان قبل الفجر بقليل على المسخ، وهو يزيح الستائر ليدخل غرفة نومهما!

لقد نجحت التجربة!

يا للبشاعة!! لقد تحول مثال الجمال الذي صنعه (فرانكنشتاين) إلى عجينة قبيحة مريعة أصابه الهلع لرؤيتها.. وهنا يتصرّف تصرفًا غير عادي: يطرد المخلوق في اشمئزاز من قبحه معتبرًا التجربة فاشلة، غير مبال بحيرة الأخير وعدم فهمه لما يحدث.. هذا يذكرنا بالكلب الذي يلعب الشطرنج، وبرغم هذا لا يبدي صاحبه حماسة لأنّه هزم الكلب في أربعة أدوار من سبعة!

هنا تبدأ أحداث القصة الحقيقية.. إن المخلوق الذي لا اسم له على عكس ما هو شائع، والذي طرد من دار صانعه، يجوب الطرقات ليلًا ويغادر المدينة ليعمل لدى أسرة حطابين كريمة لا تعرف شيئًا عن سرّه.. فقط تحسبه عابر سبيل بشع الخلقة..

لكن الكائن مصمم على الانتقام من صانعه الذي تخلى عنه دون جريرة منه، وهو يعرف كيف يجد (فرانكنشتاين) وكيف يعذبه بقتل كل من يحب.. يقتل أخاه (ويليام) ويقتل عروس (فرانكنشتاين) (إليزابث)، ثم يرغمه على صنع امرأة من طرازه الذي يثير الهلع في القلوب كي يتزوجها.. لكن (فرانكنشتاين) لم يستطع ببساطة أن يصلح أخطاءه بخطأ جديد من الطراز ذاته..

لقد كان انتقام المسخ متوحشًا لا يبقى ولا يذر، وفي النهاية يتصاعد الصراع إلى ذروة مهيبة فوق ثلوج الشمال، حيث يحترق العالم والمسخ معًا.. المخترع والاختراع.. الصانع والمصنوع..

ولقد قدمت السينما العالمية ـ كما قلنا ـ القصة مرارًا، وأمكن للنقاد أن يقسموا هذه الأفلام إلى قسمين متباينين: مسخ (فرانكنشتاين) الخاص بشركة (يونيفرسال) الحزين الذي جرحت عاطفة البنوة لديه فانتقم، ومسخ (فرانكنشتاين) لشركة (هامر) الذي هو كتلة من الرعب والدمار تمشي على قدمين..

لكن كل هذه الأفلام كانت دائمًا تركن إلى منعطف طفولي بعض الشيء.. إن (فرانكنشتاين) كان بحاجة إلى مخ آدمي، وهكذا سرق مخًا من مشرحة المستشفى غير عالم أنه مخ مجنون.. هكذا تصير الأمور واضحة، ويكون لدينا مبرر صبياني سخيف لجنون الوحش، وكأن (فرانكنشتاين) لو أحسن الانتقاء لسارت الأمور كما يجب.. وهذا ببساطة يفقد القصة كل جمالها الرومانسي القاسي: الوحش صار قاسيًا لأن أباه - (فرانكنشتاين) ـ قد تخلى عنه في اشمئزاز...

الحقيقة أن أسطورة (فرانكنشتاين) هي خيال جامح أكثر من اللازم، سيئ الأدب وقح، يفترض أن الإنسان - بشيء من الجهد العلمي - يمكن أن يخلق الحياة.. هذا كاف لرفض الأسطورة طبعًا، لكنك لا تستطيع قراءة (فرانكنشتاين) دون أن تنظر إلى الظروف التي أوجدتها.. ظروف الثورة العلمية الشاملة التي افتتن بها الأدباء قبل العلماء، وصاحبت وثبات غير عادية في مجال العلوم البيولوجية بالذات: اكتشاف الجراثيم.. اكتشاف الخلية.. الموجات الكهرومغناطيسية.. الراديوم وأشعة X.. كان الإنسان منتشيًا وحسب أنه عرف الإجابة عن كل الأسئلة..

☆ ☆ ☆

أما عن كتابة القصة؛ فتلك قصة أخرى:

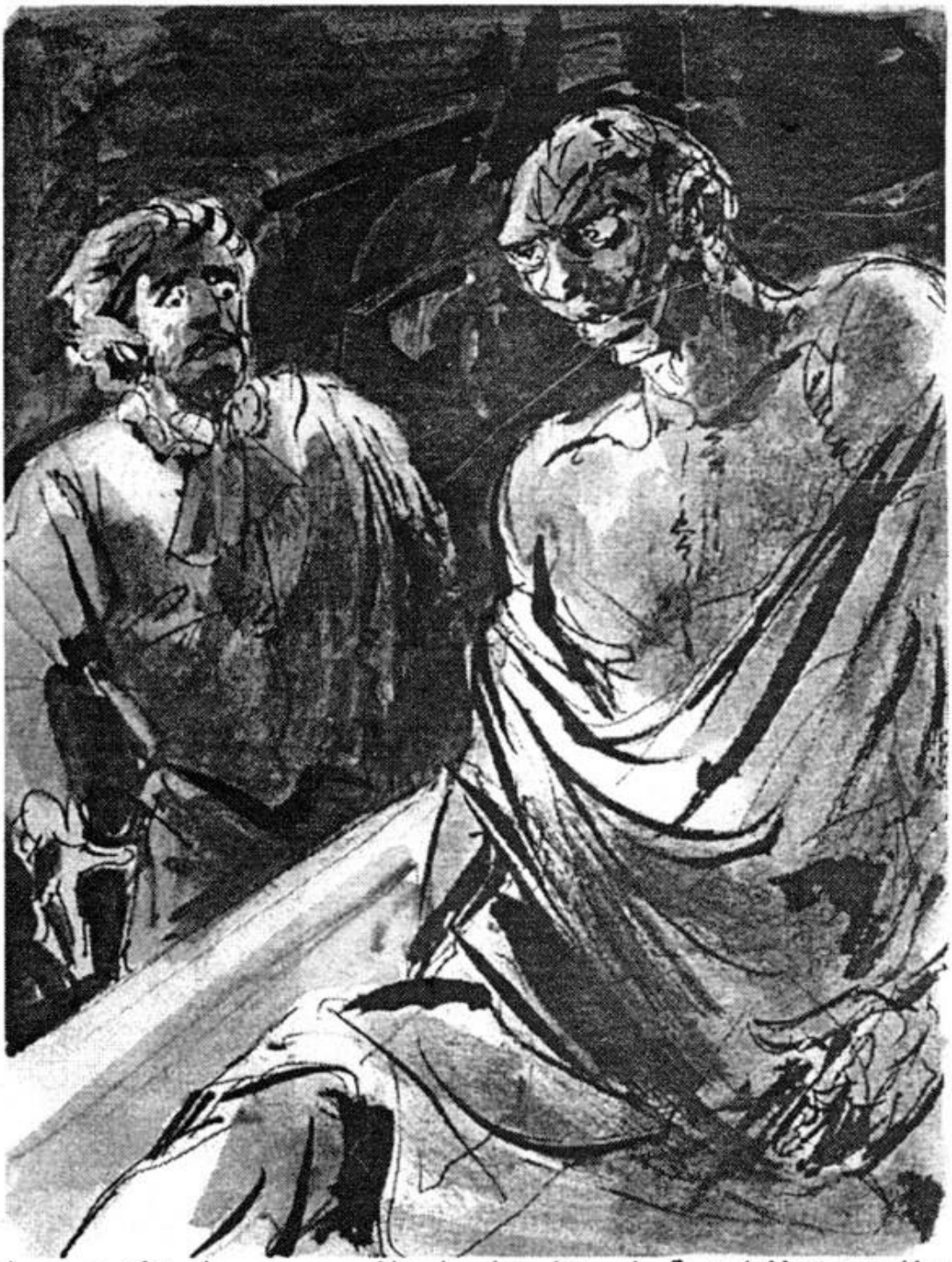
في صيف ١٨١٦ كانت (ماري شيللي) في (جنيف) بـ (سويسرا)، وكان معها زوجها (شيللي) ولورد (بيرون) الشاعر الإنجليزي الشهير غريب الأطوار.. وكانت الفيلا التي أقاموا فيها هي ذات الفيلا التي عاش فيها (ملتون) مؤلف (الفردوس المفقود).. على مرمى حجر من محل إقامة (جان جاك روسو) نفسه، وكانت (ماري) تعتبر هذا المكان مقدسًا..

كانت شديدة التأثر بـ (الفردوس المفقود) و(تحولات) (أوفيد) التي قرأتها منذ عام.. وفيها قصة (برومثيوس) في الأساطير الإغريقية الذي سرق النار وأهداها لبني الإنسان..

في عام ١٨١٦ قرأت كتاب (روسو) (إميل) ولم تنس عبارة:

- «لقد خلق الله الأشياء خيرة، لكن الإنسان عبث بها وأفسدها..»

لا بد أنّ هذا هو الجو العقلي الذي كانت فيه قبل أن تفكر في روايتها هذه، أمّا عن الجو النفسي فلسوف نعرفه بالتفصيل بعد قليل..



يا للبشاعة !! لقد تحول مثال الجمال الذى صنعه (فرانكنشتاين)
إلى عجينة قبيحة مريعة أصابه الهلع لرؤيتها . .

بدأت العطلة بداية طيبة ثم سرعان ما انقلب الجو عاصفًا كأنه النذير، وبدأت أمطار غير متوقعة، ويقال إن هذا كان بسبب ثورة بركان (تامبورا) في (إندونيسيا).. وفي ليلة رهيبة أمضى (شيللي) وزوجته الأمسية مع لورد (بيرون) وطبيبه الخاص (بوليدوري) في فيلا (ديوداتي)، وراحوا يتسلون حتى تنتهي العاصفة بمجموعة من قصص الرعب الألمانية التي تدعى (فانتازماجوريانا)، وعلى طريقة حلقات الرعب الخاصّة بنا تحدى (بيرون) الموجودين لكتابة قصة رعب فورية من وحي الجو.. وكان أهم ما كتب في تلك الأمسية هي قصة (مصاصة الدماء) لـ (بوليدوري)، وهي قصة صارت شهيرة جدًا فيما بعد.. أمّا (ماري) فلم تجد ما تكتبه، وأعلنت أنها لا تجد إلهامًا..

وبعد يومين من المحاولة سمعت الرجال يتحدثون عن محاولة العلماء لتمرير التيار الكهربي في جثة آدمية، لذا دخلت الفراش في تلك الليلة وقد بدأ الكابوس يحتشد في ذهنها..

«رأيت طالب الطب الشاحب يركع جوار الشيء الذي قام بتجميعه.. رأيت شبح رجل ممدد تبدو عليه أمارات الحياة.. هذا يفزع الطالب الذي كان يتمنى لو لم ينهض الشيء.. يفتح عينيه ليرى الشيء يقف جوار فراشه ويزيح الستائر المحيطة به..»

وفي الصباح التالي بدأت (ماري) كتابة قصتها لتنشرها في عام ١٨١٨...

يرى كثيرون أن رواية (فرانكنشتاين) تناقش ـ بعد تجريدها مما فيها من رعب - مولد طفل من دون امرأة.. يجب أن نذكر هنا أن (فرانكنشتاين) ظل يجري تجاربه تسعة أشهر.. فمعمله هو الرحم الذكري الذي حاول أن يوجد طفلًا فيه.. وتظل هذه إحدى الطرق المعروفة لقراءة الرواية، وهذا يعكس مخاوف (ماري شيللي) من الأمومة والحمل وقلقها بصدد قدرتها على الإنجاب ثانية، لقد فقدت طفلتها الأولى في أثناء نومها.. كانت قد صحت في منتصف الليل لترضعها، وحسبتها نائمة بسبب هدوئها المريب لكنّها وجدتها ميتة..

والقصة تناقش أعتى مخاوف الأبوة والأمومة: هل يقتلني طفلي في أثناء ولادته؟ وماذا لو ولد طفلي مشوهًا؟ هل سأظل أحبه؟

ربما كان الطفل في الرواية - المسخ - يرمز للعمل الأدبي... إن من قرأ سوناتات (شكسبير) يعرف كيف يُقارن العمل الكتابي بالطفل في محاولة الإنسان اليائسة للبحث عن الخلود... كلاهما نوع من تخليد الذكر..

☆ ☆ ☆

كانت (ماري شيللي) عبقرية، وقد تركت لنا تراثًا هائلًا من الرعب الذي لم يسبقها أحد إليه.. لكن الأسطورة التي قدمتها ذات حساسية خاصة تجعلها ذات مذاق مرير في الفم..

كانت (ماري شيللي) عبقرية، مثل بطلها (فرانكنشتاين)، وكان المسخ تعس الحظ، فما دوري أنا في كل هذا؟

☆ ☆ ☆

٢ - أوراق منسية

هل حقًّا لم أحك لكم قصتي مع الدكتور (بيتر فرانكنشتاين)؟

غريب هذا! إن شرود الذهن قد يؤدي لأغرب النتائج، لكني لم أحسب أن الأمور قد تصل لهذا السوء..

هل تتشككون في وقائع تلك القصة؟ هل تسخرون مني؟ لا تنكروا هذا ولا تتهموني بالبارانويا.. أنا أعرف كما تعرفون أسلوب الشباب في السخرية، والنظرات التحتية والتعليقات الخفيضة التي لا يمكن تبين مصدرها.. أسلوب المشاغبين في المدارس، حين ينهمك مدرس الجغرافيا في رسم خارطة (الصين) على لوح الكتابة ويعطيكم ظهره.. حسن! لو كنتم تتشككون فها هي ذي الأوراق كلها أمامكم.. الوقائع كاملة، وجوارها بعض ملحوظات كتبتها بخط اليد...

أنا لم أكذب عليكم قط.. ولماذا أكذب؟ لقد ازددت شيخوخة وحكمة ومللًا، وزهدت اللذات البسيطة التي نعرفها جميعًا.. لم أعد راغبًا في أن أخترع الأحداث لأثير شغف أحد.. ولو أثارت الأحداث التالية اهتمامكم فاعلموا أنها أحداث حقيقيّة تمامًا لا فضل لي فيها.. ها هي ذي الأوراق.. ها هو ذا الجمل والجمال كما يقولون..

هذه الخارطة؟ إنها خارطة (سويسرا) يا شباب.. لا توجد دول كثيرة تحدها ألمانيا وفرنسا شمالًا، وإيطاليا جنوبًا، وفرنسا غربًا، والنمسا شرقًا.. لو لم تكن هذه خارطة (سويسرا) لكان علم الجغرافيا في وضع مقلق بعض الشيء..

تعرفون أنني زرت (سويسرا) من قبل في مغامرة كانت من قبيل الهلاوس، وقد جلبت علينا عاصفة من الحنق لم تنته بعد.. هذه القصة هي (أسطورة الغرباء)..

اليوم أعود إلى هناك، ولكن كونوا مطمئنين.. ليس من الضروري أن تكون كل القصص التي تقع في (سويسرا) سخيفة أو مخيبة للآمال.. من يدري؟ لربما حدثت هذه القصة المثيرة أو تلك.. سأقدم لكم اليوم قصة مسلية إلى حدٍ ما برغم أن أحداثها دارت في (سويسرا)..

بدأت القصة في صيف عام ١٩٧٢، وكنت مدعوًا إلى أحد مؤتمرات منظمة الصحة العالمية.. كانت لي ورقة بحثية متوسطة القيمة تمت الموافقة عليها برغم أنني لم أتوقع ذلك.. أحيانًا قد يعجب هؤلاء القوم بمواضيع تافهة أو سخيفة.. وهكذا حزمت حقائبي وخيامي وانطلقت إلى هناك.. وكالعادة كان لقائي مع الأستاذ العظيم (فردريك شوندر) الذي لا أعرف سواه في (سويسرا) كلها..

هل تذكرون الرجل؟ لن أضيع الوقت في وصفه.. إنه يبدو كأستاذ سويسري في مشتقات الدم.. له كل مزاياهم وعيوبهم.. هل رأيتم واحدًا من قبل؟ هذا سيجعل المهمة أسهل بالنسبة لي..

التقينا في (جنيف).. وكانت لنا في كواليس المؤتمر مناقشات عن كل شيء، فالرجل واسع العلم له إلمام كبير بالثقافة الإنسانية، كما أنه يعرف الكثير عن الإسلام، وهناك بالمناسبة عدد لا بأس به من المسلمين في (سويسرا)؛ وإن كانت الديانة الأكثر انتشارًا هي ديانة الرومان الكاثوليك.. لا ليست البروتستانتية كما يحسب البعض...

قال لي (شوندر) في معرض حديثنا عن مغامراتي السابقة:
- «أنا قد كففت من الزمن عن الاعتقاد بوجود قوى لا نراها.. لقد علمنا الأقدمون أن الحقيقة العلمية يجب أن تكون قابلة للقياس والتفسير والتكرار..»
ابتسمت في أدب، وقلت:
- «.. وهو تلميح رقيق إلى أنني - عدم المؤاخذة - نصاب في كل ما حكيت!»
قال بتهذيب مماثل:
- «أو مخدوع.. ربما أنت ضحية لمن هو أذكى وأحوط.. كثيرون حضروا جلسات تحضير أرواح وخرجوا منها ليقسموا أن الأمر كان حقيقيًا، وبعد هذا يدركون أنهم كانوا مخدوعين..»
- «وهو تلميح رقيق إلى أنني أحمق في كل ما حكيت!»
- «لا بد من أن يُتهم المرء بشيء في حياته مادام متفاعلًا مع العالم الخارجي.. والأحمق أدنى إلى الشرف من النصاب على كل حال!»
هنا جاءت سكرتيرته الحسناء (مارتا) التي لم أنس لها محاولة خداعى كي أنضم إلى الغرباء، حتى لو كان هذا في كابوس.. هل تذكرون (مارتا) ذات الجمال الآري لكنه ليس آريًا إلى حد السماجة؟
قالت (مارتا) وهي تتفحص مفكرتها، ولوح كتابة من الذي يتم تثبيت مشبك في أعلاه:
- «ليس لديك مواعيد أخرى اليوم يا هر (شوندر).. لقد انتهى ما هو مطلوب منك نحو المؤتمر.. هل ترغب في قضاء بقية اليوم في إجازة؟»
هزّ رأسه في رضا كما يفعل أي أستاذ سويسري في مشتقات الدم تخبره سكرتيرته أن جدوله اليومي خال، وقال لي:
- «سأدعوك إلى العشاء يا (رفعت).. هناك بعض أمور في حديثنا لم ننته منها بعد..»
وكما يفعل أي شخص آخر يدعوه أستاذ سويسري في مشتقات الدم؛ قبلت الدعوة، وكانت (مارتا) معنا كالعادة.. لقد اعتدت هذا هنا.. السكرتيرة أحيانًا ليست لها حياة خاصة، بل هي ترافق رئيسها في كل مكان وتنسق كل مواعيده وتكتب كل ما يقول كأنه إلهام علوي.. ولهذا ثمنه طبعًا.. أمّا عن أسرة الأستاذ فكانت في (بازل) كما لا بد أنكم تعرفون..
كان اسم المطعم مخيفًا به ذلك العدد من الشينات والخاءات الشبيهة بنجوم الجودة السياحية، ومن الداخل كان فاخرًا من الطراز الذي يشعرك بتضاؤل حقيقي.. سادة شديدو الرقي من طراز رجال العصابات والمختلسين والأفاقين، جاءوا من أطراف المعمورة كي يطمئنوا على أن الحكومة السويسرية لم تستول على أرصدتهم بعد.. البعض عاطل بالوراثة والبعض كافح حتى صار عاطلًا.. للأسف أنا لم أسرق مصرفًا أو أكون ثروة من المخدرات أو إرث عمي الدوق، تعرفون... لهذا أبدو غريبًا هنا ولا أحب الجو كثيرًا.. لكن الجو بدوره لا يحبني كما هو واضح..
بعد الانتهاء من الوجبة التي يصر هو على أنها حافلة (في الواقع لا أجد في أكل المطاعم مهما كانت راقية ذلك الشعور اللذيذ بالشبع، والإحساس بالـ (بركة).. هذا الشعور لم يفارقني سواء في مطاعم باب الشعرية أو في مطاعم جنيف هذه).. بعد الانتهاء من الوجبة أشعل سيجارًا غليظًا في استمتاع، واسترخى في مقعده، وقال:
- «كنا نتكلم عن الحقائق والأباطيل..»
قلت في ملل شأن من لا يرغب في الجدل:

- «سيدي... كل ما تعلمته عبر هذه الأعوام هو: لا توجد قواعد ثابتة.. التجريب هو المقياس الوحيد لي.. قل لي إن (مارتا) تخرج النار من أذنيها في الليالي القمرية.. لا مشكلة عندي.. فلا توجد لديَّ قناعات أو تحيزات مسبقة.. دعنا نر ما سيحدث لها في ليلة قمرية.. دعنا نقسه جيدًا ونسجله ونفتش عن تفسير علمي له..

«البديهيات تقول إن هذا لن يحدث.. البديهيات تقول إن النار لا تخرج من آذان الناس.. لكني أطالبك بالانتظار حتى نرى.. من يدري؟ لا مانع من هذا ما دام إخراج النار من الأذنين لا يخالف ما هو متعارف عليه دينيًا وخلقيًا..»

قال لي بعدما نفث سحابة دخان مخيفة في وجهي:

- «هل أنت مستعد مثلًا لقبول ما يقوله (بيتر فرانكنشتاين)؟»

☆ ☆ ☆

٣ - هذا الرجل يزعم..

كنا قد اعتدنا وجود (بيتر فرانكنشتاين) فلم يعد اسمه يثير دهشتنا.. الطبيب الألماني الشرقي الشاب الذي يحمل اسمًا غريبًا حقًّا لكنهم لم يندهشوا له هنا، ووجدت أنه من السخف أو قلة الذوق أن ألاحظ هذا وحدي.. إن اسم (فرانكنشتاين) ليس فريدًا ولم تخترعه (ماري شيللي) طبعًا.. لقد كانت هناك قلعة شهيرة بهذا الاسم في ألمانيا في القرون الوسطى، عاش فيها كيميائي غريب الأطوار.. ويزعم الأخ (بيتر فرانكنشتاين) أنه من نسل هذا الكيميائي..

كان (بيتر فرانكنشتاين) جراحًا بارعًا في السابق، ثم تخصص - كما يبدو - في البيولوجيا الجزيئية، ومعظم ما يقول ألغاز لا يمكن فهمها أو تصديقها..

كان من المدعوين إلى المؤتمر، وقد لفت نظري من البداية بمظهره الغريب.. له شعر (أينشتاين) الأشعث وعيناه الحنونان المندهشتان... العينان اللتان سرقهما (كارلو رامبالدي)[2] بعد أعوام ليجعلهما عيني (إي تي) المخلوق الفضائي الشهير اللطيف.. كان (فرانكنشتاين) مشعثًا مشوش الثياب، لا يكف عن الشرود وارتكاب الأخطاء الفادحة، وكان هذا يعطية فتنة خاصة مما يليق بالعلماء..

حاولت تعرفه مرارًا لكنه كان من النوع ذي العقل البخاري الذي لا يستقر أبدًا، ولا يلاحظ شيئًا.. عبقريته جعلته أقرب إلى المجاذيب، ولولا الحياء لراح اللعاب يسيل من شدقيه وهو يجول في أروقة المؤتمر..

أذكر الورقة التي قدمها جيدًا.. فقد فعل ذلك في يوم ثلاثاء.. كنا في الساعات الناعسة التي تسبق العشاء، حيث بلغ من الإرهاق مبلغه ولم نعد نطيق سماع حرف عن العلم..

في هذه اللحظة يظهر الأخ (فرانكنشتاين) بشكله الغريب واسمه الأغرب، ونظرياته الأشد غرابة.. يظهر ليقدم ورقة علمية اسمها (إعادة الحياة إلى الخلايا المكونة للدم باستخدام ليزر الـ ND:Yag).. ولم نكن وقتها نعرف شيئًا عن الليزر.. كنا نعرف أنه معجزة لكن إلى أي حد بالضبط؟ وهكذا بدأنا نتحمس ونسينا أننا لم نعد نطيق حرفًا آخر..

ظهر على المنصة، وأسقط مجموعة أوراقه فانحنى يجمعها فقط ليضرب سكرتيرة المؤتمر برأسه في ذقنها، والخلاصة أنه كان أدنى إلى (الدهولة) - معذرة للتعبير - مما جعله قريبًا بحق إلى قلبي، ووجدت بيننا سمات مشتركة لا بأس بها.. بالطبع كانت شرائحه الضوئية مرتبة بشكل خطأ، ولم يكن معه مؤشر، أمّا عن حالة منديله الذي أخرجه ليجفف عرقه فأجارك الله!

إن العلماء يحبون أن يظهروا بمظهر رهبان العلم الشاردين.. حتى الفلاسفة يعانون من هذا الولع، وقد حكى المخرج (محمد كريم) عن شرود فيلسوفنا (توفيق الحكيم) وكيف أنه ليس خالصًا تمامًا، بل فيه جزء لا بأس به من التظاهر، حبًّا في وصف (الفيلسوف الشارد).. وكان هذا الشرود الفلسفي يتلاشي دومًا حين تدخل أول فتاة جميلة القاعة..

لكن (فرانكنشتاين) كان شاردًا بحق.. لا تظاهر في الأمر.. وحين بدأ يتكلم راحت عيناه تلتمعان في جنون وراح اللعاب يتطاير من شدقيه، وأضفت لهجته الألمانية تأثيرًا ممتعًا كالعلماء المجانين الذين تراهم في القصص المصورة..

تكلم عن تجربة غريبة قام بها على الخلايا المكونة للدم التي قتلها باستخدام جرعات عالية من خردل النتروجين، وبعد فترة لا بأس بها قام بتعريضها لجرعات من أشعة الليزر، وقد بدأت علامات الحياة تظهر على تلك الخلايا، واستعادت معدلاتها في التمثيل الحيوي، وعضيات الخلية..

وكان مع الرجل عدد لا بأس به من الصور الفوتوغرافية التي التقطت تحت المجهر.. طبعًا يستحيل إثبات صدقه من كذبه لأن ترتيب الصور هو المفتاح الوحيد هنا.. ضع صورة الخلية الميتة بعد صورة الخلية الحية تكن عندك قصة منطقية.. ضع صورة الخلية الحية بعد صورة الخلية الميتة تكن عندك أسطورة.. من يملك الترتيب الصحيح ومن يملك إثبات هذا الكلام؟ لا أحد.. لا بد من لجنة تراقب هذه التجارب عن كثب وتضع الصور المرقمة المؤرخة في حوزتها.. عدا هذا لا إثبات هنالك..

لكن العلماء الجالسين لم يرحموه، وكان منهم عدد لا بأس به من منحرفي المزاج الذين أرهقهم الصداع وسماع كل ما قيل اليوم، وكان منهم الكاثوليكي الذي لا يقبل مجرد سماع هذه الترهات، لذا جعلوا منه فريسة سهلة لهم.. بالنسبة لي لم أجد مشكلة في الأمر.. فالرجل نصاب أولًا.. هذه نقطة.. النقطة الثانية هي أن كل ما يحدث من تغيرات يحدث لخلية خلقها الله (تعالى).. الرجل لم يزعم - لا سمح الله - أنه خلق الخلية أو أنه خلق حياتها.. الرجل يعمل على اشياء موجودة بالفعل، وتوقفت عن التمثيل الحيوي لفترة قصيرة وبشكل مؤقت..

هنا قال (فرانكنشتاين) في حماس ويده تهتز انفعالًا:

- «ليس هذا مستحيل التخيل يا سادة! إن الأمر شبيه بما نقوم به حين تتعطل الساعة وكل أجزائها سليمة، من ثم نهزها مرّتين فتعود إلى الدوران.. اليد العملاقة التي ستهز هذه الخلية هنا هي الليزر!»

هنا شعرت برجفة في عروقي.. هذه الكلمات قالها (فرانكنشتاين) بالحرف تقريبًا في قصة (ماري شيللي) التي تحمل اسمه.. هذا الرجل يحسب نفسه (فكتور فرانكنشتاين).. هذه حالة فصام واضحة لا شك فيها.. أقسم على هذا...

تصاعدت صيحات الاستنكار، وتذكرت أيام الماضي المباركة حين كان العلماء المعارضون يصيحون (هوووه! هرطيييييق!) ويضربون بقبضاتهم على المناضد ويبصقون على (فرويد) أو (داروين).. اليوم لم يعد أحد يجرؤ على هذا.. لابد من تمالك الأعصاب والتعامل بشكل متحضر للأسف..

في غيظ صاح (فرانكنشتاين) وهو يضرب المنضدة بدلًا منهم:

- «أنتم مجموعة من ضيقي التفكير تتظاهرون بأنكم لستم كذلك! قولوا لي فارقًا واحدًا بينكم وبين من سخروا من (باستير) حين تكلّم عن وجود البكتريا، أو من اتهموا (كوبرنيكوس) بالهرطقة..»

لم تتحسن الأمور كثيرًا بكلمته هذه، وقال أحدهم:

- «قل لنا أنت فارقًا واحدًا بينك وبين (نوستراديموس) أو (ميسمر) أو كل العباقرة الذين أحالوا الرصاص إلى ذهب!»

- «لا أخفي أنني أمقت بطريقتكم التفكير..»

- «ولا نخفي أننا لا نثق بطريقتك العلمية..»

هنا نهض الدكتور (شوندر) وهو كما نعرف يتمتع بشخصية قوية تهوى التدخل في كل شيء، وقال بعد ما دنا من مكبر الصوت:

- «لست ميالًا إلى تصديق الأشياء المماثلة؛ لكني أرى أن هذا الموضوع جد خطير وشديد الحساسية، ويدفعني هذا دفعًا إلى طلب إثبات أن الصور الفوتوغرافية هي أرقى وسيلة خداع اخترعها الإنسان، وأراها لا تثبت شيئًا في هذه الحالة بالذات أكثر من الكلام الشفوي.. لذا أقترح أن يرشح لنا البروفسور (فرانكنشتاين) من يتابع أبحاثه ويقيمها بشكل حيادي!»

هنا قال أحد الجالسين العصبيين دومًا:

- «ليس عليه أن يختار بل نختار نحن.. حتى الحواة لا يختارون بأنفسهم المشاهدين الذين يشاركونهم الألعاب..»

قال (شوندر) وهو يفتش بين الجالسين في شغف:



وكان مع الرجل عدد لا بأس، به من الصور الفوتوغرافية التى التقطت تحت المجهر . .

- «لو سمحتم لي فأنا أرشح زميلًا كان له اهتمام كبير بهذه الأمور، وأحسبه ما زال مهتمًا.. ها هو ذا! الدكتور (إسماعيل رفعت)!»

تصاعدت همهمات وضجيج، وراح الجميع ينظرون إلى مكان جلوسي في كراهية لم أدر لها سببًا، كأنني بالفعل برهنت على أنهم مخطئون...

أما أنا فشعرت أن الدم سينزف من خدي من فرط الخجل والارتباك.. مالي أنا وهذا الموضوع؟ من أنا حتى أكلف بمراقبة أبحاث عالم له ثقله كهذا؟ على أن أشد ما ضايقني هو أن اسمي صار مقترنًا بالخرافة دومًا.. ضع في أي مكان نصابًا يزعم أن روح خالته تقمصت المكواة الكهربية، عندها يتصايح الناس في ذكاء: (رفعت إسماعيل)! إنّه يفهم في هذه الأمور! هاتوه حالًا! حتى كأنني صنف من الحواة..

رفعت كفي بمعنى أنني لا أجد نفسي راغبًا في..... وهي إيماءة واهنة ضعيفة الشخصية قد تعني في الوقت ذاته (أنني فخور يا سادة بهذا الشرف).. فقال (شوندر) في مرح:

- «هذا ما كنت أتوقعها نحن نشكرك يا دكتور (إسماعيل) وننتظر تقريرك في شغف!»

لم أقاوم أكثر، وكالعادة كانت هذه بداية مشاكلي..

☆ ☆ ☆

قلت للدكتور (شوندر). وأنا أمسح فمي بالمنشفة (وأرجو ألا تكون هذه فضيحة في هذا المكان):

- «بالطبع أنا مستعد لقبول تجربة ما يقول الرجل.. أعرف أنني سأعود لأعلن أنه كاذب، لكني بالتأكيد لن أقول هذا قبل أن أجرب.. أنا أضمن لك هذا..»

- «في هذا مضيعة للوقت.. لا بد من بعض الانتقاء...»

ثم قال وهو ينظر إلى ما وراء كتفي:

- «صه! هاهو ذا العصفور قادم باتجاهنا.. أعتقد أنني سأجري التعارف الآن، فلا أظن أن الرجل لاحظ وجودك في أثناء المؤتمر..»

لم يكن هذا غريبًا، فالرجل لا يبدو قادرًا على ملاحظة خرتيت في غرفة نومه لو كان هذا ممكنًا.. وأنا بطبعي نمط فريد من البشر يستحيل أن تقتحمه العين أو تمر به مر الكرام.. إن من رآني يذكرني حتى هذه اللحظة باعتباري حالة متفردة من القبح والنحول واعتلال الصحة.. لكن (بيتر فرانكنشتاين) لم يرني قط..

ناداه دكتور (شوندر) ست مرات حتى انتبه، وبالتالي أطار صحفة عليها المشروبات يحملها نادل إلى إحدى الموائد، وأسقط بكوعه سيدة متأنقة كأنه يلعب المصارعة التايلاندية، ثم تعثر في رباط حذائه فطار إلى مائدتنا ليسقط في حجري بالذات..

معجزة المعجزات أن يظل هذا الرجل حيًا حتى السن التي بلغها..

وكان التعارف سهلًا بالطبع.. ليس أسهل من تعارف رجلين أحدهما في حجر الآخر.. وقال (شوندر) وهو يمسح ما تساقط على سترة الرجل من فضلات طعام وشراب، ويعينه على الجلوس:

- «أرجو أن تسمح للدكتور (إسماعيل) بمعرفة الكيفية التي سيتواجد فيها معك في أثناء تجاربك..»

كان هذا مستفزًا طبعًا ومهينًا.. ولو كنت مكانه لأبيت أن أقبل من يفتش عليَّ وعلى دقة تجاربي.. هذا أسلوب يضعه مباشرة في الميزان.. لكن الرجل كان أكثر حماسًا من أن يغضب أو يضع

اعتبارات للكرامة الشخصية.. كان واثقًا من نفسه أكثر من اللازم حتى بدت له تفاهاتنا كإهانات الأطفال... من النضج ألا نمتعض منها...

قال (فرانكنشتاين) وهو يملأ فاه بكبد الأوز:

- «مم!! أنا واثق من نفسي لهذا أقبل بالتأكيد قدوم هذا الرجل ليعد على أنفاسي.. مممم!»

وقبل أن أحتج على هذا قال موجهًا الكلام لي:

- «إن لديَّ كوخًا ريفيًا قرب (لوسيرن)، وهو معدّ جيدًا لتجاربي، ولا أرى ما يمنع من أن تقبل ضيافتي إلى هناك..»

كوخ ريفي معد لإجراء تجارب البيولوجيا الجزيئية؟ هذا الرجل يمزح.. أعرف أنني أبدو أحمق لكن ليس إلى هذا الحد.. سألته وأنا أضغط على أعصابي:

- «ظننتك ألمانيًا، فما دور (سويسرا) في الموضوع؟»

- «إنني أعمل هنا من فترة لا بأس بها، فجو ألمانيا الشرقية لا يناسبني.. إن الشيوعية لم تخلق لي.. والمشكلة هنا هي أن الجميع يهاجمني: الغربيون يزعمون أنني مبشر ماركسي، والماركسيون يعتبرونني مارقًا عميلًا للغرب..»

ونظر حوله في حذر وهمس:

- «إنهم يعدون عليَّ أنفاسي.. لكني مُحتَمٍ بالحكومة السويسرية وحرية البحث العلمي.. ولسوف تجد أن تجاربي مثيرة حقًّا يا بروفسور (مكسويل)»

- «(إسماعيل)!»

قلتها في ضيق.. لكنه واصل كلامه:

- «ماذا تعرف عن الليزر؟»

- «لا أعرف عنه شيئًا.. أعرف عنه بالضبط ما تعرفه خالتي عن وقود الصواريخ!»

اتسعت عيناه انبهارًا وهتف:

- «خالتك خبيرة في وقود الصواريخ؟ يا للتقدم العلمي في بلدك!»

شعرت باستمتاع حقيقي، وقلت لنفسي إن أيامي مع هذا الأحمق هي خبرة لا تنسى.. متعة حقيقيّة المفترض أن أدفع من أجلها مالًا.. وواصلت سماع ما يقول في تلذذ..

رحت أدير المعلومات التي قالها في رأسي.. طبعًا لم أتذكرها وقتها ولم ترسخ في ذهني إلا بعد أعوام حين قرأت عن الليزر أكثر من هذا، واستطعت أن أفهم ما كان يقوله وقتها، وفي حيرة سألته:

- «هل تفهم في هذه الأمور حقًّا؟ لا بد من خبير فيزياء معك في هذا العمل بالغ التعقيد..»

ابتسم في ثقة، وابتلع ما بكأسه ثم وضعه على المائدة فأوقع ملعقتين على الأرض، وقال:

- «بالطبع لست وحدي.. مع أختي (أجاثا فرانكنشتاين) وهي خبيرة في فيزياء الضوء..»

قلت لنفسي وأنا اتبادل نظرة صامتة مع د. (شوندر): مرحبًا بك يا (رفعت) في أسرة المخابيل هذه.. كلهم (فرانكنشتاين) وكلهم يعمل في أشياء غريبة جديرة بأسمائهم الرهيبة..

قال لي (فرانكنشتاين) وقد عاد إلى شروده:

- «يمكننا الرحيل بعد غد، فقد انتهى ما كان يثير شغفي في المؤتمر.. ما بقي هو هراء..»

ونظرت إلى (شوندر) فابتسم لي بمعنى أنّ هذا قدري وعليَّ أن أقبله، على أنه قال لي بعد ما انصرف الأستاذ المخبول:

- «خذ كل حذر، فهذا الرجل مولع بإثارة دهشة من حوله، ولا أزعم أنه كاذب، لكنه سريع الوثب إلى الاستنتاجات، غير دقيق في طريقته العلمية.. سيخوض في مناطق صعبة نوعًا..»

قلت له ما معناه أنني كبرت الآن ولم يعد من السهل خداعى، ثم اتجهت إلى موظف الاستقبال لأطلب منه - بالانجليزية طبعًا - أن ينهي حجزي بالفندق لأني متوجه إلى (لوسيرن) بعد غد: لأكون مع البروفسور (فرانكنشتاين) العظيم.. قال لي الموظف باسمًا:

- «هل تتحدّث عن البروفسور المجنون منكوش الشعر الشبيه بعلماء القصص المصورة؟ هذا الرجل قد ورث من اسمه شيئًا.. ولو كنت مكانك لحاذرت منه يا سيدي!»

أثارت دهشتي طريقته الوقحة قليلًا في الكلام عن الرجل، خاصة والبروفسور ليس بيننا، وليس من عادة موظفي الفنادق أن يسخروا علانية من النزلاء خاصة في فندق مهيب كهذا..

قال وقد تبين حيرتي:

- «لقد سألني منذ يومين عن مقبرة أو مشرحة قريبة! ليس هذا سؤالًا معتادًا ولا مُحببًا هنا.. خاصة لو رأيت اللهفة في عينيه وهو يسألني..»

- «الأذواق تتباين كما تعلم.. أنا عن نفسي مولع بمدابغ الجلود، ولا أدري سبب هذا الولع العجيب.. صدقني!»

تبدل وجهه فضحكت لأظهر له أنني أمزح، ثم هززت رأسي وابتعدت...

حقًّا لن يكون (فرانكنشتاين) سهل المعاشرة..

☆ ☆ ☆

٤. في (لوسيرن)..

(لوسيرن).. المزار السياحي الكبير في (سويسرا)..

هل تريد أن تعرف عنها شيئًا؟ أنا مثلك لا أحب الجغرافيا وأجدها علمًا شديد الإملال، لكني لا أنكر لحظة أهميتها، ولو لم تكن الجغرافيا لاضطر الناس إلى اختراعها..

(لوسيرن) مدينة في وسط (سويسرا) حيث يلتقي نهر كبير مع بحيرة تدعى (لوسيرن)، وقد تبلورت المدينة حول دير بُني في القرن الثامن.. والمدينة مركز صناعي كبير للمنسوجات والكيماويات ومركز تجارة ضخم منذ إنشائها.. وقد اشتهرت بالحديقة الزجاجيّة؛ وهي من بقايا عصر الجليد، وأسد (لوسيرن) الذي نحته من الحجر نحات دنماركي... وهو تخليد للحارس السويسري الذي مات وهو يدافع عن قصر (التويلري) في أثناء الثورة الفرنسية..

وصلت إلى هناك مع الدكتور المجنون (فرانكنشتاين) الذي لا بد أنكم تعرفونه الآن بشكل أفضل.. لم يكن رجلًا سيئًا بالواقع.. ليس من الضروري أن تكون مجنونًا لتكون سيئًا.. كان مسليًا طيب القلب، ولو تجاوزنا عن الحرج الذي يسببه لي من حين لآخر، وشروده المحير الغريب؛ لقلنا إنّه لم يكن بهذا السوء..

وفي سرّي قلت لنفسي: رحمك الله يا أمي.. كيف لو عرفت أنني الآن في سويسرا أتنزه مع البروفسور (فرانكنشتاين) شخصيًا! ولكن لا.. ما كانت أمي لتندهش لأنهّا لم تسمع عن (فرانكنشتاين) أصلًا، ولا تعرف أية دلالات مخيفة للاسم.. في الغالب ستقول لو عرفت: فليكرمك الله يا بني أنت وكل هؤلاء الأطباء الخيرين من أمثالك!

ولم تطل إقامتنا بالمدينة الجميلة أكثر من يومين، لأننا انتقلنا بعد هذا إلى منزل (فرانكنشتاين) الريفي الذي يبعد بضعة أميال عن (لوسيرن).. لكنه يطل على بحيرة (لوسيرن) ذاتها، والمشهد في الحقيقة جميل، يذكرك بتلك البطاقات التي يرسلها المسافرون بالخارج لإغاظة أقاربهم الذين لم يروا أبعد من (الدلنجات).. وخطر لي أن مكانًا بهذا السحر هو مكان خال من الرعب في الغالب.. لا بد أنني لن أجد الظروف المناسبة لممارسة هوايتي المفضلة..

كان البيت عبارة عن فيلا من طابقين، تمتد المساحة لا بأس بها، وتحيط بها حديقة معتني بها.. وتوجد درجات حجرية هابطة تقود إلى طريق مرصوف بحجارة الإسكافي، وهذا الطريق يمتد حتى يصل إلى البحيرة وإلى قارب بمجدافين مربوط إلى مرسى صغير..

وحين تقف عند المرسى وترفع عينيك لأعلى، تجد أن المنزل يقع عند أطراف غابة لها طابع قصص الأطفال الأوربية تمامًا، فلن يدهشك أن تجد ذات الرداء الأحمر تخرج فجأة حاملة سلتها، أو ترى الدببة الثلاثة تمرح حتى تبرد أطباق الحلوى الخاصّة بها، أو لربما وجدت الأخوين (جريم) اللذين قاما بتأليف أكثر هذه القصص يبحثان عن إلهام جديد...

كان هناك خادم عجوز مهذب راح يساعدنا في إنزال الحقائب من العربة، وبطبيعة الحال كان يتحدث الألمانية، وأنا لا أفهم منها إلا ثلاث كلمات في كل جملة.. إن الألمانية هي لغة ستين في

المائة من السويسريين، ولها هنا اشتقاق خاص غريب على المسمع يسموّنه (الألمانية السويسرية) أو الشفيتزرتوتش Schwyzertutsch..

المهم أنني عرفت أن اسم الخادم هو (أدولف) - ليس (هتلر) طبعًا - وكان من طراز راق، لا يبدو أنه قاتل أو يخنق الضيوف ليلًا ككل خدم القصص.. هذه نقطة مهمّة تروق لي..

أما من جاء بعد هذا فأرق شيء رأيته في حياتي.. لاحظ أنني لم أقل أجمل بل قلت أرق.. هناك فارق واضح بين اللفظتين.. بالطبع ما كان أحد ليجرؤ على اتهام (أجاثا فرانكنشتاين) خبيرة فيزياء الضوء بالجمال.. لكن ما من أحد يجرؤ على إنكار أنها هشة بلورية قابلة للكسر، وكنت ترى تحت بشرتها تلك الأوردة الزرقاء الرهيفة تتلوى بحثًا عن خلاص..

حقًّا كان لها ذلك الطابع القوطي أو الفكتوري - لا أدري بالضبط - للنساء في قصص الرعب القديمة، حيث كلهن هشات رقيقات مبهوتات باهتات، وحيث لديهن جميعًا استعداد دائم للإغماء في أية لحظة.. سرعان ما يهوين أرضًا كالورود الذابلة ويمتن!

عانقت أخاها المجنون في شوق.. قال لها بالألمانية وهو يحك شعره كالقرود في الجبلاية:

- «هذا الرجل جاء لمراقبة أبحاثي والبرهنة على أنني نصاب.. إنِّه لا يجيد الألمانية لكنه يفهمها جيدًا.. خذي الحذر حين تتكلمين أمامه، وبالمناسبة اسمه هو....»

ثم تصلب لحظة وقد أدرك أنه نسي اسمي بعد كل هذه الأيام لنا معًا، فقلت رحمة به وأنا أصافحها في تأدب:

- «(رفعت إسماعيل).. مصري الجنسيّة.. لا تتضايقي بشأن اللغة المختارة لي، فأنا أفهم ما يُقال بأية لغة حتى لغة (الهوتو)، لكني بالتأكيد أفضل الإنجليزية!»

هزت رأسها في فهم، ثم سقطت - كما توقعت بالضبط - فاقدة الوعي!

☆ ☆ ☆

أقسم لكم إن هذا ما حدث.. لا مزاح في الأمر..

لقد غابت الفتاة عن الوعي بلا سبب، ولمجرد أنها صافحتني.. يبدو أنني ساحر أكثر مما حسبت عن نفسي..

إلا أن (فرانكنشتاين) بدا مذعورًا بحق، وجثا على ركبتيه جوارها يفرك كفيها ويرتجف، وبعصبية صاح:

- ساعدني يا دكتور (رفعت)! أرجوك.. ألست طبيبًا؟»

- «يا سلام! كنت أظنك طبيبًا أنت الآخر!»

- «نعم.. نعم.. كدت أنسى.. لكنه ضعيف.. قلبها.. لم يتحمل كل هذه الانفعالات..»

- «أية انفعالات؟! يا لكما من أحمقين! نحن لم نتبادل ثلاث كلمات!»

صاح في عصبية حقيقيّة هذه المرّة، وقد غطى شعره عينيه:

- «إما أن تساعدني أو تصمت!»

وكان الخادم قد أحضر بعض ماء في كأس، فصب فيه قطرات من قارورة صغيرة في جيبه، ثم ساعد (فرانكنشتاين) على أن يدنيه من شفتى الشابة المريضة، فبدأت ترشفه في شيء من حذر، ثم أفرغت الكأس كله.. وبدأ لون شفتيها يستعيد اصفراره السابق الدال على الصحة..

ساعدناها على دخول المنزل، وأجلسناها على أريكة تشبه الفراش، مما ساعدها على أن تسترخي تمامًا، ورحت أراقب ما يجري في حيرة.. إما إنها مخبولة أو مصابة بمرض عضال في المخ أو القلب.. لكني لم أمنع نفسي من ملاحظة أنها ازدادت جمالًا بهذا الوهن.. حقًّا لقد خلق هذا الجمال الفكتوري كي يكون مريضًا دومًا.. ولسوف تكون في أجمل صورها حين ترتدي قناع الموت..

سألتها وقد جلست على أقرب مقعد:

- «ألم يصف طبيب محترم مرضك هذا باسم لاتيني؟»

- «بلى..» - قالتها وهي تمسح وجهها بظهر كفها النحيلة - «إنِّه الصرع يا سيدي.. صرع بلا تشنجات ولا رغاو على الشفتين.. لكنه...»

ولعقت شفتيها لتزيل القشور الجافة على جانبي فمها:

- «.. لكنه يؤدي الغرض ذاته ولسوف يقتلني يومًا ما..»

وكان (فرانكنشتاين) مستمرًا في هرش شعر رأسه المبعثر حتى بدا كالمجاذيب تمامًا، ثم - دون إنذار - نهض متجهًا إلى الطابق الثاني... سمعت خطواته وهو يصعد في درج خشبي.. نظرت لها في عدم فهم، ثم فهمت.. لقد خطرت له فكرة ما، وهكذا - في ربع ثانية - نسي كل شيء عن الإغماء وعن قلبها الواهن وعن.. ببساطة فارقنا ليدون هذه الفكرة أو يجربها!

ما إن أدركت الفتاة أننا وحيدان حتى اتسعت عيناها رعبًا.. فيما بعد دققت النظر فأدركت أن عينيها اتسعتا لا رعبًا ولكن لتحذيري، وقالت همسًا:

- «اسمع! لا تكن أحمق ولا تكن طفلًا! اهرب من هنا كأن الجحيم يطاردك.. اهرب ما دمت تقدر!!»

ثم عادت لتريح راسها على الأريكة وتئن!

كان كل هذا متوقّعًا.. الفتاة تفعل وتقول بالضبط ما تفعل وتقول مثيلاتها في دراما الرعب القوطي والفكتوري... لا بد من أن تنفرد بالأحمق الوافد على المكان لتنذره من عواقب حماقته..

وهكذا خطر لي ان الفتاة ليست على ما يرام... إنها ببساطة تمثل دورًا هستيريًا ما.. يبدو أنها بدورها قرأت الكثير من روايات الرعب هذه..

قلت لها همسًا وبغيظ لم أخفه:
- «طبعًا ستقولين لي إن أهوالًا لا يتصورها عقل تدور في قبو هذا البيت.. والذكي الوحيد هو من أسلم ساقيه للريح»
- «أنت تتكلم بلساني!»
ثم نهضت واستندت إلى مسند الأريكة كأن الدوار أصابها، وقالت:
- «أنت حر في اختيارك، لكن دعني أقل لك إنك ستكون شاهدًا على ما يأباه الدين والقانون والضمير..»
- «كل هذا الضجيج من أجل تجربة الليزر على.....؟»
- «ليس هذا هو السبب بل..»
في اللحظة التالية عاد (فرانكنشتاين) من الطابق العلوي، وهو يحمل في يده ما يشبه المرطبان الزجاجي الضخم.. كان مليئًا بسائل أصفر رائق - أهو الفورمالين؟ - وبه أنسجة عضوية لم أتبين كنهها، ورأيته يتأملها في غيظ، ثم يصيح:
- «يا لك من حمقاء! أنت لم تُعرّضي الأنسجة بالنظام الذي اتفقنا عليه قبل سفري... لقد تحللت هذه!!»
ودون كلمة أخرى طوح بالمرطبان في وجه الفتاة، ليستقر ويتهشم على الحائط، على بعد ثلاثين سنتيمترًا من وجهها، ويتناثر السائل على ثيابها وبشرتها.. ورأيت قطعًا من تلك الأنسجة البشعة ملتصقة بالأريكة والجدار حول الفتاة.. المخيف أن الفتاة لم تصرخ أو تثب فارة.. بالأحرى لم تبدل من وضع وجهها لحظة.. فقط ظلت تتأمل أخاها كأنما اعتادت هذه الأمور.. واضح أنّ هذه الفتاة يُقذف في وجهها أكثر من مرطبان زجاجي كل أسبوع!
قلت له في كياسة وأنا أساعدها على النهوض:
- «معاذ الله أن أتدخل في هذه المحادثات الأسرية الحميمة، لكن ألا ترى أنك تبالغ قليلًا في معاملة هذه الفتاة؛ التي كانت في نوبة صرعية منذ ثلاث دقائق؟»
وقالت الفتاة بصوت هادئ:
- «أنت ظلمتني يا (بيتر).. لقد فعلت كما طلبت مني تمامًا لكن قانون الطبيعة أقوى منا معًا..»
في ضيق غمغم وهو يدور ليجلس على إحدى الأرائك:
- «هي شقيقتي.. وتعرف طباعي جيدًا.. تعرف كذلك أنني لا أمزح في تجربة عمري هذه..»
- «وما هي التجربة التي تستدعي كل هذا الحماس؟ لسنا بصدد تحطيم الذرة.. لقد فعلها (روذرفورد) إن لم تخني الذاكرة..»
ابتسم بخبث وتساقطت منه قطرتا عرق وهو ينهض من جديد، وهمس:
- «لن نحطم الذرة.. بل سنحطم ذلك الحاجز الفاصل ما بين الموت والحياة!».

☆ ☆ ☆

٥. بعد العشاء..

كان العشاء شهيًا..

لست خبيرًا بهذه الأطعمة السويسرية أو الألمانية، ومعلوماتي هي أن المطبخ الألماني هو أسوأ مطبخ في القارة... فقط الألمان يمزجون العسل بالخردل بالفلفل في مزيج رهيب.. لكني أكلت ولم تكن لدي تحفظات سوى ما عرفه (فرانكنشتاين) عن عاداتي الدينية بصدد الدجاج المخنوق ولحم الخنزير والخمور... لكني بعد قليل تذكرت مشهد المرطبان المهشم وما يحويه من أشياء بشعة، هنا كان بوسعي أن أقسم على أن ما آكله له ذات المذاق.. احتشدت العصارة في أعلى معدتي، وزهدت الطعام تمامًا.. حقًّا أنا طبيب ولا شيء يقدر على إثارة اشمئزازي حتى العيون المقلوعة، لكن ليت ما كان بالمرطبان عيونًا مقلوعة! إذن لأكلت بشهية!

قال (فرانكنشتاين) وهو يلتهم بجنون ما أمامه كأنما هو رهان:

- «أراك لا تأكل..»

- «قد أثر السفر على معدتي بعض الشيء..»

(أجاثا) أيضًا لم تكن مهتمة بالأكل.. كانت قد عقصت شعرها واستندت بذقنها على قبضتها اليمنى، وراحت بوجه شاحب باهت حزين ـ كأنه وجه مريضة درن في قصة عاطفيّة فرنسية ـ ترمقني، وفي عينيها ألف سؤال وألف إجابة..

جاء (أدولف) بالقهوة، ومع ما تبعثه رائحتها في النفس من استرخاء وحب ثرثرة؛ قال (فرانكنشتاين):

- «قد حان الوقت كي نتكلم بالتفصيل عن نوعية التجارب التي أقوم بها يا دكتور (ميخائيل) هاهنا..»

- «الاسم هو (إسماعيل) يا سيدي إن سمحت لي..»

في ضيق غمغم وهو يهز يده كأنما ليدعوني للنسيان:

- «لا عليك.. لا عليك.. الحقيقة هي أنني يجب ان أرجع إلى الوراء عدة قرون.. ربما إلى القرن الخامس عشر.. أنت تعرف أنه توجد في ألمانيا قلعة باسم (فرانكنشتاين)؛ وهذا هو جدي الأكبر الذي منح الأسطورة اسمه.. ويؤمن عدد لا بأس به من النقاد أنه هو من الهم (ماري شيللي) باسم الدكتور (فكتور فرانكنشتاين).. حسن.. هذه نقطة يصعب التأكد منها لأن عددًا مماثلًا يؤمن بأن الاسم مشتق من اسم الأمريكي العظيم (فرانكلين).. إلا أنني أومن بأن كل مولود يحمل جزءًا من حظ اسمه.. وقد حملت أنا ذلك الاسم الذي يرمز للعبقرية المجنونة التي تتجاوز حدودها في العالم كله.. بل، إن الخطأ الشائع في العالم كله هو أن (فرانكنشتاين) هو اسم المسخ.. والحقيقة هي أن (فرانكنشتاين) هو اسم العالم الذي صنع المسخ.. لهذا يبدو اسم كاسمي هذا رهيبًا لا يبعث على الارتياح، وربما يحمل ذات رنين اسم (دراكيولا) أو (نوسفيراتو)...

«كل مولود يحمل جزءًا من حظ اسمه.. ترى هل هي صدفة أنني مهتم منذ صباي بآليات الحياة والطريقة التي تتحرك بها جزيئات من الكربون والهيدروجين لتأكل وتفكر وتحب؟»

شعرت بقشعريرة.. إلام تفضي هذه المحادثة بالضبط؟ أراها تتوغل في الأراضي الشائكة المعهودة لتقود إلى المستنقع المخيف.. أخذت نفسًا عميقًا ونظرت إلى الليدي (ماكبث).. معذرة.. أعنى (أجاثا طبعًا فوجدتها ترمقني بتلك النظرة الشفافة الخائفة.. النظرة التي التمعت في عين أكثر من غزال رأى طرف سهم الصياد من بين الأحراش، ولم يدر قط ما هو..

نهض (بيتر فرانكنشتاين) حاملًا القدح في يده اليمني والطبق في الأخرى، ومشى إلى الجدار الذي تتوسطه صورة لم أدر كنهها من قبل.. كانت تمثل خنزيرًا بريًا عملاقًا يهاجم فتاة من فتيات القرون الوسطى الصارخات المبتهلات.. وثمّة فارس باسل قادم ملوحًا بسيفه وقد انتوى أن يخرب بيت الخنزير.. الصورة ذكرتني كثيرًا بصورة القديس (مار جرجس) والتنين التي نراها في بيوت الأخوة المسيحيين في (مصر)..

سألت (بيتر فرانكنشتاين) في حذر:

- «هل أنت واثق من أن الفارس ليس من جدودك؟»

- «لا بالطبع..»

- «ولا الفتاة؟»

- «ولا الفتاة..»

- «وماذا عن الخنزير؟»

قال في فخر وهو يسكب محتوى القدح على الأرض:

- «أمّا هذا فنعم!!»

- «الخنزير البري جدك؟»

- «بل من اخترعه! جدي هو من اخترع هذا الخنزير - أو كذا تقول الأسطورة - وقد مات هذا الفارس المغوار في أثناء الصراع الرهيب، فلم يستطع إنقاذ الفتاة[3]..»

ابتلعت ريقي وتأملت اللوحة.. ما زلت لا أفهم ما يقول..

قال وهو يسقط القدح أرضًا فيتهشم، وإن كان لم ير هذا:

- «معنى هذا أن جدودى حاولوا.. ربما نجحوا في الشيء الذي اشتهروا به.. إن (ماري شيللي) لعبت دور المؤرخة أكثر منها أديبة، وقد اكتفت بأن حكت لنا ما كان..»

قلت في حدة وقد بدأت أفهم:

- «كف عن هذا الهراء يا دكتور (فرانكنشتاين).. كلانا رجل علم يعرف أن ما تقوله مستحيل..»

- «الفروض العلمية التي تكون الاستحالة مقدماتها لا تصلح لاستخلاص النتائج..»

ونظر إلى الوراء حيث كانت أخته تنظر إلى السجادة العتيقة وترتجف من فرط رعب وانفعال، وقال:

- «(أجاثا) يا عزيزتي.. قولى شيئًا لهذا المتعصب..»

قالت دون أن ترفع عينيها كأنما قارفت إثمًا كبيرًا تخجل منه:

- «دعنا نصحبه إلى القبو يا (بيتر) وهناك سيرى.. ولسوف يصدّق.. حتمًا سيصدق... هذا لو كان رجل علم بحق خاليًا من التعصب.»

☆ ☆ ☆

- «سيدي.. كل ما تعلمته عبر هذه الأعوام هو: لا توجد قواعد ثابتة.. التجريب هو المقياس الوحيد لي.. قل لي إن (مارتا) تخرج النار من أذنيها في الليالي القمرية.. لا مشكلة عندي... فلا توجد لديَّ قناعات أو تحيزات مسبقة.. دعنا نر ما سيحدث لها في ليلة قمرية.. دعنا نقسه جيدًا ونسجله ونفتش عن تفسير علمي له..»

☆ ☆ ☆

كانت قاعة طولها..... ولكن لا.. لست في الواقع واجدًا جدوى للوصف (البلزاكي) من طراز (غرفة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار، بها إفريز مجاور للحائط ارتفاعه ربع بوصة ترتسم عليه زهور الجلاديولس التي لونها الفنان باللونين الأخضر والأرجواني).. لا داعي لهذا الإطناب، فلم يعد أحد يملك مزاجًا رائقًا للتخيل إلى هذا الحد.. لنقل إنها قاعة وكفى.. بها أكثر من مجهر، وأكثر من جهاز إشعاع غريب المظهر، وأكثر من طبق (بتري) يبدو أن ما به باكتريا أو فطر ما.. والقاعة كلها محاطة بالستائر التي تقود إلى أبواب.. هل قلت كل شيء؟ لا.. هناك تلك الرائحة العضوية الدالة على تعفن لا بأس به والتي لا أعرف مصدرها.. وهناك الإضاءة الزرقاء العامة المريحة للأعصاب لبضع دقائق، قبل أن تتبين أنها خانقة كريهة...

وتحت عدسات المجهر الأول رأيت خلايا حية.. خلايا حيوانية.. ثم رأيتها بعد الموت وقد بدأت علامات التحلل العضوي تظهر عليها، ثم رأيت الخلايا في حالة انتعاش.. قلت له وعيني تخفق ألمًا بعد ما أجهدتها نظرًا في العدسات:

- «من جديد يا سيدي لا أرى أن هذا يدل على شيء.. لا بد من البدء من الصفر، وتوثيق النتائج بعناية.. لا بد من أن أضع أنا علامة على مزرعة الخلايا لأعرف أنها هي بالذات ما نتكلم عنه..»

ابتسم وأدركت أنه لم يصغ لي بل كان يفعلها مجاملًا، أمّا عقله فكان مع مرطبان آخر يحوي عينات عضوية لم أدر كنهها.. رأيته يقرب منها شيئًا يتدلى من السقف بمجموعة معقدة من الروافع والتروس، كأنه مدفع آلي لكنه مزود بعدسة في مقدمته، وبحنكة راح يضبط الزاوية والاتجاه كي يمرّ الضوء الأحمر المنتظم عبر المرطبان، ثم نظر لأخته شذرًا ومسح أنفه، وواصل العمل في تفقد العينات..

قلت:

- «تعرضون هذه العينات الليزر؟»

قال وهو يزيح بعض الستائر الكثيفة:

- «هذا جزء بسيط لا أهمية له في تجاربي، لكنه مهم لإخراس المعارضين.. سأشرح هذا وأكثر فيما بعد، أمّا الآن فيا حبذا لو جئت معي إلى صومعتي السرية حيث لم يدخل بشر قبلك!»

☆ ☆ ☆

٦ - الشيء تحت الملاءة..

كانت هذه الغرفة الصغيرة الضيقة هي مصدر الرائحة.. عرفت هذا.. شممته.. البرد في كل مكان.. برد يجمد الدم في عروقك، ويزحف فوق فقرات ظهرك كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة.. يرد لم يأت من عالمنا ولم نر له مثيلًا من قبل، ولكن من عالم جليدي ما.. من كوكب جليدي ما.. ربما (بلوتو) أو (نيبتون)، حيث الصقيع هو الأقوى، والظلام هو الأطغى، والبرودة هي اسم اللعبة..

لقد أزاح (فرانكنشتاين) الستائر السميكة لأرى في السقف ثلاثة مصابيح تتدلى من نظام توجيه ميكانيكي معقد، يسمح بتغيير الزوايا بدقة متناهية من مفاتيح على الجدار.. وأدركت أن ضوء المصابيح الثلاثة يتقاطع عند هدف واحد..

هدف في مركز الغرفة....

هدف يرقد على سرير فحص هناك..

هدف تحت ملاءة بيضاء متسخة ملأتها البقع..

هدف له طول الجسد البشري وارتفاعه ومعالمه الخارجية..

☆ ☆ ☆

كنت أرتجف ذهولًا وهلعًا، ونظرت إلى الوراء حيث كانت الأخت (أجاثا) تنظر لنا في توجس، ثم اتجهت نحو أحد المحولات العديدة المثبتة إلى الجدار، وبيدٍ بلورية شفافة راحت تعيد ضبط بعض الأرقام، ثم همست بذلك الصوت الأفعواني (بلا داع طبعًا لأن المكان منعزل):

- «الجرعة عالية بحق.. أرى أن ننسحب أو ترتديا المناظير الواقية..»

قال (فرانكنشتاين) وهو يناولني ما يشبه المنظار الواقي للحام:

- «لا داعي.. سنضع المناظير يا ملاكي.. إن الدكتور (رفعت) لا بد أن يرى هذا..»

وارتدى مثلي، وفعلت هي الشيء ذاته، حتى شعرت كأننا لصوص منهمكون في السطو على خزينة مصرف.. كان الحجاب كثيفًا ولم أر شيئًا في البداية ثم تزايد النور ببطء، وبدأ يخترق الغمامة السوداء على العوينات.. الإشعاع يتزايد أكثر فأكثر وشممت رائحة شيء عضوي يحترق (أشعر رأسه أم جلد صلعتي؟)..

أخيرًا أرى حدود الجسد المسجى تحت الملاءة.. يد (فرانكنشتاين) تزيح الملاءة في شيء من قسوة..

وتصلب شعر رأسي على الجانبين، على حين زحف الثلج على ظهري..

كان إنسانًا.. ميتًا.. أو هذا ما بدا لي.. لم يثر هذا رعبي، فأنا رأيت كل أنواع الجثث والمومياوات حتى ما يخص (دراكيولا) منها..

المشكلة هنا هي أن الجسد كان مليئًا بالخياطات التي توحي بمروره بعدد من الجراحات البدائيّة، من وقت ليس بالبعيد.. البطن يتوسطها جرح طولي هائل.. توجد خياطة عند اتصال كل طرف بالجذع، وعند اتصال العنق بالجذع.. الرأس نفسه ـ وهو عار من الشعر ـ تمت خياطة أعلاه إلى باقي الوجه كأنما هي ثمرة مانجو تم انتزاع ربعها العلوي ليسهل التهامها..

وتسلقت عيناي الوجه...

كان وسيمًا دقيق الملامح في غيبوبته النهائية.. وأدركت أن عمره لم يتجاوز العشرين حين مات.. أما عن الرائحة فكان هو مصدرها بوضوح تام، لكني أدركت أن جو الغرفة شديد البرودة قد صمم خصيصًا لمنعه من مزيد من التحلل، وهو ما ذكرني بقصة قديمة لسيد الكوابيس (لافكرافت) حين كان الرجل غريب الأطوار لا يلقى صاحبه إلا في جو شديد البرودة.. وفي ذات يوم فسد جهاز التبريد فماذا حدث؟ وماذا اكتشف الصديق المذهول؟!!

ولم يكن البرد هو الاحتياط الأوحد.. كانت هناك تقنية معينة لحفظ الأنسجة عبارة عن خراطيم تدخل وتخرج إلى عروق الميت، ويبدو أنها تمر بدورة ما يؤمنها محرك صغير يتصل بزجاجتين.. إلى حدٍ ما يذكرك المشهد بجهاز الغسيل الكلوي المنزلي المعروف الآن..

وبصوت مبحوح سألت (فرانكنشتاين):

- «إذن.. أنت.. أنت تقوم بما أظن أنك تفعله؟»

قال وهو يبعد أحد الخراطيم عن موطئ قدمي:

- «بالتأكيد.. أنت ذكي بما يكفي لتفهم..»

- «وتعتقد أنك ستنجح؟»

- «لن أنجح لأنني نجحت بالفعل! هذا هو نموذجي الثالث!!»

- «أيها النصاب!»

☆ ☆ ☆

قالت (أجاثا) بصوتها الواهن المتداعي الذي جاء من برد هذه الغرفة ذاته:

- «الأمر قد يبدو عسير التصديق يا د. (رفعت).. لكنه حقيقي.. حقيقي كهذه الغرفة وبردها وضوئها.. لقد تمنيت كثيرًا أن نفشل.. تمنيت أن نبوء بالخيبة، لكن التجربة نجحت.. أقولها ذاهلة.. أقولها ملتاعة..»

وتهانفت فأخرجت منديلًا دفنت فيه أنفها..

في غيظ صحت:

- «يا سلام! وأين ذهبت نتائج التجارب الأخرى؟»

تبادل (فرانكنشتاين) النظر مع أخته.. نظرة من وراء زجاج المنظار الأسود لم أرها لكني شعرت بها، ثم قال:

- «دمرتها يا دكتور (رفعت).. دمرتها لأنني فنان.. والفنان لا يرضى عن عمله أبدًا.. لكني استوثقت على الأقل من أن المبدأ قائم، وإنني لأعتمد بشدة على هذا النموذج باعتباره الأنجح!!»

كان شرياني الصدغي يخفق كالمجنون يضخ الدماء في رأسي، وأدركت أن انفجار المخ قادم بعد ثوان ما لم أهدأ قليلًا..

وهكذا طلبت الخروج من هنا..

وفي قاعة المعيشة وضعت قرص النتروجلسرين - صديق عمري المخلص - تحت لساني، وانتظرت بعض الوقت ثم أخذت قرصًا مهدئًا..

في سخرية قال (فرانكنشتاين) وهو يهرش ما تحت إبطه بلا وقار:

- «قد أثار كل هذا رعبك!!»
- «بل أثار غيظي.. أنا أمقت من يكذب وأنا أعرف أنه يعرف أنني أعرف أنه يكذب!! هذا شخص جدير بحطب جهنم...»
قالت الفتاة وهي تجلس في رفق كالأشباح:
- «اهدأ يا دكتور (رفعت) ودعني أحك القصة من بدايتها..»

☆ ☆ ☆

قالت (أجاثا فرانكنشتاين):
«لكي أبدأ من البداية يا د. (رفعت) يجب أن أحكي لك نبذة عن الليزر.. لقد كان هذا العلم الوليد يحمل لنا من الوعود ما حملته الكهرباء للناس قديمًا.
«الليزر هو الحروف الأولى من عبارة (تكبير الضوء بانبثاق الإشعاع المحفز).. وهي وسيلة لبعث حزم ضوئية متلاصقه تتراوح مما تحت الحمراء إلى ما فوق البنفسجية.. إن هذا يجعل الضوء قويًا سهل التوجيه ونقيًا جدًّا في ترددِه..
«إن الليزر - يا دكتور (رفعت)- هو الثورة الحقيقية التي ستهز عرش العلم هزًّا[4].. وهو بالمناسبة ليس اختراعًا جديدًا إلى هذا الحد؛ فالفكرة مطروحة من عام ١٩١٧.. لكن ربما ينسب الفضل في اختراعه إلى الأمريكيين (شولو) و(تشارلز تاونس) عام ١٩٥٨.. وربما (جوردون جولد).. والعالم الإيراني الأمريكي (علي خافان)..
«إن المبدأ في كل أنواع الليزر واحد.. تكسب الإلكترونات طاقة عالية ثم تحفز بفوتون خارجي؛ لتخرج فوتونات أخرى بدورها وهو ما يُسمّى بـ (الانبعاث المحفز).. ويمر الضوء بعدد من خطوات التكبير بين سطحي مرآة حتى يُطلق سراحه في النهاية عبر سطح نصف مفضض.. ويكون الوسط الذي يولد فيه الليزر صلبًا أو غازًا أو شبه موصل أو سائلًا..
«منذ عشرة أعوام كاملة وأنا منبهرة بالليزر.. درسته وكرست حياتي في الجامعة بـ (برلين) من أجله، بينما كرس أخي (فرانكنشتاين) حياته لغرض واحد هو فهم طبيعة الحياة.. كلانا كان ينجح ويفشل.. لكننا في النهاية قررنا أن نوحد جهدينا من أجل هذا المشروع العملاق..
«لم نستطع استكمال أبحاثنا في (برلين) من ثم عبرنا الستار الحديدي وأقمنا في (سويسرا).. تلك كانت معجزة حقيقيّة لكنّها حدثت، ومن هنا بدأت نواة هذا المعمل الصغير.. قمت بتركيب وتصميم عدد من أجهزة الليزر، أمّا أخي فراح يواصل تجاربه على الخلايا.. مراحل موت الخلية.. محاولة عكس هذا التأثير باستخدام الليزر..
«أنت كنت موجودًا في المؤتمر الصحفي، وسمعت جانبًا من المناقشات.. حسن.. الحقيقة أنّ هذه الأبحاث تمت منذ خمس سنوات، لكننا كنا بحاجة إلى تقديم جرعات متزايدة متدرجة من الصدمة الكبرى للعالم.. كمن يخبر صاحبه بوفاة أمّه على مراحل، فيبدأ بالقول إن السيدة العجوز مريضة نوعًا.. ثم إن السيدة العجوز في المستشفى.. وهكذا...
«أنت كنت موجودًا في المؤتمر الصحفي، وسمعت الغضبة الكبرى التي صاحبت تصريح أخي... برغم أنه لم يخرج عن الجزء الأول من الخبر (السيدة العجوز مريضة نوعًا).. ترى ماذا سيحل بنا لو أعلنا باقي الخبر؟ إنني أرتجف لهول الفكرة..

«والآن نتكلم عن الأبحاث التي تمت هنا.. والتي بدأت منذ ثلاث سنوات..»

☆ ☆ ☆

٧ - برومثيوس..

قالت (أجاثا):

«في البداية قام أخي بالحصول على أجزاء آدمية من المقابر المجاورة بالاستعانة ببعض اللصوص.. وهذا بالضبط ما قام به (فكتور فرانكنشتاين) في قصة (ماري شيللي)، ثم قام بتوصيل الأجزاء لتكوين هيكل آدمي..

«بعد هذا كانت العملية المعقدة التي ابتكرتها أنا تبدأ.. كنا نحقن الأنسجة بمادة معينة، ونقوم بتعريض الجسد إلى الليزر لفترات طويلة.. هناك أجزاء كان تعريضها يتم وهي خارج الجسد مثل العينة التي رأيتها في المرطبان، وهي غدة درقية بالمناسبة.. وفي النهاية استطاع الكائن الأول أن يفتح عينيه وينهض.. كان مثيرًا للشفقة والرعب، وكان مشوهًا أكثر من كل شيء تتخيله أو تخيلته السينما، لكنه كان يتحرك، وكان له قلب ينبض، وإرادة خاصة به..

«بعد أيام قام أخي بتدمير هذا الكائن، وتذويبه في الحمض لأنّه كان مسخًا وأخي لا يرغب في صنع المسوخ.. إنّه يصبو إلى الكمال..

«الكائن التالي كان أفضل نوعًا لكنه كان مصابًا بنوع من العته، وكان لا يكف عن الصراخ حتى أحال حياتنا جحيمًا وأوشك على أن يفضح سرنا، لهذا تخلص أخي منه، وبدأ في الكائن الثالث، ولا يخفى عن ذكائك أننا سميناه (برومثيوس - ٣)..»

قلت دون أن أنظر إليها:

- «(برومثيوس) هو الإنسان الأول في الميثولوجيا الإغريقية.. اسم مناسب جدًّا»

قالت الفتاة وقد ازداد سواد الهالات المحيطة بعينيها كأنما عينيها في بئر عميقة:

- «.. وسارق النار ومن علمها للبشر.. هذا ما أثار سخط سادة الأوليمب عليه.. أنت تفهم الآن ما أرمي اليه..»

قلت في غل وأنا أتمنى لو هشمت عنقها النحيل، ثم استخدم رأسها كمطرقة أهشم بها رأس أخيها:

- «حسن.. أنت تعرفين أنني لا أصدق حرفًا من هذا كله.. المنطق نفسه غير متوازن.. لماذا يسرق أخوك الجثث ما دام عبقريًا إلى هذا الحد؟ لماذا لا يصنعها؟»

قال (فرانكنشتاين) في ضيق، وقد أفاق من غيبوبته لسبب ما:

- «لا تكن طفلًا.. لا أحد يستطيع صنع كائن حي!»

- «معذرة على شدّة غبائي.. لكني حسبت أنك تتكلم عن شيء كهذا.. ولماذا لم تسرق جثة كاملة وينتهي الأمر؟»

- «أنا أختار أجمل جزء من كل إنسان.. الوجه وجه ممثل سينما والذراع ذراع مصارع، والقدم قدم عداء، والمخ مخ مفكر..»

- «يا سلام! واللسان لسان شاعر، والمعدة معدة دباغ والرئة رئة سباح.. هل تعرف لماذا لم أتركك وأرحل يا (فرانكنشتاين)؟ لأن لدينا في مصر مثلًا شعبيًا يقول: (خليك مع الكداب لحد باب الدار..) أترك الكاذب يأخذ راحته إلى أقصى حد حتى تموت قصته تلقائيًا.. أم أنك تعيد الحياة للقصص الميتة؟»

قالت الفتاة وهي تترنح وإن كنت لا أفهم السبب:

- «لا تسخر يا دكتور (رفعت).. فها نحن أولاء نطالبك بأن تحضر معنا هذه التجربة مع (برومثيوس - ٣)»

ثم ارتجفت مرّتين وسقطت على الأرض ككومة الثياب...

لكني - بصراحة ـ لم أجد لدى ميلًا لمعاونتها.. تركتها وتشاغلت بفحص أظفاري، وكذا بدا أن (فرانكنشتاين) في إحدى نوبات الخبال الذهولي التي يعاني منها كثيرًا، فراح يدون شيئًا على أوراق أمامه...

بعد دقيقة شعرت بخجل من موقفي، فناديت الخادم، وطلبت منه أن يساعد الفتاة ويقدم لها بعض دوائها الذي لا أعرف اسمه..

وحملناها معًا إلى غرفة نوم صغيرة في الطابق الثاني.. كانت الفتاة ثقيلة جدًا بالنسبة لإمكاناتي الجسدية.. لابد أن وزنها لا يقل عن أربعين كيلوجرامًا.. وهكذا جلست جوار الفراش أسعل وألهث، وتناولت قرصًا من النيتروجلسرين.. وطلبت من الخادم كوب ماء..

لكن الخادم لم يأت بكوب ماء فقط، بل جاء بحقيبة طبية كاملة وضعها بجواري، وقال في كياسة همسًا، وبلهجة إنجليزية فظيعة:

ـ «معذرة يا سيدي.. أنا أعرف أنك طبيب، وهذه النوبات قد صارت تباغتها ثلاث مرات يوميًا وهي تأبى استشارة طبيب.. إن أخاها ذاهل تمامًا ولا يوليها اهتمامًا.. أحيانًا يبدو مذعورًا وأحيانًا لا يلاحظ ما يحدث أصلًا.. إنها الآن لا تستطيع الاعتراض، ولا أرى ما يشين أو يضر بالأمانة لو طلبت منك أن تفحصها سريعًا.. لو كان هذا فقر دم فأنت خبير بأمراض الدم.. ولو كان ورمًا في المخ كما أتوقع فلعلك تخمن هذا..»

تأثرت باهتمامه الذي لم يظهره الاخ، وسألته بإنجليزية رديئة لا بد أن يفهمها:

- «هل أنت مع الأخوين منذ زمن أيها الرجل الأمين؟»

- «ثلاثة أشهر لا أكثر.. لكني أحب هذه الفتاة، وأشعر بأنها لا تستحق المعاملة الكريهة المخبولة التي يعاملها أخوها بها.. هذا البيت يشبه بيوت الرعب في السينما، وأنا لم أبق به إلا لأنني لا أجد مكانًا آخر.. إن الاختيارات تقل في سني..»

شكرته على اهتمامه، وطلبت منه أن يوارب الباب، ثم قمت بقياس ضغط دم الفتاة.. حقًّا كان منخفضًا كالأشباح لو أنّ الأشباح لها ضغط دم.. كانت أنسجة شفتيها شاحبة تمامًا، فلم يعد فقر الدم شيئًا يحتاج إلى تحليل..

هنا لاحظت حول عنقها ندبة دائرية غريبة.. ندبة كأنها كانت ترتدي تلك الحلية التي يسمونها (كوليه) حول العنق.. غريب هذا.. أو كأنها ـ ويا لها من فكرة ـ شُنقت ثم أنزلوها من على الحبل..

خطر لي خاطر غريب نوعًا فمددت يدي، ورفعت كم الثوب إلى أعلى ذراعها، فوجدت الندبة ذاتها هناك عند اتصال الذراع بالجذع.. دققت النظر أكثر فوجدت ما يشبه آثار الخيط الجراحي حين يلتئم الجرح فينتزع..

ما معنى هذا؟؟

هذه الفتاة مرّت بجراحة غير مفهومة... جراحة تمت حيث يتصل الذراعان والعنق بالجذع.. فما هي هذه الجراحة؟؟

☆ ☆ ☆

كان هناك موقف مماثل مع (براكسا) حسناء المقبرة.. كانت نائمة وكنت أنا أرمق الجرح المريع الذي مزّق عنقها، وبرغم هذا كانت حية.. حية تتنفس.. وفتحت عينيها لترمقني....!

☆ ☆ ☆

كان قلب (أجاثا) ينبض بمعدله العادي.. فقط كان أكثر سرعة بسبب فقر الدم.. وكانت استجابة عينيها للضوء طبيعية.. إنها الآن نائمة لا أكثر..

نهضت في تؤدة، ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا..

لم يكن لديَّ سوى تفسير واحد لكني لن أقوله.. التفسير السهل مستحيل أن أتلفظ به، والتفسير الصعب هو - ببساطة - صعب..

مشيت في الغرفة جيئة وذهابًا.. كانت هناك بعض صور معلقة على الحائط.. بعضها يظهر صورًا لا بد أنها التقطت في (برلين).. هذا الطابع لا تخطئه العين لأوربا الشرقية.. كانت الصور تظهر(فرانكنشتاين) الأخ والأخت يجلسان في ميدان عام على حاجز نافورة ماء.. ثم صورة أخرى جعلتنى أرجف خيفة.. كانت صورة للفتاة ولكن مع شريط حداد أسود على الركن العلوي للإطار!

هذه مزحة بالتأكيد أو أم الفتاة كانت تشبهها أكثر من اللازم...

سمعتها تئن، وراح رأسها يهتز على عنقها محاولًا التماسك، فقلت لها في سرّي (كما يقول الإنجليز): استيقظي واشرقي!

هنا دخل الخادم الغرفة، ونظر لي رافعًا حاجبيه نظرة من نوع (هل - توصلت - لشيءٍ - ما؟).. فنظرت له نظرة من طراز (فلنتكلم - عن - هذا - فيما - بعد).. ودنوت من الفتاة..

هنا أعترف بشيء.. لقد كنت واثقًا تمامًا من أنها ليست كما تزعم.. لكن الرعب غير الممنطق تسلل إلى روحي.. الرعب الذي يجعلك تخشى لمس جلد مصاب بالإكزيما برغم أن الإكزيما مرض غير معد، وتخشى لمس أفعى تعرف جيدًا أنها غير سامة.. هذا الرعب جعلني بحق أهابها وأحاول ألا ألمسها قدر الإمكان.. كأن جلدها الشاحب البارد هو الموت ذاته..

وبعد برهة عدنا إلى القاعة فلم نجد (فرانكنشتاين)..

قال الخادم وهو يرفع الأقداح الموضوعة على المنضدة:

- «قد غادر الدار دون كلمة أخرى يا سيدي..»

- «فكرة أخرى عجيبة زارته على حين غرة..»

وجلست على الأريكة أتفحص صفحات مجلة ما..

كان الليل قد أوغل، وشعرت بحق بأنني بحاجة إلى النوم لأرتاح من عناء التفكير بضع ساعات..

إن (فرانكنشتاين) وتجاربه لقادران على الانتظار..

☆ ☆ ☆

٨ - لا تحاول يا دكتور!

كنت أعرف أن الكوابيس ستزورني..
هذه من الليالي النادرة التي يحدث فيها شيء كهذا.. أن تنتظر الكابوس ولا تندهش لقدومه...

☆ ☆ ☆

وكعادة أضغاث الأحلام كان هناك ذلك الاجتماع الصاخب بين (ماري شيللي) و(جيفارا) الثائر الأرجنتيني العظيم و(عزت) جاري، وكان الحديث كله عن سبب ابتلاع أسماك القرش لساقي اليسرى.. كان (عزت) مصرًّا على أن ساقي سليمة بينما أصر (جونسون) الرئيس الأمريكي على أن (كنيدي) لم يمت.. كانت خالتي في الشرفة تنشر الغسيل وفجأة نهض المسخ الذي صنعه (فرانكنشتاين) فأطلقت صرخة عاتية، وسقطت من الطابق الأول (لأن منزلها كان من طابق واحد في الزقازيق) فتكسرت أسنانها..
الان يقف (بيتر فرانكنشتاين) ليقول في حزم إنني.. إنني ماذا؟ لقد نسيت.....
لكن (لوسيفر) لم ينس.. لقد وعد باللقاء..

☆ ☆ ☆

كنت نائمًا في الغرفة المظلمة.. وحدي...
كنت أتكلم وأصيح وآتى بحركات عصبية..
كنت جاهلًا بالخطر لو كان هناك خطر..
كنت عاجزًا عن رؤية من بالغرفة معي لو كان هناك أحد..
كنت ضعيفًا واهنًا.. إنها ساعة الذئب التي يغدو فيها المرء كرضيع معدوم الحيلة..

☆ ☆ ☆

وصحوت من النوم مهشّم الأوصال كنشال ضبط متلبسًا في مولد، أو حمار جر يحركه صبي معتوه سادي النزعات..
كان قراري الأول هو أن نهضت وفتحت حقائبي، وبدأت أضع حاجياتي بها.. كنت دائمًا أسوأ من يستطيع تنسيق الأشياء في حقائبه.. أمّا الآن فكان الوضع أسوأ بعدما أفرغت الحقائب أمس.. تذكرت على الفور التعبير ـ أو لعله المثل ـ الروسي الذي يقول: لا سبيل لإعادة معجون الأسنان إلى الأنبوب بعد خروجه منه..
سمعت طرقات على الباب، ودخلت الليدي (ماكبـ... (أجاثا)، وقد ازداد اصفرار شفتيها والسواد تحت عينيها مما أكد لي أنها على ما يرام.. وكانت تبتسم بعذوبة وقد جاءت لتشكرني على (سهري

بجوارها في أثناء اعتلالها أمس)، ثم فوجئت بالمنظر العجيب في غرفتي..
سألتني في دهشة:
- «ماذا حدث؟ هل تسلل دب قطبي إلى الغرفة أمس؟»
- «بل أنا أحاول حزم حقائبي، ولم أكن قط بارعًا في هذا الفن..»
- «أنت تعرف أنني أرحب بهذا ولكن لماذا؟ هل ضايقك شيء؟»
بتهذيبي المعتاد لم أصارحها بأن كل شيء هنا غريب ومرجف ومثير للاشمئزاز.. هي نفسها لا تريحني كثيرًا خاصة بعد ما رأيته أمس ولم أجد له تفسيرًا.. أشعر في وجودها بنفس ما كنت أشعر به في بيتى بالقاهرة، حين يتسلل البرص الشاحب إياه إلى غرفة نومي في ليالي الصيف..
قلت لها وأنا مستمر:
- «التجربة التي تدور هنا لا تناسبني عقائديًا، وأرى فيها قدرًا لا بأس به من التجديف والعبث.. الأمر كله مقزز ولا يريحني، ثم إنني أعرف من اللحظة الأولى أنّ هذه تجربة فاشلة، لأن الموتى لا ينهضون إلا لحظة الحساب، وبأمر خالقهم لا بأمر طبيب فار من الستار الحديدي، حتى لو كان يحمل اسم (فرانكنشتاين)..»
- «إن منطقك العلمي مفكك.. كيف تصدق ما لم تر؟»

☆ ☆ ☆

وهنا استعدت كلماتي مع (شوندر) حين جلسنا نتناول العشاء:
- «سيدي.. كل ما تعلمته عبر هذه الأعوام هو: لا توجد قواعد ثابتة.. التجريب هو المقياس الوحيد لي.. قل لي إن (مارتا) تخرج النار من أذنيها في الليالي القمرية.. لا مشكلة عندي.. فلا توجد لديَّ قناعات أو تحيزات مسبقة.. دعنا نر ما سيحدث لها في ليلة قمرية.. دعنا نقسه جيدًا ونسجله ونفتش عن تفسير علمي له..»

☆ ☆ ☆

ابتلعت ريقي.. لم لا أرى؟ إنني سأفهم الطريقة التي ينويان بها خداعي.. هذا مضمون على الأقل.. لم لا أجرب؟ عندها سأعود محملًا بالأدلة إلى وطني.. وسأحكي عن الهراء.. الهراء الذي رأيته.
قلت لها وأنا أسترخي قليلًا:
- «ليكن.. متي تتوقعين أن تتم التجربة؟»
- «خلال ثلاثة أيام..»
- «وهل يسمح لي بأن اتخذ كل ضمان ممكن؟»
- «بالتأكيد.. لكني أنصحك بالرحيل قبل هذا.. لا تعد هنا أبدًا.. أمّا إن بقيت فتذكر أن أخي سيطلب منك تقريرًا موقعًا منك ليضعه في وجه من يعترض!!»
هنا تحشرج صوتي.. أنا أكتب هذا الكلام الذي هو - إن لم نعتبره تجديفًا - هراء علمي صريح؟! هذه القضية نموذج ممتاز للأساطير التي تتعارض مع الدين والعلم معًا.. وتكون هذه بالذات هي الأسطورة التي أوقع باسمي عليها!!

كأنما سمعت أفكاري؛ قالت:
- «دعك من التعصب بلا طائل.. لو تأكدت من التجربة بما لا يقبل مجالًا للشك، فمن الكبرياء السخيفة أن تستمر على نكرانك..»
ثم أدارت ظهرها وقالت وهي تنصرف:
- «القرار قرارك يا د. (رفعت).. لكني ما زلت أحبذ أن ترحل.. إن هذا المكان خطر ويزداد خطرًا كل يوم..»

☆ ☆ ☆

وهكذا قررت أن أبقى.. لماذا قررت أن أبقى؟ سؤال غريب حتمًا.. قررت أن أبقى لأضيف خبرة جديدة إلى خبراتي.. قررت أن أبقى لأنني كنت واثقًا من أن شيئًا لن يحدث.. قررت أن أبقى لأنني أنا!
وفي المساء قمت باحتياطات غريبة بعض الشيء..
أولًا: وأمام عيني (فرانكنشتاين) الغاضبتين؛ انتزعت قطعًا صغيرة جدًا من أنسجة ذلك الكائن الذي يرقد في معمله، واستعملت محقنًا لأسحب بعض الدم المتخثر من عروقه، وقمت بوضع هذه الأشياء في محلول من (الفورمالدهايد) ورقمت أنابيب الاختبار، ثم ألصقت عليها ورقة تحمل توقيعي.. أنا قادم من مصر بلد الكاتب الجالس القرفصاء، وبلد الأحراز والشمع الأحمر والتوقيعات و(السركي).. لن يستطيع أحد أن يتفوق عليَّ في هذا..
ثانيا: قمت بإحداث جرح معين في ساق الكائن.. والتقطت له صورة بالكاميرا الخاصّة بي.. قصدت من هذا أن يكون علامة تجعلني أتعرف الكائن في كل مكان..
ثالثا: وهذا مهم.. قمت بتصوير وتوصيف كل جهاز في المكان، وهكذا صار كل شيء معدًا للبدء، وتم إعطاء الخادم العجوز إجازة في تلك الأمسية المختارة..
لكننا لن نرى شيئًا.....
- «آه ه! إنّه التراجع بهذه السرعة والسهولة إذن!!»
- «بل هذه قوانين التجربة.. جرعة الليزر ستكون عالية جدًا عند الذروة، ولن تسمح لنا بالبقاء أحياء على الإطلاق.. سنتواري مبتعدين في أثناء العملية، ولن ندخل إلا حين تسمح لنا (أجاثا) بالدخول؛ لكنك تملك فرصة الدراسة (قبل - بعد)..»
- «كنت راغبًا في الدراسة (أثناء)..»
- «هذا ليس متاحًا.. لكنك حر ولا إكراه هنالك.. وعلى كل حال هناك كاميرا تصوير سينمائي ستسجل ما يدور بالغرفة.. يُمكنك دراسة الفيلم فيما بعد..»
كدت أتساءل عن نوعية الفيلم الذي لا يتأثر بالليزر ثم أحجمت.. إن معلوماتي عن الليزر محدودة جدًا على كل حال، وبدا لي الحل عادلًا..

☆ ☆ ☆

وهكذا دخلنا إلى الغرفة الرهيبة.. الكائن نائم بلا رجعة على المنضدة.. وقد انكشف جسده العضلي فوق الخصر، فبدا قويًا كما يرسمون أبطال الإغريق على جدرانهم.. طلبت من (أجاثا) أن

تبدأ تشغيل الكاميرا الخاصّة بها، فراح المحرك يهدر مسجلًا كل شيء على فيلم الثمانية ملليمترات..

ضغطت بضعة أزرار فتصاعدت رائحة الكهرباء الاستاتيكية، ورائحة الشعر المحترق إياها... شعرت بالغثيان فتراجعت للوراء..

قالت (أجاثا) وعيناها تتسعان رعبًا كعادتها:

- «أرى أن الوقت قد حان لننصرف تاركين التجربة تدور..»

وغادرنا الغرفة لنتوارى وراء ستار سميك، وكان (فرانكنشتاين) قد تحول إلى ذئب مسعور لا يكف عن اللهاث والخوار والشهيق.. فمه مفتوح ويداه ترتعشان، واللعاب يتدلى من فمه، وهو لا يكف عن ترديد عبارات لا أفهمها بصوت غير مسموع.. تلاقت عينانا للحظة فأدركت أنه لا يراني على الإطلاق..

أثار هذا فزعي أكثر من التجربة ذاتها..

ورأيت (أجاثا) تمد يدها المعروقة البلورية إلى مجموعة من الأزرار، فتعالجها ببراعة غير معقولة.. تدير قرصًا يبدو أنه يتحكم في كم الإشعاع.. تغلق رافعة ما.. وجهها صارم يعكس ألف هول وهول...

أهذا صوت أنين ما أسمع من الغرفة؟

☆ ☆ ☆

٩ - إنّه حي!

في الغرفة الخالية يرقد الكائن الغريب يتلقى جرعات غير معقولة من الإشعاع.. التألق يتزايد...
لكن لا صواعق.. لا صرخات كما نرى في السينما.. لا مساعد أحدب غريب الأطوار ولا ثورة غاضبة في القرية.. لا مؤثرات خاصة لـ (ستريكفادين)..
إن خبرتي الخاصّة عن تجربة (فرانكنشتاين) هي الهدوء التام المتوتر.. ولا شيء سواه...

☆ ☆ ☆

صوت اللهاث.. صوت الأنفاس الثقيلة (هفف هففف) من منخر (فرانكنشتاين) وأنا أمقت ثقيلي الأنفاس.. هذا يعطي طابعًا حيوانيًا منفرًا...
لا بد أن عشر دقائق مرّت علينا، حين استرخى جسد الفتاة وسال العرق غزيرًا على جبينها والتصق بخصلات شعرها، وهمست:
ـ «لا بد أنّ هذا كاف.. لن نزيد الجرعة لنتحاشى الاحتراق كما في المرّة السابقة..»
ثم نظرت لي.. وارتجفت ونهضت.. وخلفها ركض (بيتر فرانكنشتاين) كالقرد ليزيح الستار قبلها.. وتبعتهما بساقين من المكرونة المسلوقة..

☆ ☆ ☆

الدخان في كل صوب، ورائحة الشياط مع اللحم المحترق، ثم يتلاشى الدخان مع السعال رويدًا، وأستطيع أن أرى بوضوح تام.. أرى الفراش.. وأرى حدود الكائن النائم..
يركض (فرانكنشتاين) في جنون.. يتعثر.. ينهض.. يهرع إلى مكان الكائن ويتفحصه وهو لا يكف عن السعال..
لقد فشلت التجربة..
فشلت.....
عرفت هذا جيدًا..
راهنت عليه....
ثم سمعت الأنين من الفراش...
وأمام عيني المذهولتين أرى الكائن ينهض مترنحًا.. يتوكأ على كتف الطبيب المجنون.. يسعل بدوره.. الدخان يتزايد من جديد...
كالمجنون أسمع (أجاثا) تهتف:
ـ «لا بأس.. قلت لك إنّه من الحكمة أن نقلل الفترة نوعًا وكنت محقة!!»
عم تتكلمان أيها المخبولان؟ عم تتكلمان؟ ليست هذه دجاجة مشوية احترقت في المرّات السابقة لأنكما نسيـ.... هههاه! هاهاهاهاهاهاهاها! إنّه هو بالفعل! الملامح هي الملامح ذاتها، والندوب

هي الندوب ذاتها.. حتى الـ... هاهاهاها! حتى العلامات التي وضعتها أنا على ساقه هي هي.. الفارق الوحيد هو أنّ هذا حي.. هاهاهاها!

بينما كان (فرانكنشتاين) في حالة أسوأ من حالتي بحق، وقد راح يردد في جنون:

- «إنِّه جميل.. أنت جميل ايها الرجل الصغير.. وملكي! (بروميثيووس)!!»

ثم جذب الكائن إلى خارج الغرفة بعيدًا عن الإشعاع، ووقفت أرمقه في ذهول.. مستحيل.. هناك خدعة هنا لكن ما هي؟ كيف؟

ومن الغرفة جاءتني (أجاثا) بالكاميرا، وقالت:

- «هذا هو الفيلم، وكما ترى لم يعبث به أحد.. يمكنك أن تراه بعد تحميضه في (لوسيرن)، والآن ماذا ينقصنا؟»

أحضرت المبضع والمحقن، وأنابيب الاختبار، ودنوت من الكائن.. كان مذهولًا حائرًا يرمق العالم بعينين خاويتين تمامًا، وكان فمه مفتوحًا يسيل منه اللعاب، وكل أطرافه متراخية، بينما رائحة الشياط تتصاعد منه فتخنق أنفاسي..

سألت (فرانكنشتاين) وأنا أدنو بحذر:

- «هل من المأمون الدنو منه؟ ربما كان كوحوش الأفلام إياها!»

- «لا أظن.. إنِّه أقرب إلى طفل وليد لم يتعلم الإيذاء بعد.. سيصرخ ويعول لكنه لن يمسك بسوء..»

وفي رفق جلس عند ساقي الكائن، وتشبث بذراعيه ثم أشار لي بما معناه أن أبدأ...

وعلى الفور أخذت عينة بسيطة جدًّا بطرف المبضع من جلد الكائن.. جلده الأبيض المقزز كجلد بطن الضفدع.. كان هذا عملًا أحمق لأن.....

وووه!!

دوّت صرخة الكائن المريعة العاتية، وطار ذراعه في الهواء ليطيرنى بدوري مترًا في الهواء، ثم يركل (فرانكنشتاين) في ذقنه، وراح يعوي بطريقة تمزق نياط القلوب، كأنه حيوان جريح...

- «اهدأ يا أحمق.. اهدأ!»

ومضت ثلاث دقائق قبل أن يستعيد تماسكه وهدوءه، وفي هذه المرّة قررت أن ما لديَّ على طرف المبضع كاف.. هناك قطعة جلد وقطرات دم.. هذا كاف جدًا..

ودون كلمة أخرى وضعت كل شيء في حقيبة يد، واتجهت مغادرًا المنزل، وصاح (فرانكنشتاين) مناديًا وأنا على السلم الخلفي للدار:

- «إلى أين الآن؟»

- «إلى (لوسيرن).. حالًا.. يجب تحميض هذا الفيلم وإجراء فحص معين بصدد هذه العينات..»

☆ ☆ ☆

كان أول ما قمت به هو حجز غرفة في فندق - لم يكن هذا موسمًا سياحيًا لحسن حظي - ثم إرسال العينات مع العنوان في طرد خاص إلى الدكتور (شوندر) في (جنيف)، وشرحت له مفتاح العينات وما أريده منه.. ثم توجهت لتحميض الفيلم في أحد المعامل.. لو كانت كاميرات (الفيديو) المحمولة معروفة في ذلك الزمن لما كانت بي حاجة إلى كل هذه التعقيدات..

وأخيرا سمحوا لي بمشاهدة الطبعة الإيجابية من الفيلم في المعمل، وكان تعليق الموظف هو:

- «ظريف جدًّا.. ظريف! تقوم بتصوير أفلام (فرانكنشتاين) المرعبة، ولكن بأساليب الهواة!»

وجلسنا نشاهد الفيلم.. كنت أفتش عن خطأ ما لكني لم أجد.. الصورة ممتازة شديدة الوضوح، وإضاءتها موزعة بدقة.. الجسد النائم الذي تغطت قدماه بالملاءة.. والصمت.. ثم تألق الصورة يتزايد ويتزايد، وأخيرًا يتحرك الكائن ويرفع ذراعه ويئن.. ثم يملأ الدخان المكان وأرى أشباحًا تدخل الكادر.. هؤلاء نحن طبعًا.. ثم تظهر الأرقام المميزة لانتهاء (الشارج) كما يقول السينمائيون، وتظهر شاشة بيضاء..

أخذت الفيلم شاكرًا شاعرًا بما يشعر به من داس على كابل من كابلات الفولت العالي..

لا تلاعب في الأمر.. هذا الفيلم حقيقي يظهر بدقة كل ما حدث منذ غادرنا الغرفة حتى عدنا لها..

ما التفسير؟

ما التفسير؟

كلا.. لن أقولها أبدًا برغم أن الإغراء شديد: تجربة (فرانكنشتاين) نجحت ببساطة، وأخته هي أول نموذج نجح في تجاربه، لأن حبّه الشديد لها جعله لا يطيق فكرة موتها.. لقد نبش قبرها وأعاد تركيب أجزائها.. ثم... لهذا هي مريضة هشة قابلة للتفكك..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

لقد صارت الفكرة أكثر مرونة وقابلية للابتلاع بالنسبة لي.. لقد وجد الشيطان ثغرة ضيقة يتسلل بها إلى روحي، وهاهو ذا عاكف على توسيعها برأسه ذي قرني التيس.. إنّه - عليه اللعنة - مثابر لا يكل ولا يمل.. لقد كنت أرفض الفكرة رفضًا تامًا لكن ببطء وجدتني أتكلم عنها.. بعد قليل ربما أقبلها...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!

هذا هو ما عرفته في دار هذين الأحمقين.. الفتنة ولا شيء سواها.. أنا المخطئ حين سمحت لتجربة كهذه بأن تتم أمامي.. هناك أشياء لا يصح العبث بها أو اللعب حول حدودها..

والآن ماذا انتظر؟ ماذا يمنعني من الرحيل؟

لكني كنت أعرف الجواب..

كنت بحاجة إلى البقاء كي أفند هذا الهراء.. كي أبرهن أنهما مخطئان.. هكذا سيستقر المنطق، من دون ثغرات ولا ألعاب حواة..

☆ ☆ ☆

وقضيت في (لوسيرن) يومين لأنني كنت بحاجة إلى نسيان البيت المشئوم لآل (فرانكنشتاين)..

وفي اليوم الثالث جاءتني برقية من الدكتور (شوندر) على الفندق الذي أرسلت له عنوانه:

«عزيزي بروفسور (إسماعيل):
«سرني أن تلقّيت منك هذه العينات التي تقول إنها من صميم تجارب البروفسور (فرانكنشتاين)، ولقد قمت بتحليل الأنسجة والدم بمعرفة أحد المختصين في الطب العدلي، وباستخدام أسلوب الترسيب المناعي[5]، فوجدنا أن الأنسجة متطابقة تمامًا في عينتي (قبل) و(بعد)..
«بعبارة أخرى أنت تتعامل مع الكائن ذاته في المرتين.. كن واثقًا من هذا وتصرف على أساسه.

«بإخلاص: ف. شوندر»

فرغت من قراءة الخطاب ودار رأسي...

☆ ☆ ☆

كان ما ذكره الخطاب بالغ الأهميّة، لأنّه يقول إن الكائن هو الكائن قبل وبعد التجربة.. أي أنهما - آل (فرانكنشتاين) - لم يستبدلا بالكائن الميت آخر حيًّا يشبهه.. كان هذا واردًا مع مغادرتنا الغرفة وكل هذا الدخان، لكن جاءت برقية (شوندر) لتنفي هذا نفيًا قاسيًا...
يا إلهي الرحيم! والحل؟
الحل أن أعود إلى المنزل الريفي، وأفتش عن دليل.. دليل على الطريقة التي خدعاني بها..

☆ ☆ ☆

١٠ - شيء غريب يدور عندكم..

كانت هذه الظهيرة حين نزلت من سيارة الأجرة، ومشيت الميل الأخير الذي يفصلني عن دار (فرانكنشتاين).. كنت بحاجة للتفكير على مهل..

الأن أرى بحيرة (لوسيرن) بارعة الحسن، فأتذكر أنّ هناك جمالًا في هذا الكون.. أقف أمامها وأغمغم سبحان الله.. لقد نسيت بحق كل هذا الجمال وسط الجو الكئيب المفعم بالجثث المتحللة، والأطراف الموصولة..

ثمة صياد في قارب.. لا بد أنه أحمق كي يحاول الصيد في هذا الطقس.. ومن بعيد أرى البيت الرهيب بما فيه من أسرار.. صحيح أنه ليس قلعة تحيط بها الصواعق، لكنه قد اكتسب هيبة خاصة به برغم طرازه الحديث..

ومررت بجوار الصياد فسمعته يناديني بإنجليزية جيدة:

- «دكتور (إسماعيل)! هل لي بدقيقة من وقتك؟»

نظرت له في دهشة.. وأدركت على الفور أنه ليس صيادًا.. إن له ذلك الوجه المربع مشقوق الذقن لامع العينين.. وجه محترف.. محترف لماذا؟ لا أدري بالضبط.. هذا الوجه لا يكون صاحبه إلا قاتلًا أجيرًا أو رجل شرطة سرية.. دنوت منه أكثر ورسمت بحاجبي علامة استفهام، فضحك وقال وهو يخرج من جيبه شيئًا يشبه البادج محفوظًا في بطاقته (وهو مشهد ألفته من الأفلام الأمريكية):

- «شرطة.. أنا المفتش (كارل بايبر).. أعرف أنني أضايقك؛ لكني أعرف كذلك أنك رجل شريف لا يحبّ أن يتورط فيما يخالف القانون»

نظرت حولي، ثم دنوت منه أكثر وتساءلت:

- «كل هذا جميل أيها المفتش، لكني أكون شاكرًا لو أوضحت الأمر بدلًا من المقدمات الطويلة..»

- «آل (فرانكنشتاين)»

قالها وأشعل لفافة تبغ بصعوبة لأن الريح كانت تهب من هنا.. نعم هو من الرجال الذين يتكلمون واللفافة في فمهم مع التقطيب ليبدوا محترفين.. وبالطبع لم أستطع أن أقول له (اشمعني؟).. ثم أردف:

- «أنت تقيم عندهم من فترة، وأعتقد أن لديك فكرة لا بأس بها عن التجارب المريعة التي يقومون بها..

«ليس التدخل في هذه الأمور من شأننا.. لكن الأمور بدأت تتخذ منحى غريبًا منذ كثرت حوادث سرقة المقابر.. نعم.. هناك مقابر كثيرة وجدت مفتوحة وقد سرقت من الجثث أطراف تم نشرها.. هذا يشير إلى الطب عامّة.. كل طلبة الطب يسرقون الجثث في كل مكان من عهد (فيزاليوس) حتى اليوم..»

- «دعني أؤكد لك أنني لم أسرق جثة طيلة فترة دراستي.. لا بد أنّ هذا احتاج إلى قوة إرادة عالية مني..»

ابتسم تلك الابتسامة السمجة.. ابتسامة محترف.. وقال:

- «ليكن.. لكننا لسنا واثقين إلى هذا الحد من آل (فرانكنشتاين).. إن الأخبار تنتقل بسرعة، وقد شوهد عدد من المشبوهين يسلمون أشياء في أكياس للطبيب حين يسدل الليل أستاره...

«للأسف لم نستطع الإمساك بأحد متلبسًا، بالإضافة إلى أن أدلتنا واهية لا تسمح باستصدار أمر تفتيش.. لكن الأمر بدأ يزداد سوءًا منذ فترة مع قتل عابري السبيل والمتسولين أو ناقصي الأهلية..»

هنا تصلبت، وبذلت مجهودًا عظيمًا كي لا أسقط في الماء.. هذا غريب بحق.. قال الرجل وهو مستمتع بدهشتي:

- «لا تندهش.. لقد مات ثلاثة أو أربعة.. ومجموع الأجزاء المسروقة من الجثث تسمح بتكوين جثة جديدة تمامًا.. هل تفهمني؟ يبدو أن التجارب صارت تحتاج إلى أجزاء طازجة من الجثث.. لم تعد الجثث القديمة تصلح»..

- «ولم لم تقتحموا البيت وتفتشوه؟»

- «لأننا في سويسرا هنا، ولا يمكن عمل شيء كهذا ما لم يكن معك أمر من المحكمة.. طبعًا اتجه أحدنا في تهذيب ليلقى البروفسور وطلب تفتيش البيت، لكن هذا طرده دون كلمة واحدة.. المحكمة لا ترى في الإشاعات التي تملأ الضاحية ما يبرر انتهاك حرمة دار الطبيب المخبول.. وهكذا أنا في مأزق.. لا بد من إثبات.. والإثبات يحتاج إلى تفتيش البيت.. وتفتيش البيت يحتاج إلى إثبات.. هذه هي الدائرة الكريتانية الشهيرة في علم الكلام، ولا خلاص منها إلا بأن تساعدنا...»

وضاقت عيناه كعيني ذئب، وقال:

- «ما الذي رأيته خلف جدران هذا البيت باد. (رفعت)؟»

☆ ☆ ☆

هنا قررت أن أصمت.. لا أريد أن أتورط مع البوليس السويسري أو أورط (فرانكنشتاين) قبل أن أتأكد مما يحدث حقًّا، وهكذا تظاهرت بالغباء وهززت رأسي:

- «لا يوجد شيء ذو بال.. فقط تجارب بالليزر على الخلايا..»

ظل يرمقني في ثبات وقتًا طويلًا بنظرة مربكة من طراز (لقد ـ بدأت ـ الكذب ـ إذن).. ثم مضغ لفافة التبغ، وقال:

- «ألا يوجد مسخ تم تشكيله من أجزاء مبتورة؟ تذكر جيدًا.. لعلك نسيت..»

- «إن ذاكرتي ضعيفة على كل حال لكن ليس إلى هذا الحد...»

ـ «شكرًا يا د. (إسماعيل).. لقد كنت جم الفائدة حقًا..»

وعاد يجلس في قاربه وأمسك بالمجداف وقال:

- «لو كنت تتكتم شيئًا ما فلسوف تجد أن القانون صارم هاهنا.. ولا يقبل إخفاء الشهادة..»

ثم راح يبتعد بالقارب، وضربات المجداف تضرب أفكاري في الوقت ذاته.. ومتثاقلًا اتجهت إلى بيت (فرانكنشتاين)..

☆ ☆ ☆

(أجاثا) في الفراش مريضة كعادتها، أمّا (بيتر فرانكنشتاين) نفسه فلم يذكر من أنا، وراح يتساءل بالألمانية عن المرّة التي التقينا فيها، كما راح يلومني بقسوة على أن زجاجات اللبن تتهشم حيث أتركها أمام الباب صباحًا، حتى ذكره (أدولف) بشخصيتي..

كان (بيتر) ثائرًا حانقًا.. لماذا؟ لأن الكائن الذي صنعه أو (برومثيوس) قد فر..

كيف حدث هذا؟ حدث أمس عند الغروب.. لقد اصطحبه إلى الشاطئ ليرى البحيرة... كان هذا في سياق تعليم الكائن تفاصيل العالم الخارجي.. لا بد من تلقينه الكلمات الأولية وعادات البشر..

يقول (فرانكنشتاين) إن الشرود اعتراه - كالعادة - فراح يرمق البحيرة ذاهلًا، وحين أفاق لم يجد المخلوق جواره.. لقد اختفى.. تلاشى تمامًا.. وقد جن جنونه وراح يفتش في كل صوب... خرجت (أجاثا) معه إلى البحيرة وبحثا كثيرًا جدًا لكن لا جدوى.. لقد ذاب وعلينا البدء من جديد...

قلت له في تهكم وأنا أدخل حقيبتي إلى المنزل:

- «لا بأس.. أعتقد أنك صرت خبيرًا في فن صنع المسوخ.. إن النموذج (برومثيوس - ٤) سيكون متقنًا بحق..»

قال لي في شيء من الضيق، وعيناه اللامعتان تزدادان اتساعًا:

- «ربما.. لكن هل تأكدت من (برومثيوس - ٣)؟»

- «كل شيء يؤكد نجاحك ولا يعلم سوى الله كيف فعلت هذا..»

- «تعني: كيف صنعت الكائن؟»

- «بل كيف أقنعتني به..»

ومن دون كلمة أخرى سبقته إلى الداخل، وأنا أستعيد تلك الرائحة العفنة الغريبة المميزة لداره.. رائحة كل الأنسجة العضوية التي راح يجرى تجاربه عليها منذ زمن.. الآن أفهم لماذا لم يكن البخور ينقطع في دار (ريا وسكينة) سفاحتي النساء الشهيرتين..

هل لهما حقًّا علاقة بجرائم القتل هذه؟ كل شيء ممكن لكنهما ليسا القاتل على كل حال.. القاتل في مكان ما بالخارج يبحث عن أجزاء مناسبة لـ (برومثيوس - ٤)...

وفي هذه المرّة صعدت إلى غرفة الفتاة دون استئذان، فقط قرعت الباب ودخلت، وكانت هناك في فراشها، وقد ازدادت شحوبًا ونحولًا..

سمعت صوت طرقاتي ففتحت عينيها، وسعلت مرّتين ثم قالت:

- «دكتور (رفعت).. قد عدت من (لوسيرن) سريعًا، وكنت أحسبك لن تعود أبدًا.. كيف حالك؟»

- «بخير للأسف..» - وقربت مقعدًا منها ورحت أقيس نبضها - «أريد أن تذهبي معي إلى (جنيف) حيث يجرى لك فحص طبي شامل.. إن مرضًا عضالًا يخرب جسدك الآن بالتأكيد.. الرقة لا تعني أن تموتي ثلاث مرات كل أسبوع!»

ضحكت حتى راح صدرها (يشخشخ) بلا انقطاع، وقالت:

- «مستحيل يا دكتور (رفعت)! الحقيقة هي أنك لا تعرف إلا ربع الحقيقة!!»

وفهمت على الفور ما تريد قوله.. لكني لم أقتنع به.. وحانت مني التفاتة إلى صورتها المعلقة ذات الشريط الأسود، وسألتها في حذر:

- «هذه ليست صورة الوالدة طبعًا...»
ابتسمت في خبث برغم سقمها وهزت رأسها أن لا.. ثم همست:
- «هذه صورتي!! إن سرطان الدم مرض خطير كما تعلم..»
وبنظرة حازمة قالت وهي تعتدل في رقدتها بعض الشيء:
- «هذه المحادثة لن تخرج من هذه الغرفة، ولو خرجت فلسوف أزعم أنك مخبول وأنكر كل حرف أقوله الآن.. أنا لن أتحول إلى فأر تجارب بشري أبدًا.. فهمت؟!»

☆ ☆ ☆

١١ - هكذا أُمرت..

ينتظر في الظلام قرب البحيرة..
يعرف أن عليه الانتظار.. ليس لديه عمل آخر ولا سبب ثان للوجود، وهو لا يملك أن يتساءل، وليست لديه إرادة خاصة به..
ثمة كلب يعوي في مكان ما.. يمرّ به.. إنّه يخاف الكلاب، لهذا يكشر عن أنيابه ويعوي بدوره كي يتراجع المخلوق المشعر ذو الأنياب..
لقد دنا موعد الطعام.. العشاء الساخن لدى الأسرة، لكن الأوامر التي صدرت له هي: لا تعد للعشاء إلا بعد أن تنتهي من مهمتك..
لقد شرحوا له المهمة ببساطة.. جعلوه ينظر من النافذة ويرى ذلك القارب في البحيرة، يركبه صياد ضخم الجثة لا يكف عن إطلاق الدخان من أنفه، ولا يكف عن اختلاس النظرات إلى الدار..
- «هل ترى هذا؟ هذا سيئ.. سيئ..»
ثم كالعادة ناولوه الخنجر الكبير والمنشار، وأشاروا إلى العنق..
فتحوا له الباب الخلفي، وعلقوا الحقيبة الجلدية الجميلة على كتفه.. الحقيبة التي عليها صورة نمر، ثم أغلقوا الباب..
وهكذا وجد نفسه يمشي في الظلام فوق الدرجات الحجرية الهابطة حتى البحيرة والقارب ذي المجدافين المربوط إلى المرسى..
الكلب يواصل النباح.. يلاحق ساقيه.. تبًّا.. إنّه سيلفت الأنظار له.. لم يكن هناك مجال للتردد.. انحنى وأطبق أنامله الغليظة على عنق الكلب وراح يضغط.. يضغط..
وانتهى من مهمته، فنزل إلى القارب.. كان يتأرجح ذات اليمين واليسار.. لأعلى وأسفل.. لكنه كان يعرف كيف يتحكم فيه.. انتظر بعض الوقت كما أمروه.. ثم أمسك بالمجدافين، وراح يتوغل في البحيرة في الظلام...
هذا سيئ.. سيئ..
الرجل السيئ ينتظر في قاربه هناك عند الضفة الأخرى، وفي يده منظار يسلطه على المنزل دون انقطاع..
حتى في الظلام لا يكف عن النظر... هذا حق.. ودنا منه بالقارب فنظر له الصياد مندهشًا.. أنه لم يعتد رؤية صيادين دانين منه إلى هذا الحد وفي هذا الوقت..
كان في فمه لفافة يُطلق منها الدخان.. هذا سيئ.. سيي..
قال له الصياد شيئًا لم يتبينه، ثم قال بلهجة آمرة:
- «غريب أن تختار هذا الموضع بالذات دون سواه في البحيرة كلها.. أرجو أن ترحل..»
ولما لم ينصرف، أخرج الصياد كشافًا من مكان ما في القارب وأضاءه ليرى وجه هذا القادم الجديد...

لا بد أن ما رآه لم يرق له كثيرًا، لأنّه مد يده في جيب سترته، يريد إخراج شيء ما وهو يصيح في رعب:

- «يا للهول!!»

هنا يثب من القارب فوق الصياد في قاربه.. ويتمايل القارب الأخير، لكنه يكون قد أولج خنجره حتى المقبض في عنق الصياد.. يُطلق صوت حشرجة طويلة، ثم ينقلب القارب في الماء ويغوص كلاهما..

كلا.. لم تنته المهمة بعد..

يخرج من الماء إلى المرفأ.. يجر جثة الصياد معه، وهو يعرف أن مهمته الآن هي انتزاع هذا الرأس ووضعه في الحقيبة لأنّهم يريدونه.. بعد هذا عليه أن يبعد الجثة عن البحيرة قدر الإمكان.. ربما إلى الغابة القريبة..

الآن يمكنه الظفر بالعشاء الساخن والنوم في الدفء حتى الغد..

غدًا سيقوم بعمل مماثل بالتأكيد...

☆ ☆ ☆

وفي الدار كنت جالسًا بقاعة الجلوس أقرأ بعض الأوراق العلمية التي نشرها (فرانكنشتاين) من قبل، وكلها تعتمد على خواص التحلل في الخلايا ومحاولة السيطرة عليها...

كان هناك كتاب صغير مبسط عن الليزر قرأته بعناية، فبدا لي الأمر غريبًا بعض الشيء..

ليس الليزر شعاعًا سحريًا يفعل المعجزات.. إنها - ببساطة - حزمة من الضوء المركز عديم التشتت، ويمكن التحكم في اتجاهه بدقة.. يمكن استخدامه كمبضع جراحي أو آلة كي أو لوقف النزف.. كل هذا جميل وله أهميته.. لكن ما أريد قوله هنا هو أن الليزر ليس شيئًا سحريًا، ولا يمكنه بحال إعادة الخلايا الميتة إلى الحياة..

المشكلة هي أننا نعرف عنه أقل القليل لذا نصدق كل ما يُقال عنه...

وتذكرت ما صاحب اكتشاف الهرمونات، حين كان الناس يحسبونها قادرة على عمل كل شيء وشفاء كل مرض...

الآن يحاول (فرانكنشتاين) استغلال الليزر للنصب..

والجاهل - من أمثالي - يصدّق كل شيء..

☆ ☆ ☆

وعند الغابة ـ وهو منهمك في جر الجثة منزوعة الرأس - سمع من يصيح به:

- «أنت!! قف عندك!»

لكنه لم يبال بهذا التحذير وواصل جر الجسد، ولم يبال كذلك بضوء الكشاف الذي غمر المكان وكاد يعمي عينيه، لكنه واصل المشي ولم يتخل عن الشيء الذي يجره... فقط زاد من سرعته أكثر..

- «أنت!! قف عندك!»

وكان هذا كافيًا كي يرفع المزارع بندقيته، ويُطلق الرصاص على ذلك الشيء المرعب الذي يجر جثة لا رأس لها.. وفيما بعد قال لامرأته إنِّه شعر بأن هذا هو الشيطان ذاته، وهو ليس نادمًا على الإطلاق على ما فعله...

بوم!

☆ ☆ ☆

بوم!

سمعت الطلقة حيث أنا في القاعة، لكني لم أهتم كثيرًا بذلك باعتبار تفجير الإنسان لرأسه أو رأس زوجته حقًّا طبيعيًا من حقوقه.. لكني سمعت المزيد من الضوضاء، وعرفت أن حدثًا جللًا يحدث هناك..

تنهدت وواصلت تفحص الصور الفوتوغرافية التي لدي...

بعد دقائق نزلت (أجاثا) مترنحة من غرفتها، وكان شعرها المنكوش ووجهها الشاحب ونظرة الرعب في عينيها، كلها أشياء جديرة بزومبي يغادر قبره في (هاييتي).. لا بأس.. لقد اعتدت هذا..

قالت لي في فزع:

- «ماذا حدث؟ لماذا يطلقون الرصاص؟»
قلت دون أن أرفع عيني إليها:
- «أحدهم يقتل أحدهم.. هذه الأشياء تحدث!»
ابتلعت ريقها ونظرت إلى الخارج حيث الظلام متوجسة..
ساد الصمت برهة ثم قلت لها في هدوء:
- «متى قمت بتبديل العينات في غرفتي؟»
نظرت لي كالملسوعة، واتسعت عيناها كما يفعل مصاصو دماء (هامر) في السينما حين يرون الصليب، وهتفت:
- «ما هذه الهلاوس؟»
- «أنت قمت بتبديل العينات التي أخذتها من هذا الكائن.. أعرف هذا ولدي دليل عليه..»
- «أنت تخرف! لقد انتهيت من تجاربك فحملت العينات وغادرت الدار مسرعًا إلى (لوسيرن).. لم يكن هناك وقت كاف لتبديل أية عينات لو كان هذا ما تعنيه..»
قلت دون أن أنظر إليها لأبدو قويًا كما يفعلون في السينما:
- «أنا لا أتحدث عن تلاعب في عينات (بعد) بل في عينات (قبل).. لقد تسللت لغرفتي وقمت بأخذ عينات الكائن الميت، ووضعت مكانها عينات الكائن الحي.. لا بد أنك بارعة في التزوير حقًّا حتى لفقت توقيعي على أنابيب الاختبار وكل شيء.. وكنت تعرفين أنني سأقوم بمقارنة هذه العينات لأتأكد من أن الكائن هو نفسه من رأيته ميتًا.. هذا سهل.. الآن يمكنني القول إن لديكما إنسانًا مسكينًا لا أدري من هو.. ربما هو متخلف عقليًا كذلك.. هذا الإنسان جعلت منة نموذجًا للمخلوق الذي سينهض، وصنعت جثة تشبهه تمامًا باستخدام المكياج وبراعة (فرانكنشتاين) السابقة في جراحة التجميل.. مع بعض لمسات على النموذج الحي نفسه ليعطي الإيحاء بأنه مر بجراحة غريبة.
«وأظن هذه هي الجراحة ذاتها التي مررت أنت بها لتعطينا الإيحاء بأنك جثة!»
صاحت في جنون حقيقي:
- «أنت تهرف بما لا تعلم.. أنت لا تملك دليلًا من أي نوع!»
قلت لها بنفس البرود:
- «يبقى لدينا موضوع الفيلم، وهو أسهل الأجزاء؛ لأن الفيلم تم تصويره بالكامل قبل هذا، ولم تكن الكاميرا تعمل حين حسبتها أنا كذلك... الأمر سهل.. لأنك توقعت بالضبط ما سيحدث: الضوء الساطع.. الدخان.. دخولنا إلى الكادر.. وقمت بعمل هذا كله.. لكنك نسيت شيئين: نسيت وضع الملاءة الذي اختلف بين الفيلم والحقيقة، ونسيت أن الإضاءة كانت خافتة جدًا في الغرفة، فمن أين جاءت تلك الإضاءة الساطعة المبهرة التي نراها في الفيلم؟ من حمَّض لي الفيلم وطبعه قال إن هذه إضاءة ستوديو سينمائي.. إضاءة محترفين.. فمن أين جاءت؟»
كانت عيناها متسعتين تمامًا.. لم يبق مزيد من الاتساع لها إن شاءت أن تظلا في محجريهما.. وقالت:
- «أنت خمنت كل شيء.. ولكن قل لي بحق كيف عرفت أنني تسللت لحجرتك؟ تقول إن هناك دليلًا..»
- «لا دليل.. كنت أكذب!»

كانت طلقة اختبار لكنّها أدت عملها جيدًا، وفي اللحظة التالية سمعنا صوت طرقات على الباب.. طرقات بوليسية حازمة.. لم تبد الفتاة حراكًا فنهضت أنا لأفتح الباب.. كان هناك ستة رجال مكفهري الوجوه، ولا شك في أنهم رجال شرطة..

قال أحدهم في حزم بالألمانية:

- «معذرة يا سيدي.. إن معنا أمرًا بتفتيش هذا البيت..»

وهنا دوّت الطلقة....

ونظرت للوراء فوجدتها ما زالت جالسة.. المسدس في يدها.. وذلك الثقب القبيح الدامي في صدغها..

☆ ☆ ☆

١٢ - الخاتمة..

هنا فقط عرفت أن (بيتر فرانكنشتاين) كان بريئًا.. مجرد مخلوق مخبول تعس يعيش في عالم وهمي، وبالتأكيد ما كان ليظل حيًا يومًا آخر لولا شقيقته..

حين سمع الطلقة ورأى جثتها، راح يعوي كالكلاب ويلطم خديه، ثم تكور على الأرض وراح يمصّ إبهامه كالرضع، ويئن أنينًا متواصلًا يمزق نياط القلب..

وبدأت خيوط القصة تتضح أكثر فأكثر...

كانت هناك عدة عوامل تحرك شخصيّة (أجاثا فرانكنشتاين) المعقدة الشرسة بطبيعتها.. كانت تعشق الموت منذ طفولتها، وهو ما يسموّنه أحيانًا بالـ (نهلزم) - العدمية - وأحيانًا هو (النكروفيليا).. كانت تحب المقابر وتتسلى بلعب دور الجثث في كل صورة ممكنة..

حين كبرت، شعرت بأن دماء جدودها التي تجري في عروقها تطالب بالتغيير.. تطالب بالسيادة.. وفي الوقت ذاته كانت مولعة بقراءة (ماري شيللي) حتى إنها كانت تعتقد أن روح الأديبة حلت فيها هي (الواقع أنها تشبهها بحق)..

هكذا بدأت تنفيذ المؤامرة الكبرى التي ستجعل أخاها شهيرًا.. خاصة لو تم هذا أمام شاهد مثلي.. وفي اللحظة المناسبة كان الكائن سيختفي وربما يحترق المعمل كله بما فيه من أجهزة.. هكذا سيغدو إثبات كلامها مستحيلًا، لكن الشوشرة والدوي المحيطين باسم (فرانكنشتاين) سيعيشان لفترة طويلة جدًا..

هناك عامل مهم آخر هو استمتاعها الخاص بجو الموت والجثث ولعب دور الميتة الحية... إلى حد أنها سمحت لأخيها بإحداث آثار تشويه في جسدها ليوحي بأنها خرجت من جراحة معقدة..

أما الكائن البائس فهو بالفعل كذلك: كائن بائس.. متخلف عقليًا قامت بتربيته في القبو بعد عمل المكياج اللازم له، وبعد انتهاء التجربة صار دوره هو الحصول على المزيد من الأطراف البشريّة، وفي النهاية قتل المفتش لاستغلال رأسه في مشروع جديد...

لقد كانت مأساة حقيقيّة..

وأقسى ما فيها هو أن الفتاة لعبت دورها ببراعة لا تصدق..

لكنها لم تحتمل فكرة انكشافها..

☆ ☆ ☆

انتهت أسطورة (فرانكنشتاين) لتبدأ قصة رهيبة أخرى..

قصة تتحدّث عن كلمات سبع.. لكنّها ليست كلمات عادية.. كلمات لها القدرة على.....

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - عن الأسطورة وصانعة الأسطورة..

٢ -أوراق منسية

٣ - هذا الرجل يزعم..

٤ ـ في (لوسيرن)..

٥ ـ بعد العشاء..

٦ - الشيء تحت الملاءة..

٧ - بروميثيوس..

٨ - لا تحاول يا دكتور!

٩ - إنّه حي!

١٠ - شيء غريب يدور عندكم..

١١ - هكذا أُمرت..

١٢ - الخاتمة..

Notes

[1←] بالمناسبة: يعتقد عدد كبير من النقاد أن (ماري) اشتقت اسم (فرانكنشتاين) من اسم (فرانكلين) الذي ألهمتها تجاربه على الكهرباء والصواعق هذه القصة..

[2←]
كارلو رامبالدي: إيطالي تخصص في المؤثرات الخاصّة السينمائية، وله أكبر عدد من الوحوش في أفلام الرعب..

[3←]
حقيقة.. أعني طبعًا أنّ هناك أسطورة ألمانية حقيقيّة بهذا المعنى، وبطلها يدعى (فرانكنشتاين)!

[4←]
لا تنس أننا نتكلم في عدم ١٩٧٢ وهو زمن مبكر جدًّا..

[5←]

يا لهذه الأساليب العتيقة قبل عهد البصمات الجينية وما إلى ذلك! إن الترسيب المناعي الآن هو قطعة من التاريخ كالتليفزيون الأبيض والأسود والمذياع ذي المصابيح..

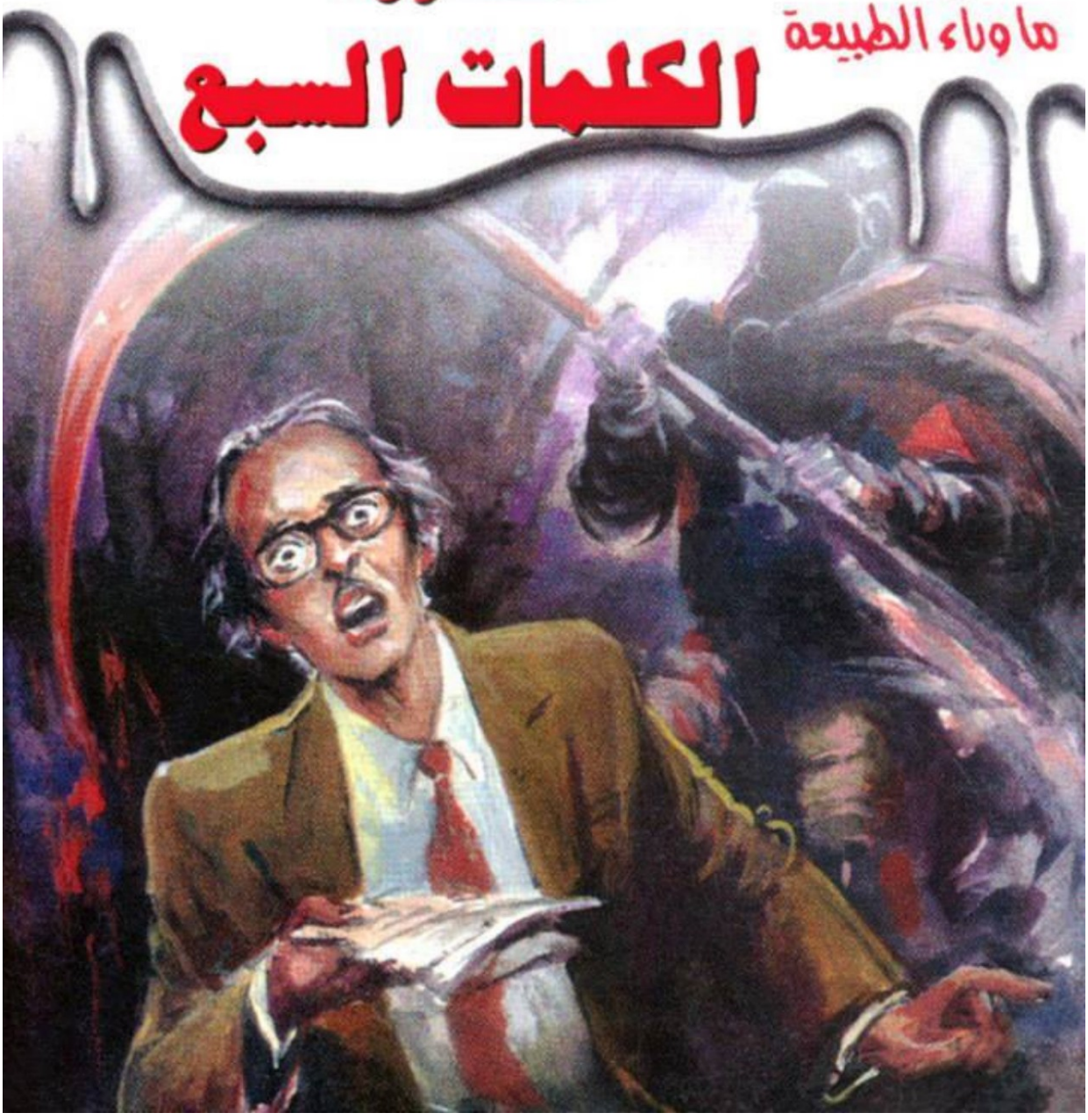
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

42

أسطورة الكلمات السبع

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



42

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة الكلمات السبع

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايـــات تحـبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصـرى مـائة فى المـائة
لا تشـوبه شبهة الترجمـة أو الاقتبـاس
أو النقــل عـن أية قصص أوربيـة .

●

إشـــراف
الأســتاذ/ حمـــدى مصطفـــى

●

جميع الحقـوق محفـوظة للناشـــر
وكل اقتبـــاس أو تقلـيد أو تـزييف
أو إعـادة طبع بالتزوير يعـرض
المرتكب للمســاءلة القـــانونية .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى
مصر الجديدة ـ القاهرة: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع.

مقـدمة

من ذلك العجوز الثرثار الذي لا يكف عن الكلام، ويعجز عن الموت؟

من الذي واجه النداهة في الحقول المظلمة، وفتح تابوت الكونت (دراكيولا)، وقبع في سيارة يحاصرها الموتى الأحياء؟

هل عرفتم الإجابة؟

من الذي رأى تجربة (فرانكنشتاين) الرهيبة، ووقف يرتجف على الجانب الآخر من (جانب النجوم)، بينما صرخات صديقه الوحيد تمزق سمعه؟

لقد دنوتم كثيرًا من الإجابة..

من الذي طارده الجنود النازيون الذين لم يموتوا، وزارته حسناء المقابر بعد منتصف الليل، وأقسم (لوسيفر) أن يقتله أبشع قتلة ممكنة؟

من؟ تقولون (جيمس بوند)؟

لو كان هدفكم استفزازيًا فقد نجحتم، أمّا إن كنتم تعنون هذا حقًّا، فإنني قلق بصدد حصيلتكم من المعلومات العامة..

إن (رفعت إسماعيل) هو (رفعت إسماعيل).. كائن متفرد في قبحه ونحوله وعصبيته واعتلال صحته، وخبراته العديدة في عالم الرعب والظواهر الميتافيزيقية..

اليوم يحكي لكم (رفعت إسماعيل) قصته مع الكلمات السبع، وهي قصة لا بأس بها، وقد حان وقتها من زمن..

تدور أحداث القصة على النمط التالي:

☆ ☆ ☆

١ - بداية البداية..

اسمعوا الكلمات السبع..

☆ ☆ ☆

الثلوج تنهمر من السماء في عالم رهيب.. عالم الكلمة العليا فيه هي للون الأبيض.. عندما يغدو الأبيض هو لون الموت..

عالم نسي كلمات (الدفء) و(الشمس) و(الزهور) من زمن، ولا عجب فنحن في قلب الشتاء..

نحن الآن في شمال (انجلترا) عام ١٢٥٧م.. المكان هو ممر (سبتال أوف جلتشي) قرب أخدود (جلين الكبير)..

المنطقة منطقة مستنقعات رهيبة، قلما دخلها أحد وعاد منها كي يحكي ما رآه، وقد تكفل الظلام والثلوج المنهمرة في جعل هذا موضعًا خارج خارطة الوجود الإنساني.. جنة للشياطين والأشباح..

وحقًّا كان القوم في القرى الدانية يتحدثون كثيرًا عن الأضواء الغريبة التي يرونها في الغابات ليلًا ووسط المستنقعات..

هذا هو المشهد الذي تبدأ به قصتنا، وهو بالتأكيد ليس مشهدًا محببًا أو داعيًا إلى التفاؤل.. لكن لا ذنب لي في هذا..

ولكن.. هل ترى؟

هل ترى هذا الفارس الذي يشق طريقه وسط المستنقعات فوق صهوة جواده؟ يا لشجاعته ويا لبراعته! كيف يجد طريقه وكيف لا تطوح به العواصف ليسقط في الثلوج الهشة؟

ثمة شيء ما يخيفني في هيئته المسربلة بالظلام.. شيء ما في جلسته المتصلبة على ظهر الجواد، والجواد نفسه يثير الرهبة بالبخار المتصاعد من منخريه؛ كتنين أسطوري من أساطير القدماء..

من هو هذا الفارس؟

ماذا يريد؟

من أين جاء ولأين يذهب؟

كلها أسئلة لا نملك لها جوابًا في الوقت الحالي..

☆ ☆ ☆

وفي أحد أكواخ الحطابين، تلتف الأسرة كلها حول النار والحساء الساخن.. إنها لحظة من أجمل لحظات اليوم..

الحساء خالٍ من اللحم طبعًا، فقد ندر الصيد في هذه الآونة، لكن من يهتم والعروق قد تجمد الدم فيها، فلم تعد تملك شروطًا؟ يكفي أن يكون الطعام ساخنًا، وليكن بعد هذا أي شيء..

تأمل الوجوه في هذا الوقت المبكر من تاريخ (انجلترا).. تأمل قصة الشعر العجيبة التي تتركه أصلع كله فيما عدا خصلة كعرف الديك في المنتصف.. تأمل الثياب الرثة المصنوعة من جلود لم تدبغ.. تأمل الجباه الضيقة الواشية بغباء ما بعده غباء، وظلام روح ما بعده ظلام.. وتذكر أننا في عصر يسبق عصر النهضة بعدة قرون..

الحطاب هو أضخم الجالسين، ويدعى (ويليام).. بينما امرأته هي الواقفة جوار الموقد تطهو الحساء، ثم تصبه في أوعية صغيرة من الفخار يشربون منها.. إن الملاعق لم توجد بعد..

هلم اجلس وتجاهل الرائحة.. إن الاستحمام لم يخترع بعد خاصة في هذا الزمهرير.. تحك رأسك؟ لا عليك.. هؤلاء القوم لا يبدلون ثيابهم أبدًا، ويعتبرون القمل والبق كائنات صديقة يمكن التعامل معها في مودة..

وفي الخارج يلعب الجليد ألعابه القاسية مع الطبيعة، وشعاره ألا رحمة بعابري السبيل..

☆ ☆ ☆

يقول الحطاب بصوت غليظ:

- «هاتي المزيد من الحساء يا (ماري).. فقد كان يوم شاقًا..»

هل سمعت هذا المقطع؟ هل ميزت اللغة؟

إنها ليست الإنجليزية طبعًا.. أو - إذا شئنا الدقة - هي الإنجليزية حين كانت رضيعة.. لقد انتقلت هذه اللغة إليهم من قبائل الجرمان والسلت التي غزت شمال البلاد، لهذا تبدو اللغة أقرب إلى الجرمانية (الألمانية فيما بعد)، وما زال أمامها الكثير كي تنفصل وتتفرد وتملك مصطلحاتها وقواعدها..

سمعوا دقات على الباب الخشبي العتيق..

تبادلوا النظرات.. ما من أحد يجيء في هذا البرد، فمن فعلها؟

وتقول الزوجة ببلاهة مذعورة، وغباء راجف:

- «لا تفتح أي (ويليام).. إن الشيطان وحده يمشي في عواصف كهذه..»

يقول وهو يتجشأ، ويحمل المشعل في يده اليسرى:

- «لو كان هذا عابر سبيل يا امرأة، فعلينا أن نمنحه المأوى.. هذا هو قانون الملك..»

وعلى سبيل الاحتياط امتدت يده اليمنى إلى البلطة، وحملها ثم دنا من الباب متربصًا وصاح:

- «من!»

- «عابر سبيل يبغي المأوى والمأكل ومستعد لدفع الثمن..»

- «من أين؟»

- «من الشمال حيث يلتهم فرسان السلت اللهيب، وتصطرع شياطين البحر للظفر بأرواح البحارة..»

كان الصوت قويًا عميقًا أمرًا، لكن لم يكن فيه ما يوحي بالخوف أو التطيّر.. وامتدت يد الحطاب تدفن البلطة في الأرض القذرة، ثم تزيح المزلاج الهائل وتفتح الباب..

مع الداخل تأتي العاصفة وقطع الثلج تقتحم الكوخ.. تتراقص النار في الموقد، وشهقة رعب وبرد تأخذ بأنفاس الزوجة والأطفال..

في اللحظة التالية كان قد دخل الكوخ وانغلق الباب..

- «وحصانك إن كان معك واحد؟»

- «نفق.. إن البهائم لأعجز منا عن تحمل هذا الطقس..»

وجلس الغريب إلى المنضدة الخشبية العتيقة التي صنعها الحطاب بنفسه، وثبت أجزاءها بالحبال..

من الغريب أن وجهه ظل في الظل الذي تسدله العباءة على ملامحه، ولم تنجح النار في إزاحة هالة الغموض من حوله، لكن ندف الثلج راحت تذوب على كتفيه، وتتحول إلى قطرات من ماء يهوى إلى الأرض محدثة صوتًا..

بليك! بليك!

وبيد مرتجفة تجلب له الزوجة بعض الحساء في وعاء صغير، فيمد يده إليه ويرفعه إلى فمه ويرشف عدة رشفات..

ساد الصمت.. من الغريب أن صوت العاصفة بالخارج غدا أقل صخبًا، وفي سرّه تمنى الحطاب لو يتكلم الرجل.. لو يثرثر.. فقط ليزيح رهبة هذا الجو..

إن الهلع يحتاج إلى خيال والخيال يحتاج إلى ذكاء، والذكاء كان أبعد شيء عن عقول هؤلاء الفلاحين القدامى، لكن كان لديهم. مخزون جاهز كاف من أساطير الشياطين ووحوش البحر؛ يكفي لجعلهم يرتجفون..

في النهاية تكلّم الغريب:

- «حساء طيب أيها الحطاب..»

وامتدت يده إلى طيات ثيابه، وبحث حتى أخرج قطعة من معدن أصفر براق: ذهب.. قذفها دون مودة حتى استقرت على المنضدة محدثة رنينًا..

- «ذهب! أنا دومًا أدفع بالذهب..»

ارتجف الحطاب، فهو لم يكن في حياته قد لمس عملة ذهبية، ولم تكن في مجتمعهم عملات، بل هم يمارسون المقايضة لو احتاجوا إليها.

- «سيدي... هذا كثير..»

- «بل هو ذهبك، فخذه...»

بيد متسخة مرتجفة مد الحطاب أنامله إلى قطعة العملة، ودسها في ثيابه.. وقال لنفسه: والله لو كان هذا هو ثمن استضافة هذا الغريب المنفر، فهى صفقة لا بأس بها أبدًا..

دار الغريب بعينيه حتى وقعتا على وجوه الأطفال الجالسين جوار المدفأة، وتساءل:

- «هؤلاء أطفالك؟»

في تملق قال الحطاب:

- «نعم يا سيدي.. (جاك) و(جون) و(إليصاباط)..»

- «أطفال طيبون.. طعام لذيذ المذاق.. أعني الأطفال..»

تساءل الحطاب:

- «إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟»

واصل الغريب احتساء عشائه، وقال:

- «ذاهب إلى (لوتيان).. (إدنبرة).. إن معي رسالة عاجلة إلى آل (ستيوارت)..»

قال هذه العبارة كأنما لا يجد فيها شيئًا غريبًا، وأحس الحطاب بأنه يريده أن ينزع هذا اللثام.. ستستقر الأمور عندها.. لكن القصة تفسر نفسها الآن.. هذا الغريب نبيل ثري قادم من إمارة (سكوتلاند) أو (ستراثكلايد) يحمل رسالة ما (في الغالب ذات طابع تآمري) لملوك (ستيوارت) في (لوتيان) [1].. وماذا يهمك من كل هذا؟ السادة يروحون ويجيئون، يتولون الحكم أو يعدمون، لكن حياتك هي هي.. لن تتغير أبدًا.. (طعام لذيذ المذاق.. أعني الأطفال)؟ هل قال: (طعام لذيذ المذاق.. أعني الأطفال؟)... ما معنى هذا؟ لكن الرجل يتكلم بهدوء ورصانة فمن الواضح أن أذني الحطاب خانتاه...

قال الحطاب:

- «أنت كريم المحتد إذن أيها الغريب، ولعلك أمير من الأمراء، أو قائد جيش..»

- «لنقل إنني عابر سبيل لا أكثر..»

من جديد ساد الصمت، ثم أصدر الغريب صوت تثاؤب.. فقد ثقل جفناه، وعابثه النوم حتى قهره...

أشار الحطاب إلى كومة من الجلود في ركن المكان، وقال:

- «يؤسفني أننا لا نملك مضجعًا أكثر راحة.. ستنام ليلتك هناك، ولسوف أنام حيث أنا، وتنام المرأة والأطفال فوق المدفأة..»

هزّ الغريب رأسه بما يعني أنه موافق على هذا الترتيب، وفي تؤدة نهض.. فارع الطول مهيبًا مريعًا يلقى على الجدار بظل أشد هولًا، واتجه إلى ركن الكوخ فافترش الأرض بعدما رتب الجلود قليلًا، وسرعان ما انتظم تنفسه..

قالت الزوجة في رعب:

- «من هو؟ إنّه مخيف..»

رفع زوجها إصبعًا إلى فمه، وهمس:

- «صه يا امرأة! إنّه عابر سبيل نبيل ودفع بالذهب.. هذا كل ما يهمني في اللحظة الحالية..»

كان الجليد يرتطم بالكوخ من الخارج، وأدرك الزوجان أنهما لن يناما هذه الليلة.. لا أحد ينام بينما هذا الضيف الغامض هنا....

لا بد من الجلوس ومراقبته..

قالت الزوجة للأطفال في خشونة:

- «الآن تنامون.. تعالوا لتتسلقوا المدفأة..»

ومشت بهم فوق أرضيّة الكوخ القذرة، وكانت الإضاءة ضعيفة حقًّا لكنّها استطاعت أن ترى القطرات على الأرض..

- «(ويليام).. ما هذه القطرات؟»

وجثت على ركبتيها، وتلمست الغبار.. نعم لا شك في هذا.. هذه قطرات دم!

انتقلت بعينيها إلى الغريب النائم، وأدركت أنه هو مصدر هذه القطرات.. صوت البليك - بليك الذي سمعته لم يكن سببه الماء، بل هو شيء أثقل وأكثف..

مدت إصبعها لزوجها تربة اللطخة الحمراء:

- «هل ترى؟ هذا الغريب كان ينزف وما يزال!»
- «مستحيل يا امرأة.. لقد كان ثابت الجنان وهادئًا، فما أحسب مريضًا يمارس هذا الهدوء كله..»
- «إن الدماء لم تأت منك ولا مني ولا من الصبية..»
هنا دوى صوت غريب...
صوت استطاعا تمييزه في العاصفة، ودون جهد عرفا مصدره...
لو كان هذا صهيل حصان بالخارج - أو فرضنا جدلًا أن حصانًا يستطيع البقاء حيًا في هذا الطقس - فلماذا زعم الغريب أن حصانه قد مات؟!
هتفت وهي ترتجف:
- «(ويليام)! هذا الغريب يكذب! والأدهى أنه لا يريحني على الإطلاق..»
نظر إلى الدماء على الأرض..
للأسف كان يتمنى لو صارحها بحماقتها؛ لكن الأمر واضح ولا يحتاج إلى شكوك أخرى.. أتراه شيطانًا جاء من المستنقعات؟
قال لها وهو يتحسس بلطته:
- «سأنادي باقي الحطابين.. إن (هود) و(إدجار) سيحطمان عنقه لو كان كما أحسبه..»
تحسست يده منذرة، ولوحت بإصبع أمام شفتيها للأطفال كي يلزموا الصمت، ثم هتفت في الظلام:
- «قبل أن تفعل علينا أن نلقي على وجهه نظرة.. نظرة واحدة..»
- «ولمه؟»
- «حتى لا يسخر الرجال منك، لأنك هلعت كل الهلع من عابر سبيل بريء..»
- «فكرة لا بأس بها..»
وأمسك بالبلطة، واتجه بحذر نحو الغريب الذي كان راقدًا على جنبه الأيسر ووجهه نحوهما..
- «قربي الشعلة يا (ماري)، فأنا لا أبصر شيئًا..»
قربت الشعلة أكثر.. كان الرجل غافيًا كأنما لم ينم في حياته، وكانت أستار مسوحه تغطي ملامحه وتغمرها بالظلال..
لهذا - بحذر - مد الحطاب يده يزيح المسوح عن الوجه..
ولم يكن ما رآه سارًا...

☆ ☆ ☆

بعد يوم واحد اجتاح الوباء إمارة (سكوتلاند) كلها، فقتل من قتل، وتكدس الموتى بالمئات في الطرقات، فلم يجدوا من يدفنهم لأن اللحادين ماتوا بدورهم..
كتب الأب (جستنيان)، وهو من المبشرين القلائل الذين تواجدوا في هذه الأصقاع في هذا الزمن:
- «يبدأ المرض بحمى وآلام في الرأس وفقدان شهية للطعام، ويغدو للوجه لون أحمر كأنما الدم يوشك على الانفجار منه، وكذا تتلون العينان بالدماء..

«تسود الأطراف وتتصاعد منها رائحة نتنة، بينما يذوب اللحم ذوبانًا، وبعد أيام ستة يمتلئ الجسد ببقع حمراء تصغر لتكون كالبراغيث، وتكبر لتكون كقطعة الذهب.. وفي مرة لا تمس هذه البقع الوجه..

«كان من تصيبه هذه البقع يجن ويعوي كالكلاب، وكم من مريض فر واقتحم ديار الأصحاء، لأن الكلمة ذهبت في الناس أن من ينقل المرض إلى سليم يُشف من مرضه هو..

«ندر الطعام، وكثر السلب والنهب، وأحرق الناس أجساد المرضى في الطرقات وبعضهم كان حيًّا.. وجاء الفرسان يُعملون النار في الأكواخ بغية تطهيرها من الشر...»

«لئن لم ينقذنا الرب فنحن جميعًا هالكون..»

انتهت كلمات الأب، لكن رنينها ما زال يدوي عبر القرون، وما زلنا نتساءل عن كنه هذا الوباء المريع، والكيفية التي انتقل بها..

لكنه انتهى أخيرًا كما ينتهي أي وباء بعدما يستنفد دورته، ولا توجد إحصاءات دقيقة - بالطبع - عن عدد الضحايا، لكنهم بالطبع يقدرون بالآلاف ككل أوبئة العصور الوسطى تلك..

نترك الآن القرن الثالث عشر، ونترك شمال إنجلترا، ونتجه إلى مكان وزمان مألوفين لنا..

القاهرة.. القرن العشرون..

☆ ☆ ☆

٢ -(حمزة) وأنا..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون..

☆ ☆ ☆

يذكر من قرءوا (رعب المستنقعات) منكم ـ الكتيب رقم ٢٣ ـ أنني تلقّيت بالبريد مفكرة عتيقة تجعدت صفحاتها، وكانت ممن يُدعى (س. ب)، وحدث جدل عما إذا كانت (س. ب) ترمز إلى (ساندرا بيكيت) أم لا.. إذا كان هذا صحيحًا فالقصة كانت من أفظع وأغرب ما مر بي..
أما إن كانت (س. ب) ترمز بشكل ما إلى (سارة ستوكلي)، فهي مجرد قصة بوليسية أخرى..
حسن.. لم يعد الوقت وقت هذا النقاش.. المشكلة الآن في العبارات التي تلفظ بها (عزت) إذ وجدها في المفكرة:

☆ ☆ ☆

مجموعة النداء الأولى:
أرتميس ـ كاسيس ـ هرملاكايوس.
ثم بيركادوس (أربع مرات).
مجموعة النداء الثانية:
أشيوست ديمترا ـ إرسادوك.
(في وجه القمر).
إينياس (تعمل وحدها دون معين)..

☆ ☆ ☆

«لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال، فيما عدا هذا تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط..»

☆ ☆ ☆

يذكر القراء أنني كنت عند (عزت) في شقته أبدى انبهاري بتماثيله العجيبة، حين تناول المفكر وراح ـ على سبيل التطرف ـ يقرأ تلكم الكلمات بصوت جهوري، ولم أتنبه إلا متأخرًا جدًّا..
ولما كان الأمر كله يوحي بخدعة ما، فقد تناسيت ما حدث..
لقد كان كل هذا لعبًا بالنار، لكن النار لا تحرق دائمًا.. أحيانًا نلعب بالنار وننجو.. وسل عن هذا أي حاوٍ في الأسواق..

عند الفجر عدت إلى شقتي، وغرقت في تساؤلات لا نهاية لها عن حقيقة ما حدث لتلك المجموعة الظريفة من الأسكتلنديين؛ التي قررت أن تمضي إجازة العيد قرب المستنقعات..

كما فهمنا جميعًا كانت فكرة الزوج غريب الأطوار (أندرو) هي إعادة إحياء تقاليد وطقوس قبائل (السلت)..

أولًا: كان هناك شيء مريع يُدعى (إكليبوس).. وهذا سيئ..

ثانيًا: كان (إكليبوس) يطلب ضحايا بشريّة يتم غمرهم في مياه المستنقع.. وهذا شنيع..

ثالثًا: بعد غمر الضحايا؛ يتم استدعاء (إكليبوس) بنداء معين، هو - في الغالب - تلك الكلمات الغامضة.. وهذا مثير للهلع..

رابعًا: يبدو أن (أندرو) كان أحمق.. لم يوجد شيء يدعى (اكليبوس).. الشيء الوحيد الذي كان موجودًا هو خاصية غريبة مخيفة لهذه المستنقعات، بالنسبة للجثث التي تغمر فيها.. وهذا يبعث على القشعريرة..

والنصيحة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من القصة هي: حين تقتل أحدًا فلا تغمره في المستنقعات قرب ممر (سبتال أوف جلينشي)، وهي نصيحة مفيدة لكنّها لا تهم سوى الإخوة السفاحين الأسكتلنديين، ولا أظنها تهم القارئ كثيرًا..

☆ ☆ ☆

بعد أيام كنت في مكتبي بالكلية، عاكفًا على فحص بعض عينات نخاع الدم لمريض بسرطان الخلايا المشعرة.. وكان (سامي) الطبيب الشاب الذي يعمل معي يحاول إقناعي بأنني أحمق، بينما كنت أحاول إقناعه بأنه شاب بلا خبرة..

أقول: كنت منهمكًا في هذا النشاط؛ حين جاء من يقول لي إن الدكتور (حمزة الصاوي) يبغى لقائي..

(حمزة الصاوي)؟ أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، وهو اسم غريب له رنين ملفق كما يحدث في القصص.. دائمًا ما يكون أبطال القصص لهم أسماء غريبة لا نسمعها في الحياة الواقعية إلا نادرًا؛ وأرجو هنا ألا يكون هناك (حمزة الصاوي) فعلًا ويرفع عليَّ قضية، فأنا لا أقصده البتة..

دعوته إلى الدخول فوجدت التالي:

هو رجل في الخمسين من عمره، له لحية بيضاء أنيقة حسدته عليها، وعوينات من الطراز المخصص للقراءة فقط، لهذا هي على شكل هلالين يتدليان على قصبة أنفه، وعلى رأسه كاسكيت من الطراز المثلث الذي يضعه (سوكارنو) على رأسه، وإن كان من الفراء..

أما عن ثيابه فكانت غير متناسقة الألوان تشي بذوق شنيع أو عمى مطلق، ولم تكن غاية في النظافة أو التنسيق..

هذا طراز أعرفه وأفهمه على الفور.. لقد عرفته حين قابلت (كولبي) النصاب اليهودي الذي أقنعني يومًا أنني تناسخ لشخصية (إدجار آلان بو)، وهأنذا أعرفه ثانية.. هذا الرجل مدّعٍ متعصب وربما نصاب أو مخبول.. لا شك في هذا..

لكن بماذا يحاول إقناعي هذا الوافد الجديد؟

جلس وجفف عرقه، وراحت شفتاه تهتزان كأنما يردد شيئًا ما في سرّه، ثم بدأ الكلام:

- «أريد الكلام معك على انفراد يا دكتور (رفعت)..»
- «نحن على انفراد بالفعل..»
وأشرت لـ (سامي) الذي جلس متصلبًا يرمق الرجل، كأنما هو طفل يرى الخرتيت في حديقة الحيوان للمرة الأولى في حياته..
تنبه (سامي) فنهض وعيناه لا تفارقان الرجل..
قال الرجل بعدما اطمأن إلى أننا وحدنا:
- «دكتور (حمزة الصاوي)..»
- «لقد عرفت هذا..»
وناولني بطاقة لها رائحة زيتية ثقيلة كتب عليها ما توقعته:

دكتور/ حمزة الصاوي

خبير في الروحانيات والتنويم المغناطيسي

- «تشرفنا يا دكتور.. ترى في أي فرع من العلم نلت الدكتوراه؟»
جفف عرقه بمنديله المحلاوي العملاق، وقال:
- «إنها دكتوراه فخرية في علوم الروحانيات، نلتها من جامعة (فارنا)..»
كنت أتوقع هذا أيضًا، وعلى المستريب أن يذهب إلى جامعة (فارنا) لسؤالهم.. هذا بالطبع لو كانت هناك جامعة في (فارنا)..
- «بِم يمكنني أن أساعدك؟»
مد يده في جيبه، وأخرج مجموعة من الأوراق الصفراء كلها لها ذات الرائحة الزيتية الخانقة، وقال:
- «بأن تصغي إلى القصة من بدايتها..»

☆ ☆ ☆

قال الدكتور (حمزة):

- «لا أدري متى ولا كيف وجدت أنني أتمتع بموهبة الوساطة الروحية، لكني أعتقد أنّ هذا بدأ مع المراهقة..

«إن سن المراهقة تمتاز بتحولات نفسية ومعنوية رهيبة، ويكون الإنسان وقتها في وضع هش للغاية يسمح له بالمس أو أن يكون وسيطًا مناسبًا للأرواح..»

لست موافقًا تمامًا على هذا، ولا أفهم كيف يتحدث المرء بثقة مطلقة عن شيء لا يعرف تفاصيله إلا الله (تعالى)، لكني على الأقل أعرف ما يقولون عن هذه الأمور.. الفارق واضح هنا.. أعرف كل مايقال، لكني لا أعرف شيئًا عن مدى صحته..

يقولون: إن المراهقة هي السن المثلى لبدء الوساطة الروحية، وخاصّة الفتيات المراهقات حين يبدأن في الأنين ليلًا والكلام بصوت غليظ رجولي، مع أصوات الخدوش في الفراش حين ينمن..

علماء النفس يتحدثون عن الاضطراب النفسي والتفاعلات الهستيريّة والكبت، بينما يتحدث الروحانيون عن المس والوساطة.

لقد عولجت هذه الفكرة ببراعة شديدة في قصة (طارد الأرواح الشريرة[2]) للكاتب الأمريكي اللبناني (ويليام بيتر بلاتي)، وقد قرأت الرواية وشاهدت الفيلم الرهيب في (لندن)، فلم تعد الفكرة تثير دهشتي..

الخلاصة: يُقال إن المراهقة تشبه (ساعة الذئب) من حيث الضعف والهشاشة والقابلية للإيذاء الروحي..

قال د. (حمزة):

- «تدريجيًا عرفت جلسات تحضير الأرواح، وكنت ألعب في أكثرها دور الوسيط الذي يغطي وجهه بمنديل ويدخل في سِنة الوساطة، وعن طريقه تتكلم الأرواح في الظلام، وتكتب وتفعل.. وفي الغالب كنت أفيق من السِنة ناسيًا كل شيء عما حدث، لكني كنت أجد وجوهًا ذاهلة وعيونًا زجاجية ترمقني، ويقولون لي إنني فعلت أغرب الأشياء وكشفت عن أكثر الأسرار غموضًا.. رباه! لكم من كنوز وجدت، وكم من أوراق مخبوءة أخرجت، وكم من رسائل كتبت..

«على أنني في سن الخامسة والعشرين بدأت أدرس موهبتي بعناية، وصارت لي القدرة على أن أتحكم فيها كما أريد..»

«وتدريجيًا صارت لي (شلة) أصدقاء في عالم الأرواح!»

☆ ☆ ☆

٣ - خطر يتحرك..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال..

☆ ☆ ☆

مازلنا إذن مع د. (حمزة) في قصته الغريبة بعض الشيء:

- «كان من هذه الأرواح من أعرفه ومن لا أعرفه.. من أرتاح إليه ومن يشعرني برهبة أجد صقيعها يزحف على فقرات ظهري..

«لكن زائرًا معينًا كان يجيء لي من وقت لآخر، ويثرثر معي، وكنت أحب صحبته برغم لغته الإنجليزية القديمة الغريبة بعض الشيء، وقد أحتجت إلى ثلاثة أعوام كي أعرف أنه راهب كاثوليكي كان يعيش في (أسكتلندا) في زمن بعيد جدًا.. جدًّا...

«ربما كان ذلك في أثناء ما عُرف بالقرون الوسطى، لكني أعتقد أنّ هذا كان قبلها.. لا أدري حقًّا..»

تراجعت إلى الوراء في مقعدي لاتفحص (حمزة) بدقة، وقلت له بلهجة حاولت أن تكون محايدة:

- «أنت صادقت مبشرا كاثوليكيًا من (أسكتلندا)، ومن نحو عشرة قرون؟ ألا ترى شيئًا غريبًا في هذه القصة؟»

رشف رشفتين من القهوة التي جلبتها له، وقال:

- «معذرة! لا أفهم ما ترمي إليه..»

كنت أعرف أنّ هذا الطراز من الرجال حساس جدًا، سريع الغضب، وغضبه يعني دومًا الصراخ ولترًا من اللعاب يسقط فوق رأسي (لأن هؤلاء القوم لا يتكلمون دون رذاذ لعاب)، لذا آثرت أن أكون حذرًا وأتكلم في كياسة:

- «أعني أن المعتاد هو أرواح من طراز (هتلر).. (بونابرت).. (ريا) و(سكينة).. لكني لم أسمع عن واحد استحضر هذا التخصص الدقيق في الأرواح..»

- «لأن الآخرين نصابون!»

قالها في عصبية بدأت تترعرع، وأردف:

- «أكثرهم نصابون.. لهذا لايتحدثون إلا عن أرواح بسيطة سهلة نسبيًا.. يُمكنك دومًا أن تتكلم كأنك (نابليون)، لكن من العسير أن تلفق كلام وأفكار راهب من العصور الوسطى مالم تكن صادقًا.. وعلى كل حال أنا لم أختره.. هو اختارني..»

- «وما اسم هذا الراهب؟»

- «اسمه (جستنيان).. وقد مات في وباء غامض..»

هززت رأسي بمعنى أنّ هذا معروف، وقلت:

- «إن تاريخ القرون الوسطى ليس سوى سلسلة لاتنتهي من الأوبئة، وليست كلها طاعونًا دمليًّا.. لقد هلك الآلاف بفعل (الإسقربوط) وهم ينزفون دمًا، قبل أن نعرف أن علاجهم هو بعض

عصير الليمون.. ولقد هلكت جيوش كثيرة بفعل الزحار الأميبي والكوليرا.. وكان للتيفوس منزلة خاصة حيثما وجد القمل..»

لم يعلق، وفتح الأوراق الصفراء وراح يقرأ:

- «الوباء يبدأ بحمى وآلام في الرأس واحمرار في العينين والوجه، ثم تسود الأطراف وتتآكل.. بعدها تنتشر بقع دموية تحت الجلد في كل مكان ماعدا الوجه، ويصاب المريض بجنون فيصرخ، ويهلوس، ويركض محاولًا الفرار من فراشه.. ولم ينج أحد قط متى ظهر ذلك الطفح الدموي..»

- «وهل كان شيء كالبيضة يظهر في أعلى الفخذ؟»

- «لا..»

- «ومتى كان الطفح يظهر؟ اليوم الخامس أو السادس؟»

- «نعم.. اليوم السادس..»

قلت وأنا أرشف قهوتي بدوري:

- «ليس الوباء غامضًا إلى هذا الحد.. إنّه التيفوس الوبائي، ومن الواضح أن أوبئة كثيرة من (الطاعون)، تلك الأوبئة التي تتحدّث عنها كتب التاريخ، ليست في الواقع سوى حمى التيفوس.. إنك تجد نفس الوصف تقريبًا لدى (هيرودوت) و(ديودور الصقلي) وأطباء الحملة الفرنسية وحرب القرم.. لقد كان للتيفوس دور أهم بكثير مما كنا نحسب..»

قال د. (حمزة):

- «لقد وصف الراهب المرض بدقة لكنه لم يعرف سببه.. وعلى كل حال هو نفسه قد مات في أثناء محاولته تمريض المصابين..»

قلت وأنا أخط على الورقة مستطيلات لا معنى لها (وإن كان الخبراء يقولون إنها تدلّ على الرغبة في الموت).

- «هذا أيضًا طبيعي.. يوجد نوعان من التيفوس: نوع وبائي ينقله القمل، ونوع متوطن تنقله البراغيث.. من السهل أن تنتقل قملة إلى ثياب من يقوم بتمريض الحالات...»

ثم أردفت وقد نفد صبري:

- «مازلت لا أرى خلاصة هذه القصة..»

قال د. (حمزة) وهو يلعق (تنوة) القهوة من على شفتيه:

- «كانت هذه مجرد ثرثرة بريئة من التي تتبادلها الأرواح مع الوسطاء، ولم يطل الرجل الكلام، لكني فهمت مدى قسوة وسواد تلك الأيام التي عاشها هناك..

«منذ أسبوع واحد جاءني وقال لي إن شيئًا ما يحدث.. شيئًا شريرًا.. هو شعر به، وقد انفتحت أبواب الجحيم بهذا المقدار..»

ومد سبابته الغليظة وأشار بإبهامه نحو نصفها.. ثم أردف:

- «قال لي إن الكلمات السبع عادت تتردد.. هو سمعها وشعر بها..»

☆ ☆ ☆

كنا جالسين في مكتبي؛ أحاول فهم ما يريد قوله وأمنعه من إضاعة وقتي في يوم حافل بالعمل كهذا..

قلت له وقد انتقلت من مرحلة رسم المستطيلات إلى رسم قبور حقيقيّة عليها شواهد، وتقف فوق كل منها بومة حادة النظرات:

- «ما هي هذه الكلمات السبع؟»

مط (حمزة) شفته السفلى علامة الجهل، وقال:

- «الله (تعالى) بهذا أعلم.. كل ما يعرفه الرجل - أو من كان رجلًا - أنها كلمات بلغة قوم وثنيين عاشوا في شمال (أسكتلندا).. كلمات سحرية آثمة لها القدرة على.. على استدعاء الوباء!»

هنا اتخذت وضعًا في الجلوس هو إلى الوقوف أقرب، وقلت في عصبية:

- «يا عزيزي يمكنني أن أوافقك إلى هذه النقطة، بعد هذا يفترق رأيانا.. أنت تعرف أن كل وباء له جرثومة وطريقة انتقال، وظروف معينة تسهل انتشاره في حقبة زمنية معينة بدورها.. لم يعد من السهل أن نتحدث عن التعاويذ الشريرة كما كان يحدث في القرون الوسطى، وكما ما زال يحدث لدى البدائيين..»

ابتسامة معسولة شاعت على وجهه، كما لو كان يدعو طفلًا إلى التعقل، وقال:

- «اصبر على رزقك! دع لي الفرصة لاستكمال كلامي..»

- «حسن.. سأصبر..»

- «لقد ترددت هذه الكلمات السبع مرّتين هذا العام.. وقد شعر بهما، الأولى في أرضه هو.. والثانية هنا في مصر.. وهو لا يعرف من نطق بهما في المرتين، لكنه ما كان ينبغي أن يفعل.. يقول إن الوباء سيأتينا زائرًا، ولسوف يرحل بعد يومين تاركًا طريقًا طويلًا من الأرض الخراب، والقتلى والروائح النتنة والدماء وأنين المحتضرين..»

- «أعوذ بالله!»

- «لقد سألت الراهب عن سبيل منع هذا الشر كله، فقال إنّه لا يعرف.. لكنه يعرف كيف يمنع المزيد منه.. لا بد من القضاء على الكلمات السبع كي لا تكون مصيدة للسذج ومطمعًا للأشرار.. كثيرون سيلفظونها غير عالمين بخطرها، وكثيرون سيلفظونها عامدين متعمدين طلبًا لسيطرة أو هيمنة، ومن جديد هم لا يعلمون خطرها..»

قلت لد. (حمزة) وقد بدأ الأمر يروق لي:

- «هل تعني أنّ هذه الكلمات السبع من تراث (السلت) السحري؟»

- «لا أعرف.. إنها من تراث قبائل وثنية عاشت في شمال (أسكتلندا)..»

- «لعلهم (السلت) أو (الفايكنج) أو (الجرمان).. لن نعرف أبدًا.. ولماذا هي سبع؟»

ابتسم ابتسامته المعسولة، وقال:

- «سؤال غريب.. ولماذا أصابعك خمسة؟ ولماذا الأسبوع سبعة أيام؟»

كان محقًا، غير أن الرقم (سبعة) أهميّة خاصة في وجدان البشريّة الجمعي لا يمكن فهمها.. سأتحدث عن هذا بتفصيل أكثر في (أسطورة الرقم المشئوم)، لكني وجدت أن الأديان تعطى أهميّة خاصة لرقم سبعة.. في الإسلام ذكر القرآن الكريم السموات السبع والبقرات السبع، وفي المسيحية تجد الأسرار السبعة، وفي اليهودية تجد الشمعدان السباعي.. في سحر اليهود المسمى (كابالا)، تجد أن الطبقة السابعة من شجرة الحياة هي (نتزاخ) وتساوي كل ما هو قوي في الحياة..

أيام الأسبوع سبعة.. السلم الموسيقى جعله (فيثاغورس) سبع نغمات.. أبراج (بابل) تتكون دومًا من سبعة طوابق.. التقارير الطبية تنصح بعلاج على ٢١ يومًا (٣×٧).. ألوان قوس القزح سبعة..

حقا ثمّة لغز رهيب يحيط بهذا الرقم.. سبعة..
واليوم توجد كلمات سبع، يزعم هذا المتعصب أنها قادرة على استدعاء الوباء.. وباء لا نعرف عنه إلا أنه يشبه التيفوس، والأظرف هو أنني لا أعرف دوري في هذا الموضوع...

☆ ☆ ☆

٤ - (عزت) وأنا..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات..

☆ ☆ ☆

مازلنا إذن - أعزائي المستمعين - مع د. (حمزة الصاوي) في جلستنا التي طالت في مكتبى..

أعترف بأنني بدأت أحب هذا كله.. فالقصة تحوي لعنة قديمة ووسيطًا روحيًا مخبولًا، ووباء أسكتلنديًا عتيقًا.. هذا جو ساحر بشرط ألا أتورط فيه بشكل ما، وأنا لم أعد ابن البارحة.. لن يستطيع أحد إقحامي في هذه القصة السخيفة أبدًا..

قال د. (حمزة):

- «قالت لي الروح إن البداية والنهاية توجد عند معالج مصري يُدعى (إسماعيل).. (رفعت إسماعيل).. هو من يعرف مصدر الكلمات السبع ويعرف متى لفظت، ويعرف كيف يقضى عليها!»

كنت أشرب جرعة ماء لحظتها، فانطلق الرذاذ في وجهه مع الصوت المعهود لمن يفاجأ بشيء لم يتوقعه:

- «بوش ش ش ش!»

أخرج منديله المحلاوي الذي يصلح كفنًا له بعد موته، وراح يجفف وجهه وهو يردد:

- «خيبك الله! ألا تستطيع أن تكون أكثر حذرًا؟»

- «نعم لا أستطيع.. لقد كان هذا آخر ما توقعت.. هلا تفضلت بأن تشرح من أين لي العلم، وأنا أسمع القصة منك للمرة الأولى؟»

دسّ المنديل في جيبه، ونهض قائلًا:

- «لا أعرف.. لقد كلفتني الروح بمهمة وقد قمت بها، والآن جاء دورك أنت..»

ثم صافحني في حرارة:

- «إننا نعتمد عليك كي تنقذنا من التيفوس! وداعًا!»

صحت وأنا اضغط على يده لأستبقيه:

- «لحظة! كيف وجدت مكانى؟ لا بد أنّ هناك ألف (رفعت إسماعيل) في القاهرة وحدها..»

في لؤم قال:

- «وهل يخفى القمر يا دكتور؟ كنت من هواة البرنامج الإذاعي (بعد منتصف الليل).. صحيح أنه ينم عن جهل مطبق بعالم (الميتافزيقا) وأقرب إلى التسلية؛ لكني لم أفوت حلقة واحدة، ولهذا عرفت أنك (رفعت إسماعيل) المطلوب..»

وخلص يده وقال:

- «ستجد عنواني ورقم هاتفي على ظهر البطاقة، لو أردت أن تستفسر عن شيء..»

- «أحقًا؟ وهل لديك بللورة سحرية وبندول وما إلى ذلك؟»
مط شفته السفلى في احتقار، برغم أنني لم أتعمد الأهانة..
وانصرف تاركًا إياي مع حيرتي وأفكاري المضطربة..

☆ ☆ ☆

ليومين أو ثلاثة نسيت الموضوع تمامًا.. لقد صار من العسير عليَّ أن أتذكر كل المعتوهين الذين ألقاهم في حياتي..

وفي تلك الليلة أويت إلى فراشي في الثانية بعد منتصف الليل، وكان ألم ممض يشق صدري، فتذكرت المقولة الشهيرة: ألم المعدة بعد سن الأربعين قد يشير إلى القلب.. ألم القلب قبل سن الأربعين قد يشير إلى المعدة.. من يدري؟ قد لا تكون نوبة قلبيّة بعد كل شيء.. لكن فكرة الموت بدت لي رهيبة.. أنام الآن ثم لا أصحو أبدًا.. أن تكون هذه آخر علاقتي بضوء الشمس والجريدة وطعام الإفطار...

لهذا آثرت أن أنتظر النتيجة (قلب أم معدة؟) في الفراش وأنا بكامل يقظتي، وقد ارتديت ثيابي كاملة تحسبًا للأسوأ..

وبعد ساعة أدركت أن الأمر يزداد سوءًا.. القبضة العاتية التي لا تكف عن اعتصاري جاعلة التنفس عسيرًا بحق، وذلك الشعور بانعدام الحيلة الذي تحدّثت عنه كل كتب الطب من عهد (ابن سينا) حتى اليوم..

أخيرا قررت أن التشخيص واضح: احتشاء ممتد في عضلة البطن.. وبعبارة أبسط جلطة شريانية دمرت وتدمر جدار قلبي بنجاح تام...

طلبت عدة أرقام بالهاتف لكن.. إما أن الجميع تحالفوا ضدي كي أموت الآن، وإما أن ارتباكي جعلني أخطئ طلب الرقم.. وبدأ الذعر يتملكني..

إن ثلاثة أقراص من (النتروجلسرين) لم تحدث أي فارق.. الأمر حقيقي مقلق هذه المرّة.. ولكن كيف أجد عونًا؟ لا يبدو أن أحدًا متيقظ في داره من كل أطباء القاهرة..

تحاملت على نفسي، وخرجت إلى الصالة.. رباه! الألم يتزايد.. ثمّة احتمال لا بأس به أن أموت الآن حالًا..

مدخل الشقة.. الإضاءة الخافتة.. باب شقّة (عزت)..

قرعت الجرس وقد بدأ الأنين يفلت من بين أسناني برغمي.. افتح أيها الأحمق.. افتح يا أبله!

(عزت) على الباب بوجهه الضامر الأسمر، يوشك أن يقول لي إن مقدمي لا يعني سوى المصائب، ثم يرى وجهي فيتجمد...

- «نوبة قلبيّة.. لا أحد يرد..»

وكان هذا آخر ما قلت قبل أن يفقدني الألم وعيي..

☆ ☆ ☆

في العناية المركزة:

كنت راقدًا وقناع (الأوكسجين) على وجهي، بينما ست ممصات تتشبث بصدري العاري كممسات الأخطبوط، وعلى (المرقاب) جوار الفراش رأيت المشهد المألوف.. لقد كان تشخيصي دقيقًا..

فرغ الطبيب من إفراغ حقنة (المورفين) في عروقي، ثم قال باسمًا:

- «لا تقلق.. لن تمتد الجلطة أكثر..»

وقال د. (رأفت) الذي استدعوه في هذه الساعة:

- «هذا هو جزاؤك العادل.. لترات من القهوة، وأطنان من التبغ، وتوتر وطعام غير منتظم.. لقد أحرقت شمعة حياتك من طرفيها كأنما تريد الانتهاء سريعًا لتتفرغ لأمور أخرى!»

قلت له بصوت مكتوم من وراء القناع:

- «أرجو أن تكون سعيدًا.. إن رؤية المجرم يلقى جزاءه.. ممتعة دائمًا.. أي!»

ابتسم في عصبية، وقال وهو يتحسس نبضي:

- «لن تموت هذه المرّة غالبًا.. لكنهم هنا يعدونك بميتة سريعة ما لم تبدل أسلوب حياتك..»

ورأيت وجه (عزت) يدنو على استحياء من الفراش، كأنما يتوقع أن يزجره أحدهم.. كانت عيناه دامعتين وخوفه واضحًا.. حقًّا إن هذا الفتى مخلص.. يجب أن يُصاب المرء بالاحتشاء كي يدرك هذه الأمور...

قلت له:

- «شكرًا يا (عزت).. الأمور على ما يُرام... يمكنك العودة إلى دارك»

قال في ارتباك:

- «لا.. سأنتظر في الخارج في حالة ما إذا أردت شيئًا..»

وهز رأسه وغادر المكان..

نمت وصحوت.. ونمت وصحوت.. ونمت وصحوت..

وبسؤال الممرضة عرفت أن لي هنا أربع ساعات لا أكثر!

يا للكارثة! إنني إنسان ملول، وأسوأ كوابيسي هو أن أظل هكذا لا أقرأ ولا أكتب ولا أعمل ولا أتكلم.. إلى متى؟

هل هذا عقاب لي لأنني أصبت بنوبة قلبيّة؟

وخطر لي أنه ربما كان واجبًا أن أطلب من (عزت) إحضار كتاب أقرؤه.. كتاب عن الأشباح والزومبيين متآكلي الأطراف..

ولكن....

(عزت)؟

هنا تذكرت كل شيء عن المفكرة الصغيرة المهترئة، وعبارات النداء الغامض في بدايتها.. كم كان عدد الكلمات؟ كان سبعًا..

لقد قرأها (عزت) بصوت عالٍ، والمفكرة جاءت من (أسكتلندا).. إن خيوط القصة تتشابك، ويمكنني الآن فهم السبب الذي زج باسمي في هذه القصة كلها..

☆ ☆ ☆

ولكن هل هذا وارد حقًّا؟

هل توجد كلمات سبع قادرة على إحداث وباء؟ لا أظن.. الجزء العقلاني في جمجمتي يرفضه ببساطة، ولكن ذات الجزء العقلاني يتساءل عن التفسير إذا لم يكن هذا هو..

مفكرة من (اسكتلندا) + سبع كلمات غريبة يبدو أن لها طابعًا سحريًا + روح راهب أسكتلندي يذكر اسمي..

معادلة بسيطة جدًا حلّها هو أنه لا يوجد حل آخر..

كنت قد بدأت أتفاعل، وراحت الموجات تركض على شاشة (المرقاب) متسارعة.. تبًّا! عليَّ أن أهدأ قليلًا..

ترى ما تبعات ما حدث؟

وكيف يمكنني منع خطر لا أملك أدنى فكرة عن منشئه؟

☆ ☆ ☆

٥ - الزائر..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأي كلمات..

☆ ☆ ☆

قلت للممرضة.

- «هلا تفضلت باستدعاء من يدعى (عزت)؟ إنه خارج العناية المركزة، ويبدو كشبح أسود..»

قالت في ذكاء:

- «آه.. ذلك الشاب الذي لم يكف عن البكاء بسبب هزيمة فريق (الترسانة)؟ سأناديه لك حالًا!»

هكذا تتضح الأمور.. ما كنت لأستحق كل هذه الدموع من (عزت) على كل حال، وأخيرًا دخل المكان متهيبًا كعادته محمرَّ العينين، فقلت له: إنني حزين لما حدث لفريق (الترسانة)، ولكن عليه أن يتماسك على كل حال، ثم سألته:

- «هل حدث شيء غريب في الأيام الماضية؟»

فكر قليلًا، وغمغم وهو يحك ذقنه الخشنة:

- «لا شيء سوى نوبتك القلبيّة هذه.. ربما كانت هناك مشكلة ما مع منظم الغاز في الموقد.. لكن.. لا.. لا شيء..»

شكرته على عنايته بي، ونصحته بأن يعود إلى داره، فلن أحتاج إلى شيء عما قريب..

- «وكم ستظل هنا؟»

- «لا أدري.. أعتقد أن أسبوعًا سيكون وقتًا معقولًا بالنسبة لما حدث لعضلة القلب.. لكن الموت لو حدث لن يخرج عن الثمانية وأربعين ساعة الأولى.. ما زالت أمامي فرصة لا بأس بها للهلاك»

تمنى لي السلامة، ثم غادر المكان، وغرقت في خواطري..

نسيت أن أطلب منه كتابًا.. لكن لا بأس.. ربما ساعدني النوم على استرداد قواي..

☆ ☆ ☆

الليل وعواء الكلاب التي هي أقرب إلى الذئاب..

الطرقات الخالية.. صوت محرك سيارة يمزق السكون من آن لآخر.. شوارع المدينة النائمة.. المدينة التي نسيت الحذر وتركت أبوابها مفتوحة للمتسللين والمقتحمين..

هذا هو بيتي.. هل عرفتموه؟

لا شيء سوى ضوء المصابيح الخافت، يلقي بضوء رهيب على مدخل البناية، وكل النوافذ مصمتة مسربلة بالسواد، ما عدا نافذة واحدة مضاءة في طابق علوي..

شخص واحد يظل ساهرًا حتى الثالثة بعد منتصف الليل.. لماذا؟ لأنّه وطواط آدمي لا يعرف النوم إلا حين تتوسط الشمس السماء، واسم هذا الوطواط الآدمي (عزت)..

صوت خطوات على الأسفلت..

خطوات وئيدة راسخة لا تهاب الليل ولا الوحدة..

لولا أننا لا نرى خفيرًا للدرك يجوب الشارع مرددًا (هاه! من هناك؟) كما كانوا يفعلون في الماضي؛ لقلت إن صاحب هذه الخطوات هو خفير الدرك.. هو وحده يمشي بهذا الاطمئنان وهذه الثقة..

الآن نراه.. الضوء يرسم له على الأرض ظلًا فارعًا يفوق الخمسة أمتار.. إنّه يرتدي معطفًا طويلًا يوشك أن يكنس أرض الشارع.. وجهه مسربل في كوفية تجعلك لا ترى شيئًا منه على الإطلاق، وعلى عينيه منظار أسود سميك.. منظار أسود في هذا الليل البهيم؟

يمشي بتؤدة.. يقف جوار عمود من أعمدة الإضاءة.. يتصلب.. يُلقي نظرة عابرة لأعلى.. إلى النافذة المضاءة..

ثم يواصل خطواته البطيئة..

لو أن أحدًا راقب الشارع لمدّة ساعة، لأدرك أنّ هذا الرجل الغامض قد مر وألقى النظرة ذاتها سبع مرات.. سبع مرات بالضبط..

هذا هو اليوم الثالث الذي يقوم فيه بالشيء ذاته..

من هو؟ ماذا يريد؟ ماذا يفعل؟

كلها أسئلة لا نملك لها جوابًا في الوقت الحالي..

☆ ☆ ☆

في الصباح كانوا لا يعرفون مكاني في المستشفى الذي أعمل به.. لم أعلن قط أنني مريض، ولم يخبر (رأفت) أحدًا بالأمر..

وهكذا دارت عجلة العمل، وافترض الجميع أنني تغيبت لسبب ما من أسبابي العديدة، غير عالمين أنني هناك على بعد خطوات في العناية المركزة، أوصي زملائي مختصي أمراض القلب بكتمان السر...

كانت أسبابي محددة وواضحة:

١- لا أريد شفقة من أي نوع.

٢- لا أريد لومًا من طراز (أنت المسئول عما حدث لك).

٣- لا أريد ثرثرة، ومزاحًا من طراز (يجب أن نزوجك حالًا.. لو كنت متزوجًا لما حدث هذا لك).

٤- لا أريد علب شيكولاتة! لا أدري علاقة الشيكولاتة بالمرض عمومًا، لكن قانون الشيكولاتة للمرضى صار قانونًا أبديًا له قوة نواميس الكون، كأن من يحضر لزيارة المريض حاملًا علبة (جاتوه) هو إنسان هالك، ينتظر أن تحرقه صاعقة من السماء..

هكذا - في عزلتي الاختيارية هذه - لم أعرف أن د. (حمزة) جاء مكتبي فلم يجدني، وتطوع أولاد الحلال بإعطائه عنوان بيتي..

لم أدر أنه كان متحمسًا إلى حد أنه توجه إلى البيت فورًا، وقرع الجرس مرارًا، ثم أخرج قصاصة ورق خط عليها بقلمه الحبر الأسود الكلمات التالية:

- «أرجو الاتصال بي فورًا..

الأمور قد بلغت مبلغًا خطيرًا..

لا تفتح الباب أبدًا بعد منتصف الليل..»

وانحنى ليدس القصاصة تحت الباب..

وكان مصير هذه القصاصة أن تنتظر أسبوعًا كاملًا، حتى أجدها وكان أوان الحذر قد فات..

لا عجب.. إن أشياء وهفوات بسيطة كهذه قد غيرت تواريخ دول بأكملها، فماذا عن حياتي أنا؟

☆ ☆ ☆

وما كان لي أن أعرف ما حدث في الليلة التائية..

يبدو أن الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل؛ حين سمع (عزت) قرعات على بابه.. كان ساهرًا في قاعة النحت - كما يسميها - عاكفًا على ترطيب كرة من الصلصال لفها بالخيش.. لا بد أن فكرة تمثال عجيب آخر من تماثيله السخيفة كانت تتلاعب في ذهنه لحظتها..

عندما سمع القرعات..

جفف يده بمنشفة متسخة، وخرج إلى الصالة..

واحد فقط اعتاد أن يدق بابه في وقت كهذا وهذا الواحد في المستشفى الآن يحاول ألا يموت..

إذن من؟

دنا من الباب، وبحذر تساغل:

- «من؟»
لا إجابة..
رفع صوته أكثر وصاح:
- «من؟»
جاءه الصوت الهادئ الرصين، يقول:
- «افتح يا سيدي ولا تخف.. إن الأمر شديد الأهميّة..»
بحذر مد (عزت) يده، وأزاح المزلاج، ومن وراء سلسلة الأمان تفحص طارق الباب في ضوء السلم الخافت..
للصدق نقول إنّه لم ير وجهه على الإطلاق.. كان مغلفًا بالظلال القادمة من أعلى، وازداد الأمر سوءًا بكوفية أحكمت إخفاء الرأس وجانبيه..

- «ماذا تريد؟ قل!»
- «لن أتكلم هنا.. افتح الباب أولًا..»
هذه هي الحيلة لكنّها ساذجة تمامًا هذه المرّة.. أنت لا تفتح بابك للغرباء بعد منتصف الليل لمجرد أنهم مصرون على هذا، وكان الغريب ولله الحمد مريبًا بما يكفي، بحيث لا يفتح له الباب إلا أحمق أو كفيف أو كلاهما..
- «أنا لن أفتح الباب.. فتكلم أو انصرف!»
قال الغريب بصوت واهن بعض الشيء:
- «أنا من طرف (سحر).. إنها في حالة خطيرة.. ربما لا تعيش حتى الصباح!»
ودقت أجراس الخطر في ذاكرة (عزت)..
(سحر) في خطر! (سحر) الهشة الرقيقة كالملائكة، ربما تلفظ أنفاسها الأخيرة.. يا للكارثة! ثم تذكر شيئًا، فصاح:
- «لحظة! (سحر) من؟»
- «(سحر عبد السلام الهمشري).. مستحيل أن أكون قد أخطأت العنوان»
هذه المرّة عرف (عزت) أن (سحر) هي (سحر) حقًّا..
لا أحد يعرف شيئًا عن (سحر) وقليلون يعرفون أن (عزت) كان متزوجًا قبل أن يمرض.. لم ينجب لكن حياته كانت من الحيوات الجديرة بتسميتها سعيدة.. ثم جاء المرض ومعه استحالت حياته وحياتها إلى جحيم.. كانت تخافه بشدة، وترقب في هلع تحوله إلى شبح نحيل أسمر لا يعرف أحد كنه مرضه[3]..
وفي النهاية جاء التشخيص الصائب: متلازمة (أديسون) الناجمة عن درن دمر الغدة الفوق كلوية.. درن.. سلّ.. لم تستطع (سحر) أن تتحمل فكرة أن زوجها مسلول، والأسوأ أن علاجه من السل لن يحل مشكلة ضموره المتزايد.. طلبت الطلاق، ولم يستطع أن يلومها.. هو نفسه تمنى لو كان لديه حل كالطلاق يخلصه من صحبة نفسه..
لقد تلاشت (سحر) تمامًا من عالمه، ولم يعد يعرف شيئًا عنها هو الذي لا يذكر أين يسكن أخوه الآن: (دمياط) أم (المنصورة)؟ لكنه ظل يحمل لها ذكرى الفتاة الأولى والأخيرة التي أحبها..

☆ ☆ ☆

إن من يذكر اسم (سحر) لا يمكن إلا أن يكون يعرفها حقًّا..
بيد متوترة راجفة فتح سلسلة الأمان، وسمح للزائر بدخول الشقة.. لماذا يتراقص الضوء الكهربي؟ لا بد أنّ هناك عيبًا في المنصهرات..
اعترف لنفسه أنه لم يحبّ كثيرًا رائحة هذا الزائر..
لم يحبّ هذا الجو القاتم المهيب الذي بعثه في المكان..
لم يحبّ فكرة أنه لم ير وجهه بعد..
لم يحبّ - على الأخص - صوت قطرات الماء التي تسيل منه على الأرض محدثة صوتًا: بليك.. بليك!

وقال لنفسه: هل أمطرت؟ غريب أنني لم أشعر بهذا.. إن الرجل مبتل كفراش رضيع نام من دون كافولة..

وقف الزائر هنيهة كأنما ينسم الهواء في الشقة، فبادره (عزت):

- «تكلّم.. ماذا أصابها؟ ومن أنت أصلًا؟»

- «لنقل إنني.. إنني صديق..»

- «ومن أين جئت؟»

- «إنني أقيم في (أسكتلندا).. (أبردين).. ولسوف أعود إلى هناك بعد ما تنتهي مهمتي..»

بدت الدهشة على وجه (عزت).. (أسكتلندا)؟ لا يبدو أن الرجل آت من هناك.. مظهره لا يوحي إلا بالمجيء من قبر...

- «أنت جئت من (أسكتلندا) لتخبرني بـ...؟»

- «طريق طويل.. طويل...»

وتنهد الرجل بينما الضوء الكهربي يتراقص في جنون، وأردف:

- «طويل.. طويل.. آلاف الأميال مشيتها ومازال أمامي آلاف الأميال أمشيها..»

ثم هزّ رأسه في شرود كأن هذا كله غير مهم...

ودون كلمات أخرى توغل في الشقة أكثر...

☆ ☆ ☆

وهرع (عزت) يلحق به، وقد تردد في ذهنه: هذا الرجل غريب الأطوار وقح مقتحم.. لكنه صادق لا شك في هذا..

والغريب أن (عزت) كان يمرّ بتجربة شبيهة بما وضعني فيه في لقائنا الأول، حين كان كتلة من الغموض المنذر بالخطر، وقبل أن أدرك أنه (غلبان) مثلي أو أكثر..

أسرع يعترض طريق الرجل، وهتف في حرارة:

- «قل لي ما أصاب (سحر)!»

- «أنت ما زلت تحبها!»

- «هذا ليس من شأنك.. قل لي ماذا أصابها؟»

قال الرجل في تؤدة وهو يتفحّص تمثالًا لامرأة:

- «سرطان.. المرحلة الأخيرة منه.. هل هذا التمثال للبيع؟»

صاح (عزت) في جنون، وقد بدأ يرتجف لأنّه لا يتحمل الانفعال:

- «دعك من هذا، وقل لي: أين هي؟»

من جديد تساءل الرجل:

- «رد على سؤالي!»

عبث الرجل في جيبه، وبحث عن شيء ما، ثم خرجت يده بشيء مستدير براق أصفر، وضعه على المنضدة جوار التمثال، وغمغم:

- «ذهب.. أنا دومًا أدفع بالذهب.. إنّه صالح لكل زمان ومكان!»

صاح (عزت) وهو يمسك بمعطف الرجل:

- «أنت مجنون أو تتحامق! سألتك: أين هي؟ خذني إليها حالًا.. ألم تأت لهذا الغرض؟»
لم ينظر الزائر للوراء، وقال في هدوء:
- «نعم.. جئت هاهنا لأنك دعوتني!»

☆ ☆ ☆

٦ - بكامل إرادته الحرة..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأي كلمات.. ترقبوا المسافر الوحيد...

☆ ☆ ☆

كاد (عزت) - لنا أن نتوقع هذا - يجن، وصاح في غيظ:

- «أنا دعوتك أيها الرجل؟ متى وكيف؟»

غمغم الرجل شيئًا لم يتبينه (عزت).. ربما قال شيئًا عن (الكلمات) أو لم يقل، ثم قال بصوت واضح:

- «سآخذك إليها ولكن في الصباح.. أمّا الآن فأنا متعب وبحاجة إلى النوم، وأرى أن كرمك قد يسبق عصبيتك..»

مد (عزت) يده والتقط العملة الذهبية فدسها في جيب معطف الغريب، وقال محاولًا التماسك:

- «خذ ذهبك فالتمثال ليس للبيع.. ثانيًا: حسبتك قلت شيئًا عن كونها لن تعيش حتى الصباح.. لا أحسب اقتراح النوم مناسبًا جدًا..»

- «كان هذا السبيل الوحيد لتسمح لي بالدخول، والآن أقول لك إنني متعب.. لقد قطعت أميالًا وأراضي قاحلة لم يقطعها الجان كي أجيء إليك، وما زال بوسعنا الانتظار حتى الصباح..»

وفهم (عزت) الموضوع...

هذا الرجل المريب يريد بشكل مجنون أن يبيت هنا الليلة، والله (تعالى) يعلم السبب.. ولنفس السبب يجرى نوعًا من المساومة: كي ترى (سحر) يجب أن تتركني حتى الصباح..

بالطبع لم يكن الأمر مطروحًا للمناقشة..

وبالطبع لا يسمح المرء للغرباء المريبين بالمبيت في داره - وهو وحيد - لمجرد أنهم مصرون على ذلك..

كان الإزميل المستخدم في النحت موضوعًا على منضدة هناك، لأن (عزت) كان من الفنانين الذين يضعون الرغيف على المكتب والموسوعة البريطانية في الحمام.. وفي الضوء المتراقص رآه..

التقطه ولوح به في وجه الرجل ليريه مدى الجروح الخطيرة التي سيحدثها شيء كهذا، ثم أشار إلى الباب:

- «اخرج.. لا أريد معلومات منك..»

لم يهتز الرجل، بل غمغم في هدوء:

- «إن كل ما أطلبه بضع ساعات..»

- «ولا بضع ثوان.. هيا..»

من الواضح تمامًا لكل ذي عينين أن (عزت) لن يستعمل سلاحه، فهو لا يملك غريزة القتال فالقتل، لكن من الغريب أن الرجل اقتنع..

وبخطوات ثابتة اتجه للباب، ففتحه وخرج..

ووقف (عزت) وحده في الصالة يرتجف..

لم يصدّق أن الأمر تم بهذه البساطة..

أغلق المزلاج ملهوفًا، ثم هرع يفتح النافذة ليطمئن على أن الرجل قد رحل فعلًا.. لم يكن الجو دافئًا لكنه على الأقل لم يكن مطيرًا..

وبالفعل رآه.. رآه في ضوء مصابيح الشارع الخافتة، يمشي الهوينى ويداه في جيبي معطفه مبتعدًا، ولم ينظر لأعلى قط..

لقد ثبتت إضاءة الشقة أخيرًا..

يجب أن يحضر من يفحص هذه المنصهرات غدًا، فهو لا يفهم في هذه الأمور...

☆ ☆ ☆

لم أدر هذه التطورات إلا في الصباح..

بالتحديد في الحادية عشرة صباحًا، حين سمحت له الممرضة بالدخول إلى العناية المركزة، وكان يحمل لفافة صغيرة أدركت دون جهد أنها علبة شيكولاتة! وكان منتفخ الجفنين محمر العينين مُرهقًا كحيوان (التابير).. (لو كان (التابير) يُصاب بالإرهاق طبعًا!)

قلت له مداعبًا:

- «ما المعجزة التي جعلتك تصحو قبل الواحدة ظهرًا، وتجد وقتًا كافيًا لشراء هذه الشيكولاتة؟»

في حماقة تساءل:

- «ك.. كيف عرفت أنّ هذه شيكولاتة؟»

- «لأنني عبقري.. هذا هو كل شيء..»

قال وهو يجلس ويمسح على جبينه:

- «كان صديق لي في (الأتيليه) قد أهداها لي من شهر حين أصبت بالحصبة الألمانية.. أنا أتحدث: عن الشيكولاتة.. أظن أنها تصلح لك لأنني أشمئز من الحلوى كما تعلم!»

- «لا بأس.. وما سر إرهاقك؟»

هنا راح يحكى لي قصة ليلة أمس، وأنا أطلب منكم الإذن في سماعها، لأنني لم أسمعها من قبل.. كلا لن أكررها لأن هذا سيجعلكم تلقون بالكتاب من أقرب نافذة..

- «ولم يعد بعدها ولا في الصباح؟»

- «كلا لم يعد..»

- «وهل (سحر) هذه بخير؟»

- «لن أعرف أبدًا.. إنني لا أملك رقم هاتفها، وعنوانها قد تغير..»

قلت وأنا أسترخي في الفراش:

- «أعتقد - وأنت توافقني - أنها بخير.. كانت هذه قصة أخرى من قصص (السماح للغريب بالدخول ليلًا)، وهي قصص تنتهي دائمًا على منضدة التشريح الرخامية.. كانت مجرد حيلة

مكشوفة»
- «الأمر ليس بهذه البساطة: أولًا لا بد من أن يعرف الغريب (سحر الهمشري).. وهذا عسير.. ربما لم يعد أحد يعرفها في الكون سواي..
ثانيًا كان بوسعه أن يسحقني في أية لحظة، فأنا لست بهذه القوة حتى لو كنت أحمل إزميلًا.. فلماذا لم يفعل؟»

☆ ☆ ☆

كانت أجراس الخطر تدق في ذاكرتي..
غريب من (أسكتلندا).. مفكرة من (أسكتلندا) بها كلمات سبع.. أب تتصل روحه بوسيط روحاني لتقول إن لي علاقة بالموضوع.. (عزت) هو الوحيد الذي قرأ الكلمات السبع..
كل هذا له علاقة ببعضه، ويمكن تفسير القصة كلها على ضوئه، لكني ما زلت أجهل التفاصيل.. المادة اللاصقة التي ستتخلل كل هذه الأجزاء وتجعلها كتلة واحدة متماسكة..
قلت لـ (عزت) وهو ينصرف:
- «نصيحة واحدة يا (عزت).. لا تدع هذا الرجل يبيت في دارك أبدًا..»
- «لا أحتاج إلى نصيحة لأفعل هذا، ولكن ما السبب؟»
- «لا أدري.. ثمّة شيء في طريقته تذكرني بأسلوب مصاصي الدماء.. لا بد من أن تدعوهم الضحيّة (بكامل إرادتها الحرة).. مصاص الدماء لا يدخل بيتًا غير مدعو..»
بدا عليه الهلع، واتسعت عيناه:
- «هل تعني أنّ هذا الرجل مصـ.. مصاص دماء؟!»
- «نحن لم نصل لهذه الدرجة.. لم أقل هذا، لكني - بالغريزة - أشعر أنه لن يؤذيك ما لم تسمح له طواعية بالمبيت في دارك!»
وابتسمت في خبث، فقد نجحت في إحالة لياليه إلى جحيم.. طبعًا لم أكن أعطي الأمر كل هذا القدر من الأهميّة، ولم أدر مدى صدق كلماتي.. لو عرفت لانتزعت أقطاب جهاز رسم القلب، ووثبت من الفراش لألحق به وأكون معه..

☆ ☆ ☆

عندما جاء المساء كان يوم (عزت) يبدأ كعادته..
استوثق من أن باب الشقة مغلق بالمزلاج، وأعد لنفسه كوبًا من الشاي بالنعناع لينتعش، وفتح المذياع على موسيقا كلاسيكية هادئة لا يعرف شيئًا عنها لكنّها تريحه..
جاء بكتلة الصلصال اللينة وبدأ العمل.. كانت هناك بعض (السكتشات) تبين التمثال من عدة زوايا، وكان يرسمها بقلم رصاص على ورق أصفر لتعطي ذلك التأثير الضبابي لمخطوطات (ليوناردو دافنشي)، والحقيقة التي لم يكن يعلمها أن مخطوطات (دافنشي) كانت تكتب وترسم بالمقلوب، بحيث لا يمكن قراءتها إلا أمام مرآة!
واصل العمل.. وبدأ وجه الصعيدي العجوز يُولد من عدم..

نسي مرور الزمن، فلم يدر أن الساعة قد دنت من الثانية بعد منتصف الليل، وأن السكون عم الكون بعدما نامت الضوضاء ذاتها من فرط إرهاق..

وبعد قليل سمع الدقات على الباب فأجفل..

العجوز (رفعت إسماعيل) على حق.. لقد عاد الزائر من جديد...

هرع إلى الباب وأصاخ السمع، ثم بصوت مرتعش تساءل:

- «من؟»

- «أنا.. (رفعت) طبعًا يا أحمق!»

فتح الباب مندهشًا ليجدني واقفًا هناك في ضوء السلم الخافت، ارتجف وأوشك على السقوط من فرط الوهن..

- «يالك من أحمق! كيف تركت المستشفى؟»

قلت وأنا أدخل في لهفة لاهثًا:

- «أردت أن.. أكون.. معك لحظة عودة الغريب..»

ساعدني على الجلوس، وربت على كتفي:

- «ولماذا؟»

- «لم أرد أن تتصرف بحماقة.. هذا كل شيء.. والآن هلا جلبت لي بعض الماء؟ لاتخف.. لن أموت كما يفعل الجميع حين يطلبون كوب ماء..»

هرع إلى المطبخ، وعاد لي بالكوب المتسخ المليء بالبقع والدهون، فشربت دون تعليق، ثم سألته:

- «ألم يأت بعد؟»

- «نعم.. حسبتك هو..»

راحت عيناي تجوبان الشقة في اهتمام.. ثم توقفتا عند شيء على الأرض، وقلت في قلق:

- «هل جرحت نفسك أم أصبت بالبواسير أخيرًا؟»

- «لا هذا ولا ذاك..»

ونظر إلى الأرض المتسخة التي لم تحظ بغسيل جيد منذ أربعة أشهر، ورأى ما أعنيه.. قطرات الدم الجاف المنتثرة على البلاط، والتي تدور في خط منتظم في الصالة...

هتف مذعورًا وعيناه تروحان هنا وهناك:

- «لا.. لا بد أنه الغريب.. لم ألحظ هذا ولم ألق أية نظرة على البلاط منذ رحل.. لقد كان ينزف! حقًّا كان ينزف! وأنا الذي سمعت صوت قطرات ماء تتساقط منه إلى الأرض.. قلت لنفسي: إنها تمطر بالخارج..»

ابتسمت في مرارة، وقلت:

- «هل وجدت أثرًا للأمطار حين فتحت النافذة بعدها؟»

- «لا طبعًا..»

تحسست صدري بكفي عدة مرات، وتنفست بشيء من العسر، فصاح (عزت) وهو يرتجف:

- «كانت حماقة منك أن تترك المستشفى الآن.. هل أنت بخير؟»

- «أعتقد ذلك.. إن جلطات القلب لا تمر بهذه السهولة..»

ثم إنني نهضت، ورحت أجوب الصالة عدة مرات..

أخيرًا توقفت أمام تمثال المرأة الذي راق للغريب أمس، وتفحصته ثم قلت في تؤدة وصدري يعلو ويهبط من الإجهاد:

- «هذا هو التمثال الذي راق له؟ إنّه لا يساوي جنيهًا ذهبيًا بالتأكيد..»

ضحك (عزت) في مرح، وقال:

- «ما ذنبي إذا كان المتسللون ليلًا يتذوقون فني أكثر منكم جميعًا؟»

ثم سألني وهو يواصل عملية تشكيل الصلصال بعد ما دخلنا غرفته:

- «هل ستقضي الليلة هنا؟»

- «أعتقد.. إن كلينا بحاجة لحماية الآخر: واحد معرض لنوبة قلبيّة جديدة، وواحد معرض لهجمة غير مفهومة من غريب مريب..»

ثم توقفت ومددت يدي إلى الأرض، والتقطت شيئًا أثار اهتمامي.. كان قطعة من العملة الصفراء الذهبية، وهتفت:

- «هذه لا تخصك حتمًا.. لا بد أنها كانت تخص الغريب..»

نظر لها وتفحصها في كفه، ثم غمغم:

- «لا أدري كيف.. لقد دسستها في جيبه أمس..»

☆ ☆ ☆

٧ - جلسة منفردة..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأي كلمات.. ترقبوا المسافر الوحيد، يأتي بأي وجه كان..

☆ ☆ ☆

كان رد فعل (عزت) مذهلًا، سريعًا إلى حد لا يصدّق..
دفعني بيده فأسقطني، ثم هرع إلى الباب ففتحه، وراح يثب درجات السلم أربعًا أربعًا، حتى وجد نفسه في الشارع المظلم الذي لم تُزل الإضاءة الخافتة رهبته..
كان الانفعال يوشك على سحقه، وكما ألجأ أنا إلى (النتروجلسرين)، لجأ هو إلى لفافة ورقية ملأى بالملح وراح (يسف) منها ما استطاع..
كان بثياب الخروج ـ من حسن حظه ـ لأنه كان ينتظر قدوم الغريب، وقد مشى نصف ساعة حتى وجد سيارة أجرة، قبل سائقها أن يقله إلى المستشفى..
اقتحم العناية المركزة برغم احتجاج الممرضات والعامل النوبتجي، ليجد ماكان يتوقعه بالفعل:
كنت أنا في الفراش أطالع كتابًا، وقد بدت عليَّ الدهشة لحضوره في ساعة كهذه!

☆ ☆ ☆

حكى لي القصة العجيبة، فكنت على استعداد للموافقة.. لقد حدث شيء مماثل في (جامايكا) حين اختطفت زوجة صديقي ثم اتضح أنه ليس أنا!
وكيف أندهش أو أنكر وقد قابلت نفسي بعد هذه القصة، وتشاجرنا وأوشكنا على قتل أحدنا الآخر؟
لقد رأيت مسوخًا كثيرة تتخذ صورتي، وأعترف أنها كانت أكثر إرعابًا من المعتاد..
قلت لـ (عزت) وأنا أضع عويناتي على الكومود مع الكتاب:
- «إما أن جيبه مثقوب، وإما أن الرجل ألقاها على الأرض كي تجدها.. يبدو أن احتفاظك بها مهم بالنسبة له..»
- «(بكامل إرادتي الحرة) كالعادة؟»
- «لا أدري..»
وطوحت بالعملة بعيدًا كأنما أتخلص من عقرب وجدته في ياقة قميصي.. وقلت:
- «لو كان ذكيًا بما يكفي، فلن يلجأ إلى حيلة (سحر عبد السلام) هذه ثانية.. المفترض أنك سألت عنها وعرفت أنها بخير..»
وابتسمت في خبث، وقلت بلهجة موحية:
- «غريب أن تكون امرأة في حياة (عزت).. الذئب الوحيد..»

لكن (عزت) لم يكن يصغي إليَّ...
كان يسترجع المحادثة بيننا ويقارنها بما قاله في المستشفى، وفطن فجأة - مع قشعريرة تزحف عبر ظهره - إلى أنّ هناك خطأ ما:
أولًا: هو لم يحك لي في المستشفى قصة محاولة شراء التمثال، وقطعة الذهب.. فكيف عرفتها؟
ثانيًا: هو لم يذكر لي الاسم الثلاثي لزوجته السابقة.. ذكر أن اسمها (سحر الهمشري) فمن أين جئت أنا بـ (عبد السلام)؟
النتيجة منطقية وواضحة وإن كان يأبى تصديقها:
إن الواقف أمامه الآن ليس (رفعت)!

☆ ☆ ☆

- «لقد صار من المؤكد أن الأمر خارق للطبيعة، وأنّ هذا الـ.. الشيء مصر على قضاء ليلة كاملة معك.. ولو كنت مكانك لتواريت في أعماق الأرض..»
قال بلهجة كالبكاء:
- «سيجدني! إن من يستطيع التحور إلى صورتك لقادر على أن يجدني في أي مكان.. إن من يعرف اسم (سحر) الثلاثى لقادر على أي شيء آخر..»
- «ما زلنا نملك نقطة قوية هنا.. هذا الرجل بحاجة ماسة إلى أن تدعوه للمبيت، لهذا يلجأ إلى الخداع.. لهذا هو ضعيف.. إن من يخدع الآخرين هو - ببساطة - شخص يملك نقطة ضعف..»
ومن جديد نصحته بالبحث عن مكان يبيت فيه، وألا يسمح لإنسان أيًا كان بالمبيت معه حتى لو كان زوج خالته.
وانصرف (عزت)..
وجلست أصغي لصوت جهاز التنفس الصناعي القادم من الفراش المجاور لي، وجعلنى صوته الرتيب أدخل في تلك المنطقة ما بين النوم واليقظة التي يسميها الأجانب (منطقة الشفق)..
ما سر هذه الكلمات السبع؟ من هو هذا الزائر الغامض الذي لم يقل لي د. (حمزة) شيئًا عنه؟ ماذا يريد؟..
تبًّا! لو لم أكن مكبلًا هكذا لاستطعت التصرف..
ناديت الممرضة بصوت واهن، وسألتها عن ثيابي.. إن ثيابي هنا لأن أحدًا لم يعد بها لداري، أمّا الآن فأنا أرتدي منامة على اللحم قد فتح صدرها للأبد لتثبيت الأقطاب..
جاءتني بالبذلة الكحلية العزيزة التي تجعلني فاتنًا، فبحثت حتى وجدت بطاقة وسيطنا الروحاني إياه..
- «هلا تكرمت بالاتصال به وإبلاغه أنني هنا؟»
هزت رأسها وانصرفت لتتصل من الهاتف الموجود في غرفة المراقبة، وقلت لنفسي: لا بأس.. هكذا لو أراد الرجل أن يبلغني بشيء فلن تكون هناك مشكلة..

☆ ☆ ☆

في الصباح جاء د. (حمزة)، وعانى كثيرًا حتى وجدني..

جلس جوار الفراش يلهث، ونزع الكاسكيت يجفف العرق الغزير الذي انهمر على جبينه، ثم قال:

- «خيبك الله! لقد أتعبتني بحق في البحث عنك، ولم أدر أنك (مقطوع من شجرة)..»

قلت له في حنق:

- «سأحاول في المرّة القادمة أن أتصل بكل معارفي لأخبرهم أين قررت أن أموت.. هل استجدَّ شيء؟»

اتسعت عيناه، ودنا مني أكثر، وقال:

- «صاحبك هنا..»

- «(صاحبي)؟ من هو صاحبي»

ابتسم، وأعاد المنديل المحلاوي إلى جيبه، وقال:

- «لقد اتصلت بي الروح.. قالت كلمات غامضة كالعادة، لكنّها متأكدة من أن الخطر هنا ودانٍ جدًا.. حذرت (رفعت إسماعيل) وكل من له علاقة بالكلمات بأن يأخذ حيطته، ولا يفتح الباب أبدًا بعد منتصف الليل (حتى لا يعم البلاء)..»

- «وكيف نمنع البلاء ذاته؟»

قال وهو يمط شفته السفلى:

- «لا أدري.. ويبدو أن الراهب لا يدري وإلا لصرح وما اكتفى بالتلميح.. والكلام الملغز..»

قلت له ضاغطًا على أعصابي:

- «ثمّة دلائل معينة توحي إليَّ بأنك لست كاذبًا، والله (تعالى) وحده يعلم كيف تعرف ما تعرفه، لكن أعتقد أنني أعرف الكلمات السبع.. ولم أكن أنا من لفظها بل صديق لي.. وحدث هذا بطريق الخطأ.. هذا الصديق يواجه زيارات من غريب لحوح يريد قضاء الليل معه.. لا أدري السبب لكن أحسب أن له علاقة بهذه القصة..»

بدت عليه الدهشة.. ابتلع ريقه، وقال:

- «ليكن.. سأحاول أن أعرف المزيد..»

☆ ☆ ☆

في شقته بـ (الجيزة) جلس د. (حمزة)، وأعدَّ شريطًا لجهاز التسجيل ثم بدأ إعدادات الـ (Seance) أو (جلسة تحضير الأرواح)، ولا تسلني عن سبب تفضيله للاسم الغربي لها، فهذا يعطيها طابعًا من العلم الجاد..

كان قد اعتاد أن يستخدم جهاز التسجيل من أجل الجلسات المنفردة، فهو لم يكن قادرًا على استعادة حرف واحد بعدما يفيق من السِنة.. ولهذا أيضًا كان هناك جهاز تسجيل ثان، مهمته أن يذيع بعض العبارات والتعليمات التي لا يستطيع (حمزة) النطق بها وهو غائب عن الوجود..

كان يعيش وحيدًا بعد وفاة زوجته وزواج أولاده، وكانت تجاربه لعبًا بالنار بالنسبة لإنسان وحيد.. لكنه ـ أو هذا ما كان يظنه ـ يعرف جيدًا ما الذي يفعله..

بدأ بإظلام الغرفة، فلم يعد هناك سوى ضوء خافت قادم من الصالة، وأشعل بعض البخور.. يُقال إن البخور محبب للأرواح، وهو لم يختبر هذه القاعدة قط، لكنه اعتادها على كل حال وماعاد

مستعدًا للتجريب بعد كل هذا العمر..
وضع المنديل على رأسه، حتى يخفي وجهه وعينيه، ثم راح يتمتم ببعض العبارات بشفتين مكهربتين.. ثم بدأ النداء:
- «الراهب (جستنيان).. هل تسمعني؟»
لا صوت سوى دوران بكرتي الشريط في جهازي التسجيل.. الجهاز الثاني سيظل يدور نحو نصف ساعة، قبل أن يخرج من سماعته صوت (حمزة) يأمر الروح بالانصراف، ويأمر (حمزة) بأن يفيق، ولو حدث خلل ما، فمن المحتمل أن يظل الرجل في غيبوبة دائمة.. إن الكهرباء تنقطع في (الجيزة) كأي مكان آخر، لكن من قال إن مهنة تحضير الأرواح خالية من الخطر؟
وقد افترض (حمزة) أن فترة نصف ساعة تكون كافية جدًّا للاتصال.. إن أهم الأشياء تقال في بداية اللقاء، أمّا الباقي فتفاهات..
- «الراهب (جستنيان).. هل تسمعني؟»

☆ ☆ ☆

كان (حمزة) يشبه نفسه بمكثف جهاز الراديو.. إن الراديو يصغي إلى الفضاء الأثيري.. يفتش وسط زحام الموجات الكهرومغناطيسية حتى يجد موجة معينة، ويضخمها ويجعلها واضحة...
هكذا كان (حمزة) يذوب في عالم لا اسم له حتى الآن، بحثًا عن واحد معين، ويجده بكثير من العسر ويتكلم بلسانه...
الآن هو يسمع صوت (جستنيان) الخافت، وقد عثر عليه أخيرًا.

☆ ☆ ☆

وفي ظلام الغرفة انبعث صوت غريب من وراء المنديل..
صوت عجوز مرهق يختلف كثيرًا عن صوت (حمزة) الحاد العصبي..
ما هي هذه اللغة؟
إنها الإنجليزية.. لكنّها إنجليزية عتيقة عجيبة ملأى بمفردات شاخت أو ماتت.. يمكننا فهم ما يقول بشيء من العسر، ويمكننا أن نترجمه:
- «إنها آخر مرة أنصحكم فيها، فأنا رجل مائت لا يقدر الوباء على إيذائي.. لكني أكره أن أبصر الهول من جديد..
إنه هنا بينكم.. إن له ألف وجه ووجه.. لكنه يمشي الهوينى في الدروب يسأل الناس ليلة.. ليلة يدفع ثمنها ذهبًا..»
عاد صوت (حمزة) يتلون ليعود لطبيعته، وهمس:
ـ «تسألنا أن نعمل بنصيحتك، ونسيت أن تذكرها..»
ومن جديد دوي الصوت العجوز بإنجليزيته المنهكة:
- «لاننا لا نطلع على الغيب، ولا نرى من وراء الحجب.. أرواح الفانين واهنة كالفانين، كما أنّ أمواج بحر الشمال مالحة كبحر الشمال.. لكني لك أقول أيها الفاني: إن من بدأ اللعنة يقدر على

إنهائها، ومن فتح بوابة الشيطان يقدر على غلقها، ومن لفظ الكلمات بصوت عالٍ هو أقدر على منع شرها..»

كان الصمت يسود الغرفة المظلمة..

رأس د. (حمزة) منحنٍ كمن ينام جالسًا، وقد داراه المنديل.. ووعيه كان هناك، في عالم لا اسم له..

فقط كان يتكلم بصوت عالٍ، وينفعل ويغضب..

ولكن.....

هل أنا أهذي أم أنّ هناك من يقف على باب الحجرة؟!

بينما يواصل الصوت الواهن الكلام:

- «إن الشر هنا.. قد خرج للظفر بكم.. إنّه بينكم... على عتبات دياركم، وفي مخازن غلالكم، ووراء كل شجرة في غاباتكم.. الشر الذي زرعه سحرة (السلت) كي يفتكوا بسكان الشمال، ما زال حيًّا.. يجب أن تدمّروا منبع الكلمات السبع.. يجب أن يبتلع قائلها لسانه..»

الآن يدنو ذلك الظل من الرجل الغافل..

إنه الآن واقف عند رأسه المغطى بالمنديل..

أنا لا أتبين وجهه في هذه الإضاءة الخافتة.. لكنه يحمل شيئًا في يده.. يحمل منجلًا عملاقًا كالذي يحمله الموت في الرسوم القديمة..

ها هو ذا يرفعه في الهواء..

يقول الصوت الواهن من وراء المنديل:

- «إنّه قريب منك جدًا أيها الفاني.. أقرب من حبل الوريد.. أشعر به.. أشم رائحته.. أشعر أنك ستلحق بي حالًا في عالمنا هذا.. إنني.....»

وفي الثانية التالية.. توقف د. (حمزة) عن - الكلام..

من العسير على المرء أن يتكلم دون رأس..

ألا توافقونني على هذا؟!

☆ ☆ ☆

٨ - هارب!

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأي كلمات.. ترقبوا المسافر الوحيد.. يأتي بأي وجه كان.. يغترف من بئر الأكاذيب..

☆ ☆ ☆

عند منتصف الليل:

راحت الممرضة تخفض الأضواء في العناية المركزة لتساعد المرضى البؤساء على النوم، وهو إجراء أكرهه بشدة؛ لأنّه يمنعني من القراءة حتى الثالثة بعد منتصف الليل كعادتي..

اليوم سألت د. (سليم) معالجي عن الوقت المناسب للرحيل، فمط شفته السفلى مفكرًا وقال:

- «يُمكنك التفكير بعد ثلاثة أيام.. وعندها سنقول لك إن الوقت المناسب لم يحن بعد!»

وتركني أحاول فهم هذه العبارة البيزنطية بقية اليوم، وقد أدركت أن عليَّ الاختيار بين الموت مللًا أو الموت بنوبة قلبيّة..

جلست في الظلام أرمق السقف، وأصغي لصوت أجهزة التنفس الصناعي لدى أكثر من مريض عجز عن التنفس من حولي.. ما أضعف الإنسان وما أشد غروره!

كانت الممرضة تروح وتجيء بين الأسرة كملاك أبيض مغلف بالظلام، ورأيتها تدنو من المريض الراقد بجواري، وهو موجه متقاعد في وزارة التربية والتعليم يُدعى (الدمنهوري)، ومصاب بجلطة واسعة الانتشار في قلبه تكفي لجعله لا يصحو إلا ليصرخ ألمًا، ثم يغيب عن الوعي بسبب اختلال الضربات.. وكنت أراه من خلال فرجة بين ستارين يفصلان فراشي عن فراشه..

رأيتها تبعث بالجهاز المنظم للمحلول لتتحكم في سرعة تدفق السائل إلى عروقه، ثم ابتعدت وسمعتها تقول لزميلتها:

- «يُمكنك النوم قليلًا يا (هدى).. أنا أراقب كل شيء..»

لكن عيني رأت شيئًا غريبًا.. تناولت العوينات أثبتها على أنفي، وأرمق السائل المتدفق من الزجاجة في عروق جاري.. هذا جنون!

إن الزجاجة ـ بهذا المعدل ـ ستفرغ في ثانيتين، والمفترض أن يكون السريان بطيئًا جدًّا.. ربما خمس عشرة نقطة في الدقيقة.. هناك استهتار.. لكن هذه الفتاة قد فاقت الحد..

صحت في رعب:

- «يا آنسة! إن هذا المحلول ليس...»

ثم وجدت ألَّا داعي لإضاعة الوقت، فوثبت من فراشي بالأقطاب على صدري، وهرعت إلى فراش جاري كي أبطئ تدفق المحلول قليلًا.. وكان من جراء هذا أن الدوار غلبني.. سقطت على الأرض جوار الفراش ألهث وللحظة حلقت سحابة سوداء أمام عينيَّ..

لحسن الحظ أن السحابة تلاشت سريعًا، لأنني رأيت من خلال فرجة ستائر فراشي.. رأيت الفتاة ـ التي ليست (هدى) ـ تقف هناك وتتلفت حولها في عصبية.. وفي يدها لمحت مبضعًا يتوهج في الضوء الخافت.. مبضعًا.. سكينًا.. لا أدري بالضبط، لكنّها لم تكن تحمله بغرض تقشير البرتقال لي..

انتزعت الأقطاب من على صدري، ونظرت إلى الأرض..
قطرات الدم هذه المتساقطة حيث كانت الممرضة تقف.. ترسم بوضوح مسارها منذ عالجت المحلول ثم ابتعدت لتكلم صديقتها..
أذكر شيئًا ما عن شخص زار (عزت)، وترك قطرات دم على الأرض.. إن عقلي يعمل بسرعة جهنمية.. هذه ليست ممرضة إذن!
هرعت أزحف على أربع كـ (التابير) - لو كان (التابير) يزحف على أربع - ما بين الأسرة، وقد أدركت بشكل ما أن الأمر أكبر من مجرد ممرضة حمقاء.. أكبر من الصراخ وطلب الغوث..
أزحف ما بين الأسرّة نحو الباب..
اجتازه.. وأخرج إلى الممر خافت الإضاءة..
أنهض على قدمي، وأنا أرتجف انفعالًا..
(لهذا لم أتبين وجهها قط)
وأواصل المشي الحثيث.. وأنا أدرك أنني - إن لم أسترح الآن - أخط بوضوح حروف اسمي في النعي الذي سينشر في جريدة (الأهرام) بعد يومين.. هل أبحث عن
(ولهذا خفضت الإضاءة بمجرد مجيئها!)
واحد من رجال الأمن أو العامل النوبتجي كي؟
لا.. لا وقت لهذا..
أمشي الآن في حديقة المستشفى المظلمة مبلبل الأفكار، حافي القدمين، لا تسترني سوى منامة مفتوحة الصدر.. ليتني لم أكن أصلع.. فلربما ساعد شعر الرأس قليلًا على اتقاء البرد....
خرجت إلى الشارع شبه الخالي لحسن الحظ..
وتذكرت شيئًا مهمًا.. إن د. (رأفت) صديقي يسكن في الشارع المجاور.. حمدًا لله! للمرة الأولى أدرك أن قرارات (رأفت) صائبة تنم عن حكمة لا شك فيها...

☆ ☆ ☆

سأعفي القارئ من سرد الموقف.. ولقد انتزعت من (رأفت) وعودًا مغلظة بألا يخبر مخلوقًا أيًا كان بأنني طرقت بابه بعد منتصف الليل حافيًا وبالمنامة، وطلبت منه ثيابًا ومالًا... وحذاء..
كان مذعورًا، وقد أعطاني ما طلبت متوقّعًا أن أطعنه برقبة زجاجة لو لم يفعل.. كان مذعورًا إلى حد أنه لم يقترح توصيلي إلى حيث أريد، ولم يدهشني هذا أو يضايقني..
فقط على السلم عدت أصيح به:
- «عدني يا (رأفت).. ولا كلمة لأي مخلوق!»
صاح في هلع رافعًا يده اليمنى كأنما يؤدى قسم (أبوقراط):
- «أقسم بالله العظيم أنني لن أفتح فمي.. لقد خرست! أنا لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم.. سرك في بئر سحيق.. اطمئن!»
و(شخط) في طفله الذي أطل بعنقه من الباب.. ثم هرع بدوره يغلق الباب، ويضع ألف مزلاج ومقعد خلفه..

لا أدري لماذا يظن الناس بعقلى الظنون أحيانًا؟

☆ ☆ ☆

توقفت عربة الأجرة أمام العنوان الموضح لبطاقة، والذي ما زلت أذكره برغم أنها ليست معي..
(كان حساب عربة الأجرة وقتها يتم بالعداد، ولولا هذا لدفعت مبلغًا فلكيًا لا يتسع هذا الكتيب لذكره)..
د. (حمزة الصاوي).. أريده بشدة حالًا..
هذا الرجل يملك الإجابة عن أسئلتي، أو يملك معرفة من يملك الإجابة عنها.. إنّه خيط واهٍ ضعيف لا أثق به كثيرًا، لكنه الخيط الوحيد..
شيء ما حاول قتلي في المستشفى.. شيء له ذات الخواص الفيزيائية للشيء الذي يطارد (عزت).. فلماذا؟ وما دوري في الموضوع؟ كنت سأفهم وأتقبل لو طورد (عزت) وحده أو قتل... ولكن أنا؟

☆ ☆ ☆

بثياب د. (رأفت) الفضفاضة بعض الشيء؛ رحت أصعد في الدرج.. وهو درج جدير بوسيط روحاني.. واسع إلى حد مرعب.. عالٍ مهشّم.. إنها تلك البنايات القديمة التي يرتفع سقفها خمسة أمتار عن الأرضيات، والتي تم بناؤها ببذخ جدير بعصر (الباشوات)..
عند الطابق الثالث كان هناك سهم يشير إلى شقّة.. سهم من خشب متآكل عتيق، كتب عليه باللون الأزرق (د. حمزة الصاوي - خبير روحاني).. كما يحدث في عيادات الأطباء..
الباب الذي يشير إليه السهم كان مواربًا.. ومن خلفه ظلام دامس.. ظلام لم يره بعد كفيف، ولم يحلم به جنين في رحم..
أنا أكره الحماقة التي تجعل أبطال القصص يدخلون القبو الذي ينام فيه مصاصو الدماء، وهم يعلمون ذلك..
أكره الغباء الذي يجعل المرء يرى بابًا مواربًا بلا سبب، بعد منتصف الليل، وبرغم هذا يدخل..
أكرهه.. لكن لا حيلة لي.. إن النداء ثلاث مرات لم يجد..
لهذا دخلت..

☆ ☆ ☆

وكانت الصالة مظلمة.. ما عدا مصباحًا واهنًا من النوع الذي كانت المرحومة أمي تسميه (لمبة حرامية)..
وكان هناك موضع مفتوح.. يبدو أنها الغرفة الوحيدة القابلة لدخولها هنا.. البلاط مهشّم نخر من النوع الذي يصدر صريرًا.
هذه الرائحة!
لا أحبها كثيرًا، وتذكرني بالدم المسفوك وإن مزجت برائحة البخور...

أضأت المصباح الوحيد في الصالة الذي يمكن أن نُسمّيه مصباحًا، كي أتبين طريقي، ثم خطوت إلى الحجرة المفتوحة التي يملؤها البخور...

كانت مظلمة تمامًا وفي الظلام كنت أسمع الهدير المنتظم لمحرك جهاز تسجيل إذ يدور بلا نهاية بعد انتهاء الشريط[4]..

تحسست الجدار حتى وجدت مفتاحًا ففتحته، وعلى الضوء الذي غمر الحجرة أمكنني أن أفهم ما هناك..

أولًا: كنت مخطئًا بصدد وجود جهاز تسجيل.. هناك اثنان.. وكلاهما مستمر في الدوران بلا توقف..

ثانيًا: الجسد الجالس في مقعد يشبه جسد د. (حمزة)..

ثالثًا: لا أحب أن أزيح المنديل لأرى وجه صاحب الرأس المتدحرج هناك، لكن لا توجد أجساد كثيرة هنا تؤدي للخطأ..

رابعًا: قطرات الدم التي تتحرك عبر الأرضية متجهة للصالة، تبدو مألوفة لي.. ليست هذه دماء (حمزة) ولم تتساقط من السلاح الذي قتله، بل هي أقرب إلى أثر.. أثر القاتل الذي ينزف دمًا طيلة الوقت وبلا سبب مفهوم..

☆ ☆ ☆

تراجعت إلى الوراء وألصقت ظهري بالحائط..

ترى هل هو هنا؟ كل شيء جائز.. وهذا قاتل لا يمزح.. قاتل يطير الرقاب بضربة واحدة، ولا يبالي بكونك شيخًا أو غافلًا..

انتظرت قليلًا وأنفاسي تتسارع..

بعد هنيهة قلت لنفسي: لو كان يريد قتلى فقد أتيحت له الفرصة عشر مرات منذ دخلت الشقة بحماقة بالغة..

من يدري؟ ربما كان في المستشفى الآن يبحث عني...

ماذا أستنتج من هذا الذي أراه؟

بخبرتي السابقة يمكنني أن أؤكد أن ما حدث هنا كان جلسة تحضير أرواح.. الدكتور (حمزة) أجرى جلسة منفردة، وقام بتسجيلها على شريط التسجيل، حين هاجمه القاتل وهو غافل..

لماذا؟

لأنه عرف أكثر مما ينبغي، أو قبل أن يعرف أكثر مما ينبغي..

نفس الشيء ينطبق على.. لماذا حاولت الممرضة ـ التي ليست (هدى) - قتلى؟ لأنني أعرف أكثر مما ينبغي، أو قبل أن أعرف أكثر مما ينبغي..

ولهذا معنى مهم آخر:

هذا الشريط يساوي ثقله ذهبًا لو كان عليه شيء من الجلسة التي دارت هنا منذ قليل..

نظرت حولي، ثم بحثت في جيب سروال (رأفت) حتى وجدت منديلًا..

لففته على يدي واتجهت إلى جهاز التسجيل، كي أخرج بكرته.. ودسستها في جيب السترة، وكذا بالجهاز الآخر..

إن هذا الشريط لن يفيد رجال الشرطة، لن يستنتجوا منه شيئًا، ولن يصدقوني لو حكيت لهم.. لهذا هو معي أكثر نفعًا..

والآن يجب إزالة بصماتي عن.. عن؟ أعتقد أنني لم، ألمس سوى مفتاحي النور.. لا أريد أن يجدوا بصماتي هنا، خاصة لو كان الفقيد يحتفظ بمفكرة أو ورقة بها اسمي وعنواني.. ستكون قصتي عن (السلت) والكلمات السبع واهية بعض الشيء وقتها..

هنا سمعت الصوت، وخيل إلى أنه كرباج يفرقع في الهواء، ثم فطنت إلى أنه صوت جسم حاد يشق الهواء سريعًا..

نحو عنقي..

☆ ☆ ☆

٩ - فلنرتب أفكارنا..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأية كلمات.. ترقبوا المسافر الوحيد.. يأتي بأي وجه كان.. يعترف من بئر الأكاذيب، ويرسم من خلفه خيطًا من دماء..

☆ ☆ ☆

مددت يدي سريعًا إلى جهاز التسجيل الثقيل، وبهذا ضمنت الانحناء وسمعت صوت المنجل إذ يمرّ بجواري..

إن من يُهاجمون بغتة يضيعون وقتًا ثمينًا جدًا في الذعر، ثم تبين وجه مهاجمهم، وترديد عبارات من طراز (من أنت؟) و(ماذا تريد؟)..

لا وقت لهذا الهراء لأن صحتي لن تسمح لي بأي اشتباك من أي نوع.. دون مناقشة رفعت الجهاز وأدرته في الهواء نصف دورة، ثم هويت به على وجه مهاجمي.. وسمعت الجهاز يتهشم..

وهرعت إلى الباب.. الصالة خافتة الإضاءة.. الباب الخارجي.. وثبت على درجات السلم... كان قلبي قد استنفد طاقته تمامًا..

بئر السلم.. الرائحة العطنة والفئـ...

ظلام دامس.. صمت..

☆ ☆ ☆

لا أدري كم من الوقت فقدت وعيي هناك، لكني أعتقد أنّ هذا ضلل مطاردي لأنّه لم يجدني أركض في مدخل البناية أو الشارع، حين لحق بي هناك..

لبثت هناك نصف ساعة غارقًا في العرق البارد أرتجف..

إنني في حال سيئة.. هل أعود إلى العناية المركزة؟ لا.. لم أعد أثق بأحد هناك..

واقشعررت للفكرة الرهيبة.. لقد دخلت الشقة وبحثت فيها، بينما ذلك الشيء قابع في الظلام ينتظر!

ومن جديد فقدت الوعي (أم هو نوم مرهق؟).. وحين فتحت عيني من جديد كان ضوء الفجر يتسلل من الشارع على استحياء..

وجدت سيارة أجرة بشكل ما وطلبت من السائق أن يوصلني لداري..

لولا أنّ هناك سائقي سيارات أجرة يسهرون حتى الفجر، وآخرين يصحون قبل الفجر، لوجدت نفسي في مشكلة حقيقيّة..

أعود لداري؟ لم لا؟ إن كل شيء يقول إن الخطر لا يبدأ إلا بعد منتصف الليل.. سيمنحني هذا ساعات ثمينة من التفكير..

☆ ☆ ☆

أخذت مفتاح شقتي من البواب، وكنت قد تركته عنده قبل رحيلي..
وفتحت الشقة فشممت رائحة الهواء الحبيس، وكل شيء كما تركته في تلك الليلة.. لو لم أكن وحيدًا لصاح أكثر من واحد: حمدًا لله على سلامتك أيها الكهل، لكن والأمر كذلك قلتها لنفسي..
وبحثت عن آثار قطرات دماء على الأرض التي اكتست بغبار رقيق، فلم أجد.. هذه الشقة ظلت (نظيفة) في أثناء غيابى..
فتحت الشرفة وأنا أدندن لحن (دعوا الشمس تدخل) من مسرحيّة (شعر) التي كانت تهز العالم وقتها، وأعددت لنفسي بعض الشاي وشطيرة..
سيكون على بعد أن أستريح أن أذهب إلى المستشفى لأفسر سر هروبي، وأسترد بذلتي الكحلية التي تجعلني فاتنًا..
أما الآن فلنصغ إلى الشريطين..

☆ ☆ ☆

من البداية استبعدت الشريط الثاني، فهو فارغ كله تقريبًا ما عدا عبارات من نوع (انصرفي بإذن الله) واستيقظ يا (حمزة)..
فمن الواضح أنه يؤدي دور شريك الجلسة..
الشريط الأول كان مزدحمًا بحق...
صوت غريب مُرهق يتكلم بانجليزية لم أسمع مثلها قط، وكلها تعبيرات عجيبة كأنها مأخوذة من الألمانية أو الدانماركية..
إنه ينذر.. ينذر بلعنة صارت قريبة جدًا.. المهم هنا أنه يقول بالحرف:
«يجب أن تدمّروا منبع الكلمات السبع.. يجب أن يبتلع قائلها لسانه» ثم:
«إن من بدأ اللعنة يقدر على إنهائها.. ومن فتح بوابة الشيطان يقدر على غلقها، ومن لفظ الكلمات بصوت عالٍ هو أقدر على منع شرها..»
بعد هذا حدث ما توقعته.. توقف الصوت فجأة، مع ضربة مكتومة.. إنِّه لم يجد الوقت حتى ليصرخ.. على الأقل كان موتًا غير أليم..
ظللت أصغي إلى الشريط عشر دقائق متوقّعًا أن أسمع القاتل يقول شيئًا مفيدًا على غرار: هاها! ماذا لو عرف الحمقى أنني أموت عن طريق كذا.. كذا.. وأن الخلاص من اللعنة هو كيت.. وكيت؟
بالطبع لم يحدث.. كان هذا أملًا أجمل من أن يكون حقيقيًّا..
وأغلقت جهاز التسجيل، ورحت أتأمل الضوء البهيج الذي يفترش سجادة الصالة الغبراء..
إن الحياة جميلة، ومازال من المؤسف فقدها..

☆ ☆ ☆

أحضرت مفكرتي وبدأت أرتب أفكاري على الورق كعادتي:
١ - توجد لعنة سلتية قديمة قادرة على نشر وباء يشبه التيفوس.

٢ - يبدو أن الكلمات السبع هي التي تثير هذه اللعنة وتحييها.
٣ - بعد لفظ الكلمات السبع يظهر زائر غامض لحوح، ليس اللطف من صفاته، وهو يجيد تغيير شكله، ويدفع ثمن زياراته ذهبًا، ويصر على قضاء ليلة في دارك.
٤ ـ النظرية تبدو متكاملة لكن بها ثغرات.
٥ - لو كان ناطق الكلمات أول من يصاب بالوباء، فما جدوى هذه التعويذة البلهاء؟ الجواب المنطقي هو أن الكلمات السبع في طريق الخصوم كي يقرءوها غافلين، جاهلين خطرها.
٦ ـ لو كان هذا صحيحًا؛ فأنا واثق من أن الكلمات السبع قد قرئت بصوت عالٍ في اسكتلندا في أسطورة رعب المستنقعات.. لماذا لم يعم الوباء البلاد وقتها؟
٧ - ما معنى أن (يبتلع قائلها لسانه)؟ هل من المفترض أن أقطع لسان (عزت) بسكين وأضعه بين قطعتي خبز مع بعض المقبلات؟ سيكون عسيرًا بعض الشيء أن أقنع (عزت) بهذا..
٨ - من هو الرجل اللحوح؟ ما دوره في القصة؟ ولماذا قتل (حمزة) وحاول قتلي؟
٩ ـ ما هو دور الكلمات السبع بالضبط؟ لقد افترض (أندرو) أنها تقوم باستدعاء (إكليبوس) كي يلتهم القرابين، وافترض آخرون أنها تستدعي الموتى من المستنقعات، وها هو ذا الأب (جستنيان) يقول إنها تسبب الوباء.. ما هي الحقيقة؟ أم الحقيقة هي هذا كله؟
١٠ ـ حسب ما قال (جستنيان): إن (عزت) هو الوحيد القادر على إيقاف اللعنة، أم هو أنا؟ لكن كيف؟ وأين هو (عزت) الآن؟
لقد نصحته بأن يتوارى حيث لا يجده النمل الأخضر؛ فكيف أجده أنا؟!

☆ ☆ ☆

وبحثت عن المفكرة القديمة التي أرسلتها لي الأخت الفاضلة (س. ب).. ها هي ذي أسُّ الكوابيس كلها..
رحت أبحر بين الصفحات المتسخة الملأى بالبقع...
المرة الأولى التي لفظت فيها الكلمات السبع بصوت عالٍ، هي في احتفال (الكريسماس) الذي ضم الزوجين (أندرو) و(هيلين).. والزوجين (سارة) و(جون).. وقد فعلها الزوج (أندرو) بطريقة توحي بالمزاح..
كل تعاويذ استدعاء الأرواح الشريرة هذه تقال كدعابة، أو على سبيل التجريب..
لماذا لم يصبهم الوباء؟ هل لأنّهم هلكوا جميعًا قبل قدوم الزائر الغامض؟ أم أن (أندرو) هذا كان يعرف ما يفعله حقًّا؟

☆ ☆ ☆

ألغاز.. ألغاز..
لقد صار على عاتقي واجب واحد هو أن أجد (عزت)...
(عزت) هو الذي وجدني.. دق جرس الهاتف فرفعت السماعة لأجد من تقول لي إنها (سحر)...
- «هذا جميل.. ولكن ما دخلي أنا بهذا؟»
- «أنا (سحر).. (سحر الهمشري).. قال لي (عزت) إنك ستتذكر الاسم حالًا..»

آه! فهمت.. ولكن هل أنت (سحر) حقًّا؟ كان على أن أصدقها لأنني لا أملك مزية الشك، ولأن الوقت نهار على كل حال..

- «هل هو بخير؟»

- «إنّه عندي في داري.. وهو محموم.. لا أدري سبب الحمى فهو دومًا مريض.. لكنه يطلب أن يراك، وهو من أعطاني رقم هاتف المستشفى والبيت..»

- «فهمت.. وكيف عرف عنوانك؟»

- «كان يعرف مقر عمل شقيقتي.. لقد جاءها ملهوفًا وتحدث عن..»

قاطعتها في ملل:

- «عن احتضارك بسبب السرطان.. مفهوم.. مفهوم.. وماهو عنوانك؟»

ذكرت لي عنوانًا في حدائق الزيتون، فدونته على ورقة، ثم ارتديت ثيابي، وهرعت إلى سيارتي العزيزة التي لم أدرك نفعها إلا ليلة أمس...

في الطريق عرجت على صيدلية، فابتعت بعض (التتراسيكلين).. فمن يدري؟ إن التيفوس الوبائي مرض شنيع لكن من الممكن القضاء عليه بجرعة واحدة من (التتراسيكلين)..

☆ ☆ ☆

كانت (سحر) بدينة كأفراس النهر، وعجبت لأن هذا ذوق (عزت)، لكني أدركت أن كل هذه السنين تحدث تغيرات مهمّة.. إنها تعيش وحدها عازفة عن الزواج ثانية، ولا بد لمن تمارس هذه الحياة الملأى بالإحباطات العاطفيّة أن تربي القطط، أو تلتهم الطعام كفرس النهر، وأنا لم أر أية قطط في شقتها بالمناسبة..

قادتني إلى أريكة يرقد (عزت) فوقها، أحمر اللون كالطماطم، يلهث من منخريه كالثيران، وحرارته تجعله صالحًا لغلي الماء..

قالت في عصبية:

- «لو سمحت.. خذه وانصرف.. أنا لم تعد لي علاقة بهذا الشخص.. يقتحم شقتي هكذا وأنا أعيش وحدي، ويرقد على أريكتي ليموت!»

قلت وأنا أفحصه دون أن أنظر نحوها:

- «لقد جاء البائس حاسبًا أنك تموتين.. لم يأت ليعيد المياه إلى مجاريها، وعلى كل حال أعتقد أنك في خطر داهم!»

صاحت في رعب:

- «أي خطر؟»

أخرجت علبة المضاد الحيوي من جيبي، وقلت:

- «تناولي كبسولتين الآن، أو كبسولة كل ساعتين، أو ابتلعي العلبة كلها الآن.. لا فارق عندي.. فلندعُ الله أن يكون هذا المرض هو ما أتوقعه، وإلا نحن جميعًا هالكون..»

وقبل أن تتناول العلبة فتحتها وابتلعت كبسولتين من دون ماء، ثم طرحتها إليها.. إن فحص (عزت) لا يشير إلى شيء.. إنها البداية المعروفة لكل الحميات.. لكن هذا مقلق في حد ذاته.. فلو وجدت التهابًا في اللوزتين لاطمأن قلبي أكثر..

علامة أخري تثير الذعر، هي الحيرة والذهول المخيمان على وعيه.. إنِّه ضائع مشتت عاجز عن ترتيب أفكاره.. هذه من علامات التيفوس القوية..

يقولون إن رائحة معينة كرائحة الفئران تفوح حول المريض، لكن ليس لديَّ الألف الحاد الذي كان يملكه أطباء الماضي.. (أوسلر) كان يقف على باب العنبر ويشم الهواء.. رائحة القش تفوح من مرضى التيفود.. رائحة الفئران من مرضى التيفوس.. رائحة الجثة الطازجة من مرضى الفشل الكبدي..

إلخ أعطيت (عزت) ما يلزم، وجلست جواره على الأرض أستجوبه:

- «أنت سمحت له بالمبيت معك أمس؟»

بشفتين جافتين ملتصقتين همس:

- «ما كان هو.. بل عمي! كنت أبيت في شقته الخالية!»

- «يا لك من أحمق! وجاء هو بالصدفة ليبيت معك؟!»

- «نـ.. نعم.. وأعطاني هدية من المرحوم أبي..»

ومد يده المرتجفة إلى جيبه..

وحين أخرجها لمحت قطعة مستديرة من معدن أصفر براق..

☆ ☆ ☆

١٠. فكرة جنونية..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأية كلمات ترقبوا المسافر الوحيد يأتي بأي وجه كان.. يغترف من بئر الأكاذيب، ويرسم من خلفه خيطًا من دم.. إنّهِ في النهاية يرتحل..

☆ ☆ ☆

انتهى الأمر..

لقد قضى المسافر الوحيد ليلته تحت سقف (عزت)، ودفع الثمن ذهبًا (لأنّه يصلح لكل مكان وزمان)..

جلست جوار (عزت) مقاومًا رغبة عارمة في خنقه..

- «يا لك من أحمق! قلت لك ألا تسمح لكائن حي بالمبيت معك.. نسيت كل ما قلته لك عن (كامل إرادتك الحرة)..»

سعل مرّتين، ثم قال:

- «كان هذا أقوى منى يا (رفعت).. كان.. مقنعًا... بحق..»

- «بالتأكيد كان كذلك، وماذا فعل في هذه الأمسية؟»

- «لم يفعل شيئًا.. قال إنّهِ سينام، وأخلد إلى الفراش.. بعد منتصف الليل بساعتين..»

- «وبعدها؟»

- «رأيت قطرات الدم على الأرض.. هنا فقط بدأت أقلق.. تسللت إلى غرفة.. النوم.. وكشفت الغطاء عن..... وجهه..»

- «وماذا رأيت؟»

بدا عليه الذهول واتسعت عيناه الحمراوان المحتقنتان، وراح يرتجف...

هذه هي مشكلة الحمقى.. كلما وصلنا إلى الجزء المهم من القصة، أصابهم البله التام.. جميعهم يتصرّف بالأسلوب ذاته..

هززته في غير رفق، وصحت:

- «أقول.. ماذا رأيت؟»

همس بصوت كالفحيح:

- «هذا الغريب لا ينقل الوباء أو يسمح بقدومه.. إنه..»

ودار رأسه ليواجه الجدار، وهو يهمس آخر كلمة:

- «أنه هو الوباء ذاته!»

☆ ☆ ☆

بعد ما فرغت من إجراءات عزل (عزت)، نصحت المحيطين بأن يتعاملوا معه كأنما هو الطاعون ذاته.. نحن لسنا واثقين أنّ هذا هو التيفوس.. لا يوجد لدى (عزت) قمل على ما أظن.. نحن لا نعيش في تلك البيئات الخانقة القذرة التي ساعدت على انتشار التيفوس في القرون الوسطى، وفي الحروب..

ما زلت بصحة جيدة ـ من ناحية الحمى على الأقل ـ لكنني لست واثقًا من أنني لن أصاب بها هذه الليلة..

إن حضانة التيفوس طويلة نسبيًا، ولو أصيب به (عزت)، فقد حدث هذا قبل بداية هذه القصة: أي منذ أسبوع إلى أسبوعين..

☆ ☆ ☆

«يجب أن تدمّروا منبع الكلمات السبع..»

☆ ☆ ☆

أشعلت الموقد، ثم أحضرت تلك المفكرة الأسكتلندية التي لم أجنِ من ورائها إلا المتاعب، فدعوت قليلًا على من أرسلها لي، ثم تهيأت لحرقها باعتبارها منبع الكلمات السبع..

في اللحظة الأخيرة أحجمت، وخطرت لي فكرة جنونية..

☆ ☆ ☆

إن من بدأ اللعبة يقدر على إنهائها..

☆ ☆ ☆

إن البداية والنهاية توجد عند معالج مصري يُدعى (إسماعيل)..

☆ ☆ ☆

عندما دنا المساء، جلست أتأمل تفاصيل القصة كلها..

إنه الوباء شخصيًا جاء من بعيد، ناثرًا الدم والخراب من خلفه، وقد أيقظته سبع كلمات من سبات طويل..

جاء عبر السهول الثلجية، والبحار، والمحيطات، يبحث عن سيده الذي ناداه، والذي سيمنحه المبيت ليلة..

هذه هي التقاليد...

التعويذة التي اصطكها (السلت) من عشرة قرون، ما زالت حية تؤدي عملها، و(أندرو) الذي وجد هذه التعويذة لم يفهم قط فائدتها.. حسبها مخصصة لاستدعاء (إكليبوس) رعب المستنقعات، وتلاها بصوت عالٍ..

لكن المجموعة كلها هلكت قبل أن يقرع المسافر الغريب بابهم ليلًا، وإلا لأدرك (أندرو) خطأه، وهو ينزف آخر قطرات دمه بفعل التيفوس...
لكن (أندرو) لم يتجاوز الحقيقة، حين فهم أن لهذه الكلمات مفعولًا كابوسيًا يفوق أقوى التعاويذ وأشرها..

☆ ☆ ☆

إنه الوباء بنفسه...
فكيف يتجسد الوباء؟
إنها فكرة شعرية جديرة بـ (إدجار آلان بو) في إحدى قصصه الكابوسية، وإلى حد ما لها مذاق (قناع الموت الأحمر)... لكنّها لا تصمد كثيرًا في عصر الفيروسات والجراثيم والمجهر الإلكتروني..
هنا من جديد يوجد من (رفعت) اثنان.. واحد يقبل وجود أشياء لا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تعقل، وواحد لا يقبل..
لكن الحقيقة هنا - برغم كل شيء - هي أن الزائر موجود.. يقرع الأبواب بعد منتصف الليل، وزيارته تترك الدماء في كل صوب..
يوجد شيء ما لا أدري كنهه، لكنه موجود، وعليَّ أن أتأهب له..

☆ ☆ ☆

وفتحت النافذة لأرى القمر الحزين الشتوي يطل على المدينة..
الهواء البارد البليل يتسلل إلى رئتي..
أمسك المفكرة، وبصوت عالٍ ثابت أصرخ:
- «أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس..
بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس...
أشيوست ديمترا - إرسادوك..»
والتقطت آخر أنفاس في صدري المتحشرج، وصحت:
- «إينياس!»
ومن الطابق الذي يقع تحتى دوى صوت الأستاذ (زكريا):
- «كف عن الصخب يا أحمق! إن لدى طالبة في الثانوية العامة!»
أغلقت النافذة، وقلت في سرّي:
- «لن تفيدها الشهادة كثيرًا حين يعم الوباء البلاد!»
لا ألوم من يحسبني مجنونًا.. هأنذا قد تجاوزت مرحلة استضافة كهنة التبت في شقتي، لأدخل مرحلة ترديد التعاويذ السلتية في النافذة..
وبسرعة، فرغت من جمع حاجياتي، وتأكدت من إغلاق كل شيء، ثم غادرت الشقة مسرعًا..

☆ ☆ ☆

إن من بدأ اللعنة هو الوحيد القادر على إيقافها..

☆ ☆ ☆

إن (عزت) ليس في حال تسمح بالمواجهة القادمة..
لكنني أستطيع..
أعتقد أنني أستطيع.....

☆ ☆ ☆

١١ - أمسية بهيجة..

اسمعوا الكلمات السبع، حين ينطقها لسان أسقمته السنون، ووجه جمدته الأهوال.. إنها مجرد كلمات، لكن لا كأية كلمات.. ترقبوا المسافر الوحيد يأتي بأي وجه كان.. يغترف من بئر الأكاذيب، ويرسم من خلفه خيطًا من دماء.. إنّه في النهاية يرتحل، لكن ليس من دون ثمن..

☆ ☆ ☆

سألني وهو يجفف العرق من على جبينه:

- «هل أنت واثق من هذا؟»

- «كل الثقة..»

قلتها وأنا ألهث حاملًا البطانية الثقيلة فوق كتفي، وأنا ألحق به عبر الممرات خافتة الإضاءة..

كان د. (سليمان) بدينًا متلاحق الأنفاس بدوره، لكن ما زاد حالته النفسية سوءًا هو شكه في قواي العقليّة.. إن عصبيتي في الأيام الأخيرة - برغم ما أتعاطاه من أقراص (بنزوديازبين) - جعلت الكل يخشاني، لكنّها في الوقت ذاته جعلتني قاطعًا كاسحًا أنال ما أريد..

إن هذا درس لي في المستقبل - لو كان هناك مستقبل - هو أن الصراخ يجدي غالبًا، والصوت العالي ينجح دائمًا..

كان العاملان النوبتجيان يلحقان بنا، وقد حمل كل منهما كشافين من الكشافات التي قمت بجمعها.. بينما كانت الزجاجة معي..

وفتح لي (سليمان) باب الغرفة الرهيبة، ودعاني للدخول..

☆ ☆ ☆

رحت أجرى توصيلات الكهرباء بحيث أتأكد من أن الكشافات الأربعة ستضاء كلها بمجرد أن أدس طرفى سلك عار في القابس.

نهضت لأجد (سليمان) والعاملين ينظران لي في شك، ومن جديد قال في كياسة:

- «(رفعت).. ما زلت أرى أنك لو طلبت رأي طبيب نفسي فربما.....»

قلت بلهجة قاطعة:

- «فات أوان ذلك.. والآن وداعًا.. ولا تنس أن تغلق الأنوار كلها في أثناء انصرافك..»

تبادل النظر مع العاملين، ثم أمر أولهما - وهو عملاق يلف رأسه بمنديل كبير كمن أصيب بصداع - بأن يظل دانيًا إن أردت شيئًا، وبالطبع يترك الباب مفتوحًا..

قلت له قبل أن ينصرف، وقد بدأت أسناني تصطك:

- «أريد شايًا ساخنًا قبل أن تنصرفوا..»

نظر إلى العامل الثاني:

- «ليكن.. فلتر ما يريد د. (رفعت) وتنفذه يا (بيومي)..»
وألقى نظرة على المكان قبل أن يخرج..

☆ ☆ ☆

واربت الباب بحيث يمكن فتحه من الخارج، ولا يسمح للبرودة بالخروج، وعلى الأرض جلست ألهث.. إن البرد لن يرحل بسهولة برغم أنهم خفضوا درجة التبريد إلى الحد الأقصى لها..
كان هذا المكان الذي اخترته لقضاء الأمسية - كما لا يغيب عن ذكائكم - هو المشرحة.. ثلاجة المشرحة لو أردنا الدقة..
الإضاءة خافتة مرهقة للعينين، لكنّها ليست الظلام الدامس، وفي هذه الإضاءة أستطيع أن أرى صفوف الجثث المعلقة التي يتصاعد منها البخار الثلجي، والرفوف الجانبية الشبيهة بأدراج المكتب.
هنا يحفظون الموتى ناقصي الأهلية، إلى أن يجدوا من يسأل عنهم، أو يبدءوا عملية حفظهم باستعمال (الفورمالين) وأوكسيد الرصاص الأحمر يُحقن في العروق، تمهيدًا لاستخدامهم في دروس التشريح..
لماذا اخترت هذا المكان الرهيب؟ هل أنا سوداوي النزعة إلى هذا الحد؟
بالطبع لا.. لكني كنت بحاجة إلى البرد.. الثلج..
حيث لن يقاوم المسافر الوحيد أن يجيء إليَّ، وحيث الموت يرسم لوحاته الشنيعة فوق كل جدار ومع كل شهيق وزفير..
سيأتي.. أنا أعرف أنه سيأتي..
إن الإغراء أقوى منه..
إن البرودة ستجعله أضعف.. إنّه - ككل جرثومة - يفقد قواه في البرد، وربما لهذا السبب كان يطلب المبيت ليلة في كلّ مرّة يظهر فيها.. كان بحاجة إلى الدفء..

☆ ☆ ☆

بدأ النعاس يغالبني برغم أنّ هذا ليس موعد نومي..
وبدأت أفهم.. إنني أتسرب شيئًا فشيئًا إلى غيبوبة البرد.. وعيي يتجمد تدريجيًا كما يحدث للبؤساء الذين يضلون طريقهم في عاصفة ثلجية.. إنهم يموتون حينما يغريهم الصقيع بالجلوس والنوم، وفي الغالب لا يصحون أبدًا.. أو يصحون وقد فقدوا ساقًا أو ساقين..
يا لي من عجوز مجنون!
في النهاية - وقد فشلت في إبقاء جفوني مفتوحة - نهضت، وواربت باب الثلاجة المعدني الثقيل، وخرجت لأقف في الممر الخارجي الدافئ قليلًا..
هكذا! إن الجليد ينصهر من فوق أعصابي وثنايا مخي، وقد عاد الدم يتدفق من جديد.. لحظات ثم أعود للداخل..
ومن نهاية الممر رأيت خيال العامل قادمًا..
كان قادمًا ليرى ما إذا كنت أريد شيئًا.. لا.. ليس هو..

هذا الخيال أطول قامة، ويبدو مسربلًا بثياب فضفاضة كمسوح الرهبان، والأدهى أنه يحمل شيئًا كالمنجل في يده..

☆ ☆ ☆

عدت إلى داخل الثلاجة، ورحت ألهث.. واربت الباب، ثم عدت لأجلس القرفصاء جوار الجدار المتجمد..

وسمعت الباب ينفتح ببطء..

رفعت عيني فرأيته للمرة الأولى..

☆ ☆ ☆

كما قال (عزت)؛ لم يكن من السهل أبدًا أن ترى وجهه.. دائمًا هو في الظل.. ودائمًا يجيء مصدر الضوء من أعلى فيظلم وجهه كله.. إن من شاهدوا فيلم (الأب الروحي) في أول أجزائه يمكنهم بسهولة فهم ما أعنية خاصة المشاهد التي يظهر فيها (دون كورليوني)..

كنت جالسًا على الأرض أرمقه في رهبة.. هذه المرّة جاء من دون رتوش ولا إضافات... جاء بحقيقته كما هو، وهكذا كان يقرع أبواب الحطابين في ممر (سبتال أوف جليتشي) يسألهم قضاء ليلة.. يا له من مشهد رهيب..

☆ ☆ ☆

قلت له في تهذيب:

- «مرحبًا بك.. أعرف أنك قطعت مسافة طويلة، فلا بد أنك مُرهق.. مرحبًا بك في داري..»

أشرت إلى الجثث المعلقة هنا وهناك..

للمرة الأولى تكلّم بصوت عميق رخيم:

- «قد دعيت مرّتين..»

لففت البطانية بإحكام أكثر حول نفسي، وقلت مرتجفًا:

- «انس كل شيء عن الدعوة الأولى.. أنا المسئول عنها.. الآن أريد منك أن تجلس هنا معي، وتحكي لي كل شيء عن رحلتك..»

استدار، وجذب مقبض الباب.. و...

كرانك!

انغلق الباب بضربة معدنية قوية، وهكذا صرت وحدي مع هذا الشيء في ثلاجة واحدة..

☆ ☆ ☆

قلت لنفسي: لا باس.. هناك من يعرفون أنني هنا، وهناك عامل ينتظر بالخارج، ولسوف يندهش لكون الباب مغلقًا..

هنا رفع المسافر الوحيد منجله ببطء، وفي الضوء الخافت أدركت أن نصله ملوث بالدماء!

دماء من؟

لقد انتهى أمري، حتى لو انتصرت عليه، فلن أخرج من هنا.. هذا المجنون أوصد بابًا لا ينفتح من الداخل..

قال لي وهو يتقدم نحوي ببطء:
- «سأبيت عندك الليلة إن أذنت لي..»
كأنما الاختيار بيدي، فهززت رأسي في مرح:
- «بكل سرور..»
وببطء رأيت يده تمتد لي.. فتحت كفي وأنا أعرف ما سأجده.. قطعة المعدن الصفراء البراقة إياها..
- «ذهب.. أنا دومًا أدفع بالذهب..»
وضعت القطعة الرهيبة في جيبي، وأشرت له إلى جوار الجدار كي يجلس.. يجلس بين الأقدام المتدلية المتجمدة فوق رأسه..
قال وهو يفترش الأرض الثلجية:
- «هذا موضع له سمت الموت ورائحته..»
- «بل هو الموت ذاته.. أردت أن تستمتع بليلتك..»
كيف أفلت من هذا الموقف، وكيف أخرج من هذه الورطة؟
سألته محاولًا أن أتناسى الصقيع الزاحف على أطرافي:
- «كيف كان الحطابون الجهلة يقرءون الكلمات السبع؟»
- «كان هناك من يلقنها لهم تلقينا.. إن قليلين يعرفون جدوى تلكم الكلمات.. قالوا تخرصًا إنها تهب الخلود، وقالوا إنها تحيي سيد المستنقعات، وقالوا إنها تهب الثراء.. لهذا رددها كثيرون، ولسوف يرددها كثيرون..»
وأردف في لهجة ذات معنى:
- «لست أنت آخرهم..»
ودون كلمة أخرى انثني كالورقة على نفسه، وغرق في سبات عميق، سبات لن يصحو منه إلا وأنا مريض، وتبدأ شرارة الوباء في هشيم البشر..
مددت يدًا مرتجفة، ودسست السلك في القابس الوحيد الموجود داخل الثلاجة، وسرعان ما توهجت المصابيح الأربعة..
الأشعة فوق البنفسجية تغمر الجسد النائم..
مددت يدًا مرتجفة للمرة الثانية، وفتحت زجاجة (الفورمالدهايد) التي دسستها في البطانية، ودون كلمة أخرى قذفتها فوق ثياب المسافر.. رائحة السائل الكريهة تحرق عيني، وتهيج أنفي..

☆ ☆ ☆

كنت قد قررت أن أتخلص منه كما يتخلصون من الأوبئة كلها.. المطهرات والأشعة فوق البنفسجية وصقيع الثلاجة..
إنه وباء يمشي على قدمين، ولسوف يقتله ما يقتل أي وباء..
تمنيت هذا واشتهيته..

وكانت خطتي أن أفعل هذا، ثم أفر من الثلاجة وأحكم غلقها خلفي.. وبعد ساعات قد يبدو الموقف مختلفًا..

لكني الآن سجين معه.. سجين يوشك على التجمد..

هو ذا راقد حيث هو دون حراك.. فلا أعرف إن كانت خطتي قد أصابت أم فشلت..

لكني أنهض إلى الباب وأقرعه مرارًا صارخًا:

- «اسمعوني أيها الحمقى! أنا هنا! افتحوا لي!»

إنني حبيس هنا.. أمضى ليلة مع الوباء ذاته - ويا له من شرف - مقابل جنيه من ذهب..

جنيه من ذهب..

جنيه من..

جنيه..

جـ.....

☆ ☆ ☆

خاتمة

كلا.. لم أمت...

أراهن على أن بعضكم خمن ذلك!

إنها طريقة (جريفيث) في الإنقاذ على آخر لحظة، كما يسميها السينمائيون.. لكن كان هذا متوقّعًا على كل حال..

لقد عاد د. (سليمان) بعد ساعة ليطمئن عليَّ، وليعرف الحقيقة وراء رغبتى العارمة في المبيت في ثلاجة المشرحة..

وجد العامل الذي تركه في حالة.. إحم.. حالة تشبه حالة د. (حمزة) حين وجدته في شقته..

هرع إلى الثلاجة فوجدها موصدة الباب.. فتحها ليجدني وراء الباب.. أزرق اللون، مغرٍ بالالتهام، دجاجة خرجت من (فريزر) ثلاجتك..

جرني إلى الخارج، وطلب النجدة..

وهأنذا حي أرزق.. صحيح أنني فقدت إصبعين من قدمي بفعل (قضمة الصقيع) لكن هذه الأشياء يمكن مداراتها بجورب محشو بالقطن.. أنتم لم تلاحظوا هذا طيلة جلوسي معكم.. أليس كذلك؟

كان أول سؤال سألته وأنا في الفراش:

- «الـ.. المسافر.. أين هو؟»

قال (سليمان) وهو يهدئ من روعي:

- «أي مسافر؟ توجد بالثلاجة عباءة هائلة الحجم.. ويبدو أنها تلتف حول بقعة كبيرة من دماء متجمدة.. لا شيء يثير الذعر هنا.. صدقني!»

☆ ☆ ☆

لقد هلك المسافر الوحيد، أو هذا ما أرجوه..

لم يتحمل كل ظروف التعقيم التي وضعته فيها..

وقد كانت خطتي الأولى هي أن تتم المواجهة بيننا في مصنع للمحاقن الطبية، حيث أجد ما أتمناه من النتروجين السائل والأوزون وكل ما يخطر وما لا يخطر ببالي من وسائل.. لكن ما باليد حيلة.. كان عسيرًا أن أرتب الأمر مع مصنع كهذا، على حين كان د. (سليمان) رجلي بشكل أو بآخر..

أعتقد أن الوباء قد هلك..

أعتقد أن اللعنة السلتية قد انتهت..

أعتقد أن (عزت) سيسترجع قواه، ولن ينقل المرض لآخرين..

☆ ☆ ☆

ثمة ثغرة واحدة هنا، هي أن كثيرين منكم صاروا يعرفون الكلمات السبع.. أتوسل إليكم أن تنسوها.. لا ترددوها أبدًا بصوت يعلو على صوت وجدانكم، وإن فعلتم فلا تثقوا بالأشخاص الذين يطلبون المبيت ليلًا.. الذين لا يمكن رؤية وجوههم.. وبالأخص الذين لا يدفعون إلا الذهب..
اتفقنا؟

☆ ☆ ☆

الأسطورة القادمة أسطورة فريدة من نوعها..
أسطورة تختلف....
ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - بداية البداية..

٢ -(حمزة) وأنا..

٣ - خطر يتحرك..

٤ - (عزت) وأنا..

٥ - الزائر..

٦ - بكامل إرادته الحرة..

٧ - جلسة منفردة..

٨ - هارب!

٩ - فلنرتب أفكارنا..

١٠ ـ فكرة جنونية..

١١ - أمسية بهيجة..

خـــاتـمة

Notes

[1←] في هذا الوقت كانت (أسكتلندا) عبارة عن ثلاث إمارات هي (سكوتلند)، و(لوتيان)، و(ستراثكلايد).

[2←]
(Exorcist)

[3←]
لو كنت قد قرأت (أكل البشر) - الكتيب الرابع - فأنت تزيح عن كاهلي حملًا ثقيلًا!

[4←]
نحن نتحدث عن جهاز تسجيل عتيق من الطراز ذي البكرتين.

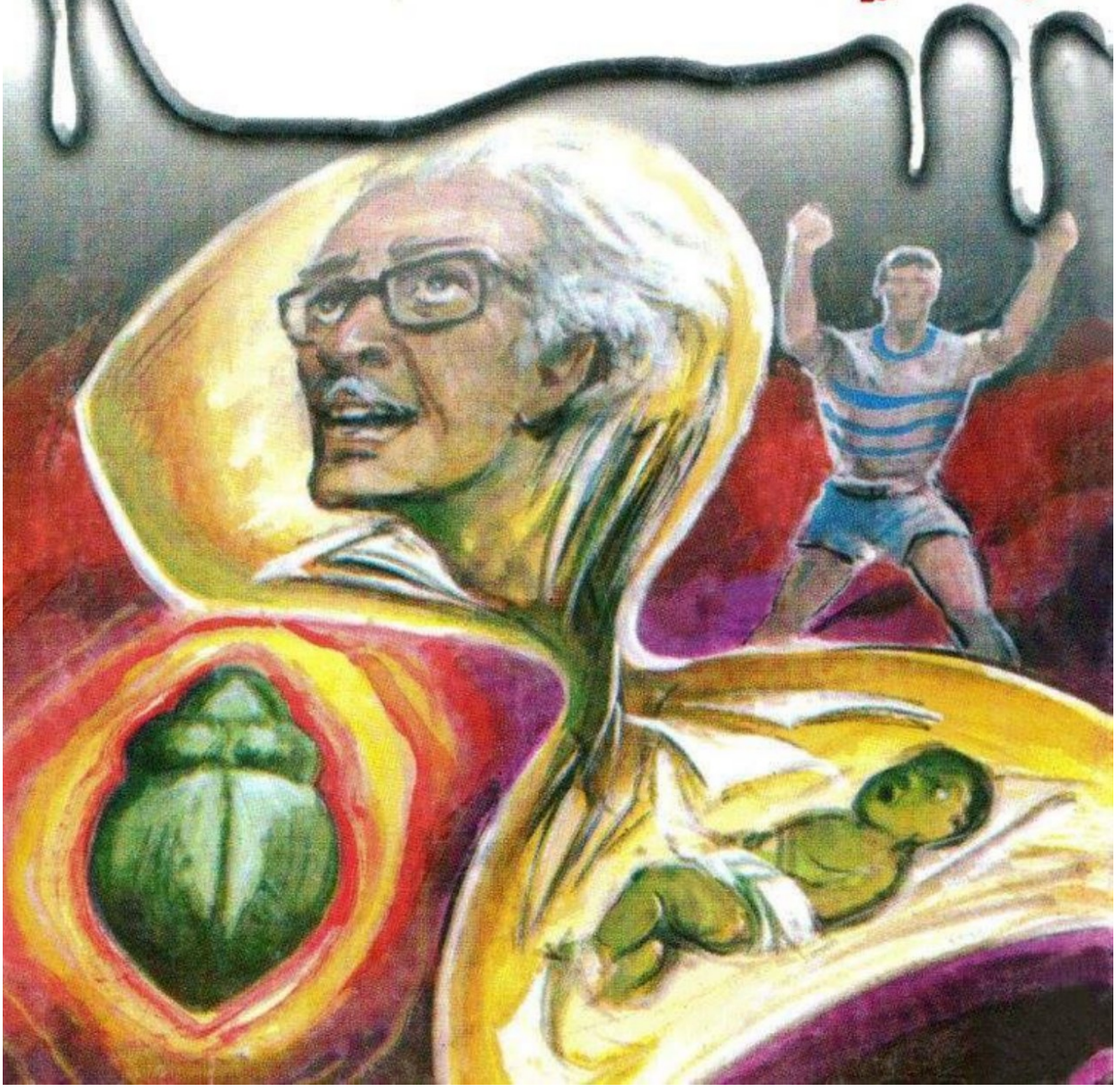
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

43

أسطورة تختلف..!

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



43

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة تختلف

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايـــات تحـبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصـرى مـائة فى المـائة
لا تشـوبه شبهة الترجمـة أو الاقتبـاس
أو النقــل عـن أية قصص أوربيـة .

●

إشـــراف
الأســتاذ/ حمـــدى مصطفـــى

●

جميع الحقـوق محفـوظة للناشـــر
وكل اقتبـــاس أو تقلـيد أو تـزييف
أو إعـادة طبع بالتزوير يعـرض
المرتكب للمســاءلة القـــانونية .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى
مصر الجديدة ـ القاهرة: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع.

مقـدمة

فرغنا من قتل آخر (البيروسات) عند الخامسة مساء..

أنتم تعرفون أن قتل (البيروسات) ليس سهلًا، وليس بالضبط نشاطًا محببًا، لكن ما باليد حيلة..

وفي الضوء الخابي كنت ترى وجهه المقلوب يرمقنا في كراهية، وعيناه قد صار لونهما أحمر تمامًا.. أحمر كالدم.. أحمر كـ.. كعينيه..

بيد مخلبية رابعة راح يحاول الوصول إلى نسيج بنطالي، فتراجعت للوراء خطوة، ثم راح السائل الرغوي الأخضر يتدفق من فمه...

كان (بكر) يقف جواري، يلهث من فرط الجهد، وقال راجفًا:

ـ «لو رأيت هذا المشهد في فيلم رعب، لغادرت دار السينما ساخطًا..».

نظرت حولي لأتأكد من أنّه ليس هناك آخرون، وقلت وأنا أجفف عرقي الذي غلَّف عويناتي بالضباب:

- «لقد رأيت أسوأ، وفي كلّ مرّة ظللت جالسًا، لأن دار السينما التي أجلس فيها ليس لها باب خروج.. هناك واحد لكنه يقود إلى الأبدية، والخروج منه ليس باختيارك..»

ونظرت ورائي لأرى وقع كلماتي عليه، فلم أجده.. لقد..

ها هو ذا واحد آخر لن يتألم ثانية..

يومًا ما سأحكي لكم ما حدث بعد هذا، وكيف وجدت نفسي في هذا المأزق.. لكن اليوم مناسب لأحداث أكثر مرحًا وأقل بشاعة..

إن أسطورة اليوم لها مذاق فريد مسل..

إنها أسطورة تختلف..

☆ ☆ ☆

تمهيد لا بد منه للأسف..

ثم ما الجديد في كل هذا؟

تعرفون أنني مررت بفترة نفسية سيئة بعد صدامي مع (خادم الكلمات السبع)، وتعرفون أنني فقدت أجزاء من جسدي، وتعرفون أنني أصبت بالتهاب رئوي لفترة لا بأس بها، وتعرفون أنني سافرت إلى الولايات المتحدة.. بالتحديد إلى (نيويورك).. تعرفون أنني اتصلت هناك بـ (هاري شيلدون) صديقي القديم.. لماذا؟ لأنّه سيدمرني لو عرف أنني جئت إلى الولايات ولم أتصل به، وهو في الغالب يعرف هذا..

تعرفون كل هذا يقينًا.. فما الجديد هنا؟

الجديد هو أنني تلقّيت دعوة إلى نادي السحر إياه، وكان الداعي هو النصاب اليهودي المعهود (سام كولبي)..

حسن.. كان عليَّ أن أكون هناك..

☆ ☆ ☆

بالنسبة لمن قرءوا (حكايات التاروت)؛ وهي حلقة الرعب الثانية، يمكن أن نقول إن الجو كان شبيهًا بذات الجو الذي قابلت فيه د. (لوسيفر).. المشكلة هي أنني أمقت الوصف بطبعي، فقد مات (بلزاك) منذ عهد طويل.. (بلزاك) الذي كان يطلب من تلاميذه - هواة الأدب - أن يمشوا في الحديقة عشر خطوات، ثم يكتبوا واصفين ما رأوه في عشرين صفحة!

مختصرًا سأكون.. ومختصرًا أقول إن اللقاء تم في الشقة ذاتها في (بارك أفينيو)، وكان هناك عدد لا بأس به من سحرة (نيويورك) وسواهم... سحرة من الطراز الذي ينشر جسد المرأة إلى نصفين في عروض المسارح، وسحرة من الطراز الغامض الذي يمارس شيئًا ما لا تدري كنهه، لكنه كريه منفر مظلم..

كان الكل هناك.. وكان هناك ذات الجمع من غريبي الأطوار والحسناوات ومديري الأعمال والوكلاء والممسوسين..

وقلت لـ (هاري) وأنا أتأمل كل هذا غير راغب في الاشتراك فيه:

- «أظن هذا المكان يجلب لك ذكريات تعسة؟»

قال في استخفاف:

- «لماذا؟ لقد جعلني د. (لوسيفر) أخذ حذري.. لم تكن تجربة معدومة النفع على كل حال..»

كان الجو منفرًا كما تلاحظون، لكنه ساحر غريب.. نعم ساحر.. وهذا هو السبب الذي جعلني لا أرفض الدعوة.

ومن وسط الناس ظهر لنا (سام كولبي)... النصاب اليهودي الذي صار الخلاص منه مستحيلًا.. والحقيقة هي أن الرجل بلا ذاكرة، وغير قادر على أن يحتفظ بوجه في عقله فضلًا عن اسم، لكن من الواضح أنني لا أمحى من ذاكرة من يراني بسهولة.. كلون الطلاء حين يلتصق للأبد بكوع

بذلتك الجديدة.. ثم إن الرجل ما زال يعتقد ومازال متأكدًا من أنني (إدجار آلان بو) الذي عادت روحه إلى الأرض..

بوجه الدمية الطفولي الذي يحمله رحب بنا، وبدأ واضحًا أنه نسي كل شيء عن (هاري).. قال لي وهو يتأبط ذراعي بيده الدقيقة:

- «قد مر وقت طويل منذ جلسنا في هذه الشقة نسمع طالعنا من دكتور (لوسيفر).. لا شك أنك سعدت بمعرفته حقًّا..»

قلت ما معناه أنها كانت معرفة خير حقًّا، وكنت أتذكر لقائي اللطيف معه في قصة (دماء دراكيولا).. إن الأشخاص الذين نتعرفهم بفضل إنسان مثل (كولبي) هم كوارث حقيقيّة.. مصائب تنتظر الحدوث..

قال (كولبي) وهو يحيي هذا، ويداعب ذاك:

- «ما كان لينبغي أن أفوّت فرصة لقائك ثانية، وأنت من جعلني شهيرًا في أوساط السحر.. ولكن..»

وتأملني في شيء من الحسرة وقال:

- «تبدو لي في أسوأ حال.. كأن عشرين سنة قد أضيفت إلى عمرك..»

قلت له في رزانة:

- «ليس هذا ذنبي... لقد قابلت الوباء الأسكتلندي القديم، وقضيت معه ليلة كاملة في المشرحة.. أنت تفهم هذه الأمور..»

هزّ رأسه شان العارفين وقال:

- «بالطبع.. بالطبع.. إن حياتك مرهقة مفعمة بالصدمات... و...»

ثم تقلص وجهه، وبدا عليه الألم، وهتف:

- «بعد إذنكما.. سألبي نداء الطبيعة.. معذرة.. إنها البروستاتا كما تعلمان»

وقبل أن نعلق اختفى من أمامنا..

تناول (هاري) كوبًا من عصير البرتقال تحمله ساقية حسناء على صحفة، وناولني إياه ثم تناول آخر، وقال:

- «يبدو أن جراحي المسالك البولية نادرون في (نيويورك).. ولكن.. ما موضوع الوباء الأسكتلندي هذا؟»

قلت دون احتفال:

- «إنها حياتي.. وقد اعتدتها..»

عاد (كولبي) منهمكًا في إغلاق بنطاله، وقد بلل كتفيه وصدره بماء حوض الغسيل كالعادة.. وقال لي مواصلًا ما بدأه:

- «الحقيقة يا د. (إسماعيل) هي أنك تذبل سريعًا جدًا.. جدًّا..»

- «أنا لم أكن زهرة قط كي أذبل.. يخيّل إلى أنني خرجت من بطن أمي عصبيًا ملولًا نحيلًا.. ولم يتهمني أحد قط بأنني أملك نضرة الشباب..»

- «لكنك - بالتأكيد - لن تعيش لترى الخمسين من العمر...»

- «ليس في الخمسين ما يغري.. لو عشت لأراها فلا بأس، ولو مت فلا خسارة هنالك.. أنت تحاول إقناعي بوجود مشكلة لا وجود لها.. تقنع رجلًا ضريرًا بألا يدنو من شاشة التليفزيون أكثر

من اللازم لأن هذا يؤذي عينيه! إن الضرير لن يدنو من الشاشة أصلًا..»
اتسعت عيناه في خطورة، وقال:
- «ولكن الصحة.. من أدراك أن نهايتك ستكون نظيفة، من دون جلطات مخية وقروح فراش وبتر أطراف و...؟ إن الصحة تمنحك هذا الضمان ما دامت لن تطيل عمرك..»
فأل الله ولا فألك أيها اليهودي المستفز!..
هذا الذي يقوله هو كابوسي الحقيقي، والشيء الوحيد الذي يرهبني أكثر من كل مصاصي الدماء والمذءوبين والموتي الأحياء.. إنني أقبل فكرة الموت السريع.. موت النوبات القلبيّة المفاجئ الذي يطلبون قبله كوبًا من الماء.. ثم.. هوب! ينتهي الأمر بنظافة..
لكني أكره ـ كالموت ـ فكرة الموت البطيء المفعم بالألم والسقم...
قلت له محاولًا تغيير مجرى الحديث:
ـ «هل لديكم ضيف فوق العادة هذه الليلة؟»
قال في رضا:
- «بالتأكيد.. لكنه رجل عادي لا يملك هالة الإبهار والغموض التي يحيط بها (لوسيفر) نفسه.. وهذا هو ما جعلني أتحدث عن الشيخوخة والاضمحلال.. الحقيقة هي أن (ميخائيل ميلفيسكو) يملك مفاتيح استرجاع الشباب...».
- «أروماني هو؟»
- «بالطبع.. إن (إسكو) في نهاية الأسماء لها رنين لا تخطئه الأذن..»
كنت قد قرأت الكثير عن دكتورة (أنا أصلان) الرومانية، وتجاربها على فيتامين (هـ)، وشعرت بأن هناك قدرًا من الحماس الزائد في تفسير نتائج تجاربها.. لقد تعاملت معها الصحف باعتبارها المرأة التي اكتشفت نبع الشباب.. وخمنت أن (ميلفيسكو) هذا يبيع الصنف ذاته.. ربما هو قد سرق علبة بها عشر كبسولات من فيتامين (هـ) من معمل الدكتورة المذكورة..
وصارحت (كولبي) برأيي، فقال:
- «لا.. إن طريقته فريدة بحق.. إنّه لا يعتمد على العلم بتاتًا!»
- «هذا شيء مطمئن..»
- «أعني أنه يعتمد على العلم الخاص الذي لم يُقنن بعد.. الذي لا يمكن قياسه أو رؤيته أو تفسيره..»
ثم تقلص وجهه ألمًا لأن البروستاتا كما تعلمون..

☆ ☆ ☆

حين عاد راضيًا مسرورًا، سألته السؤال الوحيد المنطقي:
- «لماذا لم تطلب منه أن يريحك من مشاكل البروستاتا؟»
قال كأنما يتوقع السؤال:
- «لأنّه لا يتقاضى أجرًا، وهو يمارس فنه مع الشخص الذي يختاره دون سواه.. ومن الواضح أنني لا أروق له..»
تبادلت نظرة مع (هاري)... على الأقل يوجد شيء واحد محترم في (ميلفيسكو) هذا.. ثم قلت:

- «يا سلام! وما هي شروطه فيمن يختاره؟»
- «لا شيء.. هو يراه ويقرر.. إن للرجل أسبابه الخاصّة..»
- «إذن بالتأكيد لن أروق له..»
- «يُمكنك أن تقابله وتتأكد من هذا..»

☆ ☆ ☆

وكان جالسًا على أريكة مع ثلاثة آخرين.. أقول إنِّه كان جالسًا على سبيل المجاز لأنّه - في الواقع - كان غائصًا.. إنها أريكة من تلك الأرائك المريحة أكثر من اللازم التي لا تنفك تبتلعك أكثر فأكثر..

كان لهؤلاء القوم منظر مريب يوحي بالشر كأنهم زعماء المافيا في اجتماع، وأدركت أن رجلنا هو أكثرهم بدانة وأضخمهم بطنًا، وكانت له قسمات عملاقة غريبة تشعرك بأن هذا كله خيال..

في أدب دنا منه (كولبي) وهمس في أذنه بكلمات عدة، فاستدارت عيناه لي ورمقني لحظة، ثم تهلل وجهه وقال:

- «سعيد بمعرفتك يا بروفسور (إسماعيل)..»

وبذل جهدًا جهيدًا حتى ينجو من الأريكة الشفاطة... في النهاية وقف.. لم يكن عملاقًا.. كان أقصر منى قليلًا بما لا يتناسب مع ملامحه الهائلة.. صافحني بيد هائلة بدورها، وقال:

- «يمكننا أن نتحدث في مكان أكثر هدوءًا... أرجو المعذرة يا سادة..»

كان يتكلم بإنجليزية رومانية أو رومانية إنجليزية.. وهي لغة اعتدتها بعد ما كان لي من قصص في (رومانيا)..

قال لـ (كولبي) وهو يدفعنا دفع الخراف إلى ركن القاعة:

- «يبدو أنّ هناك مكانًا منعزلًا هنا يا (كولبي)..»

قال (كولبي) في أدب:

- «ثمّة مكتب صغير هناك.. وهو مغلق..»

- «إذن يناسبنا هذا..»

وبعيدًا عن صخب الحفل فتحنا باب المكتب، ودخلنا.. كان عاريًا من الأثاث إلا من منضدة صغيرة عليها جهاز هاتف، ومقعد أمامها ومقعد خلفها، إذا اتفقنا على (أمامها) و(خلفها) هذين..

أراح جسده الضخم المكتنز على أحد المقعدين، وأشار لي إلى مقعد آخر، وقال لـ (كولبي):

- «يبدو يا (سام) أنني سأطلب منك أن..»

فهم (كولبي) على الفور، فهز رأسه وأشار لي بما معناه: اطمئن.. أنت في يدين أمينتين، ثم غادر المكتب وأغلق الباب..

☆ ☆ ☆

مر صمت ثقيل، ثم تكلّم (ميلفيسكو):

- «إذن؟»..

قلت له في حرج:

- «الحقيقة هي أنني لا أعرف ما قاله لك المستر (سام كولبي)، لذا أجد عسرًا في البدء..»

- «سأحاول أن أريحك.. أنت تصبو إلى استعادة شبابك المفقود..»

- «لم أقل هذا بالضبط.. لنقل إنني أصبو إلى موت نظيف خالٍ من الأمراض الطويلة.. إن المرض مهين يا سيدي، وبصورتى الحالية أعتقد أنه آت لا محالة..»

قرب وجهه العملاق مني، وقال:

- «وأنت لا تثق بأنني قادر على ذلك..»

- «لنقل بطريقة أخرى إنني لا أعرف ما أنت قادر عليه.. هل الأمر يتعلق بالتمارين السويدية وحمامات البخار وفيتامين (هـ)؟»

فتح كفه في وجهي بما معناه: لا.. لا أرجوك.. ثم قال:

- «د. (رفعت).. هل تسمح لي بمناداتك بهذا؟»

- «أرجوك أن تفعل..»

- «د. (رفعت).. إن الطريقة التي أنوي استعمالها معك طريقة فريدة، لا يمكن قياسها إلا بناتجها.. أنت تعرف منهج (الاستدلال العلمي) المعروف.. لا أحد يرى الإليكترون ولا يمكن وزنه بميزان، لكن آثاره تدلّ عليه، وهذه الآثار يمكن ملاحظتها في تجارب قابلة للتكرار.. من هذا نستدل على أنّ هناك ما يُدعى بالإلكترون.. ثمة شيء ما لا يمكن وصفه ولا استيعابه يحيط بنا في كل لحظة، وحتّى (برتراند راسل) الذي وجد نفسه في علمي الرياضة والمنطق قال: إن الرياضيات هي حروف كتاب الطبيعة؛ لكنّها ليست الكتاب نفسه!».

قلت في نفاذ صبر:

- «لا أدري ما ترمي إليه.. لست (برتراند راسل) ولا أحب أن أكونه.. ليس لديَّ أي افتراض مسبق إلا فيما يصدمني عقائديًا أو علميًا.. فيما عدا هذا أنا أقبل التجربة وأحترمها.. لقد افترض (أرسطو) أن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل، ببساطة لأنّه لم يحاول أن يجرب.. لم يحاول أن يفتح فم أول امرأة يقابلها ويعد أسنانها..»

ابتسم الرجل، وقال:

- «إذن أنت متعادل..»

- «بالطبع.. لست مستعدًا لاتهامك بالنصب، ولست مستعدًا للوثب في الحجرة انبهارًا بقدراتك.. لن أفعل هذا الآن..»

قال في رضا:

- «حسن.. لعلك تتساءل لماذا اخترتك أنت بالذات؟»

- «هذا سؤال في موضعه..»

- «لأنك متعادل.. من اللحظة الأولى أدركت أنك متعادل... لست منبهرًا قابلًا للإيحاء مثل (سام كولبي)، ولست عدوانيًا متحفزًا كصديقك الأمريكي الذي رأيته معك.. إن القابلين للإيحاء لا يناسبونني، لأنك طبيب وتعرف جيدًا تأثير (البلاسيبو[1]) Placebo effect أمّا من يبدءون التجربة وهم يرفضونها ويرفضون وجودي، فهؤلاء لا يناسبونني.. ولربما تدخل رفضهم في نتائج التجربة.. إن للجسم كيمياءه الغامضة على كل حال..

«ومن نافلة القول يا د. (رفعت) أن أخبرك أن جل من يتقدمون لي، يقعون في واحدة من هاتين القائمتين.. أمّا من لا يندرج فيهما فهو صيد ثمين..»

وضعت ساقًا على ساق، وسألته في شك:

- «وكم تكلفني هذه التجربة؟»

قال كما أتوقع بالضبط:

- «أنا لست بقالًا.. ثمّة أشياء لا تشترى ولا تباع..»

أنا لست بقالًا.. هكذا يبدءون وفي النهاية يطلبون تبرعًا بسيطًا لجمعية (سحرة بوخارست) أو شيئًا من هذا القبيل.. إن (جوستاف) صديقي الروماني سيضحك كثيرًا لو سمع هذه القصة..

قلت وأنا أتأهب للنهوض:

- «لكن لكل شيء ثمنًا.. أنت لا تفعل هذا من أجل جمال منظري..»

- «بل هناك ثمن يا د. (رفعت)، لكنه ليس كما تتصور..»

- «إذن هي قصة د. (فاوست) ثانية.. هل معك العقود اللازمة لأبيع لك روحي مقابل الشباب؟».

ضحك ضحكة رنانة معدنية.. إنّه ممن يهتزون كالجيلي عند الضحك، وقال:

- «ولا (فاوست).. إنني أريد منك شيئين لا شيئًا واحدًا..»

رفعت حاجبي بمعنى الانتظار.. فقال:

- «الشيء الأول هو أن أسلوب المعالجة سيظل سرًا.. وإنني لأنتظر كلمة شرف منك، وأنت فيما يبدو لي رجل شريف..»

ثم جفف قطرات عرق نبتت على جبينه وأردف:

- «أمّا الشيء الثاني فهو..»

☆ ☆ ☆

وحين خرجت من الجلسة، سألني (كولبي) و(هاري) عما تم فيها، فهززت رأسي سلبًا كما يفعلون عند الخروج من مباحثات القمة، وقلت:

- «لا تصريحات.. لقد وعدته بشرفي..»

ولنفس الأسباب يا رفاق لا أستطيع أن أشرح أسلوب المعالجة، ويكفي أن أقول إن العملية استغرقت ساعتين من عصر اليوم التالي..

وبعد يومين كنت في الطائرة عائدًا إلى وطني..

ومن هنا تبدأ القصة..

☆ ☆ ☆

عشرة!

السبت ١٨ إبريل:

من جديد أعود لكتابة مذكراتي.. إن الحلم القديم لديَّ لن يموت أبدًا.. أن تكون عندي مذكرات، وأنا ـ كما تعرفون ـ لم أواظب قط على شيء في حياتي، ما عدا عادات التنفس والأكل والشرب والإخراج، لأنهّا لا تتم بإرادتي، ولكن بإرادة فسيولوجية عليا.. مازلت آمل أن أصل إلى نهاية رحلة العمر، ولديَّ عدد هائل من الكراسات التي تحكي تفاصيل حياتي، ولكن أية حياة هذه؟

فما لم يحدث شيء مهم لي فلسوف تظل مذكراتي هي مذكرات تلك الإرادة الفسيولوجية.

لقد عدت إلى مصر أخيرًا، ولا أعتقد أن تغييرًا ما قد طرأ عليَّ.. مازلت ألهث عند صعود الدرج، وأسعل في الفجر حتى يوشك لساني على الوثب من فمي، وتوشك الأكلات الدسمة على إزهاق روحي..

إنني مازلت أنا..

بالطبع كنت أعرف هذا من البدء، لكني لم أعترف به.. إننا أطفال خالدون، وكلما تقدم بنا العمر ازددنا طفولة ورفضنا فكرة الشيخوخة.. لكننا نشيخ طيلة الوقت، ونموت، وينسانا أصدقاؤنا الأعزاء مهما بكوا علينا في البداية.. هذه هي الحقيقة.. قبولها نضج ورفضها عته.. لكننا ـ المؤسي ـ نفضل أن نكون معاتيه، على أن نكون شيوخًا..

الأحد ١٩ إبريل:

لم يحدث لي شيء اليوم..

الاثنين ٢٠ إبريل:

لا مزاج عندي لكتابة مذكراتي اليوم..

الثلاثاء ٢١ إبريل:

كنت في مكتبي بالكلية أطالع بعض الأوراق العلمية، وأثار شغفي شيء ما، فمددت يدي أصلح من وضع العوينات على أنفي طمعًا في وضوح الرؤية كعادتي دائمًا..

هنا لاحظت أنها لم تكن على أنفي..

أصابتني الدهشة وبحثت عنها على المكتب، فوجدتها في جرابها لم تمس.. إن لديَّ مجموعة هائلة من العوينات.. بعضها للمسافات وبعضها للقراءة وبعضها للبحث عن النوعين الآخرين، وقد

صار تصلب عدسة العينين - وهو داء الكهولة الشهير - ملازمًا لي، فلم أعد قادرًا على مطالعة الجريدة دون عوينات، ودون أن أبعدها على امتداد ذراعي..

معنى هذا أنني قرأت كل ما قرأت دون عوينات، ودون أن ألاحظ فارقًا يُذكر.. إنها علامة غريبة حقًّا..

ثم لاحظت شيئًا آخر أكثر غرابة..

لقد صعدت في الدرج - نحو ثلاثة طوابق. دون لهاث، ودون آلام عاصرة في الكتف اليسرى، ودون ذلك الجوع إلى الهواء الذي يثير شفقة من يراه.. الحقيقة هي أنني أتحسن.. لا أدري كيف ولماذا.. لكن هذا حقيقي.. أشعر به..

هل هذا هو تأثير (البلاسيبو) الشهير؟ أم أن (ميلفيسكو) يعمل حقًّا؟

ما زال الوقت مبكرًا كي أعرف الفارق..

الأربعاء ٢٢ إبريل:

من جديد تتزايد علامات الاستفهام وتتشابك..

لقد كان موعد اليوم مع الدكتور (صبحي متى) طبيب القلب الذي يتابع حالتي، والذي كان في كل لقاء يزداد وجهه تقلصًا ويطقطق بشفتيه، قائلًا إن بقائي حيًا هو أعجوبة طبية تتحدى كل القوانين.. رسم القلب مرعب، وضغط الدم شنيع.. وفي كلّ مرّة يودعني وعيناه تترقرقان بالدموع باعتباري (كنت نبراسًا يشع لزملاء المهنة) و(فليرحمني الله).

هذه المرّة نظر لي في عناية متفحصًا، وقال:

- «ما شاء الله.. عيني عليك باردة.. تبدو لي في أحسن حال...»

ولف جهاز قياس الضغط حول ساعدي، وراح ينفخ متوقّعًا أسوأ النتائج كالعادة، لكن شفتيه تباعدتا، واتسعت حدقتا عينيه، وقال:

- «غريب هذا ١٠٠/ ١٦٠!»

- «مرتفع قليلًا.. ألا ترى هذا؟»

صاح في انبهار:

- «بل هو أفضل قياس قرأته لك منذ عرفتك.. إنها معجزة!»

وأوصلني بأقطاب رسام القلب العشرة. وراح كالصقر يراقب الشريط المتجمع ببطء بحثًا عن تلك الموجة الشاذة أو تلك التي تعني أن خراب بيتي قريب.. ثم طقطق بشفتيه في حسرة:

- «ممتاز! لا أدري ما الذي فعلته كي تتحسن هكذا، لكني أنصحك بأن تواصل فعله..»

وفرد الشريط بين كفيه كأنه ثعبان ميت وجده في القبو، وراح يدقق فيه المرّة تلو المرّة، ثم قال:

- «ممتاز! لكن لا تتفاءل كثيرًا.. ربما هي صحوة الموت! إن مرضى كثيرين يتحسنون لحظيًا قبل الانهيار النهائي..»

قلت وأنا أزرر قميصي:

- «شكرًا.. سأتذكر ذلك..»

وغادرت عيادته خفيفًا نشطًا، يلعب برأسي ألف خاطر باسم...

إن الروماني لم يكذب... كل الشواهد تؤكد أنه لم يكذب..

الخميس ٢٣ إبريل:

لاحظ الحلاق - وهو الرجل الموكل بتشذيب الشعر الثائر على جانبي رأسي - أن عدد الشعيرات البيضاء يقل نوعًا.. أو بعبارة أدق لاحظ أن الشعيرات السوداء، قد بدأت تظهر وسط القطن الأبيض الذي هو ما بقي من شعري..

- «قلت لك مرارًا يا دكتور.. التغذية أهم من أي شيء آخر.. التغذية والبال الرائق.. إن الشيب خرافة يا دكتور.. صدقني أنا..»

كدت أعلن رأيي، ذلك الرأي الذي لن يستطيع أي طبيب كتمانه لو صارحه حلاقه بأن الشيب خرافة، لكنه أخرسني على الفور:

- «خذني أنا على سبيل المثال..»

وتأمل وجهه في المرآة وهو يقف خلفي، ومرر المشط على شعره:

- «هذا أنا.. ستون عامًا لكنك لا ترى شعرة بيضاء واحدة.. هذا نتاج البال الرائق والأكل الجيد.. صدقني.. كان السمن البلدي صديقنا قبل الإفطار وبعده، وفي الغداء والعشاء.. وقبل زفافنا شربت عروسي كوبًا كاملًا من السمن البلدي لتكون أجمل.. إن ما تأكلون اليوم ليس طعامًا..»

شعرت بشرايين التاجية تتقلص من هول الفكرة - ومعها معدتي طبعًا - وكتمت عنه خواطري التي لن يتذوقها.. لا تجادل الحلاق أبدًا فهو سيقهرك مهما حاولت...

لكنني كنت في منتهى السعادة بفكرة استرداد بعض الشعيرات السوداء من فكي الشيخوخة..

وقد لاحظت ـ وقت الغداء ـ أن معدتي تتحسن بشكل غير مسبوق.. لقد التهمت طبقًا كاملًا من الأرز والخضر، مع أكثر من ربع بطة أرسلها لي أهلي منذ يومين، مع.. مع.. والغريب أن كل هذا مر بسلام ونمت بعده نومًا عميقًا هانئًا..

لكنني - عندما صحوت - حاولت تهدئة حماسي بعض الشيء وقلت لنفسي:

- «من يدري؟ ربما أنت يا (رفعت) حالة أخرى من التأثر بالوهم.. حالة أخرى من القابلية للإيحاء.. لقد تحسنت لأنك توقعت أن تتحسن.. كلنا يعرف الدجالين مدعي الطب في القرى.. إنهم يحقنون مرضاهم بالماء القراح، وبرغم هذا يتحسن المريض بشكل ملحوظ من ناحية الأعراض على الأقل، لكن اللعبة لا تطول وسرعان ما يعود المرض أعنف وأكثر شراسة..»

في المساء كان عندي موعد مع الدكتورة (كاميليا)..

كان هذا في السابعة مساء، في تلك الكافتيريا الصغيرة التي هي خليط من المقهى والمطعم.. إن الدكتورة (كاميليا) قد صارت صديقًا عزيزًا لي كما تعلمون، فهى تملك عقل رجل راجحًا حكيمًا، ولو كان لها شاربان وتحلق ذقنها كل صباح، لكنت أكثر راحة وسرورًا في التعامل معها..

لكني كنت أمقت هواجسها الوجودية، وميولها القيادية المستفزة قليلًا، بينما كانت هي مرتابة في حالتي العقليّة، خاصة بعد قصة (عدو الشمس) و(أسطورة رفعت)، حيث تكفلت الظروف بجعلي أتصرف تصرفات عجيبة معها.. والسبب في المرّة الأولى أنها لم تكن هي، والسبب في المرّة الثانية أنني لم أكن أنا!

ما علينا..

فما إن رأتني، حتى قالت في دهشة:

- «عيني عليك باردة!»

نفس العبارة أسمعها أكثر من اللازم هذه الأيام..

لم أجرؤ بالطبع على مصارحتها بموضوع الروماني إياه.. المفترض أنني رجل عقلاني بارد لا تليق به هذه المهاترات.. قلت لها وأنا أنادي النادل:

- «لنقل إن الحياة أحسنت إليَّ كثيرًا في الآونة الأخيرة...»

قالت في جديّة:

- «أنا لا أمزح.. لقد قلت التجاعيد في وجهك كثيرًا.. يخيّل إلى أنك قد صغرت عشرة أعوام! عشرة!»

هذا هو ما أشعر به فعلًا، وقد أمسكته هي.. أشعر أنني في الثلاثينات من عمري.. ربما في الخامسة أو السادسة والثلاثين.. جسدي جسد في العقد الرابع من العمر، وربما تفكيري أيضًا..

قلت لها بلهجة تقريرية:

- «إنني أتناول وجبة خاصة، مع جرعات عالية من فيتامين (هـ).. لا مشكلة هنالك..»

مالت برأسها الأشعث نحوي، وقالت همسًا:

- «هل يضايقك أن تكتب لي نظام حميتك بالضبط؟ أنا أيضًا أشعر بعدم راحة بسبب الزمن.. يخيّل إليَّ أن زحف السنين أسرع من قدرتي على الاستمتاع بها..»

وكنت أفهم ما تعنيه.. التجاعيد... الشيب.. علامات وندوب الصراع مع الزمن تظهر - بلا رحمة - على الوجه، وهي - بعد كل شيء - أنثى.. قد تتكلم عن العقل المجرد وعن مقولات العقل وصراع الوجود العبثي؛ لكنّها - في النهاية - تتضايق جدًا حين تجد شعرة بيضاء في مفرقيها، ولهذا تضع كل هذه الأصباغ على وجهها - كما قلت سابقًا - كأنها هندي أحمر ذاهب لحرق معسكر الوجوه الشاحبة..

- «سأكتب لك نظام حمية ناجعًا..»

وكانت خجلى من اعترافها الأخير الذي يكشف عن كونها امرأة، وربما عن كونها إنسانًا أيضًا، لذا حاولت تغيير الموضوع على الفور:

- «ماذا عن بروفات كتابي؟!»

وكتابها هذا كان ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير، قامت بلفها في كيس بلاستيكي كي لا تتبعثر.. وكانت مكتوبة بخطها الكبير الراسخ الذي يُعنى بنقاط التاء المربوطة، والهمزات عناية بالغة..

أما عن موضوع الكتاب فهو (مدارس العقل من سقراط حتى هربرت ماركوس)..

وكان هذا كتابها الأول، وتهدف به إلى تبسيط الفلسفة لتناسب رجل الشارع... أي أنه - لو تحقق حلمها - سنجد البقال يبدي رأيه في فلسفة (شوبنهاور)، وأم (سعد) - مدبرة داري - في (الجشتلط)..

لقد أعطتني أصول الكتاب من زمن سحيق، وبالطبع لم أقرأ منه حرفًا.. أنا أمقت الفلسفة ولا أفهمها، وأراها فن الكلام عن البرتقالة حتى تفسد بدلًا من التهامها.. لكنني - بدافع الحرج غالبًا - أخذت الكتاب، ووعدت بقراءته بعناية وإبداء رأيي فيه، وكان هذا الرأي مهمًا بالنسبة لها للغاية لأنني - كما تعتقد - من المثقفين الذين هم قشدة المجتمع..

هنا فقط تذكرت الكتاب، ودعوت الله ألا تكون أم (سعد) قد وجدته وباعته لأول بائع (طعمية) في الحارة التي تعيش بها....

قلت وأنا أحاول التذكر:

- «لم أفرغ منه بعد.. إنِّه شديد العمق ولا يُقرأ في جلسة واحدة.. ثم إن رحلتي إلى الولايات المتحدة قد..»

- «حاول أن تنتهي منه سريعًا.. إنهم يطالبون به..»

ومضت الجلسة في بعض المحاورات (العميقة)، مثل سبب سقوط أقلام الحبر على سنونها، ورنين جرس الهاتف حين تكون في الحمام، وتأخر القطار عن موعده حين تصل إلى المحطة مبكرًا، ورحيله في الوقت المحدد بالضبط لو تأخرت أنت عشر ثوان...

سأقرأ الكتاب غدًا.. بالتأكيد سأفعل..

الجمعة ٢٤ إبريل:

بعد طقوس الجمعة الشهيرة: الصلاة والغداء والنوم، شعرت بوحدة بالغة.. قررت أن الوقت قد حان لقراءة كتاب (كاميليا):

جلست في الصالة أصغي لصوت انهمار المطر في الخارج.. كان يومًا مطيرًا رمادي السماء له كآبة محببة.. البرد يتسرب إلى قلبك وأعصابك.. إنني وحيد جدًا.. وحدتي تفوق وحدة الآخرين.. هناك من هو وحيد لأنّه ليس معه واحد آخر.. وهناك من هو وحيد لأنّه ليس معه اثنان.. والوحيد الذي ليس معه ثلاثة.. أنا ذلك الوحيد البائس الذي ليس معه مائة شخص.. لهذا أقول: وحيد جدًا..

جرعت جرعة من الشاي الساخن، وأرحت كفي على الكوب ورحت أطالع الصفحات.. غريب هذا! الكتاب جيد بالفعل.. جيد وشائق، وينجح في ربط الفلسفة بحياتنا إلى حد غير مسبوق..

رحت أثب - كحصان طليق - بين الصفحات على صوت العاصفة.. عليَّ أن أتحكم في نفسي كي لا أنتهي من هذا الكتاب الساحر في جلسة واحدة..

وعلى وريقة صغيرة رحت أخط ملاحظاتي كي لا أنساها..

ترك ما قرأته تساؤلات عديدة في نفسي.. تساؤلات كنت أحسبني أملك الإجابة عنها، وزرع في نفسي حيرة محببة تجاه كينونتي وكينونة الآخرين.. أنت بارعة بحق يا (كاميليا).. وإنني لأنحني لك احترامًا..

إنها العاشرة مساء..

ترى هل أنام أم.....؟

نعم.. إن لي فترة لا بأس بها منذ ذهبت إلى دار (عزت) آخر مرة لقد تعافى تمامًا من المرض، ومن المفترض أن يكون الآن في شقته ما لم يكن في (الإسكندرية)..

تمنيت الاحتمال الأول، وتوكلت على الله وارتديت الروب ودسست قدمي في المركوبين. وهي بالمناسبة لفظة فرنسية - أعني (مركوب) طبعًا - واتجهت إلى شقّة المذكور، ففتح لي الباب، وقال في انبهار:

- «ما شاء الله! عيني عليك.. إلخ..»

لقد صار هذا مملًا.. كم هو مضجر أن تكون في أفضل حال، لا يكف الناس عن مصارحتك بهذا طيلة الوقت..

كان في أسوأ حال بسبب البرد.. قلنسوة صوفية على رأسه تغطي أذنيه، وروب صوفي سميك يستر عدة طبقات من الكنزات، وفي قدميه جوربان صوفيان.. إن مرضه يجعل البرد عذابًا مقيمًا..

قال لي:

- «هل لك في بعض الشاي؟»

- «ولكن قلل الصراصير نوعًا، فلم أعد مولعًا بها..»

غاب في المطبخ فترة طويلة، وشممت رائحة شياط وسبانخ تُسلق وسمعت صراخًا وعويلًا وعواء ذئب، وأشياء غريبة جدًّا، ثم عاد لي بكوب شاي على صحفة، وجلس جواري..

أراد أن يخلي لي مائدة صغيرة ليضعها أمامي، لكن كان عليها تمثال ثقيل من تماثيله، وحاول جاهدًا أن يرفعه فلم يقدر.. تطوعت أنا بحمله إلى مكان آخر بسهولة تامة، وعدت إلى مجلسنا أمام نظراته المندهشة..

- «غريب هذا! أنت بصحة جيدة بالفعل..»

- «(الدهن في العتاقي).. أنا لم أنته بعد...»

قال في كياسة وهو يقرب صحفة الشاي مني:

- «هذا يغريني بأن أفتح موضوعًا مهمًا معك.. كنت مترددًا لكنك قد جئت بقدميك..»

- «جئت (بكامل إرادتي الجرة) كما يقول مصاصو الدماء.. إن مصاص الدماء لا يهاجمك إلا إذا تأكد من أنك جئت بكامل إرادتك الحرة..»

أبعد الشر بكفه، وقال:

- «دعنا من هذه السيرة المنحوسة، وقل لي: هل أنت مستعد للزواج؟»

نظرت له في حيرة، ولم أقل شيئًا، واعتبرها هو علامة على القبول، فأردف وهو يرتجف من البرد:

- «إنها زميلتي.. رسامة قابلتها في (بينالي الإسكندرية).. فتاة ممتازة بحق ومناسبة من جميع الوجوه...»

- «يا سلام! ولماذا لا تتزوجها أنت؟!»

اصطكت أسنانه، وقال:

- «في حالتي الصحية هذه أنا بحاجة إلى ممرضة لا إلى زوجة.. أمّا أنت فصحتك ممتازة، ولن تجني على من ستكون زوجتك..»

تذكرت العناية المركزة وآلام الصدر وصفير الربو.. كل هذا يعتبره (عزت) صحة ممتازة.. لكنه ليس كاذبًا إلى هذا الحد.. حقًّا لم أشعر بهذه الصحة من قبل..

قلت له في فضول:

- «والسن؟».

- «خمسة وثلاثون.. إنها سن ناضجة.. ولا تسألني طبعًا عن سر عدم زواجها حتى الآن..»

- «طبعًا.. إما أنها قبيحة كسحلية (البازيليك) وإما هي (لم تجد الرجل المناسب بعد)..»

- «وهي ليست قبيحة كسحلية الـ.. البا.. هذه فماذا نستنتج؟»

فكرت في الساعات المريرة الوحيدة التي قضيتها في داري، وللمرة الألف شعرت بأن هذا الشرك يستحق أن أنزلق فيه..

- «دعني أرها أولًا.. ودعها ترني أولًا..»

- «هذا من حقك طبعًا..»

وراح يرتجف قليلًا، ثم قال:

- «يجب أن تراها في (الإسكندرية).. إنها تعيش هناك مع أهلها..»

- «وهل لديها عمل حكومي؟»

- «إنها موظفة في شيء ما بالثقافة الجماهيرية.. ثمّة معرض تشارك هي فيه الأسبوع القادم.. أعتقد أنك ستهتم بالفنون التشكيلية في الفترة القادمة».

قلت وأنا أرشف الشاي حالمًا:

- «لقد كنت مهتمًا بالفنون التشكيلية طيلة حياتي!»

وحين عدت لشقتي في الثانية عشرة مساء، كنت أفكر.. معنى ما حدث هو أن تأثير الشباب لم يكتف بجسدي، بل بلغ روحي.. روحي التي بدأت تكتسب شبابًا خاصًا بها.. فلو سمعت اقتراح (عزت) هذا منذ أسبوع لسخرت منه، وسكبت الشاي على رأسه..

لكن الاقتراح لم يبدُ اليوم سخيفًا إلى هذا الحد..

سأسافر إلى (الإسكندرية) خصيصًا.. يالها من معجزة! ومن يدري؟ ربما لو نجح اللقاء أسافر إلى (دمياط) يومًا لانتقاء صالون! إن هذا يعد نوعًا من الخيال العلمي لكن كل شيء جائز هذه الأيام...

سأنام الآن وقد فرغت من هذه السطور..

السبت ٢٠ إبريل:

لا يوجد ما أكتبه اليوم..

الأحد ٢٦ إبريل:

بانتظار تحسن الجو في (الإسكندرية).. إنها نوة شرسة لكن من الواضح انها اخرها.. يقولون إن اسمها (نوّة عوّة) أو شيء من هذا القبيل.. لكنهم يضيفون في ثقة: (عوّة.. آخر نوّة).. لابد أنهم سموها بهذا الاسم كي يستقيم السجع لا أكثر!

الاثنين ٢٧ إبريل:

مزيد من الشعيرات السوداء وتجاعيد أقل.. لو استمر الأمر بهذا الشكل لتحولت إلى (إلفيس بريسلي) بعد أسبوعين..

الثلاثاء ٢٨ إبريل:

إنها الثانية صباحًا.. لقد عدت من الإسكندرية من ساعتين..

رباه! لقد كانت تجربة ثرية بحق..

ذهبت مع (عزت) إلى المعرض في السابعة مساء، وكان هو قد أخبر الرسامة بقدومه، ولم تكن هي لتفوت فرصة لقائه والترحيب به في معرضها.. وقد تفحصت لوحاتها بنهم قبل قدومها، فوجدت أنها تقليدية جدًا ما زالت في مرحلة رسم النهر، والفلاحات اللاتي يملأن الجرار، والبطة السعيدة السابحة.. وكان هذا على كل حال أفضل من لوحات زملائها، المليئة بأكاليل الغار ومداخن المصانع والتروس العملاقة والفتوات الممسكين بالمفاتيح الإنجليزية في أيديهم...

ثم جاءت.. وكانت شيئًا رقيقًا هشًا شديد الخجل والعذوبة، فصافحتنا وجالت بنا أرجاء المعرض، وكان معها أخوها.. وهو شاب مهذب لطيف الحاشية... أناس طيبون حقًّا و(عزت) لم يكن أحمق على الإطلاق.. على أن أكثر ما فتنني فيها كان نظرتها... النظرة الهفهافة الخجول التي لا تجرؤ على إطالة النظر إلى شيء.. كلمسة رضيع على وجهك وأنت تميل على مهده تلاعبه..

قررت أن أتكلم، فبدأت أقول كلامًا راقيًا عميقًا جدًا عن الفن وعلاقته بالحياة.. كلام لا يعيبه إلا أنني لم أفهمه أنا نفسي..

ونظرت في ساعتها، وقالت إننا أضأنا ليل الإسكندرية، لكنّها مضطرة إلى الرحيل لأن الوقت تأخر..

وهكذا انصرفت مع أخيها، وأعتقد أن انطباعها لم يكن سيئًا..

سألني (عزت) في كياسة:

- «ما رأيك؟ أتناسبك؟»

قلت في شرود:

- «المشكلة الوحيدة هي أنّ هذه الزهرة لا تستحق أن تعاقب بي!»

- «لا بد أنها تستحق.. إن كلا منا له أخطاؤه الشنيعة!»

ثم دار بعينيه في المعرض، وقال بلهجة الإغراء:

- «هل تريد أن ترى تماثيلي».

كدت أقول له إنّه لا وقت لديَّ لهذا الهراء، ثم وجدت أنّ هذا سيكون فظًا بعد كل معاناته من أجلي..

☆ ☆ ☆

عشرون!

الأربعاء ٢٩ إبريل:

لا يوجد ما يستحق الكلام عنه اليوم..

الخميس ٣٠ إبريل:

اليوم قد مر أسبوعان على بدء التجربة، وكما وعدت المعالج الروماني فقد ذهبت إلى المصور، وطلبت التقاط صورة لي.. بالتأكيد سيبدو الاختلاف واضحًا، لو كان يبغي أن يضع وجهي في إعلان من نوع (قبل - بعد)..

لقد صار أكثر شعري أسود، وبدأ ينمو ببطء غازيًا الرقعة الصلعاء التعسة.. كثيرون في العمل لاحظوا الفارق، وافترضوا أنني أصبغ شعري..

«إنهم يقولون.. ماذا يقولون؟ دعهم يقولون..» هذا هو ميثاق اللامبالاة المتعالية الذي سأتمسك به إلى النهاية..

ما زال ضغط دمي في تحسن، وهو يدنو بسرعة من الرقم السحري (٨٠ / ١٢٠) الذي لم أحظ به منذ كان عمري خمسة وعشرين عامًا..

لاحظت شيئًا آخر.. هو أن قيادتي السيارة صارت أكثر جموحًا وجرأة، ولم أعد أقود بهذا البطء المرتجف الذي يضايق من يسير خلفي.. فلا تمر دقيقة إلا ويتجاوزني بصوت الـ (فرووم!) المتذمر الذي يقول: فلتذهب إلى الجحيم بذعرك هذا.. لن أقضي حياتي ماشيًا وراءك!

و... و... ملايين التفاصيل الصغيرة التي أحتاج إلى مجلدين كي أحكيها.. تلك التفاصيل التي تعني الشباب.. بكل ما فيه من سحر..

أعطيت اليوم موافقة مبدئية لـ (عزت) كي يتكلم في موضوع الرسامة السكندرية هذه ـ اسمها (نجلاء) ـ فقال لي:

- «ألا تدير الأمر في ذهنك قليلًا؟ لقد كان اللقاء يوم الثلاثاء لا أكثر.. إن التمهل في هذه الأمور ليس حماقة..»

قلت في نفاد صبر:

ـ «بل الحماقة هي ألا تعرف الفرصة حين تقابلها..»

هزّ كتفه بإيماءة من طراز (هذا – شأنك - على - كل - حال)، وعدني بأن يقدم لها الاقتراح غدًا..

الجمعة ١ مايو:

في العاشرة صباحًا اتصلت بي د. (كاميليا) تسألني عما فعلت بصدد الكتاب، فوعدتها أن أخبرها تفصيلًا في لقاء.. وليكن السابعة مساء.. (المشكلة هي أنني لا أذكر أين وضعت تلك الأوراق الحمقاء)..

ثم إنني دخلت الحمام فحلقت ذقني بعناية وتضمخت بعطر فاغم (كما يقولون)، وسرني أن وجهي في المرآة لم يعد كابوسًا خارجًا من دهاليز (هـ. ب. لافكرافت) أديب الرعب الشهير.. الحقيقة هي أن وجهي أصبى بكثير.. لا أستطيع العثور على تجعيدة واحدة، ويبدو أن الصلعة العتيدة في طريقها إلى التلاشي..

لو استمر الأمر هكذا، فلسوف يمنعونني من دخول الكلية، ولسوف يسألني بواب البناية عن وجهتي حينما أحاول اجتياز الباب.

وفي السابعة مساء لكم أن تراهنوا على أنني كنت هناك.. اجتزت مدخل الكافتريا ويداي في جيب البذلة الكحلية التي كانت تجعلني فاتنًا.. لم يعد هذا رأيي الحالي، وأعتقد أن الخلاص منها هدف لا بأس به..

جلست في موضعي المعتاد، وطلبت كوبًا من العصير..

بعد دقائق جاءت. د. (كاميليا).. غريب هذا! لكم هي مهملة في ثيابها! وما أكثر التجاعيد على وجهها.. إنها شمطاء بحق.. لا أدري كيف غابت عني هذه الحقيقة، وشعرت بشيء من خجل لأنني أجلس معها هذه الجلسة المنفردة..

بدا الذهول على وجهها كالعادة، وهتفت وهي تتأمل وجهي:

- «ما الذي تفعله بالضبط؟ إنني تعرفتك بصعوبة!»

ثم جلست ومالت برأسها المشعث نحوي، وتساءلت:

- «هل أنت واثق من أنك لم تبع روحك للشيطان؟»

قلت في استهتار:

- «إن ثقافتك الأوربية هذه قد أفسدت تفكيرك.. لو نسيت (جوته) قليلًا لوجدت أن الأمر ليس بهذه الغرابة.. لنقل إنني تعلّمت كيف أعيش وأستمتع بحياتي..»

- «أنا لا أمزح.. لقد صار الأمر غريبًا.. غريبًا إلى حد أنه مخيف..»

طلبت لها بعض العصير، ثم استرخيت في مقعدي منتظرًا أن تبدأ الكلام...

قالت:

- «هل قرأت الكتاب؟»

- «بالتأكيد..»

- «وهل هو معك؟»

- «لا.. ثمّة أجزاء أريد أن أقرأها مرتين..»

- «ليكن.. وما هو رأيك النهائي؟»

- «كتاب ممل.. آسف أن أقول هذا.. لكنه كابوس حقيقي!»

كانت قد اعتادت سخريتي وآرائي الغريبة، لكن شيئًا في لهجتي جعلها تقلق.. اتسعت عيناها وراء عويناتها، وزمت شفتيها في عصبية، وقالت:

- «إلى هذا الحد؟ هل قرأت الجزء الخاص بالوجودية؟ كنت أحسبه ممتعًا..»

حاولت تذكر هذا الجزء فلم أستطع.. كانت لي آراء جيدة في الموضوع، لكنّها ذابت وتلاشت.. لا أذكر سوى أنه كتاب سخيف مرهق.. وبحثت عن كلمات ذات معنى أقولها فلم أجد..

قلت وأنا أرشف ما بقي في كوبي:

- «كتاب شديد الإملال.. لا أدري لماذا تصرين على أن تكتبي أصلًا؟»

كانت مصرة بالفعل، لكن على المزيد من الاستجواب:

- «والجزء الخاص بالرواقيين؟ والرد على (مارتن بوبر)؟»

خفت أن يكون هذا شركًا ثقافيًا، فلم أعلق على اسم بعينه، وقلت:
- «كله.. كله سخيف.. لا أخص بالذكر أجزاء بعينها..»
بدت عليها علامات الضياع والحماقة، تلك العلامات التي زاد من قسوتها أنها كانت تحاول التظاهر باللامبالاة المتعالية.. إنها آراء ثقافية عقلانية باردة لا دخل للعواطف فيها، لكني كنت أعرف أنها تتأرجح بين رغبتين: رغبة في البكاء الهستيري ولطم الخدين والتوسل لي كي أمتدحها، ورغبة في صفعي مع البصق في وجهي ثم تقول: ماذا تعرفه أنت عن الفلسفة أيها الأجوف؟
محتفظة بقناعها الحضاري قالت:
- «ولم تحب جزء (كيركجارد)؟»
- «كان سخيفًا جدًا..»
ابتسامة منتصرة عبرت شفتيها، وقالت في تروٍ:
- «لكني لم أكتب حرفًا عن (كيركجارد)!»
كما كنت أتوقع بالضبط.. هززت وجهي في سأم وقلت:
- «لم تعد الفروع مهمّة ما دام أصل الشجرة نخرًا واهيًا..»
ساد صمت ثقيل لبرهة، وأدركت كم هي تمقتني.. بعد قليل قالت:
- «في الحقيقة كنت أظن أنك ستعطي الكتاب اهتمامًا أكثر.. يخيّل إليَّ أنك تعاملت معه بشيء من الخفة، وكان عليَّ أن أتوقع هذا وأنا أعرف كراهيتك للفلسفة»
تبًّا! فلينته هذا الموقف السخيف سريعًا..
قلت لها:
- «أنا أحب الفلسفة، لكن حين تجيء من سادتها!»
والحقيقة هي أن العدوانية التي تسربت إلى نفسي لم يكن لها سوى سبب واحد غريب.. أنني وجدت (كاميليا) أقبح مما أذكره عنها، وتصرفت بأسلوب الرجل الذي يحاول الخلاص من متسول لزج يدسّ رأسه الأشعث في نافذة سيارته..
ما سر هذه القسوة؟ لا أدري.. لكنني صرت أقل استعدادًا للمجاملة..
وحين انتهت الجلسة، ودعتها ووعدتها بأن أحضر لها الكتاب سريعًا..
سيسعدني الخلاص من هذا الكابوس سريعًا..

السبت ٢ مايو:

الحاجة (فتحية أبو الروس)..
في الخمسين من عمرها، تعاني فقر دم بالغًا لم يتضح سببه لنا بعد، لكننا كنا نعرف شيئًا واحدًا: هذه المرأة تعاني بشدة.. إنها تجاهد من أجل الهواء، عاجزة عن الرقاد، ولون بشرتها يحاكي لون هذه الورقة..
قمت بقياس ضغط دمها، فوجدته منخفضًا.. قلت للطبيب المقيم الواقف معي جوار فراشها:
- «إنها على حافة الصدمة.. ماذا تنتظر لتعطيها المحاليل الوريدية؟»
قال في شيء من حياء وهو يتراجع خطوة:

- «قلبها يا سيدي.. إن حالة قلبها لن تتحمل المحاليل كما تـ..»
هنا صعد الدم إلى رأسي.. ربما أقبل الجهل لكني لا أقبل الوقاحة، وفي عصبية صحت:
- «أرجو أن تصحح لي مفاهيمي.. من هو الأستاذ ومن الطبيب المقيم حديث الخبرة؟»
ابتلع ريقه.. كان يفضل أن يصمت لكن الأمر كان أقوى منه، فقال:
- «معاذ الله أن أعترض.. لكن سيادتك لم تصغ إلى رئتيها.. إن حالتهما تنذر بـ...»
وأنا قد أقبل الوقاحة لكني لا أتحمل الانحطاط، لهذا صحت بعصبية أكثر:
- «إما أن تبدأ في إعطائها محلولًا وريديًا الآن - وليكن (الدكستروز) - وإما أن تبدي الشجاعة ذاتها في أثناء التحقيق معك..»
واستدرت كي تكون لي الكلمة الأخيرة..
وبعد ساعة سمعت طرقة على باب مكتبي..
كان هذا هو د. (رأفت) صديقي، وقد حياني وقال كالعادة:
- «ما شاء الله! عيني عليك..»
لكني لاحظت أنه يريد إخراج كلمة محشورة في حلقه، ولا تريد أن تخرج، ثم في النهاية تحامل وقال متحاشيًا نظراتي:
- «هل أمرت بإعطاء مريضة فقر الدم لترين من (الدكستروز)؟»
قلت في سخرية:
- «الأخبار تنتشر بسرعة هذه الأيام..»
قال في كياسة:
- «لماذا؟ أنت تعرف أن رئتيها ليستا على ما يرام.. إن شيئًا كهذا سيؤدي إلى تفاقم هبوط القلب.. ربما إلى (الأوديما) الرئوية..»
صمت وقد تحولت إلى بركان آدمي:
- «هل جرؤ الفتى على مخالفة أوامري؟»
رفع كفه ليهدئ من روعي، وقال بذات الكياسة:
- «لم يحدث.. أنا مررت على فراشها ووجدت المحلول معلقًا، ولمته على ذلك.. لكنه قال إن هذا أمر مباشر منك.. لقد سمحت لنفسي بأن أوقف المحاليل، وأحقنها بالـ (فروسيمايد) المدر مع خلايا الدم الحمراء المحزومة.. وبالطبع قمت برفع ضغطها بأساليب أخرى غير المحاليل..»
طبعًا لم يحدث هذا.. معرفتي بالبشر تقول إن هذا لم يحدث..
أستطيع أن أرى الطبيب المقيم يهرع مولولًا إلى د. (رأفت) في مكتبه، ويقول له في هلع: «افعل شيئًا. د. (رفعت) طلب كذا وكذا..»، فينهض (رأفت) ويربّت على كتف الفتى قائلًا: «سأتصرف أنا فلا تقلق.. لكن لا تنفذ الأمر طبعًا.. أحسنت إذ أخبرتني..»
قلت في ضيق لـ (رأفت):
- «كيف تسمح لنفسك بمعارضة ما كتبت من علاج؟»
آي آي! إنّه الصدام! هكذا قال لنفسه، وابتلع ريقه وقال:
- «(رفعت).. نحن نتحدث عن حياة إنسان ها هنا.. لا مجال للمجاملة أو الكبرياء الشخصية.. أعتقد أن ثمّة خطأ ما حدث منك، ونحمد الله أن ضررًا لم يقع.. الواقع أنك لست على ما يرام هذه الأيام..»

قلت في ضيق كالعادة:
- «إنني بخير حال هذه الأيام بالذات..»
- «صحيًا.. نعم.. لكن شيئًا من التهور والاستخفاف بدأ يتبدى في تصرفاتك.. أحيانًا أشعر أنك..»
وبحث عن لفظة مناسبة، ثم قال:
- «أنك في الخامسة والعشرين من العمر!»
كان محقًا في الرقم على الأقل.. بالفعل أشعر أنني في سن الخامسة والعشرين أو أكثر قليلًا.. لكنه - فيما عدا هذا - مخطئ على طول الخط.. مخطئ وبالتأكيد وقح..
وقبل أن أرد قام هو بـ (التاكتيك) الشهير في المشاجرات: انصرف.. وظللت وحدي أغلي.. لن يمرّ هذا الحادث على خير.. سأعرف كيف أنتقم وكيف أؤدب الشاب المستهتر..

الأحد ٣ مايو:

مر عليَّ (عزت) في التاسعة مساء، ليخبرني بأنه قد رتب لي لقاء في المعرض إياه مع الرسامة الشابة (نجلاء).. لا بد أن نتبادل بضع عبارات قبل أن أستطيع زيارة أهلها..
في المعتاد كنت سأجد أن الذهاب إلى (الإسكندرية) ثلاث مرات في أسبوع واحد أمر عسير، لكني كنت الآن نشيطًا كالبراغيث.. وافقته على الفور، وقررت أن يكون اللقاء غدًا في السادسة مساء.. وهو لقاء لتحديد لقاء..

الاثنين ٤ مايو:

رحت أتأمل اللوحات في المعرض مع (عزت) بانتظار مجيئها.. ولا أدري لماذا شعرت بأن الرسوم جميلة بالفعل.. لماذا لم ترق لي حين رأيتها منذ أسبوع؟
بعد قليل وصلت (نجلاء).. كانت مرتبكة بحق، وبدا التكلف واضحًا على كلماتها وحركاتها.. شتان بين أن تعرف ولا تعرف..
كانت لي مواقف مماثلة مع د. (محمد شاهين).. لكن الرجل - تذكرون - فضيحة مجسمة لا يكف عن لفت الأنظار، لكن (عزت) كان ذكيًا كيسًا بشكل واضح.. وبعد دقيقتين لمح صديقًا له من بعيد، فصاح يناديه، ثم هزّ رأسه لنا في تهذيب معتذرًا لأن «لي كلمتان مع هذا الفتى»، وتركنا وابتعد..
ظللنا صامتين لفترة لا بأس بها، ثم قطعت الصمت قائلًا:
- «إن لوحاتك جميلة جدًا..»
احمر وجهها كالطماطم، وأطرقت وهمست:
- «هذه مجاملة... الأستاذ (عزت) قال لي إنك كنت ترسم... هل كنت مولعًا بالفن الكلاسيكي أم التجريد؟ هل ثمّة مدرسة معينة تحبها؟»
- «طبعًا.. مدرسة (الأورمان) الإعدادية! نياهاهاهاهاه!»
دعابة ظريفة، لكنّها اكتفت بأن ابتسمت، ومن جديد سألتني:
- «أتحدث جديًّا.. هل تحب مدرسة معينة؟»

الحقيقة أن اسم أية مدرسة لم يخطر ببالي لحظتها، فقلت وأنا أنقل ساقي كاشفًا عن توتري:

- «كلها تعجبني.. كلهم بارعون بحق..»

بعد قليل بدأ الكلام يتطور إلى موضوعات أكثر حرجًا.. مثل:

- «لماذا يتزوج الرجال في رأيك؟»

هذه الحمقاء تعتبر أنها في حوار صحفي مع (ألبير كامي).. والمفترض أن أقدم لها ردًا مقنعًا.. قلت لها:

- «يتزوج الرجال حين لا يجدون شيئًا أفضل يفعلونه..»

بدت لها دعابة طريفة فأحمر وجهها من قليل.. وفهمت أن احمرار وجهها هو نوع من القهقهة.. ويبدو أنها اكتفت بهذه الإجابة، فبدأت تسألني عن رأيي في الأوضاع السياسية للبلاد، وعن مستقبل التجربة الاشتراكية، وعن الحرب القادمة مع (إسرائيل).. إنها تحسب نفسها تحاور (أحمد بهاء الدين) على ما يبدو.. قلت لها ما استطعت قوله، ثم أنهيت الكلام بلهجة تقريرية:

- «أنا راغب في التقدم لك.. فمتى أستطيع الذهاب إلى دارك؟»

لم تعلق.. يبدو أنها لم تتوقع هذا الهجوم..

هنا أنقذها (عزت) إذ جاء مترنحًا يرتعش من البرد، وقال بلا مناسبة:

- «معذرة فهذا الفتى ثرثار حقًّا.. إن (نجلاء) أختي يا (رفعت)، وأنا لا أطيق مضايقتها.. لعلك لم تعطها حمامك الثقافي الشهير.. إن الرفق خصلة حميدة خاصة إذا كان بقارورة كهذه..»

- «اطمئن...»

قلتها في غرور ضاحك، ثم إن الفتاة هزت رأسها في أدب طالبة الانصراف، فحياها (عزت)..

ووقفنا بضع ثوان تصطك أسناننا بردًا.. وفي النهاية قال لي:
- «ما رأيك؟»
- «لم تبد كبيرة السن إلى هذا الحد في لقائنا الأول..»
- «كبيرة؟ إنها زهرة لا تشيخ أبدًا.. والآن سأعرف منها موعد اللقاء في دارها، وعليك - أيها الذكي - أن تذهب وحدك هذه المرّة.. أنا لا صفة لي هنا..»
- «هل سنعود إلى القاهرة الآن؟»
- «بالتأكيد.. هل لديك خطط أخرى؟»
- «فلنتنزه! لنمش على (الكورنيش) قليلًا..»
- «في هذا الزمهرير؟ حقًّا أنت تغيرت يا (رفعت).. كنت أعرف شخصًا يشبهك لا شيء يغريه في الحياة سوى فراش دافيء..»
وقد كان ما اقترحته..

الثلاثاء ٥ مايو:

عند الغروب جاءني (عزت)، وكان وجهه متحفظًا.. قال لي:
- «فيم تحدثتما بالضبط أمس؟»
- «في كل ما يخطر ببالك..»
هزّ رأسه في حيرة، وقال:
- «لماذا لم تبهرها بعقليتك الجبارة؟ يبدو أنك بالغت في المزاح بعض الشيء هذه هي مشكلتي معك..»
تساءلت وقد بدأ الموضوع يتضح لي:
- «لم أرق لها.. هه؟»
- «شعرت بأنك ضحل إلى حدٍ ما، وربما خاوي العقل أيضًا.. قالت إنها شعرت بأنها تكلّم من يصغرها بعشر سنوات على الأقل.. إن المرأة تحب أن تشعر بأن زوجها أكبر سنًا أو أرجح عقلًا أو أوسع تجربة.. أو - على الأقل - أثقل جيبًا.. ومن الواضح أنك لم تعطها الإيحاء الذي كان عليك أن تعطيه..»
قلت مغتاظًا:
- «تبًا لها! لم يكن هذا نقاشا بل كان استجوابًا.. أنا أرفض أن يختبرني أحد.. معنى هذا أن زيارتي لدارها قد ألغيت؟»
- «طبعًا.. لا يوجد نصيب»
- «سحقًا لها! أنا أيضًا لم أر فيها أي جمال.. إنها قد خطت أول خطوة في طريق العنوسة، ولسوف تستكمله بلا شك.. وهناك شيء آخر: أعتقد أنّ هذه الفتاة تميل إليك!»
- «(رفعت)! هل جننت؟».
- «الأمر واضح.. هي لا تأتي إلا حين تدعوها أنت، ولا تثق إلا بمن تثق أنت به.. (ناداني حبيبي جيت بلا سؤال) كما تقول (فيروز).. الأمر واضح يا أخ (عزت) وإنني لأتمنى لك

التوفيق!»

لم يجد الكلمات كي يعبر عن غيظه، وراح يرتجف ويترنح، وازداد وجهة سوادًا حتى صار صالحًا لوضعه في المراجع الطبية تحت اسم (مرض أديسون).

- «(رفعت) أنت تهينها وتهينني.. ماذا دهاك؟ تتصرف كطفل أخرق.. ثمّة حدود للكلام يحسن التوقف عندها.. أنا الذي..»

- «صمتًا!»

قلتها ودفعته دفعًا خارج شقتي، وأغلقت الباب..

ألن ينتهي كل هذا الذباب؟ ألن ينتهي أبدًا؟

صبرًا أيتها الرسامة السكندرية البلهاء.. ستدفعين ثمن رفض (رفعت إسماعيل) غاليًا.. أنا لا أُرفض.. هذه حقيقة يجب أن تعرفيها..

أنا لا أُرفض..

لكني أرفض متى أريد...

☆ ☆ ☆

ثلاثون!

الأربعاء ٦ مايو:

صباح العسل! صحوت من النوم في خير حال.. مرح غامر وحب مجنون للحياة يطيح بتوازني.. ذهبت كي أحلق ذقني فوجدت في المرأة عجبًا..

لم يعد في رأسي موضع خالٍ من الشعر.. شعر أسود جميل لامع... وجهي وجه صبي... والغريب أن شاربي الكث لم يعد هناك.. صارت في مكانه بقعة من الزغب الذي لم يستقر بعد على لونه النهائي: البني أم الأسود؟

ولم تكن لي لحية على الإطلاق..

يذكرني هذا بصورة قديمة لي جوار خالي.. وقد كتب عليها (ستوديو آرت بالمنصورة).. كان تاريخ هذه الصورة هو عام 1940.. بينما قنابل (هتلر) تهوي في سماء القاهرة، و(العقاد) قد فر إلى (أسوان) كي لا يعتقله النازيون..

رحت أصفر لحنًا مرحًا، وفتحت الراديو لأسمع صوت (عبد الحليم حافظ) الرخيم.. ما أجمل أن تملأ المكان والزمان! ما أجمل أن توجد!

لكن هناك مشكلة.. عسير أن أذهب إلى المستشفي بهذا المظهر..

لن يصدّق أحد أنني (رفعت).. فكرت في شارب مستعار وبعض المسحوق الأبيض ليبدو كالشيب، لكني وجدتها فكرة بلهاء..

قررت أن أنزل لأشتري إفطارًا.. إن جوعًا شديدًا يمزقني الآن.. لم تنفتح شهيتي لهذه الدرجة من قبل..

نزلت إلى الشارع أصفر وأتبختر...

كان هناك غلام في طريقه للمدرسة - التي لن يصلها غالبًا - يلهو بكرة (شراب)، وقد غاب تمامًا عن الوجود.. مشيت وراءه وقلت في مرح:

- «بكعبك يا كابتن!»

نظر للوراء فرآني، وبلا مبالاة سدد الكرة نحوي..

فقمت بـ (تنطيقها) عدة مرات، ثم باصيتها له..

قضينا عدة دقائق نتبادل الكرة، ثم بدا عليه الذعر وسألني:

- «كم الساعة الآن!».

نظرت إلى ساعتي.. إنها الثامنة والنصف... قلت له ضاحكًا:

- «انتهى الأمر! أمّا زالت هناك مدارس في مايو؟»

لكنه لم يصغ لي، واندفع يجري مذعورًا حتى غاب عن عيني...

يا سلام على رائحة الربيع! إن مصر لا تعرف الربيع بالمعنى المتفق عليه، ولكنّه فصل من عواصف الخماسين.. الربيع في مصر هو فصل الروائح العطرة القادمة من الحقول المحروثة البعيدة، والتي تحرك في أعماقك ألف عاطفة..

وفجأة شعرت بحزن عميق.. أنا وحيد بائس منبوذ.. لا أحد يحبني.. سأرحل إلى أقصى الأرض لأواجه قدري وأموت وحيدًا ككلب عقور، بينما في لحظة الاحتضار الأخير سأهمس باسمها..

من هي؟

هي التي تملك كل أفكاري وأحلامي وآهاتي.. هي التي لا تعرف أنها هي.. هي التي سأحارب الغيلان من أجلها، وأرسلها مع تحياتي لتخدمها بإخلاص.. هي.. ولكن من هي؟

المشكلة هي أنه ليست عندي واحدة.. أنا حزين تعيس كئيب متفرد في كآبتي.. كانت هذه الخواطر كفيلة بأن تنحدر العبرات من عيني.. وتبدل مزاجي كما تتبدل السماء عند قدوم العاصفة.. رباه! ألن ينتهي كل هذا الألم؟

اشتريت ستة ساندوتشات... سأقتصد اليوم لأنني حزين.. إن الفول والطعمية لقادران على دفن أحزاني إلى حد ما..

وعدت إلى الدار، ونسيت كل هذا الحزن، لأن شمس الربيع أشرقت من جديد في داخلي..

وقفت في الشرفة أرمق الشارع.. غريب أنني لم أعتد هذا النشاط من قبل.. لقد قضيت ما مضى من حياتي في قوقعة.

هنا وقعت عيناي على أجمل شيء في العالم...

كانت هذه هي (هالة) ابنة الأستاذ (زكريا) جاري، وقد غادرت البناية قاصدة كليتها على ما أظن لأنهّا تحمل كتابًا في يدها.. رباه! إنني لأحمق! هذه الحسناء تسكن على بعد أمتار مني، ولم ألحظها قط كأنها نسيج عنكبوت أراه بطرف عيني وأنا أصعد السلم أو أهبط منه.

إنها في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة.. أي أنها - رسميًا - في عمر بناتي... لكن من الناحية الفسيولوجية المستجدة عليّ، أشعر، بأنها أكبر مني بثلاثة أو أربعة أعوام.. (أبلة) لكنّها لم تكبر بعد لتصير (طانط)..

نعم.. الحقيقة هي أنني كنت أسترجع كل مشاعر وأحاسيس مراهقتي.. ويبدو أنني من ناحية الشكل والأفكار لا أتجاوز ستة عشر عامًا.

لكنها بالتأكيد ستنبهر بي لو صارحتها بحبي - نعم... كنت الآن أهيم بها حبًّا فجأة - باعتباره أستاذ جامعة ناضجًا خبر الدنيا وخبرته..

أنا الآن أكتب هذه الخواطر في مفكرتي، ولا أدري لماذا أجد بعض الصعوبة في التعبير عن نفسي.. لم تعد اللغة تـ.. تـ (تهاودني) كما كانت..

إلى متى يستمر هذا التبدل؟ إلى متى سأظل أصغر؟ في الغالب هذه هي نهاية التجربة، وهي نهاية رائعة جدًا.. ما المشكلة؟ سيكون عليّ أن أُعلم زملائي كيف يعتادون شكلي الجديد، وكيف لا يسألون..

المهم الآن أن أدير موضوع الغداء لأن الجوع قد بدأ يؤلمني، و(عصافير بطني تزقزق)..

الخميس ٧ مايو:

أحب الخميس! من طفولتي أحب هذا اليوم لأن غدًا الجمعة إجازة.. والغريب أن الجمعة لا يكون ممتعًا لأنك تقلق بخصوص السبت غدًا..

لكني الآن أجد شيئًا مبهرًا... أنا في سن المراهقة لكن ليس عليّ أن أذهب إلى المدرسة، أو أتلقى توجيهات أهلي، أو أطالب بالمصروف..

أنا المراهق الوحيد الذي يعيش وحده، ويملك (فلوس)، وله وظيفة مهمّة.. إن المستقبل كله ملكي[2]..

شعرت بالسعادة فرحت أجري في الصالة وأتشقلب، وأتنطط فوق المقاعد.. ثم فتحت الراديو على أغنية لعبد الحليم حافظ..

بعد هذا جلست أكتب (جواب غرامي) لحبيبتي (هالة).. بالطبع لم أجد حرفًا أقوله.. (أنا أحبك يا حبيبتي حب ملك عليا فؤادي).. لا.. لا.. غير معقول..

كانت لدي كتب كثيرة لا أعرف فائدتها.. أعوذ بالله! عناوين تجعلك تقشعر.. (تاريخ تحضير الأرواح).. (الوجود والعدم).. (مصير إنسان).. (أرخص ليالي).. (بلابل من الشرق).. ياه ه! كيف كنت أجد الصبر كي أقرأ هذا الكلام (الدبش).. كانت هناك كتب كثيرة بالإنجليزية، وقد لاحظت أن إنجليزيتي لم (تعود) على ما يرام.. فلم أفهم عن ماذا تتكلم..

أخيرًا وجدت ديوان شعر لـ (ابو القاسم الشابي) ففتحته وبحثت عن (كلام حب) حتى وقعت عيني على قصيدة معينة، فكتبت منها سطرًا أو سطرين، ووقعت تحتها (حبيبك رفعت).. ووجهت الخطاب إلى (نور عيني وحبيبة قلبي هالة)..

الآن كانت هناك مشكلة إرسال الخطاب.. وقد حلت نفسها لأن (هالة) كانت في الشرفة عصرًا، وكان بوسعي أن أقذف الخطاب.. قمت بلفه حول نفسه وأمسكته بمشبك غسيل، ثم (نشنت) بعناية، وقذفته ليقع في الشرفة عند قدميها.. لاحظ أن شرفتها تقع تحت شرفتي مباشرة..

ودخلت بسرعة قبل أن تراني، ورحت أضحك و(أنط) فرحًا.. أمّا أنا!

بعد هذا نزلت إلى الشارع..

كانت الـ (هدوم) الموجودة عندي قديمة جدًا، ولا تمشي مع (الموضة)..

لقد كان ذوقي في الهدوم (زي الزفت).. لكن الواقع تغير..

ذهبت إلى أحد المحلات فاشتريت (قميص) مشجر، و(بنطلون) واسع القدمين (شارلستون) حسب الموضة.. هكذا أنا ابن السبعينات حقًّا..

وذهبت للحلاق كي يصفف شعري ويكويه لينسدل على كتفي.. مازال لم يصل لهذا الطول، لكن بالصبر يهون كل شيء..

والآن ترون (رفعت إسماعيل) الجديد.. يقف بثيابه زاهية الألوان على الناصية، يطوح سلسلة مفاتيحه ويمضغ (لبانة)..

إن التطورات الأخيرة في حياتي عظيمة جدًّا...

☆ ☆ ☆

وعندما جاءت الساعة الحادية عشرة مساء قررت أن (أتفسح) بالسيارة قليلًا.. أنا أول مراهق يملك سيارة تحت تصرفه لها رخصة، وهو نفسه يملك رخصة قيادة.. صحيح أنها عتيقة جدًا ولن

تعجب البنات، لكنّها سيارة على كل حال..

لحسن الحظ لم يكن خفير الجراج موجودًا عندما أدرتها.. احتككت بجانب السيارة التي على يميني، لكنني قلت إن صاحبها لن يعرف الفاعل أبدًا.. لو حدث هذا من أسبوعين لوقفت وملأت الدنيا صراخًا، ولرحت أبحث عن صاحبها لأقول له بكل احترام: «أنا فعلت هذا.. طلباتك؟»

لكن الأمور تغيرت.. لم أعد ذلك العجوز الأحمق..

وانطلقت (أمريكاني) انطلاقة صاخبة جدًا أثارت إعجاب الجميع، ورحت أقوم ببعض (الغرز) البارعة كلما رأيت سيارة يقودها رجل هادئ مسالم، حتى أثير الرعب في نفسه..

وتحمس شاب في سيارة رياضية كي يسابقني.. ولمدة دقائق ارتجف الشارع رعبًا من هذا السباق المخيف، ثم. بالطبع. كانت سيارته أصبى وأقوى، وأخرج يده اليسرى ملوحًا بالسيجارة يحييني في سخرية وهو يبتعد..

كدت أموت غيظًا، وأسودت الدنيا في عيني.. إن الحياة قاسية لا تستحق أن نعيشها.. يجب أن أقتل نفسي.. لقد سبقني! سبقني وسخر مني!

رحت أقود السيارة شارد الذهن شاعرًا بخيبتي.. وكانت هناك لجنة مرور تسد الطريق.. يالله الكارثة! من المستحيل أن يصدقوا كلامي أو يجدوا أنني أشبه صورتي في الرخصة.. هذه مشكلة أخرى..

لكن كانت هناك مشكلة مع سائق (تاكسي)، خرج من سيارته وراح يعوي ويصرخ محاولًا إقناع الضابط بأن يعيد له رخصته، وجاء دوري لأمر من الفتحة الضيقة.. هنا أشار لي (الصول) في ملل كي أمر، وراح يتابع المشكلة دون أن ينظر لي مرّتين..

وهكذا نجوت بمعجزة!

يجب أن أضع بعض (المكياج) لأبدو شبيهًا بالصورة..

واصلت القيادة حتى وجدته!

من؟ طبعًا صاحب السيارة الرياضية إياه.. كان يقف بسيارته أمام كافتريا صغيرة.. كان جالسًا في السيارة بينما وقف ثلاثة فتيان وفتاتان يشربون العصير ويتحدثون معه، وقد أراح أحدهم ردفيه على مقدمة السيارة..

أوقفت سيارتي بدوري، وقد صعد الدم إلى رأسي (كما كنت أقول زمان)، ونزلت.. مشيت نحوه بثقة و... وتؤدة كما يقولون..

خبطت على زجاج النافذة الأيمن، فنظر لي في ضيق والسيجارة تتدلى من فمه، ثم أنزل الزجاج ليسمع ما اقول من سخف..

قلت له في عصبية:

- «عيب يا كابتن!»

- «أي عيب؟»

أشرت لسيارتي وقلت:

- «أنا صاحب هذه السيارة.. لقد كدت تصطدم بي من ربع ساعة..»

نظر للسيارة لحظة، ثم راح يهتز بالضحك، وبدورهم راح أفراد العصابة يضحكون:

- «هل.. هل هذه سيارة ولا مؤاخذة؟ حسبتها.. حسبتها.. صندوق قمامة!»

غلى الدم في عروقي... بالطبع هو لم يصطدم بي لكني كنت بحاجة إلى التحرش به.. لذا صحت:

- «يبدو أنك لم تتعلم الأدب!»

هنا وجم الجميع، أمّا هو فأشار لزملائه مهدئًا... مهلًا.. مهلًا.. دعوا الأمر لي.. وفتح باب سيارته والسيجارة مازالت تتدلى من فمه، وقال:

- «معذرة.. إن أذني ليست على ما يرام.. يبدو أنني سمعتك تتكلم كالرجال..»

قلت في ثبات وأنا أضرب قبضتي بكفي:

- «أنا رجل برغمك.. وأكررها: أنت قليل الأدب..».

دنا مني حتى صار على بعد متر، والتفت إلى رفاقه الذين بدا عليهم الاستمتاع كأنما يريدون ما هو أكثر، وقال بلهجة من يهدئ الأمور:

- «صبرًا.. صبرًا هذا رجل طيب ومن السفالة أن نعامله كما..»

وتوقعت ما سيحدث لأنني أرى أفلام (تشارلز برونسون) كثيرًا، وهو أيضًا يراها.. لقد استدار نحوي فجأة ووجه لي لكمة قوية، لكني ثنيت قدمي ووثبت لأدفن رأسي في بطنه.. وبدأت المعركة..

كنا ساقطين على مقدمة سيارته نتبادل اللكمات، ولو لم يتدخل رفاقه لكان النصر نصيبي.. لكنهم تحمسوا وانقضوا عليّ بدورهم... واحد أحاط عنقي من الخلف بساعده، وواحد ضربني في بطني، وواحد لكمني في فكي، وتطوعت فتاة بأن تغرس مخالبها في وجهي..

كنا نتقاتل، وقد أوشكوا على (التخليص عليّ)، لولا أن سمعنا من يشتمنا بصوت عالٍ، وشعرنا بأيد تقيلة تجذب كلًّا منا من قفاه، ثم وجدت نفسي في (البوكس)..

يبدو أنها دورية شرطة كانت تمسح المنطقة، فوجدت هذا المنظر الغريب..

وفي قسم شرطة (...) عوملنا أحسن معاملة.. بضع صفعات ثم حلقوا لي شعري (زيرو) كي يكون درسًا لشاب مستهتر مثلي.. لا شيء غير هذا..

جاء أقارب الفتية الأربعة واصطحبوا أبناءهم، أمّا أنا فلم أجرؤ طبعًا على قول من أنا.. وبالطبع لم يسألني أحد عن بطاقتي لأنني كنت أبدو حدثًا.. في النهاية قلت للصول رقم تليفون (عزت) باعتباره أقرب أقاربي..

وأستطيع أن أتخيّل وجه (عزت) حين قال له الصول:

- «إن (رفعت إسماعيل) عندنا.. مشاجرة مع شباب مستهتر مثله.. قال لنا إنك ولي أمره!»

وبعد ساعة. كما تمنيت. جاء (عزت) ممتقع الوجه (مذهول).. ورآني فلم يفهم شيئًا، لكني قلت له:

- «أنا (رفعت) يا (عزت).. صدقني.. خذني معك ووقع بالاستلام وسوف أخبرك بكل شيء..»

وقع بالاستلام، وهو لا يرفع (عيناه) عن وجهي..

وحين غادرنا القسم كاد يوقف (تاكسي)، لكني قلت له إن سيارتي قريبة حيث تركتها منذ (ثلاثة) ساعات.. ومشينا في ظلام ما بعد منتصف الليل إلى هناك صامتين، ويبدو أنه لم يصدّق حتى اللحظة التي أخرجت فيها المفتاح وأدرت المحرك..

صاح في ذعر:

- «ماذا حدث يا أحمق؟ هل أنت (رفعت) أم لا؟ إن عينيك ولهجتك وملامحك تقول إنك هو.. لكن.. مهلًا! لا تتهور في القيادة! لقد كدت تصطدم بهذه الشاحنة!»

قلت في مرح:

- «لا عليك.. أنا لا (أخيش) أبدًا!»

يبدو أنها كانت رحلة مريعة له، لكني (أثنائها) حكيت له كل شيء.. وحين وصلنا للبيت أخيرًا، طلع السلم دون كلمة أخرى، ووقف على باب شقتي ينتظرني حتى فتحت له..

بعد دقائق راح يكلم فيها نفسه قال:

- «ألن تنتهي من كل هذه الغرائب؟ أتمنى أن تكف عن تحطيم أعصابي بكل مفاجأتك التي لا تنتهي.. اليوم أنت صبي مراهق وأمس كان وباء التيفوس يزورني في داري طالبًا المبيت.. ثم ماذا؟ إن اليوم الذي تصحو فيه وتنام كباقي البشر هو يوم غريب بحق!»

قلت له باستهتار:

- «كل ما هناك أنني استرددت شبابي.. هذا هو حلم الناس من (دشليون) سنة..»

- «ألست مذعورًا من هذا؟ وبعد أسبوع كم سيكون عمرك؟»

- «أعتقد أنني توقفت هنا..»

ساد الصمت.. وقال بعد تفكير:

- «هذا هو سر تصرفك الطفولى السخيف مع (نجلاء).. بدأت أفهم..»

- «تلك الشمطاء؟ لا تعكر مزاجي من فضلك..»
لم يعلق.. قال وهو (يتمشى) في أرجاء الصالة حائرًا:
- «(رفعت).. لو كنت مكانك لاتصلت بهذا المعالج الروماني طالبًا النصح.. يجب أن ينتهي علاجه..»
- «أنا لا أحمل هم هذا..»
- «إذن عش حياتك كما تشاء.. لكن على الأقل أريد شيئين: مفتاح شقتك كي أستطيع الدخول لو حدث شيء ما.. وعنوان ورقم هاتف الروماني..»
كانت عندي نسخة من مفتاح الشقة فأعطيته إياها بلا مبالاة.. ماذا يمكن أن يحدث لو كانت عنده؟ وأعطيته عنوان ورقم هاتف الروماني في (نيويورك)..
تمنى لي ليلة طيبة، وانصرف وهو (يبرطم).. كانت الساعة الرابعة صباضًا، لذا كتبت بسرعة حصاد اليوم ثم سأنام الآن..
مساء العسل!

الجمعة ٨ مايو:

في العاشرة صباحًا دق جرس الباب بحزم ففتحته.. كان هذا هو الأستاذ (زكريا) جاري وأبو حبيبتي (هالة).. عرفت أنه (ناوى على شر) من نظرته، ومن الورقة المطوية التي يحملها..
كان هذا هو الخطاب الذي أرسلته لهالة أمس!
قال لي في حزم:
- «أين الدكتور (رفعت) أيها الصبي؟ هل أنت قريبه؟»
حقًّا كانت هذه الإجابة التي أريدها، فقلت في ارتباك:
- «هو ليس هنا يا (عمو)... أنا (خالد) ابن شقيقته..»
احمرّ وجهه كالطماطم، وقال:
- «كنت أريد الكلام معك... لكن ما الفائدة؟ إن العبرة بالكبار الذين يتركون للصغار الحبل على الغارب.. إن لي كلمتين مع خالك يا فتى، ولسوف يسره أن يعرف أنك استخدمت اسمه في خطاب غرامي لابنتي!»
خشيت أن أستفز الرجل أكثر من اللازم... لقد كان (مصاب) بارتفاع الضغط، وقد أصابه نزف مخي منذ فترة شفي منه بصعوبة..
لهذا قلت في (كسوف) وأنا أنظر للأرض:
- «كما تأمر يا (عمو).. إنّه سيعود في المساء..»
- «جميل.. ولا تتوقع أنني سامحتك على شيء، لكني فقط أتخير من أريد أن أدخل السجن بسبب تهشيم رءوسهم..»
ودون كلمة أخرى انصرف...
دخلت الشقة، وفتحت الراديو حتى وجدت أغنية حزينة لـ (فيروز) تقول:
«باكتب اسمك يا حبيبي عالحور العتيق..
تكتب اسمي يا حبيبي عا رمل الطريق..»

ودمعت عيناي تأثرًا.. أنا أكتب اسمك يا حبيبتي على قصائد (الشابي)، أمّا أنت فتعطينها لأبيك.. كي يكتب اسمي في محاضر البوليس!!

أواه من الحب! ما أقساه! خاصة حين يأتي من طرف واحد بلا أمل في رضا الطرف الآخر..

أنا المعذب المنبوذ الذي عانى أهوال الحب، دون أن تجفف يدا حبيبته الرقيقة دموعه.. أنا الذي..

هنا دق جرس التليفون..

سمعت صوت (كاميليا) تقول: ألو..

- «مرحبًا يا (كاميليا).. أحلى نهار..»

- «هل الدكتور (رفعت) موجود يا بني؟»

قالتها بشيء من الحرج والارتباك، لأن هذا الفتى عرف اسمها، ثم إنّه ناداها دون ألقاب..

قلت في شيء من العسر:

- «أنا هو...»

- «هل تمزح؟ أرجوك ناد الدكتور (رفعت)..»

أقسمت بالله العظيم أنّ هذا أنا، وأن صوتي غريب بسبب البرد وتليف الحنجرة، ولأؤكد كلامي قلت لها إن كتابها لا يحوي حرفًا عن (كيركجارد).. لا أدري كيف تذكرت الاسم...

قالت في دهشة:

- «غريب هذا يا (رفعت).. هذا صوت مراهق يتحسس طريقه بين (سرسعة) الطفولة وخشونة الرجال.. ما علينا.. متى تجلب لي الكتاب؟»

قلت في ملل:

- «ذلك الكتاب السخيف؟ لا أدري أين هو.. لا بد أن أم (سعد) تخلصت منه.. أرجوك! لا داعي للإهانات! إن مزاجي غير رائق اليوم.. دماغك! سأحضر لك هذا (المدعوق) بمجرد أن أجده.. سلام!»

ووضعت السماعة..

عند العصر تسليت قليلًا بالمعاكسات الهاتفية..

كنت أطلب الرقم ثم لا أرد على المتكلم.. فقط اكتفى بأن أزوم.. ياه! لقد ضحكت كثيرًا جدًا.. وكنت أتلذذ بكل الشتائم التي انهالت على رأسي..

وفي المساء اتجهت إلى ستوديو التصوير كي ألتقط لنفسي صورة جديدة كما وعدت الروماني... لا أدري لماذا أهتم لكني أنا نفسي كنت أريد أن أرى الفارق..

استلمت صورة ٣٠ أبريل.. وقال لي المصور وهو يتفحّص الإيصال:

- «إن أخاك الأكبر يشبهك كثيرًا... لكنني كنت أفضل لو انتظرت حتى ينمو شعرك ثانية.. لماذا حلقته بهذا القصر؟»

- «لأنني معجب بـ (بول براينر)..»

طبعًا لم يكن يعرفه، لكنه استنتج أنه ممثل أو رياضي شهير أصلع، وابتسم وهز رأسه بمعنى: يا لشباب هذه الأيام!

طبعًا لم أكن أستطيع إخباره بأن هذه الحلاقة تم عملها في صالون قسم البوليس.. ألا ترى معي هذا الرأي؟

☆ ☆ ☆

أربعون!

السبت ٩ مايو:

يبدو أنّ هناك مشكلة.. (الهدوم) التي اشتريتها أمس صارت واسعة جدًّا.. يبدو أنني صغرت أكثر..

خفت جدًا أن أنزل إلى الشارع هكذا، ورحت أرى نفسي في مرآة الحمام.. وجهي أصغر بكثير وقد صرت قصيرًا..

فتحت الثلاجة أبحث عن طعام.. لا أعرف لماذا أحب الحلوى هكذا..

أكلت كل الحلوى في الثلاجة، ثم بحثت في (النملية) عن وعاء السكر وأخذت منه بالملعقة (ثلاثة) مرات..

بعدها دخلت الحمام، وفتحت مياه الحوض، ورحت أتسلى باللعب بالماء وبعثرته على الأرض.. ليست لديَّ أم تلومني على ما أفعله..

وعند الظهر فتحت التليفزيون وشاهدت (عصافير الجنّة) والكارتون.. أنا أحب (ماجد عبد الرازق) من زمن، لكني اليوم شعرت بأنني أريد أن أتعلق بعنقه، وأنام على ركبتيه.. بابا (ماجد).. هكذا يسموّنه وأفهمهم الآن..

بحثت كثيرًا جدًا عن كتاب (كاميليا)، حتى وجدته تحت السرير.. ورق كثير جدًا عليه كلام بخط جميل.. أحضرت قلمًا ورحت أتسلى برسم مدفع ودبابة وضابط وطيارات..

في موعد الغداء رن جرس التليفون، فرفعت السماعة.. سمعت (رأفت) زميلي في القسم يقول:

- «هل عمو (رفعت) بجوارك يا حبيبي؟»

بالطبع لن يعرف الصوت.. قلت:

- «ليس هنا يا (عمو)..»

- «هل أنت قريبه؟»

- «أنا ابن أخته.. أنا (رامي).. هل أخبره بشيء؟»

- «كلا.. لم يأت للمستشفى منذ يوم الأربعاء.. حسبته مريضًا.. هل هو بخير؟»

- «نعم يا (عمو).. سأخبره أنك اتصلت..»

ووضعت السماعة، وبدأت أعد الغداء.. مجرد تسخين الطعام أمس؛ لأنني لا أعرف كيف أخرج بهذه الثياب.. إشعال البوتاجاز صعب حقًّا، وقد أحرق الكبريت يدي.

الدنيا ليل الآن.. أضأت كل الأنوار في الصالة وغرفة النوم... أشعر بخوف من الظلام وأنا وحيد ولو دخل أي شيء الشقة فسوف....

لكني (مكسوف) من أن أذهب لشقة (عزت)..

جلست وحدي في الفراش، وبدأت كتابة مذكرات اليوم.. لو كان من الممكن أن تروا خطي الآن لدهشتم...
صوت شيء يتحرك في الصالة.. أنا خائف... سأغلق باب الحجرة عليّ وأحاول أن أنام...

الأحد ١٠ مايو:

يا سلام.. الشمس جميلة. لم (أعود) أخاف. أعرف أن اليوم ١٠ مايو لأنني قرأت هذا في النتيجة.
أنا جوعان. الهدوم واسعة جدًا (عليا). أنا أرسم (رسوم) جميلة في ورق طانط (كاميليا).
أنا ألعب في الشقة. ووجدت (أقراص) جميلة في درج الكومودينو. مكتوب عليها (نيترو) أو.. أريد أن أبتلعها كلها. لكني لن أبتلعها لأن الأطفال يمرضون لو بلعوا (أقراص) الكبار.
أنا جوعان. لا يوجد في الثلاجة أكل. توجد(فرخة) لكنّها متجمدة ولا أستطيع طبخها. أكلت بعض السكر والسكر طعمه جميل. أنا أحب السكر. نفسي كل الدنيا تبقى سكر.
وجدت في البلكونة (أبو المقص) (واقف) على السور. أردت أن أمسكه لكنه جري مني ووقف على حبل الغسيل.
أشد الكرسي للبلكونة وأقف عليه. أمدّ (إيدي) للخارج جدًا وأمسكه من جناحه.
سمعت جارتنا تصرخ من بلكونتها:
- «الولد حايقع! الحقوه!»
لكني لم أهتم، ورفعت بإيدي (أبو المقص) ونزلت من على الكرسي. وبحثت عن خيط ربطته في ذيله. ورحت أتركه ليطير في الهواء ثم أشده من جديد. ولما زهقت سبت الخيط فطار (بعيد) عني.
فتحت التليفزيون وشفت برنامج الأطفال ضحكت كتير على البطة الغبية (اللي) تحاول الطيران.
بعد كده لعبت في الحمام (كثير جدًا). وغسلت كل اللعب. عندي سيارة بالزمبلك وبطة اشتريتها لأولاد أختي. أخذتها أنا لنفسي..
جوعان جدًا. الشمس (روحت) لبيتها. وأنا أكره الليل. في الليل (تيجي) حيوانات كثير و(عاوات) تأكل الأطفال.
لم (أوصل) لمفتاح النور لأني قصير. شددت الكرسي ووقفت عليه وأضأت النور. جلست في السرير أمشي السيارة على الملاءة وأعمل (أصوات) بفمي.
ثم قلت إني أكتب المذكرات. أنا لا أعرف السبب. لكني أشعر إن المذكرات مهمّة جدًا، خطى جميل وعلى السطر، ووضعت كل (النقط) والهمزات مكانها، لو أبلة (مفيدة) مدرستي في الابتدائي رأت هذه الكتابة. بالتأكيد ستعطيني النمرة النهائية ونجمة.
يارب (تيجي) الصبح بسرعة. يا رب لا يحدث شيء.
الإسنين ١١١١ ماي:
جعان. أكلت سكر كثير جدًا. لعبت. أكتب في (الكراثة).
رسمت أرنوب وبطة في ورق طانط (كاميليا).
الكبار. جعان. يا رب ييجوا.

الثلسا:

☆ ☆ ☆

نحو الزوال!

الجزء التالي كتبته د. (كاميليا) أستاذ الفلسفة:

لم أكن أتوقع ولم أرغب قط في أن يكون لي دور في هذه القصة.. لقد جرح (رفعت) كبريائي بتعامله المستخف تجاه كتابي، وأزعم أن في سلوكه ما بدا لي درجة فاضحة من عدم النضج والخرق. والجواب على كل حال جاهز دائمًا.. إنها المراهقة المتأخرة..

وعلى كل حال أنا لم أر قط من (رفعت) ما يدحض اعتقادي بوجود خلل ما في قواه العقليّة. كانت لديه دومًا أعذار جاهزة بصدد هذا المستنقع الميتافيزيقي الذي يعيش فيه، حيث يتداخل عالما الواقع والخيال بشكل لا يمكن وصفه.

كنت أحتفظ بهذا اليقين حتى يوم الأربعاء الثالث عشر من مايو.

في التاسعة مساء كنت أقرأ بعض كتابات (برديائيف) حين دق جرس الهاتف، وسمعت من يسألني على استحياء إن كنت أنا الدكتورة (كاميليا)..

هذا من يدعى (عزت).. يبدو أنه رسام أو نحات يعيش في الشقة المجاورة لهذا الـ (رفعت إسماعيل).. قلت له في تصميم: إنني غير راغبة في سماع شيء عن ذلك الرجل غير المستقر انفعاليًا، وبدا لي من الوقاحة أن يعطيه (رفعت) رقم هاتفي كي يتوسط بالصلح. إنها طريقة سوقية صالحة لسوق الثلاثاء لكنّها لا تناسبني بالتأكيد...

قال لي هذا الـ (عزت) متوسلًا:

- «أريدك هنا حالًا.. الأمر خطير بحق..»

- «وكيف عرفت رقم هاتفي؟»

- «وجدت في مذكرات د. (رفعت) كلامًا عنك، وبحثت في دفتر الهاتف الخاص به حتى وجدت الرقم..»

بدا لي الكلام خطيرًا، فلماذا يطلع (عزت) هذا على مذكرات (رفعت)؟ ولماذا يفتش عن رقم هاتفي بنفسه.

وأنا مخلوقة وقتها ثمين وكرامتها أثمن، لكني وجدت نفسي مدفوعة دفعًا إلى ارتداء ثيابي، وركوب أول سيارة أجرة قبلت أن توصلني إلى دار (رفعت إسماعيل). لقد وصف لي (عزت) العنوان بدقة.

وصعدت إلى شقته، وقرعت الجرس، ففتح لي الباب رجل بادي المرض نحيل أسمر الوجه، قدم لي نفسه أنه من يُدعى (عزت). إذن هذه شقّة (رفعت)؟ كنت أحسبه أكثر نظامًا، لكني صدمت إذ رأيت الأثاث مبعثرًا في كل صوب، وقطع الحلوى تتناثر بقاياها على الأرض، والمياه تغرق السجادة، وكتابة بالقلم الشمع على كل الجدران...

وعلى أريكة في وسط الصالة، كان رضيع صغير لا يكف عن الصراخ والركل. وأدركت أن المسكين عار تمامًا لكن أحدهم قام بلفه كيفما اتفق في قميص صوفي..

- «أين (رفعت)؟ ومن هذا الرضيع؟»

قال (عزت) وهو يرتجف رعبًا:

- «إجابة السؤال الأول هي ذاتها السؤال الثاني!»

☆ ☆ ☆

- «آه.. فهمت... وإنني لشاكرة على هذه الدعابة..»

واستدرت قاصدة الباب، عازمة على عقاب هذين المهرجين بأسلوب لم أستقر عليه بعد، لكن (عزت) استوقفني وجذبني من كمي:

- «أرجوك أن تنتظري كي تفهمى هذه الكارثة..»

قلت في شمم وأنا أحرر كمي:

- «لو فعلتها مرة ثانية، فلسوف يكون حسابك عسيرًا..»

بدا عليه الخجل، ومد لي يده بمفكرة صغيرة، وقال:

- «ها هي ذي مذكرات (رفعت) في الفترة الأخيرة.. أريد أن تجلسي وتقرئيها، ولسوف أقبل حكمك بعدها..»

- «بشرط أن تفتح باب الشقة..»

رفع يديه في استسلام، وقال:

- «بل سأتركها وأنتظر في شقتي حتى تقرعي جرس بابي.. خذي راحتك».

أشرت إلى الرضيع وقلت:

- «وهذا؟ أليس جائعًا؟».

- «لا أظن.. لقد أعطيته رضعة منذ ربع ساعة... لكني بحاجة إلى أنثى لهذا السبب.. إن الرجال لا يعرفون عن الرضع أكثر مما يعرفون عن حيوان (التابير)..»

- «وهل حيوان (التابير) يرضع؟»

- «لا أدري.. لهذا اتصلت بك!»

وغادر الشقة، وأغلق الباب وراءه..

☆ ☆ ☆

وفي اللحظات التالية لم أستطع أن أقرأ ما دونه (رفعت) وأنا جالسة. رحت أذرع الصالة كنمر حبيس غير مصدقة.

لكن السطور كانت تتحدّث عن نفسها، وكانت القصة ذاتها أعقد من أن يكون كتبها خصيصًا لخداعي. وكان التغير في الخط والأسلوب تدريجيًا لكنه مخيف. خط (رفعت) المنسق الواضح يتحول لخط صبي ثم يتحول إلى خربشات طفل يعرف بصعوبة كيف يمسك بالقلم.

أفكاره تتحول من أفكار كهل ناضج إلى شاب على شيء من الخرق، إلى مراهق غرير، إلى طفل ساذج لعوب..

لقد أثار هذا القشعريرة في عروقي.
والسطور الأخيرة: سطور طفل وحيد لا يعرف ما يعمل بنفسه ولا لماذا تخلى الكبار عنه. طفل جائع. طفل يهاب الظلام. طفل بحاجة إلى أم.
كم هي قاسية!
ونظرت إلى الرضيع الغافل، وقلت له بلهجة اللوم:
- «(رفعت).. ماذا فعلت بنفسك يا أحمق؟!»

☆ ☆ ☆

وبعد ساعة قرعت باب الأستاذ (عزت)، ففتح لي. دعوته همسًا إلى أن يلحق بي في شقّة (رفعت).
فلما أغلقنا الباب قلت له:
- «وكيف دخلت أنت؟»
قال وهو يتأمل الرضيع:
- «كما قرأت في المذكرات، كنت أتوقع شيئًا كهذا.. لهذا أصررت على الاحتفاظ بنسخة من المفاتيح.. واليوم عند العصر سمعت طفلًا يبكي في الشقة ففتحتها، ووجدت ابن ثلاثة أعوام يقف وحده مغطيًا عينيه، وهو لا يكف عن العواء ذعرًا..»
- «لحظة.. تعنى أنه كان راقدًا؟»
اتسعت عيناه ذعرًا وقال:
- «بل كان واقفًا.. أقول إن عمره كان ثلاثة أعوام عصر اليوم!»
- «يا للهول!»
ثم إنني قمت بترتيبات عملية كدأبي. أولًا لا جدوى من البقاء هنا لأن هذه ليست دارنا، وإن بقاءنا هنا مجلبة للأقاويل والأسئلة. سيكون عليّ أن آخذ الرضيع إلى داري حيث أعنى به.
ثانيًا سيكون على الأستاذ (عزت) أن يحاول جهده كي يتصل بذلك المعالج الروماني في (نيويورك). لو كان الرجل يعرف طريقة لوقف هذا التأثير المدمر فالوقت وقتها.
سألني الأستاذ (عزت):
- «ألا ترين الصواب أن نطلب رأي الطب؟»
- «لن يصدقنا أحد، وسنضيع وقتًا ثمينًا.. عامان ونصف في ست ساعات.. معنى هذا أن الصباح لن يطلع إلا وقد تحوّل هذا البائس إلى نطفة!»
لم تكن هناك مشاكل في مغادرة البناية باعتبارنا أسرة صغيرة سعيدة.
وبعد ما تبادلت رقمي الهاتف مع الأستاذ (عزت)، حملت (رفعت) وعرجت على بعض المحال، فابتعت ما يلزم: غيارات (لم تكن هناك حفاضات في هذا الوقت).. كوافيل.. علبة لبن مجفف..
ثم استقللت سيارة أجرة إلى داري حيث أعيش وحيدة.
وفي شقتي بدأت ممارسة مهمتي العسيرة. أنا لم أعتن برضيع من قبل لكني خدشت القشرة الرفيعة التي تحيط بغرائزي، فكانت تحتها امرأة كاملة.. أم تعرف كيف تعني برضيع..

إن الأمومة شيء غريزي لا يعلم.. وعلى حين يضيع الطفل الذكر وقته في اللّهو بالمسدسات والعربات، تكون الطفلة عملية جدًا: تلعب مع دميتها، وتمشط شعرها، وتبدل ثيابها.. باختصار.. تمارس الأمومة مرارًا.

نزعت الثياب عن الرضيع وحممته بالماء الفاتر. رباه! إن الأمور تسوء بحق. لم تعد له تلك النظرة الواعية المتابعة، ولم يعد له ذلك التماسك العضلي السابق..

الآن بدأ يتحول إلى كتلة رخوة، وصارت عيناه زجاجتين عاجزتين عن الحملقة في شيء، وغدا بكاؤه واهنًا أقرب إلى الصرير. هذا كله يميز حديثي الولادة.

إن عمر (رفعت) الآن لا يزيد على شهرين بحال.

دثرته كيفما اتفق، وأعددت له رضعة دافئة، ثم جلست ألقمه إياها. ولدهشتي فطنت لحقيقة أن (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم الشهير ينام بين ذراعي الآن، وقد قمت بتحميمه كذلك! لكني لشدة العجب وجدت أنني أحب هذا الـ (رفعت) أكثر. وأرتاح إليه.. يمكنني رعايته أعوامًا طويلة لو لم يتلاش بعد ساعات.

بعد ما هدأ الصغير أخيرًا، وقد تلذذ بالدفء والشبع حسب القوانين (الفرويدية) الصارمة؛ فتحت المفكرة ورحت أطالع ما كتبه بدقة أكثر.

وسرَّني أنه في ٢٩ أبريل جلس يقرأ كتابي وأحبه. أنا أثق بنفسي كثيرًا وأشعر أن الكتاب جيد. لكني برغم هذا سررت أيما سرور حين عرفت أنه راق له حين كان يتمتع بعقلية راجحة.

أما عن الكتاب ذاته فقد قمت بجمعه من شقته، وكان في كل مكان وقد رسمت على صفحاته كلها تقريبًا أرانب ومناطيد وسيارات و(بطابيط). بعض الصفحات تحولت إلى مراوح أو مراكب. يبدو أنّ هذه الأخيرة قد تم عملها حين كان في سن العاشرة.

لكنني أعتقد أنه كان كاملًا.

ورحت أجوب صفحات المفكرة وعيناي على الرضيع النائم، الذي أوشك على القول إنني أراه وهو يصغر.

هنا دق جرس الهاتف فرفعت السماعة. كان هذا الأستاذ (عزت) كما توقعت، وقال لي ما توقعت:

- «مستحيل أن أتصل بـ (نيويورك).. لقد حاولت كثيرًا..»
- «حاول ثانية.. إن الأمر صار جدًا لا هزل فيه.. إنِّه يزول..»
- «سأحاول.. لكن الأمور ليست بهذه البساطة...»

كنا في تلك الأعوام التي وصلت فيها شبكة الهاتف إلى نهاية عمرها، وكان من المستحيل على المرء أن يتصل ببيت أمّه، فما بالك بـ (نيويورك)؟

وكان على من يريد الاتصال بالخارج أن يسافر إلى (قبرص) ليتصل من هناك![3]

ورحت من جديد أطالع المفكرة في قلق.

يوجد احتمالان لا ثالث لهما هنا؛ إما أن المعالج الروماني كان أحمق قليل التقدير للأمور؛ وإما أن (رفعت) قد نسي نصيحة معينة أو أنسيها في غمرة الاستهتار الذي اجتاح أفكاره.

بالطبع لا يتعلق الأمر بشيء يتعاطاه (رفعت) بانتظام طيلة الفترة الماضية، لأنّه لم يأكل شيئًا منذ يوم السبت ٩ مايو، وبرغم هذا هو مستمر في التلاشي.

الأمر يتعلق إذن بشيء أخذه في أثناء المعالجة أو زرع فيه من وقتها.
زرع فيه؟
ومن جديد رحت أطالع الرسوم التي خطها حين فقد قدرته على الكتابة، وحين تسربت (الأجرافيا) Agraphia إليه كما تسربت أشياء كثيرة. إنّه يرسم هذا الرسم بكثرة:



رأيته في أوراقي فحسبته يرسم مناطيد، ورأيته في آخر صفحتين من مذكرته. مال هذا الصبي والمناطيد وكيف يعرفها أصلًا؟ الجواب المنطقي أنّ هذا ليس منطادًا إنما هو شيء آخر.
شيء يحاول البائس، في غمرة انزلاق الوعي، أن ينبهنا إليه.. شيء يكمن فيه خلاصه من هاوية العدم..
لقد راح يرسمه مرارًا بعد ما عجز عن كتابته، لم يجد الكلمات ليقولها.
رحت أتأمله نائمًا، ثم إنني حملته إلى غرفة النوم، لشدّ ما خف وزنه حتى لأحسبه لا يزيد على أربعة كيلوجرامات.
نزعت ثيابه تمامًا وهو يحتج في وهن. ثم رحت أتحسس جسده الصغير بحثًا عن شيء ما، علامة ما، لم أعرف قط أن لـ (رفعت) أصابع قدم مبتورة.
في النهاية شعرت به، على لوح كتفه الأيمن شيء بارز في حجم ظفر الإبهام، تأملته بعناية فوجدت أنه مدفون هناك تحت الجلد وكان ينزلق في أربعة الاتجاهات.

أرحت الرضيع على ساعدي لأتأمل الشيء بشكل أدق، كان هناك جرح صغير ملتئم طوله نحو نصف السنتيمتر، جرح نظيف كالذي يتخلف عن الجراحات، أمّا الشيء البارز فكان له ملمس على شيء من الصلابة كأنه أرنبة الأنف، وكان ينزلق بسهولة تامة.

شعرت بما يشبه اليقين أنّ هذا الشيء تم فتح جلد (رفعت) وزرعه هناك، كما يفعلون بحبيبات منع الحمل التي تزرع تحت جلد الساعد.

وكان موقفي عسيرًا بحق.

لو أنني أخذت الرضيع الآن فلن أجد طبيبًا جراحًا في هذه الساعات الأولى من فجر الخميس، ولو هرعت إلى طوارئ إحدى المستشفيات فلن يصدقني أحد، إن كل شيء يمكنه الانتظار إلى الصباح.

أما لو كنت مخطئة وكان هذا الانتفاخ كيسًا دهنيًا، أو شيئًا لا أعلمه من الأشياء التي يكسب الأطباء عيشهم من معرفتها؛ فمن العسير تبرير أن أحاول أنا نفس انتزاع هذا الشيء.

قررت أن أتبع حدسي وهو ما لم أعتده من قبل، لقد اعتدت أن أتبع عقلي ومنطقي، لكن هذا الموقف يتحدى كل عقل وكل منطق، ولا ينفع فيه أن أكون حاصلة على الدكتوراه في الفلسفة، إن هذا لا يجعلني أكثر فهما للموقف.

توكلت على الله (تعالى)، وذهبت إلى المطبخ فانتقيت سكينًا صغيرة، ثم قمت بتسخينها للتطهير على نيران الموقد، وانتظرت حتى بردت. ثم عدت إلى الرضيع وقلبته على بطنه، وبطرف السكين بدأت شقّ الجلد فوق الجسم الصلب، بالضبط على لوح كتفه الأيمن.

أن الرضيع وتأوه، لكنه كان أضعف من أن يقاوم أو يصرخ، وسال الدمع من عيني وسال من أنفي، ورحت أردد كالمجنونة:

- «سامحني يا بني.. سامحني!»

إنها لمهمة عسيرة تقتضي قلبًا أغلظ وأقسى مني، لكن كان على أحد أن يقوم بها، وأخيرًا - وسط الدماء - تمكنت من شقّ جرح طوله بضعة ملليمترات، واعتصرت الجسم الصلب محاولة إخراجه.

لم يكن الجرح كافيًا فقمت بتوسيعه أكثر، وأنا أغمغم:

- «سامحني يا بني.. لقد انتهيت تقريبًا.. الله! كم أنت شجاع! رجل صغير شجاع.. هلمّ!»

واعتصرت الجسم الكريه ثانية، فانزلق إلى الخارج أخيرًا.. وحين رأيته حمدت الله على صدق حدسي، كان جعرانًا، فرعونيًا حقيقيًا محنطًا، هكذا حاول الصغير أن يرسمه فبدا كمنطاد.

وضعت الشيء الرهيب على الملاءة التي تلوثت بالدم، ثم رحت أحاول أن أضمد الجرح، وضعت عليه بعض البن (ويبدو أنها ليست طريقة طبية فعالة، لكن أمي كانت تمارسها معي، وكانت تنجح)، ثم وضعت بعض الشاش والشريط اللاصق كيفما أتفق.

لحسن الحظ أن ذاكرة الرضع لا تحتفظ بشيء، ولحسن حظي أنهم لا يملكون حقدنا وتذكرنا الإساءات.. لقد بكى قليلًا ثم استكان ونام في حضني، فدثرته بثيابه، وأخذته إلى الصالة وأنا أهدهده، وقد أمسكت الجعران بقطعة من الشاش...

وتحسست الجرح فوجدته قد كف عن النزف، غدًا صباحًا سآخذه إلى طبيب كي يعني به كما ينبغي..
هذا لو ظل (رفعت) موجودًا حتى الصباح.

☆ ☆ ☆

كان الفراعنة يجلون الجعران إجلالًا شديدًا، ويطلقون عليه اسم (خبرر) وهي لفظة معناها (يتجسد من جديد)، لقد كان يثير دهشتهم حين يدفع أمامه كرة تحمل مادة التخصيب، متجهًا من الشرق إلى الغرب، وهو ما ذكرهم بحركة الشمس الأزلية.
وجد الفراعنة ان الجعران يرمز لتجدد الحياة باستمرار وبشكل تلقائي، وإن عدد صور الجعارين على أختامهم وخواتمهم ليثير دهشة كل مهتم بالمصريات، لقد أصدروا كذلك جعارين تاريخية تسجل المناسبات المهمة للدولة، بنفس المنطق الذي نصدر به نحن الطوابع التذكارية، وكانت توضع بين أكفان الموتى أو توضع في توابيتهم، وبصفة خاصة نرى جعران القلب المصنوع من حجر صلب وله جناحا صقر، كان المطلوب من هذا الجعران أن يلقن قلب المرء السلوك الأمثل لحظة الحساب، لهذا كتبوا عليه:
- «يا أوفى جزء في كياني، لا تقف شاهدًا ضدي أمام المحكمة...»
التجدد المستمر، هذا هو ما يرمز له الجعران، أنا لا أفهم أية معالجة مشئومة مر بها هذا الجعران المحنط قبل أن يُزرع تحت جلد (رفعت إسماعيل)، لكنني أعتقد أن الأمور منطقية ويمكن ترتيبها ترتيبًا عقلانيًا صارمًا.
لقد انتزعت الجعران، فهل يتوقف تأثيره؟

☆ ☆ ☆

وفي الصباح بدا لي أن الرضيع لم يصغر أكثر، وإن لم يكن قد تقدم في السن قليلًا، وعند الظهيرة كان يمشي مترنحًا في الشقة ويسقط من حين لآخر فيبكي، ثم ينسى الأمر ويبعثر حاجياتي، ويجذب المفارش من تحت المزهريات، وبدأ يقول: «مم! با!»..
لقد كنت على حق.
وهكذا عشت أروع تجربة يراها إنسان حي في اليومين التاليين، أن أربي طفلًا يكبر أمام عيني بسرعة تسمح لي برؤيتها!
كان ينضج بسرعة، ويتعلم.. وكان سروري بالغًا حين استعاد القدرة على الإمساك بالقلم - عصر اليوم الأول - ثم استطاع أن يكتب اسمه عند المساء.
وحين صحوت في اليوم الثاني من النوم، كان في العاشرة من عمره تقريبًا، أمس تساقطت أسنانه اللبنية وبدأت الأسنان الدائمة تظهر.. اليوم صار قادرًا على مناقشتي وقراءة الجريدة.
كان يناديني باسم (كاميليا).. دون ألقاب، هذا طبيعي ما دام لا يعتبرني أكبر منه سنًا، ولم يتساءل قط عن كنه ما حدث له.
وفي اليوم الثالث كان مراهقًا بدا شعر وجهه ينمو، واخشوشن صوته كثيرًا، وكان هذا هو الوقت الذي قررت فيه أنه قادر على العناية بنفسه.

لم يعد لـ (رفعت) مكان في داري، وحان الوقت كي يعود مع (عزت) إلى شقته، لكن هناك سؤالًا مهمًا، ما زال يقلقني: هل يتوقف عن النمو حين يصل إلى السن التي بدأ التجربة فيها؟ أم هو مستمر بلا توقف ككل شيء في هذه التجربة الحمقاء؟

☆ ☆ ☆

الخاتمة

مرحبًا بكم..

هذا أنا (رفعت إسماعيل) من جديد.. بعد أسبوع قضيته متواريًا عن العيون في دار (عزت)، وبعد ما تحمل المسكين نزقي المراهق، ثم شبابي اللامبالي، مرورًا بكهولتي الكئيبة..

أخيرًا يمكنني أن أقول إنني هو أنا.. بعقلي السابق وشخصيتي السابقة، وـ للأسف ـ أمراضي السابقة ذاتها..

في أسبوع واحد تساقط شعر رأسي، وكثرت تجاعيدي، وارتفع ضغط دمي... كان (عزت) مذهولًا لكنه لم يملك إلا أن يصدّق..

وقد لاحظت أن البقع البنية تكاثرت على ظهر يدي، وهي علامة على الشيخوخة لم تكن لديَّ، فأدركت أن الجعران ـ ذلك الأحمق ـ اختلس بضع سنوات من عمري.. إن الدقة تنقصه.. وأنا طيلة حياتي أمقت الجعارين غير الدقيقة..

ما علينا..

لحسن الحظ لم تستمر اللعبة بي إلى حد أن أبلغ سن الستين فالسبعين فالمائة، ثم أموت بالشيخوخة خلال أسبوع.. كان هناك حد توقفت عنده اللعبة..

وقلت لـ (عزت) وأنا أفتح باب شقتي، مأخوذًا بالفوضى التي صنعها الطفل (رفعت) حين كان وحيدًا..

ـ «تبًّا! إنني سأحتاج إلى أسبوع كي أعرف أين كان الحمام..»

ابتسم وقال:

ـ «أم (سعد) قادمة لإنقاذك غدًا..»

قلت وأنا أجمع بعض الأوراق المبعثرة:

ـ «كان الخطأ خطئي.. لقد أنذرني الروماني بعد ما زرع الجعران تحت جلدي.. قال لي إن عليّ أن أترك رسالة لدى قريب أو صديق لي، تخبره بالقصة كلها وكيفية إيقاف مفعول العلاج.. في حالة ما إذا زاد الأمر عن حده..

«المشكلة هي أنني انبهرت في البداية بصحتي المستعادة، ونسيت تمامًا أن أخبركم.. ثم جاء استهتار المراهقة الذي جعلني لا أبالي بأن أخبركم.. فقط في مرحلة الطفولة كنت أذكر أشياء ضبابية عن شيء يشبه الجعران، وشعرت أن عليّ إبلاغكم بشكل ما.. بالرسوم مثلًا.. هذا يذكرني بفيلم (فانتازيا) أول فيلم ظهر فيه (ميكي ماوس).. لقد راقب (ميكي) الساحر وهو يستعمل عصاه، ثم قرر أن يجربها بدوره.. علّم المكانس كيف تنقل دلاء الماء وتسكبها على الأرض، ثم نام (ميكي) ونسي تمامًا أن يوقف هذه العملية.. وحين صحا من النوم كان الماء قد وصل إلى عنقه»

وربتُّ على كتف (عزت) وقلت:

- «كانت الوحدة تمزقني، ولم أدر أنك و(كاميليا) صديقان مخلصان يمكنني أن أترك لهما رقبتي..»

اسودّ وجهه في تواضع، وقال:

- «المهم أن تكون قد تعلّمت شيئًا.. إن أفضل سن قد تكون هي سنك الحالية.. ربما فقدت بعض الصحة لكنك اكتسبت كثيرًا من الحكمة وحب واحترام الآخرين..»

قلت وأنا أفتح نوافذ الشقة:

- «وتعلمت كذلك ألا أثق بالسحرة الرومانيين، ولا أسمح لهم بدس جعارين تحت جلدي.. كما تعلّمت أن أقرأ كتب الأخرين بمجرد أخذها، وألا أتحدى سائقي السيارات الرياضية حين يكون هناك كثير منهم، وألا أقذف رسائل غرامية لبنت الجيران، وألا أبلل أريكة الصالة في شقّة (كاميليا) لأن هذا يجعلها تجن!»

☆ ☆ ☆

وهكذا انتهت أسطورة تختلف..

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة نلقى الكاهن الأخير (هن - تشو - كان) أخيرًا وبعد غياب، ولسوف يتعلق الموضوع بحفائر سرية يجرونها بحثًا عن لغز من ألغاز التاريخ..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

(القاهرة)

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمـة

تمهيد لا بد منه للأسف..

عشرة!

عشرون!

ثلاثون!

أربعون!

نحو الزوال!

الخـاتمــة

Notes

[1←]
(البلاسيبو) هو، دواء وهمي يتم إعطاؤه للمرضى لاستبعاد عنصر الإيحاء من الموضوع، وذلك عند تجربة دواء جديد.. وله معنى آخر هو (صلاة الموتى) في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.. معنى الكلمة باللاتينية هو (سوف أسعد).. بضم الألف وكسر العين..

[2←] ستكون اللغة بدءًا من هذا الجزء ركيكة مليئة بالأخطاء النحوية، وقد وضعتها بين قوسين على كل حال.

[3←]
حقيقة.

روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

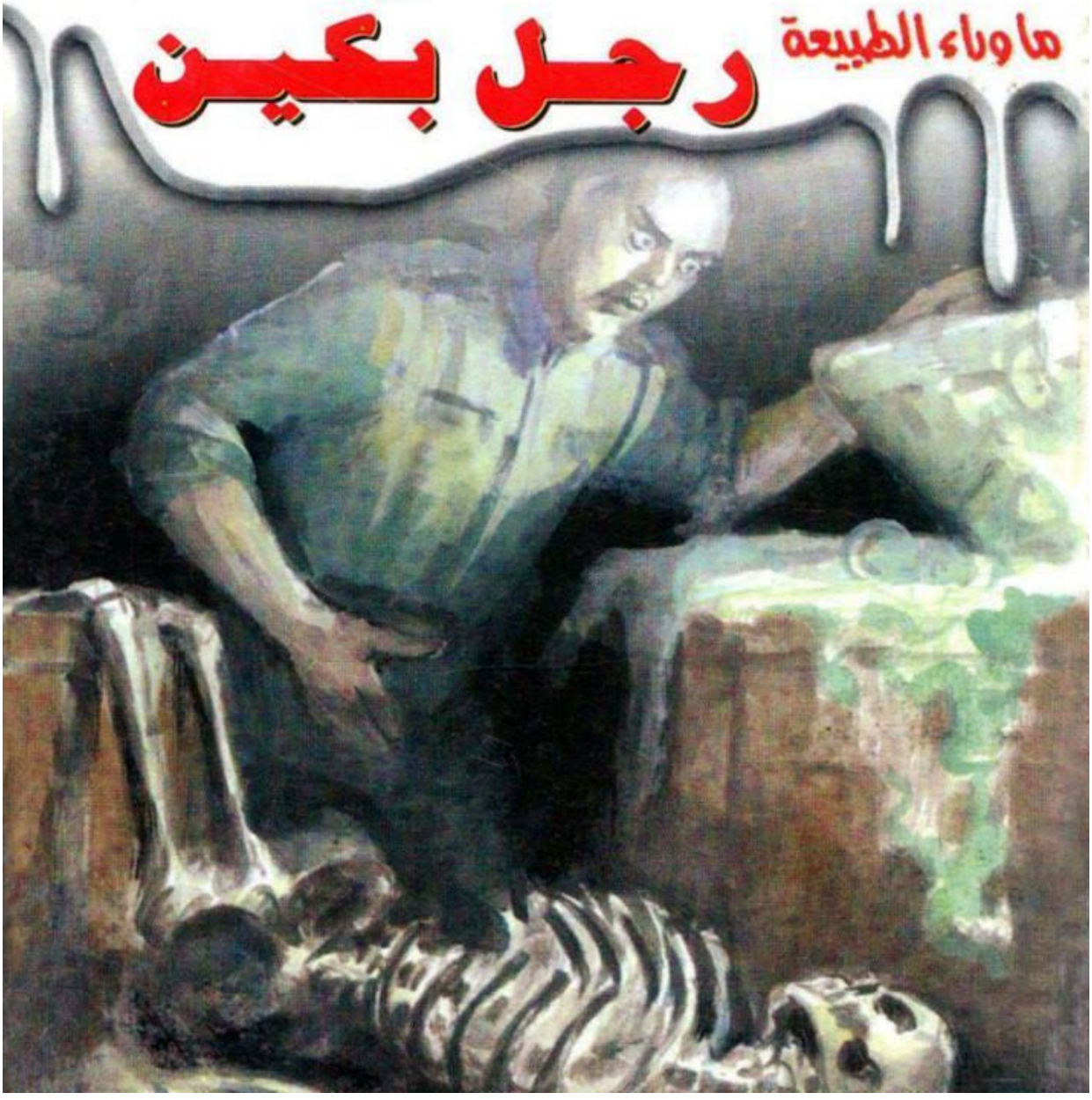


44

أسطورة

رجل بكين

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



44

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة رجل بكين

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايـــات تحـبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصـرى مـائة فى المـائة
لا تشـوبه شبهة الترجمـة أو الاقتبـاس
أو النقــل عـن أية قصص أوربيـة .

●

إشـــراف
الأســتاذ/ حمـــدى مصطفـــى

●

جميع الحقـوق محفـوظة للناشـــر
وكل اقتبـــاس أو تقلـيد أو تـزييف
أو إعـادة طبع بالتزوير يعـرض
المرتكب للمســاءلة القـــانونية .

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى
مصر الجديدة ـ القاهرة: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع.

مقـدمة

لماذا تتحرك الظل في الردهة؟

لماذا تتحرك الظلال بالذات حين تكون شيخًا فانيًا، وحين تكون وحيدًا، وحين تجلس ليلًا لتكتب مذكراتك على ضوء مصباح واهن؟

لماذا تتحرك الظلال في الردهة، حين يكون الصراخ غير ذي نفع، وحين يكون الجيران قد ناموا، والليل نفسه قد نعس، ويكون الهاتف معطلًا كالعادة؟

لماذا تتحرك الظلال في الردهة، حين تكون في غرفة مكتبك.. حيث السبيل الوحيد للخروج من الشقة هو الردهة ذاتها؟!!

لماذا تتحرك الظلال في الردهة، بينما أنت - ببساطة - لا تريد ذلك؟

كلها أسئلة بلا جواب كالعادة..

إحدى الإجابات المحتملة أنهم قد جاءوا من أجلك.. من هم؟ لايهم.. فهم كلهم يتشابهون، ويفعلون نفس الأشياء..

إحدى الإجابات المحتملة أنك قد صرت شيخًا مخرفًا، وأن حياة الوحدة والأشباح قد أصابتك بالبارانويا، وهي الثمرة الوحيدة الموجودة في حديقة ذكريات من عاشوا حياتي..

إنه احتمال قوي ومريح، ويطمئنني كثيرًا..

دعونا من ظلال الردهة، ولنتجاهل سببها مؤقتًا.. لو أضعنا وقتنا على كل ظل يتحرك في الردهة فلن نجد وقتًا كافيًا لشيءٍ آخر..

اليوم نلتقي و(هن - تشو - كان) الذي غاب عنا منذ الكتيب الرابع عشر[1].. إنّه هنا معنا، ومعنا قصة كابوسية عن شيء ما وجده الأمريكيون عام ١٩٣٧.. ومعنا الدكتور (رفعت إسماعيل) الكهل الذي يحاول - برغم كل شيء - أن يحتفظ بجسده كاملًا قطعة واحدة..

هل أنتم جميعًا هنا؟

هل عيونكم متسعة، وآذانكم مرهفة، ورءوسكم دانية مني؟

إذن.. فلنبدأ..

☆ ☆ ☆

«عندما تغرب الشمس، وتلطخ
دماؤها ثوب المساء الأزرق..
عندئذ يبدأ فجر (النافاراي)»

١- مهمّة سرية جدًّا..

السبت ٦ ديسمبر عام ١٩٤١..
الساعة الثامنة مساء..
يقف (جيمس ثورنوايلد) قائد الفرقاطة الأمريكية (إيليت) على ظهر فرقاطته، يرمق المياه الثائرة في قلق..
ينظر إلى ساعته.. الثامنة؟ كل هذا الوقت يضيع في هراء لا أول له ولا آخر، والمفترض أن يكونوا الآن في قلب المحيط الهادي، بعيدًا عن هذه الأرض التي تنذر بالويل في كل دقيقة..
كانت التعليمات التي أعطيت له غامضة، وهو يمقت التعليمات الغامضة بشكل خاص.. إنّه يتحرك في الظلام، ولا يعرف بالضبط نوعية الخطر الذي يتهدد هذه الرحلة إن كان هناك حقًّا خطر ما.. كان يعرف فقط أن الخطر ياباني، وأن هؤلاء الـ (جابس) - كما يدللون اليابانيين - راغبون بشدة في الشحنة التي يحملها.. لماذا؟ هل هي من الذهب؟ هل هي لوحات ثمينة أو قنابل أو..؟
لم يخبره أحد، ولا يبدو أنهم سيخبرونه حتى بعد انتهاء المهمة..
صاح في (جاكسون) مساعده الأول:
- «هل تم كل شيء؟»
- «آي آي يا سيدي.. لقد نقلنا كل شيء إلى قاع الفرقاطة..»
- «وهل الصناديق مؤمنة؟ سنلاقي كثيرًا من الاهتزازات..»
- «البحارة ينتهون من ربطها يا سيدي..»
- «إذن.. فلنعد أدراجنا الآن..»
وتنهد في ارتياح، وأصدر أوامره برفع المرساة وتشغيل المحركات.. وبدأت الفرقاطة تستدير بادئة رحلتها الرهيبة عبر المحيط الهادي..

☆ ☆ ☆

كانت الحرب العالمية الثانية في أوج مجدها، وكان (هتلر) عاكفًا على ابتلاع أوربا قطعة قطعة، وقذائفه تهوي فوق يافوخ البريطانيين في كل مكان.. لكن أمريكا لم تكن طرفًا في هذه الحرب على الإطلاق.. حتى الآن..
لقد انزوى العملاق الأمريكي على نفسه وراء المحيط الأطلنطي، وسد أذنيه كي لا يسمع صوت القنابل والصرخات، وكي لا يسمع (تشرشل) يصيح من (بريطانيا): لا بد أن تدخلوا الحرب إن دوركم آت لا محالة!
وكانت اليابان قد غزت الصين عام ١٩٣٧، لكن لم يحدث ما يورط الأمريكيين في الحرب، وظل أسطولهم يمارس حياة هادئة نسبيًا في المحيط الهادئ، وفي مرافئ (هاواي) و(هونولولو) الجميلة الودود..

لم يكن (ثورنوايلد) يحبّ اليابانيين ولا الصينيين.. بالأحرى كان يشعر باشمئزاز منهم، وبأن عيونهم الضيقة عيب خلقي يدل على الغباء..

لكن التعليمات صدرت له بأن يدنو بفرقاطته من ساحل الصين، عند ذلك الخليج الذي تلامس فيه حدودها حدود (منشوريا).. وعليه أن ينتظر حتى تصل بضعة قوارب تحمل صناديق خشبية معينة.. سيكون عليه أن ينقلها إلى (هاواي) بحالة ممتازة، وعليه ألا يفتح أي صندوق، أو يجيب عن أية أسئلة يوجهها بحارته..

- «أجيب؟» ـ قالها في اشمئزاز - «أجيب عن أي شيء بالضبط، وأنا لا أملك أدني تصوّر عن محتوى تلكم الصناديق؟»

لكنه خمن أن محتوى الصناديق شيء يريد الصينيون أن يبعدوه عن يد اليابانيين.. شيء قادم من (تشوكوتيان) قرب (بكين)..

أخيرًا ـ في ضوء الغروب - رأى القوارب، ورأى بحارتها الصينيين شديدي السقم والنحول، والذين فتك الأفيون بصحة أكثرهم...

وكانت الصناديق تحمل بالفعل عبارات بالصينية، لكنه استطاع أن يقرأ اسم (تشوكوتيان) بحروف لاتينية على كل صندوق.. وكانت مغلقة بعناية، وقد تم لفها بشرائط من (الألومنيوم) مع توزيع الشمع الأحمر بعناية للتأكّد من أن أحدًا لن يفتح شيئًا..

وكما قلنا آنفًا، انتهت عملية التحميل نحو الثامنة مساء، واستطاع (ثورنوايلد) أن يصدر أوامره لرجاله بالإقلاع..

☆ ☆ ☆

وفي الثامنة من صباح اليوم التالي هاجم اليابانيون الأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور)..

إن من شاهدوا فيلم (تورا-تورا-تورا)[2] يعرفون كل تفاصيل هذا الهجوم المباغت الغادر؛ البطولي برغم كل هذا..

إن اليابانيين بطياريهم الانتحاريين، وطائرات (زيرو) الشبيهة بلعب الأطفال الزنبركية؛ قد تمكنوا في ذلك اليوم من إغراق أربع قطع عملاقة أمريكية، وعطلوا أربعًا غيرها..

لقد تلقت الولايات المتحدة ضربة قاصمة لم تستطع نسيانها قط، ويمكن القول عمليًا إن الحرب بدأت وقد فقدت أسطولها..

هذه قصة طويلة، لكن ما يعنينا منها هو موقف الكابتن (ثورنوايلد) ورجاله حين سمعوا الأخبار الرهيبة في ذلك الصباح..

يجب أن نقول هنا إنهم لم يعرفوا شيئًا حتى الظهيرة، وحين نجحوا في التقاط بعض موجات الراديو.. لم يكن أحد يتحدث إليهم أو عنهم...

من الواضح أن الصدمة أفقدت الجميع توازنهم، ولبعض الوقت نسوا كل شيء عن الفرقاطة (إيليت)..

كان شعور الرجال مريرًا، وعلى شفاههم كان للهزيمة مذاق أشد ملوحة من مياه البحر ذاتها.. لقد فقدنا أسطولنا وخيرة بحارتنا..

والمشكلة هي: هل نعود إلى (هاواي) أم ماذا؟ لقد صار المحيط الهادي كله خطرًا داهمًا الآن، والأسطول الياباني يجول فيه بحرية كاملة.. حرية البلطجي الذي لم يعد هناك من يقف في طريقه..
ماذا لو قابلنا اليابانيون؟ ماذا لو فوجئنا بسرب من طائرات (زيرو) التي يفضل طياروها الدخول بالطائرة في قلب الهدف، بدلًا من التصويب عليه؟
لاجواب سوى أن نستمر فيما نفعله الآن..
نبحر..

☆ ☆ ☆

كان (ثورنوايلد) منهمكًا في تفاصيل مهمته الخطرة..
وعندما يكون الخطر واقعيًا وملموسًا، يغدو الاهتمام بتفاهات البحارة شيئًا مترفًا لا وقت له.. نوعًا من تبديد الطاقات في هراء..
مثلًا حين يتحدثون عن أصوات غريبة تنبعث من الصناديق الموجودة في قاع الفرقاطة..
مثلًا حين يتحدثون عن الجو المشئوم الرهيب الذي شعر به جميع ركاب الفرقاطة، بمن فيهم (ثورنوايلد) نفسه..
مثلًا حين يتساءلون عن قطرات السائل الأخضر التي تتساقط من أحد الصناديق بالذات..
حين كانوا يثرثرون في أمور كهذه؛ كان القائد يأمرهم بالصمت، وبأن يكفوا عن لعب دور الدجاج المذعور.. إن اليابانيين خطر داهم حقيقي.. أمّا ما يتكلمون عنه فنوع من أحاديث النسوة العجائز في القرى..
وكان يدرك أن معنوياتهم في الحضيض الآن.. قطعة من الأسطول المهزوم المحطم تحاول اللحاق بزميلاتها.. لابد أنّ هذا الإحباط قد ألقى بذوره السامة في مخيلاتهم.. وهو على كل حال سينفذ مهمته سواء أرادوا أو لم يريدوا.. لن يُلقي الصناديق في البحر استجابة لهؤلاء المخابيل، وهم لن يتمردوا طبعًا.. إنها قطعة من الأسطول الأمريكي، وليست سفينة (كريستوفر كولومبوس) المتجهة إلى حافة العالم..

☆ ☆ ☆

وفي ٨ ديسمبر أعلنت الولايات المتحدة دخول الحرب ضدّ اليابان.. كان هذا بناء على ضغوط من أعضاء الكونجرس على الرئيس الأمريكي..
وكان هذا يوم سعد بالنسبة لـ (تشرشل) الذي كان يتحرق إلى أن يضم ذلك الحليف القوي، ذا الموارد البكر، إلى صفه..
لكن كان على الولايات المتحدة أن تفقد الكثير على رقعة شطرنج المحيط الهادئ في البداية.. وراحت الجزر تسقط تباعًا، والقوات الأمريكية تتراجع أمام الأقزام الصفر الذين لا يخافون الموت..
وعند غروب شمس الثامن من ديسمبر - وهو غروب مبكرطبعًا ـ هوت أولى القذائف جوار الفرقاطة (إيليت)..

وحين تفحص (ثورنوايلد) الأفق، استطاع أن يرى ثلاث قطع من الأسطول الياباني تطارده بسرعة تفوق سرعته..

ولدى انفجار القذيفة الثانية، قرر الرجل أن الاستسلام هو الحل الوحيد بدلًا من تدمير سفينته وإغراق رجاله في قتال لا جدوى منه...

رفعوا العلم الأبيض، وأرسلوا إشارات ضوئية تعلن استسلامهم، وبعد قليل جاء زورقان يابانيان لنقل الرجال إلى أكبر السفن اليابانية الثلاث..

ها هو ذا يصعد إلى سطح السفينة، ليرى قبطانها... يؤدي له التحية العسكرية وكذا يفعل الياباني.. سيعرف فيما بعد أن الياباني هو الكومندور (ميتسو جوياما)..

قال (ثورنوايلد) لآسره الياباني الذي كان يتكلم بعض الإنجليزية:

- «أرجو أن تعني برجالي.. إنهم جنود شجعان..»

قال (ميتسو جوياما) بنبرة غليظة:

- «هؤلاء لم يعودوا رجالًا.. إنهم مجرد أسرى!»

وهو ما سيسمعه الجنود الأمريكيون والبريطانيون مرارًا خلال هذه الحرب.. إن الياباني يحتقر الأسرى ويراهم جبناء.. ولو كانوا أكثر شجاعة لفضلوا الموت على ذل الأسر.. الجندي الشجاع لا يؤسر أبدًا، لكنه ينتصر أو يموت..

ونتيجة لهذا؛ سيدرك هؤلاء الأسرى أن معاملة اليابانيين لهم شبيهة بمعاملاتهم للحيوانات.. إن أسرى الحلفاء لدى الألمان كانت لهم حقوق، وكانوا في حال لا بأس بها، أمّا التعساء الذين أسرهم اليابانيون فحكاياتهم تملأ الكتب، وكلها تبعث الرجفة في الأوصال:

سيعرف البحارة الأمريكيون هذا وأكثر؛ لكن هذا ليس بالضبط موضوع قصتنا.. إن ما نتكلم عنه لهو مصير الصناديق التي كانت في قاع الفرقاطة[3]..

للأسف؛ كانت هذه آخر مرة تتحدّث فيها كتب التاريخ عن تلك الصناديق.. لكن هناك من وجدها.. وهناك من فتحها.. وهناك من..

فلنبق معًا.. ولنر ما سيحدث بعد قليل..

☆ ☆ ☆

٢ - (طوكيو) - (نافاراي) - أشياء أخرى..

(هن - تشو - كان) من جديد!

هذا فاصل من حياتي ومن معارفي أشك كثيرًا في أنني عشته.. كاهن (النافاراي) القادم من (التبت) والقرن السادس عشر إلى عالمي، ومعه مشاكل لا قبل لي بها..

غير أنني قلّما احتفظت بحب واحترام لأحد مثلما احتفظت لهذا الفتى النحيل الصموت، الذي يملك من القوة النفسية ما يفوق عشرة رجال، وقد سيطرت قوته النفسية على كل عضلة وكل عصب في جسده.. ثم إنّه من القلائل الذين يفعلون ثم يقولون وليس العكس.. أحيانًا يفعل ولا يقول على الإطلاق.. وهو بهذا يذكرني بكلمات شاعرنا العربي البليغة:

«بُغاث الطير أكثرها صياحًا

ولم تصحْ البزاةُ ولا الصقورْ

ضِعاف الأُسد أكثرها زئيرًا

وأخطرها اللواتي لا تزيرْ»

و(بغاث الطير) هي الضعيف منها.. حقًّا لقد كان (هن ـ شو ـ كان) أسدًا.. وأسدًا خطيرًا لم يزأر يومًا، وإنما يكتفي بالوثب وتمزيق ضحاياه..

☆ ☆ ☆

كانت تلك هي زيارتي الثانية لليابان.. ربما كان ذلك عام ١٩٧٢ أو لم يكن.. لقد اختلطت التواريخ في ذهني على كل حال... كنت قد فقدت إصبعين من قدمي (معنى هذا أنني واجهت الوباء)، لكني لم أكن قد تلقّيت قبلة (الطفيل) بعد (معنى هذا أنني لم أكن قد قابلت الطفيل).. إذن كان هذا في الأعوام الثلاثة الأولى من السبعينات..

لماذا اليابان بالذات؟ لا أذكر السبب.. ربما كان مؤتمرًا ما لتضامن الشعوب، والحد من التسلح النووي.. إذن لابد أنه كان في السادس من أغسطس ذكرى قنبلة (هيروشيما) الشهيرة.. ودوري كان ـ بالطبع ـ ضمن الجانب الطبي للمؤتمر، لأن القنابل الذرية تسبب سرطان الدم كما تعلم..

كنت أقيم في (طوكيو).. و(طوكيو) هي العاصمة طبعًا[4]، وكان تعدادها عشرة ملايين في ذلك الوقت.. وكان هذا كافيًا لجعلها عاصمة شديدة الازدحام.. الفكرة هنا هي أن مساحة اليابان صغيرة جدًّا..

إن (طوكيو) مدينة عجيبة متنوعة الأوجه؛ تارة تجدها غربية جدًّا مليئة بناطحات السحب والمراكز التجارية ودور الترفيه.. يكفي أن تجوب شوارعها ليلًا لتصاب بـ (ذهول الأضواء) الشهير؛ وتارة هي ذلك البلد التقليدي العتيق بمعابده وقصور أمرائه وبيوته المزخرفة الجميلة..

كل شيء جميل نظيف في اليابان ما عدا الطعام؛ وطعامهم لا يطاق حقًّا.. إنِّه ذلك المزيج الكريه من السمك النيئ والأعشاب البحرية التي لا تختلف عن البرسيم كثيرًا.. كل هذا غارق في صلصة فول الصويا.. هل هناك شيء في العالم اسمه (صلصة فول الصويا)؟!

وعليك أن تحب هذا كله، وأن تبتسم وتتلمظ وإلا اعتبروك قليل التهذيب..

ما علينا.. المهم هنا هو أنني قابلت (هن - تشو - كان) شخصيًا، وفي (طوكيو) ذاتها.. كيف؟ سأحكي كل شيء..

☆ ☆ ☆

لم تكن المراسلات قد انقطعت بيني وبين الفتى، خاصة في الأعوام الأخيرة..

كان يتطور باستمرار، وصار ينتمي لهذا العصر بقوّة، كما أنّ إنجليزيته صارت على ما يُرام.. بل وصينيته أيضًا؛ فهو - كما تعرفون - كان قد قرر الإقامة في الصين دائمًا.. إنِّه ليس صينيًا، ومازال يعتبر الصينيين أولئك الغزاة الذين احتلوا (التبت) - وطنه - وغيروا عاداته وتقاليده، وأرغموا (الدالاي لاما) على الهرب إلى الهند.. لكن الزمن يتغير، وقد صار من المحال أن يعود (التبت) كما كان.. لهذا اندمج مع الصينيين، وبشكل لا أفهمه استطاع الحصول على الجنسيّة الصينية..

وكانت آخر أخباره هي انضمامه لفريق من علماء الحفريات في (منشوريا) في الشمال الشرقي للصين... إن ما قام به (هن - تشو - كان) في حملة رجل الجليد قد رفعت من أسهمه لدى الصينيين.. ولأسباب عديدة وجدوا أنه مناسب للمشاركة في الحملات في البقاع النائية البكر، وما أكثر البقاع النائية البكر في الصين!

بعد هذا قال لي إنِّه ذاهب إلى اليابان في مهمّة معينة لها طابع دراسي؛ ولم أفهم لكني أخبرته أنني سأكون في (طوكيو) في (أغسطس) القادم.. قال إنِّه سيحاول الاتصال بي..

ونسيت كل شيء عن الموضوع كالعادة، حتى فوجئت بمن يتصل بي في فندق (دايتشي) بحي (آساكا)؛ وهو فندق فاخر له طابع غربي، كنت أقيم به على حساب المؤتمر طبعًا..

وكان يتحدث خليطًا من الإنجليزية والعربيّة التي صار يعرفها جيدًا كما يعلم القارئ..

- «وكيف عرفت أنني هنا بالذات؟»

قال بطريقته المقتضبة العزوف عن التفاخر:

- «سكرتارية المؤتمر.. قالوا لي إن البروفسور (إسماعيل) في فندق (دايتشي)..»

ودون المزيد من التحيات وعبارات المجاملة؛ قال

- «هناك مطعم اسمه (سويهرو) قرب الفندق.. هل تعرفه؟»

- «نعم..»

- «إذن فلنلتق هناك بعد ساعة..»

ولهذا تجدونني جالسًا على ركبتي في هذا المطعم، حافي القدمين طبعًا، أشرب الشاي المر من سلطانية خزفية صغيرة.. تجلس أمامي مضيفتان يابانيتان ترتديان (الكيمونو) وتنتظران أوامري.. لست من هؤلاء الذين يجدون راحتهم أو يستطيعون أن يأكلوا بينما هناك من يراقبهم.. إن الطعام ينزل بالسم في جوفي وقتها، لكنّها التقاليد اليابانية التي لا تتزحزح..

أخيرًا جاء (هن - تشو ـ كان) في موعده..

كان قد تغير كثيرًا.. من العسير أن تحسبه كاهنًا من (التبت) من القرن السادس عشر لو طلبت رأيي.. إنه يرتدي بذلة أنيقة ويضع عوينات بلا إطار، ويحمل حقيبة أوراق صغيرة.. كل شيء يوحي برجل أعمال من (هونج كونج) جاء ليجرى صفقة ما هنا.. إن الآسيويين يتشابهون بالنسبة لنا معشر العرب، لكن أؤكد لك أن منظر (هن - تشو - كان) كان يختلف تمامًا عن كل ياباني هنا.. الجميع يعرف أنه صيني.. مثلما تميز عيونهم الفيتنامي من الكوري من الكمبودي.. ولا أدري كيف..

- «(ريفاااات)! لقد تغيرت كثيرًا!»
رشفت بعض الشاي الكريه، وقلت في ملل:
- «نعم.. نعم.. ازددت قبحًا وشيخوخة.. هذا مايقوله كل من يراني بعد انقطاع أسبوعين.. ماذا تفعل هنا؟»
- «إنّه (البيزنس).. ثمّة أمور كلفتني إياها الحكومة الصينية..»
وجاء النادل فوضع أمامنا عشرات الأكواب الملأى بالسوائل الحمراء والخضراء والزرقاء، والأرز المعجون، والسمك النيئ.. ثم أعطوا كلًّا منا عصوين على سبيل التعذيب..
قال (هن - تشو - كان) وهو يتناول أحد الأكواب الحمراء:
- «حساء أم الخلول! هذا يوم سعد!»
- «حساء أم الخـ..؟!»
وتقلصت أحشائي، كعادتي منذ جئت إلى اليابان..
وهكذا رحت أصغي إليه وهو يتكلم - بندرة كعادته - ويحكي لي أحداث حياته في الأعوام السابقة..
لم يكن هناك الكثير - كما قلنا ـ لقد عاش صموتًا منعزلًا نائيًا عن الحياة الاجتماعية.. مارس تمرينات (النافاراي) بانتظام، وقرأ كثيرًا في كتاب (شوكارا)، وارتحل إلى (التبت) مرّتين أو ثلاثًا بحثًا عن مزيد من آثار (النافاراي)..
طبعًا لم أمس من طعامي إلا بعض الأعواد الخضراء؛ أمّا هو فأكل بشهية من لم يذق حساء أم الخلول من قبل..
لاحظت إحدى الفتاتين أنني لن أمس طعام كما هو واضح، فقدمت لي منشفة مبتلة كي أمسح أناملي، ثم انحنت والتمعت أسنانها، وتراجعت إلى الوراء على ركبتيها.. ذكروني أن أجد زوجة يابانية لو اتسع الوقت، فمن الواضح أنهن زوجات مثاليات..
ساد الصمت قليلًا، ثم تباطأت سرعة (هن - تشو - كان) في المضغ.. أدركت أنه يفكر في عمق..
قال لي وهو يفتش عن شيء في جيب سترته:
- «(ريفات) أنا مسرور للغاية لكوني قابلتك.. وأين؟ في هذا الركن من العالم.. كنت بحاجة إلى من أثق به كما تعلم..»
- «أفهم.. أفهم..»
أخرج مظروفًا كبيرًا مغلقًا بإحكام، وقال لي:
- «خذ هذا ولا تفتحه.. لاتفتحه إلا إذا لم أتصل بك خلال أسبوع.. أنا أعرف أنك مؤتمن..»
والحقيقة ليست كوني مؤتمنًا.. بل كوني غير مهتم على الإطلاق بأسرار هذا الفتى.. لو شاء أن يقولها فليقلها، لكني لن أجهد ذهني لحظة واحدة في التنقيب عنها..
- «هل هو أمر خطير؟»
- «ربما نعم.. وربما لا.. ستعرف كل شيء خلال أسبوع..»
ونظر حوله في حذر، وواصل التهام السمك النيئ بعصويه..

سألته في حذر مماثل:
- «إلى أين أنت ذاهب بالضبط؟»
- «إلى أحد معابد (الشنتو)[5] في ضواحي المدينة.. ثمّة شيء أبحث عنه، فلو وجدته لانتهى الأمر.. لكني آمل ألا أجده..»
ثم بحث عن تعبير مناسب لثقافته (التبتية) فقال:
- «أن يتسلل النمر إلى دارك هذا خطر.. لكن عثورك عليه لن يقلل الخطر!»
حاولت فهم هذا التعبير الشعري فلم أستطع.. سألته:
- «هل أنت ذاهب للبحث عن نمر في ذلك المعبد؟»
- «ربما.. لكني لا آمل أن أجده!»
وأشار للفتاة فهرعت إليه بالمنشفة المبللة إياها.. جفف شفتيه ثم نهض قائلًا:
- «وداعًا أيها الصديق.. سأتصل بك، وإلا فلا تنس المظروف الذي معك..»
وخرج من المطعم باحثًا عن حذائه..

☆ ☆ ☆

٣ - ذيل النمر..

طبعًا مر الأسبوع ولم يتصل بي (هن - تشو ـ كان)..
ظننت هذا مفهومًا للقارئ، وإلا ما وجدت القصة أصلًا..
وهكذا جاء اليوم الذي بحثت فيه في جيب سترتي حتى وجدت المظروف إياه، وقررت أن أفتحه.. لست ـ كما قلت ـ مهتمًا بالأمر، لكني أحب أن أبر بوعودي.. هذه من مزاياي القليلة، أو لعلها ميزتي الوحيدة اليتيمة..

☆ ☆ ☆

كان الخطاب بإنجليزية رديئة جدًا، كالتي تقرؤها اليوم في نشرات الأجهزة الإليكترونية المصنوعة في الصين.. يقول الكاهن الأخير:

- «عزيزي (رفعت):

«آسف لإقحامك في هذا كله، وأنا أعرف أنك ضقت ذرعًا بمشاكلي؛ لكني لا أعرف شخصًا آخر أهلًا للثقة في (هونشو)[6]..
«حين تقرأ هذا الخطاب، سأكون غالبًا في خطر داهم.. عليك أن تستقل سيارة أجرة إلى العنوان التالي (....) وتسأل عن (تاكيجي - سان).. لو قابلته إحك له قصتي، وإن لم تجده عليك أن تكتب القصة كلها وترسلها إلى (...)...
«ليست المهمة شاقة كما ترى، وبعدها يُمكنك أن تواصل الاستمتاع بسياحتك هنا.

بإخلاص: هن - تشو»

كان الخطاب غامضًا، وله ذلك الطابع التآمري الذي يذكرني بقصص التجسس.. ترى ما الذي يحاول الفتى أن يورطني فيه بالضبط؟ ما دخلي أنا بعلاقات الصينيين واليابانيين المتشابكة المليئة بالشك وسوء النية؟ إن الكراهية بين الشعبين عميقة الجذور منذ بدايات هذا القرن، وقد ازدادت سوءًا بعد الحرب العالمية الأخيرة..
ترى ما الذي تفعله بالضبط يا (هن - تشو - كان)؟

☆ ☆ ☆

ولكن لم تكن لي حيلة ما..
في الثامنة مساء ركبت سيارة أجرة، وبصعوبة بالغة نجحت في أن أشرح للسائق وجهتي.. إنهم لا يقبلون الكلام بالإنجليزية ويتظاهرون بعدم الفهم، ثم إن نطقهم للحروف يختلف عن نطقنا تمامًا، أضف لهذا أن شوارع (طوكيو) بلا اسم! نعم..

لقد ظلت هكذا طويلًا حتى جاء الأمريكيون وأطلقوا عليها أرقامًا.. لكن اليابانيين ظلوا يسمون الشوارع بأسماء على غرار (الشارع الذي في أوله المطعم وآخره المعبد).. وهي - كما ترى - ليست بالطريقة المثلى التي تنقذ السائح من الضياع!

أخيرًا وجدت العنوان المقصود.

كان بيتًا يابانيًا تقليديًا من طابق واحد، على بابه فانوس جميل مزخرف يغمر المدخل بألوان لا بأس بها.. الجدران خشبية كالعادة، وذلك الطابع العام من (الهشاشة) الجديرة بشعب اعتاد الزلازل وصارت جزءًا من حياته..

دققت الجرس ففتحت لي الباب عجوز مجعدة يبدو أنها شبه كفيفة كذلك، فقلت ضاغطًا على مقاطع كلماتي:

- «(تاكيجي - سان)!»

أفسحت لي المجال كي أدخل، فنزعت حذائي، ودسست قدمي في قبقاب زلق موضوع هناك، ودخلت إلى غرفة صغيرة لها جدران من الورق المزخرف.. وكان هناك موقد صغير مما يعمل بالفحم - يسموّنه (هيباشي) - وضع عليه براد شاي، وثمّة منضدة صغيرة على الأرض فوق حصيرة.. ركعت على ركبتي وجلست أنتظر في جو صامت مريب..

لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا فلسوف يبرز لي الآن عشرة من لاعبي الكاراتيه المحترفين، ويعطونني علقة لم أر مثلها قط.. لحسن الحظ أنّ هذا ليس فيلمًا سينمائيًا.. أو لندعُ الله (تعالى) ألا يكون كذلك..

بعد دقائق برز لي (تاكيجي - سان)..

كان يابانيًا كما اعتدنا أن نتخيل اليابانيين حقًّا.. قصير القامة.. أصفر اللون.. هزيلًا.. له أسنان أرنب تبرز من فوق شفته السفلى، وعوينات غليظة توحي بالبلاهة، وكان ينحني في تملق ويقهقه دون داع.. وكان يرتدي ثيابًا غربية أنيقة إلى حدٍ ما..

قلت له بالإنجليزية داعيًا الله أن يفهمها:

- «أنا صديق لـ (هن - تشو - كان)..»

هزّ رأسه في ذكاء، والتمعت أسنانه:

- «آه آه! سودسكا!»

وهو ما يساوى عندنا قولك (هكذا إذن؟) قلت له:

- «قال لي إن عليّ الاتصال بك لو انقطعت أخباره أكثر من أسبوع..»

ازدادت ابتسامته إشراقًا:

- «آه آه! سودسكا!»

- «قال إن عليّ لو وجدتك أن أنقل لك هذه القصة.. والحق أنني لا أدري ما هي بالضبط..»

- «آه آه! سودسكا! هاها!»

- «لا أعرف سوى أنه كان ذاهبًا في مهمّة في معبد ما... كان يبحث عن نمر يأمل ألا يجده»

- «آه! سودسكا!»

أخيرًا تكلّم بعد ما بدأت أتساءل عن كونه يجيد الإنجليزية، أو يجيد الكلام أساسًا..

قال بصوت غليظ خارج من معدته:

- «الواقع يا سيد..»

- «(رفعت إسماعيل)..»
- «الواقع يا سيد (إسماعيل) أن لدى (هن - تشو - كان) سان من الأسباب ما يجعله لا يرغب في أن يُشاهد معي، أو يُعرف أنه جاء داري.. دعك من أنّه يخشى أن يكون هاتفي مراقبًا.. إنّه ببالغ طبعًا لأنّه لا هاتف لديَّ أصلًا.. لهذا أشكرك على هذه الرسالة، ولسوف يكون من دواعي سروري البالغة أن تشرف شخصي المتواضع بزيارة ثانية في مثل هذا الموعد غدًا.. ثمّة بعض أشياء أرغب في أن أعطيك إياها..»

وصب لي بعض الشاي الأخضر المر في شيء يشبه المبصقة، وناولني إياه كما قدم لي طبقًا مليئًا بـ (الكاجو)..

قلت له وأنا أمضغ وأتلمظ:

- «الحقيقة هي أنني لا أعرف على الإطلاق ما يدور هنا، وكنت أفضل لو تركتموني وشأني إن لم يكن في هذا ضرر بالغ لأحد..»

اتسعت ابتسامته أكثر فأكثر، والتمعت نظرة قاسية من وراء زجاج العوينات الغيظ وهو يقول:

- «للأسف يا سيدي.. إن الإمساك بذيل النمر قد يكون سهلًا، لكن تركه مسألة أخرى!»

يا للنمور! منذ جئت إلى اليابان وأنا لا أسمع إلا عن النمور.. لكن هذا المثل صيني على كل حال، ومعناه قريب من (دخول الحمام ليس كالخروج منه)..

كنت أقول له إنني غير ملتزم بشيء، لكني أحجمت.. إن لي التزامي نحو (هن - تشو - كان) على كل حال.. وهو قالها: لو لم يتصل خلال أسبوع فهو في مأزق وأنا لن أترك صديقًا في مأزق..

وهكذا غادرت البيت مبلبل الأفكار.. كانت الأمطار تنهمر في خفة باعثة نوعًا من البرد المحبب في أوصالك.. وقررت أن أمشي قليلًا قبل أن أستوقف سيارة أجرة.. أنا بحاجة إلى ترتيب أفكاري..

هواء الليل المنعش المغسول.. أمطار في أغسطس؟ لن أفهم جو هذه الجزر أبدًا.. (هن - تشو - كان) في مأزق.. الحل في يد (تاكيجي) أو على الأقل يجب أن يعرف.. (تاكيجي) يريد إعطائي أشياء معينة فما هي؟

يا لها من ألغاز! لكني سأفعل ما يُطلب مني على كل حال.. لن أكثر من الأسئلة ولكني ببساطة سألعب دور الساعي.. الساعي الذي لا يسأل كثيرًا..

☆ ☆ ☆

ذيل النمر في يدي.. فكيف أتركه؟

☆ ☆ ☆

في الثامنة من مساء اليوم التالي، وبعد ما امتلأ رأسي بثرثرة المؤتمر حتى صارت أية حركة لي تسكب الحروف من أذني؛ نزلت من سيارة الأجرة ونقدت السائق الانتحاري أجره..

كان عجوزًا، ومن المؤكد أنه - ككل سائقي التاكسي في (طوكيو) - كان من (الكاميكازي).. أولئك الانتحاريين الذين كانوا يركبون الطوربيد ويندفعون به نحو المدمرات الأمريكية.. كل هؤلاء

صاروا بعد الحرب سائقي تاكسي، لكنهم لم يتخلوا عن عادة قتل الزبائن..
وقفت على الباب وقرعت الجرس...
لا إجابة.. لم تأت العجوز بعد.. قرعت من جديد بلا جدوى...
الباب مفتوح.. هل أدخل؟
طبعًا دخلت.. وفي هذه المرّة فعلتها بحذائي.. لأنني شعرت بأنني بحاجة إلى خفة الحركة لسبب لا أدريه..
كانت المنضدة إياها والموقد إياه، والحصيرة.. كل هذه الأشياء كانت موجودة.. لكن الجدران الورقية كانت ممزقة في أكثر من موضع؛ وكانت هناك آثار فوضى لا بأس بها أبدًا..
غريب هذا!
أقسم إن هذا المكان شهد معركة عنيفة نوعًا..
واصلت البحث، وبصوت متردد ناديت:
- «(تاكيجي - سان)»
لم يكن من رد..
وبدأ قلبي يخفق متسارعًا.. ثمّة شيء ما على غير ما يرام.. شيء ما خطأ..
وأخيرا وجدته.. كان راقدًا على ظهره، وقد سقطت العوينات مهشمة على بعد سنتيمترات منه.. كان ميتًا طبعًا.. عرفت هذا من عينيه المحملقتين الخاليتين من التعبير ومن الجرح البليغ في عنقه..
نحن في اليابان بلد (الساموراي) و(النينجا) و(الرونيسن).. فمن سمع عن شخص يُقتل بطريقة أخرى غير السيف؟!
وعلى بعد أمتار وجدت العجوز، ولم تكن أفضل حالًا..
هذا كمين.. بالتأكيد هو كمين..
وقد دخلت المصيدة بحماقتي المعتادة..

☆ ☆ ☆

٤ - كمين..

أين أقراص (النيتروجلسرين)؟
إن قلبي موشك على..

☆ ☆ ☆

أخيرًا بدأ الألم يزول من صدري، وبدأ الصداع والدوار يغزوان رأسي، وهما هدية (النيتروجلسرين) لمن يدسه تحت لسانه، أو قل إنهما ضريبة النجاة من آلام الذبحة..
يجب أن أخرج من هنا حالًا.. يجب..
وغادرت الدار مسرعًا، ومن بعيد لمحت ضوء سيارة أجرة فأشرت لها، ووثبت داخلها قبل أن تتوقف تمامًا.. قلت للسائق شيئًا عن حي (آساكا) ونظرت للوراء..
حقا لم أخطئ كثيرًا بالإسراع.. هناك خيال (سلويت) ثلاثة أشخاص يقفون في ضوء الدار، ويبدو أنهم كانوا يحاولون اللحاق بي لولا ظهور سيارة الأجرة من حيث لم يحتسبوا..
هل هم المكلفون بذبحي أم المكلفون باتهامي بذبح (تاكيجي) والعجوز؟!
بالطبع.. الأمور دائمًا هكذا وليس تخيل الأمر عسيرًا..
أنا لا أعرف بالتأكيد ما يدور من حولي، وهكذا فإن هناك احتمالين لا أكثر: محاولة قتلي أو محاولة توريطي..
ولماذا؟ لأنني أعرف أكثر مما يجب، أو لأن ماكان (تاكيجي) سيعطيه لي شديد الأهميّة أكثر مما يجب..
لقد صارت هذه الأمور محفوظة من السينما، ولم يعد شيء قادرًا على إثارة دهشتي..

☆ ☆ ☆

دخلت غرفتي في الفندق، فنزعت ثيابي ورقدت على الفراش، وفتحت جهاز التلفزيون.. كانت مذيعة حسناء تتحدّث عن شيء ما، ومن فمها تخرج مئات النقوش بالحبر الشيني؛ لكني لم أكن معها.. وبالطبع لو ركزت لما فهمت شيئًا..
يجب أن أغادر اليابان سريعًا..
لا أعرف إن كان هناك من يلاحقني أم لا.. إن كان هناك من يعرفني أم لا.. لكن الجو كله مريب ينذر بالخطر، وروائح الفئران تفعم كل شيء كما يقول الإنجليز..
إن (هن - تشو - كان) لم يتصل بي، ومن الواضح أنه لن يفعل.. أفهم ما حدث؟ ولماذا أفهمه؟ كم من الأسرار تملأ الحياة بدءًا من أهرام الجيزة وانتهاء بمقتل (كنيدى).. ما الذي سيضيفه لغز جديد؟ لن تغدو الحياة أكثر تعقيدًا..
لم ينته المؤتمر بعد، لكني على كل حال ألقيت كلمتي القصيرة فيه، فلم يعد أحد يطالبني بشيء آخر..

وهكذا بدأت حزم حقائبي، ثم طلبت مكتب الاستقبال في الفندق وأخبرت الموظف أنني أعتزم الرحيل غدًا.. فليجد لي تذكرة على أول طائرة ترحل غدًا..

إنني أمقت أجواء العصابات والمؤامرات هذه.. لقد اعتدت أن يجيء الخطر من عالم آخر... عالم ليست له مقاييسنا الماديّة.. عالم يمتص أفراده الدماء، أو يجولون بين المقابر ليلًا، أو يخترقون الجدران.. هذا هو الخطر الذي أشعر بالراحة معه، وربما بعض الحنين.. لكن أساليب العصابات هذه لاتناسبني حتمًا.. وإنني لواجد فيها بعض السوقية والابتذال..

هنا دق جرس الهاتف..

☆ ☆ ☆

- «من؟»

- «د. (إسماعيل).. أرجو أن تمنحني ساعة من وقتك..»

كان هذا صوتًا رخيمًا ثابتًا.. يتحدث بإتجليزية يابانية الطابع لا شك فيها.. سألته:

- «من أنت؟»

- «الأسماء لا تهم.. لوقلت إنني (ياماتو) أو (ساكامورا) فما جدوى ذلك لك؟»

كلام سليم منطقي.. وأنا أحب الأوغاد المنطقيين..

قال لي:

- «هل يُمكنك التواجد في شارع (جانزا) بعد نصف ساعة؟ يوجد محل عاديات شهير باسم (ساكورا) هناك.. ألقاك على الباب..»

- «هذا مغر.. لكنك لم تعطني سببًا واحدًا يجعلني أجن شوقًا كي ألقاك هناك..»

- «إن الأمر يتعلق بصديقك الصيني.. وبشيء وجدته عند من يدعى (تاكيجي).. هل صار كلامي ذا معنى لك؟!»

- «سأراك هناك»

ووضعت السماعة شاعرًا بالسخط.. طبعًا سأذهب.. من أنا كي لا أفعل؟

لقد عرف الوغد كيف يثير حماسي الذي حسبته لا يُثار..

وهكذا - بعد ثلاثين دقيقة بالتمام - كنت أخترق الزحام في شارع (جانزا)، وأقاوم ذهول الأضواء المفرطة.. ذلك الذهول الذي يعانية كل قصار النظر، ويمكن فهم ما أعنية لو عرفت أن شارع (جانزا) هو الشارع التجاري الأهم في (طوكيو).. مثله مثل شوارع (سليمان باشا) و(٢٠ يوليو) عندنا في القاهرة..

كان هناك محل (ساكورا) إياه، وقد كتب اسمه بحروف مضيئة لا تكف عن التوهج... الحق أنه من العسير أن تخطئه..

وقفت على الباب منتظرًا العميل ذا الزهرة الحمراء، أو الذي يحمل رغيفًا عملاقًا على عادة القصص.. أنا لا أعرفه لكن من الواضح أنه يعرفني جيدًا..

ولم يطل انتظاري كثيرًا، لأنني وجدته يدنو مني..

كان ضخمًا في منتصف العمر، بدأ يفقد الشعر في مقدمة رأسه، ويرتدي قميصًا مشجرًا لا يناسبه..

حياني في تهذيب بهزة رأس، ثم قال:
- «د. (إسماعيل).. أعتقد أننا سنكون أكثر راحة لو ابتعدنا عن هذا الزحام..»
ودون كلمة أخرى راح يشق طريقه وسط الناس، عالمًا أنني بالتأكيد أمشي خلفه.. كان حجمه كافيًا لإحداث فجوة في الجماهير.. فجوة سمحت لشخص في حجمي بأن يتسرب منها...
كان مشوارا طويلًا بحق، عبر عشرات الممرات الجانبية، والأزقة الأنيقة، التي أدعوها أزقة لاتساعها فقط لا لقذارتها..
أخيرا ها نحن ذان نقف في ذلك الزقاق المظلم الخالي من البشر.. حيث تتصارع قطتان على صندوق قمامة..
قلت له لاهثًا بعد كل هذا المشي الذي لم أعتده:
- «والآن.. أعتقد أنني سأفهم شيئًا أو شيئين..»
نظر لي.. وهذه المرّة كان يضحك.. يضحك في صمت لكنّها ضحكة وحشية لم أسترح لها كثيرًا.. إن الضوء الخافت يسبغ على ملامحه شيطانية لامراء فيها..
قال شيئًا ما باليابانية.. لم أفهمه طبعًا، لكنه كان يحمل لي رسالة بليغة جدًا: إننا لسنا وحدنا في هذا الزقاق..
ونظرت حولي.. بالذات للوراء.. فوجدت..
كان هناك بلطجيان يابانيان.. بلطجيان من الطراز الذي لا تصدق وجوده ما لم تره.. وكان كلاهما يحمل خنجرًا براقًا أشبة بسونكي البندقية، ويتجه نحوي في تؤدة..
المقلق في الموضوع هو أنه لم يكن في الجو ما يوحي بالتهديد! هؤلاء القوم لا يريدون شيئًا مني.. لا يريدون سوى قتلي!
صحت وأنا أتراجع للوراء:
ـ «لحظة! ألن تسألني عن معلومات ما؟»
ابتسم الياباني الأول في مرارة، وهز رأسه نافيًا.. فتساءلت:
- «.. هل تريدون سرقتي؟ إن معي بعض المال الذي..»
هزّ رأسه من جديد نافيًا، وأشار للرجلين بمعنى: فلننته سريعًا من هذا كله.. وتراجع للوراء كي لا يلوث ثيابه..
وتذكرت ذلك المشهد الخالد من فيلم (الإصبع الذهبي).. أنا أكره أفلام (بوند) لكن هذا المشهد لا يُنسى بسهولة.. (بوند) مقيد وشعاع الليزر يوشك على تمزيق جسده إلى نصفين.. يصيح (بوند) في الإصبع الذهبي: «لحظة! سأتكلم! ألست تتوقع مني أن أتكلم؟» هنا يقول الإصبع الذهبي في ملل: «بالعكس يا مستر (بوند).. أتوقع منك أن تموت!»
هنا ـ بينما أقرب البلطجيين إليَّ يحرك خنجره في الهواء ـ سمعت صوتًا محببًا للنفس..

☆ ☆ ☆

من أين جاء (هن - تشو - كان)؟
من أين ظهر بيني وبين الرجلين؟

لا أدري ولا يهمني أن أدري.. كل ما يهمني هو أنني نجوت.. بالتأكيد نجوت.. ومن جديد أسمع الإنذار الخالد الذي لم أسمعه من دهر..

- «تشاسارايانا!»

قالها وهو يباعد ما بين ساقيه..

- «جوانغ سارايانا!»

قالها وهو يفتح ذراعيه المشدودتين المتوترتين، ويباعد أنامله كالمروحة...

يتبادل البلطجيان النظرات أمام عرض الحواة هذا.. غير عالمين أنّ هذه آخر فرصة لهما للنجاة لو أرادا الحياة.. لكن كل الثيران غبية كالعادة.. يلوحان بالخنجرين ويتقدمان أكثر..

هنا ينتقل (هن - تشو - كان) إلى التحذير الثالث والأخير:

- «كيوه سارايانا!»

يقولها وهو يرجع رأسه للوراء كسهم في قوس..

مشكلة هؤلاء الحمقى هي أنهم يجهلون لغة رهبان (التبت) القديمة، ويجهلون أن الكاهن الأخير أنذرهم (احترسوا من السارايانا - سأبدأ السارايانا - إليكم بالسارايانا).. وبعدها انطلق...

انطلق كالفهد الذي يمزق مجموعة من الأطفال، أو القط الذي وجد نفسه في جحر فئران.. أو...

لن أصف المشهد لأنّه تم بسرعة على كل حال، وعلى العموم أنا قد كففت عن الانبهار بالمعارك التي يهزم فيها الكاهن الأخير أقل من عشرة أشخاص..

في النهاية رقد الأوغاد الثلاثة ينزفون، وسعيد الحظ فيهم يئن.. هنا يصيح الفتى صيحته التقليدية:

- «سوان هاتشاه سارايانا!»

ثم يجذبني من يدي لنبتعد عن هذه المذبحة..

☆ ☆ ☆

وفي غرفة الفندق رحت أنظف له جراحه..

لم تكن جراح هذه المعركة طبعًا، لكنّها جراح معركة سابقة لهذا.. جراح قطعية على خده وأعلى صدره وفي ساعده الأيسر..

كان مُرهقًا لكنه متحفز كالنمر، نشط كبعوضة..

أخيرًا سألته وأنا أجلس على حافة الفراش:

- «أعتقد أنّ بعض التفسيرات من حقي..»

قال وهو يرتدي قميصه:

- «أية تفسيرات؟ الأمور واضحة تمامًا..»

- «يا سلام؟! جثتان في دار يابانية، وقتلة يحاولون ذبحي، وأنت جريح.. و.. إن الوضوح يكاد يخنقني..»

شاعت ابتسامة في تقاطيع وجهه الصلب، وهي شيء نادر لدى (هن - تشو - كان) خاصة وهو لا يفهم الدعابات أصلًا.. إن الصينيين دائمو القهقهة لكن بالنسبة لهذا الفتى كان أقصى مرح ممكن هو رفع الحاجبين..

قال وهو يزرر كميه:
- «أنت على حق.. لا بد من بعض الإيضاحات..»
- «إن الأمر يتعلق بـ..»
وأزاح الستار ليرى ما وراءه، وأردف:
- «شيء شديد الأهميّة.. شديد الأهميّة للـ...»
وجثا على ركبتيه ليتفحص ما تحت الفراش...
- «.. للصينيين.. إن مهمتي في الحقيقة نوع من عمليات المخابرات.. و..»
وتفحص المصباح جوار فراشي، ثم رفع يده في الهواء لأرى ما يحمله..
كان جهازًا صغيرًا لم يصعب أن أعرف ما هو..
إنه ميكروفون دقيق مدسوس هناك بغرض الانتصات طبعًا..
قال وهو يضع الشيء على المنضدة:
- «ربما كان من الخير أن نواصل كلامنا في الهواء الطلق..»

☆ ☆ ☆

٥ - أسطورة رجل بكين..

«جهاز تنصت؟ وخبئوه في المصباح؟ ألن يخترعوا أبدًا مكانًا خيرًا من هذا؟ دائمًا نفس المكان..»

- «لا تنس أنك لست رجل مخابرات، ولا تتوقع وجود شيء كهذا.. لو أردت رأيي لقلت إن هذا المكان صالح تمامًا لمن لا يتوقع شرًا..»

كنا نجول في حديقة صغيرة من الحدائق المحيطة بـ (طوكيو)، ولم يكن هناك مايريب.. المكان خال تمامًا لكن أضواء المصابيح لا تترك ركنًا مظلمًا فيه..

قال (هن - تشو - كان) وهو يواصل المشي:

- «هل تعرف شيئًا عن رجل بكين؟»

- «لا أعرف.. أعتقد أنه ذو أهميّة أنثروبولوجية ما؛ مثله مثل إنسان (نياندرتال) وسواه.. (هومو سابينز) و(هومو إيريكتاس) وكل هذه المصطلحات..»

قال وهو ينظر حوله في حذر:

- «في القرن الماضي كانت أسنان التنين تلاقي رواجًا هائلًا في الصين.. إن العطارين يبيعونها مطحونة لشفاء أكثر الأمراض.. طبعًا كانوا يزعمون أنها أسنان تنين، لكن الحقيقة أنها كانت أجزاء من عظام يجدونها متناثرة هنا وهناك، ولم يحاولوا قط أن يعرفوا مصدرها...

«في العام ١٩٢٠ يجيء الجيولوجي السويدي (أندرسون) إلى الصين.. إلى (بكين) بالذات بحثًا عن ثروات معدنية..

«بدأ العمل في موضع اسمه (تشوكوتيان) قرب (بكين)، وقد وجد كثيرًا من هذه الأسنان التي بدت له مختلفة عن أية أسنان يعرفها.. لكنه لم يكن ممن يفهمون هذه الأمور جيدًا، ولم يعرها كثير اهتمام...

«كان مما لفت نظره كذلك، تلك الكهوف في الحجر الجيري.. كهوف عتيقة من الواضح أنّ هناك بقايا عظام مدفونة فيها..

«كانت الكهوف مريبة بحق.. ثمّة عظام مهشمة بطرق غريبة جدًّا كأن وحشًا عملاقًا هشمها.. ثمّة أدوات من حجر الكوارتز، وهو حجر لايوجد في الكهوف الجيرية ما لم يتم هذا بفعل فاعل..

«النتيجة المنطقية هى أنّ هذه الكهوف كانت تحوي بشرًا.. بشرًا من زمن بعيد سحيق، قبل أن يستقر جدودي في جبال التبت، وقبل أن يعرف الصينيون أنهم صينيون..»

قلت له في استمتاع:

- «لقد صرت بليغًا أيتها الزهرة الزرقاء... أرى أنك اندمجت في عالم اليوم بسهولة بالغة..»

لم يعلق، ولم يفهم إن كان هذا مديحًا أم دعابة، وقال:

- «كتب (أندرسن) خلاصة ما وجده إلى رجل صناعة سويدي ثري يُدعى (إيفار كروجر).. وكان هذا الأخير يملك المال والنفوذ، فأرسل إلى الصين رجلًا يفهم في هذه الأمور هو د. (أوتو زدانسكي)..

«وكان ما وجده (زدانسكي) مثيرًا.. لقد كانت تلك العظام آدمية؛ وكان بينها تلك الأسنان التي كان العطارون يبيعونها على أنها أسنان تنين..»

تقلصت أمعائي وقلت:

- «إذن كان الصينيون يأكلون أسنان الموتى المطحونة طلبًا للعلاج، وهم يحسبونها أسنان تنين؟!»

- «لا فارق هناك يا (ريفات).. إن الكالسيوم هو الكالسيوم..»

- «ما زلت أجد الفكرة مقززة..»

داعب بأنامله بعض الزهور التي لا أعرف اسمها.. إن زهور اليابانيين منمقة مزخرفة ككل ما هو ياباني، وقال:

- «سرعان ما جاء علماء (الأنثروبولوجي) من كل أرجاء الأرض لينقبوا في (بكين).. أعني في (تشوكوتيان) بالذات.. لم يتركوا حجرًا على حجر.. وأطلقوا على هذه العظام التي وجدوها اسم (إنسان بكين)..»

«عام ١٩٢٨ عثر الدكتور (س. باي) على قطع أخرى من فك وجمجمة ذلك الكائن.. واستطاع أن يكوّن خلفيّة لا بأس بها عن حياة ذلك المخلوق العتيق..»

سألت (هن - تشو - كان) وأنا أشعر بالحيرة:

- «قصة لا بأس بها.. لكن ما دخلها بما يحدث لنا؟»

قال وهو يفعم رئتيه بهواء الليل:

- «صبرًا.. إنك عجول كطفل أمام قطعة من اللفت المُسكَّر»

- «لفت مُسكر؟ أنا؟»

- «سأحكى لك كل شيء..»

☆ ☆ ☆

- «في عام ١٩٣٧ كان الصينيون قد تعلموا الكثير عن التنقيب في هذه البقعة من بلادهم، وإن كان معهم خبير أمريكي يُدعى (مارك دونالسون).. يبدو أنه كان الكل في الكل في تلك العمليات..

«هنا غزت اليابان الصين، وبدأ خطر اليابانيين يهدد عمليات التنقيب هذه.. هنا يحدث شيء غريب..

«تصل في الظلام فرقاطة أمريكية اسمها (إيليت)، وفى سرية تامة يتم نقل عدد من الصناديق إليها..

«ماذا كان في تلك الصناديق؟ لا أحد يعرف... الصينيون لم يعرفوا إلا أنها حفريات مهمّة يجب الهروب بها إلى أمريكا، لأنهّا لا يجب أن تقع في يد اليابانيين..

«وبعد خمسة أيام أختفي البروفسور (دونالسون) تمامًا.. الوحيد الذي كان يعرف الحقيقة كلها.. أين ذهب؟ متى ذهب؟ لا أحد يعرف..»

قلت له وقد بدأت أهتم بالأمر:

- «لحظة.. معنى هذا أن تلك الصناديق لدى الولايات المتحدة..؟»

- «لا.. لقد كان حظ الأمريكيين عاثرًا، ونشبت الحرب مع اليابان بعد يومين من وضع الصناديق عليها.. أسرهم اليابانيون في وسط المحيط الهادي واستولوا على الصناديق، ومن يومها لم يرها ولم يسمع بها أحد.. وقد توفي أكثر هؤلاء الأمريكيين بالزحار الأميبي والملاريا في معتقلات اليابانيين بالفلبين.. لكن (ثورنوايلد) قائد الفرقاطة ظل حيًّا، وحكى القصة لبعض الصحفيين منذ عام.. كما ثرثر بها في بدايات الستينات»

- «وصممت الحكومة الصينية على..»

شاعت ابتسامة في تقاطيع وجهه القاسي، وقال:

- «نعم.. إن هذا التراث ملك للشعب الصيني ولابد من استرداده بأي ثمن.. في تقدير خبرائهم الأنثروبولوجيين أنّ هذه البقايا لا يمكن تثمينها.. إنها أثمن مما لو كانت من الذهب والبلاتين بمراحل.. والصين مصرة على استرداد هذا الكنز.. ولسوف تفعل..»

وصلنا لنهاية الممشى، فاستدرنا عائدين وقلت:

- «ماذا عن الدبلوماسية؟»

- «اليابانيون ينكرون أي وجود لتلك الصناديق، ويؤكدون أن الفرقاطة كانت خالية عند أسرها..»

- «ولهذا أرسلك الصينيون إلى هنا؟»

- «بالضبط.. مهمتي كانت هي البحث عن بداية خيط يقودني إلى تلك الصناديق.. ولم أكن وحدي.. كان هناك عميل ياباني هو (تاكيجي - سان) ومعه شبكته التي يمولها الصينيون..»

وبدأ يعد على أنامله:

- «أولًا كانت لدينا معلومات الأمريكي (ثورنوايلد).. ثانيًا كان عندنا القائد الياباني واسمه (ميتسو جوياما).. ثالثًا كان عندنا عالم أمريكي مختف اسمه (دونالسون).. ثلاثة خيوط يمكن البدء بها.. وبالطبع بحث (تاكيجي) ورجاله عن الثاني.. لا أثر له.. والثالث لا أثر له..

«يبدو - وهذا هو الاحتمال الأرجح - أن (ميتسو جوياما) قرر الاحتفاظ بالصناديق لنفسه، ولم يبلغ عنها.. أو أبلغ عن بعضها.. لقد قابل عملاؤنا جنودًا يابانيين قاموا بنقل بعض الصناديق في سيارة مغطاة إلى معبد من معابد (الشنتو) خارج (طوكيو)، لكنهم لا يذكرون شيئًا عن أين أخفوها.. الأمر بعد كل شيء يتحدث عن أمور وقعت منذ ثلاثين سنة..»

- «وهذا هو المعبد الذي ذهبت أنت لزيارته..»

- «نعم.. وتغلبوا عليّ..»

- «تغلبوا عليك أنت؟ كيف؟ هل استعانوا بالجيش؟»

- «لا تكن طفلًا يا (ريفات).. حتى (النافاراي) يمكن التغلب عليهم بسهولة.. خاصة حين تهوي شبكة صيد من السقف فوقك، وحين يغرس أحدهم حقنة منومة في ظهرك وأنت تحاول التملص.. لقد كان هؤلاء القوم ينتظرونني..»

- «لكنك استطعت الهرب.. هذا واضح..»

هزّ رأسه في ثقة وغمغم:

- «إنهم حمقى... حين تتغلب على كاهن (نافاراي) وتقيده، فلا تستعمل الحبال وتترك خمسة رجال فقط لحراسته..»

بدأت خيوط القصة تتضح لي..

ثمة - بالتأكيد - عصابة يابانية ما ترغب في سبق الصينيين إلى تلك البقايا، وهي تعرف كل شيء عن مهمّة (هن - تشو - كان) وعن (تاكيجي).. ثم عرفت كل شيء عني حين زرت (تاكيجي)..

سألته آخر سؤال عندي:

- «وكيف وجدتني لحظة الحصار الذي كاد ينهى أمري؟»

قطب جبينه والتمعت في عينيه تلك النظرة القديمة:

- «كنت متجهًا للفندق حين شعرت بأنك قريب.. عرفت يقينًا أنك قريب.. لقد تقاربت روحانا لفترة لا بأس بها، وما زال بوسعي أن أشم رائحة روحك على بعد أميال..»

- «تعبير شاعري... لكنه أقرب إلى الحديث عن رائحة الجوارب لا الأرواح.. إن الأرواح الارائحة لها يا بني..»

- «إن لها رائحة لكنّها لا تُشمّ بالأنوف، ولكن تشم بأرواح دانية منها.. لقد عرفت أنك قريب، وبحثت كثيرًا حتى وجدتك مع ذلك الياباني تشقان الزحام.. عرفت ماسيحدث.. وعرفت كيف أمنعه..»

كنا قد وصلنا من جديد لنهاية الممشى في الحديقة، وبدا لي أننا سنقضي الليل جيئة وذهابًا هناك، فعرضت على الفتى أن نجلس في أي مقهى... إن هؤلاء المطاردين لن يجدوا وقتًا لزرع أجهزة تنصت في كل مقاهي (طوكيو) على كل حال..

اخترنا مقهى على الجانب الآخر من الشارع، وطلبت بعض الشاي الأخضر المر كالعادة.. وكذا فعل (هن - تشو - كان).. الكل من حولنا يشرب الساكي الساخن، لكني طبعًا لا أقرب الخمور وكذا الفتى...

تذكرت سؤالًا مهمًا آخر، فقلت:

- «ما الذي كان (تاكيجي) سيعطيه لي في موعدنا؟»

- «لا أدري.. إن من قتله أخذ الشيء بالتأكيد..»

- «ولماذا حاولوا قتلي؟ ما داموا يعرفون أنني لم آخذ شيئًا..»

- «ربما هم لا يعرفون مدى ما تعرفه.. ولأسباب كهذه دسوا جهاز تنصت في حجرتك.. لقد حاولوا معرفة حجم معلوماتك، ثم أزمعوا التخلص منك على سبيل الأخذ بالأحوط..»

قضمت بعض البسكويت الجاف.. كانت له نكهة كريهة (سمكية) بشكل ما، وعرفت أنه بالتأكيد بسكويت سمك.. كل شيء في اليابان يدخل فيه السمك ربما حتى العصير نفسه.. وضعت القطعة في طبقها مشمئزًا وسألت:

- «(هن - تشو).. ما زلت لا أفهم القيمة الحقيقية لرجل (بكين) هذا.. إنّه شخص ما عاش في الماضي ومات.. فما أهميته إلى هذا الحد؟»

☆ ☆ ☆

قال الفتى:

- «لست عالمًا أنثروبولوجيًا؛ لكن قيمة (رجل بكين) تأتي أولًا من كون كل بقاياه قد اختفت وسط نيران الحرب الأخيرة.. لقد رسمه كثيرون وصوره كثيرون، لكن البقايا الحقيقية قد تلاشت..

هذا لغز آخر من ألغاز الكون مثل (أطلنطس) و(ليموريا) وشهاب (تونجوسكا)..

«هذه نقطة..

«النقطة الثانية هي أنه الدليل الوحيد على وجود حياة بشريّة قرب (بكين) منذ نصف مليون سنة..

«إن مخلفاته الموجودة، وأدواته، وبقايا الحيوانات التي كان يأكلها؛ كلها أدلة لا تقدر بثمن بالنسبة للعلماء.. العلماء الذين يعتقد عدد منهم أن موضوع (إنسان بكين) مجرد أكذوبة علمية محبوكة..»

وابتلع ريقه وأردف بعد تفكير:

«ثمّة لغز معين يحيط بهذه الصناديق.. لا أدري ما هو.. لكن القائد الأمريكي حكى عن أشياء رهيبة.. أشياء لا أصدق حرفًا منها.. لأني لو صدقت لحزمت حقائبي وعدت إلى (التبت) حالًا!»..

☆ ☆ ☆

٦ - ليلة هادئة جدًّا..

لم يكن له اسم..

إنه يعرف نفسه والآخرون يعرفونه.. إنّه هو فما جدوى الأسماء إذن؟

كان الجو باردًا في تلك الليلة بالذات، والجليد ينهمر بالخارج صانعًا طبقة فوق طبقة من الثلج الأبيض الناعم..

لا عجب.. فنحن في العصر الذي سيطلقون عليه يومًا اسم عصر الجليد.. لكنه ليس عصر الجليد بالضبط.. بل هي إحدى فترات الدفء التي تفصل عصور الجليد عن بعضها.. فترة ذوبان الثلوج، وفيضان الأنهار، واخضرار السهول..

الطقس - برغم هذا - مازال لايطاق بالنسبة للبشر..

دخل الكهف حيث كان الآخرون يتدثرون بالفراء، ويجلسون متلاصقين في ركن المكان.. كانوا يرتجفون، وخاصّة تلك الكائنات الصغيرة العارية التي تشرب ولا تأكل اللحم.. ألقى بالصيد على الأرض ونظر حوله..

يجب إشعال النار..

فقط النار ستزيل هذا الجليد القاتل الذي يجمد أعصابهم..

بحث عن قطعتين من الحجر الأملس الخاص الذي وجده في النهر، وجلب ثلاث قطع من الخشب.. كومها فوق بعضها، ثم راح يضرب الحجرين ببعضهما منتظرًا الشرارة المقدسة التي ستبدأ النار..

وجوههم دانية منه.. ترمقه في توحش وشغف..

بعضهم يصدر من حلقه أصوات الرضا...

أخيرًا توهجت النار، وبدأ الخشب يلتهب.. الدخان يتصاعد.. الدفء يملأ المكان..

ثمة كائن صغير يحاول الإمساك بالزهرة الحمراء، لكنه يضربه بقوّة على وجهه.. هذه الزهرة تقتل.. لقد رآها تفعل ذلك كثيرًا..

ينظر حوله بحثًا عن الذئب الذي قتله اليوم..

إن لحمه ليس شهيًا، لكن الصيد قد صار نادرًا هذه الأيام، وما باليد حيلة.. لو اختار لفضّل أيلًا أو غزالًا..

أعطوه جثة الذئب، فأمسك بقطعة الحجر الصوان الحادة.. كان قد حصل عليها من النهر، فهو تعلّم من زمن طويل أن أحجار هذه الكهوف الجيرية لا تصلح للقتال، ولا تصلح للتمزيق..

لقد راح يشذبها بعناية باستعمال حجر آخر، حتى صارت لها حافة حادة نافعة..

بهذه السكين البدائيّة شقّ أحشاء الذئب وسلخه.. ثم بدأ يمزق أجزاءه بعناية...

حاول أحدهم أن يسرق قطعة، لكنه وجه له ضربة عاتية في بطنه.. وصاح منذرًا.. واستدار ليجد واحدًا آخر قد دفن وجهه في لحم الذئب، وراح يحاول انتزاع قطعة بأسنانه، فهوى فوق رأسه بقبضته..

إنه الأقوى.. إنِّه الأعتى.. وهو من يأكل أولًا..

كان راغبًا في وضع اللحم على النار.. لقد ذاق منذ فترة لحم ذلك الدب الذي ضربته الصاعقة، وكان شهيًا برغم أنه كان خاليًا من الدماء..

كان راغبًا في إعادة الكرّة، لكن الآخرين ما كانوا ليتركوا اللحم على النار حتى ينضج.. لابد من التهام الذئب حالًا..

أمسك بالفراء الدامي وقذفه لواحدة.. إنِّه يصلح كي تلف فيه كائنها الصغير العاري الذي يرتجف..

ثم إنِّه أمسك بكبد الذئب وقضم منه قضمة كبيرة، ليعلن عن شجاعته وقوته للجميع.. ها هو ذا يستمدها من كبد الذئب التي تضم شراسته كلها..

ولنفسه مزّق قطعة كبيرة من اللحم وبدأ ينهش فيها، وترك الباقين يصطرعون على الجثة.. يضربون بعضهم ويخمشون الوجوه..

وبعد ثوان كان كل واحد قد حمل غنيمته إلى موضع في الكهف، وراح يلتهمها بسرعة، وعيناه تدوران حوله كالمجنون كي لا يباغته أحد من الخلف ويفوز بها..

كان الجليد ينهمر بغزارة في الخارج، وقد صار مدخل الكهف مغلقًا إلى منتصفه.. هذا خطر.. صحيح أن الدببة لن تجيء هذه الليلة - وزيارة الدببة ليست بالتأكيد تجربة محببة - لكنهم يغامرون بأن يصحوا ليجدوا أنهم مسجونون تمامًا.. هذا خطر كالدببة تمامًا أو أسوأ..

حمل قطعة كبيرة من الصوان، وراح - ومعه آخرون - يحاولون أن يوسعوا الفتحة قليلًا، وأن يصنعوا مدخلًا للباب..

سيكون عليهم أن يكرروا هذا طيلة العاصفة، وحتّى تنتهي.. عندها يمكنهم فتح مدخل الكهف بالكامل..

جلس وجلسوا حول النار يرتجفون..

إن فراء الدببة لم يعد كافيًا ليجلب الدفء إلى أوصالهم...

وبعد قليل لعب الدفء القليل وامتلاء المعدة دورًا لا بأس به، وبدأت العضلات تسترخي، والجفون تثقل.. وبدأ عدد منهم يفقد قدرته على البقاء جالسًا..

☆ ☆ ☆

بعد ساعة - في عرفنا - صحا على الهول ذاته..

صحا على صوت التمزيق والطحن، وسمع صراخهن، وسمع عويل الكائنات الصغيرة وهي تموت..

في البدء حسبه دبًّا.. فقط الدببة تقدر على هذا..

لكن لا.. لم يكن هذا دبًّا..

ليته كان..

وهبَّ الجميع يلوحون بأسلحتهم المصنوعة من حجر الصوان.. بعضها أقرب إلى الخناجر، وبعضها ربطت بالقش المجدول إلى غصون الأشجار على شكل رماح.. وصوبوها نحو الهول القادم..

لم يتساءل أحدهم من أين وكيف دخل؟ إن شيئًا كهذا لقادر بالتأكيد على الدخول حينما يريد أينما يريد..

صاح من الخطر، ومن الرعب، ومن التوحش الذي ثار في دمه.. لا شيء يمنع الذئب من الوثب على الدب مهما كان فارق القوة.. إن للغريزة أحكامها ودوافعها.. إنّه نداء الدماء الذي لا يُرد ولا يُرفض..

كشر عن أسنانه الغليظة التي سيجدها (أوتو زدانسكي) يومًا بعد نصف مليون سنة؛ وأصدر صيحة وحشية، وانقض على الخطر..

طبعًا كان هذا آخر شيء فعله في حياته..

وواصل الرجال الهجوم وهم يعوون كالذئاب..

تطايرت بعض الرقاب والأذرع.. وانشطر أحدهم إلى نصفين، لكنهم واصلوا الهجوم.. وثمّة فك سيجده (دافيدسن بلاك) عام ١٩٢٧...

هنا بدأت الطبيعة تلعب لعبتها، وبدورها شاركت في المعركة..

☆ ☆ ☆

إن الكهف لم يخلق لتحمل كل هذا الارتطام والصراخ والكرّ والفرّ..

وكانوا يعرفون أن صرخة عالية قليلًا قمينة بأن تسقط قطعة حجر من السقف.. لهذا كانوا يتجنبون الصراخ غالبًا..

لكن الأمر قد اختلف الآن، وبدأ الكهف العجوز يعلن عن سخطه، وراحت الجدران ترتج..

الجدران التي أنهكتها أطنان الجليد التي تراكمت فوقها..

وبدأت الأحجار تتهاوى.. تتهاوى ببطء في البداية.. ثم بجموح.. بجرأة.. وصرخ الأحياء وهم يتلقون الجلاميد فوق رءوسهم...

والهول ذاته اختفى وسط سحابة من الانهيارات، واختلط الغبار الجيري بالثلج الدقيق بدخان النار الهامدة.. واختلط صوت الانهيار بالصراخ بتهشيم العظام.. واختلطت رائحة الدماء برائحة الرماد برائحة الغبار..

ملحمة من الأصوات والروائح والفظائع...

وفي النهاية هدأ كل شيء..

ساد صمت ثقيل بليغ..

☆ ☆ ☆

بعد أعوام سيذوب الجليد تمامًا، وتفيض الأنهار لتملأ الكهف بطبقات (الغرين).. طبقة بعد طبقة تملأ كل ما بقي فيه من تجاويف..

ستجد الأنهار طرقًا أخرى، وتخضرّ الصحاري، وتتصحر الغابات..

ولسوف يختلف هذا الموضع كثيرًا جدًا.. جدًا..

لكن رجلًا واحدًا سيجده..

وهذا الرجل أمريكي يُدعى (دونالسون)..

☆ ☆ ☆

٧ - لم أعد معهم..

نصحني (هن - تشو ـ كان) وهو يفتح باب سيارة الأجرة:
- «لا أرى من الحكمة أن تعود إلى الفندق.. سيعرفون كيف يظفرون بك..»
قلت وأنا أركب بجواره:
- «إن هناك تذكرة طائرة محجوزة لي ظهر غد.. سأبحث عن فندق آخر أقضي فيه هذه الساعات، ولكن حقائبي..»
- «لهذا سآتي معك إلى الفندق، ولسوف ننقلها معًا..»
شعرت بامتنان لهذا.. هذه هي فائدة (النافاراي) حقًّا: بوسعك في أية لحظة أن تسترد حقائبك من فندق يراقبه القتلة..
وفي الطريق بينما أضواء (طوكيو) الخلابة تعميني كعادتها؛ سألته:
ـ «قلت إن هناك شيئًا مخيفًا يتعلق بالصناديق.. ولم تفصح.. ما نوع هذا الشيء؟»
كانت أضواء الطريق تنعكس على وجهه الصلب الحازم.. ظل صامتًا برهة ثم قال في حذر:
- «لا شيء خارقًا للعادة.. أصوات.. قطرات من سائل.. إلخ.. الهراء المعتاد في هذه الأمور.. لكن ما يثير قلقي بحق هو نداء أجدادي..»
ـ «أجدادك ينادون؟»
- «نعم.. الكاهن الأكبر. الـ (ساكا - سورانا) يزورني بكثرة هذه الأيام في منامي.. وهو يكرر بلا توقف: ابتعد أيها (الزهرة الزرقاء).. ابتعد.. إن الخطر داهم نراه جليًا، كما نرى القط يتربص بين الأعشاب للسنونو.. ابتعد.. أو خذ الحذر وقاوم.. فإن الخطر إن لم يقتلك يجعلك مقدسًا.. وعندها تكون (نافاراي) كما ينبغي أن يكون..»
ـ «هكذا فقط؟ بلا تفاصيل؟»
عض شفته السفلى وقال:
- «هذه هي التفاصيل ذاتها وما بقي هو هباء كقشور الأرز.. إن الكاهن الأعظم قلَّما يتصل بي.. ومعنى هذا أن الخطر من طراز جديد لم أعهده من قبل..»
- «وما هي خطتك؟»
- «سأعود إلى المعبد، وأجد من يتكلم... فهؤلاء القوم يعرفون خيرًا مني، ويسبقونني ببضع خطوات..»
ووصلنا إلى الفندق، فصعدت إلى حجرتي معه، وبدأت أجمع حقائبي التي كنت قد حزمتها في وقت مبكر من هذه الليلة، وحرصنا طبعًا على ألا نتبادل كلمة واحدة طيلة الوقت..
لا أحد يزرع جهاز تنصت واحدًا أبدًا.. ولربما وضعوا الجهاز الذي وجدته في موضع سهل عمدًا.. من يدري؟

☆ ☆ ☆

قرع (هن - تشو - كان) الباب ثلاثًا، فسمعنا من يقول شيئًا باليابانية..
انفتح الباب فرأيت فتاة يابانية، لكنّها من الجيل الجديد المتأمرك إياه..
بشرة بيضاء.. عينان غير ضيقتين.. شعر أشقر (أم هو مصبوغ؟)..
وبدا الذهول عليها حين رأتنا، وتبادلت كلمات صينية مهمّة مع الفتى، ثم دعتنا إلى الدخول..
كانت شقّة غربية الطابع مُضاءة جيدًا، وكان ضوء النهار قد بدأ يغمر المكان لأن أحداث الليل استغرقت الليل كله..
وفي ركن المكان كانت هناك غرفة يابانية الطابع تركتها الفتاة هنا على سبيل الرمز.. جدران من الورق المقوى.. حصيرة على الأرض من التي يسمونها (تاتامي)... لحاف مطوي واضح أنها كانت نائمة عليه منذ ساعة..
قدَّم (هن - تشو ـ كان) أحدنا للآخر:
- «د. (إسماعيل).. (أوشيمو ناجوزي).. يمكن لكليكما الكلام بحرية لأن ثلاثتنا نعرف كل شيء..»
ثم أضاف موجهًا الكلام لي (بالعربية):
- «إنها قلقة طبعًا من مجيئنا لدارها في هذا الوقت.. تقول إننا سنجلب عليها الوبال.. لكني متأكد من أن أحدًا لا يتبعنا..»
- «لا ألومها كثيرًا.. إننا نشبه مصيبتين..»
- «ستكون هنا في أمان حتى يجيء موعد طائرتك...»
- «وأنت؟»
- «سأبقى هنا طبعًا.. إن مهمتي لم تنته.. وعلى كل حال من مصلحة (أوشيمو) ألا تبقى أكثر.. نحن لا نعرف ما قاله (تاكيجي) قبل موته.. ولربما كان بعض الأوغاد يستقلون سيارتهم إلى هنا في هذه اللحظة بالذات!»
وعادت الفتاة حاملة صحفة عليها بعض الشاي والبسكويت والبيض الفاسد، فوضعت كل شيء على المنضدة الصغيرة، وقالت ما معناه (كلوا لقمة سريعة)، فافترشت الأرض مع الفتى، وبدأنا نأكل.. لم يكن في ضميري شيء من التأنيب لأني سأرحل.. بل بالأحرى كنت مسرورًا.. إن (هن - تشو ـ كان) يعرف كيف يعني بنفسه، وأنا لن أزيد على كوني مصدرًا للمتاعب له.. لن أفعل شيئًا ولا أصلح لشيءٍ إلا لأن أكون رهينة يضغطون بها عليه عند اللزوم.. أضف لهذا أن الصراعات الصينية - اليابانية على الحفريات هي من آخر الموضوعات التي تهمني في هذا العالم...
يبدو أن الفتاة تعيش وحدها، ويبدو أنها كانت ستخرج لعملها حين وجدتنا أمامها.. لهذا بدت عليها الحيرة.. ماذا تعمل بنا؟
قال لها (هن - تشو ـ كان) شيئًا فابتسمت.. نهضت إلى ركن الغرفة وتناولت اللحاف المطوي ففردته على الأرض، وأشارت إليه.. فقال الفتى:
- «يُمكنك أن تنام لو أردت.. سوف نوقظك قبل الموعد بساعة..»
كان هذا أجمل مما كنت أحلم به.. حقًّا كنت في غاية الإرهاق وقد تفسخت أوصالي كلها، وكان رأسي خفيفًا يحلق وحده كالبالون.. لهذا لم أسأل أسئلة كثيرة.. أفرغت سلطانية الشاي في جوفي، ثم دسست عويناتي في جيب البذلة الداخلي، وعلقتها على مسمار ما هناك، وأعطيت للوجود ظهري..

عمليون جدًا هؤلاء اليابانيون.. جدران الغرف من الورق بحيث يمكن تحريكها بسهولة.. وبلمح البصر تكون عندك غرفتان أو ثلاث غرف.. الأسرة مراتب على الأرض تطوى بمجرد الاستيقاظ حتى لا تحتل مكانًا، والوسائد محشوة بالأرز كي لا تكلف مالًا.. و..

و.. و..

☆ ☆ ☆

وحين صحوت من النوم، بدت لي الأمور مختلفة نوعًا..

لم تكن هناك جدران ورقية..

لم يكن هناك كاهن آخر، ولا فتاة يابانية..

لم يكن هناك شيء..

وأدركت - بذكائي المعتاد - أنّ هذا المكان يختلف..

نهضت مذعورًا لأدرك أنني جالس على مقعد وثير.. جواري نافذة تركض الأشجار في هلع - واحدة تلو الأخرى - من خلالها..

تلك الاهتزازات المستمرة توحي لي أنني لست في مكان ثابت على الأرض... إن هذا قطار... قطار نظيف مؤثث كأنه استراحة خاصة..

(بربشت) بعيني أكثر، فشعرت بالعوينات توضع على أنفي.. الآن أتبين كل شيء بوضوح تام..

أنا في عربة قطار.. بالفعل.. وحولي نحو خمسة من اليابانيين تتباين وجوههم وأحجامهم، لكن ملامحهم لا توحي بالطيبة المطلقة..

كان منهم الواقف والجالس، ومن يداعب أظافره بخنجر صغير.. وكان منهم من يدخن ومن يشرب شيئًا من (ترموس) صغير..

ونظرت أمامي مباشرة، فوجدت ذلك الأمريكي.. مستحيل ألا يكون أمريكيًا.. كان شيخًا في الستين أو السبعين من عمره لكنه بحال معقولة.. بدين يمتلئ وجهة بالتجاعيد... يرمقني بعينين رماديتين من فوق إطار عوينات متدلية على قصبة أنفه..

قال بلهجة جعلتني أتأكد من أنّه أمريكي (في الغالب من الجنوب أيضًا بسبب مقاطعه الممطوطة)..

- «نأسف على هذه الطريقة يا بروفسور..»

نأسف؟ هذا ما كان ينقصني لأفهم أنهم اختطفوني من دار تلك الفتاة.. ماذا كان اسمها؟ كيف فعلوا هذا ومتى؟ أين ذهب (هن - تشو - كان)؟ لماذا لم يحمني؟ هل كان نومي ثقيلًا إلى هذا الحد الذي..

رباه! الطائرة!

وبحثت في جيوبي.. كنت أرتدي سترتي ويبدو أنهم اضطروا لهذا كي يأخذوني دون إثارة الريبة.. أين التذكرة؟ هل فات الوقت؟

قال الأمريكي ملوحًا بقصاصة ملونة في يده:

- «هل تبحث عن هذه؟»

وأشعل طرفها بقداحته في هدوء، وانتظر هنيهة حتى كادت النيران تحرق أنامله، ثم ألقى بالشعلة في مطفأة تبغ على المنضدة أمامه..

اتسعت عيناي، ويبدو أنه سمع أفكاري فقال:
- «لقد أقلعت الطائرة منذ ثلاث ساعات يا بروفسور.. لم تعد لهذه الورقة قيمة إذن..»
وأشعل لنفسه لفافة تبغ أنيقة، وسعل قليلًا، ثم قال:
- «نسيت أن أقدم لك نفسي.. (مارك دونالسون).. أمريكي»
كدت أقول له - في سذاجة - إنني توقعت هذا، ثم عدلت.. أنا لا أعرف مقدار ما يعرفه على كل حال.. ربما كان من الحكمة أن أبيع ولا أشترى..
قلت له في وهن:
- «لماذا لم تقتلوني؟»
ابتسم وغمز بعينه اليسرى.. كانت هذه عادة عصبية عنده - كما تبينت بعد قليل - وقال:
- «يخيّل إلى أنك لا تفهم الموضوع جيدًا.. لسنا قتلة.. أنت هنا ضيفنا المكرم حتى يتعاون معنا صديقك الصيني..»
- «صديقي الصيني؟ وأين هو؟»
- «كنا نحسبك الأقدر على الإجابة.. لم نجده، لذا اضطررنا إلى اصطحابك معنا.. ولهذا اخترع (الكلورفورم) كما تعلم..»
آه! فهمت.. المشهد الخالد في السينما.. رجلان يجراني جرًا، وأنا غائب عن الوعي.. وكلما قابلهما رجل مرتاب أو شرطي قالا شيئًا عن إفراطي في الشراب أو غيبوبة السكر أو.... أو...
- «وإلى أين تأخذونني؟»
- «هذا القطار متجه إلى (ناجويا).. إن خط (توكايدو) هو أهم خطوط السكك الحديدية في اليابان، ويربط (طوكيو) بـ (اوزاكا) و(ناجويا)..»
كان مخي مبلبلًا بفعل المخدر.. ضباب كثيف يغمر أفكاري، لكني كنت أعرف أن (ناجويا) هي أهم موانئ اليابان.. إن (طوكيو) لاتصلح إلا للسفن الصغيرة.. لكن (ناجويا).... آه لو يصفو عقلي قليلًا! (ناجويا) على بعد نحو أربعمائة كيلومتر من (طوكيو).. أي أنّ هذا القطار يقطعها في.... يا للضباب!

☆ ☆ ☆

جاء أحد الرجال بالطعام، ووضعه على المنضدة.. صحفة لكل منا..
وضع (دونالسون) المنشفة حول عنقه - كما يفعل الأطفال - وانكب يفتك بالطعام فتكًا، وكان يستعمل العصوين ببراعة كأنه ياباني إبن ياباني..
- «هل تحب (السوشي)؟ إن من يأكله إنما يبرهن على شجاعة حقيقيّة.. إن التوابل لا تناسب قرحتي، لكني كففت عن تصديق الأطباء منذ بلغت الستين ولم أمت!»
كان ثرثارًا بحق، وأدركت أنّ هذا سيساعدني على أن ألتزم الصمت...
سأظل صامتًا أصغي حتى يقرروا أن ينزعوا أول ظفر من أظفاري.. عندها سأتكلم عن كل شيء.. سأحكي عن مرطبان المربى الذي أكلته كله في بيت خالي، وعن آلام البواسير، وعن فشل قصص حبي كلها.. سيحتاجون إلى تخديري من جديد كي يسكتوني قليلًا..

أما الآن.. فلأخرس...

قال (دونالسون) بفم مليء بالضفادع وصراصير البحر:

- «منذ أيام لا أكثر كنت في (فيرجينيا) أمارس حياتي الجديرة بشيخ أمريكي متقاعد.. ثم حدثت تلك الضجة.. لقد عثر الصحفيون على قائد الفرقاطة الأمريكية التي أسرها اليابانيون في أثناء الحرب.. تكلّم الرجل كثيرًا.. وعرفت ما كنت أتمنى لو سمعته: إن الصناديق التي قمت بتعبئتها منذ ثلاثين عامًا مازالت سليمة.. لم تغرق.. إنها في مكان ما في اليابان.. وهكذا حزمت حقائبي وجئت إلى هنا.. كان لا بد من استردادها.. إنها ذات أهميّة لا يعرفها أحد سواي.. وهأنذا قد نلت ما أردت..»

نظرت له في فهم، وأفلت منى السؤال:

- «هل.. هل وجدت الصناديق؟»

- «إنها معنا في هذا القطار، ولسوف نشحنها من (ناجويا) إلى الولايات بعد ساعات.. ماذا كنت تظن؟!»

☆ ☆ ☆

٨ - البحث عن العجوز..

(رفعت) قد اختفى!

حقًّا لا توجد آثار مقاومة، ولا يوجد عنف، لكن الكهل فريسة سهلة على كل حال، وما كان ليبدي مقاومة أكثر مما تبديها أفراخ قطاة يختطفها ثعبان في غياب أمها..

حقًّا قد أخطأت حين تركته نائمًا وحده تحرسه الفتاة، وغادرت المكان.. كان نائمًا في سلام كطفل، وقد انفتح فمه وراح يغط دون انقطاع.. لذا تبادلت الكلام مع الفتاة همسًا..

اسمها (أوشيمو).. يابانية.. تتكلم بعض الصينية، وأنت صيني تتكلم بعض اليابانية، لكن التفاهم بينكما كان كاملًا.. إنها تعمل مع (تاكيجي) وقد قابلتها مرة أو مرّتين، وزرتها مرة من قبل.. إنها جذابة رقيقة، وتجذب أي رجل عادي، لكنك لست رجلًا عاديًا...

☆ ☆ ☆

- «لا تروهن يا (أناندا).. لا تحدثوهن يا (أناندا).. وإذا تحدّثت إليكم واحدة منهن فلا تكترثوا لما تقول يا (أناندا)!»..

☆ ☆ ☆

حقًّا كان (جوتاما) يبالغ قليلًا، وكأن النسوة أفاع رقطاء.. لكنك تمسكت بلب النصيحة وعرفت كيف تحتفظ ببكارة القلب والجسد، وهما مقدسان لكاهن (النافاراي).. وبعد لم يكن هذا أول ولا آخر إغراء في الحياة.. إن في روحك شيئًا يجذب النساء كما تجذب الزهور النحل في الأرومة.. وهن يقرأن في عينيك التحدي الذي يقول إنك لا تلين بسهولة.. لهذا يصممن.. لهذا يحُمن.. لهذا يضعنك في كفة الميزان ويختبرنك طيلة الوقت..

وكالعادة تجتاز الاختبار في كلّ مرّة..

تقول لك (أوشيمو) همسًا:

- «هل تثق به؟ أعني صاحبك الأصلع هذا؟»

فتومئ إلى (رفعت) النائم، وتهز رأسك:

- «كنفسي.. إنّه يملك جسدًا ذابلًا، لكن قلبه زهرة..»

تقول لك في قلق:

- «لقد هاتفني أحدهم ليلة أمس.. ثمّة عملية نقل مريبة تمت من معبد (ميكادو) إلى المحطة.. هل تعرف ما تمَّ نقله؟»

تتسع عيناك اهتمامًا، وتقول ضاغطًا على حروف كلماتك:

- «صناديق.. صناديق مغلقة بشرائط من الألومنيوم ومختومة بالشمع الأحمر.. صناديق يبدو عليها القدم..»

- «أصبت..»

وتنظر إلى ساعتها الأنيقة وتقول:
- «كل الدلائل تشير إلى أنها ستشحن في قطار الواحدة بعد الظهر إلى (ناجويا).. هناك من حجز ديوانًا كاملًا وعربة بضائع في هذا القطار.. هل تعرف ما (ناجويا)؟»
- «أحسبه ميناء؟»
تقول وهي تجوب الغرفة الضيقة كأنها نمر حبيس:
- «بل أكبر موانينا.. إن في (طوكيو) ميناءين هما (شيبورا) و(يوكوهوما)، لكنهما لا يصلحان للسفن الكبيرة.. الأمر يتعلق إذن بعابرة محيطات..»
الآن تنفك جدائل اللغز، ويستطيل الحبل في يدك شيئًا فشيئًا..
لقد حانت اللحظة المناسبة لكي ينقل هؤلاء الصناديق من معبد (الشنتو) إلى القطار.. والقطار سينقلها إلى الميناء.. بعدها لن يسمع أحد عن الصناديق مرّة أخرى، ولأعوام طويلة..
تنهض، وتتأكد من أن معك كل شيء.. ثم تنظر إلى الكهل الراقد الذي لا يعي حرفًا مما يحدث..
تقول في ضيق:
- «سأذهب إلى هناك.. ولكن ماذا عن طائرة هذا؟»
تهز (أوشيمو) شعرها، وتقول:
- «أنت تذهب.. أنا أبقى.. لادور لي هناك، لكنني سأقدم لصديقك تفسيرًا مُرضيًا حين يصحو..»
تهز رأسك، وتشعر بشيء من الاطمئنان..
لا بأس.. من الخير أن يعود (رفعت) إلى وطنه الآن، ومن الخير أن تبقى الفتاة هنا.. أنت لا ترغب في أن يتدلى ثوبك الطويل على الأرض من خلفك، فيمسك به أعداؤك.. من الخير ألا تكون لك ذيول فتعضها الذئاب..
ودون كلمة أخري غادرت المكان، عازمًا على الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية..

☆ ☆ ☆

كان كل شيء على ما يُرام..
لقد وضعت المنظار الأسود على أنفك، وارتديت السترة الأنيقة التي أعطتك إياها الفتاة.. ألصقت الشارب الأسود مغولي الطابع على شفتك السفلى، وهكذا صار لك وجه آخر.. لم تعد زهرة زرقاء لمن يدقق بعناية...
ودنوت من المخازن..
رائحة المازوت تفعم الجو، وهدير القطارات الغضبى المشتاقة إلى الرحيل.. تدنو من الباب الرئيسي وترمق الحمالين يروحون ويجيئون، وأكثر من (لودر) صغير يحمل صناديق متباينة الحجم والمظهر..
يدنو منك أحد العاملين هنا، وهو يحمل لوح كتابة، ويبدو كمن وقع على كنز... يسألك عن شيء ما.. بالتأكيد يسألك عما تريد هنا..
تنظر حولك فتتبين ألا أحد يرى ما سيحدث..

وما سيحدث هو ضغطة سريعة على صدغ الرجل.. بالذات على مركز (الكارفا) الثري الذي يشع إلى الجسد كله..

النتيجة هي أن الرجل يتهاوى كالبالون الذي انتزع الخيط من عنقه، وتظفر أنت بثيابه المبللة بالعرق.. تستبدلها خلف صندوق عملاق، ثم تخرج في ثوب جديد ولوح الكتابة بين يديك.

والآن تفهم ببطء - لكن بثقة - ما يحدث هنا..

الحق أن عدد الرجال شريري المظهر أكثر من اللازم هنا، ويمكنك بعين الخيال أن ترى السلاح الذي يدسه كل منهم جوار خصره..

إنهم يراقبون كل شيء.. يراقبون الصناديق يراقبون الحمالين.. يراقبون المدخل.. يراقبون من يراقبهم..

لقد كانت الإخبارية محقة بالتأكيد..

هذا المناخ المتوتر يقول إنها محقة.. ومن المؤكد أنهم ينقلون الصناديق إلى القطار الآن أو سيفعلون ذلك حالًا..

ديوان كامل في القطار، وعربة بضائع محجوزة لهم بالكامل، وكل هؤلاء العمال الذين يبدون كأنما هم ملكية خاصة لمدبر هذه العملية..

إنهم أقوياء حقًّا.. واسعوا النفوذ والثراء..

وحتى أنت أيها (الزهرة الزرقاء) لك حدودك، ولك الجبال التي لن تبلغ أعلاها، والأنهار التي لن تسبر غورها..

إن إيقاف القطار، ومنع شحن الصناديق، الأمران يحتاجان إلى فريق من الرجال.. إلى جيش.. إلى اتصالات..

سيكون عليك أن تبلغ من تبقى من رجال (تاكيجي).. عليهم أن ينتظروا في (ناجويا) ويحاولوا إجهاض نقل الصناديق إلى عابرة المحيطات بأي ثمن..

وبعدها؟ عليك أن تخبر الصينيين.. هم وحدهم يعرفون الخطوة التالية.. فقد كانت على عاتقك مهمّة معينة، وقد عجزت عن تحقيقها.. لقد كانوا هم الأقوى والأسرع والأكثر علمًا..

لكن لم يضع كل شيء بعد..

☆ ☆ ☆

وملهوفًا تعود إلى دار (أوشيمو) كي تخبرها بالتفاصيل..

لكن (أوشيمو) لم تكن هناك.. ولم يكن (رفعت)..

فقط وجدت الورقة الموضوعة حيث كان صديقك يغفو، ورائحة المخدر التي لا يمكن أن تخطئها.. إن أنف (النافاراي) الحساس لا يفوت شيئًا..

الورقة تقول بالإنجليزية:

- «إن سلامة صاحبك مسئوليتنا.. لو كنت مهتمًا به يُمكنك الاتصال برقم الهاتف (....)، ولسوف يتم ترتيب لقاء..»

هكذا إذن.. هذا نوع من المساومة.. حياة (رفعت) أو أذناه مقابل... مقابل ماذا؟ في الغالب هم يعرفونك جيدًا، ويعرفون علاقتك بالحفريات في (تشوكوتيان).. إذن هم يريدون رجلًا لهم هناك..

يريدون رجلًا يعرف كيف يُهرّب المزيد من العظام الثمينة..
وأين (رفعت) الآن؟ وأين (أوشيمو)؟!
إن ذلك الإحساس في مؤخرة رأسك؛ الإحساس الذي تشعر به الصخرة نحو الغدير، والذي تشعر به السحابة نحو الأيكة.. هذا الإحساس الغريزي المبهم؛ الذي علمك المعلم الأعظم أن تحترمه وأن تعترف به.. الإحساس الذي قد يدعونه الحاسة السادسة أو السابعة.. لا يهم...
هذا الإحساس يقول لك ببساطة إن (رفعت) في القطار..
القطار المتجه إلى (ناجويا) الآن..
هذا يبدو منطقيًا.. إنهم يفرون بالصناديق وبرهائنهم في الآن ذاته..
كم الساعة الآن؟ الواحدة والربع..
لقد فات الأوان.. تحرك القطار نحو الغرب منذ ربع ساعة.. هذه هي اليابان حيث لا تقع معجزات مثل أن يتأخر القطار نصف ساعة..
ماذا تفعل؟ كيف ستفعله؟

☆ ☆ ☆

ويقول الأخ (ميانج):
- «هل تعلّمت من البرق سرعته، ومن النمر شراسته، ومن الشهب تصميمها أيها (الزهرة الزرقاء)؟»
- «تعلّمت هذا وأكثر أيها الأخ (ميانج)..»
- «وهل تعلّمت من أحقر الحشرات صبرها ومثابرتها أيها (الزهرة الزرقاء)؟»
- «تعلّمت هذا وأكثر أيها الأخ (ميانج)..»

☆ ☆ ☆

وقال سائق السيارة الياباني الذي هو من رجال (تاكيجي)..
- «نحن نسير بسرعة مائة وستين كيلومترًا يا (هن - تشو).. هل أنت واثق من أنك قادر على هذا؟»
- «أحب أن أعتقد هذا...»
كان السائق بارعًا، وقد استطاع بالضبط تحديد النقطة التي يبطئ فيها القطار عند (أوكايو).. ها هو ذا القطار يلوح من بعيد كخط أحمر براق.. وها هو ذا السائق يحاذيه بالسيارة قدر الإمكان..
سرعة القطار تبطئ تدريجيًا، والسيارة محتفظة بسرعتها.. الآن تبدو عربات القطار شبه ثابتة بالنسبة للسيارة.. وهو وضع جيد لكنه لن يدوم طويلًا..
إنه الجحيم! كل هذه الاهتزازات والهواء الذي تحول إلى جيش من الأكف الباردة تصفعك بلا انقطاع..
تفتح باب السيارة وتخرج جذعك.. تتشبث... الباب يتأرجح بلا انقطاع، وها هو ذا باب عربة القطار على بعد ثلاثة أمتار.. وإلى جواره ذلك القضيب الرأسي الذي سيسمح لك بالتشبث..
- «الآن!»

وفي اللحظة ذاتها وثبت في الهواء، وكنت تعرف أنك ستفعلها.. إن في أعماقك قطًا بريًا يقظًا، لكنه بحاجة إلى من يخرجه إلى السطح من آن لآخر..

تعلقت كفك بالقضيب، واستطعت أن تتمسك جيدًا.. ثم تلقي نظرة على السيارة، فتجدها تتقهقر بعدما عجزت عن مواصلة المسيرة..

الآن لم يعد الأمر بالصعوبة السابقة..

أنت في القطار فعلًا.. سرعة جسدك هي سرعته.. بقي أن تتشبث جيدًا.. لا تسقط الآن وتمت.. حاول أن تجد إفريزا تضع عليه قدميك.. حاول أن تقاوم تلكم الرجفة الأرضية في ساقيك، فهي لا تنتمي إلى عالم (الكارما)، وبالتأكيد هي لا تليق بك...

أنت هنا..

فكر في هذا..

تأمله..

عليك أن تجد ثغرة واحدة تنفذ منها إلى الداخل..

وبعدها ستكون المواجهة..

☆ ☆ ☆

٩ - الحقيقة.. كل الحقيقة..

وكان (دونالسون) مازال يثرثر..

كان قد شرب جرعات عديدة من (الساكي) الساخن، ولو كانت هناك عقدة ما في لسانه فقد انتهى أمرها منذ دهر... الآن قد احتقن وجهه وأرنبة أنفه، وراح يلهث بلا انقطاع، واحتشدت حبيبات العرق على جبينه..

إن بقاء هذا الرجل حيًا ساعة أخرى لمعجزة حقيقيّة..

قال في غل:

- «حقوق للصينيين؟ هراء! أنا كنت معهم عام ١٩٣٧ وعلمت هؤلاء القرود الصفر كل شيء.. علمتهم كيف ينخلون التربة، وكيف يصنعون قوالب من جص للحفريات، وكيف يزيلون الشوائب.. كل ما يعرفونه هو بفضلي أنا، وبعد هذا يتحدثون عن حقوق؟»

كان قد دخل في الطور المعتاد للسكارى؛ فهم يخوضون معارك وهمية بلا مبرر، ويتشاجرون ويصرخون ويلوحون بقبضاتهم، ثم ينهارون ويبكون بلا داع أيضًا..

- «إن رجل (بكين) ملكي وحدي.. لقد وجد سواي بعض الأسنان أو الفكوك.. لكني وجدت هياكل كاملة.. هل تسمعني؟ هياكل كاملة.. كم تساوي هذه الهياكل الآن؟ وكم يدفع لها أي متحف تاريخ طبيعي في الولايات أو بريطانيا العظمى؟ إن للثروة صورًا عديدة، لكنّها قلّما تتخذ شكل بقايا عظمية وصخور..»

وراحت يده ترتجف...

نظرت لليابانيين الواقفين حولي، فأدركت أنهم يهابون الرجل حقًّا، ولو لم يكن الأمر كذلك لطلبوا منه الكف عن الشراب والثرثرة..

- «خذ عندك ذلك الأحمق (ميتسو جوياما)»

ونظر من نافذة القطار يرمق الأشجار الراكضة:

- «لقد حسب أنه ظفر بكنز.. وها هو ذا ينقل محتويات سفينته في الظلام إلى (طوكيو)... لقد استعمل مضيق.. هك! مضيق (أولاجا) ليدخل سفنه منه، وفي سرية تامة حمل رجاله الصناديق الثقيلة إلى أحد معابد (الشنتو) المهجورة خارج المدينة.. كل هذه المعابد لها عالم تحت الأرض شديد الاتساع، ويسمح بإخفاء مدينة كاملة.. لابد أن الرجل كان يعرف هذا المعبد جيدًا..

«ويبلغ الرجل تقريره إلى رؤسائه.. كانت الفرقاطة الأمريكية تحمل بعض المؤن والذخائر لكن.. هك! لا شيء آخر..»

ومسح فمه، وضحك لخاطر عن له ثم قال:

- «وتمرّ سنو الحرب... لقد عاش (جوياما) واستطاع أن يرى اندحار بلاده في المحيط الهادي، وحضر معركة (ميداوي)، بل وعاش ليرى أول قنبلة ذرية في التاريخ تهوي على (هيروشيما).. ودعني أقل لك إن هذا شعب صلب.. شعب عنيد.. لو سألوني لنصحتهم بإلقاء القنبلة.. لاشيء سوى (اليورانيوم) المنشطر يقدر على تحطيم إرادة هؤلاء القوم..»

كدت أعترض ثم وجدت أن آرائي في الأسلحة غير التقليدية لن تروق للرجل.. بل ستفسد عليه كل هذا (التجلي) الثرثار، ويوقف وابل المعلومات المنهال على راسي.. ترى هل سأستفيد بها يومًا ما؟

أردف (دونالسون) وهو يصب لنفسه المزيد:

- «ظل (جوياما) صامتًا طيلة الحرب وبعدها.. لم يتذكر - أو يظهر أنه تذكر - الصناديق إلا عام ١٩٦٣...

«يبدو أنه عاد لمعبد (الشنتو) وحده، ويبدو أنه قرر أن ينزل وحده ليرى ما بالصناديق..

«حسن.. هك! لا أحد يعرف بالضبط ما حدث بعدها.. يُقال إنّه شُوهد يمشي نحو الأشجار شبه مُلتاث وانتحر.. أعني أنهم وجدوا جثته التي انغرس فيها السيف على طريقة (الهاراكيري) الشهيرة.. لاتنس أنه رجل عسكري، وهؤلاء لا ينتحرون بالسم أبدًا.. فقط الغربيون يفجرون رءوسهم بالرصاص أو يبتلعون علبة كاملة من أقراص المنوم..

«هنا لابد من سؤال واحد جيد... لماذا انتحر؟ لا أحد يعرف.. لكن انتحاره كان مفيدًا لأنّه ساعد على تحديد دائرة اهتمامه، وكان معبد (الشنتو) الذي مات بقربه، مع شهادة بعض الجنود هي الخيط الذي بدأنا منه في بحثنا..

«جئت أنا واتصلت بمن يهمهم الأمر.. أناس لا يتكلمون كثيرًا ويعملون أي شيء مقابل المال... كان في معبد (الشنتو) شيخ كاهن مسن.. إنّه من ذلك الطراز الذي يعيش بالقصور الذاتي وعلى سبيل العادة.. أنا أكره إيذاء الشيوخ لأنني.. هك! صرت منهم.. لكن للضرورة أحكامها.. وكان على الرجل - الذي تمزقت أذنه اليمنى - أن يقودنا عبر الممرات شديدة التعقيد أسفل المعبد، ويرينا الصناديق..»

ومط شفته السفلى باحتقار وقال:

- «ولكن دعني أؤكد لك أن مايقال عن قوة تحمل هؤلاء الكهنة اليابانيين على المستوى الجسدي والروحي خرافة.. لقد ملأ الرجل الدنيا صراخًا وعويلًا بمجرد أن قطع (إيكو) أذنه، وكأن الأمر يستحق كل هذا الضجيج..»

وابتسم وأشار إلى أحد اليابانيين الواقفين - الأخ (إيكو) طبعًا - فهز هذا رأسه في استمتاع، وأخرج من حزامه خنجرًا لوح به في الهواء على سبيل التحية ثم أغمده.. يبدو أنه فهم أن الكلام موجه له..

سألت (دونالسون) سؤالًا لم أطق كتمانه:

- «لحظة.. ما هي الظروف التي أدت إلى تحولك من عالم آثار إلى زعيم عصابة يقطع آذان الرهبان الشيوخ؟»

كان سؤالًا خطرًا لكنه مهم.. فأنا لا أترك أبدًا جانبًا مظلمًا من طباع الإنسان يمرّ عليَّ دون أن أحاول فهمه، حتى لو كان هذا آخر عمل أؤديه..

قال (دونالسون):

- «كل الناس طيبون كريمو النفس حتى يحدث ما يقف عائقًا أمام مصالحهم! لقد أوشكت حياتي على الانتهاء دون أن أعيشها لحظة.. هك! لقد عشت كمجذوب لايكف عن التفكير في إنسان (بكين).. فقدت أسرتي وماتت زوجتي وأنا أحلم بإنسان (بكين).. كل الثراء والمجد اللذين ينتظراني لو لم يكن (ثورنوايلد) نحسًا و(جوياما) وغدًا.. والآن لم يعد من العمر ما يكفي

للاستمتاع.. حين تصير أعوامك قصيرة مثلي لا يعود لديك وقت للرقة.. إنك.. هك! ستمزق أحشاء كل من يقف في طريقك حتى عن طريق الخطأ..»

سألته من جديد:

- «وكيف تدفع لكل هؤلاء البلطجية؟»

أخرج سيجارًا غليظًا، وراح يحاول التصويب عليه بالقداحة خمسين سنة كاملة حتى تمكّن من اصطياده..

نفث سحابة كثيفة من الدخان في وجهي، ثم قال:

- «إن لي صلاتي هنا.. ثم إنني أسحب من رصيد ما يساويه هذا الكشف يومًا ما..»

سيجار ولفائف تبغ! هذا الرجل يمتحن جسده العجوز أكثر من اللازم، ودعوت الله أن تصيبه نوبة قلبيّة الآن حالًا وننتهي..

قال الأمريكي وهو يمتص السيجار:

- «المهم.. لقد وجدت الصناديق كما قلت لك.. كان اثنان منها مفتوحين بما فيهما من صخور وقطع عظام.. الصندوق الثالث - وهو أهمها - كان مغلقًا لكنه ليس الغلق المحكم الذي وضعته عليه يومًا ما من عام ١٩٤١.

«ثمّة من فتح الصندوق ثم أغلقه.. أغلقه في غير براعة.. ويمكن أن أقول دون خطأ كبير إن هذا (جوياما)..

«ما الذي وجده (جوياما) بالصندوق؟ ما الذي جعله يعيد غلقه ثم يفر في ذعر لينتحر بسيف في معدته؟ هه؟ هل يُمكنك أن تخبرني؟»

كان قد دنا برأسه مني كثيرًا.. وعيناه شبه مغمضتين في وجهة المنتفخ.. إنّه ممن يتمتعون بموهبة البخر من الفم.. قلت كي يبتعد عنى:

- «ربما وجد مرآة ولم يتحمل شكل وجهه؟!»

- «لا.. لا.. لقد أصابه الذعر.. لأنّه لم يتحمل ما رآه من (الشيء)..»

هنا بدأ الفأر يلعب في عني.. (شيء)؟ هناك (شيء) على ما يبدو.. ومن الواضح أنه ليس جميل المنظر..

سألته في قلق:

- «أي شيء بالضبط؟»

اهتزّ ضحكًا وترجرج بطنه عدة مرات، ثم قال

- «الشيء الذي وجدت بقاياه أنا الآخر مختلطة بالصخور.. لقد تعاونت مع صينيين على وضعها في ذلك الصندوق وتأكدت من غلقه.. إن هذا الصندوق بالذات لا يضم رفات رجل (بكين).. بل رفات من فتك برجل (بكين) منذ نصف مليون عام!»

قلت في صبر:

- «لحظة.. برغم غرابة القصة، فأنا لا أجد العثور على رفات قديم - ولو كان رفات (يوليوس قيصر) نفسه - مبررًا للانتحار..»

- «هذا يعني أن الرجل قد جُن.. هك! إن الموضوع مثير بحق.. ألا ترى هذا معي؟!»

- «بلى.. بلى..»

أمسك بالترموس وصب لنفسه بعض الساكي، ثم قال:

- «كانت خطتي هي أن أبيع بقايا رجل (بكين) أولًا، ثم أعكف على دراسة بقايا ذلك (الشيء) في أمريكا.. سآخذ راحتي، وأكتب تقريرًا علميًا لم ولن يُكتب..

«كنت صغير السن وقتها، وكان أمامي الزمن كله، وكان الأمريكان متحمسين لأخذ هذه البقايا الثمينة ودراستها.. فريق عمل أرأسه طبعًا..

لقد جاءت الفرقاطة (إيليت) في سرية تامة لتأخذ الصناديق، لكنّها تأخرت يومين أكثر من اللازم.. يومين كانا كافيين كي تدخل أمريكا الحرب ضدّ اليابان، وكي أفقد أنا كل شيء.. كل شيء!

☆ ☆ ☆

هنا دخل الديوان أحد اليابانيين، ودنا من (دونالسون) ليقول له باليابانية - وبصوت خفيض بلا داع - شيئًا ما.. بدا بعض الاهتمام على وجه الأمريكي وبدوره أمر الرجل بشيء آخر.. هزّ الياباني رأسه وانصرف...

وعلى الفور جرَّد ثلاثة من الرجال أسلحتهم النارية والبيضاء، وغادروا المكان لاحقين بالأول.. كانوا باردين برود المحترفين برغم أهميّة الخبر الظاهرة..

نظر لي الأمريكي فرأى علامات عدم الفهم على وجهي.. أمارات الغباء إذا شئنا الدقة، فقال:

- «لا عليك.. هناك متسلل إلى القطار.. لقد رآه أحدهم يثب إليه من سيارة.. وهؤلاء الرجال سيتأكدون من أن مخزن البضائع على ما يُرام...

«لاخطر هناك.. هك! لا خطر على الإطلاق..»

☆ ☆ ☆

١٠ - أوقفوا الهول الآتي..

القطار الياباني الأنيق يواصل رحلته السريعة نحو (ناجويا)..
وفي الديوان الذي تحول إلى غرفة عمليات (دونالسون) كنت جالسًا.. أريح كوعي على إطار النافذة وأرمق اليابان الراكضة أمامي..
ترى أين (هن - تشو - كان)؟ لماذا ذهب وتركني؟ وماذا سيفعل حين يعود فلا يجدني؟
كيف له أن يعلم أنني هنا في هذا القطار؟ وكيف ينتهي هذا الموقف؟ هل سينقلونني معهم إلى الولايات أم يتخلصون مني في الميناء؟
بما أعرفه عن (الزهرة الزرقاء) أعتقد أنه سيتصرف، لكن كيف؟
ونظرت إلى المنضدة أمامي.. بيني وبين (دونالسون) منضدة صغيرة مثبتة بأرضية العربة.. إن عليها مطفأة تبغ ثقيلة تصلح لأهشم بها رأس الرجل، فقط لو كنا وحدنا.. لكنه محاط بهؤلاء البلطجية طيلة الوقت..
كيف يمكن أن...

☆ ☆ ☆

هنا اقتحم الديوان أحد اليابانيين.. كلهم يجيء من خلفيّة القطار.. أعتقد أن عربة الشحن خلفنا مباشرة أو تفصلنا عنها عربة أخرى.. وواضح أنه قادم من هناك..
صاح باليابانية في فزع، ونظرت إليه فوجدته ملوثًا بالدماء.. كأنما سكب عليه أحدهم دلوًا من الدم، وبنظرة طبية أدق عرفت أنّ هذا ليس دمه.. هذا دم واحد آخر كان معه!
هب الرجال، وتأكد اثنان منهما من حشو سلاحيهما ثم لحقا به، وسرعان ماتوارى الجميع..
عربة القطار التي تجمد الدخان في هوائها قد صار بها أربعة أشخاص لا أكثر.. أنا و(دونالسون) واثنان من رجاله..
سألته في حذر:
- «مشاكل.. هه؟»
ابتسم في ثقة، وقال:
- «لا داعي للآمال الزائفة.. هناك متاعب ما.. يبدو أن المتسلل شديد المراس، لكن الموضوع منتهٍ على كل حال..»
ومرت ثوان ثقيلة.. دقائق ثقيلة..
صوت طلقات رصاص.. صراخ مريع.. مريع..
ثمة طرقات على باب الديوان الذي يقود لباقي القطار؛ الجزء الأمامي منه...
فتح أحد الرجلين اليابانيين الباب، فبرز وجه المحصل الممتقع.. قال شيئًا ما، فلوح الرجل بفوهة مسدّسه تحت أنفه وقال شيئًا آخر فظًا.. المحصل يتراجع في ذعر والباب ينغلق من جديد..
قصة واضحة جدًا: «معذرة يا سادة.. هل صوت الطلقات هذا من عندكم؟»

«لا تتدخل فيما لا يعنيك يا رجل.. فهذا لن يفيد صحتك..»
فجأة صرت أفهم اليابانية جيدًا..
صوت طلقة أخرى..
صرخة..
ينفتح باب الديوان الخلفى، ويدخل أحد البلطجية.. لم يكن ملوثًا بالدماء، لكنه كان في حالة عصبية غاية في السوء، وكان يرتجف كورقة..
سأله (دونالسون) وقد بدأ يتوتر:
- «(إيكو)؟»
لم يكن هذا هو (إيكو).. إنما الأمريكي يتساءل عن أين ذهب (إيكو).
وكان جواب البلطجى بليغًا جدًا.. رفع يده، وكانت تقبض على كف آدمية مبتورة.. هذا هو ما بقي من (إيكو).. وسرعان ما تهاوى فاقد الرشد

☆ ☆ ☆

نهض (دونالسون) للمرة الأولى منذ رأيته.. كان ضخم الجثة بحق، ولو لم يكن طويل القامة لبدا كالفيل ببدانته هذه.. إن البدانة مع طول القامة جعلته صالحًا تمامًا ليكون ضلفة باب..

صاح في الرجال باليابانية بأوامر لم أتبينها، واستدار ينظر لي.. ثم هرع نحو باب الديوان الذي يخرجون جميعًا منه ويعودون جرحى أو لا يعودون..

ونظرت فوجدت أن أحد الرجلين يلحق يا (دونالسون)، أمّا الآخر فوقف جواري ممسكًا بمسدس طويل الفوهة - كاتم للصوت غالبًا - وفي عينيه نظرة تقول: «إن ظننت أنّ هذه الفوضى هي فرصتك للفرار، فأنت أحمق بالتأكيد..»

ومن جديد سمعنا طلقة أخرى..

وتساءلت: هل يتوقف القطار الآن؟ من البديهي أن يوقف السائق القطار ويتصل بالشرطة..

لو استطعت أن أضرب هذا البلطجى لفتحت الباب الآخر وفررت.. ولكن كيف أتمكن من هذا؟ إنّه يقظ كبعوضة، شرس كحيوان (الوولفرين).. وفجأة.. انقطع التيار الكهربي، لكن الظلام لم يسُد لأن النوافذ كانت تدخل ضوء النهار..

هل أنا واهم أم أن سرعة القطار تنخفض فعلًا؟ انخفاض غير ملحوظ لكنه يحدث بالفعل.. شيء ما يحدث هنا..

صوت صراخ مريع ثم...

للمرة الأولى أميز هذا الزئير الرهيب.. ليس هذا زئير أسد ولا دب ولا أى وحش سمعت صوته.. ليس زئير العواصف ولا.. إنّه صوت وحشي لم يخترع بعد، كأنه خلط الأصوات الذي يقوم به السينمائيون في عملية (الميكساج) لابتكار أصوات لا وجود لها كأصوات الديناصورات..

ولمحت وجه الياباني يتوتر.. لقد زعزع الصوت هدوءه الداخلي..

طرقات على الباب الآخر..

اتجه نحوه والمسدس في يده، وتساءل: من؟

قالها باليابانية طبعًا، لكن الطارق لم يكن مهذبًا بما يكفي... لقد انفتح الباب عنوة، ليصدم الرجل في وجهه.. تراجع للوراء وتحسس أنفه وترنح مرّتين.. وقبل أن يرفع المسدس ثانية طارت ساق (هن - تشو - كان) إلى وجهه لتضربه في الموضع ذاته..

وفي الثانية ذاتها هبطت القدم لتطير المسدس من يده..

لم تكن هناك في هذه المرّة بروتوكولات من طراز (كيوسارايانا).. إلخ.. إن الزمن يتطور، وفي عصر الأسلحة النارية لم يعد الوقت كافيًا لطقوس (النافاراي) الكاملة، وإلا لأفرغ عدوك مسدّسه في رأسك قبل أن تقول (تشاسارايانا)..

التطور الثاني المهم هو أن (هن - تشو - كان) التقط المسدس سريعًا من جوار الرجل الساقط على الأرض، وأمسكه في يده.. كاهن (نافاراي) لا يحتقر الأسلحة النارية.. غريب هذا!

التطور الثالث هو أن القطار بدأ يبطئ أكثر فأكثر..

☆ ☆ ☆

صحت في مرح ملوحًا بذراعي:

- «(هن - تشو)! كان يجب أن أعرف أنك الأحمق الوحيد الذي يثب إلى قطار مسرع من سيارة!»

كان القلق باديًا على ملامحه، ولم يبد متحليًا بروح الدعابة على الإطلاق..

جال ببصره في أرجاء الديوان، ثم قال:

- «لا وقت لهذا.. (ريفا ات).. هل هذا الباب يُغلق؟»

كان يشير إلى الباب الثاني الذي يقود إلى مؤخرة القطار، والذي خرج منه (دونالسون) ورجاله منذ قليل..

قلت له في حيرة:

- «بالتأكيد.. إن له مزلاجًا و...»

- «أغلقه حالًا!»

وإزاء ترددي عاد يقول بلهجة أرقّ:

- «لا تخف.. إنني أحمي ظهرك!»

هرعت إلى الباب فأغلقته بإحكام بالمزلاج، وعدت إلى (النافاراي) المتوتر كوتر القوس.. قلت له:

- «ما زلت لا أفهم.. ما الذي...»

وهنا بدأ القطار يتوقف.. هبط تسارعه إلى سرعة الرجل العادي ثم همدت حركته تمامًا.. ونظرت عبر زجاج النافذة.. كنا في المروج الخضراء وما من مبانٍ في الأفق..

- «يبدو أن السائق أوقف القطار...»

قال (هن - تشو - كان) وهو يلصق وجهه بالزجاج:

- «لا.. إنّه مستمر نحو (ناجويا) بنفس سرعته.. أنا الذي قام بفصل آخر أربع عربات من القطار!»

صحت في دهشة:

- «آخر أربع؟ هل جننت؟»

قال وهو يحوم في الديوان كنمر حبيس:

- «لابد من هذا.. لن أغامر بأن ينتقل الخطر إلى باقي القطار.. إن هناك أبرياء كثيرين وأطفالًا ونساء!»

- «خـ.. خطر؟ أي خطر؟»

قال بوجه صلب قُدَّ من حجر:

- «لا أدري.. لكنه مريع ولا قِبَل لنا بمواجهته.. إن علينا أن نفعل أي شيء لمغادرة هذا القطار حالًا!»

لم أحاول الفهم أكثر.. نظرت إلى الباب الذي جاء هو منه، وقلت:

- «سنغادر من هنا.. هذا سهل؟»

- «ليس سهلًا على الإطلاق.. هناك أحمق قد عزل تلك العربة عن باقي القطار وقد فعلها ببراعة.. هناك باب حديدي لم أستطع فتحه... يبدو أن المحصل أغلقه حين سمع صوت الطلقات..»

- «هل تعني أن العربة التي نحن فيها ليست نهاية الجزء المفصول من القطار؟»

راح يعد على أربعة أصابع:

- «ثمّة أربع عربات.. عربة الشحن التي تقع في نهاية القطار.. عربة خالية.. ثم العربة التي نحن فيها.. ثم عربة خالية أخرى مغلقة بباب حديدي أقوى مني..»

- «والأبواب؟»

- «إنها أبواب أوتوماتيكية، ومن الواضح أن انفصالها عن القاطرة قد جعلها موصدة بإحكام..»

تحركت في روحي مخاوف (رهبة الأماكن المغلقة)، وصحت في ذعر:

- «أي أننا لن نخرج من هنا؟»

- «ثمّة فتحة في عربة الشحن لكننا لن نذهب هناك بأي ثمن.. وثمّة النوافذ.. سنهشم النوافذ ونخرج..»

أمسكت بساعده مُلحًّا، وتساءلت:

- «ما الخطر الذي يخيفك إلى هذا الحد؟»

نظر لي بعينين لا ترِيان، وقال:

- «لا أدري.. لكن العربتين المجاورتين لنا مليئتان بالدماء والأطراف المبتورة.. لقد رأيتها تطير وسمعت صراخ الرجال.. إن هذا القطار يحمل كابوسًا.. كابوسًا لم تعرفه الكوابيس من قبل!»

☆ ☆ ☆

١١ - الهروب..

تراجع (هن - تشو ـ كان) للوراء خطوة، ثم فرد ذراعه وضغط الزناد..

بوم! كر اااا ش!

تهشم زجاج النافذة، لكنه ظل بحاجة إلى مزيد من المعالجة بمقبض المسدس.. إنكم تعرفون بلا شك متانة زجاج هذه القطارات اليابانية..

هنا سمعنا صوت ارتطام مخيف..

ونظرنا إلى الوراء.. إلى باب الديوان المغلق بالمزلاج، فوجدناه يرتج كأنما شيء يُضرب به بلا انقطاع.. وبقوّة غير معقولة..

☆ ☆ ☆

ومن وراء الزجاج الدائري الذي يفصل عربتنا عن العربة الأخرى رأيت.. رأيت وجه (دونالسون).. كان يعوي بلا انقطاع.. والدم.. آه!

لن أصف المشهد بدقة، لأنني لست ممن يستمتعون بهذه الأشياء.. أنا أمقت الرعب المعوي بكل صوره.. رعب الأحشاء الخارجة والأطراف المبتورة، وقد كان ذلك المشهد يحوي كل ما أكره وأخاف في الكون..

وأدركت في جزع أن شيئًا يمسك به، ويتسلى بضربه في الباب، كما يفعل طفل شقي بدمية أخته المولولة الصارخة..

صاح (هن - تشو - كان) بلهجة عسكرية آمرة:

- «فلنهرع إلى العربة المجاورة! إنّه لن يترك لنا الوقت الكافي كي.....»

ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الشرح..

هرعت أركض بقدر ما سمحت سرعتي، وبالطبع انتظر الفتى حتى رآني أخرج من باب الديوان، ثم وفي الظلام وقفنا.. في تلك الفجوة ما بين العربتين، والتي تبطّنها أرضيّة شبيهة بالأوكورديون..

مددت يدي إلى جيبي وبحثت عن (النيتروجلسرين).. دسست قرصًا تحت لساني كي لا أموت في الثانية ذاتها..

إنني لا أحتمل هذا.. رباه! أنا لا أحتمل هذا..

أغلق (هن - تشو - كان) باب الديوان خلفنا، ثم هرع إلى العربة وأنا خلفه..

كانت مظلمة اللّهم إلا من نور النهار الداخل من النوافذ.. وكانت خالية تمامًا، إلا من بعض مقاعد أنيقة صامتة..

سألت الفتى وأنا أشير إلى نهاية العربة:

- «هذه الناحية مغلقة بباب حديدي كما قلت؟»

- «نعم..»

حاولت أن أنسق الأمور في ذهني، فلم أستطع أن أجد الترتيب الزمني الملائم.. قلت له وقد بدت قصته غير مترابطة:

- «لحظة.. كيف استطعت فصل العربات ومتى دخلت هذه العربة؟»

تنهد في سأم وقال:

- «دخلت من مخزن البضائع - ولم يكن هناك شيء مريب - إلى العربة الثانية، ثم خرجت من سقفها.. بعدها واصلت المشي أو الزحف على السقف، ثم سمعت الصراخ والزئير ففهمت ما يحدث وقررت أن أفصل العربات.. كان الباب الحديدي مغلقًا لهذا خرجت من هذه الفتحة..»

وأشار إلى السقف وأردف:

- «وقمت بفصل العربات، ثم تسلقت ثانية لأعود إلى العربة من جديد، وأقرع بابك..»

قلت له وأنا أنظر إلى فتحة السقف:

- «لكنّها ضيقة جدًا.. مستحيل أن تسمح لنا بـ...»

- «تسمح لي أنا لكنّها لا تناسبك حتمًا..»

قلت له وقد بدأت أفهم:

- «حين كنت أنت في مخزن البضائع.. ألم تقم بفتح أحد الصناديق؟»

هزّ رأسه، وبلل شفته السفلى بلسانه:

- «بلى.. كان على أن أعرف.. لم أفتح الصندوق تمامًا لكني كشفته بما يكفي.. وكان ما بداخله رهيبًا..»

- «إذن أنت من أعاد لهذا الشيء حريته..»

- «أظن هذا..»

ودون كلمة أخرى أطلق الرصاص على إحدى النوافذ، وراح يهشم زجاجها بالمقبض..

كان صوت الزئير يتعالى من العربة المجاورة، وأدركت أن الخطر صار دانيًا بحق..

قلت له وأنا أتحرق شوقًا للهرب:

- «أنت أولًا..»

- «بالعكس.. لا بد من واحد يحمي ظهرك.. أنت أولًا»

- «لابد من واحد يتلقاني على الأرض.. إن الارتفاع شاهق ولسوف أهشم عنقي.. لقد فعلتها مرة حين تعطل القطار على مشارف (بنها) و....»

- «أنت أولًا!»

وهكذا وجدت نفسي أحشر كتفي في إطار النافذة.. ثم وجدت أن الأسهل أن أفعلها بالعكس.. تشبثت بكفي الفتى وأدليت ساقي خارج النافذة.. وهوب! وجدت نفسي ملقى على الأرض جوار القطار، وكل عضلة في جسدي تؤلمني، وكل عظمة مهشمة..

وتنحيت جانبًا بينما (هن - تشو. كان) يخرج من الإطار بالطريقة الصحيحة المثلى، وكما يفعلون في السينما...

قلت له في رضا وأنا أجمع عظامي وأنهض:

- «قد نجونا.. هذه النافذة لن تسمح له بالخروج..»

- «أنت واهم..» - قالها وهو ينفض الغبار عن ثيابه - «إنّه يستطيع عمل أي شيء..»

ووقفنا نرمق العربات الأربع الهامدة..

نرمق العربات التي يجول فيها خطر ظل غافيًا نصف مليون سنة، ثم أنعشه عسكري ياباني اسمه (جوياما).. وبعدها أعادته للحياة الكاملة حماقة كاهن من (التبت) اسمه (هن - تشو - كان)..

من الواضح أنه لم يمت قط.. لقد آذاه غياب (الأكسجين) كل هذه الأعوام، ودخل في سبات عميق، ولم يفق منه إلا حين وصل إليه الهواء..

لابد أن (جوياما) رآه يتحرك.. لابد أنه أدرك الهول الذي تسبب فيه.. لهذا فقد صوابه.. أغلق الصندوق كيفما اتفق وانتحر كي لا تطارده الكوابيس بقية حياته..

لكن السؤال المهم هو: هل كان الشيء كله داخل الصندوق؟ إذن هو مسخ صغير الحجم حقًّا..

ولم أفهم حتى رأيته هناك..

خلف النافذة حيث كنا نقف..

☆ ☆ ☆

١٢ - المحرقة..

كان أول ما رأيته يشبه ممصًا كبيرًا..
ثم بدأت أتبين قدمًا هلامية خضراء اللون، تتحسس إطار النافذة في جشع.. قطرات من سائل أخضر شنيع تنساب ببطء على جانب القطار..
كانت صورتنا تنعكس على المادة الجيلاتينية اللامعة، وهنا فهمت ما هناك.. إن الصورة ذاتها تترجرج.. تتشوه ببطء.. للحظة خيل إلى أن وجهينا في الانعكاس يصرخان هولًا ثم يتفتتان...
الذعر يتملكني، والرغبة في الفرار بأي ثمن..
لا سبيل لذلك.. إنّه سيجدنا حيثما كنا، ولسوف يفعل ما يشاء بنا.. لأنّه لا شيء يقف أمام الشيء.. الهلع يتملكني.. ثم يعم جسدي استرخاء غير عادي.. استسلام تام لمصيري، وما يشعر به الفأر حين يحاصره القط في ركن الكرار..
الحق أن لهذا الانعكاس تأثيرًا منومًا واضحًا..
ونظرت إلى (هن - تشو ـ كان) فوجدته يرتجف، وشفتاه ترددان كلمات لا أفهمها، لكنّها بالتأكيد من صلوات (النافاراي) القديمة..
صحت فيه وقد بدأت أسترد توازني:
ـ «لا تضعف يا (هن - تشو)! إنّه ينومنا.. هذا المسخ يملك قوى نفسية واضحة!»
بدأ يستعيد قواه.. تراجع بضع خطوات للوراء، وتراجعت معه..
ونظرنا للشيء في نافذة القطار..

☆ ☆ ☆

كان بالفعل أقرب إلى أخطبوط هلامي لا حدود لمعالمه.. كان يذوب ويتجمد بسرعة لا تصدق..
دائمًا هناك انعكاسنا.. مئات الانعكاسات تترقرق على جسده اللزج وكل منها يثير الرعب في نفسينا.. الرعب والغثيان..
يسهل أن أقتل نفسي الآن.. هكذا أفهم ماشعر به (جوياما) الياباني حين فتح الصندوق ووجد هذا الشيء يترقرق أمامه...
أخرج (هن - تشو ـ كان) مسدّسه، وثبت ذراعه جيدًا ثم أطلق ثلاث طلقات على الجسم في النافذة..
بالطبع لم يحدث شيء كمن يُطلق الرصاص على موج البحر..
لكن أجزاء انفصلت من هذا الشيء المقزز.. أجزاء تذكرك بالأوحال التي التصقت بما تبقى من زجاج النافذة، وسرعان ما بدأت هذه الأجزاء تكتسب ممصات وأقدامًا بدورها، وراحت تحاول الالتحام بالكتلة الأم..
قلت لكم إنني فهمت كيف استطاع (دونالسون) أن يضع هذا الشيء في صندوق واحد.. إن أي جزء منه - ولو في حجم قبضة اليد - يكفي لبدء الكابوس من جديد...

والآن يدنو قلب الشيء أكثر من النافذة.. كان عبارة عن هلام ذاب فيه كل الدم الذي سفكه وراحت أعضاء بشريّة تسبح فيه كما تسبح عضيات الخلية في (السيتوبلازم)..

لقد كان (دونالسون) سعيد الحظ عام ١٩٤١، لأنّه وجد المخلوق مختلطًا بالحجر الجيري ولم يتحرك... لكن (دونالسون) رأى ما يكفي كي يرتاب وكي يضع الصخور كلها في صندوق مغلق بإحكام..

لم يكن (جوياما) سعيد الحظ مثله، وكذا لم يكن (دونالسون) حين دخل مخزن البضائع جاهلًا ما عليه أن يتوقعه.. إن العوينات المهشمة السابحة وسط الهلام تؤكد لي أنه كان تعس الحظ..

وكل الساكي الذي شربه.. ترى هل يسكر هذا الشيء؟

وصاح (هن - تشو - كان) وهو يتراجع متحفزًا كالنمر:

- «هلمّ يا (رفعت)! فلنبتعد!»

قلت دون أن أبدل من وقفتي:

- «هذا لن يكون!»

☆ ☆ ☆

وقلت له مفسرًا ونظراته المندهشة تمزقني:

- «هذا الشيء يصعب تدميره.. ولو خرج من هنا لاستحال تدميره.. إن كل طلقة تعطينا المزيد منه، وعما قريب سيكون مستحيلًا أن نجد كل أجزائه.. فكرفي هذا.. إنّه مازال داخل القطار يبحث عنا.. وهي فرصة نادرة لأننا نعرف جيدًا أنه ما من جزء منه خارجه.. إن الوباء كله هنا، ولو أضعنا الوقت في الهرب فلن نجده حين نعود..»

صمت ولم يعلق.. لقد وجد كلامي مقنعًا، وهو يأمل في المزيد من التفسيرات..

قلت له وأنا أتحاشى عينيه:

- «سأتجه إلى مخزن البضائع بحثًا عن شيء يصلح.. أمّا أنت فعليك أن تبعد تفكيره عن مغادرة العربة!»

- «هذا سهل ولكن كيف؟»

- «عليك أن تعود إلى العربة.. عليك أن تعابثه.. لا تقل لي كيف.. أنت كاهن (النافاراي) الذي يجيد تفادي رذاذ المطر، ويمكنه اصطياد فأر بأنامله.. لكن لا تدعه يلمسك.. أظن هذا مفهومًا..»

التمعت عيناه بنداء الأجيال.. لم يكن ممن يرفضون التضحية بحياتهم لأي سبب مهما كان، هو فقط يكره أن يفعل هذا دون داع..

ولم أتركه يعيد التفكير، وهرعت - على قدر ما استطعت من سرعة - إلى مؤخرة القطار..

- «(هن - تشو - كان)!»

- «ماذا يا (ريفا ات)؟»

- «تعال وساعدني على الوصول إلى باب البضائع! إنّه مرتفع عن الأرض أكثر من اللازم!»

هرع نحوي، وحملني من خصري كما يحمل الطفل دميته، وسرعان ما وجدت نفسي أتمسك بإطار الباب..

قال لي قبل أن أغيب بالداخل:

- «(ريفاات).. ماذا لو كانت بعض أجزائه تنتظر بالداخل؟»
- «عندها سأعرف ذلك متأخرًا!»
وغبت عن عينيه في الظلام...

☆ ☆ ☆

أشعلت قداحتي لأتبين موطئ قدمي..
رباه! حقًّا لم يكن المشهد مما يناسب خيال المراهقات.. لقد وقعت مذبحة هنا منذ قليل، ولم أحب ما رأيت، كما لم أهم حبًا بما شممت...
كانت الصناديق مبعثرة.. صناديق تحوي عظام (إنسان بكين).. فكي (إنسان بكين).. أسنان (إنسان بكين).. ثروة كان سيسيل لها لعاب أي عطار صيني ممن يبيعون سن التنين..
وكانت هناك بقايا رجال (دونالسون)..
المرتزقة الذين باعوا حياتهم بالمال لكنهم لم يحصلوا عليه.. كل ما نالوه هو وعد مؤجل بالثراء..

واصلت البحث في الظلام.. في ضوء الشعلة المتراقص..
ثمة صناديق كتب عليها (Explosive) (مفجر)، وهذا طبيعي بالنسبة لصناديق كانت تستعمل في عملية الحفائر.. إزالة كهوف وشق جبال.. لكن ما حظها من السلامة بعد ثلاثين عامًا؟ وبعد كل الرطوبة التي رأتها في قبو معبد (الشنتو)؟
لا أظن أنّ هذا الجزء قابل لتنفيذه..
ثم وقعت عيناي على أجمل شيء تمنيت أن أراه.. حاويات كبيرة كتب عليها بالإنجليزية واليابانية (جازولين)..
كان عددها ثلاثًا..
هذا ما أريد بالضبط..
بقليل من الجهد والحظّ الحسن أستطيع أن.....
ثم عدت أتأمل صناديق المفجرات.. أطفأت قداحتي، ثم رحت أهشم الخشب المتآكل الذي يغلف أحدها.. تحسست بأناملي وشعرت بتلك الأصابع الباردة الغليظة المتراصة.. اختراع المرحوم (ألفريد نوبل) المبارك ينتظر منذ ثلاثين عامًا..
وبيد مرتجفة حشوت جيبي بالأصابع.. ثم جررت أول حاوية إلى الباب وركلتها بساقي لتسقط على الأرض..

☆ ☆ ☆

تماسك أيها (الزهرة الزرقاء).. تماسك!
تذكر الاختبار الذي خضته في سنوات اكتساب الرجولة، في قبو النيران..
كان ذاك هو الهول ذاته لكنك انتصرت..
الشيء المقيت ينساب فوق المقاعد، وثمّة ممس طويل يتجه نحوك فتتراجع.. وممس آخر يجيء من الخلف فتشب فوق المقعد إلى الوراء..
ويمر شيئان مقيتان فوق رأسك ليلتحما..
أنت رأيت كيف يمسك هذان الممسان بالشخص ويشطرانه إلى نصفين.. رأيت كيف ينتزع الممس الأذرع والأرجل..
الكتلة المخيفة تتشكل من جديد في شكل فم ذي أنياب.. والأنياب تقطر بالموت الأخضر، ومن حول الفم تبرز عشرات الممسات كلها تقودك إلى أعمق أعماق الفم..
ممس يحاول الالتفاف حول قدميك فتثب في الهواء وتتعلق بعمود معدني هناك.. تتأرجح وتهبط بعيدًا..

☆ ☆ ☆

«كلنا اجتزناه قبلك.. ليس الأمر مستحيلًا..»
«لا تدع نيران ذهنك تخبُ ثانية واحدة.. إن تلك الثانية ستكون الأخيرة..»

☆ ☆ ☆

ومن جديد امتزجت بالشهب والسدم والإلكترونات في مداراتها السرمدية.. صرت بعوضة تتلافي الأكف الفظة، وصرت ثعبانًا متوترًا يرقد بين الأعشاب، وصرت (نافاراي) كما ينبغي أن يكون (النافاراي)..

☆ ☆ ☆

المادة الخضراء تغمر الجداران.. إذن لا جدران..
المادة الخضراء تلوث الأرض.. إذن لا أرض..
المادة الخضراء تتناثر في الهواء.. إذن لا هواء..
وأين ذهب (رفعت)؟ أين ذهب؟

☆ ☆ ☆

- «اخرج يا (هن - تشو - كان)!»
تسمع الصوت وتنظر إلى النافذة المهشمة التي ابتعد عنها المسخ كما تمنيت..
- «اخرج يا (هن - تشو - كان) لوكنت حيًّا!»
تتقدم - كالسهم - نحو النافذة، وأنت ترجو ألا يسدها سوط آخر في أية لحظة..
- «اخرج يا (هن - تشو - كان)! فالانفجار وشيك!»
تكور جسدك كما يفعل القط.. وتثب من النافذة إلى الأرض، وتواصل الدحرجة كالثلوج فوق جبال وطنك..
ويكون آخر ما تراه هو (رفعت).. وتنظر للوراء فتجد النيران تشتعل في بركة من سائل ما تم رشه بعناية حول عربات القطار كلها..
تنظر للوراء فترى أصابع كالسيجار منتثرة بانتظام تحت العربات، وفي كل تجويف منها..
وفي اللحظة التالية يبدأ الانفجار..
ليس انفجارًا واحدًا بل سلسلة طويلة منه..
كل شيء ينفجر.. العربات ترتج.. بعضها يشتعل.. لكن قوة الانفجار لم تصل قط إلى حد تدمير عربة منها...

☆ ☆ ☆

وفي النهاية وقفت - أنا (رفعت) - جوار (هن - تشو - كان) نلهث ونتبادل النظرات.. كنت أعرج على ساقي التي هبطت عليها لكني سعيد..
الحمد لله! ما زال الديناميت قادرًا على الانفجار بعد كل هذه الأعوام...
كانت النار تتصاعد شامخة ومعها الدخان الأسود الكثيف.. العربات تفحمت وبدأ معدنها يذوب ويتجعد..
سألت (هن - تشو) لاهثًا:

- «هل تظنه هلك؟»
كان صدره يعلو ويهبط بلا انقطاع، لكنه استطاع أن يقول:
- «هل تجرؤ على الدنو لترى؟»
- «لا.. في الواقع لا..»
- «إذن فلنرحل من هنا قبل قدوم رجال الإطفاء والشرطة.. سيكون موقفنا في غاية الحرج آنئذ..»
ودون أن ننظر للوراء ابتعدنا..

☆ ☆ ☆

خاتمة

بعد يومين فارقت اليابان عائدًا إلى مصر..

أعتقد أن (هن - تشو - كان) لم ينتظر طويلًا قبل الرحيل إلى الصين..

لقد غادرت عابرة محيطات ميناء (ناجويا)، ولم يكن على ظهرها شيء ذو قيمة... لقد وجدوا جثثًا ممزقة متفحمة في العربات التي انفصلت عن القطار وهم يرجحون حدوث عمل إرهابي.. لقد اختفت آثار إنسان (بكين) للأبد.. وإن كانت بعض العظام المهشمة المتفحمة التي وجدوها تحمل سمات تشريحية خارقة للعادة.. لكن ما تبقى منها لا يكفي لنتائج محددة..

وقد سألت الكاهن الأخير قبل الرحيل:

- «هل تلاشى الشيء حقًّا؟»

- «لا أدري.. ولو كان الأمر بيدي لدفنت بقاياه في معزل عن الهواء.. ربما تحت الأرض بأميال.. لكني أحسبه قادرًا على البقاء حيًّا في تلك المحرقة..»

- «وأين تلك الفتاة.. (أوشيمو)؟»

ابتلع ريقه ونظر بعيدًا، وقال:

- «كانت في العربة الملاصقة لك.. تعرفت جثتها قبل أن آتي لإنقاذك..»

ساد الصمت هنيهة، ثم سألته:

- «لقد فقد الصينيون عظام رجلهم للأبد..»

- «عليهم قبول الهزائم كما يقبل النساك الخبز الجاف..»

- «على كل حال؛ لقد حققنا نجاحًا لا بأس به، وإن لم يشعر به أحد.. تخيل فتح هذه الصناديق في (اليابان) أو في (أمريكا).. كانت أطراف أكثر من اللازم ستطير قبل أن يعرف الناس كيف يتخلصون من هذا الكابوس..»

وصافحته في حرارة:

- «وداعًا يا (هن - تشو - كان).. كالعادة كنت أنت الكاهن الأخير الذي حطم تخيلي لقدرات التحمل البشري..»

- «ما زلت ثرثارًا يا (ريفاات).. إن الكلمات لا تضيف شيئًا إلى صداقتنا..»

وكانت هذه نهاية لقائنا هذا.. لكن لقاءات أخرى كانت تنتظرنا، وكنا متفاهمين بحق، لكني لا أجسر على القول إننا (فريق).. هذا الفتى فريق من المحاربين وحده؛ فمن المغرور الذي يزعم أنه عاونه يومًا؟

☆ ☆ ☆

وحين عدت من (اليابان) كانت بانتظاري قصة مسلية نوعًا..

قصة يفح أبطالها ويزحفون ويلدغون، ويلتهمون الفئران..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - مهمّة سرية جدًّا..

٢ - (طوكيو) - (نافاراي) - أشياء أخرى..

٣ - ذيل النمر..

٤ - كمين..

٥ - أسطورة رجل بكين..

٦ - ليلة هادئة جدًّا..

٧ - لم أعد معهم..

٨ - البحث عن العجوز..

٩ - الحقيقة.. كل الحقيقة..

١٠ - أوقفوا الهول الآتي..

١١ - الهروب..

١٢ - المحرقة..

خـــاتمـة

Notes

[1←] يخيّل إليّ أن مراجعة الكتيب (١١) والكتيب (١٤) ستجعل الأمور أفضل نوعًا!

[2←]
نمر.. نمر.. نمر.. باليابانية.

[3←]
القصة التي حكيناها في هذا الفصل حقيقيّة تمامًا..

[4←]
كلمة (طوكيو) معناها: عاصمة الشرق. وقد صارت العاصمة من عام ١٨٦٨ م

[5←] (الشنتو) هي الديانة التقليدية في اليابان.. ديانة عبادة الشمس وتقديس الإمبراطور.. إلخ.. فيما بعد دخلت البوذية، وصار لكل ياباني دينان معًا!

[6←]
تقع (طوكيو) في جزيرة (هونشو)؛ وهذه الجزيرة تضم أهم المدن اليابانية عامّة..

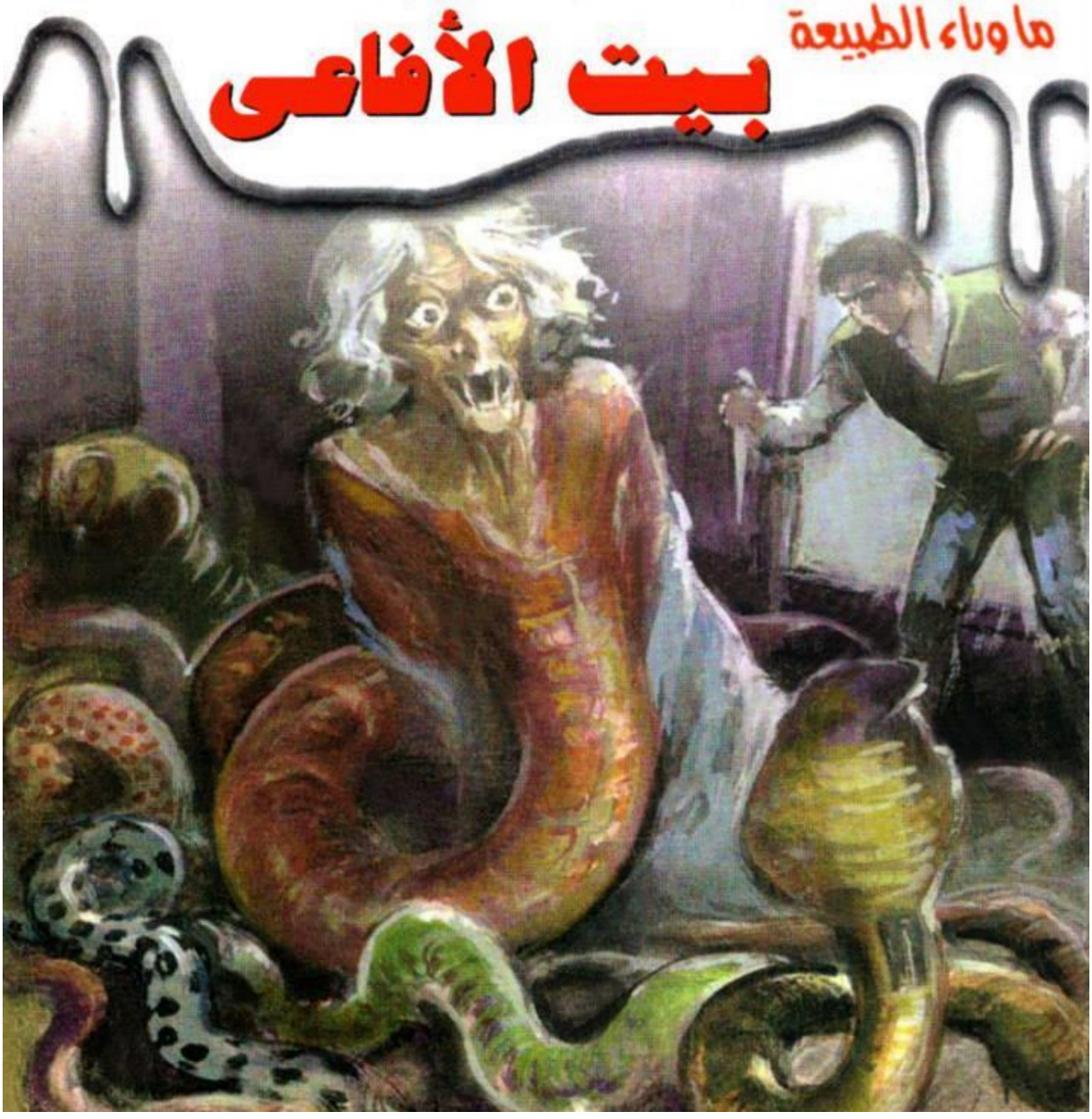
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

45

أسطورة بيت الأفاعي

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقـدمة

كلا لا تخافوا..

لن أبدأ كلامي بذات المقدمة المملة التي أقول فيها إنني الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ الدم المتقاعد بكلية طب كذا، والذي قضى حياته صائدًا للأشباح، وفتح عشرات من توابيت مصاصي الدماء، ومشى في عشرات البيوت المسكونة، والتحم مع عشرات المسوخ، واجتاز عشرات التجارب النفسية المبهمة، وعبر إلى عشرات العوالم الموازية ليس جانب النجوم بأهونها، والذي لم يتزوج قط.. لأن من عاش حياته يستحيل أن يتزوج..

كلا.. لا تخافوا.. لن أقول هذه العبارات التي كررتها مرارًا حتى إنني لم أعد أعي معناها جيدًا.. سأبدأ مباشرة دون مقدمات..

كنت قد حكيت لكم قصتي مع المسخ الذي ظل حيًّا منذ نصف مليون عام، قرب بكين.. كانت قصة جيدة، فيها عدد لا بأس به من الطعنات والانفجارات والقتلة اليابانيين، لو كنتم تفهمون ما أعنيه..

اليوم أحكي لكم قصة محترمة.. محترمة بمعنى أنه لا دور لي فيها إلا السرد.. سيتنحى العجوز (رفعت إسماعيل) جانبًا ليفسح المجال لمن يُدعى (محمود شوقي).. إنّه شاب ممتاز، ولديه قصة لا بأس بها إن كانت هذه الأشياء تروق لكم..

مشكلة هذا الفتى هي أنه لا يعرف كيف يكتب ثلاث كلمات دون خطأ في القواعد.. خطأ جسيم من الطراز الذي يشيب له شعر مصححنا اللغوي لو لم يكن قد شاب بعد.. إنّه - (محمود شوقي) - لا يستطيع كتابة عبارة بسيطة مثل (صباح الخير) دون أربعة أو خمسة أخطاء لغوية قاتلة، وهي لعمري عبقرية حقيقيّة....

هذا جعلني مضطرًا لإعادة صياغة كل ما قال بأسلوبي من جديد.. الأسلوب أسلوبي: السرد سردي... الأخطاء اللغويّة أخطائي.. الأحداث أحداثه هو ولا دخل لي فيها.. فإن وجدتم.. وأنتم واجدون.. تشابهًا مريبًا بين أسلوبي وأسلوبه فلا تثريب عليكم.. إن هذا التشابه موجود فعلًا وليس وهمًا..

ماذا حكى لي الأخ (محمود)؟

حكى لي التالي.....

☆ ☆ ☆

١ - بيئة غير صديقة..

«عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا في الأرض الطينية.. أيتها الأرض.. ابتلعي ثانية ما خرج منك!»

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

مرحبًا.. إن اسمي (محمود شوقي) ولا أتوقع بالتأكيد أن يثير هذا الاسم رعبكم، أو يجعلكم ترتجفون هيبة وتوقيرًا، أو تفركون أكفكم في شغف.. أنا مجرد شخص ما، له كل مزايا وعيوب الآخرين، لكني مضطر لتقديم نفسي إن كان لي أن أحكي الأحداث الرهيبة أو ـ على أفضل الظروف ـ غير السارة التي مرّت بي في ذلك المنزل.. فليس أسوأ من قصة لا نعرف سرها إلا قصة لا نعرف بطلها كما تعلمون..

في سن السابعة عشرة جئت إلى القاهرة لألعب الدور المعتاد: الطالب القروي الفقير الذي لايهمه اختفاء (تنزانيا) من الخارطة قدر ما يهمه اختفاء القروش من جيبه، وكنت ـ كما هي العادة ـ أحمل رأسًا مفعمًا بالأحلام التي تتلخص في أنني يومًا ما ـ بعد خمس سنوات غالبًا ـ سأكون رئيس العالم، أو المقرر العام لكوكب الأرض، أو ملك (كولومبيا) لو تنازلت وقبلت المنصب.. وكما هي العادة أيضًا؛ كان في جيبي ثقبان لكن لم يسقط منهما مليم أحمر واحد.. لأنّه كان خاويًا تقريبًا..

ودلني أهل النصح الذين هم ـ بالمصادفة ـ أهل الحل والعقد على منزل رخيص يناسب ميزانيتي.. إنّه مكان نظيف، وعدد البراغيث والبق به معقول نوعًا، لم يتجاوز الحد الذي يحيله من منزل إلى وكر.. وأنا ريفي فقير لكني من بيئة نظيفة لا تعتبر الهوام من معالم حياتها..

هذه هي البداية كما تعلمون.. والباقي سهل التخيل إلى حدٍ ما..

في أحد أحياء المطرية يقع المنزل الذي أعيش فيه الآن... إن الوصول إليه سهل تمامًا... كلا.. إنس الوصفة التي تعرفها لأنّها ستجعلك تضل الطريق تمامًا.. أنا أقول لك وصفة أسهل بكثير.. انتظر.. هل تعرف (زيزو)؟ محل بيع الشطائر إياه.. أمامه ورشة لدوكو السيارات.. فقط خذ أول تقاطع على يسار الورشة، وحاول ألا تقع في ذلك المجرور القديم.. حسن.. إن أول حارة لا تهمنا وحاول ألا تتوغل فيها، لأن بها بلطجية سيسرهم بالتأكيد ضرب شاب مرفه مثلك... الحارة الثانية هي المطلوبة.. فقط سل إحدى النساء الجالسات للأبد ينقين الأرز على عتبات ديارهن ـ أنت تعرف أنّ هناك الكثير من الأرز دائمًا ـ عن بيت الخالة (رتيبة).. كلا.. لا تسأل.. هن سيسالنك من

تريد وسيرمقنك في فضول، ولربما رأيت أحد فتوات الحارة يرمقك في كراهية من وراء قضبان نافذة غرفته بالطابق الأرضي... إنّه يحافظ على حدود منطقته كما يفعل أي وحش يحترم نفسه في الأدغال... لذا عامله كما تعامل الوحوش وتجنب أن تثبت عينيك في عينيه.. إن تثبيت العينين بالنسبة لوحوش الغابة علامة عدائية لا شك فيها، ومن الوارد أن يهاجمك في أية لحظة عندئذٍ..

الآن أنت تقف أمام المنزل الذي أقيم فيه..

توجد هنا خمس شقق.. وبالطبع يسكن أربعة من الطلبة في شقّة منها، بينما أقيم أنا في شقّة قبلية وحدي.. لماذا؟ أنا لا أكره البشر ولست مصابًا بالجذام على قدر علمي، لكن مجموعة الطلبة جميعًا من قرية واحدة، ويدرسون ذات العلوم في معهد من تلك المعاهد التي لا تعرف كيف تتذكر اسمها، ولا تعرف مستقبل طلابها أبدًا.. ربما (معهد المحليات التعاونية) أو (معهد التعاونيات المحلّيّة) أو أي شيء من هذا القبيل.. وكنت أنا أدرس علم الحيوان في كلية العلوم، ثم إنهم جميعًا جاءوا ها هنا قبلي بأشهر عديدة وربما أعوام.. وكنت سمجًا قليل الكلام معدوم الدعابة بطيئًا في ردود الأفعال، مما جعلني جديرًا بهذا السجن الانفرادي، ولم أجد في كليتي أو قريتي قط من يشاركني هذا المسكن..

كانت علاقتنا من طراز (مساء الخير - مساء النور) أو ما يسميه الأجانب بـ (معرفة هزّ الرأس).. ولو كنت واحدًا غيري لعرفت كيف أهشم الجليد وكيف أدخل حجرتهم مقتحمًا فارضًا نفسي، لكني كنت بسبب خجلي أفضل الموت وحيدًا في غرفتي على شيء كهذا، ولم أكن أميل لهم بشكل خاص، لكني كنت أسمع من غرفهم ليلًا تلك الضحكات التي توحي بأنهم يلعبون الورق أو الطاولة، أو أشم روائح الطهو العذبة، فكان الحنين يغمرني لرفقة أترابي وممارسة مرح الشباب الذي أنا جدير به..

هذا عن الشقتين الأوليين.. فماذا عن بقية الشقق؟

في الشقة التي تقع على يمينك في الطابق الأرضي - نفس الطابق الذي أعيش فيه - تعيش صاحبة البيت العجوز (رتيبة)، وهي شمطاء متشككة تعرف جيدًا أنها حادث ينتظر أن يقع.. يومًا ما سيجدونها مقتولة وقد سرقت مدخراتها، وتنحصر الشبهات في شخصي طبعًا لأن الظروف كلها ملائمة، ولأنني فقير وحيد غامض أسكن أمام شقتها.. أنا أعرف هذا والعجوز تعرف هذا.. لهذا تقابلني بنظرة كراهية كلما التقينا كأنها تقول لي: لماذا ستقتلني أيها الوغد؟ تبًّا لك! أنا لم أفعل لك شيئًا!!، وأقول أنا بعيني: تبًّا لك! لماذا أعدم بسببك وأنا لم أؤذك؟!

تعيش هذه العجوز في بيئة جديرة بالفئران، وتقضي وقتها في عد المال واختلاس النظرات للشارع في كراهية، وبالطبع لا يأتي أحد لتنظيف دارها؛ لأن (كل هذه القصص المخيفة تبدأ هكذا).. لا شأن لي بها على كل حال ما دامت لا تنوي أن تموت بطريقة مريبة وتخرب بيتي..

الشقة الثانية - في الطابق العلوي - يعيش بها موظف فقير له أسرة مصغرة، ربما لا يستحق الذكر منها سوى (هيام)، وهي طالبة في كلية التجارة تملك كل الصفات التي تجعلني أفكر جديًّا: لماذا لا يتزوج المرء حين يريد أن يتزوج؟ لابد من سنوات وسنوات قبل أن أجرؤ على طرق باب

أى بيت دون أن أتهم بالجنون وأطرد.. إن (هيام) رقيقة لطيفة متفهمة، وعيناها من طراز العيون التي تقول: سأمنح حبي لك لو كففت عن لعب دور الرعديد وقابلت أبي.. لا تقلق.. فأنا أراك جميلًا.. لا تقلق.. فأنا أراك لطيفًا..

هذا النمط من الفتيات لا يستطيع الرجل أن يقاوم سحرهن، لكنه لا يفكر فيهن إلا ليتزوجهن.. إنهن يرغمنه إرغامًا على أن يحلم بالبيت والأطفال..

الشقة الثالثة - على سطح البناية - هي في الواقع غرفة بائسة، يعيش بها رجل وحيد مثلي اسمه (حسام)، حديث المجيء هنا مثلي، صموت مثلي.. يقولون إنّه محاسب ويقولون إنّه مخبول، ويقولون إنّه يمارس بعض الأنشطة التي أقشعر لمجرد الحديث عنها.. وإلا لماذا يحمل دومًا كل هذه الكتب الصفراء التي نعرفها والتي تتحدّث عن السحر القديم والاتصال بالجان؟ عرفت هذا بالطبع من... من (هيام) طبعًا.. فهي الشخص الوحيد الذي يمكن الكلام معه في هذا المنزل..

لم تكن حياتي رائعة لكنّها محتملة، وما كان لينقصها ما حدث..

☆ ☆ ☆

متى شعرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام؟

كان ذلك في يوم جمعة وهو يوم له رونقه الخاص كما تعلمون.. الاستيقاظ في ساعة متأخرة.. الاغتسال.. حلاقة الذقن التي بدأت تخشوشن.. إشعال عود من البخور النيبالي والاستعداد لصلاة الجمعة، وبعدها يبدأ الطهو.. أول وجبة حقيقيّة من أرز وخضر ولحم هذا الأسبوع، وهي نعمة يمتد أثرها ليوم السبت، ثم نعود إلى شطائر الفول والطعمية من (زيزو)، وعلب السلمون مع البصل على سبيل البذخ.. هل قرأت الجزء الثاني من (الأيام) لـ (طه حسين)؟ حسن.. أنت تعرف ما أتكلم عنه..

مددت يدي - التي تعرف طريقها - في الصوان بحثًا عن جورب يصلح لارتدائه.. وهو بحث لا يطول لأن لديَّ جوربين أحدهما مبتل دائمًا بانتظار أن يجف، والآخر في قدمي أو في الصوان..

ولكن...

غريب ملمس هذا الجورب حقًّا! إنّه ناعم أملس زلق.. ربما ينبض بالحياة كذلك! وله ما يشبه ملمس الأسطوانة الدقيقة.. لو كان عندي مزاج للدعابات لقلت إنّه يشبه الأفاعي.. ولكن..

إنه أفعى!!

☆ ☆ ☆

٢ - ضيوف غير مرغوب فيهم..

إنها أفعى حقًّا..

لا مزاح هنالك ولا أنصاف حلول..

رميت بالشيء على الأرض وأطلقت صرخة قصيرة.. كانت أفعى طولها نحو نصف المتر، تتلوى كأية أفعى أخرى.. وأنا نشأت في الريف ولست ممن تثير الفئران أو الثعابين ذعرهم بشكل خاص، لكن صدمة الاكتشاف لم تكن سارة بالتأكيد.. وإن بدا لي أنه من السخف أن أستغيث بأحد، وأنهيت الموضوع بطريقتي وبالحذاء الذي كنت أوشك على انتعاله..

وعلى ركبتي رحت أتفحص الشيء المريع الذي كف عن الأذى.. كان أفعى ولم يكن ثعبانًا.. والفارق بين الكائنين بسيط لا يدركه إلا المختصون وبرغم دراستي لعلم الحيوان، لم أكن أعرف وقتها أن الأفاعي - على عكس الثعابين - لها أنياب عليا متحركة تنثني للوراء عند إغلاق الفك، بينما نابا الثعبان ثابتان لا ينثنيان، ولهذا يكون ناباه أقصر نوعًا ليتمكّن من إغلاق فمه... كما أنّ لبعض الأفاعي حفرة عميقة بين الأنف والعين، لهذا يسمونها (ذوات الحفر) Pit Vipers.. وهو ما ينطبق بدقة مفزعة على هذا الكائن..

من أين جاءت وكيف وجدت سبيلها إلى صواني؟ كلها أسئلة غبية فالبناية عتيقة رطبة، ولسنا في فندق من ذوي النجوم الخمس.. هذه الأشياء تحدث..

ونسيت الأمر برمته وتخلصت من الجثة، شاعرًا بكل المشاعر الهستيريّة المصاحبة للثعابين، والقديمة قدم الإنسان ذاته.. الشعور بأن يديَّ لن تنظفا أبدًا مهما غسلتهما.. الشعور بشيء ما يزحف هناك تحت سروالي... الشعور بأن الحياة ستعود للثعبان لا محالة ولسوف يعود للانتقام... الشعور بأن سم الثعبان يتجاوز حدود الماديات، ويمكن أن يؤذيني دون أن أراه.. لكني اعتمدت على نشأتي الريفية الجسور، ونسيت الأمر وذهبت لصلاة الجمعة فقد حان الوقت.

☆ ☆ ☆

ولم يظهر الثعبان الثاني - الذي كان ثعبانًا لا أفعي - إلا في العاشرة مساء.. كان يخرج زاحفًا من الحمام حين رأيته، وأنا في طريقي... إحم! لحلاقة ذقني..

لم يكن ودودًا ولا لطيف المشعر كزميله السابق، وقد احتجت إلى عدة ضربات بالحذاء كي أنتهي منه، ثم رحت أرتجف انفعالًا بعض الوقت..

من أين تأتي؟ ولماذا الآن بالذات؟ لو كانت هذه الشقة موبوءة بها لاتضح لي هذا منذ أشهر.. وكيف يجتمع نوعان متباينان من الثعابين في شقتي بالصدفة؟

وفي هذه المرّة لم أمر على الموضوع مر الكرام... حملت كشافًا كهربيًا ورحت أفتش الشقة بذمة ودقة لم يتحل بهما مفتش في جمرك.. توجد حجرتان ومتاع قليل.. لا شيء تحت الفراش ولا داخل الصوان.. الحمام خال ولا أجرؤ على أن أقول (نظيف).. لا شيء في المطبخ حيث النملية العتيقة - وصلت إليَّ مع الشقة ذاتها - التي يمكن أن ينام فيها تنين جزيرة (كومودو) نفسه..

فتحات؟ لا أعتقد ولو كانت هناك فأنا لم أرها.. في قصة العصابة الرقطاء لـ (شيرلوك هولمز) كانت الثعابين تأتي من فتحة تهوية لتقتل الوريثات الثريات.. لا توجد هنا فتحة تهوية ولا أحد سوى طالب ريفي فقير لا يريد سوى أن يُترك في حاله.. يبدو أنّ هذا مستحيل هذه الأيام.. إن أنت خلصت من الفضوليين المزعجين، فلن تعدم وجود أفعى هنا أو هناك.. لقد صارت الحياة لا تطاق..

هذه المرّة أنا متيقظ. ولن تكون هناك ثعابين أو آفاع ما لم..

☆ ☆ ☆

عندما أطفأت الأنوار وتمنيت لنفسي ليلة طيبة، كنت أعرف أنني لن أنام سريعًا.. إنِّه أرق ليلة الجمعة الشهير، الذي يتأتى من استيقاظ متأخر في الصباح، وتفكير في هموم يوم السبت القادم.. ربما بعض أكواب الشاي الزائدة ليلًا وحنين لا ينتهي لبيتك وقريتك وأسرتك التي تنعم بلم الشمل الآن..

رحت راقدًا على ظهري أتأمل الظلام والضوء الخافت المتسلل من خصاص النافذة، حيث الحارة الساهرة من حولي.. وبعد دقائق بدأ النوم يداعب جفوني، وبدأت الأحلام تختلط بالواقع..

سأكون رئيس العالم، أو المقرر العام لكوكب الأرض، أو ملك (كولومبيا) لو تنازلت وقبلت المنصب.. وفد من (كولومبيا) يتوسل أعضاؤه لي كي أقبل.. لا يا سادة.. سنيوري أنا لست كولومبيًا ولا أعرف شيئًا عن مشاكلكم، كما لا أجيد لغتكم.. إنني أعتذر بشدة.. إنهم يبكون ويلطمون الخدود.. سنيوري أنت خير من يتولى هذا المنصب ومن دونك سوف.. سوف تأكلنا الثعابين..

تأكلنا الثعابين؟.

وبين النوم واليقظة رأيت الشيء الذي يتسلل على خصاص النافذة ببطء مريب.. وقد احتاج عقلي إلى فترة أطول من اللازم ليدرك أنّ هذا ثعبان.. حقًّا ثعبان.. لقد رأيت ثعابين أكثر من اللازم هذا اليوم حتى لم يعد الخطأ واردًا..

وثبت من الفراش مضطربًا، وهرعت أضيء النور الكهربي.. لحظات يتألق فيها النيون الرقراق، وأخيرًا أرى الشيء الشنيع يتلوى هنالك.. وفي هذه المرّة احتجت إلى ما هو أكثر من قوة الإرادة كي لا (أرقع بالصوت الحياني)..

كلا لم تكن ثمّة ثقوب في خصاص النافذة، ولا سبب لظهور هذا الزاحف إلا أن أكون قد بحثت بإهمال حيث لم يكن ينبغي أن أبحث بإهمال!

كان أخضر اللون جميلًا مهيب المنظر.. لكني لم أكن في مزاج رائق لدراسة أنماط التخفي البيئي لدى الزواحف.. وهكذا ارتديت ثيابي وعيناي لا تفارقانه...

وغادرت الشقة كلها عازمًا على أن أجد في الصباح حلًا جذريًا ما..

وقفت على الدرج متسائلًا: إلى أين أذهب؟ كنت أسمع ضوضاء وأرى نورًا قادمين من شقّة الطلبة فوق رأسي، وفكرت في أن أصعد لهم لأبتسم بظرف وأطلب المبيت.. لكني حين تخيلت وجوههم السمجة الكارهة، لم أجد الشجاعة قط.. إن الثعابين أظرف على كل حال - وبالتأكيد - تفهمني خيرًا من هؤلاء..

وهكذا توكلت على الله، وخرجت إلى الشارع الذي ساده الظلام والبرد..

ولم تكن تلك هي الليلة الأولى التي كتب على أن أبيتها في الشارع في بيت العجائب هذا..

☆ ☆ ☆

في الصباح بعد ليلة نابغية - قضيتها في المقاهي والزمهريز المعتاد - عدت إلى الدار، وقد ابتعت بعض شطائر الفول والطعمية من (زيزو) كالعادة، وقد عزمت على أن أتبلّغ بشيء من الطعام، ثم ألحق بالكلية، وعند عودتي يمكننى تمشيط الشقة في نور مناسب.. يا لدفء شقتي! ما أجمل الشقق القبلية في الشتاء وأشنعها في الحر..

فما إن دخلت المطبخ حتى تقلصت أمعائي.. لقد كان مطبخ الشقة مزدحمًا بعدد يتجاوز الستة من هذه الكائنات، بعضها ضخم يذكرني بالـ (بوا) التي نراها في السينما، وبعضها ضامر أدنى إلى ديدان الأرض..

كان أحدها له ذيل من حلقات متداخلة، يهزه هزًّا حثيثًا محدثًا صوت خشخشة خفيضة مفزعة.. شك شك شك شك! ثعبان الجرس؟! هل هو موجود في مصر؟ وإن كان غير موجود فكيف جاء هذا الثعبان المستورد إلى هنا؟

أمسكت بالمكنسة وهويت بها على الرءوس كأني (عنتر العبسي) في حومة الوغى.. لكني لم أتمن تقبيل الأفاعي لأن لها بريق ثغر (عبلة) كما كان (عنتر) يقول.. يا للبشاعة! يا للاشمئزاز! ليس أبشع من رؤية الثعبان إلا قتله..

أخيرا انتصرت، وصار على أن أمشّط الشقة بعناية.. ولننس المحاضرات اليوم.. إن ما لدينا ها هنا تطبيق عملي جيد لعلم الحيوان.. وإنني لأتمنى لو أرى الدكتور (عزام) أستاذنا في موقف مماثل.. هل سيمنعه علمه من الاشمئزاز فالذعر؟

لو لم أكن ريفيًا - كما قلت ـ لتوقف قلبي هلعًا..

ومن جديد بدأت البحث، ومن جديد لم أجد شيئًا.. لو ظهر لي ثعبان جديد فمن المحتم أن الأمر يدخل في مجال الخوارق..

☆ ☆ ☆

٣ - حلول لا تجدي..

وحملت مجموعتي الثمينة من الثعابين في كيس بلاستيكي، وغادرت الشقة عازمًا على أن أتجه إلى من أعرف أنه يفهم في هذه الأمور...

وعلى السلم قابلتها متجهة إلى الكلية وهي تحمل حافظة أوراق وكتابًا عن إدارة الأعمال.. (هيام) طبعًا.. جارتي الحسناء التي لم تبد حسناء في هذا الوقت بعينيها المنتفختين اللتين لم تظفرا بنوم كافٍ.. لعلها الثعابين؟! ولاحظت أنها ازدادت بدانة في الآونة الأخيرة.. تبًّا! أنا لا أطيق البدانة..

دنوت أكلمها بتلك العبارات السريعة الهامسة التي نتبادلها حين نلتقي لبضع ثوان..

كان سؤالي بعد التحية بسيطًا جدًّا، وإن لم يكن أفضل ما يقوله المرء للفتاة التي يميل إليها حين يلقاها صباحًا:

- «هل توجد ثعابين هنا؟»

وكان جوابها بعد الضحكة الساخرة مختصرًا جدًّا:

- «ألم يخبروك عندما جئت؟!»

فلمّا رأت تعبير البلاهة على وجهي اتسعت ضحكتها أكثر، وقالت:

- «لا تصدق كل ما تسمع! هذه مجرد دعابة.. بالطبع لم تصل الأمور إلى درجة الثعابين.. هناك الكثير جدًا من الأبراص على كل حال».

- «ولم تري ثعبانًا واحدًا طيلة هذه السنين؟»

- «بالطبع لا وإلا لما وجدتني حية أرزق.. دعني أصارحك أنني أمقت الثعابين إلى حدٍ ما.. ولكن لماذا تسأل؟ هل رأيت شيئًا؟»

أمّا وقد وضعت الأمور في هذه الصورة، فقد بدا واجبًا على أن أرحل دون تعليق.. أو بتعليق على غرار (لا شيء.. كنت أتساءل فحسب!)

لماذا إذن كنت أنا أول من ابتلي بهذه الأشياء؟

☆ ☆ ☆

في قصة قديمة لـ (هـ. ج. ويلز [1])، قتل بطل القصة أحد السحرة في (سيراليون)، وقد أدت لعنة الساحر المنصبة عليه إلى أنه صار محاطًا بالثعابين في كل حين وفي كل صوب، هذا بالطبع بالإضافة إلى أشياء أخرى لا تفيد موضوعنا.. ولم يتخلص من هذه الكارثة إلا بالطريقة القديمة: قطع شريان عنقه بالموسى...

لا أذكر أنني قتلت أي ساحر إفريقي على الأقل في الأشهر الماضية، كما أنني لست من هواة الانتحار.. فلتقتلني الثعابين لكني لن أفعل شيئًا بنفسي..

☆ ☆ ☆

هذا مكتب الدكتور (عزام) في الكلية.. ليس كل من يدرس علم الحيوان فاهمًا للثعابين، لكن دكتور (عزام) كان مولعًا بالزواحف إلى درجة العشق، واهتمامه بها يتجاوز موضوع الدراسة إلى هواية حقيقيّة لا يكف عن تنميتها.. وأحيانًا كنت ترى في ملامحه ملامح سلحفاة عجوز بلا مبالغة.. باختصار كان هو الرجل الوحيد في كلية العلوم الذي يعرف تفاصيل التفاصيل عن الثعابين..

كان من الأشخاص الودودين، لكنه سريع الغضب حقًّا.. عندئذٍ كان يتحول إلى نوعٍ من الكوبرا التي تثب في وجوه مهاجميها..

- «هل يأذن لي أستاذي باستشارة؟»

قال في نفاد صبر:

- «لن أتنازل عن نسبة الحضور إلى محاضراتي لو كان هذا ما تسأل عنه.. إن المنهج الذي على أن أدرّسه..»

قاطعته في أدب، وقلت:

- «بل الموضوع لو سمحت لي يتعلق ببعض الثعابين..»

وعلى مكتبه - فوق جريدة - فتحت الكيس، وأفرغت الثعابين التي تسليت بقتلها على مدى أربع وعشرين ساعة.. فصفَّر بفمه معلنًا انبهاره..

- «هل كنت تجمعها في صحراء (أبو الريش)؟»

قلت في أدب دون أن أجسر على الجلوس:

- «بل في شقتي يا سيدي!!»

تأمل النماذج التي أمامه وغمغم:

- «لا تمزح يا فتى.. هذه الأنواع لا تحتشد في مكان واحد إلا في أجمل أحلامي.. إن ما تقوله هو ببساطة مستحيل!»

قلت له في إصرار:

- «بل هي الحقيقة والله على ما أقول شهيد..»

مد يده يتحسس الثعابين في شغف، وهو يغمغم:

- «ثعبان الجرس.. بوا كوبي.. آهاه! ثعبان صنوبر... آدر مميت.. رباه!! فير دي لانس.. أفعى راسل.. يا سلام! يا للجمال! يا لها من مجموعة قيمة! المشكلة الوحيدة هي أنك وقح وكاذب، ولا بد من مجلس تأديب ليقوم بفصلك!!»

صحت في رعب، وقد ارتجت مفاصلي:

- «و.. ولماذا يا سيدي؟!!»

- «لا أعرف سر مزحتك لكنك تحاول التلاعب بي.. رجل في سني ومركزي لا يعد التلاعب به تسلية محترمة.. **هات الكارنيه الخاص بك!!!**»

وأنا طالب محترم.. طالب من الذين يحترمون أساتذتهم حقًّا ويجلونهم حقًّا، وترتعد فرائصه لو قابلت أحدهم يمشي في الشارع.. ما كان غضبه من الأشياء التي تناسب شخصًا حساسًا مثلي..

لذا تماسكت بعد لأي وقلت له، وأنا لا شعوريًا أتحسس جيبي حيث الكارنيه كي لا ينتزعه أحد من هناك:

- «سيدي.. يمكنني تقديم الكارنيه ويمكن أن أستحق أي عقاب.. لكن هذا لن يغير حقيقة أنني وجدت هذه الأنواع في شقتي في يوم واحد!»

- «وأنا أرفض تصديق هذا ببساطة؛ لأنني رجل علم..»

ثم أشار للباب في اشمئزاز، كما يطرد (يوسف بك وهبي) ابنه الفاسد في المسرح، وقال:

- «يُمكنك الانصراف دون عقاب.. ولسوف أتابعك بحرص لأرى إن كنت وقحًا يتطرف أم مجرد معتوه! عندها.. عندها!»

وكانت بقية العبارة واضحة.. يبدو أن الفصل ليس أقصى عقاب في جعبته.. لذا اتجهت للباب، ولم يحاول أن يدعوني إلى أخذ الثعابين معي - وهو ما كنت زاهدا فيه أشد الزهد - لأن إغراء الاحتفاظ بهذه العينات النادرة كان أقوى من الحزم لديه..

هكذا يمكن تلخيص الموقف في أن ما يحدث لا تفسير له، ولا توجد سوابق عليه، وعليَّ وحدي أن أجد تفسيرًا ما..

☆ ☆ ☆

وهنا خطر لي أن أسأل (عاطف) زميلي في الكلية، فهو ممن يفهمون في هذه الأمور.. المشكلة هي أنّ هناك عددًا أكثر من اللازم ممن يفهمون في هذه الأمور في هذه الأيام...

إن (عاطف) من قرية مجاورة لقريتي، لكنه يكبرني في السن والمرحلة الدراسية، وله علاقة حميمة طويلة بالقاهرة، حتى إنّه صار من أبنائها فعلًا.. لقد صار يحفظ أرقام الحافلات، وهو يجيد عبور شارع (صلاح سالم) على مرة واحدة دون أن ينتظر مثلي معجزة ما توقف تدفق السيارات، وهو لا يخاف سيارات (الميكروباص) المجنونة ويمر من أمامها.

وقال لي (عاطف) حين أخبرته:

- «لا عليك.. لقد اعتدنا هذه المواقف حيث أقيم، وعليك أن تتعلم أن الثعابين ليست عارًا عليك أن تخجل منه... إن لكل مشكلة حلًا..»

في افتتان بعلمه تساءلت:

- «ماذا تفعل لو كنت مكاني؟»

- «العطار يملك حلولًا للمشاكل من هذا النوع.. والمرحومة أمي كانت تقول: كله عند العطار ما عدا (حبني غصب)».

- «لا أريد عطارًا يملك حلولًا لمشاكل الحب من طرف واحد.. كل ما أريده هو الخلاص من أفعى الـ (فير دي لانس)[2]».

☆ ☆ ☆

وهكذا اتجهنا بعد الدراسة إلى أحد العطارين في باب الشعرية، فابتعنا كيسًا من (الشيح البابوني) وهو مسحوق شيطاني الرائحة، له القدرة على طرد روحك نفسها فكيف بالثعابين؟ وأقسم الرجل إن هذه المادة كفيلة بإبعاد الثعابين عن داري عامين.. إن للبدو أساليبهم كما قال..

سألته في فضول علمي:

- «هل يمكنه طرد أفعى الـ (فير دي لانس)؟».

نظر لي لحظة ليرى ما إذا كنت أسخر منه، ثم تغلبت عليه غريزة التاجر فصاح:

- «بل وأفعى (ابن فرناس) ذاتها.. إن العلم كله هنا يا بك..»

- «وهل هناك أفعى اسمها (ابن فرناس)؟»

- «بالطبع.. (أمال).. كل شيء موجود يابك..»

ثم انصرف إلى زبونة تزن قنطارًا تبحث عن أعشاب تجعلها أكثر بدانة..

وعدت لداري متوجسًا، فقمت بتعليق ثلاثة أكياس قماشية ملأى بالمسحوق في ثلاثة مواضع استراتيجية، واعتمدت في هذا على المسامير الصدئة التي نشرها من كانوا هنا قبلي.. لم أتوقع نتائج سحرية لأن الحلول السحرية لا تجيء بهذه البساطة، وإلا كانت الحياة أكثر رغدًا وبهجة..

وبدأت أمارس حياتي المعهودة: فتحت علبة من السردين، وسحقت بقبضتي بصلة صغيرة واستعدت لتناول الغداء حين دخلت إلى المطبخ لأجلب رغيف خبز، وهنا وجدت أن الكيس لم يكن بهذه الفعالية.. لقد كان ثعبان صغير يلتف حوله ويتشممه بأنفه وهو معلق على الحائط!

- «لم يكن علاجًا فعالًا يا أخ عاطف!! أعتقد أن الثعابين أحبت الشيح البابوني، ولست مهتمًا بأن أوفر لها حياة رغيدة هانئة..»

هزّ رأسه وابتسم بما معناه أنني أقول شيئًا معروفًا:

- «كنت من البداية أعرف هذا.. إن أكثر هؤلاء القوم نصابون..»

- «ولماذا كلفتني ثمن المسحوق إذن ما دمت تعرف كل شيء؟».

- «كي ترى أنه لا مناص من الحل الثاني».

وفي ثقة تخدعني في كلّ مرّة قال:

- «أنا.. أعرف رفاعيًا لا بأس به!»

☆ ☆ ☆

٤ - مغامرة الرفاعي..

بغبائي المعتاد في هذه الأمور تساءلت:

- «أنت تعرف رفاعيًا؟»

- «طبعًا.. لا تقل إنك لا تعرف هؤلاء القوم..»

- «بل أعرف من هم، لكنني لا أعرف من أين يجيئون، ولا في أية كلية يتخرجون، ورقم هاتفهم غير مذكور في دليل الهاتف على ما أظن!!».

- «أنا أعرف واحدًا.. ولسوف يثير دهشتك..»..

- «لم يعد شيء يثير دهشتي منذ وجدت أفعى (فير دي لانس) الأمريكية في حمام شقتي..»

☆ ☆ ☆

وفي السابعة مساء جاء الشيخ (حمدون) إلى داري، وهو رجل خبيث الرائحة والنظرات والكلام.. وقد حرص على أن يبدو نصابًا بلحيته البيضاء المشعثة التي خضب أطرافها بلون أحمر، والتي تغطي صدره، وثيابه المزركشة المبهرجة التي خاط أكثرها من رايات الطرق الصوفية الخضراء الزاعقة.. تلك الرايات التي تقع في يده بعد الموالد.. وعطره الدسم الذي يذكرك برائحة بودرة (التلك)، وعصاه المزخرفة المزينة بكل خرقة وجدها في حياته، والكيس القماشي المعلق في ذراعه.. إنّه آخر جيل من أسرة رفاعية عريقة لا بد أن أحدهم كان من سحرة (فرعون) الذين ألقوا عصيهم أمام سيدنا (موسى) عليه السلام.. في تلك الأيام السحيقة كانوا يعرفون مايفعلون، أمّا هذا..

ما إن دخل داري حتى بدأ في إلقاء عبارات لا معنى لها، يقولها بسرعة غير عادية، وشفتاه تهتزان كما يهتز ذيل (البرص) بعد قتله.. وتشمم الجو وغمغم في استمتاع:

- «شيح بابوني!! يا سلاااام!! ما أجملك!!»

ومشى في أرجاء الشقة وهو يزوم كالقطط.. نظرة رفاعية كارهة للثعابين تلتمع في عينه، وبالتأكيد لم تلتمع من قبل في عين حيوان (مانجوست) في (كشمير)..

ثم أشار إلى ما تحت الفراش، وقال كلمة واحدة:

- «هنا!»

ودون كلمة أخرى خرّ زحفًا على ركبتيه وغاص تحت الفراش وفلم نعد نرى سوى ساقيه النحيلتين في جوربيهما الأبيضين المتسخين... بعد ثانية واحدة خرج من هناك وعلى وجهه علامات الانتصار، وفي يده ثعبان بائس يحاول التلوي والإفلات بلا جدوى..

ودسّه في الكيس، وأغلقه بأنشوطة ثم واصل مهمته..

- «شيح بابوني!! يا سلاااام!! ما أجملك!!»

ودخل المطبخ، دون أن يكف عن إبداء عشقه المبرح للشيح البابوني، فوقفت مع صاحبي نتهامس بالخارج:

- «من أدرانا أنه لن يخرج الثعبان ذاته من الكيس لنحسبه جديدًا!»

- «سنعد الثعابين بعد انتهاء مهمته.. ثم إننا لا نتحدث عن عرض حواة.. إن الرفاعية رسالة!!»

- «لم أرَ صاحب رسالة يصر على تقاضي ثلاثين جنيهًا مقابل تأدية رسالته!»

- «لابد للرجل من أن ينفق ليعيش..»

كان هذا هو موضوع الحديث حين دوّت صرخة الرجل.. صرخة نسائية جدًا حادة جدًا، كأنها امرأة رأت فأرًا يطل من كم ثوبها..

وهرعنا إلى المطبخ لنجد الرجل يولول، بينما ثعبان صغير الحجم ينشب أسنانه في ذراعه العارية حتى المعصم.. لم تكن صرخة الرجل من النوع الرفاعي على الإطلاق، واضطررت إلى أن أنتزع الثعبان من ذراعه انتزاعًا، وألقي به أرضًا قبل أن ينشب نابيه في لحمي أنا.. وهرسته بحذائي غير رفيق.. لقد كانت ثعابين داري أقوى من تعاويذ الرفاعية مجتمعين..

وفي هذه اللحظة، سقط ثعبانان صغيران من أعلى كم الرجل على الأرض.. النصاب!! إنها الحيلة العتيقة لهم: يدخلون الدار وهم يخفون ثعبانًا أو اثنين من نوع غير سام في ثيابهم، ثم يظهرون ما لديهم لأصحاب الدار باعتبارهم قد حلوا المشكلة، وأتموا عملية التطهير! والمشكلة هنا هي أن الرجل أضاف ثعبانين إلى ما كان في داري بالفعل!!

راح الرجل يولول وهو يتأمل الدم المنساب من ثقبين صغيرين في ساعده، فقلت له مطمئنًا:

- «لا تجزع.. إن سم الثعابين لا يؤثر في الرفاعية!»

وتأملت الثعبان الذي قتلته حالًا وقلت في رضا:

- «ثعبان المرجان.. هذا جميل! إنها المرّة الأولى التي أراه فيها.. يبدو جميلًا..»

صاح في رعب:

- «تبًّا لك! تبًّا لك! أنت لا تفهم.. لا تفهم!!»

ثم أخرج إصبعين من أصابعه ليعود عليهما:

- «أقسم بالله العظيم الذي لا يضر مع اسمه شيء أنّ هذا البيت نجس، وأنك امرؤ سوء..»

- «وأنا أقسم بالله العظيم إنك نصاب!! وهذا يكفيني حاليًا..»

وطردته من داري مع صديقي العزيز طبعًا، ونصحته أن يأخذ جرعة من المصل المضاد لسم الثعابين في أقرب فرصة (هذا بالطبع لو وجد ترياق سم ثعبان المرجان في المستشفى العام).. ثم استندت إلى الباب ألهث وأفكّر في حقيقة هذا كله..

إنني لفي مأزق مخيف.. مخيف..

وفي هذه المرّة صممت على أن أغادر المنزل.. فلا خير فيه من أي نوع، وليقع تفسير ما يحدث على عاتق البائس الذي سيجيء ها هنا بعدي..

☆ ☆ ☆

في الصباح، طرقت باب العجوز صاحبة المنزل، ففتحت لي شراعة الباب كعهدها، ودفعت لها باقي إيجار الشهر، وأخبرتها أنني عازم على الرحيل غدًا بسبب الثعابين.. لم تبد أية دهشة ـ كأنني أتكلم عن انقطاع المياه ـ لكنّها تذمرت كثيرًا لأني أرحل بعد بدء الموسم حيث يستحيل أن تجد مستأجرًا الآن.. وقالت إنني أفسدت عليها موسم بأكمله، وإنها لو كانت جشعة لطالبتني بدفع باقي إيجار العام الدراسي..

كنت أكلمها وعيني على وجهها المجعد البشع، وخطر لي أنني لا أكاد أرى لها جفنين.. أقسم إن عينيها لم ترمشا لحظة طيلة كلامها... هو خاطر عابر سرعان ما نسيته.. والآن أتذكره جيدًا.. وأسأل نفسي سؤالًا بلا جواب:

لماذا لم يثر هذا رعبي وقتها؟!!

الآن أبدأ حزم ثيابي وكتبي.. سأبدأ البحث عن منزل آخر حالًا.. هي مهمّة عسيرة لكنّها ليست مستحيلة خاصة لو وجدت طالبًا يحتاج إلى رفيق مسكن..

وقضيت يومًا أسود بلى حذائي فيه، ودخلت كل حارة، وسألت كل قهوجي وكل سمسار عن شقّة، ودخلت أوكارًا تشبه أوكار العصابات ومشيت في أزقة تشبه مجاهل إفريقيا..

لكن ما حسبته سهلًا لم يكن كذلك.. وسرعان ما أدركت أن البحث عن مسكن بعد بدء الموسم شبيه بالعثور على فتاة أحلامك بعد ما تزوجت وأنجبت عشرة أطفال..

☆ ☆ ☆

وعند ميلاد المساء عدت لداري منهكًا، وأدركت أن أمامي حلين: إما القضاء على المشكلة، أو العودة إلى قريتي لأخبرهم أنني فشلت في دراستي بسبب كثرة الثعابين! لن يروق هذا لأبي كثيرًا خاصة أنه التهم بعضها يومًا ما في حرب ١٩٤٨ حين كان جنديًا في حصار (الفالوجا)، وكان يعتبر من يخاف الثعابين إنسانًا غير طبيعي، غير جدير بإنسانيته.. ليس أمامي حل سوى مقابلة العجوز غدًا وإخبارها بأنني عدلت عن الرحيل..

وبالطبع كان عليَّ أن أجد ثعبانين، أحدهما في دورة المياه، والآخر كان في فراشي.. نعم.. لقد صارت هذه المشاهد معتادة على كل حال.. لكني لم أتعرف نوعيهما، وقد جعلني هذا أشعر ببعض الخجل من جهلي..

☆ ☆ ☆

٥. إنهم يأتون ليلًا..

وفي التاسعة مساء دق أحدهم الباب، ففتحت لأجد (حسام) جاري المحاسب الغامض إياه.. واسمه ـ كما قلنا ـ (حسام).. نسيت أن أصفه لكم وهو أبسط حقوق القارئ.. أعرف اتجاهات القصة الحديثة، والشخصية الرقمية، والشخصية الفورسترية.. الخ.. لكن الطريقة العتيقة تظل هي الأفضل وهي المحببة للقارئ.. لنقل إن الرجل كان في منتصف العمر.. أصلع الرأس.. ممتلئ قليلًا.. يضع عوينات سميكة من الطراز الذي تشعر بأنه يضغط على كرتي عينيه، وكأن كرتي عينيه ضفدعتان محفوظتان في مرطبان زجاجي في معمل كليتي.. وكان من الطراز المزعج الذي يتنفس بصوت عالٍ في أذنك، ويتحسس أرنبة أنفه من حين لآخر.. باختصار لم يكن أجمل ولا ألطف شخص يمكن أن يزورك في المساء.. وكنت أدرك أنه يداري عقدًا نفسية لا حصر لها، وجبالًا من الكبت.. هذا شيء تقوله ملامحه بدقة.. لا أحب الأعتماد على الفراسة كثيرًا؛ لكن الروح كالسائل: غالبًا ما يكون لها شكل الوعاء الذي تحفظ فيه..

كنت أمقته.. ربما أهابه نوعًا، لكنه كان بشوشًا مهذبًا، وطلب الإذن بالدخول، فأذنت له..

قال لي وهو يتأمل الشقة:

- «سمعت أنك تفكر في الرحيل..».

إن الأخبار تنتقل سريعًا ها هنا.. قلت له:

- «إني عدلت عن ذلك لسبب بسيط: هو أنني لم أجد مكانًا آخر..»

- «لنتكلم بصراحة.. هل توجد ظواهر معينة مربية هاهنا في الفترة الأخيرة؟»

☆ ☆ ☆

لأكون صادقًا أقول إنني لم أتوقع هذا على الإطلاق.. هذا الموضوع لا يعرفه سواي والعجوز و(عاطف) وربما الدكتور (عزام).. كلا... أنا لم أخبر (هيام) بالتفاصيل.. ومن العسير أن أتصور وجود علاقة بين الرجل وبين واحد من هؤلاء؛ فمن أين عرف أنّ هناك «ظواهر معينة مريبة ها هنا في الفترة الأخيرة؟»

سألته في حذر:

- «مثل؟»

- «مثل كثرة معينة في الـ.. في الـ.. في نوع من الهوام؟»

- «لا جديد في هذا.. لقد قلته لصاحبة الدار..».

- «هلا جئت معي إلى حجرتي على السطح؟»

فكرت في الأمر مليًا ثم وجدت أنني لن أخسر شيئًا.. لا يبدو لي قادرًا على قتلي، فهو ضئيل الجسد، له نظرات مذعورة تثير الشفقة، وهكذا خرجت معه إلى الدرج المظلم خبيث الرائحة، وأنا أتساءل عما سيقوله لي.. وصعدنا بضع درجات في السلم المظلم عطن الرائحة.. ها هو ذا السطح الكئيب الذي عُلّقت به بعض حبال الغسيل، وثمّة (عشة فراخ) خالية وبعض قطع القرميد هنا وهناك..

على باب السطح تصلب، وأشار إلى الأرض..

كانت هناك في الضوء الخافت عدة أكياس فارغة من النايلون ملقاة جوار السور القرميدى الخشن، وكان بوسعي أن أدرك أنها من نوع رقيق جدًا غير مألوف.. الغريب هو أن حجمها كان ضخمًا جدًّا لم أر مثله قط.

قال لي وهو ينحني ليلتقط كيسًا، ويداعبه بين أنامله:

- «ما هو انطباعك؟»

- «هذه الأكياس كبيرة جدًّا تصلح أكفانًا!!»

- «لقد دنوت من الحقيقة.. دنوت جدًّا.. والآن تعال وتحسس هذا الكيس من كثب».

جثوت على ركبتي مثله وتحسست أحد الأكياس.. وهنا فطنت إلى أنه ليس مصنوعًا من نايلون أصلًا بل هو أقرب إلى مجموعة من الحراشف المتداخلة المتراكبة، الرقيقة إلى حد لا يصدّق، وكانت بين القشور بعض حشرات الحلم تمرح هنا وهناك..

- «أنت نشأت في الريف، وتعرف جيدًا هذا المشهد... أليست عندكم ثعابين؟ ألم ترَ الجلد المتخلف عن عملية انسلاخ جلدها التي تتم مرّتين أو ثلاثًا في العام؟!»

- «بلى.. لكن هل يوجد ثعبان بهذا الحجم؟»

قال في تفلسف كأنه يُلقي محاضرة في الجامعة:

- «إن البوا والأصلات قد تبلغ هذا الحجم، الأصلات وبخاصة عملاقة البوا: الأناكوندا.. إن الأصلات تعيش في آسيا وإفريقيا بينما تعيش البوا في أمريكا.. لكن على قدر علمي لا توجد هذه الأنواع في مصر إلا في بيت الزواحف بحديقة الحيوان..»

- «أنت تفهم في الثعابين إذن..»

- «صرت أفهم.. لأنني لا أقرأ هذه الأيام إلا عنها!»

- «ولماذا؟»

اتسعت عيناه رعبًا وهمس:

- «لأن غرفتي صارت مأوى ضخمًا للثعابين في الفترة الأخيرة!»

☆ ☆ ☆

كنا واقفين على سطح بناية، نتبادل النظرات ويفكر كل منا في السؤال الرهيب التالي.. على الأقل هناك من يشاركني البلاء في هذه البناية، ولكن هل هو صادق؟ وما سر الأفاعي التي لا تختار غير الوحيدين ناقصي الأهلية كي تسكن شققهم؟ مد يده وفرد الجلد ليريني ما يشبه الكُمّين يخرجان منه، ومن جديد سألني:

- «ما رأيك؟»

كان مشهدًا فريدًا من نوعه لا أجد له تفسيرًا.. ولكنني قلت له كي لا أظل صامتًا:

- «هذا جلد ثعبان ذي ذراعين فيما أعتقد!!»

ابتسم في مرارة وقال:

- «لقد لاحظت ما أعنيه.. طيلة الليل كنت أسمعهم يأتون إلى هنا، ليحكوا جلودهم في القرميد الخشن، ولم أجرؤ قط على الخروج من غرفتي، لكنني في الصباح وجدت هذا.. هل تفهم؟ لابد لهم من الانسلاخ كي ينموا ويزدادوا حجمًا!!»

- «هم؟ من هم؟».

- «كل سكان المنزل طبعًا!!».

هنا كنت أتصرف وقد اتضح لي الأمر.. محاسب خائف، وسكان منزل يسلخون جلودهم وثعابين.. هذا الرجل في سبيله للجنون إن لم يكن جُنّ منذ شهور...

تعلق بذراعي وهتف:

- «أعرف ما تفكر فيه.. لكن الأمر ليس كما يبدو.. تعال لغرفتي كي نتكلم..»

وتبعته إلى غرفته عبر ممر ضيق فوق السطح.. وفي الظلام سمعته يهمس من بين أسنانه:

- «صمتًا! المهم ألا تثير حفيظتها فهي عصبية جدًا!!».

- «هي؟!»

- «نعم.. الأصلة الشبكية التي تقيم هنا.. يمكنك أن تطمئن نوعًا لأن هذه المخلوقات تأكل مرة كل شهر تقريبًا، وقد أطعمت هذه منذ أسبوع!!»

☆ ☆ ☆

وكنت أجهل كل شيء عن الثعابين، فلم أفهم جيدًا إلا أنه يتكلم عن ثعبان ما، ولم أفهم الحقيقة إلا حين وجدت الأسطوانة العملاقة التي يصل طولها إلى خمسة أمتار وقطر مقطعها يصل إلى قطر البرميل، متمددة في الظلام، ملتفة حول نفسها، تتحرك تلك الحركة البطيئة المنزلقة الشريرة الخاصّة بالثعابين.. فلو لم أنتبه لدستها بقدمي.. كانت ممددة بالضبط جوار باب غرفته، ومن السهل أن تقتحمها العين فلا تتوقف عندها..

- «هـ.. هـ.. هذا ثعبان!!»

- «ظننت أنّ هذا واضح!!»

- «بهذا الحجم؟»

- «كل الأصلات كبيرة كما تعلم.. ماذا يدرسون لكم في كلية العلوم بالضبط؟!!»

كان يتحدث بحياد علمي أثار غيظي، لكني ابتلعته وسألته:

- «هل.. هل هو سام؟»

- «كل الأصلات تلتف حول ضحيتها وتخنقها ثم تبتلعها.. اطمئن.. لا سم هنالك!»

- «وأنت تجد هذا طبيعيًا أمام عتبة غرفتك؟»

- «لا حيلة لي في هذا.. أنا أملك غرفتي لكني لست مسئولًا عن الضيوف الذين يقبعون أمامها»

وأولج مفتاحًا في باب الغرفة، ودعاني للدخول..

رباه! كنت أحسب أن في شقتي ثعابين!

كانت غرفته معرضًا يثير اشتهاء أي عالم زواحف.. ثعابين تزحف على الأرض.. ثعابين تتكوم في شكل ٨ الشهير على الأريكة.. ثعابين تتعلق في أخشاب السقف وتتدلى في سماجة لترى القادم.. ثعابين.. ثعابين.. ثعابين.. جنة الثعابين التي يحلم بها أمثال الدكتور (عزام)..

وقفنا على الباب لا يجرؤ أحدنا على الدخول، وقلت له مذهولًا:

- «هل استطعت الحياة هنا؟»

- «من قال إنني أقيم هنا؟ لا مكان آخر لي لذا أقضي الليل في الشوارع وعلى مقاعد المقاهي..»

عدت أسأله في فضول:

- «ولماذا لم تترك هذه البناية!»

مط شفته السفلى في امتعاض وقال:

- «أنا لست من الأثرياء، وليس هذا المكان أرخص مكان يمكن العثور عليه الآن في القاهرة فحسب، بل ربما هو آخر مكان أيضًا.. أعتقد أنك سألت وبحثت ووصلت إلى الحقيقة ذاتها.. إنني من الريف مثلك، لكن لا أسرة لي هناك ولا بيت ولا أرض.. معنى هذا أنه ليس أمامي إلا هنا أو السجن.. وأنا لن أدخل السجن بسبب بعض الثعابين.. إنني لا أحتمل هذا الترف، وعلى كل حال أنا كنت في الصاعقة يومًا ما حين كانت صحتي أفضل.. في الصاعقة تتعلم ألا تخاف الثعابين بل ولربما..»

- «تأكلها.. أعرف هذا كله..»

كان أبي يتكلم..

وساد الصمت برهة، ثم باغتته بسؤال آخر:

- «وكل سكان البناية يعانون المشكلة ذاتها؟»

- «بالعكس.. واضح أنني وأنت الوحيدان اللذان لدينا ثعابين.. ولهذا معنى خطير..»

- «مثل؟».

- «مثل أن كل سكان البناية على غير ما يرام.. ألم تلحظ أن عيونهم لم تعد لها جفون؟»

تذكرت وجه صاحبة البيت.. إذن لم أكن مجنونًا..

- «بلى.. بلى»

- «والعيون ذاتها انتفخت نوعًا.. ووزنهم يزداد يومًا بعد يوم.. ثم هذا الجلد المسلوخ على السطح والذي لا ينتمي لأي ثعبان حقيقي..»

☆ ☆ ☆

- «طيلة الليل كنت أسمعهم يأتون إلى هنا، ليحكوا جلودهم في القرميد الخشن، ولم أجرؤ قط على الخروج من غرفتي، لكنني في الصباح وجدت هذا..»

- «ماذا ترمي إليه؟»

- «أرمي إلى أننا في بناية قديمة يتحول سكانها إلى ثعابين، لسبب لا ندريه؟؟»

☆ ☆ ☆

٦ - أسطورة بيت الأفاعي..

وقفنا في الغرفة، وجلت حولها بعيني فلم أجد ما يستحق أن أتوقف عنده.. كانت كغرفتي أو أسوأ قليلًا، لكني على الأقل كنت أملك مطبخ وحمامًا وما يمكن تسميته شقّة.. كل شيء مبعثر، ومشاريع لم يستكملها قط على أوراق في كل مكان.. هذا إذن من الأشخاص الذين يبدءون يومهم شعراء، ثم يملّون هذا عند الظهر فيتحولون إلى مخترعين.. فقط ليكتشفوا عند المساء أنهم أدباء، وقبل النوم يضعون لأنفسهم عشرات الخطط مستحيلة التحقيق للغد، بدءًا بإجادة اللغة الفنلندية وانتهاء بالإقلاع عن التدخين.. لكنني لاحظت مكانة متميزة لكتب السحر إياها التي بالتأكيد يشتريها من سور الأزبكية.. فقط السحر يستطيع تحويل هذا الواقع المتهالك إلى نجاح.. لن أنسى هنا طبعًا ذكر كتاب ضخم عن الزواحف وجدته مفتوحًا كأنه كان يقرأ فيه ظهرًا..

انتقى (حسام) موضعًا بعيدًا عن الثعابين وجلس... كدت أجلس بدوري لكنني سمعت الفحيح الغاضب فانتفضت.. ورأيت ثعبان (كوبرا) يرفع رأسه في ذلك الوضع المنتصب الناشر الشهير، وقد كشر عن أنيابه حيث كدت أن أجلس! الواقع أن رأسه كان في هذه اللحظة بالذات في نفس مستوى رأسي!

وفي اللحظة التالية أدركت أن عويناتي ملطخة بسائل لزج، فنزعتها غير فاهم.. تناول مضيفى عصا مكنسة وطوح بها الكائن المريع أرضًا.. ثم انتزع عويناتي من يدي وراح يمسحها بمنديل..

- «معذرة.. نسيت أن أنذرك.. إنها كوبرا (رينجهال) التي تقذف السم في العيون! إنها تجيد التصويب على بعد سبعة أمتار، وفي الغالب تسبب العمى لفريستها.. لو لم تكن أنت ذا أربع عيون - كما يقولون - لآذاك هذا بشدة!»

كدت أصاب بانهيار عصبي.. هذا كابوس.. لا يمكن إلا أن يكون كابوسًا...

صوت الحفيف الشرير المميز لحية الجرس - تتتك تتتك - يتردد من مكان ما.. أريد الرحيل من هنا.. أريد العودة إلى قريتي.. ولم أتمالك نفسي إلا بعد ما غادرنا الغرفة الموبوءة لنقف في الظلام البارد بالخارج..

قلت له بعد ما تمالكت نفسي:

- «لماذا شقتك بالذات وبهذه الكثافة؟»

قال في استمتاع بذعري الذي فاق ذعره:

- «لأننا نمر بطقس بارد، وشقتي من أكثر الشقق دفئا في البناية، لأنهّا تتشرب حرارة الشمس طيلة النهار.. كما أنّ شقتك قبلية، وهذه الحرارة تلائم الثعابين دون شك!».

- «أي أن كل ما علينا هو البحث عن شقق أبرد؟»

- «ليس هذا فحسب.. بل لا تنس أننا - أنا وأنت - حديثا عهد بالمجيء إلى المنزل.. ولو كان شيء ما لا نفهمه يحدث، فمن المؤكد أننا نمر بالمراحل الأولى منه، بينما سبقنا الآخرون.. إن الأمر يتجاوز حدود المنطق، وأنت تعرف أن لي قراءات عدة في الـ.. في الأمور الخارقة للطبيعة، وأشك في أنّ هناك من يمارس ما يجذب هذه المخلوقات إلى هذه البناية.. بل وأكثر من هذا يحول سكانها ببطء إلى أفاع!! والإجابة في الطابق الأول عند صاحبة المنزل!»

- «ولماذا صاحبة المنزل بالذات؟».

ابتسم في غموض وأشاح بوجهه عني كي لا أرى تعبيراته، وقال ضاغطًا على كلماته:

- «لديَّ من الدلائل ما يؤيد وجهة نظري.. لن أستطيع تقديم المزيد من التفسيرات.. ولا أستطيع تفسير لماذا لا أستطيع تقديم المزيد من التفسيرات.. ثم إن المرأة منعزلة، تتعامل مع الكون كخفاش.. وإنني أتساءل عن السبب الذي لا تسمح لأحد من أجله أن يراها.. أؤكد لك أن السر يبدأ من الشقة في الطابق الأول..»

- «والحل؟»

- «الحل هو دخول الشقة.. الآن!»

- «معذرة أنا لم أفهمك جيدًا.. ظننت أنك تحدّثت عن دخول الشقة»

- «بل هو ما قلت..»

ومد يده في جيب سترته وعالج شيئًا، ثم لوح بنصل طويل يشبه نصل السيف، كان يحمله في الجيب، وقال في حماسة:

- «هكذا!! تدس هذا بين شقي شيش النافذة التي تطل على الزقاق الخلفي، ثم ترفع النصل الأعلى.. عندها ينفتح المزلاج، ويمكننا الدخول..»

- «بهذه البساطة؟ كنت أحسب العجوز مصابة بجنون شك دائم، ولا أظنها تكتفي بإغلاق باب شقتها..»

- «لكنّها بخيلة كذلك.. لهذا لم تبحث عن حل جذري لشيش غرفة الكرار لديها.. أنا دخلت شقتها مرارًا وأعرف ما أقول.. هل تجيء معي؟»

ضحكت في هستيريا.. ضحكت في تلذذ.. ضحكت حتى دمعت عيناي بينما هو يرمقني في غباء ممزوج بالغيظ.. وفي النهاية تمالكت أعصابي وقلت:

- «بالطبع لا.. هذه هي المصيبة التي أتوقعها منذ جئت لهذا المنزل..»

بدا عليه نوع من خيبة الأمل، وأدركت أنه خائف، لكنه يأبى أن يعلن هذا من فرط كبرياء.. وفي الظلام هزّ رأسه وقال:

- «ليكن.. كنت أظنك أكثر حكمة.. إن هذا الخطر سينمو ويستمر.. لن يتوقف أبدًا، وعندها لم لا تتساءل عن مصير سكان المنزل الأبرياء؟ تقول لنفسك: لا بأس.. يمكنني العودة إلى قريتي أو البحث عن مسكن آخر.. ليكن.. ولكن ماذا عن الباقين الذين لا يرتابون في شيء ولا يعلمون ما تعلمه؟»

لم تؤثر فيَّ كلماته.. يحتاج إلى ما هو أكثر من الحماسة كي يقنعني باقتحام شقّة عجوز ثرية وحيدة.. ولماذا؟ لأنّه يعتقد أنها سبب ما يحدث! ها! ثم إن الموضوع كله هراء.. مجرد أوهام من عقل أسقمته حياة الوحدة..

وهكذا تمنيت له ليلة طيبة ونزلت في الدرج، لأغادر البيت عازمًا على إمضاء ليلة أخرى في هذا الزمهرير.. ربما أجد مقهى دافئًا يظل مفتوحًا طيلة الليل..

رباه! لماذا لم أصدقه ولم أتبعه وقتها؟ لماذا؟

☆ ☆ ☆

في الصباح عدت لشقتى لأتناول الإفطار، ولم يكن من شيء جديد سوى عدد من ثعابين (الرمح الحديدي) - كما علمت فيما بعد - في الصالة فوق أريكتي..

خطر لي أن أصعد إلى السطح لأعرف ما تم في مغامرة البارحة بخصوص المحاسب إياه.. أغلقت الشقة ثم صعدت في الدرج إلى السطح.. كالعادة كان كل شيء مشرقًا بهيجًا، حتى لتتساءل: لماذا كنت مذعورًا البارحة؟ حقًا إنني لأحمق! لا يمكن أن يحدث شيء كريه تحت هذه الشمس الودود الصديقة.. مستحيل أن يحدث شيء..

لم أجد الأصلة إياها على الباب - كما توقعت بالضبط - مما جعلني أتفاءل خيرًا..

لكن المحاسب لم يكن هناك.. طرقت الباب حتى كلَّ متني - كما يقولون - لكنه لم يكن موجودًا..

كررت المحاولة عصرًا ومساء دون جدوى.. ولكن..

ألم أخبركم بنصل السكين؟ النصل الذي كان المحاسب ينوى اقتحام العجوز به؟ لقد وجدته ملقى من تحت فرجة باب العجوز، ونصفه بداخل الشقة.. كأنه خطاب دسه أحدهم لها من تحت الباب..

وتجمد الدم في عروقي وأنا أحاول فهم معنى هذا المشهد الرمزي الصامت البليغ.. مكان هذا النصل هو جيب المحاسب أو - على أسوأ الفروض - أي مكان آخر في الشقة ما عدا تحت بابها.. هنا يبرز احتمالان.. إما أن النصل سقط من المحاسب وهو يغادر الشقة من الباب.. فلماذا غادرها من الباب لا من النافذة حيث جاء؟ لأنّه كان خائفًا متعجلًا.. هذا واضح.. وللسبب ذاته ترك النصل يسقط..

وإما أنه دخل الشقة، ثم أصابه مكروه ولم يخرج منها قط، ولسبب ما ظل نصف النصل خارج العتبة..

فقط النصل هنا مما يؤكد دون شك أنه حاول تنفيذ مغامرته المخبولة هذه.. ولقد قضيت الساعات في عذاب لم تخفف منه كل ثعابين (الأدر) التي أحاطت بي تواسيني.. هب شيئًا حدث للرجل.. أفلا أكون نذلًا تخلى عن زميل في البشريّة؟ ألست أنا الوحيد الذي يعلم بأمر مغامرته هذه؟ هل العجوز مجرد ضحية بريئة؟ لا أظن.. لماذا لم تبلغ الشرطة إذن ولماذا لم تملأ الدنيا صراخًا حين وجدته؟ معنى هذا أن لديَّ خلطًا ما بصدد الضحيّة البريئة.. ربما كانت الضحيّة هي من تسلل إلى شقّة العجوز حاملًا نصلًا في يده، والآن لم يعد من دليل على مغامرته سوي هذا النصل وشهادتي..

إن الكيمياء المعقدة في الذهن البشري تؤدي عملها ببطء لكن بثقة.. سرعان ما يتحول حمض الكبريتيك الحارق إلى ملح كبريتات النحاس المسالم، وتتحول أبشع الأفكار وأكثرها إثارة لنفورك إلى أفكار معقولة ومنطقية جدًّا.. وهكذا في النهاية قررت أن أتسلل لشقة العجوز لأرى ويطمئن قلبي.. لماذا؟

لا أدري متى اختمرت الفكرة في ذهني، لكني وجدت نفسي في لحظة بعينها وقد وقفت تحت شباك العجوز المطل على الزقاق الخلفي.. في يدي النصل ـ ذات النصل ـ وفي قلبي الشكوك ـ ذات الشكوك ـ التي اعتملت في قلب محاسبنا الهمام قبل أن يدخل..

«حذار يا فتى!! أنت تقتحم شقّة العجوز.. كل ما كنت تخشاه تفعله الآن في إصرار.. كأنك بطل مأساة إغريقية ممن يخبرهم العرافون بمصيرهم في البداية، لكنهم بإصرار لا يتزحزح يفعلون كل شيء ممكن لتحقيق هذا المصير!!»

هذا ما قاله لي ذلك الصوت الغامض في رأسي.. وكان ما قلته له هو:

- «لكن الوضع جد مختلف الآن يا زميلي.. جد مختلف!!»

☆ ☆ ☆

٧ - على الطريقة الروسية..

كان الاقتحام جد سهل، وهو ما كان يجب أن يثير ريبتي، فلابد أن العجوز قد أحكمت تحصين نافذتها بعد مغامرة أمس.. ارتفع المزلاج لأعلى، وانفتح الشيش دون عناء كما يفترض من كل أفعال (الإذعان) في اللغة العربيّة: انفتح.. انكسر.. انشطر.. انهار...

غبار كثير.. برص يسقط من مكان ما.. يا للقذارة!

الآن أنا واقف وحدي في الظلام.. لا ضوء سوى ذلك الخافت جدًا القادم من الزقاق خلفي.. لا صوت سوى ذلك الطبل المدوي... طبل؟ بل هو صوت نبض الدم في أذني..

«طالب العلوم الذي تسلل الشقة العجوز بغرض السرقة».. «الدكتور النفساني (كذا) يكلمنا عن سبب انتشار الجريمة بين الشباب».. «الدكتور (كذا) أستاذ علم الجريمة يحدثنا عن الخلل الاجتماعي الذي أدى إلى...».. «على الطريقة الروسية فعلها، وكما كتب (دوستويفسكي) في (الجريمة والعقاب)»..

كنت أسمع هذه العبارات في ذهني، وأنا أتحسس دربي في الغرفة المظلمة خبيثة الرائحة، وقد أشعلت كشافًا صغيرًا يُطلق شعاعًا دقيقًا.. على الأرض طبقة كثيفة من الغبار كما في أية مقبرة فرعونية يكتشفها الأخ (كارتر).. ربنا يستر!! لو حدث شيء فلن يصدّق أحد حرفًا من كلامي عن السكان الذين يسلخون جلودهم على السطح ليلًا..

الحق أنّ هذا الرعب أفادني.. لقد جعلني أكثر جبنًا في نقطة معينة، لكن أكثر جرأة في نقطة أخرى.. لقد كان مصدر القلق الأساسي لدي هو أن تكتشفني العجوز.. لكني لم أخش لحظة ما قد أراه من هول.. وكان هناك حقًّا الكثير من الهول..

ها هو ذا المطبخ وهو كالعادة خبيث الرائحة مليء بالفوضى، وقطع الأثاث العتيقة التي صنعها نجارو (سنوسرت) ذاته.. أدور بمصباحي في أرجاء المكان، وأتمنى ألا أجد العجوز واقفة أمامي..

وفي ركن المكان وجدت عددًا من أجسام بيضاوية متراصة.. كان طول الواحد منها لا يزيد على عشرة سنتيمترات، ولها ملمس جلدي غريب.. أنا لم أر بيض الثعابين، لكن أعرف أنه ليّن جلدي لا كبيض الطيور الصلب الهش.. هذا بيض ثعبان، وهو ما يؤكد أنني لست بعيدًا عن مجال بحثي..

كنت جاثيًا على ركبتي، متواريًا في الركن، غارقًا في التأمل..

لهذا انتبهت متأخرًا إلى صوت الفحيح الغاضب..

☆ ☆ ☆

كانت تتحرك في الصالة بحثًا عني..

من؟ العجوز طبعًا.. لكن انعكاس النور على جسدها جعلني أرتجف فرقًا..

أولًا لم تكن تمشي أو تتوكأ كما يفعل الشيوخ.. شيء ما في انسيابية حركاتها جعلها تبدو كمن يزحف! وكان نصفها العلوي منتصبًا وفمها مفتوحًا، واضح أنه هو مصدر الفحيح العالي!

كنت بعيدًا، والرؤية ضعيفة عسيرة، وقد أطفأت مصباحي، لكن ما رأيته كان غير مريح حقًّا، وكتمت صرخة كادت تفلت مني..

واضح أنها تبحث في الغرف كلها عن الدخيل.. ها هي ذي تعود إلى الصالة..

يجب أن أفكر بسرعة.. لو كانت هذه المرأة أفعى فعليَّ ألا أتحرك.. إنها ستشعر بالذبذبات التي أحدثها في الأرض.. لو كانت أفعى فهي تبحث عن حرارة جسدي، وعليَّ أن أجد طريقة أبرد بها..

أو أصنع حرارة تجذبها..

كان الموقد ذاتيًا فوثبت نحوه، وبحثت في الظلام عن علبة ثقاب.. ها هي ذي! فتحت أحد المفاتيح فشممت رائحة الغاز الطبيعي الكريهة.. واضح أنها لم تكف عن الطهي.. وهو ما يعني أنها لم تتحول إلى ثعبان كامل بعد.. حككت العود بالسطح الخشن، وراقبت النار إذ تتوهج، ثم زحفت مبتعدًا إلى الركن، وانكمشت أرقب الضوء المتلألئ في قلق..

الفحيح يتعالى ويتعالى..

و....

☆ ☆ ☆

«عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا في الأرض الطينية.. أيتها الأرض.. ابتلعي ثانية ما خرج منك!»

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

☆ ☆ ☆

في اللحظة الداخلية دلفت إلى المطبخ.. واستطعت أن أراها في الضوء الرقراق المنبعث من الموقد...

حقًّا كانت منتصبة كالبشر.. لكن شيئًا ما.. رباه! شيئًا ما في طريقة انتصابها لم يكن يمت للبشر بصلة.. الأسلوب الغريب الذي يتراجع به صدرها ورأسها للوراء كما تفعل الكوبرا الناشرة حين تتحين الفرصة للانقضاض.. أسلوبها الغريب في المشي.. لم أكن أرى ساقيها لأن ثوب النوم الطويل الذي ترتديه يغطيها، لكني لم أشعر بحركتهما أصلًا كأنما المرأة تتحرك على ذيل لا ساقين!

رباه! هل أنا أخرف بفعل توتري، والظلام المخيّم على المكان؟ يا له من كابوس!!!

إنها تدخل المطبخ... تتحرك في تؤدة نحو الموقد حيث النار التي شعرت بحرارتها كما يفعل أي ثعبان يحترم نفسه.. تطلق فحيحًا غاضبًا حين تدرك أنني لست هنا.. رأسها يتأرجح بحركة شريرة لن تصدقها ما لم ترها..

تدور حول نفسها بحركة انسيابية رشيقة لا تصدر من عجوز، ولا من إنسان أصلًا.. ثم...

هنا اتخذت قراري.. إما الآن أو لا للأبد..

وثبت من مكاني ملوحًا بالنصل، وغرسته في ظهر الوحش.. وتراجعت للوراء مرتجفًا...

يا للهول! استدار لي الوجه ورأيت ـ في نور الموقد ـ الملامح التي صارت أقرب وأدنى لملامح الثعابين.. وثمّة حراشف تغطي أكثر أجزائه.. وهنا فعلت الشيء الذي لم أسمع عنه قط، والذي عرفت فيما بعد أنه يصدر من ثعابين البوا في (الأنتيل) عندما تشعر بالخطر: إنها ـ ببساطة ـ تخرج الدم من عيونها وفمها، وهو تأثير مريع يجعل المعتدي يفر هاربًا في الغالب..

ماذا كان تأثير هذا المشهد على؟ هذا متروك لخيالكم طبعًا.. إذ إن الكلمات كثيرًا ما تكون قاصرة سخيفة..

تراجعت للوراء وأطلقت صرخة رعب.. ثم ركضت إلى باب المطبخ بينما الفحيح الغاضب يطاردني..

قلبي يوشك على التوقف رعبًا، ولو فعل لما لمته لحظة..

الصالة.. لا! أنا لا أعرف موضع الباب.. ولو فعلت لاحتجت إلى وقت أطول من اللازم كي أجد المزلاج.. لابد من العودة إلى غرفة الكرار فالوثب من النافذة إلى الزقاق..

تتبعني في كل لحظة بإصرار غريب لا يمت للبشر بصلة..

هوب! النافذة.. هوب! الوثبة في الظلام.. هوب! سقطت على ذراعي وعلى كفي المفتوحة بقوّة غير عادية، فشعرت بألم ممض يمزق معصمي.. فيما بعد سأعرف أنّ هذا هو الكسر المميز لهذا النوع من السقطات، وستتخذ يدي منظر (شوكة العشاء) المحبب للنفس...

كل هذا سيحدث وسأستمتع به فيما بعد، أمّا الآن فالوقت وقت الفرار.. الفرار ولا شيء سواه..

☆ ☆ ☆

٨ - لقد عاد حسام..

ولم أعد للمنزل ليلتها.. قصدت أحد المستشفيات كي أعني بذراعي، ثم عرجت بذراع ملفوفة بالجبس على دار صديق بعيد لي كي أمضي ليلتي، لأن المبيت على مقاعد المقاهي لم يعد هواية محببة لي.. وبالطبع ظلت مشاهد الليلة تتردد في ذهني كالأصداء..

على أنني ظللت أقول لنفسي: لقد انتهى الكابوس.. لقد أنقذت الجميع..

وفي الصباح عدت للمنزل، متوقعًا أن أجد الكون وقد انقلب رأسًا على عقب.. توقعت أن أجد عربات البوكس تسد الطريق، وأن أرى مئات من رجال القوات الخاصّة بثيابهم السود الرهيبة يصوبون مدافعهم نحوي.. توقعت أن أرى محكمة وقاضيًا مهيبًا ومشنقة، كل هذا عند مدخل الحارة.. لكن لم يحدث شيء.. إن انعزال العجوز عن الحياة العامة، جعلها من العجائز اللواتي لا يكتشف موتهن دون رائحة..

كان عقلي مرهقًا بالتفكير في الطريقة التي سينكشف بها أمري.. بالطبع سيعرف رجال الشرطة كل شيء، فلا أحد يستطيع خداعهم.. ولّى أن أتصور كم مليون بصمة تركت، وكم مليون بطاقة شخصيّة سقطت من جيبي، وكم مليون ورقة تحمل اسمي هناك.. إن المسألة لن تتجاوز بضع ساعات لكني لشدة الغرابة راغب حقًّا في انتهاء الأمر.. ربما لا يكون سجن القلعة زاخرًا بالأفاعي كبيتي هذا..

وعلى الدرج قابلت (هيام) وأنا أفتح باب شقتي.. يجب أن أقول هنا إنني كنت أتكلم وأتصرف بالضبط كما كان (راسكولنكوف) قاتل العجوز في (الجريمة والعقاب) رائعة (دوستويفسكي).. لا تنسوا أن تقرءوها إن لم تكونوا فعلتم...

كانت عيناها منتفختين وبلا أهداب كالعادة، وازدادت ضخامة، لكن وجهها أشرق حين رأتني، وقالت:

- «أين أنت؟ حسبناك مت لكننا لم نشم الرائحة!»

مزحة لكنّها في الصميم! لن تشمي رائحتى بالذات يا صغيرة، لكنك ستشمين قريبًا جدًا روائح أخرى.. قلت لها:

- «كنت عند بعض أصدقائي.. كيف حالك؟»

- «بخير» - ثم اتجهت عيناها إلى ذراعي المضمدة في الجبس - «.. سلامة ذراعك!»

- «سقطة من الحافلة.. دعك من هذا.. هل أنت بخير حقًّا؟»

- «لم أكن قط أفضل من هذا.. فيما عدا أنك لم تعد تبدي ميلًا نحوي.. إن الحب يبرد ككل جسم ساخن».

- «هذه هي النظرية الميكانيكية الحرارية.. لكنها لا تنطبق عليَّ..».

كاذبًا كنت.. في الحقيقة كان حبي يبرد إن لم يكن قد تحول إلى جليد.. كنت أعلم أنها بدأت تتحول إلى أفعى.. لو فكرت أمس أني سأفكر في شيء كهذا اليوم، لاتجهت بنفسي إلى مستشفى الأمراض العقليّة، أمّا اليوم وبعد مواجهة أمس التي لم تكن سارة قط، فقد صرت على استعداد لقبول أشياء كثيرة.. هل تم هذا التحول أم لم يتم؟ هل سيتوقف بموت العجوز أم لا؟ كلها أسئلة بلاجواب.. لكني أعرف شيئًا واحدًا.. أنا لم أعد أطيق هذه الفتاة بل وأخافها حقًّا..

هزَّت رأسها كأنما تقول: هذا هو حال الرجال.. ثم همست:

- «الآن ادخل شقتك لأنني أريد الحديث مع السيدة (رتيبة).. فلا يجب أن ترانا معًا!».

كانت (هيام) تبدأ يومها دومًا بالسؤال عن (رتيبة)، وما كان هذا حبًا لها قدر ما هو مداهنة لها اتقاء لسانها السليط الذي ينثر الأقاويل كما ينثر الكلب المبتل ماء استحمامه.. والسيدة (رتيبة) - كما لابد أنك تعلم - هي العجوز التي استقر نصلي في ضلوعها.. معنى هذا أن النهاية قريبة.. وفتحت بابي وابتلعت ريقي..

☆ ☆ ☆

«طالب العلوم الذي تسلل لشقة العجوز بغرض السرقة».. «الدكتور النفساني (كذا) يكلمنا عن سبب انتشار الجريمة بين الشباب».. «الدكتور (كذا) أستاذ علم الجريمة يحدثنا عن الخلل الاجتماعي الذي أدى إلى..»..» على الطريقة الروسية فعلها، وكما كتب (دستويفسكي) في (الجريمة والعقاب)»..

☆ ☆ ☆

لماذا لم أترك الدار؟ لأن هذا بمثابة اعتراف كامل.. عليَّ أن أظل حيث أنا، وأبدي كثيرًا من الدهشة والذعر حين يجيء رجال الشرطة.. لن يكون الأمر صعبًا لأن من سيفتح باب العجوز سيجد مشهدًا يضيء كوابيسه للأبد.. سيجدون كائنًا هو مزيج من الإنسان والأفعى... سيفهمون لماذا فعلت ما فعلت..

والاقتحام؟

ماذا عن الاقتحام؟ ليس اقتحام المنازل مسموحًا به حتى لو كانت منازل مسوخ..

لسوف يحاصرونني بالأسئلة، ولسوف يرغمونني على تكرار القصة ألف مرة حتى أرتكب خطأ ما، وعندها.. وأنا أعرف نفسي.. لا تنقصني سوى لافتة على جبيني تقول: أنا نادم يا سادة.. لقد فعلتها!

كنت واقفًا وراء الباب غارقًا في هذه الخواطر السوداء، حين سمعت الطرقات وصوت (هيام) الرقيق يتساءل:

- «صباح الخير يا خالة (رتيبة).. أمي تسألك إن كنت تريدين شيئًا من السوق في طريق عودتي؟»

ثم الصوت الأجش المميز يقول من وراء الباب:

- «عشت لي يا بنيتي.. الحقيقة هي أنني كنت بحاجة إلى خبز.. خمسة أرغفة.. وربما..»

احتشدت قطرات العرق البارد على جبينى، ومادت الأرض تحت قدمي..

والاحتمالات: أنا قد صرت مخرفًا وانضممت بلا جهد إلى عالم المجانين الساحر.. أو أن العجوز لم تمت وكانت تتحامل على نفسها وهي تكلّم (هيام).. لماذا؟ لا أدري..

النتائج: لست متضايقًا جدًا لهذه النتيجة، فأنا لست قاتلًا ولم أصر.. لكن ميعاد الفرار قد جاء دون شك.. سأعود لقريتي وأصارح أبي بأنني لم أعد أتحمل الغربة.. ربما أجد شقّة أخرى مريحة آمنة يملؤها البق - فقط - بعد انتهاء الموسم..

هرعت كالمجانين.. أحزم حقائبي، متحاشيًا الثعابين المتناثرة هنا وهناك، حين سمعت طرقات على باب الشقة..

متوجسًا دنوت من الباب وسألت (من؟) بصوت كالفحيح..

- «إنّه أنا.. (حسام)! جارك!»

☆ ☆ ☆

فتحت الباب غير مصدق.. كان هناك بشحمه ولحمه، ولم يختلف كثيرًا ولم يبد لي كأفعى..

صحت في ذهول وأنا أوصد الباب:

- «أنت لم تمت؟ ولم تبتلعك العجوز؟»

ضحك في إنهاك وقال:

- «وهل ينبغي أن يحدث هذا؟».

- «حسبت هذا تفسير اختفائك..»

استند إلى الباب، وراح يترنح بعض الوقت كأنما يحبّ هذا، وفي النهاية قال اعترافه الرهيب:

- «كنت هاربًا.. لقد طعنت العجوز.. اضطررت لهذا، لكني لم أستطع تحمل نتائج تصرفي.. وعدت متوقعًا كارثة.. سمعتها تتكلم من وراء الباب مع جارتنا الشابة.. إن الأفاعي لا تموت بسهولة كما أظن..»

بدت لي قصته مألوفة نوعًا ولا أدري السبب.. يبدو أن كل من بالبيت صار يقضي وقت فراغه في طعن العجوز والفرار.. وهي لعمري هواية غريبة بعض الشيء.. قلت له:

- «نفس ما حدث لي ولا أجد له تفسيرًا».

ثم تذكرت ما كان في ليلتي، فقلت له وأنا أرتجف فرقًا:

- «هل رأيت ما رأيته أنا؟ إن المرأة تتحول تدريجيًا إلى..»

اتسعت عيناه من وراء زجاج عويناته السميك وقال مقاطعًا:

- «إلى بوا عملاقة.. أعرف هذا.. كنت أتوقعه لكن هذا يختلف عن رؤيته، وأعتقد أن من طعن المرأة لم يكن أنا بل هلعي المجنون.. إن المشهد يوصلك لا شعوريًا إلى حالة الجنون غير المسئول..»

ثم نظر إلى ذراعي المضمدة، وتساءل:

- «وذراعك.. هل لدغه ثعبـ..»

- «سقطة من النافذة في أثناء فرار مسرع كأي لص..»

وساد صمت طويل قطعته بأن تساءلت:

- «ما الذي جعل نصل السكين خلف باب الشقة؟ المفترض أنه سقط منك في مكان ما بالداخل..»

هز رأسه بمعنى أنّ هذه ترهات وقال:

- «لقد سقط مني بالداخل فعلًا.. لابد أن المرأة هي من وضعه هناك لتشد انتباهك..»

- «وقد نجحت..»

وجلسنا نفكر معًا.. لو كان صادقًا فمعنى هذا أن لدينا لغزًا مخيفًا ينتظر في الشقة السفلى، هذا اللغز قد تعرض لمحاولتي قتل في يوم واحد، وبرغم هذا لم يمت، ولم يحدث ضوضاء.. وهذا

مخيف في حد ذاته.. لقد صار الأمر يتمتع بلا منطقية الكوابيس، وأنا أعرف شيئًا واحدًا هو أنني لن أنتظر أكثر..

كانت العاشرة صباحًا، وأطياف الليل لا تبدو بهذا الرعب، لذا قررت أن أمضى ساعة أخرى مع (حسام)، قبل أن أتجه إلى موقف (أحمد حلمي) - وقتها ـ لأستقل أول سيارة أجرة إلى بلدتي..

سيكون أبي فخورًا بي حقًّا حين يعرف أنني هجرت الدراسة بسبب بعض ثعابين البوا العاصرة..

☆ ☆ ☆

٩ - حكايات عن الثعابين..

لم يكن (حسام) إنسانًا منفرًا إلى هذا الحد..

لا أدري هل هو لطيف فعلًا أم أنني كنت بحاجة إلى أية صحبة بشريّة غير الثعابين.. ربما هو ذلك الدفء البشري الذي ما إن تدنو منه حتى تألفه.. وربما تشابه الظروف..

وكانت قصة حياته هى البساطة ذاتها: لقد فشل في كل شيء جربه في حياته، ولم يكن معه من المال في أي وقت ما يسمح له بأكثر من كوب شاي على المقهى، وربما شطيرة فول من (زيزو)..

وكان مثلي مشحونًا بالأحلام والطموحات عسيرة التحقيق، لهذا جرب كل شيء، وفي نهاية كل يوم يقرر أن النجاح الحقيقي سيكون غدًا..

☆ ☆ ☆

هذا إذن من الأشخاص الذين يبدءون يومهم شعراء، ثم يملون هذا عند الظهر فيتحولون إلى مخترعين.. فقط ليكتشفوا عند المساء أنهم أدباء، وقبل النوم يضعون لأنفسهم عشرات الخطط مستحيلة التحقيق للغد، بدءًا بإجادة اللغة الفنلندية وانتهاء بالإقلاع عن التدخين..

المشكلة هي أنه من المبتلين بجذوة الفنون، لكنه يحترق بها فقط ولا يملكها.. إنّه يعيش ويفعل ويقول كل ما يفعله ويقوله أي فنان بوهيمي، لكنه لا يملك أية موهبة، وفي هذه النقطة أنا أفضل منه.. أنا أعرف حدودي جيدًا ولا أتجاوزها.. وأعرف أن أول دربي هو مدرس علوم في مدرسة إعدادية وآخره - لو تفوقت في الدراسة - هو أستاذ علم الحيوان في الكلية.. لن أحيد عن هذا الدرب سواء بلغت نهايته أو ظللت في أوله..

أعددت له بعض الشاي ثم سألته:

- «ما زلت لا أفهم لماذا بدأ شكك بالعجوز بالذات؟»

قال وهو يرشف أول رشفة في نهم:

- «شففف.. لا تنس أنني أقرأ الكثير من كتب السحر، وأعرف جيدًا سمات من يمارسونه.. ربما نختلف حول حقيقة السحر، لكن الحقيقة المؤكدة هي أن ملامح ممارسيه وأساليب حياتهم تتغير، وعلى سبيل المثال يُقال إن هناك شامات معينة تظهر على جبين من يتعاملون مع الجان..»

جلست جواره ورحت أتأمل المكان.. كان ثعبان صغير وديع يرمقنا من فوق خزانة الكتب التي تبعد بضعة أمتار، وخطر لي أنه من الغريب أنني لم أُلدغ بعد وسط كل هذا الزحام...

سألته:

- «إن أية امرأة عجوز غريبة الأطوار يمكن أن يتهمها الناس بأنها ساحرة، حتى لو كانت بريئة.. ليس هذا دليلًا على شيء.. ألا ترى هذا؟».

بدأ الغيظ على وجهه وقال:

- «وتقول إنك رأيت الأهوال في شقتها أمس؟ إن العجائز البريئات لا يزحفن في شققهن ليلًا ويضعن بيض ثعابين..»

- «لم أنكر أنها تتحول أو تحولت.. لكني أشك في كونها هي سبب شقائها..»

قال مفكرًا:

- «شششففف! لقد وجدت لدى المرأة كتب سحر حقيقيّة.. كتب سحر عتيقة يبدو أنها شيء تم توارثه من أجيال، كما وجدت هذه الأشياء».

ومد يده إلى جيبه فعالج شيئًا ما حتى أخرجه.. تراجعت للوراء متوقّعًا كارثة لكن الأمر لم يكن كهذا.. مجرد قطعة من بردية فرعونية قديمة ممزقة يبدو أنها أصلية.. وعليها ذات الرسوم والخراطيش المألوفة..

صحت في رعب:

- «هذه البردية ثروة حقيقيّة.. تبًّا.. إنك الآن تقحمنا في قضية سرقة آثار..»

- «كف عن السخف.. أنا لم أسرقها من مقبرة في الأقصر، لكن من شقّة العجوز، وكنت أحاول فهم ما تفكر فيه هذه المرأة وماتعيش من أجله.. أنا لا أفهم حرفًا من الموجود هنا لكني وجدت عددًا هائلًا من رسوم الثعابين.. يبدو أنّ هذه البردية تلخص علم الثعابين عند الفراعنة.. كما أنني وجدت رمزًا معينًا يبدو مألوفًا.. إن هذا الاسم الموضوع فيما يشبه الخرطوشة مألوف لدى بنقوشه.. هل ترى هذا؟»

وضع الكوب الفارغ جانبًا وراح يلوك بقايا الشاي بين أسنانه (وهي عادة قذرة لا أطيقها) وامتد إصبعه - متسخ الظفر - يشير إلى أحد الرموز في البردية، وقال:

- «إنّه يدعى (واجيت)..»

- «(واجت)؟»

هزّ رأسه مصححًا نطقي وكأنه (سيبويه) أو أحد أساتذة القراءات:

- «ليس بالجيم القاهرية بل الجحيم المعطشة الفصحى.. لا بد من نطق جزء من حرف الدال قبل الجحيم.. وا.. دجت.. وا.. دجت»

- «وما معنى هذا؟»

نظر إلى ساعته ولم يرد على السؤال، وقال:

- «الآن لا يوجد واحد من الطلبة إياهم في غرفته.. كلهم في المعهد الآن.. إن مفتاحهم معي..»

- «ولماذا يعطونك مفتاح شقتهم؟»

- «لم يفعلوا.. أنا سرقته إذ سقط من أحدهم على الدرج منذ أسبوع، وهم مهملون لم يحفلوا باستبدال قفل الباب على أساس أن المفتاح ضاع بعيدًا.. حيث لا يحفل به أحد..»

- «وهل أنت معتاد على سرقة أي مفتاح تجده؟»

- «فقط مع سكان هذه البناية المشئومة.. أنا بحاجة إلى حرية الحركة.. حرية الدخول إلى كل مكان.. أريد أن أعرف..»

☆ ☆ ☆

وقفنا على باب شقّة الطلاب ونظرت حولي مذعورًا متوقعًا أن تهوي الصواعق لتحرقنا.. اقتحام بيوت في غيبة أصحابها.. هذا ما كان ينقصني لتكتمل الصورة.. ورحت أرمق هذا المجنون يعالج القفل بمفتاحه حتى انفتح الباب، وكان من الأبواب غير ذات (الكالون) ولكنّه يعتمد تمامًا على قفل و(رزة).. لنفرض جدلًا أن أحد هؤلاء الطلاب كان مصابًا بإسهال وأنه عاد من معهده في هذا الوقت غير المبكر كي..

وفي الداخل كانت الشقة عارية من الأثاث تقريبًا، وإن لم تكن عارية من الأتربة..

في ثقة - كأنه ابن الدار - مشى المحاسب في الصالة قاصدًا أول حجرة على اليمين، وفتح الباب وألقى نظرة بينما أنا وراءه أقول كلمات مختلطة من طراز (فلترحل - لا تفعل - يكفي هذا).. لم يفتني أن ألاحظ أن الشقة كانت نظيفة من الثعابين تمامًا وهو شيء غريب.. في شقتي يمكن أن تراها يمكن أن تراها على الباب وفي الصالة الضيقة، ووراء كل قطعة أثاث كأن شقتي إحدى غابات الأمازون..

دخل الغرفة ولم يكن فيها الكثير.. يوجد جهاز كاسيت عملاق مما يعشقه أبناء القرية، وبعض الكتب الدراسية الملقاة في إهمال وكراهية، وعلى الحائط صورة لـ (فريد الأطرش) يمسك بالعود وعيناه تحلمان بالربيع الذي عاد والفجر هلت أنواره...

راح (حسام) يقلّب بين الكتب، ثم رفع حشية الفراش وألقى نظرة، ودون كلمة أخرى غادر الغرفة قاصدًا واحدة أخرى.. من جديد تبعته فرأيته يقلب الكتب ويفتح خزانة عتيقة ليلقى نظرة، ثم هزّ رأسه وابتعد ليفتش الحمام..

انتظرته في هلع وأنا ألوم نفسي على تهوري.. بعد ثوان عاد وهو يحمل ما يشبه كيسًا فارغًا من البلاستيك، وقال وهو يرفعه لأراه بوضوح:

- «جلد ثعبان.. إن الجدار خشن بالداخل يصلح المهمة كهذه!»

صحت في رعب:

- «هل تعني أنهم يتحوّلون إلى ثعابين، وبرغم هذا يذهبون إلى معهدهم للدراسة؟»

دخل الحمام ليعيد الجلد وقال:

- «وماذا في ذلك؟ إن التحول بطيء ويمكن لأقوى الناس ملاحظة أن يحسب هذه التغيرات خداع نظر.. أو مجرد تبدل دوري في الشكل.. إن لنا أيامًا نكون أقبح فيها أو أكثر تورمًا.. كلنا كذلك بلا استثناء..»

☆ ☆ ☆

جارتي الحسناء التي لم تبد حسناء في هذا الوقت بعينيها المنتفختين اللتين لم تظفرا بنوم كاف.. لعلها الثعابين؟! ولاحظت أنها إزدادت بدانة في الآونة الأخيرة.. تبًّا! أنا لا أطيق البدانة..

سألته ونحن نتّجه إلى باب الشقة:

- «هل لي أن أفهم ما كنت تقصده من هذه المغامرة!»

أغلق الباب وأعاد القفل إلى مكانه وقال لاهثًا:

- «الدليل... الدليل على أنه لا توجد عندهم ثعابين ولا برديات ولا كتب سحر.. من جديد أقول إن الشقة الوحيدة التي تحوي كتب سحر وبرديات هي شقّة العجوز.. نحن لم ندخل شقّة الموظف بعد، ولن نستطيع هذا، لكني أستطيع الجزم بأنها لا تحوي ثعابين ولا كتبًا»

وابتعدنا عن الشقة حتى صرنا في دائرة الأمان التي تقع خارج دائرة الشبهات، وأردف:

- «هذه البناية تحوي ثلاثة أنواع من البشر: الأبرياء الذين لم يتضرروا وبدءوا بعد وهؤلاء تعجّ شققهم بالثعابين..»

- «مثلي أنا وأنت..»

- «والأبرياء الذين تضرروا وبدءوا يتحوّلون، وهؤلاء تخلو شققهم من أي شيء.. ثم الفاعل الأصلي وتوجد في شقته كتب سحر مريبة وبرديات.. أنا لا أعرف متى ننتقل من القائمة الأولى إلى الثانية، وهل ننتقل إلى الثالثة أم لا.. لكنني أعرف أن موعدنا آت لاريب، وأن علينا أن نفعل شيئًا»

قلت له في نفاد صبر:

- «الشيء الوحيد الممكن هو الرحيل.. أنا سأكون في قريتي بعد ساعات..»

نظر لي مفكرًا ثم قال:

- «لن تستطيع.. وسأقول لك السبب..»

☆ ☆ ☆

١٠ - واجيت وأشياء أخرى..

قال (حسام) في هدوء، ونحن جالسان في مقهى قريب:

- «نحن لا نعرف ما حدث للمرأة.. هل حقًّا هي منيعة إلى درجة أن تتحمل طعناتنا معًا ولا تموت؟ حتى ثعابين البوا تموت بالطعن. كل شيء حي يموت بالطعن.. وما أخشاه أن نكون قد نجحنا دون أن نعرف.. أن تكون العجوز الآن في مرحلة الاحتضار البطيء وتتحامل.. والآن لو ماتت المرأة ووجدوها غدًا مطعونة، ولو وجد رجال الشرطة أنك غادرت شقتك اليوم في ظروف مجهولة، واختفيت.. عندها ماذا تستنتج أنت لو كنت معاون المباحث؟»

ودنا بوجهه المنفر من وجهي وكرر السؤال:

- «هه؟ ماذا تستنتج لو كنت معاون المباحث؟»

فكرت في كلامه وبدا لي منطقه لا بأس به:

- «سيكون هذا دليلًا دامغًا ضدي..»

- «بالضبط.. وعندها سيجدون بصماتك في كل مكان في شقتها.. والقصة بعد هذا سهلة.. الطالب الفاشل الذي قتل العجوز لسرقتها.. ربما بمساعدتي أيضًا».

رحت أحك رأسي عاجزًا عن تصديق أنني حقًّا لا أستطيع الفرار من هنا... قلت معترضًا:

- «وأي فارق سيحدث لو ماتت المرأة وأنا مازلت هنا؟ إن الدليل واحد في الحالتين..»

قال باسمًا:

- «لا.. لا.. سنعرف قبل رجال الشرطة، ولسوف نتسلل إلى الشقة ونزيل آثارنا تمامًا، ثم تأتي الشرطة لتجدنا بريئين تمامًا لم نفر؟ ببساطة لأننا لم نفعل ما يستوجب الفرار..»

- «تريد القول إن عليَّ البقاء فترة أخرى؟»

- «نعم.. ربما لمدّة يومين على الأكثر.. لو ظلت العجوز ترد على قرعات الباب، فمن المؤكد أنها نجت من هجومنا ويمكننا الفرار وقتها.. فقط بعد هذا وليس قبله..»

رحت أرمق وجهه عاجزًا عن قول شيء مفيد...

☆ ☆ ☆

كان هذا هو عصر اليوم ذاته..

صعدنا في الدرج، وعلى السطح كانت الشمس تفترش الأرضية، باعثة انعكاسات رقراقة على جلود الأفاعي إياها.. وسألته عن البوا التي كانت تسد الطريق إلى غرفته، فمط شفته السفلى بمعنى أنه لا يعرف..

وفي غرفته استطاع أن يبعد بعض الثعابين ركلًا حتى يجد مكانًا نجلس فيه، ومن الغريب أنني بعد كل ما رأيت لم أعد أهاب هذه الكائنات إلى هذا الحد.. الأفظع من الثعابين هم البشر الذين يتحوّلون إلى ثعابين..

وتأملت الثعابين التي أزاحها بقدمه.. ثعبان الجرس.. ثعبان المرجان.. كوبرا.. أنواع في منتهى الخطورة.. ما هذا الكابوس الذي نحيا وننام فيه؟

سألته وقد قررت أن أتعلم شيئًا أو شيئين.. إنني طالب كلية العلوم، لكنه هو الخبير المدقق:

- «كيف يقتل سم الثعبان؟»

قال لي وهو يشعل لفافة تبغ:

- «هذا يختلف حسب (موديل) الثعبان.. الثعابين الأصلية Elapids يدمّر سمها الجهاز العصبي، ويؤدي لشلل الحجاب الحاجز وعضلات التنفس فالاختناق.. الأفاعي Vipers يقتل سمها عن طريق تدمير الأوعية الدموية وتهشيم الكريات الحمراء مما يؤدي لفشل الكلى والصدمة.. الثعابين البحرية سمها يدمّر العضلات.. لا أتحدث هنا طبعًا عن الأصلات والبوا التي تقتل فرائسها عن طريق العصر فالابتلاع!»

- «ما شاء الله!»

قال لي في إلحاح:

- «الموضوع هو أن شرور هذا البيت تبدأ كلها من شقّة العجوز، وعلينا أن نقتحمها ثانية..».

- «أمّا هذا فلا.. لقد اكتفيت من المغامرات والتسلل، ولسوف أسكن في قريتي في حضن أمي بعد يومين أو أقل!!»

الغريب أن موقف (أحمد حلمي) صار بالنسبة لي حلمًا قصيًّا جميلًا.. صار كوبًا من الماء البارد لنفس صدية في حر أغسطس.. صار كـ (ديزني لاند).. لا.. لا.. أكثر من هذا.. ربما أصفه بـ (موقف الميعاد).. (جودو) الذي تنتظره في شوق ولا يجيء أبدًا، على رأي الكاتب العبثي (بيكيت)..

عاد يحكي لي منطقه الذي يدعوني إلى الانتظار.. في النهاية ابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- «لقد قرأنا على البردية لفظة (واجيت).. هل تذكر هذا؟»

- «أنا لم أقرأ شيئًا.. أنت قلت»

حك رأسه مفكرًا ثم قرر أن يحكى لي المزيد مما يعرف:

- «دعني أحك لك قصة مثيرة تعود إلى زمن سحيق.. أنت تعرف مدى اهتمام الفراعنة بالأفاعي وخشيتهم منها.. إن عاطفة الفراعنة نحو تلك الزواحف معقدة جدًا، هي مزيج من التقديس والخوف والحب... كان هناك كهنة ثعابين متخصصون.. وقد لاحظ الفراعنة أنه يمكنهم تقسيم الثعابين إلى أنواع: ثعابين طيبة كريمة المنبت؛ مثل الكوبرا (رع - رننوتت) سيدة مخازن الحبوب، وثعابين قوية شرسة لا يمكن مواجهتها مثل الثعبان أبو بيس الذي هاجم سفينة (رع) في أساطير الفراعنة.. وفي صخور طيبة كانت الأفعى (مرسجر) التي أحبها الأهالي.. بل إن الفراعنة عبروا عن مفهوم القدر ذاته ـ كما نفهمه نحن - في صورة أفعى.. لكن أقوى الأفاعي طرًا كانت هي (واجيت) ملكة مصر السفلي، والتي نسجت حولها أساطير لا تنتهي، منها أنها تحرس كتاب السحر الأعظم.. كانت هذه عقيدة توارثها الكهان.. ولسبب ما لم تنقرض، أو انقرضت لكن هناك من حاول إحياءها من جديد..»

وابتسم وأضاف:

- «لا بد من أنّ هذا يقرع جرسًا ما لديك.. نحن في بناية تعجّ بالثعابين ويتحول سكانها إلى ثعابين، ثم نجد لدى العجوز التي تعيش وحيدة بردية تتحدّث عن (واجيت) بالذات.. فما معنى هذا»

- «تريد القول إن العجوز في الحقيقة من كاهنات (واجيت)؟ يبدو لي هذا غريبًا».

- «لم لا؟ إنها تمضي الوقت عاطلة وحيدة تقرأ كتب السحر.. من الطبيعي أن يختل توازنها العقلي..»

كتمت التعليق الطبيعي في نفسي ومعه كتمت ابتسامة.. أعرف واحدًا آخر عاطلًا وحيدًا يقرأ كتب السحر، ومن الواضح أنه بدوره مختل العقل.. غريب أمر الإنسان حقًّا.. إن عيوبنا كشافات سيارة نركبها.. لا نراها نحن أبدًا بينما هي تعمي عيون الآخرين الذين يقابلوننا.. وبالمثل نحن نرى كشافاتهم ـ أو عيوبهم - بوضوح تام قد يدفعنا إلى مطالبتهم بتخفيضها قليلًا..

وهنا ـ لا أدري السبب - راحت لقطات خاطفة كـ (فلاش باك) السينما تضيء في ذهني..

☆ ☆ ☆

كان الاقتحام جد سهل، وهو ما كان يجب أن يثير ريبتي فلابد أن العجوز قد أحكمت تحصين نافذتها بعد مغامرة أمس...

☆ ☆ ☆

غبار كثير.. برص يسقط من مكان ما.. يا للقذارة!

☆ ☆ ☆

على الأرض طبقة كثيفة من الغبار كما في أية مقبرة فرعونية يكتشفها الأخ (كارتر)..

☆ ☆ ☆

قال (حسام) مواصلًا كلامه، فهو بالطبع لم يسمع ما دار في رأسي:

- «بل الحق هو ما أقول.. والهدف هو إنشاء مجتمع من الثعابين يبدأ من هنا.. من هذه البناية بالذات.. لقد تحول أكثر سكان البناية بالفعل، بالإضافة إلى ما نكابده أنا وأنت من أفاع في بيتينا.. إن الأمر جليّ واضح فلا تتذاكَ عليَّ، ولا تلعب دور رجل العقل المثقف الذي لا تهزه الترهات».

هكذا إذن؟ لقد بدأت أفهم.. قلت له وأنا أنهض وأتراجع للوراء خطوتين:

- «نظرية متكاملة لا بأس بها ولي إضافة أخرى عليها..»

- «مثل؟»

- «مثل كونك أنت مدبر كل هذا لا العجوز، التي هي ضحية أخرى!!»

☆ ☆ ☆

تراجع للوراء وصاح في لهجة من أهين:

- «أي سخف!!»

قلت وأنا أتجه للباب مكورًا قبضتي السليمة تأهبًا للفتك به:

- «بل هذا منطقي للغاية.. أنت الوحيد الذي لم تبد عليه علامات التحول.. تعيش مع كل هذه الثعابين السامة وبرغم هذا لا تلدغك، بل وتبعدها بقدمك دون أن تقلق وكأنها تخشاك».

- «وماذا في ذلك؟ إن نفس الكلام ينطبق عليك على ما أظن..»

- «لكن ثعابينك أخطر بمراحل من ثعابيني.. كيف يعقل أن تعيش كل هذه الفترة مع الكوبرا التي تبصق سمها في العيون، وتظل سالمًا؟ حين تذكرت منظر الغرفة في شقّة العجوز أدركت بوضوح تام أنك كاذب وأنك لم تدخلها قط، وأن نصل السيف تحت الباب كان مجرد حيلة لجذبي بدوري.. الغرفة كانت حين دخلت أنا مليئة بالغبار كقبر (سنوسرت الأول).. لا آثار أقدام على الإطلاق.. كان هناك برص على مصراع النافذة وأطنان من التربة وعناكب.. هذه أشياء لا يمكن أن تظل هناك بينما دخلت أنت قبلي في اليوم ذاته.. كان المصراع لينا سهلًا ولا يتفق مع محاولة اقتحام طازجة.. كنت تكذب طبعًا.. أنت لم تدخل الشقة ولم تطعن العجوز.. وأنت الوحيد الذي له علاقة بكتب السحر ها هنا.. لا أدري إن كانت قصتك عن (واجيت) هذه صحيحة، لكني أعرف أن البردية خاصة بك، وأن العجوز لم تكن تملك كتب سحر.. ترى ما هي ألعوبتك؟»

- «هـذه!!»

☆ ☆ ☆

١١ - أنت عرفت!

ولم أتوقع السرعة التي كال بها لكمة إلى أنفي، حتى أنني سقطت للوراء بعدما اندفعت مترًا.. كنت أتوقع نوعًا من الحوار المراوغ.. نوعًا من الإنكار.. نوعا من التلاعب بي.. ليس بهذه السرعة..

وحين فهمت ما يحدث، كان الدم يغمر أسفل وجهي.. وشعرت كأن أنفي قد تحركت لأعلى لتمزق نسيج المخ.. هل هذا ممكن؟ آي! في اللحظة التالية هوى شيء ثقيل على رأسـ..

☆ ☆ ☆

وحين فتحت عيني، كنت راقدًا على الأرض في شقّة ليست شقتي، لكنّها مألوفة لي بظلامها وقذارتها ورائحتها العطنة.. وكان (حسام) - لو كان هذا اسمه حقًّا - ينتهي من عملية جرّي من ساقي على الأرض..

كان يلهث من فرط المجهود ـ فأنا أضخم منه جسدًا ـ لكنه سعيد راض...

- «هل أفقت؟ عظيم! اغفر لي خشونتي، فأنت قد صممت على أن تظل عنيدًا للنهاية، ولم تعد الحيل قادرة على جعلك تجيء هنا!»

تحسست رأسي، وبوهن تساءلت:

- «أين أنا؟»

- «في شقّة صاحبة المنزل طبعًا... ألم تزرها أمس؟»

وتنهد وأمسك بظهره متألمًا:

- «آي! يا للمجهود!»

- «لماذا لم تقتلني أصلًا؟»

ـ «كنت أتمنى هذا للأسف.. لكن البوا لا تلتهم فريسة ميتة؟ وللسبب ذاته لم أقيدك أو أخدرك.. والآن وداعًا!»

حاولت النهوض مرّتين، لكني كنت أسقط في كلّ مرّة، فصحت غير فاهم:

- «ما معنى هذا؟»

- «لقد تحورت العجوز إلى بوا عاصرة.. إنها أجمل أعمالي الفنية.. وقد نضجت البوا.. نضجت جدًّا ولم تعد الفئران كافية لإطعامها.. هذه هي المشكلة الدائمة التي تطاردني.. لكنّها قادرة على ابتلاعك دون شك، ولتكن وجبة دسمة تكفيها شهرًا.. سترى أية روعة في هذه العملية.. إن عظام فكيها متحركة تسمح لها بابتلاع فريسة تفوق حجم رأسها بمراحل.. ولو طال الابتلاع يمكنها دائمًا أن تخرج قصبتها الهوائية من تحت جسدك، لتستنشق الهواء مباشرة فلا تختنق!! يا للكائن الرائع!»

- «لماذا لم تبدأ تحويلي إلى ثعبان بدوري؟»

- «إنها عملية معقدة تحتاج إلى وقت.. تحتاج إلى كثير من التعويذات على باب شقتك وسوائل كثيرة من تحته.. تحتاج إلى حيلة تشرب بها الترياق.. أمّا الآن فالحاجة ماسة إلى إطعام هذه الأفواه.. إن من لا يستحق شرف التحول لثعبان يصلح بالتأكيد فريسة.. وأنت لا تستحق الثعبانية!»

- «هل تعني أن كل هذه اللعبة كان الغرض منها جعلى أدخل هذه الشقة؟»

- «طبعًا.. تدخلها حرًا غير مكبل وبكامل وعيك، وإلا لن تأكل البوا شيئًا.. كنت أعرف أنك ستتسلل إلى الشقة أمس، لكن فشلت الحمقاء في اللحاق بك، إلا أنّ الفرصة متاحة اليوم!»

- «إذن أنا لم أقتلها أمس حقًّا..»

- «أنت تحتاج لضربات أقوى وأكثر كي تقتل ثعبانًا ضخمًا يافعًا كهذه!!»

- «وكيف تدخل أنت الشقة وتخرج منها؟»

- «أدخلها بمفتاحها ومن بابها كأي مواطن محترم.. إنني أدخل وأخرج من أية شقّة في هذه البناية، لأن جميع السكان صاروا ملكًا خالصًا لي.. أنا سيد الثعابين وحارسها!»

ثم صاح في مرح:

- «تذكر! قاوم بشراسة ولا تبع حياتك سهلة.. إن مقاومة الفريسة تمنح البوا العاصرة لذة غامرة.. هكذا تمنحها شعورًا بالإنجاز!!»

وهز رأسه محييًا وابتعد، وفي الوقت المناسب قبل أن أغالب الدوار وألحق به.. وفي اللحظة التالية وجدتني في الظلام وحدي.. من الواضح أنه خرج عبر باب الشقة، وأغلقه وراءه.. ترى كم الساعة الآن؟ لا شيء يضايقني مثل اختلال ساعتي البيولوجية.. هذا يزيد من حالة الدوار لدي، ويجعلني على شفا القيء أو فقدان الوعي.. هل هو نهار أم ليل؟ رباه! أريد أن أستعيد توازني.. لست طبيبًا لكني أعتقد أنني أعاني ارتجاجًا مخيًا شديدًا.. لكمة كهذه التي تلقيتها يموتون بها في مباريات الملاكمة..

نهضت على قدمين من عجين، فاستندت إلى الجدار.. كل هذا كابوس.. كابوس لن يلبث أن ينتهي.. لكن صوت الفحيح الغاضب جعلني أعرف أن كل هذا حقيقي... عقلي الباطن لا يستطيع اختراع فحيح كهذا..

يجب أن أشعل نارًا.. يجب أن أضلل هذا المسخ.. لكن كيف السبيل إلى المطبخ وأنا لا أعرف مكانها بالضبط؟ وهنا جاءت الإجابة..

كانت في الصالة تواصل زحفها.. وبنفس الطريقة الشاذة التي رأيتها أمس، كأنما ليس لها ساقان..

الجميل في طريقة الموت الغريبة هذه، هي أنه ما من جثث يجب الخلاص منها، ولن يبقى منى سوى حذاء أو خرقة ثياب، ولن يعرف أحد أبدًا حقيقة ما حدث..

لابد من سلاح.. لابد...

كان المسخ يواصل تقدمه في الصالة ببطء.. بإصرار.. والرأس يتأرجح يمينًا ويسارًا.. حتى في دنيا الثعابين لن يكون لها مستقبل.. إنها ثعبان ممسوخ يثير التقزز لدى أي ثعبان محترم.. ترى ماذا كان حالي سيغدو لو كانت هذه أفعى حقيقيّة؟ بالتأكيد كان رعبي ليقل نوعًا..

هرعت إلى النافذة الموصدة، ورحت أعالج مصراعها كالمجنون بيد واحدة.. كان وتد رفيع من الخشب قد تم تثبيته على سبيل تدعيم المصراع لكني انتزعته، وفي النهاية استسلم المصراع لي، واستطعت أن أفتح الشيش.. كاد نور الغروب الخارجي العذب يجد طريقه إلى الداخل، ولكن في اللحظة التالية شعرت بشيء قوي يلتف حول خصري، ويسقطني إلى الوراء..

وسقطت أرضًا وحاولت أن أصرخ.. لكن الهواء لم يتسلل إلى رئتي أصلًا.. كان الضغط هائلًا..

واستطعت الآن أن أتبين ما يمسك بي... لقد تحولت المرأة تمامًا لكن رأسها ما زال بشريًا، وإن اكتسب بشاعة جديرة بالأفاعي.. استطال جسدها إلى ما يقرب الخمسة الأمتار لكن ثلاثة منها كانت تلتف الآن حولي، وتزيد من قوة الالتفاف.. ولاحظت أن الذراعين قد ضمرا تمامًا.. ربما تحولا إلى المهمازين اللذين يميزان الأصلات والبوا لدى علماء الزواحف..

الآن ينفتح الفم.. ينفتح إلى حد لا يصدّق... وأرى اللسان المشقوق والبلعوم الشبيه بفتحة مغارة حمراء ملساء.. رباه! لماذا لم تتحول إلى ثعبان سام؟ كان هذا أفضل وأسرع..

في اللحظة التالية تقلصت يدي السليمة على شيء.. والشيء كان قطعة الخشب الوتدية التي انتزعتها من النافذة.. كانت غير مدببة لكنّها تصلح بالتأكيد.. ودون تفكير أولجتها بعمق في حلق الأفعى..

وتذكرت قصة الضب الذي حاول الثعبان ابتلاعه، لكن الضب اعتصر قرع شجرة بين فكيه، ليشكل عائقا يمنع الثعبان من إتمام المهمة.. أين قرأت هذه القصة؟ أين؟ أشياء غريبة يتذكرها المرء وهو في قبضة ثعبان..

رباه! لابد أن الضرر كان بالغًا... لقد تراخت القبضة العاصرة عن خصري.. ثم بدأت تقلصات مريعة في الجسد بأكمله.. من جديد انبثق دم التخويف من العينين والفم.. وبعد دقائق بدا لي أن الأمر قد انتهى بالتأكيد...

همد الشيء المريع..

وجلست على الأرض ألهث بضع دقائق.. يبدو أنني بكيت كذلك من فرط انفعالي..

☆ ☆ ☆

نهضت.. وأزمعت أن أفتح النافذة لأثب منها إلى خارج هذا المنزل المشئوم.. وكدت أفعل لولا أن سمعت من يصيح في جزع:

- «السيدة (رتيبة)! أنت قتلتها!»

كان شعاع شمس أخير كئيب قد تسرب إلى الحجرة، لكنني لم أحتج إلى ضوء كي أعرف من القادم.. هذه (هيام)..

كانت واقفة عند باب الغرفة، تغطي فمها محاولة كتمان صرخة أخرى، ولا أدري متى دخلت ولا كيف.. لكنّها جاءت في لحظة غير ملائمة بالتأكيد..

وبدأت تتقدم ببطء، وفي عينيها نظرة اتهام دامعة، وهما لا تبرحان الجثة..

قلت وأنا أنهض راجفًا:

- «كيف دخلت هنا يا (هيام)؟»

- «كان الباب مفتوحًا.. وخفت أن يكون ماحدث قد حدث.. ليتني مت ولم أر هذا المشهد!!»

ابتلعت ريقي وتراجعت للوراء، وقلت:

- «ما دام الأمر كذلك.. ألا تجدين أنها لم تعد هي المرأة التي عرفتها؟ لقد تحولت إلى ثعبان، ولم يكن مناص من القتل..»

- «ماذا تعني؟»

ماذا أعني؟ نظرت إلى الأرض إلى حيث كانت جثة ثعبان يصل طولها إلى خمسة أمتار؛ فلم أر إلا امرأة عجوزًا ميتة! إنني في مأزق حقيقي.. لقد أدى موت المرأة إلى رجوعها لطبيعتها، كما يحدث في السينما عندما يموت المذءوبون.. أنا لم أر السينما قط لكني أعرف هذا المشهد جيدًا.. سيكون عسيرًا بعض الشيء أن أفسر لماذا دسست وتدًا خشبيًا في حلق هذه العجوز المسالمة..

يا له من مأزق!

☆ ☆ ☆

١٢ - الحمقى يعودون دائمًا..

«عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا في الأرض الطينية.. أيتها الأرض.. ابتلعي ثانية ما خرج منك!»

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

☆ ☆ ☆

وقالت (هيام) وهي تمد يدها نحوي بقطعة من قماش:

- «اسمع أيها التعس.. أنا لن أسامحك على هذا أبدًا.. لكنني لن أتكلم.. هلمّ أغلق هذه النافذة وتخلص من بصماتك، ثم غادر هذا المنزل..»

حقًّا.. لابد من إزالة البصمات الكثيرة.. لكن ما جدوى هذا؟ إن الشرطة ستجدني في جميع الظروف..

قالت (هيام) وهي تتعلق بذراعي:

- «ليسامحني الله.. إن الحب يدفعني إلى خيانة هذه المرأة العجوز دفعًا.. هلمّ!!»

- «سرَّني أنك لم تملئي الكون صراخًا كما هو المفترض..»

وأصخت السمع.. كنت أعرف أنني سأسمع هذا الصوت.. تتتتتتت تتتتتتتك! إنّه آت من مكان ما تحت تنورتها.. أستطيع أن أرى الحلقات الكيراتينية المتداخلة تهتز باستمرار.. حلقة جديدة تُضاف مع كل انسلاخ جلدي جديد.. أنت أيضًا!! وهذا بالطبع يفسر هذه الشهامة غير المفهومة غير المنطقية.. بعض الثعابين تملك القوة المباشرة لتنال ما تريد.. لكن بعضها يحتاج إلى التحايل.. إلى النعومة.. ومن هذه الثعابين الحية ذات الجرس!! إنها تتحايل حتى تدنو منك، ثم تشب وثبة واحدة وتفرغ سمها الناقع في عروقك..

لكني لم أؤذ (هيام).. على الأقل ليس بشكل مباشر..

لم أستطع حتى لو لدغتني بألف ناب..

في اللحظة التالية دفعتها بقوّة للوراء، وكان التوقيت مناسبًا لأنني في اللحظة ذاتها رأيتها تطير في الهواء باتجاهي وهي تطلق نلك الفحيح.. هكذا يموت فأر الحقل قبل أن يعرف أنه مات.. تفاديتها بصعوبة ثم ركضت إلى الباب فالصالة..

☆ ☆ ☆

وكانوا جميعًا هناك يقفون في الصالة المظلمة (دائمًا مظلمة في كل أوقات اليوم)..

استطعت أن أرى الطلبة الأربعة جيراني.. وأبا (هيام) الموظف المحترم...

تراجعت للوراء متوقعًا الأسوأ، وصحت في عصبية..

- «لا أريد أن يعترض طريقي أحد.. أنا لست قاتلًا.. لا أريد المزيد من الدماء!»

قال الأب. وهو بطبيعة الحال أكثرهم قدرة على التعقل والهدوء:

- «لو حاولت أن تتعقل يا بني، فسوف تجد أن العصبية لن تقودك إلى أي مكان.. لا مهرب من هنا.. لا مهرب..»

كنت قلقًا من جهة ظهري.. ترى أين (هيام) الآن؟ بالطبع تزحف ببطء لتنشب أنيابها في عنقي.. أريد سلاحًا.. ولكن لا.. السلاح يعني المزيد من القتل.. بينما لا يستحق القتل من كل هؤلاء إلا واحد.. محاسب اسمه (حسام) مازال يأمل أن تحكم (واجيـ..

وميزت على الفور هذه الوقفة المنتصبة لدى أحد الطلاب.. ميزت الأسلوب الذي أرجع به رأسه إلى الوراء ونفش صدره.. ميزت النظرة الشريرة في عينيه.. وانحنيت في الوقت المناسب تمامًا لينطلق رشاش السم عابرًا الصالة.. يقطع مسافة خمسة أمتار ويمر فوق رأسي، ثم يصطدم بالجدار خلفي ويسيل على الأرض، ولو لامسني لأصابني العمى حالًا.. ربما كان العمى مؤقتًا، لكنه يعطيهم الفرصة الكاملة للظفر بي..

هذا الفتى يلعب دور الكوبرا الناشرة إذن.. ففيم تخصص الباقون؟

قال الأب للفتى بنفس الطريقة المتزنة:

- «لا تندفع يا (حامد).. إن هذا الفتى مهذب ولسوف يقتنع بالمنطق بعد قليل..»

قلت وأنا أبحث بعيني عن ثغرة في صفوفهم:

- «لن تقنعني لأنّه لا منطق هناك..»

- «نحن نعرف أنك قتلت السيدة (رتيبة) وبرغم هذا نحاول أن نتفاهم معك..»

- «بل هو الالتهام كما أرى.. أنتم بحاجة إلى وجبة دسمة.. لا أكثر ولا أقل..»

- «لو هدأت قليلًا فلسوف..»

وقبل أن يكمل كلامه انطلقت ساقي في ركلة إلى أقرب الفتية، وقد ظلت أنيابه الطويلة في ذاكرتي دهرًا.. وفيما بعد عرفت أنه يلعب دور حية (الجابون).. أطول أنياب في دنيا الأفاعي..

ومررت من تحت رأس الأب الذي بدأ في الفحيح، وبحثت عن الباب.. الباب.. أين الباب حين تريد واحدًا؟ وهنا وجدت أحدهم يقف سادًا المدخل وهو يُطلق فحيحه الشرير..

انفتح الباب وظهرت الزوجة.. أم (هيام).. كانت تصرخ في هستيريا.. وصاحت وهي تعتصر كتفي الفتى من الخلف لتمنعه من إعاقتي:

- «اتركوا هذا البائس بالله عليكم! ألا ترون ما وصل الحال بكم؟ ألا تفهمون ما صرتم إليه؟»

هنا أنشب الفتى أنيابه في ذراعها.. لم تكن لدغة وانتهى الأمر كما كنت أتوقع، بل ظل يعتصر الذراع بين فكيه، ويمضغ أكثر فأكثر كأنه يحاول إفراغ أكبر قدر من السم...

بالطبع لم أفهم هذا وقتها - ومن لديه دقة الملاحظة في ظروف كهذه؟ - لكني فيما بعد عرفت السبب.. بعض الأفاعي لها نابان أماميان كأنيابنا نحن البشر، وهذه الأفاعي هي الأكثر رقيًا وتطورًا.. إنها تلدغ لدغة واحدة ثم تبتعد لتنتظر موت فريستها البطيء أو السريع.. البعض الآخر له أنياب خلفيّة لهذا يضطر إلى التشبث بالفريسة أطول فترة ممكنة، ومن هذه الحيات حية (البومسلانج).. هذا الفتى كان (بومسلانج) وكان يؤدي عمله جيدًا..

بالطبع كنت قد كففت عن الثقة بالناس، ولم أعتبر ما قامت به الزوجة إلا مؤامرة أخرى من مؤامرات الأفاعي، لهذا - وقد منحني ظهورها الوقت الكافي - استغللت فرصة هذه الفوضى، وجريت خارجًا من الباب، ووليت الأدبار...

للمرة الأولى في حياتي أعشق مرأى الحارة إلى هذا الحد..

☆ ☆ ☆

واختفيت طيلة الليل والنهار التالي في شوارع القاهرة المزدحمة..

كان تقديري للأمور هو أن أحدًا لن يبلغ الشرطة.. الآن وقد تحول المنزل إلى جحر ثعابين لم يعد أحد راغبًا في إقحام الشرطة في الموضوع.. ثم إن الثعابين تلتهم بعضها على كل حال، ولن تحدث جثة العجوز فارقًا كبيرًا... المشكلة هي مكان ومصير ذلك الوغد المدعو (حسام)..

كان تقديري للأمر كذلك أن الزوجة - غالبًا - لم تتأثر باللعنة بعد، ومعنى هذا أن البائسة عاشت وهي ترى زوجها وأولادها يتحوّلون إلى مسوخ.. هذا وضع اعتادته وحاولت أن تتأقلم معه، لكنّها لم تتحمل أن ترى انفراد الثعابين بي، ومحاولتهم التهامي.. فلو كان حدسي صحيحًا أعتقد أنها الآن ميتة، وليس بوسعي عمل شيء لإنقاذها..

وعندما جاء المساء كنت قد اتخذت قراري.. قرارًا قاسيًا باردًا.. باردًا لكن تنفيذه سيتم بالنيران، لم يعد لديَّ خيار.. اتجهت إلى بعض تجار الأدوات المستعملة، فابتعت ثلاثة جراكن، ثم عرجت إلى محطة بنزين قريبة وملأت اثنين بالبنزين ومن أحد البقالين ملأت واحدًا بالكيروسين..

مشيت بحملي الثقيل وذراع واحدة سليمة عبر شوارع الضاحية، عالمًا أن نهاية كل شيء هي سؤال متشكك من مخبر عن هذا الذي أحمله.. لكني لم أخش شيئًا، وبشكل ما أدركت أنني سأنجز مهمتي بسلام... لن يعترضني أحد.. إنني أنقذ المدينة، ولسوف يكون التوفيق حليفي..

اتجهت إلى المنزل المشئوم.. وبثقة صعدت إلى السطح وبدأت عملي..

كان باب غرفة المحاسب إياه - كاهن (واجيت) لو لم يكن أحدنا مخبولًا - مغلقًا.. لكني لم أجرؤ على طرقه.. وبدأت أسكب الكيروسين مبتدئًا بالسطح، وغمرت الجلود المتناثرة هناك بقدر لا بأس به.. ثم بدأت أنزل الدرج مواصلًا مهمتي الكريهة.. كان الظلام قد بدأ يخيم لكني كنت قادرًا على رؤية ما أفعله..

أخيرًا وصلت إلى مدخل البناية وهو الجزء الأخطر من العملية، فسكبت ما تبقى من البنزين هنا وهناك، ثم تراجعت للوراء وأخذت شهيقًا عميقًا.. أخرجت عود ثقاب واستعددت لأحكه بالعلبة، حين..

حين دوي الصوت الجهوري:

- «لا تتحرك يا فتى!!»

☆ ☆ ☆

«عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا في الأرض الطينية.. أيتها الأرض.. ابتلعى ثانية ما خرج منك!»

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

☆ ☆ ☆

لم يكن عسيرًا أن أعرف أن أصحاب هذه الأجساد الضخمة والكروش العملاقة والنظرات البوليسية الصارمة هم مخبرو شرطة.. الجلباب من فوقه المعطف الصوفي الثقيل والكوفية ولو كنا في أغسطس..

كان أحدهم ـ ذو الجلباب - يمسكني من قذالي.. بينما آخران بثياب عادية يحيطان بي، وأحدهما ينتزع الثقاب من يدي.. ويقول بانتصار:

ـ «أنت متلبس!»

ثم ألقى بالثقاب على الأرض وداسه بحذائه الحكومي الغليظ، ومن مكان ما برز ضابط شاب متحمس أبدى استحسانه لأداء (بسطويسي) - وكل المخبرين اسمهم (بسطويسي) - ومن مكان آخر برزت سيارة البوكس متأهبة لنقل ذلك المجرم الخطير إلى القسم...

وقال الضابط:

- «منذ اختفائك بعد قتل العجوز ونحن نراقب المكان بعناية.. كنا نعرف أنك ستعود..»

ولكن أين المحاسب؟ أين هو؟

كان زحام يحتشد حولنا.. سكان كثيرون صحوا من نومهم ووقفوا يراقبون المشهد في استمتاع، ونظرت حولي لأجد الرجل ـ كما توقعت ـ واقفًا وهو يعض أنامله في توتر، وقد بدا عليه الإعجاب بيقظة الشرطة! قلت له دون تعبير معين في صوتي:

ـ «أنت أبلغتهم..!»

قال بصوت تمثيلي لا يثير الريبة، عالٍ كي يسمعه الجميع:

- «لم أتوقع أن تقتل العجوز.. حسبتك ملاكًا.. إلا أنّ طالبة جامعية تدعى (هيام) رأتك تغادر الشقة مذعورًا.. ثم تختفي طيلة النهار.. إن قاعدة عودة المجرم لمكان الجريمة لا تخيب.. والآن عدت لتحرقنا جميعًا! ولا أدري سبب هذا»

ثم ارتجفت يداه في ميلودرامية وتحشرج صوته:

- «ألم تكفك كل هذه الدماء حتى تنوى حرق الأبرياء؟»

ومد يده بلفافة تبغ لأحد المخبرين على سبيل التودد والسماح له بالدنو مني أكثر، وهمس في أذني:

- «أنت أحمق.. وليكونن تفسير الأمر عسيرًا بعض الشيء.. يُمكنك أن تحكي لرجال النيابة كل شيء عن الثعابين، وعن العجوز التي تحولت إلى بوا عاصرة، وعن كاهن (واجيت) الذي يعمل محاسبًا.. هيا لا تخجل! إنِّه السبيل الوحيد كي لا يعدموك شنقًا.. إن مصحة الأمراض العقليّة أهون من الإعدام على كل حال!»

ثم أردف وهو يبتعد:

- «لم يتغير شيء.. سأواصل ما بدأت!! وغدًا سيكون مجتمع من الثعابين، ولأكون أنا كاهنه الأعظم!»

نظرت إليه وهو يبتعد وقلت لنفسي إنّه محق فيما قال.. أنا أحمق.. وعلى أن أتمسك بقصتي العجية لأنها مهربي الوحيد من تهمة القتل العمد.. ثم من يدري؟ ربما أنا مجنون حقًّا.. ما من مجنون يعرف أنه كذلك في التاريخ..

وفي اللحظة التالية كنت أدفع دفعًا إلى (البوكس)، بينما احتشد سكان المنطقة يرمقونني في استمتاع وشيء من الرهبة، وسمعت من يهمس لجاره:

- «طالب فاشل.. قتل العجوز ليسرقها!!»

لم ألمه لحظة.. فلا يوجد عندي ما يُقال..

لقد وقعت في شرك محكم.. شرك من النوع الذي يفهمه الفأر على الفور، حين يترك نفسه لمخالب القط تعابثه.. إنّه أحكم من أن يضيع وقته الثمين ووقتها في محاولات فرار لا تجدي..

☆ ☆ ☆

وكانت هذه قصتي..

وبالطبع لم يجد رجال الشرطة ما يريب في البناية كلها.. لا ثعابين في الشقق، ولا أناس يتحوّلون إلى ثعابين.. لقد اختفى كل ما من شأنه أن يجعل قصتي ذات مصداقية ما..

لا داعي لأن أحكي عن النظرات الحائرة الساخرة قليلًا التي قابل بها الجميع قصتي عن كاهن (واجيت).. وحتّى المحامي الذي انتدبه أبي بعد ما باع الجاموس، قال لي في عصبية وهو يلملم

أوراقه:

- «تبًّا! اسمع يا بني.. أنا لا أستطيع مد يد العون لك ما لم تقل كلامًا معقولًا.. قل إنك قتلت العجوز أو إنك لم تقتلها.. وفي الحالين سأحاول مساعدتك.. المهم ألا تحدثني عن الثعابين مرّة أخرى..»

- «لكن هذا هو ماحدث يا أستاذ (عوني)..»

- «وأنا لا أصدق حرفًا من هذا والمحكمة نفسها لن تتركني أقول هذا الهراء..»

قربت رأسي من وجهه وقلت همسًا:

- «ثمّة ورقة واحدة ستلعب بها.. ستزعم للمحكمة أنني مجنون..»

قال في تهكم لم أفهمه وقتها:

- «حقًّا؟ لن يكون إقناعهم بهذا عسيرًا على كل حال.. فأنت تجيد التظاهر بهذا!»

- «إنك ستحاول.. أليس كذلك؟ إنني أكره المشنقة يا أستاذ (عوني).. أكرهها خاصة وأنا لم أبلغ العشرين من عمري بعد..»

أخذ شهيقًا عميقًا ونظر لي في كراهية، ثم حمل أوراقه وانصرف...

☆ ☆ ☆

وانتدبوا طبيبًا نفسيًا فحصني، ثم أعلن أنني مجنون خطر.. والبقية تعلمونها جميعًا.. أنا لم أُعدم فأين أنا إذن؟؟؟!! طبعًا أنا أكتب هذه السطور كجزء من العلاج..

هل أنا مجنون؟ بالطبع لا.. أنا وأنتم فقط نعرف أن ما حدث صحيح..

في مكان ما في بناية ما، يوجد أشخاص يتحوّلون ببطء إلى ثعابين.. وهذا وباء سيعم المجتمع بعد قليل.. ربما بعد أعوام.. ربما بعد أشهر.. ربما تم بالفعل..

متى سيلاحظ الناس حقيقة هؤلاء المتحولين؟ لا أدري.. وربما لن يلاحظوها أبدًا لأن المتحولين لن يصيروا أفاعي تمامًا.. سيظلون يحتفظون بلمسة بشريّة خادعة.. فقط سيعرف الناس الحقيقة بعد فوات الأوان.. وحين يتحول أقرب أقربائهم إلى ثعابين..

راقبو الأفاعي! لاحظوا أية زيادة غير مبررة في عددها.. لاحظوا أية أنواع غير مألوفة منها.. لاحظوا الأشخاص الذين لا جفون لهم، والذين يحبون الدفء أكثر من اللازم..

إن الكابوس هناك بالخارج.. لا يعلم إلا الله متى ينتهي، ولا متى يتم القضاء عليه ولا كيف.. فقط اقرءوا كل شيء عن الثعابين كما أفعل أنا الآن.. أعدوا أمصالكم المضادة لسم الأفاعي وانتظروا..

☆ ☆ ☆

إن اسمي (محمود شوقي) ولا أتوقع بالتأكيد أن يثير هذا الاسم رعبكم، أو يجعلكم ترتجفون هيبةً وتوقيرًا، أو تفركون أكفكم في شغف.. في الواقع لن يسمع أحد عن هذا الاسم شيئًا بعد اليوم**!!**

☆ ☆ ☆

خاتمة

وبعد.. كانت هذه نهاية صديقنا المتحمس (محمود شوقي).. بالطبع لا أستطيع أن أضيف حرفًا.. فالقصة كلها حكاها لي في ساعة صفاء، قابلته فيها في مصحة عقليّة، وبالتحديد في أثناء مباراة ترفيهية أقامها النزلاء هناك.. كنت أقوم بزيارة لصديقي القديم د. (محمد إبراهيم) أستاذ الأمراض النفسية، وقد جلسنا أنا وهو نرمق المرضى يلعبون الكرة باعتبارها من الطرق العلاجية الصحيحة.. كان تصوري لهذه المستشفيات هو زنازين مبطنة يجول بينها ممرضون أقوياء شرسون، وحمامات ماء مثلج وصدمات كهربية.. إلخ.. وقد دعاني صديقي لأرى أن الأمور لم تعد بهذا السوء.. أشار إلى أحدهم ـ وكان شابًا في العشرين من عمره - وقال:

- «هذا الفتى كان طالبًا يبشر بالخير ثم..»

- «.. ثم لم يعد يبشر به.. هذه الأشياء تحدث..»

أردف وهو يرقب المباراة:

- «ثمّة نماذج عديدة هنا يجد المرء نفسه حائرًا في تصنيفها.. كل الاختبارات النفسية تؤكد رجاحة عقله، لكن ما يقوله يدل على حالة بارانويا متقدمة..»

سألته في غباء من لا يفقه شيئًا في الطب النفسي:

- «وهل يوجد احتمال أن مايقوله صحيح؟»

مط شفته السفلى بمعنى أنّ هذا عسير، ثم قال ضاحكًا:

- «صعب.. صعب جدًا.. إننا نعرف المرض النفسي حين نراه..»

- «وما هو الحل لو كان الصادق الوحيد في المستشفى هو بالصدفة هذا الشخص؟»

- «يُمكنك أن تتكلم معه وتكون رأيًا..»

فلمّا رأى ترددي قال لي:

- «لا تخف.. لا تتصرف كالجهلة.. إنّه مسالم جدًا ولن يمزق حنجرتك بأنيابه لو كنت تفكر في هذا.. كل ما يفعله هنا هو أنه يطالع الكثير جدًّا من كتب الأحياء، وبالذات التي تتكلم عن الثعابين!»

- «ثعابين؟»

- «.. ويبحث عن طريقة للتحول إلى حيوان مانجوس!!»

- «مانجوس؟»

- «قلت لك لا تقلق.. هذه ضلالات غير عدوانية..»

- «ستقول هذا إلى أن تجد نصل المدية على عنقي، والفتى يأمركم بفتح باب المصحة له وإلا ذبحني..»

- «لا شيء يغريني بفتح باب المصحة مهما كانت التضحيات!»

وابتسم ونادي النزيل، فجلسنا جلسة طويلة طويلة.. وفيما بعد جعلت الفتى يكتب قصته بالتفصيل، وهي الأوراق التي قرأتموها الآن.. ولقد سألني د. (محمد) عن رأيي بعد سماع القصة، فسألته بدوري:

- «لماذا لا يتطوع أحد بزيارة العنوان المذكور ليرى ما حل بهؤلاء القوم؟»

- «لأننا لا نصدق المجانين.. هذا كل شيء...»

- «قلت إن هذا الفتى لا يتصرّف كالمجانين..»

- «لكنه يقول ما يقولون.. لهذا يعالج كما يعالجون..»

وبعد صمت قليل سألني:

- «ما زلت لا أعرف رأيك..»

في ثقة قلت:

- «لا أدري.. هذه هي الإجابة المحترمة والمناسبة والوحيدة - ربما - التي يمكن بها الرد على أسئلة من طراز مثلث برمودا وقارة (ليموريا) وأسرار التحنيط..»

نعم أنا لا أدري، ولست واثقًا من شيء..

لا أدري، ولست مؤهلًا للحكم على الحقيقة..

يمكنكم أن تقرءوا القصة من جديد وتخبروني برأيكم..

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة أعود لعالمي المعتاد، وألقى طفلًا من نوع خاص.. طفلًا سيقدر له أن يغير مجرى حياتي.. ذلك المجرى الذي يتغير أكثر من اللازم هذه الأيام...

ولكن هذه قصة أخرى..

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - بيئة غير صديقة..

٢ - ضيوف غير مرغوب فيهم..

٣ - حلول لا تجدي..

٤ - مغامرة الرفاعي..

٥ - إنهم يأتون ليلًا..

٦ - أسطورة بيت الأفاعي..

٧ - على الطريقة الروسية..

٨ - لقد عاد حسام..

٩ - حكايات عن الثعابين..

١٠ - واجبات وأشياء أخرى..

١١ - أنت عرفت!

١٢ - الحمقى يعودون دائمًا..

خـاتـمة

Notes

[1←] قدمناها في (روايات عالمية للجيب) رقم (١٦).

[2←]
فير دي لانس عبارة فرنسية معناها (رأس الرمح).. واعتقد بذكائي المعروف أنّ هذه الأفعى تشبه الرمح!

روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

46

أسطورة طفل آخر

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

لن أستطيع مواصلة النوم..

لو لم يهاجمني ذلك الكابوس، لاستطعت أن أنعم بخمس ساعات كاملة.. وهي بالنسبة للشيوخ كافية للغاية.. إن الشيوخ - كل الشيوخ - يتمتعون بنوع خاص جدًا من الأرق يسمونه (الاستيقاظ قبل الأوان)، وهم عامّة ينامون أقل من الشباب بكثير..

أما الآن فالفراش يبدو لي أرضًا معادية، ولم يعد فراشي، وقد تجعدت الملاءة وانثنت الوسادة.. ثم إن ذراعي وساقي قد نسيت على ما يبدو الوضع المريح الذي بدأت به النوم..

لن أستطيع النوم ثانية..

لذا أعقد رباط الروب الصوفي حول خصري، وأتجه إلى الصالة لأجلس هناك.. تعالوا معي.. هل ترغبون في بعض الشيكولاتة الساخنة أو الشاي؟ إن الدار داركم، لكن لا تعبثوا بشيء ولا تحطموا المزهريات أو الأكواب من فضلكم.. إن في هذا عناء - أي عناء - بالنسبة لشيخ مريض يعيش وحيدًا..

عم أحكي لكم الآن؟

سأحكي لكم عن التوءمتين اللتين كانتا تشعران بالشيء ذاته كلما.... ماذا؟ حكيتها؟ غريب هذا! إن ذاكرة المرء لم تعد مما يطمئن السامعين..

ليكن.. هل أحكي قصة الطوطم؟ إنها مخيفة بما يكفي، لكني خارج من كابوس ولا أرغب لحظة في أن أحكي كابوسًا آخر.. ليكن... ثمّة قصة لا بأس بها أبدًا - أو هذا ما أعتقده - فيها بعض الغرابة والرعب مع بعض التهكم الذي ستفهمون سببه حالًا..

هل أحكيها؟ حسن.. قربوا مني رءوسكم وآذانكم وأصغوا لما أقول..

☆ ☆ ☆

١ - من البداية..

سأحاول أن أتقصى القصة من بدايتها، ولا أثب إلى أية استنتاجات لا ترتاحون لها.. إن الطريقة المثلى هي أن تستنتجوا أنتم كل شيء بأنفسكم..

أكثركم يعرف القصة الكاملة، لكني أستسمحكم في إعادة سردها كما هي، لأن البعض لا يعرف حرفًا عما أتكلم عنه..

أنتم تعرفون (هناء).. من هي؟ (هناء عبد الجليل) قريبتي طبعًا.. هل توجد في العالم (هناء) أخرى؟ إنها تقيم في إحدى ضواحي القاهرة.. وهي - كما لابد أنكم تعرفون - معلمة ابتدائي، في الأربعين من عمرها.. تعرفون كذلك مشكلاتها التي لا تنتهي مع الإنجاب والتبويض.. الخ.. لقد ظلت تتردد على عيادات أطباء النساء عشرين عامًا قبل وبعد إنجابها لـ (رامي).. في البداية لتنجب طفلها الأول.. وفي النهاية كي تتمكّن من إنجاب طفل ثان، بعدما أوشك مبيضاها على التقاعد..

إن (هناء) مسكينة كما تعلمون.. لكن المشكلة هي أنها مملة إلى حدٍ ما، ولا تكف عن إمطارى بالأسئلة عن احتمالات الإنجاب، وعن الآثار الجانبية لترسانة العقاقير التي تتعاطاها والتي ـ بحكم الفترة الزمنية ـ لم تكن بهذه الكفاءة المرجوة.. فأقول لها في صبر:

- «أتمنى لو أساعدك لكني طبيب باطني.. أقسم بالله العظيم إني طبيب باطني.. مختص بأمراض الدم لا أكثر ولا أقل..»

فتقول بطريقتها المتبسطة:

ـ «لكنك بالتأكيد تفهم في هذه الأشياء.. أليس كذلك؟»

وهو منطق شائع يفترض أن مهندس الكمبيوتر لابد- بالضرورة ـ أن يكون قادرًا على بناء مجمع سكني.. مادام (يفهم في هذه الأشياء).. هذا وإلا كان حمارًا صرفت عليه الدولة مالًا لا طائل من ورائه..

زوج (هناء) مهندس يعمل في الصحراء في شيء ما.. وهو لا يعود إلا مرة في الشهر حيث يمكث ثلاثة أيام ثم يسافر ثانية، ويبدو أن راتبه لا بأس به أبدًا، فهو يكفل لها حياة لا بأس بها بمقاييس تلك الأيام.. وقد استطاع أن يبتاع فيلا صغيرة في تلك الضاحية، تعيش فيها مع (رامي)، ولحسن الحظ أن انشغاله الدائم كان يحول بينه وأن يكون ودودًا.. وأنا بطبعي أمقت هؤلاء الودودين الذين لا يكفون عن زيارتك ويطالبونك بالمثل..

(رامي) الابن في التاسعة من العمر الآن، وهو شيء ملائكي رقيق.. وكان الأجدر به أن يكون فتاة.. لقد اجتمعت ملامحه البريئة المرسومة بدقة، مع طباعه الخجول التي شكلها التعامل مع الأم لا الأب، لتجعل منه فتاة ذات خفر وحياء تلبس ثياب الأولاد.. ويمكن بسهولة أن تفهم أنّ هذا الصغير تربية امرأة.. امرأة تخاف عليه كثيرًا وتفرط في تدليله وتمنحه كل ما يريد، وتخوفه من العالم الخارجي.. (ابن أمّه) هو المصطلح الشائع.. وأنا لا أحبه كثيرًا لأنّه يذكرني بالكلب الجالس أمام الجراموفون المرسوم على أسطوانات (صوت سيده) الشهيرة..

باختصار كنت أعرف أن تربية هذا الصغير ليست قويمة، وأن مستقبله مظلم مليء بالعقد النفسية، مالم ترزق الأم بطفل ثان، يبدد بعض اهتمامها المرضي بصغيرها الوحيد هذا..

الآن يعرف من لا يعرف مقدار ما يعرف من يعرف..

يمكننا البدء إذن..

☆ ☆ ☆

كان ذلك اليوم من شهر مارس هو اليوم الذي حدثت فيه تلك المعجزة... لقد سمحت له الأم بالخروج مع اثنين من أبناء الجيران هما (أكرم) و(سامح).. وهما شيطانان صغيران خبرا كل شيء في الحياة وعمرهما ثمانية أعوام، ويملكان خبرة أي زعيم عصابة من مطاريد الجبل حين يصل لسن الخمسين...

كان يومًا من شهر مارس.. بالتحديد في الساعة الرابعة عصرًا، والشمس تغمر الشارع بذلك الضوء الواهن الذي أرهقه العمل طيلة النهار...

كانت الجولة تتضمن ركوب الدراجات.. وكانت لدى الصبي دراجة صغيرة لم يستعملها قط خارج حدود الفيلا، لذا سمحت له الأم باستعمالها مع صديقيه الجديدين، وإن حرصت على أن ترسم لثلاثتهم مسار الرحلة.. هذا الشارع الهادئ الخالي من السيارات.. حتى تصلوا إلى المنعطف الأيمن.. ثم تمضون فيه لتمشوا عبر المرج.. بعدها تقومون بدورة مع عقارب الساعة لتعودوا لنفس النقطة.. والويل لكم كل الويل لو خرجتم عن هذا المسار، أو مشيتم في شارع به سيارات، أو تكلمتم مع الغرباء.. أو... أو...

- «عندها سأشد آذانكم هكذا..»

- «أي ي ي ي ي ي ي ي ي ي!»

وبكل أعصابها المتوترة الموشكة على الانهيار، اعتصرت أذن (سامح) حتى كادت تنتزعها.. إن الصبي لم يفعل شيئًا لكنّها تؤمن بمنطق (جحا) العبقري؛ إذا صفع ابنه لينذره من إضاعة كيس

النقود.. وكانت حجته في ذلك أنه لن يجني شيئًا من صفع الطفل بعد إضاعة الكيس.. أمّا الآن فإن الصفعة ستؤلمة إلى حد أنه سيبذل جهده كي يتلافى صفعة أخرى..

وكانت ككل النسوة العصابيات تتوقع كارثة.. بالتأكيد ستحدث كارثة.. لكنّها لا تستطيع منع الصبي من هذه النزهة التي وعدته بها، والحاجة إلى أن يعيش حياة طبيعية مع أقرانه.. صحيح أنها ترى بعين اليقين جثتة الممدة في الطريق وحولها بركة دم، وعشرات المارَّة يمزقون مامعهم من ورق صحف لتغطية وحيدها، لكن هناك احتمالًا لا بأس به أن ينجو الصبي لأن هذه أول مرة.. وهو لا يعرف أنها آخر مرة كما تنتوي هي..

انطلقت الدراجات بالأطفال الثلاثة، وبعد ثوان تواروا عن عينيها، ودخلت هي الفيلا وهي تجتر خواطرها السوداء المرعبة.. وأقسمت إن هذه آخر مرة في حياتها تقدم فيها على حماقة كهذه..

وبالطبع نعرف جميعًا أن ساعتين مرتا دون أن يعود الصبية، والشك الذي كان يمزقها صار يقينًا مؤلمًا: لقد حدثت كارثة.. بالتأكيد حدثت كارثة.. إنها الآن لا تحتاج إلى أي جهد تخيل كي ترى الجثة الملوثة بالدماء والجريدة.. فجأة امتلكت القدرة على اختراق الجدران ببصرها لترى المأساة..

وفي النهاية وضعت الكنزة بشكل ما على كتفيها، وأمسكت كيس النقود وغادرت الدار عازمة على أن تقطع الطريق في ذات المسار الذي قطعه القردة الصغار.. هذا بالطبع لو كانوا قد فعلوا كما أمرتهم...

لكنها ـ كما تعرفون جميعًا ـ لم تبتعد كثيرًا لأنهّا وجدت الصبيين الوغدين (سامح) و(أكرم) قادمين من بعيد، وهما يقودان الدراجتين بسرعة النيازك، وعرفت من وجهيهما الممتقعين أن أسوأ كوابيسها قد تحقق..

☆ ☆ ☆

- «سأسمع القصة للمرة الثالثة وبهدوء هذه المرّة..»

قال (أكرم) لاهثًا وهو يرتجف:

- «أقول لك يا (تانت) إن (رامي) لم يلحق بنا.. لقد دخلنا فيلا (أبو العلا).. و....»

وأنتم تعرفون فيلا (أبو العلا) بالطبع وتعرفون ما يُقال عنها لهذا لن أحكي أكثر..

أمسكت (هناء) - قريبتي الباسلة - بالصبي من مجمع قميصه، وصاحت في غل:

- **«ولماذا فعلتم يا حمقى؟»**

- «كـ.... كنا نريد أن نجمع بعض ورق التوت من الشجرة التي هناك.. إن لديَّ بعض دود القز؛ فهذا هو الموسم كما تعلمين يا (تانت)..»

- «**(تانت)؟؟ هل تركتم فيها مكانًا لـ (تانت)؟**»

وأطلقت فيضًا من البذاءات التي لا أستطيع ذكرها طبعًا، لكن بوسعك تخيلها.. إن سمعة فيلا (أبو العلا) سيئة طبعًا في هذه الضاحية، ولا أحد يدنو منها أبدًا.. يكفي أنّ هذه الفيلا الفسيحة الفاخرة لا تجد من يشتريها بسعر هو ملاليم.. والنتيجة هي أنها تحولت إلى نوعٍ من الخرائب الإغريقية.. إنها الحلقة المفرغة المعروفة: سمعة مريبة تحيط بالعقار، فيحجم عنه الناس ويصير مهجورًا، من ثم تزداد سمعته المريبة أكثر..

قال (سامح) وهو يرتجف:

- «كنا في الحديقة ثم.. ثم.... رأينا من يحاول اللحاق بنا.. لا أدرى يا (تانت).. لكنه كان مخيفًا.. شكله آدمي لكنه.... لا أدري ما الذي أثار هلعنا.. لكننا بادرنا بالفرار..»

- «و(رامي) لم يلحق بكما؟»

- «نـ.. نعم.. إنّه بطيء في قيادة الدراجة، وربما اختل توازنه أو شيء من هذا..»

كان هذا كافيًا لـ (هناء) التي لم تنتظر سماع أكثر، وسرعان ما تركت الغلامين، وهرعت تثب وثبًا نحو فيلا (أبو العلا).. لا يعلم سوى الله ما يحدث هناك، لكن هذا اليوم النحس يقول إن عليها أن تسرع..

☆ ☆ ☆

٢ - بسطويسي والتهاب المرارة وما إلى ذلك..

يجب أن نقول هنا إن (هناء) - بالطبع ـ لم تصدق حرفًا من كلام الغلامين عن الغريب مخيف الشكل.. إنّه خيال الصبية طبعًا.. التسلل الخفي والإثم والخوف من المجهول، كل هذا جعل خيالهما كالفتيل الجاهز للاشتعال.. بالطبع كان في الفيلا شخص ما... خفير أو متسلل، وقد برز لهما فطار عقلاهما شعاعًا... إن القط المتسلل يكون حزمة من الأعصاب المرهفة، فلو أنك صحت فيه (بخ) لوثب في الهواء مترين..

لكن هذا لا يجعل الأمور أجمل ولا يجعل الحياة أروع.. إن وحيدها الآن في الفيلا مع متسكع.. يجب أن تلحق به، والويل كل الويل لو جرؤ الأحمق على إثارة ذعر (رامي).. إنّه لا يعرف أية حماقة يقترفها.. إنها لم تمزق حنجرة إنسان بأسنانها قط على ما تذكر، لكنّها تجد الفرصة الآن سانحة للتجريب..

وها هي ذي الفيلا هناك عند قمة الشارع.. جاثمة كالكابوس في ضوء شمس العصر الواهنة..

تدنو (هناء) منها، وقد بدأ حماسها للقتل يخبو قليلًا.. الحق أن المكان رهيب.. لا ينكر هذا إلا مدّع.. وقد لعبت الأشجار الكثيفة المتشابكة دور ستار المسرح لهذا الرعب درامي الطابع.. أشجار لن تندهش لو قيل لها إنها من العصر الطباشيري، فقط لو أنها سمعت شيئًا عن هذه العصور الجيولوجية.. لقد رأيت هذه الفيلا فيما بعد، ولم أكن لأندهش لو برز رأس ديناصور من بينها ليخور خوارًا عميقًا يرج الشارع رجًا..

وقفت عند البوابة الصدئة ونظرت إلى الداخل.. إلى الحديقة التي لم ترَ أية عناية منذ عشر سنوات حتى تحولت إلى دغل.. وبرغم هذا استطاع الحمقى أن يدخلوها بدراجاتهم.. إن كل الصبية أوغاد.. كلهم يستحق الجلد بالسياط.. ثمّة قطة تهرب من هنا لهناك، وسيارة عتيقة من طراز (تاونس) تقف وحدها في الفناء.. سيارة لم يعد فيها إطار واحد، ولا زجاج نافذة..

لن تجد الصبي.. حتمًا لن تستطيع أن تجده هنا، فالمكان أعقد من اللازم.. ربما كان عليها أن تستعين بأحد المارَّة كي.....

وهنا وجدته يخرج من قلب الحديقة قادمًا نحوها..

☆ ☆ ☆

هرعت إليه واحتضنته في نهم، ثم أبعدته عنها لتتفحصه جيدًا.. هل أنت بخير؟ لاجراح ولاخدوش ولا كسور؟ لا شيء.. من جديد عادت تحتضنه وتلثم كل ما بلغته شفتاها من وجهه ويديه.. كان يمشي والدراجة إلى جانبه، فأخذته من يده عائدين إلى الدار، ولم تنس أن ترمي الفيلا الجاثمة كالكابوس بنظرة كراهية حقود.. لماذا لا ينسفون هذه الأماكن الشريرة بالديناميت؟

وفي الطريق واصلت تأمله.. كان محتفظًا بنفس الطابع الملائكي على وجهه، وإن كان وجهه محمرًا انفعالًا، وقد تهدلت خصلة شعر سوداء لتغطي عينه اليسرى، فبدا لها هشًا رقيقًا لم تره من قبل..

- «هل أنت بخير؟ هل آذاك هذا المتسلل؟»

هزّ رأسه أن لا.. وقال:

- «لم يكن إلا متسولًا أقام هنا.. وقد فرَّ حين رآنا.. يبدو أننا أفزعناه أكثر مما أفزعنا..»

أخيرًا ترى معالم الفيلا التي يعيشان فيها.. وكان الغلامان قد فرا الى داريهما.. هذا من حسن حظهما..

سألته وهي تسمح له بالدخول قبلها:

- «وماذا كنت تفعل كل هذا الوقت بعدما فر الخنزيران الآخران؟»

مد يده في جيبه وبخجل قال:

- «لا شيء.. أردت أن أجلب لـ (أكرم) بعض ورق التوت.. ما دمنا قد دخلنا».

ومن جيبه أخرج قبضة مفعمة بالورق الأخضر المشرشر إياه، فابتسمت الأم في رفق وقاومت رغبتها في أن تبعثر هذا الهراء في أرجاء الحديقة..

- «هل كل شيء تمام يا هانم؟»

كان هذا هو عم (بسطويسي) بواب الفيلا الصعيدي العجوز، وهو شيخ فان من أقارب زوجها، لا يفعل شيئًا تقريبًا إلا البقاء حيًّا والبصاق.. وكان قد شعر بأن شيئًا ليس على ما يرام يجري هنا..

- «لا شيء يا (بسطويسي).. خير..»

قال في ذكاء وهو يلف سيجارة من دفتر ورق البافرة الذي يضعه في عمامته دومًا:

- «إن صبية هذه الأيام شياطين.. لا بد من يد من حديد للتعامل معهم..»

ثم تذكر فأضاف:

- «ماعدا البك الصغير طبعًا..»

لم تعلق الأم وإن كانت توافق على كل حرف قاله..

☆ ☆ ☆

كانت هذه المغامرة البسيطة هي بداية قصتنا الحقيقية.. وسأحاول في الصفحات التالية أن أبرهن أنها لم تكن مغامرة بسيطة إلى هذا الحد..

في تلك الليلة أخلد (رامي) إلى النوم، وهو لم يكن من هؤلاء الأطفال الشياطين الذين ينامون وحدهم... هؤلاء الأطفال الذين تمسهم العفاريت أو تمتص الوطاويط دمهم، أو تعض سحالي الورل أصابع أقدامهم.. كان ينام في فراش أبويه بالطبع بعد عدد لا بأس به من القصص المسلية..

أخيرا نام، وراح صدره الصغير يعلو ويهبط تحت الأغطية.. راحت تتأمل وجهه البريء الرقيق.. لا توجد مشاكل.. بالتأكيد لا توجد مشاكل.. لكن لماذا تشعر بشعور ما.. شعور ما.. لا يمكن وصفه؟ شيء ما في وجه صغيرها كان هناك أمس ولم يعد، أو شيء لم يكن موجودًا وصار موجودًا.. لا تستطيع التحديد بالضبط، لكنّها لم تحب هذا الشعور كثيرًا..

ضايقها أكثر أن عينيه لم تكونا محكمتي الإغلاق في أثناء النوم.. ثمّة أشخاص كثيرون يعانون من هذا بسبب ضعف خلقي في عضلة الجفن، لكن (رامي) بالتأكيد لم يكن منهم، ولم تستطع أن تحب هذا البياض الأملس المسطح يرمقها بلا هوادة من بين جفنين يأبيان الإغلاق.. لابد أنه إنهاك اليوم الطويل قد جعله عاجزًا عن بذل جهد بسيط كغلق العينين..

المهم أنها نهضت وبدأت تستعد للنوم بدورها.. تأكدت من أن الموقد مغلق، وأن الأضواء مطفأة.. صلت العشاء ومرت على النوافذ التي أصر زوجها على تدعيمها بالحديد.. «لأن هذا العجوز لا يصلح الحراسة جبل..».. ثم تهيأت لدخول الفراش حين..

حين بدأ ذلك الألم الغامض المبهم في كتفها الأيمن.. ثم بدأ يزحف ببطء ليعتصرها كلها.. ثمّة ثقل قاهر تحت ضلوعها اليمنى أسفل الصدر مباشرة.. مع رغبة عارمة في القيء..

لم تكن بحاجة إلى طبيب لتعرف أنّ هذه هي آلام المرارة.. كانوا قد أخبروها بذلك من زمن، وما كان يجب أن تلتهم البيض المقلي على العشاء.. لكنه النهم الآدمي الشهير.. «دوام مدامة، وداوم وطء، وإدخال الطعام على الطعام».. هذه هي الأشياء الثلاثة القاتلة كما عرفها الطبيب الأعظم (ابن سينا).. وهي ما كانت تحفظ هذا البيت لكنّها تحفظ شيئًا واحدًا مهمًا في هذه الساعة: رقم هاتف الأحمق المدعو (رفعت اسماعيل)..

☆ ☆ ☆

وبعد ساعة كنت أقف هناك جوارها وهي ممدة على الأريكة، انتهى من حقنها بدواء مزيل للتقلصات..

بدا لي أنها تتحسن.. بالتأكيد تتحسن.. ومن يدري؟ ربما لم تكن المرارة أصلًا، لأن نوبات هذه الأخيرة تكون كالأعاصير في عنفها، وغالبًا لا تزول بهذه البساطة..

قالت لي وهي تحاول التنفس:

- «سلمت يداك.. لكن ريقي قد جف تمامًا وفمي كقطعة الحطب.. لماذا؟»

قلت وأنا أمسح ذراعها بقطعة القطن:

- «هذا تأثير السم كما تعلمين.. إن الفيلا الآن تنتظرني لسرقتها، مفتوحة كقلب صديق..»

ضحكت قليلًا حتى آلمها الاهتزاز فتأوهت.. ثم قالت:

- «معذرة.. فلم أكن أعرف أحدًا أثق به في هذه الساعة كما تعلم.. آي.. واضطررت لإيقاظك كي..»

- «مفهوم.. مفهوم.. أنا في متناول اليد أكثر من اللازم..»

نظرت إلى السقف وقالت:

- «هل ستتكرر هذه النوبة؟»

- «بالتأكيد وستكون أسوأ.. لماذا تهتمين بهذه الأمور؟»

- «المشكلة هي.... (رامي)..»

ونظرت في قلق إلى غرفة النوم، حيث كان الصغير يغط في عمق، وأردفت:

- «المشكلة أنني مقطوعة من شجرة.. لا أقارب لي في هذه المدينة سواك.. وأبوه غير موجود الآن.. تخيل أن أصاب بنوبة كهذه وتكون أعنف.. ماذا سيفعل الصغير وقتها؟»

كلامها على شيء من المنطق دون شك... والجدير بالذكر هنا أنه لا يوجد جيران محددون على بعد مائتي متر من هنا.. لكني لا أصدق أنها لا تملك حلًا على الإطلاق... لابد من شخص ما في مكان مايعرف كيف يعني بطفل حتى تشفى أمّه.. هناك أحمق واحد بالتأكيد...

ثم فهمت الفخ الذي تقودني إليه ببراعة، كما يفهم لاعب الشطرنج فجأة بعد ما التهم عشرات القطع، أن خصمه ليس معتوهًا وأنه يقوده إلى شرك مميت.. قلت مسرعًا:

- «لكني لا أستطيع العناية به.. أنا بصعوبة أعرف كيف أظل حيًا.. لاتتصوري أن....»

رفعت سبابتها نحو فمي في شيء من دلال وقالت:

- «لم أطلب هذا، ولكني أطلب وعدًا..»

ثم همست في أذني:

- «لو حدث لي شيء، ولم يكن لـ (رامي) ملجأ آخر سواك، عندئذٍ ستعني به..»

هل تنوي الموت؟ لو حدث هذا لكانت كارثة الكوارث.. كلا.. إن الأب موجود وحي والحمد لله.. في أسوأ الظروف لن يزيد الأمر على بضعة أيام.. ومهمتي إلى حدٍ ما لن تكون معقدة: أمنع هذا القرد الصغير من قتل نفسه..

- «لن يحدث لك شيء.. هذا ما أعدك به الآن..»

وحملت حقيبتي، واتجهت إلى الباب، وقد اطمأننت عليها إلى حدٍ ما..

☆ ☆ ☆

أيام كثيرة تساقطت كقطرات الماء، من صنبور الزمن.. واحتشدت في جدول صغير لتصنع شهرًا..

عشت حياتي أو لم أعشها.. المهم أنني ابتعدت كثيرًا عن مشاكل (هناء) الصحية والنفسية، فما أدري إلا وقد جاءتني في مكتبي بالجامعة ذات صباح كئيب..

وكانت لديها قصة غريبة بعض الشيء..

☆ ☆ ☆

٣ - معلمة رحلت..

بعد عبارات الترحاب المملة سألتها عن الصغير، فقالت إنِّه في المدرسة.. إن العام الدراسي يلفظ أنفاسه، ويبدو أنهم يريدونه في المدرسة للمراجعة أو شيء من هذا القبيل.. لقد أرسلته للمدرسة اليوم خصيصًا كي لا يأتي إلى المستشفى معها.. قدمت لها بعض المياه الغازية فتشممت الزجاجة في تقزز ومسحت فمها ـ الزجاجة ـ بمنديل ورقي عدة مرات، فهي من الطراز الهستيري الذي يحسب المستشفى مجموعة من الجراثيم تم تجميدها على شكل جدران.. وبالتأكيد يوجد لدينا صنبور يعبئ بكتريا الطاعون في زجاجات مغلقة نقدمها للضيوف الحمقى.. لأسباب كهذه لم تحضر (رامي) معها..

قالت لي وهي تضع زجاجة الطاعون جانبًا:

ـ «دعنا من المجاملات، فليس هذا هو السبب الذي جئت من أجله وأخذت إجازة من المدرسة..»

ـ «فلندعنا منها..»

ـ «أنا قلقة من أجل (رامي)..»

قلت لها في ملل وأنا أتأرجح في مقعدي:

ـ «كل الأطفال في سنه يسعلون، ولم يأكلوا شيئًا منذ خمسة أشهر في أية لحظة ترينهم فيها.. هل لديك شيء آخر يُقال على سبيل التجديد؟»

ـ «لقد مات الأستاذ (مجدي)..»

تراجعت للوراء حتى كاد المقعد يسقط وقلت في جزع:

ـ «مات؟ كيف ومتى؟»

ـ «نعم مات.. ولهذا جئت الآن..»

ـ «ولكن من هو الأستاذ (مجدي)؟»

ـ «إنِّه معلم في مدرسة (رامي).. ظننت هذا مفهومًا..»

☆ ☆ ☆

قالت (هناء):

- «أنت تعرف أن هؤلاء الغلمان ساديون حتى النخاع، مولعون بالإيذاء وإحداث الأضرار.. مجرد حيوانات شرسة تمشي مكشرة عن أنيابها، وهي لا ترحم الضعف أو الوهن.. و(رامي) ضعيف واهن.. إنّه لا يعرف شيئًا عن العالم الخارجي ولا يعرف كيف يتعامل معه، وقد تربى على أرق المشاعر وأنظفها.. ليس له مكان في تلك الغابة القذرة..

- «حتى لا أطيل عليك أقول: إنّه تعرض للتحرش به في المدرسة.. هناك هذا الصبي البدين الذي يدعى (هشام)، والذي قرر أن هدفه الوحيد في الحياة هو التنغيص على ابني الرقيق.. لقد تشاجرت مع أمّه مرّتين من قبل، وهي امرأة بدينة مزعجة مثله، وأعتقد أنه لو منحني أحدهم مدفعًا رشاشًا فإنني أعرف ماذا سأفعل به بالضبط.. سأجعل العالم مكانًا أجمل بعد خمس دقائق لا أكثر..»

كانت (هناء) قد بدأت ترتجف غلًّا، وتتدحرج في المقعد، وراحت تمزق المنديل الورقي بين أناملها، فقلت لها مهدئًا:

- «ما علينا.. أعتقد أن القصة تحوي أكثر من حنقك على (هشام) هذا وأمه..»

قالت وهي تحشد أعصابها:

- «نعم.. بالطبع..»

فالذي حدث هو أن مشادة ما وقعت بين (رامي) و(هشام) دون أن تلاحظ المعلمة، كانت نتيجتها هي اللكمة في بطن (رامي) دون أن تلاحظ المعلمة، ثم تمزيق كراسته دون أن تلاحظ المعلمة.. وفي اللحظة التالية انفجر (رامي) غضبًا ووثب لينشب أنيابه ومخالبه في (هشام)، وفي هذه المرّة لاحظت المعلمة..

- «الله.. الله! لقد صار هذا (سويقة) وليس فصلًا..»

قالتها المعلمة طبعًا، ولسبب ما تصر على لفظة (سويقة) للدلالة على الفوضى..

ثم بدأت المذبحة.. لا أدري حظ تلاميذ المرحلة الابتدائية اليوم، لكن - في ذلك الزمن - كان الجلد أسلوبًا تربويًا شائعًا في المدارس.. وقد تلقى (رامي) عددًا من الجلدات على ظهره الصغير، لكن أسوأ ما في الأمر هو أنّ هذا تم أمام (هشام).. (هشام) المتشفى الذي التمعت عيناه وحشية وتلذذًا.. والذي طبعًا لم يمسسه سوء..

لم يبك الصغير.. فيما بعد أجمع الجميع على أنه لم يبك.. فقط كانت هناك تلك النظرة في عينيه وهو يرمق المعلمة بعد انتهاء العقاب... نظرة طويلة بلا معنى على الإطلاق، أتبعها بنظرة مماثلة

إلى (هشام) البدين..

وحين عاد إلى الدار أخبر (هناء) بالقصة كلها، فصممت على أن تواجه المعلمة وتلقنها درسًا لا بأس به أبدًا.. إن الغد سيشهد مواجهة ديناصورين من ديناصورات ما قبل التاريخ.. صراع المردة..

وبعد الانتهاء من موضوع المعلمة سيكون على (هناء) أن تمزق (هشام) وأمه بأسنانها.. هذا لن يجعل الغد شاقًا، لكنه بالتأكيد يحتاج إلى الاستيقاظ مبكرًا...

☆ ☆ ☆

وفي الغد ذهبت (هناء) إلى المدرسة مع (رامي) هذه المرّة، واتجهت إلى مكتب مشرف المدرسة (الناظر)، وهو شيخ يصر على أنّ هناك سببًا واضحًا لتسمية الوزارة بـ (التربية) قبل (التعليم).. كان الجو في المكتب متوترًا فوق العادة، وكان الرجل يضع سماعة الهاتف، بينما وقفت معلمة أو معلمتان والذهول على وجهيهما.. لا بد أن واحدة من هاتين السفاحتين قد تسببت في قتل طفل آخر لم يفعل شيئًا، أو فقأت عينه..

دخلت (هناء) قريبتي الباسلة المكتب، وقالت في حزم أنها أم (رامي) وإن هناك كلمتين لابد لها من أن تقولهما أمامه للمعلمة.. نظر لها المشرف اللحظة ثم نظر إلى المعلمتين نظرة ذات معنى، وقال:

- «ثقي أنها لن تضايق ابنك ثانية يا سيدتي..»

- «هذا جميل.. ولكن من يضمن لي؟»

تعبير غريب ارتسم على وجهه، وهو يقول:

- «هذه المكالمة كانت من زوجها.. إنها لم تصح من النوم قط.. إن جنازتها ستخرج بعد صلاة الظهر..»

وانفجرت معلمة في البكاء لدى سماع هذه الكلمات..

ببلاهة وقفت (هناء) تنظر إلى ما حولها، وراح فمها ينفتح ويغلق كما تفعل سمكة الزينة في الحوض.. غريب هذا.. يا لها من مصادفة! وبالطبع تبخر حقدها في لحظة.. فهي كانت من النوع الرقيق غير الحقود الذي لا يستطيع أن يحتفظ بكراهيته لخصم مات منذ ساعتين..

- «غـ.. غريب هذا.. لم أكن أعرف..»

قال وهو يشيح ببصره عنها وينهض من على مكتبه:

- «طبعًا لم تكوني تعرفين.. لا أحد يعرف.. والآن لو سمحت وأخذت ابنك معك إلى الدار.. لن تكون هناك دراسة اليوم لأننا جميعًا سنذهب لحضور الجنازة..»

وقالت إحدى المعلمتين وهي ترمقها بكراهية وتتهانف:

- «الكل كان يحبّها! رحمها الله..»

شعرت (هناء) - ككل العصابيين - بتأنيب ضمير لا مبرر له كأنها بالفعل تسببت في موت المرأة، وساعدت كلمات المعلمة التي تحمل معنى اللوم في جعل حالتها النفسية تسوء، فأخذت (رامي) معها وغادرت المكان.. ولم تستطع أن تحبس دموعها بدورها..

أما (رامي) فلم يستوعب كدأب الأطفال إلا أنّ اليوم إجازة، وأنه تخلص من المعلمة الشرسة التي كان - يرحمها الله - يكرهها كالشيطان.. فلماذا تبكي أمّه إذن مع أن الحياة صارت أجمل بكثير؟

وفيما بعد عرفت الأم أن المعلمة لم تكن تشكو من شيء. لم تكن تعاني أي مرض.. كلنا في الحياة سواء، ولا يوجد قانون يمنع معلمة شابة سليمة الجسد من أن تبيت ليلتها في القبر..

قالت (هناء) بعد ما فرغت من قصتها:

- «هل لديك تفسير؟»

قلت في تؤدة محاولًا التذكر:

- «إن عدد الأسباب التي تجعل شابًا سليم الجسد يموت فجأة ليتحدى ذاكرتي.. إن المعجزة الحقيقية هي أننا نظل أحياء ساعة أخرى..»

ابتسمت (هناء) في خبث وقالت:

- «وماذا عن موت صبي مثل (هشام)؟!!!»

☆ ☆ ☆

٤ - شيء ما..

(لا بد من شيء ما دائمًا)

للمرة الأولى بدأت أهتم بالقصة.. الأطفال دائمًا مهمون، وكل مصوّر يحترم نفسه يعرف أنه إذا جمعت الصورة رجلًا وامرأة، تظفر المرأة بالاهتمام كله.. ضع امرأة وطفلًا.. يظفر الطفل بالاهتمام كله..

سألتها في حيرة:

- «مات؟ كيف ومتى؟»

قالت وقد بدأ العصاب يغزوها من جديد، وراحت ترتجف بلا هوادة:

- «بعد يومين.. أي أنّ هذا كان منذ أسبوع.. لقد عاد (رامي) ليخبرني في سعادة أن (هشام) مات.. لمته على ما يقول واتهمته بالكذب.. بعد هذا اتهمته بالقسوة لأن ما قاله صحيح..»

- «لا عليك.. إن الأطفال ينظرون للموت نظرة غير نظرتنا.. إن الموت بالنسبة لهم (عدم وجود) لا أكثر.. وكم من أم متوفاة كانت ستموت مرّتين، لو رأت السرعة التي ينساها بها أطفالها.. كأنها ذهبت في مشوار إلى البقال لا أكثر.. لكنك لم تفسري لي وفاة الصبي..»

- «أنت لا تعطيني فرصة لأنك تريد أن تذكر آراءك الحكيمة في الحياة طيلة الوقت.. مات الصبي في حادث.. كان يعبر الشارع بدراجته أمام تلك الشاحنة.. رحمه الله.. يبدو أنهم عانوا كثيرًا في تجميع أجزائه..»

تقلص حلقي لهول الفكرة، حتى لو كان المتوفى وغدًا شريرًا.. إنّه طفل برغم كل شيء.. قلت لها:

- «حسن.. هذه وفاة مبررة على الأقل..»

- «لكن قانون الصدفة.. ألا ترى أنّ هذا غريب؟»

- «غريب أو غير غريب.. لكنه حدث.. ومن الممكن أن يحدث.. في إحدى مباريات (البيزبول) الأمريكية طارت الكرة، لتضرب يد مشاهد كان ينظف أذنه بعود ثقاب في اللحظة ذاتها.. وكان أن خرق طبلة أذنه.. ماهي احتمالات حدوث شيء كهذا؟ لماذا اختارته الكرة بالذات بين عشرين ألف مشاهد، ولماذا هذه اللحظة بالذات؟ لكن هذا ما حدث..»

رفعت ثلاثة أصابع في وجهي وتساءلت في تحد:

- «ثلاثة في أسبوع واحد؟»

- «تكلمنا عن اثنين لا أكثر..»

قالت وهي مستمتعة بحيرتي الوليدة هذه:

- «الثالث هو الأستاذ (مجدي).. حسبت هذا مفهومًا..»

☆ ☆ ☆

الأستاذ (مجدي) هو مدرس الرياضيات في تلك المدرسة، وبلغة المدارس الابتدائية نقول إنّه مدرس حساب.. وبالطبع كان (رامي) يكره الحساب ككل طفل آخر.. وكان الأستاذ (مجدي) رجلًا ضخم الجثة كالقدر شرسًا.. من ذلك الطراز الذي يتجمع اللعاب عند طرفي فمه مما يجعل النظر إلى وجهه عملًا بطوليًا.. وكان يضع عوينات غليظة يستحيل معها أن ترى عينيه..

وفي ذلك اليوم بالذات أخرج الصبي إلى لوح الكتابة، وناوله قطعة الطبشور وطلب منه أن يحل مسألة كسور معقدة على ما يبدو.. وقد وقف (رامي) المسكين كأنه مومياء (حتب حرس) عاجزًا عن الكلام أو البدء أو مجرد التفكير.. وهكذا أمسك الأستاذ (مجدي) بالصبي من أذنه وراح يعتصرها، وهو يوجه له عبارات مهينة للغاية على غرار:

- «ماذا تفعل في البيت يا (أبو جهل)؟ هل تبيع الكرنب على قارعة شارعكم؟»

وكان اللعاب يتجمع أكثر فأكثر حتى صار النظر إلى وجهه عذابًا.. ولم يصدّق الصبي أن أذنه على هذا القدر من المرونة التي تسمح لها بأن تدور حول محورها ست مرات دون أن تقطع..

وفي النهاية تلقى صفعة على خده مع أمر مباشر بأن يعود (خيبه الله) إلى مقعده.. لم بيك الصبي.. كل من رأي المشهد قال إنّه لم يبك... فقط نظر للمعلم نظرة طويلة صامتة، ثم عاد إلى مقعده..

يقول من رأوا المشهد كذلك إن المعلم - للمرة الأولى - بدا مرتبكًا.. ارتج عليه الكلام، وغزت رجفة ما شفتيه.. هناك من زعموا أن عينيه جحظتا، لكنهم في الغالب كاذبون.. إذ من يستطيع رؤية عيني هذا الرجل خلف عويناته؟

بعد هذا بيوم أصيب الأستاذ (مجدي) بنوبة قلبيّة وهو في غرفة المدرسين... كان جالسًا يقوم بتصحيح بعض الكراسات، والمدرسون واقفون يثرثرون ثم.. بوم! استداروا ليجدوا الرجل وقد انكفأ رأسه على المنضدة وفقد النطق..

وهنا تضرب (هناء) كفًّا بكف، وتقول في لهجة ذاهلة:

- «قل لي الآن بربك ما رأيك؟ هل هذه مصادفات؟ هل ابني مبارك إلى هذا الحد، وإلى درجة أن كل من يضايقه يموت؟»

قلت لها في شيء من الحياء:

- «لن تسمعي كلام عن الصدفة من جديد؟»

- «أية صدفة يا حبيبي؟ هل ستتحدث من جديد عن الكرات التي تثقب آذان الناس؟»

- «لا.. لن أتحدث عن الكرات..»

وعقدت كفي مفكرًا بعض الوقت، ثم سألتها سؤالًا أعرف إجابته حتمًا:

- «وما هو دوري في كل هذا؟»

- «قيل إنك تفهم في هذه الأمور.. ثم إنك قريبي..»

فكرت حينًا.. ثم قلت لها:

- «سيكون عليَّ أولًا أن أقابل الصبي.. ويحسن ألا يتم هذا في وجودك..»

وفتحت مفكرتي.. إن الغد مناسب لأنّه لا ارتباط لدي من أي نوع.. سأكون في دارك صباحًا يا (هناء) هانم..

☆ ☆ ☆

فتحت لي الباب، وكان واضحًا أن صيفها والصبي قد بدأ.. لا أدري إن كان الصبي قد أنهى امتحاناته بعد، لكن من الواضح أنه وأمه لم يذهبا للمدرسة اليوم..

رحبت بي، ثم أعلنت أنها ستغادر البيت بعض الوقت للتسوق، فهززت رأسي نافيًا.. إنني سآخذ الصبي معي لنتحدث في الخارج.. بدا عليها القلق لأنهّا لم تعتد ترك ابنها مع..... طبعًا خجلت أن تعتبرني من الغرباء لكن الرسالة وصلتني واضحة، فقلت لها في غيظ:

- «أنا قريبه يا (هناء) فكفي عن السخف... الخطر الوحيد عليه أن أموت في أثناء قيادة السيارة..»

- «هل.. هل هذا ممكن؟»

- «وارد جدًّا لكني لست من هذا الطراز..»

وجاء الصبي وقد ارتدى ثيابًا أنيقة واستحم كما هو واضح، كي يكون أنيقًا جميلًا حين يقابل (عمو رفعت).. صافحته وشعرت بالكثير من الشفقة عليه.. هذا البائس مرغم على أن تكون أمّه (هناء)، ومن المستحيل أن ينمو طفل أمّه (هناء) ليعيش حياة صحية سليمة.. إن العصاب يورث كأي شيء آخر..

واتجهنا إلى سيارتي العتيقة الواقفة أمام الفيلا، فصاحت (هناء) في ذعر:

- «كن مهذبًا مع (عمو) يا (رامي).. كن حذرًا في القيادة يا دكتور (رفعت)»

والجزء الأخير هو المهم بالنسبة لها طبعًا، فتجاهلت الرد عليها وأدرت المحرك.. وسرعان ما كنا نبتعد عن الفيلا..

سألت (رامي) وأنا أفتح جهاز الراديو على (غنوة وحدوتة)، التي أعترف بأنني أهيم بها حبًّا وأسمعها سرًا تجنبًا لسخرية الساخرين:

- «إلى أين تحب أن تذهب؟»

رفع كتفيه لأعلى بمعنى أنه لا يعرف، وراح يرمق الطريق بعينه الصافية، فقلت:

- «أنا سأقترح.. ثمّة صديق لي ينتظرنا الآن، ويهمه سماع قصصك المسلية..»

مط شفته السفلى بمعنى أن الأمور سواء، فبدأت أقود السيارة نحو (جاردن سيتي).. إن د. (مؤنس الشافعي) لديه فكرة لا بأس بها عن قدومي، وهو ينتظرني بالطبع، لكني اتفقت معه على موعد مفتوح من طراز (صباح الثلاثاء) و(مساء الاثنين).. فأنا لم أكن واثقًا من أن الصبي لين العريكة إلى هذا الحد..

إن (مؤنس) صديق قديم لي.. ليس طبيبًا بل هو خبير تربوي، وحاصل على أكثر من دكتوراه في علم نفس الأطفال.. وقد قضى فترة لا بأس بها في الخارج، ويبدو أنه ذهب إلى الولايات المتحدة حيث قابل أكبر خبراء سلوك الأطفال هناك، وهو د. (سبوك) الذي لا تعتبر الأم الأمريكية نفسها أنجبت إن لم تقرأ كتبه... باختصار يجيد هؤلاء القوم تحويل ما كنا نُسمّيه بـ (قلة أدب العيال) و(جتها نيلة اللي عايزة خلف) إلى علم شديد التعقيد أقرب إلى الكهنوت.. وأنا آخر واحد يمكن سؤاله عن نفسية طفل، برغم أنني أعتبر نفسي طفلًا ساذجًا حتى هذه اللحظة...طفلًا مصابًا بتصلب الشرايين والبروستاتا وارتفاع ضغط الدم..

قابلنا (مؤنس) على باب منزله والغليون بين شفتيه، فصافح (رامي) في حرارة وقال عبارات من نوع (ياله من رجل صغير لطيف) إلى آخر هذا الهراء.. ثم أمسك بيد الصغير واقتاده إلى الداخل، وهو يثرثر معه كأنما هما صديقان قديمان.. ومرت مدام (شافعي) بي - وهي سوفيتية كما كانت الموضة وقتها - فهزت رأسها محيية، ثم مرّت بي كأنني قطعة أثاث وجدت هنا بالصدفة..

جلست في الردهة بالخارج، وتركت (مؤنس) والصبي يتساران في غرفة مكتب الأول.. طبعًا لا داعي لأن أسوّد نصف صفحة بوصف (مؤنس) على سبيل التجويد الأدبي.. يمكننا فقط أن نقول إنّه من طراز (أشيب ـ متأنق - عوينات - بلا شارب).. هكذا يُمكنك أن تتخيله معي..

مرت ساعة وأنا أتسلى بتقليب بعض المجلات، وأتأمل اللوحات السخيفة المعلقة على الجدارن.. ثم انفتح الباب وخرج (مؤنس) وحده، مما أعطاني أملًا لا بأس به أن يكون قد قتل الصبي وأراحني.. لكنه جلس جواري وأعاد حشو غليونه، وقال بعد تفكير:

- «لا أرى مشكلة ما.. هذا طفل شديد الانطواء والحساسية.. خيالي جدًا.. وحب أمّه الشديد له قد جعله يشعر أن العالم الخارجي غابة..»

- «لست بحاجة إلى خبير تربوي لأعرف هذا.. وبالطبع ستقول لي إن الحل الوحيد له هو أن يختلط بأترابه ويلتحق بناد ما..»

- «أنت تتكلم بلساني..»

- «ولكن مشكلة الموتى.. الذين يضايقونه لا يرون خيرًا.. و....»

ابتسم في تهكم وأشار بطرف الغليون إلى الحجرة وقال:

- «هل تصدق هذا الهراء ونتخلص من قناعاتنا العلمية؟ ما هي قدرة هذا الصبي الضعيف على إيذاء الناس؟»

- «هل يمكن للصدفة أن....؟»

قال في حكمة وهو ينفث المزيد من الدخان:

- «دعني أحك لك قصة مسلية.. في إحدى مباريات (البيزبول) الأمريكية طارت الكرة، لتضرب يد مشاهد كان ينظف أذنه بعود ثقاب في اللحظة ذاتها.. وكان أن خرق طبلة أذنه.. ما هي احتمالات حدوث شيء كهذا؟ لماذا اختارته الكرة بالذات بين عشرين ألف مشاهد؟ ولماذا هذه اللحظة بالذات؟ لكن هذا ما حدث..»

بدأ الشريان إياه ينبض في صدغي منذرًا بإصابتي بالفالج من الغيظ، وقلت:

- «أنا نفسي قلت هذا مرارًا.. لكن الأمر يبدو وكأنه تجاوز الحد..»

ابتسم في ثقة العلماء، وقال:

- «(رفعت).. ليس هناك شيء كالذي تتحدّث عنه.. لم يوجد ولن يوجد..»

ساد الصمت برهة، ثم سألته بصورة عابرة:

- «ماذا يفعل في مكتبك؟»

- «يرسم.. لقد علّمته كيف يستخدم ألوان الزيت وكيف....»

- «ألوان الزيت؟!!»

وهرعت إلى المكتب لأجد أسوأ كوابيسي قد تحقق.. الصبي كله قد دهن بالزيت الأزرق.. أمّا ثيابه الأنيقة فلم تعد بها بقعة لم تأخذ لونًا.. وكانت أصابعه في أسوأ حال ممكن.. ستقتلني (هناء).. حتمًا ستقتلني..

قال (مؤنس) في سرور:

- «إنني أرسم من حين لآخر، ولدى حامل في مكتبي أثبّت عليه قطع القماش.. وقد سرَّني أن الصبي تحمس للتجربة.. إن لدية حاسة فنية لا بأس بها.. كما ترى من المفيد أن تترك الصبي يرسم ما يخطر له.. إن هذا يحرر اللاوعي!»

لم أجد ما أقول إلا أن آخذ الصبي في الحال، وأعود به إلى أمّه.. بالطبع لن يكون اللقاء محببًا لكني على الأقل قد عرفت ما جئت من أجله.. لا يوجد شيء غير طبيعي في الصبي، وعلينا أن نقبل قانون الصدفة باعتباره هو التفسير الوحيد لما حدث....

☆ ☆ ☆

٥ - ضيف غير مدعو..

كان هذا في الرابعة من صباح اليوم ذاته، وكنت قد دخلت الفراش مبكرًا على غير عادتي، حين دوي جرس الهاتف اللحوح المزعج يقول إنّه ليس من حقي أن أنام في هذا العالم.. خرجت عاري القدمين إلى الصالة ورفعت السماعة فجاءني صوت (هناء) تعوي كالذئاب:

- «(رفعت).. آيييي! هذه المرّة هو قوي حقًّا.. النوبة من جديـ.... آي!»

ثم سقطت السماعة من يدها على ما يبدو..

ونظرت إلى الساعة على الجدار.. الرابعة صباحًا.. هذا حكم لا يمكن استئنافه إذن.. على أن أذهب إليها فهي وحيدة ومريضة وقريبتي.. يعني لا مفر لي..

وضعت براد الشاي على الموقد لأظفر بكوب ثقيل ينعش حواسي، ثم رحت ابحث عن القميص... عن الجوربين.. عن الحذاء.. عن البذلة.. عن العوينات.. وحين انتهيت كان الشاي قد غلى فشربت ثلاث أو أربع جرعات، ثم هرعت إلى سيارتي النائمة في الظلام كوحش.. بصعوبة قبل محركها أن يستجيب.. حتى المحركات ترفض هذه المعاملة، لكنّها تستطيع الإصرار على الرفض بينما لا أستطيع أنا.. وأخيرًا تمضي سيارتي عبر شوارع المدينة الخالية النائمة..

وصلت إلى الفيلا ففتح لي (بسطويسي) العجوز الباب، وكان خائفًا مذعورًا هذه المرّة مما يؤكد أن الأمور سيئة حقًّا..

وفي الداخل وجدتها وسط أكبر ملحمة من الفوضى رأيتها في حياتي.. أكواب مهشمة ومفارش تم جذبها من فوق الموائد بما عليها من مزهريات.. وآثار قيء بلغ من عنفه أن أختلط بالدم.. ووسط هذه الملحمة كانت (هناء).. على الأرض ملتوية حول نفسها تمضغ السجادة وتئن..

إنها المرارة هذه المرّة لا شك في هذا، وضلوعها من الجهة اليمنى لا تحتمل أنفاسي، فما بالك بلمسة يدي؟ وعددت نبضها وقست حرارتها بظهر يدي.. لم تكن محمومة... إن النوبة حادة شديدة الوطء، وأعتقد أن ما معي من عقاقير في الحقيبة لن يفعل شيئًا... لهذا نهضت بحثًا عن الهاتف الذي كانت سماعته متدلية كلسان مشنوق، وطلبت الإسعاف..

صاحت (هناء) في جزع:

- «لا.. لا.. لا إسعاف! لن أترك البيت»

- «لست أنت صاحبة القرار مع شديد احترامي العقلك الراجح..»

- «ولكن (رامي)!!»

نظرت إلى الصبي الذي كنت قد نسيت وجوده تمامًا.. كان يقف هناك في الركن ودمعة متجمدة في عينيه.. مشهد كفيل بأن يرق له قلب (كاليجولا) نفسه، ولا عجب.. فأمه هي السند الوحيد له في عالم يجهله.. وها هي ذي أمّه على الأرض تتلوى.. سآخذه معنا إلى المستشفى ثم بعد هذا.. يعلم الله وحده ما بعد هذا..

قلت لها في ضيق:

- «سأعني به.. لا عليك..»

وبعد وقت وجيز بما يناسب خطورة الموقف ـ حوالي ساعة وأربعين دقيقة - وصلت سيارة الإسعاف، وأضواؤها وسرينتها تمزق أرجاء الليل الصامت.. كان على أن آخذ الصبي معي في سيارتي لاحقًا بالسيارة المتجهة إلى المستشفى.. وشعرت بشيء من شجن على (هناء) الراقدة وحدها بالداخل.. لابد من امرأة ما - أم أو أخت أو جارة أو صديقة ـ تكون معها في هذا الموقف السخيف.. لكن من أين يجيئون بالنساء حين تحتاج إلى واحدة؟

وفي المستشفى عرفت أنني أحمق، وأن التشخيص الصحيح هو ثقب في قرحة الإثني عشر.. وهو على كل حال يسبب آلامًا قد تخدع الكثيرين.. لابد أنها عانت شهورًا طويلة من آلام القرحة البطيئة، حتى تهاوى السد وأعلنت القرحة عن نفسها بأكثر السبل توحشًا ووقاحة.. أخبرني بهذا أستاذ جراحة متضايق استدعوه من داره في هذه الساعة من الليل.. باختصار الحالة مقلقة بحق ولا بد من البدء حالًا.. البدء في ماذا؟ جراحة استئصال طبعًا..

وقضيت ما بقي من الليل ما بين الجلوس أمام غرفة العمليات، أو اصطحاب الصغير إلى كشك صغير مجاور اللمستشفى، يظل ساهرًا طيلة الليل.. ابتعت له بعض الحلوى والعصير.. وفيما بعد جلست مع (هناء) في عنبر الجراحة، بينما كانت تفيق من أثر المخدر، وتئن.. طبعا ستكون المفاجأة سارة حين تصحو لترى كل الخراطيم التي تخرج وتدخل من وإلى جسدها وأنفها..

وحين غمرت الشمس الكون، وجدت أن عليَّ أن أعود لداري.. فقد أرهقني السهر بحق.. تطوعت قريبة إحدى المريضات بالعناية بـ (هناء) لأن هذه الأمور مقدسة عند المصريين.. والشابة ـ ياكبدي - ليس معها أحد.. وأمها - ياضناي - لا تعرف بما يدور هنا.. كان هذا مناسبًا جدًا لي لأني بصراحة مرتبك ولا أعرف متى وكيف يحق لي الرحيل.. هل سأبقى هنا حتى تقوم الساعة؟

وكان أول ما قالته (هناء) حين بدأت تفيق:

- «خذ (رامي) معك يا (رفعت).. اعتن به أرجوك..»

☆ ☆ ☆

وفي التاسعة صباحًا دخلت إلى داري ومعي ضيف غير مرغوب فيه على الإطلاق.. (رامي) الصغير الذي أرهقه السهر، ونام في المستشفى عشرين مرة على الأقل.. لكنه ذلك النوم الذي لا يمكن التعامل معه باحترام...

- «هل ستكون ماما بخير؟»

- «بالتأكيد.. ستكون على ما يرام..»

وحمدت الله على أنه لم يملأ الدنيا صراخًا وعويلًا لأن لديَّ مشكلة حقيقيّة مع صراخ الأطفال.. حمدت الله كذلك على أنه يعرفني جيدًا فلم يصبه الهلع..

أعددت له إفطارًا متواضعًا مع كوب كبير من اللبن، ثم قمت بتمهيد فراشي كيفما اتفق، وأسدلت الستائر، ودعوته إلى النوم.. بالطبع لم تكن عندي ثياب أطفال لذا جعلته ينام بثيابه وقررت أن أبتاع له منامة عندما أصحو من النوم.. هذا لو صحوت طبعًا..

لو أنني مت الآن لكان هذا أكبر مقلب يمكن عمله في هذا الصغير.. يجب ألا أكون بهذه القسوة..

اندسست في الفراش بدوري بعد ما فرغت من كل طقوس الصباح، وعقدت ذراعي على صدري وتثاءبت كفرس النهر، ثم سألته والنوم يداعب أجفاني:

- «هل الاتصال بأبيك سهل؟»

- «لا.. هو الذي يتصل بنا..»

معنى هذا أنني في مأزق يصعب الخلاص منه حقًّا.. كابوس لن أصحو منه أبدًا..

☆ ☆ ☆

وعند الظهر صحوت، فجلست القرفصاء في الفراش ورحت أتأمل وجه الصبي النائم.. حقًّا ثمّة مشكلة في عضلات جفنيه كما قالت (هناء) فهما لا ينغلقان بإحكام أبدًا.. كان يحلم الآن مارًّا بطور (حركة العين السريعة) أو REM كما يسمّونه، وكنت أرى بوضوح قرنيتيه تتحركان محمومتين ذات اليمين واليسار، مع تلك العادة الكريهة لشخص عصبي مثلي: الصرير على الأسنان.. دززيك... دززيك! صوت يحطم الأعصاب بحق..

شعور غامض بالتقزز والنفور غمرني وأنا أرمقه، وما كنت أحسب أن مشهد طفل نائم يمكن أن يسببه، لكن لم تكن لي حيلة فيه.. سأكون مسرورًا حين يعود هذا الصبي لأمه...

أما الآن فعليَّ أن أجد في ثلاجتي ما يصلح لغداء طفل في مرحلة نمو..

أعدت له بعض الدجاج المقلي مع المكرونة وهززته كي يصحو.. كان أول ما قال لي وهو يفرك عينيه:

- «متى ستعود ماما؟»

- «ثق أنني أكثر منك لهفة إلى عودتها لكن من الجلي أن غيابها قد يطول بعض الشيء..»

قال مُلحًّا بلهجة طفل يوشك على الانفجار باكيًا:

- «لكني أريد ماما..»

حاولت أن ألعب دور المربي الفاضل، فقلت له باسمًا:

- «غسيل وجه.. مشط في شعرك.. لقمتان.. ثم نذهب لنراها في المستشفى..»

هزّ رأسه في غير اقتناع، ولحق بي إلى الحمام.. المشكلة هي أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة.. مثلًا كنت أنا في طفولتي أكثر حيطة من أن أدخل الصابون إلى عيني عند غسيل الوجه، والسبب هو أنني لم أكن أغسله بالصابون أبدًا (هذا لو كان ثمّة صابونة واحدة في كفر بدر في الثلاثينات).. أمّا هذا الغلام فكان لابد من أن يملأ عينيه بالصابون ويتلوى كمن يحترق في سقر.. سنه كبيرة نسبيًا لكن نموه السلوكي متدن إلى حد كبير..

وعلى مائدة الطعام أعلن بلا استئناف أنه غير راغب في التهام الدجاج.. فقلت ملاطفًا:

- «لا بد من أن تأكله.. إن الصغار لاينمون من دون لحم..»

قال في غير اكتراث. وبشيء من قلة الأدب:

- «لا يهمني ما تراه أنت.. أنا لن أكله فهو مقرف..»

مقرف؟ لا أحب من يصف الطعام بأنه مقزف حتى لو كان طفلًا في التاسعة.. صحت فيه مغتاظًا:

- «قلت لك إنك ستأكله... ومعنى هذا أنك ستأكله لا أكثر ولا أقل...»

- «وأنا لن أفعل..»

- «بل ستفعل أيها الغلام المدلل..»

وهنا نظر لي في كراهية..

لست عصبيًا بصفة خاصة، لكن هذه النظرة في عينيه الواسعتين زلزلت أعماقي زلزلة شديدة.. شعور أقرب ما يكون إلى الخوف جعل قلبي ينتفض في ضلوعي، وللحظة ساد الصمت.. ثم

بصوت واهن قلت له:

- «إذن كل ما تريد ودعنا نفرغ من هذا كله..»

ونهضت إلى الحمام فغسلت وجهي.. وبحثت عن قرص النيتروجلسرين فاسسته تحت لساني.. هل أنا واهم أم أن لهذا الصبي البرىء عينين شيطانيتين قادرتين على إثارة الذعر في قلب رجل في سني؟

☆ ☆ ☆

- «إن صبية هذه الأيام شياطين لابد من حديد للتعامل معهم..»

- «ماعدا البك الصغير طبعًا..»

☆ ☆ ☆

بعد العودة من المستشفى عرجت بالصبي على بعض محلات وسط البلد، فابتعت له منامين وبعض الغيارات و.... إنني في مأزق حقيقي.. يجب أن أجد امرأة ما تعني به.. من العسير أن أصحبه إلى قريتي.. صحيح أنها قريته كذلك لكنه لم يرها قط.. ولن يتأقلم مع أحد هناك.. (كاميليا)؟ بالطبع لا.. ليس من السهل أن أقنعها بالعناية بطفل آخر ما عداي.. لقد عانت الكثير معي في قصة الساحر الروماني إياها..

عدت إلى داري وفتحت له جهاز التلفزيون الذي لا أفتحه إلا كل 38 سنة، واخترت له مسلسلًا أجنبيًا مفزعًا لأن هذا هو ذوق الأطفال هذه الأيام.. هنا دق جرس الهاتف وكان المتكلم هو د. (مؤنس).. هل نسيتم من هو بهذه السرعة، وبرغم أنه الوجه الوحيد الجديد في الصفحات الماضية؟ إنّه ذلك الخبير التربوي الذي..

- «أهلًا يا (مؤنس).. أرجو ألا تطالبني بثمن التحليل الذي أجريته للصبي..»

قال بلهجة صارمة وإن كانت مهذبة متحفظة:

- «دعنا من المزاح وحياتك.. هل تذكر تلك الجلسة جيدًا؟»

- «نعم.. الصبي عندي هنا.. إن أمّه في المستشفى لأن....»

- «جميل.. جميل.. هاته وتعال حالًا لأن هناك ما يجب أن تراه..»

ووضع سماعة الهاتف دون كلمة أخرى..

☆ ☆ ☆

٦ - هذا الشيء يجب أن يدمر!

لم يخف (مؤنس) تحفظه وتشككه وهو يقتادنا إلى داخل شقته.. كانت الشمس تميل إلى المغيب، ورائحة جو الصيف القادم تنذر بالسيطرة على كل شيء بعد أسابيع.. ستكون هناك عدة أيام خماسينية شديدة الوطء، مع رائحة حبوب اللقاح القادمة من الحقول المحروثة.. رائحة (المراهقة) المعهودة، ثم تبدأ روائح الصيف..

قال للصبي وهو يشير إلى غرفة المكتب المفتوحة:

- «ادخل يا (رامي) وارسم كما تشاء.. إن علبة الألوان والفرشاة هناك... لكن لا تلوث كل شيء من حولك..»

صحت أنا محتجًا:

- «لحظة.. أنا المسئول عنه الآن، ولو دهن نفسه بالأصباغ كما في المرّة السابقة..»

نظر لي نظرة ذات معنى ثم قال للصبي:

- «ادخل يا (رامي)..»

بعد ما توارى الصغير - وهي كما فهمنا جميعًا مجرد وسيلة للخلاص منه - (توسيعة) كما يقولون - قلت لـ (مؤنس) وأنا أجنب مقعدًا في الصالة لأجلس عليه:

- «ما الموضوع بالضبط؟»

ودارت عيناي في الصالة أتأملها.. لقد صرت أحفظها تمامًا بعدما جلست فيها وحدي في المرّة السابقة، لكني هذه المرّة رأيت لوحتين لا بأس بهما تمثلان طراز رسم معينًا من القرون الوسطى، وقد وضعتا فوق المدفأة..

جذب مقعدًا آخر ليجلس جواري إلى منضدة هناك، وقال وهو يعيد إشعال غليونه:

- «ما كنت لألاحظ شيئًا من هذا، وكدت أترك الأمر يمرّ دون تعليق لولا أن (إيكاترينا) لاحظت هذا..»

هنا فوجئت بزوجته السوفييتية (إيكاترينا الشافعي) - كما صار اسمها بعد الزواج - تلحق بمجلسنا هذا، ولم ترهق نفسها بتبادل التحيات.. كانت من النسوة اللاتي لا تفارق لفافة التبغ شفاههن، وقد اكتسب صوتها حشرجة وخشونة محببتين كأنه صوت (عباس فارس) رحمه الله..

قالت لي بعربية رديئة جدًا مما يستعملها عادة المترجمون السوفييت خريجو معهد اللغات الشرقية.. عربية من طراز (أيها السيدون والسيداتون):

- «هل تريد شرابًا؟ لا؟ ليكن.. كنت أنظف الحجرة حين رأيت الرسوم التي رسمها الصبي... لم أصدق عيني.. أعدت النظر مرارًا ثم ناديت (مؤنس) كي يرى ما أراه.. لم تكن هناك هلاوس ما..»

قلت لها في غباء عذب:

- «تعنين أنه موهوب؟ إن هذا....»

هزت أناملها الممسكة بلفافة التبغ، وتبادلت كلمات روسية مع زوجها.. لابد أنها تسأله عن معنى (موهوب).. ثم قالت في دهشة:

- «موهوب بمعنى Talented؟ لا.. لا.. أريد منك أن ترى الرسم..»

ونهضت في ثقة، وأشارت إلى اللوحتين اللتين رأيتهما فوق حاجز المدفأة حين دخلت..

هنا فقط فهمت لماذا لم تكن اللوحتان ذاتي إطار.. لقد تم رسمهما على القماش، وتم شد القماش على عجل فوق إطار خشبي من أربعة أضلع..

تأملت اللوحتين في ذعر، وشعرت بالجلد يزداد خشونة فوق ذراعي.. قشعريرة باردة تزحف على عمود الفقري.. هذا ليس مزاحًا..

- «هل تعنين أنه؟»

- «نعم... هو فعل هذا..»

- «أمس بينما (مؤنس) معه في المكتب؟»

- «(مؤنس) لم يلق نظرة على اللوحتين.. لقد كان يراقب أسلوب الصبي لا أكثر.. وبالطبع كان ينظر إلى القماش باستخفاف لا شك فيه.. لكني أمس دخلت الغرفة ورأيت هذا الهول..»

☆ ☆ ☆

حقًّا هو الهول ذاته!

كانت خلفيّة اللوحتين ذات طابع أحمر مخضر غريب، وفوقها رسم الصبي وجوه شياطين.. تتلوى.. تصرخ.. تعوي.. كأنما تتلظى في جهنم.. الطابع القوطي العتيق للوحات لا تخطئه العين الخبيرة ولا غير الخبيرة، جو كابوسي مريع يجعل روحك ترجف بين الضلوع، وفيه تلك الكآبة

الجهيمة التي يعرفها من رأوا لوحات الإسباني (إلجريكو).. حيث السماء مكفهرة منذرة بالويل والطاعون والعواصف، بينما على الأرض أرواح معذبة ترنو للسماء بحثًا عن مفر..

كان هناك مخلب يتسلل من جانب الصورة، وله طابع حديث يختلف عن باقي تفاصيل اللوحة، وتكاد تشعر بأنه يمزق قماش اللوحة ذاتها إلى أشلاء.. أما أسفلها فكان رمز غريب لا يمكن تقليده بحروف المطبعة، لكنه إلى حدٍ ما خليط من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#)...

ما يجب أن نذكره هنا أنّ هذه الرسوم رسمها صبي في التاسعة من عمره، وهو يمسك الفرشاة لأول مرة في حياته، وفي دقائق وجيزة بينما كان في مكتب (مؤنس)..

ما معنى هذا؟ كان هذا ببساطة ضدّ الطبيعة.. وكل ما هو ضدّ الطبيعة - حتى لو كان طبيعيًا في حد ذاته - مخيف إلى درجة لا توصف..

☆ ☆ ☆

- «المهرج مضحك في حلبة السيرك.. لكن ما شعورك لو فتحت بابك بعد منتصف الليل لتجد نفس المهرج واقفًا في ضوء القمر؟»

لون تشاني الأكبر - ممثل

☆ ☆ ☆

فرغت من خواطري السوداء فنظرت إلى الزوجة التي كان صدرها يعلو ويهبط انفعالًا، وسألت:

- «ما رأيك في هذا كله؟»

نفثت الدخان وقالت في ثقة:

- «هذه الرسوم أعرفها جيدًا.. إنها جاءت من حيث جئت.. هذه الرسوم بيزنطية الطابع موجودة في بعض الكنائس الروسية من عهد (بطرس الأكبر).. وهي تنويع على.. على الشياطين كما تخيلها الرسام..»

- «أعوذ بالله!»

واستدرت إلى (مؤنس) الذي وقف صامتًا كناطور الحقل، وسألته:

- «وما رأيك التربوي في هذا كله؟»

هزّ رأسه كما يهز العلماء الذين لا يعرفون رأسهم، وقال:

- «لا أعرف يا (رفعت).. لا أعرف.. هذا موقف غريب يصعب أن أجد له مثيلا في قراءاتي..»

- «طفل يرسم بسرعة البرق رسومًا من عهد (بطرس الأكبر).. وهذا الموضوع الكريه بالذات.. (مؤنس).. لا تحاول إقناعي بأن هذا الطفل غير ممسوس!»

- «لا أومن بهذه الأمور يا (رفعت).. لا بد من تفسير علمي منطقي لكل هذا..»

هنا تدخلت الزوجة في الحوار وقالت:

- «د. (رفعت).. هذا الطفل ممسوس فعلًا، ويجب أن يُدمر!»

قالتها في بساطة كأنها تنصحني بارتداء ثياب ثقيلة لأن الليل بارد.. فقلت مغتاظًا:

- «يا سلام! بهذه البساطة؟ أشتري إصبعين من الديناميت وأدسهما في فمه وأشعل الفتيل؟»

- «هذا هو الحل الوحيد.. أنا كما تعلم ماركسية، ولا أؤمن بأي شيء غير مادي لكني أعرف كذلك متى أحني رأسي للمنطق وأسلم بوجود شيء لايمكن تفسيره..»

ورفعت إصبعها في الهواء وكررت من جديد:

- «هذا الشيء يجب أن يُدمر!»

- «لقد انتهيت من الرسم يا أونكل!»

كان هذا هو (رامي) طبعًا، وقد جاء في أثناء المحادثة دون أن نشعر به.. وأجفلنا جميعًا لرؤيته، لكننا وقد رأينا وجهة المحبب الوديع، وحمرة الانهماك على خدية، والأصباغ الى تلوث يديه وأنفه؛ شعرنا اللحظة بأننا سخفاء أكثر من اللازم.. مجرد صبي صغير أمّه مريضة.. لا أكثر ولا أقل..

قلت له وأنا أربت على كتفه:

- «تعال سلم على طانط (إيكاترينا) زوجة دكتور (مؤنس)..»

صافها في حياء وهو يرمقها بنظرة ثابتة، فهزت رأسها له وقالت شيئًا عن موعد العشاء.. قال لي (مؤنس) في حماس عربي:

- «فلنتناول العشاء معًا..»

هنا قالت الزوجة في كبرياء وهي تطفئ لفافة تبغها:

- «لا.. لا يمكن.. لم يكن هناك موعد مسبق..»

هزّ (مؤنس) رأسه مستسلمًا محرجًا، وأوصلنا إلى الباب، وهناك همس وقد صار بعيدًا عن مسمع زوجته:

- «معذرة يا (رفعت).. أنت تعرف مشكلة الـ.... »

- «الزوجات الأجنبيات التي لا يفهمن عاداتنا نحن العرب.. نعم.. نعم.. أفهم هذا.. إنهن لن يفهمن أبدًا كيف يدعو الزوج العربي صديقًا له إلى الغداء دون مكالمة هاتفية مسبقة أو موعد مسبق.. لا عليك يا صديقي..»

وابتسمت في سري.. لو أنني تزوجت (ماجي) لتكرر هذا السيناريو في البداية.. لكن (ماجي) ابنة بلد بطبيعتها، وتعرف كيف تكيف عاداتها حسب زوجها وبلده..

قال لي (مؤنس) همسًا كي لا يسمعنا الغلام هذه المرّة:

- «هذا الصبي مشكلة حقيقيّة، وتربيته أبعد ما تكون عن أن تكون قويمة.. أقترح التخلص منه في أقرب فرصة.. ليس بالدينامت كما تقترح، ولكن بإعادته لأبويه فورًا..»

قلت وأنا أنظر إلى الصبي:

- «المشكلة هي أنه قريبي.. والمشكلة الأخرى أنه لا مكان يذهب إليه سواء في الآونة الحالية..»

- «إذن كن على اتصال دائم بي..»

وهكذا عدت مع الصبي إلى داري... سيكون هناك وقت كاف كي أسأله عن موهبة الرسم التي هبطت عليه من السماء دون سابق إنذار.. وفي الطريق مررنا على المستشفى لنرى ما حدث لـ (هناء).. كانت تتحسن لاريب في هذا، وقدرت في سرور أنها لن تنتظر الأسبوع بأكمله هنا.. قبلت صغيرها المخيف في نهم، وسألته عما أكل في الغداء.. كأنني يمكن أن أنسى إطعامه لمجرد أنني أحب ذلك، وطلبت مني أن أشترى له شيكولاتة وأن أعني به.. طلبت مني كذلك أن أمنحه نزهة لا بأس بها لأنّه لا يتنزه في داره.. كأن الأخت (هناء) تفترض أنني (والت ديزني) شخصيًا.. وأنني مكلف بتسلية الصبية.. تركناها فيما بعد وعرجنا على أحد المحال في الطريق فابتعت بعض الشطائر والعصائر.. من أين يشترون الديناميت حين يحتاجون إليه؟

ثم زرنا إحدى دور السينما، وكانت تعرض فيلمًا أمريكيًا متجهمًا شديد التعقيد والتحذلق يصعب فهمه عليَّ أنا نفسي، وناسبني هذا على سبيل تعذيب الصبي.. لقد أرادت (هناء) أن أرفه عنه وهأنذا قد فعلت..

وفي المساء أدخلته إلى الفراش، وقبلت جبينه على سبيل الأبوة، وإن كان الخوف يتلاعب في أعماقي.. ثمّة سر مخيف يحيط بهذا الصبي، وحتّى أعرفه من حقي التام أن أشعر بالتهيب وبعض الجزع.. لو أنك وجدت على باب شقتك حشرة حمراء ذات رأسين ولها جناح حرشفى وذيل

مشقوق، فإن الشعور الطبيعي هو التقزز والفزع... لا تقل لي إنك ستمسك بها وتدللها وتقبلها، لمجرد أنها حشرة مسالمة أخرى..

جلست في الصالة أستمتع بقصة (طارد الأرواح الشريرة) تلك القصة الرهيبة للأديب اللبناني الأمريكي الأشهر (ويليام بيتر بلاتي)، والتي تحكي عن استحواذ شيطاني يقع على طفلة تعيش في الأقاليم، مما يؤدي بها إلى أشياء غريبة بعض الشيء، ليس الكلام باللاتينية وانقلاب الوجه للخلف بأغربها..

هنا دق جرس الهاتف، وأنا لا أدري حال الهاتف في بيوتكم، لكنه عندي لا يدق إلا حاملًا مصيبة.. (هناء).. هل؟ هنا جاء صوت (مؤنس) يقول وهو يشهق جزعًا:

- «(رفعت).. (إيكاترينا)!»

قلت بأسلوبي السقيم المعتاد في الدعابة:

- «هل توفاها الله؟»

انفجر في البكاء حتى أذابت الدموع لفظة نعم التي قالها

☆ ☆ ☆

٧ - البحث عن دليل..

بعدما انتهت إجراءات الدفن - وكان يدفنها في مصر لأنّه لا أقارب أحياء لها في الاتحاد السوفييتي - جرؤت على توجيه السؤال الوحيد الممكن هنا: كيف حدث هذا؟

قال لي إن المرحومة دخلت الفراش مبكرًا، ثم - في الحادية عشرة مساء - صحت من النوم وراحت تشير لحلقها، كان هناك غصة تخنقها.. راحت تتكلم كلامًا مختلطًا بالروسية ثم اكتسب وجهها اللون الأزرق الجميل، وغابت عن الوجود..

ونظر إلى (رامي) الذي كان يلعب بجوارنا ـ ما كان لدى مكان أرسله إليه في هذه الظروف - وكتم بالطبع عشرات العبارات التي يريد قولها.. كتمها لأنّه رجل عقلاني مثقف.. رجل لا يحق له أن يتهم الغلام بأنه شؤم.. لا يحق له أن يقول إن نظرة الصبي الكارهة إلى المرأة، حين سمعها تناقش فكرة تدميره، هي السبب.. لا يحق له أن يطلب مني التخلص من الصبي.. لهذا كله ابتلع تعليقاته وصمت، لكنه كان يتحرق شوقًا للكلام..

كان آخر ما قاله لي وأنا أهم بالرحيل مع الغلام هو:

- «تخلص منه في أقرب فرصة.. إنِّه يبعث في نفسي ما تبعثه سحلية تسللت إلى ياقة قميصي..»

☆ ☆ ☆

- «إن صبية هذه الأيام شياطين لابد من يد من حديد للتعامل معهم..»

- «ما عدا البك الصغير طبعًا..»

☆ ☆ ☆

وفي المنزل كان الليل قد خيم، حين جلست مع (رامي) نشاهد التلفزيون.. بعبارة أدق كان هو يشاهده بينما كنت أنا أشاهد الصبي.. وذلك بنظرات مختلسة من فوق كتاب (طارد الأرواح الشريرة).. طفل بريء وحيد تتهدل خصلة من الشعر الأسود الفاحم على عينه اليسرى، ويكركع

بالضحك ويلكم الأريكة من فرط الانفعال، بينما (إسماعيل ياسين) على الشاشة يمط شفته السفلى العملاقة، ويقول أشياء مضحكة..

يصعب على أن أفترض أن سرًا مخيفًا يتوارى وراء هذه الملامح الملائكية.. ملامح الطفل لا (إسماعيل ياسين) طبعًا..

ورفعت عيني إلى سقف الصالة فرأيت البرص.. البرص.. صديقي العزيز الذي يجيء من الشرفة المفتوحة في ليالي الصيف، فلا يفعل شيئًا سوى أن يبقى هناك ساعات طويلة، ثم يرحل يائسًا.. لقد أدت ساعته البيولوجية عملها جيدًا وأخبرته أن الصيف على الأبواب.. وفي الآن ذاته تعمل ساعات كائنات عديدة.. وتنهدت وأنا أفكر في أسرار الكون المستغلقة.. في مكان ماتوجد الإجابة عن أسئلة عديدة، مثل أين تذهب النجوم الهاوية، ولماذا تنتحر الحيتان في (أغسطس)؟ وأين تذهب كل الأبراص في الشتاء؟ ولماذا مازال قلبي الواهن يخفق بالحبّ للكون؟

هنا رفع (رامي) رأسه إلى السقف فرآه.. وقف على الأريكة، وأطلق صرخة عاتية ووثب مترين إلى الوراء..

- «لا تخف يا أحمق.. إنّه لايؤذي.. إنّه مثلي.. بشع المنظر طيب القلب..»

لكن الصبي كان ينظر إلى السقف بتوحش.. كان القدماء يحسبون خطأً أن البرص يسبب مرض (البرص) - بفتح الباء والراء - وكانوا يخلطون بين البهاق والجذام ويعتقدون أن كليهما برص - بفتح الباء والراء - لكن الصبي لا يعرف شيئًا من هذا على كل حال.. ماذا أفعل؟ بالطبع لست من الطراز الذي يبحث عن المكنسة ليهوي بها على السقف، كي يسقط هذا الكائن التعس، ثم مشمئزًا يلاحقه بالخف حتى يحيله إلى عجين.. لن أقتل كائنًا أعرف يقينًا أنه غير مؤذ..

لكن الأمر تم دون جهد مني..

لقد سقط البرص من السقف فوق السجادة.. وهرعت حاملًا الخف كي أنهى المهمة على سبيل الرحمة.. وهنا وجدت أن المسكين قد مات.. هذا هو أول برص في التاريخ يسقط فيموت.. أو هو أول برص في التاريخ تقتله الصدمة العصبية أو نوبة قلبيّة..

تخلصت من الجثة حزينًا.. هو ذا صديق آخر لن أراه بعد اليوم.

وعدت من الشرفة لأجد الصبي قد عاد يتابع فيلم (إسماعيل ياسين) في نهم.. هذا صبي فعال.. صبي قادر.. مجرد نظرة كراهية واحدة تنهي أية مشكلة..

قلت له في هم:

- «حان وقت النوم.. سأطفئ التلفزيون الآن؟»

صاح متوسلًا بتلك اللهجة الذليلة التي يجيدونها:

- «ولماذا؟»

- «لأن الأولاد المحترمين لا يظلون ساهرين بعد العاشرة مساء.. أو هذا ما قيل لنا..»

- «لكني أريد المشاهدة..»

- «وأنا أرفضها بحماس شديد..»

كان يغلي غيظًا الآن، وهذه المرّة رفع نحوي عينيه.. كانتا مفعمتين بالكراهية والحقد.. كراهية لم تبد في عيني قاتل ينظر إلى جلاده قبل الإعدام.. وشعرت بالدم يتجمد في عروقي ورغبة عارمة في القيء.. هنا رفعت يدي لأوقفه حالًا، وصحت:

- «ليكن.. ليكن.. انته من الفيلم إذا أردت!»

بدت ابتسامة ودود على وجهه، وعاد يتابع الفيلم.. وجلست أنا أرتجف، وأحاول أن أدفن همومي في الكتاب الذي أقرؤه..

لا أدري متى ولا كيف نام، لكنه فعلها أخيرًا فحملته إلى الفراش، وغطيته بالملاءة ورحت أتأمل وجهه، وفي ذهني عشرات الأسئلة..

☆ ☆ ☆

ولماذا أفرض الآن أن الأمر خارق للطبيعة؟ إجابة سهلة جدًا.. لدينا ذلك الصبي (هشام) والمعلمة والأستاذ (مجدي) والزوجة السوفييتية والبرص البائس.. كل هذه ليست مصادفات... إن قانون المصادفات نفسه ليعلن عن عجزه عن تفسير ما يحدث.. الرسوم البارعة التي رسمها صبي في التاسعة.. لا تقل لي إن هذه موهبة مبكرة.. كلا ياصديقي.. قل هذا لأحمق غيري..

متى بدأت هذه التغيرات؟ أو هذه الظاهرة؟

هل ثمّة حادثة مهمّة وقعت للصبي؟ طبعًا لم تكن حادثة الفيلا التي اقتحمها الصبي ذات أهميّة ما بالنسبة لي.. إنها كذلك بالنسبة لأمه المذعورة دائمًا، والتي تؤرخ بالتأكيد كل جرح في إصبعه وكل خدش...

لكن يمكن القول دون خطأ كبير إن هذه هي نقطة البداية..

ماذا رآه الصبي هناك؟ ما هي المعاملة أو التجربة التي مر بها في اللحظات النادرة التي كان وحده فيها؟

هذه هي نقطة البدء بالنسبة لي..

☆ ☆ ☆

في الصباح أيقظته فانهال عليَّ بالركلات والسباب - سباب الأطفال المهذبين طبعًا من طراز (رذل ووحش) - لكني أصررت على أن ينهض.. أريد أن أطعمه وأذهب إلى العمل.. لديَّ عمل مهم اليوم، وإن كان عليَّ أن أصحبه معي طبعًا.. وهنا نهض من الفراش وراح يرمقني بأكثر نظرات الكراهية تجردًا وقسوة، وشعرت بالدم يتجمع في رأسي فقلت له وأنا أتراجع للوراء:

- «ليكن.. واصل النوم.. أنا آسف..»

وابتعدت وأنا أجاهد كي أسترد أنفاسي المبهورة.. هل هو الوهم أم أنّ هذا الصبي حقًّا قادر على ذلك؟ الحقيقة هي أنني لم أعد سيد داري، وصار هدفى الوحيد إرضاء هذا الغلام.. هو من يملي

جدول أولوياته عليَّ، وعليَّ أن أقبل.. المشكلة هي أنني رأيته يغضب.. وغضبته - والحق يُقال - كريهة فعلًا..

وهكذا واصل الوغد النوم حتى العاشرة صباحًا، وشربت أنا ثلاثة أقداح من القهوة، والتهمت أعصابي على سبيل الإفطار..

بعد ما انتهى من طقوس الصباح، وفرغ من إفطاره الدسم، جلس أمامي منتظرًا برنامج اليوم، فقلت له:

- «هل أنت معتاد الرسم؟»

- «أحيانًا أرسم..»

- «ولم تستعمل الزيت قط؟»

رفع كتفيه لأعلى بما معناه (لم أفعل).. وهذه الإيماءة هي البديل الحركي للفظة (تؤ) التي تقولها الفتيات المدللات المتدللات.. عدت أسأله:

- «كيف رسمت تلك الأشكال التي رسمتها عند دكتور (مؤنس)؟»

- «لا أدري... أحببت أن أرسم فرسمتها..»

- «وهل تدرك معنى ما رسمت؟»

رفع كتفيه من جديد على أن لا.. كما توقعت تمامًا.. هذا الصبي لم يرسم ولكنّه لعب دور فرشاة الرسم، ليد أخرى أكبر وأقدر منه.. من صاحب هذه اليد؟ وما حدود قدرته؟ ولماذا الصبي بالذات؟

نهضت إلى مائدة الطعام فقمت بجمع الأطباق، لكني أخرجت منديلي وأمسكت به الكوب والملاعق، وألقيت بها في كيس ورقي.. وقلت له وظهري يداري ما أفعل:

- «هل يمكننا أن نمرّ على دارك بحثًا عن بعض الألعاب؟»

- «أية ألعاب؟»

- «أريد ألعابًا قديمة.. ألعابًا لم تمسَّها منذ زمن..»

- «ولماذا؟»

- «أحاول أن أسليك.. لا تكثر من الأسئلة وثق بي..»

وهكذا ترونني الآن أقف بسيارتي على مدخل الفيلا.. يخرج عم (بسطويسي) العجوز يرمقنا في غباء.. إنه يعرفني ويرى (رامي) معي فلا يعترض، لكني أرتاب في رد فعله لو اقتحم الفيلا

مجموعة من الملثمين يلبسون كنزات مخططة بالعرض، ومعهم طفاشات وحقائب معدة لملئها.. لن يفعل شيئًا أيضًا وقتها، وسيلقي السلام على الداخلين ثم يعود لشرب سجائر اللف..

- «كيف حال الهانم يا (رامي) بك؟»

لم يرد (رامي) - وكل الصبية في سنه لايردون على من يخاطبهم - بينما ألقى الرجل تحية شبه عسكرية لي، وتساءل عن سبب تشريفي هنا، فقلت بلهجة عملية وأنا أزيحه جانبًا:

- «ثمّة أشياء نسيناها هنا.. إنني أعني به كما تعلم..»

وفي الفيلا الخاوية دخلنا غرفة الصغير - التي لم ينم فيها قط - وسألته بعيني عن بعض الألعاب الخاصّة به.. كانت الأرض فوضى حقيقيّة من الشاحنات البلاستيكية والمسدسات المكسورة والسيارات التي تلف زنبركها، لكني كنت راغبًا في لعبة قديمة.. أشار إلى (شوفينيرة) صغيرة في الركن.. واتجه ليفتح درجها السفلى ويمد يده ليخرج لي ما تكدس فيه من ألعاب.. كانت ألعابًا بدائية من طراز (الشخشيخة) و (النفير).. إلخ، مما أكد لي أنه لم يمسها من زمن حقًّا..

صحت مذعورًا:

- «لا.. لا! لاتلمس شيئًا! سأفعل هذا بنفسي..»

وأخرجت الكيس الورقي والمنديل، ورحت أنقل بعض هذه الألعاب إلى داخله دون أن ألمسها.. لم يكن أطفال هذا الزمن بالوعي والذكاء اللذين يميزان أطفال اليوم، وأعتقد أن الصبي لم يفطن إلى مغزى ما أقوم به.. فلمّا فرغت نهضت وأشرت له أن يتبعني، فقد حان وقت الرحيل..

وانطلقت بسيارتي العتيقة، على حين وقف الخفير على الباب يضيح:

- «أبلغ سلامي للهانم يا بك!!».

☆ ☆ ☆

كان (رامي) يذرع الردهة أمام قسم الطب الشرعي جيئة وذهابًا.. وهو يصدر أصوات محرك سيارة، ثم يوشك أن يرتطم بأحد المارَّة فيتوقف ويصدر صرير فرملة سيارة من فمه «إي ي ي ي ي ي ي!».. ووقفت فتاة تداعبه بعبارات من طراز: إن فراملك فاسدة.. يجب أن نذهب إلى قسم الشرطة..

وكان د. (مراد) مدرس الطب الشرعي الشاب جالسًا أمام المجهر.. إن د. (مراد) - كما لابد أن الأذكياء قد فهموا - شاب يقوم بتدريس الطب الشرعي هنا.. صديق عزيز هو.. ليس إلى حد تبادل الزيارات طبعًا..

كان عاكفًا على دراسة البصمات الموجودة على الأشياء التي جمعتها، وقد تعلّمت منه في الساعة الماضية كيف يرفعون البصمات باستخدام المسحوق والشريط اللاصق، وكيف يثبتونها على الشرائح ويفحصونها بالعين المجرّدة أو تحت المجهر..

قلت له وهو منهمك لا ينظر لي:

- «كما ترى.. هناك مجموعتان من البصمات.. بصمات قديمة تعود لما قبل حادث الفيلا.. وبصمات جديدة تعود لما بعد الحادث. بصمات قديمة لطفل وديع اسمه (رامي).. وبصمات حديثة لذلك الشيء الذي يبيت في داري.. لو تطابقت البصمات فمعنى هذا أن الصبي هو الصبي، وأن على أن أعرف سبب تبدل شخصيته.. أمّا لو اختلفت البصمات فمعنى هذا أنه ليس (رامي).. هذا طفل آخر!!»

قال في سخرية دون أن ينظر لي:

- «تتكلم عن هذه الترهات كأنها حقائق علمية..»

- «لقد رأيت في حياتي الكثير، وصرت على استعداد لتصديق كل شيء.. وعلى كل حال عليك أن تتحملني ما دمت صديقي..»

بعد قليل رفع عينيه المنهكتين المحمرتين عن المجهر، وفركهما قليلًا ثم قال:

- «هل أنت متأكد من دقة أخذت هذه البصمات؟»

- «بالنسبة للبصمات على الألعاب؛ ربما وجدت بصمات أمه وأبيه.. لا أضمن هذا..»

- «كل البصمات تخص أطفالًا.. لا شك في هذا.. لكني أتكلم عن البصمات على الكوب والملاعق..»

- «ماذا بها؟»

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

- «لديَّ خمسة أنواع من البصمات.. بل إن كل ملعقة وشوكة تحمل نوعًا مختلفًا منها.. وكلها على كل حال لا تمت بصِلة للبصمات الموجودة على الألعاب!»

ونفث الدخان وأردف:

- «يخيّل إليَّ أنك جئت بأدوات المائدة هذه من روضة أطفال!!»

☆ ☆ ☆

٨ - لا بد من العودة إلى هناك..

تماسكت حتى لا أصاب بالفالج.. وشكرته على ما قام به من جهد، ثم خرجت إلى الردهة أرمق هذا الشيء يلعب مع الطلبة المارين.. دنوت من النافذة ورحت أعب الهواء عبًّا حتى لا أفقد الوعي.. هذا الشيء ليس شريرًا فحسب بل هو يعابثني بقسوة.. بصمات الصبي تتغير من ثانية لأخرى بحيث يستحيل أن تعرف من هو بالضبط.. لابد من نهاية لهذا العبث.. لا بد من مخرج..

☆ ☆ ☆

بعد يومين:

دخلت المطبخ لأعد الغداء، بينما جلس (رامي) في الصالة يتسلى بالرسم في دفتر ابتعته له.. الفكرة هنا أنني آمل أن أجد في رسومه منفذا يضيء لي طريقي..

كنت أتوق إلى الخلاص منه، صباح اليوم كانت الأمور لا بأس بها أبدًا في المستشفى.. ويبدو أن (هناء) يمكن أن تعود لدارها غدًا أو بعد غد.. عليَّ أن أتحمل الصبي بعض الوقت لا كل الوقت.. إنَّه مجرد طفل وقريبي وابن قريبتي.. فلست في حل من تدميره أو خنقه بالوسادة.. سيكون تفسير هذا عسيرًا بعض الشيء أمام وكيل النيابة ثم أمام طبيب المصحة العقليّة بعدها..

أدركت أن عليَّ أن أجد أحدًا يتولى أمر هذا الشيء الصغير.. ربما لو اتصلت بقريتي (كفر بدر) لاستطعت أن أحضر عمة أو خالة مسنّة تقبل العيش في الفيلا مع الصبي إلى أن تشفي (هناء)..

وهنا توقفت.. هذه فكرة مختلة.. لم أعد متأكدًا أنّ هذا طفل أصلًا.. ربما كان مصير البائسة التي سأجلبها للعناية به هو الموت.. والصبي فعَّال بما لا يقاس كما رأينا.. لو كنا في القرون الوسطى - ولحسن حظه أنّ هذا غير صحيح - لاقتادوه بحبل من ليف في عنقه إلى أمام الأبرشية وأحرقوه تطهيرًا لجسده.. إنّهِ متمرد تربويًا ولن يطول الوقت حتى يختلف مع البائسة، وعندها..

وخرجت إلى المكتب لأجلب بعض الزيت.. تسألني لماذا أحتفظ بالزيت في المكتب، فأقول إن هذا ليس موضوعنا الآن.. المهم أنني وجدت جدران الصالة كلها متسخة وقد رسم عليها ذلك الرمز الغريب، الذي هو خليط من العلامة (*) والعلامة (#).. لقد رسمه في كل مكان ثم عاد إلى الكراسة يرسم ببراءة تامة..

- «ما هذا الذي فعلته؟ هل جننت؟»

هنا نظر لي في كراهية وضيق.. عندها تراجعت تمامًا... لا يجب إثارة حنق هذا الصغير... لا يجب أبدًا.. إن من حقه التام أن يرسم كل ما يريد على جدران بيتي، والويل لي إن احتججت..

دنوت منه لأسأله في رفق ومداهنة:

- «لماذا رسمت هذا الرسم بالذات؟»

رفع رأسه واستنشق كي لا يسقط المخاط من أنفه.. وكل الأطفال تسيل أنوفهم عند الرسم على كل حال.. قال لي:

- «لا أدري.. أحببت أن أرسمه..»

هل هي رسالة؟ هل يحاول إبلاغي بشيء ما؟ من يحاول؟ هو أم من استحوذ عليه؟ الحقيقة أنني لا أعرف.. وليست لدى أدنى فكرة عن كيفيّة التصرف...

وفي المطبخ رحت أرمق السمكتين اللتين تسبحان في الزيت مع صوت القلي الرتيب.. تششششششش!! ورحت أفكر.. سأرتب الأمر منطقيًا كعادتي:

1 - بدأ كل شيء بعد دخول الغلام تلك الفيلا..

2 - لم ندر ما حدث هناك سوى لقائه بذلك المتسول كما يقول هو، أو الغريب المخيف كما قال صديقاه...

3 - الصبي يرسم موضوعات غريبة.. يرسم شياطين بيزنطية من روسيا القديمة، فما معنى هذا؟ هل أصل القصة من روسيا؟

4 - الصبي يكرر هذا الرمز الغريب، وهو لا يمت لرمز سحري معروف مثل النجمة الخماسية أو الصليب المقلوب...

5 - هل (رامي) هو (رامي)، وقد اكتسب قوى غامضة، أم أنّ هذا طفل آخر؟ لوكان هذا صحيحًا فأين (رامي) الحقيقي؟ إن لعبة البصمات هذه جعلتني أميل إلى الاحتمال الأخير...

وبعد تقليب الاحتمالات في ذهني، والسمك في المقلاة، كنت قد وصلت إلى قراري الأخير.. كل شيء يبدأ وينتهي في فيلا (أبو العلا) هذه.. عندها بدأ كل شيء وعندها ينتهي كل شيء.. لابد من دخولها ومحاولة الفهم.. لكني بالتأكيد غير راغب في دخولها مع الصبي..

إذن ماذا أفعل؟ كيف أتخلص منه مؤقتًا؟

إن الحل سهل وقريب.. الساعة الآن الثالثة بعد الظهر، وهو موعد استيقاظ (عزت) من النوم، خاصة وهو لم يكن في الإسكندرية أمس... أنتم تذكرون (عزت) وتعرفون أنه مصاب بداء عضال اسمه (حب الإسكندرية).. لو تكلّم الكورنيش؛ لوجد عسرًا بالغًا في تذكر آلاف المرّات التي رأى فيها ذلك الرجل النحيل القاتم المدثر بثياب ثقيلة، الذي يمشي عليه بلا هدف وبلا نية استمتاع واضحة.. كأنه منتحر يوشك على إغراق آلامه في الماء المالح..

وبسرعة انتشلت السمك وجلست أنهى وجبتي مع الصغير..

وقرعت باب (عزت) ففتح لي وهو يلوك بعض الإفطار / الغداء... فلمّا رآني توجس خيفة..

قلت في مرح وأنا أقدم له (رامي):

- «مهمّة عادية جدًّا.. طفل بريء سيظل معك حتى الثامنة مساء..»

- «هذا.. هذا.. كل شيء طبيعي وصحي إذن.. هل هو قريبك؟»

- «نعم..»

وانتحيت به جانبًا وهمست في أذنه:

- «لا أريد أن أفزعك.. لكن من مصلحتك الخاصّة ألا تثير غضب هذا الصغير بأية صورة.. لوطلب منك أن تقف على أنفك وتمضغ عصا مكنسة فافعل ما يقول..»

بدا عليه الرعب الممزوج بالغباء، وتساءل:

- «حقًّا؟ لماذا؟»

- «لو قلت لك لرفضت أن تضيفه عندك.. وأنا لست أحمق!»

هنا ركل (رامي) ساقي وانفجر في البكاء:

- «هل ستتركني هنا مع هذا الرجل المخيف؟ إنه كأشباح القصص..»

- «بل هو لطيف جدًّا يا حبيبي.. إنِّه ألطف إنسان عرفته... هلمّ يا (عزت).. أره كم أنك رقيق..»

ابتسم المسكين مكشرا عن أنيابه، بينما الطعام مازال يملًا جانبي فمه، ولم يكن التأثير النهائي محببًا...

- «قلت لك إنِّه مخيييييييييف! لسوف أخبر ماما بكل شيء، وأقول لها إنك تخلصت مني..»

كان الموقف خطرًا لأن نظرة الكراهية تلمع في عينيه.. لهذا قررت أن أتلطف أكثر.. قلت لـ (عزت) في مداهنة:

- «(عزت).. أنت ستُعلّم (رامي) كيف يصنع تمثالًا، ولسوف تلعبان بالصلصال كثيرًا جدًا جدًا..»

هنا فقط بدأ (عزت) يروق للطفل.. فله إمكانيات أخرى غير كونه يثير الرعب في القلوب.. وببطء تراخت كفة المتقلصة على كفي.، وبدأ يدخل إلى داخل الشقة..

همس (عزت) وهو يمسك بذراعي:

- «ألن تقدم لي تفسيرات ما؟»

- «ربما فيما بعد..»

- «ومتى ستعود؟»

- «لا أدري.. لكن الموت ليس مدرجًا في جدول أعمالي اليوم..»

وبعد ثوان كنت أستقل سيارتي خارجًا من زحام القاهرة.. للمرة الأولى أنا وحيد منذ أيام بدت كالدهر.. وقد صممت على أن أنعم بوحدتي هذه قدر الإمكان..

☆ ☆ ☆

- «إن صبية هذه الأيام شياطين لا بد من يد من خديد للتعامل معهم..»

- «ما غدًا البك الصغير طبعًا..»

☆ ☆ ☆

أولًا عرجت على فيلا (هناء) لألقى (بسطويسي) العجوز الجالس على الباب يدخن سجائر اللف، ويستمع إلى (محمد رشدي) بصوته اللامع البراق ينبعث من المذياع.. فلمّا عرفني - بعد مشقة - نهض ولوّح بالسيجارة وسألني عن حال الست هانم والبيه الصغير.. سألته عن الأب.. هل اتصل بعد؟

- «لن نعرف يا دكتور.. إن الهاتف بالداخل وأنا لا أدخل الفيلا أبدًا..»

سألته بكثير من التدقيق عن الأيام التي تلت ذلك الحادث.. وأنا أسمية حادثًا لأنّه ليس لديَّ تفسير آخر للتحول الذي طرأ على الصغير بعدها.. لم يكن هناك شيء غريب سوى.. سوى موت الكلب الذي كان يخيف الصغير كثيرًا، والذي كان يحرس فيلا مجاورة.. لقد وجدوه في عرض الطريق

ميتًا بلا تفسير واضح، وقيل إن اللصوص قدموا له السم.. طبعًا كلنا يعرف أن اللصوص أبرياء هذه المرّة...

ثانيًا حاولت أن أعرف منه المزيد عن فيلا (أبو العلا) لكن الرجل كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويرفض الحديث متبعًا تقاليد (التابو) المقدسة لدى القبائل البدائيّة: ذكر اسم الروح الشريرة يجعلها تأتي.. كان الرجل يعرف.. يعرف الكثير.. وهذه نقطة مهمّة يجب أن أتذكرها... إنّه بواب يخالط البوابين المخضرمين هنا، وبالطبع يسمع ثرثرتهم...

يجب أن أعرف، ومن المؤسف أنه لا توجد طريقة أخرى..

☆ ☆ ☆

وكانت الشمس توشك على الانحدار نحو الأفق الغربي حينما وقفت أمام الفيلا.. حقًّا لم تكن (هناء) تبالغ حين وصفتها بأنها دغل، ولم أبالغ أنا حين قلت إني لم أكن لأندهش لو برز رأس ديناصور من بينها ليخور خوارًا عميقًا يرج الشارع رجًا..

أكره هذا الوقت بالذات كي أبدأ المغامرة.. كنت فيما مضى أشاهد أفلام مصاصي دماء (هامر) فتذهلني السرعة الجهنمية التي تهوى فيها الشمس غربًا في تلك الأفلام.. إنهم يتجهون للقصر ظهرًا.. يدخلون القبو عصرًا.. يفتحون التابوت وقد غربت الشمس، وبالتالي لا بد من أن يفتح مصاص الدماء عينيه الدمويتين قبل أن يصل الوتد إلى قلبه.. عندها ينهض! ونهضته ليست بالضبط ذكرى محببة!

لكن الفرصة لن تتكرر كثيرًا.. إنني مسافر بلا متاع.. خفيف كالسنونو من دون الصبي..

وقفت أمام باب الفيلا الصدئ الموارب، ثم أزحته كان ثقيلًا كما ينبغي أن يكون.. وكان له صرير كما يجب أن يكون له.. وتذكرت شيئًا مماثلًا مع بيت في المنصورة، لكني وقتها لم أكن وحدي.. كان معي أولاد خالي و.... ودخلت..

☆ ☆ ☆

٩ - عجوز وحيد يحاول أن...

كلا.. لم تنفتح أبواب الجحيم، ولم تعو الذئاب أو ترتج الجلاميد في الوديان القصية..

لم يحدث شيء ذو بال.. كانت حديقة عادية جدًا لها كل مزايا وعيوب أية حديقة لم تلق عناية منذ دهور.. كانت هناك زاحفة ما تصدر صوتًا غريبًا من بين الأحراش.. لا تنسوا أنّ هذه بداية الصيف حين تقرر كل حشرة غريبة وكل زاحفة أنها حية، وأن عليها أن تتحرك وتتناسل..

سحلية ركضت على حذائي وأنا أمشي بين الأعشاب فأجفلت.. وثبت للوراء مترًا ودعوت الله ألا تكون الثعابين منتشرة هنا.. ما زالت الإضاءة جيدة لكن هذا المكان سيصير كابوسًا حقيقيًا حين يجن الليل..

لم يكن المبنى ظاهرًا من هنا، ولكني أدركت يقينًا أنني سأدخله، وهذا هو أسوأ جزء في الموضوع.. مبنى متسخ مظلم تفعمه العناكب والوطاويط ورائحة العطن.. هذا عمل قذر بالتأكيد، لكن لا بد من أن يقوم به أحمق ما.. تفقدت السيارة الواقفة التي تعود طبعًا إلى العصر الحجري، وكانت أبوابها مفتوحة.. وبالداخل كانت أسرة من القطط البيضاء تلتهم شيئًا ما.. قطط جائعة إلى حد أنها لم تلحظ وجودي.. كان تنجيد المقاعد ممزقًا متربًا، ولم يبق شيء في تابلوه السيارة بالطبع..

نهضت متثاقلًا ومشيت نحو البيت.. البيت الذي شعرت كأنني ثابت وهو يقترب مني باستمرار.. أزيح الغصون جانبًا وأواصل المشي.. ومددت يدي لجيبي وابتلعت بعض الأقراص من دواء القلب.. لا يجب أن يخذلني الآن.. إنني رأيت كل أنواع الأهوال في حياتي المباركة، ولكن - الطريف - مازلت أقابل كلًا منها كأنه شيء جديد تمامًا، وقلبي ذلك الطفل الأبله يأبى أن يتعلم أو يتعود..

سأرى الهول في هذا البيت.. أشعر بذلك.. أشمه..

☆ ☆ ☆

وكيف أعرف أن (عزت) في هذه الأثناء جالس في شقته يعلم الصبي كيف يشكل بعض الصلصال؟ لقد نهض تاركًا الصبي، وتاركًا المذياع يقدم بعض الموسيقا الكلاسيكية.. ودخل المطبخ ليلتهم بعض المخللات كعادته - لا تنس أنه مريض - وأعد بعض الشيكولاتة الساخنة باعتبارها بالتأكيد تروق لصبي وقح..

بالطبع لم ير الصغير شيئًا من طقوس غلي الماء وغسيل الأكواب، وإلا لمات اشمئزازًا وأراحنا.. المهم أن (عزت) عاد حاملًا كوبين يبدو مظهرهما مطمئنًا.. وضعهما على المنضدة ليبردا.. هنا توقف قلبه ذهولًا..

نهض وأعاد تأمل المشهد مرّتين وثلاثًا لكنه كان حقيقيًا تمامًا.. إن ما صنعه الصبي بالصلصال ليفوق الوصف.. إنّه أغرب وأبدع وأبشع ما رآه في حياته..

- «أنت فعلت هذا؟»

هزّ العصبي رأسه واستنشق ليمنع المخاط من القلي كالعادة، فسأله (عزت):

- «أين رأيت هذا؟»

- «لم أره قط.. لكني أردت أن أصنع مثله..»

فتح (عزت) فاه في غباء، وأعاد تأمل المشهد..

دار حول التمثال بضع دقائق، ثم نهض مسرعًا إلى الرف الخشبي المربوط بحبلين، والذي يعتبره المكتبة.. على الرف كان ذلك المجلد الإيطالي براق الصفحات والذي يظهر بعض أعمال النحت الشهيرة عبر العصور.. لقد رأى هذا التمثال مرارًا ويعرف معناه.. قليل من الناس كان يملك هذا التمثال في العصور الوسطى، وكان ثمن حيازته باهظًا. في الغالب كان الحرق هو مصير الساحر الذي يجدون لدية تمثالًا للشيطان (بيموك).. الفيل منتفخ البطن الذي يمشي على قدميه الخلفيتين، ويتحسس بطنه في جشع..

(عزت) كان يعرف هذا لأنّه مثال مولع بالتماثيل القديمة.. ولكن من أين عرف الصبي هذا؟ وإن عرفه كيف استطاع أن يسيطر على يديه الصغيرتين كي يشكله من الصلصال؟

كان (عزت) يقف متصلبًا عاجزًا عن الكلام...

لكن القشعريرة بدأت تزحف على عموده الفقري ببطء، كأنما تغطيه بطبقة من الثلج...

هذا ليس طفلًا عاديًا.. ربما ليس طفلًا أصلًا..

☆ ☆ ☆

أنا الآن في مدخل الفيلا العتيقة.. (اللوبي) كما يسموّنه..

كان المشهد بالداخل أقل سوءًا مما تخيلت، ويمكن بشيء من التجاوز اعتبارها مجرد فيلا متسخة مغبرة تملؤها العناكب.. لم يكن هناك أثاث وهذا أفضل.. لا أحب مائدة الطعام الطويلة

المغطاة بالأتربة وأنسجة العناكب، حتى كأنها قاعة عرس مس (هافيشام) في رائعة (ديكنز) (آمال كبار).. هل قرأتموها بعد؟ لا؟ إذن لا تنسوا ذلك لو ظللنا أحياء..

مشيت أتحسس مواطئ قدمي ورحت أرفع ساقي في حذر.. لقد صارت الرؤية أكثر عسرًا والسبب ليس قدوم الليل، بل لأن هذه الفيلا صارت بيئة معادية للضوء... بعد كل هذه الأعوام لم يعد الضوء يستطيع الدخول هنا دون تحرج.. إنِّه يعامل كغريب غير مرغوب فيه..

ولكنى كنت قادرًا على رؤية الجدران.. أستطيع رؤيتها ورؤية تلك العلامة الغريبة التي تبدو كأنما رسمت بالدم.. رمز غريب لا يمكن تقليده بحروف المطبعة، لكنه إلى حدٍ ما قريب من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#).. أنا لم أضل السبيل إذن..

لايوجد طابق علوي... إنما هناك ممران.. واحد يقود إلى اليمين وواحد إلى اليسار.. بالطبع أختار الممر الأيمن كبداية.. الآن صار الظلام أكثر حدة، وللمرة الأولى خطر لي أنه من الحكمة أن أعود وأن أجد ضوءًا.. هذه مغامرة مشكوك فيها وبعد دقائق ستكون لا جدوى منها...

كنت أتبين ما يشبه قاعة واسعة خالية من الأثاث تقريبًا... لكن كانت هناك مائدة ضخمة في وسطها.. ذات المائدة التي كنت أخشى أن أراها.. وكانت هناك نوافذ مهشمة ينساب منها ضوء النهار الذي صار الآن مزرقًا.. كلا ليس مزرقًا بالضبط.. إنِّه كلون (الإكليديس) في جانب النجوم الذي سأراه يومًا ما.. ألم أحك لكم أسطورة جانب النجوم بعد؟ نعم؟ إذن ذكروني بذلك لو ظللنا أحياء..

قررت أن أستدير وأعود..

لكن صوتًا ما حازما جاء من مكان ما في الظلمة..

وقال لي .....

☆ ☆ ☆

- «أنت أيها القادم... لن تعود!»

والتفت (عزت) المذعور إلى الصبي الذي راح يهتز أمامًا وخلفًا، وعيناه جاحظتان... بالأحرى لم يكن يتخيل أن عيني البشر قادرتان على كل هذا الجحوظ..

- «أنت أيها القادم... لن تعود!»

ومع الجحوظ بدأ الشيء الذي لابد أن يحدث... الزبد يتفجر من شدق الغلام... لهذا كان القدماء يخافون مرض الصرع ويعتبرونه مسًّا شيطانيًا.. لكن هذه لم تكن نوبة صرع لأن (عزت) رآها من قبل..

- «اسمع يابني.. هل أنت بخير؟»

وكان أشد ما أثار هلعه هو الصوت الناضج الضاغط على الحروف، والذي يتكلم به الصبي.. عبارة معقدة جدًا يصعب أن نسمعها من طفل.. كأنها كلمات الكهان في كتاب الموتى...

من هو القادم؟ ولماذا لن يعود؟

راح (عزت) يصفع الصبي صفعات رفيقة على خديه، وهو يبسمل ويحوقل، وتناول إناء يحوي الماء الذي يرطب به الصلصال، وقذف بما فيه في وجه الصبي علّه يتحسن.. لكن النوبة ازادت سوءًا..

- «أنت أيها القادم... لن تعود!»

- «الله يخرب بيتك يا (رفعت إسماعيل)!»

هذا العجوز لن يكف أبدًا عن إثارة هلعك.. كل ما ينتمي إليه أو يخصه مخيف مفزع.. أو غريب لايمكن فهمه.. حتى في الليلة التي يطلب منك أن تعني بطفل، يتضح أنّ هذا الطفل ممن يسيل الزبد من أشداقهم، ويقولون كلمات مخيفة بصوت غير صوتهم...

سأغادر هذه البناية... سأغادرها... سيكون هذا أول شيء أقوم به غدًا، وإن لم أجد مسكنًا فلسوف أقتل هذا الشيء المشئوم الأصلع..

هكذا راح (عزت) يصب وبال غيظه عليَّ وينظر في ذعر إلى هذا المشهد غير المعتاد..

إن ما يفكر فيه الآن هو شيء واحد..

☆ ☆ ☆

الفرار!!

لابد من الفرار.. حالًا..

لكن الصوت الذي تكلّم إليَّ والذي عرفت الآن أنه آت من حيث المائدة، تكلّم من جديد فقال:

- «لا تفكر في هذا أيها القادم.. إن من يأت لن يعود..»

ونظرت إلى الوراء لأجد أن فتحة الممر التي جئت منها لم تعد هناك.. لقد صار جدارًا مصمتًا مسدودًا.. حمدًا لله! هذا يسرني.. معنى هذا أن كل ما أمر به هلوسة بصرية وسمعية..

- «أنت لا تهذي أيها القادم.. قلبك يعرف هذا وإن كان عقلك يأباه.. ألا فاتبع قلبك وتعلم منه..»

نظرت في بطء وتوجس إلى المائدة التي كانت مسربلة بالظلام.. الآن أرى تفاصليها في الضوء الأزرق الواهن القادم من مكان ما..

- «تعال واجلس مع شياطين (بيموك)..»

لم يبد لي الاسم محببًا.. لكني وجدت نفسي أتقدم كالمنومين مغناطيسيًا لأقف في دائرة الضوء الأزرق على بعد خطوات من المائدة المغبرة..

نسيت هنا أن أقول إن الكلام لم يكن بالعربية ولا الإنجليزية ولا أية لغة أعرفها.. لكنه برغم هذا كان مفهومًا تمامًا لي كأنما لأذني جهاز ترجمتها الخاص..

الآن أصف لكم الجالسين على المائدة..

☆ ☆ ☆

١٠ - كراكوس والأعزاء الآخرون..

كانوا سبعة.. وقد احتشدوا فيما يشبه مؤتمرًا صغيرًا حميمًا.. لكنهم لم يكونوا مثلنا.. للدقة أقول إن خمسة منهم لم يكونوا مثلنا.. كانوا مومياوات متحللة برزت عظامها، وإن احتفظت بوضع الجلوس، وقد تكفلت الديدان مع نسيج العناكب بجعل المشهد لا يطاق ولا يوصف.. رائحة؟ لا.. لم أشم رائحة ما، وعلى كل حال ليس أنفي بأفضل الأنوف في هذا العالم..

أما الاثنان الآخران فكانا أقرب إلى شيخين مهدمين يرتديان أسمالًا بالية.. الحق أقول إن طول أظفار الواحد منهما كان مبالغًا فيه بعض الشيء، وإن أحدهما كانت له بدل العين اليسرى فجوة خالية سوداء.. الخلاصة لم يكونا في حالة أفضل بكثير من الجثث الجالسة حولهما، وكانت أنسجة العناكب تحيط بهما مما يدل على أنهما كسولان إلى حدٍ ما..

هنا فقط بدا أن قلبي لم يعد يتحمل أكثر.. وساد ظلام دامس...

☆ ☆ ☆

- «انهض أيها الفاني.. انهض!!»

صرخ الصبي وراح يركل ذات اليمين وذات اليسار، فهوى حذاؤه على شفة (عزت) ليمزقها.. لكن (عزت) امتص الدم، وراح يحاول منع هذا التعس من إيذاء نفسه.. تبًا لك يا (رفعت إسماعيل) يا عصا المكنسة المريضة.. مفاجآت العجوز الشائقة لا تنتهي هذه الليلة... كان شعر الصبي يغطي وجهه بالكامل الآن فلم تعد عيناه ظاهرتين لحسن الحظ، لكنه كان يتلوى جاهدًا من أجل الإفلات.. لماذا ولأين؟ لا أحد يدري..

- «**انهض أيها الفاني.. انهض!!**»

وهذه المرّة طار حذاء الصبي ليحطم المزهرية، ثم بدأ يرتجف بتلك الرجفة الكهربية الجلفانية التي يعرفها أطباء الأعصاب جيدًا، ويشيب لهولها من لم يروها من قبل..

- «فاليوم! أنا بحاجة للفاليوم!»

لم يكن (عزت) ذا خبرة طبية، لكنه كان يعرف ما يكفي.. الفاليوم يهدي النوبة الصرعية، وهو يملك أمبولًا منه لأنّه يُصاب بتشنجات أحيانًا... ترك الصبي يركل ويرغى ويزبد، وهرع إلى الصيدلية فبحث عن محقن.. ثم كسر الأمبول بأسنانه فابتلع بعض الزجاج المهشم، وامتص بالمحقن ما تبقى من السائل.. إن ما بقي لن يزيد على نصف الأمبول، وهو في الغالب جرعة مناسبة لطفل..

هرع جريًا إلى الصبي وبرك فوقه - بالمعنى الحرفي للكلمة - وأفرغ المحقن في فخذه..

النبأ السار الذي لم يعرفه (عزت) أن الحقن بالعضل لا يؤدي عمله بنفس سرعة الوريد، وهكذا تلقى عدة لكمات شنيعة، وعضه (رامي) في ساعده عضة أسالت الدم..

وأخيرا همدت حركة الصبي قليلًا.. ثم..

☆ ☆ ☆

ثم أفقت أنا..

كانوا جالسين حيث هم.. بينما كنت أنا على الأرض وسط ما بدا لي حين نهضت كنجمة خماسية.. نعم هي كذلك.. مرسومة بالطبشور وفي مركزها بالضبط ذلك الرمز الذي رأيته مرارًا.. فهمت.. لقد وقفت كالأحمق منذ البداية وسط دائرتهم، وفقدت وعيي فوقها... ربما هذا هو السبب الذي جعلهم يتجلون لي في أول زيارة.. ربما أن محظوظين آخرين. دخلوا وخرجوا دون أن يروا هذا الاجتماع الرهيب..

قال ذو الصوت الجهوري:

- «فاعلم أيها الفاني القادم من أرض الفانين، أنك في حضرة شياطين (بيموك)... (كراكوس) وإخوانه ينتظرون هنا من دهور.. وأنت لست آخر القادمين، ولا أنت أولهم..»

وقال الثاني:

- «إنّه فان كما يكون الفناء، ولا يصلح لشيءٍ.. فلنتركه يا (كراكوس)..»

- «ليس بعد أن عرف ما عرف..»

- «ليس من علم كمن لم يعلم..»

استجمعت صوتي أخيرًا وقلت وأنا أقنع نفسي إنني أهلوس لا أكثر:

- «من أنتم؟»

- «أنت تعلم.. في قلبك تعلم..»

وقال الثاني:

- «أنت رأيت جزءًا من جانب النجوم أيها الفاني.. قلبك يقول إنك رأيت وعرفت.. تعلم أنّ هناك ثغرات عدة تقود إلى عالمكم.. هذا البيت يكمن فوق ثغرة من تلك الثغرات، وقد جئنا جميعًا منها يومًا حين كان جدودك في بطون أمهاتهم، لكننا لم نستطع العودة..»

لم أكن قد زرت جانب النجوم الرهيب في ذلك الوقت.. سأحكى لكم القصة بالتفصيل في (أسطورة جانب النجوم).. لكني كنت بالفعل قد وقفت على الجانب الآخر منه في ذلك اليوم الرهيب، بينما صديقي الروماني (جوستاف) يعوي كالذئاب من هول ما رأى.. جانب نجوم (رومانيا) الذي يعبر منه مصاصو الدماء والمذووبون إلى عالمنا التعس...

هؤلاء جاءوا من جانب النجوم، ومن حظنا التعس أن المرحوم (أبو العلا) لم يجد بقعة في الأرض يبني عليها تلك الفيلا إلا فوق الفتحة.. الباب السري الذي يقود إلى جانب النجوم.. ربما المنفذ الوحيد في مصر كلها..

قلت لهم وأنا أشعر بسخف الكائنات المريعة:

- «والصبي؟ ما ذنب الصبي كي تمسوه؟»

قال (كراكوس) بصوته المعدني الأجش الرتيب:

- «لقد جاء بكامل إرادته إلينا، وكان صبيًا حار الدماء بينما نحن نتلاشي كما ترى..»

- «لا أفهم..»

- «ولن تفهم أيها الفاني أبدًا.. إن حياتنا طويلة طويلة تبدو لكم أبدًا كاملًا، لكنّها تنتهي برغم كل شيء.. وعلينا أن نجد دمًا شابًا نجري فيه قبل أن نتلاشى..»

ومد يده المخلبية دون رفق وهز إحدي المومياوات الجالسة.. على الفور هوت هذه على الأرض بصوت كئيب وأردف:

- «لقد فقدنا بعضنا.. لكننا لن نفقد آخرين.. نحن هنا ننتظر.. ننتظر.. مئات السنين بالنسبة للفانين هي دقائق بالنسبة لنا.. ولن يطول الأمر قبل أن يتسلل طفل آخر إلى هذا البيت يحدوه فضول لا يرتوي..»

ثم رفع نحوي وجهه بتلك الثغرة الشائهة في موضع العين، وقال:

- «.. الصبي يصلح، وقد بدأت دماء (دراكون) تجري في عروقه.. لكنه يقاوم.. مازال يقاوم..»

- «يقاوم؟ كل هؤلاء القتلى الذين فتكت بهم عيناه وتقول إنّه يقاوم؟»

- «ألم يرسم لكم شياطين؟ إنّه حاول أن يبلغكم الرسالة فلم تفهموا.. ولو فهمتم ما استطعتم نجدته.. إن الشر أقوى منه وهو يطلب الخلاص فلا يناله..».

- «وماذا تريدون؟»

- «أن نستمر.. هذا هدفنا كما هو هدف الفانين جميعًا..»

- «ولماذا البشر؟ إن الحيوانات تؤدي نفس الوظيفة..»

- «ومن تحسب تلك القطط السوداء بالخارج؟ لقد كانت منا يومًا ما ثم مسسناها.. لكن القطط محدودة القدرات لا تمنحنا ما نريد.. أمّا الصبية فيصلحون لكل شيء..»

☆ ☆ ☆

كان ذلك حين فتح (رامي) عينيه..

في هذا الوقت نجد أن حالة (عزت) النفسية في الحضيض، وكان يتمنى أن ينام الصبي أكثر، لكن الفاليوم لم يمنحه للأسف إلا عشر دقائق لسبب غير مفهوم..

هنا سمع دقات عنيفة مختلطة برنين جرس تأتي من الخارج.. دقات على باب (رفعت) لا بابه.. غريب هذا.. من يزور الكهل (رفعت) ويدق بهذا الحماس؟

نهض (عزت) وفتح الباب ليلقي نظرة على البهو، فوجد رجل لا يعرفه.. رجلًا غارقًا في العرق لا يبدو كلص أو شبح، يواصل دق باب (رفعت) في قلق، فلمّا شعر بأن هناك من يفتح الباب خلفه استدار وقال مفسرًا:

- «لامؤاخذة.. هل الدكتور (رفعت.... (رفعت خليل) موجود عندك؟»

- «إنّه بالخارج.. ماذا تريد؟»

- «إن أم الغلام معي.. أعنى الغلام الذي يقيم مع الدكتور.. هل أنت؟»

عاد (عزت) يفهم ما هنالك:

- «أم الغلام؟ من أنت؟»

- «ومن أنت أولًا؟»

- «أعتقد أن الغلام الذي تتحدّث عنه عندي أنا.. والآن من أنت؟»

جفف الرجل عرقه المتصبب، وقال:

- «أنا سائق سيارة أجرة لا أكثر ولا أقل.. أولاد الحلال طلبوا مني أن أوصل الأم من المستشفى إلى حيث تريد.. وقد طلبت أن تأتي هنا أولًا لترى ابنها.. لكن من الواضح أن....»

لم يكن (عزت) يفهم حرفًا من الموضوع، لكن سرّه أن أم الصبي في القصة.. إن الخلاص قريب..

- «وأين الأم؟»

- «إنها في السيارة تنتظر.. مسكينة.. يبدو أنها أجرت جراحة في وقت قريب.. لكنّها لم تتحمل البقاء في المستشفى حتى غد.. بيني وبينك.. لا أحد يحبّ المستشفى.. إنها تجلب الاكتئاب..»

قال (عزت) في حذر:

- «اذهب وقل لها إن الصبي عندي.. لن أعطيه إلا لها..»

- «لكنّها لا تستطيع أن....»

- «وأنا لن أعطى الغلام لأول غريب يطرق بابي..»

بدت الحيرة على الرجل، لكنه كان يستجيب للشهامة المصرية العتيدة التي لم نعد نراها كثيرًا هذه الأيام، وكان يشعر أن المرأة وابنها مسئوليته الخاصّة لامجرد زبونين عاديين.. لهذا هزّ رأسه ثم هبط في الدرج، وبعد عشر دقائق وجد (عزت) أمامه إمرأة مريضة شاحبة كأنها كانت بين

الأموات منذ ساعتين، وفي أسوأ حال ممكن.. كانت تستند إلى ذراع السائق، وتصعد في الدرج بصعوبة بالغة.. شعر (عزت) أنه متوحش قاس، لكنه لم يكن يعرف مدى سوء حالة المرأة..

هرع يساعدها على دخول شقته، في حين تساءلت هي في لهفة واهنة:

- «أين (رفعت)؟ لماذا لم يظل بقرب (رامي)؟»

قال لها وهو يمنحها مقعدًا:

- «أنا جار (رفعت) لكني لا أعرف أين هو.. أحسبه يفعل شيئًا ما بخصوص (رامي) بالذات..»

لكنّها لم تجلس.. صاحت في لهفة:

- «(رامي)! أين هو؟»

- «بخير.. إنّه بالداخـ....»

ولم تنظر الأم دعوة.. لقد هرعت إلى الداخل حيث كان (رامي) راقدًا على الأريكة منهكًا من حالة (الترانس) التي كان فيها.. بعد ثوان كان في حضنها وهي تعتصره عصرًا، وتلثم العرق على جبينه حبة حبة.. وقف (عزت) على الباب في غباء ينتظر ما سيقال، أمّا السائق فراح يهز رأسه متصعبًا.. ياسلاااام! قلب الأم!

أخيرًا انتهى هذا السيرك المقام في شقّة (عزت) برغم إرادته، وأخرجت (هناء) جنيهًا من حقيبتها - له رائحة مطهرات المستشفي وعبقها - نقدته السائق (كانت هذه ثروة في تلك الأيام).. قال وهو يدسه في جيبه:

- «لا أريد شيئًا يا مدام.. يكفينا الثواب..»

ومن جديد هزّ رأسه متصعبًا وهو ينصرف:

- «يا سلاااااام! قلب الأم!».

هنا فقط تهاوت (هناء) على الأريكة جوار ابنها، وراحت تلهث، ثم سألت (عزت):

- «ما معنى هذا؟ ماذا أصاب ابني؟»

تلعثم (عزت) كعادته كلما هوجم أو شمّ بعض الاتهام في الكلام، وقال في حماس:

- «هو الذي بدأ يصرخ، ويتكلم بصوت غريب و.... أراهن أنه مصاب بالصرع!»

لم تبد مندهشة أو مستنكرة.. فقط قالت في غموض:

- «لقد شعر قلبي بهذا فلم أطق صبرًا على البقاء في المستشفى أكثر.. كنت أعرف أن (رامي) في ورطة.. هل تصدق هذا؟»

نظر لها (عزت) غير فاهم، فقالت مفسرة:

- «قلب الأم كما قال السائق.. لقد ظل هذا الصغير في أحشائي تسعة أشهر جوار قلبي.. بل إن جزءًا من روحي موجود في روحه.. ليس من الشاذ أو الغريب أن أشعر بكل ما يشعر به وأحدس الباقي.. إن (رامي) في ورطة، أمّا (رفعت) ففي كارثة وإنني لأسال الله أن يتولاه برعايته..»

- «لا تقلقي على (رفعت).. إن حياته كلها كارثة طويلة لا تنتهي..»

كانت يداها ترتجفان حين مدتهما إلى (عزت).. وقالت في وهن:

- «أريد مذياعًا هنا.. لا بد من قرآن.. إن في حقيبتي مصحفًا..»

وأخرجت المصحف من الحقيبة وأخذت شهيقًا عميقًا، ثم حانت منها التفاتة إلى التمثال المخيف للفيل الذي يمشي على قدميه الخلفيتين.. فقالت مستنكرة:

- «ما هذا؟»

- «هذا؟ هذا (بيموك).. إنّه شيـ... شيطان!»

قالها كالمذنب ـ برغم أن ابنها هو من صنعه - فصاحت مشمئزة:

- «تخلص منه خيبك الله.. تخلص منه!»

مد (عزت) يده ـ وقد احمرت أذناه ـ واعتصر التمثال الصلصالي كي يحوله إلى عجين معدوم الملامح.. وهرع كالملسوع يحضر المذياع.. ومن جبين (رامي) دنت (هناء) ولثمته في حنان، ومن جديد عانقت الطفل بقوّة وهمست:

- «ماما هنا يا حبيبي.. لن يأخذك شر مني.. سيرون أن حبي لك أقوى منهم جميعًا.. إن الله معي بينما هم.. هم شياطين..»

وبدأت تتلو بصوت واهن يرتجف إرهاقًا وتوترًا..

☆ ☆ ☆

١١ - الفرار..

ومن جديد رأيت فتحة الممر قد ظهرت أمامي كأنما لم تكن.. أتراهم يطلقون سراحي؟

مشيت إلى تلك الفتحة دون أن أنظر إلى الوراء.. لم يعترض أحد ولم يتكلم أحد.. الآن أمشي في مدخل الفيلا التي غمرها الظلام.. لا داعي للإسراع.. إن (كراكوس) وإخوته يستطيعون القضاء عليَّ في أية لحظة لو أرادوا.. هنا أو هناك.. ترى هل آمل في الخروج من هنا حيًّا؟

واصلت المشي جاهذا نحو ما تعتقد حواسي أنه باب الفيلا.. لكن لم يكن هذا هو الباب.. كان ممرًا طويلًا مظلمًا.. مشيت فيه بضع ثوان لأجد نفسي من جديد أمام المائدة التي يجلس عليها (كراكوس) وأخوته!

مستحيل هذا! أنا متأكد من حاسة الاتجاهات عندي.. الفيلا ليست بهذا التعقيد على كل حال.. ليست متاهة المينوتور وليست أنفاق قصر أسكتلندي..

ودون أن أقول كلمة أو ألقي تحية، مررت بالجالسين في جلستهم التي دامت قرونًا، واتخذت الممر ذاته من جديد.. هذه المرّة لا مجال للخطأ.. ببساطة لأنّه لا اتجاهات أخرى.. الممر ثم الفيلا..

كان ما توقعته صحيحًا للأسف..

إنني أمشي في مسار وهمي لا وجود له يقود دائمًا إلى النقطة ذاتها، ومن الواضح أنني سأمشي فيه حتى أموت.. ماذا تتوقع من شياطين جاءت من جانب النجوم لتدمر حياتنا؟

- **«أنت أيها القادم... لن تعود!»**

كانت هذه أول كلمات حيوني بها، ومن الواضح أنني ملتزم حرفيًا بها.. لا سبيل لمغادرة قاعة الاجتماعات الرهيبة هذه..

☆ ☆ ☆

لهذا يشبه رمزهم شكل المتاهة.. ألم أقل لك إنّه مزيج من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#)؟

☆ ☆ ☆

الآن (رامي) صامت تمامًا.. لكن قطرات من الدم تسيل من أنفه..

توقع (عزت) أن تصاب الأم بلوثة عقليّة، لكنّها تأملت المشهد ومدت يدها النحيلة تمسح قطرات الدم، وهمست:

- «إنّه يقاوم.. يعرف أنني معه وأنني أفهم»

وواصلت التلاوة وهي ترمق وجهه من حين لآخر.. الآن يزداد الدم ليتحول إلى خيط طويل يتدلى من أنف الطفل.. وبدأت حركات قلقة غير معهودة ترجف في ساقيه وذراعيه..

هتف (عزت) مذعورًا:

- «هل لن يقتله هذا؟»

- «لندعو الله أن يستطيع المقاومة.. إنّه يحاول طرد تلك الذات التي سيطرت عليه كل هذا الزمن.. كان بحاجة إلى عوني، وقد خففت إليه..»

ثم بدأ الدم ينبجس من إبهام الصبي في مكان حذائه الذي طار.. دم يحتشد تحت الظفر ثم يحتشد ليسقط على الأرض.. لم يفهم أخبرهما مغزى هذا، ولو كنت معهما لعرفت على الفور أنّ هذه علامة مغادرة الجسد.. إنها العلامة التي يعرفون بها أن الجسد صار نظيفًا..

☆ ☆ ☆

أطلق أحد الجالسين حول المائدة أنينًا خافتًا ثم سقط على الأرض من فوق مقعده... صوت السقطة أخبرني أن المومياء تهشمت تمامًا..

لا أدري معنى هذا، لكني شعرت أن الأمور تتحسن بشكل ما.. لم ينهض أحد ليراه ولم يتحرك (كراكوس) كأن الأمر لا يعنيه، لكنه قال بصوته الغليظ:

- «قد فقد (دراكون) الصبي..»

وكأنما حدثت ثغرة ما في تلك المصيدة الجهنمية التي وضعوني فيها، وجدت أنني في (اللوبي) من جديد، لكن باب الفيلا كان أمامي هذه المرّة، وكان مواربًا كما تركته بالضبط..

هرعت أخرج منه وأنا أتعثر في الأعشاب المتشابكة، وألطم أكثر من علبة صدئة منسية من دهور.. الحق أن الظلام صار دامسًا بحق...

لن أجد الباب وسط هذا الدغل.. لن أقدر.. لو صرخت لوجدوني بسرعة ولن ينقذني أحد من البشر..

إنهم يبحثون عني.. أسمع حركتهم في داخل الفيلا، وأسمع صوت الغصون المتشابكة. تنزاح هنا وهناك.. يبدو أنهم فقدوا تماسكهم للحظة لن تطول، وفي نيتهم ألا يسمحوا لي بالخروج من هنا..

هنا وجدت أمامي السيارة التاونس العتيقة الواقفة دون عجلات ولا نوافذ وسط هذه الأحراش... في الظلام تبدو ككابوس أسود حقيقي.. بالداخل كانت قطتان بيضاوان ترمقاني بتلك العيون الماسية الوجلة.. وهنا تذكرت شيئًا..

☆ ☆ ☆

- «ومن تحسب تلك القطط السوداء بالخارج؟ لقد كانت منا يومًا ما ثم مسسناها.. لكن القطط محدودة القدرات لا تمنحنا ما نريد.. أمّا الصبية فيصلحون لكل شيء..»

☆ ☆ ☆

هذه القطط بيضاء وسوداء.. هل أجرؤ على الاعتقاد بأن (كراكوس) ومن معه لا يستطيعون دخول هذه العربة؟ هل يمكن أن تكون حصنًا آمنًا لي؟

لم يكن مجال للتردد، فدلفت إلى السيارة وأجفلت القطتان ففرتا طبعًا، بينما جذبت الباب أغلقه على نفسي... وبحثت عن وضع يصلح للجلوس بالطبع دون جدوى في سيارة ترجع للعصر الحجري..

أمامي الحديقة المظلمة لا أسمع فيها إلا مواء القطط السوداء.. ولا أرى إلا سجادة سوداء كثيفة تلتصق بالنوافذ.. سأنتظر لأرى.. سأنتظر لأرى..

وبعد ساعتين - كما بدا لي - بدأت أشعر أن الأمر آمن بحق...

لقد رأيت أهوالًا عديدة في تلك الليلة وأنا جالس متكور على نفسي في تلك السيارة العتيقة.. لكنني لن أحكيها لأنك لن تصدقني أولًا.. ولأن جزءًا من هذه الأهوال اختلط بالكوابيس التي كنت

أراها حين أغيب عن الوجود.. الخط الفاصل بين الحقيقة والحلم قد تلاشى فلم أعد أعرف أين ولا متى..

لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الأهوال كانت تدنو من السيارة وتدور حولها، ثم تبتعد.. كأن الموج يضرب الصخور ثم يرحل عنها..

ولا أدري كيف حدثت المعجزة ولا كيف جاء النهار..

لكني كنت مرهقًا جدًّا بحيث ظللت حيث أنا حتى منتصف اليوم...

☆ ☆ ☆

الخـاتمة

قالت (هناء) وهي تحتضن ابنها، وقد نامت - أخيرًا - في الفراش بدارها:

- «لايهمني ما رأيت.. المهم أن (رامي) بخير أخيرًا..»

قلت لها وأنا ألتهم طعام الإفطار الذي اشتريته من مطعم قريب:

- «المشكلة هي أن (كراكوس) هذا والآخرين أحياء والفجوة موجودة.. أعرف شخصًا متحمسًا كان سيقوم بتدمير تلك الفيلا في الماضي، لكنه اليوم كهل واهن لا يقدر على شيء كهذا..»

قالت:

- «سأحاول إقناع زوجي بالكلام مع مسئولي الحيّ.. لن يذكر كلمة عن (كراكوس) هذا، لكنه سيجد حلًا إداريًا ما.. وعلى كل حال ليس تدمير هؤلاء سهلًا..»

ونظرت إلى (رامي) جيدًا.. بالتأكيد اختفت تلك النظرة المخيفة من عينيه.. ولن أندهش لو اتضح أن بصمات أصبعه هي نفس البصمات القديمة..

ونهضت وقلت لـ (هناء) وأنا أستعد لمغادرة الفيلا:

- «سأعود لداري.. ونصيحتي الوحيدة لك هي أن تقللي من تمسك (رامي) المرضي بك.. لقد أنقذته هذه العلاقة الروحية الحميمة مرة، لكنّها لن تنقذه في المستقبل حين يغدو رجلًا مسئولًا.. يجب أن تنجبي طفلًا آخر! لا أدري كيف فهذه مشكلتك أنت.. إن الطريقة المثلى لتربية الطفل الأول هي أن تنجبي الثاني!»

قلبت يدها لأعلى وابتسمت وقالت: يسمع منك ربنا..

وهنا دق جرس الهاتف برنين طويل لا يكل.. فقالت باسمة:

- «لعله (منصور)..»

لم أنتظر حتى أعرف.. لو كان هذا (منصور) زوجها فقد حان الوقت كي يتصل.. يترك الآخرين يتحملون مسئولياته ثم يتصل ليقول إنِّه يفتقدهم...

ووقفت في شمس العصر أرمق الشارع.. كان هادئًا بالطبع لأن الطقس كان حارًا.. لكني رأيت سورًا على الجهة المقابلة من الشارع، وكان هناك طفلان يقفان هناك يتسليان بالرسم بالطبشور عليه..

لم أستطع أن أبعد عيني عن الرسم الذي رسمته يداهما عشرات المرّات على الجدار.. هل تراه؟ إنّه مزيج من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#)..

دنوت أكثر لأرى فسمعت أحدهما يقول للآخر:

- «هلمّ يا (أكرم).. لقد تأخرنا!!»

وهنا تصلب الشعر على ساعدي..

(أكرم)؟ وطبعًا الآخر يدعى (سامح).. لقد نسينا كل شيء عن الطفلين اللذين كانا مع (رامي) في الفيلا واللذين تأخرا أكثر من ساعة قبل العودة.. فلماذا تأخرا؟

رحت أرمقهما في حيرة من مسافة قريبة، ويبدو أن أحدهما لاحظ ذلك، فاستدار نحوي ونظر بكراهية.. كراهية جعلت الدم يتجمد في عروقي وقلبي يكاد يتوقف... وعبرت الطريق مسرعًا لأعود إلى سيارتي..

لم يكن (دراكون) هو الوحيد الذي حاول وفشل.. هناك آخران حاولا.. وفي الغالب نجحا..

ثلاثة لثلاثة أطفال.. هذا عادل.. هذا منطقي..

وأدرت المحرك وعيناي لا تفارقان الصبيين اللذين يرسمان على الجدران من بعيد، وهنا دنا مني عم (بسطويسي) البواب العجوز ووقف متأدبًا ينتظر حتى أرحل.. فقط قال وهو يلاحظ اتجاه عيني:

- «إن صبية هذه الأيام شياطين لا بد من يد من حديد للتعامل معهم..»

ثم تذكر فأضاف:

- «ما عدا البك الصغير طبعًا..»

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة كان عليَّ أن أعرف سبب اهتمام كل هؤلاء القوم بهذا العقار بالذات؟ لماذا غدا المنزل رقم (5) فجأة أهم منزل في الدقي؟

ربما أهم منزل في القطر.. وربما أهم منزل في العالم..

كالعادة كان هناك سر مخيف..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـدمة

١ - من البداية ..

٢ - بسطويسي والتهاب المرارة وما إلى ذلك ..

٣ - معلمة رحلت ..

٤ - شيء ما ..

٥ - ضيف غير مدعو ..

٦ - هذا الشيء يجب أن يدمر!

٧ - البحث عن دليل ..

٨ - لا بد من العودة إلى هناك ..

٩ - عجوز وحيد يحاول أن ...

١٠ - كراكوس والأعزاء الآخرون ..

١١ - الفرار ..

الخـــاتمة

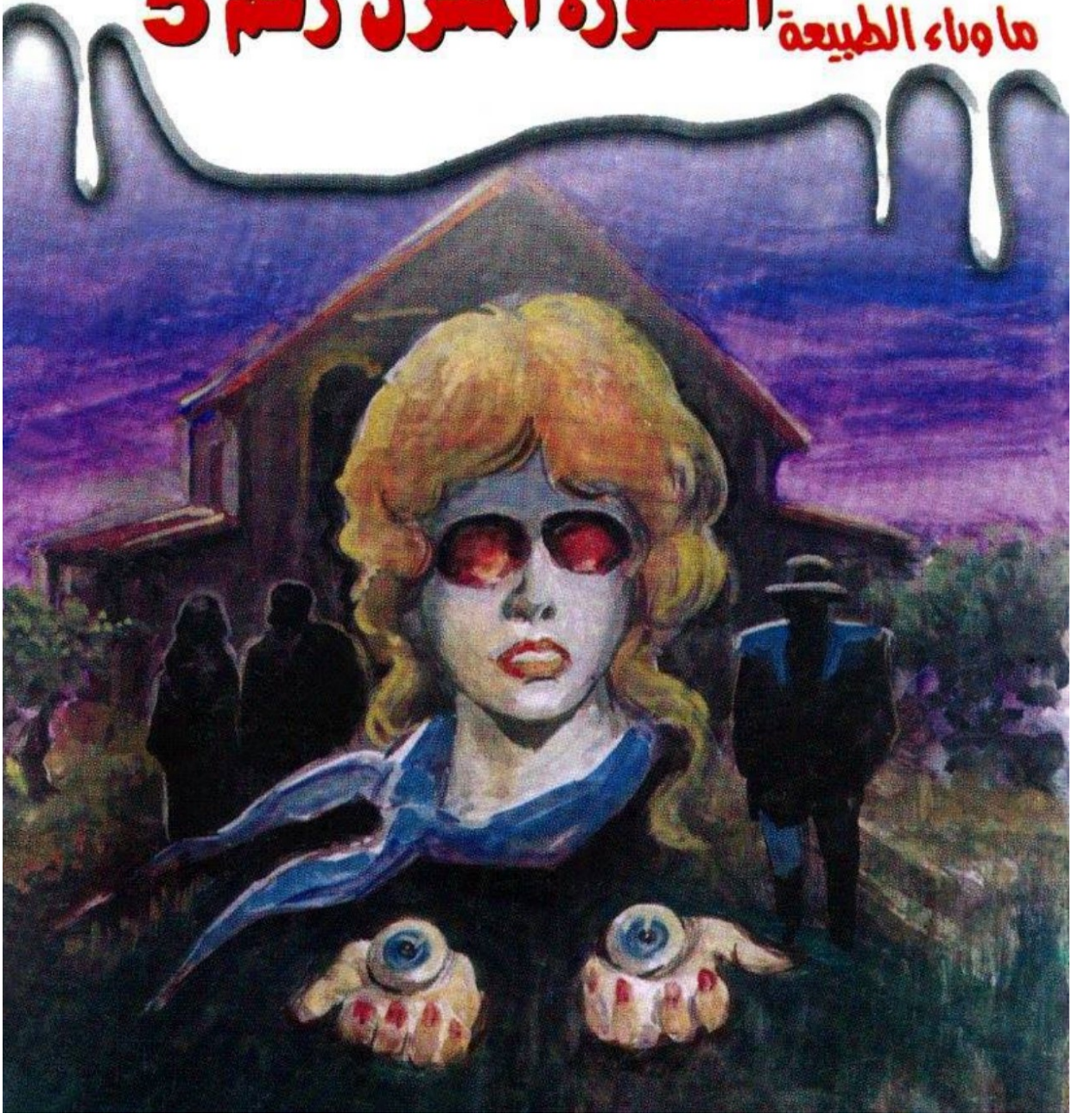
روايات مصرية للجيب

مكتبة النخبة

47

أسطورة المنزل رقم 5

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

منتصف الليل..

أنتم تعرفون طبعًا منتصف الليل.. إنّه الوقت الذي ينتصف فيه الليل.. لا حاجة بالمرء إلى أن يكون خبيرًا في علوم الفيزياء كي يعرف هذا..

منتصف الليل، ولا صوت هنالك سوى الأمطار، وصوت محرك الساعة الرتيب، وقطة تعوي في مكان ما بطريقة تجعلك تتساءل: هل هي حقًّا قطة؟

كل هذه الأجواء صارت مألوفة لكم، كما صار صوت العجوز الأصلع النحيل، بصوته المبحوح، وعينيه اللتين تحملان أهوال العالم.. عينيه اللتين صارتا عيني مسخ في حد ذاتهما، حتى إنني لم أعد أعرف الخط الفاصل بين من رأى الأهوال وبين الأهوال ذاتها..

تعالوا نصغ إلى قصة أخرى..

لقد كتبت أربع وريقات، على ظهورها كتبت عناوين مثل (أرض العطايا) و(المقبرة) و(المنزل رقم 5) و(القادم ليلًا).. الأوراق مقلوبة، فلم لا تجربون اختيار ورقة منها؟

طبعًا هذه محاولة عبثيّة، لأن قدركم هو اختيار الورقة التي تحمل اسم (المنزل...) أليس هذا هو عنوان الكتيب ذاته؟!

لا تحاولوا تحدي مصيركم.. نعم.. سأحكي لكم اليوم أسطورة المنزل رقم (5)، وهي مسلية ككل الأساطير والقصص التي تحوي رقم (5) في عنوانها..

رعب؟ يوجد القليل منه بالتأكيد.. ثم إن للقصة طابعًا باردًا متوجسًا قاتمًا يناسب أمثالي كثيرًا..

تعالو نر ما يدور هناك...

خلف أبواب المنزل رقم (5)..

☆ ☆ ☆

١. منزل السيدة (بانكروفت)..

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

تسأليننني يا (ريم) عن سبب ذهابي إلى (أستراليا) في ذلك الوقت بالذات.. تسأليننني عن سبب إقامتي في (سيدني) في منزل مسز (بانكروفت).. تسأليننني عن كل الرهبة والفزع اللذين يصيباني كلما سمعت عن قصة أو شاهدت فيلمًا اسمه (المنزل رقم كذا..)

أقول لك يا (ريم): إن أسئلتك كثيرة جدًّا، وقد بدأت تثير أعصابي.. ليس أسوأ من المرأة التي تسأل كثيرًا إلا المرأة التي تسأل أسئلة تصعب إجابتها..

أما لماذا ذهبت إلى (أستراليا) فشيء يخصني.. وقد كنت مدعوًا على كل حال فلم أدفع تذكرة الطائرة، وهي الكفيلة بأن أتسول بقية حياتي..

أما لماذا أقمت في منزل مسز (بانكروفت)، فلأنها كانت تعرض غرفة للإيجار، وما كانت ميزانيتي لتسمح بالإقامة في فندق لفترة طويلة..

كانت عجوزًا بالطبع... عجوزًا من الطراز الإنجليزي الوقور البارد نوعًا، لكنّها كانت سيدة طيبة بحق، ولم تكن تتدخل فيما لا يعنيها على كل حال.. الحق أنها حتى لو تدخلت لما فهمت شيئًا من لهجتها الأسترالية (التطجينية) إياها.. كل العالم ينطق (ديفيد) كما نكتبها.. لكن الأستراليين يصرّون لسبب ما على أنه يُنطق (ضايفض)، وغير هذا كثير..

امرأة لطيفة مهذبة كانت يا (ريم)، وساكنًا صموتًا متحفظًا كنت.. وأحببتها أكثر حين عرفت أنها لا تطبخ الزوار أو تحنطهم أو تطعمهم للتماسيح كعادة عامّة العجائز...

المنزل يقع في نهاية شارع طويل هادئ، تحف به الأشجار على الجانبين... ثمّة مقاعد يجلس عليها العشاق أو المتظاهرون بالعشق، وربما تجد أمًّا جالسة مع رضيعها في عربته، أو ذلك العجوز الكئيب الذي تجده في كل مكان، الذي يعقد كفيه على بطنه، ويرجع رأسه للوراء ويغط بصوت عالٍ..

أما أرضيّة الشارع فمرصوفة بذلك الطراز المضلع من الحجارة الذي يسموّنه Cobble Stone أو حجر الإسكافي، وهو على قدر علمي ليس مشهدًا معتادًا إلا في شرق أوروبا..

وكنت في الصباح يا (ريم) أذهب لإنهاء عملي الذي لن أذكر أية معلومات عنه، ثم أعود في الخامسة عصرًا لأجد العجوز - نصف الإنجليزية ـ جالسة في المدخل تشرب شاي الساعة الخامسة مع البسكويت ذي نكهة الزنجبيل.. وتسألني عما إذا كنت راغبًا في مشاركتها الشاي، فأقبل مرة

وأعتذر مرات.. أنت تعرفين يا (ريم) أنني عازف عن أي نوع من العلاقات البشريّة، وأن القبر هو المكان الأمثل لأمثالي..

بعد هذا أصعد إلى حجرتي، فأقضي الوقت في القراءة والكتابة والنوم والعصبية، وسماع الإذاعة الأسترالية التي لا أفقه نصف ما تقول بسبب التطجين..

طبعًا البرد شديد.. كل أستراليا عبارة عن ثلاجة كبرى، لكن أحدًا لا يشعر بهذا سواي.. الصحة والرياضة والجمال في كل بقعة هنا ما عدا غرفتي..

وعند العاشرة مساء أكف عن الغضب والسخط، فأنام أملًا في يوم أكثر دفئًا، وأن أعود إلى الوطن بسرعة..

☆ ☆ ☆

متى بدأ كل شيء؟

أعتقد يا (ريم) أنّ هذا كله بدأ في الثامن من مارس... كنت عائدًا إلى المنزل كالعادة، لأجد الباب مفتوحًا، وكان هناك رجل فارع القامة من الطراز الذي ما زال يعتمر قبعة.. لقد خلعها على كل حال وهو يتحدث مع السيدة، التي وقفت تصغي إليه، وتحرك رأسها في صرامة، ومن هذه المسافة سمعتها تقول:

- «نو.. نو.. نو (لا.. لا.. لا)»

والرجل يحاول بشكل مهذب أن يقنعها دون جدوى.. مررت بجواره وحييتهما، ثم اختلست نظرة سريعة إليه.. كان في الخمسين من العمر.. مهيب المنـ.. لماذا أصفه لك يا (ريم)؟ كان بوسعي أن أكتب لك صفحة أو صفحتين في وصفه، لكن هذا مجهود لا طائل من ورائه لأنك تنسين كل شيء، وعلى كل حال يكفي أنه كان أنيقًا مهيبًا.. لا شيء غير هذا..

لم أتدخل في الأمر طبعًا لأنّه لا يعنيني.. ودخلت إلى مدخل المنزل حيث كان الشاي والبسكويت ينتظران على العربة المتحركة.. إن هذا الضيف اللحوح قد أفسد على السيدة شهيتها كما أرى..

بعد قليل سمعت الباب ينغلق في عصبية، وعادت إلى المدخل حيث كنت واقفًا وقد نسيت نفسي على ما يبدو.. سألتها في تهذيب:

- «هل ثمّة ما أساعدك به؟»

قالت بوجه مكفهر:

- «لا شيء.. إنّه لحوح.. لكن الإلحاح يجعلني عنيدة..»

صعدت إلى غرفتي ونسيت كل شيء عن الموضوع...

فقط قلت لنفسي إن الباعة الجوالين في (أستراليا) يبدون كأعضاء مجلس اللوردات الإنجليزي..

تذكرت شيئًا غريبًا يا (ريم).. تصوري أنني لم أصف لك المنزل بعد.. لا بد أنك فهمت من الكلام أنه من طابقين، وأنه مريح مهندم.. وأنه يحمل رقم (5).. هذا صحيح.. في الحقيقة لا أعرف أين يوجد المنزل السادس أو الرابع لأن الشارع خال تقريبًا.. لكن رقم (5) كان موجودًا في كل مكان.. على المدخل وعلى الباب وعلى صندوق البريد... وكان المنزل خاليًا تمامًا لأن السيدة ترفض كل مستأجر يأتي لها، لكن وضعي كان خاصًا (لأنني في سن النضج) كما قالت، ولأن صديقًا أستراليًا أوصاها عليَّ.. ولا بد أن طباعي المتحفظة المنغلقة الشبيهة بطباع حيوان الخلد قد راقت لها كثيرًا..

لم يكن البيت بيتها منذ زمن سحيق.. لقد انتقلت لتعيش فيه في أوائل الأربعينات مع زوجها الخواجة (بانكروفت)، الذي كان محاسبًا حكوميًا.. وقد توفي الرجل في يوم استسلام (برلين) بالضبط، ومن يومها ظلت أرملة وحيدة.. ويبدو أن فكرة تأجير غرفة لم تخطر لها إلا منذ عامين.. وكانت تنوي التوسع لو نجحت الفكرة.. ثمّة خمس غرف هنا تصلح للإيجار للرجال الصلع نحيلي القوام، الذين يتصرفون كحيوان الخلد..

أعود للموضوع...

في العاشرة مساء دق جرس الباب، وسمعتها تفتحه، وفي هذه المرّة راحت تصرخ في عصبية، ولم أميز من كلامها المتسارع سوى كلمة (بوليس)، وهي كلمة عالمية يعرفها الجميع.. قررت أن أمارس دور رجل البيت، فارتديت روبًا وهرعت إلى أسفل، لأجدها تتكلم في حدة مجنونة مع ذلك الرجل المتحمس الذي رأيته عصر اليوم..

رآني الرجل من فوق كتفها، فنفخ في ضيق، وقرر فيما يبدو أن ينهي المحادثة.. سمعته يقول ضاغطًا على كلماته:

- «يجب أن تقبلي يا سيدتي.. يجب..»

ثم لمس طرف قبعته بما يوحي بالتحية واستدار مبتعدًا ليذوب في الظلام...

قلت لها في حذر:

- «هذا البائع اللحوح؟ لابد أنه مخبول..»

- «ليس بائعًا.. إنّه يشتري ولا يبيع!»

بغباء سألتها:

- «يشتري؟ يشتري أي شي؟»

أغلقت الباب وأحكمت وضع المزلاج والسلسلة، وقالت وهي تدس كفيها في جيبي كنزتها الصوفية:

- «يريد أن يستأجر غرفة هنا لمدّة أسبوعين..»

- «إنّه حماس مبالغ فيه، لكني لا أرى مايمنعك من الموافقة.. لا يبدو لي من ذلك الطراز الذي.. إنه - فيما أرى - رجل وقور كريم المحتد..»

قالت في غضب قاطع:

- «الرجال الوقورون لا يقرعون الباب ليلًا طالبين منك ما رفضت منحه بعد الظهر.. ثم إن شروطه غريبة..»

- «غريبة؟ كيف؟»

تقدمتني إلى داخل المنزل، وقالت دون أن تستدير لي:

- «يريد أن أخلي له المنزل تمامًا.. منك ومني طيلة هذه الفترة! يريد أن ينفرد ببيتي تمامًا لمدّة أسبوعين كاملين!!»

☆ ☆ ☆

٢. الميجور القديم..

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

☆ ☆ ☆

أصابني الوجوم لغرابة الطلب طبعًا.. الرجل يريد طرد المرأة من دارها لمجرد أنه يريد غرفة.. والأدهى أنه يريد طردي كذلك..

سألتها وقد بدأت القصة تروق لي:

- «مقابل أي شيء؟»

- «مقابل أن يدفع إيجار ثلاثة أشهر..»

هززت رأسي في استمتاع، وقلت:

- «إن الجنون يفسر كل شيء..»

قالت العجوز في اشمئزاز:

- «لكنه لا يفسر الوقاحة يامستر (إسماعيل)..»

ومن جديد راحت تزحف بخفيها الصوفيين متجهة نحو غرفتها..

☆ ☆ ☆

في الصباح جاء الميجور (برادبوري)..

عرفت هذا لأنني كنت أهبط في الدرج متجهًا إلى وجهتي الغامضة، حين وجدت صاحبة الدار جالسة في الصالة مع رجل أشيب له شعر قصير على جانبي الرأس، وشارب كث كفرشاة البلاط.. باختصار كان يبدو كهؤلاء الجنرالات الإنجليز الذين نرى صورهم في كتب تاريخ الحرب العالمية.. لن أندهش لو كان هذا الرجل قد حارب في (العلمين) مع (مونتجمري)..

قلت شيئًا ما، وكدت أرحل، لكن المرأة قالت في مرح:

- «تعال يا د. (إسماعيل).. أقدم لك الميجور (برادبوري) الذي كان صديق المرحوم زوجي..»

يعنى لو كان زوجها قد مات في سن الثلاثين، فعمر هذا الميجور لن يقل عن ستين عامًا.. لا بد أنه ـ فعلًا ـ شارك في الحرب العالمية الثانية.. غالبًا مع الفيلق الأسترالي في أوروبا..

لم أصافحه لأن طباع الإنجليز والأستراليين واحدة في هذا الصدد.. نظر لي نظرة عسكرية حادة، ثم غمغم بتحية ما، وفي يده رأيت صورة فوتوغرافية صغيرة اصفرت من القدم.. قال وهو يعبث بشاربه:

ـ «رباه! يا له من دهر! أستطيع هنا أن أميز (جين) و(آرثر) و(إليزابث)، يا لها من مسكينة!»

قالت المرأة في حزن غامر:

- «أوه! إن السرطان يحسن انتقاء ضحاياه... حسبتك لا تعرف أنها ماتت..»

ابتسم في مرارة، وقال:

ـ «كنت في مصر حين أخبروني بالنبأ..»

مصر؟ إن (إليزابث) المسكينة هذه توفيت منذ أكثر من عشرين عامًا.. لكنهما حزينان كأنها ماتت حالًا..

لم أر داعيًا لبقائي أصغي لكل هذا الهراء.. عجوزان يتبادلان ذكريات ثمينة لكنّها لا تهمني على الإطلاق.. وتذكرت كيف أن كل أب مولع بأن يحكي لك ما يفعله صغيره.. كيف يبصق على الضيوف وكيف يبلل السجادة بالبول وكيف... معتبرًا هذه معجزات صغيرة، بينما أنت لا تبالي على الإطلاق.. الذكريات بضاعة لا قيمة لها إلا في خزانة صاحبها..

غادرت الدار متجهًا إلى مهمتي الغامضة..

☆ ☆ ☆

وعندما عدت في الخامسة عصرًا، كان الميجور ومضيفتي يشربان الشاي طبعًا، ويبدو أنهما لم يفرغا من ذكريات كل من مات بالسرطان من الأحباب..

على غير عادتها الصموت الوقور، هتفت مسز (بانكروفت):

- «خمّن ماذا! إن الميجور (برادبوري) راغب في الحصول على غرفة هنا..»

أطلقت صفير دهشة وأنا لا أبالي شعرة بهذا، وقلت لها في حماسة:

- «إنّه النزيل المرتقب طبعًا.»

ابتسمت المرأة - مرضعة (أمنمحات) - في دلال أنثوي مزعج.. فالميجور بالطبع يمثل لها جزءًا عزيزًا من شبابها، حين كانت شابة وربما جميلة، وكانت حياتها تبدأ ولا تنتهي..

قلت لنفسي: «لا بأس.. صحيح أن الرجل سمج نوعًا، لكنه سيضفي بعض التجديد على حياتنا المملة.. وعلى الأقل هو لم يطالب بطردي..»

وصعدت إلى غرفتي، لأبدأ طقوس الأمسية المعتادة.. وككل ليلة التهمت عشائي في غرفتي، وهو بعض الشطائر التي أبتاعها من الخارج، ثم أعددت لنفسي بعض الشاي في المطبخ، وكتبت بعض الرسائل وتأهبت للنوم..

وعند منتصف الليل قرع أحدهم جرس الباب عدة مرات. وسمعت المرأة تفتحه وتزجر أحدهم هذا مرارًا، وتردد لفظة البوليس.. الغريب هنا أنه من الواضح أن الميجور لم يظهر في الصورة قط.. المفترض أن ينزل ليشد من أزر زوجة صديقه المرحوم، أو كما يقولون في العامية عندنا:

(يعمل أي منظر)..

أدركت من الصوت الثاني أن القادم هو بلا شك ذلك المجنون المتحمس الوقور الذي يبغى طردنا..

لم أهبط من غرفتي هذه المرّة لأنني لست الرجل الوحيد هنا، ثم إن مفاهيم (الجدعنة) العربيّة هذه لا تسري في أستراليا، ولن ترى المرأة سوى أنني مجرد طفيلي آخر يهوى التدخل فيما لا يعنيه..

سمعتها توصد الباب في شراسة، ثم سمعت هدير القرص مما يعني أنها تنفذ تهديدها بالفعل.. لكن صوتًا حازمًا جاء من قريب يقول:

- «تمهلي يا (جلاديس)..»

كان هذا هو الميجور بالطبع، وفيما بعد أدركت أنه هبط في الدرج كي يشرح لها أسبابه: لماذا لا يجب أن تتصل بالبوليس.. وهي أسباب مقنعة بالتأكيد لأنهّا كفت عن المحاولة..

ولا أدرى يا (ريم) متى سقط القلم من يدي ونمت...

☆ ☆ ☆

في اليوم التالي جاء (جيمس شرودر) وزوجته الحسناء (كارلا)..

كان ذلك في الصباح المبكر، وأدركت حين رأيتهما أنهما في الغالب متحمسان بعنف للإقامة في المنزل رقم (5).

كانا يقدمان عرضًا مهمًا للعجوز، والمرأة ترفض باستمرار وإصرار.. هل تعرفين ماذا كانا يطلبان؟ نعم.. يطلبان الإقامة بشرط إخلاء المنزل لهما.. كيف عرفت؟ إنك صرت عبقرية هذه الأيام يا (ريم)..

بالطبع لم تعد الفكرة واردة أصلًا، لكن المرأة العجوز كانت أقل شراسة في رفضها.. ربما بسبب أن الزوجين كانا جميلي الشكل مبهرين، ولكل جمال هيبة كما يقول (توفيق الحكيم).. كانا بالغي الأناقة، وبرغم أنني لم أعد أميز هذه الأشياء فإنني أدركت أن الفتاة فاتنة..

مررت بالزوجين وحييتهما بهزة رأس، لكنهما راحا يرمقانني بفضول غير عادي، حتى حسبت أنني نسيت ارتداء البنطال.. ثم همس الشاب للعجوز:

- «من هو؟»

- «هذا ليس شأنك، لكني - كي أريحك - أقول إنِّه طبيب مصري.. نزيل عندي..»

ونظرت لهما نظرة ثاقبة، لكنهما تبادلا النظرات - الرجل وزوجته - ثم رأيته يهز رأسه نافيًا كمن يقول: لا.. ليس هو..

تباطأت في الابتعاد لأسمع ما يقول، فجاءني صوته الرخيم يسأل العجوز (وأدركت من نغمة الكلام أنه يعرض عليها صورة فوتوغرافية):

- «هل رأيت هذا من قبل؟»

- «هذا ليس شأنك..»

- «هل جاء يطلب غرفة؟»

- «إنني أتكلم الإنكليزية أيها الشاب..»

عاد يقول في إصرار:

- «لو جاءك يطلب غرفة، فأنا أنصحك ألا تقبلي هذا شيء لا مزاح فيه..»

أدركت من الكلام أن المرأة ترى الآن صورة شخص ما غير مرغوب فيه، لكن من هو؟ «أنا أتكلم الإنجليزية».. قالتها بثقة كأنما هي فعلًا تتكلم الإنجليزية، وكأن (الأسترالية) ليست لغة مستقلة منفصلة..

كنت قد ابتعدت عن الأصوات، فرحت أمشي في الشارع الهادئ أفكر..

ما معنى هذا كله؟

لماذا صار المنزل رقم (5) فجأة أهم منزل في الكون؟

☆ ☆ ☆

٣ - وتجيء (ساندرا)..

ولماذا الرقم (5) بالذات؟

وفي المساء عدت لأسمع ضحكات عالية صاخبة من قاعة الجلوس.. كنت قد تأخرت قليلًا هذا اليوم، لذا لم أتوقع أن أجد جلسة الشاي إياها..

اتجهت إلى الدرج، فقط لأسمع خطوات مرحة وثابتة من ورائي.. واستدرت لأجد فتاة في العشرين من عمرها تركض حافية، وهي تلوح بزجاجة يفور الزبد من فوهتها.. فما إن رأتني حتى بدا عليها الخجل، وقالت مبهوتة:

ـ «معذرة.. ما كنت أحسب هناك شخصًا آخر سوانا..»

وفي اللحظة التالية يا (ريم) برزت مسز(بانكروفت) من حجرة الجلوس لترى المشهد، فقالت وهي تضغط على صدرها كي تكتم الضحك:

ـ «أستميحك عذرًا يا د. (إسماعيل).. لاشيء يمكنه كبح جماح الشباب.. إن (ساندرا) تحتفل كما ترى، وإننا لنرحب بانضمامك إلينا..»

قلت لها في تعاسة: إني لا أهوى الحفلات، خاصة تلك التي توجد بها زجاجات يفور منها الزبد... ولكن من هي (ساندرا)؟

طوقت كتف الفتاة بذراعها، وقالت:

ـ «(ساندرا) هي ابنة أعز صديقة لي، وأنا لم ألقها منذ عشرة أعوام.. إنني بمثابة خالتها..»

وتأملت الفتاة بدقة.. الحق أنها جميلة.. لا ينكر هذا إلا أحمق، لكني لم أحب عينيها قط، وبنظرة أدق اندهشت من منظر العين في القرنيتين.. إن عينيها زرقاوان، لكن إنساني العين كانا أسودين محددين بدقة، كأنما هما ثقبان صنعا بدبوس في العينين.. منظر طبيعي وربما معتاد، لكنه مزعج إلى حدٍ ما..

حييت الفتاة وصعدت إلى حجرتي..

لقد صار المنزل رقم (5) أكثر منازل العالم ازدحامًا فيما يبدو.. وإلى حد ما أنا مسرور لأن المنزل لم يعد مسكونًا بثلاث مومياوات تنتظر الموت (أنا والعجوز والميجور)، لكن الأمر صار غريبًا.

هذه العجوز حمقاء إن لم تندهش لهذا كله..

حمقاء إن لم تتحول دهشتها إلى رعب..

يوجد لغز ما في المنزل رقم (5)، وهذا اللغز جعل الجميع متحمسين للبقاء فيه..

وما شأني بهذا على كل حال يا (ريم)؟ إنهم أستراليون (في بعض)، وهم أحرار على كل حال.

كان آخر من جاء يا (ريم) هو (جيسون) وقد جاء في صباح اليوم التالي، ودارت بينه والعجوز محادثة قصيرة..

كان ضخم الجثة كالباب، يبدو عليه العنف، ومن الجلي أن المشاجرات تروق له.. وكان وجهه كتلة من الشعر لها لسان أحمر يبرز من مكان ما، ما بين اللحية والشارب والحاجبين الكثّين.. لا أدري منها..» أين رأيت لوحة كاريكاتورية تمثل سبع البحر، وكان يبدو كهذا بالضبط..

كان يقول لها وهو يلوح بإصبع غليظ في وجهها:

- «اسمعي يا سيدة.. حين يطلب (جيسون) غرفة فهو يحصل عليها..»

وكانت تقول في ثبات:

- «ليس لديَّ شيء، فعد إلى الحانة التي جئت منها..»

- «إن من يعيشون تحت سقفك لن يقدموا لك خدمة ما.. عليك أن تعرفي أين المصلحة..»

- «أغرب قبل أن أستدعى رجال الشرطة..»

ثم توقف عن الكلام حين رآني، واتسعت عيناه الشرستان دهشة، وراح يرمقني باهتمام.. يبدو أن منظرى أغرب مما تصورت..

قلت له في كياسة:

- «يا سيد.. السيدة تعرف إن كانت تريد أن تؤجر غرفة أم لا.. هذا من حقها..»

هذا هو ما قلت، حتى لا أجد قبضته الغليظة مدفونة في وجهي حتى عظمة السرج التركي في قاع الجمجمة..

لكن رد فعله فاق تصوراتي.. لقد تدلى وجهه، وهتف بصوت كالفحيح:

- «(ميدا)! هل هذا أنت؟».

قالت العجوز في اشمئزاز:

- «اسمه هو (إسماعيل).. ثم هذا ليس من شأنك!»

لكن الرجل واصل النظر إليّ:

- «(ميدا)! هل أنت؟ هل تفهم ما أتكلم عنه؟»

قلت وقد بدأت أعتقد فيه الخبال:

- «ولا حرف يا سيدي.. وإن السيدة لجادة في تهديدها..»

استدار مبتعدًا وهو مازال يرمقني من فوق كتفه حتى غاب عن البصر، وللحظة حسبت أن شخصيتي الجبارة هي ما أرغمه على التراجع.. هكذا يجب أن يُعامل الرعاع، ثم فطنت إلى أن في الأمر سرًا لا أدريه..

وهنا فقط انفجرت..

صحت في العجوز:

- «ما سر هذا البيت يا مدام؟ وماسبب هذا الحماس المجنون للسكنى فيه؟»

قالت ما معناه (علمي علمك)، ثم أطرقت قليلًا، وهمست في قلق:

- «د. (إسماعيل).. أصارحك أنني خائفة.. أنا عجوز وحيدة ضعيفة، وثمّة شيء ما شرير يجري هنا...»

قلت لها في حنق:

- «لست وحيدة.. لديك الميجور و(ساندرا)..»

- «بل إنهما يزيدان الأمور سوءًا..»

- «ماذا تقصدين؟»

أغلقت الباب علينا من الخارج، بحيث صرت أنا وهي خارج المنزل، ونظرت لأعلى تتأكد من أن أحدًا لا يراقبنا من نافذة ما، ثم همست:

- «إن التشابه تام، ومعلوماتهما دقيقة.. لكن مع الثرثرة الطويلة لابد من أن تفلت تفاصيل تجعلك تتردد.. هل حقًّا الأمر كما حسبته، أم أنك وقعت في خلط مريع؟»

بغباء عدت أسألها:

- «ما زلت. لا أفهم..»

نظرت حولها مرّة أخرى لتتيقن من أن أحدًا لا يسمعها، وهمست:

- «هذان لا يمكن أن يكونا (ساندرا) والميجورهذان الاثنان ممثلان يلعبان دورهما ببراعة!»

☆ ☆ ☆

٤ - هل أنت خائف مثلي؟؟

فتحت الباب، وصاحت:

- «(ساندرا) يا عزيزتي.. أنا ذاهبة إلى مكتب البريد لأسأل عن معاشي.. أرجو أن تعني بالبيت حتى أعود.. أنت ملاك يا عزيزتي..»

ثم أغلقت الباب وتأبطت ذراعي محاولة ألا تتعثر.. الحقيقة أن مسز (بانكروفت) لم تكن تحب الشارع، ويبدو أن الشارع لا يحبّها كذلك.. وانثنى كاحلها تحتها مرة أو مرّتين..

مشينا بضع خطوات في الطريق الهادئ، حيث لا أحد إلا الرجل العجوز النائم كالعادة.. فما إن ابتعدنا مسافة كافية حتى نظرت للوراء، وهمست:

- «حتى لا يسمع أحد ما نقول..»

ولم أكن بحاجة للشرح على كل حال، فالأمر واضح.. لكني لا أطيق أن أمشي في الشارع وقد تأبطت امرأة ذراعي، خاصة إذا كانت خادمة الملكة (أياح حتب)..

سألتها وأنا ألهث لأنهّا تتشبث بذراعي بقوّة:

- «ما الذي يدعوك إلى الظن بأن هذين يتصنعان؟»

قالت وهي تلهث بدورها:

- «ثمّة أخطاء صغيرة في كلامهما لا تروق لي.. أخطاء لا يهمك أن تعرفها، لكنّها كثيرة.. مثلًا زوجي لم يذق الخمر في حياته بينما الميجور يحكي عن ولع زوجي بالويسكي.. صديقتي لم تكن تعرف كيف تصنع فطيرة التوت، و(ساندرا) تحدّثت عرضًا عن فطيرة التوت التي أعدتها أمها.. أشياء من هذا القبيل...

«إنني صرت عجوزًا سهلة الخداع، ويبدو أنّ هناك من يعرف أنني لم أر الميجور من عقود، ولم أر (ساندرا) منذ كانت في العاشرة من عمرها.. لكن يظل السؤال هو: كيف يعرف هذان كل هذا عني؟»

كنا الآن في شارع رئيسي تتسابق فيه السيارات - على اليسار كالعادة - ولاحظت أنها تقصد مكتب البريد فعلًا.. لعلها تحسب هناك من يراقبها إذن.. سألتها:

- «وما الذي يدفع هذين لانتحال شخصيتين؟»

- «لنفس السبب الذي جاء من أجله الآخرون.. إنها الطريقة المثلى للمبيت تحت سقف البيت.. أنت تعرف أنني طردت كل من حاول السكنى هنا ما عداك.. ويبدو أنّ هناك من فهم أن الحيلة هي السبيل الوحيد..»

سرني أنها بدأت تلاحظ.. فكففت عن السير وسألتها:

- «مسز (بانكروفت).. لاحظت أنّ هناك حماسًا شعبيًا غير مسبوق للإقامة عندك.. فهل تعتقدين أنّ هناك سببًا محددًا لهذا الحماس؟»

- «لا أعرف..»

- «هل البيت مشيد فوق كنز أو شيء من هذا القبيل؟»

- «لا أعرف.. إنِّه قديم جدًا، لكن لا توجد أية أسطورة تحيط به لو كان هذا ما تقصد..»

ساد الصمت من جديد، وبعد تفكير سألتها:

- «ماذا تنوين عمله؟»

- «لو كنت أعرف لما سألتك..»

هذه هي المشكلة.. ليست المبارزة مبارزتي، لكنّها مصرة على أن تناولني السيف وتتنحى... وعليَّ أن أقول شيئًا رائعًا مقنعًا لا أبدو به سخيفًا.. قلت لها:

- «لم لا تطلبين الشرطة؟»

- «ثمّة احتمال واه أن يكون هذان هما الميجور و(ساندرا) وقد خانتهما الذاكرة.. أعتقد أنه سيكون موقفًا سخيفًا..»

انتابني الغيظ، فقلت لها:

- «إذن ما المطلوب مني؟»

- «أن تبقى معي.. أشعر بالخوف الشديد.. فهل أنت خائف مثلي؟»

- «ليس تمامًا.. ثم إن وقت إقامتي قد أوشك على الانتهاء.. إن هي إلا أيام وأرحل.. ولا أرى أن..»

فتحت كيس نقودها، ووقفت أمام أحد باعة الصحف، وانتقت جريدة الصباح وقالت:

- «نعم.. معك حق.. أحيانًا أتمنى أن يكون لي مكان آخر أذهب إليه.. من الجميل أن يترك المرء كل المشاكل ويركب طائرة ويحلق مبتعدًا..»

وفي هذه اللحظة مرّت بنا سيارة مسرعة، بعثرت بعض ماء الأمطار السابقة المحتشد على جانب الرصيف في وجهنا.. كدت أطلق السباب لولا أنني تصلبت حين رأيت من في السيارة.. إنهم أربعة أفراد.. السائق هو الأخ الشرس الذي عرفناه باسم (جيسون)، وجواره الرجل الوقور الذي يريد طردي، وفي المقعد الخلفي يجلس الزوجان الجميلان..

هذا غريب!

إذن كل هؤلاء السادة متعارفون وعلى علاقة وطيدة.. إذن لماذا يأتون منفردين؟

لم ترَ العجوز ما رأيت فقررت ألا أخبرها، فهي لن تستنتج من هذا شيئًا مفيدًا، وفي الغالب سيتوقف قلبها ذعرًا..

☆ ☆ ☆

في المساء دق أحدهم على باب غرفتي، فتنحنحت.. لم يفتح الباب برغم أنه من الواضح أن النحنحة ذات مدلول عالمي..

- «ادخل!»

كذا صحت في عصبية، فانفتح الباب.. بالطبع لم تكن العجوز لأنهّا لا تدخل حجرتي إلا نهارًا، ولم يكن الميجور لأنّه لا يطيق رؤيتي.. كانت (ساندرا) طبعًا..

توجست خيفة لرؤيتها لأنني - كما قلت ـ لم أحب وجودها قط، ولم أستطع قبول الاعتقاد العام بأنها رائعة...

كانت ترتدي بلوزة سوداء وتنورة رماديّة أنيقة، وبدا لي أنها فرغت حالًا من الأكل لأنهّا كانت تلوك شيئًا ما..

دنت مني وتأملت أوراقي في دلال، وقالت:

ـ «ما هذا الذي تكتبه؟»

- «مذكرات..»

راحت تمرر إصبعها على الحروف كطفل وقالت:

ـ «هل هذه هي اللغة العربيّة؟ كيف تقرءونها؟»

- «كما يقرأ الهنود الأوردية، واليابانيون اليابانية..»

- «وما معنى هذا المكتوب؟»

قلت في صبر:

- «معناه: أنني لا أرحب أبدًا بمن يقتحم خلوتي ليسألني عما إذا كنت أكتب بالعربية!»

والحق أن تصرفها بدا لي غير لائق... دعك من موضوع أنني رجل.. فهم هنا لا يعلقون أهميّة على هذه الأمور، ثم إنني أبدو كمومياء.. السخيف هنا هو اقتحام الحجرة دون استئذان.. التطفل على خصوصية شخص غريب تمامًا عنها..

وتأملت عينيها في ضوء المصباح، فازددت رعبًا.. من جديد أشعر كأن إنساني عينيها ثقبان في جدار العين.. وقد جعل الضوء اللون الأزرق يبدو كأنما يتوهج..

قالت بلهجة جادة حازمة:

- «دعك من المزاح وقل لي.. كم من الوقت تزمع البقاء هنا؟»

قلت لها مندهشًا:

- «ليس كثيرًا.. لماذا؟»

قالت ضاغطة على كل حرف:

- «لو كنت تنوي البقاء حتى العشرين من مارس، فلا تفعل.. أنصحك ألا تفعل.. غادر هذا المنزل كأن الجحيم يطارك!»

تجمد الدم في عروقي هلعًا، وسألتها متوجسًا:

- «هل لي أن أعرف السبب؟»

ضغطت بأسنانها على شفتيها في عصبية، إلى درجة أن الدم راح يسيل منها.. وقالت:

- «لن أتكلم أكثر.. ولكن لا تقل إننا لم ننذرك!»

ثم مدت يدها فالتقطت أحد المناديل الورقية التي أضعها أمامي، وضغطت به على شفتها السفلى واستدارت مغادرة الغرفة..

تاركة إياي أرتجف كالورقة..

كنت دائمًا أقول إن الخطر المعنوي أشد إيذاء من الخطر المادي.

وما كان تهديد الفتاة نفسها ليثير ذعري، لكن الغموض الذي توحي به كلماتها هو ما جعل قلبي يرتجف..

العشرون من مارس! هذا هو الموعد المرتقب.. لأي شيء بالضبط؟

لا أعرف حقًّا.. لكن على أن أفر من هنا قبله..

ونظرت إلى التقويم على الجدار..

كان هذا هو اليوم السادس عشر من مارس.. وبعد ساعة سوف أنزع هذه الوريقة، ويبقى على الموعد ثلاثة أيام..

☆ ☆ ☆

ثلاثة أيام!

ولكن على ماذا؟

☆ ☆ ☆

٥ - ستة وواحد..

قررت أن يكون اليوم التالي إجازة..

أنت تعرفين يا (ريم) أن الهدف الذي جئت من أجله شارف الانتهاء، وأن قضية المنزل راحت تؤرقني..

في الصباح استيقظت على راحتي، وكنت قد نمت طويلًا بعدما سهرت إلى ساعة متأخرة... غادرت المنزل ومشيت في الشارع الهادئ المبتل من أمطار ليلية ما..

لم تكن المدينة في الشوارع، فهي ساعة متأخرة من النهار حيث الكل في عمله.. مشيت الهويني قاصدًا دار البلدية..

لماذا دار البلدية؟ لأنني قد أظفر بمعلومات عن هذا البيت الغامض.. أنت تعرفين أن كل هذه البيوت في قصص الرعب بنيت فوق مقبرة هنديّة قديمة ـ لم يكن هناك هنود في استراليا - أو فوق كنز من كنوز الإزتك، أو يخافها الناس لأسباب تطول..

لم أجد ما أردت بسهولة، بالإضافة إلى أن التفاهم عسير جدًّا معهم هنا برغم أننا نستعمل نفس اللغة الإنجليزية، وفي النهاية تطوع موظف متحمس بأن يبحث لي عن المعلومات التي أردتها.. وكانت النتيجة مهمّة:

أولًا: لا توجد أية أساطير تحيط بالمنزل..

ثانيًا: تم بناؤه عام ١٨٨٤.. أي أنه يدنو من مائة عام الآن..

ثالثًا: صاحب المنزل القديم يُدعى (ألفرد أوسبورن)، وهو آخر من امتلك المنزل بعد أبيه، ولم يتزوج أو ينجب، وقد سافر إلى إنجلترا بعد الحرب.. لكنه باع المنزل عام ١٩٤١ لآل (بانكروفت).. ولم يكن ساحرًا ولا ممن يأكلون لحم الأطفال، وبالطبع لم يبع روحه للشيطان...

المنزل ليس أثرًا وليس تحفة فنية، ولا تعلق عليه البلدية أية أهميّة..

شكرت الرجل على هذه المعلومات القيمة.. نعم هي قيمة من حيث النفي.. وأنا طبيب وأعرف أن نتيجة اختبار الورق النافية قد تكون أكثر أهميّة من النتيجة المؤكدة..

لا أهميّة للبيت ولا يوجد خطر يحوم حوله..

إذن لماذا يصر هؤلاء السادة على السكنى فيه؟

☆ ☆ ☆

وفي اليوم التالي كنت عائدًا إلى المنزل حوالي الواحدة ظهرًا، وأنا قد عدت إليه في كل وقت ممكن ما عدا ما قبل الثالثة بعد الظهر.. فهذا إذن طور زمني لم أشرف بالتواجد فيه قط..

كنت الآن عند بداية الشارع، وكانت الإشارة خضراء تسمح بمرور المارَّة.. توقفت لحظة كي أحكم معطف حول جسدي، وكي لا أتجمد..

على الجهة الأخرى من الطريق، لمحت الشكل المميز للعجوز تهم بالمرور.. كانت تحمل حقيبة السوق السوداء المطرزة بالكانفاه، وقد بدا عليها الهم والشرود.. كانت غارقة في محيط أفكارها.. ولكنها ـ على الأقل ـ كانت تعرف أن الإشارة تسمح بالمرور، والشارع لم يكن مزدحمًا على كل حال..

هنا يا (ريم) - كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة - برزت من لا مكان سيارة مندفعة زلزلت أرض الشارع زلزلة، ووضعت السيدة قدمها على الأرض، حين عرفت على الفور ما سيحدث..

رفعت كفى صارخًا..

- «مسز (بانكروووووفت)!»

لكن السيارة كانت أسرع من الصوت.. أسرع من صرختي، وسرعان ما طارت العجوز في الهواء، واندفعت السيارة مبتعدة، وكانت لوحتها الخلفيّة أكثر ازدحامًا بالأرقام من أن أتذكره..

وجريت عابرًا الطريق إلى كومة الثياب التي كانت مسز (بانكروفت) من دقائق، وطار عقلي شعاعًا.. ثمة لمسة درامية مخيفة في الموت المفاجئ، وهو بالتأكيد يختلف كثيرًا عن الموت البطيء الذي يستغرق شهورًا أو أيامًا، مع الكثير من الأنين والسعال والوصايا... لمسة درامية تبرر هذه الرجفة في ساقي وضربات قلبي المضطربة، ويدي التي عجزت تمامًا عن الوصول إلى علبة أقراص (النتروجلسرين) في جيب البذلة تحت المعطف..

ركعت جوارها، وكانت فاقدة الرشد - طبعًا ـ لكنّها لم تمت... ثمّة كسور لا بأس بها في عدة مواضع، ونزف داخلي في الغالب لكنّها كانت تتنفس..

ووقف بعض المارَّة يرمقون المشهد في لا مبالاة، باعتبار أن من حق أي إنسان أن يموت في الشارع، وكأن التدخل قلة ذوق وافتقار إلى التهذيب..

صحت فيهم أن يطلب أحدهم الإسعاف بحق السماء، وظهر رجل شرطة عابس من مكان ما وسألني أسئلة تقليدية عن السيارة.. أوصافها.. إلخ..

أخيرًا جاءت الإسعاف، وعرفت أنه ليس من حقي الركوب مع العجوز لأنّه لا مكان لي.. هكذا عرفت اسم المستشفى وركبت أول سيارة أجرة قابلتها ولحقت بالمصابة هناك..

☆ ☆ ☆

لابد أن الأمر استغرق دهورًا يا (ريم)، لكن الساعة قالت لي إن ثلاث ساعات مرّت، حتى سُمح لي بالدخول إلى غرفتها..

كانت مضمدة كالمومياء، وكمية من الجبس تصلح لبناء معبد فرعوني، ولكنّها كانت تتنفس وتبتسم..

دنوت منها متهيبًا وسألتها سؤالًا سخيفًا:

- «كيف حالك يا مسز (بانكروفت)؟»

ضحكت لثانية، ثم آلمتها الجروح فتأوهت، وقالت:

- «آي! حالي كما ترى.. لكن هؤلاء السادة لم يعلموا أية عجوز صلبة هي أنا..»

ثم نظرت لي بعينيها الزرقاوين الرماديتين المنهكتين، وقالت:

- «هل ستعود للإقامة في المنزل؟»

قلت لها وأنا أمرر عنقي عبر غابة الخراطيم المحيطة بها:

- «ليس لي مكان آخر أذهب إليه.. وفي الغالب سأؤجل سفري قليلًا حتى أتأكد من أنك بخير..»

قالت في حزم:

- «لا تبق في المنزل!»

- «ولكن.. الإيجار.. و...»

- «دعك من هذه السخافات.. اذهب الآن واجمع حاجياتك، ثم ابحث عن أي فندق.. لو اضطررت إلى المبيت في الحديقة العامة فلا تتردد..»

فكرت هنيهة، ثم قلت:

- «لم أخطر الميجور و(ساندرا) بعد..»

- «لا تفعل.. إنهما على كل حال يعلمان!»

- «إذن أنت وحدك في هذا العالم؟»

- «أنا وحدي.. لكن الرب معي.. فلن أخاف..»

- «ولماذا لا أبلغ (ساندرا) على الأقل؟»

- «لا تفعل.. وكن حذرًا!»»

باختصار تريد مني السيدة ان أنسى الأمر برمته.. وهذا شيء يصعب ابتلاعه لكنّها إرادتها على كل حال..

جاءت الممرضة تطردني كالعادة، فحييت مسز (بانكروفت)، وغادرت المستشفى مبلبل الأفكار.. تعرفين يا (ريم) هذه المواقف طبعًا وتعرفين كيف يبدو المرء حينها..

☆ ☆ ☆

لم يلقني أحد في المنزل حين وصلت إليه بعد قليل.. وسرني هذا، فاتجهت إلى حجرتي وجلست على الفراش شارد الذهن.. ربما ظللت هكذا نصف ساعة أو أكثر..

جميعهم يريد أن أرحل.. العجوز.. و(ساندرا) ويبدو أنني سأفعل هذا.. يبدو غريبًا أن أترك العجوز في هذه الظروف، لكن لا حيلة لي.. سأحزم حقائبي و...

ومن جديد تحرك الفلاح الرابض في أعماقي يسألني عن (الجدعنة) والشهامة... المرأة لا رفيق لها بين البشر، وهي عجوز وفي خطر.. فماذا يكون موقفك؟

في النهاية وجدت حلًا وسطًا.. سأبقى في المنزل يومين أو ثلاثة حتى تتضح الأمور، وبعدها يمكن أن أرحل بضمير مستريح..

ومطمئنًا لقراري يا (ريم) غادرت الغرفة.. قررت أن ألقى الميجور و(ساندرا) لأبلغهما بما حدث للعجوز..

نزلت إلى قاعة الجلوس وتنحنحت ثم دخلت، متوقّعًا ألا يكون هناك أحد، أو على الأقل الفتاة فقط.. لكني صدمت...

كان الجميع جالسين..

(ساندرا) و(جيسون) والميجور والزوجان اللطيفان والرجل الوقور المتحمس.. ستة من الضيوف غير المرغوب فيهم يجلسون الآن في غرفة جلوس المرأة التي طردت أربعة منهم...

نظرت حولي في ريبة.. كانوا جالسين في استرخاء بثياب مريحة، وقد انهمك اثنان في مطالعة الصحف، بينما الفتاتان تتسليان بالحياكة.. ورفعوا عيونهم نحوي في برود كأنما يقولون: ثم ماذا تريد هذه المرّة؟

سعلت لأسلّك حلقي، ثم قلت موجهًا الكلام لـ (ساندرا):

- «مسز (بانكروفت) في المستشفى.. حادث سيارة..»

ابتسمت وقالت في رسمية:

- «أعرف.. شكرًا.. ثم ماذا؟»

- «حسبت أن من واجبي إبلاغك..»

- «أكرر أنني أعرف..»

وهنا تدخل الميجور ليقول في لهجة عسكرية جافة..

- «متى تنوي الرحيل؟»

غلى الدم في عروقي، وقلت ضاغطًا على كلماتي:

- «لا أنوي...»

- «لا أحد يريدك هنا أيها الشاب..»

شاب؟ حقًّا شاب.. حتى (رفعت إسماعيل) يمكن أن يبدو شابًا بالنسبة إلى هذا الرجل.. قلت في عصبية:

- «لقد استأجرت غرفتي من مسز (بانكروفت)، وهي وحدها صاحبة الحق في طردي منها.. وإن لم تخني الذاكرة فأنتم جميعًا مثلي ضيوف على هذا المنزل..»

هم (جيسون) بالنهوض - ليحطم رأسي طبعًا - لكن الرجل الوقور أمسك بمعصمة بما معناه (دعه وشأنه)، وقال في هدوء:

- «ربما كنا نأمل في أن تغير قرارك هذا يا د. (إسماعيل)..»

ثم هزّ رأسه محييًا، فهززت رأسي بالمثل، وصعدت إلى غرفتي من جديد...

☆ ☆ ☆

وفي غرفتي - كالمجنون - أخرجت ورقة ورحت أخط عليها الاحتمالات المختلفة... طبعًا تحولت الورقة إلى حشد من الخطوط المتعرجة والأسهم.. هذا هو ما يفضي إليه الأمر..

صارت الأمور الآن واضحة في ذهني.. العجوز صدمتها سيارة بفعل فاعل.. لم يكن حادثًا.. من الفاعل؟ طبعًا هو واحد من هؤلاء الستة لطاف المعشر.. بل يمكن إخراج (جيسون) من الموضوع لأن السيارة التي دهمت العجوز لم تكن سيارته.. أعتقد بشكل ما أن الزوج الوسيم هو من فعلها، لأن الرجل هادئ الطباع الوقور لا يملك سيارة..

الهدف: كانت طريقة متحمسة لإرغام العجوز على ترك منزلها.. هذا هو (العرض الذي لا يُرفض) بلغة رجال المافيا..

وبالتالي صار الباب مفتوحًا لدخول أربعة غير مرغوب فيهم هم (جيسون) والزوجان والرجل الوقور، وقد صار البيت بيتهم..

لماذا؟ لو كنت أعرف لما جلست في حجرتي وحيدًا، أخط على الورق أشكالًا لا معنى لها..

هذا البيت خطير..

لكني لن أغادره بهذه السرعة..

☆ ☆ ☆

٦ - مفاجأة غير سارة..

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

☆ ☆ ☆

صباح اليوم التالي قصدت المستشفى... مهما حدث يشعر الطبيب بألفة ما مع جو المستشفيات ورائحة المطهرات وثوب العاملين الأبيض، تلك الأشياء التي قد تغري غير الأطباء بالقيء..

كانت العجوز في حالة طيبة.. إن رئتيها سليمتان وجمجمتها لا بأس بها.. فلا خطر عليها إلا من جلطات الساقين، وهذه سوف تعلن عن نفسها يومًا ما في دورة المياه بعد أول خطوات لها خارج الفراش.. ستسقط ميتة ببساطة، ما لم يكن التمريض هنا يعرف ما يفعله..

سألتني:

- «أمّا زلت في المنزل؟»

هززت راسي أن بلى..

- «إنك عنيد.. وماذا قالوا لك؟»

- «كلهم هناك، وقد طلبوا مني الرحيل..»

- «افعل كما طلبوا منك..»

بالطبع لا توجد صيغة مثنى في الإنجليزية، لذا لم تكن تعني (قالوا لك - طلبوا منك) بل تعني (قالا لك - طلبًا منك)..

وأعتقد أنها لم تخمن أنني أستعمل صيغة الجمع متعمدًا.. لم أرد أن أضايقها أو أن يجن جنونها.. ستصاب بنوبة قلبيّة لو عرفت بنبأ الزوار المتطفلين..

اطمأننت عليها وغادرت المستشفى، وفي طريقي إلى المنزل ابتعت بعض الصحف، ومشيت أفكر في هذه القصة..

فلوب فلوب! خُيّل إليَّ أنّ بعض الغبار تناثر في وجهي من الحائط الذي كنت أمشي جواره.. لكن هذه أشياء صغيرة..

كان الطريق خاليًا.. نظرت إلى اليمين لأتأكد ثم إلى اليسار... أكثر من مرة كادت السيارات تدهمني لأنني أنسى أن هؤلاء القوم يقودون سياراتهم إلى يسار الطريق..

لا بأس.. أتهيأ للعبور...

وفجأة نظرت إلى يساري - كأنما بحافز خفي - فوجدت السيارة الزرقاء تعوي ذلك العواء المزعج الذي نُسمّيه عندنا في مصر (طلعة أمريكاني) وتسمية دول الخليج (تفحيط).. ورأيتها قادمة نحوي بسرعة جهنمية...

طبعًا لو لم أنظر لما كنت هنا أكتب هذه السطور، لكني مُنحت جزءًا على ألف من الثانية استطعت خلاله أن أثب إلى الرصيف، وأهوي أرضًا، بينما السيارة تمرق كسهم أزرق في الموضع الذي كنت فيه حالًا..

سائق؟ لا يوجد سائق طبعًا يا (ريم)..

كل السيارات التي تبرز فجأة من العدم لا يقودها سائق.. حسبت هذا مفهومًا ومتفقًا عليه..

أرقام؟ مستحيل قراءة أرقام حين تنطلق السيارة بهذه السرعة، وحين وقفت على قدمي الراجفتين، كانت السيارة في عداد الأوهام...

يا لي من ساذج!

أنا العقبة الأخيرة في طريق هؤلاء القوم ومشروعهم الغامض، وهم كادوا يقتلون العقبة الأولى - العجوز - فكيف غاب عني أن الخلاص منى أمر بديهي منطقي؟

☆ ☆ ☆

فلوب فلوب! خُيّل إليَّ أنّ بعض الغبار..

☆ ☆ ☆

صوت (الفلوب) هذا ليس غريبًا عليَّ.. إذن كان هناك من يصوب عليَّ بندقية بتلسكوب كاتمة للصوت، ولا بد أن يده اهتزت لأن الطلقة أصابت الجدار على بعد سنتيمترات من رأسي..

ليكن.. لايمكن إثبات شيء من هذا لدى الشرطة، لكن الأمور نحت منحى خطيرًا، وقد حان وقت التخلي عن رسالتي؛ لأن القبور تعجّ بالشجعان كما يقولون، فلن يكسب أحد شيئًا من قبر جديد...

وهكذا اتجهت إلى المنزل حريصًا على أن أبقى فوق الإفريز قدر الإمكان، وأن أجد السير متجنبًا الحركة المنتظمة التي يصعب التنبؤ بها..

وصلت إلى البيت دون أحداث، ففتحت الباب ودخلت، ولم يكن ثمّة أحد في المدخل ولا قاعة الجلوس...

لاهثًا صعدت إلى حجرتي، وبدأت أحزم أشيائي.. استغرق الأمر نصف ساعة، وفي النهاية حملت الحقيبة الثقيلة مترنحًا ورحت أهبط في الدرج، محاذرًا أن أزل فيدق عنقي..

كان الباب الرئيسي موصدًا، فعالجت قفل (اللاتش) كي أفتحه لكنه أبى أن يتحرك..

غريب هذا.. أخرجت مفتاحي ودسسته في الثقب، فأبى أن يدخل.. جربت مرارًا يا (ريم) لكن لا جدوى..

وانتصب الشعر الباقي على جانبي رأسي رعبًا..

لقد بذل أحدهم قلب (الكالون)، ولم يعد لمفتاحي قيمة..

لا بأس.. كنت أتوقع تصرفًا كهذا.. ربما لم يفطنوا إلى أنني داخل المنزل ولست خارجه، وقاموا بالتبديل في هذه اللحظات..

لكني كنت أعرف الحقيقة..

هم يعرفون أنني داخل المنزل.. لابد أن يكونوا مصابين بالصمم كي لا يسمعوا الضجة التي أحدثتها منذ جئت..

هؤلاء القوم قد سجنوني هنا عامدين..

فلماذا؟

والسؤال الأخطر هنا هو: هل هم بداخل البيت الآن أم خارجه؟

☆ ☆ ☆

لأسباب أعتقد أنك تفهمينها يا (ريم)، قررت ألا أبدأ الصراخ كالحمقى، قائلًا إن هناك خطأ ما، وإن قفل الباب تغير، وإنني راغب في الرحيل..

قررت أن أعتمد على نفسي.. فما حك جلدك مثل ظفرك..

كانت هناك نافذة بالطابق الأرضي، لكنّها مدعمة بالحديد لأن المسز (بانكروفت) عجوز وحيدة، لابد أن يداهمها لص ويذبحها يومًا ما..

هناك المطبخ، وهو في مؤخرة المنزل، ويطل على شرفة جميلة تطل بدورها على حديقة مهندمة كانت العجوز تحبها كثيرًا.. الشرفة تقودها أربع درجات إلى الحديقة..

وهكذا تخليت عن الحقيبة العزيزة، ومشيت كالحنكليس - لا أعرف ما هو - نحو المطبخ، وأنا أتمنى ألا أجد العزيز (جيسون) يعد لنفسه بعض الشاي هناك.. أنا نفسي أفعل هذا في المطبخ الصغير بالطابق العلوي..

نظرت إلى المطبخ الفسيح فلم أر أحدًا.. كان هناك قط رمادي يرمقني في فضول، وأنا لا أذكر أن العجوز كان لديها قط، لكن هذا من حقها..

كان هناك سكين كبير براق بدا لي مغريًا، ثم عدلت عن حمله.. هكذا يبدأ الأمر بالبارانويا، ثم يستحيل عليَّ إقناع البوليس بقصتي.. ترى هل أستراليا تنفذ عقوبة الإعدام؟

لا داعي للسلاح.. إنّه يغري بالتهور والحلول العنيفة، بينما أنا فعلًا لست في خطر ملموس...

ثمة كعكة اقتطع ربعها على (رخامة) المطبخ، وثمّة طبق به بعض قطع اللحم التي بقيت من وجبة ما.. والثلاجة تئز كعادتها.. لكن لا يوجد بشر هنا..

ها هو ذا الباب.. أمد يدي إلى مقبضة وأديره.. لكنه لا يدور.. أرجه ردًا لا يستجيب..

إنهم لم ينسوا شيئًا إذن..

لكن الأمر لم ينته بعد..

الهاتف؟ ربما لو..

هنا سمعت صوت (ساندرا) تقول:

- «لا تتعب نفسك يا بروفسور.. لقد تأكدنا من كل الاحتمالات، ورتبنا كل شيء!»

☆ ☆ ☆

كانت واقفة عند باب المطبخ وقد استندت بظهرها إليه، في وضع (بروفيل) كان يمكن أن يكون فاتنًا في ظروف أخرى.. ولم تكن تنظر لي على الإطلاق..

وواصلت كلامها وأنا أرمقها في غباء:

- «قد أنذرتك لكنك ركبت رأسك.. والآن يجب أن تبقى معنا!»

قلت مرتبكًا:

- «عم تتكلمين؟ إن العشرين من الشهر لم يأت بعد..»

- «الاستعداد يبدأ من التاسع عشر..»

ثم نظرت إليَّ وقالت في حزم:

- «الآن عُد لغرفتك أرجوك، ولا تضطرني إلى استدعاء (جيسون)!»

لا.. ليس (جيسون) أرجوك!

سأكون طفلًا مهذبًا..

سأعود إلى غرفتي..

☆ ☆ ☆

٧ - علامات لها مغزاها..

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

☆ ☆ ☆

وفي حجرتي تمددت على الفراش أرمق السقف، والأفكار تدوي في ذهني كما يحدث في الأفلام السينمائية..

«يجب أن تقبلى يا سيدتي.. يجب..»

«أنا أنصحك ألا تقبلي.. هذا شيء لا مزاح فيه..»

«(ميدا).. هل هذا أنت؟»

«كيف يعرف هذان كل هذا عني؟»

«لا أحد يريدك هنا أيها الشاب..»

«مسز (بانكروووووفت)!»

طبعًا لعبت الأفكار دور العاديات اللاتي فرشن لي هراسًا به يُعلى فراشي ويقشب، كما يقول عمنا (النابغة الذبياني).. وهي صورة رائعة بالفعل.. تحول الفراش إلى أرض معادية كلها أوتاد ودبابيس، حتى صار من المستحيل أن أتظاهر بالاسترخاء..

نهضت من الفراش، وبحذر فتحت باب الحجرة..

لم يكن من أحد هناك..

مشيت في الممر أتأمل الغرفات على الجانبين.. كانت بعض الأبواب مفتوحة، وقد صار جليًا من الحقائب الموضوعة أو التي تبعثرت محتوياتها؛ أن كل واحد من الضيوف اتخذ غرفة لنفسه.. إنهم يحتاجون إلى خمس غرف، ولربما اتخذت الفتاة غرفة نوم مسز (بانكروفت)، ولربما نام الأخ (جيسون) في الحمام...

الفضول قتل القط.. لا أدري لماذا يعود هذا المثل إلى ذاكرتي أكثر من مرة هذه الأيام...

لم يكن هناك خطر ما، وبدا أنه ما من أحد يراني أو يشعر بي، فهم يتعاملون بثقة شديدة في النفس..

دنوت من أقرب غرفة، وكانت مفتوحة، وبحذر خطوت ثلاث أو أربع خطوات لأجد نفسي في وسطها.. جوار الفراش...

توجد حقيبة مفتوحة جوار الفراش، وقد فرغت من نصف ما كان بها.. من الواضح أنّ هذه حجرة رجل لا امرأة.. وهي مهندمة لا توحي بأن خنزيرًا سكنها.. إذن - بالاستبعاد - هي حجرة الرجل الوقور أول من جاء يطلب السكنى..

بيد باردة كالثلج رحت أقلب محتويات الحقيبة.. لا شيء إلا حقيبة رجل متأنق... قمصان تم كيها بعناية.. بعض العطور.. آلة حلاقة كهربية..

اتجهت إلى خزانة الثياب الجدارية ففتحتها، ولم يكن بها سوى بذلتين معلقتين وبضع قبعات..

عم تبحث يا (رفعت)؟ هل تتوقع أن تجد دمية غرست فيها الدبابيس، أو رءوس (تسانتسا) منكمشة، أو نجمة خماسية مرسومة على الأرض؟ لا يبدو أن الرجل من (أهل ذلك)، وحتّى إن كان من (أهل ذلك) فلن يضع هذا في غرفة مفتوحة...

اتجهت إلى الكومود بجوار الفراش وفتحته.. أصابتني دهشة عارمة لأنني وجدت في الدرج قلادة.. قلادة غريبة الشكل لم أر مثلها قط.. كانت لديَّ صورة فوتوغرافية لها يا (ريم) لكني أضعتها بعد كل هذه السنوات.. لا أعرف كيف أقرّب وصفها لك.. كانت تشبه بقعة من الدم المتجمد اللامع البراق.. كلا.. لم يكن هذا حجرًا كريمًا أعرفه.. والأغرب أنني حين لمستها شعرت بأنها فقدت الكثير من بريقها.. ربما كان هذا وهمًا..

وربما لم يكن...

وأنت تعرفين فضولي يا (ريم).. ببساطة دسست القلادة في جيبي لأدرسها فيما بعد..

حان وقت الرحيل الآن..

لقد كنت سعيد الحظ حتى هذه اللحظة، لكن موقفي سيكون غاية في العُسر لو عاد الرجل الآن..

لكن قدمي لم تطاوعاني..

ركعت بجوار الفراش، ونظرت تحته لأرى ما هنالك.. لم تكن ثمّة أحذية، لكني وجدت أداة غريبة الشكل.. هذه لديَّ صورتها ويمكنك أن تريها متى أردت.. إنها تشبه قلمًا طويلًا من الأبنوس، لكنّها ليست كذلك..

وكالعادة دسستها في جيبي..

الآن صار الرحيل ضروريًا، وهذه المرّة استجابت ساقاي..

☆ ☆ ☆

كانت غرفة أخرى مفتوحة، ومن جديد عاد الصراع بين الواجب والعاطفة كما في أفلام (توجو مزراحي) القديمة.. الصوت في مؤخرة عنقي يصرخ: بالله عليك! كُف عن هذا اللعب بالنار! أنت الذي لم يستطع أبدًا فهم لماذا تنزل بطلة الفيلم الحمقاء ليلًا إلى القبو المليء بتوابيت مصاصي الدماء..

فيجيب الصوت الآخر في مقدمة رأسي: إن نسمة واحدة لا تكفي لتحديد اتجاه الرياح، ونقطة واحدة لا تسمح برسم خط...

لابد من غرفة واحدة أخرى على الأقل!

وهكذا أدخل الغرفة، وأدرك من الجو الأنثوي العام فيها أنها غرفة الزوجة الحسناء.. (ساندرا) لا تقيم هنا... ومن الواضح أن الزوجين يقيمان منفصلين..

كان أول ما فعلت هو أن جثوت لأنظر تحت الفراش، وبالفعل وجدت القلم الأبنوسي إياه.. هذه علامة مهمّة إذن.. ولها مغزاها بالنسبة لهم..

فتحت درج الكومود بحثًا عن القلادة فلم أجدها.. فتشت الحجرة فلم أجد شيئًا غريبًا.. هذا خدر سيدة لا أكثر ولا أقل... وإن لاحظت أن الغرفتين كانتا منسقتين أكثر من اللازم والأسرة مرتبة

بعناية، كأنما لم ينم فيها أحد..

أمّا وقد اكتفيت، فقد فررت من المكان فرارًا، ولم أجرؤ على تجربة حجرة ثالثة.. فقد صبر الحظ عليَّ طويلًا وكان مجاملًا، لكنه لن يظل يجاملني إلى الأبد..

وكنت على حق، لأنني إذ دخلت حجرتي سمعت صوت أحدهم يصعد في الدرج.. ولو تأخرت ثانية لرآني..

حمدا لله!

☆ ☆ ☆

في غرفتي أغلقت الباب يا (ريم)، ثم جلست على المنضدة أتأمل الأثرين العجيبين اللذين ظفرت بهما، ثم أخرجت الكاميرا وزودتها بعدسة مناسبة، والتقطت بعض الصور..

القلادة لم تكن لها صفة خاصة.. لم تكن ثمّة كتابة على ظهرها ولا علامة تدلّ على أين صنعت.. لكني لاحظت لها خاصية غريبة هي - كما قلت - أنها تتوهج حين أتركها وتنطفئ حين ألمسها.. وعلى سبيل التجربة وضعتها حول عنقي، وتأملت منظري في المرأة.. أبدو غريبًا بحق...

أما الأداة التي تشبه عصا أبنوسية، فكانت ثقيلة الوزن. واضح أنها من معدن لا أعرفه.. معدن له ملمس خشب الأبنوس.. وقد رحت أديرها بين أناملي بحثًا عن شيء قابل للفتح فلم أجد..

هنا خطر لي أن أحتفظ بالقلادة تحت قميصي، وأداري العصا في جيبي.. ثمّة شعور يقول لي إن هذه الأشياء مفيدة..

والآن ماذا أفعل؟

يمكنني محاولة الهبوط من نافذة حجرتي.. لكني لا أملك هذا القدر من الرشاقة، وفي الغالب سأدق عنقي.. في السينما يربطون ملاءات السرير على شكل حبل يتدلون به، ولم أفهم قط من أين يأتون بكل هذا العدد من الملاءات؟

الهاتف؟

ليسوا بهذه البلاهة، لكن بوسعي أن أجرب..

وهكذا يا (ريم) يهبط الكهل النشيط (رفعت) إلى الطابق الأرضي، ويتجه إلى الهاتف.. أين ذهبوا؟ مستحيل أن يكونوا قد غادروا المنزل، وأنا أعرف أنّ هناك على الأقل واحدًا في غرفته الآن..

ليكن.. سأجرب حتى أسمع صوت من ينصحني بعدم المحاولة أكثر..

هذا هو الهاتف.. كتلة من الإغراء البلاستيكي الصارخ.. يعني بالخروج من هنا.. ربما يعدني بمصر أيضًا..

ورفعت السماعة..

كلا.. لم يكن ميتًا.. لكنه كان يصدر أصواتًا غريبة.. كأن أناسًا يتكلمون بلا انقطاع ودون أن يسمع أحدهم الآخر، وبأغرب لغة يمكن سماعها.. لغة فيها الكثير من حروف الطقطقة والتجشؤ... كأنما هذان هما الحرفان التاسع والعشرون والثلاثون في الأبجدية.. ولكن أية أبجدية هذه؟

ضغطت على الزر مرارًا عل الضوضاء تنتهي، لكن بلا جدوى.. صحت (هاللو) عدة مرات، لكن أحدًا لم يسمعني..

وضعت السماعة في قنوط.. لا بأس.. لست بالسذاجة كي أتوقع أن تتم المهمة بهذه البساطة..

☆ ☆ ☆

كان الصوت مستمرًا، لكنه أكثر وهنًا.

فطنت لهذا، وفطنت إلى أنه آت من القبو..

قبو المنزل رقم (5)، وقد دخلته مرّتين لأساعد مسز (بانكروفت) في شيء ما.. كان قبوًا عاديًا به بعض الحقائب الفارغة، وطن من المهملات على غرار (جراموفون) قديم، ومانيكان للتفصيل، وجرائد لا حصر لها..

لكن الصوت كان آتيًا من هناك..

وفطنت ـ في دهشة ـ إلى أنه ذات الصوت الذي سمعته من الهاتف.. كما فطنت إلى أن الشعر على ساعدي قد انتصب، كما يحدث لفراء القطة الذي تدلكه حتى تملأه الكهربية الإستاتيكية..

هذا المكان مشحون بالإستاتيكية، ولا بد أنّ هناك مجالًا مغناطيسيًا لا بأس به، لأن رأسي يطن وأشعر بأنني موشك على القئ.. نفس الشعور الذي شعرت به حين مررت بتجربة أشعة الرنين المغناطيسي[1] منذ أعوام.. أنت تعرفين هذه القصة يا (ريم)، وهي سر بيننا كما اتفقنا..

ماذا يفعل هؤلاء القوم تحت؟

يمكنني أن أذهب لأرى، لكني غالبًا لن أعود..

هؤلاء القوم ليسوا على ما يرام، وليسوا ملائكة..

أعرف هذا.. أشعر به...

☆ ☆ ☆

٨ - أنت دخيل!

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

☆ ☆ ☆

سؤال سخيف بلا معنى طبعًا.. فلو كان المنزل يحمل رقم (6) أو رقم (7) لبدا الأمر غريبًا بنفس القدر.. يجب أن يكون السؤال هو: ماذا يحدث هنا؟!

☆ ☆ ☆

عند منتصف الليل سمعت قرعات على بابي، وسمعت (ساندرا) تقول في تهذيب:

- «د. (رفعت).. هل أنت نائم؟»

- «وكيف أكون؟»

- «إذن.. أنا بانتظارك.. نحن بحاجة إليك في قاعة الجلوس من أجل موضوع مهم..»

نهضت من الفراش، وارتديت ثيابًا مناسبة، ووضعت ذات السترة التي تحوي كنوزي على كتفي.. ثم خرجت لها..

كانت شاحبة مرهقة، ترتدي ثيابًا بسيطة مجعدة.. وقلت لها وأنا أدس ذراعي الأيسر في الكم:

- «هل حان الوقت؟ هل ستقتادونني إلى الفناء الخلفي لإنهاء الأمر؟»

لم يبدُ عليها الفهم ولا الاستعداد للمزاح بسبب الإرهاق الشديد وقطبت وجهها بما معناه (عم تتحدّث بالضبط؟)، فقلت:

- «أعني أن الوقت قد حان لتفجير رأسي..»

قالت في فتور:

- «دعك من السخف واتبعني..»

مشيت وراءها متوجسًا، حتى وصلنا إلى الطابق السفلي حيث دخلت قاعة الجلوس، وكان الجميع هناك.. أسرة كبيرة واحدة سعيدة كما يقول الأمريكان.. كان دخان التبغ متجمدًا في الهواء، بينما كان الميجور يقف وسط القاعة ويداه مشتبكتان خلف ظهره كأنه (ولنجتون) يراقب معركة (ووترلو) أمّا الزوجان فجلسا متعانقي الكفين يرمقاني في اهتمام..

قال الميجور:

- «د. (إسماعيل).. ما زلنا نجد عسرًا في تصديق أنك منا.. وعليك إثبات العكس!»

كان هذا آخر ما توقعت سماعه.. توقعت طلقة مسدس في رأسي، أو أن يقيدوني ويضعوني في قدر ماء يغلي كي أكون عشاءهم.. كل شيء إلا هذا..

قلت في كياسة:

- «لماذا أحاول إثبات ما لم أزعمه قط؟»

صاح الزوج الوسيم في انتصار:

- «هذا هو ما قلته مرارًا.. ليس هو.. صدقوني.. يجب الخلاص منه الآن!»

قال (جيسون) الذي جلس أمام المدفأة كثور المسك، وهو يداعب عضلات صدره المخيفة:

- «لكنني أظن انه هو..»

وقال الميجور وهو يعتصر شاربه:

- «أنا أيضًا أحسبه هو..»

- «كفاكم سخفًا!»

قالتها الفتاة في حنق، وراحت تدور حولي كأنما تنوي شراء سيارة، وقالت:

- «ليس هو.. لا بد أن العمى أصابكم..»

هنا فقط دق جرس في ذاكرتي..

☆ ☆ ☆

«(ميدا).. هل هذا أنت؟»

☆ ☆ ☆

لقد كان من الواضح أكثر من مرة أن شكلي أصابهم بنوع من الارتباك.. الزوجان تناقشا بصددي، و(جيسون) حسبني من يُدعى (ميدا) لكنه لم يستطع التأكد..

إن لي شكلًا عجيبًا يذكّر كل الناس بشيء ما، وذات مرة رأى (كولبي) الساحر اليهودي أنني أشبه (إدجار آلان بو)، بينما رأى (جيسون) أنني (ميدا)...

هل أزعم أنني (ميدا) هذا؟ لا فرصة لديَّ لأنني لا أعرف حرفًا عنه، ولا أعرف إن كان شيطانًا أم إنسيًا..

قال الميجور بلهجة حكيمة:

- «تذكروا النبوءة: كلهم يعود حتى لو نسي أنه منكم.. ربما كان هذا هو (ميدا) وهو لا يعرف ذلك..»

قال (جيسون) وهو يكور قبضته:

- «إن نداء المنزل أقوى من الإرادة.. إنّه يلعب دور ذات الغريزة التي تحكم هجرة الطيور..»

هنا صاح الرجل الوقور نافد الصبر:

- «كفى سخفًا! إذن ما الذي يدلنا على أنه منا وليس مجرد عابر سبيل؟ لا تتركوا الأمور عائمة إلى هذا الحد..»

قال (جيسون) في ثبات:

- «الأمر سهل.. لو كان هذا هو (ميدا) - حتى لو نسي أنه منكم - فلسوف يكون معه سلاح (في).. ولسوف يحمل القلادة.. هكذا تقول النبوءة..»

واتجه نحوي دون استئذان، ومد كفيه ليمزق صدر القميص.. ثم مد يده في جيب سترتي، وأطلق صرخة انتصار، ولوَّح بالأداة المعدنية الغامضة..

- «آهاه! إنّه هو!»

وعلى الفور تصلبت العيون على وجهي، وللمرة الأولى شاعت في الوجوه ابتسامة ودية.. حتى (ساندرا) الشيطانية لم تملك نفسها من الانبهار، وراح صدرها يعلو ويهبط انفعالًا..

☆ ☆ ☆

كان عقلي يعمل بسرعة دوران الإلكترونات حول نواة الذرة.. ورسمت على وجهي علامات البلاهة والارتباك.. لا بأس.. فهم يتوقعون هذا..

لقد لعبت الأقدار لعبة غير عادية معي، والشيئان اللذان قمت بسرقتهما هما الدليل الوحيد على أنني منهم...

إنهم حمقى بالتأكيد.. إن (ساندرا) والرجل الوقور كانا أذكى الستة، وكانا محقين في شكوكهما، لكنهما انضما الآن إلى معسكر المؤمنين بأنني (ميدا)..

حظ حسن.. لكن هل يستمر؟

☆ ☆ ☆

قال الميجور في رضا:

- «ونحن كدنا نقتله! إن الأقدار تحميه حتى النهاية.. لقد فر من سيارة (كالا)، ولم تصبه رصاصات (مور).. كنا سنقتل أخًا..»

قال (جيسون) بلهجة من لا يريد أن يبعده اللّهو عن الموضوع الرئيسي:

- «بهذه المناسبة؛ اقترح أن يجيء كل واحد منا بقلادته وسلاح (في) الخاص به.. نحن نعرف بعضنا، لكن لا نريد أن يندس أحد.. إن الثقة غير مطلوبة في هذه الأمور..»

وافق الجميع استحسانًا للفكرة، وبعد ثانيتين وجدت نفسي أقف وحيدًا في القاعة لا أعرف ما أفعله بنفسي، وأحاول أن أضم القميص الممزق إلى صدري..

بعد دقيقة عاد الجميع.. وراح كل منهم يتقدم إلى الأمام، ويلوح بأشياء..

- «أنا الضابطة (أورا).. هذه هي قلادتي، وهذا هو سلاح (في).. فلتكتمل دورتك أيها الجاكون الأعظم..»

- «أنا الضابط (مور).. هذه هي قلادتي، وهذا هو سلاح (في).. فلتكتمل دورتك أيها الجاكون الأعظم..»

- «أنا الكومار (شير).. هذه هي...»

حتى جاء دور الرجل الوقور، الذي لم يكن يملك هذه الأشياء طبعًا.. تقدم للأمام، ووجهه شاحب كالموتى، وقال:

- «أنا.. أنا.. لم أجد قلادتي ولا.. لا أفهم..»

نظر الجميع له في شك، وهتف (جيسون) كالثيران لو أنّ هذه تهتف:

- «ألا ترى بعض الغرابة في هذا؟»

صاح الوقور موشكًا على البكاء:

- «أقسم إنني لا أدري كيف.. كانا في غرفتي.. ثم..»

ثم نظر إليَّ في هستيريا، وأشار بإصبع ترتجف:

- «هذا! هذا هو من سرقهما!»

قالت (ساندرا) - التي اتضح أنها الضابطة (أورا) - في تحد:

- «لا أحد يفقد القلادة ما لم يكن ميتًا.. الأسهل أن تقول إنها لم تكن لديك من البداية!»

- «لقد سرقها مني! أنا الكومار (فور).. كلكم يعرفني!»

- «كذلك كلنا نعرف (ميدا).. هو قد أثبت شخصيته، فماذا تفعل أنت؟»

صاح (جيسون) - الذي اتضح أنه الضابط (مور) - وهو يعتصر سلاحه:

- «كفى مزاحًا! لوكنت أنت (فور) وفقدت سلاحك، فمن الخير لك أن...»

ولم أدر ما حدث..

لم أفهمه حتى وجدت الدم يسيل من عيني الوقور وفمه وأذنيه، ثم بدأت فقاقيع تحتشد تحت جلده وتنفجر.. وهنا فقط فهمت.. هذا الرجل يذوب بالمعنى الحرفي للكلمة..

الرجل الذي كان الكومار (فور) يذوب.. يذوب أنا الوحيد الذي يعرف أنه كان صادقًا..

رحت أرتجف كورقة وأنا أرمق ما كان ينتظرني، لو لم آت بالقلادة معي.. حمدًا لله!

أخيرًا صارت سجادة القاعة ملوثة ببقعة لزجة هي خليط من دم ودهن ومادة كالشمع لا أدري ما هي..

قال الميجور كأنما لم يحدث شيء:

- «دخيل! لقد تحدّثت النبوءة عنهم كثيرًا: ومنهم دخلاء ليسوا من بينكم، لكنكم تنخدعون فيهم، حتى الموعد..»

الحقيقة أن النبوءة صادقة جدًا.. لكن الخلاف كان بالنسبة للشخص المعني.. وإلى متى يظل سرّي آمنًا؟

يا له من مأزق!

☆ ☆ ☆

٩ - أنت منا!

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

☆ ☆ ☆

وضعت قرص النيتروجلسرين العزيز تحت لساني، وانتظرت حتى بدأ الصداع والدوار ثم بصقته.. أنت تعرفين حالة قلبي يا (ريم).. لقد كان بالضعف ذاته في هذا الوقت.. لم يكن قط سليمًا على قدر ما أذكر..

لم يلحظ أحدهم ما فعلت، وقال الميجور في مودة:

- «أنت منا يا (ميدا) حتى لو لم تعرف هذا.»

وقال الزوج وهو يعود للأريكة:

- «ما كان قدومك إلى هذا المنزل بالذات صدفة.. لقد كان نداء خفيًّا لم تسمع أذناك مثله، كالذي يهدي الطيور المهاجرة إلى اتجاهها، أو كالذي يحرك إبرة البوصلة.. ولأسباب مماثلة قبلت العجوز ضيافتك برغم أنها رفضت الكثيرين منا.. كنت أنت أول من لبى النداء، ومن سخرية الأقدار أنك كنت الوحيد الذي نسي أنه منا».

قالت (ساندرا) في حنان:

- «لكنه سيتذكر.. ما إن يبقى معنا قليلًا سيتذكر..»

كانوا حمقى.. ولو كنت زعيمهم لأمرت برميهم بالرصاص، فهذا خطأ فادح لا يتكرر كثيرًا، لكنه من حسن حظي، ولولاه لكنت بقعة دهن تلوث السجادة، إلى أن تجد المغسلة مستحضرًا مناسبًا لإزالتي... قلت لهم بصوت مبحوح:

- «بعد هذا كله.. هل تسمحون لي بالاعتكاف في حجرتي؟»

قال الميجور في مرح، وهو يتحسس شاربه الكث:

- «طبعًا.. لكن تذكر أن موعدنا عند منتصف الليل.. أي أن أمامنا أقل من أربع وعشرين ساعة.. سنتجمع هنا في العاشرة صباحًا كي يحدد كل منا تفاصيل (الإكلوس)..»

هززت رأسي، ولممت القميص الممزق على صدري العظمي، وصعدت في الدرج محاولًا أن أبدو أكثر.. لا.. لا داعي للتظاهر بأنني طبيعي.. فهم جميعًا يتوقعون أن أكون مرتبكًا..

سيناقشون تفاصيل (الإكلوس) في العاشرة صباحًا.. يجب أن أكون هناك.. وأتمنى أن يكون نسياني مبررًا كافيًا لكوني لا أعرف كنه هذا (الإكلوس)...

☆ ☆ ☆

من هم؟

كل شيء يوحي بأنهم جماعة سرية ما أو كائنات لا أعرف كنهها.. ومن الواضح أن اليوم العشرين من مارس - الذي بدأ منذ ساعتين - يمثل أهميّة عظمى لهم.. دينيّة أو وطنية.. ويبدو أنهم مكلفون بالاحتشاد هنا من بقاع الأرض في هذا اليوم بالذات، وهي مهمّة يمكن أن يقتلوا من أجلها..

يمكنني كذلك القول إنهم لا يحبون بعضهم كثيرًا، ولا يهم الواحد منهم أن يساعد الآخرين على الوصول ها هنا.. لقد بدا واضحًا أن الميجور لم يكن متحمسًا لدخول الرجل الوقور المنزل، كما أنّ الزوجين أنذرا العجوز من أحدهم حين عرضا عليها صورة فوتوغرافية له..

من أين جاءوا؟

للأسف لا توجد سوى إجابة واحدة.. القلادة الغريبة والسلاح المصنوع من معدن لا وجود له على الأرض؛ كلها أشياء ليس لها إلا معنى واحد: هؤلاء غرباء... هؤلاء ليسوا من عالمنا.. ربما ليسوا من أرضنا أو ليسوا من مجرتنا كذلك..

ورحت أتفحص سلاح (في) الذي تكلموا عنه.. ربما صار ذا عون لي للدفاع عن نفسي.. كما قلت هو غير مزود بأي زناد أو شيء يُفتح ويُغلق.. لقد رأيت (جيسون) يضغط عليه لكن شيئًا لم يخرج منه.. هل هذا كل شيء؟ هل أشعته غير مرئية؟ أم أنّ هناك أسلوبًا ما لا أفهمه؟

أمسكته واعتصرته بقوّة..

هنا شعرت كأن نارًا تلتهب في جسمي كله، وكان سيخًا محميًا انغرس في أحشائي وراح يعبث هنا وهناك..

كان الألم مفزعًا إلى حد أنني تخليت عن حمل السلاح، وعلى الفور عادت الأمور تستقر..

ما معنى هذا؟

إذن لماذا لم يؤثر السلاح في (جيسون)، ولم يؤثر فيَّ حين جربته أول مرة؟ آه! السبب أنني نزعت القلادة عن عنقي الآن.. وهذه القلادة كما هو واضح تلعب دور الدرع الواقية من سلاح

(في).. الرجل الوقور لم يكن يرتديها حين ذاب، بينما كنا جميعًا نضعها حول أعناقنا.. هذه القلادة تلعب لعبة قذرة إذن.. من لا يضعني حول عنقه ليس منا.. ومن ليس منا جزاؤه الموت..

الدرس الأهم الذي تعلمته الآن هو ألا أنزع هذه القلادة عن عنقي أبدًا.. الدرس الثاني هو: إذا أردت قتل هؤلاء القوم فعليك بنزع قلاداتهم، وهو كلام نظري سهل.. إذ كيف ينزع المرء القلادة من حول عنق (جيسون) الغليظ؟ هذا إن كان له عنق أصلًا..

لقد كان الرجل الوقور مهملًا بحق، وأحسبه قد استحق الموت بلا شك..

طرقات على الباب.. طبعًا ستكون (ساندرا)..

☆ ☆ ☆

- «ادخل!»

انفتح الباب وظهرت وهي تبتسم في صفاء:

- «أراك لم تنم يا (ميدا)؟»

- «كما ترين..»

كنت أرتدي منامتي، وشعرت بخجل شديد، لأنّه ما من أنثى غير المرحومة أمي رأتني في هذا المظهر.. لكنّها لم تخجل.. وقفت في منتصف الغرفة وعقدت كفيها على ردفيها، وقالت:

- «كنت أتساءل: كيف شككت في أمرك لحظة؟ الحق أنني أذكرك أبهى طلعة وأرق حاشية..»

لن أجد منأى من السخرية أبدًا، حتى مع هذه الفتاة الفضائية ذات العينين المثقوبتين.. قلت لها في مرارة:

- «إن للحياة تصاريفها..»

- «وكنت أسأل نفسي: كيف لم يتعرفك قلبي؟»

آه ه ه ه! إنها قصة حب إذن، وهذه الفتاة مغرمة بالأخ (ميدا).. لكنّها لا تعرف كم كان قلبها صادقًا.. ولكن ذوقها غريب بحق، فأنا ـ بلا فخر ـ أقبح الموجدين هنا.. ربما أسوأ من الميجور و(جيسون) بمراحل..

هنا أجابت الفتاة عن السؤال:

- «صحيح أنك اخترت لنفسك أقبح الأقنعة... وزعمت أنّ هذا بغرض التمويه، لكنني أذكر أن قناعك كان أجمل من هذا بكثير!»

- «لا بأس سأعمل على إصلاحه!»

- «لا داعي.. لأنك ستتحرر منه اليوم إلى الأبد!»

مفهوم.. مفهوم.. لكن هناك سؤالًا مهمًا: لماذا يتكلم هؤلاء القوم اللغة (الأسترالية) حتى فيما بينهم؟ المفترض أن يعودوا إلى طبيعتهم ويتكلموا لغتهم.. لغتهم الشبيهة بما سمعت من الهاتف منذ ساعات...

قلت لها في جرأة:

- «لماذا تتكلمين الإنجليزية!»

اتسعت عيناها دهشة، وقالت:

- «عسى ألا تكون نسيت هذا أيضًا.. إن قسم الجاكون الأعظم يرغمنا على الكلام فيما بيننا بالإنجليزية، تحت طائلة الموت.. لا يجب أن يبدر منا خطأ يثير الشكوك»

ثم أردفت باسمة:

- «بالطبع لم تنس لغتنا..»

بدبلوماسية قلت:

- «لست واثقًا.. سأعرف هذا في نهاية اليوم..»

ثم إن وجهها تبدّل ليكتسب رقة مزعجة أثارت القلق في صدري.. هذه الفتاة تحب (ميدا) بحق، ولتكونن هذه هي النقطة التي تخرب بيتي..

قالت وهي تحتفظ برقة الابتسامة:

- «ألم أزر أحلامك قط طيلة هذه الأعوام؟»

ابتسمت في خبث، كما يليق بـ (ميدا) أن يفعل، وقلت:

- «كثيرًا.. لكني لم أكن أعرف أن لك وجودًا حقيقيًا..»

دنت مني أكثر، وقالت وهي تتأمل ملامحي:

- «يا للغرابة! لكم تبلى هذه الأقنعة بسرعة! لا أذكر أن الوجه الذي اتخذته كان يحمل هذه التجاعيد..»

- «إنها عوامل التعرية.. الشمس والهواء.. هذه الأشياء تحدث..»

دنت أكثر وأراحت رأسها على كتفي، وقالت:

- «عندما أفكر في أنني قابلت (ميدا) ولم أعرفه.. أوشك على قتل نفسي..»

كنت أنا في أسوأ حال ممكن.. فقد كانت لشعرها رائحة غريبة كيماوية أثارت الرعب في عروقي، ثم إن وضعها هذا جعلها أدني لاكتشاف حقيقتي.. دعك من أنني لست من سعة الصدر بحيث أترك كل كائن فضائي غريب يستريح على كتفي!

وهمسًا قالت:

- «تذكر جيدًا.. تذكر.. الليلة التي مشينا فيها تحت أقمار (فراما) السبعة واقتطفت لي أوراق (الزنكيل).. أو حينما صارعت (البوركا) من أجلي، وقتلت (هلبراد) في المبارزة المقدسة..

«كنت أنت أشجع الفرسان، وكنت لي وحدي.. واليوم ألقاك هنا فلا أعرفك ولا تعرفني.. بل إنني أنذرتك من البقاء في البيت حتى العشرين من مارس.. تصور هذا!»

سعلت بمعنى أنني أضحك سخرية، ولم أقل شيئًا، فقالت هي بنفس النبرة الحالمة:

- «هل تذكر مجلس جاكون الأعظم؟ لقد صممت على أن أكون معك، حتى إذا تلاشت ذراتنا اختلطت الطاقتان معًا للأبد، وعندها نصير نجمين من نجوم (آركا) الخالدة التي كنا نرمقها معًا..»

الغريب أن كلامها جعلني أشعر بدوار حقيقي...

لم لا يكون كلامها صحيحًا وأكون أنا واحدًا منهم؟ لم لا تكون حياتي كلها كانت وهمًا.. مجرد قناع استترت وراءه بينما أنا (ميدا) الذي لا يُقهر؟

ورفعت عينيها المثقوبتين نحوي، وهمست:

- «هل ترى عينيَّ؟ هل تذكرهما؟ كنت تحبهما كثيرًا، وإنني لأتساءل عما إذا كنت تذكر؟»

الخدر يتسلل إلى جسدي ببطء، وأشعر بأن أبخرة من العطر تحيط بي وتحملني إلى آفاق لم يرها بشر..

هل أنا هو أنا حقًّا؟ ما الذي يثبت هذا؟ ربما أنا هو (هو)؟

ابتعدت عني قليلًا، وفي دلال همست:

- «سأريك شيئًا جميلًا.. أصبر لحظة.. أغلق عينيك حتى لا ترى..»

أغمضت عيني وأنا أتساءل عن الكارثة القادمة.. السؤال المحرج التالي الذي سيجعلها تشك في أمري..

صاحت في حماس بعد هنيهة:

- «والآن أفتح عينيك!»

☆ ☆ ☆

فتحت عيني في توجس لأرمقها..

ثمة شيء غريب في وجهها آثار قلقي.. ثم أثار هلعي حين تبينته.. لقد انتزعت عينيها! نعم.. لا مزاح هناك! لقد انتزعت كرتى عينيها من المحجرين بما يحيط بهما من جفنين ومكان التجويف كان ظلام دامس يتحرك فيه ضوء أحمر شرير يفتش هنا وهناك!

وفي يديها كانت كرتا العينين، وأدركت على الفور أنهما صناعيتان، وأن الجفنين من مادة كاللدائن..

قالت وهي تحدق في وجهي بفجوتيها المخيفتين:

- «الآن يُمكنك أن تتذكر عيني من دون هذا القناع البشع!»

ثم بدلال أضافت:

- «هل أنت سعيد؟ ليس من السهل أن أعيد كل شيء إلى موضعه لأن عليّ أن أداري كل هذا بالمساحيق وكريم الأساس.. لكنك تستحق هذه المجاملة!»

فتاة بلا عينين تقف على بعد متر مني وتتكلم يا (ريم)..

هذا ليس حقيقيًا.. إنّه كابوس...

الآن صار قلبي يعمل بمزاجه الخاص، وصار له إيقاع محبب يذكرك بمواويل (عبد المطلب).. وبدأت بقعة سوداء محاطة بحواش صفراء تظهر في مجال إبصاري.. إنّه الإغماء آت ولا ريب.. لكن.. يجب.. أن.. أقاوم..

وسمعت الفتاة من مكان ما تقول:

- «والآن عليك أن ترد لي المجاملة، وتنتزع هاتين العينين البشريتين من أجلى! من أجلي أنا!»

☆ ☆ ☆

١٠. الحقيقة كلها (تقريبًا)..

بدأت أترنح.. حقًّا كنت الآن أجاهد كي أظل على قدمي، بينما صوتها من وراء الضباب يهتف:

- «(ميدا)! ماذا دهاك يا حبيبي؟»

وهويت في هاوية سوداء لا ينيرها إلا ضوء أحمر شرير جشع، يتحرك بلا هوادة في كل صوب..

وبارادة حديدية لم أدر أنها عندي؛ انتزعت نفسي ثانية.. لا أريد أن أفقد الوعي وأتركها تتحسس وجهي، لتدرك أنه وجه حقيقي وليس قناعًا.. لن أتركها تحاول بأظفارها انتزاع عيني..

تحاملت على نفسي وهمس:

- «نعم.. نعم.. أتذكر عينيك.. لكن هذا أجمل من أن يكون حقيقيًا.. أشعر بدوار..»

بحنان سألتني:

- «هل تريد أن أتركك الآن؟»

- «نعم.. نعم.. بعض النوم قد يفيدني..»

- «وفي الصباح ستريني وجهك الجميل؟»

- «بالتأكيد.. بالتأكيد..»

ولا أدري متى خرجت وأطفأت النور، تاركة إياي وحدي على الفراش في الظلام، أعلو وأهبط...

أمشي تحت أقمار (فراما) السبعة.. أصارع (البوركا) ثم أغدو نجمًا من نجوم (آركا) الخالدة، رمزًا للحب الذي لا يموت..

من يدري؟ ربما أقطف بعض أوراق (الزنكيل) أيضًا.. إن كل شيء صار ممكنًا في هذه الأيام!

سترى وجهي الجميل صباحًا.. لا بأس.. ثمّة احتمال لا بأس به أن ألقى ربي في الساعات القليلة الباقية على العاشرة صباحًا.. وعندها أكون قد استرحت وأرحت...

☆ ☆ ☆

في الصباح اتجهت مترنحًا إلى قاعة الجلوس، وكان الخمسة هناك يرشفون الشاي والكعك بالزنجبيل الذي صنعته مسز (بانكروفت) لنفسها.. لا أدري لماذا لا أفكر فيها الآن إلا بصيغة (المرحومة).. لا أعتقد أنها ماتت، لكنّها صارت بعيدة جدًا الآن عن هذا العالم...

قال الميجور بطريقته العسكرية الحاسمة:

- «لعلك نعمت بليلة طيبة أيها الشاب..»

قلت بسخرية لم يلحظوها:

- «جدًّا.. ولعلكم لم تناقشوا ترتيبات (الإكلوس) بعد؟»

قال وهو يمسك ببعض الأوراق:

- «كنا ننتظرك.. ولكن (الإكلوس) لا يمكن أن يناقش إلا بلغتنا، فهل تستطيع المتابعة؟»

- «لا أظن..»

- «ليكن.. يمكننا أن نعمل كخمسة.. والآن بالسلطة المخولة لي باعتباري (جود) أعظم؛ فإنني أعفيكم من الكلام بالإنجليزية لمدّة ربع ساعة.. فلنبدأ..»

(الإكلوس)!

لمدة ربع ساعة دارت مناقشة محتدمة حول (الإكلوس) بلغة غريبة يصعب عليَّ مجرد وصف أصواتها.. كما قلت آنفًا كان هناك كثير من التجشؤ والطقطقة، وذلك الصوت الخاص الذي كان الخواجة (بيجو) يحاول جاهدًا كتابته على الورق، في أحد أفلام (إسماعيل يس) الشهيرة.. لابد أن أبجدية هؤلاء القوم تربو على الخمسين حرفًا...

كان لـ (ساندرا) أطول باع في المناقشة، وكانت قد أعادت عينيها الزائغتين إلى موضعهما.. حقًّا لم أفهم كنه (الإكلوس) لكني خمنت أنه مجموعة من التعليمات يكلّف بها كل واحد من الموجودين... وعليه أن يستظهرها وينفذها بدقة.. بل إن الموقف بدا الى كرجال الكوماندوز الملتفين حول زعيمهم، وهو يعطيهم التعليمات الأخيرة قبل أن يتفرقوا..

مر ربع ساعة يا (ريم) ثم صاح الميجور:

- «كفى! الآن نعود إلى الإنجليزية، ولن ينتهي الخطر إلا في التاسعة مساء بتوقيت الأرض..»

نظرت لي (ساندرا) في مرح، وقالت:

- «للأسف لدي طن من الأعمال على عاتقي، فلا وقت لديَّ كي أجعلك تبر بوعدك.. لكنك لن تهرب مني!»

قلت صادقًا:

- «لن أهرب.. عسير أن أهرب منك.. ولكن ماذا سيتم في التاسعة بالضبط؟»

- «سنعود يا حبيبي! ألم تشتق إلى الوطن؟»

- «بلى! بلى! ولكن.. كيف؟»

- «تعال معي وسأشرح لك..»

☆ ☆ ☆

أظلمت (ساندرا) - أو الضابطة (أورا) - غرفة نومها، وأسدلت الستائر، ثم أخرجت سلاح (في) من جيبها.. وسألتني مستوثقة:

- «لعلك لم تنس ارتداء القلادة.. حسن! إذن راقب الجدار وسترى تاريخ رحلتنا..»

فهمت على الفور أن سلاح (في) يُستعمل لعدة أغراض، كسكين الجيش السويسري بالضبط.. إنّه يصلح لإذابة الناس كما يصلح كجهاز إسقاط صور جداري.. لو كان يصلح لتسليك الأسنان التي انحشرت بينها قطع اللحم؛ فهو الإتقان ذاته..

وعلى الحائط الذي صار شاشة بدأت صورة مبهمة لا أدري كنهها تتكون..

لكن الفتاة لم تبد راضية عن هذا، وراحت تقلب سلاح (في) في كفها، وتطقطق بلسانها بما يعني أن الأمور ليست على ما يُرام.. واضح أنّ هذه الأجهزة تفسد ككل شيء آخر..

أخيرا وبعد جهد قالت:

- «لقد نفدت الشاحنة البيولوجية.. ليكن.. الأمر باختصار هو أننا جئنا هذا الكوكب عام ١٨٨٤ بتاريخهم.. وقد تفرقنا ليعيش كل منا حياته ويدرس طبائع الكائنات، على أن نلتقي ثانية بعد عام من أعوامنا.. وبعبارة أدق: بعد ما يقرب من مائة عام من أعوامهم هنا.. والموعد المحدد للرحيل هو العشرون من مارس بتوقيتهم.. هنا..

«أنا جربت الكثير في مائة عام.. عملت معلمة، ثم تزوجت وفررت إلى مدينة أخرى كي أكون طبيبة، وبعدما تزوجت فررت إلى بلد تدعى (ألمانيا) حيث جربت أن أكون مهندسة.. ولقد تنقلت بين عشرات المهن في عشرات البلدان...

أشياء كثيرة يمكن عملها في عام واحد من أعوامنا هنا..

«لم أنس من أنا قط.. لكن كنت مطمئنة إلى أنني لو نسيت سأجد نداء خفيًّا يدعوني إلى (سيدني).. إلى المنزل رقم (5) قبل مجيء العشرين من مارس عام ١٩٧٣..

«إن النبوءة صادقة: حتى لو نسيت سأعود... وحتى لو نسيت فلن أنزع القلادة أو أفقد سلاح (في)..»

سألتها وأنا أسترجع خيوط القصة كلها:

- «لماذا أشعر أنكم لا تحملون مودة بالغة بين بعضكم للبعض؟»

- «لأن العائد سيكون بطلًا ولسوف ينضم إلى المجلس.. ونحن لا نرغب في أن يعود (جيسون) معنا، كما أنّ (الجود) لم يكن يرغب في عودة الكومار (فور).. وما دام من كان معنا أمس وهلك لم يكن هو (فور)؛ فإنني أعتقد أن (فور) لن يستطيع اللحاق بنا.. وثمّة اثنان آخران لم يلحقا بنا بعد..»

- «ومصير هؤلاء؟»

- «سيظلون هنا للأبد.. سيظلون طويلًا إلى أن يموتوا بعد مائة عام من أعوامنا..»

- «أي عشرة آلاف عام أرضي؟!»

- «بالضبط.. أعتقد أن الأمور صارت أوضح لك الآن، وثق بأنك ستسترجع ذاكرتك فورًا.. بمجرد أن نصل إلى عالمنا.. ولسوف تكون بطلًا هناك..»

بالطبع سأكون بطلًا هناك.. سيضعون بقاياي الذائبة في متحف باعتباري أول من استطاع خداعهم لفترة لكنه فشل..

سألتها ونحن خارجان إلى الممر:

- «ما هذا (الإكلوس) الذي كنتم تتكلمون عنه؟ لقد خشيت أن أسأل، لكني لم أع حرفًا..»

قالت وهي تهتز ضحكًا:

- «صحيح.. نسيت أنك لا تذكر شيئًا.. (الإكلوس) هو مجموعة البروتوكولات الخاصّة بالعودة لوطننا.. إنها تشبه ما يقوم به قائد الطائرة اليوم، حين يجعل كلًّا من مساعديه يقوم بتسميع تعليماته المكتوبة في قائمة.. على كل منا أن يعي جيدًا ما يجب أن يعمله، وإلا ضعنا.. بالمناسبة، لعلك لم تنس أنني القائد؟»

- «أذكر هذا على الأقل.. والآن ما هو دور كل واحد اليوم؟»

- «القبو.. ولا شيء غير القبو.. إن أمامنا عملًا كثيرًا..»

وصفقت بيديها كما يفعل زبون المقهى مناديًا القهوجي، وتقدمتني واتجهت إلى القبو..

☆ ☆ ☆

كما قلت يا (ريم)، كان القبو هنا مجرد سلّة مهملات ضخمة، وأعتقد أنه لا يمكن أن يوجد به شيء مهم من أي نوع..

كان الجميع يقفون هناك، ولم أفهم حقًّا ماذا ينتوون عمله بكل هذه الجرائد والحقائب القديمة الفارغة، وربما الفئران..

لكن (جيسون) - الضابط (مور) كما عرفت - أجاب عن أسئلتى قبل أن أطرحها.. اتجه إلى مدفأة مركزية عتيقة هناك يبدو أنها كانت تدفئ المنزل بالخشب، في القرن الماضي.. ودون كلام توضيحي أزاح حاجزها جانبًا، ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة لتكوينه العضلى، ثم انزلق عبر فتحتها ليختفي تمامًا.. فاران مذعوران جريا من الفتحة وهما لا يصدقان ما حدث للسلام العالمي..

وجاء دور (الميجور) الذي حمل في يده كشافًا، وتشبث بحاجز المدفأة العلوي ثم أرجح جسده لينزلق إلى داخلها.

جاء دور الزوجين ثم دوري... لماذا؟ ببساطة لأن (ساندرا) أرادت أن تكون آخرنا لتتأكد من غلق الحاجز..

سمحت لجسدي النحيل بأن يمرّ عبر الفتحة، وعلى الفور سقطت في نفق مظلم قذر يهبط لأسفل بزاوية شبه قائمة.. وقبل أن أصرخ أو أصاب بالذعر أو تقتلني (الكلوستروفوبيا)، وجدت أنني ملقى على الأرض وسط قاعة واسعة..

وقبل أن أتخذ رد فعل جديدًا، كانت (ساندرا) قد سقطت فوقي.. فانتحيت جانبًا وعدت أرمق المكان من حولي..

☆ ☆ ☆

كان مظلمًا كالقبر..

لكن الكشاف الذي يحمله الميجور أشاع جوًا لا بأس به يسمح بتبين التفاصيل، وعابث (جيسون) بعض الأشياء، فانبعث نور أزرق غامض بدا أنه يأتي من الجدار نفسه..

كانت هناك بلورات في كل صوب.. عالم من البلورات الخياليّة التي تتهشم عليها الألوان وتنكسر..

همست (ساندرا) مستمتعة بدهشتي:

- «إن المدفأة تقود إلى هذه القاعة، ومن المفهوم أن المدخنة مسدودة، لذا لم يحاول مخلوق أن يضع فيها خشبًا طيلة مائة عام تقريبًا، ولوحاول لوجد أنه يختفي!»

ورحت أنظر حولي مذعورًا.. لم أكن مذعورًا بسبب ما رأيت، ولكن بسبب أن كل هذا مألوف.. لقد رأيته في موقف سابق.. ربما في طفولتي أو شبابي.. ربما في أحلامي.. ودعوت الله أن أكون مخطئًا وأن يكون هذا مجرد تكرار لظاهرة (ديجا - فو) أو (شوهد من قبل) الشهيرة..

أما ما لم يبدُ مألوفًا لي فهو تلك الأحواض الزجاجيّة المتناثرة هنا وهناك، والتي تسبح فيها أجساد بشريّة! جثث آدمية مغمضة العيون تسبح في سائل شفاف، وقد بدا كأنما تحلم بالخلاص.. كان هناك حوض به قط وآخر به كلب، وكانت هناك مجموعة لا بأس بها من الحشرات..

قلت لها متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- «كان يجب أن تضعي أسودًا وأفيالًا و.. و...»

ابتسمت من جديد، وقالت:

- «هذه ليست سفينة (نوح).. لقد جئنا بما استطعنا الحصول عليه، وعلى كل حال ليس هذا عملًا سيئًا في عام واحد من أعوامنا.. والآن كفانا ثرثرة..»

تعرف سفينة (نوح)؟ إن ثقافتها الأرضية واسعة.. لكن ليس هذا غريبًا، فما أكثر ما يراه المرء ويعرفه لو عاش مائة عام من أعوامنا.. لقد كانت (ساندرا) والميجور يعرفان كل شيء عن العجوز وماضيها وهكذا دخلا البيت دون جهد..

كان الجميع الآن منهمكين.. يعذلون أوضاع البلورات، بينما لونها يتغير كلما تغير وضعها.. أحيانًا كان اللون الأزرق يستحيل أحمر أو قرمزيًا، وأحيانًا كان الظلام يسود.. لكنهم كانوا يعرفون ما يفعلون جيدًا..

ترى هل أحلم أم أن الأرض تهتز تحتى؟

كلينج! كلينج!

وهذا الصوت المعدني! هناك من يدق شيئًا فوقنا.. بل هو بالذات يدق حاجز المدفأة في القبو؟

تصلب الجميع للحظة، ونظروا لأعلى..

في هذه اللحظة أيضًا جاء صوت قوي من أعلى يصيح:

- «افتحوا لي! افتح يا (جود)! أنا (ميدا)!!»

☆ ☆ ☆

١١. اللحظات الأخيرة..

ولماذا المنزل رقم (5) بالذات؟

☆ ☆ ☆

دنا (جيسون) من الفتحة التي سقطنا منها، وأصاخ السمع إلى الصوت الذي يردد:

- «افتحوا لي! أنا لم أتأخر!»

صاح (جيسون) من خلال الفتحة:

- «(ميدا) من؟»

- «(ميدا) رفيقكم! لقد تأخرت في القدوم من (إفريقيا)، وكان على أن أغتصب باب البيت اغتصابًا لأنكم أغلقتموه من الداخل، لكني لا أستطيع فتح حاجز المدفأة..»

اتسعت عينا (جيسون) في وجهه المشعر، ونظر لي بنظرة نارية ثم إلى الآخرين.. هنا قال الميجور ضاغطًا على كلماته:

- «لو كان هذا هو (ميدا)، فمن الذي معنا؟»

انتهى الأمر!

كنت أعرف أنه سينتهي حتمًا لأنني سأكشف عن شخصيتي عاجلًا أم آجلًا، حين ينزعون أقنعتهم.. لكن آخر ما جال في ذهني هو أن يعود (ميدا) الأصلي في هذه اللحظة بالذات، ملهوفًا على اللحاق برفاقه..

لم أحاول أن أنكر.. الطبيعي هو أبدو غبيًا عاجزًا عن الفهم.. وهذا هو ما فعلته بنجاح تام...

همس الميجور بصوت مسموع:

- «دعه يدخل.. ولنر..»

وهكذا زحف الأخ (جيسون) كالقرد داخل الفتحة، ويبدو أنه أزاح مزلاجًا ما، وفي اللحظة التالية تدحرج جسده ومن فوقه جسد رجل نحيل أصلع..

وحينما وقف هذا الأخير فهمت معنى الحيرة التي غمرت كل من رآني.. بالطبع ليس الشبه قويًا، ولن تحسبه أخي التوءم.. بل هو وسيم نوعًا، لكنه أصلع الرأس نحيل له شارب مضحك ويضع العوينات.. ومن الواضح أنهم بدءوا ينسون الأقنعة التي تفرقوا بها في أرجاء الأرض..

وقف (ميدا) العظيم في منتصف القاعة، وهتف:

- «أنا الكومار (ميدا).. فلتتكامل دورتك أيها الجاكون الأعظم!»

☆ ☆ ☆

«لقد صارعت (البوركا) من أجلي، وقتلت (هلبراد) في المبارزة المقدسة.. كنت أنت أشجع الفرسان، وكنت لي وحدي!»

☆ ☆ ☆

يا للكارثة! أشجع فرسان عالمهم، الذي صارع (البوركا) - يعلم الله ما هو - هو الآن خصمي اللدود..

نظر الجميع له ولي، وهو أيضًا نظر لي في غير فهم، على حين بدت في عيني (ساندرا) الحقيقة.. هذه المرّة قد عرف قلبها الإجابة الصحيحة...

قال (الميجور) وهو يعابث شاربه الكث:

- «كما ترى أيها القادم.. إن لدينا هنا (ميدا) آخر..»

صاح القادم في ذهول غاضب:

- «كفى سخفًا! هذا هو الدخيل الذي ذكرته النبوءة.. بالطبع لم تسألوه عن القلادة وسلاح (في)!»

- «للأسف هو يملكهما.. وأنت؟»

دون تردد مزّق القادم أول زرين من قميصه، ليكشف عن القلادة المعلقة حول عنقه، ولوح بالعصا الشبيهة بالأبنوس.. ثم هتف موجهًا الكلام إلى (ساندرا):

- «كيف يمكن أن تقعوا في هذا الخلط؟»

قالت (ساندرا) وقد صار شكها يقينًا:

- «كانت الظروف ضدنا، ويبدو أننا أبدنا الكومار (فور) بسبب هذا الخطأ..».

هنا قال (الميجور) بلهجة آمرة:

- «حسن.. لم يبق أمامي سوى أن أمركما بنزع قناعيكما حالًا!»

وصدع الكومار بالأمر.. وبدأ بانتزاع عينيه كاشفًا عن تلكما الفجوتين السوداوين بالضوء الأحمر اللامع فيهما..

نظر لي الجميع في ارتياب، فتنهدت باستسلام وقلت:

- «حسن.. أعترف أنني دخيل.. لكنكم لم تتركوا لي فرصة الاختيار.. كان عليّ أن أكذب كي أظل حيًّا!»

- «وكيف حصلت على القلادة وسلاح (في)؟»

- «لم أعرف مغزاهما وقتها.. كنت أبحث في غرفة (فور) وإذا بي أجدهما..»

صاح (جيسون) العصبي دائمًا:

- «الموت للدخيل؟»

ورفع سلاح (في) في الهواء واعتصره بقبضته لكن - بالطبع - كان موقفه سخيفًا جدًّا، لأن شيئًا لم يحدث.. وقال الميجور في إرهاق:

- «لا جدوى.. إن القلادة حول عنقه، ولا يمكن انتزاعها..»

انفتحت أصابع (جيسون) العشرة وهو يتقدم نحوي:

- «إذن نستعمل الأسلوب الأرضى الفظ!»

هذا الفتى متحمس للعنف أبدًا.. لكني لا ألومه هذه المرّة...

لكن (ساندرا) لوحت بكفها لتمنعه:

- «لا تفعل.. لانريد اهتزازات هنا.. إن هذا قد يفسد بروتوكولات (الإكلوس) كلها.. إن هذه القاعة مقدسة ولن أسمح بأي عنف فيها..»

- «إذن هل نتركه؟»

نظرت لي في مرارة، وقالت:

- «لم لا؟ إنّه عديم الخطر، وهو لن يكون أكثر من عينة إضافية تُضاف إلى عيناتنا البشريّة.. سنأخذه معنا!»

وهمست لي وهي تبتعد:

- «لقد خدعتني.. ولسوف تدفع ثمن هذا غاليًا.. فيما بعد! إن قلب الأنثى لا ينسى الإهانة، وأنا أختلف عنكم تشريحيًا ونفسيًا، لكن قلبي قلب أنثى.. لا تنس هذا!»

☆ ☆ ☆

الآن يا (ريم) راحت الأمور تجري بسرعة..

إنها التاسعة مساء، وقد انتهى حظر الكلام بلغة غير الإنجليزية، وقد راح القوم يركضون هنا وهناك، ينقلون تلك البلورات الغامضة من موضع لآخر، ويدلون لبعضهم بتقارير مفصلة بتلك اللغة العجيبة..

نسي الجميع وجودي، فاستندت إلى واحدة من تلك البلورات، ورحت أرمقها.. كانت أقرب إلى جبل ذي قمتين.. استندت فوق كل قمة منهما كرة بلورية شفافة لا تكف عن الوميض، وتكتسب مائة لون في كل ثانية..

كان من الواضح أن الأخ (ميدا) يتمتع بكفاءة خاصة، ولا أدري كيف كانوا سيفعلون من دونه... لا بأس.. هو يتفوق عليَّ في هذه النقطة على الأقل..

الحق أنها خلية نحل غريبة..

لكن - فجأة - بدأت أشعر بأنهم ليسوا راضين.. ثمة شيء خطأ لا أدري ما هو.. وهم يتبادلون الآراء، ويسألون أسئلة كثيرة.. فجأة عادوا إلى الكلام بالإنجليزية...

قال الميجور موجهًا الكلام لي:

- «أيها الدخيل.. سنعطيك فرصة للنجاة..»

- «هذا يسرني..»

- «ثمّة مشكلة تواجه (الإكلوس).. ولم يعد بوسع واحد منا أن يغادر هذا القبو بعدما بدأ البروتوكول.. عليك أن تخرج من هنا وتغادر المنزل على الفور، لكن عليك قبل مغادرته أن تغلق الباب المحطم جيدًا.. الباب الذي اغتصبه (ميدا) حين حاول اللحاق بنا..»

قال (جيسون) في عصبية:

- «وكيف تعرف أنه سيفعل؟ إنّه مخادع!»

نظرة واثقة شاعت في وجه الميجور المغضن، وقال:

- «سيفعل.. لأنّه لو لم يفعل هذا لما استطعنا الرحيل، وعندها سنظل على الأرض، ولسوف نجده.. هو يعرف أننا سنجده، وليكونن انتقامنا منه مريعًا..»

لم أشك في ذلك، فهؤلاء القوم يمقتوننى حقًّا..

قلت واضعًا يدي في جيب السروال:

- «اعتمدوا عليَّ.. لن تكون هناك ألعاب هذه المرّة..»

قال الميجور:

- «نأمل هذا.. تذكر لمصلحتك الخاصّة أن تغادر المنزل بأسرع ما يمكن ولا تنظر إلى الوراء.. ابتعد كأن الشيطان يطاردك.. ولا تنس أن القلادة لن تحميك منا خارج هذا القبو.. إن هناك طرقًا أرضيّة للانتقام، و(جيسون) يجيد استعمالها..»

- «لم أشك في هذا لحظة..»

ومن جيبه أخرج ورقة مطوية، تبدو عليها علامات القدم، وقال وهو يحدّق في عيني:

- «مازلت أرى أن من حقك أن تفهم أكثر، خاصة لو بقيت حيًّا.. هذه الورقة تحكي كل شيء..»

ثم أشار إلى الفتحة التي دخلنا منها، وقال:

- «والآن هيا وتذكر.. لن نرحمك لو ظللنا هنا..»

نظرت لهم وقد وقفوا يرمقونني في شك، وهززت رأسي بمعنى أنني أحييهم تحية المساء، ثم جثوت على ركبتي ودلفت من الفتحة المذكورة..

كان التسلق عسيرًا بعض الشيء، لكني وجدت حاجز المدفأة ما زال مفتوحًا، وبشيء من الجهد استطعت أن أمر عبره لأصل إلى القبو المظلم..

انتظرت ثانيتين حتى اعتادت عيناي الظلام، ثم رحت أتحسس طريقي نحو باب الخروج..

أخيرًا! كان أول ما فعلت هو أن صعدت إلى حجرتي فكومت ثيابي والكاميرا كيفما اتفق في حقيبتي، وجررتها إلى الطابق الأرضي.. وأخيرًا استطعت أن أجد نفسي خارج المنزل رقم (5).. أن أشم رائحة ظلام الليل وأرتجف من البرد الخفيف.

لم أخدعهم.. إن المرء يحترم تعهداته حتى مع الكائنات الغريبة، لهذا تفحصت الباب جيدًا، وكان الأخ (ميدا) قد فتحه عنوة لكنه لم يهشم شيئًا، وبقليل من الجهد تمكنت من غلقه بإحكام من خلفي..

وابتعدت نحو عشر أو عشرين خطوة، ثم تذكرت أن عليَّ أن أبتعد أكثر وبسرعة.. وهكذا ـ بقدر مامنحني قلبي من قدرة ـ رحت أجد السير سريعًا..

وأخيرًا، وقد صار البيت خلفي بمسافة لا بأس بها.. كهذه المسافة بين بيتك يا (ريم) ومتجر البقال.. عندها فقط وضعت حقيبتي على الأرض ورحت ألهث...

ومددت يدي في جيبي أبحث عن كنزي.. البلورتين اللتين قمت بسرقتهما دون أن يلاحظني أحد.

على قدر علمي ستمنعهما هاتان البلورتان المفقودتان من تنفيذ ما يريدون القيام به...

لا أعرف حقًّا ما ينوون القيام به... يخيّل إليَّ أنه نوع من الفرار، ولربما كان التدمير النهائي لكوكبنا.. على كل حال لن أترك شيئًا للظروف.. مع ما أعرفه من دقة بروتوكولات (الإكلوس) هذه، فهناك احتمال لا بأس به أن يفشل الإقلاع..

هل يجدونني وقتها؟ لا أظن.. سأذوب وسط زحام (سيدني)، وبعد قليل أكون في قارة أخرى ومدينة أخرى..

المهم أن تكون هاتان البلورتان مهمتين حقًّا..

ووقفت في الظلام أرمقهما تتوهجان بذلك البريق الغامض المهيب، وراحت ألوان لا حصر لها تترقرق على عدسات منظاري..

ثم..

حدث شيء غريب..

☆ ☆ ☆

في البداية خيل إلى أن المنزل رقم (5) قد تم دهانه كله باللون الأحمر.. بعدها استحال الأحمر أزرق..

وأدركت أنه يرتفع.. يرتفع للسماء ببطء لكن بثقة.. ديناصور خرافى عملاق يحرر نفسه من قيود الخرسانة والأسفلت التي أحاطت به.

إنها الحقيقة إذن!

المنزل رقم (5) لم يكن سوى سفينة فضاء متنكرة! غالبًا السفينة التي جاءوا بها من مائة عام... السفينة التي وقفت وحدها وسط العراء أعوامًا، ثم لم تلبث الحضارة أن جاءت فجددتها وأحاطتها بالشوارع، وطلت واجهتها.. وما لم تعرفه مسز (بانكروفت) قط أن زوجها - الأحمق - ابتاع سفينة فضاء كي يعيشا فيها...

الآن كان المنزل قد ارتفع ثلاثة أمتار عن منسوب الشارع، وصار المكان جحيمًا من الكهرباء الإستاتيكية، حتى انتصبت كل شعرة في جسدي..

بعدها عمَّ المكان مجال مغناطيسي يشعرك بالغثيان.. وسرعان ما استحال لون المنزل أبيض لامعًا كاللؤلؤ.. أبيض مضيئًا من الداخل..

ثم.. ثم تفتت!

وعاد الظلام يغمر المكان..

ومددت يدي في جيبي أبحث عن قلم الأبنوس فلم أجده..

وتحسست عنقي بحثًا عن القلادة فلم تكن هناك..

☆ ☆ ☆

خاتمة

في الصحف؛ طالعت تلك القصة الغريبة عن المنزل رقم (5) الذي تحول إلى غبار في الحادية عشرة مساء اليوم العشرين من مارس...

إن خبراء المفرقعات يعرفون أشياء كهذه، ويعرفون أنك تستطيع تحويل منزل إلى مسحوق غسيل، لو أنك وضعت المتفجرات بحنكة في الطابق الأرضي منه...

من العسير تمامًا استنتاج سبب الانفجار، وقد قام رجال الإنقاذ بكسح الأنقاض، لكنهم لم يجدوا ما يدل على سبب الحادث، والجدير بالذكر هنا أن صاحبة المنزل لم تكن موجودة.. كانت في المستشفى إثر إصابتها في حادث سيارة غامض..

☆ ☆ ☆

جالسًا في الفندق الحقير الذي استأجرت ليلتين فيه يا (ريم)، رحت أرشف الشاي وأطالع الصحف..

ثم وضعت الصحف جانبًا، وبحثت في جيبي عن الورقة المطوية التي أعطانيها الميجور في اللحظات الأخيرة.. فتحتها، وكانت مكتوبة بإنجليزية منمقة تمتُّ حتمًا إلى القرن الماضي، وكان المكتوب كما يلي:

«إلى من يهمه الأمر..

«يهمني هنا أن يعرف من يجد هذه الورقة، حكاية الأحداث العجيبة التي أدت بي إلى ملكية المنزل رقم (5):

«القصة هي أنني - أنا (جيمس أوسبورن) ـ لم أملك شيئًا في حياتي، وكنت أنتمي دومًا إلى تلك الطائفة واسعة الانتشار المسماة (المعوزون)...

«لم أكن أملك إلا رقعة خربة من الأرض خارج (سيدني)، لا تصلح لشيءٍ، ولا يوجد بها ماء ولا شيء، وقد تلقّيت عروضًا لشرائها ببضعة ملاليم..

«وفي ليلة من العام 1884 توهجت السماء الملبدة بالغيوم مرارًا، ورأيت ضوءًا غامضًا يهبط من أعلى، ثم أعمى الضياء عيني لربع ساعة. كنت في منتهى الذعر، وراحت الماشية تخور وقد

انتابها الهياج..

«فلمّا استعدت بصري، وجدت أمامي بيتًا جميلًا من طابقين ينتصب وسط الغبار، وكانت أجزاء منه ما زالت تترقرق بنار حمراء غامضة، كالتي نراها في قطعة الفحم بعد انطفائها.

«وانفتح الباب وبرز منه عدد من الرجال وامرأة.. كانوا يبدون كالبشر تمامًا، فلم يقف قلبي هلعًا.

«كان أكبرهم يبدو كشيخ مُسن ويبدو أنه أكثرهم مكانة ونفوذًا هنا. أشار لي كي أدنو منه قليلًا فدنوت متوجسًا.. دعاني إلى الدخول خلفه إلى المنزل، ولم أكن أملك الخيار، لذا تبعته إلى المدخل، حيث كانت قاعة جلوس أنيقة تضيئها الشموع. وقد قال لي:

- «لا تخف أيها الرجل الطيب.. هذا البيت الجميل لك، ولسوف أعطيك صكًا بملكيته، فعليك أن تذهب إلى البلدية، وتنسبه لنفسك.. هذا البيت ملكك وملك أولادك من بعدك، لكن لا تفرط فيه ولا تحاول أن تهدمه، وإلا كان عقابنا شديدًا..»

«وهكذا وجدت نفسي أملك بيتًا جميلًا.. لم يسأل أحد أسئلة لأن البقعة كانت مقفرة مهجورة، وقد تركني هؤلاء القوم وحدي ورحلوا دون أن يقدموا لي أية تفسيرات..

«احتجت إلى شهر أو شهرين كي أتخلص من هلعي، واحتجت إلى عام حتى قررت أن أقيم فيه مع زوجتي وابني.. وبعد هذا لم يعد الأمر عسيرًا، وراقت لي الحياة فيه.

«لكنني من آن لآخر أسأل نفسي أسئلة كثيرة: من هؤلاء القوم؟ من أين جاءوا؟ هل هذا المنزل منزل حقًّا؟

«لذا أكتب هذه الكلمات، وأخبئها في القبو، لعل واحدًا ممن يأتون بعدي يجدها، ويبحث عن السر ويحله..

«بالطبع سيرث ابني (ألفريد) البيت من بعدي، لكنه لن يعرف هذه القصة.. فقط سأوصيه ألا يهدم المنزل أو يفرط فيه، وأن يعمل على أن يرثه ولده من بعد..

«وأدعو الله ألا تكون هذه الصفقة تجديفًا ما أو خرقًا لنواميس الطبيعة.

(جيمس أوسبورن)

بالطبع لم يكن مع هذه الورقة أي عقد من أي نوع..

وأدركت أنّ هذه الورقة ظلت في القبو فترة، حتى عرف الميجور كيف يجدها ويحتفظ بها، لأنهّا تزيل الستار عن ميلاد المنزل رقم (5).. ولولاها لظللت لا أفهم شيئًا..

عرفت كذلك أن (ألفرد) ـ ابن كاتب الرسالة ـ قام بتجديد المنزل وأعطاه طابعًا عصريًا، ثم باعه لأنّه لا يعرف أهميته الخاصّة، ولأنه لم ينجب، مما جعله يتحرر من عهد توريث المنزل

لأولاده..

هكذا اشترى مستر (بانكروفت) المنزل الوحيد في العالم الذي كان سفينة فضاء متنكرة! لم يخطر ببال أحد أن غرفة المحركات الرئيسية تقع تحت القبو، ويصلون إليها عبر فتحة المدفأة..

ثم دنا موعد الرحيل، وجاء أشخاص متحمسون يطلبون من العجوز أن تمنحهم غرفة هنا، ويبدو أنهم لم يكونوا في البداية ميالين إلى العنف، لكن عناد العجوز وعنادي جعلاهم على استعداد للقتل... وقد كادوا يفعلون..

لكنهم لم يضعوا في اعتبارهم أن رجلًا يدعى (رفعت إسماعيل) سيسرق بلورتين من غرفة المحركات قبل الانطلاق...

لقد صدع بأمرهم وتأكد من غلق باب البيت (لا يمكن أن تطير سفينة فضاء وبابها مفتوح)، لكنه كما تعلمين خدعهم وسرق قلب المحرك.. ترى هل كان هذا هو سبب انفجار المنزل؟ أم أن خللًا آخر في المحركات كان هو السبب، وكما حدث مع مكوك الفضاء (تشالنجر) في الثمانينات؟

ترى هل ماتوا حقًّا؟ أم إن لخلاياهم القدرة على تحمل أشياء كهذه؟ ولو لم يكونوا ماتوا فأين هم؟ أتراهم يبحثون عني للانتقام يومًا ما؟

الحقيقة أن عدد الكائنات الموتورة التي تريد رأسي قد ازداد أكثر من اللازم هذه الأيام...

☆ ☆ ☆

وفي الظهيرة ذهبت لزيارة المستشفى حيث كانت مسز (بانكروفت).. كانت قد تحسنت كثيرًا، وإن ساءت ثانية حين عرفت أن منزلها قد تلاشى من الوجود.

- «ما السبب؟ لابد أن (ساندرا) المخبولة قد تركت الموقد مشتعلًا، وراحت تلهو كعادتها!»

ابتسمت في مرارة، وقلت لها:

- «يُمكنك أن تفترضى هذا الاحتمال، فهو على الأقل مريح ويبدو مناسبًا لما نعلمه عن الكون!»

وودعتها للمرة الأخيرة، لأنني عائد إلى وطني، فقالت إن لديها مدخرات تسمح لها بالإقامة في ملجأ للعجزة لأنهّا صارت عجوزًا حمقاء بائسة.. ولم ألمها كثيرًا على ما قالت..

وعند باب المستشفى توقفت عند صندوق مهملات، وتخلصت من البلورتين اللتين أثقلتا جيبي.. من أدراني أنهما ليسا جهازي إرسال يتيحان لكائنات أخرى من هذا العالم أن تقفو أثري؟ كل هذا ممكن..

حقًّا كانت قصة غريبة..

تسألين عن المغزى يا (ريم) كعادتك.. وكعادتي أقول إنني أكره اعتصار القصص لينز منها مغزى ما، لكن - كي أريحك - أقول لك النصيحة التالية:

قبل أن تسكني في منزل جميل، تأكدي أولًا من أنّه ليس سفينة فضاء متنكرة!

☆ ☆ ☆

آن لي أن أستريح..

لكنهم لا يستريحون..

والمومياء كانت بانتظاري على أحر من الجمر.. ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ ـ منزل السيدة (بانكروفت)..

٢ ـ الميجور القديم..

٣ - وتجيء (ساندرا)..

٤ - هل أنت خائف مثلي؟؟

٥ - ستة وواحد..

٦ - مفاجأة غير سارة..

٧ - علامات لها مغزاها..

٨ - أنت دخيل!

٩ - أنت منا!

١٠ ـ الحقيقة كلها (تقريبًا)..

١١ ـ اللحظات الأخيرة..

خـــاتمة

Notes

[1←]
MRI

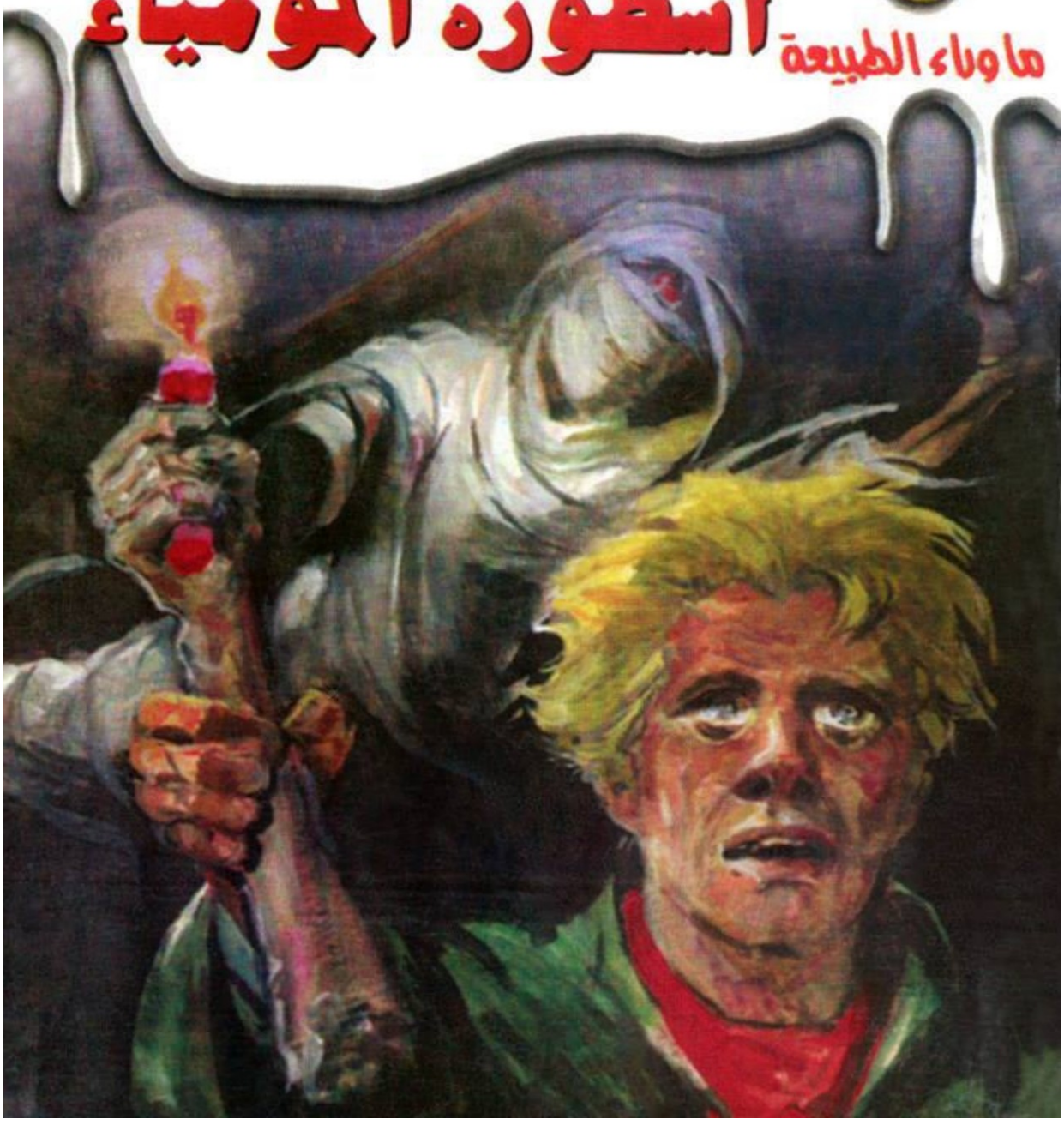
روايات مصرية للجيب

مكتبة النخبة

48

أسطورة المومياء

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقـدمة

هناك مومياوات ومومياوات..

ليست كل المومياوات لطيفة المعشر أو محببة للنفس.. لو اعتقدت هذا فأنت بلا شك في مشكلة.. لعل هذا هو الفارق بين شيخ خبر الحياة مثلي - أنا (رفعت إسماعيل) - وبين من يخطو خطواته الأولى في طريقه المفعم بالأشواك..

(رفعت إسماعيل) العجوز يعرف حكايات كثيرة عن مومياوات لم تكن مهذبة بما يكفي... لم تكن مسالمة بما يكفي.. لم تكن لطيفة بما يكفي.. يبدو أنني سأحكي لكم اليوم واحدة من هذه القصص.. فقط لأبرهن على أن المومياوات ليست تلك الأشياء الوديعة كما قد يخطر للبعض..

هذا هو لقائي الثامن والأربعون معكم.. الحقيقة أنني كنت أزمع من البداية أن أكتفي بخمسين قصة، ثم أترككم وأموت.. لا يعرف هذا القرار سوى عدد محدود جدًا من قرائي لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.. والسبب الأول هو حرصي على ألا أكون مملًا أو مكررًا... والسبب الثاني ستعرفونه يوم أكف عن الكتابة، ولسوف أبقية سرًا في الوقت الحالي..

لكنني لا أجد الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار كهذا الآن.. لقد كان رقم الخمسين بعيدًا جدًا يومًا ما، لكنه الآن صار دانيًا جدًّا، وبصراحة ما زالت هناك حكايات كثيرة في جعبتي لم أحكها، بعضها لمَّحت إليه وبعضها لم أفعل.. وأنا من الطراز الذي لا يموت قبل أن يوفي بالتزاماته الأدبية والماديّة كاملة..

حقا ما زال العجوز (رفعت إسماعيل) قادرًا على السرد والكلام، وحقًّا مازال يملك الكثير، لهذا قررت أن أستمر ولا أتوقف إلا حين أتوقف.. أعتذر إذن للأصدقاء الذين وعدتهم بأن أخرس للأبد، ثم لم أفعل.. سأحاول أن تكون القصة التالية ترضية مناسبة لهم...

هناك مومياوات ومومياوات..

والمومياء التي تلقاها اليوم كانت من طراز مختلف..

ستعرفون السبب بعد قليل لو قلبتم الصفحة أو نظرتم إلى اليسار..

- ١ -

أنا المختار من بين الملايين، الذي يخرج من العالم السفلي..

الذي لا يعرف اسمه أحد

إذا نطق اسمه على مجرى الماء جف..

وإذا نطق اسمه فوق اليابسة اشتعلت النار..

[تعويذة فرعونية قديمة]

☆ ☆ ☆

حقًّا لا أدري إن كان من حقي أن أحكي لك قصتي مع (يوهان تورلسون).. لقد مر دهر - نحو ثلاثين عامًا - على هذه القصة، وفي الغالب لن يتأذى أى طرف من الأطراف لو حكيتها.. بالضبط كما أنّ أحدًا لن يتأذى لو حكينا قصة حريق (روما) أو حملة (هانيبال)..

قابلت (يوهان) في القاهرة في أحد المؤتمرات الطبية التي تعقد دائمًا في واحد من تلك الفنادق المطلة على النيل.. لا أذكر موضوع المؤتمر، لكنه كان طبيًا طبعًا.. لا يجب أن يكون المرء عبقريًا كي يخمن هذا.. يُمكنك كذلك أن تعرف أن (تورلسون) هذا كان طبيبًا من (أوسلو)..

كان نرويجيًا بكل ما في الكلمة من معان.. أشقر جدًا.. أزرق العينين جدًا.. أحمر البشرة جدًا.. باردًا ذلك البرود الجدير بمن كان أسلافه يقضون حياتهم في بحر الشمال، يهاجمون القرى الساحلية على سبيل الرياضة، ويعبدون إلهًا وثنيًا اسمه (أودين)، ويحلمون بأن يذهبوا بعد الموت إلى جنتهم (فالهالا)..

صموتًا كان وأنا أحب الصموتين بحق...

ربما لاحظته لأنّه ألقى محاضرة لا بأس بها عن مخاطر نقل الدم، وأشهد له أنه تنبأ بميلاد كابوس لم يخطر لنا وقتها في أسوأ أحلامنا اسمه (الإيدز).. كان يؤمن بأن الأعوام القادمة ستجعلنا ندرك أن ما نفعله اليوم جريمة، وكان محقًا لأن تلك هي الأعوام التي كنا ننقل فيها فيروسات الالتهاب الكبدي والإيدز إلى المرضى دون أن نعرف هذا... هذا ليس موضوعنا على كل حال، لكن هذا واحدًا من المواقف التي تجعلك تميل إلى شخص ما، لأنّه ذكي بالإضافة إلى صمته الدائم الغريب.. لست من هواة تعرف الأشخاص، ولا أجمع الوجوه الجديدة كما يجمع هاوي الحشرات

مجموعة من الخنافس.. لهذا لم أحاول أن أقدم له نفسي، وفي الغالب كان سيلقاني ببرود لا يريحني..

☆ ☆ ☆

في ذلك الصباح شعرت بالملل من برنامج المؤتمر، خاصة وأنّ هناك الكثير من المتكلمين لمجرد أنهم يحبون سماع صوتهم الخاص.. كانت القاعة مظلمة ما عدا ضوء (البروجكتور) الساقط على الشاشة، والمتحدث الغارق نصف وجهه في الظلام يتكلم بصوت رتيب لا تغيير فيه ولا تبديل، كأنما نحن أطفال يحاول أن ينيمنا..

عبثًا حاولت أن أبقي عيني مفتوحتين، لكن بدا لي كأن وزنهما طنَّان.. وضبطت نفسي مرّتين أو ثلاثًا وقد غبت في نعاس عميق، من الطراز الذي تسقط فيه الذقن على الصدر ويسيل اللعاب من الشفتين اللتين فقدنا القدرة على أن تقفلا.. أنا في عالم الأساطير أقف أمام (أوزوريس) لحظة الحساب، وصوته يدوي عميقًا رتيبًا مملًا وهو يتحدث عن.. صفائح الدم! صفائح الدم؟!

في النهاية هززت رأسي، ونظرت حولي فلم أر أحدًا منتبهًا.. كان الممر المظلم بجانبي وفي نهايته كلمة النجاة EXIT تضيء بالأحمر، تعدني بالخلاص من هذا الجحيم..

توكلت على الله وانسحبت في هدوء، متجنبًا النظر إلى المحاضر حتى لا يراني، ونظر لي أحد البروفيسورات ذوي السوالف الكثة في اشمئزاز وأنا أفر من العلم كتلميذ في المدرسة الابتدائية، لكني تجاهلته واتجهت للباب..

أخيرا أستنشق الهواء النقي.. كانت الساعة العاشرة صباحًا واليوم ما زال بعد طويلًا، وثمّة جلسات يهمني أن أحضرها، لأن المؤتمر ليس كله هراء.. لهذا قررت أن أغادر الفندق، وأمضي الوقت في أي مكان بعيد عن هذا كله.. على أن أعود في الثانية بعد الظهر..

بالطبع تقود كل هذه المؤتمرات بشكل ما إلى ميدان التحرير، وميدان التحرير بالنسبة لي هو المتحف المصري.. لم لا أفعل هذا الآن؟ لطالما قلت لنفسي إنّه لو كان متحف اللوفر في القاهرة لزرته ست مرات أسبوعيًا.. وأنا عندي هنا ما يزري بعشرين متحف لوفر.. فقط أنا لا أزوره لمجرد أنه (هناك).. أستطيع أن أزوره متى أردت.. و(متى) هذه لا تأتي أبدًا.. والنتيجة هي أنني لا أرى 80% من معالم مصر التي يقطع الغربيون أذرعهم اليمنى مقابل أن تكون عندهم...

هذا يوم مناسب للعودة للجذور، وليكونن نهارًا جميلًا وسط (أمنحتب) و(سيتي) و(أمنمحات)..

☆ ☆ ☆

كنت في الطابق العلوي من المتحف أتأمل بعض الأواني الزجاجيّة منبهرًا، حين رأيت بطرف عيني ذلك الرجل الأشقر الشعر جدًّا، أزرق العينين جدًا، أحمر البشرة جدًّا.. كان يمسك بورقة ويحاول جاهدًا - مستعينًا (بدزينة) من الأقلام الملونة الجافة - أن يرسم عليها بعض النقوش الهيروغليفية من خزانة زجاجية أمامه.. كانت هذه هي لحظة التعارف المقدسة، لأن مجموعة الأقلام سقطت منه على الأرض، فانحنى يجمعها، وما كان من الممكن ألا أخف لمساعدته..

فلما انتهينا، شكرني بتهذيب وبالإنجليزية، ثم لم يلبث أن تبين أنه يعرف وجهي..

- «إذن أنا لست الوحيد الذي هرب من المؤتمر!»

- «ولست الوحيد المهتم بالتاريخ الفرعوني..»

- «أنا مهتم.. وأي اهتمام!»

وهكذا صار من المستحيل ألا تنعقد بيننا صداقة من نوع ما.. ومضينا نجول في المتحف معًا.. كان يملك أسئلة وما كنت أملك إجابات.. الحقيقة هي أن جهلنا - أو منعًا لقلة الأدب جهلي أنا - بالتاريخ الفرعوني لمروع... وسرعان ما عرفت أنه يعرف مائة مرة قدر ما أعرف أنا.. كان اهتمامه أصيلًا عميقًا لا يترك شيئًا للصدفة، ولابد أن (كارتر) لم يكن أكثر اهتمامًا وهو يفتش عن مقبرة (توت عنخ آمون) عام 1922..

ثمة ملحوظة أخرى من تلك الملحوظات التي لا تتضح أهميتها إلا فيما بعد، والتي تتذكرها فجأة ذات ليلة وأنت ترمق السقف في فراشك عاجزًا عن النوم.. كنت أتكلم عن الميثولوجيا الفرعونية، وقلت له ساخرًا:

- «كانوا يؤمنون بخليط غريب من عقائد الطوطم وتأليه الحيوانات، كما أنهم كانوا يعتبرون السحر أمرًا مفروغًا منه.. وهو أمر غريب بالنسبة لحضارة كهذه..»

قال لي في ضيق:

- «هل تنفي وجود السحر من العالم حقًّا؟»

يقول هذا لي أنا! أنا (رفعت إسماعيل) بالذات! ابتسمت، وأنا أدرك أنّ هذا الرجل مهما رأى فلن يبلغ ربع ما رأيت في حياتي:

- «عرفت فيما مضى واحدًا اسمه (رفعت إسماعيل) كان لا يؤمن بأي شيء غير مادي.. لكن هذا الرجل قد توفي من دهور على ما أظن.. إنني أوافق تمامًا اليوم على وجود السحر، لكن يجب أولًا أن يكون سحرًا..»

قال بنفس الضيق:

- «لسنا واثقين من سحر المصريين القدماء... ربما كانت مجرد (حواديت) يكتبونها للتسلية على ورق البردي والمسلات.. لكنني أعرف السحر القوي حين أقابله، وثق أنني أعرف ما أتكلم عنه.. لقد كان (آرثر كونان دويل) نموذجًا فريدًا لطبيب ذكي غير قابل للخداع، وبرغم هذا لم يستطع أن يرفض السحر..»

في النهاية - حين وصلنا إلى الطابق السفلى حيث الملكة (تي) الفاتنة تجلس جوار زوجها وتبتسم ابتسامتها اللعوب الغامضة - كنا قد صرنا أقرب شيء إلى صديقين.. صحيح أنها صداقة سريعة البخر، لكنّها صداقة على كل حال..

سألته وأنا أدون عنواني ورقم هاتفي بالإنجليزية في مفكرته:

- «هل ستعود للوطن بعد المؤتمر مباشرة؟»

قال وهو يدون بياناته في مفكرتي:

- «لا.. سأمضي بعض أيام هنا.. أنا لم أر (الأقصر) بعد.. لم أرها قط..»

قلت في فخر:

- «أنا زرتها مرّتين.. كانت أول مرة أيام الجامعة و....»

- «مرّتين؟!»

وتقلص فمه في اشمئزاز، وأردف:

- «كنت أحسبكم تمضون هناك كل إجازاتكم الأسبوعية!»

ثم ناولني مفكرتي، ونظر إلى ساعته.. لم يحن وقت العودة بعد، لكنه كما هو واضح راغب في قضاء بعض الوقت منفردًا.. صافحته وقررت أن أمضي الوقت الباقي في نزهة على كورنيش النيل..

☆ ☆ ☆

كان هذا هو لقائي الأول بالنرويجي (يوهان تورلسون).. طبيب مختص بأمراض الدم، وعاشق للتاريخ المصري.. صموت... قادر على أن يكون سمجًا متى أراد ذلك..

فيما بعد التقينا في أروقة المؤتمر كثيرًا.. تبادلنا هزات الرأس أو كلمات عابرة، وقدمت أنا بحثًا لا بأس به، فهنأني بعدما نزلت من المنصة.. علاقة سطحية جميلة جدًّا كما ترون، فما كان لي ذنب في كل ما حدث بعد هذا ولا علاقة بالشيخ (خميس)..

يحب بعضكم أن يربط بيني وبين الريس (خميس) في هذه القصة، وهو نوع من التجني لا أجد له مبررًا.. أنتم قرأتم ما حدث معي، فأين ذكرت الريس (خميس) في السطور السابقة؟

إن ما حدث بعد هذا كله كان غيبًا بالنسبة لي، وإذا كنت سأحكيه في الصفحات التالية، فلأنني عرفته فيما بعد، وليس لأنني عشته.. إن دوري في هذه القصة يبدأ من الجزء الثاني لامن الفصل الثاني...

وكنت أتمنى لو لم يبدأ قط..!

☆ ☆ ☆

- ٢ -

الأقصر..

على ظهر المعدية التي تعبر النيل إلى الضفة الغربية، لابد أن صديقنا النرويجي وقف يرمق الأرض الدانية ويعرق، ويذب الذباب الكثيف ـ القادم من زراعات قصب السكر - عن وجهه، لكن هذا المجهود بدا له مستحيلًا على كل حال... بالنسبة له لم تكن هذه هي الأقصر قط.. إنها (طيبة).. عاصمة مصر..

كان قد زار ما يمكن أن يزار في البر الشرقي.. رأى الكرنك ومشى في طريق الكباش، وانبهر بمدى تقدم العمران الفرعوني.. هذه مشاهد حفظها عن ظهر قلب من الكتب، لكن الأمر يختلف على الطبيعة.. كما أنّ سماع السيمفونيات من المذياع شيء، والجلوس لتسمع المعجزة ذاتها تولد من فرقة عازفين بشحمهم ولحمهم شيء آخر..

لكن المتعة الحقيقية تبدأ في البر الغربي.. حيث تنتظرك ثمانمائة مقبرة على الأقل، وحيث يغفو وادي الملوك الرهيب في الشمس الحارقة وسط الجبال.. وحيث معبد الدير البحري الذي شادته (حتشبسوت) يومًا ما، ومعبد (الرامسيوم) المهيب المخيف..

ترجل ماشيًا بحذر على لوح الخشب الذي وضعه النوتي له.. كان هناك الكثيرون ممن يرغبون في أن يساعدوه أو يعملوا أدلة له، لكنه كان يعرف ما يريده جيدًا.. وبصعوبة اجتاز زحام اللحوحين اللجوجين، ومشى حتى صار على مسافة مأمونة منهم.. ووقف ينتظر.. لابد أن الرجل يعرف الموعد، ولا بد أنه ينتظره..

أخيرا رآه يتقدم منه.. هذا الجلباب الأبيض النقي الذي تدهش كيف لم يتسخ وسط بحر العرق هذا.. الوجه الصعيدي الأسمر قوى القسمات كأنه نحت في الأبنوس، والشعر المجعد الأشيب على جانبي الرأس فيما ظهر تحت العمامة..

دنا منه الرجل ثم سأله كاشفًا عن أسنان عاجية:

- «الدكتور (تورلسون)؟»

لم يكن النرويجي يعرف ما نُسمّيه نحن (إنجليزية الترجمانات)، لكنه على الأقل وجدها واضحة جدًا ومفهومة.. سرّه هذا لأنّه لا يفقه حرفًا من اللغة العربية..

- «أنا هو.. الريس (خميس)؟»

- «تحت أمرك..»

ودون كلمة أخرى مشى معه الرجل ليكون دليله في جولة البر الغربي هذه..

☆ ☆ ☆

كانت بحق رحلة شاقة.. لكن النرويجي كان مبهورًا متلاحق الأنفاس لا يصدّق ما يراه، وكان الترجمان المصري بارعًا عليمًا بحق بكل تفاصيل هذا الجزء من وطنه، وكان يتكلم عن ملوك الفراعنة كأنهم أقاربه.. زوج خالته وابن عمّه.. يعرفهم ويفهمهم وربما رآهم أحياء كذلك.. وتحت تأثير هذا الانطباع التقط للرجل عشرات الصور جوار الآثار كأنما يصوره وسط أملاكه الخاصّة..

أخيرا توقفت عربة الحنطور أمام الفندق الصغير الذي سيبيت فيه النرويجي ليلته... دخل الترجمان البهو وحيَّا الموظف، وتبادل همسات معه.. طبعًا بصدد عمولته لأنّه اختار هذا الفندق...

ثم صعد مع الرجل إلى حجرته...

انغلق الباب وراءهما، فمد الترجمان يده في جيبه وأخرج لفافة صغيرة أسطوانية وناولها ضيفه.. أنا لم أر هذه اللفافة لكنّها بالتأكيد كانت في حجم وأبعاد منشفة وجه تم لفها حول نفسها.. تبادل الرجلان نظرة ذات معنى، ثم قال الترجمان في صوت هامس:

- «كن حذرًا يا دكتور.. هذه مسئولية ثقيلة..»

- «أنا أعرف ما يجب عمله..»

- «وأنا لم أعطك شيئًا..»

وأشعل لفافة تبغ، ونفث سحابة بيضاء كثيفة أمام وجهه الأسمر وتساءل:

- «هل تبيعها أم هي لاستعمالك الخاص؟»

- «استعمالي الخاص..»

- «حسن.. هذا أكثر أمنًا..»

ووقف ينتظر متثاقلًا متمهلًا، ففهم النرويجي أنه نسي.. عبث في جيبه وأخرج بضع أوراق من العملة، ودسها في يد الرجل.. لكن هذا الأخير لم يبد حراكًا ولم تتحرك عضلة واحدة في وجهه..

- «فهمت..»

وأخرج بضع أوراق أخرى دسها في يده، فطواها هذا ووضعها في حافظة عملاقة بحجم كتاب صغير أخرجها من صدر جلبابه، وقال:

- «طابت ليلتك.. غدًا أمر عليك في السابعة صباحًا لنواصل جولتنا في (الرامسيوم)..»

فلمّا انفرد النرويجي بنفسه، لابد أنه لم يجد الشجاعة الكافية لفتح اللفافة.. لابد أنه تفحصها وتحسسها، ثم دسها في مكان ما بين طيات حقائبه.. هل نام جيدًا؟ أشك في هذا.. كان يعصف

بروحه مزيج من شوق عارم وحماسة مبالغ فيها... وبعض الخوف كذلك؟ لماذا لا نعترف بهذا الوحش الكاسر الغالب: الخوف؟ إنّه من حق كل إنسان.. حتى لو كان لصًّا!!!

☆ ☆ ☆

بعد أيام - وبعد نزهة لا بأس بها رأى فيها مصر كما لم يرها أحد - عاد صديقنا النرويجي إلى (أوسلو)..

كان يعيش وحيدًا بعد طلاقه من زوجته، وهي خطوة روتينية لدى شعوب الشمال هذه.. الميلاد.. الزواج.. عدم الإنجاب.. الطلاق.. الموت (أو الانتحار لو كان سويديًا أو دنماركيًا)..

كان في الخمسين من عمره.. وقد وجد غايته في الطب، وبعض التجارب الغامضة التي يقوم بها من حين لآخر، وهي تجارب عرفت طبيعتها فيما بعد.. لم يعد هذا هو عصر حرق السحرة، بل صارت لكل إنسان الحرية المطلقة لعمل أي شيء لا يضايق الآخرين.. يُمكنك أن تسكب البنزين على نفسك وتشعل الثقاب، ما دمت لن تحرق شيئًا من بيوت الجيران.. يُمكنك أن تقود سيارتك بكسرولة على رأسك وأنت تلبس فستان طفلة في السابعة، بشرط ألا توقف السيارة في الممنوع..

هنا يجب أن نذكر عدة حقائق:

١- الأخ (تورلسون) مخبول.. ربما لا تكونون قد لاحظتم هذا، وربما لا تصدقون.. لكني أقولها لكم، وأزيح عن كاهلكم عبء اكتشاف هذا بأنفسكم.. من قال إن المجنون يجب أن يبدو ويتكلم كمجنون؟

٢- منذ عشر سنوات وهو يمارس السحر، وحجته في ذلك أنه يريد استكشاف المجهول كما قضى كل هذه الأعوام يستكشف المعلوم..

٣- من الواضح تمامًا أن اللفافة التي أخذها من ذلك الترجمان في الأقصر كانت ذراع مومياء.. كلكم خمن هذا بالطبع.. إن القصة هكذا دائمًا.. ويبدو أن أذرع المومياوات سهلة التهريب إلى حدٍ ما... ومن الواضح أن صيتها عظيم في العالم الغربي...

٤- ماذا يفعله ساحر مخبول بذراع مومياء؟ سؤال غريب! إن هذا يفتح له إمكانيات لاحصر لها.. يخيّل إليَّ أحيانًا أن حياة الساحر من دون ذراع مومياء هي شيء مستحيل..

٥- يزمع الأخ (تورلسون) أن يجرب ضربًا من أفظع ضروب السحر الأسود التي تحدّثت عنها مراجع الطب.. إنّه ما يطلقون عليه (يد المجد Hand of Glory)..

إن الطريقة سهلة، وقد قرأتها بعدة أساليب، لكنّها تتلخص في التالي: يد يمنى لمجرم مشنوق (وهذه نقطة خلاف سنتكلم عنها بعد قليل) توضع في قدر به خليط من كبريتات النحاس والملح و..... لن أحكي التفاصيل حتى لا أنقل الخبرة الآثمة لشخص آخر.. تُعرّض اليد لأشعة الشمس

لمدّة أسبوعين، وتثبت إليها شمعة مصنوعة من دهن الموتى والسمسم و..... لا تفاصيل أخرى.. ليس هذا كتابًا لفنون التدبير المنزلي كما تلاحظون..

تتحول يد المجد هذه إلى ما يشبه الشمعدان... هذا الشمعدان يمكنه أن يحول كل من يتعرض له إلى شبه مشلول بلا حراك.. كانت هذه من أدوات السرقة المحببة لدى اللصوص، وكانوا يجمدون بها أصحاب البيوت (هكذا تحكى الكتب).. لكن أصحاب البيوت كانوا يتوقعون هذا بأن يدهنوا عتبات البيوت بخليط من مرارة القط الأسود ودهن الدجاجة البيضاء، ويتم تركيب هذا الخليط أيام الشعرى (بين 3 يوليو و15 أغسطس)..

لماذا يفكر الأخ (تورلسون) في صنع يد المجد؟ طبعًا لأنّه مخبول، ولأنه يريد تجربة كل شيء قذر قرأه في كتب السحر.. طبعًا كان من العسير عليه الحصول على يد مشنوق.. هذه الأشياء لا تباع في السوبر ماركت.. لكنه كون قناعته الخاصّة أن يد مومياء فرعونية هي ما يضمن قوة الوصفة.. ويبدو أنه وجد في الكتب العتيقة لديه، والتي جمعها من كل مكتبات أوروبا الشرقية، ما يؤكد يقينه هذا..

وكان أن جاء موعد المؤتمر في مصر، وكان أن اتصل ـ قبل السفر - بصديق له من هواة سرقة الآثار، وله باع قديم في هذا.. فدلَّه على من يدعي الريس (خميس)، وهو من يعرف كيف يحصل على شيء كهذا..

- «يمكن أن يخدعني ويبيعني أية يد يبدو عليها القدم..»

- «الرجل لا يمزح.. إنّه محترف، ثم إنّه الأمانة الكاملة تمشي على قدمين!!»

وهكذا سارت الأحداث إلى اللحظة التي صار فيها (تورلسون) وحيدًا في داره، ومعه تلك الذراع الفرعونية... هذا مخيف بما يكفي ويدعو لكثير من النفور.. لكنه كان يبدأ الخطوة الأولى في طريق الكوابيس الذي لا نهاية له..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

في البداية احتاج الرجل إلى أسبوعين أو ثلاثة حتى ينتهي من مهمته المقززة.. لهذا لا يمارس كل الناس السحر الأسود، لأنّه يحتاج إلى أن تكون مجنونًا تقريبًا، وأن تكون أعصابك من حديد.. لما كنا نعرف أنّ هذه العملية يجب أن تتم في أيام الشعرى، يمكن بلا خطأ كبير أن نعرف أنّ هذا تم في وقت ما بين 3 يوليو و15 أغسطس.. والحقيقة أنه كان الأسبوع الأول من يوليو..

في النهاية - جالسًا إلى مكتبه على ضوء الأباجورة - فرغ من الخطوات الأخيرة، وصار لديه ما يشبه الشمعدان.. شمعدان رهيب تقول الكتب إنّه أقوى سلاح في الكون.. كان عليه أن يجربه، وهكذا دسه في كيس ورقي ونزل إلى شوارع المدينة المظلمة يبحث عن هدف..

والهدف كان متسولًا عجوزًا يجلس على قارعة الطريق، من النوع الذي يعزف على كمان ولا يفيق أبدًا.. إنّه كنز نادر لأنّه لا يوجد متسولون تقريبًا في النرويج كلها.. وقدر (تورلسون) أنه لو حدث ضرر مميت لهذا العجوز، فلن يخسر المجتمع شيئًا.. ربما لن يخسر العجوز نفسه شيئًا.. في الغالب سيستفيد..

رأى العجوز من يدنو منه عبر ضوء الشارع الخافت.. لم يكن خائفًا.. لم يذق الخوف منذ عشرين عامًا، لأنّه لا يملك ما يخشى أن يفقده... سأل القادم بصوت واهن منهك:

- «مرحبًا أيها الغريب.. اختر لي اللحن الذي تريد سماعه.. مقابل بضعة كرونات سأعزف لك على الكمان حتى الصباح..»

دنا منه (تورلسون).. كان مرتبكًا خائفًا بحق.. هو لا يريد أن يؤذيه لكنه راغب في التجربة بحق.. مد يده في الكيس الورقي وأخرج الشمعدان الرهيب.. لوح به أمام وجه الرجل، واتسعت عيناه في ترقب.. نظر العجوز للشيء يلمع في الظلام.. اتسعت عيناه لحظة، ثم نظر لـ (تورلسون) وهمس بصوت كالفحيح:

- «أنت إذن الشيطان! (لوسيفر) نفسه! ليكن! اقتلني إذا أردت فلن أخسر شيئًا!»

ارتبك (تورلسون).. فهذا آخر شيء توقعه.. قال العجوز وهو يخرج زجاجة من جيبه ويزيح سدادتها:

- «أنا أعرف هذا الشيء جيدًا.. إن للعم (هانز) تجاربه.. لكن دعني أقل لك إن من يله بالنار يحترق بها.. وهذه الأشياء ليست للهو..»

وجرع جرعة كبيرة من الزجاجة، ومسح فمه بظهر يده المعروقة وقال:

- «هذا بالطبع إن لم تكن أنت الشيطان ذاته!»

للحظة وقف (تورلسون) متصلبًا يتأمل العجوز.. من الواضح أن التجربة فشلت.. لكن لماذا؟ هل لأن العجوز يعرف ما عليه أن يتوقعه؟ أم لأن يد المومياء لا تصلح؟ أم لأن القصة كلها خرافة؟

دس الشمعدان في الكيس الورقي وابتعد ليغيب في الظلام، بينما العجوز يصيح بصوته الواهن:

- «لو كنت يائسًا فتعال اجلس بجانبي، وأصغ إليَّ وأنا أعزف الرابسودي..»

لكن (تورلسون) كان قد توارى تمامًا..

☆ ☆ ☆

الضحية التالية كانت امرأة، وكانت واقفة في هذه الساعة أمام ناد ليلي تدخن.. قدر أن المجتمع لن يخسر كثيرًا لو أصيبت هذه بسوء ما.. لم يكن هناك من يراه لذا دنا منها ليدخل دائرة الضوء، ووقف بعض الوقت يحاول أن يجد الشجاعة.. سألته ضاحكة:

- «عم تبحث وفيم تفكر؟ يبدو لي أنك إنسان خطر للغاية أو..»

ثم صمتت عن الكلام لأنهّا رأت الشمعدان الغريب الذي يحمله.. هذه المرّة لم تكن تعرف كنه هذا الشيء لكنه بدا لها مخيفًا بما يكفي.. تقلصت الضحكة على شفتيها وتراجعت للوراء خطوة وهمست بصوت كالفحيح:

- «حقًّا أنت مجنون.. (هنري)! (هنرييييي)!»

ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لمعرفة من هذا الـ (هنري)، لأن جدارًا من العضلات يرتدي سترة جلدية، ويعلق قرطًا في أذنه، وكثيرًا من الأساور الحديدية التي يلبسها الفتوات عندنا، خرج من الظلام من مكان ما... بدا أنه موشك على التفاهم، لولا أن (تورلسون) بادر بالفرار.. هذه المرّة جرى جريًا وغاب في الظلام...

☆ ☆ ☆

الآن صار متأكدًا من شيء واحد.. كل ما كُتب عن (يد المجد) هذه خرافة، وما كان بوسعه أن يعرف ما لم يجرب طبعًا.. شعر بالسخف من منظره وهو الطبيب المثقف يجوب شوارع (أوسلو) كطفل يحاول أن يخيف الناس بسحلية اصطادها.. عليه أن يعود إلى داره ويتخلص من هذا الشيء المقيت..

لم تكن هذه أول مرة.. إنّه قد جرب كثيرًا من هذه الألعاب من قبل، وليس الغريب هنا أن أكثرها فشل، بل إن بعضها قد نجح.. وهو ما جعله يؤمن أن السحر منجم واسع، لكن الناس قد ألقوا فيه كثيرًا من الأحجار المزيفة حتى صار من المستحيل أن تعرف ما لم تجرب.. (يد المجد) هذه نموذج جيد للأحجار المزيفة التي نالت ضجة أكثر مما تستحق.. وها هي ذي قد كلفته كثيرًا من المال والجهد والخطر، خاصة لو أنّ أحدًا وجد تلك الذراع معه في المطار.. إن المصريين لم يعودوا يتسامحون بالنسبة لآثارهم، بينما كان ممكنًا في الماضي أن تخرج برأس (نفرتيتي) أو حجر (رشيد) أو مسلة كاملة تضعها في ميدان (الكونكورد)..

حان وقت الخلاص من هذا الاختراع الرهيب، ولكن كيف؟ إن الأذرع لا تصلح لإلقائها في القمامة بالتأكيد... حتمًا سيجدها أحد.. إن معجزة الشرطة هي أنهم يبدءون بأشياء كهذه، وبرغم هذا يصلون إلى الفاعل بدقة متناهية... الفاعل الذي يضرب كفًا بكف متسائلًا: كيف عرفوا؟!

وهكذا حزم أمره..

بدأ بأن انتزع الشمعة الرهيبة من اليد، ووضعها في منديل ملفوف.. إن العثور على يد ثبتت إليها شمعة، لابد أن يذكر بعض الناس بذكريات ثقافة معينة من العصور المظلمة.. ثم إنّه دسّ اليد في كيسها الورقي..

اتجه إلى المرآب وقد حمل الكيس الورقي بعدما وضع فيه ثقلًا، ولف حبلًا حول الكيس بمحتوياته.. فتح سيارته ووضع الكيس جواره، ثم أدار المحرك.. إن نهر (آكير) قريب جدًا من بيته، وبرغم هذا كانت رحلة متوترة في ظلام الليل والشوارع التي صارت شبه خاوية.. لم يحبّ كثيرًا أن يستوقفة رجال الشرطة لسبب ما ويفتشون السيارة ليجدوا هذا الشيء.. إنّه لا يهوى الأسئلة، ومعه في ذلك حق.. وبعد دقائق كان عند النهر..

كان هذا الجزء مقفرًا خاليًا من القوارب أو المارَّة، وكان هذا منتصف الليل على كل حال..

دنا من النهر أكثر فأكثر.. راح يصفر كعادة من يرتكبون شيئًا لا يريح ضمائرهم.. نظر حوله فلم ير أحدًا.. تنهد.. وتظاهر بأنه يتثاءب والشيئان في يده.. طوح بالمنديل الورقي الذي يحوي الشمعة.. ثم..

لم يلق بالكيس..

لماذا؟

لأنه سمع خطوات من ورائه فالتفت..

كانت أضواء سيارة (تورلسون) مضاءة فلم يتبين القادم، كما يحدث في هذه الأمور.. لأن الأضواء كانت تتكسر وتغلف القادم في ضباب مبهر للبصر.. لم يستطع تبين حدوده الخارجية (السلويت) إلا حين خرج من دائرة الضوء..

كان فارع القامة يرتدي معطفًا طويلًا ويدس يديه في الجيبين، وكان يتقدم ببطء كما يفعل رجال العصابات في الأفلام السينمائية.. رجل واثق من نفسه يعرف بحق ما يفعله..

لكنه لم يتقدم أكثر..

ظل واقفًا في الظلام بضع ثوان بدت كالدهر..

هنا فقد (تورلسون) رباطة جأشه وصاح في توتر (ولكم كان يخشى أن يصيح في توتر):

- «هل تريد شيئًا معينًا؟»

ببطء أخرج الرجل ذراعه من جيب معطفه ولوح بها.. وبرغم الضوء الخافت الواهن، أدرك (تورلسون) أن ذراع الرجل اليمنى مبتورة تحت المرفق..

☆ ☆ ☆

- ٤ -

لم يحدث شيء بعد هذا..

لقد دوى صوت سرينة إحدى سيارات الدورية قادمة من المنعطف القريب، ويبدو أن حادثة ما وقعت في الجوار.. وقرر (تورلسون) أن الأصوب الآن أن يركب سيارته ويبتعد.. فيما بعد سيحاول فهم ما جرى وسيفزع كما ينبغي أن يكون.. لا أسئلة محرجة الآن.. لا أسئلة..

هرع لسيارته حاملًا الكيس، وأدار محركها، وتراجع للوراء ليغير اتجاهه.. لاحظ بطرف عينه أن الرجل الغامض لم يعد هناك.. لا وقت لهذا الآن.. ثمّة وقت كاف فيما بعد للبحث عن تفسيرات مقنعة.. ابتعد عن النهر ودخل أحد الشوارع وحافظ على سرعة عادية لا تريب، وسرعان ما رأى السيارة مصدر السرينة.. كانت سيارة دورية مسرعة لا تهتم بالنظر من حولها، وخلفها كانت سيارة إطفاء حمراء تلحق بها بذات السرعة، لكنّها لا تصدر سرينة لأنهّا اكتفت بما تصدره الأولى.. كانت ملحمة الأضواء الملونة تذكره بالأحلام.. بل الكوابيس...

مشي وراء الموكب الثنائي لأنّه كان يقطع نفس الطريق.. غريب هذا! حريق في نفس المنطقة، وربما نفس الشارع..

بل في نفس البناية!!

لأنه حين وقف في الشارع رأى فوضى هائلة، وكانت الأرض زلقة غارقة بالمياه، بينما وقف الجيران المذعورون بثياب النوم يرمقون سلم الإطفاء وهو يرتفع إلى الطابق الرابع.. وكانت النار تندلع كأنها وحش غاضب لا يسكته شيء.. نار وأضواء كشافات وأضواء ملونة من سيارتي الدورية والإطفاء.. حقًّا إن هذا لكابوس!

وصاح أحد الجيران وهو يحتضن زوجته وابنته:

- «كنا سنحترق أحياء لو لم تشم (سيبيل) رائحة الشياط»

هنا هرع أحد رجال الإطفاء حاملًا خرطومًا.. انزلقت قدمه في أثناء الجري، فسقط أرضًا.. لسبب مجهول لم يتمالك (تورلسون) نفسه من الضحك.. بدا له المشهد سخيفًا كإحدى كوميديات (الفارس).. مضحك! هاهاها! كل هذا مضحك! هاهاها!

نظر له أحد الجيران بضيق وغمغم:

- «من المهين أن تسخر من هؤلاء الذين يخاطرون بحياتهم من أجلنا..»

- «معذرة.. إنّه انفلات عصبي لا أكثر.. لم أتعمد هذا..»

ودنا أحد الضباط المبتلين بالعرق والماء من الواقفين، وصاح:

- «النار اندلعت من الطابق الرابع... شقة رقم 17.. لا نستطيع الدخول لإنقاذ السكان.. هل نجا أحدهم؟»

بلهجة مخدرة كمن نوم مغناطيسيًا قال (تورلسون) من بين شفتيه المغلقتين:

- «لا داعي للبحث عن سكان الشقة أيها الضابط.. لم يكن بها سوى ساكن واحد..»

- «هل تعرفه؟»

- «إنّه أنا!»

☆ ☆ ☆

كانت معه بطاقة الائتمان، وقد استطاع أن يحصل على غرفة في ذلك الفندق...

إن يومًا شاقًا ينتظره غدًا وأسئلة كثيرة عن سبب الحريق.. لقد أجاب عن الكثير، لكن هناك المزيد دائمًا.. وتهمة الإهمال ستظل تتأرجح أمام عينيه طويلًا.. التفسير الأقرب للمنطق أنّ هناك ماسًا كهربيًا حدث في الشقة.. لا يعرف.. هذه أشياء يعرفها المحققون بسهولة غدًا، أمّا الآن فهو في كارثة... لقد احترقت مكتبته التي كانت خليطًا فريدًا من كتب الطب والسحر.. هذه هي الخسارة الأهم، أمّا المال فلم يكن في الشقة الكثير.. الأثاث يمكن دائمًا تجديده، وبعض الإصلاحات يمكن أن تعيد الشقة لحالتها القديمة أو ما يشبهها.. المشكلة والخسارة الحقيقية هي الكتب، وهذه لا تقدر كنوز الأرض على استعادتها..

لماذا حدث ما حدث؟

لقد ارتبط هذا برؤيته ذلك الشخص الغامض مبتور الذراع.. ما علاقته بالأمر؟ إنّه لم يحبّ رؤيته كثيرًا ولسبب لا يفهمه... وحقًّا إنها لصدفة غير عادية.. يحاول الخلاص من ذراع فيمنعه من ذلك ظهور رجل مبتور الذراع..

ما الذي كان هذا المخبول يريد؟ ولماذا تقدم نحوه بهذه الثقة كمن يطالب بحق مشروع؟

كانت أعصابه متوترة بحق، وقرر أن يكف عن اللّهو بهذه الأمور فيما بعد.. على من يمارس السحر الأسود أن يتمتع بأعصاب من حديد، وهو مهزوز بعنف من جراء أحداث تلك الليلة الصاخبة..

لا يدري متى نام لكنه فعلها.. وفي منامه رأى كوابيس عديدة أسوأ ما فيها أنها متداخلة، وأنه لم يذكر منها حرفًا حين آفاق... فقط يذكر أنها كانت ليلة سيئة بحق.. ولحسن الحظ أنه ترك يد المجد هذه في السيارة في المرآب، والا لزادت الطين بلة..

كان النهار قد أطل، فقرر أن يبدأ ترتيب أموره سريعًا.. لو كان رجال الشرطة قد فرغوا من المعاينة، ولو كانت حالة البناية تسمح، فإنّه سيمضي الليلة القادمة في شقته لأن هذا الفندق ليس مريحًا..

☆ ☆ ☆

لم تكن اليد في الكيس!

كانت خارجه وعلى المقعد الخلفي، وهو متأكد تمامًا من أنّه تركها في الكيس، وداري الكيس تحت المقعد الأمامي الجانبي... أشياء كهذه لايخطئ المرء فيها خاصة إذا فعلها وهو متيقظ نشط، وقد كان متيقظًا نشطًا أمس...

كان هذا غير مريح بالتأكيد، وهو من الطراز الذي يعرف جيدًا ما يفعله.. لا يمكن أن يكون فعلها غافلًا أمس.. هناك من فتح السيارة وأخرج اليد من الكيس.. هذا واضح..

عند الظهيرة احترقت السيارة.. نعم.. احترقت وهي في موقف سيارات بالساعة وسط المدينة، ولا داعي لذكر أن اليد لم تكن فيها وقتها، لأنّه أخفاها في خزانة أمانات بالمحطة..

لم يجد رجال الشرطة ما يريب في الحادث، فلم ير أحدهم شخصًا يدنو من السيارة طيلة ثلاث ساعات كاملة.. هذه الأشياء تحدث أحيانًا.. شرارة من المكان الخطأ تذهب إلى مكان أكثر خطأ، أو هذا هو التفسير الوحيد، ولنحمد الله على أن الحريق كان محدودًا ولم يؤذ أحدًا، ولم يمسك بالسيارات المجاورة.. هل لديك تأمين على السيارة يا دكتور؟ سيكون عليك أن تبرهن لهم على أنك لم تشعل النار عمدًا للحصول على مبلغ التأمين.. بعد هذا لن تخسر مليمًا واحدًا..

إلا أنه من العسير تصديق حدوث حريقين في وقت واحد لرجل واحد، وكان عليه أن يقنع رجال الشرطة بما لم يقتنع به هو نفسه: هذه صدفة لا أكثر..

في المساء أصيبت زوجته السابقة بانفجار في الزائدة الدوديّة.. واتصلت به والدتها لأنّه لابد أن يساعدها في أمور كهذه.. لا يوجد معها أحد وعليه أن يتصرّف...

وفي الحادية عشرة مساء كان قد انتهى من أمر المستشفى، واطمأن على مطلقته.. وأدرك أنه لن ينام قبل أن يقوم بعمل مهم.. اتصل بصديقه الذي سهل له عملية الحصول على الذراع.. طلب لقاءه للأهمية..

☆ ☆ ☆

- «لكن دعني أقل لك إن من يله بالنار يحترق بها.. وهذه الأشياء ليست للهو..»

☆ ☆ ☆

وفي غرفة مكتب صديقه جلس يجفف العرق عن وجهه، ويقول وهو يرتجف بلا انقطاع:

- «كل هذه ليست مصادفات.. إن حياتي كلها قد دمرت أو تغيرت في أربع وعشرين ساعة..»

قال صديقه الخبير بالآثار:

- «ثمّة أشياء كهذه حدثت من قبل.. أنت تعرف ما أصاب اللورد (كارنافون) بعد العثور على مقبرة (توت عنخ آمون).. إن هذه القصص الرهيبة يمكن أن تملأ مجلدات..».

- «خطر لي أنّ هذه هي بالضبط لعنة الفراعنة كما وصفها الأقدمون.. أنا رجل علم ولا يجب أن أصدق هذا لكن..»

- «رجال العلم الذين لا يصدقون هذا، لا يجوبون الشوارع ليلًا يجربون وصفة سحرية من العصور الوسطى.. أنت تعرف كما أعرف أنك تصدق هذا وتؤمن به.. وعلينا ألا نكابر.. يبدو أنك أيقظت لعنة فرعونية شديدة البأس من قبرها.. ويبدو أنّ هناك من يحنق عليك بشدة»

نظر لصاحبه في قنوط وتساءل:

- «هل يمكن أن يكون هناك تفسير أكثر منطقية؟»

- «لو أقنعتني أنه من الممكن أن يحترق بيتك وسيارتك، وتمرض مطلقتك في يوم واحد، لكان بوسعي أن أؤكد لك أن الفراعنة لا دخل لهم في الموضوع..»

- «والعمل؟»

قال صديقه وهو يصب بعض القهوة في كوب ورقي:

- «أنت تعرف الحل.. لا بد من تصحيح هذا الخطأ.. لابد من إعادة الذراع إلى المومياء التي أخذت منها..»

- «تعني أن أعود إلى مصر؟»

- «لا أجد حلًا آخر.. لا يمكن أن ترسل الذراع بالبريد المسجل، وتوجه الطرد إلى الريس (خميس) هذا..»

فكر (تورلسون) قليلًا وهو يمتص القهوة من الكوب الورقي... لا يدري هل الانتعاش الذي يحسه هو من القهوة أم من الفكرة الموحية بالخلاص.. لكنه بالفعل بدأ يرى الفكرة لا بأس بها.. عودة المياه إلى مجاريها هي ما يريد، ولو كانت الذراع بريئة من كل هذا، فقد قام بما ينبغي القيام به..

قال لصديقه وهو يُلقي بالكوب في سلّة المهملات:

- «أطلب لي إحدى شركات السياحة.. يبدو أنني سأمضي أسبوعًا في مصر على سبيل الترفيه..»

- ١ -

أنا المختار من بين الملايين، الذي يخرج من العالم السفلي..

الذي لا يعرف اسمه أحد

إذا نطق اسمه على مجرى الماء جف..

وإذا نطق اسمه فوق اليابسة اشتعلت النار..

[تعويذة فرعونية قديمة]

☆ ☆ ☆

لا أدري لماذا جاءني هذا الهاتف ولا ما دورى أنا في القصة كلها، لكن الساعة كانت التاسعة مساء حين دق الجرس، وسمعت صوتًا نرويجيًا باردًا يتساءل عما إذا كنت أنا (رفعت إسماعيل)..

قلت له إنني أنا، وأنا أتوجس من سر هذه المكالمة.. كنت طيلة حياتي أمقت المكالمات النرويجية في المساء، ويبدو أنني كنت على حق...

- «أنا (تورلسون).. د. (يوهان تورلسون).. تقابلنا في مؤتمر الشهر الماضي..»

طبعًا كنت أتذكر كل شيء لكنني أردت بعض الوقت كي أرتب أفكاري.. قال لي:

- «أنا أتكلم من القاهرة من فندق (...).. هل يمكن أن يسمح وقتك بلقاء في مكان ووقت يناسبان كلينا؟»

حككت رأسي مفكرًا، وقلت وأنا أتمنى أن أجد سبيلًا للفرار:

- «ليكن.. سأقابلك في لوبي الفندق غدًا في العاشرة صباحًا..»

ووضعت السماعة شارد الذهن... ماذا جاء بهذا الرجل هنا، وهو قد عاد لبلاده منذ أسبوعين لا أكثر؟ ما سر هذه الصداقة المفاجئة وهو من الطراز البارد الرسمي، الذي يحتفل بكل يوم يخسر فيه صديقًا؟ طبعًا يريد خدمة ما، فهذا هو السبب السحري الوحيد الذي يحيل غير الودودين ودودين فجأة.. لكن أية خدمة؟

☆ ☆ ☆

- «إن الأمر يتعلق بموميا‌ء!»

قالها لي محاولًا أن يبتسم، لكن ابتسامته لم تنجح إلا في أن يسقط قدح القهوة من يدي، حيث جلست في لوبي الفندق الفخيم... هذه آخر خدمة كنت أتوقعها، ثم مادخلي أنا في هذا الأمر؟ المفترض أنه لا يعرف سمعتى السوداء في هذا الصدد.. السمعة التي أحاول أن أخفيها حتى لا تختلط بصورة الطبيب المحترم.. لا أريد أن ينظر الى الناس كأحد المجاذيب أو المشعوذين الذين يملئون الأزقة خلف مسجد (الحسين)..

قلت له محاولًا أن أتمالك نفسي:

ـ «أعتقد أن عندك قصة مهمّة شائقة تفسر كل شيء، وإننى لفي غاية الامتنان لو قصصتها على الآن..»

كان ـ كما قلت لك ـ أشقر جدًا.. أزرق العينين جدًّا.. أحمر البشرة جدًا.. باردًا.. لكنه الآن لم يعد باردًا إلى هذا الحد.. ثمّة خبرة قاسية مروعة مرّت به، وجعلته أكثر إنسانية، ولاحظت أن زاوية فمه ترتجف أكثر من اللازم، وأن يده اليمنى تمسك باليسرى كي لا تهتز..

راح يحكى ورحت أصغى، وإنني لأرجوكم أن تسمحوا لي بالإنصات قليلًا.. أنتم تعرفون ما لا أعرفه طبعًا.. كلا.. لن أكرر ما قال لأنني لست من هذا الطراز من الكتاب... الشيء الوحيد الجديد الذي لم تعرفوه هو أن الرجل جاء بالذراع معه في حقيبته، وقد اعتزم أن يردها إلى موضعها..

حين انتهى من كلامه كان سؤالي المنطقي هو:

- «ولماذا أنا بالذات؟»

قال وهو يضع ساقًا على ساق شاعرًا بالرضا لأنّه انتهى من هذه القصة التي كانت حملًا على كاهله:

- «أنت مصري أولًا.. هذه نقطة مهمّة لأنني أجهل كل شيء عن هذا البلد.. أعرف كل شيء عن تاريخه لكنني لا أعرف شيئًا عن جغرافيته... باختصار لا بد من واحد من أهل البلد يساعدني..»

- «هذه نقطة قد أفهمها.. والنقطة الأخرى؟»

- «أنت مهتم بهذه الأمور. لقد سألت عنك زملاءك في المؤتمر، وكان التعليق الوحيد الذي يتكرر دائمًا هو: إن (رفعت إسماعيل) حجة في عالم ما وراء الطبيعة.. ربما لهذا لم يمتلك عيادة خاصة.. ربما لهذا لم يتزوج.. ربما لهذا لا يملك مالًا.. إنّه راهب الغموض والأسرار المتوارية تحت الأرض..»

كنت أتوقع شيئًا من هذا.. لا يمكن أن يجد أحدهم أن لخالته نابين، أو أن عيني جاره مشقوقتان بالطول، إلا ويجد من ينصحه بأخذ رأي العجوز (رفعت إسماعيل) لأنّه يفهم في هذه الأشياء..

قلت له في تهذيب:

- «دكتور (تورلسون).. أنا متفق معك تمامًا في وجوب إرجاع هذه الذراع لمكانها.. ليس لتتقي لعنة الفراعنة فأنا لست واثقًا من أنّ هذه هي مشكلتك، ولكن لعدة أسباب»

ورحت أعد على يدي:

- «أولًا: هذه طريقة غريبة مهينة لمعاملة البلد الذي استضافك، فما كان منك إلا أن سرقت آثاره.. مثلك مثل الضيف الذي يزورني ثم يتسلل إلى المطبخ في أول فرصة، ليسرق قطعة لحم من إناء الطهي..»

قال في ضيق وقد قرر أن يغضب هذه المرّة:

- «لحظة..»

- «لا تقاطعني أرجوك.. لا داعي للكلام الرسمي لأننا نريد أن نتكلم بصراحة مطلقة.. أنتم الغربيين تتعاملون مع كنوزنا باستخفاف وغلظة كأنها ليست من حقنا.. ويبدو أنكم لن تشفوا من هذا الداء قريبًا.. يمكنكم دائمًا فهم غضب الإيطاليين بسبب وجود (الموناليزا) في فرنسا، بينما لا تفهمون أبدًا لماذا نغضب بسبب وجود تماثيلنا في أوروبا.. ثانيًا: أنت خرقت احترام الموتى وحق هذا الفرعوني المسكين في أن يدفن بالطريقة التي اختارها لنفسه.. انت تعرف كم كان الفراعنة يقدسون الموت، ويقدسون سلامة جسدهم وقت الحساب، ولهذا اخترعوا التحنيط.. ربما كان هذا كله هراء، لكن من حقّهم أن نتركهم في الصورة التي أرادوا أن يظلوا بها... أنت تقابل في الغرب من يطلب كتابة قصيدة معينة على قبره، أو دفن كراس معه، وتجد من علامات التحضر أن تفعل ما طلب وتلتزم به حرفيًا... لماذا تفترض أنّ هذا الفرعوني لا يستحق مجاملة أخيرة كهذه؟ لقد استقبلت فرنسا مومياء (رمسيس الثاني) باستقبال رسمي جدير بالملوك، باعتباره ملك دولة صديقة.. إن (رمسيس) لن يعرف بشيء من هذا كله، لكن المهم هو المعنى والمغزى.. هذا هو ما يجعلنا بشرًا متحضرين..»

- «ثالثًا: أنت سرقت جزءًا من جثة آدمي لتستخدمها في السحر الأسود.. لا يوجد أحط من هذا إلا الساحرات اللواتي كن يلتهمن قلوب الأطفال النابضة.. الساحرات كن يُحرقن أو يُغرقن مثقلات بالحجارة.. فماذا يكون مصيرك أنت في عصر العقل هذا؟ لا شيء سوى أن أبدي ضيقي ونفوري..»

- «لا شك أنك اتخذت القرار الصائب.. ربما كان متأخرًا لكن لا حل أمامك سواه.. أمّا أنا فلا أملك إلا أن أتمنى لك التوفيق، وأقر أنني لست خير من يساعدك في هذا الموضوع..»

قال في ضيق:

- «ماذا عن الذهاب إلى الأقصر للقاء هذا الدليل؟»

- «أنت ذهبت من قبل وحدك ولم تجد صعوبة ما.. يمكنك أن تفعلها ثانية.. أمّا أنا فارتباطاتي هنا تحول بيني والسفر... ثم إنني لن أفعل سوى ما ستفعله أنت.. أين الريس (خميس) يا شباب؟ ها هو ذا يا سيدي.. يا ريس (خميس).. هذه هي الذراع.. خذها وأعدها حيث كانت.. شكرًا.. سلام..»

نظر لي بعض الوقت، شاعرًا ـ طبعًا ـ أنه أضاع وقته وكبرياءه، وتلقى درسًا في الأخلاق ممن لا يستحق... رشف ثمالة القهوة ثم نهض وأغلق أزرار سترته وترك المكان..

☆ ☆ ☆

- «لكن دعني أقل لك إن من يله بالنار يحترق بها.. وهذه الأشياء ليست للهو..»

☆ ☆ ☆

- «هذا بالطبع إن لم تكن أنت الشيطان ذاته!»

☆ ☆ ☆

فيما بعد عرفت ما حدث..

لقد ارتحل الرجل في اليوم التالي إلى الأقصر، واستقر في نفس الفندق الذي كان يقيم به في المرّة الأولى، فما إن أفرغ حاجياته من الحقائب، حتى ارتدي قميصًا قصير الكمين وصندلًا بما يناسب حرارة الجو القاتلة، ونزل إلى الطريق يبحث عمن يدله على الريس (خميس)..

في المرّة الأولى كان الأمر سهلًا لأن الريس (خميس) هو من وجده، وكان أحد النرويجيين قد اتصل به، وأخبره بالضيف المنتظر، أمّا الآن فعليه أن يجد الرجل بنفسه..

سأل عن الرجل في بعض البازارات لكن أصحابها ـ الذين كانوا يجيدون الإنجليزية لحسن حظه ـ لم يتعرفوا الاسم.. ونصحوه أن يبحث بين الأدلاء..

ركب عربة حنطور، وقرر أن يسأل سائقها.. إن هؤلاء القوم أدلاء بالفطرة، ويعرفون كل إبرة في المكان.. المشكلة كانت هي أن الرجل لا يعرف من الإنجليزية إلا بضع جمل..

بعد جهد فهم الرجل أن السؤال عمن يدعي الريس (خميس)، وفهم النرويجي أن الرجل ينصحه بالسؤال في البر الغربي، لأن عشش هؤلاء القوم متناثرة هناك.. ثم حك السائق ذقنه مفكرًا وقال:

- «أعرفه.. تقول الريس (خميس)؟ أعتقد أنني أعرفه..»

ثم كان أن نصحه بسؤال من يدعى (هميدة).. (حميدة) طبعًا لو ترجمنا الكلام إلى العربيّة..

وهكذا عبر النرويجي التعس المعدية إلى البر الغربي.. من جديد يحييه الذباب الذي لا يترك الوجه إلا ميتًا.. بحث وسط الأدلّة الكثيرين، وهو لا يردد إلا كلمتين (خميس) و(حميدة).. اخترق عشرات من الخيول وعربات الكارو وهو لا ينفك يبحث عن وجه بعينه...

أخيرا برز (حميدة) من بين القوم، وكان شابًا في العشرين من عمره، أسمر اللون مجعد الشعر يرتدي سترة وسروالًا من مخلفات الجيش، ويبدو أن عمره العقلي - بحكم التعامل اليومي - لا يقل عن الأربعين.. لهذا سأل النرويجي بطريقة البيع لا الشراء وهو يغمض إحدى عينية تشككًا:

- «لماذا تريده؟»

كانت إنجليزيته أفضل قليلًا من سلفه، لكنّها ظلت إنجليزية ترجمانات كما نعرفها نحن المصريين..

قال (تورلسون) في نفاد صبر:

- «أنا سائح وهو ترجمان.. لماذا أريده إذن؟ خمن!»

- «من العسير أن تقابله.. لكن لو كنت بحاجة إلى ترجمان...»

- «فيما بعد.. فيما بعد.. ولماذا لا أستطيع أن أقابله؟»

هنا قال الفتى ما توقعتموه بالضبط..

قال إن الريس (خميس) توفاه الله منذ يومين..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

ارتجف (تورلسون) وعاد يكرر الكلمات.. الرجل مات منذ يومين، وهو تقريبًا الوقت الذي وصل فيه إلى مصر..

إنها رسالة واضحة جدًا.. كيف مات الرجل؟ لا أحد يدري على وجه اليقين.. إنِّه رجل مسن وهذه أعمار.. من يضمن منا ألا يسقط ميتًا الآن حالًا؟

- «وهل.. هل دفن؟»

- «طبعًا يا خواجة.. هل كنت تريد أن ننتظرك؟»

كانت مشكلة قوية.. يمكنه أن يترك الذراع أو يتخلص منها في أي مكان.. لكنه كان يعرف ما هو أفضل من هذا.. يعرف أن عليه دينًا يجب سداده.. فإن لم يسدده كان عليه أن يدفع ثمنه بالدم أو ـ في أفضل الظروف ـ بالرعب طيلة حياته..

لم تطل به لحظة التردد، واتخذ قراره سريعًا.. انتحى بالفتى جانبًا، وقال له هامسًا:

- «ثمّة خدمة أريدها منك.. أنا مستعد أن أدفع.. أدفع بسخاء..»

لم يقل الفتى شيئًا مواصلًا سياسة (بيع لاشراء) التي تبناها من اللحظة الأولى، فقال (تورلسون):

- «ثمّة شيء جلبه الريس (خميس) لي.. شيء لا أرغب فيه وأرجوك أن أعيده إلى حيث كان.. هل تفهم كلامي؟»

قال الفتى مواصلًا توجسًا:

- «أي شيء بالضبط؟ هل تتكلم عن أثر يا خواجة؟»

- «نعم.. نعم.. قطعة من مومياء لو شئت الدقة..»

- «إذن أنت أخطأت المكان والشخص.. نحن لا نتاجر في الآثار..»

كان يتوقع هذه الاستجابة، فعاد يلح:

- «الأمر لا يتعلق بأخذ شيء ولكن بإرجاعه حيث كان.. الفارق واضح..»

قال الفتى في حدة وهو يتهيأ للابتعاد:

- «شرطة الاثار لا تعرف الفارق بين من يحمل قطعة من جثة لتهريبها، وبين من يحملها لإعادتها، ولن يصدّق أحد أي كلام عن إرجاع الأثر لمكانه..»

- «سأدفع بسخاء...»

وفي قبضة الفتى استقرت حفنة من الأوراق المالية، فنظر لها مليًا.. ثم أشعل لفافة تبغ ودس الأوراق في جيبه.. لقد بدأ يلين نوعًا..

- «ثمّة مبلغ مماثل لهذا بعد انتهاء العملية..»

- «لحظة.. لماذا تفترض أنني أعرف من أين جاء الريس (خميس) رحمه الله بهذه القطعة؟»

- «أنتم تعرفون هذه الأشياء جيدًا.. وأعتقد أنه في مهنتكم لا توجد أسرار..»

كان يعرف جيدًا قصة قبيلة الحربات التي كان أهلها يعرفون ويتوارثون سر أربعين مومياء مخبأة في الجبل، وكان هذا هو مصدر رزق القبيلة حتى انكشف الأمر عام 1881.. لقد رأى كأكثر الأوروبيين فيلم (المومياء) الذي أخرجه (شادي عبد السلام)، وهو يعرف أن القصة حدثت فعلًا.. هؤلاء القوم يملكون أسرارًا خاصة بهم، محرمة على سواهم.. لكنهم جميعًا بلا استثناء يعرفونها...

فكر الفتى بعض الوقت ثم قال:

- «ليكن.. هات الشيء عند الغروب، وسأرى ما أستطيع عمله.. سأكون بانتظارك عند(الرامسيوم).. هل تعرفه؟»

- «طبعًا.. أنا أعرف (طيبة) كظهر يدي..»

ابتسم الفتى ساخرًا ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وقال:

- «إنها لم تعد (طيبة) يا خواجة.. اسمها الآن الأقصر..»

- «إنها مازالت (طيبة) بالنسبة لي..»

ولا بد أنه حين انصرف لم يلحظ نظرة الفتى الساخرة إلى ظهره، وبعدها طوح لفافة التبغ وعاد يواصل عمله..

☆ ☆ ☆

وبينما كانت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربي، حتى لتكاد تسمع صلوات كهنة (آمون) القديمة.. التقى الرجلان: المصري الشاب والنرويجي الكهل.. نظر (تورلسون) حوله ثم مد يده بكيس ورقي كبير إلى (حميدة)، وقال هامسًا:

- «هل عرفت من أين جاءت؟ هل من وادي الملوك؟»

ابتسم الفتى في غموض وقال:

- «أنت لم تأت لتسأل أسئلة.. لاحظ أنني لم أسألك لماذا أردت هذه القطعة، ولا لماذا تعيدها.. كل واحد لديه أسرار يكره أن يعرفها الآخرون.. والآن ألقاك غدًا في نفس المكان والزمان لأخبرك بما فعلت أو أعيد إليك أمانتك..»

طبعًا لم يكن (تورلسون) بالسذاجة التي تجعله يتوقع أنها من وادي الملوك، لكنه كان يسأل لمجرد السؤال.. إن هذا الوادي يحوي جثثًا ثمينة بحق لا يمكن العبث بها.. لكن هناك مومياوات

كثيرة في الأقصر، أكثرها لعامة الشعب الذين لا يذكر التاريخ أسماءهم، وربما لا تعرف هيئة الآثار عنهم شيئًا.. وبالتأكيد لن يشعر أحد بفقد ذراع أحدهم...

كان أول فرعون يفكر في الدفن قرب النيل هو (أمنحتب الأول) من الأسرة 18.. قبلها كان الفراعنة يفضلون بناء المصاطب والأهرام ليدفنوا فيها حتى يناديهم (أوزيريس) للحساب، لكن المشكلة هنا هي أن اللصوص كانوا متحمسين أكثر من اللازم، ولم يكونوا ممن يخافون لعنة الفراعنة على ما يبدو، وكان من المهم للمصريين القدامى أن يلقوا حساب (أوزيريس) بكامل أعضائهم وكنوزهم وإلا فالويل لهم...

لهذا قرر الفرعون (أمنحتب الأول) أن يجد لنفسه مكانًا بعيدًا غير روتيني ليدفن فيه.. مكانًا محاطًا بالجبال الوعرة ودانيًا من النيل نهر الحياة.. وسرعان ما وجد الفراعين الذين تلوه أنّ هذا الموضوع مريح ومبهج وآمن.. وتكوَّن وادي الملوك بنفس السرعة التي تنشأ بها قرى الساحل الشمالي اليوم.. لكنهم لم يستطيعوا الخلاص من عادة الأهرام المحببة، لهذا اختاروا أن تطل على قبورهم هضبة هرمية يسميها الناس هنا (القرن)..

هل ظلوا آمنين كما توقعوا؟ بالطبع لا وإلا ما كنا نعرف عنهم أى شىء.. وكان الأخ المغامر الإيطالي (بلزوني) - عام 1817 - هو أول من أزعج سباتهم الطويل.. لقد وجد مومياء في هذا الوادي، وكانت تخص الملك (سيتي) الأول.. بعدها توالت الكشوف، وصار وادي الملوك أشهر من نار على علم..

في اليوم التالي، تم اللقاء وقال (حميدة) باسمًا وهو يشعل سيجارته:

- «كله تمام يا خواجة.. اطمئن..»

ثم مد يده، ولم يكن أمام (تورلسون) إلا أن يصدقه.. أخرج رزمة مكتنزة من المال ودسها في يد الفتى، وسأله بحذر:

- «هل أعدتها لنفس المكان؟»

قال الفتى ما معناه:

- «عيب.. أنت تتعامل مع رجل..»

- «والتفاصيل؟»

- «لا أسئلة..»

ودون كلمة أخرى راح يثب فوق الحجارة قاصدًا مجموعة من السياح تدخل المعبد..

ما كان لدى (تورلسون) إلا أن يصدقه ويعود إلى الفندق..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

القاهرة..

حيث كنت أنا أمضى فترة من أجمل فترات حياتي، برغم كراهيتي العارمة للحر الذي يتسلل إلى كل خلية من جسدي.. كانت الحياة هادئة كاللبن البارد، واعتدت ألا يحدث شيء ما.. لقد كف أقاربي عن الموت (ربما لأنّهم انتهوا)، وكفت الأشباح عن مضايقتي (ربما لأنهّا عرفت أنه لا خطر مني)، وكف أصحاب الأسرار الرهيبة عن طلب رأيي (ربما لأنّهم أدركوا ألا جدوى هنالك..)

في هذا الوقت تدخلت الصدفة، في شكل دعوة على العشاء.. والداعي هو الدكتور (رمزي حبيب) خبير المصريات الذي التقيت معه من قبل في قصة لعنة الفرعون (أخيروم) إياها[1].. كانت هناك مومياء، وقد ارتكبت غلطة حين قررت أن أشرّحها بنفسي، وكانت هناك بلورات تتناثر في كل صوب، تهدي حارس المقبرة إلى طريقي.. هل قرأتموها؟ لا؟ إذن حاولوا أن ترجعوا إليها.. أعتقد أنها كانت قصة جيدة..

كما تعرفون كان الدكتور (رمزي حبيب) مولعًا بالبشر واجتماعيًا، وهي جريمة لا تغتفر بالنسبة لي... لكني سامحته لسبب واحد: هذا الرجل كنز من العلم يمشي على قدمين، وكل مرة يفتح فيها فاه للكلام تضيف لعمري أعوامًا من الخبرة..

كانت زوجته (ماري) تقدم لنا الطعام الذي طهته بنفسها.. وهي من النوع الذي لا يحبّ الأكل، لكنّها تحب بحق أن ترى ووحوشًا تتصارع عليه حتى الموت. إن هذا يملؤها فخرًا.. وكما كانا في المرّة السابقة لم ينجبا قط.. ومن الواضح أنهما لن يفعلا أبدًا..

بالطبع دار الكلام بيننا عن القصة السابقة، وبما أنه كانت فيها مومياء غاضبة؛ فقد خطر لي أن أحكي له عن قصة ذلك المجنون النرويجي، وتجاربه المنزليّة على يد المجد.. لم أتوقع أهميّة ما أقول للرجل، لأن الابتسامة راحت تضمحل شيئًا فشيئًا عن وجهه، وبدأت أخاديد من الاهتمام تتكون هناك... ربع ساعة حكيت فيها قصتي كانت كافية لتبديل مزاجه كلية..

- «وماذا حدث في الأقصر؟»

قلت له في خفة:

- «لاشيء.. إنِّه يبحث الآن عن الريس (خميس) هذا، وأرجو ألا تكون مهمته يسيرة..»

قطب جبينه أكثر فأكثر وتوقف عن المضغ، فقالت الزوجة مروعة:

- «آآآآه! أنت دست على ذيل الأسد النائم يا د. (رفعت).. ما كان لك أن تحكى قصة كهذه لو كنت تعرف أدنى شيء عن زوجي..»

لم يسمع كلامها أصلًا، بل نظر لي نظرة سوداء كارهة وقال:

- «هذه أمور لا مزاح فيها.. هذه سرقة آثار لا شك فيها، وكان واجبك نحو هذا البلد أن تبلغ عن ريسك (خميس) وطبيبك النرويجي هذين من اللحظة الأولى..»

- «هأنذا قد أبلغت..»

- «بالصدفة.. إن أمثالك هم سبب تدمير ثروتنا السياحية.. والمصيبة أنك من الطبقة المثقفة لهذا البلد.. تصمت استهتارًا أو مجاملة، ثم نجد ربع آثارنا هناك.. في هذا المتحف أو ذاك.. لدى هذا الثري أم ذاك..»

ونهض وقد عزم على اتخاذ إجراء سريع.. كلا... ليس إعدامي طبعًا بل إبلاغ شرطة الآثار أنّ هناك من يدعي الريس (خميس) يقوم بتهريب أذرع المومياوات للسياح المتحمسين في الأقصر..

صحت فيه متوسلًا:

- «ليكن.. لكن لا داعي لإبلاغهم عن (تورلسون) إن الرجل الآن يحاول إعادة أثر لاسرقته..»

- «هذا لا ينفي أنه سرقه من قبل..»

قلت متوسلًا بحرارة أكثر:

- «(رمزي).. لا داعي للإحراج أرجوك.. لقد ائتمنني الرجل على سرّه، ومن المفترض أن أظل صامتًا.. أنت تعرف كما أعرف أنه لن يؤذي أحدًا بعد الآن.. سيفر فرارًا إلى وطنه..»

بدأ يلين قليلًا وهز رأسه بما معناه أنه سيحقق الى هذا الحلم.. ثم قال والسماعة على أذنه:

- «ألم يخطر لهذا المخبول أن الترجمان قد خدعه؟ ربما باعه ذراع جثة عادية عولجت كي تبدو قديمة..»

قلت في حيرة:

- «لم أفكر في هذا..»

- «حدث هذا مرارًا..»

- «إذن لا نكون أمام قضية تهريب آثار بل قضية نصب..»

- «سنعرف هذا حالًا.. آلو.. هل العميد (عصمت) موجود؟»

فلا تنس أننا كنا في عصر لم تتحول فيه رتب الشرطة إلى رتبتين لا أكثر: بك وباشا... ومضى يتكلم همسًا مع الطرف الآخر، بينما رحت أعبث بالملعقة في قدح الشاي الفارغ شاعرًا بالإثم..

وحين عاد لي د. (رمزي) قال وهو يجلس ويتناول قدح الشاي الذي يرد دون أن يشربه:

- «هكذا نعرف... ثم أن الاهتمام بالموضوع جانبًا علميًا.. ربما كان هذا الترجمان يعرف مكان مقابر لانعرفها.. إن قصة قبيلة الحربات شاخصة أمام عيني كل عالم مصريات.. إن كل شيء في الأقصر بالغ الأهميّة.. (طيبة) عاصمة مصر القديمة تحوي من الأسرار أكثر مما في رأسك.. أ.. في رأسي من شعر.. عرفها الإغريق بهذا الاسم كما عرفوها باسم (ديوسبوليس) - أي المدينة السماويّة - والتوراة تسميها (نو آمون) أي (مدينة آمون).. لقد بدأ عمرانها من عهد الأسرة السادسة.. ثم تحولت إلى عاصمة البلاد التي تدين بدين (آمون)، فلم يخرق هذا إلا (أخناتون) ولفترة وجيزة جدًا.. وظلت صامدة إلى أن دمرها الرومان في القرن الأول الميلادي..»

- «وفي (طيبة) بدأ الملوك من الأسرة الثامنة عشرة يختارون قبورهم، وهكذا تكون وادي الملوك المهيب..»

سألته والعبارة التي قالها لا تفارق مخيلتي:

- «وهل تعتقد بوجود مومياوات لا تعرفون عنها شيئًا بعد؟»

فكر قليلًا ثم قال:

- «إن فن التحنيط نشأ في مصر حوالي عام 4000 قبل الميلاد.. كان هذا كما تعلم طقسًا دينيًا مهمًا بالنسبة لهم.. يُقال إن كهنة الفراعنة قاموا بتحنيط نحو 730 مليون جثة حتى انقرض هذا الفن حوالي سبعة قرون قبل الميلاد.. تخيل هذا؟ 730 مليونًا! كم مومياء وجدنا نحن وكم بقي؟ إن الاحتمالات لتدير الرءوس.. ولكن سنعرف كل شيء بعد استجواب الريس (خميس) هذا..»

☆ ☆ ☆

بعد يومين اتصل بي ليقول في الهاتف:

- «البقية في حياتك!»

صحت في جزع:

- «هل توفيت زوجتك؟»

- «يا أخي الملافظ سعد.. لقد توفي الريس (خميس) هذا.. توفي منذ فترة، ويبدو أنه في نفس لحظة وصول طبيبك النرويجي إلى مصر.. الوفاة تبدو أقرب إلى نوبة قلبيّة أو ربما هي كذلك

فعلًا»

- «صدفة غريبة حقًّا.. وماذا عن النرويجي؟»

- «هل نسيت؟ أنت طلبت عدم إقحامه في الموضوع... بالطبع لا أعرف عنه شيئًا.. لكننا نُجري بعض التحريات بين معارف الترجمان، ويبدو أننا بصدد شيء مهم.. أعتقد أننا سنجد المقبرة التي أُخذت منها الذراع.. إن للشرطة وسائلها كما تعلم..»

كنت قد نسيت كل شيء عن الموضوع، وبالطبع لم أكن مهتمًا بما تصل إليه التحقيقات.. بعد أيام سيعلنون في الصحف عن اكتشاف مقبرة الأمير (نخت - ساو - رع) - أو شيء من هذا القبيل - من أمراء الأسرة التسعين لو كان شيء كهذا ممكنًا، وتظهر الصور أثريًا يضحك في جذل وهو يقف على باب مغارة محاط بالحبال، ومعه يختلس العمال جزءًا من ابتسامات الصورة... أسنان بيضاء وسط الوجوه السمراء، وبعدها ننسى الأمر برمته..

لكن (تورلسون) لم ينس...

☆ ☆ ☆

نعود إلى (تورلسون) المسكين الذي عاد إلى الفندق، ولسبب ما قرر أن يظل أيامًا في الأقصر قبل أن يعود إلى القاهرة.. كان يشعر أن الأمور قد تحتاج إلى أن يظل هنا بعض الوقت..

راح يقرأ في الفراش بعض الوقت، وكان الكتاب الذي يطالعه يتحدث عن مصر القديمة.. لا يدري متى هده التعب فنام.. لابد أنه وجد الوقت الكافي ليطفئ النور..

وهنا تداخلت رؤى الواقع، بذكريات اليوم، بأضغاث الأحلام.. (حميدة) والريس (خميس) يقتادانه عبر نهر (ستيكس) الرهيب إلى مملكة (هيدز) حيث الأرواح المعذبة.. قال لهما إن هذا هراء لأن الأمر لا يحمل طابع الأساطير الإغريقية، لكنهما كانا مصرين... على باب (هيدز) يجلس المتسول العجوز يعزف على قيثاره، ثم يتوقف ليقول له:

- «إن من يله بالنار يحترق بها.. ما لم تكن أنت الشيطان ذاته! ما لم تكن أنت الشيطان ذاته! ما لم تكن أنت الشيطان ذاته! ما لم تكن أنت الشيطان ذاته! ما لم تكن أنت الشيطان ذاته! ما لم تكن أنت الشيطان ذاته! ما لم تكن أنت الشيطان ذاته!»

وتتردد العبارة عبر وديان (هيدز) ومن مكان ما يأتي الكهل (رفعت إسماعيل) وقد بدا مثل (شارون) رسول الجحيم.. ينظر له ويقول:

- «مثلك مثل الضيف الذي يزورني ثم يتسلل إلى المطبخ في أول فرصة، ليسرق قطعة لحم من إناء الطهي...»

وتمتلئ السماء بالأذرع المبتورة والشموع المصنوعة من دهن المشنوقين، وتتردد لفظة (يد المجد) عبر الآفاق.. ويصرخ (تورلسون).. يصرخ.. يصرخخخخخ!!

وهب في الفراش شاعرًا بالراحة المعهودة لمن يدرك أنّ هذا كان كابوسًا، لكنه حين نظر جواره في الفراش وجد المومياء نائمة!

ويصرخ (تورلسون).. يصرخ.. يصرخخخخخ!! ومن جديد يفيق ليدرك أنه رأى كابوسًا ضمن كابوس، وهو أسلوب فريد شبيه بالمسرحية ضمن المسرحية كما فعل (شكسبير) في (هاملت)..

كانت الحجرة ساكنة هادئة.. في الظلام تعتاد عيناه حدود المملكة القديمة.. لكن.. صبرًا.. ثمّة شيء ما لا يريحه.. هذا الجسم جوار المرأة لم يكن هناك في السابق.. جسم له أبعاد وحدود تعطي الانطباع بـ.....

هل هو كابوس جديد؟ كابوس ضمن كابوس ضمن كابوس؟ أم أنه؟

وامتدت يده إلى الأباجورة جوار الفراش، وضغط المفتاح.. فغمر الضوء الغرفة، ورأى كل شيء..

لم يكن مخطئًا..

ليته كان مخطئًا..

☆ ☆ ☆

- ٤ -

- «وماذا فعلت بعدها؟»

- «ما هو طبيعي ومتوقع.. صرخت بأعلي صوتي.. جـ.. جاء الخدم إلى الحجرة.. لكن وسط الفوضى التي أعقبت صراخي فر (الشيء) مبتعدًا..»

- «ولم يره أحد وهو يغادر الغرفة؟»

- «هذا ما حدث.. وطبعًا حسبني الجميع مجنونًا..»

نظرت إلى الدكتور (رمزي) الذي جلس جواري رافعًا عويناته كعادته فوق خصلات شعر رأسه الأشيب.. لم يكن يملك أسئلة، وكذلك كنت أنا قد عرفت كل شيء عما فعله (تورلسون) منذ جاء إلى الأقصر..

لقد اتصل بي في الثالثة صباحًا.. كلا لم تكن مكالمة ولكن كانت نوعًا من العواء، وبدا لي أنه على وشك الجنون إن لم يكن جن تمامًا.. قال وسط عباراته المختلطة:

- «يجب أن تساعدني.. لا بد من أحد يساعدني.. لم أعد أستطيع مجابهة كل هذا وحدي.. اسمع.. أنا جاد فيما أقول.. سأقتل نفسي غدًا، ولسوف أحملك المسئولية كاملة في خطاب أتركه لإدارة الفندق.. ويوم أصير شبحًا سأطاردك في كل ساعة من يومك و.....»

وهكذا لم أستطع.. لم أجد سبيلًا لمنع هذا المخبول من الانهيار التام، إلا أن أتصل بالدكتور (رمزي) أستفتيه... قال إن عليَّ أن أذهب إلى الأقصر إذا أردت أن أمنع معدوم الإرادة هذا من قتل نفسه.. إنِّه مصر على أنني قادر على إنهاء مأساته.. لا أدري السبب.. كأن هناك من أخبره أنني من كهنة (آمون) أو ربما (آمون) نفسه..

إلا أن ما شجّعني على الأمر هو أن (رمزي) قال إنِّه راغب في الذهاب إلى الأقصر معي؛ لأن الموضوع بدأ يثير اهتمامه... تصوّر هذا! أن ترى الأقصر ومعك عالم مصريات! وأي عالم مصريات! إن د. (رمزي حبيب) - بالإضافة إلى سعة علمه - لذو حيثية ونفوذ لا بأس بهما، ويمكن أن تفتح له المعابد والمقابر التي لا يراها الغلابة غير المتخصصين من أمثالنا... إن الموضوع مغر بحق.. ولن يؤذيني في شيء..

وحين وصلنا إلى الفندق - بعد رحلة مرهقة بحق - أثار دهشتي أن أرى ما تحول إليه (تورلسون) في غضون أيام.. كان كما قلت نرويجيًا بكل ما في الكلمة من معان.. أشقر جدًّا.. أزرق العينين جدًّا.. أحمر البشرة جدًا.. لكنه لم يعد يتمتع بأي نوع من التوازن العصبي، وخطر

لي أنه من الأسلم أن نسلمه إلى السفارة النرويجية لتعنى به.. كان جالسًا في مقعده ينظر للأمام بعينين ذاهلتين دون أدني نية لمبادلتنا النظرات أو الحركة..

سألته:

- «هل تعني أن إرجاع الذراع لم يكن كافيًا كي تتركك اللعنة؟»

قال د. (رمزي) في نفاد صبر وبالعربية:

- «أي إرجاع ذراع؟ يا (رفعت) لا تكن ساذجًا.. أولًا أنا أشك في موضوع اللعنة هذا.. ثانيًا من الحماقة أن تحسب ذلك الفتى.. ماذا كان اسمه؟ (حميدة).. قد أرجع الذراع للمقبرة ذاتها.. من الواضح تمامًا أنه وجد أمامة مخبولًا يعرض مالًا وفيرًا.. لاتوجد مشكلة.. هاتها ياخواجة وسأعيدها لك.. وبالطبع تخلص من الذراع على أول كومة قمامة وجدها، وعاد ليأخذ (الحلاوة)..»

هنا قال النرويجي بالإنجليزية، وهو لم يفهم عبارة (رمزي) الأخيرة:

- «لقد خدعنى الفتى.. لم يرجع الذراع مكانها..»

بالعربية قال د. (رمزي) في تهكم:

- «لا توجد مستحيلات.. لقد فهمها هو الآخر.. إن الأجانب يحتاجون إلى وقت طويل قبل أن (يدهنوا الهوا دوكو) أو (يفهموها وهي طايرة)، كما فعلنا نحن من أيام (أحمس)!»

عدت أسأل (تورلسون):

- «ألن تخبرنا بما رأيت حين أضأت الأباجورة؟»

فالحقيقة هي أنه لم يخبرنا بشيء قط.. كان ما رآه شنيعًا لكني لا أدري ما هو.. فقط كان يرتجف ويداري عينيه كلما تطرق الكلام لهذا الجزء... سألته في إلحاح:

- «ما دليلك على أن الفتى خدعك؟»

- «هذا..»

ومد يده إلى درج الكومود جواره وأخرج لفافة لها كل أبعاد منشفة الوجه المطوية.. لم أكن في حاجة إلى فتحها لأعرف ما بها..

- «الذراع؟.. ومن أعادها إليك؟»

- «هو!»

ونظر لي للمرة الأولى بعينيه الزرقاوين.. وأردف:

- «الشيء الذي كان في حجرتي!!»

☆ ☆ ☆

كما نتوقع جن جنون (رمزي).. هرع إلى اللفافة وفتحها بيدين ترتجفان.. أخرج الشيء الرهيب منها، وراح يتأمله في انبهار وقد أعاد عويناته إلى أنفه.. برغم أنني طبيب، بل وقمت بتشريح مومياء من قبل، فإنني وجدتني أتحاشي النظر إلى ما يحمله.. لقد اكتسبت هذه الذراع قيمة كابوسية ثرية بحق... قيمة تتجاوز بمراحل ذلك الاشمئزاز التقليدي الذي نستشعره تجاه الأشياء الميتة..

صاح د. (رمزي) في حماسة:

- «رائع.. أعتقد أنها أصلية بالفعل فلا أثر للتلفيق فيها.. لكن المعاملة القاسية التي لاقتها في أثناء موضوع (يد المجد) هذا قد غيرت لونها وتماسك أنسجتها..»

قلت في ضيق:

- «ألا ترى شيئًا غريبًا في هذا كله؟»

- «بلى.. الأظفار طويلة جدًا وهذا ليس شائعًا في.....»

- «أتكلم عن زائر الليل الذي أعاد الذراع للرجل.. الأمر واضح.. إنّه يريد من (تورلسون) أن يعيدها بنفسه.. ولا يلجأ لأحد.. سيظل الكابوس يطارده كلما حاول الخلاص من هذه الذراع».

قال وهو يعيد لفها وقد بدا واضحًا أنه سيأخذها معه:

- «لا أدري إن كنت محقًا أم لا.. لكن الأمر سيان عندي.. نحن سنجد المقبرة أولًا، ويمكن لصاحبك وقتها أن يعيد الذراع بنفسه.. والآن أقترح أن تجد حجرة في هذا الفندق لتعنى به، وتكون قريبًا منه..»

- «سأحاول.. وأنت؟»

- «إن أمامي عملًا كثيرًا..»

ثم راح يغمغم كأنما يكلم نفسه:

- «الأظفار.. الأظفار.. هووووم.. هذا غريب!»

☆ ☆ ☆

بعد يومين، وفي العاشرة صباحًا اتصل بي د. (رمزي) في الفندق، ولم أدر أين بات ليلته لكنه كان نشيطًا كبرغوث... قال لي إن تحريات شرطة السياحة أثمرت، وإن هناك بالفعل مقبرة منسية في الجبل، يبدو أنها كانت مدفنًا لعامة الشعب.. كان بعض الترجمانات يعرفها، وبالذات الريس

(خميس) الذي كان يلبي بعض الحاجات الخاصّة لمن يدفع الثمن، وكان يلجأ كثيرًا للسرقة من هذه المقبرة.. الغريب هنا أن النقوش على المقبرة تعود لعهد الأسرة الرابعة، وهذا غير مألوف..

- «وما هو الغريب في هذا؟»

- «الأسرة الرابعة هي التي كان ينتمي لها (خوفو) وسواه.. أسرى بناة أهرام.. في هذا العهد لم يكن لـ (طيبة) أية أهميّة، ولم يكن أحد يدفن موتاه هناك... لم تبدأ أهميّة الأقصر إلا مع الأسرة السادسة، وكما قلت لك، لم يدفن هنا ملك إلا في الأسرة رقم 18.. هل فهمت الآن سر دهشتي؟»

- «هذه الأشياء تحدث..»

- «تحدث بالنسبة لغير متخصص مثلك، أمّا بالنسبة لي فكان عليّ أن أجد الإجابة.. والإجابة كانت في النقوش.. إن صاحب المقبرة يدعى (ددي).. هل يذكرك الاسم بشيء؟»

لحسن الحظ لم تكن أغنية (شاب خالد) الشهيرة قد ظهرت أيامها، وإلا لبدا ردي سخيفًا يصيبه بنزف مخي.. فقط قلت إنني لا أعرف.. قال في استمتاع:

- «(ددي) - الذي أعرفه أنا - هو الساحر الخاص لدى (ددف حور) ابن (خوفو).. كان يعيش في عهد الأسرة الرابعة في (دد سنفرو)، وكان عمره مائة عام لكنه كان يأكل يوميًا 500 رغيف وفخذ عجل، ويشرب مائة جالون من الجعة... هكذا تقول البرديات[2]..»

- «ما شاء الله.. ما أهميّة هذا الغول لما نحن بصدده؟»

قال في حيرة كأنما يفكر بصوت عالٍ:

- «لو كان هو نفس الرجل، فلماذا اختار الأقصر بالذات ليدفن فيها؟ إننا لا نعرف شيئًا عن مقبرته، لكن الدلائل حتى الآن تقول إنّه هو الساحر الشهير... وهذا هو الغريب في الموضوع... يبدو أنهم دفنوا الرجل هنا على سبيل المنفى..»

- «إن البرديات تتكلم عن انبهار (ددف حور) ابن (خوفو) بهذا الساحر، وكيف حكى لأبيه عنه أغرب الأشياء، من ثم استدعى الأب الرجل ليرى ما هو قادر عليه، وكان استعراض الرجل مبهرًا: لقد طلب من (خوفو) - والكلام كلام البرديات - أن يقطعوا له رأس بطة وفرق بينه وبين الجسد.. بعد تلاوة عدة تعاويذ طار الرأس ليلتحم بالجسد ثانية.. نفس الشيء تكرر مع ثور.. وقد عرض (خوفو) - الكريم النفس - أن يجروا التجربة ذاتها على مسجون يقطعون رقبته، لكن (ددي) رفض ذلك في أدب..»

- «فيما بعد تنبأ بأن امرأة تدعي (رودديت) ستلد ثلاثة أبناء يستولون على الملك.. وقد ضايق هذا (خوفو) كثيرًا، وراح يبحث عن هذه المرأة دون جدوى.. فيما بعد ولدت (رودديت) هذه ثلاثة توائم هم (أوسر كاف) و(ساحورع) و(كاكا)، وهم من صاروا ملوك الأسرة الخامسة فيما بعد.. يمكن أن تفهم سبب غضب (خوفو) على الساحر إلى حد دفنه هنا»

قلت وقد راق لي الأمر:

- «أي أنّ هذا الأحمق (خميس) لم يجد مومياء يسرق ذراعها سوى مومياء أقوى سحرة الدولة القديمة! وهو ليس ساحرًا عاديًا بل كان يأكل 500 رغيف وفخذ عجل ومائة جالون من الجعة كما تقول!!»

فطن إلى ما في الأمر من دعابة سوداء، فضحك ضحكة مكتومة..

- «للأسف هذا صحيح غالبًا..»

- «ومعنى هذا أن لعنة من أقوى لعنات السحر الأسود تطارد النرويجي الآن؟»

- «لو افترضنا أن الأمر كله ليس كذبة.. نعم.. أعتقد هذا..»

سألته بلهجة من ينتقل للمهم في جدول الأعمال:

- «والمومياء مفقودة الذراع.. هل وجدتموها؟»

- «بالطبع لا.. هل كنت تحسب الأمور بهذه البساطة؟ القبر خال كجيبك في آخر الشهر.. أمّا السؤال عما إذا كانت المومياء قد سرقت أم أنها فتحت المقبرة وغادرتها - وهو سؤالك التالي حتمًا - فأمر لا يمكن الإجابة عنه، لأن الآثار في المقبرة تصلح للاحتمالين معًا.. للاحتمال البوليسي أو الميتافيزيقي... يمكن ببساطة أن تكون المومياء مخبأة في مكان لم يعرفه إلا الريس (خميس).. هذا هو الاحتمال البوليسي..»

قلت أنا بدوري:

- «.. ويمكن أن تكون غادرت المقبرة بنفسها بحثًا عن ذراعها!! هذا هو الاحتمال الميتافيزيقى!!»

☆ ☆ ☆

- ١ -

أنا المختار من بين الملايين، الذي يخرج من العالم السفلي..

الذي لا يعرف اسمه أحد

إذا نطق اسمه على مجرى الماء جف..

وإذا نطق اسمه فوق اليابسة اشتعلت النار..

[تعويذة فرعونية قديمة]

☆ ☆ ☆

«أفق من أغمائك فإنك ستهزم الجميع.. لقد انتصر (بتاح) على خصومك فلا وجود لهم..»

[كتاب الموتى]

☆ ☆ ☆

حين جلست مع د. (رمزي) في شرفة الفندق، نرمق المدينة من بعيد في ضوء الفجر، كنا نشعر أننا نستنشق مع هواء الفجر أسرارًا لا قبل لنا بمواجهتها.. وأمامنا على منضدة صغيرة تتوسط مجلسنا، كانت لفافة بحجم منشفة الوجه المطوية.. لفافة لا بد أن القارئ اعتاد منظرها حتى درجة الملل..

سألني (رمزي) وهو قلما يسألني على كل حال:

- «لو تبنينا التفسير الميتافيزيقي لبدت لنا القضية متناقضة... المومياء ليست في قبرها، لكنّها برغم هذا تطارد (تورلسون) ليعيد ذراعها بنفسه.. كيف يعيده وهو لا يعرف أين هي؟»

قلت على سبيل التفكير بصوت مسموع:

- «توجد احتمالات عدة.. من العسير أن يفكر المرء كمومياء، وربما كانت المومياوات لا تفكر بشكل منطقي.. ربما هي تحاول إثارة ذعر (تورلسون) فقط حتى يجن أو ينتحر، وهذا على سبيل الانتقام.. الاحتمال الثاني أنها تطالبه بالعثور على مقبرتها الجديدة، باعتبار هذه مشكلته.. الاحتمال

الثالث أنه لا شيء يطارد (تورلسون) وأن الرعب أفقده عقله تمامًا.. وتكون القصة عن (حميدة) وعودة الذراع مجرد هلاوس سمعية بصرية..»

- «من العسير أن تجد الحل.. وأعتقد أن الصواب الوحيد هو أن نتصل بالسفارة النرويجية.. لا بد أن لديهم مصحات نفسية متقدمة حقًّا.. إن احتمال انتحاره يتزايد من ساعة لأخرى، خاصة وهو من قوم مولعين بالانتحار على سبيل التسلية.. لا أريد أن تتحمل مسئولية كهذه، ولا أن تحمل ذنبه على كاهلك ما حييت..»

فكرت قليلًا ووجدت كلامه منطقيًا.. أنا لم أتخل عن صديق من قبل، ولسبب بسيط هو أن أصدقائي قليلون جدًّا.. لهذا لن أتخلى عن هذا الرجل الذي كان عالمًا مرموقًا، إلى أن دمرت هذه الألعاب الخطرة جهازه العصبي.. وكان لي رجاء أخير طلبته من (رمزي):

- «أعد الذراع إلى المقبرة.. فمن يدري؟»

- «فكرت في هذا، وأعتقد أنني أستطيع ترتيبه - برغم أن الأمر صار أكبر مما تظن..»

هنا سمعنا صوت صراخ هستيري مجنون ينبعث من خارج الغرفة.. تبادلت النظر مع (رمزي) لحظة ثم هرعنا نركض - بقدر ما سمحت به لياقتنا - نحو مصدر الصراخ.. كان هذا الصوت من غرفة (تورلسون) المجاورة لحجرتي... وقد نسيت أن أخبرك أنني حولت الأخير إلى (نبات) أو (خضار) كما يقول الأطباء.. وذلك بكل المهدئات والمنومات التي جعلته يبتلعها، وقد وجدت أن حماية شخص شبه مخدر أفضل بكثير من حماية شخص يقظ..

كان بعض النزلاء قد خرجوا من غرفهم، وبعض العاملين بالفندق جاءوا لا يعرفون ما ينبغي عمله.. كان باب الغرفة مغلقًا لكن المفتاح كان معي.. فتحته بيد ترتجف، ودلفت إلى الداخل... إلى الحجرة التي كان ضوء الفجر الناعس يغمرها ويكشف تفاصيلها على استحياء..

كان (تورلسون) جالسًا على طرف الفراش.. أشقر جدًا.. أزرق العينين جدًّا.. أحمر البشرة جدًا، وكان يضحك.. يضحك ضحكة غريبة ماجنة أعترف أنها لم ترحني كثيرًا.. وحين رآنا قال كلمات ما بلغته، ثم عاد يترجمها بالإنجليزية:

- «كان هنا.. وكان يرمقني دون كلام لفترة طالت! أعتقد أنه كان يقف جوار فراشي من البداية وأنا نائم كالثور لا أدري بشيء..»

سألني أحد رجال الفندق الذين دخلوا خلفي:

- «سيدي.. ماذا يقول؟ هل نستدعي الشرطة؟»

- «لا داعي.. يبدو أنه رأى كابوسًا..»

نظر لي في شك، وأراد أن يقول شيئًا عن احتفاظي بالمفتاح، بينما صاحب الغرفة لايملكه، ثم عدل عن هذا، وأشار إلى المحتشدين عند الباب كأنه يعيد دجاجًا إلى عشه:

- «انتهى الأمر يا حضرات.. لقد رأى الخواجة كابوسًا..»

تفرق الواقفون، على حين جلست على حافة الفراش، ونظرت إلى النرويجي عاجزًا عن الكلام فقال هو:

- «إذا كنت تنوي أن تحبسني هنا، فمن العدل أن تظل معي.. لا تتركني سجينًا أواجه أشباحي الخاصّة دون منفذ للهرب..»

ما ضايقني هو أن شيئًا من الرعب لم يبد على وجهه، بل احتفظ بذلك التعبير الساخر العابث.. وهذا مخيف في حد ذاته.. هذا الرجل مجنون أو ممسوس أو كلاهما معًا..

قلت له وأنا أتحاشى النظر لوجهه:

- «هذا عادل، ولسوف أظل معك هنا.. لا تقلق..»

هنا دخل د. (رمزي) ووقف وسط الحجرة مفكرًا، ثم قال بالعربية:

- «السفارة النرويجية.. لا يوجد حل آخر..»

لسبب ما فهم (تورلسون) هذا الكلام، فصاح في هستيريا:

- «كلا.. لن أتركهم يرحلونني لأواجه ذات المشكلة في الوطن! لو كان هناك حل فهو هنا..»

- «نعم.. نعم.. أعرف.. لا تقلق.. سنعني بك..»

قال (رمزي) وهو يدسّ يديه في جيبي سرواله:

- «ثمّة أمر آخر مهم.. بينما كنت أنت تتكلم معه عدت أنا إلى الشرفة لأسترد الذراع، التي نسيناها ونحن نجري إلى هنا.. طبعًا من نافلة القول أن أخبرك بأنها اختفت!!»

☆ ☆ ☆

جاء الليل..

جاء بالسرعة الجهنمية التي قلت لك إنها لا تحدث إلا في أفلام (هامر) القديمة، وحيث تغرب الشمس ويسود الظلام في الوقت القصير الذي ينزل فيه بطل الفيلم إلى القبو، ويفتح تابوت مصاص الدماء.. كأن هذا يستغرق عشر ساعات!

كنت أنا الآن ألعب دور البارون (فان هلسنج) الساهر جوار فراش (لوسي).. لولا المبالغة لعلقت حزم الثوم على النافذة ورششت الغرفة بالماء المقدس.. في مواجهتي الأولى مع لعنة

الفراعنة، لعب العسل والبصل دورًا مهمًا في حماية (هويدا) ومن معها، لكننا وقتها كنا نعرف ما نحن بصدده... أما الآن فأنا أكذب لو قلت إنني أعرف ما يدور هنا..

في الفراش يغفو (تورلسون) بتلك الطريقة المتقطعة المضطربة.. صوت جهاز التكييف الرتيب يتردد فكأنما يوسوس بالنعاس إلى ذهنى المكدود.. (رمزي) في مكان ما - لا أدري أين - ولم يعد للقاهرة بعد.. في يدي كتاب سخيف عن (المسرح الملحمي)، وهو كما ترون ليس بخير السبل لمكافحة النعاس.. إنها الآن الثانية صباحًا.. سيطلق سراحي في التاسعة، لأنّه وقت تدب الحياة في المكان ويمكنني أن أعود لغرفتي لأغوووص في الفراش.. أقسم إنني سأنام وقتها عشر ساعات متواصلة وربما للأبد..

المشكلة هي أنني في مأزق ولا أعرف كيف أخرج من هذا كله ولا متى ينتهي.. الحل الوحيد هو العودة بالنرويجي إلى القاهرة والخلاص منه بشكل أو بآخر، لكن عليّ الانتظار حتى يهدأ قليلًا، وإلا ملأ الدنيا صراخًا..

في الثالثة صباحًا سقط الكتاب من يدي.. وسقط رأسي على صدري..

لا بد أنني لم ألبث في هذا الوضع إلا نصف ساعة أو أقل.. شيء ما جعلني أفتح عيني من دون سبب ظاهر... كنت قد خفضت الإضاءة بشكل يسمح لي بألا أزعج النائم، وفي الوقت نفسه أستطيع القراءة.. وفي هذا الضوء الخافت رأيته..

لم أر النائم طبعًا بل ما يدنو من فراشه..

☆ ☆ ☆

«لكن دعني أقل لك إن من يله بالنار يحترق بها.. وهذه الأشياء ليست للهو..»

☆ ☆ ☆

كان رجلًا.. لا بد من أن أكون دقيقًا في هذا الصدد.. لم يكن تلك الشخصية الملفوفة بالضمادات كما عودنا (بوريس كارلوف) في أفلامه عن المومياء.. لو شئنا الدقة أكثر لقلنا إنّه رجل عادي المظهر تمامًا ويرتدي ثيابًا عصرية رثة قليلًا.. كان رأسه مائلًا بشكل غير معقول على كتفه، وهذا وضع غريب لكنه ليس مستحيلًا..

فقط لاحظت أنه من دون ذراع يمنى، وأنه يحمل في ذراعه اليسرى لفافة.. لم أتحرك ولم أكن راغبًا في التحرك.. ظللت جالسًا كما كنت ورأسي مائل قليلًا للأمام... أغمضت عيني لأختلس

النظر بين أهدابهما، وخطر لي أنه من الخير ألا يعرف هذا القادم أنني متيقظ.. عرفت بالغريزة أن أية حركة مفاجئة قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه..

وضع ما يحمله على الفراش جوار النائم التعس، ثم استدار ليرمقني.. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي جعلني أدرك أن ما أراه خارق للطبيعة حقًّا.. كانت عيناه بلا حدقتين، وكان لونهما أحمر كالدم.. كالطماطم.. كستائر مصاصي الدماء..

كانت لحظة خاطفة لكني شعرت كأنها دهر، وأنني موشك على الصراخ كالأطفال.. ثم استدار مبتعدًا ليدور حولي.. كان وراء ظهرى الآن، وشممت رائحة لا أستطيع وصفها بأنها كريهة.. منفرة نعم لكنّها ليست كريهة لو كنت تفهم ما أعنيه.. رائحة غريبة لا تنتمي لشيءٍ أعرفه.. رائحة تعيدك إلى ذكريات لم تعشها، ووجوه لم تلقها، وأماكن لم تزرها، وخبرات لم تكتسبها، وكلمات لم تسمعها..

إنّه خلفي الآن! ماذا يفعل بالضبط وماذا ينوي؟

☆ ☆ ☆

- ٢ -

صحوت من النوم ظهرًا كما توقعت... كنت منتعشًا تمامًا، وإن أثقل كاهلي التفكير فيما عليَّ أن أفعله اليوم من حراسة (تورلسون).. خرجت إلى الشرفة واستنشقت نفسًا عميقًا جعلني أسعل، ليس الهواء النقي مما يناسب صدرًا كصدري...

ارتديت ثيابي واتجهت إلى غرفة الرجل، وقرعت الباب مرارًا كما أفعل قبل أن أفتحه دومًا، فلم يرد أحد.. غريب هذا! حتى في غيبوبته لا يفوته أن يسمع صوت طرقاتي من عالم الحلم.. كان الباب موصدًا فأخرجت المفتاح من جيبي ودسسته في الثقب..

دخلت الغرفة فوجدت... لا لم أجد شيئًا.. كانت خالية كعقل (هويدا) خطيبته السابقة، وكان الفراش مضطربًا لكن لا أحد عليه.. الغرفة في حالة فوضى توحي بأن حركة صاخبة حدثت هنا.. حركة صاخبة لكنّها لا توحي بمعركة.. ولم تكن هناك إلا تلك الرائحة الغريبة التي وصفتها لك..

بحثت عن ثياب (تورلسون) فلم أجدها.. لقد خرج.. غالبًا خرج بإرادته.. ولكن أين؟

رفعت السماعة وطلبت الاستقبال.. جاءني صوت الموظف يتساءل في غلظة عما أريد..

- «هل رأيت نزيل الغرفة 116؟ طبيب نرويجي اسمه (تورلسون).. (يوهان تورلسون)..»

قال في ملل:

- «إنّه في المستشفى يا سيدي.. ألم تشعر بالأمر؟ لقد كان الجميع هنا في الصباح..»

- «في المستشفى؟ والسبب؟»

- «محاولة انتحار.. لقد ابتلع علبة كاملة من المنوم..»

- «علبة منو.....؟ وهل مات؟»

- «سبحان الله! أقول لك إنّه في المستشفى.. أنا أتكلم العربيّة يا أستاذ..»

لسبب ما يكرهني هذا الرجل كأنني قتلت زوج عمته وهربت.. ولكن لحظة.. أين فعلها النرويجي إذا كنت أنا الآن في غرفته، وكيف فتحوا الباب إذا كان المفتاح معي؟

تجاسرت وسألت الموظف العصبي عن هذا، فقال بنفس الصبر النافد:

- «لقد قرع الجرس ثم غاب عن الوعي، وقد اضطررنا لفتح غرفته بمفتاح (الماستر كي).. يبدو أنه راجع قراره في اللحظة الأخيرة وحاول الاستغاثة بنا.. لو لم يفعل لكان في المشرحة

الآن..»

ولم أنتظر أكثر.. وضعت السماعة وقررت أن أغادر الغرفة حالًا.. من الواضح أن أحدًا لم يربط بيني وبين النرويجي بعد، لكنهم سيفعلون هذا سريعًا، ولسوف تنقلب الأرض لتخرج ما فيها من ديدان فوق رأسي.. لماذا كنت أحتفظ بالمفتاح معي؟ ولماذا قضيت الليل في غرفته؟ ولماذا حبسته فيها؟ إن هناك على الأقل شاهدين على ذلك من موظفي الفندق.. تفسير هذا يطول جدًا..

هناك سائح في الموضوع وانتحار وقضية سرقة آثار.. والكثير جدًا من القاذورات التي تحتاج إلى شهر كي أخرج نفسي منها، حتى لو ساعدني (رمزي)..

عدت إلى غرفتي شارد الذهن، فاستلقيت على الفراش بثيابي أفكر..

أين د. (رمزي) من كل هذا؟ وأي شيء يفعله بالضبط وأنا في هذا السيرك الذي نصب خيامه في هذا الفندق؟ يجب أن أذهب إلى المستشفى لأعرف ما حدث للرجل، لكن كيف أسأل عنه دون أن أفسر من أنا؟

يبدو أن الحكمة تقضي بأن أتصل بـ (رمزي) وأخبره أنني عائد إلى القاهرة.. أنانية؟ لا أنانية هنا.. إن المشكلة ليست مشكلتي، ولست أنا من مارس السحر الأسود على ذراع مومياء.. (تورلسون) فعلها وعليه أن يدفع الثمن..

ثم تعال هنا.. لن أكون أسوأ من (جان جاك روسو) الذي أنجب خمسة أطفال تخلص منهم تباعًا على باب الملجأ حتى لا يشغلوه عن الفلسفة.. وفيما بعد كان يمشي جوار أعز صديق له في الشارع، حين أصيب هذا الأخير بنوبة صرعية.. عندها تركه الأديب العظيم وجرى، ولم يره منذ ساعتها قط!!!

ليس (تورلسون) ابني وليس أعز صديق لي، كما أنني لست (جان جاك روسو)!! لهذا سأهرب من هنا ولن أشعر بذرة ندم.. وكما يقولون: «على من يتناول طعامه مع الشيطان أن تكون ملعقته طويلة..» و...

☆ ☆ ☆

«إن من يله بالنار يحترق بها.. وهذه الأشياء ليست للهو..»

☆ ☆ ☆

واتجهت لأفتح خزانتي كي أحزم ثيابي، حين وقعت عيني على اللفافة الموجودة على الرف... لفافة تشبه المنشفة المطوية.. لفافة تبدو مألوفة إلى حد كبير..

ماذا أتى بهذا الشيء الكريه هنا؟؟ أم هل أقول من؟

وجلست على الفراش أفكر في معنى هذا.. الرسالة واضحة ولا تحتاج إلى ترجمة.. أمّا وقد هلك (تورلسون) أو المفترض أنه هلك، فعلى أن أحافظ على هذا الشيء وأن أعيده بنفسي..

هل أتلقي إذن دوري من هذه المطاردات الليلية المخيفة؟

إن أمامي حلًا واحدًا ممكنًا هو أن أفر فرارى من الأسد.. لو كان توقعي صحيحًا فلسوف يلحق بي الكابوس في القاهرة.. لكني سأهرب على كل حال، ولكن ليس قبل أن أكلم (رمزي) لأخبره وأطلب منه مطلبًا أخيرًا..

لم يطل انتظاري لحسن الحظ لأن (رمزي) جاء في هذه الأثناء من الخارج.. كان مرهقًا يحمل أوراقًا كثيرة، ودخل غرفتي، وألقى بما يحمله على الفراش، وتنهد وهو يلقي جسده إلقاء على مقعد:

- «كان يومًا عصيبًا.. مازلنا غارقين في مئات الأسئلة.. إن تلك المقبرة غريبة جدًّا، وقد نُهبت بعنف.. بتوحش.. كأن هذا الريس (خميس) لم يكن يفعل شيئًا طيلة حياته سوى سرقتها..»

ثم رأى وجهي الممتقع فقال:

- «ما بك؟ تبدو كأنما قتلت قتيلًا..»

- «تقريبًا..»

وألقيت بالذراع الملفوفة ـ التي لم أحبها قط ـ على حجره.. فأجفل قليلًا، ثم نظر لي غير فاهم:

- «ألم تختف أمس؟ أين كانت؟»

- «اختفت وعادت! لقد أعادها لي المسخ مع عبارة من قبيل (إلعب لعبة أخرى).. وثمّة خبر آخر: لقد انتحر (تورلسون)! بعبارة أدق حاول الانتحار..»

من الواضح أنه أحمق مثلي لأنّه لم يبد على أدنى علم بهذا.. هذا طبيعي لأنّه لم يدخل الفندق منذ عشرين ساعة كاملة أو أكثر.. رفع حاجبيه عاجزًا عن توجيه السؤال (كيف) ثم عاد إلى صوابه.. سألني في لهجة لائمة:

- «تبًّا لك من مهمل! ماذا كنت تفعل جوار فراشه طيلة الليل إذن؟ تغط في نومك كالدببة؟»

- «حدث هذا في الصباح بعد انتهاء ورديتي.. وعلى كل حال لم يتضمن عقدي ضمانًا بألا يموت هذا الرجل للأبد..»

وله حكيت بالتفصيل ما عرفت في الساعات الأخيرة.. كان يصغي لي محتفظًا بوقاره باعتبار أن الدهشة تقلل من وسامة المرء المندهش.. وحين فرغت من قصتي قلت له متوسلًا:

- «يجب.. يجب أن تخلصني من هذه الذراع.. أعدها للمقبرة وادفنها أرجوك..»

فكر حينًا ثم سألني:

ـ «هل تعتقد أن اللعنة ستنتهي بهذا الشكل؟»

- «لا أعرف سبيلًا آخر.. عندما تشم رائحة غاز في شقتك، ابدأ بغلق محبس الغاز ثم ابحث عن سبب آخر محتمل لهذه الرائحة..»

- «ليكن..»

قالها وهو ينهض وينظر إلى ساعته:

ـ «إنها الثالثة بعد الظهر.. سأتناول لقمة ثم أمر عليك لنتوجه إلى المقبرة.. ليس الدخول سهلًا كما تعلم، فهي تقع تحت سلطة السياحة الآن.. لكني سأجد طريقة ما..»

نظرت إليه باحثًا عن كلمات بليغة فلم أجد إلا:

- «شكرًا يا (رمزي)..»

- «عفوًا يا (رفعت)..»

إن الصديق الذي يعين صديقه على التخلص من مطاردة مومياء لهو صديق نادر في هذا الزمن.. هذه حقيقة لابد من الاعتراف بها..

☆ ☆ ☆

في المساء كنت في القطار متجهًا إلى القاهرة..

وصممت على أن أترك هذه الأحداث خلف ظهري.. «سأترك معول النسيان كي يعنى بأنقاضي» كما كنت أقول في قصيدة قديمة لي.. بينما (تورلسون) يستطيع العناية بنفسه أو تستطيع السفارة النرويجية أن تعنى به...

☆ ☆ ☆

- ٣ -

عدت لممارسة عملي بعد انقطاع.. كانت هناك أشياء كثيرة متراكمة على كاهلي، وقد قضيت اليوم التالي كله أنهيها.. أجريت بعض اتصالات مهمّة، وبحثت في كتبي كثيرًا.. ثم نظرت إلى تقويم المكتب.. إنه الحادي عشر من أغسطس... لشد ما يمرّ الصيف بسرعة، وأنا الأحمق الوحيد الذي قرر أن يقضيه في الأقصر.. حقًّا لبثت هناك فترة لا بأس بها، وكنت أقف تحت (الدوش) عشر مرات يوميًا، حين أدركت أن قطرة الماء تنحدر على جلدي لتتحول في أثناء انزلاقها إلى عرق مالح..

في الثانية عشرة ظهرًا توجهت إلى الكلية، وكانت خالية على عروشها، لا ترى هنا أو هناك إلا عمالًا أو موظفين صرعهم الحر.. ويتمنون في صبر أن ينتهي اليوم سريعًا..

مشيت في تلك الردهة الخالية المؤدية إلى المشرحة، ورائحة المطهرات و(الفورمالدهايد) الكريهة تحرق عيني.. صوت كعبي حذائي هو الصوت الوحيد في هذا السكون المطبق.. لحسن الحظ لا يوجد أحد من الأطباء هنا، لأنني لست رائق المزاج للمجاملات، والسؤال عما إذا كنت تزوجت أم لا ولماذا؟ لا سمح الله.. بعدها يأتي دور زجاجة (الأسترا) أو (السباتس) - المشروبان السعيدان في تلك الأيام - وكلاهما كريه المذاق في رأيي، لكن لابد من الشرب حتى لا أتهم بتعمد الإهانة..

وحيدا اتجهت إلى قاعة التشريح الكبيرة.. ولم يكن هناك كثير من الجثث على المناضد الرخامية لأننا في نهاية العام الدراسي.. لقد انتهى الطلبة من تمزيقها تمزيقًا فلم تعد إلا أشلاء كبقايا قنبلة (هيروشيما)..

نظرًا لقلة الضبط والربط في هذه الآونة من العام، كان العمال جالسين يعدون الشاي في ركن القاعة ويدخنون.. شاي (السبرتاية) ذكي الرائحة ذو العبق الخاص، خاصة في عهد ما قبل السخانات الكهربية.. هذا هو عم (أبو اليزيد) أقدم العمال هنا وأضخمهم والذي أوصلته مكانته وقدمه إلى ما يشبه الرمز للكلية، وحتّى العميد نفسه لا يستطيع إلا معاملته باحترام وتبجيل..

انشرحت لأنّه هنا، ولأنه ما زال حيًا برغم أنه يُصاب بسرطان المثانة كل عامين.. وكانت بيننا علاقة حميمة من زمن..

- «تفضل يا دكتور.. شاي؟»

هكذا سألني وهو جالس، وما كنت لأرحب بأن يقف لي على كل حال.. إنني عاجز تمامًا عن التعامل بتعال مع من هم أقل منى مالًا أو مركزًا، لأنني أنظر إلى محتواهم الإنساني الذي قد يكون

ثريًا.. ربما أفضل مني بمراحل.. والبعض يعتبر هذا (قلة قيمة) مني لكني لا أستطيع أن أكون شخصًا آخر.. هززت رأسي موافقًا.. إن شاي المشرحة لا يرفض بحال..

وجلست جواره نشرب الشاي الأسود عطر الرائحة ونتبادل كلمات مجاملة عن حال الدنيا والناس.. وكان له رأي دائم هو أن «النفوس لم تعد صافية مثلما كانت زمان».. وكان يردده منذ عرفته من خمس وعشرين سنة حتى إنني لا أفهم متى كانت النفوس المذكورة على ما يرام؟

في النهاية جاء بيت القصيد، وكان زملاؤه قد انصرفوا يبحث كل منهم لنفسه عن عمل، فدنوت منه وهمست:

- «عم (أبو اليزيد).. من أين تأتون بالجثث التي نشرحها هنا؟»

بدا عليه الارتياب ممزوجًا بعدم الفهم.. هل سؤالي هذا نوع من الاتهام؟ والحقيقة أن تهمة نبش القبور مسلطة دومًا على عنق كل عامل هنا وعليه أن يثبت العكس.. قال في ضيق:

ـ «أنت تعرف يا دكتور.. ناقصو الأهلية الذين لم تجد الشرطة أهلًا لهم أو الذين رفض أهلهم استلام جثتهم..»

- «ولماذا يرفض الأهل استلام جثة قريبهم؟»

أشعل لفافة تبغ وأخذ نفسًا وبصق وقال:

ـ «هذا يحدث كثيرًا مع الجواسيس الذين يُعدمون ويتبرأ أهلهم منهم، أو مع ابن فاسد أتعب أهله وجعل يوم إعدامه عيدًا لهم.. هؤلاء يتركون الجثة فتسلمها النيابة لكلية الطب..»

فكرت حينًا ثم سألته:

- «هل تجيء حالات إعدام كثيرة؟»

- «غالبًا نعم..»

وأشار باللفافة المشتعلة إلى الغرفة المجاورة حيث الثلاجة، وقال:

ـ «هناك واحد جاء من يومين، ولم نعده بعد.. لا أعرف تهمته لكنه شُنق على كل حال..»

صحت في نشوة:

- «أي أن جثته موجودة ومتاحة؟»

- «نعم.. ولكن لماذا تسأل عن هذه الأمور؟»

ملت بوجهي نحوه وأخبرته همسًا بما أريد... وما أريد كان غريبًا لم يعتده، لكنه يتوقع هذه الطلبات الغريبة من الأطباء.. هناك من يجمع الزوائد الدوديّة الخارجة من غرف الجراحة، ومن

يجمع المشيمات من أقسام التوليد، و(روبرت كوخ) العظيم كان يدور على السلخانات يجمع عيون الثيران المقلوعة، والسبب أنه وجدها الوسط الأكثر ملاءمة لزرع بكتريا الجمرة الخبيثة..

هز رأسه في تردد، فقلت:

- «وسأدفع ما تأمر به..»

ودسست في جيبه بعض الأوراق المالية، فهز رأسه دون أن يحاول منعي:

- «ليس الموضوع موضوع مال.. المشكلة هي أن....»

ثم حزم أمره، فقال لي وهو يلقى بلفافة التبغ على الأرض، ويدوسها بحذائه العملاق:

- «ليكن.. تعال غدًا في العاشرة صباحًا، ولسوف تجد الأمانة جاهزة..»

وانصرفت مغمغمًا بالأمل والرضا.. هذه عقبة كأداء تم حلّها بطريقة لم أتخيلها..

☆ ☆ ☆

في الأقصر في الوقت ذاته..

كان د. (رمزي) يعيش أحلك ساعاته، وهو واقف وسط التراب في المقبرة الفرعونية الخالية.. كان معه اثنان من الأثريين، وقد حمل أحدهما كشافًا عملاقًا مما يوصل ببطارية سيارة.. وسلطها على النقوش الجدارية التي تشير إلى حياة المتوفى وإلى ما يتوقع أن يفعله عند البعث...

كان القبر رطبًا خانقًا، والتراب يملأ كل شيء.. وقد اختلط العرق بالغبار صانعًا مزيجًا يسهل معه أن تنتحر.. لكن د. (رمزي) كان يملك ما يكفيه من متاعب بحيث لا يحتاج إلى المزيد...

سأل أحد الرجلين وهو يضع المنديل على أنفه:

- «هل أنت متأكد من هذا؟»

- «بالتأكيد.. إن خبير اللغة الهيروغليفية يؤكد ذلك...»

- «كنا حمقى إذن..»

صمت الرجل الآخر تأدبًا، وإن بان في عينيه أنه فعلًا يؤمن أنهم حمقى..

قال (رمزي) وهو ينظف بيده الحرة بعض النقوش الجدارية:

- «هذا يتمشى مع المنطق إذن.. هذه المقبرة لا تخص الأسرة الرابعة، وإنما هي تنتمي إلى عهد يليها بكثير.. و(ددي) ليس هو ساحر ابن (خوفو).. إنه (ددي) آخر..»

- «هذا واضح...»

- «وهل تكلّم ابن الريس (خميس) هذا؟»

قال الرجل حامل الكشاف:

- «ليس بعد.. فقط يعرف أن أباه كان يجيء هنا كثيرًا، ومن الواضح أن اثنين أو ثلاثة آخرين كانوا يعرفون مكانها.. يبدو أن عدد القطع التي سرقت من هنا لا يقل عن العشر قطع..»

- «مستحيل استردادها طبعًا»

- «بالتأكيد.. إن بعضها سرق من عشرة أعوام..»

هنا تدخل الرجل الأول الذي لا يحمل مصباحًا وقال:

- «ابن الريس (خميس) في العشرين من عمره، وهي سن تؤهله بالكامل لخلافة أبيه.. هذه الأسر تورث المهنة جيلًا بعد جيل.. ومعنى هذا أن الفتى يعرف أكثر مما يقول..»

- «سيتكلم.. إن ضغوطًا كثيرة تتم عليه الآن.. حتمًا سيتكلم.. ليس من مصلحته قطع مصدر الرزق الوحيد للأسرة..»

تحرك عقرب صغير على الأرض وهو يرفع مؤخرة ذيله منذرًا بالويل، فتراجع أحد الرجلين وأشار إلى الأرض داعيًا للحذر..

قال د. (رمزي) - الذي لم تهتز له شعرة - وهو يشير لهم كي يغادروا المقبرة معه:

- «لنذهب قبل أن نختنق..»

وفي الخارج كانت الشمس الحارقة تحيل الصحراء جحيمًا.. وكانت الصخور الوعرة تتوهج بألف ضوء، على حين وقف بعض الخفراء والحراس حول المكان يرمقون الخارجين من المقبرة في شك..

قال (رمزي) وهو يثب كاللقلق فوق الصخور، برشاقة برغم سنه المتقدمة:

- «ليتني أعرف ما فعله ذلك الأحمق (رفعت)!!»

☆ ☆ ☆

وكان الأحمق (رفعت) - أنا - وقتها يبتاع أشياء مهمّة من أحد المحال... اشترى ربع كيلوجرام من السمسم ودس الكيس الورقي تحت إبطه..

لم أكن متأكدًا مما إذا كان السمسم يجب أن يكون مطحونًا أم لا.. وفي النهاية قررت أنه لو كان مطحونًا لقيل ذلك بوضوح..

كنت في أحد أحياء القاهرة القديمة، تلك الأحياء التي خلدها (نجيب محفوظ) في قصصه.. وقد مشيت في الطريق حاملًا حملي الثمين..

الآن أرى صفًا من عربات الحنطور و(الكارو) تقف في صف طويل، وسائقوها قد جلسوا على جانب الطريق، يتسلون بتدخين (الجوزة) والسباب.. رأوني بثيابي المتأنقة نوعًا والكيس الذي أحمله، فراحت الأصوات الخشنة تنادي والسعال يغلبها في آخر كل نداء:

- «حنطور يا حاج؟ ركوبة يا أفندي؟»

لأنني أبدو صيدًا ثمينًا في هذا المكان، ومن الواضح أنني أدفع دون مناقشة..

لكن هدفي كان محددًا وواضحًا.. توقفت في وقار.. أخرجت من جيبي قفازًا مطاطيًا لففت به يدي اليمنى في وقار.. أخرجت كيسًا بلاستيكيًا في وقار.. انحنيت في وقار..

ثم - بوقار أيضًا - جمعت بعض روث الخيول المتناثر على الأرض، ووضعته في الكيس.. ونظرت لهم نظرة متعالية ثم استدرت منصرفًا في وقار!

طبعًا لم أسمع أي تعليق ساخر أو شيئًا مماثلًا، لأن ما قمت به فاق قدرتهم على التخيل، وأخرسهم لبضع دقائق..

وحين ثابوا لرشدهم كنت قد اختفيت تمامًا..

☆ ☆ ☆

- ٤ -

فيما بعد عرفت أن (رمزي) دخل غرفة المستشفى حيث كان (تورلسون)..

فيما عدا الشحوب الظاهر على وجهه الأحمر عادة، يمكن القول إن هذا الرجل تحسن بما لا يقاس..

كان شبيهًا بالعنكبوت من كثرة الأنابيب الداخلة إلى عروقه.. ويبدو أنه أمضي نهارًا تعسًا مع المحققين، ومع مندوب السفارة الذي جاء على عجل من القاهرة..

وقف د. (رمزي) على مسافة معينة من النرويجي، فهو لم يكن يطيق المرضى، ويعتقد أن أي ضرر في العالم حتى لو كان جرحًا في الرأس أو محاولة انتحار، هو معد بالتأكيد يجب الابتعاد عنه... قال له بالإنجليزية:

- «جميل.. جميل.. أرى أنك تحسنت كثيرًا..»

ابتسم النرويجي ابتسامة شاحبة وقال:

- «جدًّا.. لم أنم كما نمت في هذه الفترة..»

هذا متوقّع مع كل ما ابتلعه من منومات.. إن لم ينم فمتى ينام إذن؟ عاد (رمزي) يسأله:

- «ولا مضايقات خاصة بأشخاص مبهمين مخيفين، يظهرون جوار فراشك فجأة؟»

- «لا.. لا.. يبدو أن الشيء قد تخلى عني راضيًا بعد هذا.. لقد نال ما كان يبتغيه..»

قال (رمزي) في كياسة ورفق محاولًا ألا يثير أعصاب المريض أكثر من اللازم:

- «لا أدري إن كان هذا من حقي أم لا.. لكن لا بد من السؤال.. إن الإجابة ذات أهميّة بالغة بالنسبة لي ولنا عامّة.. لماذا وكيف فعلتها؟ أنا أفهم الظرف النفسي القاسي الذي كنت تمر به، لكن لابد من سبب ما.. سبب ما استجد وادَّى لانهيار السد.. إننا معشر العرب نعبر عن هذا قائلين: القشة التي قصمت ظهر البعير.. فما هي قشتك الخاصّة التي جعلتك تتعجل هذا القرار؟»

ابتسم النرويجي في غموض ولم يرد..

عاد (رمزي) يُلح:

- «هذا مهم جدًّا.. هل زارك ليلتها؟ وماذا قال لك أو ماذا فعل؟»

قال (تورلسون) بنفس الغموض:

- «دعني أقل لك يا د. (حبيب) إن ما سأقوله لم أذكره في أي استجواب تم معي اليوم وأمس.. الحقيقة أنني لم أفعلها!!»

ثم نظر له مناشدًا، وسأله:

- «هل معك لفافة تبغ؟»

- «لا.. ولا أطيق رائحة الدخان أصلًا.. ولكن ماذا تعنيه بأنك لم تفعلها؟ هل وثبت الأقراص من العلبة إلى فمك؟»

- «لا أعني هذا بالضبط.. كنت نائمًا لا أعي ما يدور حولي، لكني شعرت بمن يفتح فمى ويدس فيه هذه الأقراص دسًّا.. ثم يتبعها بجرعة ماء.. بعد هذا سمعته ينصرف ويغلق الباب وراءه.. قلت لنفسي إنِّه يجب أن أستغيث.. أن أفعل شيئًا.. لكني كنت أكثر وهنًا من أن أفعل، ثم إن فكرة الانزلاق البطيء إلى عالم مظلم بارد ساكن راقت لي كثيرًا.. هل تعرف قصيدة (الغابة مظلمة باردة....)؟»

- «(.. لكن هناك مسافات يجب أن أقطعها ومواعيد يجب أن أحفظها قبل أن أنام..).. أعرف أعرف» - قالها (رمزي) بنفاد صبر - «لكنك قرعت الجرس طالبًا العون فعلًا..»

- «نعم.. أعتقد هذا.. لا بد أن جزءًا مني ظل يتشبث بالحياة..»

- «هنا نصل للسؤال المهم.. من فعلها؟»

ابتسم (تورلسون) في غموض من جديد وقال:

- «لهذا زعمت في كل التحقيقات أنني فعلتها في لحظة يأس.. لم أرد أن أخبرهم بالوجه المغضن أصلع الرأس الذي كان دانيًا من وجهي، حاملًا كوب الماء والأقراص.. رأيته بين جفوني شبه المغمضة، ولم أستطع قط أن أفهم.. لماذا يفعلها؟ إن من أعطاني جرعة الأقراص يا سيدي هو الدكتور (إسماعيل)..»

☆ ☆ ☆

مررت على المشرحة في الوقت المحدد، وكان (أبو اليزيد) ينقل بعض الزجاجات العملاقة على عربة يد في الردهة، فلمّا رآني ترك ما يقوم به.. اتجه إلى غرفة صغيرة ملحقة وعاد لي بكيس بلاستيكي ملفوف بحجم قبضة اليد وداخله كان شيء ملفوفًا بدوره في ورقة جريدة..

قال لي همسًا:

- «كما طلبت يا دكتور..»

- «هل أنت متأكد من أنّه؟؟؟»

أشار إلى عنقه الغليظ، وبدا عليه الاستنكار:

- «عيب! رقبتي لك..»

دسست بعض العملة في جيبه بينما هو يردد أنه لا يريد مالًا وإنما يريد أن يخدم.. وحملت كنزي الثمين واتجهت إلى الخارج..

عدت إلى البيت وجلست في الصالة أرمق الأشياء التي أعددتها.. لا بد من أن أتصرف سريعًا قبل أن أجد الشرطة على رأسي.. هذه خطوة لا مفر منها ما دام موظفو الفندق يعرفون أنني أمضيت في غرفة (تورلسون) تلك الليلة التي انتحر في نهايتها.. فقط هم يبحثون عن عنواني في القاهرة.. إنّه موجود في بطاقتي الشخصية وقد دونوه في الفندق.. لكن الطريف هنا أنه عنوان قديم في (العباسية) لم أغيره في البطاقة قط، أو ربما رجال الشرطة لم يربطوا بيني وبين النرويجي، وبعد..

ونظرت لساعتي..

مازال الليل بعيدًا... حقًّا لا أدري إن كان يجب حدوث هذا ليلًا، لكن طبائع الأمور توحي لي بأن الليل هو الوقت الأفضل.. إن أمامي ثماني ساعات تقريبًا حتى يدنو ليل الصيف.. وعليّ أن أجد ما أزجي به الوقت حتى ساعتها..

أرجو أن تكون راضيًا عني.. أرجو ألا يثير الانتظار غضبك..

☆ ☆ ☆

«لكن دعني أقل لك إن من يله بالنار يحترق بها.. وهذه الأشياء ليست للهو..»

☆ ☆ ☆

في هذا الوقت - كما علمت فيما بعد - كان د. (رمزي) يمرّ بخبرة أخرى سيئة، ويبدو أن كل خبراته صارت سيئة في الآونة الأخيرة.. كان جالسًا مع رائد بالشرطة يدعى (محمود) وشاب أسمر في العشرين من عمره، تبدو عليه علامات الإرهاق والذعر.. طبيعي أن تبدو مرهقًا مذعورًا بعد كل هذه الأسئلة، طيلة هذه الفترة، وعندما تعيد القصة ذاتها تحدث ثغرات لا مفر منها....

كان اسم الفتى (حميدة).. نحن قابلناه من قبل، لكن قليلين عرفوا أنه ابن الريس (خميس) شخصيًا إذن لماذا لم يقل هذا مباشرة لـ (تورلسون) وينتهي الأمر؟ كما قلنا آنفًا طبيعة هؤلاء القوم هي اللف والدوران، وكل معلومة عندهم هي سر ربما أمكن الاستفادة منه فيما بعد.. البيع لا الشراء شعارهم...

كان (رمزي) يسأله في إلحاح:

- «أمّا زلت مصرًّا على أنه لم تكن هناك مومياء في المقبرة قط؟»

قال الفتى وهو ينظر إليه بعينيه الميتتين كعادة المجرمين المتلبسين:

- «أقسم لك يا دكتور إنها كانت فارغة منذ وجدها أبي.. كانت بها بعض الأنية وتماثيل.. لكنّها كانت خالية أو هكذا عرفتها منذ نعومة أظفاري..»

- «وتقول إن أباك لم يأت بالذراع من أية مومياء؟»

- «هذه جريمة يا دكتور.. لا أحد يفعل هذا.. كان المرحوم نصابًا لكنه لم يكن لصًا!»

- «يا سلام! ونبش المقابر ليس جريمة؟؟»

- «ربما.. لكنّها ليست كسرقة الآثار..»

- «والذراع التي أعادها لك النرويجي.. ماذا فعلت بها؟»

- «دفنتها يا دكتور تحت رمال الصحراء.. ما كنت لأتمكن من إعادتها إلى صاحبها الأصلي..»

ثم أردف وهو يسبل عينيه في تقوى زائفة:

- «كلنا جئنا من التراب وإلى التراب نعود، والأرض كلها أرض الله، وقبرنا نحن الفانين»

هنا تدخل الرائد نافد الصبر، وقال وهو يشعل لفافة تبغ:

- «كفاك تمثيلًا أيها الزنديق!! إن أبوك كان يجيء بهذه الأشياء إلى البيت، كلما طلب منه أحد السياح أثرًا نادرًا، ويعالجها لتبدو عتيقة.. كيف كان يفعل ذلك؟»

- «الله أعلم يا سيدي.. كان هناك ماء نار، وبوتاس كاوٍ.. وكان يغلي بعض الأشياء في (طنجرة) كبيرة.. حقًّا لا أعرف.. يبدو أنه سر متوارث عن الأجداد، بعدها كان يجففها في الشمس ويلفها بقماش عولج بنفس الطريقة، ليعطي انطباع القدم.. وكان السياح يصدقون.. لا أحد يسأل..»

هزّ (رمزي) رأسه موافقًا، وقال شارحًا للضابط:

- «هناك سوابق كثيرة من هذا النوع.. وقد حدثت مرارًا حوادث تلفيق مماثلة في العالم الغربي لمومياوات تعود إلى عصر الجليد، أو طيور ووحوش لم توجد قط.. كانت هذه أيامًا سعيدة قبل أن

يتعلم العلم تحديد عمر العينات بالكربون وما إلى ذلك..»

أشار الضابط إلى شرطي كي يأخذ الفتى إلى الحجز والتفت إلى الدكتور (رمزي) متسائلًا:

- «ما معنى هذا كله إذن؟»

قال (رمزي):

- «معناه أن النرويجي يخرف.. لم يفعل ما يثير غضب المومياوات عليه، فلا أساس لشكواه.. هذا طبعًا لو فرضنا أن المومياوات تطارد من يسرقون أجزاءها..»

- «وماذا عن الذراع التي تعود في كلّ مرّة؟ ولماذا سرقها صديقك هذا؟»

- «هذه هي النقطة الوحيدة المريبة في الموضوع.. يبدو أن عليّ أن....»

ثم امتقع وجهه ونظر إلى التقويم على المكتب..

- «خطرت لي فكرة رهيبة.. رباه! كم اليوم؟ أيام الشعرى!! عسى ألا نكون تأخرنا!»

قال الضابط في ضيق:

- «سأكون لك شاكرًا لو لم تتركني بلا فهم كأطرش في الزفة»

- «سأشرح لك فيما بعد.. هذا مجرد هاجس..»

ونهض (رمزي) وقد قرر أن يعود إلى القاهرة في أقرب وقت ممكن.. أين سيكون (رفعت)؟ بالطبع عاد إلى القاهرة لأنّه ليس له مكان آخر.. عليه أن يتصل به أولًا ثم....

☆ ☆ ☆

تررررن!

دوى الصوت المزعج ليمزق أعصابي كما تمزق أنت نسيج عنكبوت بعصا مكنسة.. كنت في مكتبي وقد أعددت كل شيء.. إنها مهمّة كريهة، لكن لا بد من أن يقوم بها أحد.. كل شيء معد.. الذراع.. السمسم.. الدهن.. الروث.. لم يبق إلا أن.... ثم يقاطعني هذا الطفيلي.. هل أتجاهله؟ شيء يقول لي إن على الرد على هذه المكالمة، وهي قادمة من خارج القاهرة.. في الغالب هي مهمّة إذن..

- «من؟»

جاء صوت (رمزي) القلق المتوتر، وكنت أتوقع أن أسمعه على كل حال:

- «(رفعت).. هذا أنا.. (رمزي).. ماذا تفعل الآن؟»

شعرت بضيق بالغ.. أنا أكره هذا التدخل في أموري:

- «ثق أنني لا أشوى طفلًا رضيعًا للعشاء لو كان هذا يقلقك..»

- «حدسي يقول لي إن هناك ما هو أخطر... (رفعت).. أنت أعطيتني موعدًا للخلاص من الذراع، ثم لم تأت.. اختفيت.. وكل شيء يقول إن الذراع معك.. (تورلسون) يؤكد أنك أنت من حاول قتله بالأقراص المنوّمة.. هل تعرف ما معنى هذا؟ معناه أنك ممسوس يا (رفعت).. ثمّة شيء - يعلم الله ما هو - يحاول السيطرة عليك.. بل هو سيطر عليك فعلًا ويحاول استغلالك لتنفيذ ما يريد..»

صحت في اشمئزاز شاعرًا بأنني لا أطيق كل هذا السخف.. هذا - ببساطة - محض هراء:

- «أنا لا أطيق كل هذا السخف.. هذا - ببساطة - محض هراء.. سأضع السماعة الآن..»

- «لا!!»

وعاد يقول بلهجة متسارعة كي يسمعني أكبر قدر من الكلام قبل أن أضع السماعة:

- «لقد قرأت كثيرًا عن يد المجد قبل أن أجيء إلى الأقصر.. هل تعرف ما وجدته؟ إذا لم تكتمل الوصفة حسب الكتب فإن شبح الجثة صاحبة اليد يطارد صانع التعويذة... يطارده إلى أن يتمها بالشكل الصحيح.. (تورلسون) لم يؤد الوصفة جيدًا لأنّه لم يجد دهنًا آدميًا لشخص مشنوق يصنع به شمعته.. كان من المستحيل عليه أن يجده.. ولهذا لم تنجح الحيلة مع كل من جربها معه، ولهذا طارده الشيء وجعل حياته نحسًا.. في كلّ مرّة كانت الذراع تعود إليه، ولم يكن المطلوب إفزاعه بل أن يستكمل ما بدأه.. وحين وجد الشيء ألا جدوى منه لأنّه لم يفهم، قرر أن يغير هدفه.. أن يطارد الشخص الذي يمكنه أن يصل إلى جثة مشنوق.. وهذا الشخص طبيب.. بالطبع طبيب.. (رفعت).. ماذا حدث في الليلة التي سهرت فيها جوار (تورلسون)؟»

كان الصداع يمزق رأسي، لكنني تمالكت وهمست:

- «كانت لعنة الفراعنة.. لا دخل ليد المجد هذه بالأمر..»

- «كلنا حسبنا هذا.. لكن لا دخل لـ (ددي) في هذا.. اليد لم تؤخذ من مومياء فرعونية.. اليد أخذت من جثة عادية بريئة إن كان هناك شيء كهذا»

- «سأضع السماعة الآن..»

- «(رفعت)!! أنت لا تدري ما تقوم به.. إن هذا عمل من أعمال السحر الأسود، وكل الدلائل تشير إلى أثره المدمر على العقل البشري... أعرف أنك مُسيّر.. أعرف أنك لا تدري بحق ما تفعله.. اللعنة جعلتك تحاول قتل (تورلسون) لأنّه لا نفع منه، ولعلك حصلت الآن على دهن المشنوق وروث الخيل.. الله (تعالى) وحده يعرف كيف فعلت هذا.. لكنك ستفتح أبواب الجحيم على نفسك لو فعلت..»

هنا وضعت السماعة، لأنني لم أعد أطيق الثرثرة..

☆ ☆ ☆

خاتمة

بعد ساعة استجمعت فيها شتات أفكاري، جلست إلى مكتبي وارتديت القفازين المطاطيين، وبدأت الخطوات الأولى من العملية..

هنا سمعت دقات عنيفة.. دقات عنيفة جدًّا على الباب..

ازداد السخط بي، ونهضت كي أفتح الباب وأزجر القادم في شراسة..

لكني لم أفعل...

كان هناك عدد لا بأس به من النسور والنجوم والأشرطة على الباب، وقال كبيرهم بلهجة لا تخلو من التهذيب وإن كانت حازمة:

- «د. (رفعت إسماعيل)؟»

قلت بصوت مبحوح:

- «أنا هو.. خيرًا؟»

- «أرجو أن ترتدي ثيابك.. نحن نريدك في القسم بعض الوقت..»

- «لـ.. لماذا؟»

ابتسم ونظر لمن حوله ثم قال:

- «لا أدري.. لكن هناك مكالمة جاءتنا من العميد (عصمت)، يطلب منا أن نحتجزك حتى إشعار آخر منه.. أعتقد أن الأمر لن يطول وهو على الأرجح سوء تفاهم..»

نظرت حولي متخاذلًا.. لقد لعبها (رمزي) ببراعة.. ولا ألومه على هذا.. الحقيقة أنني كنت في حاجة إلى من ينقذني من نفسي.. وقد فعلها..

- «بعد أن تغلق بابك، هل تسمح لنا بالمفتاح؟ هذه تعليماتي..»

- «ليكن يا سيدي..»

ودون كلمة أخرى أغلقت باب شقتي ولحقت بهم...

☆ ☆ ☆

جاء (رمزي) في اليوم التالي، وكنت قد قضيت ليلة ليست سيئة جدًا في غرفة المأمور.. كان يتوقع لومًا - (رمزي) لا المأمور - لكنني لم أقل له شيئًا على الإطلاق.. طبعًا جاء ومعه مكالمة تسمح بإطلاق سراحي دون قيد أو شرط..

قال لي ونحن نتّجه إلى الخارج:

- «لا تشغل بالك بالمشكلة الآن.. لقد عرجنا على بيتك وأخذنا كل ما يتعلق بالموضوع.. وقد تخلصنا منه..»

- «كيف؟»

- «بالطريقة التي أثبتت نجاحها منذ قديم.. النار.. كما فعلنا مع مخلفات ذلك الفرعون يومًا ما.. لقد دمرت كل شيء ولو عاد هذا الأخ مبتور الذراع يطاردك، لبدا لي كل هذا غريبًا..»

وابتسم وهو يفتح لي باب سيارته وأضاف:

- «عسى أن تكون النار ناجحة، وألا نضطر إلى استعمال مرارة القط الأسود ودم البومة كما تقول الكتب!»

- «ستكون مشكلة حقيقيّة.. أنا لا أعرف إلا طريقة الحصول على دهن المشنوقين!!»

- «ستتعلم! كل شيء يمكن تعلمه!»

وأدار محرك السيارة، وابتعدنا..

☆ ☆ ☆

كما قلنا من قبل هناك مومياوات ومومياوات..

ليست كل المومياوات لطيفة المعشر أو محببة للنفس.. لو اعتقدت هذا فأنت بلا شك في مشكلة..

وليست كل المومياوات شريرة تخرج ليلًا للبحث عنك.. ثمّة استثناءات دائمًا..

قصتنا هذه نموذج جيد بلا شك للمومياوات التي لا تفعل شيئًا، ونموذج للتفكير الخاطئ الذي يتجه حيث يُراد له أن يكون.. وحتّى أنا - طارد الأشباح المخضرم - خدعنى عنوان هذه القصة، وحسبت أنه ما دامت هذه أسطورة المومياء، فمن الطبيعي أن يكون فيها مومياء أو اثنتان.. ولو أنصفنا لأطلقنا عليها أسطورة يد المجد، أو أي اسم آخر لا يعطي إشارة موحية..

كانت هذه أسطورة المومياء..

هل يحق لي أن أستريح، أم أن العشيرة تزأر معلنة دنو خطرها الداهم؟

كانوا مجموعة من العمال.. وكانت هناك تلك الحياة القاسية التي.....

ولكن هذه قصة أخرى..

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

الجزء الأول: حكاية مختصرة عن النرويجي الذي لا يتكلم كثيرًا

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

الجزء الثاني: وطبيب مصري لا يفهم ما يدور..

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

الجزء الثالث: لحظة الحقيقة

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

خـــاتمة

Notes

[1←]
كان هذا هو الكتيب التاسع..

[2←]
كما هو واضح.. الشخصية حقيقيّة، وما ورد عنها هنا معروف في التاريخ الفرعوني..

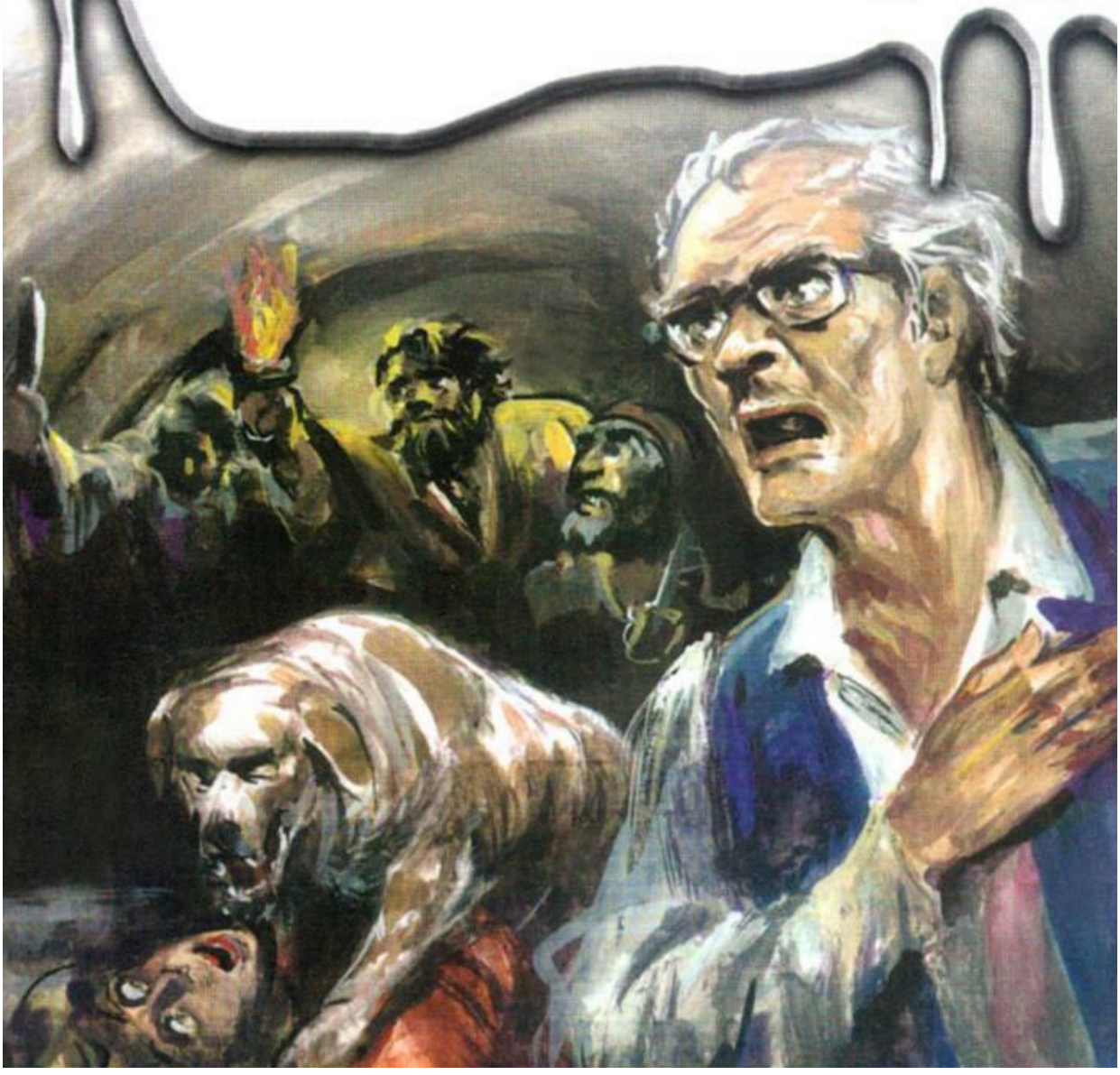
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

49

أسطورة العشيرة

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقـدمة

عن ما وراء الطبيعة أكتب..

عن الأشياء التي لا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تحس.. وربما لا تعقل كذلك..

عن الأشياء التي تتحرك خارج مركز الإبصار، والتي تدير وجهك نحوها لتجد أنها ليست هنالك.. عن الإحساس الغامض في مؤخرة عنقك، حين تنتصب الشعيرات، وتشعر أنّ هناك ما لا وجود له يقف وراءك..

عن الأشياء التي لا اسم لها كما يسميها (لافكرافت) العظيم، الذي لا بد أنكم تعرفونه الآن..

عن الخوف أكتب..

عن الستائر التي تتموج ليلًا في ضوء القمر دون أن تكون هناك أنسام تبرر هذا كله..

عن الأبواب التي تصدر صريرًا لا يكفي بعض الزيت لعلاجه، وكل أبواب قصص الرعب تصدر صريرًا كما تعرفون..

عن شواهد القبور في وقت الغروب، والساعات التي تشير إلى آخر لحظة كان أصحابها أحياء..

عن الأطفال الذين تلعب معهم ساعة أو أكثر، ثم تعرف - بالصدفة - أنهم ماتوا من أعوام..

عن الوجوه التي تنطبع على زجاج النوافذ، وصوت الأنين القادم من غرفة نائية خالية في دارك.. والشموع التي تنطفئ دون هبة هواء واحدة..

عن الرعب أكتب..

لكنه ذلك الرعب الهامس الموحي الذي يشبه لحنًا غامضًا سمعته يومًا ما، ولا تستطيع تذكره بالكامل.. الشعور بأن شيئًا ما لا تدري كنهه سيحدث بعد ثوان..

لا أتكلم عن الأطراف المبتورة والدماء والعيون المقلوعة فليس هذا هو المكان المناسب بالتأكيد.. ربما قابلت بعضها في قصة اليوم، لكنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة..

اليوم نتحدث عن العشيرة..

☆ ☆ ☆

١ - مقدمة لا بد منها للأسف..

لندن بعد منتصف الليل..

هناك فيلم رعب قديم لـ (لون تشاني) بهذا الاسم، لكننا بعيدون عن أفلام الرعب هنا.. (لندن) القرن التاسع عشر المظلمة بشوارعها الضبابية وأنوارها الخافتة، يجول فيها السفاحون والمذءوبون والمسوخ الهاربة من المعامل، بينما البشر النادرون الذين تلقاهم هم دائمًا ضحايا.. هذا هو ماتعلمناه من السينما وقصص الرعب القديمة، أمّا (لندن) المعاصرة فمدينة راقية متحضرة.. لا شيء يخيف فيها إلا عدم تمكنك من اللحاق بالمترو..

لهذا ـ يمكننا أن نفهم - كان (تيموثي مورجان) يركض ركضًا وهو يختلس نظرة إلى ساعته من حين لآخر..

إنه موظف في أحد الفنادق في (ساسكس جاردنر) - وسط المدينة - ويسكن في ضاحية مطار (هيثرو) التي يسمونها (ميدل إسكس).. ومن عادته أن يلحق بهذا المترو بالذات ليكون في داره في الثانية بعد منتصف الليل.. وقد ظل يمارس هذا الروتين خمس سنوات كاملة منذ استقر في حي (كرانفورد) مع أسرته..

الحقيقة هي أن العمل كان بعيدًا عن المنزل.. لكن العمل كان يناسب ميوله، والمنزل كان يروق له، وقد عجز عن أن يجمع الحسنيين في مكان واحد، ولكنّه كان يؤمن بقدرة التعود على إزالة الصعاب..

لندن بعد منتصف الليل..

ليست بالضبط مدينة نائمة لأن لندن - كأية عاصمة أخرى - مدينة لا تنام، لكن محطة مترو الأنفاق - ويسمونه هنا الأنبوب أو الـ Tube - كانت خالية كعادتها في هذه الساعة.. لابد من الظلام.. الكثير منه.. لابد من الصمت.. الكثير منه..

على الجدار تتناثر عبارات عشوائية رسمها بعضهم بعلب (السبراي) أو بالأقلام الغليظة.. عبارات بذيئة أو تتهم الحكومة البريطانية بالفساد، أو تؤيد (كاسترو) وتنعي (جيفارا)..

ربما تجد هنا أو هناك عجوزًا شريدًا نائمًا، لأن لندن ـ كأية عاصمة أخرى ـ لا تعرف الرحمة.. إن لها وجوهًا عديدة لكن لا روح لها..

الضوء الخافت يسقط فوق الجدران الرخامية، وعلامات إرشاد هنا وهناك تحدد مسارات المترو العملاق، الذي يشكل شبكة كاملة تحت المدينة الصاخبة..

بعد قليل يصل المترو وكشافه الوحيد العملاق في المقدمة يعطيه انطباعًا أسطوريًا كأنه ديناصور عملاق قادم لالتهام الجميع.. تنفتح الأبواب الكهربية، ويدلف (مورجان) إلى الداخل ليجلس في أول مقعد يقابله.. والعربة دائمًا خالية إلا من عجوز شريد آخر، يمضي ليلته في رحلة لاتنتهي داخل عربات المترو.. لأن لندن - كأية عاصمة أخرى – لا تعرف الرفق بالشيوخ.. وتنغلق الأبواب، وبعد دقائق يغلب (مورجان) عناء العمل الذي استمر ثماني ساعات متواصلة، فيغفو.. دائمًا لا تطول غفوته أكثر من نصف ساعة، بعدها يصحو مذعورًا يتساءل أين هو.. ثم يفيق ويغفو ويفيق.. وفي النهاية يصل إلى المحطة، فيترجل ويمشي قليلًا في الشوارع المظلمة متجهًا إلى (كرانفورد)..

هذا هو روتين حياته الممل.. طموح؟ لقد كف عنه من سنين.. لم يعد يريد إلا أن يظل في هذا العمل الذي يدر عليه دخلًا معقولًا..

الآن هو يدخل المحطة ويتجه إلى مكانه المعتاد من الرصيف..

☆ ☆ ☆

كان هناك ثلاثة أشخاص يأتون من بعيد.. على مسافة خمسين مترًا..

لم يكن (مورجان) يخاف اللصوص ولا المتحرشين في هذه الساعة.. لأن من يخاف هؤلاء يجب أن يكون ثريًا أو موحيًا بالثراء أو امرأة.. أمّا هو فلاشيء فيه يدعو للتحرش.. نظرة واحدة لمظهره وثيابه وعلامات المعاناة على وجهه، تقنع أي لص أنه مجرد زميل آخر.. أو واحد من الأشخاص الذين لا اسم لهم وهم ملح الأرض..

لكن شيئًا ما في شكل هؤلاء القادمين جعله يتوجس نوعًا..

كانوا يمشون في غير انتظام.. مشيتهم توحي بالكثير من الاستهتار والعدوانية والغطرسة.. وكانوا مسلحين بالعصي، ويتبادلون الضربات فيما بينهم على سبيل المزاح، وصوتهم مرتفع على غير عادة الإنجليز... هؤلاء إذن من عتاة البلطجية، أو هم ثملون إلى حد أن صاروا كذلك..

نظر حوله بحثًا عن رجال شرطة، لكن لم يكن هناك أحد.. هذا طبيعي لأن رجال الشرطة لايظهرون إلاحين تكون أنت المخطئ ومن المستحيل أن تجد واحدًا حين تريده..

تراجع للوراء وقدر أنه إن ظل هادئًا لن تحدث مشاكل.. لقد مر بهذا الموقف مرّتين أو ثلاث مرات في تاريخ عودته من العمل، ولم يحدث له شيء..

إنهم يقتربون أكثر..

يدخلون دائرة الضوء.. وهذه المرّة زال اطمئنانه وطارت نفسه شعاعًا..

كانت على عيونهم جميعًا عوينات سوداء وثيابهم توحي بالهيبيز الذين كان هذا العهد عهدهم الذهبي.. مع فارق واحد هو أن الهيبيز أميل إلى السلام والتراخي.. هؤلاء كانوا واضحي الشراسة والقوة، وأدرك أن اثنين منهم ملوثان بالدماء إلى حد يوحي بأنه لن يكون الضحيّة الأولى لهم في هذه الليلة... كما أدرك أنهم غائبون عن الوعي تمامًا.. لابد أنه مخدر ما من المخدرات التي يتعاطاها أمثال هؤلاء..

بدأ يتراجع للوراء أكثر، وقدّر على الفور أنهم من أجله قادمون..

أشار أحدهم إليه وصاح بلهجة (الكوكني) التي يصعب فهمها على من لا يعرفها:

- «هذا واحد آخر!!»

فأطلق الآخران ضحكة ماجنة مدوية، وأطلقا سبة بذيئة، ثم مشوا نحوه.. خطوات بطيئة لكنّها فعالة.. لا داعي للإسراع فلا يوجد أحد في المحطة كلها..

أين هذا المترو؟ لا داعي لانتظار المترو على كل حال، لأنّهم - طبعًا - سيركبون معه.. ما لم ينهوا الموضوع قبل أن يركبه...

ماذا يريدون؟ لايعرف.. وفي الغالب هم كذلك لا يعرفون.. إنهم في حالة غياب عن الوعي جعلتهم أقرب إلى ذئاب شرسة تحتاج إلى الدم.. أي دم.. سيضربونه ضربًا مبرحًا ولربما يقتلونه ثم يفرون، ولسوف تكتب الصحف المسائية عنه، باعتباره نموذجًا لما وصل إليه العنف غير المبرر في هذه الأيام...

نظر إلى نهاية الرصيف، ووجد أنّ هذا هو السبيل الوحيد أمامه.. الابتعاد عنهم..

ودون إعادة تفكير راح يجري إلى نهاية الرصيف.. يجري.. لم يبد أنّ هناك من يجري خلفه لكنه أدرك أنهم يواصلون الزحف الحثيث نحوه...

- «هلم يا (مارتن).. إنّه لك!!»

قالها أحدهم في مرح.. فراح (مورجان) يركض أسرع وأسرع..

نهاية الرصيف حيث ينتهي النور ويبدأ الظلام في النفق الطويل المؤدي إلى المحطة التالية.. فقط هناك حبل معلق على سبيل الحاجز، مع لافتة حمراء مضيئة تنذر الحمقى من تجاوز هذا الحاجز.. لكن لا خيار أمامه..

رفع ساقه ليعبر الحبل، ثم وثب عند نهاية الرصيف إلى الظلام.. وراح يركض موازيًا للقضيب..

يسمعهم يركضون وهم يتصايحون في مرح.. كما يتصايح النبلاء الإنجليز في حماسة عند بدء صيد الثعالب.. يركض أسرع وأسرع...

الان هو يركض فوق الحصى الموجود على جانبي القضيب.. جواره جدار النفق.. ومسافة تبلغ نحو المتر تفصل هذا الجدار عن القضيب.. ظلام دامس.. لكنه يرى من بعيد كشافًا خافت الضوء معلقًا على الجدار.. وهو واحد من كشافات متباعدة تجعل الرؤية ممكنة إلى حدٍ ما..

يركض ولا ينظر للوراء.. لأن الراكضين الذين ينظرون للوراء يتعثرون دائمًا.. هل مازالوا خلفه؟

الحقيقة أن دخوله هذا النفق حماقة ما بعدها حماقة، ولو قتلوه هنا فلن يشعر به أحد.. لا أحد يجيء هنا منذ أنشئ خط المترو، لكن ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ ينتظر حتى يهشموا جمجمته أو يبقروا بطنه بمديّهم؟

لن يستطيع طبعًا الركض حتى المحطة التالية.. هذا يحتاج إلى ساعة كاملة أو أكثر.. عليه أن يبقى هنا بعض الوقت ثم يعود بعد فترة تسمح بانصراف هؤلاء المشاغبين..

النفق يرتج.. لماذا؟

آه! لقد جاء المترو الذي كان يجب أن يركبه.. ورحل طبعًا.. وهو الآن يتجه إليه!

نظر للوراء فرأى الضوء الرهيب في نهاية النفق يكبر حجمًا من لحظة لأخرى، والنفق يرتج أكثر فأكثر.. أدار ظهره للجدار ليلتصق به، وبذل مجهودا عنيفًا كي يتحول إلى نوعٍ من الطلاء الملتصق بالجدار.. كانت هناك أجزاء حجرية بارزة فأنشب أظافره فيها، وتمنى ألا يكون تفريغ الهواء عنيفًا إلى الحد الذي يُلقي به تحت عجلات الوحش القادم..

فووووووووه!

مر الهول القادم به، على مسافة لا تتجاوز ثلاثين سنتيمترًا.. كان الأمر لا يصدّق كأنه الكابوس، وراح النفق يرتج بأعنف ما يمكن، بينما العربات المضيئة تجري أمامه بسرعة، حتى إن صورتها تحولت إلى جسم طويل مضيء هائل الحجم بلا تفاصيل وبلا نهاية... وكاد تفريغ الهواء ينزعه من مكانه لكنه تشبث بقوّة تفوق تحمل البشر.. تخيل أنه سحلية تتشبث بقوّة في تجاويف جدار..

حقا هي تجربة شنيعة تغير تضاريس روحك ذاتها، ولأسباب كهذه عالج القرويون عندنا العقم وبعض الأمراض المستعصية بالنوم بين قضيبي القطار في أثناء مروره على سبيل (الخضة).. تجربة كهذه يمكن أن تمرض السليم وتشفي السقيم حقًّا...

أخيرًا مرَّ الكابوس فتخلى (مورجان) المرتجف عن الجدار، ووقف يرمق القطار المبتعد في دائرة نور تنكمش عبر النفق.. لشد ما تمنى لو كان فيه الآن!

☆ ☆ ☆

أمّا وقد مر المترو فقد وجد نفسه يمشي بلا هدف في الممر الطويل وهو يترنح فوق ساقين لا تشعران..

لماذا مشى مبتعدًا عن المحطة وقد كان المفترض أن يعود لها؟ هذه أشياء لا يمكن تفسيرها بالورقة والقلم.. أجدادنا وصفوا الموقف بتعبير شعبي حكيم - وكل التعبيرات الشعبيّة حكيمة.. هو: (ساعة القضاء يعمى البصر)..

ربما لأن مرور القطار أذهل عقله، وربما لأنّه كان يقدر أن العصابة لم ترحل بعد، وربما لأنّه اعتقد أنه يمكن أن يصل للمحطة التالية.. المهم هنا أنه واصل رحلته وحيدًا في النفق المظلم، لا يرى إلا على ضوء الكشافات الخافتة المعلقة على الجانبين، والتي كان يراها من نافذة المترو كخط واحد مضيء..

سمع صوت العواء فارتجف..

ذئاب هنا؟ أليس هذا غريبًا بعض الشيء؟

لكنه في موقف سيئ حقًّا.. رباه! إنِّه موقف كريه مقيت..

لو كان هنا ذئب أو مجموعة من الذئاب فماذا عساه يفعل؟ كيف يركض فوق هذه القضبان؟ وإلى أين يذهب؟

ولكن.. ذئاب تحت شوارع (لندن).. هذا سخف.. صوت العواء ليس سخفًا.. لكن لابد من تفسير ما..

تعقل.. تعقل.. تعقل..

ستنجو.. ستنجو.. ستنجو..

نظر للوراء. لكنه رأى ما يدعوه إلى المزيد من الركض في الاتجاه الخاطئ.. لابد من كثير من الركض..

هنا؟ مستحيل! لابد أنّ هذا كابوس.. لسوف يفيق منه حالًا، وتقدم زوجته له القهوة والخبز المحمص..

راح يركض ويصرخ.. يركض ويتوسل.. يركض ويسب.. يركض ويبصق.. يركض ويتعثر.. يركض ويبكي.. يركض ويئن.. يركض ويلهث.. يركض ويرتجف.. يركض و... أنت تعرف هذا النوع من القصص بالطبع..

وعندما مر المترو التالي كان الصخب عاليًا إلى درجة أن جدران النفق نفسها لم تسمع الصرخة..

☆ ☆ ☆

٢ - أنا من جديد!

القانون الأول:

لا أحد سوانا.. لأنّه لا أحد يقبل أن يكون منا..

☆ ☆ ☆

الله ما أجمل الحياة!

كنت في هذه الأيام أعيش فترة من الصفاء الروحي الكامل.. حتى بدأت أعتقد أنني مت أخيرًا وصرت روحًا شفافة.. لم يعد هناك صداع، وتحسن ضغط دمي كثيرًا لأسباب لا أفهمها.. ومنذ فترة لا بأس بها - حوالي ستة أشهر ـ لم أر شبحًا أو أسمع قصة عن واحد.. لابد من لحظة ما يكف المرء فيها عن أن يكون مختلفًا ويصير له الحق في الحياة كالآخرين.. لقد انتظمت حياتي أخيرًا بعد قصة ذراع المومياء إياها..

والسبب الآخر الذي لا أعترف به ـ أنا لم أعد مراهقًا ـ هو أن (ماجي) كانت في الموضوع هذه الأيام.. كنت في (لندن) في مهمّة علمية، هي الإشراف على طالب دكتوراه لامع يدرس هناك ـ أعتقد أنه (محمود أبو زهرة) إن لم تخني الذاكرة - وكان عليَّ أن أمضي أسبوعين في عاصمة الضباب التي كانت تحكم العالم يومًا ما..

طبعًا لم يكن ممكنًا أن أكون في (بريطانيا) ولا أخبر (ماجي) أنني هنا.. اتصلت بها في (إنفرنسشاير) فجاء صوتها الأثير العزيز عبر سماعة الهاتف.. لغتها الإنجليزية الراقية وطريقتها العاقلة الودود في الكلام.. ومن جديد أشعر أنني ذلك الطفل التعس الذي لايعرف كيف يتصرّف من دون (ماما)...

لا أدري كيف ولا متى بكيت.. يبدو أنني أمضيت تسعين بالمائة من اللحظات التي قابلتها فيها، أبكي كالبلهاء وأتمخط في كم بذلتي..

- «يا لك من طفل! اهدأ يا (رفعت).. أهدأ أيها الأحمق.. رباه! ماذا فعلت الحياة بك ياصغيري؟»

- «لم تفعل شيئًا على الإطلاق.. لعل هذا سبب كاف للبكاء!!»

قالت بطريقتها العملية:

- «ليكن.. يجب أن أراك.. متى يناسبك أن نلتقي؟»

- «اليوم.. الآن!»

- «هذا لن يناسبني.. اسمع.. سأكون في (لندن) بعد ثلاثة أيام ولكن لمدّة يوم واحد لا أكثر.. لن أستطيع إيجاد وقت أكثر على جدول أعمالي.. سأتصل بك قبل وصولي على هذا الرقم..»

ووضعت السماعة شاعرًا بالحيرة والتخبط والغباء.. إنه ذلك الشعور الذي يشعر به النشال بعد أن يتلقى علقة في الحافلة.. علقة توصله إلى حد عدم الشعور بالألم.. إنما هو مذهول وربما يضحك.. إن (ماجي) بالفعل قد تحولت إلى معنى.. مصدر لغوي.. أكثر من كونها مجرد فتاة أحببتها.. وأنا أعرف جيدًا لماذا لم أتزوجها حتى الآن، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتزوج مصدرًا لغويًا أو معنىً مطلقًا.. هل سمعت عن شخص - مهما كان أحمق - تزوج من العدالة أو الحرية أو المروءة؟

لن أطيل عليكم على كل حال..

هناك أشياء لا يمكن التعبير عنها بكلمات، ولوحاولت أن تفعل فلن تكسب إلا مضايقة الآخرين.. من يهتم بهذه الأمور سيجد الكثير منها في الكتيب الحادي والثلاثين (أسطورتها).. وكما أن مريض الزكام لا يتحكم في أنفه، كنت أنا وقتها مصابًا بنوع من الزكام العاطفي.. وهو نوع من الزكام لا تجدي معه كل أقراص فيتامين (ج) في الكون..

☆ ☆ ☆

كنت أقيم في حي (كرانفورد) في (ميدل إسكس).. جوار مطار (هيثرو) الشهير.. هذا هو المكان الوحيد الذي استطاع تلميذي أن يحجزه لي في هذا الموسم.. إن الحيّ يوشك أن يكون جزءًا من (بومباي) أو (إسلام آباد) من كثرة من فيه من هنود وباكستانيين، لكني بالطبع لا أهتم بأين أسكن لأني منغلق على عالمي الداخلي.. الشيء الوحيد الذي ضايقني كثيرًا هو كثرة الطائرات التي تهز البيت هزًا والمنطلقة كل لحظة من مطار (هيثرو) أو المتجهة إليه.. يصعب إقناعي بأنني لا أعيش فعلًا في ممر الطائرات..

لكن الشقة الصغيرة التي حجزها لي لمدّة أسبوعين كانت مريحة، وكنت أحبها بحق، خاصة وأنها تطل على حديقة صغيرة جميلة.. إنني لا أرى الزهور إلا نادرًا وقد احتجت إلى وقت أطول من اللازم كي أتذكر اسم هذه الكائنات الرقيقة المبهجة..

لا أرى الزهور إلا نادرًا، وقد جاءت (ماجي).. ثم رحلت..

فقط سألتني وهي تقف على الباب مودعة:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستكون ملكي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى..»

هنا صاح سائق سيارة الأجرة الإنجليزي متململًا، لأننا تركناه واقفًا أمام البيت كل هذا الوقت.. ولم تجد (ماجي) بدًّا من قطع العبارة واللحاق بالسيارة..

وتنهدت وأنا أعود إلى الداخل.. أمامي عشرة أيام أو أقل هنا.. سأغرق نفسي في العمل كي لا أفكر في شيء آخر.. إن الأنسام لا تدوم للأبد.. إنها ترحل بعد ما ترطب وجودك، لكنك ـ وهذا قاس ـ لا تتحمل بعد رحيلها فكرة الحياة من دونها...

☆ ☆ ☆

أذكر أنني كنت واقفًا مع طالب الدكتوراه النجيب ـ يبدو لي الآن أنه ليس (محمود أبو زهرة).. ثمّة احتمال لا بأس به أن يكون (إبرهيم مينا) ـ نتحدث عن (لندن)، وكنت أحب هذه البلدة بحق.. إن ذكريات دراستي هنا لا تبرح ذاكرتي أبدًا..

أول سفر للخارج.. أول بعثة دراسية.. أول حب متبادل..

قال لي (إبراهيم) وهو يدفن عنقه في ياقة معطفه فقد كان البرد قاسيًا:

- «لم أستطع قط أن أحب إنجلترا.. إنها الضباب والبرد والقسوة والتحفظ.. كل هذا في وقت واحد..»

- «لنفس الأسباب أحبها أنا بجنون!»

قال في اشمئزاز:

- «هنا لا تشعر بالأمان لحظة.. وإنني لأتساءل عن السبب الذي يجعل الدارسين مثلي يأتون بأسرهم..»

ولوح بصفحة من (صنداي تايمز) تحت أنفي وصاح:

- «هل ترى يا سيدي؟ لابد من مختفين.. لابد من ألغاز ما.. في القرن الماضي كان (جاك السفاح) الذي يجوب شوارع (لندن) يقطع رقاب النساء، واليوم.. ماذا عن اليوم؟»

لم أفهم لأنني لم أكن قرأت الجريدة، وعلى العموم لست من هواة صفحات الحوادث في أية جريدة، لهذا سألت الطالب النجيب.. أعتقد أنه ليس (إبراهيم مينا).. لا أدري لماذا أعتقد أنه (أحمد عدلي)..

سألت (أحمد عدلي) في برود:

- «يبدو من كلامك أنّ هناك أشخاصًا مختفين..»

- «وأكثر من ذلك.. إنهم قد صاروا عشرة الآن.. وكلهم في وسط المدينة.. في الساعات الأولى من الصباح..»

- «لقد بدأت أستنتج من كلامك أنّ هناك عشرة أشخاص مختفين في الساعات الأولى من الصباح..»

نظر لي في غيظ.. لم يكن طبعًا يعرف ولا يألف طريقتي السمجة في المزاح، لذا اكتفي بأن قال في ارتباك:

- «عشرة.. هذا كثير.. والبوليس البريطاني و(سكوتلانديارد) لايعرفون شيئًا على الإطلاق.. فقط يتظاهرون بالخطورة والغموض، ويقضون وقتهم في ملاحقة الأجانب بحثًا عن تصاريح العمل..»

هززت رأسي لأنّه ليس عندي ما يُقال..

ولما كانت الساعة الخامسة مساء فإنني فارقت الطالب النجيب (أشرف راشد) على موعد في الغد.. كنت أريد زيارة متحف (مدام توسو)، لكني لا أعتقد أنهم متحمسون إلى هذا الحد.. إذن هي جولة في ضواحي (لندن) لأتأكد أنني لم أنسها، وأنها لم تتغير بعد كل هذه السنوات..

☆ ☆ ☆

لم يكن عندنا مترو أنفاق في مصر وقتها، وكنت أنا منبهر كطفل بهذه اللعبة الإنجليزية التي تركبها فتحملك إلى كل مكان تحت الأرض.. وقد ركبتها مرارًا.. في كلّ مرّة آتي فيها إلى إنجلترا أقضي في المترو أضعاف الساعات التي أقضيها فوق الأرض.. وكان هو وسيلتي المفضلة للذهاب إلى وسط البلد...

يسمونه الأنبوب Tube في العامية، أمّا اسمه الرسمي فهو الـ Underground طبعًا.. وهو يتكون من ثلاثة طوابق تربط أكثر من 288 محطة.. ويقولون إن من يمشي في ممراته من دون خارطة إنما يستحق ما سيحدث له، لأن الساعة قد تقوم وهو مازال لا يعرف أين هو.. أي أنه من الطبيعي جدًا أن تقابل رجلًا تمزقت ثيابه وطالت لحيته، أو رجلًا مات من الظمأ.. إن اللافتات هنا كثيرة.. ربما أكثر من اللازم إلى حد أنها تجعلك أكثر جهلًا، وهو بالضبط ما قاله فيما بعد الدكتور

(جلال أمين) في كتابه المهم (العولمة).. كثرة المعلومات قد تجعلك عاجزًا عن اتخاذ قرار صائب..

المهم أنني لم أحاول في هذه الزيارة بالذات أن أتسلى بأن أضل طريقي في المترو.. لم يكن عندي وقت ولا بال رائق لهذا.. بالإضافة إلى أن البرد شديد حقًّا لا يغري بالمغامرة...

ركبت متجهًا إلى ضاحية (ميدل إسكس) كما قلت لك، وجلست جوار النافذة أرمق النفق المظلم بالخارج.. هنا شعرت بأن مجنونًا جلس جواري.. كيف عرفت أنه مجنون؟ هذا سهل.. لأن ثيابه كانت خليطًا عجيبًا من الألوان، ولأن ذقنه كانت طويلة مشعثة وكذا كانت نظرات عينيه، وكان يخفي في صدر سترته كلبًا صغيرًا بحجم الأرنب.. هل هذا يكفي المرء كي يخمن أن جاره مجنون؟ ثمّة شيء في مظهري يروق للمجانين والمتسولين ولا أدري ما هو.. لكنه نوع خارق من الجاذبية يدنو كثيرًا من مرتبة السحر..

قال لي بلهجة حاسمة مسرحيّة:

- «إنهم هنا.. في كل مكان.. أعرف هذا..»

نظرت له وابتسمت باعتبار ما يقوله رائع حقًّا.. فواصل الكلام:

- «إن الشرطة تنكر ذلك.. هل تعرف السبب؟ هه؟ هل تعرف السبب؟»

وأخرج زجاجة صغيرة مضغوطة من جيبه، وفتح سدادتها وأفرغ جرعة في فمه، ثم - ويا للقذارة - قربها من فم الكلب الصغير ليلعق لعقة من حافتها.. كلب صغير بائس صعلوك مثل صاحبه.. وبالتأكيد لا يشغل مكانة مرموقة أو محترمة في دنيا الكلاب..

أعاد الرجل السدادة للزجاجة والزجاجة لجيبه ثم عاد يسألني:

- «هل تعرف السبب؟ هه؟»

قلت في ذكاء وأنا لا أفقه مما يقول حرفًا:

- «لأن لهم مصلحة في الإنكار.. إنها نظرية المؤامرة!!»

- «بل لأنّهم لا يعرفون! بالله عليك هم لا يعرفون! يتظاهرون بالعلم والسيطرة على مجريات الأمور.. لكنهم لا يعرفون!»

هززت رأسي، وقلت بلهجة من ينهي المحاورة:

- «سيعرفون.. سيعرفون.. المهم أن تستمر أنت وأمثالك، ولسوف تنتصر الحقيقة يومًا»

ثم أسندت خدي للزجاج البارد، وصممت أن أتظاهر بالنوم كي يتركني وشأني..

لكني نمت فعلًا بعد يوم طويل شاق..

☆ ☆ ☆

٣ - حكاية ثلاث فتيات لم يعدن ثلاثًا..

القانون الثاني:

ما يعرفونه لا يعنينا أن نعرفه.. وما نعرفه لا يصدقه أحد منهم...

☆ ☆ ☆

هن ثلاث فتيات..

ثلاث فتيات عاملات من الطراز البريطاني، أى الفتاة العملية جدًا لاتشعر بأنوثتها على الإطلاق، والمسترجلة قليلًا وإن حرصت على ارتداء أحدث موديلات الثياب..

ثلاث فتيات هن..

(ماري) و(اليزابث) و(ساندرا).. الأولى والثالثة زنجيتان.. نعم فالزنوج في كل مكان من (لندن) ولهم وضع لا بأس به أبدًا بالنسبة لزنوج أمريكا في أعوام التفرقة العنصرية هذه.. حينما كان (مارتن لوثر كينج) و(مالكولم إكس) يموتون على أيدي البيض في الولايات المتحدة..

الفتيات الثلاث يعملن في مطعم، ويقمن في شقّة واحدة في (وست إند).. وبالنسبة لهن لم تكن الحياة مبهجة جدًّا لكنّها محتملة.. صحيح أن الغد لا يبشر بالكثير.. لكنهن سيتزوجن يومًا ما.. ولئن كانت حياتهن مملة فلربما كانت حياة أزواجهنّ أكثر إثارة.. ما زال زوج الغد هدية غامضة في صندوق مغلق... ربما هو وسيم مثل (مايكل كين).. ربما هو ثرى مثل (أوناسيس).. ربما هو ظريف.. مثل (بيتر سيلرز).. وربما لا وجود له أصلًا!

لقد انتهى يوم من العمل الشاق، ومن تحمل سخافات الزبائن، لأن الزبون دائمًا على حق مهما كان كذابًا وقحًا مدللًا متغطرسًا أحمق مدعيًا متظرفًا سوقيًا سمجًا لزجًا لحوحًا مضللًا أخرق غبيًا متحذلقًا.. لكنه على حق!

لقد بدأ يوم الأحد، وهو إجازة في كل البلاد ماعدا في المطاعم! لا شيء يتغير في روتين الحياة ولاشيء يتغير في النكات التي يتبادلنها.. يبدو أن عليهن الصمت لمدة عامين إلى أن تتجمع مواضيع مشتركة جديدة..

هن ثلاث فتيات..

ثلاث فتيات هن..

وعنهن أكتب هذا الفصل القصير..

☆ ☆ ☆

كانت محطة المترو خالية تمامًا في هذه الساعة المبكرة من صباح الأحد.. لقد اعتدن هذا كما اعتدن ألا يخفن.. فهن معًا وهذه نقطة مهمّة.. معًا حتى الوصول إلى البيت والنوم.. وقد علمتهن التجارب أن المتاعب قلما تحدث لثلاث فتيات مجتمعات..

النقطة الثانية المهمة أن الأولى – (ماري) - تحمل سكينًا زنبركيًا في حقيبة يدها، بينما الثالثة (ساندرا) تجيد بعض الكاراتيه من مدرسة حضرتها العام الماضي، ومنذ عام كسرت ذراع شاب مشاغب ضايقها أكثر من اللازم.. أمّا الثانية (إليزابث) فتضع في حقيبة يدها قالبًا من القرميد.. وهو طريقة فعالة جدًا في القتال.. في هذا الزمن لم تكن أشياء مثل الصاعق الكهربي والسبراي تباع في المحلات هناك..

وقفن على المحطة ينتظرن المترو، وهو لن يتأخر على كل حال.. وراحت (ماري) و(اليزابت) تتبادلان حديثًا هامسًا، لأن صمت المحطة كان يوحي لهما بأن كل (لندن) تسمع ما يقولان..

فجأة سمعن صوت نباح كلب..

نظرن إلى نهاية الرصيف، فوجدن أنّ هناك أربعة رجال يمشون في تؤدة نحوهم وقد أمسك اثنان منهم بكلبين.. كلبين من سلالة مجهولة لكن الكلاب السوداء الضخمة عالية الظهر تتشابه على كل حال..

لم تحب (ساندرا) المنظر كثيرًا خاصة أن الكلبين كانا يتواثبان محاولين الخلاص من الحبلين اللذين يقيدانهما.. كلبان من سلالة متحمسة تهوى القتل فيما يبدو..

نظرت لـ (اليزابيث) في عدم فهم، فقالت لها في هدوء:

- «لاتتحركي ودعيهم يمرون..»

ووقفت الفتيات الثلاث ينظرن في رعب إلى القادمين، لكن كل واحدة منهن أدركت أن القادمين لن يكتفوا بالمرور.. منظرهم يوحي بالمشاغبة وحب التحرش.. والنقطة الأهم أن معهم كلابًا، وهذه لايجدي معها القتال على الطريقة اليابانية..

القادمون يقتربون أكثر ويتبادلون عبارات المزاح.. هنا هتفت (ساندرا) وهي شبه قائدة هذا الثلاثي:

- «يجب أن نبتعد!»

كن يعرفن أن الركض سيقطع الخيط الوحيد الذي يحفظ عقلانية هذه المواجهة.. هنا فقط سيفتح باب الجحيم ويتحول الموقف السخيف إلى مطاردة حقيقيّة.. لكنهن لم يهتممن وبدأن يجرين نحو الاتجاه الوحيد المفتوح: نهاية المحطة.. وبدأت الكلاب تنبح وتحاول التملص من سادتها الذين كانت سرعتهم بالطبع لا تناسب الكلاب المتحمسة..

المشكلة أن العودة لم تعد متاحة، والاتجاه الذي يجرين إليه هو نهاية الرصيف حيث تبدأ (أرض اللا إنسان) التي نعرفها عند نهاية أرصفة المترو.. النفق الأسود الطويل..

هنا صاحت (إليزابث):

- «هذا لن يكون! إنهم يقودوننا إلى الهلاك!»

وطرحت بحقيبتها حول رأسها بضع مرات، ثم قذفت بها - بقالب القرميد - في وجه أحد القادمين، ولا بد أن الضربة كانت قوية إلى درجة أن الرجل سقط على الأرض وهو يئن ويتلوى..

المشكلة هي أن الرجل كان يمسك مقود كلبه، وما كان يحبّ أن يترك المقود لكنه تخلى عنه ليمسك بوجهه.. وهكذا تحرر الكلب وبسرعة البرق طار في الهواء، وكان آخر مارأته الفتاتان المذعورتان هو (إليزابيث) ساقطة على الأرض والكلب ينشب أسنانه في عنقها..

أين الناس؟ أين رجال الشرطة؟

راحت الفتاتان تركضان إلى نهاية النفق بينما صوت الكلب الثاني - الذي كان فمه فارغًا - يصم أذنيهما.. وفتحت (ماري) نصل مطواتها الزنبركية، وصممت على أن تبيع حياتها غالية.. لماذا لا يتكلم هؤلاء الحمقى؟ لماذا لا يقولون ما يريدون؟

الغريب كذلك أنهم لم يحاولوا الإمساك بهما.. كأن كل ما يريدونه هو أن يدفعوهما دفعًا إلى النفق.. ربما فكرت الفتاتان في التوقف والمواجهة لكن بدا هذا مستحيلًا في وجود الكلب المتحمس...

وفي وجود الذعر..

☆ ☆ ☆

كانت (ماري) الآن تجري في الظلام وتنشج:

- «(إليزابيث)! قد تخلينا عن (إليزابيث)!»

لم ترد صاحبتها لأنهّا كانت تجرى كالظليم، وإن كانت بدورها تنشج...

وما تجرى الفتاتان الزنجيتان جوار قضيب المترو في الممر المظلم الطويل الذي لاتضيئه إلا مصابيح جانبية خافتة.. لم تنظرا للوراء ثم سمعنا صوت هدير المترو القادم.. الأرض تهتز بعنف..

- «التصقي بالجدار وتشبثي!»

قالتها (ساندرا) بينما الضوء الساطع يملأ الممر ويعمي الأبصار..

ضغطت على أسنانها وكذا ضغطت صاحبتها على أسنانها.. الهول القادم.. قليل من البشر من يتحمل فكرة مرور قطار على بعد سنتيمترات منه في هذا النفق الطويل... هذا مشهد تراه في الكوابيس... ويصعب أن تتخيل وجوده في مكان آخر..

لكن المترو لم يستمر بنفس السرعة.. هدأت سرعته روايدًا روايدًا.. ثم تعالى صوت الفرامل الزاعق مع كثير من الدززززززز والتششششش والإيييي.. ثم توقف.. وانفتحت الأبواب...

تبادلت الفتاتان النظرات وهما تريان الباب المفتوح كاشفًا العربة المضيئة على بعد نصف متر منهما.. هذا أجمل من أن يصدّق.. ثم هتفت (ماري):

- «ماذا تنتظرين؟»

وكالقرد تسلقت إلى عتبة الباب التي ترتفع كثيرًا عن الأرض، ثم تمسكت بقضيب حديدي ومدت يدها الصاحبتها.. فلم تكذب (ساندرا) خبرًا ووثبت بدورها.. وسرعان ما انغلق الباب من جديد، وألقت كل منهما برأسها عليه مغمضة العينين لاهثة غير مصدقة أنها نجت..

وراح هدير المترو يتعالى وهو يقطع الأميال دون كلل..

كانت العربة خالية إلا من عجوز زنجي جالس يلتهم شيئًا من ورقة على حجره.. من الطراز الذي لا يتدخل فيما لايعنيه، ولا يهمه كثيرًا أن يفهم من أين جاءت هاتان الفتاتان.. نظرت له (ساندرا) وسألته:

- «لماذا توقف المترو هنا؟»

هزّ رأسه ومط شفته السفلى المبرقشة بقايا الطعام، وقال:

- «لا أدري.. لابد أن مجنونًا ما جذب ذراع الإنذار.. هذه الأشياء تحدث، وفي الغالب لا يجد السائق سببًا..»

مجنون ربما.. لكنه أسدى لهما أعظم خدمة في حياتيهما..

وهمست (ساندرا) لصديقتها وهي تمسح الدموع من عينيها الحمراوان:

- «سنبلغ الشرطة بمجرد الوصول لمحطتنا.. ربما مازال من الممكن إنقاذ (اليزابيث) البائسة..»

كانت الفتاتان تتوقعان أن المطاردين قتلة أو لصوص أو شباب عابث.. وكانتا سعيدتين بالنجاة، لكن لو علمتا حقًّا ما هربتا منه، لانتابهما الذهول أو أصابهما الجنون..

☆ ☆ ☆

٤ - في ساعة متأخرة..

القانون الثالث:

كل حياتهم لنا.. ودمهم مستباح.. لكننا لانبغي أموالهم لأنهّا منهم.

☆ ☆ ☆

انتهيت من أعمالي في المستشفى مع الأستاذ الإنجليزي (مايكل برايان).. وهو رجل قصير القامة له طابع مضحك كأنه مندوب مبيعات متحمس، أو يدافع عن قضية خاسرة.. ولم يكن بارعًا إلى الحد الذي يحاول التظاهر به.. وهو شيء لم أعتده في الأساتذة الإنجليز على كل حال.. إنهم يستعملون في وصف هذا النمط لفظة هي Parvenu التي يصعب ترجمتها (في القاموس معاها الحرفي: مستجد)، لكنّها بدقة تعني الأستاذ الذي يتبختر كالطاووس ويحمل شهادات علمية كثيرة، لكنه خاو تمامًا ولا يستحق لقب أستاذ..

لست مسئولًا عن مستوى الرجل على كل حال..

في المساء دعاني طالب الدكتوراه اللامع (جميل فرج) - أعتقد أنه ليس (أشرف راشد) - إلى العشاء في داره، والدعوات في بلاد الضباب لا تكون إلا للعشاء لسبب لا أفهمه.. إن الوجبة الرئيسية هنا هي العشاء دائمًا..

كان يعيش في غرب (لندن) في ضاحية (إلينج برودواي) وهي ضاحية تشبه عدة ضواح أخرى في (لندن) إلى حد التطابق.. الحقيقة أن (لندن) عبارة عن مجموعة من الضواحي المكررة التي تتشابه تمامًا.. (إلينج برودواي) هي بالضبط (هونزلو بيل) هي نفسها (ويست كرويدن).. وفي كل ضاحية لابد أن تجد شارعًا هو نسخة بالكربون لشارع (أوكسفورد) التجاري الشهير في وسط البلد، الذي يشبه شارع (سليمان) عندنا.. حيث تجد كل المحلات المهمة والأسماء الشهيرة!

إن الأمر يحدث إلى حدٍ ما في مصر.. فكل مدينة - مع فارق الحجم طبعًا ـ فيها الفجالة الخاصّة بها، وفيها وسط البلد، وحي (الحسين) الخاص بها.. الخ.. لكنّها في (لندن) ظاهرة محيرة..

كانت زوجة طالب الدكتوراه اللامع (سمير عبد الرحيم) مصرية ودودًا ـ ابنة خاله بالمناسبة ـ أعدت لنا تلك الأطباق المصرية التي أحب أكلها وأمقت هضمها.. وراحت تطعمني كأنني فرس

النهر، ثم جلست إلى طرف المائدة مع ابنها ذي الستة أعوام، فقط كي ترى إن كنت أريد شيئًا آخر.. قلت لها بفم مليء بالطعام:

- «ألن تأكلي؟»

فقالت كلامًا كثيرًا مكررًا عن الرجيم والسمنة.. إلخ... ابتسمت وواصلت الأكل.. وأنا أحاول تجاهل الشيطان الصغير الجالس على ركبتيها، والذي ما انفك يقلد طريقتي في الأكل..

بعد العشاء رحنا نتكلم في كلام كثير فارغ لا أول له ولا آخر... طبعًا لم يكن الفتى كما قال يحبّ (لندن) لكنه راح يحكي عن انبهاره برجل الشرطة الذي مشى وراءه في الشارع يجمع قشور اللب المتساقطة منه - ولم أسأله طبعًا من أين اشترى اللب هنا - والكاميرا التي نسيها على مقعد الحافلة ذات الطابقين وكيف أعادوها إليه بعد ربع ساعة، مع خطاب شكر من الملكة، ووسام ومبلغ ألف جنيه إسترليني لأنّه إنسان رائع.. الخلاصة: قال لي كل ما يقوله من يعيش بالخارج للقابعين بالداخل..

قلت له باسمًا وأنا اعتصر قدح الشاي طلبًا للدفء:

- «لاتنس أنني حاصل على الدكتوراه من إنجلترا.. ليست البلاد بجنة الله في الأرض كما تصفها.. إنها بلد أوروبي له كل مزايا وعيوب أي بلد آخر.. وعلى كل حال لقد فررت أمس من مجنون تحرش بي في المترو! وبمعجزة كدت أتلقى علقة ترد في كتب الأساطير..»

ابتسم بدوره وقال:

- «لابد أنه سكير.. إن الخمر هي السوس الذي ينخر في هذا المجتمع وبنائه الأسري والاجتماعي.. ولكن ماذا كان يريد منك؟ ما هو موضع الاحتكاك؟»

- «لا شيء.. كان مقتنعًا بأنهم في كل مكان.. وأن الشرطة لا تعلم..»

- «هم؟ من هم؟»

- «هناك (هم) دائمًا.. لابد من ذلك.. لكنه وجدني قليل الحماس - وربما قليل الأدب - وثار لكرامته... ولولا تدخل رجل شرطة لهشم وجهي..»

ضحك (عمرو لطفي) كثيرًا حتى دمعت عيناه، ثم قال وهو يحتضن طفله:

- «يجب أن تتعامل مع هؤلاء بأكبر قدر من الحرص، وأن تشعره بأنك مهتم بكل حرف يقول..»

- «حاولت هذا.. لكنه كان يريد أن أصرخ هلعًا وأبكي وألطم خدي من فرط خطورة مايعلمه..»

ونظرت للساعة المعلقة على الجدار، والتي تشير عقاربها إلى العاشرة مساء.. حقًّا أطلت البقاء هنا، والفتى من الطراز التقليدي الذي ينام مبكرًا... لهذا أفرغت ما بقي من شاي في جوفي،

ونهضت شاكرًا له هذه الحفاوة والطعام الممتاز.. وجاءت ربة الدار من المطبخ بذراعين ملوثتين بالصابون الذي لم تفلح في مسحه في مريولتها... وصافحتني برسغها وهي تؤكد أن الوقت ما زال مبكرًا.. لكنني شكرتها ولثمت الطفل الذي أظهر الاشمئزاز من البلل الذي أحدثته على خده..

تناولت معطفي من على المشجب وارتديته، وكنت قد ابتعت طاقية صوفية لزوم تدفئة الصلعة فوضعتها على رأسي.. في (لندن) يبدو منظري معقولًا، لكن لورآني أحد في مصر لحسبنى مخبرًا يؤدي عمله جيدًا.

وأخيرًا وجدت نفسي أنشق هواء الليل البارد الذي ينخر نخاع العظام ذاته..

☆ ☆ ☆

بعد رحلة مرهقة بالمترو عدت إلى شقتي في (ميدل إسكس).. فتحت الباب وأضأت النور.. كنت أتجمد بردًا وشعرت بحاجة ماسة إلى بعض الشاي.. لاشيء كالشاي الساخن في هذا الليل البريطاني الذي يجمد الدماء في العروق..

كالعادة طبعًا لم يكن هناك شيء منه في الدار.. الشاي من الأشياء التي لا توجد أبدًا حين تريدها، وهو في هذا يتصرّف كرجال الشرطة والمال.. ارتديت معطفي وقفازي من جديد وقررت أن أهرع إلى المتجر الذي يديره باكستاني على قارعة الطريق.. ولو لم يكن الباكستاني يبيع شايًا فماذا يبيع إذن؟

نزلت إلى الشارع البارد، وكانت الأمطار قد بدأت تهطل ببطء ينذر بالويل لكل الحمقى الذين لن يعودوا لديارهم خلال ساعة، الشوارع زلقة مبتلة لكنّها كشوارع الإسكندرية لا يتجمع فيها الماء أبدًا..

كان المستر (كليم الله) واقفًا في المتجر يرتجف كعادته، فدخلت وألقيت عليه تحية المساء، ثم طلبت بعض الشاي.. الكثير منه، كما انتقيت بضعة معلبات تصلح للعشاء اليوم وغدًا..

- «برد.. برد شديد..»

قالها وأسنانه تصطك، فاصطكت أسناني مجاملة له، ودفعت الثمن بأنامل توشك على الإصابة بقضمة الصقيع برغم القفازين.. ومن مكاني سمعت صوت سرينة ما، لعلها الإسعاف أو سيارة شرطة.. ثمّة حادث وقع فيه أشخاص متحمسون..

قال وهو يضغط على أزرار آلة النقود:

- «لابد أنها عصابات الشباب اعتدت على أحد.. هذا يحدث كثيرًا هذه الأيام..»

ثم - بالصدفة الغريبة - قال وهو يضع النقود في درج الآلة:

- «إنهم هنا.. في كل مكان.. أعرف هذا..»

قلت له الجزء التالي من القصة:

- «الشرطة تنكر وجودهم لأنهّا لا تعلم..»

- «بل هي تعلم لكنّها لا تملك العدد الكافي من الرجال.. لا يمكن أن تعين شرطيًا يحرس كل مواطن..»

وأخرج سكينًا طويلًا يوشك أن يكون سيفًا، من الطراز الذي يفتح به الجزارون عندنا بطون من يناقشونهم في التسعيرة، وقال وهو يلوح به تحت حنجرتي:

- «لكني أتحسب لهم.. دع أي أحمق منهم يأت ولسوف يرى!»

لم أشك فيما قال، فهو من الطراز الباكستاني حار الدماء، الذي يبكي بسهولة ويقهقه بسهولة، ويقتل بسهولة عند الانفعال.. حييته وحملت حاجياتي وخرجت إلى الشارع من جديد...

عرفت أنه أمام باب مترو الأنفاق الذي تهبط منه إلى الرصيف، تقف سيارتا شرطة وسيارة إسعاف.. هذا هو سبب السرينة إذن.. الأضواء الملونة لا تكف عن الترقرق فوق معالم المكان، وتنعكس فوق الأرض المبتلة.. ورجال الإسعاف يحملون على محفة ما جسدًا مغطى بملاءة ملوثة بالدم، بذلك الشكل الذي يوحي بأن صاحبه لن يتعب الأطباء بعد اليوم.. لقد جاءوا به من الداخل.. من محطة المترو ذاتها..

لا أحب هذه المناظر، لذا ابتعدت عنها.. فلست من هواة التطهير Catharsis برؤية أغلظ وأشنع ما يمكن أن تصل إليه الأمور.. ولم يكن هناك مارة بسبب الأمطار لهذا كان الرجال على راحتهم إلى أقصى حد...

فجأة سمعت النباح..

ونظرت إلى جوار جدار المحطة.. فوجدت كلبًا صغيرًا مُضحكًا في حجم الأرنب، ينبح بصوته الهش الرقيق، وفي حالة عصبية غير طبيعية، وكان لا يكف عن الركض هنا وهناك.. ويلاحق المحفة بعينيه وجسده الصغير..

واقشعر جلدي عندما فهمت..

الآن لا حاجة بي إلى أن أكشف الملاءة كي أعرف من ينام على المحفة..

☆ ☆ ☆

٥ - شاي وسردين وكلب وجريدة..
(تعرفون بالطبع هذه المواقف)

القانون الرابع:

الباقون منا ليسوا أخوة لك.. الباقون هم أنت..

☆ ☆ ☆

ما زلت في الشارع أرمق هذا المشهد المؤلم الكئيب..

بالطبع لم أجسر على الدنو لسؤال رجال الشرطة عن كيفيّة موت الفقيد، لأن رجال الشرطة البريطانية شديدو الكفاءة لكنهم ليسوا ودودين على الإطلاق ولا يحبون الفضول.. هذا بالطبع ما لم يحملوني إلى (سكوتلاند يارد) لاستنطاقي عن سبب تواجدي هنا..

لم يكن أحد يهتم بالكلب.. في عاصمة الكلاب في العالم لا يشكل هذا الكلب الصعلوك البائس أي ثقل ولا يلاحظه أحد، وقد أوشكت أحذية القوم الثقيلة على هرسه أكثر من مرة في حركاته الهستيريّة غير المنسقة..

في النهاية اندلعت السرينات ثانية، وتحرك ركب السيارات.. ووجدتني أقف وحدي تحت الأمطار أرمق الشارع الخالي جوار محطة المترو..

حقًّا لم أستطع التخلي عن الكلب الصغير... لم أستطع قط.. لقد مات (أبوه) وصار يتيمًا لا يعرف لنفسه مكانًا في هذا العالم القاسي الممطر.. ودون كلمة أو إطالة تفكير انحنيت وحملته حملًا مع الشاي والمعلبات، ففي كل كبد رطبة أجر..

كان في حالة نفسية سيئة وقد حاول التملص منى مرارًا أو عقر يدي، لكني كنت أرتدي القفاز، وكان ضعيفًا هشًا كالأرنب كما قلت.. ولحسن الحظ كان عواؤه من الطراز الواهن الذي لن يجعل الجيران يشكونني إلى الشرطة، وكل الجيران الإنجليز - إن لم تكن تعلم ـ يعشقون إبلاغ الشرطة عنك لأي سبب..

عدت لداري وفتحت الباب وألقيت بالكلب على الأرض إلقاء.. لا أنوي الاحتفاظ به طويلًا لكن من حقه أن يرحل حين تنتهي الأمطار.. فتحت علبة من السردين وضعتها كما هي على جريدة

أمامه.. لكنه لم يبد أي اهتمام بها.. راح ينبح ويتحرك بتلك الحركات العصبية التي تثير الذعر في نفوسنا كأنها النذير..

لو كان هذا الكلب محترمًا - ولا أظنه كذلك ـ فلن يذوق الطعام حتى يموت ويلحق بصاحبه.. قلت له بالإنجليزية العامية كي يفهمني:

- «حاول أن تتماسك.. صاحبك كان سكيرًا ومهمشًا، ولا أعني بذلك أنه استحق ميتة شنيعة كالتي لابد أنه مر بها... لكن المجتمع لم يخسر الكثير بفقده، ولو كنت مكانك لنسيته.. الكلاب الذكية هي التي تعرف متى تبدأ البحث عن سيد جديد..»

لكن هذا لم يحسن حاله كثيرًا، الأمر الذي أكد لي أنه لا يتقن إلا لهجة (الكوكني) التي كان صاحبه يتكلم بها.. قدمت له شيئًا من اللبن وجلست أتأمله وأفكّر في الموضوع...

طبعا صاحبه مات.. وموته لا علاقة له بما قاله لي (عنهم)، فمن الذي يعير كلمات مجنون أهميّة من أي نوع؟ في الغالب انزلقت ساقه تحت المترو في الوقت غير المناسب، وعلى كل حال أعتقد أن صحف الصباح ستكتب شيئًا ما عن الحادث.. ولكن....

ما هذا الشيء الأحمر في عنق الكلب؟ وكيف لم أره من قبل؟

ركعت على ركبتي وربت على عنقه لأتفحص هذا الشيء.. إنّه جرح دام بالفعل.. لكن الدم تجلط فلم يعد ينزف.. جرح قبيح جدًّا، ولو كنت طبيبًا شرعيًا لقلت إنّه بفعل أسنان حادة.. لكني لست والحمد لله طبيبًا شرعيًا وإلا لامتلات رعبًا...

كيف حدث هذا؟ ومن يجرؤ على عض كلب؟ الأمر واضح جلي إذن، وهو أنّ هناك ذئبًا أو كلبًا مسعورًا من نوع ما يجول في أنفاق المترو.. هل هو الذي قتل الرجل؟ هل اشتبك معه الكلب الصغير محاولًا إنقاذ صاحبه؟ لا أعرف حقًّا، لكن عليَّ أن آخذ هذا التعس إلى طبيب بيطري غدًا.. لابد أنّ هناك واحدًا قريبًا...

أما الآن فقد حان وقت النوم.. لقد تأخر الوقت حقًّا..

☆ ☆ ☆

في الساعات الأولى من الصباح التالي ساءت حالة الكلب كثيرًا، وراح يرتجف ويئن ويتشنج.. ولم أعد أعرف ما يجب أن أعمل به.. أنا طبيب لكني لا أعرف شيئًا عن الحيوانات العجماء ولا أفهم إن كان هذا الكلب مريضًا أم حزينًا.. وقد حاولت معه كثيرًا جدًا لكنه لم يتحسن..

وبعد ساعة لفظ أنفاسه الأخيرة.. لم يكن احتضاره سيئًا أو قاسيًا بل بدا لي كأنه وجد الراحة أخيرًا.. الحق أنه كان مشهدًا أليمًا وجد مكانه على الرف بين ذكرياتي السيئة على كثرة مارأيت في حياتي.. وكنت أحسب أنني لن أتأثر كثيرًا لوفاة كلب بريطاني..

حين انتهى الأمر وجدت نفسي أمام المأزق الأكبر: كيف تتخلص من جثة كلب في (لندن)؟! من السهل هنا أن يقتل المرء زوجته ويدفنها في الحديقة، ويزرع فوق قبرها بعض زهور (الجلاديولس) التي كانت تحبها، لكن من المستحيل أن تتخلص من جثة كلب دون أن تنقلب (لندن) عليك ويظهر لك رجال الرقابة الصحية من كل صوب، ولربما اتهموني بقتله وقضيت عمري في السجن..

المهم أنني تخلصت من الجثة بطريقة شبيهة بأساليب رجال المافيا، وتمكنت من إلقائها في الفناء الخلفي في هذه الساعات الأولى من الصباح، مع تغطيتها بالكثير من أوراق الجرائد وأوراق الشجر وأية أوراق أخرى..

عت لفراشي وغرقت في النوم العميق المليء بعربات المترو والكلاب والمجانين.. وحين صحوت من النوم كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا... لقد تسبب حادث أمس في إفساد كل جدول مواعيدي لهذا اليوم..

نزلت إلى الشارع إلى نفس المتجر الباكستاني فابتعت بعض الصحف لهذا اليوم، وعدت إلى داري لأطالعها مع الإفطار المتأخر..

بعد تدقيق وقراءة ممعنة تمكنت من العثور على الخبر الذي كنت أريده.. هذا رجل ناقص الأهلية - بلا اسم - تم العثور على جثته مساء أمس في محطة المترو في (ميدل إسكس)، ويبدو أن سبب الوفاة نوبة قلبيّة.. لكن الجثة كانت تحمل آثار أسنان.. كأنما هاجمها وحش ما بعد الوفاة.. وهذا ذكر الصحافة بحادث مماثل وقع منذ يومين لفتاة إنجليزية بيضاء تدعى (إليزابيث مورتون)، وجدوها ميتة وجثتها تحمل آثار أنياب.. كأنما تعرضت لهجوم كلب مسعور، وفي الوقت ذاته أبلغت صديقتاها السلطات عن تعرض الثلاثة لمطاردة من بعض الأوغاد مسلحين بكلبين ضخمين..

إن أي شيء يمكن أن يحدث في (أنبوب) لندن هذا.. لكن الآن يمكن القول إن الكلاب هي من فعلها في المرتين.. مع العجوز لم يكن بوسع قلبه تحمل الضغط العصبي.. وهاجمه الكلب بعدها.. بينما الفتاة هوجمت حية، ولدينا هنا شهادة صديقتيها ورأي الطبيب الشرعي الذي - بالطبع - لايخدع في هذه الأمور.. ثمّة ضحية ثالثة هي الكلب البائس الذي توفي من ساعات، وإن كنت لا أفهم حقًّا كيف مات من جرح لا أراه سيئًا إلى هذا الحد، وعضات الكلاب ليست عاجلة السمية مثل عضات الأفاعي.. لا بد أن فرصته كانت صفرًا وهو بين أنياب الكلاب الحقيقية الأخرى..

معنى هذا أنّ هناك كلبًا شرسًا لا يقل هولًا عن كلب بريطاني آخر هو كلب آل (باسكرفيل).. يبدو أن (البلد ذاهبة إلى الكلاب) فعلًا كما اعتاد الإنجليز المتحفظون أن يقولوا.. هذا الكلب يمرح حرًا طليقًا في شبكة المترو العملاقة.. لا ليس حرًا.. بل إن له سيدًا مجنونًا ساديًا يطارد به خلق الله..

قلت لنفسي إن عليَّ ألا أستعمل المترو في الأيام القليلة الباقية لي هنا.. لقد كففت عن الإيمان بقاعدة (يحدث للآخرين فقط) من زمن، وصرت متأكدًا من قاعدة جديدة هي (يحدث لرفعت

إسماعيل فقط)... لو كان هناك مجنون يملك كلبًا متوحشًا في مترو أنفاق العاصمة البريطانية، فلسوف أقابله بالتأكيد..

على كل حال ستجده الشرطة حتمًا.. إنهم أكفاء قادرون، ولابد أن أكثر من كمين ينصب الآن لهذا الرجل الذي لا أتمنى أن أكون مكانه.. أرى بعين الخيال الفتاة الشقراء الحسناء التي تعمل مع رجال (سكوتلانديارد) وتتم مراقبتها بعناية، بينما هي تمشي وحدها بعد منتصف الليل في شبكة مترو الأنفاق الرهيبة.. ولسوف يبتلع الأحمق الطعم، ولسوف يهاجمها بكلبه.. عندها.. ارفع يديك.. لاتتحرك! لا أدري إن كان رجال الشرطة هنا يطبقون اتفاق (ميراندا) الأمريكي ويقولون للمتهم: من حقك أن تلزم الصمت، وكل ما تقوله قد يتخذ ضدك في المحكمة.. لا أدري إن كانوا يقولون هذا أم ينهالون ضربًا على المتهم دون مناقشة.. لكنه بطة ميتة في كل الحالات..

☆ ☆ ☆

نزلت في المساء إلى المتجر لأبتاع شيئًا للعشاء.. صحيح أن ما اشتريته أمس لم ينفد، لكني مازلت أتوق إلى شيء ما لا أعرف كنهه.. إن عالمًا بلافول وفلافل هو عالم لا يستحق الحياة فيه.. أعرف أنّ هناك مطاعم للمصريين في أكثر من مكان، لكني لا أريد ركوب المترو في ساعة كهذه..

خرجت من عند البقال حاملًا كنوزي، وكان المطر قد بدأ يهطل معطيًا جوًا بهيجًا بعد كل ضباب النهار.. مشيت عند الناصية التي تقود إلى مدخل محطة المترو، حيث كنت أمس أرمق سيارة الإسعاف.. و...

شعور غريب ينتابني بأنني مراقب..

كيف يشعر الإنسان أنه مراقب؟ ومتى تنبت له هاتان العينان في مؤخرة عنقه؟ إنهما موجودتان منذ الأزل لكنه لا يعرف بوجودهما، وأحيانًا يُطلق عليهما الحاسة السادسة..

ونظرت للظل الذي يرميه عمود النور المضاء على الأرض المبتلة، فعرفت أن حاستي السادسة ممتازة..

هنا سمعت من يقول بلهجة الكوكني التي يصعب فهمها:

- «أنت سرقت كلبي أمس!!»

☆ ☆ ☆

٦. أن تدخل النفق..

القانون الخامس:

الفطر لا ينمو إلا في الظلام، ونحن لا نقوى إلا حين نخفي سر الأسرار..

☆ ☆ ☆

كان هو بشحمه ولحمه القليلين.. هو نفسه المجنون الذي قابلني في المترو.. صاحب الكلب.. قتيل أمس!

الماء ينساب من حاجبيه الكثّين ومن شعره.. فيضيق عينيه أكثر ليتمكّن من أن يراني جيدًا..

أجفلت وتراجعت للوراء كأنما أرى شبحًا.. إنّه يترك ظلًا على الأرض فهو على الأقل ليس خدعة بصرية.. هل هو؟

ثم فطنت إلى مالم أفطن له من قبل.. من قال إنّه مات؟ الصحف لم تنشر صورته وأنا لم أر الجثة على المحفة.. فقط اعتبرتها قضية مسلمًا بها أنه مات، لأن الكلب كان في حالة تثير الإشفاق، وكان يطارد المحفة ملهوفًا..

لم أدر ما أقول لكنه واصل الاتهام بشكل واضح:

- «أنت سرقت كلبي.. رأيتك أمس تحمله..»

قلت وأنا أحاول أن أكون هادئًا:

- «أنا لم أسرقه.. كان مجروحًا وأخذته لأرعاه.. ولكن أين كنت أنت ما دمت رأيت هذا كله؟»

- «كنت متواريًا بعيدًا عنهم، ولم أجرؤ على اللحاق به.. لأنّهم كانوا سيعرفون!!»

فهمت.. دائمًا (هم).. (ماركس) فسر التاريخ بأنه (محاولة إرضاء الشهوات)، بينما هذا الرجل الفيلسوف يفسر كل شيء بأن السبب الوحيد (هم)...

عاد يسألني بإلحاح عدواني وهو يترنح:

- «وأين هو؟ هل هو بخير؟»

ابتلعت ريقي وقد أدركت أن لحظة الحقيقة قد جاءت.. كيف سأخبره بهذا؟ دعك من أنّه مجنون، فمن الجلي أن الصديق الوحيد له في الكون كان هذا الكلب.. ليتني مانزلت أمس لشراء الشاي، ولا الليلة لشراء البقالة..

- «كلبك مات! نعم مات.. تعذب كثيرًا أمس طيلة الليل لكنه مات..»

كنت أتكلم بينما وجهه يكتسي بالهلع والذعر والذهول.. شفته السفلى ترتجف وعيناه جاحظتان.. ثم تهاوى على ركبتيه كما في مسرحيات قصور الثقافة عندنا، وراح ينشج ويهتز أمامًا وخلفًا.. كان بكاؤه يمزق نياط القلوب، ونظر لنا أحد المارَّة في فضول عابر لكنه لم يعرنا أهتمامًا، لأن من حقك في (لندن) أن تجثو على ركبتيك وتلطم الخدين، دون أن يلتف حولك الشارع كله.. أما ما فعله بعد ذلك فهو أغرب شيء توقعته.. لم يمسك بخناقي أو يصرخ طالبًا الشرطة.. فقط راح يركض متجهًا إلى محطة المترو، وهو يردد بلا كلل:

- «سأريهم! سأريهم!! آه! لا أحد يقتل كلبي ويظل حيًّا.. يحسبونني سهل الهضم.. هه!»

لقد جن هذا الرجل تمامًا... أعرف من البداية أنه مجنون، لكنه لم يفقد صوابه بعد إلى حد الجري بهذا الشكل.. لا شك في أن مشكلته تكمن هناك في محطة المترو، وأنا لا أفهم بعد حقيقة ما حدث أمس لكنني سأحاول منع هذا الأحمق من إيذاء نفسه.. لا شك في أنه سيلقى بنفسه في التهلكة.. سواء كانت هذه التهلكة على يدي من آذاه أمس، أو تحت عجلات المترو..

مشيت حثيثًا من خلفه.. خطوت فوق أولى درجات السلم الكهربي وتركته يحملني لأسفل ثلاثة الطوابق المكونة لمترو (لندن)، ورحت أضرب بعيني ذات اليمين وذات اليسار.. لم أره في أي مكان.. أين تواري؟ من العسير أن تجد أحدًا في هذه الشبكة العملاقة المعقدة..

وعلى السلم الكهربي الصاعد كانت مجموعة من الراهبات، وسيد عجوز متأنق نظر لي في كراهية.. ثم بعدها بدا أنه ما من مخلوق بشري في هذه المحطة..

وقفت وحيدًا في الرصيف الخالي أنظر يمينًا ويسارًا.. الحق أنه مكان مخيف حقًّا بعد كل ما اكتسبه من سمعة في الفترة السابقة.. لحسن حظي أنني لست محتاجًا إلى ركوب هذا الشيء.. لحسن الحظ..

(هل هذا صوت عواء)

إن بوسعي الآن أن أعود لداري وأتساءل عن مغزى ما قاله هذا الرجل... وفجأة رأيتهم قادمين من بعيد...

(لابد من أن أرحل حالًا)

لا يوحي منظرهم بالثقة أبدًا.. هؤلاء مجموعة من الأوغاد تكره بالتأكيد أن تفوتها فرصة التلذذ بتعذيب شخص مثلي..

رحت أجد السير مبتعدًا عنهم، متحاشيًا لحظة الانفجار.. حين أعلن أنا أنني ضحية مذعورة، ويعلن هؤلاء عن كونهم ووحوشًا.. للأسف إن نهاية الرصيف قريبة.. لن أتجاوزها أبدًا لأنّه من الواضح أنّ هذا ما يريدون..

وقفت ناظرًا لهم في ثبات وتحسست جيب المعطف..

(حمدًا لله أنه معي..)

وانتظرت حتى دخلوا مجال إبصاري المتهالك.. كانوا ثلاثة لهم ملامح وعليهم ثياب الهيبي.. والهيبي في كل مكان من (لندن) في هذه الحقبة، لكنهم في الغالب مسالمون خاملون أشر ما فيهم رائحتهم..

لكن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا من محبي السلام ولا من هواة الخرز والزهور.. كانت الشراسة على ملامحهم واضحة جلية، وعلى أنف كل منهم عوينات سوداء تخفي نواياه وعواطفه..

كاذبًا قلت لهم بصوت حاولت ألا يرتجف:

- «ليس معي نقود إن كنتم تبغونها.. لكن معي بعض البقالة.. فهل تأخذونها؟»

وكنت أعرف جيدًا أن النقود لا تكفي هؤلاء ولوكانت ملايين.. إنهم بحاجة إلى عنف.. بحاجة إلى ضربي وتهشيم عويناتي وتجريدي من المعطف، ثم إلقائي في الليل البارد بالخارج كي أصاب بالتهاب رئوي..

قال أطولهم قامة بأغرب لكنة سمعتها منذ جئت هنا:

- «من أنت أيها الأجنبي كي نكتبه على قبرك؟»

- «أنا دكتور (رفعت إسماعيل).. ولا أحب أن يكتب اسمي على قبري بحروف لاتينية..»

نظر الفتى لمن حوله، وقال ساخرًا:

- «آه.. دوك!! لكننا لا نبغى البقالة يا دوك.. إن الدماء هي ما نبغي!»

لم يعد من مهرب أمامي.. ومن جيب المعطف أخرجت المسدس، وعالجت ترباس الأمان فيه.. كنا في الأعوام السعيدة - قبل أن يصير خطف الطائرات عادة - حين كان بوسعك أن تسافر بالطائرة حاملًا سلاحًا.. وأنا لم أستعمل هذا الشيء ببراعة قط، ومازلت أعطي وأنا أحمله انطباع المهدد - بفتح الدال - لا المهدد بكسرها.. لكنه كما يقولون (صيت لا غنى)..

لم يترك لي الفتى طويل القامة خيارًا لأنّه وثب عليَّ كالفهد.. وفي اللحظة ذاتها أغمضت عيني، وأطلقت رصاصة.. طاخ!! تردد صوتها في كل أرجاء المحطة ممزوجًا بالصدى، لكن من الواضح أن أحدًا لم يسمعه لأن المترو كان يدخل المحطة في هذه اللحظة بالذات واختلط الضجيجان..

لابد أنني أصبته.. لابد أنه جرح جرحًا بليغًا.. لم أعرف الحقيقة قط، لأن الضربات انهالت عليَّ من الجهات الست.. ركلات.. لكمات.. سيوف يد.. وتهشمت عويناتي.. ثم طار المسدس من يدي بضربة عنيفة بشيء معدني..

وسمعت من يسبني بأفظع السباب، ويقول وهو يغرس مخالبه في وجهي:

- «تلعب دور الرجل القوي، هه؟ لكن اللعبة لا تُعلّم في المدارس يا دوك، وليست فيها بدايات متأخرة..»

وفي اللحظات التالية غبت عن الوعي تمامًا.. لكني كنت أفيق من آن لآخر لأدرك أنّ هناك من يجرني على الأرض جرًا.. يد تنقلني ليد أخرى.. ظلام دامس يغلفني، لكن الأيدي مازالت مستمرة في مهمتها.. أشعر كأنني جرح كبير مفتوح.. وأتساءل: ترى هل ثقبوا رئتي؟ وهل تحطمت الضلوع؟

رباه.. لو ظللت حيًّا فاترك لي بعض الأسنان في فمي.. لا تدعهم يسقطونها جميعًا..

إنهم ينقلونني.. لكن لأين؟

وساد الظلام بعدها فلم أعد أدري أين أنا..

☆ ☆ ☆

٧ - أن تكون معهم...

القانون السادس:

عاملهم بأشرس ما تستطيع، فالقسوة رحيمة أحيانًا..

☆ ☆ ☆

أول ما لفت نظري هو رائحة العطن..

رائحة عفنة قوية كاسحة تتسلل إلى الخياشيم وتجعل كل تنفسي عملية بطولية.. وكتمت أنفاسي، لكن لم أستطع.. ثاني شيء لفت نظري هو أنني محاط بالظلام، وأنني ممدد على أرض رطبة، وأخيرًا رأيت بعض المشاعل حولي فأدركت أنّ هناك بشرًا..

كانت الكدمات تملأ جسدي، وكلما حركت أصغر جزء ممكن - وليكن جفني - كنت أشعر بأنني أنجزت عملًا بطوليًا يستأهل مكانه في تاريخ الملاحم.. لا توجد كسور أو هذا ما أعتقده، وأنا أتنفس جيدًا دون ذلك الألم الحاد الشنيع المميز لكسور الضلوع..

الآن وقد اطمأننت نوعًا إلى أداء آلاتي، بقي أن أعرف أين هذه الآلات؟

سمعت من يقول بصوت رتيب وبلهجة عجيبة:

- «أنت بخير أيها الغريب.. ستعيش..»

إن الظلام غير عادل.. إنّه يجعلك في وضع واهٍ هش.. وربما لهذا يحبّ رجال الاستجوابات أن يضعوا المتهم في غرفة مظلمة ويسلطوا عليه الكشافات.. نظرة واحدة في النور ستسمح لي بأن أفهم كل شيء وأتخذ عدتي.. أمّا الآن فأنا لا أعرف إن كنت في قبو أم في الإسكيمو.. ولا إن كنت محاطًا ببشر أم غيلان..

قلت في الظلام:

- «أريد أن أشرب..»

شعرت بشيء يلمس شفتي.. هذا سائل لكنه.. لا.. إنّه مر الطعم لاذع قليلًا.. فتقلصت شفتي اشمئزازًا.. ومن جديد جاء الصوت:

- «نحن لانشرب الماء هنا أبدًا أيها الغريب..»

كنت قد خمنت أنّ هذا نوع من الخمور في الغالب.. لكني أريد ماء قراحًا أيها الحمقى.. ماء.. من جديد قال الرجل:

- «لقد تعلّمنا صنع هذا المشروب، لكننا في البدء لم نكن نعرف شيئًا على الإطلاق.. وفي الأيام الأولى كنا نشرب بولنا.. نيا ها ها ها هاه!!»

وانفجرت الضحكات من كل صوب.. هذه مزحة راقية إذن وأنا لم أعرف هذا.. واضح من الضحكات أنّ هناك نحو عشرة هنا، وهم لا يتمتعون بالرقي للأسف لأن ضحكاتهم تذكرني بضحكات الجالسين في غرزة (شيحة) عندنا.. هل تعرف هذا النوع من الضحك الذي ينتهي دومًا بالسعال والبصاق على الأرض؟

- «حاولوا أن تجدوا له بعض الماء..»

وتحرك أحد المشاعل فبدأت أرى الوجوه بوضوح أكثر، وإن كنت أنظر من دون عوينات طبعًا.. كانوا رجالًا.. لا شك في هذا.. لكن النظرات الوحشية المسعورة في العيون البراقة، والوجوه المتسخة التي كادت اللحى فيها أن تلمس الأرض.. والثياب التي تشبه الأسمال.. كل هذا جعل من العسير أن تعرف أن هؤلاء رجال... ومن رابع المستحيلات أن تعرف عمرهم.. اللحية المشعثة المختلطة بالشيب تعطى كل الرجال مظهر الستين..

كما أن الأمراض الجلدية لم تكن نادرة هنا.. لقد ميزت نحو ثلاث إصابات فطرية.. هذا الألف المتآكل والأصابع المتساقطة لدى محدثي.. أتراه الجذام؟ هذا في الظلام فقط، ولو سطع النور لاستطعت أن أجد عشر إصابات أخرى..

أما عن المكان فأدركت أننا في شيء يشبه النفق.. ليس كهف لأن جدرانه منتظمة وهناك مواسير ماء عتيقة هنا وهناك.. هذا مكان صنعه الإنسان..

سألتهم وأنا أشعر بأن النور لم يحسن الرعب كثيرًا:

- «من أنتم؟»

لم يرد محدثي، وقال في تؤدة:

- «أنت قلت إنك طبيب..»

- «أذكر شيئًا كهذا..»

- «إذن عليك أن تعالج ما أحدثته يداك في (توماس).. إنه مازال حيًا ويتألم كثيرًا.. بعد هذا ستعالجنا جميعًا..»

عدت أسأله وأنا أحاول أن أستجمع جسدي المبعثر على الأرض:

- «أين نحن؟»

- «تحت الأرض أيها الغريب.. تحت الأرض.. ثق أن أحدًا لن يجدك لو كنت تفكر في هذا..»

- «ومن أنتم؟»

نظر لمن حوله واهتزت لحيته ضحكًا.. بعد قليل قال:

- «سمِّنا العشيرة.. هذا اسم كاف على ما أظن..»

بعد قليل تحرك أحدهم في الظلام ووضع تحت فمي قدحًا صدئًا.. لامسته بشفتي في حذر فشعرت بمذاق الماء الساخن.. صحيح أنه ليس أنقى ماء في العالم، لكنه يصلح..

سألت في حذر قبل أن أشرب:

- «هل أنت متأكد من أنكم كففتم عن شرب البول؟!»

لم يضحك ولم يعلق.. فقط قال وهو ينظر ليده:

- «ليس بولًا.. والآن عالج (توماس)..»

تحركت دائرة المشاعل لتحيط برجل منهم على الأرض.. تحركت على ركبتي لأدخل الدائرة وتفحصته في اهتمام.. وكان نائمًا وسط بركة صغيرة كريهة الرائحة..

على الفور تذكرته.. إنّه الفتى فارع الطول الذي أطلقت عليه الرصاص، والذي كان يناديني (دوك).. كان شاحب الوجه منهكًا لكنه لا يكف عن الأنين.. وعرفت على الفور أن كتفه ممزقة وقد تلوث قميصه بدم متجلط غزير.. لقد نسيت الجراحة تمامًا، لكني أعرف على الأقل أنّ هناك رصاصة يجب أن تنتزع، وجرحًا يجب أن يطهر..

قلت لهم:

- «يمكن إنقاذه.. لكن ليس هنا ومن دون أية مطهرات أو أدوات..»

- «اطلب ما تشاء ولسوف يحضره لنا (توماس).. وتذكر أن حياتك مرهونة بما ستفعله وماستكتبه فلا تحاول خداعنا..»

نظرت للجريح وقلت:

- «كيف تتوقع من هذا أن يجلب دواءه لنفسه؟»

- «لن يذهب هو.. ظننت كلامي واضحًا أيها الغريب.. سيذهب (توماس)، فمنظره مقبول قليلًا بالنسبة لمن فوق..»

- «(توماس) آخر؟»

- «نعم.. كلنا هنا (توماس)!»

نظرت له في غباء.. كل المجموعة تحمل ذات الاسم.. هذا شيء يصعب فهمه بالنسبة لي.. ما جدوى الأسماء إذن؟ لقد قابلت موقفًا مشابهًا مع (شعب الأطياف) لكن كان معهم حق وقتها، فهم لم يكونوا بشريين... لكن ما الذي يدعو مجموعة من البشر بعد عصر اختراع اللغة كي يفعلوا هذا؟

كان قلمي ما زال في جيب المعطف الداخلي.. كان المعطف الآن في أسوأ حال، وبدا أنه مجموعة من الثقوب يربطها خيط ما، لكن القلم لم يتهشم بعد ومعه المفكرة.. فتحت المفكرة بينما قرب مني أحدهم المشعل، وعلى الضوء المتراقص كتبت أول عقار أريده.. وتمنيت لو كان بوسعي أن أطلب عوينات جديدة كذلك... لكني حاولت التغلب على هذه النقطة بالتقطيب الزائد، وهي طريقة يعرفها ضعاف البصر الذين يرفضون استخدام العوينات..

لو كان هؤلاء القوم ـ العشيرة لا ضعاف البصر طبعًا – لا يعرفون القراءة فإن فرصة جميلة تنتظرني.. إن الغد بهيج حقًّا.. لكن على أن أتأكد..

سألت (توماس) الذي يبدو مظهره مقبولًا كما قالوا ـ ليس (توماس) لكنه (توماس).. لا داعي للخلط ـ وأنا أقرب المفكرة من أنفه:

- «هل الخط واضح؟»

نظر للورقة نظرة كنت أتوقعها.. نظرة خاوية غبية مسطحة، وقال:

- «جميل.. جميل.. استمر في الكتابة..»

وهكذا عرفت ما لي وما على، وكتبت ما أريد من أدوات، ثم كتبت في النهاية بخط واضح:

حاول أن تجعل الشرطة تعتقل حامل هذه الورقة أو تراقبه.. لأنني سجين تحت الأرض في قبضة زملائه، ولا أعرف حقًّا من هم ولا أين أنا.. اسمي دكتور (رفعت إسماعيل).. عنواني هو..

وانتزعت الورقة وناولتها لـ (توماس) فنظر لها بعينين لا تفقهان.. ثم نظر لي محذرًا:

- «إياك والألاعيب!»

قلت له:

- «بالنسبة لسعر الدواء، فلست متأكدًا.. لكني واثق من أنك لا تمـ...»

دون كلمة واحدة مد يده في جيب معطفي وانتزع الحافظة.. وفتحها وكبش كل ما كان فيها من مال - ولم يكن ثروة لكنه كثير - ثم ألقاها في وجهي إلقاء.. واختفى من أمامي... هذا الفتى لا يتكلم ولكن يفعل، وهي صفة حميدة في الرجال..

نظرت للرجال كريهي الرائحة المحيطين بي، وسألتهم في كياسة:

- «هل من مكان آخر هنا؟ أعني مكانًا به منضدة أو ضوء أو أي شيء مناسب.. هذا ليس بالضبط ما يُطلق عليه مكان لو فهمتم ما أعنيه..»

سمعت من الظلام من يقول لي:

- «ليس من مكان إلا هذا أيها الغريب.. لكنه رحب كالعالم كله.. كل ما تحت (لندن) ملكنا.. يحسبون أن لهم ما فوق الأرض، لكنه ملكنا كذلك..»

- «فهمت..»

سمعت صوت صرير من مكان ما.. وعلى الفور اتجهت المشاعل إلى مكان الصوت، ورأينا فارًا كبيرًا يتسلق ماسورة الماء محاولًا الوصول إلى مكان ما أكثر أمنًا.. لكن المشاعل جعلته واضحًا كسحابة تعبر أمام الشمس.. بل كالشمس...

- «(توماس).. إنِّه لك!!»

قالوها في حماسة مفاجئة، ولم أفهم ما سيحدث ولا كيف حدث.. لكنه حيث.. لقد هرع الأخ (توماس) - هذا (توماس) غير الأول والثاني والثالث - وتسلق الماسورة كالقرد وراء الفأر الذي لم يصدّق ما يجري.. وبسرعة البرق هوى بقبضته عليه ليلتقطة من ذيله، ويقهقه مرحًا...

أما المشهد التالي فإنني لن أحكيه لكنك تستطيع استنتاجه..

ماذا فعل (جوناثان هاركر) حين عاد مضيفه (دراكيولا) من الخارج، حاملًا العشاء الذي كان طفلًا رضيعًا؟ لقد صرخ وصرخ ثم فقد الوعي.. لكني لم أنل هذا الترف.. تعرفون أنكم لا تفقدون أبدًا الوعي حين تريدون هذا..

هؤلاء القوم لن يجوعوا أبدًا.. كيف يجوع آكل الفئران إذا عاش في قبو قديم؟ بالضبط كما أنّ الحمل لا يجوع أبدًا في مرعي خصيب.. ولكن من هم؟ ما سبب هذه الحياة التي يحيونها؟

ماذا يريدون مني؟

على كل حال يمكن أن نتأكد أن لهم علاقة وثقة بالناس الذين يختفون في محطات المترو، وفي الغالب هم من كان العجوز يتكلم عنهم.. إنِّه يعرف.. لكن يعرف ماذا؟

كنت غارقًا في هذه الخواطر أحاول ألا أنظر إلى الأخ (توماس) الذي كاد يفرغ من عشائه، وأختلس النظر إلى المصاب الذي يرقد مغمض العينين لا يكف عن الأنين.. هنا جاء (توماس) الذي أرسلوه لإحضار الطلبات، وتناول مشعلًا كي يريني ما جاء به، بنفس الأسلوب الذي يتبعه المرضى عندنا حين يعودون للطبيب بالعلاج الذي اشتروه من أقرب صيدلية، حتى لا يعطيهم الصيدلي سمًا بدلًا من الفيتامين على سبيل المزاح..

راح يرص أمامي ما طلبت: جفت.. مبضع.. زجاجة مطهر.. علبة من المضاد الحيوي.. ضمادات.. ورحت أراجع كل شيء في ذهني.. كان آخر ماوضعه أمامي هو الجزء الأخير من الوريقة التي أعطيته إياها.. الجزء السفلي الذي كتبت عليه استغاثتي... وقال بوجه لا حياة فيه:

- «هذه هي رسالتك فاحتفظ بها.. لقد استعملت الوصفة فقط!»

لم أجرؤ على السؤال، لكنه رآه في عيني فقال:

ـ «كيف عرفت؟ الأمر سهل أيها الغريب.. نحن لا نقرأ لكننا لسنا أغبياء.. نعرف أنك أرسلت استغاثة معنا.. لو لم تفعل لكنت أحمق.. وكان يجب أن تكتب أصناف العلاج في حالة ما إذا لم يستجب الصيدلي أو لم يفهم.. لذا كتبت بضع كلمات كل واحدة في سطر.. ثم انتهت الورقة بسطرين كاملين لا يشبهان باقي الورقة.. فلتقطع ذراعي إن لم يكن هذان السطران هما الاستغاثة..

«لم يكن من داع للمخاطرة.. مزقت هذا الجزء الذي يبدو شاذًا في الورقة على سبيل الاحتياط.. وأعتقد من نظراتك أنني لم أكن مخطئًا..»

لم يكن ثمّة داع للإنكار.. إنهم حقًّا ـ كما قال ـ ليسوا أغبياء..

أخذت شهيقًا عميقًا، وقلت للفتي الجريح الممدد على الأرض:

- «سيكون هناك الكثير من الألم.. الكثير جدًّا..»

قال لي (توماس) الواقف جواري:

- «لا داعي للمواعظ أيها الغريب.. لقد اعتدنا الألم حتى لم نعد نطيق الحياة من دونه..»

وهكذا بدأت العملية القاسية..

☆ ☆ ☆

٨ - أسطورة العشيرة..

القانون السابع:

كنا منهم.. اليوم صاروا لنا.. غدًا يصيرون فينا!

☆ ☆ ☆

لم يكن ما قمت به جراحة رائعة تدخل التاريخ إلى جوار جراحات (هالستد) و(لستر).. لكنني على الأقل فعلت ما طُلب مني، ولم ينزف الفتى كثيرًا..

قال لي (توماس) وهو ـ كما لاحظتم ـ لم يتكلم حتى هذه اللحظة:

ـ «الآن أيها الغريب سندخل إلى مستوى آخر من الشبكة..»

لم أفهم ما يعنيه، لكني وجدت هؤلاء القوم يحملونني حملًا أو يجرونني جرًا عبر النفق.. قلت كلامًا ما عن الألم الذي يمزقني.. عن الجريح الذي يجب تحريكه برفق.. عن.. آي!

لم يتركوا لي مجالًا للمناقشة، وإنما راحت الأيدي القوية تتناقلني كالشيء.. وأدركت أنهم يهبطون من مرتفع إلى آخر، لنجد أننا في النهاية مغمورون حتى الخصور في سائل لزج كريه.. وهنا أدركت الحقيقة التي غابت عني كل هذا الوقت.. نحن في المجاري!! نحن في شبكة المجاري العملاقة العتيقة تحت (لندن)، وهذا الذي نسبح فيه هو إذن؟!!!!

ـ «لحظة! أنا لا أريد أن أمشي هنا...»

لكن هؤلاء لم تكن مهمتهم الأولى تنفيذ أحلامي..

لم يكن من ضوء إلا من المشاعل التي يحملونها فوق مستوى السائل، وبدا لي أنهم ينعمون بوقتهم حقًّا، بينما لم أستطع أن أتجاهل فكرة أنني أعيش كابوسًا مجسمًا له ملمس ورائحة..

في نهاية الممر الكريه كانت هناك كوة عالية عن مستوى السائل، فتسلقها أحدهم، ووقف هناك ومد يده يعينني على الصعود.. وسرعان ما كنت أدخل الكوة وأزحف على ركبتي.. يا للاشمئزاز!! لو كان بوسعي أن أغمس جسدي كله في حمض النتريك المركز لفعلت الآن..

أما المكان الذي دخلناه فلم يكن أفضل حالًا من ناحية الظلام.. لكنه كان مزودًا بمشاعل من الداخل.. وأدركت أنهم يقيمون هنا في الغالب.. وسرعان ما تبينت أن هنا رجالًا آخرين.. بل ونساء.. بل وأطفالًا..

الكل كان جالسًا على الأرض أو منهمكًا في أكل شيء ما، ويرمقني في فضول وكراهية.. وكان الجميع يرتدي أسمالًا بالية قذرة لا يمكن أن تعرف لونها الأصلي.. اللون الذي تجده على ثياب صبية الميكانيكية عندنا..

في ركن المكان كانت هناك ماسورة مياه عتيقة تهبط من أعلى وتصب تيارًا من ماء دافق يبدو أنه نقي.. والماء ينحدر إلى أسفل، ليحتشد على الأرض ثم يجري في تيار منتظم نحو فتحة أخرى جوار الحائط..

قال لي (توماس):

- «يُمكنك أن تستحم هنا لو أردت أيها الغريب..»

جميل أن أستحم.. لكن من العسر أن أنزع ثيابي أمام غرباء، ناهيك عن النساء الموجودات.. ثانيًا: لم يكن الجو قد صار دافئًا فجأة.. صحيح أن باطن الأرض كان أكثر دفئًا من الهواء الكاسر في الخارج، لكن ما زال الاستحمام بماء بارد جهدًا بطوليًا..

دنا (توماس) مني ووضع يده على قفاي وصاح بلهجة غريبة:

- «هذا طبيب.. صحيح أنه آذى (توماس)، وجرحه لكنه أصلح ما أفسدته يداه، وإنني لأرى أن نتركه بعض الوقت هنا.. فالأمراض تفشت في العشيرة، ونحن بحاجة لواحد.. وأؤكد لكم أنه لن يهرب..»

هنا نهضت امرأة من بين الجالسين.. أقول إنها امرأة فقط على سبيل الدقة التشريحية، لكن الرجال كانوا أكثر منها رقة وفتنة ونظافة... دنت منا وهي تغرس مخالبها في شعرها تهرش، كأنما تحاول انتزاع فروة الرأس ذاتها..

دارت حولي ومدت مخالبها تعتصر ذراعي، وقالت في خشونة:

- «إنّه هزيل كطفل.. ضعيف كهرة وليدة.. أرى أنه لن يستطيع الهرب..»

قال لها (توماس) في كياسة:

- «أعرف يا (توماس) أنه لو فعل لا نتزعت حنجرته بأسنانك..»

غريب هذا.. حتى النساء هنا اسمهن (توماس).. هؤلاء القوم مخابيل إذن، وهذه المرأة أكثرهم جنونًا..

حنت رأسها ليصير شعرها أمام عيني يوشك أن يلمس أنفي، وقالت:

- «لوكنت طبيبًا فقل لي ما هذا الذي أصاب رأسي..»

لم أجتز امتحانًا منذ الدكتوراه، لهذا انتابني التوتر للحظة، ثم تذكرت أنني لست مطالبًا بإرضاء هؤلاء القوم... لكن أي طفل يمكنه تشخيص حالتها على كل حال.. الأماكن الخالية من الشعر في رأسها كانت عدوى فطرية.. هذا طبيعي بالنسبة لقوم يعيشون في المجاري كما رأيت.. ولعل هذا أهون الشرور...

وعلى الفور جاء أكثر من واحد يعرض عليَّ شيئًا مماثلًا.. الآن تأكدت أنّ هناك أكثر من ثلاث حالات جذام في هذا المجتمع العجيب... هذا ما يبدو على السطح، فماذا عن الأمراض الخفية؟ عمومًا حالات الجذام المشوهة هي حالات (محروقة) لم تعد معدية.. بينما الخطر كل الخطر في المريض الذي يبدو مثلي ومثلك، ولا يميزه سوى بقعة خفية مخدرة في مكان ما من جسده.. إنّه ينفث البكتريا مع كل زفير..

قلت لهم وأنا أحاول ألا استنشق الهواء الملوث:

- «سأكتب لكم العلاج الذي أستطيعه.. لكن هناك أمراضًا متقدمة هنا، ولا يمكن علاجها إلا في مستشفى..»

وضع (توماس) - (توماس) آخر لا تعرفونه - يده على كتفي وقال في رفق:

- «يجب أن تحاول أيها الطبيب.. لا بد من أن تمنحنا سببًا يبرر إبقاءك حيًا..»

كأن الأحمق يحسب علاج الجذام هو مرهم وقرصان يبلعهما..

عدت أسالهم وأنا أتوقع الأسوأ:

- «ماذا تأكلون؟ أنتم بالطبع لا تنوون تركي أقضي جوعًا..»

- «هناك فئران في كل مكان فلا تقلق!»

كنت أتوقع هذا.. لكن ما الذي يرغم هؤلاء القوم على أكل الفئران إذا كان الخروج للعالم الخارجي بهذه السهولة؟ واضح تمامًا أن الأخ الذي ذهب إلى الصيدلية لم يبذل جهدًا أكثر مما يحدث في العالم العلوي.. من السهل إذن أن يشتري لهم مخزونًا كافيًا وأكياسًا من البقالة وأرطالًا عديدة من اللحم والدقيق..

وكأنما سمع أحدهم ما أفكر فيه (وهي ظاهرة يبدو أنها موجودة لديهم فعلًا، كأنما حياة الظلام أرهفت حواسهم)، فقال لي:

- «لقد اعتدنا لحم الفئران لعقود.. فلم نعد نتحمل (طعامهم).. لكننا سنجلب لك طعامًا يصلح لك..»

وهكذا تم كل شيء بسهولة راقية.. كتبت لهم ما أريد من أدوية.. إن ما أخذه مني (توماس) يكفي الجميع، ويكفي لأن أعالج العشيرة كلها على حسابي.. وفي هذه المرّة لم أحاول أية ألاعيب..

إنهم أذكياء والغباء كل الغباء أن افترض أنني أذكى منهم...

ثم إنني نهضت إلى صنبور الماء المتساقط.. ونزعت من ثيابي ما هو ممكن.. لقد تغلب الاشمئزاز على الحياء.. ورحت أزيل كل هذه القذارة عن بدني.. من الغريب أن الماء كان دافئًا كما كان الماء الذي شربته منذ قليل.. تخلصت من المعطف فلم يعد ممكنًا أن أعيد ارتداءه قبل غسله بإحكام، وغسلت السروال و(البول - أوفر) وكل مكان تسرب إليه السائل المقزز، ثم ـ بالطبع - لم أجد حلًا إلا أن أرتدى الثياب وأتركها تجف عليّ، مع ما في ذلك من خطر..

قال لي أحدهم وهو يرمقني في فضول ودهشة:

- «تبدو مهتمًا أشد الاهتمام بالخلاص من هذه الرائحة.. نحن لم نعد نشمها أيها الغريب.. لقد نسينا رائحة الهواء النقي ذاته..».

ثم أردف وهو يشير إلى أحد المشاعل الذي وضعوه مستندًا إلى جدار:

- «تعال واجلس جواره وحاول أن تجف سريعًا..»

سألته وقد بدأت أرتجف بحق:

- «المياه ساخنة؟»

- «نحن نشعل جوار الماسورة نارًا من حين لآخر كي تبقى المياه دافئة غير متجمدة.. ولو لم نفعل لما وجدت ماء أصلًا.. وعلى كل حال لن تطول فترة النيران..»

- «لماذا؟ هل تنوون الانتحار؟»

- «لا أحد ينتحر منا أيها الغريب.. لكن الهواء هنا نادر، وليس من الحكمة أن نتركه للنيران تتنفس به.. لهذا نطفئ المشاعل، ونخمد النيران في هذه الساعة من كل يوم.. سنتركها لك بعض الوقت إلى أن تجف..»

وجلست جوار المشعل أحاول أن أتحول إلى شرنقة آدمية، أو أن أدخل الشعلة ذاتها.. طبعًا لم أجف.. لا أحد يجف بهذه السهولة.. لكن البلل بدأ يكتسب بعض حرارة جسدي..

وبعد قليل عاد (توماس) بلفافة تحوي بعض الخبز والجبن، فألقاها في حجري.. وعاد ليتخذ مكانه وسط رجال العشيرة.. الكل يرمقني في دهشة.. كيف يأكل هذا الأحمق شيئًا ليس لحم فئران؟ نفس الدهشة التي نرمق بها من يأكل الثعابين..

يبدو أنني نمت وأنا مستمر في الأكل.. لأنني حين صحوت فيما بعد وجدت الطعام مازال في يدي وفمي..

☆ ☆ ☆

لا أدري كم من أيام مرّت على في ضيافة العشيرة..

لايوجد هنا نور ولا ساعات.. لقد تلفت ساعتي من قتال محطة المترو.. لكنني استطعت الحكم من درجة خشونة لحيتي أن لي هنا ثلاثة أيام مرّت كقرن طبعًا..

يمكنني الآن أن أصف لك حياتهم بشكل أكثر دقة..

إنهم جماعة لا يتجاوز عددها الخمسين.. عدد النساء قليل نوعًا بالنسبة للذكور.. ربما لو فرضنا أن الذكور ثلاثون والأطفال عشرة فالنساء ما بعد سن البلوغ عدهن أقل من عشرة.. قلة عدد الأطفال مبررة طبعًا لأن من العسير أن يكتمل حمل في هذا المناخ غير الصحي، فإن اكتمل كانت الولادة شبه مستحيلة، فإن تمت فمن العسير ألا يموت الطفل خلال عام.. هذا جو لم يخلق للأطفال..

كانت المجاري كلها ملكهم، وهم يعرفونها كديارهم ويتنقلون فيها بحرية تامة.. لكنهم يختارون أمكنة فسيحة بعيدة عن البلل ليعيشوا فيها من آن لآخر.. وحياتهم الاجتماعية لا تتجاوز الجلوس والصمت والبحث عن الحشرات في رءوس الأطفال..

كما قلت هم لا يأكلون إلا الفئران والحشرات التي تعجّ بها المجاري، ولا وجود للطهي عندهم.. ويصنعون شرابًا ما - نوعًا من الخمر ـ من بقايا الخبز التي يجلبها أحدهم من الخارج، فهم كما قالوا لا يشربون الماء أبدًا، لكنهم بالطبع لا يستغنون عن الماء كأي كائن حي.. وإن كنت لا أعرف نفعه لهم فهم لا يغسلون ثيابهم ولا يستحمون، أو لم يسعدني الحظ برؤية أحدهم يفعلها..

لا يوجد سلم طبقي أو اجتماعي، لكنهم يثقون بـ (توماس) - وهو (توماس) آخر فلاداعي للخلط - الذي يكبرهم سنًا، ويبدو أنه من يضع القوانين ويشرف عليها هنا....

بعض هؤلاء القوم يحلقون لحاهم ويلبسون ثيابًا نظيفة نوعًا هي أقرب إلى ثياب الهيبي.. هؤلاء ـ مثل (توماس) - يعملون كجنود الاتصال أو السعاة بين هذا العالم والعالم الفوقي.. ويبدو أنهم أكثر رقيًا وتحضرًا إلى حدٍ ما.. ومن الواضح أن لهم مكانة عظيمة في هذا العالم باعتبارهم يطلعون على أعظم أسرار العدو.. طبعًا لو خرج أحد هؤلاء الأرضيين إلى الشارع البريطاني لتوقف المرور، وتصايح الناس هلعًا، ولحمله رجال الشرطة إلى المصحة العقليّة حالًا..

هل من وجود للدين في حياتهم؟ بالطبع لا.. لكني أدركت أنهم يمارسون نوعًا من عقيدة عبادة الأسلاف التي مارستها كل الشعوب البدائيّة تقريبًا.. الأجداد والآباء موجودون ليراقبوهم ويحموهم ويؤذوهم إن اقتضى الأمر على سبيل العقاب..

وفي مجتمع كهذا لا توجد نقود طبعًا.. ما جدواها؟ لكن التعامل مع العالم الخارجي يتم بطريقة سهلة مريحة: نقودي! نقودي العزيزة التي لن تعود للأبد يشترون بها كل ما يلزم من دواء.. لكنهم - والشهادة الله ـ يشترون لي طعامًا أيضًا، ولا أعرف ماسيحدث يوم ينتهي هذا المخزون..

أما عن ملامح هؤلاء القوم فهي إنجليزية تمامًا.. لا يمكن أن تخطئ هذا.. لكن حياة الظلام والخوف والقذارة حولتهم إلى وحوش كاسرة تخيف الناظرين.. بالإضافة إلى تطورات بيولوجية لا أعرف متى ولا كيف حدثت.. إنهم يرون جيدًا في الظلام.. ولا يتحملون ضوء الشمس أبدًا كمصاصي الدماء..

هل اتضح الآن كل شيء؟

بالطبع لا..

أولًا: لم أفهم بعد من هم هؤلاء القوم، ولا لماذا يعيشون تحت العاصمة المتحضرة كأنهم في عصر الكهوف..

ثانيًا: لم أفهم ما علاقة المجاري بمترو الأنفاق.. هاتان شبكتان منفصلتان أتم الانفصال..

ثالثًا: ـ وهو الأهم ـ ما هي خططهم بالنسبة لي؟

☆ ☆ ☆

٩ - عشاء خاص جدًّا..

القانون الثامن:

لا أحلام لنا إلا البقاء يومًا آخر.. ولا ذكرى لنا إلا ميلاد العشيرة..

☆ ☆ ☆

إن لدي عيبًا خطيرًا أصارحكم به، فأنتم لم تعودوا غريبين عني..

أنا أمقت أكل لحم البشر.. بل ـ والأدهى ـ لا أطيق وجبات العشاء التي يكون عمادها لحم البشر..

متى عرفت أن العشيرة من أكلة لحم البشر؟

لم يتأخر هذا الاكتشاف كثيرًا، لأن لحيتي لم تنم إلى حد أن تتحول من خشونة إلى لحية..

كنا بعد منتصف الليل، وقد عرفت هذا لأنّهم حين قال (توماس) وهو ينظر للرجال نظرة ذات معنى:

ـ «حان الوقت.. سيذهب (توماس) و(توماس) و(توماس).. كونوا حذرين لأن الشرطة بالتأكيد وضعت كمائن في عدة أماكن.. لا تطمعوا في الضحيّة الهشة التي تقول: أنا ضحية.. فتاة تمشي وحدها أو رجل تبدو عليه مخايل الثراء.. أنا أتركهما وشأنهما ولا أنصح إلا بهذا.. ابحثوا عن المتشردين.. ابحثوا عمن يبدو عليه الفقر ولا يهم أحدًا إن مات أم عاش..»

ابتسمت في سرّي وقد تذكرت ماتخيلته عن كمائن (سكوتلانديارد).. هؤلاء القوم كما قلت ليسوا أغبياء أبدًا.. من الجلي أن ذكاءهم صنعته الفطرة وحياة الأخطار، فهم لم يشاهدوا فيلمًا سينمائيًا ولم يقرءوا جريدة..

سأله (توماس) وهو ينهض ويرتدي ثياب العمل:

ـ «هل نأخذ الكلاب؟»

ـ «. لا.. إنها تعوي وهذه نقطة ضعفها.. عليكم الاعتماد على أنفسكم..»

نهض الرجال وقد تحولوا بالضبط إلى الصورة التي رأيتهم عليها من قبل: فتية هيبي مشاغبون.. يبدو أنهم اختاروا هذا التنكر بالضبط لأنّه أقرب إلى شكلهم الحقيقي ولن يكلّف الكثير من الجهد.. بالطبع لم يكن (توماس) الذي جرحته معهم.. فهو مازال ناقهًا.. وكانت جروحه في أسوأ حال ممكن لأن من المحال أن يلتئم جرح في هذا الجو..

وبعد دقائق اختفوا في قلب الظلام...

لم أدر عم يتحدثون ولا ماذا يريدون بالضبط.. لكنهم بالتأكيد يحملون ساعات عصبية لبائس ما اختار إحدى المحطات في هذه اللحظة.. لكني مازلت لا أفهم علاقة المجاري بالمترو..

رحت في سبات مضطرب كدأبي منذ وصلت إلى هنا.. كوابيس تتداخل مع رؤى مع هلاوس مع أضغاث أحلام مع مشاهد مضطربة للقوم من حولي..

وكان آخر ما رأيت مشهد الرجال يحملون شيئًا ما.. ومشاعلهم المتراقصة تحيط به، وتلقي على وجوههم تعبيرات شيطانية مريعة.. رأيت جسدًا آدميًا يبدو أنه رجل.. نهضت غير مصدق وفركت عيني مرّتين.. لم أصدق أنّ هذا سيحدث وتمنيت أن أكون فقدت عقلي..

وسمعت (توماس) يسألهم:

- «أتراه أتعبكم؟»

- «لا.. لقد سقط من أول ضربة.. والمحطة كانت خالية..»

وعلى الفور احتشد الجميع كالذئاب جالسين القرفصاء حول ما كان رجلًا من قبل.. لا داعي لوصف المشهد طبعًا لأنني أنا نفسي لا أحب أن أتذكره.. فقط أذكر أنني قلت بصوت واهن والتنفس يرهقني بحق:

- «أنتم لا تفعلون هذا.. لا أصدق أنكم تفعلون هذا!»

قال لي (توماس) وهو منهمك في عمله البغيض:

- «لم لا أيها الغريب؟ إن البروتين - كما تسمونه - هو البروتين.. تجده في الدودة والفأر والخروف والإنسان.. لكن الإنسان الواحد يكفي لتغذية العشيرة كلها بينما نحتاج إلى عشرات الفئران لتشبعنا.. وليس بوسعنا تربية الماشية هنا لو كنت تفهم ما أعنيه..»

- «أنتم.. أنتم.. تفعلون هذا من زمن؟»

- «لا.. هذا هو التجديد في قائمة الطعام الذي أدخلناه من عام.. ولكن لاتخف.. ستظل حيًا حتى نقرر أننا لم نعد نحتاج إليك..»

وصاحت (توماس) المرأة الشرسة إياها:

- «إنّه نحيل كقملة.. ولن يشبع طفلًا..»

هنا فقط كان تماسكي قد انتهى.. وأعلن جهازي العصبي الباراسمبثاوي أنه الأقوى.. تهاويت على الأرض فاقد الوعي، وأظن أنني قبلها صرخت حتى بح صوتي..

☆ ☆ ☆

الآن صارت الحقيقة واضحة أمام عيني..

العشيرة مجموعة من الغيلان لا أكثر، ومصير هؤلاء الذين اختفوا في المترو أسود من أي شيء يتخيله رجال (سكوتلاند يارد).. يجب أن أفر.. يجب..

ولكن كيف؟ حتى لو تركوني فلسوف أضل طريقي في شبكة المجاري الرهيبة هذه..

في مساء اليوم التالي جلست جوار الجدار أرمق السقف المظلم، ولم يكن هناك إلا ضوء خافت قادم من مكان ما، عليه رأيت (توماس) يدنو ليجلس جواري.. كان يعرق قطعة عظم باقية فلم أجسر على النظر..

سألته في اشمئزاز:

- «من أنتم؟»

راح ينظر لبعيد، ثم قال:

- «القصة طويلة أيها الغريب.. عمرها مائة عام.. لا أدري إن كان من الصواب أن أحكيها، لكني أعرف أنك لن تخرج من هنا إلا ميتًا سواء قتلناك نحن، أو جاءك الأجل..»

هنا سمعت صراخ (ليزا)..

☆ ☆ ☆

كانت في الثلاثين من عمرها.. كانت جميلة أنيقة أو هذا ما استطعت رؤيته في الظلام.. جاء بها (توماس) - وهو يختلف عن أي (توماس) آخر - وهو يحملها على كتفه كما يفعل رجل الكهف مع أنثاه.. كانت تصرخ كصفارة إنذار.. وكانت تعض كحيوان (الولفرين).. وتخمش كالقط البري..

لكن القوى لم تكن متعادلة قطعًا.. وفي النهاية تلقت بضع صفعات، ثم وجدت نفسها على الأرض تحيط بها النساء الشرسات، وبعضهن جلس فوقها ليمنعها من الحركة.. واعتصر قلبي حين تخيلت ما رأته من أهوال... من لحظات كانت عائدة لدارها، والآن... مثلي أنا بالضبط..

قال (توماس) وهو يمسح الدم الذي سال من أنفه:

- «كانت على رصيف المحطة.. وخطر لي أن من الخسارة تركها..»

- «أنت متهور.. فلربما كانت هذه هي كمين الشرطة المرتقب..»

- «لو كانت كمينًا فهم بارعون حقًّا..»

لن أتحمل المشهد التالي، ولن أقدر على منعه.. لذا صحت في (توماس) وأنا أشعر أن أحشائي تتقلص:

- «هل.. هل ستفعلون بها ما حدث للـ.. للرجل الذي...»

قال باسمًا من وراء ملامحه القاسية:

- «نحن لا نأكل النساء..»

هدأت قليلًا وقد بدت لي بعض سمات الفروسية في هؤلاء الغيلان لولا أن أردف:

- «نحن نعاني من نقص فيهن.. لذا نحضر أية فتاة هنا لنتزوجها!!»

حككت رأسي الأصلع محاولًا استيعاب هذه المعلومة.. حقًا ليس الموت أبشع مصائر الإنسان في هذا العالم.. قلت له:

- «لحظة من فضلك.. هل تعني أنكم سترغمونها على ذلك؟»

- «بل ستقبل بكامل إرادتها.. بضعة أيام من الجوع والضرب وترضى أن تصير من نساء العشيرة وأمًا لأطفالنا.. إن نصف نسائنا جئن من هذا الطريق.. ولو انتظرنا حتى تكبر الصغيرات فلسوف ننتظرطويلا جدًّا، بالإضافة إلى أن نصف العدد يموت.. لابد من أن نفعل كالبعوض... ننجب ملايين الصغار كي يعيش منهم المئات..»

كانت الفتاة الملقاة تحت كومة النساء تصرخ في هستيريا.. سائلة تلك الأسئلة المملة على غرار: من أنتم؟ أين أنا؟ الخ.. وهذه هي مشكلة الإنسان.. كل واحد يعتبر نفسه حالة فريدة ويعتبر أن من حقه أن يعرف.. من الخير لها ألا تعرف بهذه السرعة فمازالت أمامها ساعات عصبية مع العشيرة.. ستزداد حكمة مثلي.. حكمة من الخير ألا تنالها الآن.. كما أنه ليس من العدل أن تعلم الأطفال معنى الموت..

نظرت لي وتساءلت في رعب:

- «من أنت أيها السيد؟ تبدو لي مختلفًا عن هؤلاء القوم..»

قلت لها في تهذيب لا داعي له:

- «أنا سجين لديهم يا آنستي.. مثلك بالضبط.. اسمي (رفعت إسماعيل).. طبيب مصري.. وحاليًا أنا معالج هذه المجموعة الممتازة من السادة المهذبين..»

- «وماذا يريدون منا؟»

- «يمكنني أن أؤكد أنهم لن يقتلوك على الأقل..»

- «من هؤلاء؟ هل هم غيلان؟ ماسر هذه الوجوه الشائهة؟»

- «ثمّة وباء من الجذام يجتاح هذا المجتمع الصغير.. فكري في الأمر كمستعمرة جذام أهلية لا تعرف الحكومة عنها شيئًا»

ولزمت الصمت.. لا داعي لمزيد من التفسيرات ترهق أعصابها..

- «إنها جميلة.. انظر هذه القلادة هي ثرية كذلك!!»

قالت هذه الكلمات واحدة من النسوة اللاتي يكبلن الفتاة، ورحن - كالضباع - ينتزعن كل ما لديها من حلى وزينة...

وانتزعت إحداهن شعر الفتاة.. اتضح أنه جمة صفراء ضخمة، ووضعتها على رأسها المتسخ وراحت تتمايل يمينًا ويسارًا في دلال، وهي تقهقه كالفتوات في موقف (عبود)...

قلت لها في سرّي: لاتخافي يا صغيرة.. بعد أيام ستكونين شرسة مثلهن وربما أكثر..

عاد (توماس) يجلس جواري، وقال في فخر:

- «النساء! لن يتركنها تفلت أبدًا.. ماكنت أضمن ذات النتيجة لو تركت رجلًا لحراستها..»

قلت له وأنا أحاول تحاشي سماع صوت الفتاة:

- «ما زلت لم تكمل قصتك بعد..»

بصق على الأرض، وقال وهو يداعب لحيته بمخالبه:

- «يُمكنك أن تصغي أيها الغريب.. والفتاة كذلك ستسمع القصة كي لا أعيدها مرّتين..»

☆ ☆ ☆

١٠ - أسطورة العشيرة..

(ثمّة هاجس غامض يقول إنني استعملت هذا العنوان من قبل)

القانون التاسع:

لا أحد يملك.. لا أحد يأخذ.. فقط الطعام والشراب حق للجميع..

☆ ☆ ☆

بدأت القصة ـ والكلام هنا لي ـ من مائة عام ونيف..

كانت إنجلترا هي جحيم العمال، وكانوا يعيشون حياة الفئران أو أدهى قليلًا.. وهو الجو الذي أوحى لـ(كارل ماركس) و(انجلز) - وكلاهما كان يعيش في إنجلترا - أن الشيوعية وثورة العمال على أصحاب العمل لابد أن تنشأ في هذا البلد.. ومن الغريب أن إنجلترا صححت مسارها، وظفر العمال بحقوقهم وأكثر، بينما بدأت الشيوعية في روسيا والصين وهي وقتها بلاد زراعية..

المهم أن حال العمال في إنجلترا كان في الحضيض، وحين كتب (هـ. ج. ويلز) قصته العظيمة (آلة الزمن)، تنبأ بأن هؤلاء العمال الذين يعيشون تحت الأرض سيتحولون إلى وحوش قوية، بينما السادة الذين يعيشون فوق الأرض سيتحولون إلى كائنات هشة غبية أقرب إلى الفراش أو الدجاج..

في هذا الجو الملحمي بالضبط كانت النساء يعملن، والأطفال يختنقون في المصانع، والرجال يكدون خمسة عشر ساعة يوميًا بلا أجر يذكر..

وفي اليوم الذي نتحدث عنه كان هناك خمسة عمال مع زوجات ثلاثة منهم، يعملون في شبكة المجاري العملاقة تحت (لندن).. من الغريب أن تعمل النساء في شبكة المجاري، لكن هذا كان معتادًا وقتها، وكان الرجال في حاجة إلى اليومية التافهة التي تنالها زوجاتهم..

متى حدث الانهيار؟ لا أحد يذكر.. يبدو أن جزءًا من السقف كان هشًا، وقد سقط فوق هؤلاء لكن أحدًا لم يمت..

وحين أفاقوا من ورطتهم أدركوا أنهم سجناء.. أدركوا أنه ما من سبيل للخروج..

قضوا أيامًا سوداء في الظلام يصرخون ويحاولون الخروج.. لكن من الواضح أن العالم الخارجي نسى عنهم كل شيء.. ويبدو أن الانهيار لم يؤثر في أرضيّة الشارع.. ربما جرت بعض المحاولات للبحث عنهم لكنّها حتمًا لم تكن جديّة إلى هذا الحد..

يا لها من حياة!

إنهم يستعجلون الموت لكنه لا يأتي.. وهم ينتظرون في أقذر مكان في (لندن) في الظلام الدامس الذي بدأت عيونهم تعتاده...

وفي النهاية قال أكبرهم سنًّا وهو عامل من (ويلز) يدعى (توماس كوتون):

- «يبدو أننا سنعيش.. لكن علينا أن نعرف كيف نفعل هذا..»

وكان الدرس الأول الذي تعلموه حين فرغ ما معه من ماء أن يشربوا البول.. والدرس الثاني أن يأكلوا الفئران.. لا أعرف حقًّا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل هذا، لكن من الواضح أن عذاب الجوع والظمأ يفوق أي اشمئزاز..

وبعد وقت قصير وجدوا شرخًا في الجدار ينز الماء، فانتهت مشكلة الظمأ بالنسبة لهم...

وهكذا بدأت حياة من أغرب وأقسى ما يمكن تصوره تحت (لندن) الغافلة المليئة بالمفكرين والحالمين والعلماء.. كانت هناك مجموعة من الأحياء تعيش في شبكة المجاري وتحاول أن ترتب حياتها يومًا بعد يوم.. ومن الغريب أن تتصور ما يصل إليه الإنسان من قدرة على التكيف مع الوقت..

لم يتمكنوا من العثور على فتحات للخروج.. تحولوا مع الوقت إلى فئران تزحف في الظلام.. بدأت الزوجات ينجبن.. ظهر أول جيل من رجال النفق.. ومن الطريف أن اسم الجميع كان (توماس) نسبة لمؤسس هذا المجتمع، وكراهية للأسماء التي يحملها من يعيشون على السطح..

ومع نمو الصغار كانت المبادئ الأولى قد بدأت تتشكل: نحن وحيدون.. السادة فوق الأرض تخلوا عنا.. نحن هنا بسببهم.. إنهم أعداؤنا للأبد..

ومع مرور السنين بدأت فكرة العشيرة تنمو... وكانت الحاجة لها ماسة مع ظهور كل الصغار الذين لم يروا النور يومًا واحدًا، والذين لم يعرفوا لهم وطنًا إلا هذه الأنفاق العفنة..

صاغ (توماس) فكرة العشيرة وصاغ قوانينها العشرة.. وهي عبارات ملتفة جدًا يصعب فهمها لكنّها تدور حول الفكرة ذاتها: رفض الآخر والاغتراب..

القانون الأول: لا أحد سوانا.. لأنّه لا أحد يقبل أن يكون منا.. (ومعناه ببساطة أننا لا نبالي بالآخرين ولا نعمل لهم أي حساب لأنّهم يرفضوننا..)

القانون الثاني: ما يعرفونه لا يعنينا أن نعرفه.. وما نعرفه لا يصدقه أحد منهم.. (وهو واضح المعنى)..

القانون الثالث: كل حياتهم لنا.. ودمهم مستباح.. لكننا لا نبغى أموالهم لأنهّا منهم.. (مفهوم أيضًا)..

القانون الرابع: الباقون منا ليسوا أخوة لك.. الباقون منا ليسوا أخوة لك.. الباقون هم أنت.. (معناه أن علاقة هؤلاء ببعضهم تتجاوز الأخوة.. إنها علاقة الذراع أو الساق بصاحبها)..

القانون الخامس: الفطر لا ينمو إلا في الظلام، ونحن لا نقوى إلا حين نخفي سر الأسرار... (دعوة للسرية والكتمان)

القانون السادس: عاملهم بأشرس ماتستطيع، فالقسوة رحيمة أحيانًا.. (هذا الكلام يعنينا.. العنف يخيف الناس ويمنعهم من التدخل في شئون العشيرة.. وبالتالي يقلل ما سيحدث لهم من أهوال)..

القانون السابع: كنا منهم.. اليوم صاروا لنا.. غدًا يصيرون فينا**!** (كنا يومًا عمالًا لديهم.. اليوم صرنا نخطفهم.. غدًا نأكلهم ونهضمهم ليصيروا جزءًا منا**!!**)

القانون الثامن: لا أحلام لنا إلا البقاء يومًا آخر.. ولا ذكرى لنا إلا ميلاد العشيرة..

القانون التاسع: لا أحد يملك.. لا أحد يأخذ.. فقط الطعام والشراب للجميع.. (وهذه اشتراكية فطرية)..

القانون العاشر: من صار منا لا يتركنا إلا إلى بركة الديدان.. إنّه الآن حر.. (وهو تحذير مخيف لأمثالي.. بركة الديدان هي بالطبع مقبرة هؤلاء..)

مر الزمن ومات الجيل الأول من الآباء.. إن التخلص من الجثث في شبكة مجار ليس بالأمر العسير على كل حال.. وتكاثرت العشيرة في ظروف بالغة الصعوبة.. وما كان لأحدهم تعامل مع الخارج، لكن بمرور الوقت عرفوا أن بوسعهم - بالكثير من المخاطرة - الخروج من فتحات البالوعات الجديدة التي وضعتها البلدية.. وجرب بعضهم أن يخرج فأصابه الهلع من المدينة المعاصرة، بالإضافة إلى أن نور النهار آلم عيونهم جدًا.. وما لبث أن تعلم عدد محدود منهم أن ينتصر على رعبه.. تمكنوا من سرقة بعض الثياب من شباب الهيبي الذين ينامون على الأرصفة ليلًا.. وصاروا يتنكرون من حين لآخر ويخرجون في الليل.. هؤلاء هم (توماس) و(توماس) و(توماس) وطبعًا (توماس).. لا يمكن أن ننسى هذا الأخير..

هؤلاء الذين خرجوا تعاملوا نوعًا مع الخارج، ونقلوا بعض مصطلحات الحضارة إلى الداخل، وكانت اللغة الإنجليزية لم تنقرض كما توقعوا.. صحيح أن لغتهم كانت عتيقة نوعًا، لكننا في (لندن) المعاصرة حيث يستعمل كل واحد لغة إنجليزية خاصة به...

أما الاكتشاف الأعظم الذي عرفوه فهو مترو الأنفاق أو (الأنبوب).. لقد تمكنوا من حفر عدة أنفاق تربط شبكة المجاري بشبكة المترو بعد مغادرته المحطة... هكذا صار بوسعهم أن يدخلوا ويخرجوا دون مخاطرة..

كان هذا حين بدأت الأمراض تتفشى في المجموعة، وبصفة خاصة الداء الوبيل الذي يقضي على الإحساس وتتآكل الأطراف منه (ومن المثير للتأمل أنهم في الغالب جلبوه من الخارج، لأن الجذام لا ينشأ من عدم) ووجد الرجال أن عليهم تغيير نوع الطعام لأنّهم افترضوا أن طعامهم هو سبب ما فيهم.. إن الفئران لم تعد تناسب الجميع بالإضافة إلى قلتها... ونبتت فكرة الاغتذاء على البشر.. هذا مصدر جيد للبروتين بالإضافة إلى ما يبشر به من لذة الانتقام...

وكانت العملية سهلة نسبيًا لأن رصيف المترو كان يخلو من البشر عند منتصف الليل.. فقط لا بد من واحد ينتظر المترو وحيدًا.. يمكن تخويفه ودفعه دفعًا إلى الأنفاق المظلمة حيث ينتظره الآخرون.. ويجرونه من أحد الأنفاق التي تقود إلى المجاري.. وهناك يكون العشاء ممتازًا.. لم يرفض أحد الفكرة لأن من يأكل الفئران يمكن أن يأكل أي شيء آخر.. وقد استخدموا الكلاب أحيانًا بعد ما حصلوا بالسرقة على ثلاثة جراء ربوها معهم.. وكانت الكلاب مفيدة دائمًا في تخويف الفريسة أو مطاردتها..

في البدء جربوا أكل النساء، ثم وجدوا أنهم بحاجة لبعضهن كزوجات حتى لا تنقرض العشيرة.. رآيي أنه من الخير لها أن تنقرض، لكن رأيهم يختلف على كل حال.. وقد خطفوا بعض الفتيات، وعذبوهن ومنعوا عنهن الطعام، حتى أصبن بنوع من غسيل المخ الكامل، وانضممن إلى العشيرة.. وبعد سنين يصرن من المتحمسات المخلصات الكارهات للعالم الخارجي..

بقي أن أقول إنني لم أعرف قط مصير المتسول الذي حذرني من (هم).. لكني أعتقد أنه رآهم كثيرًا جدًا، وكان يخشاهم.. وفي ليلة رأى عملية قتل لم تكتمل بأخذ الجثة إلى المجاري.. لابد أن الجثة شوهدت وفر هؤلاء هاربين... بينما حسبت أنا أنه هو القتيل.. كلبه الصغير تلقى عضة قاتلة من كلب أو إنسان لا يهم.. المهم أنه مات.. أمّا الرجل فقد جرى إلى محطة المترو متكلّمًا عن الانتقام.. فهل ظفروا به؟

☆ ☆ ☆

١١ - إلى النور..

القانون العاشر:

من صار منا لا يتركنا إلا إلى بركة الديدان.. إنّه الآن حر.

☆ ☆ ☆

كمِّن يومًا مر علينا هنا؟ لا أدري حقًّا..

الفتاة؟ إنها جالسة في الركن متكومة على نفسها لا تفعل ولا تقول شيئًا.. فقط ترتجف، وقد صار مظهرها مثيرًا للشفقة بعد كل ما سرقته النساء منها.. النساء اللائي جلسن في أحد الأركان يلتهمن فأرًا سمينًا ويتشاجرن عليه.. لم يقدم لها أحد شيئًا من الطعام، لهذا انتهزت فرصة معينة ورميت في حجرها بعض الخبز والجبن، وأمرتها أن تأكل فورًا..

ظلت ترمقني في غباء بعينين من زجاج.. وأنا لا أطيق الغباء حين يتعلق بحياتي ذاتها..

- «كلي يا حمقاء.. إن هذا الخبز ليس له إلا مصدر واحد: أنا.. ولسوف يحرمونني منه لو عرفوا..»

لكنّها لم تقل شيئًا وظل الخبز ملقى هناك..

- «آمرك أن تأكلى!»

فلمّا طال الأمر مددت يدي ووضعت الطعام في جيبي.. ما دامت لا تنوي التفكير بطريقة عملية، فلست مستعدًا للموت جوعًا بسببها.. ربما الموت بطريقة أخرى غير الجوع كذلك..

جلست جوارها، وقلت في تؤدة:

- «ما اسمك؟ أنا لم أعرفه بعد..»

- «(ليزا).. أنا سكرتيرة.. لكني كنت أزور صديقة لي في (هونزلو بيل) في ساعة متأخرة..»

ثم بعد صمت قالت لي:

- «هل لديك خطة ما للمستقبل هنا؟»

- «الهرب طبعًا.. لكني لم أعرف كيف بعد.. حتى لو تركوني أهرب فلن أجد الطريق المناسب هنا، وسأنتهي هيكلًا عظميًا وسط الماء الآسن..»

نظرت للسقف وهمست في غل:

- «لو كانت هناك فتحة مجار قريبة لأريتهم..»

هذا تفكير جميل.. لكن العقل البريطاني لايفهم أبدًا أن (لو) أداة امتناع لامتناع.. وأنها تفتح بابًا للشيطان.. وأنها.. حتى حيلتي القديمة بالتظاهر بالمرض لن تجدي لأنّهم سيسرعون بالتهامي بنفس المنطق الذي يسارع فيه الفلاح إلى ذبح البقرة المريضة كي يفيد من لحمها..

ثم حدث شيء غريب..

☆ ☆ ☆

لقد دخل أحدهم المكان الذي تنام فيه. فتحت عيني فعرفت أنّ هذا (توماس)..

هرع ليوقظ (توماس) و(توماس) والآخرين.. ثم ركض ليطفئ المشعل الوحيد الذي كان ينير المكان، وهنا صاح:

- «عمال المجاري! تواروا بسرعة!!»

نهض الرجال والنساء، وكممت الأمهات أفواه أطفالهن ليخرسن، على حين صاح (توماس) وهو يخرج سكينًا عملاقًا:

- «غريب هذا.. لم يصل أحدهم إلى هنا منذ مائة عام!!»

- «لا بد من مرة أولى..»

وبالفعل سمعنا الضجيج لرجال يتكلمون عبر الممر التالي للمجاور لنا.. وبدأ هدير آلة ما لعلها مولد نور أو شفاط عملاق.. كانت تهز النفق الذي لم يهتز منذ دهور...

قال (توماس) وهو يلوح بسكين آخر (لأنّه توماس آخر):

- «كم عددهم؟»

- «لا أدري.. ربما هم ثلاثة أو أربعة..»

- «إذن هناك ثلاثة أنصبة من اللحم لكل منا..»

حتى أنا لم أستطع أن أظل أخرس أمام هذه الحماقة، وقلت في كياسة:

- «ليست المشكلة في قتل هؤلاء.. المشكلة أنه لابد من أن يبحث عنهم أحد.. و...»

ثم قررت أن ألزم الصمت نادمًاعلى ما قلت.. ليس من واجبي الحفاظ على سرهم، لكنني لا أتحمل الحماقة حين يمارسها أمامي أحدهم بوجه صلب، حتى لو كان في هذه الحماقة نجاتي.. وبالفعل همست الفتاة:

- «لماذا لا تصمت؟ هل أنت معهم أم معنا؟»

فكر (توماس) قليلًا، ثم غمغم وهو ينظر للسكين مفكرًا:

- «أرى أنّ علينا أن نهجم.. لقد تجاوزنا مرحلة الصمت والخوف.. وفيما بعد لن يجدونا.. لا أحد يستطيع تمشيط شبكة مجاري (لندن) مهما حاول..»

حقًّا هو محق.. لا أحد يمكنه تفتيش هذه الشبكة العملاقة.. حقيقة عرفها البريطانيون من زمن... وفي أكثر قصص الرعب القوطي على غرار (شبح الأوبرا) وسواها، كان عالم كامل من الشر يعمل داخل هذه الشبكة...

بنظرة ذات معنى تفقدنا، ثم قال لرفاقه:

- «فلتتوار النساء والأطفال، أمّا كل قادر على القتال فليتبعني..»

☆ ☆ ☆

كنا الآن - نحن النساء والأطفال - نتوارى فيما يشبه الكهف المليء بمواسير الصرف ومواسير المياه وله ثلاث نوافذ تطل على ثلاث سراديب مختلفة.. ومن فتحة مستطيلة تشبه الشباك كان بوسعي من منظور مرتفع أن أرى الرجال وهم يعملون في الظلام.. طبعًا من دون عوينات كنت ارى خيالات، لكني تمكنت من فهم ما يجري.. وبالطبع اعتمدت على طريقة تضييق فتحة العين وتقطيب الجبين..

كانوا أربعة، وكانت معهم آلة عملاقة هي التي سمعنا هديرها.. تتلقى الكهرباء من كابل عملاق فوق الأرض.. وكان كل رجل من الرجال يضع على رأسه خوذة مضيئة كعمال المناجم، ويحمل أداة تشبه حفار الطرق الذي نعرفه.. جوار كل منهم كانت حقيبة غذائه الصغيرة، ومعها تورمس القهوة، وكانت رائحة المكان تفوح بالغازات.. الميثان وكبريتيد الهيدروجين.. بينما هم يقفون في السائل الكرية الذي يصل حتى الركبتين..

يبدو أنهم هبطوا باستعمال الدرجات القديمة المنحوتة على جدران النفق في السرداب المجاور، لأن الحبال والأسلاك كانت تمتد إلى هناك.. وزحفت على بطني ونظرت عبر كوة صغيرة على الناحية الأخرى، فلم أر إلا الظلام لأن السرداب كان بلا أضواء.. عدت زحفًا على بطني لأرمق

مصير العمال، وشعرت بعشرات الأنفاس الكريهة تحتشد حولي.. لقد كان الجميع هنا يحاول أن يرى المعركة بوضوح واستمتاع..

من هناك استطعت أن أرى أحدهم يلتفت للآخرين، ويقول شيئًا ما.. والآخرون يكفون عن العمل..

من هناك استطعت أن أرى التوتر في وجوههم...

من هناك استطعت أن أسمع الصمت، وللصمت أحيانًا صخب يصم الآذان..

ثم حدث الهجوم بسرعة وقوة لا يمكن تصديقهما، وهما جديرتان بقوم يصطادون الفئران بأناملهم على كل حال..

كان العمال ينهالون باللكمات على مهاجميهم، لكن هؤلاء كانوا يتحركون بثقة في النفس كالعادة..

تراجع أحد العمال البؤساء للوراء، وألصق ظهره بالحائط، وراح يلوح مهددًا هذه الغيلان بالمثقاب الذي يحمله في يده.. ورأيتهم يلتفون حوله في دائرة، وكأنهم يقولون له كلامًا على غرار: هلمّ يا فتى.. لا داعي لهذ الألعاب السخيفة..

لكنه واصل تحريك المثقاب محدثًا دوائر وهمية في الهواء..

ثم سمعت صوت النباح من بعيد.. لقد وصلت الكلاب.. وفي اللحظة ذاتها تهاوى أحد العمال بينما حزت سكين (توماس) وريدًا مهمًا في عنقه..

كانت الإثارة في ذروتها والكل يرمق ما يحدث في نهم.. خاصة العامل الذي يرفض الاستسلام، والذي - فعلًا - نجح في أن يخترق بمثقابه صدر أحد الرجال..

نباح.. صياح.. صراخ.. هدير مثقاب..

إن من لا يهرب وسط هذا السيرك الروماني لن يهرب أبدًا..

☆ ☆ ☆

وزحفت على ركبتي إلى الكوة الأخرى، وجررت جسدي عبرها.. نظرت للوراء فوجدت الفتاة ترمقني في توسل كي آخذها أيضًا.. لم يكن ثمّة وقت لهذا.. فأنا لا أعرف مدى الخطأ الذي ارتكبته.. ربما أنا مخبول.. ربما أنا مجنون.. لن أسمح إذن بأن يدفع واحد آخر ثمن خطاياي.. ثم إن الفتاة ستمنحهم الوقت الكافي كي يلاحظوا ما يحدث.. بينما لو فررت وحدي لأمكنني أن أجلب النجدة..

تكورت عبر الفجوة وتركت جسدي يسقط في الممر الثاني...

لم يكن الارتفاع مخيفًا.. سقطت على الأرض وسط السائل الكريه لكن ليس هذا وقت الاشمئزاز..

تحسست حتى اصطدمت أناملي بالحبال والكابل على الأرض فرحت أقفو أثرها كالمجنون..

لست مخطئًا.. إن هناك نورًا من نوع ما، ومعنى هذا أنّ هناك فتحة قريبة من هنا..

آلام صدري تتزايد من فرط انفعالي لكني أتحامل.. لو كان معي (النيتروجلسرين) لـ... لكني لن أموت بقلبي.. ليس الآن.. ولو مت فلن أعرف هذا على كل حال..

في النهاية اصطدمت بالجدار ورأيت الدرجات منحوتة فيه، يتدلى فوقها الكابل محاطًا بالحبال.. ونظرت لأعلى فوجدت فتحة يدخل منها ضوء النهار خافتًا واهيًا..

دون أن أعرف أنّ هذه درجات، وأنّ هذا الذي على الجانب (درابزين) قديم عمودي، تشبثت..

وبدأت أصعد.. أصد.. لابد أن الارتفاع كان نحو أربعة أمتار.. وكان بوسعي أن أسمع الآن صوت السيارات في الشارع وضجيج العالم الحقيقي.. وكان بوسعي أيضًا أن أسمع صراخ العامل الأخير الذي ينتزعون روحه بعد ما أخذوا منه المثقاب..

أخيرًا صار صدري خارج المجرور، وفي مستوى الشارع..

عربة (فان) تقف هناك.. تخرج منها عشرات الكابلات والحبال.. ولافتات من النوع الذي يثبت على الأرض، ويكتب عليها (نأسف للإزعاج.. إصلاحات.. إلخ...) وثمة ملاحظ جالس على الإفريز يشرب القهوة من تورمس كبير.. فما إن رآني حتى هب مفتوح الفم في بلاهة..

قلت له بالعربية (لأن اللغة الأم هي ما نستخدمه في الاستغاثة):

- «أسرع.. هات نجدة حالًا..»

ثم تداركت الأمر حين رأيت الغباء في عينيه، فشغلت جهاز الترجمة الإنجليزية:

- «إن رجالكم في... في... النفق... إنهم يـ... يموتون... أكلة لحوم بشر لو... لو كنت تفهم ما... ما أعنيه..»

وهنا خرجت اليد من فتحة المجرور.. لم أرها لكني شعرت بها حول كاحلي.. يد قوية حديدية تحاول جري إلى أسفل ثانية! لم يكن هروبي سرّيًا تمامًا!

ارتميت على الأرض وصرخت:

- «إنهم يحاولون أنـ...»

لم يفهم الرجل شيئًا لكنه رأى أنّ هناك من يحاول جر رجل آخر إلى المجرور فراح يجذبني بقوّة.. وسمع أحد المارَّة الجلبة، فلم يحتفظ بالبرود البريطاني العتيد وهرع بدوره يمد لي يد العون..

وأخيرا بدأت ارتفع ومعي ارتفع أحد هؤلاء المسعورين - لابد أنه (توماس) - وقد تحول بالفعل إلى مسخ من فرط الشراسة والضوء الذي أعماه تمامًا.. وكان يزأر كالذئاب ويحاول أن يفتك بأي واحد يقترب منه...

- «ما هذا الشيء؟ لم لا تفعلون شيئًا؟»

كذا صاحت إحدى النساء في هستيريا، على حين واصل الرجلان توجيه الركلات للمسخ المتمسك بساقي.. وفي النهاية تخلى عنها وسقط في المجرور من جديد..

وغبت أنا عن الوعي..

☆ ☆ ☆

١٢ - هل هي الخاتمة حقًّا؟

القانون الحادي عشر:

لا يوجد قانون حادي عشر..

☆ ☆ ☆

قال لي المفتش (رادكليف) من (سكوتلاند يارد):

- «من حسن حظي أن عمال المجاري ماتوا وأنّ بعض الناس رأوا ما رأيت، وإلا ما صدق أحد هذه القصة..»

قلت له في إنهاك وأنا أنظر إلى قدمي البارزة من تحت الملاءة:

- «لاحسن حظ في موت عمال أبرياء.. لكني برغم كل شيء سعيد لأنكم صدقتموني..»

- «لدينا شاهد آخر على صدق كلامك.. وهو عجوز سكير يدعى (إزكيال).. إنّه اعتاد أن يجوب المترو ليلًا نهارًا، ومعه كلبه.. وقد رأى بعض هؤلاء القوم.. بل إنّه رأى عملية اغتيال حدثت ليلًا وفر بعدها.. لكنه مصر على أنهم فتكوا بكلبه..»

- «هذا صحيح.. لكني أحسب أن شهادة رجل كهذا بلا جدوى..»

- «لقد جن تمامًا على كل حال.. البارانويا هي بالضبط ما نمر به الآن..»

جاءت الممرضة تحضر شيئًا.. فصمت المفتش حتى غادرت المكان ثم قال:

- «بالطبع لم نجد الباقين.. مستحيل أن تجد أحدًا في شبكة المجاري.. قلت لي كم عددهم؟»

- «لن يقل عن الخمسين أبدًا..»

- «إذن هناك عشرون على الأقل منهم..»

- «هل ظفرتم بثلاثين؟»

ابتسم في ثقة وقال وهو يحك رأسه:

- «لم نظفر بهم.. لقد ظفر بهم المترو.. هؤلاء المخابيل وقفوا في طريق المترو في أثناء اندفاعه عبر النفق.. وكانوا يلوحون بالمشاعل والسلاح الأبيض وكان معهم مسدس..»

مسدسي لقد نسيته!

لكني بالطبع لم أجرؤ على إخبار المفتش أنني دخلت الجزيرة البريطانية ومعي مسدس لا تعرف عنه الجمارك شيئًا.. فقط قلت:

- «وماذا حدث بعدها؟»

- «كانوا يحسبون أنهم في عصر القطارات الأمريكية العتيقة.. وحسبوا أنهم بهذا سيقطعون طريق المترو ويرغمون السائق على التوقف.. لكن حتى لو أراد هذا ما كان يستطيع... اندفع ليدوسهم وهو يحاول يائسًا أن يبطئ السرعة.. وأطلق آخرهم سبة وأطلق الرصاص على واجهة المترو، لكنّها لم تصب السائق، وكان هذا آخر ما فعله هذا الكاوبوي الأخير..»

غطيت وجهي من هول الموقف فقال المفتش:

- «لقد جمعنا من الأشلاء ما يوحي بأنهم ثلاثون.. هل لديك تفسير لما فعلوه؟»

- «ليس لدى تفسير واحد..»

ونظرت من جديد إلى الملاءة المجعدة وقلت:

- «لا يوجد تفسير واحد.. هناك أكثر من تفسير مجتمعة.. المرض الذي حل بهم.. إن الجذام ليس نوعًا من الزكام لو كنت تفهم ما أعنيه.. لقد شعروا أن سبب وجودهم نفسه قد زال.. وأن انقراضهم صار مسألة وقت..

«أضف لهذا أنهم أدركوا أن أمرهم لم يعد سرًا، وأنني سأخبر العالم بكل شيء..

«أضف لهذا شعورهم الزائف بالقوة... فهم لم يعودوا يهابون العالم الخارجي، وهجماتهم على محطات المترو تشهد بهذا..

«أضف لهذا رغبتهم الأخيرة المدمرة في ترويع العالم الخارجي، وإحداث أكبر قدر من الأذى.. لونجح الهجوم لكانت جريمة يهتز لها العالم: افتراس ركاب مترو الأنفاق! يبدو لي عنوانًا شائقًا بحق.. ولو فشل فهم لن يخسروا شيئًا وقد فقدوا كل شيء بالفعل..

«لقد كان هذا الهجوم الأخير مشهدًا يبعث القشعريرة في النفس.. المواجهة بين قوى الطبيعة الكاسحة وبين الحضارة التي لا ترحم.. المواجهة بين الفطرة الخشنة القاسية وبين الآلة..

«كانت نتيجته معروفة سلفًا وأعتقد أنهم لم يندموا كثيرًا..

«لقد ألقت العشيرة آخر ورقة لديها وخسرت.. وكان هذا محتومًا..»

☆ ☆ ☆

وماذا عن الباقين؟

لا أعتقد أن أحدًا سيجدهم.. ربما يموتون وربما هم الآن في المجاري يكونون عشيرة أخرى.. لن نعرف أبدًا حتى يختفي المسافر الليلي التالي بلا تفسير...

وإن كنت أرجح أن الأقوى والأشجع هم من مات في عملية المترو هذه.. بالتالى لم يبق سوى النساء والأطفال و... (ليزا)..

ترى ماذا تفعله وتقوله الآن؟ هل هي حية؟ هل ستغفر لي التخلي عنها؟

كنت أمل أن آتي بنجدة يا (ليزا) وكان هروبك مع سيقضي علينا معًا..

لم يبق سوى النساء والأطفال و... الأطفال؟؟

لو ظل الأطفال أحياء فإن العشيرة عائدة لاريب في ذلك..

لكني سأكون بعيدًا لأني عائد إلى مصر أخيرًا.. سيكون في مصر مترو أنفاق في التسعينات لكني لا أعتقد أن العشيرة قادرة على الوصول إليه..

☆ ☆ ☆

وهكذا ودعت (عاصم إبراهيم) طالب الدكتوراه النجيب وعدت إلى مصر منتظرًا أن أبدأ حياة باسمة نوعًا.. من العسير عليَّ أن أعيش أية فترة سعيدة دون أن تنتهي بمصيبة..

وكان الرقم المشئوم ينتظرني.. ما تفاصيل هذا؟

لا داعي للتفاصيل لأن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - مقدمة لا بد منها للأسف..

٢ - أنا من جديد!

٣ - حكاية ثلاث فتيات لم يعدن ثلاثًا..

٤ - في ساعة متأخرة..

٥ - شاي وسردين وكلب وجريدة.. (تعرفون بالطبع هذه المواقف)

٦ - أن تدخل النفق..

٧ - أن تكون معهم...

٨ - أسطورة العشيرة..

٩ - عشاء خاص جدًّا..

١٠ - أسطورة العشيرة..

١١ - إلى النور..

١٢ - هل هي الخاتمة حقًّا؟

روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

50

فى جانب النجوم

ما وراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

عدد خاص

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقـدمة

هذا هو الكتيب الخمسون..

غريب أن يكتب المرء الكتيب الخمسين، لكنّها الحقيقة..

وإنني لأتذكر أول يوم التقيت فيه بكم، وكتبت أول سطر من قصتي الأولى: «أعتقد أن الوقت قد حان كي أمسك القلم وأكتب عن..».. ومن يومها لم أترك القلم لحظة واحدة حتى اليوم..

يومها بدا لي رقم الخمسين بعيدًا جدًا.. مرهقًا جدًّا.. ضربًا من الخيال العلمي.. حقًّا كنت أومن جديًا أنني سأتوقف عند الكتيب الخمسين لو بلغته.. وقد سبق أن قلت لكم إنني عدلت عن قراري السري هذا الذي لم يعرفه إلا القليل من أصدقائي.. والسبب؟ مازال لدي ما أقوله.. من العسير أن يخرس المرء لأنّه قرر أن يخرس...

هذا هو الكتيب الخمسون..

حكيت لكم تسعًا وأربعين قصة، اختلفت حولها الآراء، فما راق لبعضكم أثار أعصاب البعض، وما كرهه بعضكم هام به البعض، وما بدا للبعض مملًا بدا للبعض مثيرًا يحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة!

لكني - وسط اختلاف الآراء ـ أعترف بأنني لم أحك قصة إلا وأنا أعتقد ساعتها أنها جيدة.. ربما خانني التقدير أو خانتني الموهبة أو خذلني القلم في قصة أو أخرى، لكني كنت دومًا صادقًا وأحببت كل قصة حكيتها قبل أن أحكيها..

ما هي أفضل قصصي؟ لا أعرف.. أفضل قصصى لم أكتبها بعد.. ومازلت أشعر بأنني هاو يجرب ويبحث عن الأسلوب الأفضل.. حاو لم يبتكر أفضل حيله بعد.. لص – لو سمحتم لي بالتعبير ـ لم يضرب ضربة العمر بعد..

لهذا أستمر.. ولهذا أعجز عن التلفظ بكلمات الوداع التي حسبت أن حينها قد حان...

والآن دعونا من هذا الكلام، ولنتحدث عن حلقة اليوم..

هذه حلقة الرعب الخامسة.. تدور في جانب النجوم الذي تأتي منه المسوخ لتزيد الأمور سوءًا في عالمنا..

أنا أراها جيدة مثيرة فهل سترونها كذلك؟

اقرءوا هذا الكلام من أوله لعل فيه الإجابة!

المسافر الذي لا يحبّ الأضواء

كانت ليلة طويلة..

أضواء أضواء أضواء في كل صوب.. وهدير المحرك، وفي المذياع أغنية لأم كلثوم من تلك الأغاني التي تفعمها الكهرباء الاستاتيكية، والنتيجة هي أنك لا تميز حرفًا سوى همهمة طويلة تجعل عينيك تتثاقلان..

كانت أم كلثوم قد كفت عن تقديم حفلها الشهري، وبالتالي صار مدمنوها يفتشون عن صوتها في محطات المذياع، كما يفتش البيض عن ماسة في منجم بجنوب إفريقيا.. وما كنت لأغلق المذياع، فقد خطر إلى أن هذا الصوت هو الشيء الوحيد الذي يبقيني مفتوح العينين..

والحقيقة أنني كنت واهمًا.. لم يعد شيء يستطيع إبقاء عينيَّ مفتوحتين إلا ما بقي لدي من إرادة حديدية.. كنت في مأزق، وأعرف أنني في مأزق.. إنهم ينصحون السائق في مثل ظروفي أن يبحث عن أقرب يمين ليتوقف على جانب الطريق، ويغفو هناك حتى يفيق.. لكنهم واهمون! من قال إن جانب الطريق هنا أقل خطرًا من القيادة النائمة؟ وصوت (الست) يأتي من بعيد: «أغدا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غد..» أعرف أنها تقول هذا لأنني أعرف الأغنية من قبل فقط..

أضواء.. أضواء على الطريق المظلم الممتد إلى ما لا نهاية...

أضواء.. أضواء في مرآة الرؤية الخلفيّة.. وعيناي تدمعان كأي قصير النظر ليلًا..

كنت في حاجة إلى النوم.. لم تستطع كل القهوة التي ملأت بها جوفي في الكافتيريا أن تفعل شيئًا.. كل هذا (الكافيين) حاول أن يبقى جفني لأعلى وفشل..

كنت في حاجة إلى النووووم..

☆ ☆ ☆

أخيرا لم أجد بدًّا.. اتجهت بالسيارة إلى جانب الطريق الترابي، وأوقفتها وشغلت أضواء الانتظار المتقطعة..

نظرت إلى الظلام الدامس بالخارج.. ظلام أولي بكر لا يمكن أن تتبين معه يدك.. غمرت القشعريرة ظهري، وأغلقت الزجاج ما عدا فرجة للتنفس، وأغلقت زر التأمين..

وأرحت رأسي على عجلة القيادة وفي نعاس عميق غبت..

كم من الوقت نمت؟ لا أدري.. لكني فتحت عيني لسبب لا أعرفه.. ذلك الحافز الخفي الذي يوقظنا حين ينظر شخص بإمعان لوجوهنا ونحن نيام.. وهذا معناه الأوحد أن لنا أكثر من عينين.. ثمّة عين لا نراها يختص بها وعينا..

(بالمناسبة ليس ما سيأتي بعد هذا حلمًا.. أعرف أن القراء يحبون البحث عن لحظات النوم في بدايات القصص، والتي ستفسر القصة كلها على أنها حلم فيما بعد)..

كان هناك من ينظر لي عبر زجاج النافذة المجاور لي، وكان يقرع الزجاج في رفق..

كان رجلًا.. هذا ما استطعت إدراكه.. وكان أشيب الشعر له سمت حزين كئيب..

برغم حذرى البالغ وإيماني أن ما يحدث لي يختلف دائمًا عما يحدث للآخرين، فتحت زجاج النافذة ببطء ليدخل البرد والصوت، وسمعته يقول لي بنفس الصوت الحزين الكئيب:

- «هل لديك مشكلة ما؟»

هززت رأسي أن لا..

- «هل تأخذني معك إلى (...)؟»

لم أستطع أن أقول لا.. يُمكنك ببساطة أن تتجاهل من يحاول الركوب عن طريق (الأوتوستوب)، لكن من المستحيل أن تتجاهل من يطلبها منك والعين في العين.. والرجل على كل حال واهن مسن لا يوحي بأنه من (أهل ذلك)..

سألته دون أن أفتح الباب:

- «من أين جئت؟»

- «من (...).. لقد تعطلت سيارتي ولا بد من أن أجد ميكانيكيًا في البلدة المجاورة..»

لا بأس.. بالإضافة لكون هذه مهمّة إنسانية، أرى أنه سيكون عسيرًا على أن أنام في صحبة هذا..

مددت يدي، وفتحت له الباب الأيمن.. ثم أدرت المحرك بينما تربع هو على المقعد جواري وهو يلهث.. قال شيئًا عن جمال الدفء.. أضأت المصباح الداخلي الواهن، لكنه هتف بي أن أطفئه.. هو لا يحبّ الأضواء ولا يطيقها..

لم يكن مخيفًا.. وقالت لي حاستي السادسة الشهيرة إنّه لا غبار عليه.. كأنها جهاز كشاف من الذي يوضع على مداخل الفنادق والمطارات.. دعه يمرّ.. ليس معه أسلحة.. ليس مذءوبًا ولا مصاص دماء.. وبالتأكيد لم يمت منذ عامين..

راحت السيارة تتحرك في الظلام، وقد طار النعاس من عيني بمعجزة ما..

ونظرت لساعتي.. الثانية عشرة.. منتصف الليل.. لماذا فقدت صوابي ولم أنتظر حتى الصباح عند ذلك الصديق؟ لكني كنت في أمس الحاجة إلى الذهاب إلى مدينة (...).. لأن أعمالًا تنتظرني هناك في الصباح الباكر.. صباح باكر؟ مستحيل أن أجد في نفسي من القوة غدًا إلا ما يسمح لي بالنوم حتى الظهر..

ومن جديد كانت (الست) تترنم:

- «آه! كم أخشاه!»

مما قال لي إنني لم أنم أكثر من دقائق ما دامت الأغنية لم تنته بعد..

وجواري كان الرجل الذي يمقت الأضواء صامتًا كالقبر.. لكنه كان يتأملني باهتمام وتركيز.. شعرت بهذا من طرف عيني ولم أرتح له كثيرًا، لكني تجاهلته.. الجحيم هو نظرات الآخرين كما قال سارتر)، ونظرات الرجل جعلتني بحق شديد العصبية..

في النهاية قلت له دون أن أحول نظري:

- «هل ثمّة شيء ما؟ هل تتساءل إن كنت أشبه شخصًا تعرفه؟»

ونظرت له، لكنه كان ينظر خارج السيارة.. أنا أكره هذه الطريقة.. أكره هذا الإيحاء المخيف.. أنا متأكد من أن الرجل كان ينظر لي فمتى أدار رأسه؟ لكني قلت لنفسي إنِّه في الضوء الخافت يتساوى وضع الثلاثة أرباع الأمامي مع الخلفي.. أي أن ظلاله ستأخذ نفس المظهر سواء كان ينظر لي أم خارج النافذة.. وسمعته يتسال:

- «ماذا؟ هل قلت شيئًا»

- «لا شيء.. انس الأمر..»

وواصلت القيادة والطريق يتلوى أمامي مظلمًا كئيبًا غريبًا كالرجل الذي بجانبي بالضبط..

كان كل شيء جميلًا وكانت الحياة رائعة.. لم أدرك هذا إلا حين شقّ أول لسان من البرق السماء.. شرخ عملاق في القبة السماويّة يتسلل لأسفل ويغرس مخالبه في الأرض.. ثم دوى الرعد لأنّهم علموه في حصص الفيزياء بالمدرسة ألا يسبق البرق أبدًا..

حجب الرجل عينيه وقال في ضيق:

- «هذا برق..»

لم أصارحه بانبهاري بعبقريته الفذة في فهم الظواهر الكونية، وواصلت القيادة.. الجو متوتر يثير القلق.. كل هذه الشحنات الاستاتيكية لم تذهب سدى.. بل أشعر بها في كل خلاياي.. في كل

شعرة من رأسي..

إن السيارة حصن آمن لكنه هش.. حصن يمكن أن ينقلب أو يتعطل أو تتلف عجلاته، فلا تملك إلا الدعاء أن يظل متماسكًا حتى ينتهي هذا كله..

وهنا قال الرجال أغرب شيء سمعته اليوم:

- «سأنزل هنا!»

☆ ☆ ☆

هنا؟ ماذا هنا؟

ونظرت خارج السيارة.. لا أرى إلا واديًا مترامي الأطراف.. الظلام في كل صوب.. بعض أعمدة الهاتف أو الكهرباء تتناثر هنا أو هناك كأشباح عملاقة، ومن حين الآخر يلمع لسان آخر من البرق..

سألته في حيرة:

- «هل أنت متأكد مما تقول؟ لا يوجد شيء هنا..»

- «سأنزل هنا..»

- «ألم تتعلم شيئًا في المدرسة؟ حين تحدث عاصفة رعدية وأنت في السيارة لا تتركها.. لأن العجلات تعزل جسم السيارة المعدني عن الأرض.. ولو أنك نزلت من هنا لأديت عملًا رائعًا كمانع صواعق، يجتذب البرق من كل صوب؟»

- «سأنزل هنا..»

- «هل أغضبتك في شيء؟ أنا لم أقل سوى..»

- «سأنزل هنا من فضلك..»

هنا فقط قررت أنّ هذا من حقه تمامًا.. هذه هي قواعد الحرية.. افعل ماتريد دون أن تتدخل في حرية الآخرين.. إنّه رشيد عاقل ويمكنه اتخاذ قراراته بنفسه..

- «إذن افتح الباب وأغلقه وراءك لو سمحت..»

لم يقل شيئًا ولم يوجه لي عبارة شكر واحدة.. فقط فتح الباب وترجل..

ومن جديد عدت أنظر للأفق الذي صار الآن بركة من المياه، وقد توقف البرق والرعد، وساد الظلام الدامس...

ثم رأيت الضوء..

هناك بيت.. كيف لم ألحظ هذا من قبل؟ المسافات تخدع في الظلام لكني أعتقد أنه على بعد خمسين مترًا.. هل كان هناك طيلة الوقت؟ هل كان هناك حين رحل المسافر الغريب الذي لا يطيق الأضواء؟

بيت صغير كما يبدو لي.. يصلح كي يكون مخزنًا للغلال.. لكنه هناك بين أعمدة الهاتف والكهرباء المترامية.. ليس حوله شيء.. لا سيارات أمامه.. لكن الضوء معناه الحياة.. هناك أناس.. أناس ساهرون..

تقولون لي ألا أذهب؟ ماذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء وجده وسط الحقول؟ لم يعرف الأحمق أنّ هذا بيت الذئب، وارتكب أحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب ونام في فراشه.. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب نائمًا حيث لا يجب أن ينام...

أنتم تمزحون.. ليست هذه قصة أطفال، ولا يجب أن يحدث لي شيء مفزع لمجرد أنني في الموضوع.. ثم إنكم لم تجربوا ما أنا فيه.. الملل والبرد والجوع وتصلب الأطراف..

أغلقت السيارة بإحكام واتجهت نحو البيت، وقدرت أنني سأستطيع فيه المبيت أو أطلب العون.. ربما هناك هاتف، وربما هناك طعام..

☆ ☆ ☆

خطوات بعد خطوات في الظلام.. أنا أرى النور لكنني لا أرى ما تحت قدمي.. وتحت قدمي أوحال وماء، ولكني حين رأيت الوادي في ضوء البرق منذ ساعات لم أر حفرًا.. هذا طمأنني قليلًا..

تعثرت.. سقطت في الوحل.. نهضت.. تعثرت..

مشيت..

وأخيرا وصلت إلى البيت..

كان بيتًا صغيرًا بالفعل من طابق واحد، وثمّة ثلاث درجات تقود إلى باب بلا أية علامة تدلّ على ما خلفه.. هناك نافذة جانبية هي التي رأيت منها الضوء، لكن لا يمكن اختلاس النظر منها لأنهّا فوق مستوى النظر..

قرعت الباب بكياسة ثلاث مرات ثم بعنف ثلاثًا.. لا أحد يرد.. ثم فطنت إلى أنه موارب، وإلى أنه ينفتح ببطء مع قرعاتي.. كنت دائمًا أكره المجانين الذين يجدون الباب مفتوحًا ويدخلون، لكن - كما قلت لكم - لم أكن أعرف أنّ هذه قصة رعب..

وهكذا واريت الباب وزججت برأسي في فتحته بحذر.. وناديت أكثر من مرة..

لا أحد.. لا شيء إلا مكتبة صغيرة معلقة على جدار رطب متشقق، والغرفة مضاءة بذلك الضوء الغريب الذي جذب اهتمامي.. يبدولي أنه ما من شيء إلا غرفة واحدة هي التي أقف فيها، وثمّة مدخل صغير جانبي.. مشيت إليه وأطالت برأسي في حذر فلم أر إلا دورة مياه نظيفة جافة... وقد سرني هذا لأن... أنتم تفهمون ما هذا؟

كانت هناك مرآة فوق حوض الغسيل... مرآة تساقط الكثير من طلائها المفضض، لكنّها سمحت الى برؤية وجهي المنهمك الذي جعله السهر والنوم المتقطع يزداد قبحًا.. وهنا..

ما هذا؟

هل مر أحد في المرآة من خلف ظهرى؟ في الغرفة المضاءة التي كنت فيها؟

هذا وارد.. أنا لم أوصد الباب خلفي..

عدت مسرعًا إلى الغرفة فلم أجد أي واحد هنالك.. هذا هذيان لا شك فيه.. أنا أعرف السهر الطويل، وأعرف كيف تبدأ القطط في الكلام، والستائر في الحركة التلقائية.. هذه أشياء تحدث..

الآن فلنر المكتبة..

لست من الأشخاص الذين يقاومون أن يروا مكتبة ولا يعابثوا كتبها قليلًا..

لكني - حين جررت الكتاب الأول - شعرت بألم في إبهامي... هذا دبوس... دبوس صدئ يبرز من الجلد كأنه كمين.. وقد نزف إصبعي بعض قطرات، فأخرجت المنديل ولففته به.. تبًا! ما هي أخبار الكزاز (التيتانوس) هنا؟ أنا لا أعرف تاريخ هذا المسمار بالضبط ولا شك أنني سأعرف...

الآن لنر هذه الكتب..

لا لم تكن كتب سحر مصفرة متساقطة الأوراق والحواف.. بل كانت مجرد أعداد تم تجليدها من مجلة فنية كانت رائجة في الخمسينات.. حين كانت النساء كلهن نسخة من (فاتن حمامة) أيام كانوا يسندون لها دورًا واحدًا: البنت المظلومة.. وحين كان (عماد حمدي) هو النموذج الأوحد لفارس الأحلام...

لا بأس.. لقد وجدت المأوى حتى الصباح، ووجدت التسلية.. دعك من الحمام طبعًا، لأن هناك آنسات يقرأن هذا الكلام.. ولكن أين أنام؟ على الأرض طبعًا..

وهكذا غرقت في القراءة.. وهكذا غرقت في النعاس..

نمت..

☆ ☆ ☆

ماذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء وجده وسط الحقول؟ ولم يعرف الأحمق أنّ هذا بيت الذئب، وارتكب أحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب ونام في فراشه.. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب نائمًا حيث لا يجب أن ينام...

☆ ☆ ☆

كان اللون الأزرق الغريب في كل صوب.. لون أزرق لا ينتمي لأية درجة أزرق تعرفها، وفيما بعد عرفت أنّ هذا لون (الإكليديس).. لن أستبق الأحداث ولكني سأصفه بالـ (إكليديس) من الآن فصاعدًا..

كنت راقدًا على منضدة طويلة.. أدركت هذا حين شعرت بصلابة الخشب وقسوته على عظامي..

وكان أناس من حولي.. ليسوا مجموعة من الممرضات ولا الأطباء ولا حتى جامعي القمامة.. كانوا يرتدون عباءات فضفاضة تغطي الوجوه.. تعرفون بالطبع التأثير المخيف للعباءة التي تغطي الرأس، وتجعل الوجه في الظلال بقعة من اللون الأسود الذي يستحيل أن تتبين فيه أية ملامح..

قلت لهم وأنا أتأوه:

- «أين أنا؟»

لم يفتح أحدهم فمه لكني سمعت كلامهم، وكان بعربية واضحة تتردد في ذهني كالأفكار:

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

- «من أنتم؟»

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

- «لماذا لا أسأل أسئلة؟»

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

ومن البداية كنت أعرف الحقيقة.. هؤلاء ليسوا بشرًا.. الأمر يفوق علمي، وحدود العالم المادي.. أردت أم لم أرد أنا في عالم من العوالم التي أدمن دخولها، وأجهل كل شيء عن الخروج منها...

وقال أحدهم ـ أعني فكر - وهو يفتح أزرار قميصي:

- «ليس مستعدًا بعد أيها الأخ (أبراكساس)..»

فكر الآخر:

ـ «أنت تقول أيها الأخ (بلفيجور)..»

- «ما دام قد جاء فهو يصلح لنا ونحن نصلح له.. مادام قد جاء فقد انتخبته الأقدار..»

ونظرت إلى يد الرجل الأول فأثار هلعي أنه ليست في أطراف أنامله أظفار.. بل مخالب سوداء قاسية.. أما ما كان يحمله بالضبط فلم أتبين كنهه، لكنه بدا لي كقلب نابض ملوث بالدماء! من أين جاء به؟ من صدري؟

لا داعي للخرف.. لاشيء كهذا يحدث وإلا ما كنت لأرى أنامله هذه.. لكني ـ برغم هذا كله ـ لم أجسر على النظر إلى صدري.. ماذا يحدث لو نظرت ووجدت فتحة حمراء تنز منها الدماء؟ بالتأكيد سيتوقف قلبي في يده هلعًا!

ثم شعرت بالرجل يعيد شيئًا لي وأغلق أزرار القميص التي فتحها، ثم فكر:

- «أرى أن ينتظر في الإكليديس، ولسوف يتقرر مصيره..»

صحت بصوت عالٍ:

ـ «من أنتم وأين أنا؟»

عاد يفكر في ذهني:

- «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

- «لماذا؟»

- «لأنك في جانب النجوم... والفانون في جانب النجوم لا يسألون.. إنهم ينتظرون إرادتنا فحسب..»

جانب النجوم؟ هذا يعني؟

الأسطورة الرومانية القديمة عن العالم الموازي الذي يسكنه الشياطين والأشباح ومصاصي الدماء، والذي تربطه عدة ثغرات بالأرض.. من حين لآخر ينجح أحد هؤلاء في عبور الثغرة ويدخل عالمنا.. عندها يعم الهول، وتغمر الدماء الأرض المعشبة.. بعدها يعود، ويحسب البشر فقط أنهم قتلوه..

(رومانيا) هي أكثر بلدان الأرض ثراء بهذه الفتحات.. ليس أقل من سبع فتحات موجودة بها كما تقول الأسطورة.. بينما في مصر فتحة واحدة على الأقل..

كانت لي ـ تذكرون - قصتان دنوت فيهما من جانب النجوم أكثر من اللازم.. مرة كدت أشهد قدوم (فلاد الوالاشي) إلى عالمنا، ووقفت خلف الباب أصغي لصرخات صديقي الروماني (جوستاف) وهو يرى جانب النجوم لأول مرة.. ولم أستطع بعدها أن أفهم منه ما رآه حقًّا..

المرة الثانية كانت حين واجهت بعض الضيوف القادمين من هذا العالم، وكانوا مسئولين عن الاستحواذ علي الصغير (رامي).. فلم ينقذه وينقذني إلا حب أمّه وتمسكها به..

في كلّ مرّة كنت أدرك أنّ هناك لغزًا مخيفًا يحيط بجانب النجوم هذا.. هذا عالم لا يزوره المرء للسياحة.. لا يتمنى أن يراه ولا يتمنى أن يرى أحدًا منه.. فما الذي وضعني في جانب النجوم بهذه البساطة؟

☆ ☆ ☆

قال الأخ (بلفيجور) الذي صرت أعرفه لأن الصوت يأتي من جهته.. وإن كان ليس صوتًا.. لنقل إنّه انطباع عام يقول إنّه هو صاحب الفكرة التي تتردد في ذهني:

- «خذوه إلى الإكليديس..»

هذا كابوس.. بالتأكيد كابوس.. لأن الرجال الذين دخلوا ليصحبوني لم تكن على أكتافهم رءوس.. كانوا يرتدون ثيابًا تذكرك بثياب جنود العصور الوسطى، لكن لا خوذات لأنّه لا رءوس.. وكان انطباع أنني أخرف هو ما أبقى عقلي سالمًا.. هذا كابوس جميل سأتذكره فيما بعد وأضحك كثيرًا جدًّا.. لكم سأسر حين أصحو في فراشي الدافئ، لأدرك أن أمامي أربع ساعات أخرى من النوم قبل موعد العمل..

الرجال يأخذونني في مزيج من الجر والدفع إلى هذا الإكليديس الذي لا أدري ما هو...

نسيت أن أخبرك عن المكان.. لا مكان! هذا حق لا مزاح فيه.. أنت تمشي على الأرض وتتحسس أشياء لكنك لا ترى شيئًا.. فقط الكثير من الضوء الأزرق الغامض، والذي يطفو فيه من حولك طفوًا.. ثمّة حيلة تلفزيونية قديمة اسمها (الكروما) يقومون فيها بتصوير الممثلين في عالم أزرق بالكامل، ويتم مزج أية خلفيّة على الصورة الملتقطة.. هكذا يحلق الممثلون في السماء أو يمشون في قاع المحيط.. أنا كنت أمشي في عالم من (الكروما) البكر بلا خلفيات من أي نوع..

إذن لم يكن الطريق إلى الإكليديس طريقًا بالمعنى المفهوم، ولم يكن الإكليديس مكانًا لو كنت تفهم هذا..

كان مساحة لانهاية لها من اللون الأزرق الذي سأسميه هو الآخر (إكليديس) كما اتفقنا..

وأخيرا وقفت أنظر حولي في غباء..

ألن ينتهي هذا الكابوس؟؟ لقد حان الوقت.. الكابوس الحقيقي هو ألا تصحو من الكابوس...

وهنا أدركت أنّ هناك مجموعة من الناس من حولي.. أناس طبيعيون لوكان لي أن أقول هذا.. فتاتان.. امرأة في منتصف العمر.. شابان أحدهما أقرب إلى سن المراهقة.. شيخ..

كانوا مثلي يقفون وسط اللون الأزرق الذي لا نهاية له، وكانوا ينظرون لي في دهشة.. ربما في توجس.. أدركت أنهم أجانب.. كلهم لا يحملون ملامح عربية.. ثيابهم تتباين بين القدم والجدّة.. بين الغرابة والتقليدية.. بين القذارة والنظافة..

هذه المرّة سألتهم بالإنجليزية وأنا أرتجف:

- «أين أنا؟»

قال العجوز بإنجليزية لا بد أنها تحمل صبغة ولكنة ألمانية:

- «أنت في جانب النجوم..»

- «قيل لي هذا مرارًا اليوم.. لكني لا أجد الإجابة شافية أبدًا..»

قال وهو يجلس في الفراغ الأزرق:

- «أنت من التعساء الذين عبروا الثغرة بالعكس.. هذه ثغرات خلقت كي تعبر منها المسوخ إلى العالم الأرضي، ولم تخلق كي يعبرها الأرضيون إلى عالم المسوخ!»

صحت في غيظ وأنا أوشك على الإصابة بالفالج:

- «ما هذا الهراء؟ أنا لم أفعل أي شيء.. كان هناك ذلك البيت على الطريق وعاصفة الرعد.. والمكتبة.. ثم نمت وبعدها...»

ابتسم الرجل في مرارة وتبادل النظر مع الآخرين، ثم قال:

- «أنت اخترت مدخلًا لتنام فيه في ليلة عاصفة؟ ولعلك نزفت بعض قطرات الدم هناك! هل فعلت هذا عامدًا؟ إنها طريقة لا تخيب لعبور الثغرة!»

كأنني كنت أعرف أنّ هذه ثغرة.. وكأنني أهوى النوم في الثغرات التي يمرّ منها الشياطين، على سبيل التسلية بدلًا من لعب الشطرنج.. عدت أسأل في غيظ:

- «ليكن.. وهل أنتم جميعًا أرضيون؟»

- «جميعنا.. وكلنا ارتكب خطأً مشابهًا في وقت أو آخر..»

- «منذ متى أنتم هنا؟»

قالت إحدى الفتاتين بإنجليزية أمريكية لا شك فيها:

- «أنا هنا منذ أشهر حسب تقاويم الأرض!!»

وقالت الأخرى بلكنة فرنسية من التي تحيل الراء غينًا:

- «وأنا هنا منذ قرنين حسب تقاويم الأرض!»

هل هو سيرك؟ أنا رأيت وعشت أغرب الأمور في حياتي، لكني ما زلت بحاجة إلى الكثير من الصودا كي أهضم كل هذا الذي أسمعه.. ثمّة شيء واحد أنا واثق منه جيدًا: هذا ليس كابوسًا وإن بدا كذلك.. الكابوس لا يطول إلى هذا الحد.. ولا يأخذ هذا الإيقاع الرتيب المميز للواقع..

عدت أسألهم:

- «ولماذا يضعوننا هنا؟»

قال أحد الشابين بإنجليزية لابد أنها بريطانية:

- «لاندرى.. بعضنا انتهت مهمته وبعضنا لم يبدأ بعد مثلك.. معنى هذا أن الوقت قد جاء..»

آه ه ه ه ه ه ه ه! هذا هو بيت القصيد..

- «جاء الوقت لأي شيء بالضبط؟»

- «لا ندري.. لكن إحراقنا أو التهامنا أو تمزيقنا أمور واردة جدًا.. لا أحد يغادر الحياة حيًّا..»

- «وهل تأكلون أو تشربون هنا؟»

- «لا أحد يأكل أو يشرب في جانب النجوم.. الحقيقة هي أن جسدك الموجود هنا ليس جسدك بالضبط.. إنّه انعكاسه.. إن الأمر شبيه بالموت، لكنك لم تمت بعد وليتك فعلت!»

جلست على الأرض التي لا أراها، وسألت:

- «لا يبدو عليكم الخوف..»

- «كنا خائفين.. لكن أن تخاف كل ثانية في كل ساعة في كل يوم في كل عام في كل قرن من حياتك.. هذا أمر يفوق احتمال الفانين.. سرعان ماتتعلم أن تكف عن الذعر والأمل..»

وقال العجوز:

- «كلٌ منا قارف عملًا شنيعًا.. ولعل هذا هو عقابنا..»

- «لكن هذه ليست جهنم يا والدي.. الخطاة يذهبون إلى جهنم لا إلى جانب نجومكم هذا..»

- «ربما لم نعاقب بجانب النجوم بسبب خطايانا.. لكن خطايانا قادتنا إلى جانب النجوم..»

وفي سرّي قلت لنفسي إن هذه القاعدة خاطئة.. أنا لم أفعل شيئًا - أو هكذا أعتقد - وبرغم هذا جئت هنا..

- «مازلت لا أفهم.. هلا أوضحت كلامك قليلًا؟»

قال بصوت هادئ وهو ينظر إلى سقف لانراه:

- «ستفهم حالًا حين يأتي السادة..»

☆ ☆ ☆

وبدأ السادة الذين تحدث عنهم يأتون من مكان ما..

لم أتصور ما أراه، ولا يستطيع أي خيال أن يرسم صورة هؤلاء القادمين.. ربما رأيت أشياء مماثلة في أفلام المسوخ، لكن هذا يقرب لك الصورة ولا يفي بها..

أغرب مجموعة من العمالقة يمكن أن تتخيلها.. ليسوا عمالقة من طراز (كينج كونج)، لكن ارتفاع أغلبهم حوالي أربعة أمتار.. وهي ضخامة مفزعة لأنهّا ممكنة.. والوجوه تتباين بين من لا وجه له على الإطلاق، ومن لا رأس له على الإطلاق، ومن يشبه وجهه أخطبوطا كاملًا بأرجله الثمانية، ومن له عين واحدة تنزف الدم بلا انقطاع..

بعضهم كان لرأسه جزء خلفي طويل يتدلى على الأرض كذيل التمساح، وبعضهم كانت أوردته تزحف كالأفاعي حوله باحثة عن قنص ما.. وبعضهم كان له ست أذرع، وبعضهم كان بذراع واحدة في منتصف صدره.. وبعضهم كان له مكان الصدر رأس أسد يزأر بلا انقطاع.. أحدهم كان لطيف المنظر رقيقًا، لهذا كان جذعه كله عبارة عن رءوس متلاحمة تتلوى ألمًا..

لكنهم جميعًا كانوا يلبسون ما يذكرك بإقطاعيي القرون الوسطى، وكانوا مدججين بالسلاح - لا أدري ما قيمة السلاح مع غيلان كهذه. وكانوا جميعًا يمشون على قدمين مثلنا..

الخلاصة.. أنت لن تتخيل المشهد.. وأنا كذلك لم أتخيله، وقد فتحت عيني على اتساعهما لكني لم أستطع أن أستوعب كل هذا الهول.. لهذا ببساطة قلت لنفسي: إنّه كابوس وكل شيء ممكن في الكوابيس.. لكنّها كانت أفظع مجموعة من العاهات يمكن أن تراها في حياتك، وقد كدت أختنق من رائحة الكبريت والعطن المنتشرة في كل صوب..

ورفع أحدهم رأسه للسقف وعوى، فارتجت قلوبنا في الصدور...

ورأيت هؤلاء القوم يجلسون إلى مائدة طويلة تشبه حرف U اللاتيني - لا أدري متى وكيف ظهرت - بحيث وجدنا أنفسنا في الجزء المفتوح من الحرف.. الأمر يشبه المحاكمة فعلًا.. لا جدال في هذا..

وفي سقف القاعة التي ليست قاعة راحت كائنات مجنحة ضخمة تحلّق كأنما تمنحنا السلام! كائنات لا أجد وصفًا لها إلا (الهاربي) في الأساطير الإغريقية: الطيور التي لها رءوس بشر..

ودوى صوت ذهني خشن من مكان ما يقول:

- «أيها الفانون.. احتشدوا تحية لسادة جانب النجوم..»

واقفين في المنتصف.. ضئيلين جدًّا.. هشين جدًا.. خائفين جدًّا.. رحنا نستمع إلى الأسماء التي تجمد الدماء في العروق..

- «(سيجفريد الأميدي).. حارق الأراضي ومجفف الأنهار..»

زام الأخ (سيجفريد) وراح دخان أسود كثيف يتصاعد منه، الأمر الذي جعلني أخمن أنّ هذه علامة على الرضا عندهم.. أو ربما الخجل، كما تحمر أذناك حين يطريك أحدهم أكثر من اللازم..

- «(يوليان المغتصب).. هادم القصور وذابح الأسرى والأطفال..»

ومن جديد زار الأسد الذي يخرج من صدر الرجل، وراحت العيون الجاحظة المتناثرة على ثيابه ترمش بلا انقطاع.. أمّا هو فكان بلا رأس لهذا لم أر ملامح وجهه.. أنتم تفهمون هذه الأمور طبعًا..

- «(نيفار الأشوري).. الذي تتشاءم من اسمه أشباح الليل، وتنفتح المقابر..»

يالها من ألقاب.. واضح أن كلًا من هؤلاء تعب كثيرًا جدًا حتى استحق لقبه هذا، وهو فخور به كما تفخر أنت بلقب الطالب المثالي الذي نلته في أيام الدراسة بالكلية..

كان (نيفار) هذا هو الأخ الذي يحمل في مؤخرة رأسه ذيل تمساح هائل.. وقد راح الذيل يضرب يمينًا ويسارًا، بينما الرجل يعوي كالذئاب بلا انقطاع..

هذه هي النهاية! لقد انتهى أمري.. لو كان هذا حقيقة ماديّة فأنا قد انتهيت، ولو كانت هلوسة فأنا لن أسترد عقلي ثانية... لا توجد عقارات ولاصدمات كهربية تقدر على إعادة عقل كهذا إلى حالته الطبيعية.. لابد أن كل هذا وهم، وأنا الآن في مستشفى الأمراض العقليّة والكسرولة على رأسي، والممرضون يحيطون بي، بينما أنا لا أكف عن العواء مثل الأخ (نيفار الأشوري) هذا..

لكن جزءًا من عقلي ظل يقول إنني لم أجن..

يقول إن هذا حقيقي.. وإنني ما زلت محتفظًا بقدرتي على الملاحظة والاستنتاج... لقد لاحظت لحية (نيفار) العملاقة المجدولة وفهمت من هذا السبب الذي جعلهم يلقبونه بالأشوري.. لاحظت الألقاب التي يستعملونها وفهمت أنها شبيهة بألقاب فرسان القرون الوسطى..

- «(فلاد الوالاشي).. هو الذي يمشي في الظلام.. والنائم الأبدي في تابوت..»

هنا اقشعر جلدي.. حتى أنت هنا؟ إنها لمناسبة باسمة إذن..

كان أقل فظاظة من الآخرين إلى حدٍ ما.. على الأقل كان له مظهر آدمي نوعًا... لكن عينيه كانتا جمرتين حمراوين تلمعان في وجه لم تبق منه رقعة جلد بلا شعر أسود كثيف.. ذكرني شكله بالمذؤوبين كما كنا نراهم في أفلام الخمسينات المخيفة.. وعامّة لم يكن يشبة الكونت (دراكيولا) الذي عرفه العالم من خلال السينما، ولا يشبه صورة (فلاد) البشري الباقية في قلعته بـ (ترانسلفانيا).. لكني أعرف الآن أنّ هذا هو (دراكيولا) الحقيقي، الذي كان دومًا ينجح في العبور إلى عالمنا متخذًا شكلًا شبه آدمي..

ثمة سؤال هنا.. سؤال مهم جدًا..

☆ ☆ ☆

«سيبحث (فلاد الوالاشي) عن ثغرة ما يعبر من خلالها.. ولسوف ينجح حتمًا.. ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه.. فهو يعلم الآن أنك من أغلق بوابته!»

د. (لوسيفر) في (أسطورة دماء دراكيولا) صفحة 137

☆ ☆ ☆

أنذرني (لوسيفر) بهذا يومًا أنا لكني لم أهتم كثيرًا.. بدا لي هذا بعيدًا جدًا وسخيفًا جدًا بمنطق (يا مين يعيش؟).. لكني الآن أرى (فلاد) شخصيًا أمامي، فهل يعرف من أنا؟ هل يذكرني؟

حتى لو كان اسمي لم يذكر، فمن الوارد أنّ هذا العالم لا ينتظر البطاقات الشخصية كي يعرف من أنت.. ربما هو يقرأ أفكاري الآن فهل عرفني؟ ولو كان عرفنى لماذا لم يطير عنقي بمخالبه بعد؟

لا أعتقد أنني سأنجو من هذا الموقف بالذات.. هناك حدود للأمل البشري يجب أن يكف المرء بعدها عن تمني الحظ الحسن.. لقد نجوت كثيرًا جدًا من مواقف سيئة.. هناك نقطة للتوقف بالتأكيد..

على حين استمر الترحيب بالموجودين..

- «(روكيان الأماسي).. آكل قلوب الأطفال النابضة.. الوطواط الأزرق..»

وهكذا توالت الأسماء حتى اختلطت في ذهني.. لكني على الأقل أذكر أنه كان هناك نحو عشرة من هؤلاء.. يبدو لي أن (سيجفريد الأميدي) كان أهمهم وأضخمهم وأشرسهم.. كان الشر جليًا في كل حركة وكل كلمة من كلماته، وأنا لم أعتد أن أقابل الشر الخام بهذا الوضوح.. نحن نلقى الشر المستتر.. الشر اللعوب.. الشر الناعم.. لكننا لا نلقي أبدًا الشر الحقيقي حين (يأخذ راحته) ولا يتهيب قوة المجتمع وتقاليده.. الشر الفظ الأولى الذي يتمدد ولا توقفه جوانب الإناء..

لما انتهى (التمام)، تكلّم (سيجفريد الأميدي) بنلك الصوت الفكري، الذي يجعل مخك ذاته يغلي بالقيح وكأن شيئًا ما سيخرج من أذنيك.. شيئًا مقيتًا كريهًا مقززًا:

- «اجتمعنا نحن سادة جانب النجوم اليوم كي نقرر مصير الفانين الذين عبروا الثغرات إلينا.. بيننا نحن السادة خلافات وبيننا حروب.. لكننا في وجه الفانين جسد واحد يضرب لتسيل الدماء!»

ما شاء الله؟ هذه بداية الكلام فماذا عن نهايته؟

واصل الشيء المفزع الكلام:

- «جاءوا هنا لأن أقدارهم شاءت أن يجيئوا... وهم في هذا تورطوا في حبال الحظ العاثر، ودنسوا جانب النجوم الذي هو محرابنا.. وإن أبقينا عليهم حتى الآن فلأننا نعرف أنهم لم يأتوا إلا لحكمة..»

هنا تدخل (روكيان الأماسي) والوجوه المتناثرة على صدره وجسده تعوي بالصراخ، وحاول أحدها الفرار من مكانه فأعاده إلى مكانه بمخالبه:

- «أرى أيها الأميدي أنهم يصلحون لي.. لقد تكونت خلاياي من خلاياهم، وعظامي من عظامهم... في كل جزء من جسدي يوجد فان انتهى أمره إلى أن يكون مني.. فأعطوهم لي يا سادة جانب النجوم..»

اشتعلت النيران الزرقاء في رأس من عرفت أنه (هيفايستوس الجبال) وقال وهو يرتجف:

- «إنها الحقيقة إذن.. أحدهم منا وجدير بأن يبقى معنا.. الآخرون لك يا (روكيان الأماسي)..»

- «إذن هو أشرهم.. أكثرهم غلظة وأقساهم قلبًا وأوفرهم سفكًا للدماء..»

هنا فقط تدخل الأخ (فلاد الوالاشي)، وكنت أشعر نحوه بنوع من الألفة على الأقل لأنّه أقربهم إلى الشكل البشري.. كما قلت هو أقرب إلى المذءوبين كما تصورهم أفلام الرعب القديمة.. وهو في هذا ملك جمال بالنسبة للآخرين..

قال وهو يتلمظ:

- «إذن نختار أشرهم.. وهذا الذي نختاره سوف يغدو منا.. نمنحه القلعة والخدم والحياة، ويغدو من سادة جانب النجوم، ولسوف أمنحة بذرة الفامفيري كي يعيش من شرب الدماء، ويغدو (غير ميت)..»

وخرج لسانه المشقوق يتلوى في الهواء، وعلى طرف اللسان لمحت الدودة الصغيرة.. هذه الدودة التي سأعرف يومًا ما أنها بذرة الفامفيري، وهي التي بدأت منها شرور مصاصي الدماء على الأرض..

هنا قال (سيجفريد الأميدي) بصوته المخيف بطيء النبرات:

- «أيها الفانون.. سمعتم كلمتنا.. فليعلمن كل منكم أن منجاته فيما اقترف.. فليحك كل آثامه ولسوف نصغي ونتخذ قرارنا.. واحد منكم سينجو أمّا الآخرون فسوف يصيرون جزءًا من جسد (روكيان الأماسي).. وهي نهاية أفضل منها الموت بأنياب ألف ذئب..»

قلت لنفسي: إنني نجوت من أسوأ مواقف حياتي ببعض اللباقة والتهذيب.. ربما استطعت أن أخرج من هذا الموقف السخيف لو كنت واضحًا صريحًا.. لهذا تقدمت إلى الأمام وقلت بتحضر:

- «سيدي.. أنا غير راغب في دخول هذه المسابقة.. أعتقد أنني جئت هنا بطريق الخطـ..»

ولم أدر متى ولا كيف طرت في الهواء الأزرق ثم هويت على الأرض مقلوبًا وكل عظمة من عظامي مهشمة أو توشك على ذلك وسمعت صرخة غاضبة حازمة في ذهني:

- «اخرس أيها الفاني!!»

بينما كنت أنا أكمل ما قلت في ذهني:

- «.. طأ... لم أقترف من الشر ما يبرر وجودي هنا.. وعلى كل ليس البقاء حيًا بينكم بمطلب لي...»

تقدم العجوز خطوة إلى الأمام، وقال بلهجته الألمانية وبصوت راجف من رعب الموقف:

- «لو سمح لي سادة جانب النجوم.. إن اسمي (فيرنر فرايمان).. وأنا أكثر هؤلاء الفانين شرًا ويمكنني أن أبرهن على هذا..»

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وهكذا بدأت حلقة الرعب الخامسة.. بدأت في أغرب مكان يخطر لك، ومع أغرب مجموعة من المسوخ يمكن تخيلها.. فماذا قيل فيها وماذا - حدث؟

أعيروني آذانكم الفانية أيها الأرضيون واسمعوا..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (فيرنر فرايمان) الذي عرفت أنه العجوز:

ـ «لم أرد أن أفعل ذلك.. لكنه حدث كأي شيء آخر في حياتنا..»

☆ ☆ ☆

أنا جراح.. لابد أن سادة جانب النجوم عرفوا هذا وإن لم يعد بوسع أحد من الأرضيين أن يثبته.. لماذا؟ لماذا أنكر أنني طبيب، وأنني مارست هذه المهنة الشريفة التي يجلها الجميع؟

السبب هو أنني كنت أعمل مع (يوسف منجيل) [1].. وأنني كنت جراحًا في (أوشفيتز)..

هل فهمتم السبب الآن؟

☆ ☆ ☆

كنت من البداية عضوًا في الحزب النازي.. كنت من القلائل الذين قرءوا كتاب (كفاحي) لـ (هتلر) ودرسوه بعناية فائقة... إن النسخة التي عندي مهترئة امتلأت بالخطوط والحواشي، وقد شربتها شربًا والتهمتها التهامًا، وأيقنت أن الجنس الآري يفوق الجميع، وعليه أن يسحق الجميع من أجل رفعته وعظمته..

ولما بدأت الحرب، ودخلت جيوش الفوهرر (بولندا)، لم يكن لي دور مهم في الحرب بسبب ضعف بصري وشيخوختي.. ولهذا التحقت بالخدمات الطبية لأنني كنت طبيبًا كما قلت..

وتقرر أن أكون في معتقل (أوشفيتز) في (بولندا)، وكان يديره في ذلك الوقت (هيس) قبل أن يسقط ـ (هيس) نفسه ـ في أيدي البريطانيين.. وعرفت فيما بعد أنه قضى بقية حياته في السجن حتى مات..

إن (أوشفيتز) هو اسم المعتقل الذي بناه (هملر) عام 1940 في المدينة التي تحمل الاسم ذاته في (بولندا).. على ضفة نهر (فيستيولا).. وكان (هملر) هو رئيس جهازين مرعبين لم ينسهما العالم منذ الحرب: هما قوات العاصفة SS والجشتابو (البوليس السري النازي)..

وقد قدر لهذا الاسم - (أوشفيتز) - أن يرتبط بكل فظائع النازي.. وأن يصير كابوسًا للأوروبيين عدة عقود.. ومن المؤكد أن نحو أربعة ملايين شخص هلكوا هناك.. منهم اليهود والسوفييت والغجر..

فيما بعد حاول اليهود أن يبتزوا أوروبا، وادعوا أن ستة ملايين منهم ماتوا في (أوشفيتز) وكأن النازية لم يكن لها من هدف سوى إبادة اليهود، لكني أؤكد لكم أن عدد السوفييت الذين هلكوا في (أوشفيتز) يفوق بمراحل عدد اليهود.. فقط برع اليهود في الدعاية وملئوا الدنيا بكلامهم عن المحرقة، التي كافأهم الله بعدها بأرض إسرائيل.. بينما لعب السوفييت دور العدو التقليدي للغرب، وكان الكلام عن معاناتهم في الحرب جريمة أية جريمة..

بعيدًا عن هراء اليهود المعتاد، أقول إن السجناء كانوا يصلون إلى (أوشفيتز) بالقطار في ثلاث مجموعات:

مجموعة تعد للإعدام فورًا في (بيركناو).. فيما بعد زعم اليهود أن (بيركناو) كان يحوي غرف الغاز (زيكلون - ب) والمحارق.. الأفران الآدمية حيث يتم إحراق 200 ألف سجين يوميًا.. وأنا لا أدري من أين أتى هؤلاء القوم بهذه الأعداد الضخمة..

هذا ببساطة ليس صحيحًا.. كنا نطلق الرصاص على من نعدمهم، كما يفعل أي واحد آخر.. لم تتم تجربة (زيكلون - ب) في (أوشفيتز).. هذه حقيقة مؤكدة لكن الإعلام اليهودي لن يسمح بإذاعتها أبدًا..

مجموعة أخرى من السجناء كانت تعمل سخرة في مصانع (فارين) و(كروب).. وكانت هذه عمالة رخيصة بلغت في فترة من الفترات نصف مليون عامل لم يكلفوا الدولة سوى طعامهم القليل... ومن الواضح أن هؤلاء أيضًا كانوا يُعدمون أحيانًا أو يموتون جوعًا..

المجموعة الثالثة وهي المهمة هنا كان يكلّف برعايتها الأطباء، وكان رئيس الأطباء هو (يوسف منجيل) وبالطبع كنت أنا أعمل معه وقتها..

☆ ☆ ☆

ما كان عمل الطبيب في (أوشفيتز) هو العلاج ولا الشفاء.. بل كان البحث العلمي..

وكان البحث العلمي من نوع خاص جدًّا.. كما سترون بعد قليل..

في البداية اصطحبني (منجيل) إلى العنابر حيث كان هناك عدد أكثر من اللازم من الحراس النازيين، وكان رجال العاصفة في كل مكان.. وأنا نازي متعصب لكني أعترف لك أنني مازالت أخشى رجال العاصفة هؤلاء.. بتعصبهم المجنون وقسوتهم، ونظرتهم إلى الغير نظرة احتقار متعال لا ينظر بها المرء إلى صرصور..

رحنا نمشي بين الأسرة، وأثار ذهولي أن كل مريض مكبل بأصفاد حديدية إلى سريره، وأن في عينيه نظرة ذعر تثير الهلع في القلوب.. كانوا في صحة سيئة.. الشحوب هو القاعدة، والعيون غائرة في محاجرها، والجلود على العظام..

سألته وأنا أبتلع ريقي:

- «ما هي مهمتنا هنا بالضبط؟»

قال (منجيل) وهو يربّت على سلسلة في قدم أحد المرضى:

- «هل تتفق معي على أن كل من ليس آريًا هو حيوان؟»

هززت رأسي مقتنعًا، فقال:

- «والأطباء يجرون تجاربهم على حيوانات.. من أجل المزيد من المعرفة البشريّة..»

كنت قد سمعت شيئًا كهذا فلم أندهش.. سألته فقط:

- «وما نوع هذه التجارب؟»

- «كل شيء وأي شيء.. كل ماكنت تتمنى أن تجربه على بشر ولم تجسر على ذلك قط.. نحن نجري تجارب على الجهاز العصبي والقلب والرئتين... نملأ المثانات بالماء ونحدد درجات الألم... نغرس إبرًا في النخاع الشوكي ونقيس الاستجابة الكهربية... كل شيء.. فقط يجب أن تكون خلاقًا..»

بدا لي المستقبل بهيجًا إلى حد لا يوصف.. وهنا يجب أن أقول إني لست ساديًا بشكل خاص.. ليس النازيون مجموعة من المرضى النفسيين كما يصورونهم.. لكن التمييز العنصري والإحساس بالتفوق العرقي هما اسم اللعبة.. ما إن تشعر أنك خلق خاص فريد من نوعه، حتى يصير الآخرون حشرات لا أكثر، وتبدأ المذابح.. ما من مذبحة شهيرة يمكن أن تقرأ عنها في كتب التاريخ إلا ووراءها تمييز عنصري ما.. من دون تمييز عنصري يُمكنك أن تنظر للآخرين على أنهم بشر مثلك، لهم الحق في الحياة والأمان والسعادة، وعندها يصعب عليك إيذاؤهم...

أنا لست وحشًا.. أنا نازي يؤمن بنازيته.. لا أكثر ولا أقل..

وهكذا عكفت على كتب الفسيولوجيا التي وضع الألمان أكثر دقائقها، ورحت أبحث عن شيء يصلح لتجربته.. بينما كنت أنهمك طيلة اليوم في التجارب التي يجريها فريق (منجيل) على التوائم..

كانوا يحبسون التوءمين - وهما من السوفييت غالبًا - منفصلين عن بعضهما.. ويبدعون في تعذيب واحد منهما مع ملاحظة ردود فعل الآخر.. وكانت النتيجة باهرة دائمًا.. هناك خيط

لاشعوري يربط بين الجهازين العصبيين للتوءمين فقط إذا تجاوز الألم حدوده.. أما الألم العادي المحتمل مثل وخز الإبرة فكان يمرّ مر الكرام..

كانت هناك كذلك وحدة مختصة (بعلاج) الحوامل.. كنا نقسم الحوامل إلى عدة مجموعات نعطي كل مجموعة منها عقارًا بعينه.. وبجرعات محسوبة، وفي النهاية نراقب ما تنجبه ونحدد بالضبط الناتج.. وهكذا استطعنا أن نحدد أكثر العقارات خطرًا كي تتلاقاها المرأة الآرية في أثناء حملها.. وما كان أحدنا ليسمح بأن يخرج إلى الوجود طفل آري مشوه..

هكذا ترون أننا كنا نوفر الكثير من الوقت، ولا نضيعه مع الفئران والأرانب كما يفعل العلماء الإنجليز والبريطانيون.. وفي كلّ مرّة يقولون في نشرات الدواء إنهم جربوا الدواء على الفئران، لكنهم لا يضمنون نتائجه مع الحوامل والمرضعات..

نحن كنا نعرف.. ونعرف بالتأكيد...

وكنت في هذه الأثناء أواصل أبحاثي.. أبحث عن بحث جديد كما يقولون!

وفي يوم وجدت شيئًا يصلح كي أجربه..

لكني - برغم أنني لا أعبأ بهذه الأمور - شعرت بالهلع مما توصلت إليه..

كانت فكرة رهيبة بحق لا تخطر إلا ببال شيطان..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كنت قد قرأت عن تجارب العلماء الفرنسيين أثناء الثورة الفرنسية، حين كانت المقصلة تقدم الرءوس بلا عدد.. كانوا يوصلون الرأس المقطوع بمجموعة من الأنابيب تمنحة دورة دموية صناعية، وكان - كما قيل - الرأس يتحرك، ويحاول الكلام، وتتحرك عيناه لمدّة ساعات بعد الإعدام..

وكنت جراحًا أملك الموهبة، ولي إلمام لا بأس به بتشريح الرأس.. إن هناك بعض المشاكل مع الأوعية لكن هذه يمكن إزالتها، خاصة وأن لدى المجال الكافي للتجارب..

وعرضت على أستاذي المجنون بروتوكول الدراسة فأقرها.. كانت المشكلة هي أننا سنحتاج إلى إعدام بعض الأسرى، لكن هذه لم تكن مشكلة على الإطلاق في (أوشفيتز)..

وفي اليوم الموعود كنت أرتجف حماسة، بينما اقتاد الجنود رجلين إلى الأرض الخلاء خلف المعسكر... الأرض التي علقت عليها لافتة بالألمانية تقول: «فقط العمل يجعل الإنسان حرًا!».. وكانت تتناقض بشكل مضحك مع حقيقة ما يحدث هنا.. وسألت أستاذي للمرة الأخيرة:

- «هل أنت متأكد من أن الهر (هملر) سيوافق على.....؟»

قال في استهتار وهو يهز كتفيه:

- «لا مشاكل هنالك.. إن لديَّ تفويضًا كاملًا بعمل ما يروق لي، ما دمت سأقدم بهذا تقريرًا طبيًا وافيًا..»

ودخلت غرفة الجراحة مع اثنين من الأطباء، وشرعنا نتأهب للتعقيم، بينما جاءوا بسجين سوفييتي لا يكف عن الصراخ والاستغاثة.. قيدوه على المنضدة بينما شرع طبيب التخدير يعد عقاقيره..

كان السجين يفهم بعض الألمانية، وقد قال لي:

- «أتوسل إليكم أن ترموني بالرصاص! لا أريد أن أكون حيوان تجارب لكم!»

قلت له في برود وأنا ألبس القفازين:

- «هل تعرف ما نحن بصدده؟»

- «أعرف أنكم مجانين!! وهذا كاف..»

لم أحفل بالرد عليه، وأشرت إلى طبيب التخدير كي يحقنة بالمنوم، وسرعان ما غرق الرجل في سبات عميق..

وعاد الحراس من الخارج مسرعين يحملون الرأس الذي قطعوه، مغموسًا في محلول ملحي طبيعي.. كان رأسًا أسمر له شارب كث يبدو أنه لسجين غجري..

وعلى الفور رحت أشق الأنسجة بمبضعي، وأظهرت الشرايين والأوردة الحيوية في هذا القطاع، ثم ببراعة رحت أجري الخياطات اللازمة..

وقال طبيب التخدير وعيناه على البالون الأسود الكبير:

- «حذار! إن ضغطه ينخفض بسرعة..»

- «إذن احرص على ألا يحدث هذا..»

وواصلت العمل كالمجنون.. لكن كان لا بد من أن تمر ثلاث ساعات من الجهد المتواصل... وفي النهاية تراجعت للوراء ومسحت العرق عن جبهتي، وأمرت مساعدي الشاب أن يقطب الجروح في الجلد، وعدت أنظر لطبيب التخدير:

- «كيف الحال؟»

- «مات طبعًا.. كلاهما مات!»

نظرت لمساعدي وللمريض ولطبيب التخدير، ثم أصابني هياج بالغ جعلني أركل حامل المحلول فأسقطه أرضًا.. كل هذا الجهد بلا طائل! أي ظلم!

سمع (منجيل) صياحى من الخارج، فجاء إلى الداخل وربت على كتفي مواسيًا، وقال:

- «لا تتهور! مازالت أمامك فرص للنجاح.. لا أحد ينجح من أول مرة إلا الحمقى الذين يرفق بهم الحظ! ستنجح يا (فرايمان).. ستنجح!»

ثم أشار إلى أحد الحراس:

- «خذوا الجثتين إلى الفرن الكبير، وتيقن من حرقهما بعناية.. وتيقن كذلك من أنّه لا شهود عليك!»

لم أر داعيًا لهذا الحرص، لكن الرجل كان حذرًا وكان يتحسب برغم كل شيء لخطر أن يربح الحلفاء الحرب.. إن قتل الأسرى ليست تهمة محببة للنفس وقتها.. وكانت هذه عامّة سياسته مع كل موضوعات التجارب.. الفاشلة منها والناجحة.. إن فشل التجارب يعني وجود جثث.. ونجاحها يعني وجود شهود؟

وفي الحالتين تصلح النار لإخفاء كل شيء!

☆ ☆ ☆

وكررنا العملية أكثر من مرة في الأسابيع التالية.. كان الفشل يلاحقني بإصرار غريب.. وإن كنت في سرّي أعترف أن هؤلاء الذين هلكوا كانوا مجدودي الحظ حقًّا..

وجاءت التجربة السادسة.. هذه المرّة كانت الضحيّة امرأة غجرية، وكان الرأس رأس تاجر يهودي ضئيل الجسد.. وقد استمرت الجراحة ساعتين، لأن خبرتي بها كانت عظيمة، وانتهيت فألقيت القفازين ونظرت إلى طبيب التخدير منتظرًا إعلان الوفاة كالعادة، لكنه قال في دهشة:

- «العلامات الحيوية ممتازة! يبدو أنهما سينجوان!»

وكان هذا غريبًا... لقد اعتدت الفشل حتى صار للنجاح مذاق غريب شاذ كأنه نور المصباح لعينين اعتادتا الظلام دهورًا..

وفي المساء ذهبت لزيارة (مريضتي) فوجدتها على ما يرام...

لقد قمت ـ أنا (فرنر فرايمان) العظيم - بزرع رأس رجل في عنق امرأة.. وكلاهما يعمل بمريء واحد وقصبة هوائية واحدة ودورة دموية واحدة.. طبعًا ما زالت الجراحة حرجة، وما زالت المرأة عاجزة عن البلع وتتنفس بصعوبة بالغة، لكني رحت أمل أن يلتئم الجرح مع الأيام القادمة..

وكانت الأيام التالية بالفعل تفوق أكثر أحلامي جموحًا..

لقد بدأت الجراح تشفى.. وتوافد القوم ليروا هذه المعجزة، والتقطنا الكثير من الصور... بينما المرأة المسكينة لا تصدق ولا تفهم، ورأس اليهودي المتدلي على كتفيها ينظر لنا في حيرة وغباء..

هذه الجراحة نجحت من قبل مع الكلاب، لكنّها المرّة الأولى التي تُجرى فيها وتنجح مع البشر.

كان المشهد مريعًا لكني كنت فخورًا به.. وكنت أطرب حين يأكل كلاهما من طبق واحد.. أو يتبادلان بعض العبارات بلغة (اليديش) التي يتكلمها اليهود.. لقد ارتبط مصيرهما للأبد، وهو نوع غريب حقًّا من الزواج..

كانت المرأة تردد عبارات بلغتها الغجرية كلما رأتني، ولم أفهم ما تقول لكني أدركت أنه نوع من السباب.. أما الرجل فكان يبكي كثيرًا جدًّا.. وقد اعتاد أن ينام على كتفها لأن وضعه الجانبي لا يسمح له بأي وضع آخر، وأعتقد أنها كانت تشفق عليه لأنهّا كانت تضع كوب الماء أمام شفتيه، وتطعمه من حين لآخر.. إنّه تحت رحمتها لأنّه بلاجسد على الإطلاق.. وأعتقد كذلك أنها كانت تخشى أن يموت.. لا أحد يحبّ أن يموت جزء من جسده الخاص.. ولو حدث هذا لتصرفنا كما يتصرّف الجراح عند حدوث غنغرينا في الجسد.. كنا سنستأصل الرأس كي تعيش المرأة.. لكن أحسبنا ما كنا لنتجشم هذه المشقة..

إن أهميّة هذين لا تخرج عن كونهما أعجوبة.. وصاحب السيرك لا يترك سبيلًا للعناية بنماذجه النادرة لأنهّا مصدر فخره... كنت أمضي الساعات أراقبهما وأدرس سلوكهما، وألتقط عشرات الصور..

كنت أنا الآن النجم المتوج وسط أطباء (أوشفيتز)، وجاءتني تهنئة موقعة من (هملر) ملأتني فخرًا وتيهًا، وقررت أن أجري هذه التجربة على نطاق أوسع.. لربما تمكنت بشيء من البراعة والحظّ من زرع ثلاث رءوس أو أكثر.. لم لا؟

وهكذا اجتمعنا في مكتب المدير، وطرحت عليه اقتراحاتي، بينما دارت الأنخاب وغنينا (ألمانيا فوق الجميع)، لكن (منجيل) انتحى بي جانبًا وقال لي:

- «لا أريد أن أثير توترك.. لكني أريد أن تحرق كل شيء يختص بهذه التجربة..»

صحت محتجًا:

- «أوه.. لن نعود إلى هذا..»

- «الأمر لا مزاح فيه.. إن السوفييت قادمون.. ومن الواضح أن بولندا ستطير من قبضة الرايخ!!»

كان هذا أسوأ خبر سمعته في حياتي..

معنى هذا ببساطة أن كل ما قمت به هنا سيضيع..

- «بل أسوأ من هذا..» - قال (منجيل) - «لسوف يعاملوننا كمجرمي حرب يوم نقع في أيديهم..»

- «نحن لسنا مجرمي حرب.. نحن علماء!»

- «قل لهم هذا وهم يستخرجون بقايا مواطنيهم من حفر الموت الجماعي..»

اعتصرت كأسي في عصبية، وقلت:

- «والعمل؟ هل لديك خطة محددة؟»

- «لقد أعددت العدة للفرار..»

قالها وابتعد مما قضى على أي اعتقاد ساذج لدي أنه يلهو بي..

ووجدت نفسي في مأزق.. لو جاء السوفييت ووجدوا هذا المسخ الذي أنتجته تجاربي فما المصير؟ لن يكون أقل سوءًا من مصير هذا المسخ.. وفي اليومين التاليين أدركت أن (أوشفيتز) بالفعل يشهد عملية إخلاء واسعة النطاق، وتم تحميل آلاف الأسرى إلى القطارات متجهين إلى ألمانيا ذاتها..

طبعًا في ظروف كهذه بدا أن الجميع لا يعبأ بي.. فلينج كل بنفسه.. وليتحمل كل مسئولياته الخاصّة، وعرفت أن الوقت قد حان حين تبخر (منجيل) نفسه في الصباح، ولم يعرف أحد إلى أين ذهب..

هكذا اتخذت قراري..

هكذا اتجهت إلى غرفتي فحرقت كل أوراقي والصور..

بقي شيء واحد فقط عليَّ أن أتخلص من آثاره...

بحثت عن الكيروسين، ووجدت عود ثقاب مستعدًا للعمل، واتجهت أنا واثنان من رجال العاصفة إلى العنبر الخاص الذي احتفظنا فيه بالمسخ إياه..

بعد دقائق كانت ألسنة اللهب تتعالى، وكان الدخان الأسود يتصاعد إلى عنان السماء، وكنت أنا في طريقي للهرب..

☆ ☆ ☆

ما إن انطلقت بسيارتي الجيب مبتعدًا عن المعسكر حتى راحت الطلقات تنهمر على السيارة.. حقًّا لم أدرك من قبل كم أن السوفييت قريبون.. ولم أدرك من قبل كم هم بارعون في التصويب..

كنت أنزف من ساقي.. ثمّة طلقة اخترقت السيارة وإن كنت لم أدر متى اخترقتها..

لن أتمكن من الابتعاد.. إن حالة ساقي لن تسمح لي بالقيادة أكثر من هذا..

أوقفت السيارة على جانب الطريق، ورحت أنظر حولي.. كان النهر يترقرق من بعيد، وخلفي رأيت محجرًا مهجورًا يبدو أن عمالنا كانوا يعملون فيه منذ أيام.. حقًّا لم يستغرق الأمر أكثر من أيام...

قررت أن أتواري هنا بعض الوقت إلى أن أجد إحدى سياراتنا الفارة من زحف السوفييت..

توغلت في المدخل، وتركت نفسي أنزلق على الصخور الحادة التي تلوثت بالكثير جدًا من دمي..

وفي النهاية هأنذا أرقد على أرضيّة المحجر كاتمًا أنفاسي، وفي يدي المسدس بانتظار أول قادم.. لن أطلق عليه الرصاص لأن ذخيرتي لن تكفي.. ستكون الرصاصة من نصيبي أنا ولن ينالوني حيًّا...

كان دمي ينزف بعنف.. ولم أفهم أنّ هذا المحجر المهجور لم يكن سوى ثغرة.. الثغرة الوحيدة في بولندا ربما.. وقد دخلتها ونزفت دمي فيها لأنني المختار.. لا بد من حكمة لهذه المصادفة.. إن قدمي وحدهما لم تجلباني هنا، بل كانت قوىً أكبر مني وأعسر على فهمي..

ولم أدر متى غبت عن الوعي أم تراني نمت؟

☆ ☆ ☆

فقط حين أفقت من نومي أم من إغماءتي وجدت نفسي هنا.. في جانب النجوم..

أقف أمام السادة وأعترف: ما كانت الأرض لتعرف أشر مني في أعوامها الطويلة المفعمة بالشقاء والفظائع..

☆ ☆ ☆

فرغ النازي العجوز من سرد قصته، ووقف ينتظر رأى الوحوش الجالسة من حولنا..

كان الدخان الأسود يتصاعد من أكثرهم، وهي - كما تعلّمت - علامة على الرضا، وكان هناك واحد من الطراز الذي بلا عينين على الإطلاق، لكن له مخًا أخطبوطيًا لزجًا يتسرب على جوانب وجهه من حين لآخر، كي يلمع في جشع، ويبدو أنّ هذه كانت طريقته في النظر إلى ما حوله.. كان اسم هذا الشيء (داركون الجيلي) نسبة ـ فيما يبدو - إلى أسكتلندا، وليس إلى الجيللي إن كان شيء كهذا قد خطر لكم..

قال (دراكون) وهو يهتز:

- «بدا لي أنه ما من قصة قد تفوق هذه.. إن الأرضي منا، ومكانه الحق بيننا..»

قال (سيجفريد الأميدي):

- «كان ليبلغ مرتبة الكمال، لكنه ما زال عنها قصيًا.. اختار الطب مهنة.. وهو في هذا أراد يومًا أن يداوي الفانين مثله.. وكان بوسعه أن يعذبهم أكثر ولكنّه لم يفعل.. أرى يا إخوان أن نستمع لقصة الثاني من الفنانين..»

هنا بدا على الألماني الغباء ممزوجًا بخيبة الأمل، وتلفت حوله صائحًا:

- «إذن أنا خسرت؟ كيف أخسر؟ مستحيل أن أخسر!»

قلت له في ضيق (فأنا أكره الغباء حتى هنا):

- «لم تخسر يا دكتور.. مازال عليك الانتظار حتى تسمع بقية القصص.. وإن كنت أشك في أن يوجد من يتفوق عليك... لو كنت مكانهم لجعلتك تربح وانتهينا...»

هناك أناس مستعدون لأي شيء كي يبقوا أحياء، حتى لو كانت الحياة كمسخ وسط هؤلاء المسوخ.. أية حياة هذه؟ إن الموت أفضل بكثير، لكن هل يسمحون لي بخدمة بسيطة كهذه؟

هنا تقدم أحد الشابين ـ الأصغر سنًا ـ إلى الأمام وقال بلهجة من يريد إنهاء الأمر سريعًا:

- «أنا (جون بارتريدج) يا سادة.. من إنجلترا.. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأ الإنجليزي يحكى قصته..

☆ ☆ ☆

- ١ -

«ابتعدوا عن البئر الجافة..»

كانت هذه هي العبارة التي قلما لم يسمعها طفل في قريتنا.. كانت قرية صغيرة منسية في شمال البلاد، وبالتأكيد لم يأت منها رجل شهير أو ناجح إلى حد تخليد اسمها..

كنا أطفالًا شياطين لانترك حجرًا إلا قلبناه، ولا قطًا إلا شددنا ذيله، ولا نافذة إلا كسرناها بحجر..

كنا في كل مكان.. الإزعاج الدائم للجميع، والتعبير الصادق عن مقولة: إن الأطفال لانفع منهم على الإطلاق إلا التدمير.. لكننا برغم هذا لم نجسر قط على الدنو من البئر..

لقد اكتسب من كلمات أبائنا معنى مخيفًا مجسدًا لا يمكن تجاهله حتى لأكثرنا تمردًا وثورية..

وفي طفولتنا جرؤ أحمق واحد على خرق هذه القواعد.. كان صبيًا نسيت اسمه الآن، لكن وجهه كان مليئًا بالنمش، وكان له أنف يسيل دائمًا.. هذا ما أذكره عنه، ولا تنس أنّ هذا الكلام كان منذ عشرين عامًا تقريبًا..

نعرف فقط أنه راح يلعب عند البئر.. نعرف فقط أننا تركناه هناك لأن الليل قد جاء، ولأننا كنا خائفين.. ولأنه لم يصغ لنا حين طلبنا منه الابتعاد..

وفي الثامنة مساء دوّت صرخة هائلة من الطراز الذي يجمد الدم في عروقك، ويجعلك غير قادر على الوقوف.. لا بد من أن تجلس.. وقد جلسنا.. وعرفنا على الفور أنها صرخته..

ماذا دهاه؟ لا نعرف..

وعرفنا في الصباح أنّ بعض الرجال حملوا كشافاتهم ومصابيحهم وذهبوا إلى مصدر الصرخة... وكان البئر كما هو لكنه لم يعد جافًا.. عرفنا فيما بعد أن الدماء كانت تملؤه.. دماء لا يمكن لإنسان مهما بلغ حجمه أن يأتي بكمية هائلة مثلها، إلى درجة أن يملأ بئرًا..

قال الرجال العالمون ببواطن الأمور إن صديقنا خالف تعليماتهم... قالوا إنّهِ راح يلعب عند ثغر الشياطين.. والكلمة مستحدثة لم يطلقوها على البئر من قبل.. لكنها صارت اسمًا مناسبًا جدًا من حينها..

وأخبرتنا الجدات جوار المدفأة ليلًا أن البئر ـ أو ثغر الشياطين - هو بوابة.. بوابة غريبة الشأن حقًّا تقود إلى عالم غريب شرير.. وأحيانًا ينجح أحد الكائنات الغريبة الشيطانية في عبور هذه

البوابة ويصل إلى عالمنا.. وعندها تبدأ الأهوال..

- «ولماذا لا تسدون هذه الثغرة؟»

- «لأن من يجسر على هذا يلق نهايته فورًا.. إن لدينا قصصًا شنيعة لكنّها لا تصلح للأطفال..»

وكنا نصمت.. نتخيل.. ننام.. ننسى..

☆ ☆ ☆

صرت مراهقًا..

لم تكن مراهقة هادئة تلك التي عشتها فأنتم لم تلاحظوا أن في ساقي عرجًا.. عرجًا خفيفًا.. ثمّة ساق أطول بضعة ملليمترات من الأخرى.. لكن هذا بالنسبة للمراهقين مصدر تعذيب دائم لهم...

إنها سن وساوس الرجولة، والحاجة إلى أن تكون أقوى.. سن مصارعات الشباب على الكلأ ومسابقات العدو في الغابة.. من الجلي هنا أنني لم أفز قط بمسابقة من هذه المسابقات..

إنها سن الميل إلى الفتيات ومحاولة الفوز بما تعتقد أنه حقك المشروع في الحب.. لكن من الجلي أن أية فتاة لم تهتم بي، حتى بين فتيات القرية غير المعروفات بالجمال...

إنها سن أن تكون مفيدًا.. تحاول أن تعمل وتساعد الآخرين.. لكني لم أستطع قط أن أساعد أحدًا.. كنت بحاجة دومًا إلى من يساعدني..

وجاء اليوم الذي اصطدمت فيه بـ (جيمي الخطاف)، وهو بلطجي صغير من بلطجية القرية الساديين، الذين يكرهون أن يمرّ يوم من دون تعذيبي أو مضايقتي.. وقد آذيته جيدًا.. آذيته بقوّة وخمشت وجهه وعضضته.. لكنه في النهاية لقنني علقة ساخنة ودرسًا قاسيًا، خاصة أن العض والخمش جعلاه أكثر عصبية وتوحشًا..

وفي النهاية رحت أركض على ساقي السليمة، محاولًا الفرار منه ومن عصابته..

خرجت من القرية.. كانوا خلفي..

ركضت عبر الطريق الترابي الذي يقود إلى المزرعة المهجورة.. كانوا خلفي..

وفي النهاية وصلت إلى البئر الجافة، وكان الظلام قد حل..

وأدركت أنهم لن يفكروا أنني هنا... فقط على أن أنتظر وقتًا أطول، وسرعان ما يعودون أدراجهم..

☆ ☆ ☆

مر الوقت.. الظلام والبرد والخوف..

لكني لم أكن خائفًا من البئر ولا ما فيه من كائنات عجيبة لو وجدت.. إن الشر أكثر هولًا وأشد خطرًا بما لا يقاس...

ولهذا لم أخف كثيرًا حين سمعت صوت الأنين..

كان قادمًا من البئر بلا شك.. والغريب فيه أنه لم يكن أنين إنسان على الإطلاق.. كان أنين حيوان مسعور.. كأنين ذئب جريح.. وقد قررت على الفور أنه لا يوجد سوى شيء واحد يمكن أن يصدر صوت ذئب جريح.. إنّه ذئب جريح لا أكثر ولا أقل..

ودنوت من الحافة أكثر ونظرت..

برغم الظلام استطعت أن أميز ما يحدث هناك.. وقف شعر رأسي..

لم تكن الجدات مخرفات بصدد البئر.. لم يكن مخرفات على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان هذا الشيء يحاول الخروج من البئر..

استطعت أن أرى عيونه الأربع النارية تتوهج في الظلام، بينما أشياء لا أدري ما هي تتمسك بجدران البئر من الداخل.. فهمت على الأقل أنه شيء هلامي منزلق.. وأن له أطرافًا مثل الأخطبوط..

لا أدري لماذا لم أجر مبتعدًا.. لقد وقفت كالمسحور أرمق ما يحدث، وقلت لنفسي: إنني لو رحلت فلن أعرف أبدًا ما كان هذا الشيء..

- «سـ.. ا عـ... د... نـ.... ي ي!!»

كان هذا هو الصوت الذي خرج منه ممزوجًا بالأنين والعواء.. صوت رغوي غريب جدير بأن يصدر من كتلة الهلام هذه.. ولم أكن أعرف كيف أعين كتل الهلام، لهذا وقفت مرتجفًا عاجزًا عن رد الفعل..

- «سـ.. ا عـ... د... نـ... ي ي!! ولسوف أكسبـ... ك.. القـ... وة!!»

لسبب ما فهمت أنه صادق.. كائن كهذا بالتأكيد يعرف ما يتكلم عنه..

- «كيف.. كيف أساعدك؟»

- «لحم آدمي! لحم آدمي!»

سرني هذا.. على الأقل هو ليس الشيطان يبغى روحي.. لست متدينًا لكني أعرف أن بيع الروح للشيطان خطيئة.. أمّا هذا فهو مجرد غول.. غول أحمق يبغي لحمًا..

عرفت كذلك على الفور أنه قادم على الفور من ذلك العالم المخيف الذي تحدّثت عنه الجدات.. العالم الذي تسكنه المسوخ والغيلان.. وهو جدير بحق بأن يكون منهم.. من الواضح أنه استهلك قواه في عبور الثغرة، ومن الواضح أنه بحاجة إلى الغذاء كي يأخذ الخطوة الأخيرة..

قلت له وأنا أتراجع كي لا يبلغنى بمساته:

- «لحظة.. كيف أضمن أنك لن تبدأ بالتهامي لو ساعدتك؟»

عاد الصوت اللزج يتردد:

- «لك عهدي ي ي ي.. لك عهدي ي ي ي!»

- «وماذا أعرف أنا عن عهود المسوخ مثلك؟»

- «سـ...ا.. عـ... نـ... ي ي!! ولسوف أكسبـ... ك... القـ... وة!!»

كان الأمر مسليًا.. فهذا الكيان المخيف الذي يملأ البئر تحت رحمتي تمامًا.. وقررت أن ألعب اللعبة حتى أشعر بالخطر.. عندها سأفر وأجلب الرجال، ولسوف نشعل نارًا في البئر وما حولها..

ولكن كيف أجد له لحمًا بشريًا؟ هذه الأشياء لا تباع لدى القصاب..

هنا جاء الجواب..

سمعت صوت العصابة إياها يفتشون عني في المزرعة المهجورة، وسمعت صوت (جيمي الخطاف) يقول لرفاقه:

- «حل الظلام، وهو لن ياتي هنا.. إنّه جبان رعديد...»

- «لكن لا يمكن ألا يكون هنا.. نحن لم نره يرجع إلى القرية..»

كان قراري واضحًا والخطة لا ثغرات فيها...

بحثت حولي حتى وجدت حبلًا غليظًا.. وفي الظلام هرعت أربطة إلى جذع شجرة دانية، ثم هرعت إلى مكان قريب من البئر، ووقفت هناك.. أخذت نفسًا عميقًا وصحت:

- «هييه! يا (خطاف)! تعال واظفر بقطعة مني لو جرؤت!»

سمعت صوت السباب في الظلام، ثم ظهرت الكشافات.. وصاح (جيمي) في رفاقة:

- «إنّه هنا! سيندم على أنه لم يولد ميتًا!»

وسمعتهم قادمون.. نظرت إلى البئر المظلم الذي كان الآن قطعة من السواد.. يجب أن تعمل هذه الخُطة.. يجب..

وظهر الفتيان.. كانوا خمسة، وكانوا يحملون الكشافات، وصاح (جيمي) حين رآني:

- «أنت أيها الأعرج.. ستدفع ثمن لعبك دور الشجعان!»

وتقدم الفتيان..

في اللحظة التالية جذبت الحبل الذي لم يروه في الظلام، وتعثر ثلاثة منهم على الأرض، فوثبت من مكاني وهويت على رءوسهم بجذع شجرة، وقبل أن يفهم (جيمي) ما يحدث بالضبط رفعته من قدميه وتركته ينزلق إلى البئر..

لم يدر أحد ما حدث.. فهو لم يصرخ.. فقط تناثرت بعض قطرات الدم، ودوي صوت كائن عملاق يتجشأ في غلظة.. ثم عاد الصوت في انتشاء:

- «إليَّ بالمزيد !! إليَّ بالمزيد !!»

تصلب الفتيان جميعًا وراحوا ينظرون إلى البئر في غباء.. ثلاثة منهم على الأرض وواحد يقف مفتوح الساقين، كأنما فيلم سينمائي تم إيقافه عند لقطة بعينها.. وصاح أحدهم:

- «ما هذا؟ ما الذي يوجد هناك؟»

لم أترك له فرصة الفهم.. وقذفت بنفسي عليه ليسقط رأسه في البئر، وهذه المرّة استطعت أن أرى أحد الممسات الرهيبة يمتد لينغرس في محجري جمجمته، ولم يصرخ طبعًا..

ومسحت قطرات الدم التي تناثرت على وجهي ونظرت اللباقين، لكن الغول كان قد ازداد نشاطًا وحماسة.. ومن البئر خرجت ثلاثة ممسات - كأنها الأفاعي - ليحيط كل منها بساقي واحد من هؤلاء.. وسرعان ما كانوا يجرون إلى البئر جرا، بينما هم يملئون الدنيا صراخًا.. وتناثر المزيد من الدم..

ساد الصمت أخيرًا..

كنت أنا الآن واقفًا أرتجف، وقد فقدت تمامًا التحكم في ساقي اليسرى التي راحت تهتز كذيل الأفعى ذات الجرس.. وأدركت أن ما يسيل من سروالي ليس دمًا..

كان صوت المضغ والابتلاع لا يصدّق.. لا يصدّق ولا يتحمل..

وجدت الشجاعة كي أسأل سؤالًا واحدًا:

- «من أنت؟»

- «أنا (بيزار الأنتاسي) سيد الظلام.. الذي يأتي قبل الجموع..»

ثم جاء الأمر الرهيب الذي كنت أتوقعه على كل حال:

- «مازلت واهنًا أيها الفاني.. اذهب وآتني بالمزيد.. ويوم أخرج من هنا سأكافئك..»

- «وإن لم أجد يا سيدي (الأنتاسي)؟»

- «عندها سأجيئ إليك أنا، وستكون وجبتي.. لا أحد يفر من (بيزار الأنتاسي).. لا أحد..»

وهكذا رحت أركض كالمخبول نحو القرية، وعدت الفراشي مهمومًا.. لا أدري لماذا تذكرت موقف الصبي الذي وجد نفسه متورطًا مع السجين الهارب في قصة (ديكنز) (توقعات عظيمة).. لكن موقف الصبي كان أفضل بكثير.. لم يكن مطلوبًا منه سوى سرقة الطعام وتقديمه للسجين.. طعام من نوعية الخبز واللحم، أمّا أنا فكان على أن أقدم اللحم البشري لمسخ قادم من الجحيم..

وتمنيت أن أموت فلا أصحو..

لكني صحوت في الصباح برغم كل شيء، وسمعت أن الرجال خرجوا يبحثون عن الفتيان المختفين.. إن المراهقين يذهبون لأي مكان لأي فترة من الوقت.. ويعودون حين تحسبهم لن يعودوا أبدًا.. هذا ما قاله رجال الشرطة، وهم ينقبون في كل ركن من القرية..

بل إنهم فحصوا البئر! نعم فحصوه فلم يجدوا ما يريب..

وبدأت أعتقد أنني كنت أهذي أمس لا أكثر..

لكن جزءًا في عقلي قال لي إنني محق.. وحين قصدت البئر لألقي نظرة أدركت أنني كنت محقًا بالفعل.. لقد كان (بيزار) يلتصق بجدران البئر وقد تحول إلى مادة لزجة كالغراء، لا يراها كل من ينظر في البئر، لكني رأيته ورأيت العينين المتقدتين في الظلام، وسمعته يقول بصوته المريع الغروي:

- «إليَّ بالمزيد أيها الفاني!! إليَّ بالمزيد!!»

والحقيقة أن شيئًا ما بدأ يطرأ عليَّ في هذا اليوم.. لقد بدأ العرج يزول عني، وحين تأملت وجهي في المرأة وجدت أنني اكتسبت سحرًا خاصًا لا شك فيه.. السر هو النظرة.. النظرة الواثقة الهادئة في العينين.. وذلك الطابع العام برجولة رجل رأى كل شيء وعرف الكثير، وليست لديه أية رغبة في الجعجعة..

قلت لنفسي: هذا طبيعي.. ومن حقي بعد ارتكاب كل هذه الجرائم أن أكون جميلًا!

ومن يومها بدأت أمارس دورًا غريبًا بعض الشيء.. كنت أقتاد رفاقي ومن هم في سني إلى البئر.. نحن في سن تحب التحدي وتعشق خرق القواعد التي استنها الكبار.. أراهن على أنك تخاف البئر الجافة يا (توماس).. من قال هذا؟ إذن دعنا نذهب هناك هذه الليلة..

ويذهب معي (توماس) أو (جين) إلى البئر، وهناك ينحني ليلقي نظرة، فأدفعه دفعًا ليسقط فيه.. وأغمض عيني لكني أشعر بالدم يتناثر، وأسمع صوت القضم والبلع والازدراد..

مرت ثلاثة أشهر التهم فيها الوغد ثلاثة آخرين بعد وجبته الخماسية الأولى... من الجلي أنه لا يشبع أبدًا.. متى يجد القوة ليغادر البئر؟ لن أجد طعامًا له للأبد، ونحن في قرية صغيرة، ولن يمرّ شهر آخر إلا ويتسرب الخبر الكريه: كل من اختفوا شوهدوا متجهين للبئر مع الفتى (بارتريدج)..

لكني كنت كذلك أخشى لحظة خروجه إلى عالمنا.. كيف يمكن إيقاف وحش كهذا؟ وأنا؟ هل يفي بعهده معي؟ لو كانت الغيلان تفي بوعودها دائمًا لكان من حقي أن أطمئن!

- «إليَّ بالمزيد!! إليَّ بالمزيد!!»

وجاء اليوم المحتوم الذي لم أستطع أن أجد فيه من يخرج معي إلى البئر.. لقد ساد الذعر القرية وغدت حركتي محدودة جدًا، وكنت أعرف أن كل الوافدين الجدد على القرية ليسوا إلا مخبرين سريين يراقبون كل شيء..

كان الضغط العصبي قد بلغ ذروته لديَّ، حتى إنني لم أعد أهاب الموت.. لم أعد أهاب الغول في البئر.. أريد أن أنام ملء جفوني بلا هموم تنتظرني في الصباح الجديد.. أنام ملء جفوني في فراشي أو في قبري.. لا يهم..

وذهبت إليه في البئر ذات مساء، وقلت له:

- «حان الوقت لتغادر البئر يا سيدي..»

- «أنت لا تحدد لي متى ولا كيف أيها الفاني..»

- «سوف يجدونك سريعًا..»

- «لن يكون هذا خيرًا لهم.. اذهب وجئني بالمزيد..»

- «لم يعد هذا سهلًا..»

هنا ارتفع ممس من ممساته خارجًا من البئر، وصفعني على خدي صفعة جعلت الدماء تسيل مدرارًا.. وبدأت القطرات تتساقط على حافة البئر، وأنا أحاول جاهدًا منعها بمنديلي..

قلت له في غيظ وأنا أتأمل المنديل الملوث:

- «يُمكنك أن تقتلني.. لكني عاجز عن إيجاد ضحية أخرى..»

- «أنت لم تحاول بما فيه الكفاية..»

- «يُمكنك أن تقتلني.. أنا أكرر ما قلت.. لقد هددتني إن أنا لم أجلب لك المزيد من الضحايا أن أكون وجبتك التالية.. وأعترف لك أنني سئمت كل هذا الذعر والهلع.. يُمكنك أن تقتلني الآن وسأكون لك شاكرًا..»

دوى الصوت الغليظ من البئر:

- «أنا وعدتك أيها الفاني براحة الموت لو لم تحقق مطالبي؟»

- «هذا ما قلته لي.. كان وعيدًا لكني الآن أراه وعدًا.. وعدًا بهيجًا!»

- «لقد كذبت عليك!!»

ولم أدر متى ولا كيف هوى الممس عليَّ، فوجدت نفسي أهوي إلى البئر وأنا أصرخ..

ولم أدر كيف ولا متي غبت عن الوعي، لكني قلت لنفسي إن هذه هي النهاية.. لقد أن لي أن أستريح أخيرًا..

☆ ☆ ☆

وفتحت عيني أخيرًا لكن لأجد نفسي هنا.. أمام هذه المحكمة..

لقد اختار لي الغول في البئر نهاية أقسى وأبشع بكثير من الموت الفوري..

وإنني أعترف لكم يا سادة جانب النجوم أنني كنت أشر الأشرار، وأسلمت أعز أصدقائي لهذا الشيء القابع في البئر يغلي ويمور...

☆ ☆ ☆

لما انتهت القصة، ساد الصمت بعض الوقت.. ثم تمطى (سيجفريد الأميدي)..

هنا رأيت ظاهرة بيولوجية غريبة بعض الشيء، ولم تكن مما يريح النفس.. لقد خرج من صدره وهو يتمطى كيانًا هلاميًا غريبًا يذكرك بقنديل البحر، راح يزحف مبتعدًا، لكنه ـ (الأميدي) ـ انقض عليه ليلتهمه في ثانية واحدة.. هؤلاء القوم إذن من الطراز الذي يلتهم أطرافه التي تقرر الفرار..

قال بعدها بصوته الغروي الرغوي:

- «أرى أنّ هناك الكثير من الشر في القصة.. لكنه كان مرغمًا كي ينقذ حياته الخاصّة.. وبرغم كل شيء لا أجده بلغ القمة في غيه..»

- «ما زال أمام البشر الكثير كي يتعلموه!! لكن الأعشاب لا تغدو أشجارًا مهما تعلّمت فنون النماء!»

نظرت ونظر الجميع إلى مصدر الصوت، فوجدنا رجلًا فارع القامة منظره أقرب إلى البشر يتقدم وسط الفراغ الأزرق.. كل شيء فيه كان أسود.. شعره.. عيناه.. ثيابه.. أفكاره.. قلادته الذهبية العملاقة على صدره والخواتم الماسية في أنامله..

صوت البربر الحنجري، والنبرات الواثقة التي تحمل طابع شرق أوروبا..

لو لم يكن الدكتور (لوسيفر) هنا فأين يكون؟

مشى في تؤدة إلى المنصة، وكان صغير الحجم رقيقًا - ربما وسيمًا - بالنسبة لهذه الغيلان المخيفة، لكن من الواضح أن تأثيره نافذ وأن له هيبة ومكانة عظيمتين هاهنا..

التفت إلى الوراء فالتقت عينانا.. هزّ رأسه هزة مجاملة مهذبة، وابتسم ابتسامة جانبية.. ومن الغريب أنني حييته كذلك بحكم العادة، كأنه صديق لي قابلته في القطار..

قال وهو يفرك كفيه المغطيتين بقفازين:

- «ماذا أرى؟ ماذا أرى؟ إن لم يكن هذا هو الدكتور (إسماعيل) بشحمه ولحمه القليلين.. إنّه ضيفي.. به أسعد وله قلبي يطرب.. يبدو أننا سنمرح كثيرًا هنا.. كما اعتاد السادة أن يمرحوا!»

قلت له وأنا برغم كل شيء أشعر ببعض الألفة لوجوده على طريقة (إللي تعرفه..):

- «قل لي.. أين نحن وما معنى هذا كله؟»

- «أنت كما قيل لك بلازيادة ولا نقصان.. أنت في جانب النجوم.. تخاطب سادة النجوم.. وعليك أن تثبت أن لك قلبًا أشر من الشر.. إن للنجاة ثمنًا..»

- «وماذا أتي بي هاهنا؟»

- «أتى بك حظك العاثر، وأنت أدرى منا بحظك العاثر.. ربما كانت هناك مسحة إيحاء من صديق قديم.. هل تذكر العجوز الذي اصطحبته في سيارتك؟ ربما لم يكن عجوزًا.. ولربما كان هو الرجل.. ورهاني كان أنك من بعدي تدخل الثغرة... ورهاني كان أنك تدمي نفسك.. ورهاني كان أنك تنام هناك.. لقد تركت لك الأفكار، وتركتك تفعل..»

صحت في رعب:

- «كنت أنت مسافر الليل؟ إذن هو كمين! لا أكثر ولا أقل!»

قال بصوته البيري الذي يجعلك ترغب في سماع المزيد منه:

- «بل هي دعوة إلى حفل.. وفي الحفلات نلتقي دومًا.. حفل في (نيويورك) وحفل في (هالماجيو) وحفل في جانب النجوم.. د. (لوسيفر) لا ينسى أصدقاءه القدامى، حتى وإن كان في هذا ضعف بشري.. أي ضعف..»

- «والمطلوب مني؟ أنت تعرف أنني لم أقترف شرًا أخطر من سرقة المربى من مطبخ خالي..»

ضحك ضحكة عالية لكنّها بلاصوت على الإطلاق، وقال وهو يجلس في الفراغ:

- «حقًّا ما من بشري يحسب أنه ليس طاهر الذيل كالأطفال.. ربما أخطأت يا دكتور (إسماعيل)، وربما كانت خطاياك أفظع من خطايا هؤلاء.. أنت لا تعرف نفسك.. لكن الخطأ الأول أن تقول في تبجح الفانين: أنا لم أخطئ..»

ثم تركني أفكر في معنى كلماته، ووجه الكلام إلى رفاقي في هذه المحاكمة:

- «فليتكلم من عليه أن يتكلم.. وليصمت من عليه أن يصمت!»

كان من الواضح أن سلطته نافذة هنا.. كأنه مدرب السيرك الذي يتعامل مع الوحوش التي يفوق حجمها حجمه عدة مرات.. وتقدمت الفتاة ذات اللهجة الفرنسية، وكانت جميلة بحق لكن من الواضح طبعًا أنها لا تملك قلب طفل... فوقفت أمام المحكمة، وقالت:

- «أنا (بياتريس لوبير).. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدئي السرد أيتها الفانية.. ولتعلمي أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأت تحكي قصتها..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قالت (بياتريس لوبير): حين يغدو الدم في كل مكان، لا تضير بعض قطرات أخرى!

☆ ☆ ☆

العام 1789..

(باريس) كلها تغلي بالثورة، وبداية خيط الأحداث الدامي الذي قاد إلى إعدام الملك (لويس السادس عشر) والملكة (ماري أنطوانيت)..

كان الغضب في كل مكان من شوارع العاصمة المنهكة التي أدماها الفقر والحقد على النبلاء.. وكانت بذور الشر تغرس في كل مكان ضدّ ملوك البوربون، مع تهديد واضح بالانتشار في كل بقاع أوروبا.. وكانت الثورة الفرنسية هي كابوس الملوك في كل بقاع القارة..

كنت أنا وقتها فتاة تبيع الزهور في شوارع المدينة.. لم يكن هناك من يريد الزهور، ولا أحد يملك المال الكافي إلا للطعام.. أقل الطعام، لكن الناس كانوا يشترون مني لأنني حسناء.. وليس بوسع الرجال أن يقاوموا شراء أي شيء تعرضه عليهم فتاة حسناء..

كنت أبيع الخبز في السابق، ثم بعت اللبن بعض الوقت، ثم جاء دور الزهور.. ولم يزدد الدخل أو ينخفض كثيرًا.. فلو أنني جبت الشوارع بحجارة لبعت منها يوميًا ما يقيم أودي.

حياتنا نحن الهوام لاتتغير.. فقط يدخلها بعض التشويق وبعض الإثارة من حين لآخر.

أذكر يوم هدم العامة سجن الباستيل... كنت أرى جموعهم في الشوارع وهم يتصايحون ويهللون، ثم سمعت صوت الرصاص، وبعدها دوى صوت مدفع.. نعم.. عرفت بعدها أنهم ظفروا بمدفع وهاجموا به الحامية الصغيرة التي تحرس السجن.. وكان يومًا لا يمكن نسيانه.. رباه! أشياء كهذه تجعل الحياة أكثر جاذبية وقابلية للتحمل..

هنا يجب أن أعترف بشيء مهم...

أنا إنسانة باردة جدًّا.. لا تعترف لحظة بآلام الآخرين. لا أدري السبب ولا متى نشأت لدي هذه الخبرة.. فقط أذكر أنني كنت منذ الصغر قادرة بلا تردد على تحطيم عنق دجاجة أو خنق قطة.. لم أكن أهتز كالفتيات الحمقاوات حين أرى شخصًا ينزف أو طفلًا يدمع..

وحين تحمست للثورة المشتعلة في العاصمة، لم يكن هذا بسبب كبت طال، أو انحياز للفقراء الذين أنا منهم، ولكن كان هذا لأني توقعت أن أرى المزيد من العنف والدماء من حولي..

قاسية؟ ربما.. لكني أؤكد أن عواطف 60 بالمائة على الأقل من فقراء باريس كانت من هذا الطراز.. لم يكن الجميع ثوارًا وشهداء.. كان هناك عدد لا بأس به أحبوا الفرصة التي تمنحها لهم الأيام القادمة.. مزيد من التوحش والدماء وإطلاق غرائز العنف من عقالها..

متبلدة؟ لا... ليس إلى هذا الحد.. لأنني كنت في ذلك الوقت غارقة حتى الأذنين في قصة حب..

☆ ☆ ☆

كان اسمه (بيير)..

بالطبع هو وسيم قوي.. الرجل الذي أهيم به حبًا لا بد أن يكون وسيمًا قويًا..

كان خبازًا، وكان قد جاء من الريف من فترة قريبة.. وقد قابلته في المخبز، فأهداني رغيفًا ساخنًا وأهديته زهرة حمراء.. ومن يومها عرفنا أننا متحابان..

كان رقيقًا.. وما زلت لا أفهم سبب هذه الرقة في رجل يفترض منه الخشونة، بينما أنا الأنثى قادرة تمامًا على خنق كلب صغير دون أن أهتم بذلك..

اعتدنا اللقاء في غابة الكرز خلف المدينة، وتعاهدنا على أن نتزوج، وعلى أن نكون سعيدين.. لا أدري كيف، لكننا صممنا على هذا.. وكانت المدينة تغلي بعنف مما أشعرنا أن كل شيء ممكن في الأيام التالية..

ورحنا في استمتاع نراقب الأحداث المتصاعدة بلا هوادة..

السلطة تفلت بالتدريج من الملك و(دانتون) و(مارا) و(روبسبير) يسيطرون على كل شيء تقريبًا، بينما شارات الثورة مثلثة الألوان تنتشر في كل مكان..

وبدأ مشهد جديد مسل يستولي على ألبابنا..

العربات التي تجرها الخيول، يقف في مؤخرتها النبلاء الذاهبون إلى المقصلة، وهم يتجنبون نظراتنا في خزي.. بينما نصطف نحن على جانبي الطريق نقذفهم بالبيض والحجارة والسباب.. أذكر في مرة أن عربة كهذه مرّت بنا، ثم سقط من أحد النبلاء شيء ما في الوحل.. هرعت لأرى ما هو، فوجدتها وثيقة لم أعرف ما بها، لكني لمحت أسفلها توقيع الملك وخاتمه.. نظفتها ودسستها في صدري دون أن أعرف لماذا أفعل.. لكنّها بدت لي أثرًا نفيسًا..

كانت النساء يبكين، والرجال يتظاهرون بالتماسك، بينما نحن نخرج أعنف ما في أعماقنا من مقت وحقد.. ثم نهرع إلى الميدان العام، حيث يقف اختراع الدكتور (جيلوتين) الرهيب.. آلة الحصاد التي تم تحويلها إلى أداة لقطع الرءوس.. وكنا نتصايح ونهلل. بينما يتلو منفذ الحكم جرائم المحكوم عليه..

لم نكن نصغي لهذه الجرائم.. فهي لا تضيف شيئًا إلى الحقيقة التي نعرفها جميعًا... هذا النبيل يعدم لأنّه نبيل.. لأنّه ثرى ثيابه نظيفة ولم يعرف الجوع قط.. هذا سبب كاف والباقي تلفيق من (روبسبير) الجزار الذي يتفق ذوقه مع ذوقي..

ويضع النبيل رأسه في الفتحة ويهوى النصل الحاد، فنهلل جميعًا.. ويرفع الجلاد الرأس أمامنا - والأهم - أمام من ينتظرون دورهم..

قلت لكم إنها كانت من أجمل أيام حياتي! لكن هذه اللحظات كانت في سبيلها للنهاية.. لماذا؟

لقد ظهرت (ميشيل)..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

(ميشيل) كانت فتاة من الطراز الذي يصفه الرجال بالرقة وأصفه أنا بالموات..

كانت صانعة كعك جاءت إلى باريس أخيرًا، وقد عملت في المخبز الذي يعمل به (بيير).. وقد بدأت ألاحظ تغيرات عجيبة بعض الشيء.. في البدء صار يلاحقها بنظراته ثم بكلماته.. بعد هذا لم يعد يلحق بي في الغابة، أو يلحق بي ولكن بشكل غير منتظم..

سألته عن السبب فقال إنِّه مشغول، لكني ألححت عليه فقال:

- «لاشيء.. فقط أحسّ أحيانًا بالرعب من قسوتك.. من عدم مبالاتك بآلام الآخرين..»

صحت في حماسية لا بد أنها جعلتني فاتنة:

- «البلد كلها في ثورة يا (بيير).. كل شيء يغلي.. لعل هذا هو السبب الذي لم تعد تحضر معه عمليات الإعدام.. أتراك تجدها قسوة؟»

- «عمليات الإعدام قد تكون مهمّة.. وقد تكون هي القانون.. لكن حضورها ليس واجبًا عليَّ... إنني أقبلها كما يقبل المريض أن يجرع العقار المر.. لكن ليس عليَّ أن أطرب لها..»

وابتلع ريقه وتحاشى نظراتي وأردف:

- «وأنت ـ كما أرى - تطربين أشد الطرب لها»

- «آه!! و(ميشيل) هي الأخرى لا تطرب لها!»

قال في ضيق وهو يعود لعمله:

- «لا تتكلمي عن (ميشيل) بسوء.. فالفتاة أطهر من طفل.. إنها فقط لا تطيق آلام الآخرين..»

وجن جنوني فركلت العجين الذي وضعه في إناء جوار الفرن، وغادرت المكان وأقسمت ألا أراه ثانية..

في المساء أرسل لي رسالة مع غلام أجرب.. لم أكن بالطبع أعرف القراءة إن كان هو يعرف الكتابة، وقد اتجهت إلى جارنا الذي يعمل مع الشرطة بصاصًا... فقرأها لي وكانت هي ذاتها كلمات (بيير) لي في المخبز، وإن جعلها أكثر ترتيبًا.. وقال لي جاري:

- «أيتها الحسناء.. هذا زمن خطر.. وكلمات كهذه ليس من المحب أن يجدها أحد معك.. أقترح أن تتخلصي من هذه الوريقة سريعًا..»

قلت له وأنا أدسها في صدري:

- «لا تخف.. سأفعل..»..

☆ ☆ ☆

كان اسمه (بيير).. وكان اسمها (ميشيل)..

وقد راح صدري يعلو ويهبط من فرط انفعال وغيظ، وأنا أراقبهما من وراء شجرة الصفصاف، وقد جلسا قرب الجدول وراحا يتهامسان.. وكان يغني لها.. وأدركت أنهما سعيدان بالبعد عن الزحام المجنون.. عن الدماء ومواكب النبلاء المتجهة إلى المقصلة وصخب الوحوش مثلي...

وحين انتهى اللقاء واجهت (بيير) بما أعرفه.. هذه المرّة لم يتحدث عن الملائكة والأطفال... فقط أشاح بوجهه عني وقال:

- «آسف يا (بياتريس).. لا أحد يسيطر على قلبه.. وقد وجدت النصف الآخر منه لدى (ميشيل).. حين أحببتك انبهرت بجمالك ونسيت أن لك روح جلاد، بينما (ميشيل) قد لا تحمل وجهك الخلاب لكنّها تحمل روح قدّيس..»

انتهى الأمر.. لن أجادل كثيرًا.. أنا لن أتوسل له.. (بياتريس) لا تتوسل.. لقد فقدته وعليَّ أن أقبل هذا.. لكن من قال إنني سأقبله؟ إن الحب كعصير العنب سرعان ما يتلف ويستحيل خلًا لا يمكن شربه.. لقد رأيت هذا يحدث مرارًا.. أعنف الحب لا يصير إلا أعنف المقت وهذه طبائع الأشياء..

وفي المساء اتجهت إلى جارنا البصاص وقلت له:

- «أريد أن أذهب إلى المحكمة الثورية.. لدي ما أقوله لهم..»

كان يحبّ هذه الأمور، لذا راح يتقدمني في الطرقات، وصوت مركوبه الخشبي يضرب أحجار الطريق..

هناك كان الثوار جالسين يثملون، وعلم الجمهورية ثلاثي الألوان يتدلى فوق رءوسهم.. تقدمت من الزعيم، وقلت له إنني أريد الإبلاغ عن (بيير لافون) الخباز..

- «إنّه جاسوس للملكيين.. ولدي الدليل..»

ثم أخرجت الخطاب الذي أرسله لي (بيير)، وكان يقول فيه بوضوح إنّه لا يطيق ما صارت إليه الثورة من دموية.. وإنه لن يذهب ليرى الإعدام أبدًا..

قال الرجل وهو يتأمل الخطاب:

- «جميل يا حلوة.. لكن هذا كلام عام قد يقوله أي شخص مرهف الحس..»

هنا مددت له يدي بالخطاب الثاني الذي سقط من عربة النبلاء، وكنت قد جعلت أحد القوم يقرؤه لي.. وعرفت ما فيه.. وهكذا راح الرجل يقرأ بصوت عالٍ:

- «نحن (لويس السادس عشر) ملك فرنسا، نوصي كل رعايانا بالاهتمام بحامله نظرًا لكل ما قدمه لنا والملكية من خدمات جليلة.. ثم توقيع الملك وخاتمه..»

رفع الرجل عينيه المحتقنتين إلى الرجال، وهمس لي:

- «هذا خطير جدًّا.. أين وجدت هذا؟»

- «في المخبز.. إنّه يداريه تحت حجر كبير لكني سرقته منه..»

ونظر الرجل إلى أعوانه وهتف بلهجة آمرة:

- «اعتقلوا الخباز (ميشيل لافون) حالًا..»

- «وفتاة تدعى (ميشيل لاريف) كذلك... إنها جاسوسة معه!»

وهكذا تم الأمر.. كانت محاكمة صورية رأيت مثلها مرارًا.. تهريج لا أكثر.. ولم تكن لدى الفتى أية حجة ولم يصدّق أحد أنه لم ير صك الملك من قبل.. أمّا الفتاة فقد تطوعت بالشهادة بأنها جاسوسته.. كلاهما كان ينقل أخبار الثوار إلى الملكيين.. وكلاهما كان يضغط على أعصابه وهو يرى مواكب الإعدام اليومية..

وفي نفس الجلسة ونفس الساعة أصدرت المحكمة حكمها على الحبيبين بالإعدام.. فقدت الفتاة وعيها، على حين تماسك (بيير).. نظر لي بعينين من نار وقال ضاغطًا على أسنانه:

- «فلينتقم الله منك.. ولتكن دماؤنا البريئة وبالًا على رأسك..»

لكني لم أهتم..

وبعد ثلاثة أيام اتخذت مكاني وسط الجماهير.. كنت في أول الصف كي أرى بعيني انتقامي ينفذه حد المقصلة الرهيب.. هذا شعاري.. إما لي أو لن تكون لأحد..

وجاء الحبيبان.. وتمت العملية في سلاسة ويسر مما جعلني أنتشي من دون طلا.. لقد سال دم كثير، لكن ما أهميته جوار كل الدماء التي سالت من قبل؟ نحن في زمن مخيف يا رجال.. نحن في زمن مخيف!

☆ ☆ ☆

كان اسمه (بيير).. لكنه الآن لم يعد اسمًا.. وحين جاء المساء ذهبت إلى الغابة حيث اعتدنا اللقاء، وجلست وحدي.. هذه المرّة كان شيء من الندم يغمرني.. لماذا فعلت هذا؟ هل أنا حقًّا بهذه القسوة؟

ما زلت أحب نفسي وأحترمها.. ما زلت أشعر بأنني فقط إنسانة تعسة لم تؤت ظروفًا تناسب جمالها.. ولم تؤت روحًا تقبل ظروفها.. ولم تؤت حبيبًا يفهم روحها..

شعرت بأن الأحراش تتحرك من ورائي فارتجفت.. هل هي الريح؟

لا.. لا توجد ريح..

فقط كنت أراه قادمًا من خلفي يمسك بيده الفتاة.. وكلاهما من دون رأس.. وكان يقول لي من دون فم:

- «فلينتقم الله منك.. ولتكن دماؤنا البريئة وبالًا على رأسك..»

لم يكن هناك لكني شعرت به بقوّة.. أصابني الهلع فرحت أركض بين غصون الأشجار.. اصطدم غصن بوجهي فسال دم كثير.. لكني واصلت الجري..

فجأة.. تعثرت.. شعرت بالأرض تميد من تحت قدمي.. صرخت وأنا أنزلق لأسفل..

وفهمت أنني وقعت في حفرة غير ظاهرة..

فهمت هذا وأنا أنزلق وأفقد الوعي إثر ارتطام رأسي بالقاع..

وحين أفقت وجدت نفسي هنا أمامكم معشر سادة جانب النجوم.. ومن جديد وكما قال الآخرون: أشعر بأنني عن جدارة أستحق أن أفوز بالحياة وأستحق لقب أشر الفانين الذين جاءوا هنا..

☆ ☆ ☆

نظر (سيجفريد الأميدي) الرهيب إلى (لوسيفر) والدخان يتصاعد منه كعادته كلما رضي عن شيء.. وعوى (روكيان) و(فلاد) بينما راحت أوردة (يوليان) المغتصب تزحف على الأرض بحثًا عن شيء تشربه.. وقرب منه أحدهم دلوًا مليئًا بشيء أحمر - دماء غالبًا - فهوت الأوردة عليه وراحت ترشف ما بداخله في نهم.. كل هذا وصاحب الأوردة يتابع الكلام بلا احتفال بها..

قال (الأميدي) والدخان يزداد كثافة:

- «هذا شر خالص.. شر نقي قلما نراه في الفانين..»

قال د. (لوسيفر) وهو ما زال جالسًا يعبث في سلسلة عنقة الذهبية:

- «أنت تقول.. لكن فحواه ليست شرًا خالصًا.. ثمة هوى محبط.. والرغبة في الحب لا غبار عليها بالنسبة للفانين، ومن الوارد أن تغدو كراهية دموية.. أرى أن نستمع إلى القصة التالية..»

مقاطعًا سألته همسًا:

- «هل يعني هذا أن كل هؤلاء انتظروا كل هذا الزمن بانتظار أن أشرف أنا لتبدأ المحاكمات؟ إن الفتاة تحكي قصة وقعت منذ قرنين..»

- «لا وجود للماضي أو الحاضر أو المستقبل في جانب النجوم يا د. (إسماعيل).. الفتاة عاشت قصتها منذ قرنين لكنّها جاءت للمحاكمة فورًا.. هي تعرف أن لها هنا قرنين، لكنّها تعرف كذلك أنها حوكمت فور وصولها إلى جانب النجوم.. لا تناقض هناك! بل قل إن جانب النجوم هو التناقض ذاته حيث لا زمن.. لا أبعاد!»

هنا فوجئت بشيء مريع يظهر.. لقد اعتدت الأشياء المريعة لكن هذا كان أسوأها على الإطلاق..

كان ذئبًا هائلًا.. يمشي على قدميه الخلفيتين، ويعوي.. إن ارتفاعه واقفًا كان يدنو من ثلاثة أمتار.. أي أنه بارتفاع سقف الحجرة التي أنت فيها الآن... عيناه جمرتا نار والدم يسيل من فمه المفعم بالأنياب..

وقال أحد المجتمعين:

- «(أمبروزو المذءوب) يطلب العبور إلى عالم الفانين..»

قال (الأميدي) في غير اكتراث:

- «فليذهب.. وليكن الحظ حليفه..»

ورأيت (أمبروزو) يدفع رأسه دفعًا في جدار أزرق لا وجود له.. يضربه بعناد وهو يعوي بلا انقطاع.. يضربه.. والشرر الأزرق ينبعث من حوله.. وفي سقف القاعة راحت آلاف الأيدي ذات المخالب تصفق في استمتاع..

الجدار الذي لا أراه يمتثل ببطء.. الثغرة تتسع.. إنه يعبر..

سألت في لهفة وذهول:

- «هل هذا مذءوب؟ ماذا عن مذؤوبي الأرض لطيفي المعشر رقيقي الحاشية؟»

قال (لوسيفر) بلهجة الحكيم الذي يعرف أكثر:

- «هذا هو منظرهم الحقيقي.. هذا الذي رأيته سيخرج الآن من ثغرة ما في (رومانيا).. ربما في كوخ قديم أو كنيسة مهجورة.. الكنائس المهجورة ذات خطر جسيم لأنهّا أماكن كانت الصلوات تقام فيها ثم لم تعد.. أماكن العبادة التي كف الناس عن ارتيادها ونسوها هي أخطر الثغرات التي يعبر منها سادة جانب النجوم... بعد أن يخرج (أمبروزو) سيتخذ شكلًا أقرب لما تفهمونه أنتم، ويجرح أول عابر سبيل.. وهكذا يتفشي وباء المذءوبين لفترة طويلة..»

ثم عاد يكرر طلبه إلى المحكمة:

- «القصة التالية!»

تقدم الشاب الثاني من قلب المنصة، وسط ضوء (الإكليديس).. ورفع يده هاتفًا:

- «أنا (كاسيوس توماسوس).. من روما العظيمة.. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأ يحكي قصته..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (كاسيوس توماسوس) بلغته اللاتينية العتيقة التي أثار دهشتي أنني صرت أفهمها فجأة:

ـ «الخبز وألعاب السيرك.. هذا هو كل ما يحتاج إليه الشعب الروماني في عصر أمجاد روما.. لقد قالها مؤرخون كثيرون، ولم يدركوا كم هي صادقة..»

☆ ☆ ☆

إن اسمي يوحي بالعظمة.. لكني لست قائدًا رومانيًا ولا من رجال مجلس الشيوخ لو خطر لكم هذا ببال.. أنا مجرد حداد.. صانع سيوف يجلب بها الرجال الآخرون المزيد من المجد لروما..

لكن المدينة العظيمة لم تقض وقتها كله في القتال.. كانت ترتقب بشغف يوم السيرك، حيث يذهب الجميع إلى (الأرينا)، التي تقام فيها المباريات.. كل شيء يمكن أن تراه هناك، بدءًا بسباقات عربات الخيول، مرورًا بالمعارك البحرية التي يتم ملء الحلبة بالمياه من أجلها، مرورًا بمصارعات العبيد حتى الموت، وانتهاء برمي المسيحيين إلى الأسود..

كانت روما كلها تنتظر هذه اللحظات في شغف، ويمكن لأي معاصر أن يتهمنا بالتهمة التي سيصكونها في القرن التاسع عشر: السادية... لكن لو فكرت في الأمر لوجدت أننا لم نكن بهذه القسوة..

نحن نعرف ما يدور على الأرض الآن.. ونعرف أنّ هناك في العالم المعاصر من يترك ديكين يتصارعان حتى الموت، وهناك أطفال يهوون إغراق الكلاب الصغيرة، وهناك مذابح جماعية وإبادات عرقية.. حقًّا لم يتخلص الإنسان من القسوة بعد، وما زال لا يختلف كثيرًا عن جمهور الرومان الذي يزدحم في (الأرينا).. ولا أستغرب كثيرًا حين أرى فتاة تصرخ في وحشية في إحدى مباريات المصارعة الحرة الحديثة، تطالب بطلها بأن يهشم عنق الآخر.. هذه الفتاة لا تختلف عن فتيات عصرنا اللواتي كن ينهضنا صارخات في توحش، وهن يشرن بإبهامهن إلى أسفل، بما معناه الموت للمصارع الساقط على الأرض..

كان السيرك الشهير هو (سيركس ماكسيموس).. أشهر سيرك على الإطلاق في التاريخ كله.. أنشأه (يوليوس قيصر)، وكان يتسع لمائتي ألف متفرج... ويقال إن (بومبي) العظيم أقام خمسة أيام. من ألعاب السيرك مات فيها خمسمائة أسد وعشرين فيلًا..

هناك كنا نستمتع بالمصارعات بين العبيد.. يخلب لبنا الريتياريوس الذي يقاتل بالشبكة، ويحاول أن يشل حركة خصمه السيكوتور.. والمصارعون على الخيول.. وحاملو الهراوات.. الخ..

لكن أسوأ الساديين كما تصفونهم.. أشر الأشرار.. كانوا هم الحكام الرومان أنفسهم.. يبدو أنهم جميعًا كانوا مجانين، ولم يكونوا يعيرون الحياة البشريّة أدنى اهتمام.. وكنا في عصر أكثر الحكام جنونا على الإطلاق: كاليجولا.. الابن الأصغر لقائد عظيم هو (جرمانيكوس).. الذي أطلق عليه اسم (كاليجولا) تهكمًا من أحذيته العسكرية.. إن (كاليجولا) باللاتينية: (الحذاء الصغير)..

هذا هو المنظر الخلفي لقصتي، وهو كما ترون غني بالعنف بالقسوة بحيث لا يحتاج إلى مزيد...

☆ ☆ ☆

متى صرت شريرًا؟

الإجابة المعروفة هي أنني لا أذكر.. لكني لم أر في نفسي خيرًا قط، ومنذ شبابي لم أتورع عن شيء، لأنني - كما قررت - لا جدوى من إصلاحي.. كنت أغش وأسرق وأخدع وأطفف في تجارتي، لكني لم أقتل قط ولم أتسبب في مقتل مخلوق.. حتى هذه اللحظة..

كنت أتعامل مع القصر، فأصنع الأسلحة للإمبراطور.. وكانت هذه الفترة هي فترة الرحمة في حياته.. كان ما زال عاقلًا يسوس البلاد بعناية، قبل أن يجن ويعتبر نفسه إلهًا، ويعين حصانه مستشارًا، ويقتل أقاربه، وما إلى ذلك من هذا الهراء الذي سمعه اللاحقون وضحكوا منه أو ارتعبوا..

أحيانا كنت أقابله في بلاطه وسط حراسه، فكان يتفحّص السيوف التي أصنعها ويختار بعضها ويجزل لي العطاء.. كان رجلًا عسكريًا يحبّ السلاح الجيد...

ذات يوم كان رائق المزاج (أم لعله ثمل؟) فراح يتجاذب أطراف الحديث معي.. سألني عن السيرك، وما إذا كان يروق لي، فقلت له وأنا أخفض نظري تأدبًا:

- «جميل يا سيدي.. هو بهجتنا ومصدر هنائنا.. لكني كنت أتمنى لو طعمته ببعض الدببة..»

- «دببة؟ هذا غريب..»

وفي تأدب شرحت له أن الأسود تقتل ضحاياها على الفور وكذا النمور... أمّا الدببة فتعبث بها عبثًا ولربما تجاذب دبان ضحيتهما.. مما يجعل المشهد مسليًا بحق..

- «من أين لك هذا العلم أيها الحداد؟»

- «رفاقي الجنود العائدون من آسيا أيها الإمبراطور.. وصفوا لي المشهد ببراعة كأنما رسموه لي..»

راح يفكر.. ولم أدر أن كلامي وقع من نفسه موقعًا حسنًا..

هنا ـ أكرر ـ لم يكن قد جن بعد، لكن أي إمبراطور روماني كان بحاجة إلى تسلية الجماهير.. وتسلية الجماهير ضمان الاستقرار الدائم.. وقد دفعته هذه الحاجة إلى جلب بعض الدببة من آسيا.. لامشكلة هنالك فالإمبراطورية الرومانية تمتد في أرجاء الأرض... من الجرمان المتوحشين في الشمال حتى وسط إفريقيا في الجنوب.. ومن أسوار الصين حتى ساحل البحر الكبير في الغرب..

وجاء اليوم الذي أعلنوا عنه طويلًا ونزلت الدببة الشرسة إلى الحلبة، وكان أداؤها رائعًا جعل المشاهدين يصرخون حماسة.. إن الدببة سادية تمامًا مثل المشاهدين.. ربما أكثر.. ومن الغريب هنا أن الأسود رحيمة تكتفي بالقتل والالتهام، لكنّها لا تلعب تلك الألعاب القاسية..

لا أدري إن كان هذا قربني للإمبراطور، لكنه في تلك الأيام كان قد بدأ مرضه العضال الذي أودى بعقله إلى الجنون..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

في (الأرينا) من جديد...

كان العرض قد بدأ وكان الناس يهللون وهم يشاهدون سباقات الخيول.. وأنا أراها مملة بحق لأنهّا لا تحتوي على العنف الكافي لي..

بعد هذا تأتي مصارعات العبيد.. وهي لا بأس بها حقًّا..

أرفع عيني لأعلى كي أرى (كاليجولا) ـ الذي بدأ عقله يختل تمامًا ـ جالسًا في المقصورة وسط النساء، يلتهم الفاكهة ويتأمل المصارعة من خلال بلورة نقية حمراء..

العبد يسقط خصمه ببضع ضربات، ويرتمى الخصم على الأرض عاجزًا عن النهوض.. فيرفع العبد الأول رأسه إلى الإمبراطور والمشاهدين طالبًا رأيهم... ببطء شديد ترتفع أصابع المشاهدين لأعلى.. الإبهام المصوب إلى السماء معناه الإبقاء على حياة الخصم.. لقد أبلى بلاء حسنًا ومن حقه أن يعيش...

لكن الإمبراطور يخفض إبهامه في إشارة واضحة إلى أنه يرفض قرار الجماهير.. على العبد أن يقتل ضحيته وإلا مات هو نفسه.. قديمًا تمرد عبد هو (سبارتاكوس) على القرار، فأبيد هو ومئات العبيد الذين حاول أن ينظمهم في ثورة تجتاح روما.. أحمق.. هل يمكن أن تقهر روما؟

وينتهي العبد من قتل خصمه وسط احتجاج الجماهير.. قلما اصطدم إمبراطور بإرادة الجماهير بهذا الشكل المباشر الفظ، والحقيقة أن (كاليجولا) كان يسير في الطريق الطويل المفضي إلى التمرد والثورة، ولهذا قتله قواده فيما بعد.. في مناسبة لم أحضرها بالطبع..

بعد هذا يجيء أهم أجزاء الحفل بالنسبة لي: إنهم يلقون المسيحيين إلى الحلبة.. المسيحيون الذين يمارسون عقيدتهم سرًا برغم أوامر الإمبراطور... هؤلاء كان يتم القبض عليهم في الأقبية والسراديب التي يجتمعون فيها، وكانوا يلقون إلى الأسود بلا مناقشة..

يقفون يبكون ويصلون، وتغطي الأمهات عيون أطفالهن... يتجمّعون في منتصف الحلبة محاولين أن يتحملوا اللحظات المريرة القادمة.. وسرعان ما تنفتح الأقفاص وتخرج الأسود التي طال جوعها وتوحشت..

إن هذه المشاهد معروفة على كل حال، ولن أطيل عليكم وصفها.. لكن الجمهور كان قد بدأ يتحول إلى وحش مسعور هائج لا يمكن إشباعه أو إسكاته..

كنت أراقب هذا الذي يحدث، وأختلس نظرة إلى أسفل الحلبة.. فلاحظت شيئًا فاتني من قبل..

كان هناك عدد من المتفرجين الأكثر حماسة قد غادروا مقاعدهم، وعبروا إحدى البوابات الحديدية المحظور عبورها على الجمهور.. هكذا صاروا في الحلبة فعلًا.. لكنهم كانوا يتسلقون بعض القضبان الحديدية المنصوبة هناك كي يروا المشاهد الرهيبة بشكل أفضل.. وكانوا يعلمون أن الباب وراءهم... يمكنهم أن يعودوا له في أي وقت يشاءون.. بالإضافة إلى أن الوحوش كانت مشغولة، وكان هناك عدد من الحراس بدروعهم ورماحهم يمنعون الوحوش لو قررت العودة إلى هؤلاء الدهماء..

خطرت لي فكرة.. فكرة من الطراز السابق..

توجهت إلى مقصورة (كاليجولا) وطلبت المثول أمامه، وكان الحراس يألفون وجهي، لكني برغم ذلك صحت:

ـ «أنا صاحب فكرة الدببة أيها الإمبراطور!»

نظر لي وأشار إلى الحراس كي يخفضوا رماحهم، ثم قضم قطعة من تفاحة.. بينما زحفت على ركبتي حتى صرت تحت قدميه.. قلت له خافض البصر:

- «لديَّ فكرة لإمتاعكم وإمتاع أهل روما العظيمة أيها الإمبراطور..»

لم يتكلم فرحت أقص عليه فكرتي.. وأدركت أنها راقت له لأن ابتسامة وحشية شاعت في وجهه.. كلا لم أكن أبغى التقرب له قدر ما أردت أنا نفسي أن أرى هذا المشهد..

☆ ☆ ☆

انتهت الأسود من آخر المسيحيين فتم إخلاء الحلبة.. دخل الجنود برماحهم ودروعهم واقتادوا الأسود إلى أقفاصها.. الرمال مازالت طرية بالدم..

ثم أعلن مقدم الحفل عن الدببة.. انفتحت الأقفاص وظهرت الدببة العشرة التي جاء بها (كاليجولا).. كانت جائعة كالعادة، وراحت تدور في الحلبة بحثًا عن الفريسة..

لم ير أفراد الجمهور المتحمسون - الذين يتسللون إلى خارج الحلبة ـ أن البوابة خلفهم قد انغلقت..

لم يروا أن الحراس انسحبوا إلى الوراء خلسة..

لم يفهموا أنهم تم استبعادهم من صفوف الجماهير ليجدوا أنفسهم داخل الحلبة فعلًا، وأن الحلبة ملأي بالدببة الشرسة..

وحين فهموا.. وحين سمعوا صياح الجماهير المتحمس.. عندها ركضوا إلى البوابة الموصدة وراحوا يضربونها..

راحوا يتوسلون إلى (كاليجولا) كي يُطلق سراحهم.. لكنه كان في حالة جهنمية من النشوة، ولم يكن على استعداد لإفساد متعته هذه.. كان أشد ما راق له في الأمر هو ذهول هؤلاء حين انتقلوا بسرعة البرق من خانة المشاهدين الآمنين إلى خانة الضحايا..

وسرعان ما انقضت الدببة.. وكالعادة كان أداؤها باهرًا وأطالت عذاب هؤلاء التعساء أطول وقت ممكن...

ولم نسمع صراخهم لأن (كاليجولا) كان يقهقه في هستيريا.. يقهقه كما لم يفعل من قبل..

☆ ☆ ☆

هل تسببت في جنونه؟

لا أزعم لنفسي شرفًا كهذا.. (كاسيوس توماسوس) مجرد حداد لا يقدر على تبديل الملوك.. لكن الحقيقة أن (كاليجولا) بعد هذا اليوم أدرك أن القسوة ميثاقه ودينه، وأن عليه أن يظفر بأقسى المتع في الحياة لأنّه سئم كل المتع العادية.. لقد تبدل (كاليجولا) من مجرد إمبراطور سادي قاسٍ إلى وحش مجنون..

وكنت أنا مذعورًا وأنا أراه يتخلص من أقرب الناس إليه، وكل من أسدوا له العون يومًا ما..

لماذا لا يجيء دوري؟ لماذا لا يتخلص مني يومًا ما؟

إنه مجنون.. والجنون لا يخضع للمنطق أبدًا... ولا يحفظ الجميل لو كان ما فعلته معه جميلًا..

وهكذا فررت خارج روما ذات ليلة مدلهمة، وتواريت في أطلال معبد قديم..

أعتقد أنني لم أجرح نفسي كما فعل كل من جاء هنا.. وربما فعلت..

فقط فتحت عيني لأجد أنني في جانب النجوم، وأن عليَّ أن أقضي ألفي عام لا أدري كيف مرّت.. لكني أشعر بأنني جئت هنا من دقائق لا أكثر..

صدقوني يا سادة جانب النجوم.. ليس من الموجودين هنا من هو أشر من (كاسيوس توماسوس).. لا لست أشر الناس قاطبة لأن (كاليجولا) كان أكثر شرًا مني.. لكني أشر الموجودين هنا على الأقل، ولهذا أطلب الحياة..

☆ ☆ ☆

انتهت القصة وكنت أنا بحق أمنع نفسي من القيء.. إن كل هذا الشر لا يناسب معدتي جيدًا خاصة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لوكانت في جانب النجوم ساعات متأخرة..

قال د. (لوسيفر) بطريقته البطيئة المنهكة:

- «صدق إذ قال إنّه ليس أشر الناس قاطبة.. ربما كان أشر الموجودين أو لم يكن.. لكنه بالتأكيد ليس أشر من عرفت..»

ونظر لي وابتسم ابتسامته الصفراء الغريبة، فقلت:

- «لوكنتم تريدون مستوى أعلى من الشر فعندكم كفار قريش.. والفرنسيون.. وعندكم جزارو (دير ياسين) و(كفر قاسم)[2].. حقًّا إن العالم مليء بالشر الذي يكفي لجعل هؤلاء الواقفين هنا هواة..»

قال موافقًا وهو يمسح جبينه بمنديل حريري:

- «الحق قلت.. لكننا لا نختار زوار جانب النجوم.. هم يختارونا..»

قلت له في ملل لم أستطع الخلاص منه قط:

- «أنا لن أظل هنا للأبد.. إن قصصي لن تروق لكم.. تأكد من هذا.. يمكنكم بسهولة الفتك بي الآن أو تركي أعود إلى عالمنا وينتهي الأمر..»

- «بل تنتظر.. تنتظر حتى يسمعك (فلاد الوالاشي) ويعرف أنك من كان سبب هلاك (هالماجيو) التي صارت (إنفرنوس)!!»

كنت أخشى هذه النقطة بالذات، ونظرت إلى الأخ (فلاد) لكنه لم ينظر لي قط.. وبدا كأنه لم يسمع ما أقول.. ونظر (لوسيفر) إلى المحكمة الموقرة، وهتف:

- «الآن فليتكلم من عليه أن يتكلم.. وليصمت من عليه أن يصمت..»

هنا تقدمت الفتاة الثانية إلى الأمام.. كانت ترتجف تهيبًا لكنّها تماسكت.. من فمها خرج الصوت الواهن المتحشرج:

- «أنا (جين هاملتون).. أمريكية.. أرجو أن يؤذن لي بالكلام كي أبرهن على شري..»

يا للجنون! في هذا المكان العجيب فقط يمكن أن تقال كلمات هذه.. بينما في كل مكان من العالم يكذب الشرير كي ينجو.. هل تريد رأيي؟ معنى هذا أنّ هناك أملًا في عالمنا.. ما زال الخير هو الغالب وهو من يضع القواعد وهو من يحاسب الشر.. وما زال الشر هو الأضعف وهو المحتاج إلى الكذب والمداراة والاختباء والخداع.... ما دام الميزان لم يختل فالأمل موجود..

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الرغوي الذي يحطم أعصابك إن لم تكن تحطمت من منظره:

- «ابدئي السرد أيتها الفانية.. ولتعلمي أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأت تحكي قصتها..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قالت (جين) بصوتها المرتجف:

- «ليس كل ما يلمع ذهبًا، وليس كل ما يطير نسرًا..»

☆ ☆ ☆

أنا أعيش في (يوتاه).. والبلدة التي أعيش فيها بلدة صغيرة قرب (سولت ليك سيتي)، على ضفاف نهر الأردن..

بلدة من التي تكثر فيها القصص والأقاويل، لأنّه ما من أحد يجد طريقة أفضل للتسلية..

كانت أسرتي تدين بعقيدة (قديسو اليوم الآخر) التي تنتمي إلى (جوزيف سميث).. بعبارة أخرى نحن من (المورمون).. وهم طائفة دينيّة محافظة تعيش بقواعد أقرب إلى القرن الماضي، وباختصار كنا نحن الفتيات الأمريكيات الوحيدات اللاتي لا يكلمن الفتيان، ويعدن للبيت قبل التاسعة مساء..

وأنا هنا لا أتكلم عن المورمون.. إن عيوبي وأخطائي - التي سأحكى عنها - هي عيوبي وأخطائي أنا ولا دخل للمورمون في الأمر..

فقط أردت أن أبين لك الجو النفسي الذي تعيش فيه بلدتنا، وكيف أن مجموعة من الفتيات يخنقهن الملل إلى حد القيام بما قمنا به.. وكيف أن الخطر الذي يتهددنا كان عظيمًا سواء مما قمنا به، أو من أهل البلدة..

متى حدث هذا؟ حدث في الصيف.. إحدى أمسيات الصيف..

☆ ☆ ☆

كنت جالسة مع صديقاتي (روزلين) و(كاتي) و(ليا).. إننا في ذات سن المراهقة، وكلنا في المدرسة الثانوية معًا.. كنا نشعر بالملل الشديد وبحثنا عن أي شيء نفعله مما تفعله بنات الضواحي الصغيرة المهذبات اللاتي تربين جيدًا.. والمشكلة هي أننا فعلنا كل شيء تقريبًا وفعلناه مرارًا..

كانت (روزلين) أقوانا شخصيّة وهي المحرك الدائم لهذه المجموعة، وكان اقتراحها بسيطًا:

- هل تعلمن يا بنات ما كان يحدث في الغابة القريبة؟ على ضفة النهر؟»

قلنا لها إننا لا نعلم... من العسير أن تكون واحدة منا من العلم إلى درجة أن تعرف كل ما حدث في غابة معينة.. هذه مبالغة لا شك فيها...

قالت (روزلين) وهي تستمتع بإثارة فضولنا:

- «كانت الساحرات يجتمعن هناك في الليالي المقمرة...»

كنا نعرف هذا بالطبع.. كل البلدة تعرفه.. لكن هذا الكلام الفارغ كان يحدث منذ مائة عام.. ربما مائتين.. لا أحد يعبأ بهذا اليوم.. لو أنك عددت الأماكن التي حدثت فيها جريمة قتل أو الأماكن التي كانت فيها ساحرات، في المائة عام الماضية فلن تجد مكانًا تمشي فوقه..

قلنا لها في ملل:

- «كل جحش في البلدة يعرف هذا..»

قالت وعيناها تلمعان:

- «لا مشكلة.. أنا لا أطلب منكن التذكر بل أطلب المشاركة.. الليلة يكتمل القمر، وهناك فرصة لا بأس بها في ساعات من الإثارة.. سنلتقي الليلة هناك.. منتصف الليل.. لتحضر كل واحدة منكن عباءة سوداء ومكنسة!!»

- «حتى لو تحمست فكيف أغادر الدار ليلًا؟ أنا لن أتمكن من الخروج بعد العاشرة مساء يا (روزلين).. أنت تعرفين هذا..»

وقالت (ليا) شيئًا مماثلًا..

هنا قالت (روزلين) في مكر:

- «الأمر هين.. كلنا نعاني المشكلة ذاتها.. لكننا سنتسلل تحت جنح الظلام.. ماذا عن وسادة تحت الملاءة؟ ماذا عن مغادرة البيت من الباب الخلفي؟»

فكرنا قليلًا.. لا بأس.. من الممكن أن ننفذ هذا.. لا توجد واحدة منا لا تستطيع المجيء إذا أرادت، والتنصل من الأمر لا يعني إلا الخوف.. خوف من ماذا؟ لاشيء يخيف في هذه الغابة ولافي بلدتنا كلها.. ومعنى التنصل هو الجبن والظهور بمظهر مضحك أمام الأخريات... لأسباب كهذه يفعل المراهقون أي شيء.. أي شيء..

سألتها (كاتي) في تهكم:

- «هل أحضر معي قطة سوداء وقلب طفل؟»

- «لو كان عندك شيء كهذا فلا تبخلي به علينا!»

وعدت لداري.. كانت الأسرة بانتظاري للعشاء.. بعد العشاء أعلن أبي أن عليَّ دخول الفراش أنا وأخي وأختي.. والأعمار بالترتيب هي 17 - 11 - 7.. ثلاثة أطفال وهو عدد قليل جدًا بالنسبة للمورمون.. إنهم يؤمنون بكثرة النسل، كما أنّ الرجل يتزوج أكثر من واحدة، وأمي تعرف أن أبي سيتزوج يومًا ما لكنّها لا تعترض..

غرفتي في الطابق الثاني من البيت.. وعلى خلاف كل غرف المراهقين، ليست فيها صورة واحدة لأي من المشاهير ونجوم الغناء.. بالأحرى ليست فيها أية صورة على الإطلاق..

لكن فيها نافذة.. والنافذة تطل على المرج الخلفي..

لقد استعملت هذا الطريق سرًا مرارًا.. والسبب كما ستعرفون بعد قليل أنني شريرة.. نعم شريرة..

لم تكن (روزلين) جادة حين تكلمت عن الوسادة تحت الغطاء، ولكني فعلت هذا مرارًا من قبل، والانطباع النهائي يوحي لمن يراه أنني نائمة بعمق..

وحين تأكدت من أن الأضواء قد أطفئت في البيت كله، فتحت النافذة، وعضضت على الكشاف الصغير بأسناني، وغادرت الغرفة كاللصوص من النافذة..

طبعا لم أكن خالية الوفاض.. كانت معي عباءة سوداء، ومكنسة صغيرة علقتها بحبل في عنقي.. وبعض الأشياء الأخرى..

☆ ☆ ☆

من القادم هناك عبر الأحراش؟ الذي لا وجه له ولا اسم له؟

إنه أنا أيتها الأخت (مرلين).. أنا الأخت (برسياليوس).. هووووه! هووووه!

كنا قد بدأنا نتجمع في تلك الرقعة الخالية بين الأشجار، والتي غمرها ضوء القمر.. أربع فتيات في أربع عباءات سوداء، ومعنا المكانس.. وقد جلبت معها (روزلين) بعض الشموع والطبشور ورسمت نجمة خماسية على الأرض..

تعالت الضحكات وصيحات المرح.. هانحن أولاء نفعل نفس ما كانت الساحرات يفعلنه منذ قرون.. وكان الحرق أو الغرق مصيرهن.. أمّا نحن فلسوف نمرح قليلًا ثم نعود لديارنا..

كنا قد أطلقنا على بعضنا أسماء جديرة بالساحرات.. وكانت الأخت (برسياليوس) طبعًا هي (روزلين) وقالت لنا وهي توشك على فقدان وعيها من كثرة الضحك العصبي:

- «والآن ماذا نقول؟»

- «المفترض أنك تعرفين هذه الأشياء..»

- «أنا لا أعرف كيف كان الأمر يبدو..»

قلت أنا وقد رسمت على وجهي الجد:

- «حسن.. سأتكلم أنا.. إننا هنا في حضرة الساحرة الكبرى الأم (إيزادورا).. إنها ترانا وتحضر هذا الحفل معنا.. ولسوف أتلو التعاويذ التي تحبها هي..»

ثم أخرجت ورقة من ثيابي، بها بعض العبارات بلغة غامضة.. ربما كانت كلمات أشورية أو سريانية أو فينيقية.. لا أحد يعرف.. لكني رحت أرددها وأمرت الفتيات أن يرددنها معي..

رحن يرددن بأصوات رفيعة مبحوحة منفعلة، وهن يكتمن الضحكات..

وهمست (ليا) وهي تمسك ضحكتها بصعوبة:

- «أنت مقنعة حقًّا.. فقد بدأت أرتجف..»

- «شششششش!»

كانت هذه من (روزلين).. وهكذا ساد الصمت إلا من أصواتنا التي صارت خفيضة جدًا.. وفجأة صرخت (كاتي) في هلع:

- «هل رأيتم؟ وراء هذه الأشجار؟»

- «ماذا هنالك؟»

- «لقد رأيت جسمًا.. جسمًا آدميًا يركب مكنسة يحلق من أعلى ليتوارى وراءها!!»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان هذا طبيعيًا.. من الذي لا تتملكه العصبية والهواجس في هذا الجو الشيطاني؟

قلت لها في ضيق:

- «أكره أن أفسد هذا الخيال.. لكنك تعرفين مانعرفه.. هذا الشيء طائر.. بومة في الغالب.. ومن الذي يلوم بومة على التحليق ليلًا في غابة؟»

- «البومة لا تركب مكنسة!»

- «والساحرات اللائي يطرن لا وجود لهن.. كفى بلاهة ودعونا نعد إلى ما بدأناه..»

عدت أتلو التعاويذ من الورقة، ورفعت رأسي إلى صف الأشجار البعيد.. وابتسمت.. كان هناك غراب أسود يقف فوق أحد الغصون يراقبنا.. أشرت لهن إليه فهدأن قليلًا.. الآن نعرف سر ماحلق واتجه خلف الأشجار...

قلت لهن وأنا أمد يدي في الكيس الذي أحمله:

- «الآن لا بد من التهام هذه الأشياء.. قلوب القطط!»

صاحت (ليا) في ذهول:

- «هل جننت؟»

- «لا تكوني سخيفة.. لا حاجة بي إلى أن أذكركن كل دقيقة بأننا نتظاهر.. نـ.. تـ.. ظـ.. اـ.. هـ.. ر... أية متعة تبقى لنا إذن؟ هذه قطع من الهلام الأحمر عديم المذاق..»

ومددت يدي أناول كلًّا منهن قبضة من محتوى الكيس.. فأمسكت كل واحدة بنصيبها وراحت تلتهمه في الظلام.. سرني هنا أن (روزلين) قوية الشخصية التي اعتادت لعب دور القائد صارت تطيعني في غباء.. فهي لم تضع كل هذه التفاصيل في ذهنها حين اقترحت الفكرة..

- «وهذا شراب الساحرات.. إنّه مصنوع من الأعشاب والضفادع وأجنحة الوطاويط!»

وصببت لكل منهن بعضه في أكواب ورقية.. شرعن يأكلن ويشربن وهن ينظرن لي في دهشة.. وضحكت (روزلين) حتى خرج ما تأكل من أنفها، وقالت وهي تسعل:

- «ما كنت أحسب الأمر بهذا التعقيد.. متى أعددت كل هذه التفاصيل؟»

- «هذا سرى الخاص... بالمناسبة هذا الشراب مصنوع من الجزر مع الخيار.. إنِّه صحي..»

- «كانت الساحرات يتحملن الكثير حقًّا!»

وحين انتهى الطعام رحنا نرقص لمدّة نصف ساعة حول الشموع والنجمة.. ولاحظنا أن الغراب ظل واقفًا يرمقنا في ثبات..

هتفت (ليا) وهي تنظر إلى الأفق خلف الأشجار:

- «الشيء الذي رأيته منذ قليل طار الآن على مكنسته مبتعدًا.. صدقن هذا أو لا تصدقنه..»

- «نحن لا نصدقه لكننا سنتظاهر بأننا نفعل..»

كانت الساعة الآن الثالثة صباحًا.. حان وقت العودة لديارنا والتظاهر بأننا نمنا ثماني ساعات متواصلة بلاأحلام.. وقالت لي (روزلين) ونحن نخرج من الغابة:

- «لم تكن ليلة رديئة.. الفكرة فكرتي لكنك جعلتها تبدو حقيقيّة.. وقد كانت أمسية مثيرة..»

وقالت (كاتي) وهي تمسح العرق عن جبهتها:

- «سنكررها كثيرًا.. أليس كذلك؟»

قلت لها إنني موافقة... لكن يجب أن يخبروني بهذا كي أعد للأمر عدته.. ومن الأفضل أن نختار الليالي التي يكتمل فيها القمر بدرًا..

وافترقنا شاعرات بالرضا والسرور..

☆ ☆ ☆

بعد يومين جاءت (روزلين) إلى دارنا، وحيَّت أمي، ثم طلبت أن تلقاني.. فسمحت لها أمي بالصعود إلى غرفتي.. كنت متمددة في الفراش أقرأ بعض الروايات حين دخلت صديقتي عليَّ..

قالت لي وهي تنظر إلى الغرفة غير المنسقة:

- «لم نرك منذ يومين..»

- «كنت مشغولة في القراءة.. إن الصيف يمرّ ببطء هنا..»

قالت لي في حذر وهي تعقد كفيها على ردفيها:

- «ثمّة أمور مهمّة يجب أن نتكلم فيها الليلة.. يجب أن نراك على انفراد في الغابة حيث كنا..»

- «لكن الليلة غير مقمرة.. فما أهميّة اللقاء؟»

قالت بلهجة ذات مغزى:

- «أرجوك..»

وهكذا فعلت كما طلبت مني.. لم يكن هناك اتفاق على اللّهو الليلة، لكني برغم هذا أخذت معي العباءة السوداء والمكنسة.. وسرعان ما قصدت الغابة بعد منتصف الليل..

كانت الفتيات هناك.. وأدركت حين رأيتهن أن الأمر خطير.. هذه الوجوه لا تتجهم إلا لأمر جلل.. هذه النظرات لا تتوهج إلا لسبب مقلق..

دون سلام قالت لي (روزلين) بكلمات صارمة:

- «كيف غادرت البيت؟»

- «كما غادرته في المرّة السابقة.. عن طريق النافذة في حجرتي.. لماذا تسألين؟»

ابتسمت ونظرت إلى (كاتي) و(ليا) وقالت:

- «لديَّ شاهدتان استطاعتا أن تراقبا غرفتك الليلة، وهما تزعمان - وضغطت على الكلمة الأخيرة - تزعمان أنك طرت على المكنسة التي تحملينها!!»

- «أه!! هل سنعود إلى هراء البنات هذا؟»

قالت (كاتي) وهي تنظر لي في ثبات:

- «لم نشك في شيء.. حتى عرفنا من نائب الشريف هنا أنّ هناك مجنونًا يقتل القطط!»

- «ما هذا السخف؟»

- «لقد وجدوا أربع قطط مقتولة.. قطط سوداء! والأدهى أن قلوبها قد نزعت نزعًا.. هذه القطط كانت في صندوق قمامة قرب هذه الغابة... والغريب أنّ هذه ليست المرّة الأولى التي تحدث فيها شناعة كهذه!»

وهنا تدخلت (ليا) في المحادثة وقالت في توحش:

- «أمّا أنا فقد تقيأت الشراب حين عدت لداري لأنني مشمئزة منه.. وجدت في القيء أشياء غريبة جدًّا.. وخطر لي هنا أن ما التهمناه في الظلام لم يكن هلامًا أحمر!!»

- «أنتن مجنونات!!»

قالت (روزلين) وهي تحيط صديقتها بذراعيها:

- «لهذا طلبت من (ليا) و(كاتي) أن يراقبا حجرتك الليلة.. وقد وجدنا الدليل القاطع على صحة شكوكنا.. لا داعي للخداع يا (جين).. أنت جعلتنا نلتهم قلوب قطط ونشرب شرابًا من الضفادع والوطاويط! أنت فعلت هذا عمدًا فلا تقولي إنّه كان اندماجًا في الخيال!»

هنا أدركت أنه لا جدوى من الاستمرار في الخداع.. هاته الفتيات لسن بلهاوات.. تراجعت إلى الوراء وصحت بوحشية:

- «نعم.. أنتن شاركتن في حلقة سحر حقيقيّة.. هل تعرفن معنى وجود الغراب الأسود الذي وقف على الشجرة يراقبنا؟ اذهبن فاقرأن عن الساحرات اللائي كن يجتمعن هنا لتعرفن معي ظهور غراب أسود!! لقد قبل التماسنا.. لقد جاء ليشاركنا الحفل، وأنتن الآن ساحرات حقيقيات أردتن هذا أو لم تردن! ولسوف نجتمع هنا كلما أردت أنا.. لسوف نستمر في الشيء ذاته وإلا كان انتقامًا شنيعًا!»

- «هل تردن معرفة أكثر؟ أنا أمارس الشيء ذاته منذ ثلاث سنوات! بدأت وحدي لكني كنت بحاجة إلى حمقاوات يمارسنه معي.. وإذا بالبلهاء (روزلين) تقترح الشيء الذي كنت أتمناه ولا أجرؤ على التصريح به.. والآن أنتن ساحرات شريرات.. ولن تستطعن التملص!»

- «أيتها الشيطانة!»

ولم أدر كيف انهالت الفتيات عليَّ ضربًا.. فسقطت على الأرض.. انهلن ركلًا هذه المرّة.. وكان جنونهن قد جن بحيث لم يعد الكلام ذا جدوى..

رأيت المقت المجنون في عيونهن، وعرفت أنهن سيقتلنني لا محالة..

- «لسوف تموتين كالكلب العقور!!»

- «أيتها المخادعة!!»

لا مفر.. من الواضح أنهن لن يتركنني إلا جثة هامدة.. لا أجد الكلمات التي تطردهن خاصة أنهن اكتسبن بعض قوى السحر فلم يعد بوسعي إحراقهن..

لا مفر من الهرب.. تحاملت على نفسي وأبعدتهن عني، ورحت أركض وسط الأحراش.. الدم يسيل من أنفي، والأغصان تمزق ثيابي لكني أركض.. أركض وألهث..

فجأة مادت الأرض من تحت قدمي.. يبدو أنني فقدت الوعي جوار شجرة غليظة عتيقة من الأشجار التي وجدت هنا من قرون..

ولما صحوت وجدت أنني هنا أمام سادة النجوم..

أحاول أن أثبت لهم أنني أستحق الحياة، وأن أحدًا من الموجودين هنا لا يجسر أن يزعم أنه كان أشر مني..

☆ ☆ ☆

لما انتهت القصة وقفت الفتاة تلهث انفعالًا ثم عادت إلى الوراء كأنما تنتظر الحكم عليها..

تدحرجت عشرات العيون من وجه (سانجينوس الأسود).. وراحت تركض كالبراغيث في كل أرجاء القاعة.. وزحفت إحداها على حذائي فأجفلت ووثبت إلى الوراء..

قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل أنامله الطويلة الجميلة:

- «لا بأس.. هذا يروق لي.. ولعمري إن السحر من أشر شرور الفانين... اعتدنا أن نحضر هذه الاجتماعات في صورة قط أو غراب أسود.. أيامًا باسمة كانت.. لم ينته السحرة من الأرض لكن أساليبهم تبدلت كثيرًا..»

ثم نظر في عيني، وقال بثبات:

- «كاره أنت لكل ما لا تطيق سماعه!»

- «نعم.. أكره السحر والسحرة وأشمئز منهم، هل هذا يريحك؟»

- «أنت بين منكر للسحر ومتهيب منه.. وهذا كمن....»

- «أريد الذهاب حالًا أو الموت حالًا!!»

كنت قد وصلت إلى نهاية تحملي.. وتذكرت مشاعر الطفل في أول يوم من المدرسة: عاوز أروح! هذا هو كل ما يعيه من العالم.. لكني كنت أختلف عنه بالتأكيد.. فالمدارس - مهما ساءت - ليست جانب النجوم.. كما أنّ المدرسين لايشبهون (سيجفريد الأميدي) جدًّا.. أنا في عالم آخر.. عالم لن أخرج منه بمجرد أن أفتح الباب وأستقل أول سيارة أجرة..

ثم إن الطفل يبكي لأنّه يريد العودة إلى أمّه، فإلى من أعود أنا؟؟

ترى هل أعيش بعد هذه التجربة؟ هل أحكيها يومًا ما؟ أم أنّ هذه هي نهاية ذكرياتي وتجاربي؟

سمعت صراخًا عنيفًا وعويلًا من مكان ما فتصلبت، لكن (لوسيفر) قال لي وهو يضع ساقًا على ساق:

- «هذا مصاص دماء يحاول العبور إلى العالم الخارجي.. هذا شيء مريع.. هناك بوابات سلسة كالتي جئت منها.. وهناك بوابات مخيفة كالتي رأيتها في (هالماجيو) تحتاج إلى قدرات شيطانية لاجتيازها، ولعل أكفأ من يستطيعون عبورها (فلاد الوالاشي).. ومن يجتزها من البشر يفقد عقله على الأرجح..»

وبدأت الدماء تسيل من مكان ما.. وترتفع حتى صارت بحرًا يوشك أن يصل إلى ركبتي..

قال (سيجفريد الأميدي) في برود:

- «قد هلك الفامفيري.. لم يتحمل..»

وفي بحيرة الدماء راحت العيون التي تدحرجت من وجه (سانجينوس) تسبح كالأسماك.. وتطفو وتغوص كأنما وجدت أخيرًا لحظات من المرح..

قال (سيجفريد الأميدي):

- «لم يبق إلا اثنان.. فمن منهما يحكى قصته؟»

قال (لوسيفر) وهو يربّت على ركبتي بكفه الصلبة الصارمة الباردة:

- «يبقى هذا معي حتى النهاية.. إنّه ضيفي.. وأنا به أسعد وله قلبي يطرب.. أمّا الآخرون فهم من أجله سعداء.. أؤثر أن تتكلم المرأة..»

تقدمت السيدة إلى الأمام وقالت وهي توجه كلامها إلى (لوسيفر) بالذات:

- «أنا (إليزابيث كراوفورد).. هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الشجع:

- «ابدئي السرد أيتها الفانية.. ولتعلمي أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «لن أكذب يا سيدي.. لن أكذب..»

وبدأت تحكي قصتها..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قالت (إليزابيث كراوفورد):

- «الشر قاس.. لكن الجزاء قد يكون أكثر قسوة..»

☆ ☆ ☆

كنت أهيم حبًّا بابنتي (غادة)..

كانت رقيقة لطيفة لم تترب إلا على أجمل القيم في الحياة وأنظفها.. وكان من يراها يشعر كأنما خلقت من فورها من فرط نضارتها وطهرها.. وكنت ثرية فلم أكف عن جعلها تشعر بأنها ملفوفة في المخمل بعيدًا عن مخالب المجتمع الشرير..

كنت أهيم حبًا بابنتي (غادة)..

وكانت علاقتنا علاقة صديقتين تتجاوز بكثير علاقة أم بابنتها.. كانت تثق بي، وتعرف أنني أستطيع عمل أي شيء لها بعد وفاة أبيها.. وتعرف أنني لن أتركها تتألم..

ولهذا كنت مستعدة لعمل أي شيء لمن يؤذي شعرة من رأسها..

والبداية كانت عندما ذهبت إلى (لندن) لتعمل في تلك الشركة التي تقوم بتصميم الأزياء.. وكانت مراسلاتها معي تشي بسعادتها البالغة.. هناك كانت حياة جديدة مثيرة بالنسبة لفتاة في مقتبل العمر... وجوه جديدة لامعة.. نقود جديدة لامعة.. مشاكل جديدة لامعة..

ثم ظهر (بيتر) وهو مدير تنفيذي بهذه الشركة.. فيه كل ما يجذب فتاة لا تعرف شيئًا عن الحياة، وفيه كل ما يُنفّر أمًّا ويجعلها تتوجس خيفة..

كانت خطابات (غادة) تأتي من (لندن) تحكى لي كل شيء عن (بيتر) هذا.. كم هو مهذب.. كم هو جنتلمان.. كم هو رقيق.. كم هو ذكي.. كم هو حبوب.. لقد عاهدها على الزواج وقدم لها خاتمًا ماسيًا جميلًا..

وأنا يا سادة امرأة واسعة الخبرة لم يتهمني أحد بالحمق قط.. لقد أدركت على الفور الحقيقة التي لا شك فيها: هذا الفتى يخدعها.. وفي الغالب هو شيطان.. لاتوجد ملائكة على الأرض، خاصة لو كانت ملائكة تجيد استعمال الحاسب الآلي، وتعرف أفضل المطاعم في (وست إند)..

كنت كذلك أعرف جيدًا شعار الشاب الإنجليزي مع الفتيات:

..Find them.. Feed them.. Love them.. Leave them

أعثر عليهن.. أدعهن للعشاء.. أقم علاقة معهن.. تخل عنهن..

شعار لابد أن (بيتر) يعرفه وينفذه حرفيًا.. أعرف هذا.. أوقن به.. وإلا فلماذا أشعر بهذا السكين ينغرس في قلبي؟ إن (غادة) ابنتي وأنا أعرف أن قلبها هو قلبي..

طبعا انتهت العلاقة بأن تركها (بيتر).. لم يتزوجا.. لم يحاول حتى تفسير موقفه... وبالطبع كما لابد أنكم خمنتم انتحرت (غادة) بأن ابتلعت علبة كاملة من المنوم.. إنها كانت طفلة هشة لاتصلح لهذا العالم، وقد تداعت نفسيتها على الفور عند الصدام الأول.. بينما يمكن لأية واحدة من صاحباتها... لو حدث لها نفس الشيء.. أن تحول الموضوع إلى دعابة تحكيها على العشاء لصديقاتها.. أنا أخطأت في تربيتها.. لم أجعل منها قط فتاة إنجليزية من العنيدات الصارمات اللاتي يملأن الطرقات ليلًا عائدات من العمل.. الفتيات الخشنات اللاتي لم يعد شيء قادرًا على إدهاشهن أو إثارة حزنهن..

وهكذا رحلت (غادة).. فلم تترك لي إلا رسالة قصيرة: سامحيني يا أماه...

وذهبت إلى لندن لأرى جثتها في المشرحة.. كان هذا جهدًا عصيًا، حتى إنني تحاملت على ذراع ضابط الشرطة الذي أخذني إلى هناك، وهززت رأسي، ثم سقطت فاقدة الرشد على الفور..

ومن تلك اللحظة عرفت أنني لن أعود أبدًا كما كنت.. عرفت أنني سأنتقم..

ولكن كيف؟ لست من الطراز الذي يذهب إلى (بيتر) هذا في مكتبه لأفرغ المسدس في رأسه.. لا.. لن أفعل.. هو لايستحق هذه الراحة السريعة..

وهكذا يمكنكم الفهم.. لماذا استغرقت أكثر من عام حتى رسمت خطتي جيدًا.. كانت خطة محكمة لكنّها قابلة للفشل لمجرد خطأ صغير..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كان البيت الذي استأجرته في ضواحي (لندن) منعزلًا تمامًا.. وقد اندهش السمسار الذي طلبت منه البيت حين عرف أنني وحدي.. قلت له إنني مجرد عجوز انطوائية أخرى لا تعبأ بالجيران..

قال لي في كياسة:

- «حسن يا سيدتي... أكره أن أفسد صفقة على نفسي، لكن الضمير يحتم على أن أقول عن هذا البيت هو الانعزال بذاته.. لا أحد يمرّ هنا.. لن ينقذك سوى الهاتف لو حدثت متاعب ما والهاتف يتلف كأي شيء آخر..»

قلت له في رضا:

- «أنا أعرف تمامًا ما تعنيه لكنني اتخذت قراري..»

وهكذا صار البيت لي بثمن زهيد.. كانت ألواح الخشب محطمة وكذا زجاج النوافذ، وكان الأثاث قليلًا ورثًا لكن الإقامة هنا لم تكن ضمن خططي..

بعد هذا جاء دور إحضار (بيتر) إلى هنا.. لم يكن هذا سهلًا لأن الرجل مشغول، وما من قوة تحمله على مغادرة (لندن) والمجيء إلى هنا إلا القوة! نعم.. لا بد من إرغامه على هذا.. وقد سألت أحد المخبرين الخاصين عن بلطجية ممن يأخذون المال، ولا يسألون أسئلة.. وقد أوصاني باثنين من المهاجرين هنا في (لندن)، وكانا حذرين لا يتعاملان إلا بالخطابات.. وكان لهما رقم هاتف سرّي لايعرفه إلا من يعرف شخصًا يعرف أحد عملائهما..

طبعًا هم يتقاضون نصف المبلغ مقدمًا، ويقومون بالمهمة ويأخذون النصف الآخر عند إتمامها..

أخبرتهما بصفات الرجل، فضربوا لي موعدًا عند المساء قرب الضاحية التي أقيم فيها..

وفي الموعد المحدد كانا هناك، وكنت ألبس منظارًا أسود وإيشاربًا على سبيل التمويه.. وقد سألاني أولًا عن المال.. طبعًا لم أكن لأجرؤ على التلاعب معهما لأن هؤلاء القوم نوع من الوحوش المفترسة التي لا يمكن التعامل معها إلا بمنتهى الحذر.. لم يظهرا دهشة لأن سيدة عجوزًا مثلي تهتم بهذه الأمور.. فقط فتحا لي حقيبة السيارة الخلفيّة وأخرجا الجسد المكمم المقيد الغائب عن الوعي..

- «خذي الحذر يا سيدة... سيفيق خلال نصف ساعة.. أين نضعه؟»

كان مخدرًا، وقد طلبت منهما أن يضعاه في حقيبة سيارتي الخلفيّة، ثم ودعتهما وأدرت محرك سيارتي مبتعدة.. وعند أول منعطف توقفت.. انتزعت الإيشارب والمنظار، ودرت حول السيارة لأنزع اللاصق الذي يحمل الأرقام المزيفة... نعم.. هذان وغدان قد يعمدان إلى الابتزاز.. أو - إن كانا شريفين - يقعان في يد الشرطة ويثرثران عن السيدة التي اختطفت مديرًا تنفيذيًا شابًا..

واتجهت إلى البيت الجديد وقلبي يخفق طربًا..

☆ ☆ ☆

كان الوغد وسيمًا بالفعل، لكنّها تلك الوسامة التي تدلّ على قسوة ونرجسية هائلة.. صاحب هذا الوجه لا يمكن أن يُحِب إنّه فقط يحب أن يُحب.. لكن من قال إن (غادة) يمكن أن تلاحظ هذه الأمور؟ ماذا تعرفه هذه الطفلة عن الحياة؟

إنه وغد.. بالإضافة إلى هذا هو ثقيل كالخراتيت.. وقد عانيت أشد المعاناة وأنا أجره إلى الطابق السفلي.. ثم وأنا أدحرجه على درجات السلم، ثم وأنا أمدده على أرض القبو، وأحكم ربط القيد على كاحله.. ثم فككت قيوده ونزعت كمامته..

الآن بدأ يفيق..

كنت خائفة من نقطة واحدة هي هل تتحمل السلسلة؟ لكني كنت أعرف أنني أحكمت تثبيتها وأن الحداد الذي صنعها لي حاول كثيرًا أن يجذب السلسلة من مكانها لكنه فشل..

ونظرت حولي.. كنت قد فتشت جيوبه بعناية فلم أجد شيئًا يمكن أن يستعمله لفتح السلسلة ولا القيد.. لم يكن حوله شيء يصلح.. القبو فارغ تمامًا إلا من وعاء الطعام ووعاء الماء، والدلو الصغير الصالح لقضاء الحاجة..

بدأ يفيق.. ولم يكن من الطراز التقليدي الذي يقول: أين أنا؟ بل نهض وفرك عينيه وتحسس القيد في كاحله.. نهض مترنحًا ومشى نحوي، لكن السلسلة انتهت.. وكنت أنا على بعد متر من آخر نطاق لها..

قال بلهجة عملية:

- «حسن يا سيدتي.. لقد انتهى المزاح.. فكي قيدي هذا..»

قلت له في برود وأنا أجلس على مقعد قديم:

- «يؤسفني أنك لا تفهم ما يدور هنا!!»

صاح في ضيق وهو يحاول فك السلسلة:

- «لو كنت تريدين فدية فقد أخطأت الطريق..»

قلت في برود:

- «أنا لا أريد فدية.. بل لا أريد شيئًا على الإطلاق..»

ثم أشرت إلى وعاء الطعام، ووعاء الماء وقلت له:

- «أنت حر الحركة إلى حدٍ ما.. لهذا يُمكنك أن تأكل وتشرب كما تريد.. والآن وداعًا!»

- «ماذا تريدين مني أيتها المخبولة؟»

- «أريدك أن تموت طبعًا.. حسبت هذا مفهومًا..»

صرخ بأعلى صوته طالبًا الغوث.. لكني وقفت أبتسم.. نصف ساعة كاملة وهو يصرخ حتى تلاشى صوته تمامًا.. فقلت له:

- «لو كنت تفكر قليلًا لعرفت أنه لو كان بوسع أحد سماعك هنا لقمت بتكميمك..»

هنا وثب إلى إناء الطعام، ورفعه بيديه وهوى به في اتجاهي.. كان تصويبًا متقنًا لكن السلسلة منعته من أن يحسن التصويب الأخير الفعال.. وسقط الوعاء بقربي وتناثر ما كان فيه من طعام جاف..

قلت له في ضيق وأنا أجمع الطعام المتناثر:

- «كف عن الحماقة.. لو حدث هذا وأنا لست هنا لقضيت جوعًا..»

ثم تناولت العصا الخشبية ودفعت بها إناء الطعام إلى متناول يده..

هنا انقض كالفهد على العصا وحاول انتزاعها لكنه صرخ.. وفتح كفيه فإذا بالدم يسيل منهما في غزارة.. إن الأحمق لم ير كل المسامير التي غرستها في العصا على طولها بحيث يبرز طرفها المدبب.. لم أضيع كل الوقت الذي أضعته سدى...

قلت له وأنا أتهيأ للرحيل:

- «والآن وداعًا..»

صاح من جديد:

- «إلى أين أيتها المخبولة؟ هلا شرحت لي ما يدور؟»

كان من الممكن أن أشرح له، لكني آثرت أن أتركه لعذاب عدم الفهم.. عذاب المحكوم عليه ولا يدري ماذا اقترفه..

وأغلقت البيت بعناية، واتجهت إلى المطار.. ومن هناك طلبت المصرف، وتأكدت من أن أقساط الضرائب على البيت ستدفع باستمرار طيلة سفري..

كنت ذاهبة في رحلة طويلة إلى مصر وباقي بلدان الشرق الأوسط...

☆ ☆ ☆

لن يلبث أن يكتشف أنني لن أعود..

لن يلبث أن يكتشف أن الصراخ لا جدوى منه..

لن يلبث أن يكتشف أن الطعام والماء لن يكفياه إلا شهرًا لو اقتصد..

سيموت من الذعر شهرًا، ثم يموت من الجوع والظمأ بعد هذا.. كنت راضية عن نفسي، وللمرة الأولى شعرت بلذة منذ ماتت (غادة)..

لكن متع الحياة لا تكتمل..

مر عام عليَّ، وكنت في (تركيا) أطالع بعض الجرائد البريطانية القادمة من الوطن، فاستوقفت نظراتي مقالة عن الجرائم التي فشل رجال (سكوتلانديارد) في استكشافها..

كانت هناك حادثة اختفاء غامضة.. شاب من شركة لتصميم الأزياء اسمه (بيتر أندرسون).. هذا الفتى اختفى منذ عام تقريبًا وكأنما تبخر، ومن الغريب أنه بلا أعداء على الإطلاق، وزوجته وطفله الآن لا يعرفان أين هو ولا إن كان حيًّا أم مات..

زوجته وطفله؟ (بيتر) الذي خدع (غادة) لم يكن متزوجًا..

كان اسمه ـ الذي لا أنساه ـ (بيتر هايمان).. ما معنى هذا؟

وهنا سقطت الجريدة من يدي..

القصة تتضح الآن.. لقد أخطأ البلطجيان اللذان استأجرتهما الشخص المطلوب.. خطفا أول (بيتر) في شركة الأزياء وجلباه لي.. ولم تكن معه أوراق، ولم أترك له أنا فرصة للشرح.. لو كنت حكيت له القصة وقتها فلربما عرفت أنه ليس هو..

عام قد مضى! يا للهول! عام قد مر على رجل برىء سجين بلا طعام ولا شراب..

عام قد مضى وكنت أنا السبب..

بينما الوغد الحقيقي يمرح الآن ويخدع فتاة أخرى في مكان آخر..

☆ ☆ ☆

أصابني المرض بضعة أيام، ثم قررت أن أنهى زيارتي لتركيا وأعود إلى الوطن.. يجب أن أنفذ انتقامي، ثم أسلم نفسي للشرطة، وأتلقى عقابي الذي أنا جديرة به..

لكن حوادث السيارات تقع في تركيا مثل أي بلد آخر، وقد انقلبت بي السيارة على الطريق، وسقطت في هاوية على جانب الجبل لأنزف دمًا كثيرًا جدًّا...

ولم أعرف أنّ هذه الهاوية كانت ثغرة مفتوحة وجاهزة للعبور إلى جانب النجوم الرهيب..

لم أعرف هذا إلا الآن وأنا أقف أمام هذه المحكمة الرهيبة أحاول أن أنقذ عنقي..

☆ ☆ ☆

قال (لوسيفر) بعد سماع القصة:

- «هذه قصة أم مطعونة.. لا أرى فيها من الشر الكثير.. لأن الانتقام يمكن فهمه إلى حدٍ ما..»

تراجعت المرأة إلى الوراء، وقالت في ثبات:

- «لست راغبة في خلودكم هذا على كل حال..»

في ثبات مماثل قال دون أن ينظر لها:

- «ولن تناليه.. والآن يجيء دور الدكتور (إسماعيل)..»

ثم نظر لي ونظر إلى (فلاد الوالاشي) الضخم كالكابوس، وقال في تؤدة:

- «من المحبب للنفس أن تعلم أنّ هذا الفاني كان سبب فشل (فلاد الوالاشي) - هو الذي يمشي في الظلام - في اختراق الثغرة إلى (إنفرنوس) التي كانت (هلماجيو).. وإنني لأعلم أن الانتقام مشتهاك يا (فلاد).. لكني أطلب منك التريث حتى نسمع قصته..»

أطلق (فلاد) عواءً مريعًا من فمه، مما جعل جدران القاعة التي لا أراها تترجرج، وسرني أن أعرف أنني المقصود بالعواء هذه المرّة.. هذا شخص لن يجدي معه التفاهم بالعقل، أو أن أزوره مع كبار أسرتي متحدثًا عن أن له (حق عرب)، أو أن أحمل له الكفن على يدي..

قال لي (لوسيفر) باسمًا:

- «هلم احك لنا شرورك يا دكتور (إسماعيل)..»

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع:

- «ابدأ السرد أيها الفاني.. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا المفضلة، لكنّها لا تمنحك فرصة النجاة.. لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم..»

- «أنا لم أعتد الكذب أصلًا..»

وبدأت أحكي قصتي..

☆ ☆ ☆

الاعتراف السابع
من شفتي (رفعت إسماعيل):
الجريمة الكاملة

قلت لهم:

- «الشر هو الشر.. والجريمة هي الجريمة..»

☆ ☆ ☆

برغم أن الكثيرين يعتبرونني ملاكًا فإني كنت وغدًا نجح في ألا يبدو كذلك..

في سن السابعة اعتدت أن أخدع زوجة خالي.. كانت تعد لي الحمام، وتطلب مني أن أستحم بنفسي.. ولم يكن لديها سخان في هذا الزمن البعيد لذا كانت تسخن الماء في إناء كبير، وعليّ أن آخذ الماء منه بالكوز، ثم أخلطه ببعض الماء البارد من الصنبور، وأصبه على جسدي..

ولما لم أكن راغبًا في الاستحمام في هذا الجو البارد، اعتدت أن أسكب الماء الساخن بالكوز في البالوعة، ثم أبلل شعري بمياه الصنبور، وأخرج من الحمام لاهثًا أرتجف وأقول لها إنني استحممت.. صحيح أنها تلاحظ الغبار على أذني والحبر على كفي، لكنّها تبرر ذلك بأنني لا أجيد الاستحمام جيدًا كأي طفل آخر..

هذا نوع من الجرائم الكاملة.. الجرائم التي يستحيل إثباتها..

في نفس الفترة اعتدت أن أتسلل للمطبخ بعد نوم الجميع، لأتسلق النملية العتيقة هناك، وأفتح مرطبان المربى، وآخذ ملعقتين كبيرتين أدسهما في فمي، ثم أعود إلى الفراش متظاهرًا بأن شيئًا لم يحدث..

وحين لاحظت زوجة خالي أن المرطبان ينفد بسرعة اتهمت ابن خالي (عماد) بأنه يتسلل ليلًا إلى هناك..

هذه جريمة أخرى لم يستطع أحد إثباتها..

إن هناك جرائم كاملة كثيرة تحدث من حولنا لكن أحدًا لا يعرف هذا..

وفي سن العاشرة.....

- «كفى!»

كانت هذه من (لوسيفر) الذي لم يعد يتحمل سيل الاعترافات الرهيبة هذا..

قال د. (لوسيفر) في ضيق:

ـ «كنت أعرف ماستقوله.. الهراء هو ما تقوله.. وأرى أننا نضيع وقتنا معك هاهنا..»

قلت له في أمل:

- «إذن حان وقت قتلي؟ أريد الانتهاء من هذا كله..»

نظر (لوسيفر) في اشمئزاز إلى الستة الواقفين ينتظرون الحكم النهائي عليهم، وقال لـ (سيجفريد الأميدي) بلهجة لا تقبل المناقشة:

- «هؤلاء استحقوا ما يحدث لهم.. هم حق مشروع لـ (روكيان الأماسي)! فليظفر بهم!»

تصايح الجميع في هلع.. ركعت الفتاة الفرنسية باكية على ركبتيها وهتفت:

ـ «أيها السيد.. أنت عرفت أنني كنت أشر الأشرار..»

ولطمت (جين) خديها صائحة:

ـ «أنا ساحرة.. ألا تفهم معنى هذا؟»

وصاح النازي المتقاعد وهو يضرب صدره بقبضته:

ـ «أنا حولت البشر إلى مسوخ! أليس لهذا ثمن في عالم الشر هذا؟»

وقال الروماني مذهولًا:

- «والدببة؟ وكل من التهمتهم؟ أنا السبب في جنون (كاليجولا)..»

بينما قال الفتى الإنجليزي (جون بارتريدج):

- «لا تقل إنك اخترت حكايات هذه الفزاعة الصلعاء التي لا تملك قصصًا أشر من سرقة المربى.. أنت وعدتنا أيها السيد أن أكثرنا شرًا ينجو..»

مبتسمًا في غموض قال (لوسيفر) وهو ينهض من مكانه وينظر لساعته الذهبية:

- «في جانب النجوم أنتم.. أليس كذلك؟»

- «بلى..»

- «لا تصدقوا الوعود.. ليكن هذا درسكم الأخير في جانب النجوم... الكذب هنا هو القانون الأول.. والقانون الثاني أن القتل هو الابن الشرعي للسأم.. وأنا لم أعد أطيقكم..»

وعلى الفور نزل (روكيان الأماسي) من مكانه الشامخ.. كان ارتفاع قامته لا يقل عن ثلاثة أمتار.. والوجوه التي تلتحم في كل شبر من جسده تتلوى في مزاج من الولع والألم والتوحش والنشوة.. ذيل الثعبان العملاق المتدلي من مؤخرته يضرب الأرض مرارًا.. ومن فمه خرج لسان ثلاثي الفروع يبحث عن فريسة..

كان هناك الكثير من الصراخ، بينما هذا الغول يفترس الضحايا بلا ترفق ولا آداب مائدة.. كما أنه - للأسف - لم يكن ممن يلتهمون الطعام بسرعة.. كان بطيئًا كالعدالة..

☆ ☆ ☆

- «أمّا الآخرون فسوف يصيرون جزءًا من جسد (روكيان الأماسي).. وهي نهاية أفضل منها الموت بأنياب ألف ذئب..»

☆ ☆ ☆

قطرات دم انتثرت على ثيابي ووجهي فأدرت ظهري للمشهد الرهيب، وأنا أرتجف..

قال (لوسيفر) وهو لا ينظر للوراء:

- «لقد ماتوا لكن أجسادهم صارت جزءًا من كيان (روكيان الأماسي).. لا بد أنه التهم ألف شخص كي يصنع جسده.. هم بأشخاصهم ماتوا وفروا من جانب النجوم، لكن مكانهم ينتظرهم في جهنم..»

ومن مكان ما دوى صوت (فلاد الوالاشي) يتلمظ:

- «إليَّ بهذا الفاني كي أمزق أشلاءه ألف قطعة.. ولسوف تنعم بها كلابي ذات الرءوس المائة!»
صمت (لوسيفر) قليلًا ثم قال دون أن ينظر لأحد:

- «بالعكس أي (فلاد الوالاشي).. الفاني استحق حريته واستحق أن يغدو من سادة جانب النجوم.. إنه منكم ومنا!»

يا نهار اسود! عم يتكلم هذا الرجل؟ ماذا يريد بالضبط؟ هل يريد القول إنني أنا الفائز في هذه المسابقة؟ كيف؟ لكنه لا يمزح، ولم تهتز عضلة في وجهه توحي بالمزاح أو الخداع..

لما رأى دهشتي قال بصوت البر الشبعان الراضي عن الحياة:

- «حقًّا أشر الموجودين أنت.. كلهم اعترف بجرمه وعرفه بينما التزمت أنت الصمت.. لعبت دور الطاهر الذي لم يقترف إثمًا أدهى من خطايا الأطفال! وما أتفه خطايا الأطفال! الآخرون عن الدم تكلموا.. عن السحر والقتل تكلموا.. بينما عن المربى تكلمت أنت.. والأدهى أنك تصدق نفسك... قد قلت لك آنفًا: من أخطر الأمور ألا تعرف آثامك.. أن يملأ الكبر نفسك فتتشدق: أنا لم أقترف إثمًا.. إن في حياتك آثامًا أنت أدرى بها مني.. العميان لا يرون الشمس لكنهم يدركونها.. وأنت لست كفيفًا ولا غبيًا.. فقط أنت مغرور يخدع نفسه.. ولعمري هذا هو الشر الذي يروق لي..»

ثم نظر إلى سادة جانب النجوم وهتف:

- «إن الدكتور (رفعت) سيبقى معنا!»

صحت أنا وكل خلية في جسدي ترتجف:

- «هذا لن يكون: اقتلني الآن فورًا؛ فليتسل الأخ (روكيان) بالتهامي إذا لم يضايقه نحولي»

كأنما كان يعرف أنني سأقول هذا، قال (لوسيفر) وهو يعود للجلوس في الفراغ:

- «كما في كل لقاء لنا أتركك لحالك.. أتركك وأنا قادر على ألا أتركك.. أنت حر تمضي أنى أردت فلن يجسر أحد على منعك.. لقد قلت كلمتي ولم يوجد في جانب النجوم من لا يطيع كلمة د. (لوسيفر).. لكني إذا أتركك أوقن أنني في أحشائك منحتك ذكرى لن تنساها ما حييت.. ذكرى الخوف.. الهلع.. الإشفاق.. الوجل.. ذكرى كل هذا الشر الذي قابلته في مكان واحد.. لسوف يطاردك في كل حلم، ووراء كل منعطف، وفي كل قدوم ليل.. لسوف تمضي حياتك تتذكر (فلاد الوالاشي) وتتساءل متى يجيء لينتقم منى؟ ومع الخوف ألم أكثر إيلامًا: الخجل.. لا تحسب أنك الملاك الذي حسبته أنت!»

ثم هتف مناديًا الحراس:

- «أعيدوه إلى حيث كان!!»

ولم أدر إلا والحراس مقطوعو الرأس يحيطون بي ويحملونني حملًا خارج القاعة التي لا جدران لها..

ومن جديد صحت وهم يحملونني:

- «د. (لوسيفر).. من أنت حقًّا؟»

اعتدل في جلسته وقال في مكر:

- «ما أحسبك إلا تعرف لكنك تخشى أن تعترف بأنك تعرف.. عساك تظفر بالنوم ليلة أخرى..»

- «هل ستتركني وشأني؟»

- «بالطبع لا.. فأر وقط هما أنت وأنا.. فلن ينجيك مني إلا القبر.. الفرار من د. (لوسيفر) لا يكون إلا لأسفل أو لأعلى! حافظ على نفسك من أجل لقائنا التالي!»

- «سأحاول لكني - كالعادة ـ لا أعدك بشيء!»

☆ ☆ ☆

وحين فتحت عيني كنت في سيارتي، وكنت أرى الآن الوادي الذي أغرقته مياه الأمطار ليلًا، يستحم في نور النهار الوردي البكر..

هل كان هذا حلمًا؟ لا أظن.. ما زال إصبعي يؤلمني حيث جرحته بالدبوس.. وما زالت الكدمات على ساعدي من جراء قبضات الحراس القوية..

والبيت المجهول؟ لم يعد هناك.. هذا طبيعي.. لن يتركوه لي كي أجرب العبور من جديد أو أحضر من يجرب.. هناك ثغرة موجودة هنا بالتاكيد لكنهم أحسنوا إخفاءها..

أدرت محرك السيارة بعقل مخدر.. إنِّه يدور.. لابد أن نوم الليل قد أفاد المحرك كثيرًا..

فقط أدعوا الله ألا يتسبب ذهني الملبد الضبابي في حادث أليم.. لا أريد أن أغادر جانب النجوم إلى المشرحة مباشرة.. لابد من وقت أتأمل فيه وأتذكر ما حدث بالضبط..

«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»..

تعلمت هذا منذ نعومة أظفاري، وما كنت بحاجة إلى كل غيلان جانب النجوم كي أعرفه..

لكني كنت بحاجة إليهم كي أتذكره!

إن الغرور يتسلل إلى قلب المرء - كما يتسلل الحقد والنسيان والكوليستيرول ـ دون أن يدرك هذا... ولو سألت ألف إنسان عن عيوبه، لقال لك: عيوبي أنني أثق بالناس أكثر من اللازم، أو أنني صريح أكثر من اللازم.. الخ...

وتتساءل: من أين يجيء اللصوص والقتلة والزناة والمرتشون إذن؟

لا يتساوى الغرور مع كل ما سمعت في جانب النجوم من فظائع، لكن د. (لوسيفر)- وهو يعرف ما يقول - وجد أنني أجدر هؤلاء البؤساء بالبقاء مع سادة جانب النجوم!

لابد أنه كان يمزح.. لابد أنه كان ينتقم.. لابد أنه كان يعابثني أو يلقنني درسًا قاسيًا..

.....

وربما كان يعني ما يقول..

وأخذت شهيقًا عميقًا وأنا أرمق الطريق الراكض أمامي، وقد بدأت مدينة (...) تلوح من بعيد بعد ما طالت رحلتي إليها إلى هذا الحد..

ربما كان عليَّ أن أعرف نفسي أكثر..

☆ ☆ ☆

كانت هذه رحلتي إلى جانب النجوم..

لقد نجوت من المعركة، لكني لم أنج من الحرب..

وكانت هناك حلقات رعب أخرى سمعت وخبرت فيها عوالم أخرى من الجانب المظلم من القمر، كما يقول د. (لوسيفر) في أحد تعبيراته الشعرية التي يحبّها كثيرًا.. عوالم أعرف أنها موجودة لكني لم أعرف أية تفاصيل عنها إلا حين ارتدتها..

ولكن هذه حلقات أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

المسافر الذي لا يحبّ الأضواء

الاعتراف الأول من شفتي (فيرنر فرايمان): شيء من الألم

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الثاني من شفتي (جون بارتريدج): ابتعدوا عن البئر

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الثالث من شفتي (بياتريس لوبير): المقصلة

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الرابع من شفتي (كاسيوس توماسوس): آرينـــا

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف الخامس من شفتي (جين هاملتون): اجتماع في الغابة

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف السادس من شفتي (إليزابيث كراوفورد): انتقـــام

- ١ -

- ٢ -

الاعتراف السابع من شفتي (رفعت إسماعيل): الجريمة الكاملة

Notes

[1←] يوسف منجيل شخصيّة حقيقيّة طبعًا..

[2←]
القصة تحدث في أوائل السبعينات ولم تكن (صبرا وشاتيلا) و(قانا) وآلاف المذابح الأخرى قد حدثت بعد..

روايات مصرية للجيب

مكتبة النخبة

51

أسطورة

الرقم المشئوم

ماوراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

أمس أخبرني (صبري) بشيء عجيب..

يبدو أن تلك الأشياء قد بدأت تعود.. لقد رأى الكثير منها في بئر السلم في أثناء عودته ليلًا.. وأنتم تعرفونني وتعرفون أنني لا أحب الأشياء التي تعود.. لا.. لا أتحدث عن الفئران طبعًا.. من يعرفونني يعرفون أنني لا أتحدث عن الفئران برغم أنها موضوع يناسبني إلى حدٍ ما..

كان (صبري) يرتجف، ويبدو أنه قضى أسوأ ليلة في حياته.. وقال لي متوسلًا:

- «لو كان هناك واحد يعرف ما يجب عمله فهو أنت..»

- «جميل.. ولكن لماذا؟»

- «لأنك خبير..»

ضحكت حتى كادت عويناتي تنزلق من على قصبة أنفي، واستندت على الجدار وقلت:

- «أنا خبير؟ لم أسمع أحمق من هذا ولا أغرب.. لا يمكن للمرء مهما حاول أن يكون خبيرًا في هذه الأمور.. هذه أشياء لا يكفي مجرد الحماسة والنية الصادقة لتعلمها.. أنا فقط أمارس الشيء الوحيد الذي يمكن أن أعمله: أن أبقى حيًا.. طيلة حياتي لم أفعل سوى أن أحاول البقاء حيًّا، وكانت كل قوى الطبيعة تحاول منعي من ذلك كما يبدو..»

قال في ضيق:

- «وقد نجحت.. أنت قد دنوت من السبعين أو تجاوزتها على ما أظن..»

- «إنِّه الستر فقط.. لا بد أن أجلي لم يحن بعد..»

قلتها وتركته متجهًا إلى شقتي العزيزة..

سأحكى لكم اليوم قصة لا بأس بها..

ستجدها ممتعة إلى حدٍ ما لو أنك قرأتها في الليل وحيدًا، وأنا سأحكيها في الليل وحيدًا، لكني لست خائفًا.. ربما لأنني سأقف خلف المدفع لا أمامه..

القصة تبدأ بـ.....

لحظة.. ما الذي؟

بيني وبينكم.. يبدو لي أن (صبري) كان محقًا.. يبدو لي أن تلك الأشياء عادت بالفعل..

لا تقلقوا.. تظاهروا بأنكم لا ترونها.. لا تبعدوا عيونكم عن وجهي العجوز المجعد.. اصغوا لكلماتي بعيونكم إن كان هذا ممكنًا.. بعض الأخطار ليس من الذكاء أن تلاحظها أو تظهر أنك تلاحظها.. سنمارس تكتيك النعامة الشهير: ما لا نراه هو - على الأرجح - غير موجود..

لا تحولوا عيونكم، واصغوا إلى....

القصة تبدأ هكذا....

☆ ☆ ☆

- 1 -

قصاصة وجدها (عزت) تحت بابه حين صحا من النوم بعد الظهر كدأبه:

عزيزى (عزت):

بعد صباح الخير أو مساءه.. أعتقد أنك ستفتقدني إلى حدٍ ما لأنك لن تجدني في شقتي اليوم.. وربما لبضعة أيام قادمة.. كلا.. أنا لم أمت.. هذا منطقي وإلا ما كتبت هذه الرسالة.. القصة باختصار هى أنني مسافر الى (المنصورة) لبضعة أيام.. ولم تكن أنت في الدار كي أخبرك بهذا برغم أنني اعتدت أن أخبرك بسفري دائمًا. لماذا أسافر إلى المنصورة؟ إن فضولك قد زاد على الحد يا (عزت)...

كل ما أطلبه هو أن تلاحظ شقتي، وخاصّة تلك الأشياء التي تحدث دائمًا للشقق التي غادرها أصحابها: السطو - الحريق - الغرق - الاستحواذ الشيطاني - الإيكاسورا.. وكلها أشياء يمكن معرفتها بسهولة بمجرد نظرة عابرة على الباب الموصد..

استمتع بإجازتك، وتذكر اننى لن أقرع بابك بعد منتصف الليل كي أجعل حياتك جحيمًا..

(رفعت إسماعيل)

☆ ☆ ☆

خطاب كتبته (سارة عماد) لصديقتها (هالة):

حبيبتي (هالة):

تتساءلين ومعك كل حق عن السبب الذي يجعلني أتأخر في الكتابة لك كلّ مرّة.. الحقيقة أنني من النوع الذي لا يكتب إلا عندما يكون هناك ما يكتبه، وأنت تعرفين حياتي.. نهر راكد من المال يُمكنك أن تتوقعي كيف سيبدو بعد ألف سنة.. نعم الأنهار تفيض أحيانًا، لكن نهري أنا ثابت كنواميس الكون..

إنه الربيع.. والربيع يثير في النفس ما يثير من خواطر رومانسية، لكني في الحقيقة حين أشعر ببوادره لا أتذكر إلا الرمد الربيعي والربو..

أحيانًا أذهب إلى النادي، لكنك تعرفين أنني لا أطيق تلك الثرثارات اللاتي لايتكلمن إلا عن الأولاد.. كم واحدًا صرعت، وكم واحدًا انتحر لأنّه لا يطيق الحياة من دونها.. في الوقت ذاته أبعد عيني كي لا تلتقيا بعيني واحد من أولئك الأوغاد فاتني النساء إياهم، الذين يحسب الواحد فيهم أنه ما دام صفف شاربه جيدًا، وارتدى ذلك القميص المشجر المستورد من شارع (الشواربي) [1]، فقد فعل كل ما يجب كي يفوز بأية واحدة.. بل كأنه قد فعل كل ما يجب كي يستحق إنسانيته..

هل تذكرين الرئيس (جمال عبد الناصر) حين كان يتصفح إحدى المجلات الخفيفة، فوجد مسابقة نظمتها المجلة لأكثر شاب له عينان جريئتان؟ لقد كانت الصفحة تعجّ بصور الأوغاد الذين يسبلون عيونهم في هيام، فما كان من الرئيس إلا أن أمر المخابرات بإحضار كل هؤلاء الأوغاد، وحلاقة شعورهم (زيرو)، ثم تجنيدهم وإرسالهم إلى الجبهة بلا نقاش؟ لا أدري لماذا أتذكر هذه القصة الآن!

أحيانًا أذهب إلى الكلية، وأنت تعرفين أن الكلية عندي هواية.. لكنّها هواية أحبها إلى حدٍ ما.. إن الأدب شيء جميل.. فقط حتى تقرري أن تدرسيه! عندها يتحول إلى مادة علمية جافة كأية مادة أخرى..

إذن لماذا أكتب هذا الخطاب؟ ما هو الجديد في حياتي؟

لأنني أشعر بشيء ما يتلاعب في نفسي.. ربما هو شيء كالحب لكني لا أجرؤ على تسميته كذلك..

من العسير أن يحبّ المرء، خاصة لو كان موضوع الحب....

ولكن دعيني أصفه لك..

إنه نحيل... لا ليس نحيلًا مثلك.. بل هو أشد نحولًا.. إنّه قلم رصاص لا أكثر ولا أقل... أمّا عن جماله فحدث ولا حرج.. إنّه أجمل من أية زجاجة زيت تموين رأيتها.. ليس على رأسه شعر تقريبًا، وصحته متداعية.. يسعل كأنه مستعمرة درن كاملة، ويخيل إلى أنّ هناك أصابع مفقودة في قدمه.. مرح؟ لا أظن.. إنّه عصبي كحية الجرس.. عزب طبعًا وهذا يضفي عليه سحرًا خاصًا...

فارس أحلام غريب بعض الشيء.. أليس كذلك؟ أسمعك تقهقهين يا خبيثة!

والأغرب أنه قريب أبي، للدقة هو ابن عمته (فاطمة).. وكان يزورنا عندما كنت مراهقة.. كان يبيت عندنا ويساعد أبي وعمي في الخلاص من الأشباح أو شيء من هذا القبيل.. إنّه غريب الأطوار. لكني في غرفتي ليلًا أجتر آراءه الغريبة وسخريته المريرة من كل شيء، وصوته الوقور الساحر.. إنه يمثل لي النضج.. الكثير منه.. ويبدو أنه كُتب عليَّ أن أميل إلى الشيوخ، لأن شباب هذه الأيام يثيرون حنقي، فلا أعرف واحدًا منهم إلا اكتشفت أنني أذكى منه وأنضج بمراحل..

مجنونة؟ نعم.. من قال غير هذا؟ لا مستقبل في حب رجل هو من عمر أبي... لكني لا أستطيع تجاهل هذا الشعور، وأؤكد لك أنه سري الخاص وسوف يموت معي..

هذا الرجل - واسمه يبدأ بحرف الراء - يقيم عندنا هذه الأيام بصورة دائمة... لا أعرف السبب لكن أمي أعدت له غرفة الضيوف، وهو يقضي الوقت في تبادل أحاديث غامضة هامسة مع أبي.. تصوري أنه - في الماضي - كان يبيت هو وأبي في غرفتي.. لا أذكر التفاصيل، لكنهما كانا يصرخان ليلًا لأسباب لا أذكرها بدقة.. ليس من واجبي أن أذكر لماذا يصرخ الناس ليلًا..

لا أدري متى سيرحل هذا الضيف، لكني أمقت ذلك اليوم لأن حياتي ستعود مرّة أخرى كما كانت..

نهرًا راكدًا من الملل يُمكنك أن تتوقعي كيف سيبدو بعد ألف سنة..

المخلصة سارة

☆ ☆ ☆

مقال في مجلة (النصف الحلو):

صورة لرجل أصلع كث الشارب، ويبدو من الصورة أن الرقم 13 كان سبب حظه.

(علي رستم): الرجل الذي يتحدى الخرافة كل يوم

الرقم 13 كان مصدر حظي....

بقلم: حنان الصاوي

الفيلا تحمل الرقم الرهيب (13).. وعلى الباب يستوقفنا البواب.. نحن لا ننتقد العيوب الجسمانية، لكن الرجل بعين واحدة، وقد عرفنا - أنا والمصور - أنه فقد الأخرى في الحرب يومًا ما.

أول ما تدخل الفيلا يستوقفك عدد كبير من القطط السوداء تموء باستمرار وهي تنظر لنا. لابد أنّ هناك أكثر من عشر قطط عند هذا الرجل. وكلها سوداء لامعة كأنها من الأبنوس.

وبرغم أن رئيس التحرير طلب منا أن نكتب مقالًا عن خرافة التطير والتشاؤم، فإننا شعرنا بانقباض ونحن ندخل هذا المكان.. لم لا؟ نحن بشر... والتشاؤم من العواطف القديمة لدى البشر.

(علي رستم) هو صاحب هذه الفيلا.. مهندس في الستينات من عمره، يعلن دائمًا أنه كف عن التفاؤل والتشاؤم منذ زمن بعيد، وأنه يتحدى الخرافة في كل لحظة من حياته.. المرايا في بيته أكثرها مشروخ في موضع أو أكثر.. توجد مظلات كثيرة مفتوحة داخل الدار.. تم تصميم السلالم بحيث ترغمك على المشي تحتها..

الخلاصة أن المكان يفوح برائحة التحدي.. كأنه يقول للخرافات: أنا أتحداك.. فافعلي ما تريدين..

ويدخل (علي رستم) إلى الصالون لاستقبالنا.. إنه ممتلئ قليلًا أصلع الرأس. له شارب كث، وابتسامة واثقة هادئة.. لا بد أنه لاحظ دهشتنا فقال:

- «كنت في طفولتي أوحي بالتشاؤم لكل من يعرفني، فقد ولدت يوم 13 الساعة 13 - أي الواحدة ظهرًا بلغة الميري - عام 1913 ولو كان هناك شهر ثالث عشر لكنت ولدت فيه.. توفيت أمي في أثناء الولادة، وهكذا خرجت إلى العالم أحمل تلك الصفة التي لا ذنب لي فيها: نحس..

«كان الناس يقابلونني ثم تهبط عليهم الثروات أو تنجح مساعيهم، لكنهم ينسون هذا.. وبعد أسابيع يمرض أحدهم أو يموت قريب له، فيتذكر أنه قابلني منذ أسابيع.. هكذا تسير الأمور للأسف..

«وكان كل يوم يمرّ بي يملؤني بإرادة التحدي.. لا يوجد شيء اسمه النحس... أنا لست نحسًا لأنّه لا يوجد هراء كهذا... النجاح هو ثمرة العمل المتواصل والكد لا أكثر ولا أقل.. والفشل نوعان: نوع أنت مسئول عنه بسبب خمولك أو حماقتك، ونوع لست مسئولًا عنه لكنه يمت لنواميس الطبيعة التي لا تخضع للقطط السوداء.. لو أنّ زلزالًا دهمنا الآن فلا تقل لي إن هذا بسبب أنني نحس.. قل إن هذا بسبب تمدد وانكماش في قشرة الأرض وهو الناموس الذي علينا أن نواجهه.. لو أنّ شريانًا انفجر في مخك الآن فلا تقل إننى السبب، بل تكلّم عن ارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين والتكيس في قاعدة الجمجمة..

«لقد تحديت.. جئت ورأيت وغزوت كما يقول الرومان... لقد كان الرقم 13 هو سر نجاحي في كل اختيار قمت به في حياتي، وبرهنت لنفسي على أنه مصدر سعدي الدائم.. لا أعني بهذا أنني صرت أتفاءل بالرقم 13.. هناك كلمة في اللغة الروسية تلخص الموقف بدقة: (بيريجيب).. ومعناها (محاولة تقويم العصا المعوجة.. مما يؤدي إلى ثنيها في الاتجاه الآخر).. وبعبارة أخرى: الشطط.. أنا لا أمارس (البيريجيب) ولا أؤمن به.. كل ما هناك هو أنني لا أتطير ولا أتفاءل كذلك.. كل شي هو وليد جهودنا وقوانين الطبيعة التي لا نملك الكثير نحوها..»

وجلسنا معه لأنّه دعانا إلى الغداء، وعرفنا أن المهندس أرمل يعيش مع طباخه وبواب الفيلا.. وعلى المائدة لاحظنا أنه لا يكف عن سكب الملح على المنضدة من حين لآخر، وقال لنا ضاحكًا:

- «في العالم الغربي تعتبر هذه من علامات التطير المهمة.. والسبب هو لوحة (العشاء الأخير) لـ (دافنتشي).. لقد ظهر في اللوحة المسيح - عليه السلام - وهو يعلن للحواريين أن أحدهم سيخونه... وبالطبع كانت هذه قنبلة ملأت المكان بالصخب.. الكل ينكر والكل يسأل الآخر في حيرة.. فقط نرى (يهوذا الإسخريوطي) صامتًا وقد ارتسمت على وجهه علامات التعاسة والبؤس الشيطاني، وقد انسكب الملح على المائدة أمامه.. ومن يومها صارت أوروبا كلها تعتبر سكب الملح على المائدة علامة شؤم لا يزول إلا بإلقاء بعض الملح من فوق الكتف اليسرى.. حسن.. أنا أهوى سكب الملح على سبيل التحدي للتطير..

«والعجيب أن التقدم لا يساعد كثيرًا في هذه الأمور.. إن التحضر لم يمح الجريمة ولم يمح التطير.. فقط أعطاهما طابعًا مختلفًا.. لهذا نقابل حتى اليوم خرافات خالدة في العالم الغربي مثل كراهية المرايا المحطمة (يعتقدون أنها تحبس الروح داخلها) والمرور تحت سلم وفتح المظلات داخل البيت (لأن هذا يسبب موت أحد أفراد الأسرة).

«هنا في مصر حدث ولا حرج عن التطير.. كانت عمتي ترفض رفضًا باتًا أن تثبت لي زرًا ساقطًا من قميصي وأنا ألبسه. لأن هذا يذكرها بخياطة الكفن.. وكأن ملك الموت ينتظر فقط هذه الإشارة كي يقبض روحي! وكنت أتأخر عن المدرسة لأنّه لا بد من أن أنزع القميص أولًا ثم أعيد ارتداءه... دعي رجلًا حليق الذقن أو يحمل نصف كيلوجرام من اللحم، يدخل غرفة زوجته التي وضعت مولودها.. عندها تصرخ الحموات استنكارًا ويطردنه من الغرفة شر طردة.. والسبب (الكبس) كما يسمينه.. باختصار يكون هذا الأحمق سببًا في جفاف لبن زوجته، وعدم استطاعتها إرضاع الصغير.. وكأن غدد اللبن لا تعمل وفق نسق دقيق من الهرمونات لا يتأثر بذقن حليقة.. ولنفس الأسباب تعسة الحظ هي تلك القطة التي تلد في بيت به امرأة نفساء.. إنها تطرد أو تقتل غالبًا... وهذا يذكرني بالملك الذي خرج للصيد فقابل رجلًا أعور.. تشاءم وأمر بسجنه وضربه.. بعدما عاد مظفرًا من رحلة الصيد استدعى الرجل واعتذر له. هنا قال الأعور: أيها الملك.. أنت قابلتني فكان صيدك مظفرًا، بينما أنا قابلتك فضربت وسجنت بلا ذنب... ترى أينا الأشأم على الآخر؟! ترى هل القطة تنحس المرأة النفساء أم النفساء هي التي تنحس القطة؟

«دعي مجنونًا يحرك المقص ليلًا كأنه يقص قماشًا لا وجود له.. عندها يمزق الناس حنجرته لأنّه فعل أمرًا منكرًا شنيعًا..

«حتى في أتفه الأمور نجد للتطير دورًا.. إن ربة المنزل من الجيل القديم التي لا تشهق عندما تضيف (التقلية) إلى الملوخية، إنما تجازف بأن تترسب الملوخية في قاع الوعاء أو ما يسمينه (ترقيد).. وكل ربة منزل لديها عبارات سحرية معينة تلفظها في تلك اللحظة المقدسة.. بعضهن يبالغن بالتأكيد. وقد سمعت عمتى ترقع بالصوت الحياني من المطبخ ذات مرة، فهرعت مذعورًا لأجد أنها فقط تتأكد من أن الملوخية ستكون ممتازة!

«لا أدري لماذا أشعر أن التطير دين خاص سرّي يمارسة العامة عن جهل وحمق.. برغم أن الدين نهى عنه... وكأنما التطير أثر لممارسات التابو القديمة لدى الإنسان الأول..

«كل هذه الأشياء التي يتطير منها الناس (أرتكبها) عمدًا في داري وعن رضا تام.. قررت أن أجعل من حياتي نموذجًا صادقًا لما أؤمن به.. تعبت كثيرًا حتى وجدت منزلًا خاليًا يحمل رقم 13.. هل تعلمون السبب؟ في العادة يتم تجاهل رقم 13 عند الترقيم، وفنادق كثيرة لا تحوي غرفة رقم 13 على الإطلاق، وهو نفس السبب الذي يجعل نادل المطعم يُطلق على المائدة الفارغة صفة (ملان) بدلًا من (فاضي).. بالطبع ابتعت هذه الفيلا بثمن بخس لأنّه ما من أحمق آخر قبل أن يقيم فيها..

«لو كنتم تلاحظون جيدًا لرأيتم أن بواب الفيلا أعور وهي علامة أخرى للتشاؤم بينما البائس لا ذنب له.. والنتيجة؟ كما ترون أنا لم أتبخر أو أتحول إلى غبار كوني... أنا بخير حال، وحالتي الماديّة والصحية ممتازتان..»

قلت له ضاحكة:

- «نمسك الخشب..»

قال لنا وهو يقرع خشب المنضدة:

- «لا بأس ببعض التفاؤل برغم انني لا أؤمن به أيضًا.. يقولون إن لمس الخشب يبعد الحسد، وفي العالم الغربي يقرعون الخشب ويقاطعون إصبعي اليد الإبهام والسبابة للغرض ذاته..»

كان لقاؤنا مع المهندس (على) ممتعًا ونادرًا، لأنّه رجل حقيقي نادر، من الطراز الذي يجرؤ على أن يعيش كما يعتقد وكما يؤمن.. وهؤلاء - لو تعلمون - قليلون من حولنا.

وحين غادرنا الفيلا جرت قطة سوداء تلاحقنا فأجفل المصور قليلًا، لكني قلت له إن القطة السوداء ظاهرة طبيعية مثلها مثل الفيضانات والزلازل، ولا ذنب لها في هذا. علينا أن نتعلم شيئًا من كل قرون الحضارة التي مرّت بنا. في الأسبوع القادم نقابل شخصيّة مثيرة أخرى، تختلف في..... الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الرياضة من جريدة (....):

صورة لشاب أسمر راضٍ عن نفسه تمامًا يركع جوار كرة قدم في وضع مألوف من أوضاع اللاعبين.

(رضا زغلول): لن أتخلى عن رقم 13 أبدًا.

يصر (رضا زغلول) لاعب فريق (....) على أن رقم 13 الذي يتمسك به هو السبب في الصعود الصاروخي الذي لاحظناه في الموسم الحالي، والذي ظهر بوضوح في مبارياته الأخيرة، حيث كان صانع ألعاب فريقه وأحرز أكثر من هدف صعب برغم التدهور العام لفريقه. حتى قال النقاد عنه إنّه جنرال واحد بلا جيش. وعلى عكس ما هو شائع يصر (رضا) - ١٩ سنة - على أن رقم فانلته يعطيه التفاؤل والثقة، وعلى أن الناس يتشاءمون من رقم 13 بلا وجه حق ونحن إذ نتمنى له التوفيق في بقية مباريات الموسم، لا نملك إلا أن نبدي إعجابنا به كلاعب على المهارات، مصمم على أن الإنسان هو من يصنع نفسه بنفسه...

وعن توقعاته بالنسبة لفريقه قال (رضا) إنّه يرى أن خط الوسط.... الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الفنون من مجلة (....) واسعة الانتشار:

في أعلى الصفحة صورة لاثنين يبتسمان في بلاهة متظاهرين بالسعادة، وأمامهما تورتة كبيرة.

وأخيرًا يدخل البلبل القفص بكامل إرادته. كنا هناك في قاعة الأفراح بفندق (...) كي نرى (تامر فتحي) وهو يخطو إلى قفص الزواج، لينقص عدد العزاب واحدًا ويزيد عدد المجانين واحدًا. إن الزواج جنون - هكذا يقول (تامر) - لكنه جنون جميل. وصاحبة الحظ السعيد هي (فاتن أنور) طالبة الألسن الحسناء، التي استطاعت وحدها أن توقع الممثل الشاب في الفخ.. فخ الحب طبعًا. وقد كانت ليلة من ليالي ألف ليلة حضرها محررنا، وقد نقل لـ (تامر) تهاني قرائنا وقارئاتنا. قال (تامر) إنّه يتمنى لكل قارئ وقارئة أن ينالوا مثل سعادته. وقال لنا إنّه صمم على أن يكون حفل الزفاف يوم الجمعة 13 بالذات لأنّه يسخر من هذه الأمور، ويتحدى كل من يتكلم عن النحس وسواه. يقول (تامر): الناس تخاف يوم الجمعة 13 إلى حد أن بعضهم لا يجرؤ على ترك بيته، أمّا أنا ففي يوم الجمعة 13 تمت سعادتي. أحيا الحفل المطرب المحبوب.... الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الوفيات من جريدة (....):

يتقدم أفراد أسرة فقيد الشباب (رضا زغلول) لاعب فريق (....) بخالص الشكر لكل من تقدم لنا بالعزاء في مصابنا الغالي. أثابهم الله (تعالى) خير الثواب، ولا أراهم مكروهًا في عزيز لديهم... ومنحنا السلوان.

كما توجه الأسرة الشكر إلى كل من اللواء.... الخ.. الخ..

☆ ☆ ☆

- 2 -

خبر في صفحة الحوادث من جريدة (....):

يبدو أنّ هناك صورًا عدة لغرفة في فندق، وأرملة حسناء حزينة تغطي عينيها بمنظار أسود، وضباط شرطة تبدو عليهم الدهشة.

فاتن أنور: زوجي لم يمرض قط.

كتب (محمود أمين): لليوم الثاني على التوالى تستمر تحقيقات النيابة في وفاة الفنان الشاب (تامر فتحي)، والذي وجدته زوجته ميتًا في الشرفة بعد أسبوع من الزواج، حيث كانا يقضيان شهر العسل في الإسكندرية. قالت الزوجة إن زوجها كان بصحة جيدة تمامًا، وإنه في صباح يوم الوفاة تناول طعام الإفطار معها في الشرفة ودخل الحمام، بينما كانت هي تستعد للخروج معه إلى الشاطئ. وحين فرغت نادته عدة مرات، ثم فتحت الحمام الذي لم يكن موصدًامن الداخل، لتجده ميتًا وكان بكامل ثيابه، وإن كان وجهه ملوثًا بصابون الحلاقة، وقد فرغ من إزالته عن نصفه فقط. وقد استعانت الزوجة بخدم الفندق الذين استدعوا طبيبًا لكن كان الوقت قد فات. وعلى الفور انتقل إلى مكان الحادث العقيد (...) والمقدم (....)، حيث تبين أن المتوفي سليم البدن تمامًا ولا توجد به أية إصابات، وإن كانت علامات الخوف والألم واضحة على وجهه. كما أنّ بعض الرغاوي كانت على شفتيه مما رجح لدى الطبيب إصابته بنوبة قلبيّة أو نوبة صرعية عنيفة لم تتلق العلاج اللازم.

لكن المفاجأة الحقيقية كانت مع تقرير الطبيب الشرعي الذي يؤكد أنه لا توجد علامات الإصابة بنوبة قلبيّة أو دماغية لدى المتوفى. كما أثبت التشريح أنه لا توجد أية آثار لسموم في معدته، فلاتوجد إلا بقايا وجبة الإفطار الأخيرة.

(فاتن أنور) التي تعتبر نفسها أتعس أرملة في العالم، تؤكد أن زوجها كان يحافظ على صحته جيدًا، وأنه كان في أفضل حالاته عندما تركها ليدخل الحمام، وأنها حين رأت جثته رجحت أن طلقة رصاص أطلقت عليه من مكان ما لسبب مجهول، لكنّها استبعدت هذه الفكرة على الفور حين لم ترَ أية جروح ولا آثار دم. كما أنّ الحمام بلا نوافذ أصلًا.

يقول العقيد (...) الذي كان أول من رأى الجثة: لا نعرف سبب الوفاة وقد اعتدنا في هذه الوفيات الغامضة أن نتهم القلب أو الدماغ، لكن تقرير الطب الشرعي جاء لينفي هذا. وعلى كل حال لا توجد شبهة جنائية على الإطلاق كما أنّ المتوفي لم يكن له أعداء.

دخلنا إلى غرفة الفندق التي شهدت المأساة.. في الحمام كانت أدوات حلاقته موضوعة على الرف أمام المرآة، وبعضها لم يجف بعد برغم مرور يوم أو أكثر على الوفاة. هنا حلق ذقنه ثم

مات.. كان بوسعنا أن نرى المقعد المصنوع من (البامبو) الذي كان جالسًا عليه، والمنضدة الصغيرة عليها مطفأة التبغ التي كان يلقي فيها رماد سجائره، وهو يتأمل البحر الثائر أمامه. هذه الغرفة كانت عش عروسين صباح ذلك اليوم، ثم تحولت إلى مسرح وفاة - ولعله مسرح جريمة - خلال عشر دقائق. ليس أمامنا إلا انتظار تحقيقات الشرطة، وليس بوسعنا إلا أن نطلب للفقيد الرحمة، ونسأل المعجبين والمعجبات به ألا ينسوه وأن يرسلوا لأرملته رسائل الحب والعرفان.

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الفنون من مجلة (....):

صورة لمخرج شاب متحمس منكوش الشعر يبدو أنه يكره الصحافة.

(الغرفة رقم 13) لا علاقة لها بقصة تشيكوف.

كتب *(مجدي تادرس)*:

أمس قابلناه بصعوبة وبعد عدد لا حصر له من المكالمات الهاتفية، لأن (عادل فهيم) ليس بالمخرج المولع بالحديث مع الصحافة، كما أنه مشغول دائمًا. إن الرجل الآن غارق حتى أذنيه في الإعدادات الأخيرة لفيلمه (الغرفة رقم 13)، الذي يقوم ببطولته الفنانان (.....) و(....) وهو عن قصة كتبت خصيصًا للسينما للسيناريست (...). يقول (عادل فهيم) في ضيق: للأسف.. لا أحد يقرأ ومن يقرأ لا يفهم. ونحن لم نصوّر أول شوت من الفيلم، وبرغم هذا راحت الصحافة تنتقدنا لأننا سرقنا قصة (تشيكوف) الشهيرة دون أن نقول ذلك في التترات. وأنا أسألهم بالله عليكم كيف إذا لم أكن أنا نفسي قد بدأت تصوير الفيلم، وبالتالي لا تترات على الإطلاق! إنهم يكتبون أي شيء لمجرد العادة. وأنا أقول لهم يا جماعة.. حرام عليكم.. راجعوا اسم قصة (تشيكوف).. إنها (العنبر رقم 6).. فما العلاقة بين هذا العنوان وعنوان فيلمي؟ حتى القراءة لا يجيدونها.

قلنا له: إن فيلمك يناقش عذاب المرضى العقليين في المستشفيات الحكومية. ويبدو أن قصة (تشيكوف) تتحدّث عن الشيء ذاته. قال لنا: قصة (تشيكوف) تجربة خاصة جدًا وفريدة، تناقش أوضاع المساجين في جزيرة (سخالين)، وليس لفيلمى علاقة بهذا.. شاهدوا الفيلم أولًا ثم تكلموا ولا داعي لبيع فراء الدب قبل صيده..

سألناه: ولماذا الرقم 13 بالذات؟ قال لنا: هذا موجود في أعمق تلافيف عقل المبدع.. ولو أطلقنا عليه رقم 12 أو 14 لسألتني نفس الشيء، وعلى كل حال الرقم 13 مستفز للمشاعر من قديم الزمن، ويوحي بنوع من الشؤم يحرك مشاعر المشاهد. بالمناسبة أنا صاحب الاقتراح، لأن السيناريست قدم السيناريو للرقابة باسم (أجنحة العذاب)، لكني أرى هذا العنوان سخيفًا بصراحة.

سألناه عما إذا كان يتوقع النجاح للفيلم، فقال: سينجح.. أنا متأكد من هذا.. لأن الجمهور لم يعد هو ذاك الجمهور المتخلف السابق، الذي يدخل السينما باحثًا عن مشاجرة وأغنية ورقصة شرقية

في الكباريه.. إن الحتمية التاريخية والطبقية تجعل من هذا الفيلم.... الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

مقطع من قصيدة في ديوان اسمه (ثلاثة عشر) للشاعر (محمود عبد الرحمن):

لما عددت أنا المنون.. عددت ألفًا حولنا..

جاءت ترانيم المساء.. فلم تردد لحننا..

كانوا ثلاثة عشر رجلًا.. قادمين من الأفق..

بخيولهم.. وسيوفهم.. جاءوا يشقون الشفق..

كانوا ثلاثة عشر رجلًا.. لم أخف من ركبهم..

لكن ذكرتك فارتجفت..

ورحت أبكي حبنا.... الخ.. الخ..

☆ ☆ ☆

صفحة من مجلة (أدباء):

صورة لشاعر راض عن نفسه إلى حد مرعب.

كان قلبًا يمشي على قدمين، ولأنه قلب.. لم يتحمل خشونة الدرب وأوحال الطريق والدبابيس التي بعثرها أعداء النجاح.. كان من زمن يختلف عن زمننا، ولهذا كان من العسير أن يتأقلم وهو يرى إجهاض الحلم واحتضار الرؤى... و.. و... (هراء كثير من هذا النوع)..

لقد كان يعيش أسعد ايام حياته عند صدور ديوانه الأول والأخير (ثلاثة عشر) الذي ظل يحلم به عشر سنوات كاملة.. وكان يقول لمن حوله إن الناس جميعًا تتشاءم من رقم ثلاثة عشر، لكنه سيجعل من هذا الرقم مفتاح سعده وثرائه. وثلاثة عشر بالنسبة له هي السن التي تتفتح فيها براعم الأحلام، ويعرف الشاعر ـ للمرة الأولى ـ أنه شاعر وصدر الديوان، لكن النقاد تجاهلوه تمامًا ولم يعلقوا عليه سلبًا أو إيجابًا.. وكانت الطامة الكبرى عندما راح يجمع إيراد ديوانه ـ الذي طبعه على نفقته الخاصّة ـ من باعة الصحف، فكان البعض يعطيه سيجارة أو يعطيه عشرين قرشًا أو يرد له كل النسخ التي أعطاه إياها. بعض هؤلاء باعوا الديوان بالكيلوجرام لباعة اللب والبطاطا، وبعضهم

نسوا تمامًا أين وضعوا تلك النسخ. ومن جديد نقول إن هذا المصير المظلم مصير كل شاعر شاب لا تحتضنه الدولة.

كان عريض الموهبة، ولأنه عريض الموهبة كان عريض الأحلام والطموح. فلما تلقى طموحه تلك الصفعة التي لم نردها ولم يتوقعها، انهار تمامًا. وفي الصباح وجده صديقه ميتًا في الحمام. لقد تحطم القلب الكبير أخيرًا برغم أنه لم يتجاوز الثلاثين ربيعًا.

قابلنا حبيبته التي خلدها في ديوانه، وهي - بالمناسبة - قريبته.. وسألناها عن مشاعر الأنثى يوم تفقد شاعرها، فقالت إنها أصيبت بإسهال شديد لم يستجب لأي علاج معروف، وإن كانت ترجح أنّ هذا بسبب وجبة من (الفسيخ) الفاسد اشتراها زوجها. لم نكن نعرف أنها متزوجة لكنّها قالت إن على المرأة أن تبحث عن مستقبلها لأن الشعر لا يطعم الأطفال.

هكذا توفي الشاعر العظيم.. عاش بقلب طفل.. ومات كسير القلب وحيدًا.. وودعه من يعرفونه بالدموع والإسهال.. الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الفنون من مجلة (....):

صورة لمخرج شاب متحمس منكوش الشعر لم يعد يكره الصحافة، لأنّه مات.

الغرفة رقم (13): هل تموله الدولة؟

كتب (مجدي تادرس):

بعد الوفاة المفجعة وغير المفهومة للمخرج (عادل فهيم)، وبعد انتهاء فترة الأحزان التي لابد أن يسببها فقدنا لمخرج شاب واعد مثقف، يظل سيناريو فيلم (الغرفة رقم 13) كاملًا جاهزًا للتصوير، وحاصلًا على تصريح الرقابة. وما زال طاقم العاملين يتساءل: هل من مخرج آخر يتولى مسئولية هذا العمل العملاق؟ المشكلة هي أن (عادل فهيم) كان يملك أساليبه الخاصّة للتمويل، ولديه قنوات الإنتاج الخاصّة به بعيدًا عن تعقيدات البيروقراطية. ونحن هنا نخاطب الجهات المسئولة في الدولة.. حرام أن يموت الفيلم مع مخرجه.. لأن.... الخ.. الخ..

☆ ☆ ☆

تفريغ جلسة تحليل نفسي أجراها د. (محمد إبراهيم) أستاذ الطب النفسي للمريض (عماد الشرقاوي):

صوت د. (محمد): يُمكنك الكلام براحتك تمامًا..

صوت (عماد): هل تعني أنك لن توجه لي أسئلة ما؟

د. (محمد): لا.. لا داعي لهذا.. احك لي القصة كلها من البداية.. واسترخ تمامًا.. أنا سأعرف ما هو مهم وما هو غث...

(عماد): والدكتور (رفعت)؟ ألن يأتي معنا؟

د. (محمد): إنّه في قاعة الانتظار.. وأعتقد أنه غير متضايق.. أنا أعرفه مثلك وربما أكثر، وثق أنه يفضل أن يترك وشأنه.. ثم إنني أريد أن تتكلم بحرية..

(عماد): إنّه ابن عمتي.. هل تعرف هذا؟ هو الذي أصر على إحضاري هنا..

د. (محمد): أعرف... لقد اتصل بي وأخبرني بكل شيء.. وقال إنكما ستعودان إلى المنصورة هذا اليوم بالذات.. أي أنّ علينا الفراغ من هذه الجلسة سريعًا.. والآن هل ترى أن نبدأ؟

(عماد): من اين أبدأ؟

د. (محمد): من البداية.. منذ معرفتك.. ماذا كان اسمه؟ (علي رستم)؟

(عماد): (علي رستم).. الرجل غير طبيعي.. صدقني في هذا.. إنّه من أصل تركي متصلب الرأي معتد بنفسه إلى حد لا يصدّق.. كانوا يعلموننا عن (الدماغ التركية) فيما مضى فلم أفهم معناها إلا بعد معرفة هذا الرجل.. إن هاجسًا يسيطر عليه هو أن يفعل ويمارس كل ما يدعو الآخرين إلى التشاؤم وأعتقد أنه يضغط على أعصاب معارفه بشدة..

د. (محمد): كل مرضى الوسواس القهري يضغطون على أعصاب من يعرفهم.. وكيف قابلته أول مرة؟

(عماد): كانت هناك قطعة أرض أرغب في بنائها في القاهرة، وقال لي البعض إنّه مهندس لا بأس به.. لكنه يعمل في منزله، لا في مكتب.. وقد توجهت إليه مع ابنتي (سارة).. إنني أعتبرها ابني البكر.. والغريب أن موضوع الأرض دار في أول جلسة بعدها نسيته تمامًا..

د. (محمد): والسبب؟

(عماد): شعرت بالانبهار من هذا الجو الغريب الذي يحيط به.. كنت مفتونًا.. ثم. بعد قليل بدأت أخافه وأشعر بأنني ورطت نفسي.. هل تعرف أن الرجل يحيط نفسه بكل ما يدعو الشخص العادي

إلى الشؤم؟ إن حياته سلسلة من التحدي.. ولا أدري لماذا أشعر كلما رأيته أنه يلعب بالنار..

د. (محمد): أعرف شيئًا عن الرجل.. منذ أسبوع كانت هناك صفحة كاملة عنه في مجلة (النصف الحلو).. ورأيي أنه رجل شجاع..

(عماد): لا أنكر هذا.. وإن كنت أحترم شجاعته كما أحترم شجاعة المشعوذ الذي يلهو بالأفاعي.. شيء يثير انبهاري.. يفزعني.. أدرك أنني عاجز عنه..

د. (محمد): وبعد هذا؟

(عماد): بعد يوم من زيارته توفيت شقيقتي.. كانت مريضة بالقلب، وكانت وفاتها متوقعة.. لا أمنع نفسي من الدهشة للتوقيت الغريب، لكن الأعمار بيد الله في النهاية.. وبعد ثلاثة أيام توفي خالي.. إنّه رجل مسن ويعاني شللًا نصفيًا... أعتقد أنه يموت منذ عشرة أعوام... ومن جديد نقول إن الأعمار محددة من قبل..

د. (محمد): كل هذا محتمل الحدوث...

(عماد): حتى ظهر ذلك الشرخ النافذ في الجدار الخلفي لداري.. أنا أملك البناية التي نعيش فيها.. إنها ميراث من أبي.. وأسكن الشقة الوحيدة المسكونة فيها... إن البناية سليمة قوية البناء، لكن ذلك الشرخ ظهر فجأة وملأني رعبًا.. وقد ذهبت إلى المهندس الذي خطر على بالي، وهو (علي رستم) نفسه، وطلبت منه أن يعاين الجدار لكنه اعتذر لحالته الصحية التي لا تسمح له بمغادرة الفيلا... واقترح عليَّ اسم مهندس آخر تفقد الشرخ، ودُهش لأنّه لا شيء يمكن أن يسبب هذا إلا زلزال قوي.. طبعًا لم تكن ثمّة زلازل في الفترة الأخيرة، وقد اختار لي مقاولًا لا بأس به.. وتمت عمليات الترميم لعلاج هذا الشرخ.. لا أدري إن كان الخطر قد زال لكني تناسيته حتى تستمر حياتي..

د. (محمد): كل هذا وارد..

(عماد): لا أدري لماذا يتشاجر المرء في هذه الظروف بالذات مع وكيل الوزارة... لقد كان يزورنا في العمل، وبدا لي كأنه يحاول إهانتى أمام المرءوسين، من ثم أنهلت عليه لومًا وتقريعًا وتحديته علنًا أن يركب أعلى خيله.. الخلاصة إن الرجل كان يجيد ركوب الخيل فعلًا! وتم نقلي من الإدارة إلى وظيفة لا تناسبني ولا يمكنني أن أحقق فيها ما حققت في حياتي السابقة.. قال لي أصدقائي إن ظروف التوتر التي مررت به جعلتني قصير الفتيل سريع الانفجار..

د. (محمد): لا أرى في هذا شيئًا غريبًا..

(عماد): في الأسبوع الماضي اكتشفت (فايزة) زوجتي ورمًا في صدرها.. هذه الأشياء تحدث خاصة أن أسرتها كانت تعاني السرطان دائمًا.. وقد ذهبت بها إلى ذلك الجراح الذي قال إنّه لا بد من أخذ عينة.. وبعدها.. طبعًا لا داعي لأن أقول لك إن العينة كانت موجبة، وإن ابنتي (سارة) لا تعرف شيئًا، وإننا نعد العدة سرًا للجراحة التي ليست سهلة جدًّا...

د. (محمد): إن سرطان الثدي يحدث..

(عماد): ألا ترى في كل هذا شيئًا غريبًا؟ لقد تغيرت حياتي بالكامل منذ عرفت هذا الـ (علي رستم).. لقد نحسني بالمعنى الحرفي للكلمة.. لم يعد حجر على حجر في عالمي، وبرغم أنني كففت عن زيارته منذ موضوع شرخ الجدار إياه فإن شيئًا لم يتبدل.. ظل النحس يلاحقني.. أنا الذي كنت مجدود الحظ يحسدني الكثيرون..

د. (محمد): ثم جاء (رفعت إسماعيل) ليزيد الأمور تعقيدًا..

(عماد): هو لم يأت.. أنا طلبته وتوسلت إليه أن يمضي معي هذه الأيام العسيرة.. الحقيقة أن (رفعت) طائر شؤم، وقد اعتدنا على اعتباره النحس في صورة إنسان. لكن نحسه لم يكن يصيب أحدًا ما عداه هو.. كما يجب أن أذكر أن (رفعت) متوحد لا يزور ولا يزار، وهو يرى أن الحياة أقصر من أن تضيع في العواطف البشريّة... إنّه يمقت العلاقات الاجتماعية بكل أنواعها، وأعتقد أنه لم يتزوج لهذا السبب بالذات.. لكنني كنت مصرًّا على أن يأتي ويقيم معي بضعة أيام.. وحكيت له القصة كاملة فكان رأيه مثل رأيك....

د. (محمد): إن هذه كلها مصادفات..

(عماد): نعم.. هو لا يؤمن بالتطير ولا التشاؤم، ويرى أنّ هذه رواسب من عهد الجاهلية.. موضوع زجر الطير والتفاؤل بسانحه والتطير من بارحه... الخ.. كما أنه تحدث كثيرًا عن الوسواس القهري وما إلى هذا.. الخلاصة أنه أخذني من يدي وجاء بي إلى هنا..

د. (محمد): (رفعت) رأى الكثير من الأشياء التي تتحدى المنطق العلمي..

(عماد): إلا هذا.. إنّه يتكلم عن النحس طيلة الوقت على سبيل المزاح لا أكثر.. لكنه لا يؤمن البتة بوجود شخص منحوس أو يسبب النحس للآخرين..

د. (محمد): الحقيقة أنني أرى رأي (رفعت).. وسيكون كلامي من هذا المنطلق بالذات.. أنت خضت فترة مريرة من حياتك، لكن عليك أن تقتنع بأنها نجمت عن قوانين الصدفة..

(عماد): لو استطعت أن تبرهن لي على هذا، فأنت تستحق شهرتك، والمبلغ الفلكي الذي دفعته لك!

(صوت ضحك)..

☆ ☆ ☆

- 3 -

صورة من أقوال الدكتور (رفعت عبد الحفيظ إسماعيل):

: اسمك وسنك وعنوانك..

هل لا بد أن أكرر الشيء ذاته؟ لقد ذكرت ذات البيانات سبع مرات حتى الآن.. إن الملل..

: أجب من فضلك يا دكتور..

(رفعت إسماعيل عبد الحفيظ).. تسعة وأربعون عامًا تقريبًا.. أقيم في الدقي.. القاهرة.. حاليًا أنا في المنصورة لفترة محدودة..

: ما علاقتك بالمجني عليها؟

والدها ابن عمي.. أعني أنها ابنة عمي.. بل والدها هو عمي.. لا.. لحظة من فضلك.. والدها هو ابن خالي.. نعم.. هو كذلك.. إنها ابنة ابن خالي.. معذرة.. لست بارعًا في موضوع العلاقات الأسرية..

: ماذا حدث يوم الخميس 27 مارس؟

كنت في دار (عماد).. الذي هو زوج خالي.. أعني أبو عمي.. أعني..

: مفهوم.. مفهوم.. أكمل من فضلك..

كنت هناك لأنني أقيم عنده بصفة دائمة هذه الأيام.. كانت الساعة العاشرة مساء وقد دخل (عماد) وزوجته إلى الفراش لأنهما ينامان مبكرًا كالدجاج، على حين كانت ابنتهما (سارة) في حجرتها تدرس أو تتظاهر بذلك، بينما ظللت أنا أمام التلفزيون، وأجريت مكالمتين بالهاتف.. لأنني عاجز عن النوم قبل الثانية صباحًا على الأقل... بعد قليل خرجت (سارة) - الابنة - من حجرتها وأعلنت أنها ستنزل إلى الشارع لأنهّا بحاجة إلى شراء دفتر.. عرضت عليها أن أفعل هذا لأنّه لا شيء يشغلني، لكنّها أشفقت على قلبي من مشقة نزول الدرج.. وهكذا خرجت، ووقفت أنا في الشرفة بين أصص الريحان عطر الرائحة المزروعة هناك.. أراقبها وأراقب الشارع..

من الغريب أنّ هذا الشارع ينام تمامًا في هذا الوقت المبكر، وبرغم أننا في الربيع.. وكانت كل الأنوار مطفأة إلا ضوءًا خافتًا لمكتبة على بعد مائتي متر.. رأيتها تمشي حثيثًا إلى هناك.. غابت بالداخل قليلًا، وهنا لاحظت السيارة.. سيارة (فورد) عتيقة سوداء تقف قرب المكتبة

مطفأة الأنوار، لكني أدركت أن محركها دائر.. لا أدري إن كانت حاسة سادسة أم مجرد إفراط في مشاهدة الأفلام الأمريكية.. فقط شعرت أن عليَّ أن أثبت عيني على تلك السيارة..

: هل تعرفت أرقام السيارة؟

في هذا الظلام وعلى هذه المسافة؟ مستحيل... لكن لا توجد سيارات كثيرة تشبه هذا الطراز..

: أكمل...

خرجت (سارة) من المكتبة تحمل الدفتر الموعود.. عبرت الشارع ومرت بجوار السيارة، هنا رأيت رجلًا يخرج من السيارة ويركض نحوها.. نظرت للوراء وبدا عليها الرعب ثم واصلت الركض نحو البناية، وبدورها تحركت السيارة لتكون بجوار الرجل الذي يلاحقها... بدا لي الأمر في لمح من الثانية كعملية اختطاف، وقدرت أنه لا وقت لدي للنزول أو الاستغاثة، لأنّه سيمر عام ونصف قبل أن تحدث إحدى المحاولتين أثرًا ما.. لهذا فعلت ما يفعله أي شخص يحترم نفسه.. أمسكت بأحد الأصص وتوكلت على الله وقذفته من أعلى.. لم يقل أحد من قبل إنني لا أجيد التصويب، وقد هوى الأصيص بالضبط أمام الرجل فتوقف ونظر لأعلى، فقط ليتلقى الأصيص الثاني على رأسه.. هذه المرّة تكوم على الأرض.. إن سقوط أصيص على رأسك من ارتفاع طابقين ليس بالضبط إصابة طفيفة.. أمّا السيارة فاحتاجت إلى تصويب أدق كي يصدم الأصيص الثالث زجاجها الأمامي. لكن هذا لم يحدث على كل حال.. فقط هوى على مقدمتها وتهشم.. وسرعان ما أصدرت صوت فرامل مزعجًا، واستدارت مبتعدة..

: هل نزلت إلى الشارع بعد هذا مباشرة؟

لا.. كان هذا خطئي لأنني طلبت الشرطة أولًا، وحين فتحت الباب كانت (سارة) تبكي وترتجف فأجلستها وهدأت من روعها.. ونزلت في الدرج فقط لأجد أن المهاجم قد أفاق وفر بجلده.. وحين عدت لأعلى كان الأبوان قد استيقظا وقاما بواجبهما من الصراخ بأعلى الصوت والسباب ولومي على أنني لم أنزل الشارع بدلًا من (سارة)..

: ما هو انطباعك عن المهاجمين؟ هل كانا ينتظران نزول الفتاة؟

مستحيل.. حتى هي لم تكن تعرف أنها ستنزل إلى الشارع قبل هذا بعشر دقائق..

: إذن هما كانا ينتظران في الشارع حتى تهبط أية فتاة؟

لا أعتقد أنهما متحمسان إلى هذا الحد.. ثم إنهما كانا يتصرفان بحنكة وثقة.. هذان رجلان اتفقا على ما سيفعلان من زمن.. الحقيقة أنه لا تفسير عندي..

: هل يُمكنك أن تتعرف الرجل الذي كان يطاردها؟

مستحيل.. إنّه رجل.. هذا هو ما رأيته وأعتقد أنه لن يساعد كثيرًا.. هو فقط يستبعد النساء والأطفال، وهذا يضيق دائرة البحث نوعًا..

: شكرًا يا دكتور.. لقد أفدتنا كثيرًا جدًّا..

☆ ☆ ☆

خطاب كتبته (سارة عماد) لصديقتها (هالة عزت):

حبيبتي (هالة):

هذا الخطاب كالعادة يحوي بعض القنابل المهمة.. تعرفين أنني لا أكتب إلا عندما تكون لدى أخبار.. الخبر الأول والأهم هو أنني تعرضت لمحاولة اختطاف! لا تخافي.. فقد نجوت بحمد الله ولم يصبني إلا الهلع حتى إنني صرت أجد صعوبة في مغادرة الدار.. هذا الخبر سأتحدث عنه بشيء من التفصيل بعد أن أخبرك بالخبر الثاني:

لقد فاتحت (ر) بكل شيء! هل تذكرين قريب أبي الذي يقيم عندنا، والذي لا يشبه فرسان الأحلام إلا في القدم؟ هذا الرجل هو من أنقذني بشهامة غير عادية من الاختطاف، وكان بارعًا ودقيقًا وهو يقهر أول الخاطفين ويوشك على قهر الثاني، ويهدئ من روعي ثم يطلب الشرطة.. كان رجلًا بارعًا.. رجلًا يعرف ما ينبغي عمله.. ومن لحظتها قررت أنه لي، وأنني لن أتركه يفلت من يدي لمجرد أنه نحيل مسن أصلع..

كتبت له خطابًا أنيقًا شرحت فيه كل شيء، وقلت إنني مسئولة عن قراراتي ولا أحد يتخذ القرارات لي.. وأنني أتحمل المسئولية كاملة، واتجهت له في ثبات حيث جلس في الصالة وناولته إياه، ثم عدت لحجرتي دون أن أنتظر رد فعله.. لقد كنت معجبة به من قبل لكني الآن أهيم به، وأهيم بصوت سعاله القادم من الصالة..

أنا مجنونة؟ ربما.. لكن رأيك لايهمني، كما تعرفين في علاقتنا البسيطة الصريحة..

نأتي الآن إلى عملية الاختطاف نفسها..

كنت قد نزلت ليلًا إلى المكتبة لأشتري دفترًا جديدًا أكتب فيه خواطري.. أنت تعرفين تدفق خواطري المفزع إلى حد أنني أستهلك دفترًا كل عشرة أيام.. وعند العودة فوجئت برجل ينزل من سيارة ويركض نحوي.. كان الشارع خاليًا تمامًا ولم تكن الاستغاثة مجدية، كما أنّ الركض ما كان ليحقق شيئًا لأنني سأصعد في الدرج والبناية خالية من الجيران.. أصابني الهلع وكف عقلي عن التفكير..

في هذه اللحظة جاءت النجدة من السماء بالمعنى الحرفي للكلمة.. لأن (ر) قد ألقى بأصيص ريحان من شرفتنا على رأس الرجل.. وللمرة الأولى رأيت الرجل بشيء من الوضوح.. كان نحيلًا أسمر له ملامح قاسية وأدركت أن رأسه ينزف بغزارة إن لم يكن قد تهشّم.. وفي اللحظة التالية

واصلت الركض نحو البناية وسمعت السيارة تبتعد.. فيما بعد عرفت أن الرجل هرب برغم إصابته وهو أمر غريب حقًّا..

أكاد أقسم إن جمجمته تهشمت تمامًا من الإصابة وزميله قد اختفى.. فكيف نهض وهرب بهذه السرعة؟

لقد كانت تجربة مريعة يا حبيبتي، وأدعو الله ألا تري شيئًا مماثلًا أبدًا، وأن يلهمني السلوان لأن المشهد لا يفارق خيالي حتى الآن..

المخلصة سارة.

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها لمامًا:

لا أدري.. الحياة تمشي على الوتيرة التي أعرفها أو هذا ما أحسبه على الأقل، لكن شيئًا ما يتحرك تحت جلدي، وشيئًا ما يقول لي إن قصة من القصص التي اعتدت الحياة معها على وشك البدء، إن لم تكن بدأت فعلًا..

من الناحية النظرية.. لا يوجد شيء غريب.. دائرة من سوء الحظ تلاحق (عماد)، وهو يعتقد أنّ هناك من نحسه.. وقد طلب مني بعنف أن أكون معه لأنني ـ كالعادة ـ أفهم في هذه الأشياء.. لم أستطع التملص لأنّه عاصفة لا تهمد ولا تلين.. طبعًا من البداية أنا لا أؤمن بالنحس وإن تكلمت عنه ساخرًا ألف مرة في الدقيقة.. ربما كان (عماد) يمرّ بحالة من انخفاض الإيقاع الحيوي، وهي الفترة التي تحتشد فيها الأمراض والقرارات الخاطئة الغبية.. وكل هذا يلقي به المرء على شماعة النحس.. إن المتطيرين ينسبون للظواهر الكونية ما تسببه عقولهم الباطنة في الواقع..

أذكر يوم وفاة (إبراهيم) ابن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين حدث خسوف شمسي، فتصايح المسلمون أن الشمس حزينة للوفاة.. سمع الرسول هذا فغضب غضبة عظيمة، وخرج إلى الناس ليقول لهم في حزم ووضوح:

إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وهما لا تكسفان لموت أحد أو حياته..

كان بوسعه (صلى الله عليه وسلم) أن ينسب الخسوف إلى وفاة ابنه.. وكان المسلمون سيصدقونه.. لكنه أبى إلا أن ينفي وجود ارتباط، لأنّه - ببساطة - لم يكن هناك ارتباط.. واليوم يخرج المرء منا من بيته ليجد السماء غائمة، فيوقن أن مصيبة ستحدث له اليوم.. كأنه من الأهميّة إلى حد أن الشمس شخصيًا تقرر أن تتوارى لتنذره هو وحده!

قانون الصدفة إذن هو المتهم هنا..

لكن هناك مشكلة (سارة) التي هوجمت هجومًا خطط له من قبل.. كيف خطط له من قبل وهي لا تخرج ليلًا؟ ثم تأتي مشكلة الأخ عالي اللياقة الذي هشمت جمجمته تقريبًا، وبرغم هذا نراه ينهض على قدميه ويفر بعد دقيقتين من سقوطه.. من هو؟ ماذا كان يريد منها؟

هل هذا الحادث ضمن سلسلة حوادث الحظ العاثر الذي يمرّ به (عماد)؟ في الغالب نعم..

كل شيء بدأ بعد لقائه مع المدعو (علي رستم).. أنا لا أعرف الرجل ولم ألقه من قبل، لكنني أشعر بأنه من المهم أن ألقاه.. يبدو أنني سأفعل هذا عندما تهدأ الأمور..

لو كان الرجل يجلب النحس فلن يضيف لي جديدًا!

☆ ☆ ☆

- 4 -

صفحة من مذكرات (سارة عماد):

أمي مصابة بالسرطان! رباه! إنني أعيد قراءة الكلمة أكثر من مرة، لكنني لم أستوعبها بعد... كنت أؤمن أنّ هذه الكلمة المفزعة تحدث في عالم آخر شرير لا علاقة له بعالمي لكنّها الحقيقة..

لقد استدعاني أبي ليلًا إلى حجرة بعيدة في البيت، وكان مهمومًا.. حسبت أنه سيحدثني عن الخطاب الذي أعطيته لـ (رفعت)، واستعددت للدفاع عن وجهة نظري، لكني فوجئت بدلًا من الغضب بالحزن.. وفي عينيه حيث توقعت أن أرى الشرر رأيت دمعة عجز..

في كلمات قليلة أخبرني أنه يخفي الحقيقة عنى من زمن، وأن الجراحة التي مرّت بها أمي منذ أسبوعين لم تكن خراجًا في الثدي، ولكنّها أخذ عينة.. والعينة أثبتت أنّ هذا الورم الصغير بحجم حبة الفول ليس إلا سرطانًا.. كما أخبرني أبي أن الجراحة غدًا بالذات..

كل هذا أخبرني به لأشعر أن عالمي انهار في دقائق، ولم أستطع فهم لماذا تحدث كل هذه الأشياء لنا؟ ما سر كل هذه المصائب مرة واحدة؟ لو حدث شيء غدًا لأمي فلسوف أقتل نفسي بلا تردد...

دخلت غرفة النوم حيث كانت نائمة بانتظار جراحة غد.. يبدو أنها أخذت قرصًا منومًا لتتمكن من الظفر بقسط من الراحة.. تحسست شعرها ولثمت يدها الخشنة التي لم تفارقها رائحة مسحوق الغسيل والبصل قط.. هذه يد كانت ناعمة عطرة يومًا، لكنّها من أجلنا صارت هكذا، وبرغم هذا أجدها أجمل من يد(الموناليزا) نفسها..

(رفعت) أيها الأحمق.. كيف تتعذب أمي وتمرض وأنت هنا؟ ما نفع الأطباء إذن؟ افعل شيئًا أرجوك!

☆ ☆ ☆

تقرير خروج من مستشفى (....):

الاسم: فايزة عبد العليم السباعي.

السن: ثلاثة وأربعون عامًا.

التشخيص: سرطان ثدي في المرحلة الأولى.

الجراحة: استئصال ثدي تحت جذري.

خروج تحسن.

☆ ☆ ☆

صفحة من مذكرات (سارة عماد):

تبدو الأمور على ما يرام.. يبدو أن الوضع استقر.. الحمد لله.. فقط آمل ألا يكون الجراح قد نسي شيئًا.. قال لي (رفعت) إن الأمر سيكون مطمئنًا إذا مرّت خمسة أعوام من دون أن يعود الورم! إن كلمات هذا الرجل مليئة بالتفاؤل وتملؤني حبورًا! خمسة أعوام من القلق..

قال لي: إن فترة خمس سنوات تمر سريعًا هذه الأيام.. لم تعد الخمس سنوات كما كانت من قبل..

لكني أحمد الله على ما كان، وعلى أن الأمر انتهى على هذا الحد، أو أوشك.. وعسى أن تنتهي دائرة النحس التي تحيط بأسرتنا ولا تريد أن تنتهي.. لولا أنها بدأت قبل أن يقيم (رفعت) عندنا لشككت فيه، لكني أعرف الآن أن أبي استقدمه ليساعده في فهم هذه المعضلة..

☆ ☆ ☆

خطاب وجدته (سارة) على مكتبها:

ابنتي العزيزة:

أولا أحب أن أعتذر عن تأخري في الرد على خطابك الرقيق، لكني كنت غارقًا في هذه الأحداث الرهيبة، وخاصّة الجراحة التي مرّت بها الوالدة.. كنت قلقًا كما تعلمين.. لكني الآن أجد من الشجاعة وخلو البال ما يسمح لي بأن أرد عليك كتابة.. الخطاب الذي قدمته لي وأنا في الصالة كان محشوًا بالمجاملات وكان به تقدير لشخصي يفوق ما تلقيته منذ ولدت.. كان من المفترض أن أسر به لكنه - بالعكس - أتعبني والأسباب سأذكرها حالًا..

أعترف - أولًا - أنني ذو حس جمالي لا بأس به، وهو عيب لم أتخلص منه قط، وهذا يجعلني أبحث عن التكافؤ الشكلي والعمري والاجتماعي والعقلي في أية علاقة أراها.. وأعتقد أن من أجمل المشاهد التي أتصورها مشهد شابين متحابين يخططان للغد.. مخلوقان جميلان ينتظرهما دهر من المفاجآت والاكتشافات الصغيرة، بينما أقبح المشاهد هو عجوز نحيل أصلع يتظاهر بأنه لا بأس

به، ويلعب دور الحبيب مع فتاة في عمر ابنته.. نعم ابنته.. دعيني أذكرك بأنني كنت رجلًا بالغًا حين كنت أنت طفلة ظريفة تجلسين على حجرى وتطلبين مني الحلوى.. هذا العجوز - لو قبل أن يلعب هذا الدور - ليس سوى رجل عجوز منحط Mean old man كما يقول الإنجليز.. وأنا أكره أن أكون عجوزًا منحطًا..

بحثت في شخصي عن سبب منطقي يبرر كل هذا الإعجاب فلم أجد.. لا يمكن أن تحبي شخصًا لمجرد أنه يجيد إلقاء أصص النباتات على رءوس المارَّة في الشارع! والأمر بعد هذا كله لا يعدو إعجابًا كامنًا لديك بصورة الأب الذي يعرف ويجيد كل شيء.. وهو إعجاب سيزول سريعًا جدًا، بمجرد أن تقابلي فارسك الوسيم الذي يُلقي بالأصص على الناس بكفاءة أكثر!

دعينا ننس هذا الخطاب إذن.. ولا تغضبي مني وتذكري أنني لو كنت وغدًا حقًّا - من الأوغاد الذين يعجّ بهم العالم - لسررت للغاية بخطابك هذا... لكنني لم أستطع قط أن أكون وغدًا، كما لم أستطع قط أن أكون وسيمًا!

رفعت إسماعيل

العجوز الذي ليس وغدًا

☆ ☆ ☆

خطاب كتبته (سارة عماد) لصديقتها (هالة عزت):

حبيبتي (هالة):

هذا النذل لم يقدر حبي الكبير له.. أعترف أنه ليس نذلًا لكنه أحمق.. أحمق ولا يعرف ما فاته.. لكني على العموم أرتاح للقاعدة التالية: من كان غبيًّا إلى حد ألا يقدر حبي، هو ببساطة لا يستحقه.. ويبدو أنني كنت مخدوعة على طول الخط..

دعينا من هذا الهراء ولنتكلم عن.... الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

مقال في مجلة (النصف الحلو):

صورة تظهر (رفعت إسماعيل) بالبذلة الكحلية - التي صارت رماديّة غامقة لأن الصورة غير ملونة - وهويبتسم ويحاول أن يبدو فاتنًا.

طلبت مني هذه المجلة الكريمة أن أكتب مقالًا للقراء عن التفاؤل والتشاؤم، ولماذا تكسب بعض الأرقام سمعة أسوأ من غيرها. الحق أنها لصدفة غريبة، لأن هذا الموضوع بالذات يسيطر على تفكيري منذ فترة، ولأسباب لا يمكن شرحها هنا[2].

من بين الأرقام الغريبة في تاريخ البشريّة يبرز الرقم سبعة.. إن أهميته الدينية والتاريخية لا تقارن.. تذكروا السموات السبع في القرآن.. السنابل السبع.. البقرات السبع.. في المسيحية نجد الأسرار السبعة.. في اليهودية نجد الشمعدان السباعي والطبقة السابعة من شجرة الحياة (نتزاخ).. إنها القوة.. لماذا كان السلم الموسيقي سبع نغمات ولماذا نحتفل باليوم السابع لمولد الطفل (السبوع)؟ لماذا صارت ألوان قوس القزح سبعة؟ الأسبوع سبعة أيام ودورة القمر حول الأرض أربع سبعات (28 يومًا)..

لماذا اكتسب الرقم 13 هذه السمعة السيئة؟ أقدم القصص تقول إنّه رقم مرتبط بالعشاء الأخير للسيد المسيح، وما تلا ذلك من خيانة (يهوذا) له.. إن الحواريين كانوا اثني عشر رجلًا.. وهو نفس تفسير سبب التشاؤم من سكب الملح على المنضدة، لأن ساكب الملح في لوحة العشاء الأخير كان هو (يهوذا) نفسه..

والحقيقة هي أن علم الأرقام نشأ من محاولات (فيثاغورس) - الفيلسوف اليوناني العظيم - الدءوب للعثور على تناسق هارموني لعالمنا هذا.. وقد قدر أن كل شيء يخضع للأرقام من 1 إلى 4.. ومن بعده جاء اليهود وسحرتهم، فوجدوا أن الأرقام الفردية لها قوة خاصة بها، لأنهّا إذا

قسمت على اثنين بقي منها شيء.. إن الأرقام الفردية توحي بالإيجابية والذكورة والاستقلال.. والعكس طبعًا ينطبق على الأرقام الزوجية.

إن التطير يختلف من دولة لأخرى وله أسبابه الخاصّة في كل مجتمع..

مثلًا لا نرى في مصر من يتطير من فتح المظلة داخل البيت، وهذا بالطبع لأن المظلات ليست من مفردات حياتنا، لكن خرافات (الكبس) الخاصّة بالأمهات الحديثات قوية جدًا عندنا.. لا أحد يجرؤ على الدخول حليق الذقن أو حاملًا كيسًا من اللحم على أم وإلا كان مجنونًا.. سيجف لبنها ويموت الرضيع فورًا..

في كثير من دول العالم، يكون من الحماقة أن يشعل ثلاثة رجال سجائر بعود الثقاب ذاته.. مسموح أن يستخدم أول اثنين ذات العود أمّا الثالث فلا.. في (رومانيا) كانت هذه في الماضي جريمة يعاقب عليها القانون، لكن التفسير كان عقلانيًا جدًّا: رغبة شركات الاحتكار في أن يستهلك الناس ثقابًا أكثر! لكن في باقي العالم يُقال إن السبب هو أيام الحرب العالمية الأولى.. كان الجنود يتوارون في خنادقهم، ويشعلون الثقاب لتزجية الوقت بالتدخين.. يشعل أول جنديين لفافتي تبغهما، ثم يجيء دور الثالث.. عندها يكون قناصة العدو قد حددوا مكان الثالث بالضبط وبوم! تستقر الطلقة في رأسه.. وهكذا صار من الخطر أن يشعل الشخص الثالث سيجارته بنفس عود الثقاب.. إن هذا يهدد بسقوطه ميتًا بلا مناقشة!

ارتباطات التطير لانهاية لها في الوجدان الجمعي، ولابد أننا نذكر بعضها وورثناه عن أجداد أجدادنا دون أن نفهم سببه.. لماذا يخاف البدائيون المرايا؟ لأنهّا تخطف الروح.. وهذا - فيما يُقال - يعود إلى أن من كان يطيل النظر إلى صورته على صفحة الماء يجازف بأن يخرج له التمساح ويلتهمه في ثوان. تتطور هذه العادة فنجد أن الحانوتي يكره أن يسقط ظله على التابوت في أثناء الدفن، وبعض الأسر تدير سطوح المرايا العاكسة للحائط حين يموت أحد أفراد البيت، لأن روح الميت لديها القدرة على خطف أرواح الأحياء عبر المرايا....

هل بقايا عادات (التابو) البدائيّة هي التي تجعل الفلاحين عندنا يتطيرون من نزول المرأة الحائض إلى الحقل؟ هذا يؤدي إلى بوار الزرع كما يعتقدون..

لماذا يخاف الغربيون من المرور تحت سلم خشبي؟ لأن هذه السلالم كانت المكان المفضّل للشنق في الماضي! لماذا يتفاءل الناس بحدوة الحصان؟ قيل إنها ترمز إلى مزود الأبقار حيث ولد السيد المسيح..

لماذا ارتبط الغراب بالشؤم؟ ربما لأن أول عمل شوهد يمارسه هو دفن الميت.. وكان (قابيل) هو من رآه يفعل ذلك فتعلم منه إخفاء الجثث..

يبقى عدد معين من حالات التفاؤل والتشاؤم لا يمكن بالضبط معرفة منشأ الاعتقاد بها.. هذه الحالات يمكن تفسيرها بالانعكاس الشرطي الذي لا يمكن أن نذكره دون أن نذكر تجربة (بافلوف) الشهيرة مع الكلب والجرس.. كلما دق الجرس جاء الطعام للكلب.. هكذا يتكرر الأمر يوميًا حتى

يتعلم الكلب أن يسيل لعابه وتتحرك معدته كلما سمع الجرس، حتى لو لم يكن هناك طعام.. والأمر مماثل مع الكلاب تعسة الحظ، التي تُضرب كلما دق الجرس... هذه يكفيها سماع الجرس كي تدفن رءوسها في الحائط وتئن خائفة.. أنت ترى نفس البائع قبيح الوجه أحيانًا وأنت ذاهب للعمل، فلو قابلك رئيسك بعاصفة غضب تعلّمت يومًا بعد يوم أن تتطير لدى رؤية البائع المسكين.. هكذا صرت تتشاءم من وجهه.. والغريب أنك تقابل البائع أحيانًا ويكون يومك سارًا لكن عقلك يميل إلى نسيان هذه المناسبات لأنك تريد أن تصدق هذا..

بل يذهب علماء النفس إلى أبعد من هذا، وهم - كما نعرف - يبالغون أحيانًا فيزعمون أنك لا ترتكب أخطاء في العمل لأنك قابلت الرجل، ولكن ترتكب أخطاء في العمل لأنك تكرهه.. أي أنك ذهبت إلى العمل عازمًا على الفشل وتلقي اللوم، ولكنك تعلق هذه الرغبة الخفية على شماعة الرجل التعس...

لكن لنصغ إلى عميد المحللين النفسيين (فرويد) الذي لم يكف عن استعمال تعبير (اللاشعور).. إن الناس تتشاءم حين تدخل مكانًا فتتعثر قدمها.. هذا ينبئ بفشل جهودهم في هذا المكان.. (فرويد) يقول إنهم تعثروا لأنّهم - لا شعوريًا - لا يشعرون بثقة في قدرتهم على النجاح في هذا المكان.. أي أن التعثر قد ينذر بالفشل فعلًا، لكن لأنّه يدلك على أنك لست واثقًا من نجاحك على الإطلاق.

الزوج الذي يضيع دبلة الزواج يتشاءم من الطلاق.. لكن الزوجة لن تسر كثيرًا حين تعرف رأى (فرويد) في الأمر.. الطلاق لن يحدث لأن الزوج أضاع الدبلة، ولكنّه أضاع الدبلة لأنّه يتمنى الطلاق!

بل ويقول (فرويد) - سليط اللسان - ما هو أسوأ: إن الشخص الذي يتمنى الشر للآخرين، ويضطر إلى كبت هذه النزعات الشريرة داخله، يتوقع العقاب على شره المكبوت آتيًا من الخارج على شكل نحس أو شر لا تفسير له.

إن التطير إذن.... الخ.. الخ.... الكثير من الهراء من هذا النوع....

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها لمامًا:

أخيرا قابلت الرجل.. لا أدري لماذا أكتب هذه السطور لكنني اعتدت على أن الورق يرتب أفكاري بصورة أفضل من ذهني.. كأني عدت من المتجر بكيس مليء بالأشياء، ولن أعرف بالضبط ما ابتعته ولا كيف أفيد منه، إلا حين أبدأ ترتيب هذا كله على منضدة المطبخ..

بعد مكالمة هاتفية حصلت على موعد معه في الخامسة مساء.. قلت له إن الأمر ملح وعاجل.. وقد قبل في ريبة لكنه لم يستطع إلا أن يشبع فضوله..

كان العثور على الفيلا سهلًا لأن كل شيء في حياة الرجل هو عبارة عن رقم 13.. وكالعادة كان بواب الفيلا أعور، والقطط السوداء في كل مكان.. كل ما حكاه (عماد) عن الرجل صحيح.. والحقيقة هي أنني أخذت انطباعًا عامًا: أن الرجل يؤمن بالخرافات بشكل غير عادي.. إنّه يتكلم طيلة الوقت عن السخرية من هذه الأمور، لكنه يؤكدها في كل لحظة.. لو كنت لا تبالي بهذه الأشياء فأنت تتجاهلها.. أمّا هو فتسيطر عليه الفكرة إلى حد المرض.. هذه حالة وسواس قهري لا شك فيها، وتسعد قلب (فرويد) لو بعث من مرقده..

كان الرجل مسنًا لكنه بصحة جيدة، ينتمي إلى الطراز البشري (ممتلئ - أصلع - شارب كث) وهو طراز يغلب أن يكون راضيًا عن نفسه والحياة.. وقد رحب بي ثم رأى نظراتي المتوترة إلى كل شيء حولي، فراح يحكي لي تلك القصة التي سمعتها ألف مرة من (عماد) عن مولده ووفاة أمّه، وكيف أنه حاول أن يتحدى العالم... إلى آخر هذا الكلام.. لكنني كنت أدرك أن الرجل معقد، وبالتأكيد سينهار باكيًا لدى الضغط عليه...

في النهاية سألني - بعد أن صار التعارف شبه كامل - عن سبب تشريفه بزيارتي..

- «الأمر لا يتعدى سؤالًا واحدًا: هل من يعرفك يمرّ بدائرة ما من سوء الحظ؟»

كان سؤالًا غريبًا خاليًا من اللياقة، لكني قدرت أنه لن ينفجر غضبًا، لأن حرصه على لعب دوره العقلاني سيجعله يتسامح.. بدا عليه التفكير، ثم ضحك ضحكة مفتعلة سخيفة وقال:

- «من الصعب أن تختص مثلى بهذا السؤال. أنت تعرف كم كافحت كي أبرهن على أنّ هذا هراء..»

ضغطت أكثر على حظي وقلت وأنا أرشف العصير العجيب الذي قدمه لي:

- «لكنك لم تبرهن؟»

- «إن قوانين الصدفة تلعب دورها.. أحيانًا تحدث أشياء لمن يعرفونني.. لكن هذا لا يعني أنني نحستهم.. هذا هراء وسخف.. ولو أنك سقطت ميتًا الآن فلا تقل إنني السبب..»

- «هل أعتبر هذه إجابة عن سؤالى بنعم؟»

- «لا تنتزع الكلام من فمي.. أنا لم أعط إلا أجوبة عائمة..»

- «وأنت تعتقد أنك تخلصت من نحسك وألقيت به في وجوه الآخرين؟»

صاح في عصبية حقيقيّة هذه المرّة:

- «قلت لك إن كل هذا هراء.. أنت تحاول هدم كل ما كافحت كي أصنعه..»

واحمر وجهة نصف التركي واحتقن بالدم، فتوقعت أن يُطلق عليَّ الرصاص أو يتهمني بأنني: «خرسيس نرسيس».. وبدأت أفهم الحقيقة..

الرجل غارق تمامًا في خرافات التطير والتفاؤل، لكنه ينكر هذا متظاهرًا بأنه مثقف متحضر.. وهو يعطي هذا الانطباع أولًا للناس - الحمقى منهم - لكن التدقيق في أمره يكشف عن حقيقة مخزية: الرجل يرسم حول نفسه دائرة كالتي يرسمها السحرة حول أنفسهم كي لا تطالهم الشياطين.. هذه الدائرة هي تلك الطقوس التي تجذب الناس الفضوليين إليه، ولسبب ما لاحظ الرجل أنه يتخلص من نحسه ويحيل الآخرين إلى منحوسين.. لا شيء يحدث له، لكن كل شيء يحدث لمن يعرفه.. لا بد أنه بدأ يكون هذه النظرية حين تذكر كيف ماتت أمّه يوم ولادته وكيف أصابت الأهوال كل من عرفه يومًا..

وحانت منى نظرة إلى المنضدة التي وضع عليها مفرشًا أسود.. كانت هناك صورة امرأة من تلك الصور التي لا تكون إلا لمتوفاة.. من العجيب أن صور المتوفين تبهت وتشحب بسرعة كأنما هناك حقًّا ارتباط بين الروح والصورة كما اعتقد البدائيون دائمًا.. لم أحتج إلى كثير ذكاء كي أعرف من هي المرأة:

- «هذه المرحومة زوجتك طبعًا؟»

نظر إلى حيث أشرت وكاد يقول لي إن هذا ليس من شأني، لكنه آثر أن يجيب:

- «نعم.. ولا تقل لي إنني نحستها فماتت.. إن سني متقدمة ومن الوارد جدًا أن تموت زوجتي.. ثم لا تنس أن من يفقد زوجته قد يكون هو صاحب الحظ التعس لا هي!»

لو كان يحبّها حقًّا.. وإلا لكان حسن الحظ تمامًا.. كذا فكرت لكنني لم أعلنها..

لم يبق من شيء أفعله أو أقوله للرجل، فشكرته على حسن استقباله لي ونهضت.. لست من الأشخاص الذين يسعدون الآخرين، لكني لم أر قط سعادة كالتي بدت على وجه الرجل وهو يتخلص مني أخيرًا.. كانت الساعة الآن الثامنة مساء تقريبًا حين خرجت إلى الشارع المظلم..

يمكن القول إن الرجل حالة عقليّة لا أكثر ولا أقل.. إنه أبو هول بلا أسرار.. لكنه لم يفدني كثيرًا في الإجابة عن الأسئلة التي تتزاحم في عقلي..

حان الوقت إذن للعودة إلى القاهرة ونسيان كل شيء عن الموضوع... أحسب أن أمور (عماد) استقرت نوعًا، ويمكنه الحياة من دوني..

☆ ☆ ☆

- 5 -

من صفحة الحوادث في جريدة (....):

صورة تظهر كومة من الحديد المعجون لا يمكن أن تفهم شيئًا منها.

مسلسل جنون السرعة على الطريق

ثلاث سيارات تتحطم والسبب مقطورة شاردة

كتب (عماد الخولي): في حادث مروع تحطمت ثلاث سيارات بسبب جنون السرعة، حيث مالت مقطورة من إحدى عربات اللوري لتسد الطريق. وقد فوجئ سائقو السيارات الثلاث بالمقطورة أمامهم. وقد ضغط سائقان على الفرامل مما أدى إلى انقلاب سيارتيهما أمّا السيارة الثالثة فقد نجح سائقها في تفادي المقطورة، لكنه أصيب بجروح بالغة في الوجه واليدين بسبب اصطدامه بحاجز على جانب الطريق. وقد فر سائق اللوري هربًا من المسئولية بينما قام الأهالي باستخراج ضحايا السيارتين المقلوبتين، وقد توفي على الفور ثلاثة من ركاب السيارتين، بينما جرح أربعة باقون جروحًا بالغة، وصرح الدكتور (رفعت إسماعيل) وهو أستاذ جامعي، بأنه كان يستقل سيارته حين فوجئ بالمقطورة تتدحرج نحوه، ولا يعرف كيف أدار مقود السيارة في اللحظة الأخيرة كي يخرج من الطريق، وقال إنّه لو كانت هناك سيارات قادمة من اليمين لكان الآن جثة هامدة.

انتقل إلى مكان الحادث كل من العقيد (.... الخ...

☆ ☆ ☆

عزيزنا الدكتور رفعت:

نفتقدك كثيرًا.. نرجو لك تمام الشفاء ونقدم لك هذه الباقة من الزهور (تعبير) عن حبنا لك.

أبناؤك: طلبة السنة الخامسة

أسرة الزهور

ملحوظة من (رفعت إسماعيل): أرجو أن تضع تنوينًا لكلمة (تعبير) لأن أحدًا لم يعد يهتم بهذه الأمور سواي..

☆ ☆ ☆

دكتور رفعت:

أرجو كلما رأيت هذه الزهور أن تتذكر أنّ هناك من يتمنى لك الشفاء ويتمنى لو تغفر لنا.. أشعر أن كل هذا بسببنا بشكل ما.

المخلصة (سارة)

☆ ☆ ☆

دكتور رفعت:

أنا صديقة (سارة) المخلصة وقد حكت لي عنك كثيرًا، وقد أحببت كل ما سمعته، وتمنيت لك السلامة وسرعة الشفاء. أرجو أن تتقبل باقة الزهور هذه كناية عن إعجابي بك برغم أنني لم أرك.

(هالة عزت)

☆ ☆ ☆

تقرير خروج من مستشفى (....):

الاسم: رفعت عبد الحفيظ إسماعيل.

السن: تسعة وأربعون عامًا.

التشخيص: اشتباه ما بعد الارتجاج - جروح رضية بالرأس والذراعين.

خروج تحسن.

☆ ☆ ☆

من صفحة الحوادث في جريدة (....):

صورة لحريق في الدقي لا يمكن أن تفهم منها شيئًا.

آخر خفايا حريق الدقي:

النيابة تعتقد أن الحريق تم بفعل فاعل

كتب (عماد الخولي): ما زالت النيابة تجرى تحقيقاتها في حادث الحريق الذي شبّ في عدة مبان بالدقى أمس الأول. وهو الحريق الذي دمر الطوابق العليا من مبنيين متلاصقين، وكاد يأتي على المبنى الثالث لولا عناية الله ثم جهود رجال الإطفاء. وقد رجحت النيابة أن يكون الحريق تم بفعل فاعل، لأنهّا وجدت آثار (جركن) وعلبة ثقاب يبدو أنها كانت أدوات بدء الحريق من فوق سطح إحدى البنايات، ثم تطاير الشرر ليلحق أذى بالغًا بالبنايتين الأخريين. ومن جديد نحمد الله على أنه لم يكن هناك ضحايا، لكن الحريق أحدث تلفًا شديدًا في الممتلكات.

يقول الدكتور (رفعت إسماعيل) - وهو مقيم في البناية التي بدأ الحريق منها -: إنّه أول من شمّ رائحة الدخان في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لأنّه من النوع الذي لاينام الليل إلا نادرًا، ويقول إنّه خرج إلى الشرفة ليجد السماء مشتعلة فوقه على ارتفاع طابقين، وهو مشهد وصفه بأنه كابوس. وقد اتصل بمرفق الإطفاء على الفور ليصل رجاله في لمح البصر - أي بعد نصف ساعة - فقط ليتضح أن المياه انقطعت عن الحيّ بالكامل. وقد احتاج الأمر إلى نصف ساعة أخرى حتى يتم توصيل المياه وإطفاء الحريق، الذي لم يسبب خسائر بشريّة لأن السكان تم إخلاؤهم بسرعة. ولم تتأذ شقّة الدكتور (رفعت) إلا من احتراق ستائره وهو ما استطاع السيطرة عليه سريعًا.

من الطريف ومن عجائب تصاريف القدر، أن الدكتور (رفعت إسماعيل) نجا من حادث تصادم مروع كتبنا عنه منذ أسبوع، ليواجه الموت حرقًا أو قاب قوسين منه. يقول د. (رفعت إسماعيل): لا أدري إن كنت نحسًا لأن هذه الأشياء تحدث لي.. أم أنني سعيد الحظ لأنني نجوت مرّتين، لكني كنت أفضل بالتأكيد ألا يحدث شيء.. وعلى كل حال كان أرقي هو سبب نجاة باقى سكان البنايات.

سألناه عما إذا كان يشك في شخص معين، فقال لنا: إن الشرطة لم تعرف فكيف أعرف أنا، وأنا على كل حال لا أتصور أن البواب الساهر كالديدبان ليلًا يسمح بمرور برغوث من باب البناية، خاصة إذا كان هذا البرغوث يحمل (جركن) مليئًا بالوقود وعلبة ثقاب.. عندها سيكون من الصعب نوعًا إقناع البواب أن شمّ هواء الليل هو الغرض من هذا كله..

☆ ☆ ☆

ركن (مستشارك القانوني) في مجلة (...).

سيدي..

أصيبت والدتي السيدة (هانم عبد الظاهر موسي) وعمرها 68 عامًا بفقر دم شديد وضعف، وأسرعنا بها إلى مستشفى (....) حيث شخص الأطباء مرضها بأنه أنيميا خبيثة، وقد بدءوا علاجها بحقن لا أعرف اسمها بالضبط واستمر هذا لمدّة أسبوع، وأعتقد أنها بدأت تتحسن. ثم جاء أحد أساتذه أمراض الدم بهذا المستشفى واسمه (لدى المستشار القانوني) وأعلن أنّ هذا الأسلوب في العلاج خطأ، وقام بتغييره بالكامل، كما طلب عمل أشعة على معدتها لكني رفضت هذا. وكانت النتيجة هي أن حالة والدتي راحت تتدهور باستمرار، وحاولنا كثيرًا إقناع الأطباء بالعودة إلى العلاج القديم، لكنهم أصروا على تنفيذ اقتراح الأستاذ الكبير (حتى لا يغضب) كما قال لنا أحد صغار الأطباء. وهكذا غادرت المستشفى مع والدتي، وقد توفيت في البيت في نفس اليوم. وقمت بتحرير المحضر رقم (...) كما قمت بإبلاغ نقابة الأطباء. أرغب في محاسبة هذا الطبيب بتهمة الإهمال المهني، لكني أخشى ألا أستطيع الحصول على حقي.. ولو حدث هذا فأنا بالتأكيد سأرتكب جناية. أريد نصيحتك.

نجل المتوفاة (إبراهيم مرعي)

رقم البطاقة (....)

☆ ☆ ☆

صورة المستشار قانوني يبتسم في ثقة متوعدًا.

سيدي:

يمكنك بالتأكيد أن تأخذ حقك لكن لابد من اتباع الخطوات القانونية، ولا داعي لأن تورط نفسك في جريمة، لأن أمثال هذا الطبيب يمكن ردعهم بقوّة القانون.. عليك أولًا أن.... الخ.. الخ...

☆ ☆ ☆

من تقرير الطب الشرعي الخاص بالمرحومة (هانم عبد الظاهر موسى):

.... وقد تبين من الصفة التشريحية للمعدة أن المتوفاة كانت تعاني سرطان معدة متقدمًا، وقد حدث تحلل في الورم مما أدى إلى نزف شديد. وقد تبين أن الوفاة لا علاقة لها بالعلاج الذي كانت

تتلقاه المتوفاة، وكانت ستحدث عاجلًا أم آجلًا، والحقيقة أن سرطان المعدة قد يحدث في حالات ضمور الغشاء المخاطي للمعدة المصاحب لحالات الأنيميا الخبيثة، وعلاج المريض بفيتامين ب 12 وحمض الفوليك لا يؤثر في التطور الطبيعي لمرض السرطان على كل حال.

بالتالي نحن لا نرى أن العلاج أضر بالمريضة بل ربما العكس.

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها لمامًا:

أعوذ بالله! دائرة النحس لا تفارقني، وقد تغيرت حياتي بالكامل.. أعرف أنّ هذا قد يبدو مُضحكًا حين أقوله أنا بالذات.. لكنني قد صرت منحوسًا!!

على الأقل صرت أكثر نحسًا مما كنته طيلة حياتي!

☆ ☆ ☆

- 6 -

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها لمامًا:

اليوم فقط قرأت مقالي الذي أرسلته إلى تلك المجلة بناء على طلبها.. ما أجمله من مقال! ما أدق منطقي! كل شيء يمكن تفسيره علميًا وبالورقة والقلم.. أسهل شيء هو أن تبدو حكيمًا مثقفًا على الورق.. ولكن ما معنى هذا الذي أمر به؟ أنا لم أؤمن قط بالنحس، لكنه يلاحقني بشكل غير مسبوق.. ما رأى (فرويد) في هذا؟

☆ ☆ ☆

صورة من أقوال الدكتور (رفعت عبد الحفيظ إسماعيل):

: اسمك وسنك وعنوانك..

(رفعت إسماعيل عبد الحفيظ).. تسعة وأربعون عامًا تقريبًا.. أقيم في الدقي... القاهرة.. عزب لو كان هذا مهمًا.

: ماذا حدث في شقتك يوم الأحد 27 أبريل؟

كنت قد عدت إلى داري مساء، وأنا أسكن وحدي بالمناسبة.. كنت أزور صديقًا لي يعيش في (الزمالك).. ثم عدت لداري حاملًا بعض لوازم العشاء.. بدأت الطهي وفتحت جهاز التلفزيون عاليًا كي أسمع ما يدور من أحداث في السهرة.. إنني اعتدت استخدام جهاز التلفزيون كأنه مذياع متطور، يتيح لك النظر أحيانًا.. هنا حدث شيء غريب.. لقد انخفض صوت التلفزيون فجأة حتى حسبت أن خللًا قد حدث فيه.. عدت إلى الصالة ورفعت الصوت ثانية فتأكدت من أنّ هناك من خفض الصوت..

: هل تتهم أحدًا بالذات؟

سيدي.. أنا لم أنته من قصتي بعد! لا يمكن أن آتي إلى هنا كي أتهم أحدًا بأنه خفض صوت التلفزيون عندي.. أرجو أن تتركني أكمل!

: أكمل من فضلك..

حسن.. عدت إلى المطبخ وعاودت ما أقوم به، لكن الصوت انخفض ثانية.. بيني وبينك بدأ الفأر يلعب في عبي.. أو - كما يقول الإنجليز - شممت فأرًا.. هذه الأشياء لا تحدث تلقائيًا.. هناك شخص معي في الشقة ويعابثني.. هكذا خرجت إلى الصالة وصحت بصوت حازم لكنه راجف: كف عن المزاح وأرني من أنت.. لم أكن مسلحًا فحملت سكينًا، ورحت أبحث عن المتسلل.. أنتم تعرفون أن متسللًا جاء البناية منذ أيام وأشعل حريقًا على السطح، وبرغم أن البواب صار أكثر يقظة إلا أنّ تسلل شخص آخر وارد.. كان لدي مسدس مرخص لكني فقدته في إنجلترا في مغامرة يطول شرحها مع أكلة لحوم البشر في المجاري و....

: أكمل من فضلك!

هنا لاحظت شيئًا عجبًا.. كنت أمر أمام مرآة الصالة حين رأيت فيها شخصًا يقف وراء ظهري.. بالضبط يقف خلف ظهري ويمد يديه ليغرسهما في عنقي.. لم أستوعب وجهه سريعًا لأنني استدرت للوراء، لكن ما رأيته لم يكن مريحًا على الإطلاق.. آخر ما رأيته لم يبعث الطمأنينة في قلبي.. أقول آخر ما رأيته لأنني استدرت للوراء بسرعة فلم أر أحدًا.. وعدت أفتش عن الرجل في الشقة.. تكرر الموقف ذاته أمام مرآة غرفة النوم المثبتة إلى خزانة الثياب.. كان الرجل يقف خلفي مستعدًا لخنقي.. وهذه المرّة استدرت بسرعة للوراء وسددت طعنة نجلاء حيث كان يجب أن يكون قلبه، لكن الطعنة ضربت الهواء ولم يحدث شيء..

: هل ميزت ملامحه في المرأة؟

للأسف ليس تمامًا.. إن الرجل غريب.. في لحظة تراه تدرك أن شكله غريب وأنه مخيف حقًّا، ثم لا تراه فتنسى تمامًا كيف كان يبدو، بل إنك تتساءل عن سبب خوفك السابق..

: هل تعني أنك رأيته من جديد؟

نعم.. في مرآة الحمام.. كنت قد دخلت كي أغسل وجهي.. وهذه المرّة كان يقف ورائي، وشعرت بأنه يمد يده ما بين ضلوعي... بالفعل كانت يده تخرق ضلوعي لتعصر قلبي.. صرخت.. أطلقت عواء طويلًا كعواء الذئاب، لكني كنت أختنق على طول الخط.. بالطبع لم أستطع أن أميز الكثير من ملامحه لأنني كنت في لحظات الموت الأخيرة التي لا تمنح المرء ترف الدقة العلمية.. لو أنك قتلت (داروين) نفسه فلا أعتقد أنه سيجد الموضوعية الكافية كي يدرس ملامحك.. رحت أتملص ثم - لسبب ما - حملت الكوب الزجاجي الذي استعمله للمضمضة في أثناء غسيل أسناني، وقذفت به في المرآة لتتهشم..

: ولماذا المرآة وليس الرجل؟

ما كنت لأستطيع الوصول إليه.. هذا وضع مستحيل.. ثم إن خاطرًا سخيفًا جاب ذهني وأرجو إعفائي من ذكره.. المهم إنني غبت عن الوعي، وحين أفقت كنت ممددًا على أرضيّة الحمام المبللة مرهقًا كالخرتيت.. لكني كنت حيًّا.. وأدركت أن الشيء قد ذهب..

: سؤال خارج الموضوع ولن ندونه في المحضر.. هل الخرتيت يُرهق؟

لا أعتقد.. لكني لو شبهت حالى بحيوان (السلوث)، فلن تفهمني..

: تريد أن تخلص إلى أنّ هناك من هاجمك وهو لا يُرى إلا في المرايا؟ ألا ترى أنّ هناك شيئًا عجيبًا في هذا البلاغ؟

أعرف.. لكني رأيت في حياتي غرائب كثيرة، ولم تعد هذه الأمور تدهشني.. فقط أريد التأكد من أنّ هذا ليس مجرد لص، وأنني لست مجرد عجوز مخرف..

: هل اختفي شيء من الشقة أو لمحت أية علامات اقتحام؟

لا.. الأبواب كلها مغلقة.. لم يسرق شيء..

: ألا ترى أن التفسير الوحيد الواضح هو أنك كنت تهلوس يا دكتور؟

لست من معتادي الهلوسة كما يعرف الناس عني.. لكني قدرت أنّ هناك ثلاثة احتمالات: أولًا احتمال أنه لم يحدث شيء وأنا تخيلت الموضوع بأسره.. هذا وارد لكني أريد أن أبرهن عليه.. يوم أجن لن أكون متعصبًا، وسأقبل الحقيقة برضا فقط لو تأكدت منها بشكل علمي.. الاحتمال الثاني أنّ هناك لصًا كان في شقتي وكاد يقتلني.. وهذا معناه أنني كنت أهلوس بصدد عدم ظهوره في المرآة.. الاحتمال الثالث هو أن ما حكيته دقيق حرفيًا، وهذا معناه أن ما حدث لا يندرج تحت نطاق أعمال الشرطة، ولكنّه من الأمور التي اعتدتها والتي صارت هي نمط حياتي..

: حتى هذه اللحظة يبدو لنا الاحتمال الأول هو الأقرب إلى الصواب..

أعرف.. لكني قدمت البلاغ كي أتاكد من أن أحدًا لم يتسلل لشقتي بشكل نظيف.. فقط الشرطة يمكنها تأكيد هذا أو نفيه.. لكن هناك نقطة واحدة تشعرني أن ما حدث لم يكن جنونًا.. أنتم تعرفون أن المرء لا يستطيع أن يرى ظهره، لكنه يستطيع ذلك بوساطة مرآتين، وأنا جربت ذلك قبل أن آتي هنا..

: ماذا تعني يا دكتور؟

كانت هناك كدمة زرقاء كبيرة بين لوحي الكتف.. والكدمة لها خمسة أصابع.. كما كانت هناك قطرات دم لوثت قميصي الداخلي... إن ظهري يحمل آثار يد حاولت جاهدة أن تخترق صدري، وربما نجحت في ذلك!

☆ ☆ ☆

- 7 -

ركن (طبيب القلوب) في مجلة (النصف الحلو):

صورة مرسومة من تلك الصور السخيفة هي مزيج من عيون تدمع وقلوب يخترقها سهم.. الخ.

عزيزتي (هيام):

أنا شديدة الإعجاب بهذا الركن الذي يجد فيه الشباب متنفسًا لأسرارهم العاطفيّة، وأرجو لك تمام التوفيق. أنا طالبة في كلية الآداب، يقولون إنني جميلة ورقيقة. ليست لي صديقات إلا واحدة تدعى (سارة). ومن الغريب أننا نتبادل الخطابات لأننا لا نستريح كثيرًا للكلام الكثير. وهي تعرف هذه المشكلة لكنّها لم تجد لي حلًا. بدأت المشكلة منذ عامين حين تعرفت شابًا من زملائي كان من أكثر الشباب تهذيبًا ولطفًا ومن المتقدمين في الدراسة.. وتعاهدنا على أن نتزوج بمجرد التخرج. لكني كنت أشعر بمرور الوقت أنني كنت متسرعة وأنه لا يناسبني.. والسبب هو أنه تافه إلى حدٍ ما.. نعم وجدته تافهًا بعدما زالت سحابة الانبهار الأولى.. سرعان ما تنجلي الغيوم لتظهر عيوب الحبيب وأعرف كم كنت حمقاء.

صارحته بهذا، لكن ـ لأنّه تافه ـ لم يستطع قط أن يغفر لي، وقال إنّه يعرف أنني اخترت واحدًا آخر، وأنه لن يترك أحدًا يفوز بي أبدًا.. والحقيقة هي أنني كنت أهيم حبًّا بواحد من أقاربنا يقيم عندنا في البيت وهو متقدم في السن، لكنه إنسان راق بالمعنى الحرفي للكلمة، وقد رفض حبي في أدب.. لكني ما زلت آمل في أن أقنعه بأنني من يناسبه..

المهم أن ذلك الشاب لم يكف عن الاتصال بي.. وكان يترك لي قصاصات من الورق تنذرني بالويل بين دفاتري في الكلية، دعك من المكالمات الهاتفية التي أرد عليها فلا أسمع إلا صوت تنفسه الثقيل..

لقد جعل حياتي جحيمًا، وفي ذات ليلة اتصل بي ـ لأن الهاتف في غرفتي ـ وقال إنّه يريد أن يلقاني.. قلت له إنّه مجنون لكنه قال إنّه لو لم يلقني لجاء إلى شارعنا وأحدث فضيحة فهو لا يبالي بشيء.. قال إنّه يعدني بأن تكون هذه آخر كلمات يتبادلها معي.. قال إنّه سيلقاني أمام مكتبة في شارعنا حددها لي بدقة.. وهكذا لم أجد مناصًا من النزول، ولو بعذر خائب.. وكانت النتيجة أنني تعرضت إلى ما يشبه عملية اختطاف في هذه الساعة المتأخرة من الليل لولا يقظة ضيف أبي وحرصه.. وهكذا فر خاطفي الذي لم أعرف من هو، لكني ربطت على الفور بين المعجب الولهان ومحاول الخطف... أعتقد أنه استأجر رجلين يقومان بهذه المهمة، ولعله أراد لعب دور (جامع الفراشات) في الفيلم الشهير..

طبعا لا يعرف أبواي بهذه القصة.. ولم أخبر بها أحدًا، لكن الرعب يملأ قلبي خوفًا من أن يكون ظني صحيحًا، وعندها لا أدري كيف أتخلص من هذا العاشق الولهان. يبدو أن افتتانه بي قد دخل إلى خانة الجريمة..

كيف يمكن لفتاة مثلي أن:

1- تتخلص من عاشقها القديم الذي يرفض الواقع؟

2 - تفوز بحب رجل في عمر أبيها يراها أصغر من أن تحب أو تحب؟

أسرعي بالرد أيتها العزيزة فالعام يدنو من نهايته ومن العسير أن تنجح من كانت في حالتي النفسية المتوترة.

المخلصة (هالة عزت)

المنصورة

☆ ☆ ☆

عزيزتي (هالة):

سررت كثيرًا لأنك عرفت الصواب مبكرًا ولم تتمادي في علاقة لا مستقبل لها، لكني أرى أنك تخطئين بحب قريبك المتقدم في السن هذا.. إن عقدة (أوديب) كامنة لدى كثيرات من الفتيات، وأكثرهن لا يقتنعن إلا برجل ناضج متقدم في العمر يصلح أن يكون أباهن.. الأب الذي يعرف كل شيء، ويحمي ويمنح الحنان..

لكن لا يصح إلا الصحيح... سرعان ما تعرف الفتاة أنها حمقاء، وأن الشباب للشباب.. صدقيني..

أما بصدد ذلك الشاب الذي يلاحقك، فلا أجد إلا الحل الوحيد الممكن: الشرطة.. لا بد من أخذ تعهد منه بعدم التعرض لك، وهذا بطبيعة الحال يستلزم أن تعرف أسرتك بالقصة كلها، ولا أجد في ذلك ما يشين أو يضر.. إن علاقتكما كما قلت لم تكن سوى عهد طفولي على الزواج لا يمكن أن يحاسبك عليه أحد..

إن بعض الحرج قد يصيبك لكنه خير من الضرر الذي قد يسببه هذا الفتى لحياتك.. والصراحة كضوء الشمس تنفتح فيها زهور القرارات الصحيحة.. الخ.. الخ.. (إلى آخر هذا الهراء)..

هيام

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها لمامًا:

يبدو أنني أدمنت مجلة (النصف الحلو).. ولعل السبب هو أنني بدأت أشتريها لأقرأ مقالي إياه عن التطير، ولشدة دهشتي بدأت أحب هذه المجلة البلهاء أنا الذي لا أطيق المجلات الخفيفة على الإطلاق.. لشد ما شعرت بالخجل وأنا أتعود عالم تلك المجلة وأطالعها بشغف، ويبدو أن جزءًا في ذاتي يصبو إلى أن يكون رائق البال خاليًا من الأحزان التي تغلف عالمي.. كطفل أحمق أطالع رسوم الكاريكاتور وأحل الكلمات المتقاطعة، وأقرأ مشكلة النجمة الفلانية التي لا تحب البامية، وقصة طلاق الفنان العلاني من زوجته.. وآتي بالقلم الرصاص لأرسم للفأر طريقة الوصول إلى قطعة الجبن عبر المتاهة.. يبدو أنني عجوز تافه..

قرأت في مشاكل القراء العاطفيّة قصة (سارة عماد).. (سارة) التي حسبت أنها تحبني وتملصت منها برفق وتهذيب.. كل شيء في المشكلة كان يتكلم عن أشياء أعرفها وأنا متأكد منها.. الآن يوجد تفسير منطقي نوعًا لحادث الاختطاف الذي نجت الفتاة منه.. لكن عيني انزلقت عبر السطور إلى التوقيع الذي يذيل الخطاب: (هالة عزت).. أنا أعرف هذا الاسم لأن صاحبته أرسلت لي زهورًا في المستشفى، وقالت إنها صديقة (سارة)..

ما معنى هذا؟

لماذا توقع فتاة باسمها كاملًا على مشكلة عاطفيّة حساسية كهذه، وعهدي بهن أنهن ـ مهما كان اسمهن ـ لا يوقعن إلا بـ (المعذبة س.ح.م)؟ ثم ـ والأغرب ـ لماذا تستعمل اسم صديقتها لا اسمها هي؟ إن هذه مشكلة (سارة) لا شك فيها.. مشكلتها لا مشكلة صديقتها..

ثمة شيء آخر مهم.. الفتى لم يتصل بـ (سارة) قط.. كيف يفعل وقد كنت أنا جالسًا جوار الهاتف الوحيد في البيت ليلتها؟! أول ما جال بذهني أنّ هذا مقلب.. دعابة عملية سخيفة كما يحدث أحيانًا حين يرسل شاب خطابًا غراميًا يحمل اسم صديقه إلى فتاة.. (سارة) تداعب صاحبتها دعابة قاسية..

ثم تذكرت باقة الزهور التي جاءتني في المستشفى بالقاهرة.. هل هذه دعابة أيضًا لم أستطع أن أنتظر واتصلت بـ (عماد) هاتفيًا.. لم يكن في البيت لكن زوجته (فايزة) كانت هناك، وقد اطمأننت على صحتها طبعًا.. سألتها إن كان السرطان قد عاد كما أتوقع، لكنّها أفهمتني أن (الملافظ سعد).. عدت أسألها عن (سارة) وأحوالها، ثم سألتها عن صديقة (سارة) المقربة (هالة عزت).. أين تقيم ومن أين تعرفني..

كانت الزوجة قاطعة في كلامها.. أنه لم ولا ولن توجد أية صديقة لـ (سارة) باسم (هالة عزت).. (سارة) ليست لها إلا صديقة واحدة تدعى (سوزان)، وفيما عدا هذا هي لا تطيق تفاهة الفتيات الأخريات... من العسير على الأم ـ قالت (فايزة) ـ أن تجهل صديقة مقربة لابنتها.. هي لا تعرف الكثير عن زملاء (سارة) لكنّها تعرف كل شيء عن زميلاتها.. لأنه لا سبب يدفع الفتاة لإنكار وجود صديقة ما..

كلام منطقي وقد اقتنعت به.. لا توجد لـ (سارة) صديقة اسمها (هالة عزت)..

ما معنى هذا إذن؟

ومن جديد راح الشعر ينتصب على جلد ساعدي كعادتي كلما شعرت بدنو شيء مخيف.. شيء غامض.. (سارة) إذن ليست على ما يرام... خلقت شخصيّة وهمية اسمها (هالة).. شخصية تراسلها وتحكي لها أسرارها وترسل مشاكلها للمجلات.. بل وترسل باقات الزهور باسمها..

هل هو فصام؟ لا أظن.. من المعتاد بالنسبة للمراهقات أن يستعملن أسماء مستعارة، وأن يوجهن خطابات عاطفيّة ملتهبة لأنفسهن، وأشياء من لقد هذا القبيل تدفع الواحد منا إلى الجنون..

لكني بصراحة ـ لم أعد أشعر بأني راحة.. وأتساءل: هل لـ (سارة) دخل ما بكل ما مررت وأمر به؟

لن أعرف، إلا حين أعرف!

☆ ☆ ☆

- 8 -

تفريغ للحوار الذي دار بين العميد (محمد منصور) والدكتور (رفعت إسماعيل) في مديرية الأمن:

رفعت: لكني لا أفهم.. لماذا تسجل ما نقول؟

العميد: هذا (شغل مباحث) يا دكتور! هاهاها! هذه طريقة أثيرة لدي كي لا أنسى شيئًا مما سيقال الآن.. بالمناسبة أنت رجل حساس... وكأكثر الحساسين لا تشعر براحة مع الشرطة..

رفعت: كان هناك طفل أوروبي شقي.. أرسله أبوه إلى قسم الشرطة حاملًا خطابًا مغلقًا ليسلمه للمأمور.. قرأ المأمور الخطاب، من ثم أصدر أمره للسجان كي يأخذ الغلام إلى زنزانة ويغلقها عليه... ظل الصبي يصرخ ويولول عدة ساعات حتى جاء المأمور ليخرجه، ويقول له: «لقد طلب أبوك منا ذلك في خطابه! هذا هو جزاء الصبية الأشقياء».. لقد كبر الغلام ولم ينس قط هذه الحادثة، وظل يهاب الشرطة ويهاب الآباء ويذكر صراخه وحيدًا في الزنزانة.. ولهذا السبب اهتم فيما بعد بسينما التوتر التشويق، وعرفنا نحن اسمه فلم ننسه.. إنّه (ألفريد هتشكوك)!

العميد: لا يمكن القول إنها طريقة تربوية محببة، لكنّها على الأقل جاءت بمخرج من وزن (هتشكوك).. إن الخوف من الشرطة يفيد أحيانًا!

رفعت: لكن دعنا من هذا يا سيادة العميد، ولندخل في سبب استدعائي هنا..

العميد: لا أدري إن كنت أبالغ في أوهامي، ولا أدري إن كنت أنت طرفًا في القصة أم لا.. لكني....

رفعت: سأسهل عليك الأمور.. تريد أن تعرف إن كنت حالة جديدة من حالات الموت أمام المرآة..

العميد: كيف عرفت ذلك؟

رفعت: لأني عبقري لو كنت قد لاحظت هذا! الحقيقة هي أنني كنت أطالع عددًا لا بأس به من الصحف البائتة في الفترة الماضية، ولاحظت ملاحظة غريبة... الأشخاص الذين ارتبطت حياتهم بالرقم 13 يموتون أمام المرآة.. هذه قاعدة غريبة لكنّها تبدو صائبة.. عندك الممثل (تامر فتحي) ولاعب كرة شاب اسمه ـ على ما أذكر - (رضا زغلول) وشاعر واعد - كما يصف نفسه ـ اسمه (محمود عبد الرحمن) ومخرج السينما الواعد أيضًا (عادل فهيم).. يبدو أن الواعدين صاروا أكثر من اللازم في مصر هذه الأيام...

العميد: لكن عددهم نقص ثانية.. أكمل كلامك..

رفعت: لا أدري كيف ولا متى شعرت بهذا الارتباط لكنه بدأ يتكون ببطء وثقة.. وجاءت اللحظة التي آمنت فيها أن رقم 13 يسبب موت المرتبطين به بشكل ما.. هذا بالمناسبة يقودني إلى السؤال عن كيفيّة إقحامي في هذه الأحداث..

العميد: إن الرائد (معتز) كان جالسًا وأنت تدلى بأقوالك، وقد أثار موضوع المرآة اهتمامه خاصة أنني ناقشته معه كثيرًا هنا... هذا رجل كاد يموت لمجرد أنه وقف أمام المرآة.. وخطر له أنّ هناك رابطًا ما بين الحدثين، لهذا جاء إليَّ وقال الكلمات السحرية: هناك شيء ما يدور هنا.. وهكذا قررت أن آتي بك لنتبادل الحديث المفتوح مع قدحين من القهوة..

رفعت: في الحقيقة لا أدري ما أعتقده.. إنني أتحرك في الظلام..

العميد: لكن تحرياتنا تؤكد أنك تفهم في هذه الأمور...

رفعت: لا أحد يفهم في هذه الأمور إلا لو صار شبحًا.. أنا خضت الكثير من تجارب ما وراء الطبيعة، لكن هذه المشكلة بالذات تصطدم بقناعاتي.. لا أبتلع وجود النحس ولا أستطيع ابتلاعه مهما حاولت..

العميد: هذا يسرني لأنّه من العسير أن نتهم النحس في تقاريرنا.. لكني أفترض أن لديك خيطًا لا نعرفه..

رفعت: هناك النحس الذي يلاحقني.. حادث تصادم وحريق على سطح البناية.. و...

العميد: لن نأخذ هذا بجديّة... حوادث الطريق تقع ما دام هناك سائقون مستهترون.. والحريق بدأه صبي من هواة إشعال الحرائق... لقد قبضوا عليه بعد هذا بيومين وهو يحاول بدء حريق في بناية أخرى.. وقد اعترف بأنه تسلل إلى بنايتكم بينما البواب يبتاع علبة سجائر لأحد الجيران.. لنقل إن الحادث الحقيقي الذي وقع لك هو موضوع المرآة..

رفعت: غريب هذا! لكن ما زال الخيط الوحيد لدي هو رجل يدعى (علي رستم).. إنّه غريب الأطوار يعيش منفردًا ويبدو أن كل من زاره دخل في دائرة نحس لم يخرج منها قط.. والغريب أنه الوحيد الذي أعرفه ويرتبط اسمه برقم 13 وبرغم هذا هو في أتم صحة كالجرس.. ما سبب استبعاده من لعنة الرقم المشئوم؟

العميد: وهل زاره الباقون؟ أعني هؤلاء الذين لقوا حتفهم؟

رفعت: لا أعرف.. للأسف لا ينشرون في نعي الموتى أسماء من كانوا يزورونهم بانتظام...

العميد: سيكون هذا مفيدًا لو تم...(علاء).. أرجو أن تدون عنوان الرجل جيدًا وأن تعرف كل شيء عنه بدقة.. (علي رستم).. إن الاسم مألوف... على كل حال هناك أسماء حتمية تفرض التحام

اسمين دائمًا.. لقد قابلت في حياتي عشرين (علاء بسيوني) وعشرة (محمد سامي).. يبدو أن (علي رستم) اسم حتمي آخر..

رفعت: (يملي العنوان في المنصورة).. هذا هو.. هل تنوون استجوابه؟

العميد: لا بأس بأن نسأله عما يعرفه عنك.. إن لدينا مبررًا كافيًا لاقتحام عالمه..

رفعت: شكرًا لك سيدي.. هل من خدمة أخرى؟

العميد: في الوقت الحاضر لا.. ابق على اتصال يا دكتور.. من يدري؟ لعلك تصير مخرج رعب شهيرًا يومًا ما!

(ضحكات عصبية).

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها لمامًا:

أنا لا أفهم شيئًا مما يدور، لكني خمنت شيئًا.. خمنته حتى وأنا أرى ذلك المهاجم يقف خلفي.. لقد كان تهشيم المرأة هو الحل الوحيد الصائب.. كان القدماء يعتقدون أن أرواح الموتى تخطف أرواح الأحياء عبر لجين المرايا.. كانوا يخرفون.. لكني لا أستطيع أن أنفي أنّ هذا أفاد معي.. إن هذه الانعكاسات التلقائية التي نأتي بها دون تفكير قد تفيد أحيانًا.. حتى قبل أن أمنطق ما حدث فعلته.. ويبدو أنني نجوت لهذا السبب بالذات..

لو رآني أحد لسخر مني أو ارتجف هلعًا، لكني بالفعل قمت بتغطية كل المرايا في شقتي.. منظرها مريع وهي تقف في كل صوب كشواهد القبور أو الأضرحة، لكني مضطر لهذا الاحتياط إلى أن يكف المهاجمون عن خنقي حين أقف أمام المرآة..

لكن يبقى أثر مادي لا شك فيه هو القبضة في ظهري.. معنى هذا أن ما كان يهاجمني كان موجودًا بالفعل خلفي.. كان هناك من البداية..

ما معنى هذا؟

سأحاول ترتيب الحقائق كعادتي وعساي أصل لشيء:

1 - جرائم قتل تحدث لمن يتعامل مع رقم 13، أو يتفاخر بأنه لا يخشاه.

2 - يبدو أنها لا تحدث إلا أمام المرايا.

3 - هناك من يُدعى (علي رستم) وهو شخص لا يبذل المرء جهدًا عظيمًا كي يكرهه.

4 - كل من زار (علي رستم) أو تعامل معه، أصيب بسوء حظ غريب.

5 - ارتباط (علي رستم) بالرقم 13 مريب حقًّا وبرغم هذا لم يمسسه سوء.

6 - (سارة عماد) على شيء من الخبال، ويبدو أنها ذات شخصيّة سرية.

7 - لم أعد أندهش كلما عرفت أن الفتاة التي تحبني، هي مجنونة تمامًا. لقد غدت هذه قاعدة.

ما معنى هذا؟ لا معنى له حتى الآن..

ثمة سؤال واحد مهم هنا.. هل زار أحد ممن توفوا (علي رستم)؟ ليس إثبات هذا عسيرًا.. لكنه مهم جدًا لتكتمل القصة..

☆ ☆ ☆

تفريغ جلسة تحليل نفسي أجراها د. (محمد إبراهيم) أستاذ الطب النفسي للمريضة (سارة عماد):

صوت د. (محمد): يمكن أن أفترض أن أباك لا يعرف أنك هنا..

صوت (سارة): طبعًا.. طلبت منك هاتفيًا ألا ينزلق لسانك لو قابلت أبي بعد هذا.. أنا لست من الطراز المستقل الذي يفعل شيئًا دون أن يستشير أهله، لكن بالنسبة للطب النفسي..

صوت د. (محمد): أفهم.. أفهم.. إن الأسر المتوسطة تعتبر هذا عارًا.. ولا بد أنّ هذا هو نفس السبب الذي جعلك تتركين المنصورة إلى القاهرة..

صوت (سارة): إذا بليتم فاستتروا... أردت طبيبًا لا يعرفني ويصعب أن ألقاه في الشارع.. أبي ظل ينكر طويلًا أنه عولج نفسيًا، لولا انزلاق لسان الدكتور (رفعت)، وقد فهمت من أبي أنك بارع وأن د. (رفعت) هو من أوصاه بك.. ثم إنني لا أعرف أي طبيب نفسي في بلدتي.. وهكذا خرجت في الصباح بحجة الذهاب للكلية ثم ركبت أول سيارة إلى القاهرة، ولم يكن العثور على عيادتك صعبًا.. أعتقد أنني سأتمكن من العودة قبل العصر..

صوت د. (محمد): أرجو أن تكون لي أهميّة ما بعد كل هذه الإجراءات البوليسية..

صوت (سارة): القصة تبدأ وتنتهي عند المدعو (علي رستم).. إنّه شخص غريب الأطوار.. تصوّر أنه يعيش وسط كل ما نعتبره نحسًا؟

صوت د. (محمد): هذا غريب حقًّا..

صوت (سارة): زرته مع أبي مرة واحدة ومن حينها تبدلت شخصيتي تمامًا.. صرت أتخذ أغرب القرارات وأشعر بأغرب الأشياء.. خيل لي ذات مرة أنني.. ولكن دعك من هذا الهراء..

صوت د. (محمد): سماع الهراء هو مهنتي..

صوت (سارة): خيل إلى أنني أحب الفزاعة المعروفة بـ (رفعت إسماعيل)..

صوت د. (محمد): معك حق.. هذا هراء غاية في الهراء.. لكنه ليس سببًا قويًا للمجيء هنا..

صوت (سارة): بدأت أشعر بأن هناك صديقة لي اسمها (هالة).. كنت أكتب لها الخطابات وأصارحها بأسراري برغم أنه لا وجود لها..

صوت د. (محمد): سلوك معتاد في المراهقة.. هذا مجرد تفاعل عادي للوحدة..

صوت (سارة): طلبت من أحد الفتيان المعجبين بي أن يأتي لشارعنا ليلًا وأن يخطفنى لنتزوج.. كان مجنونًا ووافق على اقتراحي على الفور.. بدا لي هذا رومانسيًا كأنه ذلك الفارس ذي الحصان الأبيض الذي يخطف كل الفتيات.. الفارق هنا أنه جاء بسيارة سوداء حسب الموعد المتفق عليه.. هنا أصابني الذعر واستغثت وجريت وكاد الدكتور (رفعت) يفتك به...

صوت د. (محمد): هذا غريب.. تريدين القول إنك رتبت عملية اختطافك بنفسك، ثم صرخت وجريت؟

صوت (سارة): نعم.. ألم تدرك بعد أنني جئت لك لأنني أستحق هذا؟

صوت د. (محمد): وكل هذا بعد لقاء (علي رستم)؟ ماذا كان في ذلك الرجل؟

صوت (سارة): لا أدري.. لكنني أذكر عينيه الثابتتين الواثقتين وصوته المؤثر القوي.. كان أبي أيضًا لا يشعر بأنه على ما يرام.. ثمّة شيء خطأ في الرجل.. شيء لا يمكن وصفه..

صوت د. (محمد): أعتقد يا (سارة) أن علاجك سيستغرق عدة جلسات لأنك تعانين من عدة عصابات.. لكن إلام تلمحين بالضبط في كلامك عن (علي رستم)؟

صوت (سارة): أرجو ألا تسخر مني.. لكني أعتقد أن الرجل سحرنا..

صوت د. (محمد): ثمّة تفسير أكثر عقلانية.. هل تزعمين أن الرجل نومك مغناطيسيًا؟

صوت (سارة): لم لا؟ أعتقد أنّ هذا هو التفسير الصحيح..

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطر د. (رفعت إسماعيل) التي يكتبها أكثر من المعتاد هذه الأيام:

الآن تتضح الأمور.. د. (محمد إبراهيم) اتصل بي وكان في غاية الحرج.. إنّه مضطر لإفشاء أسرار مريضه، وعذره الوحيد هو أنه بهذا ينقذ الناس من ضرر أكبر، ثم إنني طبيب، والفتاة

قريبتي... لكني أعرف الرجل وأعرف أنه يفضل الموت على إفشاء حرف مما قيل في الجلسات..

كل شيء يؤكد أن (علي رستم) ينوم زواره مغناطيسيًا، أو - على أقل تقدير - يجعلهم يتصرفون برعونة وغباء.. ربما بعد أول لقاء وربما بعد أكثر من لقاء.. أنا نفسي أعتقد أن شيئًا ما أصابني بعد لقائي معه.. صوته الثابت وعيناه الناعستان الثابتان.. ألا يدفعك هذا للنعاس؟ هل كان شيء ما في الشراب الذي قدمه لي؟ لماذا استغرق اللقاء ثلاث ساعات برغم أن ما قيل فيه لا يتجاوز العشرين جملة؟

هل يمكن تفسير القصة هكذا؟

(سارة) تحبني بلا مبرر وترتب بنفسها أحداث اختطافها..

(عماد) عاجز بالطبع عن تفسير موت أقاربه والشرخ في مسكنه، والسرطان في صدر زوجته، لكن من الممكن أن يؤدي التنويم المغناطيسي إلى أن يتشاجر مع رئيسه.. الحقيقة هي أن كل ما حدث لـ (عماد) لا تفسير له إلا قانون الصدفة..

وأنا؟

هل حقًّا لم يكن لي دور في حادث التصادم؟ هل كانت المقطورة هي السبب؟ أم أنني تخيلت هذا وأربكت السيارات الأخرى من حولي؟

صبي أشعل الحريق على السطح.. لا أريد أن أبدو أحمق، لكن فكرة صعودي إلى السطح لأشعل حريقًا ثم الاستغاثة برجال الإطفاء، كانت لتملأ قلبي رعبًا..

هل حقًّا كنت مصيبًا في حالة المريضة (هانم عبد الظاهر)؟ الطب الشرعي برأ ساحتي، لكن هل أنا بريء الساحة فعلًا؟

هل (علي رستم) ينوم ضحاياه كي يتصرفوا برعونة.. كي يقعوا في المشاكل ويكون حظهم أسوأ منه؟ هل هذه هي طريقته في الانتقام من المجتمع الذي لم يكف عن اعتباره نحسًا؟

ماذا عن الذين ماتوا فعلًا أمام المرايا لو كانت لهم علاقة بالمدعو (رستم) هذا؟ هل هم منتحرون إذن؟

لقد صارت الورقة تحمل أجمل مجموعة علامات استفهام رأيتها في حياتي، وكأنها ليست خواطر بل قطعة زخرفية جميلة، أو - على الأقل - ورقة امتحان مادة الفيزياء للثانوية العامة..

إن نظريتى نظرية جميلة لكن ينقصها البرهان...

☆ ☆ ☆

جزء من تقرير الرائد (علاء بسيوني) لرئيسه:

بناء على التكليف الصادر من سيادتكم، توجهت إلى المنصورة، ومع مجموعة من الرجال ومقدم كلفه العقيد (...) بمعاونتي، ثم اتجهنا إلى عنوان المدعو (علي إبراهيم رستم) الذي تم تكليفي باستجوابه. وقد سمح لنا البواب بالدخول وسبقنا إلى الباب الداخلي ليدعو سيده. لكن بعد عدة محاولات لم يستجب أحد، وكان الرجل متأكدًا من أن صاحب المسكن موجود، وهكذا اضطررت مع بعض الأفراد إلى تهشيم الباب.

وبالبحث في الداخل لم نجد الرجل في أية غرفة بالفيلا، إلا أنّ أحد الرجال دخل إلى الحمام وعاد ليبلغنا أن المذكور بالداخل، ويبدو أن حالته ليست على ما يرام. دخلنا الحمام لنجد الرجل على الأرض المبتلة، وكان يلبس ثيابه الداخلية ما عدا سروال منامة. وكانت في يده اليمنى علبة ثقاب وفي اليسرى لفافة من الورق. ويبدو أنه كان يقف أمام مرآة الحمام حين سقط. كان من الواضح أنه ميت لكننا استدعينا الإسعاف وحرصنا على ألا نلمس أو نتلف شيئًا. وبقدوم رجال الإسعاف صار خبر الوفاة مؤكدًا، ولم تكن هناك آثار مقاومة أو جروح لكن ملامح المتوفى كانت تعكس ألمًا شديدًا، وكانت رغاوٍ كثيرة متجمعة ما بين شفتيه مما رجح احتمال إصابته بنوبة قلبيّة. وقد قمنا بنقل جثته تمهيدًا لتقرير الطب الشرعي، واستدعينا رجال البحث الجنائي الذين ما زلنا ننتظر تقريرهم.

☆ ☆ ☆

صفحة من خواطرد. (رفعت إسماعيل) التي امتلأت تمامًا:

لقد مات (علي رستم)!

مات بنفس الطريقة الغامضة الغادرة.. وشخص آخر يعض التراب كما يقول الإنجليز...

الآن فقط عرفت أن الرجل بريء.. لم يكن وغدًا.. كان مجرد أحمق آخر.. كان مجرد أحمق مثلي بالضبط.. لقد برهنت نظريتي على فشل ذريع، وعليَّ أن أعترف بأنني كنت مخطئًا، وعليَّ البحث عن تفسير جديد... لماذا تفسير جديد؟ لماذا لا أنسى الأمر برمته؟

للأسف هذا لا يمكن.. هناك من يتربص بي وينتظر اللحظة المناسبة، وأنا - حتمًا ـ سأدخل مكانًا فيه مرآة يومًا ما.. أليس هذا واردًا؟

☆ ☆ ☆

- 9 -

خبر في صفحة الوفيات من جريدة (....):

كل نفس ذائقة الموت

بقلوب يغمرها الأسى تتقبل أسرة الفقيد

مهندس / علي إبراهيم رستم

العزاء في مصابها

زوج السيدة (شاهيناز الفندي) وشقيق كل من الدكتور (سالم رستم) الأستاذ بكلية الصيدلة جامعة.... الخ.. الخ.. (الكثير من الادعاء والتفاخر من منطلق: نحن أكثر منكم مالًا وأعز نفرًا)..

☆ ☆ ☆

خطاب السيدة (شاهيناز الفندي) إلى د. (رفعت إسماعيل):

السيد الفاضل د. (رفعت):

برغم أن الوقت غير مناسب، وأنك أرسلت لي هذا الخطاب بشكل غريب مع شقيق زوجي، فإنني قرأت أسئلتك بعناية.. وشعرت بدهشة تدفعني إلى الرد عليها بدلًا من تمزيق الخطاب.. من الواضح أنك لم تجد طريقة للاتصال بي إلا حضور سرادق العزاء والاتصال بشقيق المرحوم... وقد قدم لي هذا الظرف المغلق وهو مرتاب تمامًا..

كانت الورقة تحوي أسئلتك مع عنوانك ورقم هاتفك وطلب تحديد موعد.. وأعتذر لك عن الاتصال الهاتفي أو تحديد موعد لأنني بصراحة لا أجد سعة نفسية لهذا، كما أنني في البحيرة حاليًا ولست في القاهرة أو المنصورة... أعتقد كذلك أن الكتابة تناسبك أكثر.. والآن نناقش ما جاء في رسالتك..

نعم.. أنا زوجة الفقيد (علي رستم).. أرملته حاليًا.. ولم أمت.. نحن منفصلان بلا طلاق.. ولم أكن أعرف أنه يزعم للناس أنني ميتة..

أعتقد أنني مدينة لزوجي بمعروف صغير هو أن أثبت لك أنه مخبول تمامًا.. من العسير أن يقول المرء هذا عن شخص متوف لم يبرد في قبره بعد، لكن هذه هي الحقيقة، وأنت أكثر ذكاءً على ما أظن من أن تعتبر الشخص ملاكًا لمجرد أنه مات.. وزوجي لم يكن ملاكًا.. بالواقع لم يكن ملاكًا على الإطلاق..

لكني ـ أيضًا ـ لن أظلمه أكثر من اللازم.. هو لم يكن مسئولًا عن أفعاله.. لقد تكفل الناس بتحويله إلى معقد شبه مجنون، بسبب اعتبارهم إياه نحسًا.. وقد ظل طيلة حياته تؤرقه فكرة أن يبرهن للناس أنهم مخطئون... كان يضغط على أعصاب الآخرين أكثر من اللازم، ويفعل كل ما من شأنه أن يثير تطير الآخرين..

لكني لا أذيع سرًا إذا قلت إن زوجي كان يؤمن بهذه الأمور بشدة ويخافها بشدة.. كان عقله الباطن يلح عليه:

هل أنا نحس حقًّا؟ وكان يجاهد كي ينجح.. يجاهد كي يصير سعيدًا ويعرف الناس أنه سعيد..

ولأنه يؤمن بهذه الأمور فقد اتجه في سن الخمسين إلى دراسة السحر، واشترى العشرات من الكتب الصفراء مخيفة العناوين والأشكال، وراح يدرسها في إمعان.. لا أحد يقضي حياته وسط هذه الكتب ويظل سويًا.. الخلاصة أنه أحال حياتي جحيمًا وطلبت الطلاق لكنه أبى.. لم يشأ أن يبدو منحوسًا أمام الناس...

وكنت حازمة.. أخذت متاعي وذهبت إلى بيت أهلي في (البحيرة) ولم أعد ثانية، وهو لم يحاول استعادتي قط.. هل تعلم كم من الوقت؟ عشر سنوات.. عشر سنوات وهو يعيش وحده وأنا أعيش وحدي.. طبعًا لم تكن سني تسمح بالزواج ثانية، ولم أكن لأفعل لو استطعت ووافق هو على الطلاق..

والآن عاد اسمي يقترن باسمه في صفحات الوفيات ومصلحة المعاشات.. الآن فقط أتذكر وأفكّر..

ومن جديد أكرر.. لا زيارات من فضلك ولا مكالمات هاتفية.. لقد قلت لك ما تريد أن تعرفه.

شاهيناز الفندي

☆ ☆ ☆

تفريغ شريط تسجيل خاص بالدكتور (رفعت إسماعيل):

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم الذي يدنو من الشيخوخة بخطى سريعة..

أسجل هذا الشريط ليكون دليلًا لمن يجد جثتي، كي لا تكثر الأسئلة المحيرة.. وأنا أكره إزعاج الناس سواء في حياتي أو بعد مماتي..

أنا وحدي الآن في ساعة متأخرة من الليل.. أجلس في شقتي ولا صوت هنالك سوى صوت محرك جهاز التسجيل.. أعرف أنّ هذا الشعور موحش مخيف، لكن منذ متى لم تكن حياتي موحشة مخيفة؟

(يسعل) سأحكي أولًا ما استنتجته ثم أعرج على ما أنوي عمله..

كان كل شيء من البداية يشير بأصابع الاتهام أو التساؤل إلى (علي رستم)... الرجل غريب الأطوار يعرف من قابله أنه مخيف.. أعرف أنا أنه يؤمن بالخرافات ويخشاها كثيرًا بسبب عقدة من طفولته... أرملته ـ التي اتضح أنها حية ـ تتهمه بالجنون.. كل من زاره دخل في دائرة النحس المغلقة التي لا مفر منها...

في الوقت ذاته حدثت أكثر من وفاة كلها لأشخاص ارتبطوا بالرقم 13.. كلهم أصحاء كانوا يجدونهم ميتين أمام المرآة.. الشرطة لا تفهم.. لا أحد يفهم.. وبشكل ما تم إقحامي في هذه القصة.. هذا ليس غريبًا لأن هذه الأشياء لا تحدث إلا لي..

قابلت (علي رستم) ومن حينها بدأت دائرة النحس تلاحقني.. (عماد) قريبي دخل في دائرة مماثلة وكذا ابنته (سارة).. (عماد) آمن أن (علي) نحسه.. (سارة) غريبة الأطوار آمنت أن (علي) نومها مغناطيسيًا هي وأباها... أنا نفسي فكرت في هذا.. يقولون إن النحس ليس سوى حماقة.. هناك أشخاص يتعرضون للحوادث أكثر من غيرهم، وكل إدارات المرور في دول العالم المتقدم تعرف هذا وتجري بعض الاختبارات لاستبعاد هؤلاء الأشخاص.. إنه مزيج من الغباء وبطء التفكير وسوء الاستعداد يؤدي إلى النتيجة التي نعتبرها نحن (سوء الطالع).. هناك آخرون يتهمون الإيقاع الحيوي.. إن الحوادث لا تقع إلا حين تتلاقى منحنياتك الصحية والعاطفيّة والعقليّة عند أقل معدل لها، وهناك أجهزة حاسب آلي قادرة على حساب هذه المنحنيات لك.. إنها منحنيات الإيقاع الحيوي الشهيرة، وهم ينصحونك ألا تسافر أو توقع عقدًا أو تتقدم للزواج في تلك الأيام السوداء.. أليست هذه شبيهة بفكرة النحس، وإن اتخذت طابعًا عصريًا علميًا؟ وقد اعتقدت واعتقدت (سارة) أن (علي رستم) جعلنا بشكل ما نتصرف بغباء وخرق..

فيما بعد مات (علي رستم) بنفس الطريقة، وخطر لي أنني اتهمت الرجل ظلمًا..

لكني إذ أعدت التفكير في القصة لاحظت ما يلي: حوادث الموت لم تحدث إلا لأشخاص تحدوا التشاؤم علنًا.. أشخاص أعلنوا أنهم لا يكترثون لهذه الخرافات، ونشرت المجلات أو المصحف كلامهم مع نوع من الاحتفاء.. حتى أنا لم أر الموت إلا بعدما نشرت المجلة مقالي (العلمي الرصين) الذي يرى أن كل هذا هراء..

ألا يوحي هذا بنوع من الانتقام؟ ألا يوحي بأنه إرهاب لمن يجرؤ على تحدى هذه الرموز؟

والآن تعال نتناول الأمر من جهة أخرى..

كل حوادث الموت هذه توحي بأنها موت طبيعي لا أكثر ولا أقل.. لا يمكن لأي رجل شرطة في العالم أن يبرهن على أنها جرائم قتل.. ألا يوحي هذا بقاتل خوارقي من النوع الذي يخترق الجدران ولا يترك أثرًا خلفه؟ يمكن أن يكون هؤلاء ماتوا صدفة لكن من الصعب تحميل الصدفة كل هذا... شباب يموتون فجأة بعد ما أعلنوا أنهم لا يخافون رقم 13.. لو كان موت هؤلاء صدفة فأنا (مارلين مونرو)...

ثم إنني عشت التجربة وتأكدت من أنّ هناك قاتلًا لا يمكن رؤية وجهه يظهر في المرأة من خلفك، فإذا نظرت للوراء لم تره.. هل هذا مجرد قاتل مأجور؟ ثم تأتي الزوجة بدليل آخر: زوجها اهتم بالسحر كثيرًا.. هذه هواية شاذًا غريبة.. فهل لها معنى ما؟

يمكنني أن أرتب القصة كما أراها هكذا:

(علي رستم) مجنون معقد.. لا شك في هذا... لجأ إلى السحر، وفي كتب السحر وجد شيئًا ما.. شيئًا يمكنه أن يسخره لأغراضه وعقده الخاصّة... وكانت مهمّة هذا الشيء محددة: أن يعثر على الحمقى الذين يتفاخرون بأنهم لا يخافون الرقم 13 ويفتك بهم...

لكن لماذا مات (علي رستم) نفسه؟

إن تمرد المصنوع على صانعه مألوف ويحدث كثيرًا في هذه القصص... السحر نوع من اللعب بالنار ومن الطبيعي أن تحرقك النار أنت نفسك.. لماذا فتك المسخ بـ (فرانكنشتاين) الذي أوجده؟ إن هذه المسوخ تملك كلها عقدة (فرانكنشتاين) على ما يبدو... وهي عقدة نفسية مثل عقدة (أوديب) و(إليكترا).. تدفعها دفعًا إلى الفتك بسادتها..

هنا يبقى سؤال مهم: لماذا التفت دائرة النحس حول (عماد) وحول (سارة) وحولي.. كما فهمت فالرجل لا ينحس الناس ولكنّه يقتلهم فقط، و(عماد) وابنته لم ينشرا تحديًا في أية صحيفة..

أعتقد أن ما تمر به (سارة) اضطراب نفسي لا أكثر.. اضطراب مراهقة منطوية لم تكن تربيتها سوية جدًا.. وأعتقد أن ما مر به (عماد) هو سلسلة مصادفات تعسة.. من منا لم تنهل المصائب على رأسه في وقت ما؟ وهو ـ كعادة الارتباط الشرطي (البافلوفي) - ربط بين هذا كله وبين زيارته لـ (علي رستم).. أمّا ما حدث لي فكان سوء تصرف لا أكثر.. حوادث المرور تحدث.. وأبناء المرضى الذين يشكون الأطباء موجودون دائمًا..

الآن استكملت نظريتي وحان وقت إثباتها..

لهذا أسجل هذا الشريط، ولهذا أنا وحدي في هذه الساعة من الليل، ولهذا ابتعت هذه المرأة الكبيرة التي علقتها على الجدار أمامي حيث أجلس في الصالة..

أنا بانتظار ذلك الشيء.. الشيء الذي وجده (علي) في كتب السحر واستعمله شر استعمال.. لو لم أكن مخطئًا أعتقد أنه آت حالًا..

(فترة صمت طويلة)....

مرحبًا بك..

لقد انتظرتك طويلًا وخشيت ألا تأتي لأن الانتظار عذاب لا يوصف..

أراك في المرآة وأعرف أنني لو استدرت فلن أراك.. لقد تعلّمت الدرس..

أنا لا أتبين وجهك لكني أراك بوضوح واقفًا خلفي.. الحقيقة أن أكثركم معشر المسوخ تستعملون الظل ببراعة.. وهذا مخيف بالفعل.. لأن الخيال مخيف أكثر من الواقع بمراحل..

لقد مات سيدك.. فماذا تريد؟

لماذا تواصل المهمة القذرة التي كلفك إياها؟

أنت قتلته.. أليس كذلك؟ لماذا فعلت؟ أعتقد لأنّه بدأ يخشاك وحاول تدميرك.. وأنت لا تسمح لأحد بأن يعيدك إلى العدم.. هناك مقولة شائعة هي (دخول الحمام مش زي خروجه).. وهذه اللعبة الخطرة لا تسمح لمن يمارسها بالانسحاب فجأة..

أعرف أنك ستفتك بي.. أعرف أنها النهاية.. لا يوجد شيء أهشم به المرأة كما فعلت في المرّة السابقة..

لكني أطلب أن تنتظر حتى أشعل لفافة التبغ هذه.. آخر لفافة تبغ في حياتي..

(صوت عود ثقاب واشتعال)..

هل تقتل دائمًا بأسلوب النوبة القلبيّة هذا؟ هل تعتصر الصدر دائمًا من الخلف؟

لماذا لم ير رجال الشرطة علامة كفك المخلبية على ضلوع من ماتوا؟ ربما رأوها ولم يجدوا تفسيرًا.. لكن.. دعني أقل لك....

(صوت عواء حيواني مريع)..

نعم.. أنت تتألم.. أليس كذلك؟

الحقيقة أنّ هذه التي أشعلتها ليست لفافة تبغ..

إنها تلك الورقة التي كانت في يد (علي رستم) حين وقف أمام المرأة، وقد خمنت أنه كان يحاول إحراقها.. لكنك لم تتركه يفعلها..

(صوت عواء حيواني يتعالى حتى إن سماع الكلام صار عسيرًا)..

لقد أعطانيها رجل الشرطة على أمل أن أفهم منها شيئًا لكني عجزت.. كانت مليئة بالأرقام ويبدو أن الرجل كان يعمل بأسلوب سحر الأرقام الشهير في (الكابالا)..

هذه هي مقامرتي.. راهنت على أنك ستموت لو أحرقتها أمامك.. ويبدو من كل هذا اللهب والدخان أنك....

(صرخة شنيعة) ....

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الحوادث من جريدة (....):

حريق يأتي على محتويات شقّة أستاذ جامعي

كتب (عماد الخولي): للمرة الثانية في فترة قصيرة يشب حريق مروع في نفس البناية بالدقي، وفي هذه المرّة شبّ الحريق في شقّة الدكتور (رفعت إسماعيل) الذي نجا بمعجزة من الحريق الأول والثاني. وقد لاحظ الجيران في ساعة متأخرة من الليل خروج دخان من أسفل باب شقّة الطبيب، وقد قاموا بإبلاغ رجال الإطفاء واقتحام الشقة حيث تبين أن حريقًا أتى على جزء كبير من محتويات الصالة، بينما كان الطبيب فاقد الوعي. على مدخل الشرفة في محاولة للحصول على الهواء. وقد تم نقله إلى المستشفى حيث تعافى سريعًا من الصدمة، وقد برر الحريق بحدوث ماس كهربائي في الشقة. وقد انتقل إلى مكان الحريق كل من....

☆ ☆ ☆

خبر في صفحة الاجتماعيات من مجلة (....):

رجل متقدم السن نوعًا لكنه ما زال وسيمًا يحمل كأسًا لترشف منه فتاة سعيدة جدًّا.

في حفل عائلي بهيج حضره أصدقاء العروسين، تمت خطبة الآنسة (سارة عماد) الطالبة بكلية الآداب جامعة (....) إلى الأستاذ الدكتور (محمد إبراهيم) أستاذ الطب النفسي بكلية الطب جامعة (...) ألف مبروك.

☆ ☆ ☆

فاتورة من مكتبة (...):

العميل / د. (سالم رستم).

كتاب (الكابالا وأساليب السحر بالأرقام) عدد 1 السعر 8 جنيهات فقط لا غير.

☆ ☆ ☆

ركن (طبيب القلوب) في مجلة (النصف الحلو):

صورة مرسومة من تلك الصور السخيفة هي مزيج من عيون تدمع وقلوب يخترقها سهم.. الخ.

عزيزتي (هيام):

أشعر بحيرة بالغة.. منذ فترة طويلة وأنا لا أميل إلا إلى نمط الرجل المتقدم في العمر، والذي يصلح أبًا لي لا زوجًا. لا أدري السبب لكني بالفعل خطبت إلى أستاذ جامعي ناجح يكبرني بعشرين عامًا، وهو أرمل ليس له أطفال... لكني بعد الخطبة بدأت أرى عيوبه بجلاء وأدرك كم كنت حمقاء. إنّه وقور ثقيل الظل يلهث عند صعود السلم ولا يسمع أيًا من الأغاني التي أحبها.. بل.... الخ.. الخ...

المعذبة (س. ح. م)

المنصورة

☆ ☆ ☆

آخر مقطع في الصفحة الأخيرة من الكتيب رقم 51 من سلسلة (ما وراء الطبيعة):

هكذا انتهت هذه الأسطورة نهاية مرضية لجميع الأطراف الذين ظلوا أحياء..

في القصة القادمة سأحكى لكم أسطورة مملة! نعم لا غرابة في الأمر.. سيقول البعض: ما الجديد في هذا؟ وماذا كنت تحكيه إذن كل هذه الأعداد؟ أقول إنني حين أعدكم بأسطورة مملة فأنا أعني ما أقول....

ولكن هذه قصة أخرى

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

Notes

[1←] طبعًا يعرف القراء المخضرمون أننا في بدايات السبعينات، حين كان الفتيان يلبسون كالفتيات، والفتيات يلبسن كمهرجي السيرك.. عصر السوالف والقمصان المشجرة والبنطال الشارلستون وكعب الحذاء الشبيه بكرسي المطبخ.

[2←] يعتمد هذا المقال بشكل كبير على كتاب (التفاؤل والتشاؤم) لـ (نجيب يوسف بدوي). سلسلة اقرأ (309). دار المعارف بمصر. سبتمبر 1968

روايات مصرية للجيب

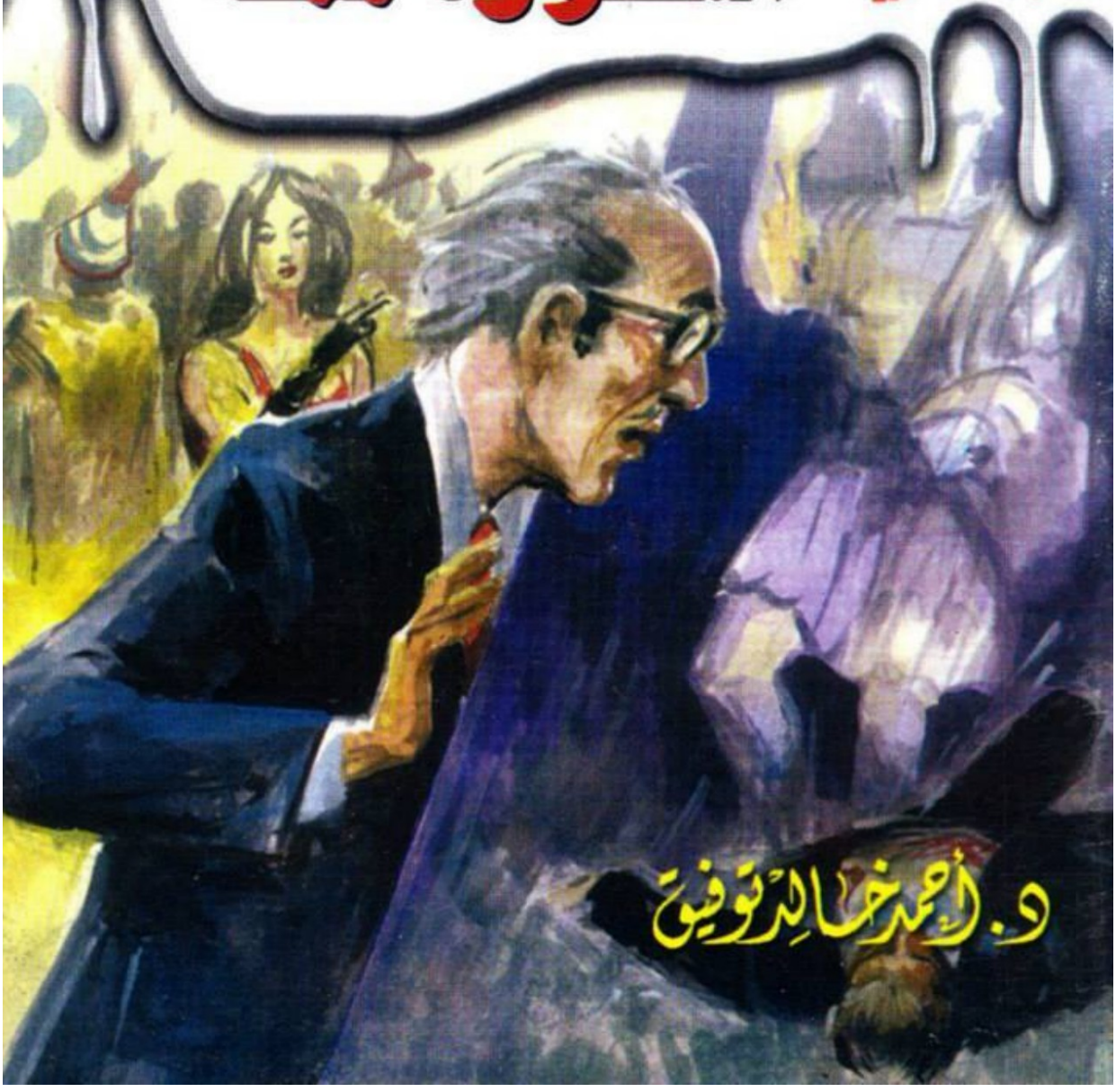
مكتبة النخبة



52

هاوية الطبيعة

أسطورة مملة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

مرحبًا بكم..

لو صحت توقعاتي فأنتم تطالعون هذه السطور في الشتاء.. والشتاء فصل أثير إلى نفسي... أعتقد أنني بحق كائن يستمد وجوده من الشتاء والظلام.. يقول البعض إنني أنا نفسي شبح، وإنني سأكشف عن هذه الحقيقة يومًا ما..

في الحقيقة لست ميالًا إلى هذه الفرضية الثورية.. كل ما في الأمر أن من يعش دهرًا مع الرعب يصر غريب الأطوار إلى حدٍ ما.. ربما مخيفًا كذلك..

اليوم نجلس معًا.. نصغي لأصوات الأمطار في الشارع وترتجف، ونتساءل ماذا لو لم تكن هنا؟ ماذا لو كنا في العراء.. في البرد والظلام.. في أماكن لم يرها بشر ولا يقدر أن يبلغها بشر؟

إلى الشوارع المبللة بالمطر.. إلى القطط التي يبدو أنها ليست قططًا حقًا.. وإلى الماشين تحت الأمطار الذين يصعب أن تتأكد من حقيقتهم.. إلى كل هؤلاء أرسل تحياتي أسألهم أن يتركوني وشأني...

الليلة أحكي لكم قصة مملة..

أسمع البعض وهو يتثاءب: وما الجديد في هذا؟ البعض الآخر يتساءل في خبث: وماذا كنت تفعل في كل الكتيبات السابقة إذن؟ البعض يعتقد أنها دعابة وأنني أخرق بهذا القواعد... البعض يعتقد أنني - فقط - أتحذلق..

الحقيقة أنه لا مزاح في الأمر.. إن أسطورة اليوم مملة.. وحين يعدكم (رفعت) إسماعيل بأسطورة مملة فإنّه يعني ما يقول..

لماذا هي مملة؟ الجواب واضح تمامًا... لأن كل أحداثها تدور في حفل، وهو حفل غريب، لكن لا شيء تقريبًا يحدث فيه.. إن جريمة قتل أو اثنتين أو ثلاثًا في حفل لا تشكل حادثًا غير معتاد هذه الأيام...

إذن لماذا أحكيها؟ سؤال غريب! بالطبع أحكيها لأنهّا تختلف عن القصص السابقة أو هكذا أحسبها.. لقد اتفقنا على أنّ هذه الروايات (تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة).. فماذا عن قصة لا تفعل هذا؟ أليس هذا هو التجديد الحق؟!

تعالوا نقرأ الصفحات التالية، ولسوف نفهم أكثر..

☆ ☆ ☆

١ - دكتور (سامي) من جديد..

حين تلقّيت دعوة الدكتور (سامي) إلى ذلك الحفل في الفيلا الأنيقة التي يعيش فيها مع امرأته مدام (ثريا)، استغرقت نحو ساعة كي أتذكر من هو الرجل، وكيف يجرؤ على دعوتي إلى حفل..

ثم تذكرت الرجل الذي في ضيافته كانت حلقة الرعب الأولى في حياتي.. الرجل الأنيق المهذب الذي تشعر كأنه خرج من الحمام لتوه.. كلماته أنيقة.. أفكاره أنيقة.. أحلامه أنيقة.. وهذا يسبب لي الكثير من الغيظ.. فإنني أجد في هذا كله شيئًا غير آدمي.. متى يفقد هذا الرجل وقاره؟، ومتى يكور قبضته مهددًا بالضرب؟ ومتى يُصاب بسوء هضم أو يبرم قطعة من الورق ليسلك بها أذنه؟

ثم هدأت قليلًا وقرأت الدعوة.. طبعًا لابد أن يتعامل هذا الرجل بأسلوب بطاقات الدعوة المطبوعة كأننا في البلاط النمساوي، وقد كانت تكفيني كلمتان في الهاتف: تعال.. حسن.. كانت الدعوة تقول: إن هناك حفلًا، وإن غرضه التعارف... وإنه سيبدأ الساعة التاسعة من مساء الثلاثاء يوم 31 ديسمبر.. هناك رأس سنة في الموضوع.. إذن هناك الكثير من الحمقى الذين يلبسون الطراطير ويتظاهرون بالمرح..

قررت أن أعتذر.. لا بد أن أعتذر..

كما يعرف القراء، كان هذا الرجل مصابًا بنوع من المرض الاجتماعي يجعله لا يطيق أن يبقى وحيدًا يومًا واحدًا، وهو ما فسرته بعشقه المبرح لغاز ثاني أكسيد الكربون.. أمّا أنا فأعشق الأكسجين، ولا أطيق أن أمضي ليلة مع أشخاص يتبارون أيهم يصيح أعلى من الآخر..

كان هذا قراري حتى اليوم الثامن والعشرين من الشهر..

ثم جاء موضوع يد (بيزارو) المبتورة التي تزورني ليلًا، والتي كانت تنوي الانتقام مني في يوم ثلاثاء.. تعرفون بالطبع هذا الطراز من الأشياء.. هل تذكرون هذه القصة؟ لم أحكها؟ غريب.. أنتم تنسون.. لابد أنني حكيتها وأنتم تنسون ما أقول.. هذا يضايقني فعلًا..

ماذا؟ حقًّا لم أحكها؟ لا يهم... إنها خارج الموضوع على كل حال.. أردت أن أقول: إنني كنت راغبًا أشد الرغبة في ألا أتواجد في داري ليلة الثلاثاء.. ولكن أين أذهب؟ من المؤسف أن أية غرفة في فندق معرضة للهجوم عليها، وكذا لو أمضيت الليل عند (عزت).. أريد مكانًا مكتظًا بالبشر فأين هذا المكان؟ هناك الفنادق الكبرى حيث تقام حفلات رأس السنة، وهناك التخشيبة في قسم الشرطة - وهو حل غير محبب - وهناك بالطبع حفل دكتور (سامي)..

هكذا اتخذت قراري.. إن الحفل مهما ساء لن يكون أسوأ من يد (بيزارو)..

واتصلت بالدكتور (سامي) اشكره على الدعوة، فنصحني - في شيء من الحرج - أن أتأنق قليلًا؛ لأن هناك شخصيات لا بأس بها ستكون في الحفل.. وهكذا وجدت نفسي مجبرًا على ارتداء (البذلة) الكحلية التي تجعلني فاتنًا..

وفي التاسعة إلا الربع وصلت إلى الإسكندرية، واتخذت طريقي إلى فيللا مضيفي..

☆ ☆ ☆

كما قلت من قبل كانت الفيلا آية في الرقي والذوق.. صحيح أنها لا تتغير أبدًا، ولا يمكن أن أزعم أنّ هناك مقعدًا فارق مكانه بعد كل هذه الأعوام، إلا أنها كما كانت دائمًا تحفة فنية تتمنى أن تتخذها بيتًا ومكتبًا وقبرًا.. نباتات الزينة التي لا تموت أبدًا، والأثاث الأزرق الذي يلعب لعبة الألوان مع الجدران البيضاء.. أو الأبيض الذي يلعب مع البساط الأزرق لعبة الظلال.. أو...

كان د. (سامي) وسيمًا كالعادة يرتدي سترة بيضاء وربطة عنق أنيقة، وكان بعض الشيب قد غزا مفرقيه لكنه زاده وسامة.. ثمّة نوع من الشيب يحيل الشعر إلى فضة ثمينة، وشيب - كما يحدث معي - يجعل الرأس كأنما غمس في جوال دقيق..

قال لي في مرح اجتماعي:

- «أيها الصديق.. أيها الصديق.. كدت تنسى أنني موجود على ظهر الأرض..»

وراح يكررها وهو يرتجف دون سبب مفهوم، وظهرت مدام (ثريا) في كامل أناقتها، فحيتني بهزة رأس أرستقراطية.. وقالت:

- «منذ تلك الليلة المرعبة لم نرك، وإنني لأشعر أن الرعب مفيد أحيانًا..»

قلت لها في تهذيب:

- «إن كل ليالي مرعبة فلم أعد أميز أيها كانت أفضل.. لكني مسرور على كل حال..»

والحقيقة أنني قابلت الرجل عدة مرات، منها مرة كان مقيمًا في القاهرة يمارس رياضة الهرولة.. وأنا لم أفهم قط السبب الذي يجعل رجلًا بالغًا يصحو في السادسة صباحًا ليجري.. لكني لم أمت كما أنه لم يمت.. برغم كل شيء نحن متساويان...

ودخلت إلى قاعة الجلوس الكبيرة الرحبة التي تذكرك بميدان التحرير.. كان هناك عدد لا يقل عن الخمسين ضيفًا بين واقف وجالس.. ضاحك ومفكر.. متكلم وصامت.. رجل وأنثى.. والكلام يحدث ذلك الطنين المستمر الذي لا تعرف ما هو، لكنه مزعج بما يكفي..

أعرف هذه اللحظة على قلة ما شهدت من حفلات.. ألعب دور زهرة الحائط الخجول التي لا تجد من يكلمها أو تكلمه.. فأجلس في ركن ما، وأراقب الجميع، وأتظاهر بأنني أعمق منهم وأفضل.

ولكن كان الحظ وافرًا بالنسبة لي هذه المرّة.. لا لم أر (عادل) رفيق طفولتي، ولحسن الحظ لم تكن (هويدا) وزوجها.. كان الدكتور (رمزي حبيب) عالم المصريات جالسًا إلى جوار زوجته (ماري).. نسيت أن أقول لك: إنّه صديق مشترك لنا، وبالمناسبة هناك شبه غير عادي بين (سامي) و(رمزي) كأنهما نفس الرجل بالطباع ذاتها والعادات ذاتها.. فقط أحدهما اختار أن يدرس المصريين القدماء، والآخر اختر أن يدرس نفسية المصريين المعاصرين.. بالإضافة لهذا ليس د. (رمزي) لوردًا إنجليزيًا متخفيًا كما يجب أن نطلق على د. (سامي).. إن د. (رمزي) ابن بلد حقيقي، يفهم الناس جيدًا وله بديهة سريعة ودعابات كالرصاص..

هذا جميل.. على الأقل لن أشعر بالوحدة..

بعد السلامات والمصافحات والـ (كيف حالك أيها العجوز المنحوس؟) والـ (هل لابد أن نزور الإسكندرية كي نلتقي؟).. بعد هذا كله اتخذت مجلسي إلى جوارهما، ونظرت إلى الساعة... كانت التاسعة والنصف.. سنرحل بعد ساعتين ونصف أو أكثر قليلًا.. أنا سأذهب إلى ذلك البنسيون الذي اعتدته، لأنني لم اعد أطيق القيادة الليلية، وهما يقيمان في شقتهما هنا على ما يبدو..

قلت له باسمًا وأنا أشير إلى الحضور:

- «هل كل هؤلاء أصدقاؤه؟»

قال في استخفاف:

- «ليس عددهم كبيرًا.. أنت خفاش آدمي لا أكثر.. لو أن الحفل كان مقصورًا على شخصين لقلت الشيء ذاته..»

- «وهل وجه دعوات إلى كل هؤلاء؟»

- «يبدو لي أنه لا يعرف بعضهم ولم يدعه.. أنت تعرف عادة البشر.. ادع واحدًا ولسوف يحضر خمسة وتجد نفسك في موقف غاية في السوء من ناحية المؤن والإمدادات..»

رحت أراقب الناس، وبدا لي بالفعل أنهم مجموعة متباينة من الأشخاص لا يربطهم شيء..

ظهر عازفان تعيسا الحال؛ أحدهما يحمل كماناً، والآخر يحمل عودًا، وجلسا في مكان مرموق من القاعة، ثم تقدمت فتاة شابة حولاء لتغني أغنية قديمة لـ (ليلى مراد).. أغنية من تلك الأغاني التي يقف فيها (أنور وجدي) بقناع ضابط قيصري وسط الجموع، ليرمقها في افتتان..

في البدء دهش الناس لهذا الاقتحام ثم بدءوا يتحمسون ويشجعون..

هنا ظهر د. (سامي) من مكان ما، وقد تفصد جبينه بحبيبات العرق من فرط الإنهاك، وقد اتخذ سيما رب البيت الذي يضحي بأي شيء من أجل ضيوفه.. رآنا فابتسم على طريقة (آه - هأنذا - قد - وجدت - رفيقًا جميل - جميل).. فابتسمنا على طريقة (لا - تقلق - من - أجلنا - كان - الله - في - عونك)..

لكنه دنا منا وجلس جواري، بينما صوت المطرية يخرق طبلة أذني.. وضع يده على ركبتي وقال:

- «إن لدينا هنا أغرب مجموعة من المخابيل في العالم..»

- «آه! أنت تفهم هذه الأمور جيدًا.. ومن أتى بهم هنا؟»

- «لا أدري.. لكني لن أسأل أحدهم من أتى به.. لن يكون هذا أرقى تصرف ممكن»

وابتسم في تعب.. فعدت أسأله:

- «مخابيل من حيث؟»

هزّ رأسه:

- «لا أدري.. لكنهم غريبو الأطوار حقًا..»

ثم أشار إلى أحدهم، وهمس في أذني:

- «هل ترى هذا الشاعر الحالم؟ هل يكفي هذا لجعل الحفل غريبًا؟»

نظرت إلى حيث أشار فوجدت جوار المدفأة شابًا نحيلًا أسمر له وجه حزين شفاف.. وجه شاعر بالفعل، وكانت ثيابه أنيقة منسقة، وإن كان حجم نصفه الأسفل أضخم قليلًا مما لا يتناسب مع نصفه الأعلى..

لم يكن وسيمًا على الإطلاق، لكن النظرة الساهمة المكسورة في عينيه تنقلك إلى عالم لا تذكر أين هو، لكنك تعرفه...

وجواره كانت زوجته.. كيف عرفت أنها زوجته؟ لأنني عبقري.. أعني أنهما كانا يتهامسان من حين الآخر، وأحيانًا كان يربّت على خدها وهو يصغي إلى الأغنية.. هنا أقف وقفة..

زوجته كانت أجمل شيء رأيته في حياتي.. لم تكن جميلة.. دعك من المزاح... لقد كان جمالها خارقًا يتجاوز كلمة الجمال.. كان ينتمي إلى سديم كوني أرقى وأطهر وأسمى من عالمنا، ولا تنطبق عليه صفاتنا الأرضية.. كنت أعتبر دومًا من يقول (غروب جميل) شخصًا أحمق... الغروب أسمى وأرق من هذه الألفاظ الأرضية المبتذلة..

كانت حزينة مثله بالضبط، وإن كانت بشرتها الرهيفة الحساسة التي تنبض الأوردة من تحتها، تعكس الحزن كما لا تستطيع أية كلمات أن تعكس..

جوارهما كان طفل جميل في الخامسة من عمره تقريبًا، وأدركت أنه طفلهما كما هو واضح، لكنه استمد جماله من الأم..

كل هذا لا يثير شيئًا من الدهشة في نفسي.. هناك خمسون ضيفًا هنا، ويمكن أن تجد بينهم شتّى الأشكال والطباع.. ولو أطلق أحدهم صهيلًا، أو أخرج أحدهم من أنفه خرطومًا فلن يكون هذا غريبًا.. يكفي أن شخصًا غريب المظهر مثلي هنا بين المدعوين..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٢ - الشاعر..

انتهت المغنية من هذا الذي تفعله.. وقد برزت كل أوردتها إلى الحد الذي كان سيقتل (ابن الرومي) كمدًا؛ فهو الذي وصف براعة المغنية بأنك لا ترى لها وريدًا..

الآن تفرق الناس.. ورأيت سيدة حسناء في منتصف العمر تدنو من الشاعر وتهمس في أذنه.. من هذه إذن؟ هزّ رأسه مرارًا في أدب ثم عاد لشروده، ولاحظت أن الحسناء الشابة ليست مسرورة جدًا بهذه الهمسة..

خيل إلى أنه يحدث السيدة الأكبر سنًا بلفظة (ماما).. ماما؟ لو كانت هذه الحسناء أمّه فلابد أن أباه كان يشبه الخرتيت.. الأمر إذن واضح.. هذه أمّه التي تملك السلطة كل السلطة عليه، وهذا بالطبع لا يرضي زوجته الشابة التي لا ترضى أن يكون رجلها (ابن أمّه)... دعك من أن أمّه - كما هو واضح ـ قوية الشخصية مسيطرة ومن الطراز الذي نُسمّيه (يكيد ولا يكاد).. أي أنها قادرة على جعل حياة زوجة ابنها الرقيقة جحيمًا..

إن علاقة الحماة بزوجة ابنها تثير دهشتي.. إنني أجدها في صورتها البدائيّة صراعًا بين امرأتين على رجل الكهف... الأم تعتبر أنها صنعته وعلّمته كل ما يعرف، وتستحق أن يظل لها للأبد، فلن تأتي حدأة لا موهبة لها إلا أنها تضع طنًّا من المساحيق، كي تسلبها إياه... والزوجة ترى ببساطة أنه لا ذنب لها؛ لأن هذه سنة الحياة..

هنا تلعب الأم ألعابًا قاسية مع الزوجة.. يا حسرتي عليك.. ألم تقم الهانم بخياطة هذا الزر؟ أمك ستفعل.. ألم تطه لك البامية كما تحبها؟ أمك ستفعل.. ثم قل لي: لماذا تلبس الهانم هذا الثوب الذي لا يناسب وزنها؟ ولماذا تصفف شعرها بهذه الطريقة التي تذكرني بالمكنسة؟

ثم تلوح بيدها في رقة وتوسل: لا... لا... أرجوك.. لا توبخها.. أنا لا يعنيني إلا أن تكون سعيدًا.. انس ما قلته لك، وهات لي القميص كي أخيط لك هذا الزر..

هذا السيناريو بالطبع لو كانت الزوجة وديعة، والأم من طراز أم الشاعر هذه.. العكس وارد طبعًا..

الحمد لله على أنني لم أتزوج بعد.. ما كنت لأتحمل عش الدبابير هذا..

كنت غارقًا في هذه الخواطر حين دعاني د. (رمزي) إلى الخروج للشرفة لبعض الوقت.. نهضنا ونهضت زوجته واتجهنا إلى الشرفة التي تطل على الحديقة المظلمة الباردة.. صقيع لكنه

منعش... والأضواء في كل صوب؛ لأن الليلة غير عادية كما تعرفون.. برد الإسكندرية الجميل الذي لا يوصف بكلمات..

كانت الشرفة خالية كما لاحظتم؛ لأنّه ما من مجانين كثيرين يرغبون في الوقوف في الشرفة في هذا الجو.. لاحظت أن الشاعر يقف بالقرب منا، ويرمق الليل في نهم وجوع.. كأنما يختزن الطبيعة كلها داخل رئتيه وعينيه.. وسمعته يدمدم بشيء ما كالقطط التي تقر..

قال (رمزي) وهو يتبادل مع زوجته ابتسامة خبيثة:

- «هذا شاعر على ما أظن.. إنك تجدهم تحت كل حجر في هذه الأيام..»

قلت في توتر:

- «لا أدري.. إنِّه يبدو شاعريًا جدًا، فلو كان بوسع المرء أن يحكم على الناس من منظرهم، لكان هذا الرجل هو (المتنبي) أو (ناجي)..»

وحاولت أن أسمع ما يقول، لكن صوته كان خفيضًا جدًا.. في النهاية غلبني الفضول فملت عليه وقلت بجرأة أفتقدها غالبًا:

- «لا أريد أن أبدو وقحًا يا سيدي.. لكن هل بوسعنا أن نسمع بعض شعرك؟»

نظر لي وهو لا يراني.. نظر عبري.. وهمس:

- «لن تفهمه يا سيدي.. لن تفهمه..»

إنِّه وقح أيضًا.. أدرت له ظهري وتظاهرت بأنني لم أقل له شيئًا ولم أسمع شيئًا..

هنا بدأ ينشد الشعر كأنما قرر فجأة أنني سأفهمه:

- «من أجلك أنت يا سيدي..

تعلم ثغري فنون المديح..

وحاربت كل الغزاة وكل القساة وكل الدعاة وكل الرعاة..

من أجلك أنت يا سيدي..

فهمت القصائد والأغنيات..

وترنيمة الطير فوق الغصون..

وهمس المنون..

لأن الطبيعة في ذاتها..

هي فن من فنون المديح»..

صفقت بكفي في غير اقتناع.. هذا ليس شعرًا وليس نثرًا، وهذا هو الكلام المكسور الذي يقول إنني لن أفهمه.. أتوقع في الشعر أن يحوي بعض الموسيقا سواء موسيقا الكلمات أو موسيقا المعاني.. لكن هذا شعر جاف كالصحراء..

وأدركت أنه يقول أي كلام حين لاحظت كيف جمع بين (رعاة) و(دعاة) و(قساة).. ما دخل الرعاة في الموضوع؟ هل لو طال البيت قليلًا لأضاف (حماة) مثلًا؟ وتذكرت بيت الشعر الحقيقي العبقري الذي يقول:

فلكم ترى من صامت لك مُعْجِبٍ

فـــزيادته أو نقصـــــه بتكلُّـــمِ

بدأ الفتى ـ يا للمصيبة! ـ يتحمس وراح يفتش عن قصيدة أخرى أكثر إمتاعًا، فقررت أن أخرسه بالهجوم المباشر:

- «هل أنت شاعر بالمهنة؟»

تنهد في عمق وقال:

- «لا.. أنا من الأعيان، ولكن الشعر استولى عليَّ تمامًا إلى حد أنني لا أجد الوقت الكافي للعناية بأملاكي..»

ثم مد يدًا سمراء نحيلة جافة ليصافحني، وقال:

- «أنا (مراد سليم).. من أعيان الصعيد..»

- «(رفعت إسماعيل).. من مفلسي القاهرة..»

هنا دخل الفجر والندى وهمس الورد في الشرفة.. فعرفت أنها زوجته قد لحقت بنا.. حيتنا بهزة رأس مهذبة، ثم دنت منه وسمعنا بشكل ما طرفًا من كلامها وإن لم نتعمد هذا..

كانت تقول له في صيغة لائمة:

- «إنهم استولوا على كل شيء وأنت هنا لا تفعل أي شيء.. يجب أن تكون جديرًا بالاسم الذي تحمله.. لو كان أبوك رحمه الله هنا...».

قال في ضيق ضاغطًا على مقاطع كلامه:

- «أنا غير أبي في كل شيء.. في التفكير.. في الدين.. في كل شيء.. وأنا شاعر ولا أعتبر نفسي مقاتلًا على الإطلاق.. لكني أخبرت (محب) كي يتولى الأمر..»

قلت همسنا لدكتور (رمزي):

- «كيف يكون غير أبيه في الدين؟»

- «شششششش!!» - واضعًا إصبعه على شفتيه محذرًا - «إن الناس تغير دينها أحيانًا..»

هنا ارتجت الشرفة؛ لأن شخصًا ضخمًا من تلكم الجدران الآدمية التي شاهدت مثلها الكثير منذ جئت الحفل، دخل علينا.. كان أسمر اللون عريض المنكبين تبدو بذلته كأنما ستتمزق من فرط ضغط العضلات..

لم يلتفت شاعرنا الحالم، وقال وهو ينظر للحديقة:

- «تعال يا (محب).. ماذا فعلت؟»

بصوت غليظ عميق يتكلم الأخ (محب) الذي لا يليق باسمه الرقيق:

- «كما قلت لي.. ذهبت إليهم وأذقتهم الويل.. لكننا ما زلنا بحاجة إليك هناك..»

- «سأفكر في ذلك أيها الصديق.. أين (علاء)؟»

- «إنّه يلعب وحده.. الأطفال يموتون ضجرًا لو لم يجدوا أطفالًا مثلهم..»

- «حسن.. تعالوا نسر عنه قليلًا..»

وخرجت المجموعة من الشرفة.. وعدنا نتنفس بحرية وإن ارتجفنا قليلًا بفعل البرد الشديد...

قلت وأنا أنظر من وراء كتفي:

- «ألا ترى فيهم مجموعة غريبة بعض الشيء؟»

قال د. (رمزي) في ضجر، وهو يتبادل مع زوجته نظرة ساخرة:

- «أنت اعتدت الغرابة إلى حد أنك تجدها في ماسورة المطبخ»

بلا هزل قلت وقد أغاظني أنه لا يرى ما أراه:

- «واحد من أعيان الصعيد يختلف عن أبيه في كل شيء حتى الدين، وهناك من يستولون على ثروته بينما هو غارق في نظم الشعر.. زوجة بارعة الحسن لكن علاقتهما ليست على ما يرام.. أم، تسيطر عليه تمامًا كما لاحظت أنا، ورجل يشبه جبل المقطم هو الذي يأتي له بحقه.. فلتقطع ذراعي إن لم يكن صديقه القوي هذا يمرح في أملاكه.. ولربما كانت الزوجة تحبه..»

صاح وهو يضرب كفا بكف:

- «(رفعت)!! أنت تشاهد الكثير من أفلام (ستيفان روستي) مؤخرًا.. هذا هو الواقع يا صديقي حيث لا تحدث أشياء كهذه..»

- «نعم هذا هو الواقع.. لهذا أندهش لحدوث أشياء كهذه..»

تجمدت مدام (ماري) تقريبًا برغم أنها ضمت شالها على جسدها، فأعلنت أنها راغبة في العودة إلى الداخل.. كالعادة أعلنا أننا سنفعل الشيء ذاته..

وفي الداخل كان المهرجان مستمرًا...

☆ ☆ ☆

الآن كانت هناك فرقة باليه تتكون من فتيات لم أر أرشق منهن ولا أخف حركة.. وكن يرقصن على موسيقا خفيفة جدًا لا تتجاوز نقرات على الطبل و(نغبشة) على الوتريات.. وكان الكل يتابع الرقص باهتمام، بينما خطر لي أن د. (سامي) لا يفتقر إلى الثراء فعلًا.. هذا حفل كامل بفقرات متنوعة لابد أنها كلفته مالًا..

وجدت د. (سامي) جواري ينظر في ذهول لكل هذا.. سألته باسمًا:

- «من أين جئت بهؤلاء؟ لم أعرف أنك بهذا الثراء..»

نظر لي بعينين لا تريان وقال:

- «أقسم إنني لم أحضر هؤلاء..»

- «يا سلام! كانت هاته الراقصات مارات في الشارع حين...»

- «كلا.. هناك (عباس).. لقد وعدني بان يرتب بعض الفقرات الترفيهية، ولم أعرف أنه سيحول داري إلى ناد ليلى.. تبًّا لك يا (عباس)!! لو رأيته سأحوله إلى سجادة»

إذن هناك (عباس) وقد خدعه.. فهمت الآن..

- «على كل حال هذا باليه.. ليس الأمر بهذا السوء..»

الكل يتابع أمّا أنا فابتعدت، لأنني رأيت وجوه الرجال جاحظة العيون، فكرهت أن يكون وجهي وجهًا من هذه الوجوه..

لقد بدأت أشعر أن الأمسية ستكون طويلة جدًا.. أنا مشتاق لفراشي فعلًا.. تبًّا لك يا (بيزارو).. لو لم تكن يدك تبحث عنى الآن، لكان بوسعي أن أبيت في بيتي وأشرب بعض الشيكولاتة الساخنة في الفراش، مع كتاب عن الأشباح.. لكنك حكمت عليَّ بالنفي فلن أرى شقتي العزيزة إلا غدًا..

أخيرًا وجدت العجوز الكئيب الذي يناسب حالتي..

كان جالسًا على أريكة في ركن المكان يشرب بعض السحلب لا أدري من أين جاء به.. وكان مغضن الوجه كالتفاحة الذابلة..

حييته وجلست على الأريكة جواره.. فمضغ تلك الأشياء التي تملأ السحلب ولا تعرف إن كانت زبيبًا أم ضفادع صغيرة.. وقال لي بصوت واهن لكنه آمر متسلط:

- «هل أنت من (الزقازيق)؟»

لا أدري إن كانت الزقازيق تطل من عيني، لكني هززت رأسي في رفق وقلت:

- «(كفر بدر).. قريبة جدًا من (فاقوس)..»

- «آآآآآآآآآه!»

قلها كأنما أضأت له ألغاز الكون كلها مرة واحدة، وعاد يمضغ الأشياء الغامضة دون أن ينظر لي.. يمضغها بطاقم أسنانه على الأرجح.. بعد قليل عاد يسألني:

- «ما أسعار المدافن عندكم؟»

الأمر الذي وجدته غريبًا مع أول فرصة للتعارف.. لكني أعرف هؤلاء الشيوخ جيدًا.. يتكلمون عن القبر والموت كأنما يتكلمون عن (ديزني لاند).. هذه متعتهم الوحيدة في الحياة.. وبشكل ما أنا أفهمه..

قلت له وأنا أبتسم برغمي:

- «لا أعرف.. إن مدافن أسرتنا موجودة وجاهزة لاستقبالي إن شاء الله..»

- «غير مأمونة..»

ووضع القدح في الطبق بعصبية، وعاد يكرر:

- «غير مأمونة.. أنا أعرف هذا وأعنيه.. لقد أعددت لنفسي مدفنًا لا يستطيع الجان اقتحامه.. ما هي مهنتك؟»

- «ط.. طبيب..»

- «قلت من أين؟»

- «(كفر بدر).. قريبة جدًّا من (فاقوس)..»

- «آه! أنت كنت في الكلية ودرست العظام الآدمية.. من أين تعتقد أنهم جاءوك بها؟ طبعًا من قبرك أو قبري... هؤلاء اللحادون لصوص مقابر بالفطرة، ولا يراعون حرمة شيء.. أنا دفنت والدتي رحمها الله ثم اكتشفت أنّ هناك من عبث بعظامها.. تصوّر هذا! حتى في القبر هناك من يفتش جيوبك لينشلها..»

كان الآن قد صار غاضبًا جدًا.. غاضبًا بحق، وراح السحلب يتطاير من فمه على ثيابي... فلو أنك كنت تقف قريبًا لخيل إليك أنني المقصود بكل هذا الصراخ والغضب.. موقف سخيف لكنه لا يستحق السرد...

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٣- الراقصة والكهل..

لمدة عشر دقائق ظل (عزمي) بك ـ كما قال إنهم ينادونه ـ يحكي لي عن جمال وروعة وأناقة وأمان مدفنه الجديد، حتى إنني لم أعد متأكدًا مما إذا كان يتحدث عن دفنه أم عن زواجه.. لقد مررت بذات الموقف مرارًا من قبل وأنا أفهمه؛ لأن الشيوخ ـ كما قلت ـ لا يعدون الموت موتًا ولكن مرحلة جديدة في حياتهم...

في النهاية رأيت الدكتور (سامي) مارًّا وهو يمازح هذا ويداعب ذلك، فهرعت ـ بعد استئذان معذبي ـ ألحق به، وقلت له إنني ـ (أبوس إيدك) ـ راغب في الانصراف الآن..

قال في عدم تصديق:

- «ليس قبل منتصف الليل يا (رفعت)... هذا فأل سيئ كما تعلم..»

- «هذه الأشياء لا تنطبق عليَّ..»

قال في غموض وهو ينظر للجهة الأخرى:

- «أرجوك أن تبقى.. فعلًا هناك أشياء غريبة أحتاج إلى رأيك فيها..»

- «مثل...»

- «فقط صدقني.. هذا رجاء..»

- «ولكن...»

- «مهندس (فاروق)!!»

هذه لم تكن ضمن المحادثة طبعًا، وإنما هو لمح المهندس المذكور فهرع يلحق به.. وهذا شأنه من بداية الحفل أشبه بـ (الحنكليس) ـ الذي لا أعرف ما هو ـ لا تمسك به بضع ثوان حتى ينسل من يدك إلى مكان آخر[1]..

هنا رأيت أن الناس يلتفون حول المكان الذي تحول إلى مسرح قاعة الجلوس هذه.. دخلت راقصتان من تلكم الفتيات الرشيقات تحمل كل منهما طرف بساط كبير ملفوف حول نفسه..

ما معنى هذا؟ هل مات أحد؟

تنحت الراقصتان جانبًا بحركة مدروسة، بعد أن وضعتا البساط على الأرض، فدار البساط حول نفسه.. وسرعان ما خرجت منه فتاة.. مثلما يفعلون في حفلات المفاجآت في الغرب حين تخرج من التورتة راقصة أو قاتل يحمل الكلاشنكوف في أفلام العصابات.. يبدو أن الأخ (عباس) أعد هذا أيضًا..

بدأت الفتاة ترقص يمينًا ويسارًا بحركات رشيقة غريبة تذكرك بالبالية أو الجمباز الإيقاعي..

هل أقول إنها كانت أروع من رأيت في حياتي؟ لقد صار هذا مملًا.. إما أنني أهذي وإما أنّ هذا الحفل يضم أجمل مجموعة من الفتيات وقعت عليهن عيني في حياتي..

لو دققت النظر أكثر لرأيت أنها ليست جميلة على الإطلاق.. لكنّها ساحرة.. رشاقة وخفة حركتها والشخصية القوية المطلة من عينيها تعطي الإيحاء بالجمال دون أن تكون كذلك..

طالت الرقصة وكالعادة حرصت ألا أتابعها لكن شيئًا ما وقع في نفسي.. لقد نثرت تلكم الساحرة بذور سحرها في روحي فشعرت كأنما أنا مراهق في الرابعة عشر من عمره...

أخيرًا انتهت.. لا كما تنتهي الموسيقا تدريجيًا ولكن مرة واحدة..

ومن مكان ما سمعت د. (سامي) يصيح:

- «(عباس) أيها الوغد!! أقسم بالله لو رأيتك...»

ورأيت الراقصة تخطر على قدميها الدقيقتين وهي تتمايل نازلة من على المسرح المرتجل.. وسمعت تصفيقًا أكثر حرارة من المعتاد..

كان صاحب التصفيق واحدًا من هؤلاء الكهول الذين لم يتخلصوا من مراهقتهم بعد، ولا أتكلم عن نفسي طبعًا.. كان رجلًا متأنقًا ضخمًا قويًا فيه مهابة وقوة شخصيّة غير عاديتين.. إما أنه أجنبي أو هو مصري أبيض البشرة أزرق العينين.. ورأيت الفتاة تهرع له لتجلس جواره، وسمعتهما يضحكان.. لقد استولت على عقله بالكامل..

قال واحد جواري لصاحبه:

- «الخواجة (باولو) قد وقع في الحب.. هذا واضح!»

- «لو عرفت زوجته لحدثت كارثة..»

- «أعتقد أنها تعرف.. لكن لحسن الحظ أنها ليست هنا...»

(باولو)؟ إذن هذا الأحمق إيطالي على الأرجح.. كان يكلمها بحماس ويحكي لها عن أشياء، ولا أدري ما هي اللغة التي يستعملها لكن هناك عددًا لا بأس به من الإيطاليين في مصر على كل حال، أكثرهم يتكلم العربيّة بطلاقة.. وقد قابلت من هؤلاء الكثير في المنصورة في صباي..

من جديد مر د. (سامي) أمامي وهو يلعب دور المضيف الذي يشعل أنامله كالشمع من أجل ضيوفه، فجذبته من كمه وأشرت إلى الجالسين:

- «من هذا؟ ومن هذه؟»

نظر إلى حيث أشرت بعينين لا تريان، قال وهو يجذب كمه:

- «علمي علمك..»

- «يا سلام؟ هذه دارك إن لم تكن الذاكرة قد خانتني..»

- «أنت تعرف هذه الحفلات، أو - بعبارة أدق - لا تعرف هذه الحفلات.. يقول رب البيت العربي لطاهيه: زد في كل شيء، فقد يجيء من نريد ومن لا نريد..»

- «أنا لا أقابل إلا من لا تريد..»

- «ما دمت مستعدًا، وما داموا أشخاصًا راقين مهذبين فلن أطرد أحدًا.. إنهم على شيء من الخبل وغرابة الأطوار لكن هذا ليس سببًا كافيًا كي.....»

ثم هتف وهو ينسل من يدي:

- «أستاذ (نيازي)!!»

لن أظفر من هذا الرجل بشيء هذه الليلة، فهو في غيبوبة تامة على ما يبدو، ولن ألومه.. أنا لا أتصور أن أجد نفسي في هذا الكابوس وأكون مسئولًا عنه.. لو فعلت هذا لتسللت إلى الحمام لأصاب بنوبة قلبيّة وأموت..

اتجهت إلى المائدة التي رصت عليها أصناف لا أعرف إن كانت تؤكل أم تستخدم كأجهزة تعويضية، والتي وقف جوارها شاب يرتدي سترة أرجوانية، يبتسم بلطف مصطنع، وقد وضع يده اليسرى خلف ظهره ليوحي بأن الخدمة ممتازة.. ابتسمت له في سماجة ورحت أرص بعض الأشياء في طبقي..

شعرت بالهواء والنور ينقطع من يساري، فنظرت لأرى جدارًا أسمر من لحم وعضلات.. الفتى أنيق.. هذا حق، لكن قامته الفارعة المفزعة تجعلك تنسى ما يلبسه.. وكان يقف جوار امرأة في منتصف العمر بادية السيطرة، على قدر من الجمال، وقد بدا أن بينهما مناقشة ساخنة بحق.. كانت تحاول إقناعه بشيء، وهو ينفخ في ضجر..

- «يا حبيبي أنت لا ينقصك شيء.. الأمور مستقرة وكل شيء على ما يرام..»

- «هذا ما تقولين أنت!»

- «يمكننا التفاهم معهم.. كل شيء يمكن أن...»

ضرب الأرض بقدمه في غيظ، وهتف:

- «أوف! هذا هو كل ما يمكن للمرء أن يظفر به من آراء النساء.. في حين لا يحترم الناس إلا من يخافونه..»

قالت في حزم وهي تضغط على كلمتها:

- «(أكرم).. لقد قلت كلماتي وعليك أن تطيع.. إن زوجة أبيك هي بمثابة أمك.. لقد انتهت هذه المناقشة..»

في عصبية ألقي الطبق الذي كان في يده على المنضدة، وابتعد غاضبًا، ويبدو أن الإهانة التي تلقاها أمامنا جعلته لا يتحمل المزيد.. هذا رجل قصير الفتيل، ومن حسن حظها أنها زوجة أبيه وأنها أنثى وإلا لهشم رأسها..

نظرت المرأة لي وللشاب المسئول عن البوفيه، وتساءلت في سرها إن كنا تابعنا ما حدث، لكن عيوننا قالت بوضوح إننا تابعنا..

راحت تملًا طبقها في عصبية، وهي تقول كأنما تكلّم نفسها:

- «إنّه شاب متحمس... جامح كالحصان.. لقد صار ضابطًا في الجيش، ويبدو أنه تعلم أن القوة هي الأساس الوحيد لأي تعامل... إن التفاهم مع الشباب يكون مستحيلًا أحيانًا..»

ابتسمت وقلت مجاملًا:

- «سيدتي.. لا أرى أنك ابتعت عن الشباب كثيرًا»

ابتسمت بدورها واحمر خداها قليلًا:

- «بل ابتعدت بأعوام.. الحقيقة إن السيطرة على الأمور صعبة بالنسبة لي كامرأة.. إن لي أعداء كثيرين، وأولهم هذا الشاب، وإنني لأجد نفسي أحيانًا مضطرة إلى لعب دور الرجل كي أقنعهم.. إنهم يعتقدون أن المرأة خصم سهل... وقد بدأت أجاريهم هذا الاعتقاد..»

ومدت يدها في حقيبة يدها وأخرجت علبة تبغ وأشعلت لنفسها لفافة.. فهمت.. لكن لو كانت تعتقد أن التدخين يجعلها من الرجال فهي مخطئة.. الصبي يبدأ التدخين ليشعر بأنه رجل، والبالغ مثلي يحاول الإقلاع عن التدخين ليشعر بأنه رجل!

ثم مدت يدها لي مصافحة:

- «مدام (سلوى الصباغ).. أمّا هذا الشاب الثائر فهو (أكرم) ابن زوجي»

كانت قبضتها قوية كالرجال تمامًا.. حاولت جاهدًا أن أتماسك أمامها وقلت في كياسة:

- «د. (رفعت إسماعيل)..»

- «أنت مجامل يا دكتور (رفعت).. وأنا أقدر هذا في الرجل...»

ابتعدت فتبادلت مع مسئول البوفيه ابتسامة ذات معنى.. ثم حملت طبقي وابتعدت.. يبدو لي أنّ هذا الحفل شبيه بأوبرات فقاقيع الصابون التلفزيونية الأمريكية المعروفة.. لا شيء يحدث.. لكنهم مجموعة من الأشخاص بمشاكل عائلية معينة، وصراعات ناشئة عن هذه المشاكل.. وفي كل لحظة يحتل الكادر اثنان من هؤلاء ليؤديا دورًا قصيرًا... والأوبرا بهذا الشكل لن تنتهي ولا يمكن أن تنتهي.. كلما ماتت الرغوة وضع المؤلف يده في طبق الصابون؛ ليحرك الماء قليلًا ومن ثم تولد فقاقيع جديدة.. لكنني لا أنكر أن متابعة هذا مسل نوعًا، وقد بدأت أفهم لماذا يحبّ الناس هذه الأشياء...

بطرف عيني أرى الخواجة الإيطالي (باولو) يغادر القاعة، بينما تجلس الراقصة الحسناء على الأريكة تنتظره، وراحت ترمق الحفل بعينين نجلاوين لا يمكن أن يفوتك ما فيهما من ذكاء عبقري.. القصة واضحة إذن.. إنها تبحث عن ثرى تخدعه وتسلبه ما معه من مال... كان الإيطالي أحمق وقد وقع في الشرك، فمن بعد هذا؟ لحسن الحظ أنه ليس أنا..

يبدو أنه أنا!!

لقد نهضت لتعبر القاعة ببراعة غير مصطدمة بأي واحد من المتزاحمين، حتى وصلت إلى الأريكة التي أجلس عليها... كان فمي مليئًا بالطعام، فما إن رأيتها حتى غصصت بما في فمي، كأنني رأيت الطاعون ذاته أمامي..

ضحكت قليلًا وقالت:

- «ماذا حدث؟ أنت لم ترَ عفريتًا..»

بذوقي ولباقتي المعهودتين قلت:

- «بل ما هو أسوأ..»

- «لا بأس.. اسمي (كاتيا).. هل معك ثقاب؟»

كانت معي قداحة، لكنّها لم تسألني عن نار.. سألت عن ثقاب...

- «ولن تدعوني للجلوس؟»

- «أنا لا أملك المنزل لهذا أرجوك أن تتفضلي..»

جلست وهي ما زالت حائرة بصدد إشعال لفافة التبغ التي تحملها، لكن من يجيدون هذه الأشياء كثيرون لحسن حظها، وقد تقدم أحد الشباب في حماس ليدني قداحته من طرف لفافة تبغها، فانبعث دخان كثيف وأهدته ابتسامة شاكرة.. ثم قالت لي:

- «أنت متضايق من وجودي.. أليس كذلك؟»

لم أعلق وواصلت الأكل محاولًا أن أستعيد متعتي الأولى.. لكن هيهات.. لا أحد يأكل بينما هناك من يراقبه بهذا الفضول..

- «لك الحق.. لابد أنك سمعت ما يُقال عني.. هناك من يعتقدون أنني فتاة لعوب، لكن المرأة قد تضطر لهذا لتحمي نفسها.. أنت تفهمني.. أليس كذلك؟»

- «نعم.. لا أفهم..»

- «المرأة لا تملك عضلات ولا تجيد استعمال السلاح.. المرأة لا تستطيع السيطرة على (الأبضايات).. لهذا تملك المرأة سلاحًا واحدًا فتاكًا هو ذكاؤها.. هو جمالها.. وأنا أستعمل هذا السلاح لأحمي من أحبهم وأخاف عليهم.. وهذا الـ (باولو) يستطيع أن يؤذيني ويؤذي أحبائي بشدة لو أراد، لهذا جعلته لا يستطيع أن يستغني عني... إنّه الآن رهن إشارتي يفعل كما أمره بالضبط.. وهو يلاقي لهذا الأمرين من زوجته ومن أهله.. لكن خمر الحب قد أسكرته فلا فكاك له..»

شعرت برعب من هذه الكلمات.. لماذا تطلب منى هذه المرأة أن أتفهم موقفها؟ أنا لست حكمًا ولست أباها ولا أخاها ولا زوجها ولا ابنها.. ثم لماذا تصارحني بهذه الأسرار من أول مرة تراني فيها؟

طعم لحم الديك الذي أمضغه يوشك أن يتحول إلى لحم ظربان.. هذا الحفل يعجّ بالمجانين من دون شك..

مر ساق يحمل بعض الكؤوس التي تحوي عصير البرتقال.. فاستوقفته حتى كدت أسقطه على الأرض، وجذبت كأسين قدمت لها واحدًا وواحدًا لي..

تشممت الكأس لحظة ثم سألته:

- «عصير برتقال.. هل لديكم شيء أقوى؟ هل لديكم (حنقت)؟»

صاح الفتى في غباء:

- «(حنقت)؟»

هنا ضربت المرأة رأسها وضحكت في دلال:

- «ما أغباني.. نسيت اسم ذلك المشروب اللذيذ.. ليكن.. ليكن.. سأكتفي بهذا.. ميرسي..»

وقبل أن أعلق جاء الدكتور (سامي) يهرول نحوي ووجهه ممتقع كالموتى.. وكان د. (رمزي) يتبعه وفي حالة ليست أفضل..

هذه أشياء تحدث..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٤ - فلنحتفظ بالهدوء..

مال على أذني وهمس:

- «حاول ألا تحدث جلبة.. أريدك معي في الخارج»

ورفع وجهه إلى (كاتيا) وضحك ضحكة مفتعلة دبلوماسية، فنهضت معه وأنا أكره أن أترك ما تبقى في طبقي المليء..

كما هو طبيعي هرعنا إلى الخارج، ونزلنا بضع درجات... إلى حديقة الفيلا التي تحولت إلى بقعة من النور كأنها مدينة الأحلام.. التماثيل الرومانية في كل صوب تجعلك تشعر كأن هذه حديقة قصر، وعبير الأشجار التي تهمس بأسرارها في خجل من فرط برد ديسمبر... كنا الآن ستة رجال لا أعرف اثنين منهم، وكنا نجد السير خلف د. (سامي) الذي كان أكثرنا لياقة..

أخيرًا كان هناك تمثال جميل لـ (بومبيي) سلط الضوء من أسفل على وجهه ليبدو رهيبًا.. وركع (سامي) على ركبته أسفل التمثال وهتف بنا أن ننظر..

حقًّا كان هناك ما يستحق النظر.. كانت هناك جثة.. والجثة كانت لرجل غارق في الدماء..

هكذا وجدت أن عليَّ أن (أعمل منظر) كما يقولون، وأزحت الرجال جانبًا باعتباري الطبيب الوحيد هنا.. وشدهت إذ أدركت أن الميت هو الإيطالي الذي كان في الحفل منذ دقائق.. في ذكاء قلت لهم:

- «لقد مات..»

- «أنت عبقري إذن..»

هذا الرجل الذي كان يهز الأرض مهابة وقوة برغم سنه المتقدمة، تحول بعد دقائق إلى خبر في صفحة الوفيات وربما الحوادث.. ترى أية عواطف كانت تختلج في قلبه وهو يعبر الحديقة ثملًا بالحبّ من دون طلا، وهو لا يعرف أنه سيتحول بعد دقيقة إلى (عاو) يخيفون به الأطفال؟

كانت هناك جروح غائرة كثيرة في صدره وبطنه... واضح أنه طعن طعنًا حتى الموت.. من فعل هذا وكيف؟

كان د. (سامي) يضرب كفًّا بكف وهو يوشك على العويل:

- «لقد انتهى أمري.. جريمة قتل في بيتي؟ في حديقتي؟»

سأله (رمزي) في هدوء من يداه في الماء البارد:

- هل تعرفه؟»

- «بالطبع لا.. لا أدري من أين تأتي هذه الوجوه..»

قلت لهم:

- «اسمه (باولو).. وهو غير عربي.. ربما كان إيطاليا..»

عاد (رمزي) يسال:

- «وهل تعرف من فعل هذا؟»

قال أحد الرجلين الواقفين اللذين لا أعرفهما:

- «أنا رأيت المشهد من بعيد.. كان يمشي وحده في الحديقة شاردًا عندما مر جوار هذا التمثال، وفجأة برز له من ورائه عدد من الرجال لا يقل عن خمسة وانهالوا عليه طعنًا.. كان يقول شيئًا ما لكنهم لم يمنحوه فرصة.. جريت مبتعدًا لأحضر نجدة وحين عدت لم أجد أحدهم..»

- «كارثة! فضيحة!»

كان (سامي) يفقد وقاره بسرعة.. وأدركت أنه حتى هؤلاء السادة يمكن أن يضطربوا..

قلت له في شيء من الحزم:

- «لا داعي لإضاعة الوقت.. هلا طلبت الشرطة؟»

- «الشرطة! في بيتي! يا لها من فضيحة!»

نهضت وأنا أتأمل الجثة الغارقة في الدماء الممتدة على الأرض في الظلام.. هذه جريمة غريبة تنم عن حقد بالغ.. كانت تكفيه طعنة واحدة.. بل إنّه ليكفيه أن يُقال له (بخ) فهذا كان كفيلًا بالقضاء على قلبه..

هنا فعل د. (سامي) آخر شيء تصورته.. جذب ذراعي وقال بلهجة من يدعونا للتعقل:

- «سنبلغ الشرطة.. لكني لا أرى أن أفسد الحفل بهذه السرعة.. لقد تعبت أنا و(ثريا) كثيرًا في الإعداد له، ولا أريد أن يمتلئ المكان بخبراء البصمات، ورجال النيابة يسألون كل واحد من ضيوفي عن علاقته بالمتوفي.. سننتظر حتى ينتصف الليل ويبدأ العام الجديد.. كم ساعتك الآن؟»

نظرت لساعتي وغمغمت في عدم رضا:

- «العاشرة والنصف.. لكن..»

- «ساعة ونصف لا أكثر.. فقط ساعة ونصف... دع هؤلاء الضيوف يمرحوا ويستمتعوا بوقتهم، ثم نطلب الشرطة في الثانية عشرة.. دعنا نفترض أننا لم نر الجثة الآن..»

قال د. (رمزي) في تفكير:

- «حقًّا لا أرى ما يمنع من....»

صعد الدم إلى رأسي فصحت في غيظ:

- «هل جننتم؟ تتركون القتلة يفرون في هذا الوقت، ولربما جعل البرد تحديد وقت الوفاة مستحيلًا.. على كل من يجد جثة أن يبلغ الشرطة حالًا.. هذا هو مفهوم عن المواطن الصالح..»

قال أحد الرجلين الآخرين:

- «لو فكرت في الأمر دون تعصب يا دكتور (رفعت) لوجدت أن د. (سامي) لا يطلب شيئًا قاسيًا أو مستحيلًا.. إنه يريد أن يطيل لحظات سعادة ضيوفه لا أكثر..»

- «دعهم يصابوا بالذعر.. دعهم يموتوا خوفًا فقد مرحوا بما يكفي..»

قال الرجل الآخر:

- «ويمكن من هذه اللحظة أن نغلق أبواب الفيلا فلا يسمح لأي كان بمغادرتها.. بهذا أنت واثق من أن من فعلها في قبضتك.. ونحن جميعًا شهود على حالة الجثة وساعة الجريمة..»

- «أنت تبالغون في موضوع راحة الضيوف هذا..»

هنا قال لي د. (رمزي) موبخًا:

- «الرجل لا يرغب إلا في تأجيل الفضيحة والضوضاء إلى ما بعد منتصف الليل.. أنت لا تهتم بالحفلات وتريد عمل أي شيء كي يتحول هذا المكان إلى مذبحة.. بصراحة لا أرى أنه يطلب المستحيل..»

هنا قررت أن أصمت ما دمت أبدو الأحمق المتعصب الوحيد وسط هؤلاء السادة الراقين.. على كل حال الدار دار (سامي) والمشكلة مشكلته والجثة جثته إن صح التعبير.. أعتقد أنه يرتكب خطأ قانونيًا جسيمًا..

- «لكننا لن نتركه راقدًا هنا لمجرد ألا نفسد صفاء ضيوفك..»

أشار د. (سامي) إلى غرفة صغيرة بين الشجيرات بدت كأنما مخصصة كمخزن أو مسكن بواب صغير الحجم أو كلب عملاق.. وقال:

- «سنضعه هناك، ثم نعود متظاهرين بالسعادة.. بعد منتصف الليل يمكن لنا أن نملأ الدنيا صراخًا ونلطم الخدود إذا كنت تريد هذا.. واسمحوا لي أن أعدل عن موضوع غلق أبواب الفيلا هذا لأنّه يبدو غريبًا»

ثم تنهد وقال في حسرة:

- «فقط لو عرفت في أية داهية ذهب (عباس).. إنه يفهم في هذه الأمور..»

داهية؟ لقد تقدم الرجل الراقي المهذب كثيرًا وصار يستعمل ألفاظًا سوقية.. ربما لو طالت الأمسية ومع قتيل آخر، يبدأ في استعمال السباب.. وهكذا تعاون الأربعة رجال على حمل الفقيد الذي لم يكن خفيف الوزن بالتأكيد.. كانت الحجرة ضيقة فيها فراش صغير ومن دون ضوء.. تعاونوا على إرقاد الرجل على الفراش، ووضع د. (سامي) ملاءة كانت هناك على وجهه..

وهكذا عدنا للحفل وبراءة الأطفال في عيوننا، وإن شرخ هدوءنا النفسي تمامًا التفكير في أن جريمة قتل بشعة حدثت على بعد خطوات منا.. لقد كف د. (سامي) عن أن يكون مرحًا، وبدا شارد الذهن متوترًا، وكذا كان د. (رمزي) الذي جلس جوار زوجته على الأريكة، وراح يلوك ما في طبقه من طعام شارد الذهن..

أين (كاتيا)؟ ماذا لو عرفت ما حدث للرجل الذي تتودد له تملقًا ومداهنة؟

ترى هل لها دور في موته؟ من الواضح أنها لم تفعل.. لديها حجة الغياب أو ما يسميها الفرنجة باسم Alibi.. فهل من فعل ذلك يمت لها بصلة؟

☆ ☆ ☆

«المرأة لا تملك عضلات ولا تجيد استعمال السلاح.. المرأة لا تستطيع السيطرة على (الأبضايات).. لهذا تملك المرأة سلاحًا واحدًا فتاكًا هو ذكاؤها.. هو جمالها.. وأنا أستعمل هذا السلاح لأحمي من أحبهم وأخاف عليهم.. وهذا الـ (باولو) يستطيع أن يؤذيني ويؤذي أحبائي بشدة لو أراد، لهذا جعلته لا يستطيع أن يستغني عني.. إنّه الآن رهن إشارتي يفعل كما آمره بالضبط.. وهو يلاقي لهذا الأمرين من زوجته ومن أهله.. لكن خمر الحب قد أسكرته فلا فكاك له..»

☆ ☆ ☆

كلامها لا يوحي بأنها يمكن أن تقتله.. لقد ادخرت له مصيرًا أسوأ هو دور العجوز الأبله المفتون بصبية من عمر بناته.. إذن من فعلها؟

هذا الحفل غريب حقًّا..

وبحثت عنها فوجدتها قد عثرت على صيد جديد.. هذه المرأة لا تضيع وقتها أبدًا.. لكن الفريسة هذه المرّة كان شابًا وسيمًا قويًا له مظهر عسكري صريح، وكالعادة لم يبد لي ذا ملامح مصرية.. وكان يجلس في كبرياء ووقار، ويتبادل معها الكلام بينما هي تضحك.. تتراجع للوراء.. تغمض عينيها.. تفتحهما.. تلوح بيدها.. تقهقه.. تبتسم.. تنهدت وقلت لنفسي إن للجمال هيبة... لقد تلاعبت من دقائق بكهل إيطالي ثري، والآن تتلاعب بشاب قوي يمكنه أن يهشم عنقها بيد واحدة لو كان القتال بأسلحة متكافئة..

ولكن ما موضوع هؤلاء الأجانب؟ هل هذا الشاب هو الآخر ضمن من يمكن أن يؤذوها لو لم تحسن استخدام أسلحتها؟ إذن كل أعدائها أجانب؟ ما معنى هذا؟

هنا تكفل ذلك الأخ الثرثار الذي يتكلم جواري طيلة الوقت بأن قال لصاحبه:

- «ها هي ذي تحاول إيقاع (ماريو) في حبائلها..»

- «ومن الواضح أنه وقع مثل (باولو)..»

فجأة صفر الأول وهو يشير إلى باب القاعة:

- «هل ترى ما أراه؟»

على الباب وقف شاب أجنبي المظهر - هو الآخر - نحيل القوام عصبي لا يوحي بأنه قط وديع.. كان يضع يديه في جيبي سترته السوداء، ويرمق المشهد وقد تعاقبت على وجهه ألوان الطيف كلها ثم استقرت عند الأحمر..

قال الثرثار:

- «هذا أخو زوجة (ماريو).. إنّه (أندريو كوزاليوني).. لقد وقع (ماريو) في شر أعماله فهذا الفتى لا يمزح.. إنّه من أسرة عريقة أرستقراطية ولن يسمح بهذه الإهانة لأخته..»

- «ربما يُطلق الرصاص عليه..»

- «لا.. لن يؤذي أخته بهذه السهولة.. أعتقد أنه سيستشيرها أولًا»

كنت أنا - في عقلي - أضرب كفًّا بكف.. زواج وطلاق وقتل وخيانات زوجية وزوجات غيورات... ما هذا المهرجان؟ كل هذا في مكان واحد وفى ساعة واحدة؟

وبدأ (الفأر يلعب في عبي) إن سمحتم لي بالتعبير..

هذه دعابة.. د. (سامي) يقدم لنا أغرب فقرة ترفيه يمكن أن تخطر ببال أحد، أو ربما هي لعبة نفسية ما.. إنّه يقيس استجاباتنا.. يقولون إن الطبيب النفسي هو الذي إذا دخلت المكان فتاة حسناء استدار ليرمق الجالسين من حوله.. عين الطبيب النفسي كالضمير تراقب خلجاتنا وانفعالاتنا.. ربما هو يعد لدراسة اسمها (الاستجابات المتباينة لمجموعة غير متجانسة تجاه المشاكل العاطفيّة والأسرية للآخرين).. لم لا؟

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٥ - مشكلة قانونية ولعبة سحرية..

بحثت عن د. (سامي) لأخبره أنني ببساطة قد فهمت دعابته.. رحت أشق طريقي بين زحام المحتفلين ذوي الطراطير الذين انغمسوا في الطعام والشراب.. وعلى المسرح المرتجل ظهرت مطربة نحيلة سمراء ابتسمت في رقة، وبدأت الفرقة المكونة من عازفين تعزف تلك الموسيقا الغريبة البسيطة..

«واحسرتاه على حبيب قد نساني للأبد..

قد كان لي كل الوجود.. وكان عنوان الأبد..

لما حرقت شذى البخور عليه.. لم يعرف أحد..»

ما هذا الكلام؟؟

لا بأس باللحن وبصوتها على الإطلاق.. لكن هذه الكلمات؟ إنها لا تمت لمفهوم كلمات الأغنية كما أعرفها، وعامّة هي لا تناسب هذا الحفل.. لكن يبدو أنها رائعة لأن إحدى السيدات أطلقت صرخة لوعة، ونهض رجل أسمر فارع القامة ملوحًا كأنه يستمع لإحدى أغنيات (الست أم كلثوم)..

والفتاة تواصل الغناء بصوتها الساحر.. يبدو أن (عباس) هو كاتب الكلمات أيضًا..

كنت أبحث عن د. (سامي) حين استوقفتني صيحة تدعوني.. كانت هذه مدام (ثريا) زوجته التي جلست على أريكة واسعة جوار سيدة عجوز وشاب مفتول العضلات من الطراز المتحمس إياه.. وكان هناك رجل قصير القامة مسرور من نفسه، من الطراز ذي العوينات الغليظة حتى تشعر كأن عينيه ضفدعتان محفوظتان في مرطبانين بمعرض كلية العلوم...

قالت بعد أن قدمتني لهم:

- «مدام (نجوى كاظم) وابنها (شريف).. وطبعًا هذا الأستاذ (بدر الصواف) المحامي المعروف..»

طبعًا لم أكن قد سمعت حرفًا عن الأستاذ (بدر الصواف) - المحامي المعروف - لكني تظاهرت بأنني مذهول للقائه أخيرًا بعد كل ما سمعته..

- «اجلس..»

فجلست أنا التعس البائس.. لا أدري لماذا بدأت أشعر أن يد (بيزارو) ليست بهذا السوء..

قالت لي مدام (ثريا):

- «تصوّر.. إن مدام (نجوى) وابنها يواجهان أغرب مشكلة من جيرانهما... والأغرب أن هؤلاء الجيران ليسوا أصحاب العقار أصلًا، وإنما هم استولوا عليه بوضع اليد، بعد هذا يطالبون بحقوق الجار وأكثر منها.. إنهم يشكون من أن صوت الثلاجة في دار آل (كاظم) عالٍ ويضايقهم!»

بصوت أرستقراطي ثابت قالت مدام (نجوى):

- «لم أر وقاحة أكثر من هذه في حياتي كلها!»

سألتها غير مصدق:

- «طبعًا لم تتخلصي من الثلاجة؟»

- «طبعًا لا.. ولو تخلصت منها لبدءوا الكلام عن صوت قطرات الماء من صنبور الحمام.. إنهم لا يشبعون»

عادت مدام (ثريا) تحكى لي القصة الغريبة:

- «كانت هذه هي البداية لقصة طويلة من التحرش.. لقد حاولت مدام (نجوى) وزوجها تفادي الصدام، لكن هؤلاء البلطجية كانوا وقحين وأخذتهم العزة بالإثم.. المشادات الكلاميّة تحولت إلى تراشق بالأيدي ومحاضر في الأقسام.. ثم جاء اليوم الذي وجدوا فيه الزوج رحمه الله ملقى في الشارع ويبدو أنه مقتول.. لم يكن لدى البائسة إلا أن تتهم جيرانها لأنّه لا أعداء لها.. وبالطبع فشلت الشرطة في إثبات التهمة وقيدت الحادثة ضدّ مجهول..»

كانت مستمتعة جدًّا وهي تحكي لي هذه القصة المرعبة... كأنها هي (نجوى) والجيران والمحامي معًا.. فلم تترك لأحدهم فرصة الكلام أو التعليق..

- «الفكرة هنا أن (شريف) مصمم هو ووالدته على الانتقام لأبيه.. يقول إنّه سيذيق هؤلاء البلطجية الويل.. وأنا أحاول إقناعه بأن القانون لن يكون في صفه..»

نظرت إلى الشاب فوجدت أنه قادر بالفعل على أخذ حقه.. لكن الأمور ليست بهذه البساطة..

وقال الأستاذ (بدر) ما لا داعي لقوله لأنّه بديهي:

- «لا يمكن أن يأخذ كل إنسان حقه بالقوة.. إن القانون هو السياسة الوحيدة..»..

ابتسمت السيدة العجوز في مرارة وقالت:

- «نحن نجرب القانون من زمن وهو لم ينصفنا قط... ثم كيف تبرهن بالقانون على ما عجزت الشرطة عن إثباته؟ إن قاتل زوجي طليق يمرح ويطالبنا بالمزيد»

قال المحامي:

- «صبرًا.. هناك حلول قانونية كثيرة.. فقط لو أنك جلبت ما لديك من أوراق إلى مكتبي.. فلسوف..»

يتكلم وهو يفتش في جيبه بحثًا عن بطاقة، في النهاية وجد واحدة فناولها إياها وهو يبتسم باعتداد نفس...

قالت مدام (ثريا) باسمة:

- «نصيحتي الوحيدة لك يا (شريف).. العنف لا يجلب إلا المشاكل.. أعرف أنك حار الدماء، لكن نداء العقل فوق كل شيء..»

كنت أنا اشعر بغصة وتقلص في معدتي، حتى لأوشك على القيء.. كل هذا الانفعال - خاصة مع وجود جثة في الحديقة - لا يناسبني.. وسمعت مدام (ثريا) تسألني بطريقتها الأنيقة:

- «وأنت.. لم نسمع رأيك يا دكتور (رفعت)؟»

☆ ☆ ☆

(عزمي) بك ما زال جالسًا مع المهندس الذي يصمم له المدفن الآمن الذي سيحميه من اللصوص.. مدفن سيحسده عليه كل أهل مدينته.. و(كاتيا) اللعوب جالسة تتناجى مع الإيطالي (ماريو) الذي طار عقله تمامًا من سحرها.. الشاعر مرهف الحس (مراد سليم) يقف يتأمل الليل من الشرفة ومن حين لآخر يخرج قصاصة ورق ليدون عليها شيئًا.. بينما مدام (سلوى الصباغ) لا تكف عن الجدل مع ابنها الغاضب - قليل الأدب نوعًا - (أكرم).. ومدام (نجوى كاظم) تدبر مع ابنها (شريف) الانتقام لأبيه..

يمكن القول إنني صرت أعرف جيدًا أهم الموجودين في هذا الحفل، ولست مهتمًا بتفاصيل حياتهم على الإطلاق، لكنهم صاخبون ويعرضون مشاكلهم بحيث لا تملك إلا أن تتابعها..

على المسرح المرتجل وقف أحد الحواة.. كان رجلًا يلبس الأسود، ويضع مساحيق كثيفة على وجهه حتى ليذكرك بمهرجي السيرك نوعًا، وبرغم هذا يعتقد أنه يثير الإعجاب، وكان هذه فرصتنا الوحيدة للاستمتاع بنرجسيته.. وقد أخرج كثيرًا جدًا من اليمام والمناديل وكرات البنج بونج من كميه وأذنيه وطاقتي أنفه.. وراح يؤدي كل هذا بسرعة ليوحي بالاحتراف، لكني بصراحة لم أفهم شيئًا من فرط سرعة الأداء..

وتقدمت فتاتان من الراقصات إياها تحملان صندوقًا أنيقًا مزخرفًا وضعاه على الأرض أمامه...

قال في لطف يثير الاشمئزاز كأنه ضفدع لزج:

- «الآن أنا بحاجة إلى واحد من المشاهدين الشجعان كي ينام في هذا الصندوق..»

تقدم أحد المتطرفين، ونظر لنا ضاحكًا، ثم وثب إلى الصندوق وفرد جسده.. لكن الصندوق لم يناسب طوله قط.. هزّ الساحر رأسه في لطف:

- «لا.. أحتاج إلى متطوع شجاع آخر..»

يبدو بوضوح هذا الرجل شريرًا.. وتذكرت التعبير القرآني (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور).. سبحان الله.. هذا هو بالضبط ما يعبر عن عيني هذا الرجل.. إنهما تخونانه من وقت لآخر خلف ابتسامته المداهنة، لتدرك أنه شرير حقًّا..

تقدم متطوع آخر وجرب النوم في الصندوق.. لا.. الحجم غير مناسب..

أشار الساحر إلى رجل يجلس مع زوجته وطفلهما الرضيع، ودعاه في لطف إلى أن يجرب..

في تردد نهض الرجل وهو يزرر أزرار سترته..

- «نريد أن نسمع أعلى تصفيق لهذا المتطوع الشجاع!!»

دوى التصفيق بينما تمدد المتطوع الشجاع برفق في الصندوق.. كان الحجم مناسبًا تمامًا.. من ثم أغلق الساحر الصندوق وهو يدعونا إلى التريث، وابتسم ابتسامة مشجعة للرجل المُمَد بداخله..

جاءت الفتيات بغطاء سميك من الكتان غطى به الساحر الصندوق.. طبعًا.. لابد من هذا وحين يرفع الغطاء نجد الصندوق قد اختفى... هذه هي التقاليد... ولكن كيف؟ أعرف أنهم في المسرح يستعملون جبًّا تحت المسرح ينزلق إليه الصندوق، ولكن هل هناك جب تحت فيلا الدكتور (سامي)؟

- «تصفيق حاد للساحر (شندي)!! أوي ي ي ي ي!»

يمط اللفظة الأخيرة كما يفعل مطربو الفرق حين يستجدون المزيد من التصفيق.. وتعالت الموسيقا بينما الساحر يزيل الغطاء لنجد أن الصندوق اختفى بالفعل..

ومن دون كلام كثير انحنى الرجل والفتيات يحيون الجمهور في رشاقة، ثم هرعوا يتوارون وراء الكواليس التي هي عبارة عن ستار على جانبي الردهة المفضية إلى باب الخروج..

- «سأخرب بيتك يا (عباس) لو قابلتك!»

كانت هذه طبعًا من الدكتور (سامي) الذي أفزعه تحول بيته الراقي إلى ناد ليلي، ومرة إلى خيمة لإحدى فرق المولد الأحمدي.. دعك طبعًا من تحول الحديقة إلى مدفن..

بدا الجميع منبهرين وعادوا لصخبهم.. لكني تساءلت: لماذا لم يرجع الساحر الزوج كأي ساحر آخر يحترم نفسه؟ الزوجة أيضًا خطر لها الشيء ذاته..

نهضت وصاحت بصوتها الرفيع:

- «ولكن... أين زوجي؟»

لكن لا أحد يهتم بما تقول سواي.. تحول الجمهور كالعادة إلى بقرة غبية عملاقة لها ألف لسان لكن لا عقل لها..

- «أين (مصطفى)؟ أين زوجي؟»

كان لها وجه أسمر كالطمي مليء بالنبل وفيه قدر هائل من حنان الأمومة.. وعلى هذا الوجه الحساس تتابعت العواطف: الغباء وعدم الفهم ثم الحيرة ثم القلق ثم الجزع ثم التوحش الدامع.. كأنها صورة كمبيوتر من التي يتم فيها على مراحل مسخ صورة رجل لتتحول إلى صورة نمر.. قاسية جدًا هذه اللعبة مع أم..

- «أين (مصطفى)؟ أين زوجي؟»

ونظرت لي دامعة العينين فقلت لها:

- «لابد أنه وراء هذا الستار يا سيدتي.. لابد أنه حيث توارى الساحر..».

هرعت تركض إلى هناك، وطفلها على كتفها بينما عاد الناس إلى الصخب والمرح..

على بعد أمتار وجدت د. (رمزي) واقفًا مع زوجته (ماري)، لكن نظرة حيرى شاردة كانت في عينيه وهو يتابع المشهد.. طبعًا من حقه أن يفقد مرحه.. ألا توجد جثة في حديقة الفيلا؟.

لكن تقطيبه جعلني أدرك أنه يفكر فيما هو أعمق وأخطر من هذا كله..

ثم عاد إليه روعه فعاد يثرثر مع زوجته، وبدا لي كأنما نسي الأمر برمته..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٦ - المواجهة..

الآن يتأبط الإيطالي المخدوع أو المفتون ـ لا أدري بالضبط ـ ذراع الساحرة الصغيرة (كاتيا)، وينهضان نحو المائدة التي رصت عليها أصناف المأكولات.. تبدي هي دلالًا طفوليًا كأنما لا تصبر أمام هذه المأكولات..

تقول له بصوت راقص:

- «حتب جميلة.. حتب فاخرة!»

فيهمس لها كي تصمت، ويتناول طبعًا ليضع لها بعض المأكولات فيه..

ما معنى (حتب) هذه (تنطقها بكسر الحاء والتاء)؟ هذه المرأة تقول أشياء غريبة أكثر من اللازم...

هنا قطع على أفكاري أن ظهر الأخ (أندريو كوزاليوني) الذي هو شقيق زوجة (ماريو) نفسه.. كان سمجًا كالعادة، وبالطبع حرص على ألا يخرج يديه من جيبه..

دنا منهما.. وبالطبع بدا الرعب والتوتر على المرأة، أمّا الرجل فقد توتر وجهه وقطب جبينه..

قال (أندريو) بعربية تشي بأنها إيطالية مثلما يتكلم البارمان في أفلامنا العربيّة:

- «(ماريو).. أنت تجاوزت الحد..»

بلغة مماثلة وتحد مماثل قال (ماريو):

- «(أندريو).. لا شأن لك بي.. إن أختك معززة مكرمة وتظفر بما تريد»

- «أنا لا أتحدث عن أختي برغم ما لحق بها وباسم أسرة (كوزاليوني) من عار لا شك فيه.. أنا أتكلم عن كرامتنا الوطنية.. هأنتذا بدلًا من القيام بعمل جاد تضيع وقتك مع مصرية لعوب.. والبداهة أنها تخدعك.. إنها تحاول أن تحطم صفنا وتحطم ما اتفقنا عليه من قبل..»

التصقت (كاتيا) الساحرة بالرجل أكثر، وبدا أنها خائفة بحق..

قال (ماريو):

- «(أندريو).. أنت شقيق زوجتي التي أحترمها وأحترم اسم أسرتها..»

- «هذا واضح!!»

- «.. ولا أرغب في أن أخوض معك قتالًا.. لهذا أرجوك.. دعني وشأني..»

وضع (أندريو) قبضتيه في خصره وقال:

- «لقد مات العجوز (باولو) وقد استحق هذا.. لكن لا تنس أنه هو الآخر قد وقع في شراكها.. كلاكما أحمق نسى كل شيء بمجرد أن رأى عيني هذه المرأة العمليتين»

هنا تبادلت نظرة دهشة مع د. (رمزي).. كيف عرف هذا الرجل أن (باولو) قد مات؟ لا أحد يعرف سوانا، فمن ليس منا فهو القاتل بالتأكيد أو كان ضمن القتلة.. هذا الفتى يعترف إذن بأنه قتل (باولو)..

كان الواقفون قد بدءوا يحتشدون حول المتعاركين كلاميًا، وقد ساد جو التوتر القاعة كلها..

نزع (أندريو) سترته السوداء وتقدم نحو (ماريو).. وقبل أن نفهم ما يحدث صفعه على خده..

- «هذه دعوة للتحدي.. اترك هذه المصرية اللعوب وواجهني كما يفعل الرجال... هذا لو كنت تذكر كيف يتعارك الرجال..»

نزع (ماريو) بدوره سترته وتقدم خطوة للأمام وقال في شمم:

- «سأريك يا (أندريو) أنني أعرف كيف أقاتل كالرجال..»

وكور كل من الرجلين قبضته وراح يتواثب كالبرغوث متأهبًا لتوجيه اللكمة الأولى.. وكان الناس ينتظرونها في شغف، لولا أن وثب د. (سامي) بينهما وصاح:

- «لو سمحتما لي.. هذه داري وأنا سيدها الوحيد.. لو لم تتفضلا بمغادرة المكان فلسوف أبلغ الشرطة وأنا أعني ما أقول.....!».

لم ينظر له أي من الرجلين، لكنهما ارتديا السترتين، وتفاهما بنظرة واحدة.. من الواضح أنهما سيكملان ما بدأه خارج دار هذا الرجل الطيب.. وفي صمت مشى الاثنان نحو الباب..

صرخت (كاتيا) وهي تركض نحوهما:

- «(ماريو)! لا تشتبك معه.. أرجوك!»

لكنه ابتسم لها في ثقة.. ومشى مع الآخر مغادرين الحفل..

ضاربًا كفًّا بكف صاح د. (سامي):

- «مستشفى الأمراض العقليّة الذي أعمل فيه قد انتقل إلى بيتي! إن هؤلاء القوم لا يتمتعون بالرقي على الإطلاق..»

إذن هو لا يمزح وليست هذه لعبة.. ليست تجربة.. إنه عصبي، إلى درجة تجعلني أحجم عن سؤاله..

قلت له في ثقة:

- «هؤلاء الإيطاليون يعملون جميعًا مع المافيا لو أنك صدقت الأفلام الأمريكية.. أنت تعرف هذا الهراء على غرار: أنت أهنت الأسرة ويجب أن تنام في قاع المحيط مع الأسماك.. الخ..»

تنهد في ضيق ونظر إلى الساعة.. كانت منتصف الساعة الحادية عشرة.. يبدو أنه صار يتمنى أن تنتهي هذه الليلة مثلي..

هنا وهنا فقط، دخلت الزوجة السمراء القاعة من أحد أبوابها، حاملة طفلها على كتفها وراحت تدور على الجالسين كأنها تتسول:

- «هل رأى أحدكم زوجي؟ هل رأى أحد (مصطفى)؟»

طبعًا لا رد.. الأمر خطر إذن..

قلت لـ / د. (سامي) في ضيق:

- «الأمر خرج من نطاق المجاملة وصار جنونًا.. يجب أن تبلغ الشرطة حالًا..»

نظر لي بعينين تعستين لا تريان ثم مشى - وأنا معه - إلى حجرة جانبية صغيرة يبدو أنها عبارة عن مكتب صغير له.. أوصد الباب كي يمنع كل هذا الصخب بالخارج من الدخول، وقال لي:

- «اطلبهم أنت فلم أعد أدرى ما أقول..»

كان هناك هاتف وردي اللون على المكتب فهرعت له، وطلبت الرقم السحري.. استغرقت وقتًا أطول من اللازم كي أدرك أنه لا توجد حرارة.. وكان هذا معتادًا في السبعينات على كل حال..

رأى نظرة وجهي وضرباتي المتكررة على الزر ففهم...

- «يا للمصيبة!»

وجفف العرق على وجهه، وغادر الغرفة دون أن يقول لي حرفًا واحدًا..

لما لم يكن لديَّ ما أفعله، غادرت الغرفة ماشيًا وراءه..

☆ ☆ ☆

رأيته يخرج إلى الحديقة الباردة، وكان المطر قد بدأ ينهمر منذرًا بتحويلها إلى وحل.. هذا ما كان ينقصنا من أجل المزيد من البهجة.. إنّه يمشي بين التماثيل متجهًا إلى تلك الحجرة الصغيرة بين الشجيرات، التي تصلح لبواب صغير الحجم أو كلب عملاق..

وقف على الباب ووضع يده على رأسه، ولم أفهم ما هنالك؛ لأنني كنت أراه من ظهره وهو يقف على الباب المفتوح، وقد أضاء كشافًا صغيرًا من النوع الذي يوضع في الجيب..

دنوت أكثر فسمعته يقول شيئًا ما عن (عباس) الوغد الذي اختفى تمامًا حين لا يجب أن يختفي..

وعلى ضوء الكشاف الواهن الضيق رأيت من فوق كتفه ما رآه..

كان الفراش خاليًا..

جثة العجوز الإيطالي (باولو) لم تعد هناك..

شعر بوقوفي خلفه فقال:

- «لقد رحل..»

- «لاحظت ذلك، ولا أجد تفسيرًا..»

- «ربما أفاق ونهض..»

- «نهض؟ لقد شبع موتًا حين رأيناه.. كانت هناك طعنتان في القلب ذاته.. لو كان حيًّا حين رأيناه فلا وجود للموت إلا في خيالاتنا إذن!»

- «إذن؟»

- «لربما سرقه أحد.. أو أخفاه.. قلت لك إن هؤلاء الإيطاليين يعملون مع المافيا دائمًا.. هناك عدد منهم قتلوه فلا أستبعد أنهم أخفوا جثته كي لا تراها الشرطة.. لاحظت أنّ هذا الفتى المدعو (أندريو) يعرف جيدًا أن العجوز مات، فمن أخبره بذلك؟»

لم يرد، واستدار عائدًا إلى الفيلا.. الطريف في الأمر هو أنه كف في الآونة الأخيرة عن اعتباري كائنًا حيًّا.. إن شرود ذهنه وتوتره جعلاه يعاملني كالجماد.. يتركني متى شاء، ويقطع كلامي متى شاء..

ثم سمعنا صخبًا وأنينًا وضربات مكتومة قادمة من خارج سور الفيلا..

نظرنا إلى مصدر الضربات فرأينا.. كان الإيطاليان (ماريو) و(أندريو) يتقاتلان كما لم يتقاتل أحد من قبل.. كطفلين انتظرا حتى يغادرا سور المدرسة راحا يكيلان اللكمات واللطمات لبعضهما على الإفريز المجاور لسور الفيلا من الخارج.. وكان المطر قد بدأ يبلل ثيابهما ويحيل شعريهما إلى عجين أشقر...

بوم.. ثمب.. بوم.. طراخ!

أحدهما يسقط فينقض عليه الآخر، لكن الأول يتلقاه بركلة في بطنه، وهكذا..

قلت لـ د. (سامي):

- " هل نخرج لنخلصهما؟»

- «فليذهبا إلى حيث ألقت.. ما داما بعيدين عن داري فليفعلا ما يروق لهما حتى لو مزّق أحدهما الآخر..»

وجوار السور من الداخل رأيت شبحًا رقيقًا يتمسك بالقضبان الحديدية، ويراقب ما يحدث في لوعة.. شبحًا بلل المطر ثوب سهرته الخفيف تمامًا، لكنه لا يشعر بما يدور من حوله، بل إنّه كان يشارك الرجلين بالتشنج ومن حين لآخر يرفع ساقه في صورة ركلة مساندة.. لم يكن القتال بين اثنين في الواقع بل بين ثلاثة.. والثالث هو (كاتيا) تقاتل بالعواطف والانفعالات..

ما سر كل هذا الحماس؟

دنوت منها وقلت لها في أدب:

- «سيدتي.. لا يمكن أن تبقى هنا.. إن الجو...»

لم تشعر بي حتى اضطررت إلى أن أضرب كتفها وأكرر ما قلت، فاستدارت لي.. هل الذي يبلل وجهها هو المطر أم الدموع؟ قالت لي وهي ترتجف:

- «دعني من فضلك.. لن أتحمل أن يحدث له شيء! لقد حدث له كل هذا بسببي أنا.. بسببي!»

كانت لهجتها قاطعة حتى إنني تراجعت لألحق بـ د. (سامي) وأنا أفكر..

القصة قصة حب إذن، وليست مجرد وسيلة تحمي بها الأنثى الضعيفة نفسها من خصوم لا قبل لها بهم..

ما معنى هذا؟ هل كانت تخدع العجوز بينما هي فعلًا تحب هذا الـ (ماريو)؟ وما معنى كل ما قالته لي؟

ثم هذا الـ (أندريو)؟ جميل أن يدافع المرء عن كرامة أخته.. لكن ليس إلى درجة قتل زوجها لمجرد أنه يجلس في حفل مع فتاة أخرى... هناك اللوم أو التوبيخ أو حتى إقناع الأخت بالانفصال.. لكني لم أسمع عن أخ انتزع حنجرة زوج أخته لمجرد أنه متحمس..

لا تفسير.. والأدهى أن الأمطار تزيد الأمور سوءًا...

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٧ - اثنا عشر كأسًا..

الآن كانت مدام (ثريا) زوجة المضيف تجلس إلى جوار مدام (ماري) زوجة الضيف، تتسليان بشيء من تلك الأشياء التي تكسر بالأسنان وتوضع قشرتها في الأطباق.. أي تلك الأشياء التي صرت أعتبر أكلها بطولة.. قد بدا لي أنهما تستمعان بوقتهما حقًّا، وكان الفخر جليًا على وجه مدام (ثريا)، فهي لم تتوقع أن يكون زوجها قادرًا على إعداد حفل مفاجآت بهذا الإمتاع. والتشويق.. لقد فاجأ الجميع بمن فيهم هي نفسها..

سألت الثانية عن زوجها، فهزت يدها بمعنى أنها لا تعرف وقالت:

- «يعلم الله إنِّه شارد الذهن تمامًا.. يبدو أنه أصيب بكراهية المجتمعات منك..»

قالت لها مدام (ثريا) مصححة:

- «فوبيا المجتمعات.. لا تنسى يا حبيبتي أنك في بيت طبيب نفسي..»

وانفجرت السيدتان ضاحكتين... فابتعدت وأنا أشعر بأنني على وشك خنق أحد..

هنا اصطدمت بالشاعر مرهف الحس إياه... ماذا كان اسمه؟ (مراد سليم).. كان واقفًا وحده ينظر إلى المدفأة التي رفض أصحاب البيت إيقادها كي لا يُصاب كل هؤلاء بالالتهاب الرئوي عند خروجهم بعد منتصف الليل.. لاحظت نصفه السفلي البدين بالنسبة لنصفه العلوي، وقلت لنفسي إنِّه مصاب على ما يبدو بأحد أمراض الغدد الصماء، ويدعى متلازمة (فروليك).. أو يبدو كأحد المصابين بهذا المرض..

كان يهمس بصوت مسموع:

«يا سيدي...

قليل من الناس يفهم من أنت..

لأني وحدي أعرف سرك..

عرفتك في كتمان وصمت..

وحين ذاع سرّي.. تنادوا باسمك..

وكان عليَّ أن أدفع الثمن..

لأن أعداءك حولي كثير..

ولأن قراري عسير..»

ما زلت لا أجده موهوبًا، لكن عم يتكلم بالضبط؟

رآني أقف جواره فانفرجت شفتاه الغليظتان، وبدا الحزن في عينيه وقال:

- «هل راقت لك القصيدة؟»

كدت ألقي بنفسي على الأرض وأتلوى وأضرب خدي انبهارًا.. لكني اكتفيت بأن هززت رأسي في وقار.. هزة معناها قد يكون (رائعة) أو (استمر) أو (بوسعك أن تعطينا أفضل)..

ثم ابتعد وهو ما زال يترنم بالمزيد مما يقول..

شعرت بان الربيع والبلابل والندى والأنسام بقربي فنظرت غير فاهم.. كانت زوجته الرقيقة ترمقه في مزيج من الحزن والضيق.. شعرت بالحرج حين تلاقت النظرتان.. هي فهمت أنني أتأمل زوجها بأكثر مما يبرره الموقف.. لابد أن خاطرًا ما يجول بذهني، وهي راغبة على ما يبدو في معرفة هذا الخاطر..

قلت لها مداهنًا:

- «زوجك شاعر مطبوع يا سيدتي..»

ابتسمت في حزن، وهزت عنقها الطويل وقالت:

- «هو شاعر بالتأكيد.. لكن من دون شعر..»

ونظرت لي وابتسمت أكثر.. هنا لاحظت ما لم ألحظه من قبل.. غريب أنني لم أرها إلا من الجانب الأيمن أو من الخلف أو هي مغمضة عينيها.. الآن ألاحظ أن عينها اليسرى ليست على ما يرام.. هناك سحابة بيضاء على القرنية.. يا للخسارة! الآن أفهم ما قاله آباؤنا عن (الحلو ما يكملش)..

تأدبًا تفاديت إطالة النظر، وكان اعترافها الصريح لرجل لا تعرفه قد أثار دهشتي..

قلت لها:

- «بالعكس.. إن شعره يوحي بجو كوني غامض، ولم أسمع مثله من قبل..»

قالت وهي تنظر نحوه:

- «هذه هي المشكلة.. إنّه لا يأتي إلا بالجديد في كل شيء.. ثورة في ثورة في ثورة، ولا أحد يتحمل هذا كله.. لهذا يكسب كل يوم الكثير من الأعداء.. أحيانًا أرى أن الحياة عش دبابير من

الخير عدم معابثتها أو إزعاجها بالركلات..»

كان الآن يقف مع أمّه يثرثران.. وكان مجرد وجودها قد جعله يستعيد مرحه.. هذا رجل واقع تمامًا تحت سلطة الأم، وعلاقته بالأنثى هي أن تكون أمًّا له.. بينما الزوجة التي لا تستطيع أن تكون أمًّا تجد نفسها بالطبع في آخر أولوياته..

أضافت في شرود:

ـ «المشكلة الأخرى هي أنه لا يتابع شيئًا مما يحدث حوله.. إن تكون ممتلكاته تضيع وأعداءه يعبثون، بينما هو غارق في عمله الخاص الذي لن أستطيع فهمه أبدًا.. لكني أتظاهر بالفهم..»

لم أجد ما أقول فابتعدت عنها بعد ما هززت رأسي في رفق..

وفي ركن القاعة وقف مجموعة من الشباب يمرحون ويضحكون بصوت عالٍ.. كانوا جميعًا متشابهين، ببشرتهم السمراء وقاماتهم الفارعة.. من هؤلاء؟ ألاحظ أن سمر البشرة أكثر من اللازم هذه الليلة وكلهم غريبو الأطوار..

وقف شاب وسط المجموعة وقال لهم بصوت عالٍ:

ـ «إن لقاءنا الليلة هنا لمناسبة تستحق الاحتفال.. منكم من أتى من الصعيد ومنكم من أتي من وجه بحري..»

قال أحد الشباب ضاحكًا:

ـ «وأنت رجل (صا الحجر) بيننا..»

كانت (صا الحجر) بلدة صغيرة في محافظة الغربية أقرب إلى قرية، وكنت أعرفها طبعًا، لكني لم أفهم معنى أنه رجل (صا الحجر).. على كل حال منظره يدل على أنه من أعيان تلك البلدة.. وكان ذا قوة شخصيّة وسيطرة واضحتين كأنما هو زعيم المجموعة..

قال لهم وهو يلوح بإصبعه مستدعيًا أحد السقاة:

ـ «حان وقت أن نحتفل بنخب هذا.. سنشرب ونأمل أن نظل أصدقاء دائمًا..»

جاء الساقي، فطلب منه الشاب أن يأتيهم بإبريق مليء بالعصير ومعه اثنا عشر كأسًا.. وهو مطلب غريب لم أفهمه.. لم لا يأتي بالكؤوس مفعمة من البداية؟

هكذا عاد الساقي بعد قليل حاملًا صينية تراصت عليها الكؤوس، فمد كل واحد يده.. أدركت أنّ هناك كأسًا ناقصة لما رأيت كل واحد من الشباب يحمل واحدًا ما عدا هذا الشاب المسيطر..

ـ «هاك خذ كأسي..»

قالها أحدهم وهو يناوله الكأس من يده، لكن الشاب اعتذر شاكرًا.. تلفت حوله حتى وجد مطفأة تبغ من البرونز موضوعًا على منضدة، فأمسكها وتفحص قاعها ومد بها يده للساقي ضاحكًا:

- «هاك! إنها نظيفة..»

واضعًا يده اليسرى خلف ظهره ليوحي بأن الخدمة خمس نجوم، قال الساقي بطريقته اللبقة (الفندقية):

- «لا أرى ما يدعو لهذا يا سيدي.. سأحضر لك كأسًا حالًا و...»

- «لا تتعب نفسك.. النتيجة واحدة.. هيا..»

ومترددًا صب له الساقي بعض العصير في الوعاء البرونزي المرتجل.. فرفعه إلى شفتيه، وكذا فعل الباقون:

- «في صحة صداقتنا الأبدية..»

انتهى الشرب.. هنا ألقى أحد الفتية كأسه على الأرض وصاح في ذهول:

- «يا إلهي! هو شرب في كأس من برونز.. هل فهمتم؟».

تبادل الفتية النظرات في ذهول.. وأدركت أن الأمر أخطر من مجرد شرب العصير في مطفأة تبغ..

- «أنت تعمدت ذلك يا (باسم)!!»

هتف الفتى وهو يمسك كأسه بيديه وفي ذهول:

- «أقسم لكم إنني لم أتعمد هذا.. لقد فعلته عفوًا..»

- «بل أنت كاذب.. كل هذه لعبة لفقتها أنت كي تشرب في كأس من برونز.. هل تعرف ما قيل لنا.. من يشرب منا في كأس من برونز سيكون هو صاحب الكلمة العليا!»

- «اقسم إنني لم اتعمد ذلك.. (باسم الصاوي) لا يخدع رفاقه»

وقال واحد آخر وهو يكور قبضته غيظًا:

- «كنت دائمًا طموحًا ترغب في أن تكون لك الكلمة العليا علينا.. لكننا لن نلعب ألعاب الأطفال هذه!»

دنا مني د. (رمزي) وقد شعر بجو التوتر العام.. دنا من أذني وهمس:

- «ماذا هناك؟ مشاجرة أخرى؟»

- «يبدو ذلك..»

- «إن د. (سامي) - على ما أعتقد - صار أقل تدقيقًا في اختيار ضيوفه.. هل نحن في حفل أم في (درب الفتوات) هنا؟»

قلت وأنا أتابع ما يحدث عازمًا على ألا يفوتني شيء:

- «إحدى عشرة كأسًا والثانية عشرة من البرونز.. لهذا ينوون معاقبة الفتى الذي تجرأ وشرب في البرونز.. هؤلاء القوم مخابيل..»

لكني سمعت د. (رمزي) يتنفس بصوت مسموع.. ثم همس بصوت كالفحيح:

- «إحدى عشرة كأسًا؟ هم م م م!»

في هذه اللحظة كانت المواجهة قد بلغت الذروة.. لقد وقف الفتية في صلابة وأشار أحدهم إلى الباب:

- «أنت مخادع يا (باسم).. اخرج من هنا فلا أحد يرحب بك، ولا نريد أن نرى وجهك ثانية..»

قال آخر:

- «عد إلى (صا الحجر).. أو لو أردت رأيي ابتعد عنها أيضًا..»

لم يجد الفتى المظلوم - أو هكذا أعتقد - مناصًا من الخروج كاسف البال مدلهمًا.. مر بنا فتبادل وإياي نظرة ثم اتجه للباب.. كاد يصطدم بالمرأة السمراء التي تحمل طفلًا والتي تبحث كالمجنونة عن زوجها..

قال له بصوت لواه الدمع:

- «سيدي.. لو قابلت (مصطفى) زوجي بالخارج، فلا تنس أن تخبرني بذلك..»

نظر لها في صمت، ثم انحنى ولثم يدها في احترام وغادر المكان...

- «قال إنّه من (صا الحجر)؟»

كان هذا صوت (رمزي) الذي كان يتابع المشهد باهتمام..

أشرت برأسي موافقًا، فهز رأسه وعاد لشرود ذهنه الذي يوترني.. لكن شيئًا لم يحدث بعد هذا..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٨ - المزيد من الغرائب..

منتصف الليل أخيرًا!

بقيت ثوان عليه، ورأيت من يقف على المسرح المرتجل ليصيح مع عقرب الثواني على الساعة الكبيرة الموجودة على المدفأة:

- «خمسة.. أربعة.. ثلاثة..»

ومعه تعالى صوت الموجودين يرددون وراءه ما يقول.. لا أدري ماذا يسعد المرء في كونه اقترب عامًا من النهاية؟ لابد أن هؤلاء القوم يملكون الكثير من الأعوام إذن..

- «اثنان.. واحد....»

الآن يلامس عقرب الثواني الرقم الثاني عشر، فتنطفئ الأنوار.. تبًا! كأن ما ينقصنا هو الظلام..

تعزف الموسيقا لحنًا لا أدري ما هو.. لكن ثقافة هؤلاء القوم عالية.. لابد أنه لحن (رأس السنة) للموسيقار الإيطالي (سباجيتي)، وأنا لا أعرف لأنني (العربجي) الوحيد في هذا الحفل..

المهم الآن أنه صار من حقي أن أشكر د. (سامي) وأعود إلى داري.. هل سيطلب الشرطة؟ لا أدري... القرار قراره لكن البلاغ سيكون صعبًا من دون جثة..

في الظلام شعرت بمن يجذبني إليه... من؟ لابد أنني بدوت وسيمًا في عين واحدة من الحسناوات، وهي تكره أن يبدأ العام الجديد دون أن أكون جوارها.. يا لها من رومانسية!

لكن الجذبة كانت أقوى من اللازم، وأخيرًا أدركت أنّ هذه اليد القوية الحازمة هي يد د. (رمزي) الذي عرف مكاني في الظلام لا أدري كيف..

قال في غيظ:

- «مالك؟ أتراك نمت بمجرد أن وجدت ظلامًا؟ يا لك من أحمق!»

- «لا أرى أنني فعلت كل ما يستوجب هذا الاسباب.. إنني...»

- «انظر يا أحمق! انظر إلى اليمين!»

ونظرت إلى اليمين في اللحظة التي عاد فيها النور الساطع ليحرق شبكيات عيوننا، وبصعوبة تمكنت من أن أفتح عيني.. قلت له وأنا أرمش بعيني:

- «ماذا؟ هل هناك شبح؟»

- «تقريبًا.. هل ترى هذا الفتى الذي كان مع ثري (صا الحجر)؟ إن عينيه كانتا تتألقان في الظلام كميناء ساعتك الفوسفورية!»

قلت في غيظ:

- «آه! لن نعود لهذا لمجرد أنني موجود.. لابد أن في مصر مكانًا يخلو من الأشباح ولو لنصف ساعة يوميًا..»

- «لا دخل لي بوجودك أو مماتك.. أنا قلت لي ما رأيته..»

- «وأنا أقول إنك تتخيل..»

كانت الموسيقا على المسرح تتعالى كأنه حفل خيري للصم.. أو كأن الغرض هو زيادة عدد الصم على ظهر الأرض.. وتقريبًا راح الجميع يرقصون.. ورأيت الدكتور (سامي) يتلقى كتفًا لا بأس بها ألقت به إلى الوراء مترين.. جميل أن أحدًا لا يعبأ بصاحب البيت على الإطلاق، ولو أنه حاول طردهم فلسوف يطردونه هو.. بشكل ما أرى أنها عدالة شعرية وأنه يستحق ما يحدث له..

لكن استلفت نظري مشهد غريب بعض الشيء..

إن (كاتيا) ساحرة الرجال قد عادت من الحديقة أخيرًا.. كانت مبللة بالماء كالأسماك، كاسفة البال تمشي في تؤدة وهي تخترق جموع الراقصين كأنما لا تراهم..

هرعت لحق بها وسألتها بصوت عالٍ بسبب الضوضاء:

- «هل تريدين شيئًا؟»

نظرت لي بعينين زرقاوين تجمعان بين التوحش والحزن.. غريب أن ترى التوحش يسبح في بركة من الدموع، لكن هكذا عيون النساء... برغم هذا مازالت جميلة..

قالت في صوت كالفحيح:

- «مات.. حبيبي (ماريو) قد مات.. قتله (أندريو) على الإفريز المبتل وانتهى كل شيء!»

يا للكارثة! لو سمعك د. (سامي) لانتحر فورًا!

قلت لها في رفق:

- «لا تخافي.. سنتصل بالشرطة، ولسوف يأتون به.. ولكن اسمحي لي.. إن ثيابك مبتلة، ولا شك أن الرطوبة بلغت منك نخاع العظام... ستصابين بالتهاب رئوي محتوم.. أعتقد أن مدام (ثريا) ستأخذك إلى حيث تستبدلين الثياب وتجدين بعض الدفء..»

في توحش وعصبية قالت:

- «من فضلك.. لا تتدخل في أموري.. أنا أعرف كيف أعني بنفسي..»

- «ولكن...»

رفعت رأيها وشمخت بأنفها في كبرياء وقالت:

- «من فضلك يا سيدي.. أنت كنت كريمًا معي، فلا تجعلني أقابل كرمك بوقاحة..»

تراجعت للوراء، وقد قررت أنها بالفعل قادرة على إيذائي بالكلام لو أصررت أكثر.. أفسحت لها المكان فتقدمت في سكون وهي تضم ذراعيها على صدرها طلبًا للدفء، وسرعان ما غابت وسط الزحام...

لقد أحبت تلك الفتى حقًّا.. إنِّه محظوظ.. أعني أنه كان محظوظًا..

بقي أن ننقل الخبر الأسود الكبير للدكتور (سامي).. هرعت إلى د. (رمزي) وأخبرته بما حدث، وأن لدينا أحد ضيوف الحفل يرقد على الإفريز فاقد الحياة الآن..

قال وهو يضرب كفا بكف:

- «هذه ليلة نحس.. أعتقد أن لوجودك دورًا لا بأس به في هذا كله..»

- «عار عليك أن تؤمن بهذه الترهات..»

وبحثنا عن د. (سامي) فوجدناه يجلس على مقعد جوار الباب وقد تحول إلى حطام بشري من فرط إرهاق وتوتر، فأخبرته بالقصة كلها عسى أن يُصاب بنوبة قلبيّة.. لكنه كان راضيًا عن حقيقة أن الرجل مات خارج أسوار الفيلا..

- «هو ليس على (قوة المنزل).. لا دور لي ولا مسئولية..»

- «لكن هذا لا يمنع من ضرورة إبلاغ الشرطة بكل هذه التفاصيل..»

- «الهاتف ما زال بلا حرارة..»

- «إذن لدينا عدد لا بأس به من السيارات.. سيذهب أحدنا للإبلاغ..»

قال لي وهو يفك ربطة عنقه قليلًا طلبًا للهواء:

- «اذهب أنت يا د. (رفعت).. إنني لا أستطيع ترك ضيوفي، ود. (رمزي) ليست معه سيارة..»

دق قلبي من فرط الحماس، وصحت وأنا أنهض:

- «وهل تسمح لي بألا أعود؟ سأتجه إلى البنسيون رأسًا.. إن لديك عددًا كافيًا من الشهود لوكنت تريد بعضهم..»

- «اذهب إلى حيث ألقت..»

ثم صاح في غيظ:

- «لو ظهر (عباس) هذا أمامي لتمنى لو لم تلده أمّه..»

وانطلقت كالعصفور - لو كان هناك عصفور أصلع - أغادر هذا الحفل الشنيع.. خرجت إلى الحديقة البارد ومشيت بين التماثيل المضاءة قاصدًا البوابة الرئيسية.. بالمناسبة أين البواب؟ كيف لم أره طيلة هذه الأمسية؟ هو فقط أدخلني ثم اختفى تمامًا..

لكن البوابة كانت مغلقة.. كان عليها جنزير ثقيل لا يمكن فتحه إلا بالديناميت أو المفتاح طبعًا.. وهكذا رحت تحت الأمطار أنادى بأعلى صوتي:

- «عم (حمزة)!! عم (حمزة)!»

لكنه لم يكن هناك.. حتى غرفته طرقت بابها جيدًا لكن لم يبد أن أحدًا بها..

وهكذا عدت مضطربًا إلى داخل الفيلا حيث كان د. (سامي).. جلسنا وسط الصخب، وقلت له إن البوابة مغلقة..

- «كيف؟ ما هذا التهريج؟»

- «هذه هي الحقيقة.. لعل البواب أغلقها..»

- «(حمزة) ليس هنا.. لقد سمحت له بالانصراف بمجرد بدء الحفل.. إن ابنه مريض في قريته..»

- «إذن من فعل ذلك؟»

نظر إلى الزحام حيث الكل يرقص ويصخب ويتواثب ويلبس الطراطير وينفخ البالونات وتلك اللعبة الشبيهة بلسان الحرباء.. وقال في إنهاك:

- «أغلقها واحد من هؤلاء! لقد صارت دائرة البحث ضيقة!».

☆ ☆ ☆

آخر من رأيته يغادر الحفل كان ذلك الشاب ذا الكأس البرونزية، فهل هو من فعلها؟ ولماذا؟ طبعًا لا داعي لأن أقول إن د. (سامي) لم يكن يملك المفتاح.. لهذا بدا أننا مسجونون إلى ما شاء الله.. ليس هذا الوضع غريبًا فقد اعتدته، ولكن كيف أفر من هذا المكان العجيب؟

قال لي د. (سامي) وقد بدا أن الإنهاك جعله أميل إلى السخرية واللامبالاة:

- «سنضحك كثيرًا حين يحاول هؤلاء تسلق البوابة الحديدية!»

- «سيجنون لو عرفوا أنهم محبوسون.. إن عقده الأماكن المغلقة تحيل الناس إلى وحوش فاقدة المنطق..»

قال باسمًا:

- «حين يفيقون من صخبهم يمكنهم أن يتحولوا إلى وحش.. لكن حتى تلك اللحظة لا يبدو أن أحدهم يتعّجل الرحيل..»

ثم صافح د. (رمزي) مصافحة صاخبة بأسلوب (كفك) وهتف:

- «كل عام وأنت بخير يا (أبو رمزي)! كل عام وأنت بخير يا (أبو الرفاع)! العام الجديد يبدأ بداية واعدة!!»

- «هذه بدايته فكيف تكون نهايته إذن؟!»

بدأت أحكي لهما القصص الغريبة المتشعبة لكل الناس في هذا الحفل.. وبدا عليهما الذهول وهما يسمعان كل هذا.. الحقيقة إن أحدًا لم يمض الوقت كله يصغي ويشاهد مثلي، لهذا كانت عندي الصورة كاملة.. هذه مزية أن تكون زهرة حائط وحيدة..

في هذه اللحظة بالذات ظهرت السيدة (نجوى كاظم).. كان ابنها (شريف) معها، وقد بدت على ملامحهما الجديّة والخطورة.. كان ينظر إلى الأرض مصغيًا لكلامها باهتمام وحماس وصدره يعلو ويهبط..

احتضنته الأم ولثمته على خده وقالت بصوت مسموع:

- «أنت أملي الأخير يا (شريف) بعد أبيك.. اذهب واثأر لكرامتنا.. أنت صعيدي والثأر مقدس لدينا»

هزّ رأسه ولثم يدها، ثم ابتعد أمام عيني الأم الشقيقتين.. ابتعد نحو الباب...

قال د. (رمزي) بصوت عالٍ:

- «البوابة مغلقة من هنا أيها الشاب.. يجب أن تنتظر!»

لكني قلت له همسًا:

- «دعه.. هذا الفتى يبحث عن مصيبة ومن الخير أن نتركه.. إنّه ذاهب للانتقام ممن قتلوا أباه، لأن صوت الثلاجة يضايقهم! وثق أنه سيعرف كيف يخرج حتى لو هشم البوابة تهشيمًا..»

- «ذاهب لينتقم في هذا الوقت بالذات؟ يا أخي لماذا لا ينتظر حتى الصباح؟»

- «إنّه الحماس كما تعلم..»

حرّك د. (رمزي) أنامله حول جبهته كمن يصف مجنونًا.. ثم تصلب كمن تذكر شيئًا.. ورأيت نظرة جادة خطرة على وجهه.. هذه النظرة رأيتها أكثر من مرة هذه الليلة حتى صرت أهابها..

أهابها وأكرهها..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

٩. الراحلة..

على المسرح المرتجل ظهرت ثلاث راقصات من ذلك الطراز الذي يؤدي حركات رياضية تذكرك بالجمباز.. تصاحبهن موسيقا خفيفة..

ورأيت ثلاثة رجال أقوياء فارعي القامة سمر الوجوه ـ كالعادة ـ يدخلون إلى المكان.. كل شيء يوحي أنهم من الشرطة أو ـ على أقل تقدير ـ من الحرس الشخصي.. ولكن من أين جاءوا وكيف لم أرهم من قبل؟

ونظرت في دهشة إلى الجالسين.. لقد بدأ الحفل بعدد لا يتجاوز الخمسين، لكن الآن ـ ما شاء الله. تكاثر العدد حتى دنا من المائة.. برغم أنّ هناك من مات ومن اختفى ومن ذهب لينتقم..

لكن منظر هؤلاء الفتية الظرفاء ليس مما يبعث البهجة في النفوس..

رأيتهم يمشون في ثقة.. يتجهون نحو...

نحو (أكرم).. هل تذكرونه؟ الفتى العدواني المتحمس الذي لا يرضى بكل اللطف والتعقل اللذين تتعامل بهما زوجة أبيه مع الأعداء..

كان واقفًا ويداه في جيبي سرواله، ينتظر هؤلاء الرجال كي يقتربوا منه.. وسمعت أولهم وأقواهم شخصيّة يقول باحترام:

ـ «هل ننفذ الآن يا (أكرم) بك؟»

ـ «نعم.. لكن من دون ضوضاء..»

وتقدم اثنان منهم في سرعة وحزم، وغابا وسط الزحام، وفي اللحظة التالية رأيتهما يقتادان زوجة الأب ـ مدام (سلوى الصباغ) ـ بكثير من الاحترام لكن ـ كذلك ـ بكثير من الحزم.. لم يجرؤ أحدهما على معاملتها بقسوة، لكن قبضة أحدهما على معصمها كانت تشي بما يحدث..

وقفت المرأة بين الرجلين أمام ابن زوجها، وفي مرارة قالت:

ـ «ستندم يا (أكرم)..»

لم ينظر لها، وقال وهو يشعل لفافة تبغ:

- «لن أندم.. لقد حان الوقت كي يتولى الأمور شخص قوي.. شخص يعرف كيف يبطش، وأنا أكره أن أكون تحت إمرة سيدة ضعيفة.. ومن الآن سيعود لاسم أسرة (الصباغ) مجده القديم.. سنكون الأغنى والأقوى والأشهر»

- «وماذا سيفعلون بي؟»

قال في وقار وهو ينفث الدخان:

- «لا شيء.. سيتم إبعادك إلى مكان آمن، وأتولى أنا كل شيء.. بالمناسبة لقد قمت بإزالة اسمك عن كل العقارات والبيوت، ولسوف أوقع باسمي الخاص في أي تعامل قانوني من الآن فصاعدًا..»

- «أنت تتصرف بحماقة الشباب..»

- «وأنت تتصرفين بتردد الشيوخ..»

ثم أشار إلى الرجال كي يأخذوها خارج المكان، فنظرت له لكن الوقار منعها من أن تقاوم.. رفعت رأسها في شمم ومشيت معهم متجهة إلى الباب.

هذا هو واحد آخر سيغادر الفيلا لا يعلم إلا الله كيف..

ما هذا المشهد الدرامي؟ وما معناه؟ والغريب أنه لم يثر انتباه أحد غيري..

الهاتف.. هل عادت الحرارة؟ لابد من إبلاغ الشرطة وهي وحدها القادرة على معرفة سر هذا السيرك العجيب..

طبعًا لم أبحث عن د. (سامي)، وهرعت إليَّ الحجرة الصغيرة الجانبية التي كان فيها الهاتف.. لحسن الحظ أن الباب غير موصد..

عالجت الباب، ودخلت إلى الظلام...

هناك شخص ما..

أنثى على وجه التحديد؛ لأنني أسمع الأنين وأشم رائحة عطر فاغم مسكر..

بحثت يدي عن مفتاح النور.. ها هو ذا.. من الغبي الذي وضع المفتاح على هذا البعد عن الباب كي...؟

فيما بعد قرأت أن كاتب الرعب الأشهر (ستيفن كنج) يترك أضواء شقته مضاءة، كي لا يعود إليها في الظلام ليبحث عن مفتاح النور.. عندها يشعر باليد الباردة على يده!!

حسن.. يمكن القول إنِّه بعيد النظر..

هذه (كاتيا)..

كانت جالسة إلى المكتب الصغير، وقد غطى شعرها وجهها فبدت كمدمني المخدرات في أفلامنا العربيّة.. وكانت في أسوأ حال.. رأسها يترنح كأنما وزنه قنطار.. رأتني ففتحت عينين حمراوين عن آخرهما وقالت:

- «أنت من جديد؟ أنت كالكابوس لا تنتهي أبدًا..»

ثم انفجرت في ضحكة متوحشة مجنونة وقالت:

- «لكني لن أراك ثانية حتى لحظة البعث..»

ولما رأت على وجهي مخايل الغباء قالت في خبث:

- «حفاو! حفاو!»

ثم سقطت على الأرض كأنها دمية ماريونيت انقطعت خيوطها..

ولم أحتج إلى كثير جهد كي أعرف أنها ماتت..

☆ ☆ ☆

هل هؤلاء إسرائيليون؟ هل هذه المرأة بالذات إسرائيلية؟

لغات قليلة جدًّا في العالم تستعمل الحاء بالإفراط الذي تستعمله هذه المرأة.. والأغلب أنها لغات سامية.. منها العربيّة والعبرية والفارسية.. وكانت أذني الحساسة لا ترتاح كثيرًا لحرف الحاء في لفظة (حفاو) هذه.. أنت تعرف كيف تبدو العبرية لمن يسمعها.. لها رنين مقبض وكأنه نجمة داود ذاتها..

هل هؤلاء القوم غريبو الأطوار إسرائيليون؟ لا أظن.. ليس عليهم تلك المسحة العبرانية المميزة لليهود الشرقيين، ولا هم يبدون أجانب..

ما معنى هذا؟

طبعًا لم أكن أفكر في هذا وأنا جالس أشرب الشاي وأدرس جثتها.. كنت أفكر في هذا كله وأنا أهرع بين الغرف بحثًا عن د. (سامي) تعس الحظ..

أخيرًا وجدته وكان واقفًا مع زوجته مدام (ثريا) يتهامسان.. واضح أنه يقول لها باختصار: ثمّة شيء غير مريح في هذا الحفل..

رأى وجهي، ومعه رأى إشارتي الخفية أن اترك كل شيء وتعال معي، وهكذا وضع يده على معصم الزوجة كي تنتظره ثم لحق بي، وفي الطريق وجدنا د. (رمزي) فأخذناه معنا..

القوم حولنا عابثون لاهون حتى إنني افترضت أنه يمكن أن نخرج الجثة لنلقيها في الشارع دون أن يسألنا أحد عما نفعل، لكن لم يكن ثمّة داع لهذا طبعًا.. وفي الحجرة كانت الجثة - التي كانت لحسناء - مكومة جوار المكتب شاخصة العينين.

تقريبًا لطم د. (سامي) خديه.. وراح يردد:

- «يا سلام! ما أجمل هذا! جثة ثالثة! يا له من حفل!»

أمّا (رمزي) فقال بكل هدوء واضعًا يده في الماء البارد:

- «ما سبب الوفاة يا د. (رفعت)؟»

صحيح.، هذا سؤال وجيه..

ركعت جوار الجثة وتفحصتها بسرعة.. لا يوجد ما يريب.. قلت وأنا أتفحص المعصمين:

- «من الصعب أن تجزم دون تشريح.. لكن تصرفها غير الطبيعي وحالة الجنون التي كانت فيها توحي لي بأنها تعاطت جرعة زائدة من مخدر ما..»

- «هذا جميل.. لكن أين هو؟»

- «في معدتها طبعًا.. كيف تتوقع أن تجده؟»

عاد (رمزي) يسألني في تدقيق:

- «هل قالت شيئًا قبل وفاتها؟»

- «لا أذكر.. كانت مجنونة.. ثم قالت شيئًا على غرار ح.. حصاو.. حصاوي.. حلاو..»

- «ما معنى هذا؟»

أشرت إلى السماء إشارة ذات معنى.. علم هذا عند الله...

تساءل د. (سامي) وهو يجفف عرقه:

- «ولماذا انتحرت الحمقاء؟»

قلت في ثقة:

- «ومن قال إنها انتحرت؟ ربما لم تحسن تقدير الجرعة.. ولو كانت انتحرت فطبعًا لأن الأخ (ماريو) قد مات.. هذا هو الجزء الواضح من الموضوع..»

هنا ركع د. (رمزي) على الأرض، ونظر إلى ما تحت المكتب في اهتمام.. ثم نهض وقال:

- «هذه المرّة لا أرى أن ننقل الجثة من مكانها.. سنتركها هنا ونغلق الباب جيدًا... لن نظل هنا للأبد، ولسوف يأتي رجال الشرطة ويفسرون لنا كل شيء..»

وخرجنا من الغرفة محمري الآذان مرتبكين حتى لو أنّ أحدًا رآنا لقبض علينا بتهمة قتل المرأة دون مناقشة.. وتذكرت كيف كانت تملأ المسرح حبورًا ودلالًا منذ ساعة تقريبًا.. ثم قررت ألا أطلق العنان لهذه الخواطر، لأنهّا قد استهلكت من فرط الترديد.. هذه حقائق مفروغ منها.. فقط هي تذكرنا بمأساتنا الخاصّة..

الواحدة صباحًا ولم يتغير شيء في الحفل ولا من فيه..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

١٠ - نخاف أن نفهم..

في الواحدة والربع صباحًا جاءوا لينهوا الأمر..

جاءوا وفي عيونهم الغضب والرغبة في الانتقام، وكان واضحًا من منظرهم أنهم لا يمزحون..

جاءوا ولا أدري من أين دخلوا ولا كيف..

فقط مشوا وسط الناس، وكان الحفل قد تحول إلى فوضى تامة... كل الطراطير على الأرض والأكواب المهشمة والمقاعد التي انقلبت أو تحركت، حتى صار المكان بحاجة إلى ديناميت لا تنظيف... وكان البعض قد بدأ ينظر إلى ساعته.. البعض الذين كنا نعرف بالضبط من هم ومن أين جاءوا، وأما هؤلاء السمر الذين نبتوا في المكان فجأة فقد بدا أنهم سيظلون هنا إلى الأبد..

رأينا هؤلاء الرجال، وعددهم لا يقل عن العشرين.. أصغر واحد فيهم في حجم باب الغرفة التي تقرأ فيها هذه الكلمات.. لكنهم لم يكونوا سمر الوجوه.. كان لهم طابع البحر المتوسط لكنهم بالتأكيد ليسوا عربًا...

وفي المقدمة - محتفظًا بهيته وزعامته الواضحة - رأيت الشاب (باسم).. هل تذكرون رجل (صا الحجر) الذي شرب في كأس برونزية؟ لقد عاد..

يبدو أنه استأجر مجموعة من البلطجية من مكان ما.. ولم أدر أنه من السهل أن تجد بلطجية في الواحدة صباحًا، لكنه فعل ذلك..

وتصلب الفتية الأحد عشر في مكانهم، وكانوا غارقين في محادثات ممتعة على ما يبدو، ثم انتبهوا حين ساد الصمت.. نظروا ليروا الفتى قادمًا ومعه رجاله، وفي عينه آيات التصميم والتحدي..

قال لهم في تؤدة:

- «لقد عدت ومعي هؤلاء الأصدقاء اليونانيون.. ولسوف تدفعون الثمن غاليًا.. إما أن تقبلوا أن أكون صاحب الكلمة العليا، وإما أن يكون انتقامي مريعًا..»

قال له أحدهم وهو يتظاهر بأنه ليس خائفًا إلى هذا الحد:

- «(باسم).. نحن لا نتعامل بالبلطجة هنا.. من الصعب أن تحصل على ما تريد قسرًا..»

- «أنتم طردتموني ظلمًا وزعمتم أنني كاذب.. لوثتم شرفي وشرف أسرتي، والآن تقولون إن القوة لن تحقق شيئًا.. هذه نظرية تحتاج إلى برهان..»

وتأهب البلطجية للقتال متخذين أوضاعًا سينمائية جميلة.. بعضهم كوّر قبضته ورفعها في الهواء، وبعضهم أخرج قبضة نحاسية راح يضرب بها كتفه.. وبعضهم ضغط على زنبرك مديته.. بينما البعض أخرج شيئًا كالجنزير..

- «الآن هل ترغبون في القتال أم تعلنون الخضوع لي؟»

تبادل الشبان النظرات. كان من الواضح أنهم سيستسلمون، لكنهم فقط تمنوا لو كان الاستسلام أقل خزيًا من هذا.. وببطء أطرقوا الرءوس..

قال لهم (باسم) في شمم:

- «الآن نخرج معًا، وفي الطريق ستعرفون كيف أن (صا الحجر) ستبدأ عصرًا جديدًا.. عصرًا يمكنكم أن تطلقوا عليه العصر (الصاوي)..»

وهكذا خرج الاثنا عشر رجلًا، ومعهم (القبضايات) اليونانيون.. لقد أحدثوا تفريغ هواء لا شك فيه في الحفل.. وتنهدت في ارتياح.. هؤلاء القوم يخرجون ويدخلون بلا أية مشقة وليتني أعرف كيف..

هنا ظهرت السيدة السمراء التي تحمل الطفل قادمة من الطابق العلوي، وكانت تردد في جزع بعينين حمراوين:

- «ليس هناك.. (مصطفى) ليس هناك!»

إنها مازالت تبحث.. ولا ألومها على كل حال..

لكن خلفها رأيت امرأة تشبهها، لكنّها ليست مريحة على الإطلاق.. إنها من الطراز الذي (يكيد ولا يكاد).. فمن هي ومتي ظهرت في الصورة؟

وسمعت من يقول لصاحبه من خلفي:

- «(هالة) أخت زوجها معها.. إنها تكرهها بجنون، وتعرف كل تفاصيل الحيلة القذرة، التي دبرها أخوها الآخر.. الأم البائسة لا تعرف أن الساحر لم يكن سوى أخي زوجها متنكرًا.. إن الساحر قد خطف أخاه والله يعلم ما فعله به.. تلك النفوس شريرة بحق..»

هذا جميل لكنه لا يهمني على الإطلاق.. ربما يهم الشرطة لو استطعنا الاتصال بها، وإن كنت أشك في هذا..

هذه الليلة لا نهاية لها.. لماذا هربت من (بيزارو)؟ على الأقل هذه أشياء اعتدتها.. يد مبتورة تطاردك أمرها هين، لكن ما يحدث الآن يثير الدوار والصداع..

جاء د. (رمزي) وزوجته وجلسا جواري، وكان يشرح لها فيما يبدو حقيقة أننا محبوسون هنا لأن الذعر بدا عليها.. ثم نظر لي وابتسم في إرهاق وقال:

- «ماذا يحدث هناك يا دكتور؟»

- «لا شيء.. ذلك الشاب من (صا الحجر) استعاد السيطرة على الأمور بمساعدة بلطجية يونانيين.. والزوجة ما زالت تفتش عن زوجها..»

- «وماذا عن الشاعر؟»

نظرت حولي في كل مكان فلم أجده.. لكن لا مشكلة هنالك.. هل يمكن العثور على شاعر؟ ربما كان في الحديقة ينعم بالمطر، وربما كان في الشرفة وربما كان في دورة المياه.. حتى الشعراء يدخلون دورة المياه أحيانًا..

لكن رأيي تغير حين وجدت رجلين أصلعي الرأس يقفان ليتبادلا الحديث الهامس مع (محب).. ذلك الرجل القوي الذي يحل مشاكل الشاعر ويقهر له أعداءه.. رأيته يهز رأسه موافقًا وعلى ثغره شبح ابتسامة.. من هذان الرجلان؟ لهما سمات هؤلاء (البانك) الذين تراهم في الأفلام الأمريكية اليوم، لكن لم نكن نعرف موضة كهذه في السبعينات.. وكانا شريكين.. هذا واضح ولا يحتاج لمن يسألني عن السبب..

بعد دقائق ظهرت الفاتنة الرقيقة زوجة الشاعر، وهي تفتش في قلق، وسمعتها تصيح:

- «(مراد)! (مرااااد!)»

لكن أحدًا لم يبال بها.. ومرت بنا ونظرت لي نظرة متسائلة ثم واصلت البحث..

تقابلت مع السيدة السمراء التي اختفى زوجها فتبادلت المرأتان نظرة متفاهمة، وانطلقت كل واحدة منهما تبحث عن زوجها في اتجاه...

هرعت إلى الرجل القوي (محب)، وبدا أنها تسأله، بينما هو راح يربّت على كتفها مطمئنًا.. ثم انطلق يبحث معها عن زوجها..

قال د. (رمزي) وهو يتابع المشهد:

- «أعتقد أنهما لن يجدا زوجها أبدًا..»

- «يا أخي حرام عليك.. كن متفائلًا..»

قال في ضيق وهو يسترخي في مقعده:

- «سترى.. لقد اختفى نهائيًا..»

ثم نظر في عيني والتمعت في عينيه نظرة لئيمة، وقال:

- «هل تريد أن تأتي معي؟ ثمّة شيء أريد أن نتأكد منه في تلك الغرفة التي تركنا فيها الجثة..»

- «أية جثة.. لقد ازداد العدد كثيرًا..»

- «لا تكن طفلًا.. أعني جثة الراقصة الشابة التي تحب الإيطاليين..»

- «لا أفهم.. لكني سأفعل..»

ومشينا وسط الناس إلى حيث كان د. (سامي) يقف أمام الشرفة، يرمق الليل البارد في الخارج، وهو يتمنى أن يكون هذا كله حلمًا....

طلبنا منه مفتاح الغرفة وعدنا إلى هناك وعالجنا الباب حتى فتحناه..

كان النور مضاء والجثة مازالت حيث هي لم تفر لحسن الحظ..

من جديد ركع د. (رمزي) على ركبتيه تحت المكتب وراح ينظر ثم قال لي:

- «أنا لا أرى جيدًا في الظلام.. هل معك قداحة؟»

ناولته قداحتي، فراح يفتش ثم...

وثب إلى الوراء وسمعنا فحيحًا غاضبًا.. س س س س س! فهتف الرجل:

- «ردي بر حفاو إي باباو!»

ثم قال لي وهو يشير إلى أسفل:

- «هل ترى؟ هذا هو سبب الوفاة! هل تراه؟»

لم أكن بحاجة إلى الركوع لأرى؛ لأن ذيل الثعبان خرج من جانب المكتب متلويًا ثم عاد إلى الداخل.

- «كوبرا مصرية! لم تكن موجودة حين دخلنا أول مرة، لأن المرأة كانت تخفيها في طيات ثيابها.. وأنت لم تتبين العضة لأنها في الصدر تحت الثياب.. الآن برد الجسد وفارقته الكوبرا بحثًا عن جسد آخر..»

- «ما معنى هذا؟ لا أحد ينتحر بعضة ثعبان.. ولو حدث فمن أين تأتي به؟»

قال وهو يجفف عرقه:

- «قبل أن أجيب عن سؤالك أقول لك إن المرأة قالت لك (حفاو).. أليس كذلك؟»

- «بلى.. ولكن...»

- «وكانت قبل ذلك تتحدّث عن (الحنقت) و(الحتب) كما قلت أنت من قبل لي..»

- «نعم.. لكن لا معنى لهذا..»

راح يلهث واتسعت عيناه من وراء عويناته وقال وهو يرتجف:

- «(حفاو) معناها ثعبان.. (حنقت) معناها بيرة أو جعة.. (حتب) بكسر الحاء والتاء معناها مائدة تقديم القرابين.. هل تعرفون بأية لغة؟ بالمصرية القديمة!»

تبادلت و(سامي) نظرة غباء مطبق، بينما واصل الرجل هلوسته وهو يجفف عرقه:

- «كان ما قلته أنا هو تعويذة فرعونية لمنع خروج الثعبان من جحره.. ويبدو أنها فعالة!!»

قلت له وأنا أسند ظهري إلى الجدار البارد:

- «كنت أخشى أن تقول هذا.. إن الأمر واضح لكننا جميعًا نخشى الاعتراف بالحقيقة.. هؤلاء في خارج الغرفة هم من قدماء المصريين!!»

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة؟

☆ ☆ ☆

١١ - لحظة الحقيقة..

قال د. (رمزي) وقد اندمج تمامًا حتى كدنا ننسى أننا نتكلم في غرفة فيها جثة وثعبان:

- «لو أنك تأملت ما حدث هذه الليلة لوجدت عجبًا..»

- «هنالك (عزمي) بك الذي يتمنى أن يشيد قبرًا فاخرًا يخلد ذكراه.. لقد سرق اللصوص جثة والدته من مقبرتها مرّتين، والقبر الذي يتحدث عنه لا مثيل له.. لا بأس.. كل الشيوخ يتكلمون بالطريقة ذاتها... لكن ألا يذكرنا هذا بالملك (خوفو) وحلمه ببناء الهرم الأكبر؟ أمّه الملكة (حتب حرس) سرق اللصوص قبرها أولًا ثم مومياءها.. أليس هذا مثيرًا..»

- «لنقل إنها المصادفة.. لكن ماذا عن مدام (الصباغ) العاقلة الرزينة التي تصر على أن تكون علاقاتها علاقات حب واحترام مع الآخرين، بينما ابن زوجها المتمرد (أكرم) يريد أن تكون علاقته بغيره قوامها الخوف والبطش.. وفي النهاية يقصيها ويزيل اسمها عن كل شيء، ويبدأ حياة عدوانية تمناها كثيرًا..»

قلت له وأنا أرتجف:

- «نعم.. هذه (حتشبسوت) و(تحتمس الثالث).. الملكة التي حاولت أن تكون كالرجال، وزعمت أنها ابنة (آمون) نفسه.. لكن (تحتمس) أقصاها ووزيرها وحكم مصر، وبدأ عصرًا من الفتوحات... لكنه أزال كل ما يدل على اسم (حتشبسوت) على المسلات والمعابد وكل شيء.. لقد فكرت في هذا وأنا أتأمل الصراع..»

قال د. (سامي):

- «زوج من المجانين.. لقد صرتما جديرين بالدراسة.. سأقدم عن حالتكما ورقة علمية فائقة النجاح..»

لم نأبه له وواصلنا تذكر ما حدث الليلة:

- «مدام أخرى هي (نجوى كاظم) التي فقدت زوجها؛ لأن الجيران بلطجية ويضايقهم صوت الثلاجة..» - واصل (رمزي) الكلام - «وفي النهاية أقنعت ابنها بأن ينتصر لها ويأخذ بثأر أبيه.. أليست هذه (أياح حتب) وأليس هذا (أحمس) وأليس الأب هو (سقننرع)؟ أليس هؤلاء الجيران الوقحون هم الهكسوس الذين زعموا أن أصوات أفراس النهر في الصعيد تضايقهم في الوجه البحري؟ أليس هذا هو كفاح طيبة؟»

أضفت أنا في حماس:

- «إذن ماذا عن الشاعر الحالم الذي تحدى الجميع وغاص في أفكاره الخاصّة؟ دينه يختلف عن دين أبيه.. زوجته الحسناء التي لا يشعر بوجودها وأمه الجميلة المسيطرة و(محب) الذي يجيد كل شيء.. والرجلان أصلعا الرأسين.. في أي شيء يختلف هذا عن (إخناتون) والجميلة (نفرتيتي)؟ وأمه الملكة (تي)... لاحظ تشابه اسم (محب) مع القائد (حور محب).. وإذن كان الرجلان من كهنة (آمون) الغاضبين بسبب انصراف الملك عن معبوده إلى عبادة قرص الشمس (آتون)، ويمكن القول إنهما أخذا (إخناتون) إلى الصحراء حيث قتلاه ودفناه.. أمّا الابن فهو (توت عنخ آمون) طبعًا..»

- «كنت أتساءل عن البقعة البيضاء على عين الزوجة اليسرى.. الحقيقة أنها كانت تقلد تمثال (نفرتيتي) الذي سقطت عينه اليسرى! هذا نوع من التلميح لا أكثر.. لسوف يسيطر (حور محب) على مصر لفترة، وتموت (نفرتيتي) مقتولة.. كان الشاعر يقول إنّه تحدى الرعاة والدعاة وحسبته يخرف... الآن نعرف أنه كان يعني كل حرف.. رباه!!»

حك د. (رمزي) رأسه وقال:

- «كل الأغنيات الغريبة والرقصات الغريبة طيلة الأمسية... كل هذه فرعونية تمامًا، لكننا خشينا الاعتراف بهذا..»

ثم فكر قليلًا وأشار إلى الجثة وقال:

- «الراقصة الفاتنة التي تخرج من بساط ليسيل لها لعاب شيخ إيطالي.. أليست هي (كليوباترا) التي لم تجد سوى فتنتها كي توقع (يوليوس قيصر) في حبائلها؟ بعد هذا أوقعت رومانيًا آخر في حبائلها هو (أنطونيو) ولم يغفر له (أوكتافيوس) هذا.. لقد كان أخًا زوجته كذلك، وجاء له بأسطول جبار والتقى الأسطولان في موقعة (إكتيوما) وكانت الغلبة فيها لـ (أوكتافيوس).. معنى هذا أن موقعة (إكتيوما) قد تمت الليلة على الإفريز تحت الأمطار خارج سور الفيلا! تعود المرأة إلى غرفة منعزلة وتدس ثعبانًا في صدرها وتموت.. لكنّها قالت لك كلمة واحدة قبل موتها هي (حفاو).. يبدو أنها كانت تفرط في استعمال المصرية القديمة على سبيل انزلاق اللسان..»

قلت في حماس:

- «والعجوز الذي قتل تحت تمثال (بومبيي).. كيف لم نلحظ هذا من قبل؟ لقد قتل المتآمرون (قيصر) تحت تمثال (بومبيي) في روما، فلم يجد إلا الوقت الكافي ليقول: (حتى أنت يا بروتوس؟ إذن فليسقط قيصر!).. ثم سقط بعد ما تلقى عشرات الطعنات..»

ساد الصمت وعقل كل منا يفند ما رآه وما سمعه في تلك الليلة.. تلاحقت أنفاسنا واضطرب نبضنا..

- «اثنا عشر شابًا يشربون في كؤوس بينما أحدهم يشرب في كأس من برونز.. هذه قصة (بسماتيك) وأمراء الأقاليم المصريين.. فيما بعد اتصل (بسماتيك) بقراصنة مرتزقة من (كريت) وعاد معهم ليوحد مصر ويجعلها قوية.. وينشئ الأسرة السادسة والعشرين التي حكمت من مدينة (صاو).. أي (صا الحجر) بمحافظة الغربية!»

هنا تدخل د. (سامي) ليقول في برود:

- «لحظة من فضلك.. لا يمكن أن نفترض أن المرأة التي ضاع زوجها هي (إيزيس).. (إيزيس) إلهة وثنية ولم توجد إلا في الأساطير..»

قال د. (رمزي) الذي - ولا مراء - كان يلعب في ملعبه الخاص الآن:

- «لا تنس أن لبعض الأساطير أساسًا تاريخيًا.. (أوزيريس) كان أميرًا أو ملكًا من لحم ودم تآمر عليه أخوه (ست) وتخلص من جثته بعد ما حبسه في تابوت، فجابت الزوجة المخلصة أرجاء البلاد تجمع أشلاء زوجها كي يستطيع أن يرى البعث.. فيما بعد خلدت الأسطورة، واعتبر المصريون (إيزيس) و(أوزيريس) إلهين.. وصار (ست) إلهًا للشر..»

قلت أنا:

- «وأخت (أوزيريس) الشمطاء كانت (نفتيس).. بينما الابن هو (حورس) الذي له رأس صقر..»

صاح د. (سامي) في جنون وهو يوشك على الإصابة بفالج:

- «أنتما مجنونان**!!!** هل تريدان القول إن ملوك الفراعنة قد جاءوا داري يتسلون في ليلة رأس السنة؟»

قلت مبتلعًا ريقي:

- «نعم.. كل الدلائل تقول ذلك..»

- «والسبب؟»

قال د. (رمزي):

- «أمّا هذا فلا يستطيع أحد أن يخبرك به، ولا أحسبهم إلا عاجزين عن إخبارك هم أيضًا..»

- «وماذا نعمل؟»

قلت وأنا أتجه إلى باب الغرفة:

- «لا أعتقد أنّ علينا أن نفعل شيئًا.. سننتظر.. وهم لن يبقوا هنا للأبد.. المهم ألا يشعر ضيوفك العاديون بشيء أو يتجهوا إلى البوابة الآن...»

وخرجت من الغرفة.. فقط لأتصلب.. ومن جيبي أخرجت علبة أقراص النيتروجلسرين ووضعت قرصين تحت لساني.. إن ما رأيته..

رهيب..

☆ ☆ ☆

كانت الأضواء كلها مطفأة في القاعة كلها.. وكان الصمت الرهيب يخيم على المكان..

ثمة مشاعل في عدة أماكن لا أعرف من أين جاءوا بها..

وكان هناك كهنة صلع الرءوس عراة إلا من مئزر حول الخصر، يحيطون بمائدة البوفيه الطويلة التي هي عدة موائد متلاصقة.. وفي مركز الصدارة منهم كان ذلك الشيء المخيف الذي له جسد إنسان ورأس ابن آوى طويل الخطم.. إنّه (أنوبيس) الذي اعتبره المصريون القدامى مسئولًا عن التحنيط والمقابر..

رأيت أحد ضيوف الحفل يتقدم في خطوات ثابتة.. كان هو (بسماتيك).. في وقار تمدد على المنضدة وببطء بدأ الكهنة عملية تحنيطه على ضوء المشاعل..

إن عملية التحنيط مرهقة تحتاج إلى أربعين يومًا، لكنهم كانوا يؤدونها بسرعة كأنما هم يمثلون لنا ما يحدث.. يملئون الأنف والفم بالكتان المشبع بالراتنج الأسود ثم يضمدون العينين.. لن أصف عملية إخراج الأحشاء والمخ، لأنّهم لم يقوموا بها فعلًا، لكنهم قاموا بها بشكل رمزي.. ووضعوها في الأوعية الكانوبية..

بعد هذا غطوا الجثة كلها بملح النطرون، بينما صوت صلاة غامض ينبعث من لا مكان... ثم غسلوا الملح مستخدمين عرقي البلح.. وبدءوا يملئون الفراغات التي لا أدري متى تكونت بنشارة الخشب المخلوطة بالراتنج والقرفة والمر...

الآن يغطون الجثة بالنطرون مع راتنجات صمغية مثل اللبان الدكر (الكندر) والمر وزيت الأرز.. وبعدها يلفون الجثة بطبقات الكتان.. الكاهن الذي يلبس جلد الفهد يتقدم ليلمس بعصاه فم الجثة، ويردد بعض الأدعية، كي يتمكّن الميت من فتح فمه لحظة الحساب.. والدفاع عن نفسه..

☆ ☆ ☆

«أيها العظيم (بتاح حتب).. لا تتركني أيها الأب الطيب.. كيف يمكن أن تتركني بعيدة عنك؟ إني أعود الآن من المدافن وحيدة.. أنت يامن كان يحلو لي الكلام معك صرت الآن صامتًا..»

ابنة الحكيم (بتاح حتب) ترثي أباها وهي عائدة من المقبرة

☆ ☆ ☆

نظرت للناس فوجدت على رءوسهم الطير.. لم يجسر واحد على الكلام أو الدهشة أو التساؤل..

ورأيت الكهنة يضعون الجثة في تابوت لا أدري من أين جاءوا به، وتقدم بعض الشباب يحملونه خارجين ببطء من القاعة.. وفي اللحظة ذاتها تقدم الملك (خوفو) الذي كان (عزمي) بك، لينام على المنضدة ويمر بهذه الطقوس ذاتها..

كان ضوء المشاعل خافتًا لكني بحثت حتى وجدت د. (رمزي) يرمق المشهد مفتونًا ذاهلًا.. كدت أتكلم لكنه أخرسني بإصبع على شفتيه..

لم تستغرق طقوس تحنيط (خوفو) سوى عشر دقائق... كما قلت لكم هم اختصروا الأربعين يومًا في عشر دقائق.. ومن بعده جاء دور (إخناتون).. واستغرق ثلث ساعة..

اللحن الجنائزي مستمر، والأخ (أنوبيس) يجول كالشيطان بين الكهنة.. ورائحة البخور تتصاعد إلى الأنوف حتى لتوشك على فقدان وعيك خدرًا...

الآن جاء دور (حتشبسوت) فابنها.. ثم (أياح حتب) فابنها (أحمس).. ثم (إيزيس).. ثم (كليوباترا)...

أخيرًا يخرج التابوت الأخير على أكتاف الشباب السمر الأقوياء.. وأسمع نساء يصرخن ويبكين في حرقة..

وساد الصمت إلا من صوت طقطقة الخشب في المشاعل، وأسمع من يقول: أضيئوا الأنوار.. لكن لم يكن من داع لهذا لأن ضوء الفجر كان قد بدأ يتسرب إلى القاعة..

وهرعت إلى الباب فرأيت أن الضباب يملأ الحديقة.. الضباب والبرد، لكن المصابيح ما زالت مضاءة تشي بليلة صاخبة.. ووسط الضباب لمحت آخر تابوت يذوب على أكتاف حامليه..

وأدركت أن البوابة مفتوحة على مصراعيها..

كان الصمت والوجوم يفعمان القاعة الآن.. لقد بقي نحو عشرين من الضيوف الطبيعيين يفركون عيونهم، ولا يفهمون شيئًا، لكن الهلع بدأ يدب إلى عيون النساء..

هنا صفقت بيدي في حماس ورحت أضحك.. أضحك أمام العيون التي تظن بي الظنون..

ثم هرعت إلى د. (سامي) فلثمت خديه في حرارة، وصحت:

- «برافو! كان هذا أروع عرض رأيته في حياتي.. لقد خدعت الجميع! كلهم حسب الأمر حقيقيًا!»

وهتف د. (رمزي) الذي التقط الخيط:

- «هذه أروع مفاجأة شاهدتها في ليلة رأس السنة طيلة حياتي.. صدقني.. لقد جربت رأس السنة في (الدانمارك) و(ألمانيا) و(فرنسا).. لكني لم أر عرضًا بهذه القوة وهذه البراعة!!»

لكن صوته كان يرتجف، ولمحت دمعة رهبة وتأثر في عينه...

وسمعت فتاة لبنانية من الضيوف تصرخ:

- «واو! ما أجملها من سهرة!!»

وفتاة مصرية تصيح:

- «ياي! أوريجينال! كلما بدا الأمر مخيفًا كان أكثر إثارة..»

أمّا الرجال فبدءوا يصفقون، وهرع بعضهم يصافحون الرجل قائلين إن الأمر بدا حقيقيًا إلى حد أنهم أصيبوا بالهلع.. فكان د. (سامي) يهز رأسه في تواضع قائلًا:

- «إنّه (عباس).. لقد وعدني أن يعني بالتفاصيل كلها!»

وأخيرًا بدأ الناس يودعون المضيفين الكريمين ويرحلون قائلين إنها أجمل ليلة رأس سنة رأوها في حياتهم...

☆ ☆ ☆

وفي العاشرة صباحًا بينما الخدم يزيلون أثر الغزاة الذي بدا كأن ثورًا دخل معرض الخزف الصيني، كما تقول القصة القديمة، ومعهم مدام (ثريا) ومدام (ماري) البائستين طبعًا، كنا نحن نجلس في الحديقة التي غمرتها الشمس أخيرًا.. شمس أول يوم في العام الجديد...

لم يبد لأحدنا أنّ هذه الليلة كانت حقيقيّة.. لكن لا توجد هلوسة جماعية.. ولا يوجد حلم جماعي..

قال د. (رمزي):

- «لقد صدق الحمقى ما قيل لهم..»

قلت:

- «لو عرفوا الحقيقة لملئوا الدنيا صراخًا.. ليس من المستحب أن يعرف الجميع حقائق الأمور..»

- «نحن لم نعرف شيئًا.. لماذا حدث ما حدث؟ لو افترضنا أن هؤلاء القوم كانوا أشباحًا أرادت أن تعيد تمثيل حياتها أمام الناس، فلماذا اختارت هذه الفيلا بالذات؟»

قال د. (سامي) في شرود:

- «إنها ليست المرّة الأولى.. هل تذكر يا (رفعت) حلقة الرعب، و(شكري) الذي كان يبحث عن التسلية فجاءنا ليسمع قصص الرعب منا؟ ثمّة أشياء غريبة تحدث في هذه الفيلا ولا أجد لها تفسيرًا.. إنها تتمتع بجاذبية غير مسبوقة للأشباح والكائنات الغريبة، وبيني بينكم أعتقد أنني سأتركها. لم أعد أطيق الحياة فيها يومًا آخر..»

- «لا ألومك.. كما أنّ فكرة أن أتناول طعامي على مائدة استخدمت للتحنيط، لا تروق لي كثيرًا..»

وتبادلنا النظرات المتوترة والمنبهرة..

أخيرًا قال د. (سامي):

- «يمكننا أن ننسى كل شيء عن هذه القصة.. لم يعد لها أثر مادي ومعنوي.. سنفترض أنّ هذا كله كان كابوسًا جماعيًا.. بل هو بالفعل كابوس جماعي وقد صحونا منه..»

ساد الصمت لمدّة عشر دقائق، وفجأة سمعنا صراخًا قادمًا من داخل الفيلا..

جرينا لنجد أن الخدم يحملون المكانس ويقفون أمام الغرفة الصغيرة التي انتحرت فيها (كليوباترا) صباح اليوم.. كانوا مابين إحجام وإقدام وأعتقد أنني فهمت السبب..

رآنا أحدهم فصاح في جزع:

- «لامؤاخذة يا دكتور.. أم (هند) تزعم أنّ هناك ثعبانًا عملاقًا تحت المكتب!!»

☆ ☆ ☆

حين يعدكم (رفعت) إسماعيل بأسطورة مملة فإنّه يعني ما يقول..

كما قلت لكم كانت أسطورة مملة.. وقد وفيت بوعدي..

حان الوقت الآن لنرجع إلى أساطيرنا التي تحبس الأنفاس من فرط (الغموض والرعب والإثارة).. في القصة القادمة أتحدث عن نبوءة.. وكان صاحبها عرافًا شهيرًا.. لكن...

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - دكتور (سامي) من جديد..

٢ - الشاعر..

٣ - الراقصة والكهل..

٤ - فلنحتفظ بالهدوء..

٥ - مشكلة قانونية ولعبة سحرية..

٦ - المواجهة..

٧ - اثنا عشر كأسًا..

٨ - المزيد من الغرائب..

٩ - الراحلة..

١٠ - نخاف أن نفهم..

١١ - لحظة الحقيقة..

Notes

[1←] الحنكليس هو ثعبان الماء، لكن (رفعت) لا يعرف!

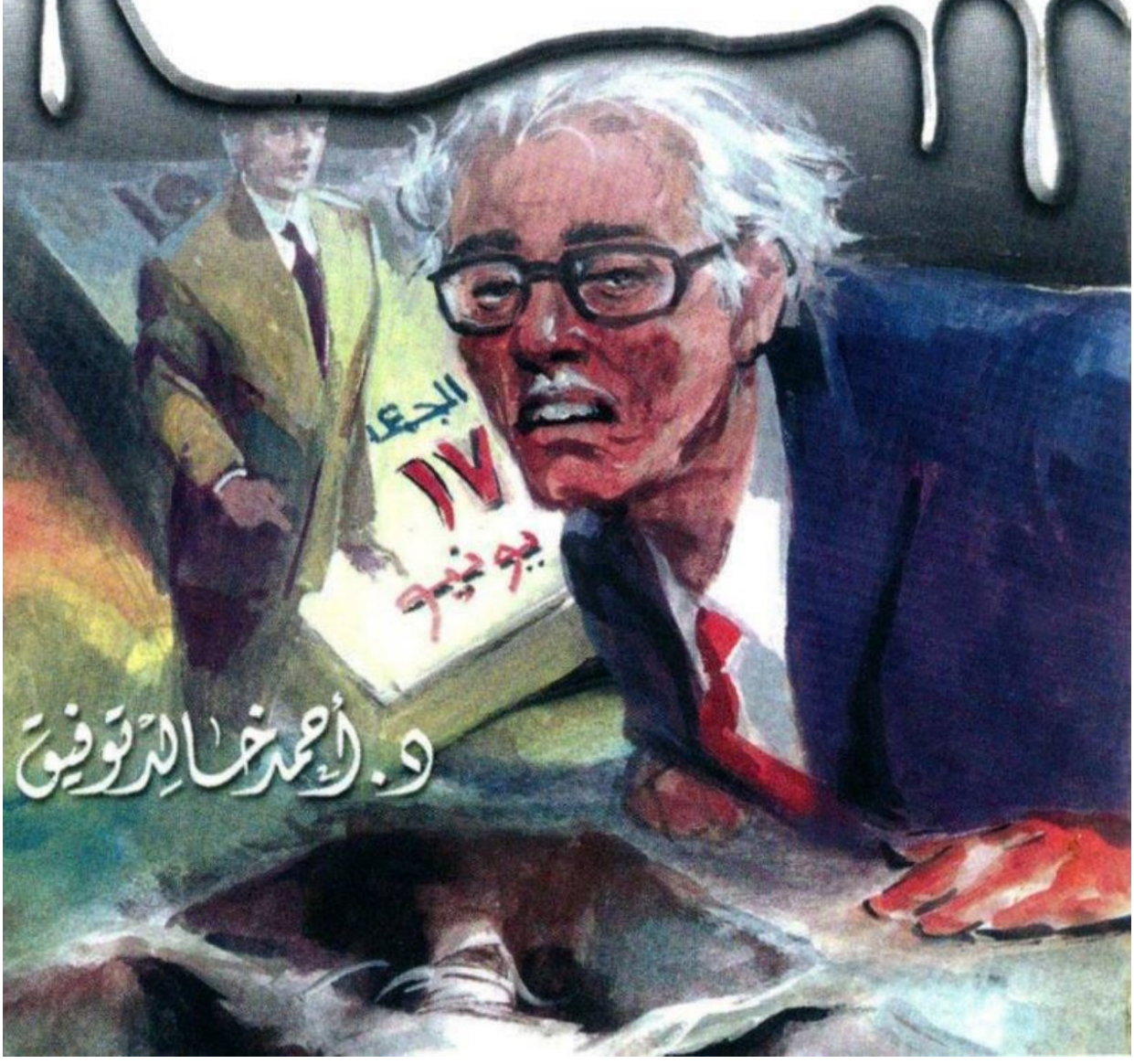
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

53

أسطورة النبوءة

هاوية الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

ولكن لماذا لا أحكي قصة أخرى؟

لماذا يفترض البعض أن على أن أصمت وأستمع؟ لقد قضيت حياتي كلها أصمت وأستمع، والآن يبدو أن الوقت قد حان كي أتكلم فلا أفعل إلا الكلام.. إذا لم يتكلم المرء وقد دنا من القبر، فمتى يتكلم إذن؟

أحيانًا أشعر بالخوف من الليل.. أحيانًا أشعر بالوحدة.. فأعود مجرد طفل واهن يرتجف من الظلام ويتمنى لو أضاء أحد أبويه ضوء غرفة النوم.. لكن ليس من حق من كان في عمري أن يفكر في أبوين هذا ترف بيولوجي ليس متاحًا لي.. إذن لماذا لا أضيء النور بنفسي؟ لأنني لا أريد أن أترك الفراش الدافئ، وأن تطأ قدماي الأرض الباردة، وهناك بيني وبين المفتاح ألف خطر وألف كيان يمكن أن تجعل رحلتي إلى القبر أسرع..

لهذا سأظل في الفراش كما أنا، ولسوف أحكي لكم بصوت لاهث مرتجف قصة جديدة.. مرعبة؟

لا.. ليس الليلة... هذه آخر ليلة أشتهي أن أحكي فيها قصة مرعبة..

لا أنكر أن نلك الرعب من المجهول يتسرب إلى سطور قصة الليلة.. عدم الفهم.. الغموض.. لكن هذا يختلف ولا شك عن المسوخ التي تقطر الدماء من أنيابها..

إذن سأحكى لكم الآن.. و...

من أضاء الغرفة؟

أنا أعرف أنه ليس أنا.. وأعرف أنني وحيد في المنزل.. وأعرف....

لا شك أنّ هناك عيبًا في المفتاح الكهربي.. عيبًا كريهًا لابد من أن أعني به غدًا... خشب الأرضية كذلك من نوع غير جيد.. تصوروا، إنّهِ يصدر صريرًا كأن هناك من يمشي فوقه.. هذه البطانية ليست سميكة بما يكفي لأن تيارًا يتسرب إلى جسدي الذي كان دافئًا...

دعونا إذن من هذا الهراء.. لن أزيح الغطاء عن أذني لأرى ما هناك... أعطال الكهرباء وعيوب خشب الأرضية والأغطية المغشوشة لا تستأهل أن أفسد رقدتي المريحة كي.....

☆ ☆ ☆

١ - محمود زاهر..

بارد متوحد صموت مظلم..

كما في الكوابيس...

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا أيها الغريب..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

لكن كل شيء ينتهي..

☆ ☆ ☆

لا حديث الكلية إلا عن (محمود زاهر)..

هناك نوابغ ونوابغ.. إنك تقابلهم في كل مكان هذه الأيام.. لربما وجدت بعضهم في غرفتك، ولربما وجدت أحدهم في فرن الموقد.. ولربما قابلت أحدهم في المجرور المفتوح في شارعكم، لكن دعني أؤكد لك أن (محمود زاهر) كان نابغة من طراز غير مسبوق..

البداية كانت امتحانات آخر العام، وهي امتحانات عسيرة بالتأكيد، لكن - الأسوأ - أن أستاذ المادة من الطراز الذي يرى أن الطالب الجيد لم يخلق بعد، وإذا وجد فلابد أن يُسحق.. أسئلة عسيرة حتى إنني احتجت إلى مراجعة بعض كتبي كي أجد إجاباتها.. وتساءلت في حيرة: ما هي فرصة الطالب العادي في امتحان كهذا؟ طبعًا لم أبح بخواطري هذه - فهذا ليس من حقي - وآثرت الصمت..

طبعًا كانت هناك الكثير من الإغماءات الأنثوية، وفقد بعض الطلبة أعصابهم في اللجان، أمّا العقلاء منهم فانتظروا حتى انتصف الوقت وغادروا اللجان، وهم يرسمون على وجوههم تعبيرًا من طراز (ليكن.. لم يعد هذا مهمًا) أو (خليها تخرب)... دعك من الفتاة التي وقفت تصرخ بالصوت الحياني وتلطم الخدين، توطئة لأن تدخل في نوبة تشنج هستيري ارتعدت لها فرائص المراقبين..

جو لزج وتعاسة عامّة تتخلل مسام جلدك، وأنسجة قميصك، بل وروحك ذاتها.. كيف تواجه العالم بروح مبللة بالعرق؟ لا أدري..

وفي أثناء تصحيح الأوراق كانت النتيجة متوقعة..

لقد انتهى عصر المعجزات، ولم يعد الامتحان الصعب يعني شيئًا إلا إجابات عجيبة، أو لا إجابات على الإطلاق..

كانت كراسات الإجابة كلها تبعث على الضحك أو البكاء لا أدري بالضبط..

هناك من كتب أي كلام من أي نوع، وهناك من رسم وجوه فتيات وزهورًا، وهناك من ترك الورقة بيضاء كعقل طفل رضيع..

لا توجد استثناءات..

لكن - في العاشرة مساء وقعت عيناي على تلك الورقة..

في البدء لم أصدق عيني.. رمشت بهما عدة مرات كي أتأكد من أنني لا أهذي..

لكن النتيجة واحدة دائمًا..

هذه أروع إجابة امتحان رأتها عيناي في حياتي..

☆ ☆ ☆

بخط نضيد أنيق صغير.. الصفحات كلها مسودة.. تم استعمال لون أسود للعناوين الفرعية مع الأزرق الذي تمت به الإجابة.. كلا.. لا يمكن اعتبار هذه علامة.. ولماذا يضع علامة؟

إن هذه إجابات لم أر أروع ولا أدق منها، ولو أن (ويليام أوسلر) نفسه جاء ليؤدي الامتحان لما استطاع أن يفعل ما هو أفضل..

ولكي يثير الفتى - أو الفتاة - غيظي كانت هناك أرقام في نهاية الفقرات، والأرقام تشير إلى المراجع التي استقى منها معلوماته.. إن فكرة ورقة إجابة ذات مراجع غريبة، لكنّها بين يدي الآن ولا شك في هذا..

رحت أفتش عن خطأ ما.. عن سهو.. عن زلة تدلّ على أن من كتب هذا كائن بشري، لكن لا.. لم أجد..

الحقيقة هي أنني أمسك بورقة إجابة تخص أحد النوابغ.. وهم يمثلون طائفة بشريّة ليس لها عنوان أو محل إقامة ثابت، لكنك تعرفهم على الفور حين تقابلهم..

ولم أجد مناصًا من أن أمنحه الدرجة الكاملة..

كانت هذه ظاهرة، وقد اتجهت في اليوم التالي إلى غرفة الأستاذ وفتحت حقيبتي ولوحت في وجهه بالورقة.. بعبارة أخرى دسستها تحت أنفه وصحت:

- «ما رأيك في هذه؟»

كان يلوك بقايا شيء ما من الأشياء التي تلاك، فازدردها وجرع جرعة من كوب الشاي، وراح يتأمل الورقة:

- «لا بأس.. لا بأس على الإطلاق..»

قلت في عصبية:

- «لا بأس؟ هذا الفتى - أو الفتاة - ليس طبيعيًا.. إنه ظاهرة..»

في برود قال وهو يعيد إلى الورقة:

- «ليس لهذا الحد.. لا تنس ما يقوله الأستاذ لتلميذه: سبع هي درجة جيدة.. ثمان معناها أنك ممتاز.. تسع معناها أنك تعرف ما أعرف.. لكن عشر درجات معناها أنك علمتني شيئًا جديدًا.. ولاتنس أن المفترض أن يجيب الطالب الامتحان... هذه هي القاعدة وما يحدث استثناء.. لا أحد ينال جائزة نوبل لأنّه يغسل يديه قبل الأكل، لأنّه من المفترض أن يغسل الناس أيديهم قبل الأكل..»

- «ليس إذا ما غسلوا أيديهم بالكلور.. لا تنكر أن التميز موجود.. وهذا الطالب متميز..»

- «ربما كان الآخرون مجموعة من الحمير لا أكثر..»

لم أجد ما أقول، فغادرت المكتب وأنا أفكر في أنني سأعرف هذا الطالب فيما بعد.. سأفهم لماذا هو عبقري إلى هذا الحد المريب..

لا أدري لماذا أشعر بالمهانة كلما قابلت عبقريًا.. كأنني تلقّيت صفعة على قفاي.. هذا بشر مثلي ومثلك وبرغم هذا.. برغم هذا.. لا أعرف من أين يأتي هؤلاء..

☆ ☆ ☆

كانت هذه من الفترات الهادئة في حياتي.. ومعنى هذا أن مصيبة ستحدث قريبًا جدًا.. لقد اعتدت على أن يعقب الهدوء صخب.. وكنت أرتجف قلقًا وذعرًا.. ترى ما (شكل الأشياء القادمة) مع الاعتذار لعنوان ذلك الفيلم الأمريكي الشهير؟ هل المشكلة القادمة مرعبة أم هي - فقط - غريبة محيرة؟

وفي هذه الفترة بالذات بدأت الامتحانات الشفهية، وكانت هذه المرّة الأولى التي ألقى فيها (محمود زاهر) وجهًا لوجه..

كنا في هذه الفترة، نضع أمامنا ورقة امتحان الطالب التحريرية لنقارن إجاباته المكتوبة بكلامه.. لقد أعاد الكونترول لصق البطاقة التي تحمل اسم الطالب ورقم جلوسه على أوراقه، وبالتالي صار كائنًا بشريًا من لحم ودم.. له اسم وصورة وعنوان..

كانت ورقة إجابته من نصيبي، وسرني هذا كثيرًا... الحقيقة أن أصابعي راحت ترتجف مع خلل في ضربات قلبي هو ما يدل على الحماسة بالنسبة لي.. سأرى هذا العبقري! سأعرف كيف يتكلم ويفكر..

كان الاسم هو (محمود أحمد زاهر).. وقد وضعت الورقة جانبًا في مكان متميز، ورحت أصغي بنصف ذهن إلى إجابات رفاقه المعهودة الكئيبة..

- «ما أسباب فقر الدم قليل الصبغة؟»

فينظر الفتى للسقف وهو يحرك ساقه في عصبية ثم:

- «طاخ.. طيخ.. بوم.. طاخ.. أوع.. طاخ ومن الأسباب الأخرى أن.. بوم.. طاخ»

- «كفى.. كفى.. قل لي الصورة السريرية لسرطان الدم الحاد»

- «طاخ.. طيخ.. بوم.. طاخ.. أوع.. ويمكن أيضًا أن نرى.. طاخ.. أوع.. هاع!»

- «كفى.. كفى!»

هكذا تمضي الدقائق حتى يأتي دور (محمود زاهر)..

كان نحيلًا إلى حد لا يصدّق.. طبعًا.. لا أسمح لأي عبقري كان أن يكون بدينًا باستثناء (صلاح جاهين).. كان يرتدي ثيابًا عادية تمامًا.. وكانت عيناه أليفتين وديعتين لا تحملان ذلك الوهج الخاص بالعباقرة.. باختصار كان مخيبًا للأمل..

- «إجاباتك رائعة يا (محمود)..»

فهز رأسه في حركة متواضعة على شيء من البلاهة..

- «من أين جئت بهذه الإجابات النموذجية؟»

من جديد هزّ رأسه في تواضع وقال:

- «من هنا.. وهناك»

وهي إجابة غبية لا توحي بأي ذكاء.. لكن لا بأس.. العباقرة الحقيقيون لا يعطون انطباعًا بأي شيء غير عادي، وهم دائمًا عاطلون من (الكاريزما).. يُقال إن الشاعر العبقري (بيرم التونسي) كان يجلس في المقهى فلا يتكلم إلا عن الطعام وأصنافه..

وبدأت أسأله (الفتى لا بيرم طبعًا)..

هنا بدأت أشعر بخيبة أملي تتزايد.. تتفاقم.. تزدهر..

- «طاخ.. طيخ.. بوم.. طاخ.. أوع.. ويمكن أيضًا أن نرى.. طاخ.. أوع.. هاع!»

هذه إجابات غبية عادية لا يميزها شيء.. ربما هي الأسوأ بين إجابات رفاقه..

في النهاية ضم ياقة قميصه إلى أعلى صدره، وقال في تملق:

- «عسى أن أكون قد أحسنت...»

- «ممتاز..»

قلتها وأنا أتميز غيظًا...

هذا الفتى لا يملك أي تفوق خاص.. إنّه واحد آخر من القطيع.. فكيف كتب ورقة الإجابة العجيبة هذه؟ هذا لغز لابد من أن أعرف سرّه.. ثمّة تفسير واحد..

في الواقع ثمّة أكثر من تفسير..

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

☆ ☆ ☆

٢ - عادل توفيق..

- «لا بأس.. هذا هو رهاب الامتحان الشفهي»

كان قائل هذا هو زميلي د. (رأفت).. ظننت هذا واضحًا.. إذ من مثله يتكلم بهذه النبرة الشاردة قليلًا..

وأردف وهو يجمع أوراقه ليرحل:

- «إن العقل البشري أداة غريبة.. إنّه يظل يعمل منذ تولد حتى يوجه إليك أول سؤال في لجنة الامتحان الشفهي.. عندها يُصاب بالتوقف..»

أعرف هذا.. أقسم بالله إنني أعرف هذا.. لو كان يعتقد أنه أكثر منى فهمًا للضعف البشري وحدود الإنسان فهو مخطئ.. لكن...

قلت له منتقيًا كلماتي:

- «هنا يكون من الجلي للممتحن أن الفزع هو السبب.. لكنك تستطيع أن تجد وهجًا خاصًا في كلام الفتى.. في منطقه.. في عينيه.. شيء يخبرك أنه هو حقًّا من كتب الإجابات الشفهية المبهرة.. أمّا هذا الفتى..»

وفتحت ذراعي بحركة ذات معنى:

- «فلا يملك أي بريق.. إن ذكاءه لا يفوق ذكائي في شيء..»

- «يا سلام.. لماذا تلومه إذن؟»

- «لأنني لم أكتب ما كتبه هو في الامتحان التحريري..»

جلس د. (رأفت) وقد بدا أن الأمور ستروق له.. لقد صار هذا مسليًا..

قال لي:

- «وماذا تقترح أنت؟»

قلت وأنا أجلس بدوري وقد سرني أنّ هناك من يصغي لي أخيرًا:

- «الجواب معروف.. أعتقد أنّ هذا الفتى كان يعرف موضوع أسئلة الامتحان التحريري من قبل.. وقد تدرب على الإجابة كثيرًا جدًّا..»

بدا عليه عدم التصديق وغمغم قائلًا:

- «هذا يفتح أبواب الجحيم على الجميع.. تسرب أسئلة امتحان! من الأسهل أن تتهم الفتى بقتل (كنيدي) أو حرق روما.. ثم إنك تعرف أستاذ المادة.. وتعرف أنه لا شيء يمتعه قدر أن يتعذب الطلاب أمام أسئلة لا جواب لها.. هل تعتقد أنه يتنازل عن هذه اللذة مقابل مال؟»

حقًّا لا.. لا أتصور أن يتنازل الرجل عن لذته السادية مقابل مليونين من الجنيهات.. إنّه قاس سادي لكنه شريف... لا أحد ينكر هذا.. وسبب شرفه أن لذة التعذيب تفوق لذة الثراء عنده...

فكرت مليًّا ثم قلت:

- «هل من سبيل آخر للتسرب؟»

قال باسمًا:

- «أنت تعرف أنّ هذا مستحيل.. الرجل حذر وحريص جدًّا.. لو تسربت أسئلة الامتحان فلا سبيل لذلك إلا الأستاذ نفسه..»

ثم قرر أن الجزء الممتع من المناقشة قد انتهى، فراح يجمع أوراقه من جديد وقال لي:

- «لماذا لا تخبر العميد بشكوكك؟»

قلت في كياسة:

- «من الغريب نوعًا أن أشكو له لأن أجوبة أحد الطلبة ممتازة.. لا يوجد دليل قوى ملموس.. خاصة أن كلامي كما تقول أنت سيفتح أبواب الجحيم، وسيظن العميد أنني أعرف أكثر مما أقول..»

- «إذن.. لماذا لا تمارس الحل القديم العبقري؟»

- «وما هو؟»

- «انس الموضوع واخرس..»

حقًّا.. أنت عبقري يا (رأفت).. إن أروع الحلول هو أبسطها دائمًا، وبالطبع لم يخطر لي ببال..

☆ ☆ ☆

حين علقوا النتيجة هرعت لأراها على سبيل الفضول..

أردت أن أرى ما حققه الفتى في بقية المواد، وهي بالطبع ليست نزهة.. وبالفعل وجدت أنه لم يحصل على تقدير الامتياز في أية مادة..

ما معنى هذا؟

معناه على الأرجح أن إجابة الفتى كانت مبهرة كالعادة في كل الامتحانات التحريرية، بينما كان مخيبًا للآمال في الامتحانات الشفهية.. امتزج العلقم بالعسل فصار الناتج سائلًا ليس كريهًا وليس حلو المذاق..

لكن كثيرين لاحظوا الشيء ذاته، وبين الأساتذة بدأت همسة تتكرر:

- «(محمود زاهر)»

سيذكر كل أستاذ في الكلية أنه ـ لمرّة على الأقل - رأى ورقة الإجابة التي يعجز هو عن كتابتها.. وتساءلت أستاذة في قسم الأمراض الجلدية وهي تضرب كفًّا بكف:

- «من أين جاء هذا الفتى، وما سرّه؟»

☆ ☆ ☆

- «لا سر له..»

قالها لي (عادل توفيق) وهو من طلبتي، لكني أعتبره صديقًا حميمًا.. وهو ـ بشكل أو آخر - جاسوسي الخاص بين زملائه.. لا أعني أنه ينقل لي شيئًا مهمًا إلا ما قاله الطلاب عن تلك المحاضرة أو تلك.. ما فهموه وما لم يفهموه.. ما يكرهونه فيَّ وما يحبون (إن كانوا يحبون شيئًا ما)..

أضف لهذا أنه يؤدي دور ضابط الاتصال بيني وبين العالم الذي صار قصيًا.. عالم الشباب.. أفكارهم.. تعبيراتهم.. طموحاتهم.. ومن حين لآخر أسمع منه آخر الأخبار كي أبقى معاصرًا ولا أتحول إلى (ماموث) متحجر..

سألته في مكتبي عن هذا الـ (محمود زاهر).. هل هو عبقري؟ هل له قريب في ألمانيا يدعي (روبرت كوخ) أو قريب في إنجلترا يدعى (هالستيد)؟ هل ينزف دمًا أزرق حين يجرح؟

فقال لي وقد رسم على وجهه علامات التقزز:

- «إنّه لا يملك أية موهبة.. وحديثه أغبى من مستنقع..»

بدت لي هذه الإجابة تناسب بالضبط آرائي الخاصّة عن الفتى، فعدت أسأله:

- «هل تعني أنه معكم من فترة؟»

- «من السنة الإعدادية..»

كان الطب في تلك الأعوام مسبوقًا بسنة تدعى (السنة الإعدادية).. وعلى كل حال معنى هذا أن الفتى لم يأت من الفضاء أو من عالم الأطياف.. أنتم تعرفون أنني أرتاب في الطلبة الذين يظهرون في الكليات فجأة.. ولي معهم خبرات غير مريحة..

- «ولم يظهر أي تفوق من قبل؟»

مط شفتيه في مزيد من الاشمئزاز الفلسفي:

- «بالطبع لا..»

عدت أحك صلعتي مفكرًا.. وسألته:

- «وتلك الإجابات المبهرة التي؟»

قال في ضيق:

- «مجرد محظوظ آخر.. هناك طلاب لا يقرءون إلا الصفحة السابعة والعشرين من الكتاب، وفي لجنة الامتحان لا يكون هناك إلا سؤال واحد هو من الصفحة السابعة والعشرين.. أمّا تعساء الحظ على شاكلتى فهم إذا حفظوا الكتاب غيبًا، ونسوا أن يحفظوا السطر العاشر من الصفحة التسعين، كان معنى هذا أن الامتحان قد تحدد: أكتب السطر العاشر من الصفحة التسعين!»

ثم هزّ رأسه كأنما يتناسى هذه الذكريات الموجعة:

- «مجرد محظوظ آخر.. واحد من هؤلاء الذين لم يكتشف أحد أنهم حمير جر حتى اليوم..»

ابتسمت برغمي وبرغم غيظه المستعر، فتعبيراته راقت لي، وإلى حد ما أنا أفهمها.. لكن هذه ليست الإجابة.. قانون الصدفة ليس جاهزًا ليرد على كل شيء في كل لحظة.. أنا لا أؤمن بهذا.. إن المصادفات تحدث وكثيرًا جدًّا، لكن من العسير أن تبني عليها استنتاجاتك أو خططك..

عدت أسأله في كياسة وبصوت خفيض:

- «هل تعتقد..»

وابتلعت ريقي باحثًا عن كلمات مناسبة:

- «لنقل إنني أفترض ولا أتهم أحدًا.. هل هناك ما يحملك على الاعتقاد بأن هذا الفتى كان يعرف الامتحان مسبقًا؟»

بدت عليه حيرة غبية، وقلب السؤال في ذهنه مرارًا، ثم قال:

- «لا أعتقد يا سيدي.. لو أنّ شيئًا كهذا حدث لعرفناه على الفور... في الغالب لا يستطيع فتى كهذا أن يكتم سرّه طويلًا.. لابد أن يخبر به أحد الذين لا يستطيعون الكتمان طويلًا.. وهكذا.. حتى لو لم يعرف أساتذة الكلية شيئًا، فإننا نحن الطلبة نعرف فيما بيننا.. وتتعالى الهمسات..»

ثم نظر إلى ساعته واستأذن كي ينصرف.. كنت أعرف أنه مشغول دائمًا لا أدري بأي شيء.. لكنه أكثر انهماكًا من رئيس وزراء نشط..

وحين جلست وحدي في المكتب قلت لنفسي: لا بأس.. ثمّة شيء ما لا يمكن فهمه ولا تفسيره..

لكن دوري انتهى هنا.. لم أعد مولعًا بدس أنفي في كل شيء كما كنت فيما مضى..

وبالطبع لم أكن أعرف أنّ هذا الموضوع هو قصتي القادمة، ولا أن الأمور سترتفع من تلقاء نفسها إلى أنفي لتجعله يندس فيها برغمه...

☆ ☆ ☆

نحيلًا تعسًا مبعثر الثياب خجولًا، يقف على باب مكتبي وهو ينقل قدميه علامة على الارتباك.. مضى ربع دقيقة وأنا لا أشعر بأنه هناك على باب غرفتي.. كنت أصغي باهتمام إلى مريضة عجوز ثرثارة تجلس على فراش الكشف وتحكي قصة حياتها منذ أن كانت - وهي رضيعة - تفضل الكراوية على الينسون، والسبب هو أن لبن أمها يسبب لها عسر الهضم..

هنا شعرت بوجوده.. عرفته على الفور...

- «تعال يا محمود..»

فهز رأسه وتقدم إلى داخل الحجرة، وانتقى مقعدًا ليجلس عليه.. كانت لديه عادة لم أحبها كثيرًا هي إدخال إصبع في أنفه لينقب كلما شعر بالارتباك.. وأدركت أنني لن أصافحه مهما حدث..

ماذا يريد مني؟ هل جاء ليعتذر؟ عن أي شيء؟

شرحت له بالإنجليزية تفاصيل الحالة، فراح يهز رأسه في ذكاء ويقول مرارًا وتكرارًا:

- «فقر دم.. آه! نعم.. فقر دم..»

وكنت معتادًا على الغباء، لكن هذا الفتى لم يكف عن إبهاري بأسوأ الاستنتاجات وأغبى التعليقات.. حتى دعاباتي العابرة لم يفهمها برغم أن العجوز الأمية ضحكت لأنها راقت لها.. واكتفى هو بترديد:

- «آه! فقر دم.. هذا مهم..»

في النهاية شكرت المريضة، وانتظرت حتى غادرت الغرفة، فجلست في مقعدي وسألته:

- «حسن؟»

وأرجعت ظهري للوراء، وعقدت أناملي لأوحي بالنهم الفكري..

قال في شيء من الحرج وإصبعه لا يفارق أنفه:

- «الحقيقة أن لديَّ رسالة مهمّة لسيادتك.. رسالة من صديق..»

- «هل لي أن أعرف من هو؟»

ابتسم في بلاهة وقال:

- «أوصاني ألا أتكلم أبدًا..»

- «هذا جميل.. على الأقل قل الرسالة..»

قال كأنما يملي درسًا راجعه ألف مرة:

- «يقول لك أن تحترس.. مساء يوم الجمعة ١٧ يونيو..»

ملت نحوه ونظرت إليه مدققًا.. بعد قليل سألته السؤال الوحيد الممكن:

- «أحترس من أي شيء؟»

- «لم يفصح..»

- «من هو الذي لم يفصح؟»

- «هذا الذي أوصاني ألا أتكلم..»

هل هذا تهديد؟ من الواضح أنه ليس كذلك.. الفتى لا يمارس دور القوي.. وبالتأكيد ليس الأمر بهذه البساطة كأنما يريد مني ألا أبحث أكثر في موضوع الامتحان المتسرب.. كلا.. هذا جدير بأفلام المافيا لكن ليس هذا الفتى الخائف..

لكن لا يوجد تفسير آخر لهذا الذي يقول..

قلت له وأنا لا أبدل من جلستي:

- «هل تعتقد أنني سأصدق حرفًا؟»

قال وهو يتضرج حمرة:

- «في الحقيقة لا.. لكني أتوسل لك أن تصدق يا سيدي.. أنا لم آت إلا للمصلحة.. نحن نحبك ونكره أن يصيبك مكروه..»

كنت أستطيع أن أكون فظًا.. وهذا من حقي.. ولن ألوم أي واحد آخر يمسك بتلابيب الفتى وينتزع منه تفاصيل الموضوع، لكني بالطبيعة أكره إرغام الصحفي على كشف مصادره.. ثم إن الفتى واهن حقًّا.. مرتبك حقًّا.. كأنه دجاجة.. وأنا لا أقدر على إيذاء أو ترويع دجاجة..

قلت له في برود:

- «ليكن.. أنت أبلغتني برسالة.. صحيح أنها غامضة محيرة، لكنّها وصلت.. ولو شعرت بأنك تريد التحرر من وعدك، وتريد إبلاغي بتفاصيل أكثر... فأنا أرحب بك..»

هزّ رأسه في ارتباك ونهض ومد يده يصافحني شاكرًا معتذرًا عن كل هذا الإزعاج.. ثم انصرف..

ولدقائق ظللت أرمق الباب الذي خرج منه شارد الذهن..

ثم تذكرت أنني صافحته.. فانصرف تفكيري إلى أمور أخرى!

☆ ☆ ☆

٣ - كاميليا..

موعد هذه الليلة..

لا ليست هذه ليلة الجمعة إياها لو كان شيء كهذا قد جال بخاطركم..

كان عندي موعد مع الدكتورة (كاميليا) أستاذ الفلسفة.. أنتم تعرفونها جيدًا.. وأكون شاكرًا لو أزلتم عن شفاهكم هذه البسمات الخبيثة، والنظرات التي تقول بوضوح تام (أيوه ياعم).. كلا.. ليس الأمر كذا، وأنتم تعرفون الدكتورة (كاميليا) وتعرفون أنها لا تمثل لي إلا صديقًا ذكيًا.. فقط هو طويل الشعر بالمصادفة، وتحمل خلاياه زوجين من الكروموسومات من طراز XX بدلًا من XY.. هذا كل شيء.. وهذا ليس سببًا كافيًا كي أقطع علاقتي بها.

د. (كاميليا) عصبية نوعًا.. من الطراز الذي يرى أن (الأمور لم تكن قط بهذا السوء).. لكن عقلها جبار ولا أنكر هذا.. من الجميل أن يلقى المرء من حين لآخر من يشعر أمامه بأنه غبي.. هذا يجعلك تتخلى عن الشعور المزعج بأنك أذكى إنسان عرفته..

كان لقاؤنا في مطعم على شيء من الرقي، وقد استعدت لهذا واخترت البذلة الكحلية على سبيل التغيير، وكنت عاكفًا على حلاقة ذقني حين دق جرس الهاتف...

- «د. (رفعت)؟»

- «أنا هو..»

جاء الصوت الواثق الثابت كيد رام محترف:

- «حاول أن تنصرف من المطعم قبل العاشرة!»

مرّت لحظة أحاول ابتلاع هذا الذي قيل فيها.. كان يحمل الكثير من الحقائق.. لكن الوقت لا يتسع كي أفند كل شيء..

قلت بالعصبية اللازمة:

- «من المتكلم؟»

قال بنفس البرود الثابت:

- «شخص يهمه أمرك...»

- «وماذا سيحدث في العاشرة؟»

- «الكثير من الأذى..»

وظل منتظرًا رد فعل، ولم يضع سماعة الهاتف كما توقعت في هذه الأمور.. قررت أن أغيظه فقلت في برود وقد استجمعت شتات أعصابي:

- «شكرًا..»

ثم وضعت السماعة.. طبعًا هو كان يتحرق للمزيد من (اللت والعجن).. إنها متعة غير عادية أن تلعب دور الغامض العليم ببواطن الأمور وأن يسألك الآخرون في لهفة عما تعرفه..

حسن.. أنا حرمته هذه المتعة وإنها لقسوة غير عادية مني..

لكنه يستحق..

☆ ☆ ☆

- «لكنك لست على ما يرام..»

قالتها (كاميليا) وهي تراقبني وأنا أعبث بالشوكة في طبقي شارد الذهن.. كان المطعم راقيًا بالفعل.. موسيقا ساكس تنبعث من مكان ما، وإضاءة خافتة تجعلك غير متأكد مما إذا كنت تأكل لحمًا أم صراصير.. شموع غليظة حمراء على الموائد تذكرك بحفلات إحياء الزومبي في الكاريبي.. وهمس يخيم على الجو قادمًا من الموائد المحيطة بنا.. كل شيء رائع ولا ينقصه إلا أن نكون حبيبين يعيشان حلمًا، وهو ما لم يكن واردًا للأسف.. رجل أصلع نحيل كسحلية يحاول اصطياد المكرونة بشوكته، يجلس مع أستاذة فلسفة مسنة عصبية كذيل القط..

كنت بالفعل شارد الذهن متعكر المزاج قليلًا..

التاسعة والنصف.. ترى؟

قلت لها وأنا لا أرفع عيني عن الطبق:

- «لا شيء.. مشاكل العمل كما تعرفين..»

قالت في خبث:

- «أم المزيد من الميتافيزيقا؟»

قلت لها وأنا أهز كتفي:

- «يد مومياء تريد العودة لقبرها.. أكلة لحوم بشر يعيشون في مجاري (لندن).. حفل يؤمه بعض ملوك الفراعنة ليمثلوا أدوارهم في الحياة.. مسخ يطارد من ارتبطت حياتهم بالرقم ١٣.. باختصار: وتيرة حياتي المعهودة..»

- «الإيقاع الرتيب الممل إياه..»

- «نعم..»

وشاعت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت:

- «أحيانًا أشعر بأنك مجذوب أو مخبول.. لكن الدلائل....»

قلت لها في سماجة:

- «لقد مر وقت طويل على الزمن الذي كنت أحاول فيه التظاهر بأنني رائع.. أنا هو أنا.. خذيني أو اتركيني..»

قالت وهي تعقد يديها تحت ذقنها الحاذة:

- «أنت خشن الطباع كذلك..»

- «حدث ما يقلقني نوعًا هذه الليلة..»

العاشرة إلا الربع..

وما لم أقله لها هو أنني بالفعل أشعر بالتوتر..

تلك الحاسة العجيبة التي لديَّ - ربما كانت سادسة أو سابعة لا أدري - تقول لي بوضوح تام:

غادر هذا المكان حالًا.. لاتبق أكثر من هذا.. فر كأنما الجحيم يطاردك..

لماذا؟ لا أدري.. لكن القطط تتوتر لأسباب كهذه قبل الحرائق، والنمل يغادر جحوره لأسباب كهذه قبل الزلازل...

ورفعت عيني لأرمق الموائد المحيطة.. لا يبدو أنّ هناك سفاحًا مجنونًا أو قاتلًا محترفًا ينتظرني.. صحيح أن الظلام دامس لكن بوسعي أن أرى ظلال الوجوه في ضوء الشموع.. كل واحد يثرثر مع جليسته ولا يهتم بما يدور حوله..

ولكن.. لحظة..

هل ترى هذه المائدة الصغيرة على بعد خمسة أمتار منا؟

هذا الرجل الجالس إليها.. ألا يبدو مألوفًا بشكل ما؟ ألا ينظر لي في ثبات؟

لماذا ينظر لي في ثبات؟ ربما لأنني أنظر إليه؟ لكن لا.. أنا متأكد من جلسته إنّه يراقبني في ثبات ومن زمن..

لا أتبينه بوضوح لكنه يرتدي بذلة أنيقة.. وفي يده قداحة ذهبية تلمع في ضوء الشموع، يحملها ثانيًا رسغه بأناقة تذكرني بالأخ (جيمس بوند) في تلك الأوضاع التي يجيدها..

لماذا هذا التوتر الغريب؟

النداء في مؤخرة رأسي يكرر بلا هوادة:

الآن.. الآن يا أحمق.. يجب أن ترحل.. يجب..

ومن مكان ما جاء صوت (إلفيس بريسلي) الرخيم يقول:

«أرى تغييرًا آتيًا إلى حياتنا..

لم تعد الأمور كما كانت..

ولم يفت الوقت بعد كي ندرك الحقيقة..

لا نناسب بعضنا..»

الصوت الرخيم الذي جعل النقاد يصفونه بأنه صوت زنجي يخرج من حنجرة بيضاء.. الغريب أنه يزيد من توتري وكان الأحرى أن يهدئني..

الرجل الجالس يرفع معصمه.. ينظر في ساعته.. يهز رأسه في حسرة..

إنه يدسّ يده في جيبه.. ماذا سيخرج منه؟

«لقد ولّى الحب وتركنا مجرد صديقين..

كل ما بقي لنا هي الذكريات..

حين كنا نحسب أننا نبالي ببعضنا..»

إنه يلقي ببعض الأوراق المالية تحت كأس.. ثم يمشي في تؤدة نحو باب الخروج دون أن ينظر لنا..

العاشرة إلا خمس دقائق..

هنا كان النداء في أعماقي قد تحول إلى صراخ..

«يومًا ما حين تكبر ابنتنا ربما تفهم...

لماذا لا يعيش أبواها معًا..

إن الدموع التي ستسيل من عينيها.. وأنا أودعها..

ستدمي قلبي للأبد...»

هنا جاءت اللحظة..

مسحت فمي بالمنشفة.. نهضت وألقيت على المائدة ببعض الأوراق المالية، وصحت في (كاميليا) أنّ علينا الرحيل حالًا..

- «لكننا لم نفرغ من الأك...»

- «فيما بعد.. سأدعوك إلى بعض الشطائر.. فيما بعد..»

في توتر تناولت حقيبتها ولحقت بي وأنا أجد السير نحو الباب.. واستطاعت برغم كل شيء أن تبتلع ما في فمها وأن تقول شيئًا على غرار:

- «إن أطوارك الغريبة هذه سوف تقودك إلى البيمارستان.. وأنا معك..»

«أرى تغييرًا آتيًا إلى حياتنا..

ولن تظل الأمور كما كانت..»

لكني كنت قد وصلت إلى السيارة العجوز الواقفة وسط السيارات الأخرى في الظلام.. فتحت لها الباب وجلست خلف المقود.. بينما الصوت الذي يتردد داخلي قد راح يهدأ ثانية..

نجوت! نجوت!

جاء منادي السيارات يظهر لي مدى حماسته وإخلاصه، بأن يقف أمام السيارة كي يمنعها من الانطلاق، وبمنشفة متسخة راح يحيل الزجاج الأمامي إلى سطح رمادي متجانس.. وكنت أنا نافد الصبر إلى حد أن....

هنا سمعته يصيح في دهشة:

- «يا ساتر يا رب!!»

وأخرجت رأسي من النافذة لأن الزجاج الأمامي صار جسمًا معتمًا كريه الرائحة.. فرأيت.. رأيت ألسنة اللهب تندلع من المطعم.. من النوافذ السفلية..

وحش مزمجر متوحش يحاول التحرر.. وصرخات النساء تتعالى... طبعًا هي الأعلى من صرخات الرجال والأكثر تأثيرًا.. وارتجفت..

فتحت باب السيارة ووقفت أنظر إلى هذا المشهد المرعب شاعرًا بالعجز التام.. لو ألقيت بنفسي وسط النيران فلن يستفيد أحد.. ولو ظللت حيث أنا لاتهمت نفسي بالجبن ما بقي من حياتي..

ماذا أفعل؟ صحت في الرجل بحسم:

- «فليطلب أحدكم رجال الإطفاء يا أحمق.. ماذا تنتظرون؟»

فتح فمه ليتكلم.. لكن الأضواء الحمراء والسرينة أخرسته على الفور...

وفي اللحظة التالية تحول المكان إلى خلية نحل.. الرجال ذوو المعاطف الجلدية يركضون هنا وهناك... ومن يفتح المضخة ومن يحمل (الباشبوري).. ومن يصرخ ومن يستغيث.. ومن يشاهد هذا كله..

غريب حقًّا أن تصل عربة الإطفاء بهذه السرعة.. لا بد أنهم تحركوا قبل أن يفكر الحريق في أن ينشب.. هذا هو التقدم الحق..

طبعًا كان من العسير تحديد عدد الضحايا ولا مدى كفاءة عملية الإطفاء، لكن لا ينكر أحد أنها أسرع عملية إطفاء في التاريخ.. ولو كان هناك ضحايا فيكفينا القول إنِّه لم يكن بوسع مخلوق إنقاذهم في أي موضع من الأرض..

وبعد نصف ساعة من الشرود والشهيق والذهول، أدرت محرك السيارة وابتعدت.. بينما (كاميليا) ترتجف كورقة.. أو كفخذ ضفدعة الخواجة (جالفاني) التي كان سيطبخها لزوجته على العشاء..

وما زال صوت (الفيس بريسلي) يتردد في مؤخرة ذهني:

«إن الدموع التي ستسيل من عينيها.. وأنا أودعها..

ستدمي قلبي للأبد..»

☆ ☆ ☆

٤ - فوزي شفيق (١)..

حمدا لله..

لم يمت أحد.. بل إن الإصابات طفيفة كلها..

عرفت هذا من الصحف بعد الحادث بيوم.. وكانت تشيد طبعًا بيقظة رجال الإطفاء الذين وصلتهم إخبارية تفيد بأن النيران اندلعت في هذا المطعم.. وقد اكتشفوا أن السبب هو ثقب في خرطوم غاز في المطبخ.. والأجمل هنا أن الإخبارية جاءتهم في التاسعة والربع مساء.. أي قبل نشوب الحريق بساعة إلا الربع، وهو ما يوحي بأن هناك فاعلًا.. فاعلًا ارتكب الجريمة وأبلغ رجال الإطفاء قبلها على سبيل التسلية.. أو أن له شريكًا غدر به..

كان هناك واحد في المطعم يتوقع أن يحدث شيء.. لكنه لم يعرف ما هو..

وكان هذا الواحد هو أنا..

صباح يوم الحريق اتصلت بي د. (كاميليا) وقالت إنها مازالت مرهقة من التوتر العصبي Stress كما قالت (لأنهّا تحب استعمال الإنجليزية للتعبير عن كلمات لها مليون مرادف في العربيّة).. وقالت إنها ستحسن الظن بي بعد هذا لأنّه من الواضح أن لدي حاسة سادسة مرهفة..

- «حسبتك مجنونًا وأنت تهرع نحو الباب كالملسوع..»

- «كثيرون يعتقدون الشيء ذاته، ولم أعد أحاول تبرير نفسي..»

وحين وضعت السماعة فرغت إلى نفسي أخيرًا... فرغت لخواطري الخاصّة..

لقد اتصل بي الفاعل قبل الحادث.. اتصل لينذرني.. ولكن لماذا؟

لايوجد دليل على كلامي لكني أرجح أن الرجل الذي كان جالسًا في المطعم.. الرجل الذي غادر المكان قبل الحادث بدقائق.. هذا الرجل هو ذاته من اتصل بي..

كان في مظهره شيء ما.. شيء يقول: أنا ذاهب.. القرار الآن قرارك أنت..

ولكن لماذا؟

☆ ☆ ☆

لهذا سررت للغاية حين دق جرس الهاتف وهرعت أرد عليه..

كان ذات الصوت الواثق الهادئ:

- «أنا (فوزي شفيق).. سرني أنك صدقتني أخيرًا..»

- «وسرني أنك أبلغت (المطافئ)..»

ثم ابتلعت ريقي وسألته:

- «لماذا أشعلت هذا الحريق؟ أنا أعرف أنّ هناك مجانين إشعال حرائق.. هذا الجنون يُسمّى (بايرومانيا)، لكننا لا نقابله في مصر.. هنا يشعلون الحرائق لأسباب عملية أكثر مثل إخفاء الاختلاسات قبل موسم جرد العهدة.. لكن هل هناك عهدة في المطعم إياه؟»

ضحك كثيرًا.. ثم ساد الصمت..

بعد قليل قال لي:

- «أنقذ ما تبقى من الدجاجة ثم عد لي..»

- «دجاجة؟ هل تمزح؟ إن..»

ثم صحت وأنا ألقي بالسماعة كالملسوع:

- «تبًّا! الدجاجة!!»

وهرعت إلى المطبخ لأجد المأساة الكاملة.. الدجاجة التي أعددتها للغداء، والتي كانت في آخر مراحل النضج قد تحولت إلى قطعة فحم صالحة لإنضاج دجاجة أخرى عليها.. وكان الدخان يتصاعد بكثافة بينما صار من العسير أن تعرف لون الجدار الذي فوق الموقد.. هل كان أسود من البداية؟

حملت الوعاء إلى الحوض وفتحت الصنبور.. وطش ش ش ش! تصاعد البخار الساخن الحارق ليملأ المكان معلنًا نهاية آمالي في غداء اليوم..

طبعًا لم أنس أن أنظر جيدًا عبر نافذة المطبخ تأكد من أن أحدًا لا يراقبني.. الأمر الذي كان سهلًا لأن المطبخ بلا نافذة أصلًا..

جففت يدي وعدت إلى الصالة وحملت سماعة الهاتف...

جاءني صوته الهادئ:

- «هل بقي منها شيء؟»

قلت في غيظ:

- «أنت عليم بهذه الأشياء ربما أكثر مني.. ولكن كف عن المزاح وقل لي: كيف عرفت هذا؟»

- «كنت أعرف أنك ستحرق دجاجتك..»

- «ولماذا لم تتصل قبل هذا بعشر دقائق؟»

قال في صوت لا مزاح فيه:

- «لأنّه لا وقت لديَّ أضيعه في إنذار الناس قبل احتراق دجاجهم..»

بعد دقيقتين من صمت ثقيل قال:

- «الآن أنت تعرف أنني لم أشعل الحريق في المطعم..»

- «تريد القول إنك تتنبأ.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. هل لديك تفسير آخر؟»

قلت في عصبية:

- «أنا لا أصدق حرفًا من هذا الهراء..»

ووضعت السماعة قبل أن يتكلم..

بالنسبة لمن يزعمون التنبؤ أنا متأكد مما أقول.. الرجل الذي يجيد التنبؤ بالغد لن يظل هنا ليبهر الآخرين بكلامه.. إنّه سيكون جالسًا هناك على عرش العالم..

هذا الرجل الذي يعرف كل شيء.. الذي يعرف أسئلة امتحان الثانوية العامة ومتى تصحو الزلازل ومتى تشتعل الحروب.. الذي يعرف الخطط السرية للجيوش وموعد وفاة أعدائه وموعد ارتفاع الأسهم في البورصة.. الذي يعرف أين تستقر الكرة في لعبة (الروليت) في ملاهي (لاس فيجاس)، وأية شهادات استثمار ستربح.. الذي يعرف أن سعر القطن سيرتفع بعد أسبوع من ثم يشتري كل الموجود في السوق.. هذا الرجل - ببساطة - لن يضيع وقته في إنذار الناس بأن دجاجهم يحترق..

هناك قصة ممتعة لـ (مارك توين) تتلخص في شاب أمريكي من هذا النوع، أقنع أحد الأثرياء بشراء الموجود في السوق من سلعة معينة، لأن الحرب ستقوم في أوروبا، وسوف يكون لهذه السلعة سعر الذهب.. وبالفعل حدث ما توقعه الفتى.. وصار مليونيرًا.. الحقيقة أنه لم يكن يتنبأ، ولكنّه وجد جريدة بريطانية في بطن سمكة قرش اصطادها على شاطئ الأطلنطي.. والجريدة كانت تحكي عن قيام الحرب في أوروبا..

طبعا قبل اختراع البرق والهاتف والمذياع، كانت آمريكا ستعرف بالخبر بعد شهر على الأقل حين تصل السفن البريطانية إلى سواحلها، أمّا الفتى فعرف القصة بعد أسبوع واحد!

الرجل الذي يتنبأ بالغيب ستكون حياته كلها تكرارًا لهذه التجربة..

إذن كيف عرف الأخ (فوزي) ما عرف؟

هناك تفسير ما.. لكنه بالتأكيد ليس التنبؤ...

لقد عرفت موقفًا مشابهًا مع د. (لوسيفر) حين كان يقرأ أوراق التاروت، وحسبت أنه يتنبأ.. الحقيقة إنّه كان يقرأ أفكاري ويبنى عليها مستقبلًا لم يحدث.. لم لا؟ إن قراءة الأفكار شيء وارد وثمّة أدلة علمية لا تنفيه إن لم تؤكده.. لكن لا تكلمني عن التنبؤ من فضلك ثم...

جرس الهاتف من جديد...

رفعت السماعة لأجد نفس الصوت يقول لي:

- «نسيت أن أقول لك..»

صحت وقد صعد الدم إلى راسي:

- «اسمع.. لو كنت تبغي التسلية فإن السيرك القومي....»

قاطعني بذات الثبات:

- «لا مزاح هنالك وأنت حر في قرارك.. لكن هناك مريضًا يدعى (عبد الباري المنوفي) في المستشفى وهو يتلقى العلاج الخطأ في هذه اللحظة بالذات.. لو شئت أن تجده ميتًا غدًا فهذا شأنك..»

صحت في مزيد من العصبية:

- «أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم..»

- «ستعرفه لو ذهبت الآن إلى هناك..»

ووضع السماعة ليثير غيظي.. كنت أنا المولع بهذه الأمور فيما سبق..

وهنا بدأت مغامرتي التي تفوق مغامرات (طرزان) في الأحراش، وبطولات الكابتن (كوك) في مجاهل المحيط: الاتصال بالمستشفى..

طبعًا كان هذا مستحيلًا.. أضف لهذا أن الاتصال الهاتفي كان معجزة من المعجزات في ذلك الزمن من منتصف السبعينات.. الآن لم يعد أمامي إلا حل من اثنين: إما أن أتجاهل الأمر وأعتبر هذا المدعى كاذبًا.. وإما أن أذهب إلى المستشفى حالًا..

لو تجاهلت الأمر ولم يكن كاذبًا، حملت دم هذا المريض - نسيت اسمه - على رأسي للأبد.. ولو ذهبت واتضح أن البلاغ كاذب فلسوف أشعر بالحماقة للأبد، توطئة لأن تنمو لي أذنان طويلتان...

طبعا كان الاختيار سهلًا.. إن حمارًا مستريح الضمير لأفضل من قاتل بالإهمال..

وارتديت ثيابي على عجل، واستقللت سيارتي قاصدًا المستشفى... وهي مهمّة ليست سهلة في شوارع القاهرة.. لاحظ أنها الواحدة ظهرًا وقد بدأت الذروة.. الذروة التي ستستمر حتى الرابعة بعد الظهر في أفضل الأحوال..

أخيرًا وصلت المستشفى مغبرًا ممزّق الثياب ملوثًا بالعرق..

هناك كان الطبيب المقيم جالسًا يتكلم مع صديق له، وقد أدهشه قدومي لأن اليوم إجازتي.. قلت له محاولًا التذكر:

- «هل من مريض يدعى.. يدعى؟ إنّه ذلك الذي يتلقى علاجًا خاطئًا الآن.. أنت تفهم هذه الأمور..»

تبادل النظرات مع زميله.. أعرف هذا النوع من النظرات على كل حال..

لم يكن هناك من حل سوى أن أقتاده من معصمه إلى العنابر، ومررنا على أسرة المرضى واحدًا تلو الآخر.. سيكون الأمر معقدًا لأنني سأضطر إلى مراجعة تعليمات العلاج كلها..

لكن الفرج جاء بشكل غير متوقّع..

كان المريض الراقد في الفراش الثالث نائمًا حقًّا.. وقد علقوا جوار فراشه كيسًا من الصفائح الدموية فهو يعاني من النزف إذن..

لكن كانت هناك مشكلة.. إن الخرطوم الذي يتدلى من الجهاز حاملًا الصفائح إلى أوردة المريض.. هذا الخرطوم لم يكن مثبتًا إلى الوريد.. كان يتدلى على الأرض بجوار الفراش ومحتواه من السائل الثمين يسيل في بركة صغيرة ما انفكت تتسع..

المشكلة الأفدح هي أن الإبرة كانت مثبتة في وريد المريض وكانت تنزف دمه بانتظام.. الدم الأحمر يختلط بالصفائح الدموية على أرض العنبر، بينما كان على السائلين أن يختلطا في جسد المريض لا خارجه..

- «ما اسم هذا المريض؟»

- «اسمه.. اسمه..» - ومد يده ينظر إلى غلاف التذكرة - «اسمه (عبد الباري المنوفي)..»

ولم أكن بحاجة إلى السؤال لأني كنت أعرف أنه هو.. بالتأكيد هو بصرف النظر عن الاسم...

مددت يدي وقمت بتثبيت طرف الخرطوم إلى الإبرة لأمنع المزيد من هذه الكارثة..

ثم نظرت نظرة صامتة إلى الطبيب الشاب الذي استحال لونه كلون الليمون.. صاح في هستيريا ينادي الممرضات ويطلب قياس ضغط دم هذا المريض..

كان الإهمال واضحًا جليًا.. الممرضة التي ثبتت الإبرة في ذراع المريض لم تعن بتثبيت طرف الخرطوم فيها، وهكذا كان المريض ينزف دمًا وكيس الصفائح ينزف مالًا..

لو تأخرنا نصف ساعة لفوجئنا بجثة خالية من الدماء، يعجز عن صنعها كل مصاصي دماء رومانيا..

وبعد دقائق بدأ المريض يتحسن.. وأدركت أنه نجا...

لكن ماذا لو لم ينج؟

لابد من عقاب صارم للجميع..

☆ ☆ ☆

وحين دق جرس الهاتف وسمعت صوته، كنت أقل عدوانية:

- «أشكرك على النصيحة.. لو مات هذا المريض لقتلني الهم.. طبعًا أنت عبقري وتعرف أنني أنقذت حياته..»

قال في برود:

- «هدفنا أن نسعدكم..»

هنا قررت أن ينتهي أوان اللّهو وأن نضع كل شيء على بلاطة كما يقولون..

قلت له في جدة ولهجة قاطعة:

- «أنت مفيد.. لكن الوضع لن يظل كذا للأبد.. إن لدي بعض أسئلة.. أولًا من أنت.. ثانيًا كيف عرفت ما تعرفه.. ثالثًا لماذا أنا بالذات؟»

ضحك ضحكته الخفيفة التي لا تمت للضحك لكنّها ابنة عم بعيدة له..

- «تريد أن تعرف هذا كله في الهاتف؟»

- «أريد أن أعرفه ولا يهم أين..»

قال في ثبات:

- «حسن.. لا بد من لقاء.. وفي اللقاء تفهم أغلب الأمور وليس جميعها.. ولكن ليكن اللقاء في مكان أحدده أنا..»

- «اختر أنت المكان..»

وتذكرت باسمًا قصيدة (نزار قباني): انتقى أنت المكان.. انتقي أي مكان..

قاطع الرجل القصيدة قائلًا:

- «المقطم منتصف الليل.. عند....»

قلت في غيظ:

- «لماذا لا تختار الصحراء الغربية أو الربع الخالي أو (ألاسكا)؟ إن المقطم يبدو مكانًا سهلًا أكثر من اللازم..»

- «إذن هو المقطم مادام يناسبك إلى هذا الحد!!»

كدت أصاب بالفالج من الغيظ.. إما أنه يتلاعب بي أو هو مطلق الغباء.. قلت:

- «ولكن أين بالضبط؟»

- «لا تقلق.. فقط اذهب هناك وأنا سأجدك..»

ثم ضحك من جديد ضحكته الخالية من المذاق وقال:

- «لا تنس أنّ هذا عملي!»

☆ ☆ ☆

٥ - فوزي شفيق (٢)..

منتصف الليل إلا قليلًا.. أكره أن أخلف مواعيدي كما تعلمون..

المقطم يقف شامخًا رهيبًا كوحش غاف في الظلام..

الأضواء تلتمع من بعيد وأضواء سيارتي ترتسم على معالم الطريق كأنها تقول لي في كياسة:

أنت أحمق..

هذا يبدو ككمين.. أعرف هذا.. لكن لأي غرض؟ الكمائن تنصب للأثرياء أو الثوار أو الحسناوات أو الطغاة أو الفارين من ثأر.. وأنا لا أنتمي لأي واحد من هذه القائمة، ولست مهمًا إلى حد أن يكون لي أعداء.. إن خصومي - من بقي حيًّا منهم - هم الزومبي والمسوخ والمذءوبون ومصاصو الدماء، وهؤلاء السادة جميعًا يتمتعون بالخيال الخصب وحرية الانتقال.. ليس أحدهم من السماجة بحيث يدفعني إلى لقاء في هذا المكان.. هذه سماجة بشر... فقط البشري يمكن أن تبلغ به القسوة هذا الحد مع كهل مثلي..

ولكن كيف سيجدني هذا العبقري؟

☆ ☆ ☆

أخيرًا وجدت مكانًا يسمح لي بالتوقف.. جذبت فرملة اليد وغادرت السيارة وإن أبقيت كشافاتها مضاءة..

حقًّا كان المكان بهيجًا.. الظلام.. الصخور.. الخواء.. ثم زاد الأمور بهجة أن الضباب بدأ يرتفع في هذه الساعة المبكرة.. الغد سيكون حارًا كما يقول من يفهمون هذه الأمور..

كشاف السيارة يضيء الضباب، فترى الجزيئات المتراقصة السابحة بتلك الحركة (البراونية) التي لا أذكر كنهها بالضبط.. تسمع صوت كائن ما يتردد فيجيبه صوت كائن آخر.. لا.. ليس صرصورًا ولا ذئبًا ولا بومة... إنّه ذلك الكائن الذي لم يوجد بعد، والذي ينتظر أول مريض عقلي يقف هنا وحيدًا ليلًا..

نظرت في ساعتي..

سأنتظر كالأحمق عشر دقائق ثم أغادر المكان لا ألوى على شيء..

عشر دقائق من الحماقة تبدو مناسبة جدًا..

ومن مكان ما كنت أسمع أغنية إنجليزية لا أدري هي لها وجود حقًّا، أم هي تتردد فقط في ردهات عقلي الباطن؟

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا أيها الغريب..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس وقلنا إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

لكن كل شيء ينتهي..

☆ ☆ ☆

ومن مكان ما جاء..

شعرت به قبل أن أراه..

ونظرت إلى الوراء وأجفلت..

كان قادمًا من الجهة العكسية حيث لا تسقط عليه كشافات السيارة، لكن بعض الضوء جعل حدود جسده تتضح.. لا داعي للتخفي أكثر يابني.. أنت الفتى الذي كان جالسًا في المطعم ليلة الحريق.. لن أنسى هذين الكتفين والشعر الثائر على جانبي الرأس.. يثني رسغه بالقداحة بطريقة (جيمس بوند) ويشعل لفافة تبغ..

هذا الفتى غامض مخيف أو يصطنع الغموض...

قلت له مازحًا:

- «هل أحضرت النيجاتيف؟»

ولفظت كلمة (نيجاتيف) بالطريقة الفرنسية كما يلفظها (إستيفان روستي) في الأفلام.. فالموقف كله يوحي بعملية إجرامية. أو كأن صفقة مريبة ستجري الآن: النقود مقابل النيجاتيف..

لكن الغبي لم يفهم الدعابة، وسألني بذلك الصوت الهادئ الذي لن أنساه ما حييت:

- «أي نيجاتيف؟ عم تتحدّث؟»

- «دعك من هذا ولندخل في الموضوع.. أولًا لماذا لا تكف عن هذه الطريقة البوليسية المراهقة وتظهر في النور؟»

كليك.. أشعل اللفافة بحنكة وتصاعد الدخان الأبيض:

- «لا أستطيع.. ولا تسأل عن السبب..»

عدت أسأله سؤالًا ثانيًا من الأسئلة غير المتوقعة:

- «هل أنت د. (لوسيفر)؟»

كان هذا السؤال قد جال بذهني عدة مرات.. أسلوب الرجل المسرحي في العمل يذكرني بـ د. (لوسيفر).. وكأن هذا مقلب ما يدبره لي..

لكني كنت أعرف أفضل.. أعرف أنّ هذا ليس د. (لوسيفر).. لقد اكتسبت خبرة لا بأس بها بهذا الأخير.. صرت أتوقع ظهوره وأستبقه بشكل أو بآخر.. حتى حين يبدل مظهره لم يعد يخدعني كثيرًا..

أعني أن (لوسيفر) يملك هالة معينة أشعر بها بسهولة..

قال الفتى غريب الأطوار:

- «لست هو.. ثق بهذا..»

- «أنت إذن تعرف عمن أتكلم؟»

- «أعرف كل شيء عنك..»

قالها في ملل كأنما هذا كله مفروغ منه...

سألته السؤال الأول الذي لا أتوقع له إجابة واضحة:

- «من أنت؟»

- «أنا (فوزي شفيق)..»

- «أنت تعرف أنني لا أتقيد بحدود اللغة في سؤالي.. من أنت تعني (ما أنت؟)..»

وتذكرت ما يقوله اللغويون.. عندما تقول لصديقك: هل من الممكن أن تغلق الباب؟ السؤال هنا معناه الأمر ولا يطلب المعلومة.. ومن السماجة أن يرد صديقك: نعم يمكنني غلق الباب..

قال في تؤدة:

- «لنقل إنني صديق.. يهمه أمرك.. هل هذا كاف؟»

- «وهذه القدرة التنبؤية الخارقة التي تتمتع بها؟»

أطلق سحابة كثيفة وقال:

- «موهبة إلهية كرهت أن أستأثر بها.. إنني ألعب مع الناس دور الأب الذي يهديهم العلم.. والعلم هو أثمن سلاح يمكن أن تقدمه لخراف تمشي نحو الهاوية.. بعد هذا فليتصرف كل واحد كما يحلو له..»

- «هذا يقودنا إلى السؤال الأخير: لماذا أنا بالذات؟»

أضواء سيارة ترقرقت من بعيد، ودوي صوت محرك، وسمعنا صوت شباب يتضاحكون من داخل سيارة! قال وهو ينظر باتجاه الصوت:

- «حادث مؤسف آخر بسبب السرعة! إن هؤلاء الشباب لا يتعظون!»

- «هل تعني أنّ هذا سيحدث لهم الليلة؟»

- «بالتأكيد..»

ونظر في ساعته وغمغم:

- «بعد عشر دقائق من الآن وهم عائدون من المقطم.. سيموت أربعة ويقضي الخامس حياته على مقعد متحرك!»

- «ولماذا لا تنذرهم؟»

ضحك ضحكته الخالية من معنى الضحك، وقال:

- «وكيف ألحق بهم؟ ثم إنهم ـ بشكل ما ـ يستحقون ما سيحدث لهم..»

عدت أكرر سؤالي الأخير:

- «لماذا أنا بالذات؟»

- «ومن قال لك إنِّه أنت بالذات؟»

ثم أطلق المزيد من الدخان وقال بصوت أجش:

- «هل تعرف (محمود زاهر)؟»

هنا فهمت.. هذا هو التفسير الثاني بعد استبعاد تسرب أسئلة الامتحان...

- «أنت أعطيته أسئلة الامتحانات كلها؟»

- «كلها.. وقبل أن يخط أستاذ أي مادة حرفًا من أسئلتها.. وقد قضى الفتى ساعات طويلة يتدرب على الإجابة عشر مرات، وبحث عن الإجابات المثلى في أكثر من مكتبة..»

ثم قال في سخرية:

- «طبعًا لن تستطيع أن تدينه أو تثبت شيئًا.. أتمنى أن أرى وجهك وأنت تطالب بمجلس تأديب الطالب عرف أسئلة الامتحان مستعينًا بعراف!»

- «هذا يقودنا لسؤال آخر... لماذا هذا الفتى المحظوظ دون سواه؟ وكيف تعرفك؟»

- «أنت تسأل أسئلة كثيرة..»

وطوح ببقايا لفافة التبغ من فوق المنحدر، وأردف:

- «لن تحصل على إجابات واضحة.. فلا تضيع وقتك... أنت تذكر نصيحة (محمود زاهر) لك بأن تأخذ الحذر مساء يوم ١٧ يونيو.. الجمعة.. هذه نصيحة مخلصة صادقة وأنا مصدرها.. لقد أرغمت الفتى على أن ينذرك.. والحقيقة أنني أرثي لك.. إن ما أنذرك منه لهو أسوأ نبوءة رأيتها في حياتي، وقد أصابني هلع حقيقي حين رأيتها... وما كان بوسعي ألا أخبرك بها..»

برغم أنني لا أصدق حرفًا، فإن الدم تجمد في عروقي.. الرجل يتكلم بثقة بالغة إلى حد أن كلامه صار ذا رأس وعنق وذيل.. صار ثلاثي الأبعاد..

سألته بصوت حاولت أن يكون ثابتًا:

- «هل لي أن أعرف ما سيحدث؟ حريق آخر؟ نوبة قلبية؟»

- «إذن لما كنت تجشمت عناء إنذارك.. الحقيقة إن بوسعي أن أنذر وألمح لكني لا أستطيع أن أعطي تفاصيل..»

- «يا سلام! ولماذا صارحتني باحتراق الدجاجة؟ هل أنت مختص بالدجاج فقط؟»

- «صارحتك بعد احتراقها! وعلى كل حال لست في حل من أن أعطيك تفاصيل.. ليس في أمور مهمّة كالموت والحياة.. فقط خذ الحذر..»

نظرت لساعتي ذات التقويم، فوجدت أننا في نهاية شهر مايو.. هناك أكثر قليلًا من أسبوعين قبل أن تقع الواقعة..

قلت له وأنا أستند إلى باب سيارتي المفتوح:

- «حسن.. هل تعرف ما أفكر فيه؟»

- «طبعًا.. تفكر في أنني نصاب!»

ابتسمت وقد تذكرت قصة الرجل - أعتقد أنه (أشعب الطفيلي) - الذي ادعى النبوة، وأعلن للناس أنه قادر على مصارحتهم بما يفكرون فيه.. طلبوا منه أن يخبرهم، فقال: تفكرون في أنني كاذب؟

أردفت وأنا لا أغالب الابتسام:

- «يبدو أنك تعلم الغيب فعلًا! لكن لعبتك لعبة لاتخيب.. لو حدث شيء يوم السابع عشر من يونيو لكان السبب إنك عبقري.. إن حياتي خطرة صاخبة ومن العسير ألا يحدث لي شيء.. أمّا لو لم يحدث شيء فالسبب هو أنني أخذت الحذر.. لو حدث شيء فأنت أنذرت.. ولو لم يحدث شيء فأنا احتطت...»

قال وهو يدسّ يديه في جيبي سرواله:

- «ليكن.. كنت أعرف أنك ستقولها..»

جلست خلف المقود وقلت له في تهذيب:

- «هل أوصلك إلى مكان ما؟»

قال بنفس التهذيب:

- «لا.. شكرًا.. سيارتي قريبة.. وإلا كيف تحسبني جئت؟»

غريب! هذا محبط.. كنت أحسب أولئك العرافين البارعين ينتقلون عبر الأزمان والأبعاد.. ولا ينتظرون الحافلات مثلنا..

وأدرت المحرك وبدأت رحلتي في الظلام شارد الذهن..

السابع عشر من يونيو.. ماذا في السابع عشر من يونيو؟ هل في جدول أعمالي شيء ما في هذا اليوم؟ ولكن..

كفى هراء يا (رفعت) أنت تسير في الطريق إلى أن تصدق هذا المدعي..

تصدقه مخالفًا كل قناعاتك السابقة.. الدينية والعلمية وحتّى المنطقية البسيطة..

ولكن....

ما سبب هذا الزحام وهذه الأضواء على جانب الطريق؟ ضوء أحمر دوار من الطراز الذي يحيل الليل جحيمًا.. (في لهيب الليل).. عنوان فيلم أمريكي شهير أتذكره على الفور كلما رأيت مشهدًا كهذا.

ثمة سيارة إسعاف لا تكف عن الولولة.. وسيارة أخرى مقلوبة ويبدو لي أنّ هناك عددًا لا بأس به من الضحايا.. و....

لا.. لن أتوقف لأعرف ما إذا كان أربعة قد ماتوا والخامس سيقضي حياته على مقعد متحرك..

لو توقفت لكان معنى هذا أني أصدق..

وأنا لا أريد أن أصدق..

رباه.. أنا لا أريد أن أصدق..

☆ ☆ ☆

٦ - محمد مرزوق..

جالسًا في ذلك المقهى الذي اعتدت أن أرتاده في الآونة الأخيرة، كان صديقي (محمد مرزوق) المحامي - كما يحبّ أن يُطلق على نفسه. جالسًا يدخن النرجيلة ويثرثر..

كان رجلًا في الخمسين من عمره لم يتزوج بعد مثلي، لم أكن أعتبره صديقًا.. أنتم تعرفون أنني كثير المعارف قليل الأصدقاء، لكنه كان مصرًّا على أنه صديق وصديق عزيز.. حتى إنني بدأت أقتنع بهذا الذي يقول..

كان من الطراز الذي يحلق شاربه من أعلى، تاركًا خطًا أسود رفيعًا فوق الشفة العليا يعتقد هو أنه يكسبه جمال منظر لا شك فيه.. وأنا أعرف هؤلاء الذين يحلقون شواربهم من أعلى.. إنهم يملكون ذات الأفكار ويقولون ذات الكلام...

والحقيقة أنه كان كثير الكلام بحيث إنني أشك إن كان يعرف اسمي أو عملي.. فهو لا يسمح لي بأن أفتح فمي لأقول شيئًا واحدًا، وآراؤه في الحياة جاهزة في كل ثانية بلا أدنى ترتيب مسبق.، كما أنّ صوته العالي هو دعوة لكل إنسان كي يشارك في الحديث معنا.. الحقيقة هي أن (محمد مرزوق) رجل سعيد.. لقد حل كل ألغاز الكون ومشاكله ببساطة وهو جالس في المقهى يدخن.. ولا توجد لديه ألغاز ميتافيزيقية أو مشاكل أو دواع للاكتئاب..

وكنت أتحمله لأنني أحب هذا المقهى.. ثم إنني بين نارين: نار الوحدة ونار ثرثرته.. أحيانًا أفضل إحدى النارين على الأخرى..

في هذا اليوم كان صوت مذياع المقهى عاليًا كصراخ الشيطان في الجحيم، وكان صديقي هذا يتبارى معه في الصوت العالي، حتى إنني شعرت بأنني سأفقد الوعي أو أن رأسي سينفجر حالًا ليغرق الموائد حولنا بشظايا العظام وفتات المخ..

- «ولكن دعني أؤكد لك يا دكتور أنّ هذا الجيل الجديد قليل الأدب.. جيل الشباب قليل الأدب يفتقر إلى المثل الأعلى.. نعم.. هذا جيل قليل الأدب، وأعتقد أنّ بعض الصفعات يمكن أن تصلح الأمور.. في طفولتنا كنا على خلق وكنا نحترم الكبير.. وكنا متفوقين في الدراسة ومطيعين في البيت.. نعم.. كنا مطيعين في البيت.. لكن هذا الجيل الذي يطيل شعره كالفتيات.. ثم خذ عندك هذا الرقيع (توم جونز).. إنهم..»

كنت أوافقه وأنا لا أعي إلا عشر ما يقول.. وعيناي تجولان في المقهى...

ثم تصلبتا..

هناك جوار صاحب المقهى الجالس يسخن النرجيلة ويعد الفيشات، وجدت ذلك الرجل.. ذات الرجل.. ملامحه الآن واضحة جلية وأعرف بالتأكيد أنه هو..

رآني فرفع يده ملوحًا بحركة أنيقة دون أن يتخلى عن مبسم النرجيلة في فمه.. طبعًا هذا مقهى، لهذا تجد كل الجالسين تحولوا إلى مصاصات دخان حية..

رفعت يدي بحركة عصبية محييًا، ثم تقلصت معدتي..

أكره هذا الشعور بالمراقبة. أكره الوجوه التي تقابلها في كل مكان..

وكان (محمد مرزوق) المحامي ما زال يتكلم عن قلة أدب الشباب ووقاحتهم...

بعد دقائق نظر إلى ساعته وأعلن أنه تأخر، وأنه سينام مبكرًا لأن عنده جلسة صباح غد.. وكانت هذه أجمل لحظة في لقائنا لأنّه يتركني وحيدًا، بعدها أشرب قدحًا أخيرًا من القهوة وأعود لداري.. بشكل ما أعتبر هذه (قهوة الصباح) لأن منتصف الليل هو بداية يومي..

خلا المقعد لدقائق.. وكنت أعرف ما سيحدث..

هذه المرّة نهض الأخ (فوزي شفيق) الذي صار في موضع بارز من عالمي في الفترة الأخيرة.. نهض واتجه إلى المقعد الخالي وجلس عليه..

لم تكن ملامحه غريبة أو توحي بشيء ما.. كان من طراز الأشخاص الذين يصعب تذكر وجوههم لأنّه ما من علامة مميزة هناك.. لا شارب، لا نظارة.. الأنف ليس ضخمًا.. العينان بلا لون خاص..

قلت له دون مقدمات:

ـ «لا أراك حريصًا هذه المرّة على الظهور في الظلام..»

ابتسم وقال:

ـ «أعتقد أن عليك أن تعرفني أكثر..»

ثم أضاف بلهجة ذات معنى:

- «هل هو صديق عزيز؟»

فهمت أنه يتكلم عن (محمد مرزوق)، فقلت بلامبالاة:

- «زميل..»

ابتسم من جديد وبلهجة ذات معنى قال:

- «أرجو أن تكون ودعته جيدًا!»

☆ ☆ ☆

سقط محتوى القدح على سروالي، وبصعوبة تمالكت نفسي.. صحت في غضب:

ـ «تبًا! ألن تكف عن هذا الهراء؟ لا أعرف مخبولًا إلا وشفي أو مات.. وأنت مازلت مصرًّا..»

قال في شيء من دهشة كأنه أهين:

- «حقًّا لا أفهم سبب كل هذه الفظاظة.. لم أقل شيئًا إلا أنّ هذا الرجل سيموت..»

- «لم تضف جديدًا.. كلنا جثث تمشي على قدمين.. هل قرأت المحاكمة لـ (كافكا)؟»

قال في ضيق:

ـ «أنت تعرف أنني أتحدث على المدى القريب لا البعيد.. بالتحديد هذا الرجل سيموت بعد ثلاث ساعات..»

- «أنت عبقري.. وكيف سيموت؟»

- «لا أستطيع البوح بالتفاصيل..»

- «ربما كنت على حق لو أنك تزمع قتله..»

- «أنت حر.. لقد أخبرتك بما أعرفه وانتهى الأمر..»

ونهض في كبرياء عائدًا إلى موقعه السابق وعاد يمتص الدخان من مبسم النرجيلة دون أن ينظر لي..

من الواضح طبعًا أن مزاجي قد تعكر تمامًا بحيث صار من العسير أن أكمل قهوتي، دعك من أن أكثرها انسكب على السروال بالفعل.. لهذا نهضت وغادرت المكان..

الليل الرطب المنعش حولي والظلام أمامي.. ومن ورائي صوت الضحكات والبصقات وقرع فيشات الطاولة.. أبتعد عن دائرة الصوت والضوء لأدخل دائرة الصمت والظلام...

ماذا أفعل؟

من الواضح أن عليَّ - لو كنت أحترم نفسي - أن أذهب لبيتي وأنام قرير العين..

لكن من الواضح أنني لن أفعل.. لا يعني هذا أنني لا أحترم نفسي، لكني موسوس بشكل لا يمكن وصفه.. حقًّا إن للخزعبلات هيبة برغم كل شيء.. ذات مرة كنت في غرفة ومعي صندوق فيه

رأس (ميدوسا).. وكنت أعرف أنه لا يوجد شيء اسمه (ميدوسا) لكني لم أجسر على أن أنظر داخل الصندوق..

هكذا رحت أجوب الطرقات أتأمل المحلات المضاءة، عاجزًا عن اتخاذ القرار الصائب..

وفي النهاية حدث ما لابد أن يحدث..

☆ ☆ ☆

بعينين آذاهما النور، فتح الباب وتأملني غير مصدق:

- «غريب هذا.. خير؟»

كان (محمد مرزوق) يرتدي - كما توقعت - منامة مخططة بخطوط خضراء طولية، وعلى رأسه قلنسوة صوفية برغم أننا في الصيف تقريبًا. وكان يمضغ شيئًا ما..

قلت له في حرج:

- «لا شيء.. كنت قلقًا.. شعرت بأنك مريض حين كنا في المقهى..»

أشار لي كي أدخل.. كانت الصالة مضاءة تتوسطها مائدة عليها رغيف خبز وطبق فول تم انتهاكه وبعض البصل.. وقال وهو يكور لقمة أخرى ليلقيها في فمه:

- «هل تتناول العشاء معي؟ لا؟ ليكن.. من قال إنني مريض؟ لم أشعر قط بأنني أفضل حالًا..»

طبعًا لم يكن لديَّ أي مبرر لبقاء أكثر.. هو قال إنِّه مشغول غدًا، والكلام عن نبوءة ليس من الأمور التي يستيقظ لها الناس ليلًا..

في اللحظة التالية وجدت زجاجة (أسترا) الساخنة في يدي.. كان هذا من المشروبات الغازية المحببة وقتها، ولسبب ما لم يكن يقدم إلا ساخنًا.. جرعتها وأنا واقف أحاول أن أتملص.. ثم تجشأت وحييته وأعلنت أنني راحل.. لم يبد على استعداد لأية درجة من النفاق..

قلت له وأنا أقف على أعلى الدرج:

- «على الأقل لا تنس واجب الحذر.. أنت تعرف رقم هاتفي.. لو شعرت ببدايات النوبة القلبيّة أو سكرة الموت، فلا تتردد في أن تطلبني..»

- «فأل الله ولا فألك..»

لا أدري ما الذي ضايقه في كلامي برغم أنه ملفوف بالرقة والاهتمام...

☆ ☆ ☆

- «ثلاث ساعات.. ثلاث ساعات..»

هو قال ثلاث ساعات..

كنت جالسًا في فراشي أقرأ بعض الأوراق الطبية.. جواري جهاز التسجيل الجديد الذي ابتعته والذي ينبعث منه صوت (عبد الوهاب)... وعلى الكومود قدح من القهوة لتساعدني على النوم.. والقلم في يدي، وعشرات الخواطر السوداء هناك..

الثانية بعد منتصف الليل.. هذا يعني أن أمامي نصف الساعة.. أو أمام صاحبى بعبارة أدق..

ماذا دهاني؟ أبعد كل هذا العمر والخبرات أصدق حرفًا من هذا الهراء؟ لقد صدقت الكثير من قبل، لكني ظللت متصلبًا أمام أمور لا يقبلها الدين أو المنطق أو العلم.. لا تحدثني من فضلك عن آلهة وثنيين ولا عن مغناطيس يجذب النحاس، ولا عن رجل يتنبأ..

لا أدري كيف نمت.. كيف انزلقت قدماي لاشعوريًا إلى ذلك العالم الغامض..

فقط كنت هناك، وكانت هناك آلاف الأصوات تقول لي: فات الأوان.. فات الأوان!

ومن مكان ما رأيت رجلًا يبدو كأنه من بلاط (لويس الرابع عشر) إن لم يكن هو (لويس الرابع عشر) شخصيًا، وقد ابتسم وقال لي: كان يجب أن تصدق..

ثم شعرت بأن الأرض تميد تحت قدمي، وانزلقت إلى ما لا نهاية.. حلم السقوط.. أقدم الأحلام البشريّة وأشهرها.. وكنت أعرف طبعًا أنني - كالعادة - سأصحو في الفراش مذعورًا قبل أن ألمس قاع الحفرة.. حتى في الكوابيس أظل ملاحظًا جيدًا..

بالفعل صحوت ونظرت إلى الساعة.. الثانية والنصف..

لا أدري.. لكن كل شيء في كياني يقول لي إنّه يجب أن أتأكد..

ماذا سيقول لو سمع صوتي أعيد الاطمئنان في الثانية والنصف صباحًا؟ ليكن.. سيقول إنني مجنون وإن الوحدة دمرت جهازي العصبي.. وماذا في ذلك؟ كم من سباب تلقّيت وأنا أقود سيارتي، فهل غيّر هذا شيئًا أو أنقص من قدري؟

الهاتف الحكومي الأسود البارد.. أدير القرص.. كريك.. كروووووو.. كريك... كروووووووكريك.. كروووووو..

- «ألو.. من؟»

بصوت ناعس ثقيل منزعج..

- «هل أنت بخير؟»

هذه المرّة بلغ غضبه حدودًا غير قابلة للنشر.. لا تنس أن هؤلاء الذين يحلقون شواربهم من أعلى يغضبون أسرع من سواهم...

- «أنت مجنون بالتأكيد.. قلت لك إن لدى قضية.. ق.. ض.. ي.. ة!»

وخطر لي - باسمًا - أنني ربما ساعدت في تحقيق النبوءة لو أنه أصيب بنوبة قلبيّة الآن..

- «تجدني قلقًا.. هل أنت متأكد من أن....»

- «لم يحدث (زفت).. والآن هلا حاولت أن تنام قليلًا؟ إنني....»

هنا سمعت دقات الجرس..

عنده لا عندى طبعًا..

قال في ضيق:

- «وما هذا أيضًا؟ انتظر..»

صحت مذعورًا بأعلى صوتي:

- «لا تفتح الباب.. تأكد أولًا من....»

لا جدوى.. لقد ترك السماعة.. ثم سمعت صوته قادمًا من بعيد.. يتساءل في زمجرة:

- «من؟»

طبعًا لم أسمع صوت الطرف الآخر، لكني سمعت المزلاج يتحرك مع جملة من أصوات المفاتيح التي تدور في الأقفال.. ثم:

- «لماذا جئت في هذه الساعة بالذات؟»

ثم:

- «آي ي ي ي ي ي ي!!»

صوت معركة.. صوت ارتطام....

صوت خطوات تجول في الصالة.. ثم لا شيء..

لقد عادت السماعة إلى موضعها السابق....

☆ ☆ ☆

٧ - هدى شوقي..

الغرفة مفعمة بدخان التبغ الذي تجمد في الهواء تمامًا، وراح ينذر بهطول الأمطار.. فقط كانت الدوامات تتحرك كلما تنقل أحدهم في الغرفة من مكان لآخر.. عندها يُمكنك أن تدرس الحركة الدوامية بدقة بالغة..

كانوا جميعًا يلبسون القمصان مشمرة الكمين وربطات العنق، وقد تدلت لفافات التبغ من فم كل واحد كأنها جزء من تشريح الفم ذاته..

وكان كبيرهم الذي يدنو من الخمسين ـ على قدر تصوري - يصغي لي في اهتمام وهو يعبث بقداحة في يده.. يشعلها ويطفئها بلا انقطاع..

من جديد عاد يسألني:

ـ «أنت إذن مصر على أنك سمعت القاتل وهو يقرع جرس الفقيد في الثانية والنصف صباحًا. لكنه لم يلفظ اسمه..»

- «بالتأكيد يا سيدي..»

- «هم م م م م!».

سألني أحد الشباب المتحمسين العصبيين قليلًا:

- «وهذا يرجح أن الفقيد كان يعرف القاتل..»

قال أكبرهم بلهجة المعلم:

- «ليس هذا ضروريًا يا (علاء).. ربما كانت لدى القاتل حجة قوية ترغم صاحب الدار على فتح الباب.. وهو لا يعرفه.. لاحظ أن الفقيد محام وربما أخبره القائل أنه جاء ليبلغه شيئًا بصدد قضية مهمّة..»

قلت لهم في إصرار ما قلته عشر مرات:

- «القاتل يدعى (فوزي شفيق).. ولا أحد سواه..»

- «تقول إنّه أخبرك بموعد الوفاة قبل أن تحدث..»

- «نعم يا سيدي.. وهذا يعني أنه هو القاتل أو من أرسل القاتل..»

فكر كبيرهم كثيرًا وراح يفتح القداحة ويغلقها مرارًا.. ثم فك ربطة عنقه أكثر وقال:

- «وأنت لا تعرف عنوانه.. ولا من هو..»

- «لا يا سيدي.. لكنه ـ كما قلت - يتصل بي بانتظام.. وإنني لأطلب....»

- «نعم.. نعم.. مراقبة هاتفك.. لقد طلبنا إذن النيابة..»

عدت أقول وأنا أجاهد للبحث عن أكسجين وسط كل هذا الدخان:

ـ «ثمّة نقطة مهمّة أخرى.. القاتل ترك بصماته على الهاتف.. أنا متأكد من هذا وإلا كيف عادت السماعة إلى مكانها؟»

- «أخدنا البصمات من كل شيء.. لكن هذه الأمور تستغرق وقتًا..»

فرغت من قهوتي فوضعتها في الطبق، ونظرت لهم متسائلًا..

قال العميد (سليمان) وهو يصافحني بيد قوية، وعينين مرهقتين لكنهما تشعان ذكاءً مخيفًا:

- «يُمكنك الانصراف يا دكتور.. وأرجو أن تطمئن..»

☆ ☆ ☆

الآن صارت الأمور واضحة بالنسبة لي..

كنت أبحث عن عراف عبقري فإذا أنا أمام قاتل ومجنون حرائق.. هذا هو التفسير الوحيد ولا تفسير سواه.. في المطعم كان هناك والاحتمال أنه وضع شيئًا هناك ثم انصرف.. شيئًا يشعل النار بعد قليل..

مقتل صديقي - بل زميلي - المحامي الذي يحلق شاربه من أعلى.. طبعًا أفضل من يخبرك بالموعد الذي سيموت فيه فلان، وهو قاتل فلان نفسه.. هذا هو التفسير الوحيد..

الامتحان؟ لم لا يكون هناك تسرب؟ هذه الأمور تحدث..

الدجاجة؟ لن أتخلى عن قناعاتي وفلسفتي لمجرد أنّ هناك من أخبرني أن دجاجتي تحترق.. الآن صار على رجال الشرطة أن يجدوه، وهذا مرهون بمكالمته التالية لي، وهي آتية لا محالة لأنّه لن يطيق ألا يتكلم ويبدو بمظهر العليم ببواطن الأمور...

ووقفت في الشرفة أرمق الشارع الخالي وأقول لزميلي المحامي الذي يحلق شاربه من أعلى:

- «لا تقلق.. لسوف نظفر بقاتلك.. الآن تعرف أنني لم أكن مجنونًا وأنه كان من الغباء أن أتركك عائدًا لداري... لربما لو بقيت معك ساعتين أخريين لاستطعنا منع القاتل من التنفيذ.. يجب أن تتعلم أن تثق بالعجوز (رفعت إسماعيل) وأن تصغي له في المرّة القادمة..»

هل هذا صوت الهاتف؟

نعم.. هو..

لم أعتد أن أسر بصوت الهاتف كما صرت اليوم..

كالملسوع جريت إليه ورفعت السماعة، وكان صوته الهادي الواثق:

- «مساء الخير..»

قلت دون أن أرد التحية:

- «أنت قتلته..»

- «بالطبع لا..»

ثم أضاف في برود:

- «لا تضع آمالًا عريضة على هذه المكالمة فأنا أتكلم من هاتف عمومي..»

كيف خمن؟ لكن.. لا.. هذا مجرد حدس يمكن أن يصل إليه بالاستنتاج المنطقي..

لم أرد فعاد يقول:

- «الآن وقد تمت المأساة ولم تبذل جهدك لمنعها فإنني..»

- «لحظة.. من قال إنني لم أبذل جهدي؟»

- «لم تبذل وإلا لكنت معه عندما دخل القاتل الشقة وطعنه في عنقه.. أنت جربت إقناعه بنصف قلب... بنصف عقل.. والسبب هو أنك لم تصدق.. يذكرني هذا بالقس الأمريكي الذي دعا الناس كي يحتشدوا في الكنيسة ليصلوا طلبًا للمطر.. حين جاء المصلون اتهمهم بنقص الإيمان... السبب هو أن أحدًا منهم لم يحضر معه مظلة وهو قادم للكنيسة.. لو كان مؤمنًا حقًّا لاستعد لمواجهة الأمطار الغزيرة في طريق العودة!!»

قلت في غيظ:

- «كف عن خلط الأمثلة والتلاعب بالألفاظ.. أنت لست دينًا كي أؤمن بك.. أنا لم أضيع لحظة واحدة أصارحك فيها بأنك نصاب..»

ثم أضفت في خبث:

- «لاحظ أن الحادث لم يجد طريقه للصحف بعد، وبرغم هذا أنت تعرف كل شيء عن الطعنة في العنق..»

ضحك كثيرًا جدًا بلا ضحك في الواقع وقال:

- «طريقة القصص البوليسية السخيفة.. أنا لم أطلق الرصاص على اللورد يا سيدي المفتش.. آه ه ه ه! كيف عرفت أنه قتل رميًا بالرصاص يا مستر (ويليامز)؟ معنى هذا أنك القاتل...»

- «هل تجد طريقة أخرى للتفكير؟»

- «وماذا لو كان المستر (ويليامز) قادرًا على التنبؤ؟»

ثم أضاف قبل أن أعلق:

- «دعنا الآن نكف عن السخف.. واضح أنك أحمق وأن الخطر قادم نحوك لا محالة.. لهذا سأعطيك فرصة أخرى..»

وأخذ شهيقًا عميقًا وأضاف:

- «لا تثق بـ (هدى شوقي)..»

بعد تفكير وجدت أنه على حق.. من ذلك المجنون الذي يثق بـ (هدى شوقي)؟ خاصة أنني لا أعرف أية واحدة تدعى (هدى شوقي)..

قلت له في صبر:

- «لم أسمع عنها قط..»

- «ستسمع.. ستسمع.. والآن سلام..»

ثم قبل أن أضع السماعة سمعته يواصل الكلام:

- «كدت تنسيني أهم شيء في هذه المحادثة المسمومة... قل لرجال الشرطة أن يبحثوا عن (مصطفى غازي).. إن أوراقه موجودة في مكتب صديقك المحامي.. موعدك اقترب جدًا.. أرجو أن تفكر بعناية..»

- «شكرًا..»

- «ولا تنس اللبن على الموقد!!»

☆ ☆ ☆

قالت (هدى شوقي) وهي ترفع بعض الخصلات عن وجهها:

- «أنا (هدى شوقي).. جارتك في الشارع..»

نظرت لها في غباء، ولم أشعر بأنني رأيتها من قبل..

قالت وقد رأت الغباء المجسد على ملامحي:

- «أعرف.. أنت منغلق تمامًا ولا تلاحظ أي شيء في الشارع. لكنني جارتك منذ خمسة أعوام.. أنت د. (رفعت إسماعيل).. تسكن في البناية ذات المدخل الرخامي الأسود..»

كانت المعلومات دقيقة.. وكانت رائعة الجمال إلى حد أنني لم أجرؤ على النظر لها مباشرة.. النظر إلى الشمس اللاهبة أسهل..

لهذا نظرت في ضيق إلى موظف البريد الذي راح يختم عشرات المظاريف، كأنني نصب تذكاري لا أهميّة له.. كان الطقس حارًا ومكتب البريد مكتظًا بالناس وقد بدأت عدوانية الزحام تحول الواقفين إلى مجموعة من الدجاج في (عشة) ضيقة.. حتى توقعت أن يبدأ بعضنا ينقر البعض في العنق.. أو أن أعتلي المنصة الرخامية لأصيح كالديك..

كانت تحمل في يدها عددًا من الجنيهات.. وقد بدت حائرة..

قلت لها في ذكاء:

- «تريدين تجميدها؟»

هزت رأسها في أناقة:

- «أرسل عشرة جنيهات لخالتي في (البلد) أول كل شهر.. هي لا تقوى على إجراءات الحوالات البريدية»

مددت يدي إلى جيبي أفتش عن ورقة من ذات الجنيهات العشرة.. ها هي ذي واحدة..

ناولتها إياها وناولتني الجنيهات.. ورأيتها تخرج مظروفًا كتب عنوان ما وأُلصق طابع بريدي عليه فدست الورقة فيه ثم ألصقته بلعابها واستعدت لتناوله للموظف.. هنا كنت قد انتهيت من العد مرّتين بذلك الشكل المجامل الذي لا يوحي بأنني أعد..

- «إحم.. هذه ثمانية جنيهات..»

بدا عليها الذهول وطلبت مني في إلحاح أن أعاود العد:

- «كيف؟ أنا متأكدة..»

- «صبرًا.. واحد... اثنان.. خمسة.. ثمانية.. الرقم صحيح..»

أطلقت زفيرًا حارًا من بين شفتيها.. ورفعت عويناتها السوداء لتستقر على مقدمة رأسها، وقالت في ضجر:

- «أووووووف! تبًّا.. ليس معي المزيد من المال، وليس معي مظروف أو طابع آخر.. هذا مستفز..»

قلت في ملائكية وأنا أوشك على دسّ الجنيهات في جيبي:

- «لا مشكلة.. تقولين إننا جاران وهذا..»

- «بل أنا مصرة على التسوية..»

وبحزم أضافت وهي تأخذ الجنيهات الثمانية من يدي:

- «من فضلك يا دكتور.. أنت لا تمنحنى بقشيشًا..»

ثم مدت يدها فناولتني المظروف الذي كان في يدها:

- «هاك.. سأحضر لك باقي مالك من السيارة بالخارج.. لكن أرجوك أن تحتفظ بهذا المظروف.. فورقة الجنيهات العشرة فيه..»

وابتسمت في ثقة وشقت طريقها وسط الزحام...

هذه أنثى واثقة سريعة البديهة وعلى قدر عالٍ من الكبرياء... لو كانت واحدة أخرى لقبلت تطوعي بالتضحية.. لكنّها ترفض أن تأخذ شيئًا من دون ثمن..

طبعا انتظرت ساعتين بانتظار عودتها دون جدوى..

طبعا لم أجسر على فتح المظروف إلا بعد ساعة أخرى..

وطبعا لم أجد بداخله إلا ورقة بيضاء..

وقد قال لي أحد أصدقائي في الشرطة حين حكيت له هذه القصة:

- «هذه الطريقة في النصب متبعة منذ عام ١٤٥٦م، وكل طفل في السابعة يعرفها.. هل كنت تعيش في كهف طيلة هذه الأعوام؟»

- «تقريبًا..»

- «إنها استبدلت بالورقة المالية تلك الورقة البيضاء خلسة، وأنت تبتسم في بلاهة وأمومة كالموناليزا.. هكذا سلبتك جنيهاتك العشرة واستردت مالها.. ومن الواضح أنها كانت تعرف شيئًا عنك وعن سكنك.. لا بد أنها اختارتك أنت من بين كل عملاء مكتب البريد.. ويبدو أنها كانت على حق..»

ثم سألني باسمًا:

- «هل ترغب في أن تكتب محضرًا؟»

صحيح أن عشرة جنيهات كانت مبلغًا فادحًا في ذلك الوقت، لكني لم أكن متحمسًا إلى هذا الحد..

فضلًا عن أنني لا أحب أن أسجل حماقاتي على الورق الرسمي..

- «لا شكرًا...»

وهنا تذكرت اسمها.. (هدى شوقي).. لا تثق بـ (هدى شوقي)... هذا هو الإنذار الذي قدمه لي (فوزي) وبالطبع نسيته تمامًا ونسيت الاسم، فلم أتذكره إلا الآن..

لا أريد من هذا كله استخلاص حقيقة أنني أحمق سهل الخداع، فكل طفل يعرف هذا.. لكني أردت القول إن ذلك الرجل يعرف حقًّا ما يتكلم..

(فوزي شفيق) يرى الغد حقًّا..

☆ ☆ ☆

٨ - فوزي شفيق (٣)..

الغرفة مفعمة بدخان التبغ الذي تجمد في الهواء تمامًا، وليست هذه غلطة جعلتني أكرر ما قلته في الموقف السابق... السادة المدخنون يلتفون من حولي.. لكني هذه المرّة لست مركز الاهتمام...

مركز الاهتمام رجل قصير القامة، يجلس في المركز وفي يده لفافة تبغ ترتجف قدمها له أحد الضباط ليهدئ من روعه قليلًا.. عيناه زائغتان ككل القتلة الذين ترى صورهم في صفحات الحوادث.. والأمر بالنسبة لي لا يحتاج إلى المزيد من التحقيق..

عاد أكبر الضباط يسأله:

- «أنت مصر على أنك لم ترَ الأستاذ (محمد مرزوق) منذ شهر. أليس كذلك يا (مصطفى)؟»

- «بلى يا سيدي.. أقسم إنني..»

رفع الضابط يده ليخرسه:

- «قبل أن تقسم أيها الزنديق.. دعنا نؤكد لك أنك شوهدت في الشارع ليلة الجريمة بالضبط..»

كانت دموعه جاهزة بضغطة زر، وقد ضغط عليه لتنهمر الدموع مدرارًا:

- «وماذا في ذلك ياسيدي؟ هذا شارع عمومي..»

- «وبصماتك الموجودة في كل مكان من الشقة؟ وعلى سماعة الهاتف..»

لم يجد ما يقول فبادره الضابط الثاني المدعو (علاء):

- «أنت قتلته.. كنت تعرف أنه سيفتح الباب لأن قضيتك مازالت طازجة.. فما إن استجاب لرجائك حتى فتح الباب، وانغرست السكين في عنقه..»

- «هذا ظلم!»

- «كنت متهمًا بالسطو المسلح واستطاع هو تبرئتك لأنّه حسب أنك مظلوم.. لم يعرف أنه أطلق سراح الأفعى التي ستعضه..»

قال الرجل وقد تصاعد أداؤه بأسلوب (كريشندو) المسرحي المعروف:

- «حرام. حرام.. هذا ظلم!!»

- «وكنت تعرف أن الفقيد يعيش وحده، وأنه سيفتح بابه لك في أي وقت، وأنه في الغالب يحتفظ بمبالغ مالية ضخمة في بيته..»

الآن وصل الأداء لدرجة الذروة العبقرية، فنهض مغطيًا وجهه بيديه:

- «أنا بريء! بريء! بريء..»

وكانت هذه هي اللمسة الاحترافية المطلوبة لأن كل الضباط انفجروا في التصفيق كأنما يرغبون في أن يعد هذا المشهد المحكم..

لما انتهى التصفيق قال (مصطفى غازي) المتهم الوحيد في الجريمة، وهو يقاوم رغبة عارمة في الانحناء للتحية:

- «كان الشيطان أقوى مني.. لقد.. لقد جعلني أقتل الصديق الوحيد الذي وثق بي ودافع عني بحماسة.. وكل هذا.. كل هذا ولم أجد في شقته إلا عشرين جنيهًا..»

- «يا للخسارة! عنقك مقابل عشرين جنيهًا..»

ثم قال كبير الضباط بلهجة مسرحيّة مناسبة للموقف:

- «خذوه..»

وهكذا اقتادوا المجرم إلى مصيره الغامض كما في مسرحيات (سوفوكليس)، على حين ظللت أنا ثابتًا أرقب هذا كله.. وقلت ملاحظة خطرت لي:

- «لماذا لم يرتد القفازات قبل أن يفتش البيت؟»

أشعل كبير الضباط قداحته وأطفأها وقال:

- «لأنّه ليس في إحدى روايات (أجاثا كريستى) حيث المجرمون العباقرة... هذا مجرد حيوان يتصرّف بالغريزة.. ذئب مسعور يمزق من أمامه دون حذر أو تأنيب ضمير.. وهو لا يؤمن بالبصمات وهذا الكلام الفارغ.. على كل حال ما كنا لنفكر فيه إلا بمعجزة، لولا أنك نبهتنا إلى اسمه.. وهذا يعني أن البصمات لم تكن لتفيدنا كثيرًا إلا بعدما وضعنا في ذهننا شخصًا بعينه..».

قلت في تواضع:

- «سيدي.. أنا لم أنبهكم لاسمه.. أنتم سجلتم المكالمة كاملة مع المدعو (فوزي شفيق)..»

- «لكنك أخبرتنا بأمر (فوزي شفيق) هذا.. والحقيقة أننا نحب أن نستدعيه لنسأله بعض الأسئلة.. لكننا لم نستطع تتبع المكالمة، كما أنّ رجالنا لم يعثروا بعد على مكانه...»

ثم نظر لي مبتسمًا منهكًا ففهمت على الفور، ونهضت مستأذنًا..

بالنسبة لي هذه القضية أهم شيء في حياتي، لكنّها بالنسبة لهم مجرد جزء من أجزاء عملهم المعقدة المتشابكة..

☆ ☆ ☆

مر أسبوع دون أن يتصل بي (فوزي شفيق)..

كنت في هذه الفترة ألعب دور الفتاة التي تضايقها مكالمات محب لا تعبأ به على الإطلاق.. فلمّا انقطعت مكالماته بدأت تتوتر وتقلق.. لماذا لا يتصل؟ لكنّها - برغم هذا - لا تعترف لنفسها بأنها قلقة أو تلاحظ..

كنت أتساءل عن سبب انقطاع مكالماته.. ثم أقول لنفسي: ماذا تريد من هذا النصاب؟ كل ما قال يمكن تفسيره منطقيًا.. من أدراك أنه ليس المدبر لهذا كله، وأن (هدى) و(غازي) كانا يعملان معه؟

ثم أقول لنفسي: وما الفائدة من هذا المجهود المضني؟ هل لمجرد أن يثير انبهاري؟ لست الإسكندر الأكبر على كل حال.. هذا الفتى يخفي سرًا مخيفًا رهيبًا.. ولكن ما هو؟

كلا.. لن أنتظر مكالمات (فوزي شفيق) لأنني أظن به الظنون..

لكني ـ كذلك ـ أنتظرها لأني أظن به الظنون!

وحين دق جرس الهاتف للمرة الثانية في عشرة أيام شعرت بضيق لأن هذا البيت تحول إلى سنترال عمومي.. ثم تذكرت أن المتكلم قد يكون هو بالذات.. هرعت في لهفة إليه ورفعت السماعة..

- «آلو..»

قال في استمتاع:

- «أرى أن الحذر لا يمنع القدر.. لقد خدعتك (هدى شوقي)..»

- «دعك من هذه القصة.. إنها مجرد كلام فارغ..»

- «أنا كذلك أرى هذا.. لكني لا أترك فرصة لجعلك تعرف ما أعرفه إلا واغتنمتها.. والآن هل صدقتني؟»

قلت في ضيق:

- «صدقت أنك لغز.. لكني لم أصدق بعد أنك تعرف ما سيحدث..»

في نفاد صبر غمغم:

- «ليكن. يا للملل! أنت حالة غير قابلة للعلاج.. ولكني ما زلت أوصيك بأن تطيعني..»

ثم أردف:

- «بعد دقيقة سيدق جرس الباب، ولسوف تكتشف أن فاتورة الكهرباء مرعبة.. حاول ألا تلفظ أنفاسك الأخيرة..»

قلت في برود:

- «اطمئن.. هذا لن يقتلني..»

- «أعرف أنك لن تموت لسبب كهذا.. لاتنس أنني أعرف ظروف وفاتك جيدًا، لكن ربما خذلني علمي..»

وضعت سماعة الهاتف وأنا أشعر بشيء من التجديف في هذا الذي يقوله.. إن هذا الوغد يزعم أنه أوتي القدرة على معرفة أين ومتى أموت، وهو ما يتجاوز دائرة الغرور إلى دائرة التجديف الصريح..

لكن ما تفسير هذا؟

تررررررن!

جرس الباب..

طبعا هذه فاتورة الكهرباء.. وهي مرعبة.. لقد حاولت ألا ألفظ أنفاسي الأخيرة، وكان هذا صعبًا.. الحقيقة أن مصلحة الكهرباء تفترض أنّ هناك دار سينما أو مصنع طائرات في شقتي.. لكن لا يهم.. المهم هنا هو أن (فوزي شفيق) دقيق كالعادة.. وأنا عاجز عن إيجاد تفسير..

طبعا لا أستطيع الزعم بأنه اتفق مع المحصل أو قام بتزوير فاتورة لي..

(فوزي شفيق) يعرف الكثير عما سيحدث لي فيما بعد، وقد بدأت أتوتر..

☆ ☆ ☆

في الصباح نظرت إلى التقويم.. ثلاثة أيام تفصلني عن ١٧ يونيو.. الجمعة..

لا أرى أنني أتجاوز حدودي لو قلت إنني خائف... لو قلت إنني قلق.. ثمّة شيء ما يعرفه هذا الرجل، وحتّى اللحظة لم يثبت لي أنه مخطئ..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت شركة الطيران.. بضعة أيام في (رومانيا) مع (جوستاف) قد تنسيني هذه الأمور... إن مصاصي الدماء يناسبون صحتي أكثر من أي شيء آخر..

ثم تذكرت.. من قال إنّه لا خطر هنالك في رومانيا؟ إن الموت موجود هناك كأي مكان آخر.. ربما أكثر..

وضعت السماعة ورحت أفكر.. الإسكندرية الجميلة؟ لِمَ لا؟ ولكن من أدراني أن....؟

الحقيقة أنني أكرر سيناريو قصة (موعد في سمارة) الشهيرة لـ (سومرست موم).. التاجر في بغداد يرى الموت ينظر له مندهشًا.. يُصاب التاجر بهلع ويجمع كل أشيائه ويعلن لرفاقه أن الموت

نظر إليه، وأنه يعرف أن نهايته دانية لهذا سيفر إلى بلدة (سمارة) التي يصلها الليلة..

يفر التاجر وبعد قليل يقابل صديقه الموت يمشي في الأسواق.. يقترب منه ويسأله: لماذا نظرت إلى صديقي وأفزعته؟

يقول الموت: كنت مندهشًا لأني قابلته في بغداد بينما المفترض أن ألقاه هذا المساء في (سمارة)!!

هل أنا أكرر هذه القصة؟ أتجه بالضبط إلى حيث يُراد لي أن أكون؟

ومن قال إن كلمات هذا الفتى تحمل قوة الأقدار ونفاذها؟ إن موتي سيكون في ساعة محددة ووسيلة محددة لا يعلمها إلا الله، ولن تتغيرا مهما قال كل عرافي العالم..

لكنني برغم كل شيء أشعر بالحصار.. أشعر بأن ظهري للحائط.. وهو ضعف بشري طبيعي يتحدى المنطق..

ربما أستطيع أن أحسن الفرص لو تركت داري.. لو انتقلت إلى (كفر بدر).. إلى قريتي.. هناك وسط أهلي وعالمي الحميم أكون في أمان نسبي.. إن فرص الأخطار التي تحيط بكهل وحيد في شقته هي أكثر مما يتهدده وسط قرية مزدحمة يعاني أهلها مرض المودة الزائدة..

وهكذا فعلت كل ما اعتدت أن أفعله عندما أغادر بيتي لفترة طويلة.. صمام الغاز.. النوافذ.. مذكرة لـ (عزت).. مصيدة الفئران من أجل ذلك الفأر المزعج.. الحقيبة..

ثم.. إلى (كفر بدر)..

☆ ☆ ☆

٩ - عبد الواحد مهدي..

طبعًا لم يعد للبيت ذات المذاق القديم بعد رحيل أمي، وبالمثل صارت زياراتي للقرية أقل..

إن هؤلاء المسنين الأعزاء - الآباء والأمهات - يلعبون دور القبضة التي تعتصر حفنة من الرمال... وهم يضغطون بقوّة لكن ما إن يجيء القضاء وتتخلى قبضتهم عن الرمال، حتى تتبعثر حبيبات الرمل فتجد صعوبة في جمعها.. لهذا يظل الأب هو الأب مهما تدهور ومهما وهنت قواه.. والمثل الشعبي يقول: «أبويا أبويا ولو عضم في قفة».. هو الشيء الوحيد الذ ي يعطي البيت معنى (بيت)، وهو القادر الوحيد على جمع أسرته في مكان واحد..

كانت (رئيفة) العزيزة تنتظرني ومعها زوجها (طلعت) والأبناء الذين كبروا حتى لم أعد أعرفهم بسهولة..

قالت لي وهي تعانقني:

- «حمدًا لله على السلامة يا أخي.. أرجو أن تكون زيارتك في الخير..»

فهي تعرف أنني في الفترة الأخيرة لا آتي إلا هربًا من خطر..

(سمارة).. ظلت الكلمة تتردد في ذهني وأنا أفتح حقيبة السيارة لأوزع ما أحضرت للأطفال معي.. لوكنت قد هربت إلى (سمارة) فأنا أحمق!

لكن كيف لي أن أعرف؟

تناولت معهم طعام الغداء، وثرثرنا كثيرًا طبعًا.. لقد كف الناس والحمد لله عن سؤالي عن موعد زواجي.. صاروا يسألون عن صحتي في حذر.. لا أكثر ولا أقل.. لكن (رئيفة) وزوجها لم ينسيا أن يسألا عن (ماجي) تلك الخواجاية الحسناء التي أمضت معهما وقتًا لا بأس به.. وكانت هاربة أيضًا..

بعد الغداء أعلنت (رئيفة) أن بوسعي أن أصعد إلى غرفتي لأنال قسطًا من الراحة.. جلبابي على الفراش ولو أردت شيئًا يكفي أن أطلب..

شكرتهما بشدة، واتجهت لأصعد الدرجات الطينية الرطبة الزلقة قليلًا التي تقود إلى حجرتي القديمة.. طبعًا لابد أن أحترس كي لا أسقط، وكي لا أدوس البط الذي يتواثب على درجات السلم قادمًا من السطح..

فراشي القديم العزيز.. والوسادة والسقف المدعم بألواح الخشب.. ياله من زمن سحيق!

نزعت ثيابي وارتديت الجلباب - على سبيل استعادة الجذور - وتأملت نفسي في المرآة المشروخة المعلقة في ركن الغرفة.. فزاعة.. (خيال مقاتة) ترتدي جلبابًا أبيض وتبتسم..

ثلاثة أيام.. يجب أن تمر..

بعدها سأعرف أنني أحمق أؤمن بالخرافات..

أنا واثق من هذا..

أما لو مت فمن العسير أن تلعب المصادفة دورها بحيث أموت يوم الجمعة مساء.. ربما قبل ذلك بقليل أو بعد ذلك بقليل.. عندها سأعرف أن (فوزي) نصاب فعلًا وأنني أحمق!

☆ ☆ ☆

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

لكن كل شيء ينتهي..

☆ ☆ ☆

اليوم هو ١٧ يونيو..

يوم حار رهيب يناسب فعلًا أن يكون أخطر أيام حياتي..

صحوت قبل صلاة الجمعة بنصف ساعة، وكنت غارقًا في العرق، والبعوض لم يترك موضعًا سالمًا من جسدي.. لو رأيتني الآن لحسبت أنني كنت ألعب الملاكمة مع (كلاي) شخصيًا..

توضأت واتجهت إلى مسجد القرية الذي لم يتغير عبر السنين.. وما زالت تلك النخلة تميل على جداره دون أن تسقط أو ينهار الجدار..

طبعًا لا بد من الجلباب حتى لا أبدو مبتذلًا بالنسبة للناس هنا..

جلست وسمعت الخطبة ثم أديت الصلاة، وبعدها وقفت وسط عدد من الأهالي أجد صعوبة في تذكر أسمائهم.. لكنهم دائمًا هناك..

كثير من الأسئلة عن الإسهال والديدان والأعصاب والسكر وارتفاع ضغط الدم.. وكثير من السلامات والدعوات كي (أتفضل)..

الحقيقة أنني عانيت كثيرًا في الأيام السابقة.. تصوّر وطواطًا بشريًا يرغمونه على ممارسة حياة صاخبة.. في كل ليلة هناك من يزور أو يزار و(رضا) أخي يهمس في أذني:

- «ألن تزور (عبد الواحد مهدي)؟»

فأقول له: إنني لا أشعر بأدنى رغبة في زيارة مع لا أعرفه أصلًا..

يقول في توحش وهو يضغط على كلماته:

- «كبيرة! كبيرة! تريد أن تبقى في البلدة ثلاثة أيام دون أن تزور (عبد الواحد)؟ أنت صرت ابن المدينة ولا تفهم ما يفهمه الفلاحون... هذه أمور بديهية.. لا تنس أنه كان العمدة يومًا..»

وهكذا أذهب معه بأسلوب (جعلوه فانجعل) الشهير..

هناك يكون (عبد الواحد) جالسًا في الدوار يشرب الشاي الأسود ويثرثر مع رجال آخرين.. وأدخل لتتصاعد التحيات وتخرج السجائر من علبها.. ويبدأ الكلام عن المرحوم أبي وعن (أبو زينة).. (أبو زينة) الذي سيدفع الثمن غاليًا.. من هو (أبو زينة)؟ طبعًا لا أعرف ولا أجرؤ أن أسألهم كي لا يجنوا.. من المفترض أنه شخص شديد الأهميّة ليسيطر على ثلاث ساعات من الحوار...

وبعد أربعة أكواب من الشاي الأسود وعشرين لدغة بعوض، أشكرهم وأنهض مع أخي عائدين.. هنا يعتصر (رضا) ذراعي ليقول ناصحًا:

- «الآن نزور (عبد الباري)..»

- «(عبد الباري)؟»

- «نعم.. (عبد الباري خضر)..»

- «وهل لا بد من أن؟»

هنا يحمر وجه (رضا) وتتسع عيناه ويسيل لعابه من فرط الغيظ:

- «هل تريد أن تزور (عبد الواحد) ولا تزور (عبد الباري خضر)؟ لوعرف (مسعد) بهذا لجن جنونه.. ماذا تقول الناس عنا؟ لا.. كبيرة.. كبيرة.. إن المجاملة مهمّة في الريف يا (رفعت) يا أخي.. أحيانًا أحسبك..»

- «نعم.. نعم.. ابن المدينة الرقيع الذي لا يفهم قواعد المجاملات الرجولية.. لكن صدقني إن لعبة التوازنات هذه موجودة في كل مكان..»

- «إذن نزور (عبد الباري خضر).. لا تسأله عن (صفوان) أبدًا.. أنا أعرف أن لسانك زلق..»

هكذا لا يعود بوسعي أن أسأل من هو (صفوان) هذا..

وثلاث ساعات عند (عبد الباري خضر) لانسأل فيها عن (صفوان)، وكوبان من الشاي الأسود، ثم أعود للدار لأفرغ معدتي التي التهبت من حمض التانيك..

هذا يلخص لك كيف مرّت بي ثلاثة أيام كاملة هنا.. ولو كان (فوزي) هذا نصابًا فإنني قد دفعت ثمنًا فادحًا لحماقتي..

تناولت الغداء الدسم ثم صعدت إلى حجرتي لأنام قليلًا..

عندما أصحو سيكون الليل قد جاء وأعرف.. أعرف..

لكن الألم بدأ يتزايد في صدري، تلك الكماشة التي تطبق أكثر فأكثر من دقيقة الأخرى.. أكثر فأكثر.. أكثر فأكثر..

نهضت إلى حقيبتي فأخذت قرصًا من النتروجلسرين - رفيق كفاحي - ودسسته تحت لساني وانتظرت حتى يزول الألم ويبدأ الصداع كالعادة..

لقد اعتدت الذبحة الصدرية منذ سنوات حتى صارت (أسلوب حياة)، بل إنني لم أعد أفهم كيف يعيش إنسان دون أن يشعر بآلام خلف عظمة القص وفي الكتف اليسرى..

لكن الألم لم يزل.. إنِّه يتزايد...

نظرت لوجهي في المرآة وابتسمت في خبث..

غالبا هذه نوبة قلبيّة شديدة..

أولًا: ليست هذه تلك الكارثة البشعة التي وصفها الى (فوزي شفيق).. ما الجديد في هذا؟

ثانيًا: واضح أن الليل لم يأت بعد.. هذا يثبت لك أن كلام الرجل خطأ.. حتى لو مت الآن فقد انتصرت عليه..

تبًّا.. الألم يتزايد...

هل أخبر الآخرين؟ لا.. من الواضح أنني أحب أن أحل مشاكلي بنفسي حتى لو كانت مشكلة بسيطة كالاحتضار.. ثم إنني الطبيب الوحيد هنا والمفترض أن أعرف ما ينبغي عمله..

هنا سمعت (رئيفة) تناديني من الخارج:

-«(رفعت)..»

قلت ضاغطًا على أسناني:

- «م م م م م م!».

واتجهت إلى الباب ففتحته..

نظرت في رعب إلى وجهي الشاحب - بلاشك - والعرق الذي نما على جبيني وتساءلت في رعب:

- «هل أنت بخير؟»

- «م م م م م م!»

- «لا تبدو كذلك..»

- «بل أنا بخير وإن لم أبد كذلك.. ماذا تـ... تريدين؟»

قالت وهي لا ترفع عينيها عن جبهتي الملوثة بالعرق:

- «هناك من جاء من عند (عبد الواحد).. يقول إن هناك مكالمة لك من مصر..»

ومصر عند المصريين في القاهرة طبعًا، لأن قريتي ليست في ألاسكا.. أمّا (عبد الواحد) فأنت تعرف أنه من علية القوم، وطبعًا يملك جهاز هاتف.. من يدري؟ ربما هو والعمدة فقط يملكان واحدًا..

قالت (رئيفة):

- «سيعيد الاتصال بك بعد عشر دقائق..»

وتراجعت للوراء دون أن تحول عينيها عني وبدت متشككة.. لهذا تحاملت على نفسي، ولما كنت أرتدي الجلباب، فقد دسست قدمي في خفين ومشيت وأنا أوشك على فقدان الوعي.. اهبط الدرجات الطينية المخيفة.. أمشي كالمخدر في شمس العصر الحارقة والفلاحين ينظرون لي في دهشة.. لم أبد له ما يرام على الإطلاق.. كنت أقول لهم في لا تندهشوا يا سادة.. أنا رجل ميت يمشي كما يقول الأمريكيون عن المحكوم عليهم بالإعدام..

- «تفضل يا دكتور..»

قالها (عبد الواحد) في ترحاب وهو جالس في (المضيفة) مع خمسة رجال..

- «هل أنت بخير؟»

قالها أحد الرجال وهو ينظر لما عرفت الآن أنه وجهي المريض الشاحب.. فرددت:

- «(شوية كده).. الحمد لله على كل حال»

و(شوية كده).. تشخيص لا معنى له مقبول لدى الغالبية من غير المتخصصين.. أنت لن تقابل (إبن النفيس) في كل قرية على كل حال.. وقبل أن أفهم ما يحدث وجدت كوب الشاي الأسود في يدي مع من يحلف عليَّ بالطلاق أن أشرب.. ثم دوى رنين الهاتف الطويل المزعج قادمًا عبر القرى والنجوع..

- «هذه المكالمة لك..»

وجاء من يضع جهاز الهاتف الموضوع في سلّة متآكلة من القش على حجري، فوضعت السماعة على أذني لأسمع الصوت وقد تداخلت معه آلاف الأصوات عبر القطر:

- «أنت أحمق يا دكتور..»

قلت بصوت مبحوح:

- «هذا ليس جديدًا.. ولكن لماذا لا تستعمل لفظة (ألو) كبداية يا أخي؟ وكيف عرفت هذا الرقم؟»

جاء صوت (فوزي) يقول بثبات لكن بحزم:

- «أنا أعرف كل شيء عنك.. ظننت هذا مفهومًا.. لكني عانيت أي معاناة للاتصال بقريتك هذه.. كان من الأسهل أن آتي لأقول ما أريد..»

- «وماذا.. ماذا تريد قوله؟»

- «لا أستطيع التصريح.. لكن دعني أقل لك إنك في خطر داهم هنا، يجب أن ترحل فورًا وقبل الليل وهو قد صار دانيًا جدًّا..»

قلت في وهن:

- «لو كنت حقًّا تهتم بأمري لأرحتني من كل علامات الاستفهام هذه.. لماذا لا تقول ماتعرفه وينتهي الأمر؟»

- «لا أستطيع.. لكن بوسعي فقط أن ألمح.. لاتبق في القرية ثانية واحدة..»

تحسست صدري الذي مزقه الألم وقلت:

- «وددت لو كان باستطاعتي أن.....»

قال في استهتار:

- «هذا الذي تشعر به ليس سوى عسر هضم مع أعراض قرحة معدية.. أنت بالغت في الأكل والدسم والتوابل على الغداء، ولو كنت مكانك لأفرغت معدتي الآن..»

غريب هذا! لا يوجد مخلوق يعرف أني أعاني من آلام صدر.. والغريب أنه عرف سببها أيضًا..

عدت أقول بلهجة أكثر وهنًا:

- «حسن.. وأين أذهب إذن؟»

- «لا أستطيع أن أخبرك.. كل ما بوسعي هو أن أقول لك أين لا ينبغي أن تكون.. وأنت لا ينبغي أن تكون في القرية.. خطر!»

ثم وضع السماعة وتركني أرمق جهاز الهاتف بعينين زائغتين..

- «خير يا دكتور؟»

سألني (عبد الواحد) وهو يمد لي يده الغليظة بكوب الشاي كي أفرغ منه...

قلت وأنا أجرع أول جرعة من المشروب المميت:

- «خير إن شاء الله..»

وفي اللحظة التالية لم تعد معدتي تتحمل أكثر، وأفرغت كل شيء.. كل شيء..

☆ ☆ ☆

١٠ - رفعت إسماعيل..

بعد أعوام قرأت قصة ممتعة من مختارات (هتشكوك) اسمها (الهرب من يوم الخميس)..

بطل القصة مهندس تنبأ له عراف بأنه سيموت يوم الخميس السادس عشر من مارس.. ولما كان الرجل - لأسباب طويلة - يوقن بصحة النبوءة. فقد قرر أن يلجأ إلى طريقة مبتكرة.. قرر أن يركب طائرة أسرع من الصوت تعبر به خطوط الطول.. وبحسابات معقدة (مذكورة في القصة بدقة) استطاع أن يفر من مناطق اليوم فيها هو الأربعاء إلى مناطق اليوم فيها هو الجمعة.. أي أن يوم الخميس بالنسبة له لن يزيد على نصف ساعة يقضيها على متن الطائرة..

لكن الرياح لا تأتي بما تشتهي السفن، وسرعان ما اضطرت الطائرة للهبوط لمدّة نصف ساعة في جزيرة بالمحيط الهادي... ويتضح أنّ هذه الجزيرة ما زالت (تعاني) يوم الخميس.. طبعًا جن صاحبنا وطار عقله شعاعًا، وراح يذرع ممرات المطار متوترًا بانتظار الإقلاع ثانية.. فقط ليحترق بعد دقائق على الممر بسبب خزان وقود طائرة محلقة اضطرت للتخلص منه.

كنت في تلك الساعات بحاجة إلى وصفة سحرية تخلصني من الساعات الباقية من يوم الجمعة ١٧ يونيو.. لكني لم أكن بهذه الثقافة الجغرافية الواسعة، وحتّى من يملكونها يهلكون كما تقول تلك القصة الرهيبة..

☆ ☆ ☆

لم أكن أتصور أن القيء سيطهرني من الداخل إلى هذا الحد..

كأنني غسلت من مرضي ومن همومي، الآن فهمت لماذا كان بعض الشباب الوجودي يخرجون إلى الخلاء ليقيئوا على سبيل الاشمئزاز الفلسفي.. الغريب أنّ هذا الـ (فوزي) طبيب بارع حقًا.. حتى أنا لم أعتقد لحظة أنّ هذه آلام قرحة... لكن كما تعرفون... آلام القلب لدى الشباب هي سوء هضم غالبًا وآلام الهضم عند الكهول هي نوبة قلبيّة غالبًا، وأنتم تعرفون أنني لم أعد شابًا.. كيف كان لي أن أعرف أنه مازال لدي بعض الشباب في مكان ما؟

ولكن لا وقت لهذا الهراء... ما إن فرغت من الاعتذار لضيفي الذي أصابه الذهول مع قدر لا بأس به من الاشمئزاز حتى راح يردد في غيظ مكبوت:

- «خذ راحتك.. ليس على المريض حرج.. فليشفك الله..»

ما إن فرغت من هذا حتى عدت للدار.. غسلت وجهي من كل هذه الفوضى، وبدأت إعداد حقيبتي، ثم توجهت إلى (رئيفة) وزوجها وقلت لهما: إن هناك أشياء عاجلة طفت على السطح في القاهرة.. هناك في القاهرة أشياء كثيرة من هذا الطراز الذي يطفو.. طبعًا لم يفهما شيئًا لكنهما أبديا الأسف لأنني راحل بهذه السرعة.

ولم تستغرق إجراءات الوداع أكثر من ربع ساعة..

حقًّا لن أمل أبدًا هواية أن أجعل الناس يشعرون بأنني مجنون.. جئت القرية بلا سبب مفهوم ثم تقيأت ورحلت دون سبب مفهوم..

وبعد دقائق كنت أنظر إلى اليمين واليسار قبل أن أعبر الطريق الرئيسي الخارج من قريتي..

☆ ☆ ☆

كانت الأسئلة تزدحم في ذهني..

لو كان (فوزي شفيق) يعرف ما سيحدث ـ وحتّى هذه اللحظة برهن على هذا بنجاح ـ فلماذا لا يفصح عن التفاصيل؟ لماذا يكتفي بالتلميح؟ كان بوسعه أن يخبرني بكيفية مقتل المحامي، وكيف ستخدعني الفتاة في مكتب البريد، وكان بوسعه أن يخبرني أن الدجاجة ستحترق...

وكان يستطيع إخباري بالخطر الذي يتهددني..

ثمة قواعد غامضة وضعها لنفسه ولا أعرف سببها..

لماذا يختار بعض (المحظوظين) ليبلغهم بتلميحاته هذه؟ أنا لم أستفد الكثير منه إلا القلق الدائم، لكن طالبًا متوسط المستوى مثل (محمود زاهر) أفاد منه حقًّا..

من هو (فوزي شفيق)؟ من أين جاء؟ إلى أين هو ذاهب؟

تلك أشياء لن أعرفها في الوقت الحالي..

الطريق يمتد أمامي، وأن الإضاءة الرديئة المميزة لدخول المساء.. لم يحل الظلام فتحتاج إلى الكشافات (ولن يكون لها دور على كل حال)، ولم تعد الشمس هناك حتى تصير الرؤية واضحة.. كل شيء أزرق باهت شاحب مختلط.. لا بأس.. سأتحمل دقائق أخرى حتى يسود الظلام فعلًا، ويمكنني عندئذٍ أن ألعب بقواعده...

أنا بحاجة إلى سماع (أم كلثوم) من المذياع.. هذا وقتها.. مددت يدي أداعب أزرار الجهاز وعيني على الطريق.. ولكن... ثمّة شيء مكسور.. هذا الزر ليس في....

نظرت إلى المذياع لأرى موضع الخلل، ثم رفعت عيني لأري الهول قادمًا..

كانت شاحنة عملاقة تندفع في الاتجاه المعاكس، وعلى نفس الخط الذي أمشي عليه.. كيف؟ هل جن سائقها؟ هل.....؟

حاولت أن أتحاشاه فلم أفلح..

وفي أجزاء الثانية التي تفصلني عن التصادم ضغطت على الفرملة بحركة متشنجة.. و.....

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

☆ ☆ ☆

الظلام.. الظلام...

مقيد.. مكبل..

ماذا حدث لي وأين أنا؟ ولماذا تؤلمنى كل عظمة من جسدي بهذا الشكل؟

تلك الرائحة...

لكنني حي.. أعرف هذا وأدركه.. لكن رأسي ثقيل ولا أستطيع بلوغ استنتاجات ما.. إن ذهني كالضباب.. كالدخان الذي كان الضباط ينفثونه في تلك الغرفة المغلقة.. الحريق في المطعم.. (هدى) تعطيني جنيهاتها.. (عبد الواحد) يدعوني إلى الدخول.. دخول بطنه الكبير.. (ماجي) في قصر أبيها تطالع قصصًا مخيفة، و(هويدا) تصفع طفلها، و(عزت) ينحت تماثيل لا معنى لها..

ولكن.. ماذا؟

☆ ☆ ☆

حين أفقت ثانية أدركت أن على وجهي شيئًا ما..

أستطيع تحرير وجهي بشيء من الجهد.. إن يدي تتحرر.. ما كل هذه الأربطة؟

تلك الرائحة...

هذا الظلام الدامس.. لكن ضوءًا غامضًا مكتومًا يتسرب من مكان ما..

الآن أدرك أنني في قبو مظلم..

إنني أرقد على الأرض فوق رمال.. ثمّة أشياء من حولي تتشح بالظلام لكن الضوء يرسم حدودها الخارجية وهي حدود لا تريح النظر..

أخيرًا أتحرر..

ازحف على ركبتي على الرمل.. تلك الرائحة...

يُخيل إليّ أن الضوء يأتي من شيء يشبه الكوة.. أدنو منها.. أتحسسها.. أدرك أنها أقرب إلى باب من معدن موصد من الخارج بعناية، ويبدو أن وراءه ترابًا.. يبدو أنني تحت مستوى الأرض، لكن هناك ثغرة ما، وهذه الثغرة تسمح بدخول شعاع ضوء لا يزيد سمكه على رأس دبوس.. هذا الشعاع - مع كل هذا الظلام - يلعب دور مصباح لا بأس به.. على الأقل أعرف إلى حدٍ ما أين أنا..

عدت أنظر من حولي..

تلك الرائحة.. التي هي مزيج من العطن ورائحة عضوية غامضة وعطر.. أين شممتها من قبل؟

صحت بصوت عالٍ:

- «يا هووووه!!»

لكن الصدى جعل الصوت مرعبًا حتى إنني قررت الصمت قليلًا..

أنا جائع وأشعر بظمأ مروع.. كم لبثت هنا؟

وعدت أنظر حولي.. هذه الأشياء الملقاة ما هي؟

لماذا تلتف بهذه الأقمشة الرثة؟

لماذا ألتف أنا نفسي بهذا الثوب الغريب؟

هنا بدأت أفهم...

☆ ☆ ☆

هبطت الحقيقة عليَّ ببطء شديد.. ثم بدأت تتشكل وتتخذ جسدًا ماديًا حقيقيًا.. وشعرت بكل بصيلات شعري تتصلب..

أنا ميت!

لا.. بل اعتبرت ميتًا.. وتم دفني هنا!

هذا واضح ولا يحتاج إلى ذكاء كثير..

لماذا طارد هذا الرعب (إدجار آلان بو) وكتب عنه قصصًا كثيرة؟ كان يخشى أن يُصاب بتيبس العضلات ويحمل إلى القبر وهو حي.. كانت هذه أسوأ كوابيسه ومعه حق..

حادث السيارة أدى إلى انقلابها، وطرت أنا فاقد الرشد ليجدوني على الأرض.. ولا بد أنني كنت لا أتنفس وكان قلبى ساكنًا كما سمعوه.. فحص سريع وتحقيقات سريعة، ثم حمل جسدي إلى القرية والبدء في إجراءات الدفن سريعًا من أجل تكريمي..

بينما أنا حي!

وليتني لم أكن...

لا أصدق هذا لكنه حقيقي..

قال (فوزي شفيق) إن ما سيحدث لي ليلة ١٧ يونيو سيكون شنيعًا.. سيكون شيئًا لا يصدّق..

كان محقًا كالعادة.. لم أتصور قط شيئًا أبشع من هذا.. والكارثة أنه يحدث فعلًا..

والآن أنا في مأزق حقيقي..

لا أحد يعرف الحقيقة إلا (فوزي) وهو كالعادة سلبي صموت يراقب من بعيد ويكتفي بالإنذار والتلميح..

فمتى يتكلم.. وماذا لو لم يتكلم؟

سأموت من الظمأ..

سأموت من الجوع..

سأموت من الرعب..

لكنه سيكون موتًا بطيئًا أكرهه بشدة..

والساعة الآن؟ أعرف فقط أنه النهار وأن شعاع الضوء الخافت لم يكن موجودًا في المرّة السابقة.

معنى هذا أنني (مت) في المساء وبالتأكيد ثم دفني عند الظهر أو العصر بعدها صحوت للمرة الأولى..

الآن أنا هنا منذ نصف يوم، وبالنسبة للناس أنا ميت منذ يوم ونصف..

إن ذهني ما زال متوقدًا وليته لم يكن كذلك..

تُرى متى أفقد الوعي أو أجن؟

تُرى متى يأتي الخلاص؟

☆ ☆ ☆

طبعًا يعرف القارئ أنني لم أمت... وإلا فكيف أحكي لكم كل هذه الذكريات؟

لكن كيف سأنجو؟ وأية أهوال سأعيشها قبل أن أنجو؟

من هو (فوزي شفيق) ومن أين جاء؟ وماذا يريد؟

كل هذه الأجوبة سنعرفها ـ أو نكتشف أننا لن نعرفها أبدًا ـ في الجزء الثاني من هذه القصة التي ما زلت أعتقد أنها مسلية برغم كل شيء..

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا: إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

نهاية الجزء الأول

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

١ - محمود زاهر..

٢ - عادل توفيق..

٣ - كاميليا..

٤ - فوزي شفيق (١)..

٥ - فوزي شفيق (٢)..

٦ - محمد مرزوق..

٧ - هدى شوقي..

٨ - فوزي شفيق (٣)..

٩ - عبد الواحد مهدي..

١٠ - رفعت إسماعيل..

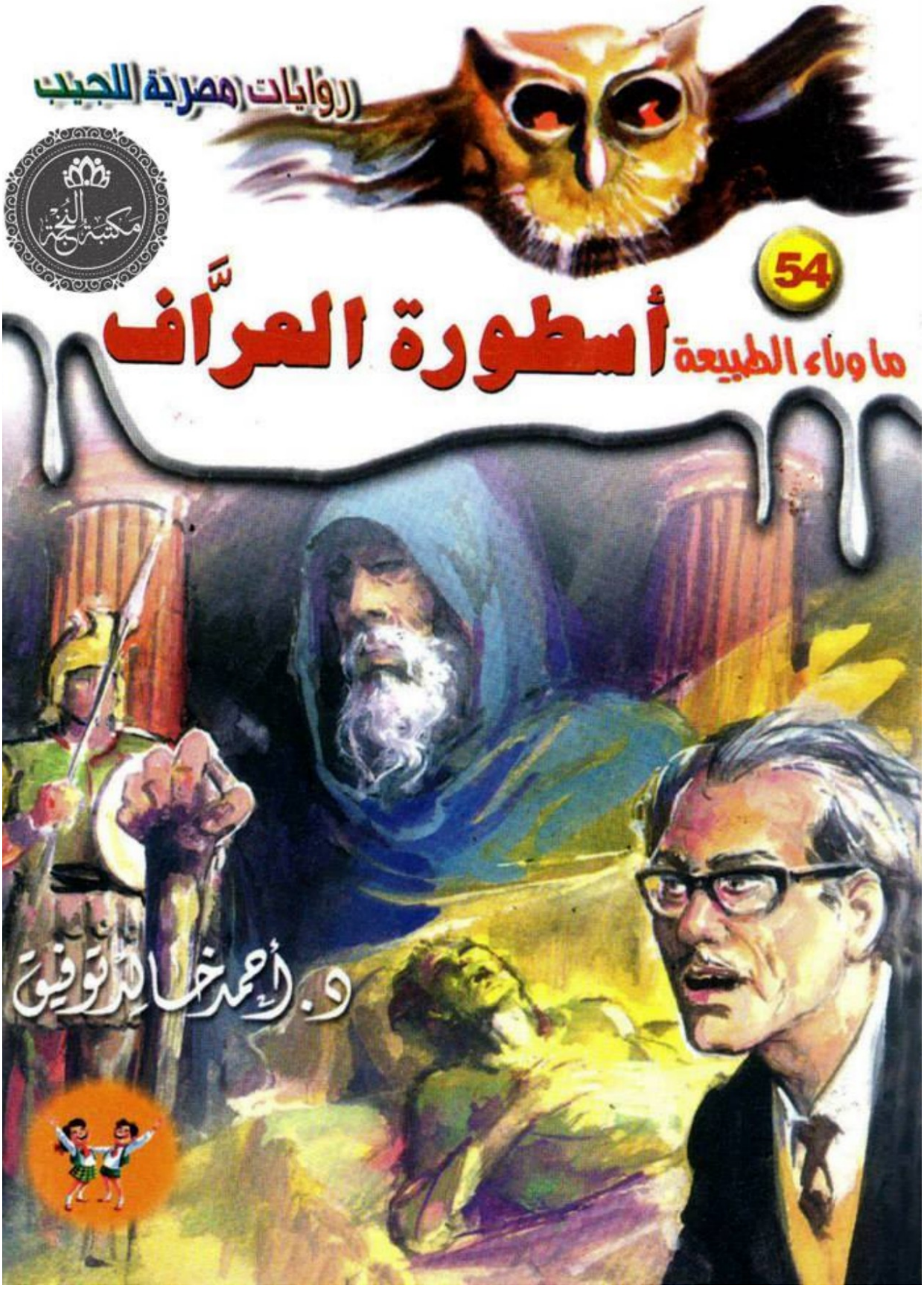
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

54

أسطورة العرَّاف

ما وراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

ولكن لماذا لا أحكي قصة أخرى؟

تقولون إن عليَّ أن أنهي القصة الأولى التي بدأتها، وإنني لأجد أنّ هذا طلب غريب وغير منطقي.. لماذا نفترض أن على من يبدأ قصة أن ينهيها؟ لو كان هذا صحيحًا لانتهت كل الأسئلة الكونية التي لن يجيب عنها أحد أبدًا.. هل كانت النظرة الأخيرة التي رمتك بها (ريم) نظرة حب أم كراهية؟ أين تذهب الفصول المنصرمة والنجوم المحترقة، وأين تغفو الشهب؟ ماذا قال الحاج (الشمندوري) قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ تلك الكلمات الهامسة التي لم يفهمها أحد.. كل هذه قصص بدأتها الحياة ولم تكملها قط.. وعلى قدر علمي لم يجرؤ أحد على أن يلومها على ذلك..

لماذا تطلبون مني أنا العجوز أن أشذ عن القاعدة؟

الليلة أحكي لكم قصة (ملك الذباب).. إنها ممتعة ولسوف تروق لكم.. صدقوني.. إنها أجمل من باقي قصة الليلة السابقة... إنها قصة شابة والشباب أفضل من الشيوخ دومًا.. إن...

أرى أنكم فعلًا متضايقون.. ليس هذا مزاحًا.. إن بعض الوجوه ترمقني بكراهية حقيقيّة، وبعض الأقدام تضرب الأرض في غل، ولولا أنه قد تمت تربيتكم جيدًا، لقتلني البعض..

ليكن.. أنا أكره أن أكون كريهًا.. ويضايقني أن أضايق الآخرين.

دعونا نستكمل القصة..

لا.. لا داعي للملخصات، لأن الكتيب السابق لم يضع بعد.. إنّه لدى كل منكم حتى هواة وضع الكتب على جهاز التلفاز أو تحت الفراش... سأبدأ فورًا وأعتمد عليكم في أن تذكروني بما يفوتني من تفاصيل...

أعتقد أننا قد توقفنا عندما.....

أنت تخاف زحل، وأنا أخاف رب زحل.. أنت ترجو المشتري وأنا أرجو رب المشتري.. وأنت تغدو بالاستشارة، وأنا أغدو بالاستخارة.. فكم بيننا؟

الإمام النووي يتحدى منجمًا يهوديًا شهيرًا.

١ - سبورينا..

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا أيها الغريب..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

لكن كل شيء ينتهي..

☆ ☆ ☆

اليوم الخامس عشر من مارس..

كل هذا جميل.. لكن لا بد من أن نذكر معلومة بسيطة هي أننا في العام ٤٤ قبل الميلاد..

ترون هذا الرجل الملتحي.. الرجل المرتجف الرجل مجنون النظرات؟ إنِّه عراف.. هذا واضح ولا يمكن أن تخطئه العين.. فلو كتب على صدره أنه عراف لما كان مقنعًا بهذا الشكل..

المكان؟ ظننت هذا واضحًا.. إنها (روما) أعظم مدينة! في الأرض وقتها.. الطرقات الممهدة بعناية والمباني بأعمدتها ذات الطابع الروماني المميز.. والتماثيل الشامخة في الطرقات.. الحمام العام حيث يقوم العبيد بتسخين المياه، وشبكة الصرف المعقدة تحت الأرض..

هذا البيت الفاخر، وهذا البستان الذي تم تنسيقها بعناية بالغة. إن الرجل يفتح الباب المعدني ويتقدم.. يرتجف أكثر من اللازم في الواقع كأنما يعرف هذه من لوازم شخصيته.. وينحني على

عصا خشبية لأن هذا هو البروتوكول..

حارسان يعترضان طريقه.. وكلاهما من الطراز الروماني مفتول العضلات المدجج بالسلاح والدروع..

- «أريد قيصر..»

لاحظ أن الكلام هو مزيج من اللاتينية واللهجة الشعبيّة التي ستصير بعد قرون هي اللغة الإيطالية.. الرمحان متقاطعان أمام وجهه بينما يسأله أحد الرجلين في صرامة:

- «لماذا؟»

- «مسألة خاصة.. قل له إنني العراف (سبورينا)..»

- «جاء أمس..»

قالها أحدهما وهو يرمق الآخر في ذكاء.. ثم نظر إلى الرجل، وغمغم متهكمًا:

- «أنت تعرف أن (قيصر) لا يبالي بكم معشر العرافين.. ما الذي تحاول إثباته؟»

- «الأمر بيني وبينه..»

ومن الحارس المتشكك انتقل الخبر إلى العبد الأول فالثاني.. حتى وصل إلى (يوليوس قيصر) الذي كان يتأهب للخروج..

قال لهم في تململ وهو يصلح من وضع عباءته على كتفه بمساعدة أحد العبيد:

- «مرّة أخرى! لا وقت لديَّ لهذا السخف..»

ثم فكر قليلًا وقال بذلك القرف الأرستقراطي الجدير بالأباطرة:

- «ولكن.. أففففففففف! دعوه يدخل!»

ثم فرد قامته المهيبة الشبيهة بتمثال في المتحف الروماني، ووضع قبضته في خصره ونظر إلى صورته في المرآة.. ليس سيئًا.. صحيح أنه شيخ.. لكنه ما زال قويًا يصلح لأن يثير الهيبة في القلوب.. ما زال قادرًا على إخراس معارضيه والسيطرة على روما بقبضة حديدية..

بل - وهذا غريب - مازال قادرًا على أن تهيم بحبه ملكة مصرية جميلة من نسل البطالمة.. ملكة اسمها (كليوباترا).. زوجته لا تعرف هذا.. لا.. بل هي تعرف طبعًا.. ما أكثر الجواسيس...

لكنه مازال قويًا وما زال مهيبًا..

جاءت زوجته وكانت عيناها منتفختين تشيان بليلة سوداء..

سألته وهي تصلح من وضع العباءة على كتفيه كأنما لم يرق لها ما قام به فعلًا:

- «هل صرت على ما يرام؟»

تحسس عنقه بإصبعين حيث تلك العقدة اللمفاوية التي تفضح اللوزتين، وقال:

- «لا أظن.. مازلت محمومًا.. لكن هذه أشياء لا تمنع (قيصر) من العمل.. ثم إن جمعًا غفيرًا ينتظرني في المجلس.. لا يمكن ألا أذهب..»

كانت الآن تتكلم كزوجة مصرية قلقة تشعر بأن عينها اليسرى (ترف).. قالت له:

- «الحق أقول لك إبني حلمت.. حلمت بأن برج داري ينهار.. أليس هذا نذيرًا؟»

- «بل هو هراء..»

في هذه اللحظة دخل العراف بخطواته الثقيلة البطيئة.. وكان مازال يرتجف كورقة.. وصوت ضربات عصاه كأنه النذير.. وخلفه كان حارسان يبدو عليهما الاستمتاع..

- «هلمّ.. قل مالديك..»

- «أكرر رجائي يا (قيصر)..»

- «تريد أن أبقى في الدار اليوم؟»

- «هذا رجائي الوحيد..»

- «وأترك الشيوخ في المجلس ينتظرون؟»

- «إنهم لا يفعلون إلا أن ينتظروك..»

ابتسم (قيصر) ونظر إلى الشمس في الخارج.. شمس الشتاء البهيجة المفعمة بالأمل.. هذا يوم لا يمكن أن يحدث فيه مكروه.. قال للعراف:

- «هلمّ أيها العراف المشئوم.. ألا ترى أنك أنذرتني كثيرًا من اليوم الخامس عشر من مارس.. وها هو ذا قد جاء بلا متاعب؟»

بلهجة يضغط عليها، قال العراف:

- «لكنه لم ينته بعد يا (قيصر)!»

هتفت الزوجة وقد بدأت الفئران كلها تعبث تحت عباءتها:

- «أنت ترى.. إنِّه يقول نفس ما قلته أنا.. لا تذهب اليوم.. إن يومًا واحدًا لن يحدث كارثة..»

- «المسألة مسألة مبدأ..»

قالها وعاد يلف العباءة حول كتفه الآخر:

- «يبدأ المرء بتنازل بسيط ثم تتحول حياته كلها إلى استسلام..»

ثم أشار إلى حراسة بكبرياء.. وهتف وهو يتجه إلى الباب:

- «هلموا!»

في اللحظة التالية حدث شيء يصعب تفسيره، وإن تحدّثت عنه كتب التاريخ..

لقد هوى تمثال (قيصر) الموضوع على عمود في الردهة.. هوي من دون أن يلمسه أحد إلى الأرض، ليتهشم.. ودوى الصوت مع المفاجأة، فلو أن رأس (يوليوس قيصر) الحقيقي هو الذي هوى إلى الأرض وتهشم لما أصيب الموجودون بكل هذا الذعر.. وقفوا يرمقون الشظايا المتناثرة في غباء وبلاهة..

- «يا لإهمال هؤلاء العبيد!»

قالها وانطلق بخطواته السريعة إلى الخارج..

الحق أن الرجل يتمتع بشجاعة نادرة..

☆ ☆ ☆

أردت القول إن الرجل (كان) يتمتع بشجاعة نادرة..

نحن نعرف طبعًا أنه لقي حتفه في مجلس الشيوخ قبل أن ينتهي اليوم..

لقد فرغ من الاجتماع، وخرج ومن حوله بعض النواب.. كانوا يتكلمون على درجات المجلس الرخامية.. وكانت هناك مشكلة ما لا أذكر ما هي.. لكن (بروتس) ربيبه والأثير لديه دنا منه أكثر من سواه...

في اللحظة التالية ـ كما نعلم ـ أخرج المتآمرون جميعًا خناجرهم، وانهالت الطعنات على جسد الشيخ.. كان يقابل كل طعة لا بألم بل بدهشة لا تصدق.. هذا اغتيال.. والاغتيال ـ كما يقول الساخر العظيم (برنارد شو)- هو أعنف أنواع الرقابة!

ثم جاءت الطعنة الأخيرة.. هذه الطعنة بالذات.. لا نخطئ لو قلنا إنها طعنته طعنًا.. لقد كانت طعنة (بروتس).. ولقد نظر إلى قاتله الأخير في ذهول لحظة ثم قال قولته الشهيرة:

- «حتى أنت يا (بروتس)؟ إذن فليسقط (قيصر)..»

ثم هوى على الأرض تحت تمثال (بومبي) الذي قتله هو نفسه يومًا ما..

فيما بعد سيخرج المتآمرون للناس كي يشرحوا لهم لماذا قتلوا الرجل.. سيقولون إن السبب أنه كان طموحًا أكثر من اللازم.. (بروتس) قال هذا و(بروتس) رجل شريف.. فلابد أنه صادق.. إن من قرءوا مسرحيّة (شكسبير) الرائعة (يوليوس قيصر) يعرفون كيف تطور هذا المشهد.. أمّا نحن فلا يعنينا هذا من قريب أو بعيد...

إن الزحام يعم شوارع (روما).. مع الغضب بسبب اغتيال القلب الكبير.. لكن أين ذهب العراف؟ أين ذهب العراف (سبورينا) الذي تنبأ بمصرع (قيصر)؟

هل يملك أحدكم جوابًا؟

☆ ☆ ☆

٢ - رفعت إسماعيل..

نعود لموقفنا المعتاد...

كنت الآن قد قبلت بالفعل حقيقة أنني قد دفنت حيًّا..

كان هناك أولًا ذلك الرعب الوحشي.. الرعب الذي يفقدك كل تعقل أو بصيرة.. الرعب الذي يدفع المرء إلى أن يهشم قبضته على الباب تهشيمًا.. ذلك الباب المعدني الذي يفصلني عن عالم الشمس.. لكنه كان موصدًابعناية.. وكان صوت القرع عليه مكتومًا.. بالطبع لأن أكوامًا من التربة تسده من الخارج..

أدق.. أدق.. حتى أفقد الرشد ساعة.. ساعتين؟ ثلاثًا؟

أصحو والظمأ يحرق حلقي.. ومن جديد أدرك أنني هنا، وأن الذعر يقتلني..

لكنه لا يفعل!

أدق وأدق.. هذا هو الهلع.. الذي يفقدك كل قدرة على التفكير المنطقي.. لكن أي تفكير منطقي هنا؟ ما جدواه؟

على قدر ما أعلم لاتوجد حلول من أي نوع.. لاتوجد هواتف ولا أجراس ولا معدات أقتحم بها الباب..

أنا مجرد تمامًا.. واهن تمامًا..

إن الليل يقترب.. الضوء الخافت المتسلل يخفت بالتدريج وأنا أرتجف هلعًا..

وأدركت أن قلبي لن يتحمل كل هذا الانفعال.. يجب أن أهدأ قليلًا..

حاولت أن أرقد على الأرض وآخذ نفسًا عميقًا.. لكن الهواء خانق كريه معدوم تقريبًا..

لا شك أنني لم أنم ولكن فقدت الوعي.. وتمنيت ألا أصحو..

لكني صحوت..

ومن جديد عاد الذعر يغمرني.. جميل أن يتمتع المرء بالقدرة على الذعر.. كنت أحسب أنه ما من شيء يؤثر في.. هذا الذعر يدل على أنني مازلت حيًّا.. ولن يطول هذا..

☆ ☆ ☆

قالت لي (ماجي):

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستبقى ملكي للأبد؟»

- «نعم.. وحتّى تحترق النجوم. وحتّى...»

ولم أكمل العبارة لأن.. لأن النجوم كلها احترقت..

☆ ☆ ☆

وقال لي د. (لوسيفر):

- «مندهش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه..»

لا شك أنه بي يسعد ولي قلبه يطرب..

☆ ☆ ☆

وقال لي خالي وهو يمسك بالعصا.. العصا الرفيعة التي تذكرك بالخيزرانة:

- «وجدت هذا الكتاب الرقيع في مكتبك يا ولد يا (رفعت).. إن البداية هكذا دائمًا، ولسوف أجعل يديك تتألمان كلما رأيت كتابًا مثل هذا طيلة حياتك..»

والكتاب الرقيع كان - طبعًا - ديوان شعر لـ (ناجي).. كان خالي رجلًا طيبًا لكنه يؤمن أن المراهق هو مشروع زنديق.. وأنه لو غفل عني ثانية واحدة لتحولت إلى (أبو نواس).. يجب أن يعاملني بقسوة.. يعاملني بعنف.. يعاملني بوحشية كي لا يكتمل المشروع...

آلمتني يداي.. لكني لم أتعلم كراهية الشعر..

☆ ☆ ☆

وأصحو من الهذيان قائلًا لنفسي: مرحى! لقد بدأت أكلمهم وأسمعهم.. إنِّه الجنون.. لكن كيف يكون الجنون أليمًا قاسيًا بهذا الشكل؟ كنت أعتبره الراحة ذاتها.. حمقى كل من قالوا إن (المجانين في نعيم) إذن.. المجانين في جحيم..

الجديد في الأمر أنني بدأت أرى نفسي راقدًا بين هذه الأجساد.. قلت لنفسي إنِّه لا بأس بهذا.. لكن كيف أرى نفسي إذا كنت أنا نفسي؟ من أكون إذن؟

لحسن الحظ أن (رفعت إسماعيل) سليم إذن.. إنني أراه بوضوح.. هو ليس في خطر على الإطلاق.. إنِّه السلام..

لقد دنت النهاية.. فلأتل الشهادتين، ولكن عسى ألا أكون تأخرت أكثر من اللازم.. عسى ألا أكون قد مت فعلًا..

☆ ☆ ☆

كان الظلام يغمر المكان حين شعرت بلفحة الهواء البارد على وجهي..

شعرت باليد الغليظة التي تمسك بي وتجرني إلى الخارج.. شعرت باللهاث..

وحين فتحت عيني كانت السماء مرصعة بالنجوم.. ومن مرقدي على الأرض كنت أرى الرجلين كجبلين تراهما من أسفل.. وكان أحدهما يحمل كلوبًا مشتعلًا لا يكف عن الأزيز.. من الغريب أنني كنت أرى بدقة كل ذبابة مقابر وكل بعوضة كانت تحوم حول ضوئه.. وسألت نفسي: لصوص مقابر بهذه السرعة؟ إنهم لا يضيعون وقتًا...

وأسمع كلامًا لا أفهمه:

- «ألم أقل لك إنّه حي!»

- «ربما ليس هو.. ربما كان بسم الله الرحمن الرحيم..»

- «لا.. هذا هو.. لا شك في هذا..»

- «ولكن كيف؟ كيف؟»

وهناك من يبكي ويسبح الله.. وهناك من يفك عني القيود التي تحاصرني من كل صوب.. وشعرت بالماء على شفتي المتقرحة فرحت أشرب كالجمل بعد رحلة صحراوية طالت..

أخيرًا بدأت أفهم أين أنا.. لكني لم أجسر على أن اعتبر أنني نجوت..

ودنا مني أول وجه فأدركت أنني رأيته في مكان ما.. ولكن أين؟

- «لا تخف يا (رفعت) يا أخي.. أنا (رضا).. أخوك..»

وانفجر في البكاء وراح يحتضنني.. بينما الآخر يقول بصوت كأنه من عالم آخر:

- «إنّه مذهول.. كان الله في عونه..»

وثمّة من يقول لرابع:

- «أغلق هذه المقبرة.. سوف نحمله نحن..»

أنا مستند جالسًا إلى جدار رطب.. والظلام من حولي.. وهذا الوجه.. هذا الوجه أعرفه.. كان تذكره أسهل عليَّ من أي وجه آخر..

- «كنت تعرف!»

قلتها بصوت مبحوح ثم بصقت على الأرض جواره، لكن لم يكن في فمي لعاب على كل حال..

قال (فوزي شفيق):

- «لم أتحمل.. وليتك تعرف ما ضحيت به كي أنقذك.. لم يكن لي الحق في هذا»

ثم غمغم وهو يرمق الظلام:

- «لم يكن لي الحق على الإطلاق..»

بصوت مبحوح عدت أقول:

- «أنت.. تركتني.. يومين.. وكنت.. تعر...»

هنا جاء صوت (رضا) يقول في رفق:

- «مع من تتكلم يا (رفعت)؟ يا لك من مسكين؟ سامحنا يا أخي..»

رحت أبحث بين الوجوه الثلاثة عن (شفيق) فلم أر له أثرًا.. هل كنت أخرف؟ لن أندهش لحظة..

☆ ☆ ☆

للمرة العاشرة راحت (غيداء) تقرع الباب بيدها الرقيقة الشبيهة بالكريستال.. كان من الواضح أن محاولة أخرى لن تؤدي إلا إلى أن يتناثر البلور المهشم على درجات السلم..

وانفتح الباب المجاور، وظهر وجه كئيب جدير بقصص الرعب القوطي، حتى إنها لم تكن لتدهش لو دوّت الرعود وومضت البروق فجأة:

- «من تريدين يا آنسة؟»

كانت عيناها الجميلتان دامعتين حمراوين، وقد التفتت إلى الجار المخيف، وقالت:

- «د. (رفعت).. (رفعت إسماعيل).. هذا بيته.. أليس كذلك؟».

قال في تردد:

- «بلى.. أنا (عزت) جاره، وهو مختف من فترة.. هل يمكن أن...»

صاحت في هلع، وهي تتراجع عن الباب وقد راحت زاوية فمها ترتجف:

- «لا بد من أن أجده حالًا لابد!»

وقبل أن يفهم ما حدث كانت ترحل لتثب الدرجات أربعًا أربعًا وهو ما يناسب نحولها تمامًا..

وكان (عزت) قد اعتاد هذه الأمور.. إن من يكن جارًا لـ (رفعت إسماعيل) عليه أن يعتاد أي شيء.. ولو وجد عند الباب عشرة من (الزومبي) تتساقط أطرافهم وأصابعهم طيلة الوقت، لما فعل سوى ما فعله الآن..

قال شيئًا ما عن غرابة أطوار الناس هذه الأيام، وأغلق الباب وعاد إلى النحت..

☆ ☆ ☆

احتجت كما تعرفون إلى أسبوع كامل كي أسترد قواي، وقد قضيت الوقت في دارنا تعني بي (رئيفة) التي كانت متاعبها تكفيها.. كان جسمي مليئًا بالرضوض لكن لم تكسر أية عظمة لشدة

الغرابة، ويبدو أنني كنت أعاني ما تسمية التقارير الطبية بـ (ما بعد الارتجاج)..

طبعًا كان كل من يأتي يحكي لي القصة من البداية.. بكل تفاصيلها.. كيف أقسم للناس إنني كنت أبدو حيًا جدًّا، وإنه رأى خلجة في ركن فمي، لكن (الحانوتي) لم يصدّق حرفًا.. إلخ...

طبعا لن أغرقك في هذه التفاصيل المقبضة، فقد انتهى الأمر والحمد لله برغم أن ذكراه باقية للأبد، لكن الخلافة أنني لم أتصور قط كم أن الناس أذكياء عباقرة.. لقد كانت القرية تعجّ في ذلك اليوم بمن عرفوا يقينًا أنني حي، لكنهم أحجموا عن إخبار الآخرين بذلك..

السيارة؟ لم تعد لديَّ سيارة.. لقد وجدني الفلاحون مقلوبًا على جانب الطريق، وفشلوا في إعادتي إلى رشدي، ثم جاء طبيب عبقري من الوحدة الصحية للقرية المجاورة وضع مسماعه على صدري، ثم مط شفتيه وقال وهو يتنهد:

- «البقية في حياتكم..»

لم تكن الجنازة مهيبة جدًا ولا ضخمة جدًا، ولحسن الحظ أنني لم أحضرها، لأنّهم لم يبلغوا إلا عددًا قليلًا من أقاربي.. طبعًا لم يخطروا الكلية بعد لحسن الحظ.. أحمد الله على أن أحدًا في القاهرة لم يعرف، وإلا لكان عليَّ أن أحكي القصة ألف مرة.. بالإضافة إلى أن الموت من الأمور الخصوصية التي أكره أن تصير على لسان الجميع..

انتهى الأمر بسرعة، لولا أن (رضا) أخي وهو جالس في سرادق العزاء.. جاءه شاب ليخبره بشيء غريب..

بصوت واهن سألت (رضا):

- «كيف كان يبدو؟»

فكر (رضا) وضيق عينيه في ذكاء ثم قال:

- «ممتلئ هو.. طويل جدًا.. نعم.. طويل.. أصلع.. له شارب غليظ.. لون بشرته.. قمحي..»

ولما كنت أعرف (رضا) وفراسته فقد عرفت صفات الفتى بوضوح.. إنّه نحيل متوسط القامة أسمر اللون له شعر ثائر يتدلى على كتفه، وبالطبع بلا شارب.. إنه يصف - أو لا يصف - (فوزي شفيق)..

- «قال لي إنك حي.. طبعًا لم أسمح له بهذا الكلام وجذبته من تلابيبه وكدت أضربه.. لكنه كان مصرًّا وراح يحلف بأغلظ الأيمان... قال إنك مصاب بمرض يجعلك تتخشب ويحسبك الناس ميتًا.. أقسم على هذا وعلى أنه سمع صوت من يصرخ من داخل المقبرة.. أنا أكره إهانة الموت.. طبعًا بدأت ضربه حتى سال الدم من أنفه.. لكنه قال لي وهو يعوي ألمًا: إن الله شهيد على أنه أخبرني.. وإنني سأحمل دمك على رأسي إلى يوم القيامة..»

- «بيني وبينك يا (رفعت).. لعب الفأر في عبي.. ماذا لو كان على حق؟ وماذا لو كان مخطئًا؟ لتكونن فضيحتي في القرية (بجلاجل) وقتها، ولسوف يقتلني العار.. لأنني دنست قبر أخي..

«وبعد نهار من التردد اتجهت إلى اللحاد ومعي إبن عمي و(فرج).. وكان الرجل لا يعرف ما يقول، لكني كنت مصرًّا على أن يفتح لنا المقبرة سرًا في الليل..»

سألته وأنا أعرف الإجابة:

- «لكن ذلك الفتى الذي أخبرك كان معكم.. أليس كذلك؟»

- «نعم يا (رفعت).. لم يأت معنا.. بل إنّه تبخر.. فص ملح وذاب.. كان اسمه (مرسي أبو مازن).. بالتأكيد كان اسمه (مرسي أبو مازن).. نعم.. هو كذلك»

- «بل (فوزي شفيق) على ما أعتقد؟»

ضرب رأسه متذكرًا وقال:

- «نعم.. نعم.. (فوزي شفيق).. إن له نفس نغمة (مرسي أبو مازن) كما تعلم.. المهم أننا فتحنا القبر وكان هذا خير ما فعلت.. رباه! كلما فكرت في أنني كنت سأرفض أن...»

وانفجر في البكاء وارتمى في أحضاني..

كانت أمامي متاعب لا بأس بها الآن..

إن مشكلة أن تثبت أمام الجهاز الإداري والحكومي ـ في بلد الكاتب الجالس القرفصاء ـ أنك عدت للحياة الأمر يغريك بأن تعود إلى الموت لتريح وتستريح..

لكني ممتن لـ (فوزي شفيق).. ممتن له حقًّا..

فلولاه...

☆ ☆ ☆

٣ - محمود زاهر..

حين عدت إلى القاهرة، استمتعت كثيرًا بأن أحدًا لم يسألني أو يقل شيئًا.. لم يعرف أحد ولم يتصوّر أنّ هذا الكهل النحيل كان سجين القبر منذ أيام...

طبعا لن أتكلم عن الشرخ النفسي الذي أصابني، ولا عن حالة الوهن العامة والنوراستانيا التي كانت تجعلني أترنح كأنما أنا موشك على فقدان الوعي.. أنا أكره أن يقضي الإنسان حياته في وصف آلامه وأنواع الطعام التي تسبب له الانتفاخ وتلك التي تسبب الإسهال.. كل واحد منا مفعم بالمشاكل، ولا يحتمل المزيد ما لم تكن هذه مهنته.. فقط الطبيب والمحامي وصاحب ركن (لمشكلتك حل) يسمعون مشاكل الآخرين ولكن مقابل مال!

لا أدري لماذا جاء الفتى (محمود زاهر) إلى مكتبي.. إنها العطلة الصيفية قد بدأت و....

ثم تذكرت.. إنّه قلق.. لقد مر اليوم الموعود..

كان أحمق كعهدي به، نحيلًا كعهدي به، ينقب بإصبعه في أنفه كلما ارتبك كعهدي به، وراح يرجف كورقة.. وقال:

- «دكتور.. حمدًا لله! جئت مكتبك ثلاث مرات الأسبوع الماضي..»

- «ووجدتني؟»

قال في جديّة تامة:

- «لا.. لا..»

قلت وأنا أشير إلى نفسي:

- «كما ترى أنا بخير.. أكثر إرهاقًا ونحولًا وكل عظمة في جسدي تتألم، لكني بخير.. ولسوف أفترض أنك لا تعرف ما حدث..»

قال في صدق لمسني:

- «بالطبع يا سيدي.. كنت أعرف أنّ هناك كارثة مريعة ستحدث، لكني لم أعرف كنهها..»

أنا أصدقه.. ليست عندي أسباب كي أكذب ما يقول.. لكن هذا لا يمنع من أنّه يعرف بعض أشياء لا أعرفها وأريد أن أعرفها..

نهضت ـ دون كلمة ـ إلى الباب، واصطدمت بكتفه فتنحى في ارتباك.. ودون كلمة واحدة أخرجت المفتاح، وأغلقت الباب من الداخل.. ثم إنني عدت إلى مكتبي وعقدت أناملي متشابكة تحت ذقني ورحت أنظر إليه كأن شيئًا لم يحدث..

قال وقد بدأت (الكلوستروفوبيا) تتحرك في جوفه:

- «لكن.. لكن.. لماذا يا سيدي؟»

قلت في برود (فأنا أعرف أحيانًا كيف أبدو رهيبًا):

- «أريد منك معلومات دقيقة.. هناك من يدعى (فوزي شفيق).. أعتقد أن لديك فكرة عن الموضوع؟»

راح ينظر لي وللباب في هلع وتوجس.. لا بد أنه قدر أنني جننت تمامًا.. هذه هي اللحظة التي ينقضون فيها على ضحاياهم ليقضموا حناجرهم.. كلهم يفعل هذا..

قال لي وهو يتراجع ليلتصق بالباب:

ـ «ليس اسمه (فوزي شفيق).. أحيانًا يزعم أن اسمه (ماهر عبد الفتاح)..»

- «وهو الذي أخبرك بما ينتظرني..»

- «نعم...»

- «وهو الذي أعطاك أسئلة الامتحان؟»

هنا فتح فاه في بلاهة.. بدا كالفأر في مصيدة، لكن لم يكن هذا بالضبط هو ما أريده...

قلت له ضاغطًا على كلماتي:

ـ «اسمع يا بني.. أنا لن أستطيع أن أعاقبك بشكل رسمي على ما فعلت، لأن أحدًا لن يصدقني.. كل ما سأفعله هو أن أجعل حياتك عصيبة.. وثق من أنني سأفعل.. لكن يجب أن أعرف أولًا متى وكيف قابلت هذا الرجل أول مرة..»

☆ ☆ ☆

قال (محمود زاهر) في رعب لا أستغربه (لا تنسوا أني أعرف كيف أكون مرعبًا):

- «جاءني ذات يوم مع (شعبان) صديقي وابن قريتي.. أنت تعرف أنني أقيم في شقّة واحدة مفروشة مع خمسة من الشباب، أكثرنا في ذات الكلية..»

كنت أعرف هذه القصة تمامًا.. فلا تنسوا أنني ريفي وعشت في ظروف مشابهة جل فترة الدراسة.. حياة قاسية لكنك تتعاطى مخدرًا حلالًا فعالًا اسمه (الطموح).. غدًا سأكون أفضل.. غدًا سأكون ثريًا.. غدًا يأتي مصورو (تايمز) كي يلتقطوا صورة لهذا الفراش وهذه الدرجات المهشمة.. ولسوف يرون تلك العلامات التي كتبتها أنت على الجدار جوار رأسك في ليلة باردة تعسة: ثلاثة أيام لمادة كذا.. يومان لمادة كذا.. لا بد من اختلاق وقت لماذا كذا.. إلخ..

لقد تحدّثت عن مثل هذه التجربة بالتفصيل في (بيت الأفاعي) فلا داعي للتكرار.. نعود لقصة (محمود):

- «لقد زعم أنه قريبي ومن قريتي لكنه نزح عنها منذ زمن، وكان يعرف كل شيء عن عمي وخالي ومشكلة القيراط المتنازع عليه.. إلخ.. وبدأ يزورني بانتظام ويضيع وقتي بانتظام... في الحقيقة لم يكن لطيف المعشر للغاية، ولا أخجل من الاعتراف بأنني كنت أخافه إلى حدٍ ما..»

وفي ذات يوم اعترفت له بالحقيقة المريرة:

- «الامتحانات على الأبواب وليس من وقت يضيع..»

لم أكن عبقريًا ولم أكن آمل في أن أغير تاريخ الطب، لكن - أنت تفهمني - حتى البلطجية يهابون الامتحان، ويحتاجون إلى وقت من العزلة قبله... بينما هذا اللزج...

قال لي في ازدراء:

- «لا أحسبك ستحقق الكثير.. لو سمحت لي بالكلام فأنا أعتقد أنك محدود الذكاء، والمثابرة لن تحقق لك أكثر من مستواك العقلي المحدد سلفًا.. من دون استذكار أنت راسب... بالاستذكار العنيف ستنجح بكثير من العسر..»

لم أجد ما أرد به بل بقيت فاغر الفم في غباء.. لست من العباقرة الذين يردون على الإهانات فورًا كأنها مباراة تنس طاولة..

أردف قائلًا:

- «إليك نصيحتي.. ستنزل الآن إلى أقرب مكتبة للكتب الطبية فتبتاع هذه المراجع..»

وفي يدي وجدت حفنة من الجنيهات لم أر مثلها قط، وفي اليد الأخرى وريقة عليها أسماء كتب باللاتينية... بينما أردف الرجل:

- «هات الكتب.. وحين تعود ستبحث عن إجابات هذه الأسئلة وتحفظها بعناية.. ولا بأس من التردد على مكتبة الكلية ستتعلم كيف تكتبها عند استيقاظك من النوم.. في الحمام.. وأنت نائم.. في أثناء الأكل.. وأنت تحتضر.. كم يبلغ مربع رقم اثنين؟»

شدهت للحظة، ثم رددت بسرعة تلقائية:

- «يبلغ أربعًا..»

ابتسم في ثقة وتهكم وقال:

- «هذا ما أصبو إليه.. أريد أن تصير هذه الإجابات طبيعة ثانية لديك لا تحتاج إلى وقت من التفكير..»

سألته في جزع:

- «هل.. هل تعرف الامتحان؟»

- «لا يا أحمق.. إن سؤالًا من الأسئلة لم يكتب بعد.. لكن يجب أن تثق بي..»

☆ ☆ ☆

عند هذا الحد من القصة، أوقفت الفتى وسألته:

- «ليكن.. لكن ألم يتحرك في أعماقك ذلك العضو الضامر لديك المسمى بالضمير؟ ألا ترى في هذا غشًا صريحًا؟»

قال في خجل:

- «بلى يا سيدي.. لكن لم أكن أستطيع التراجع وشخصية الرجل كانت كاسحة.. بينما أنا...»

شخصيتي ضعيفة.. هذا ما يريد قوله.. والحقيقة أنني لم أستطع الآن أن ألوم الفتى تمامًا.. لقد كان فريسة معدومة الحيلة في قبضة رجل مخيف غريب... أي أنه لم يجلس مع (فوزي) ذات ليلة وعلى وجه كل منهما ضحكة شيطانية، ليسرقا أسئلة الامتحان.. إن الفتى البائس هو من طراز (جعلوه فانجعل)..

المهم أن الفتى حفظ الأسئلة إلى درجة الإجادة.. من الغريب أن الشك لم يخامره لحظة في أنها صحيحة.. كان من الواضح أن (فوزي) - أو (ماهر) هذا - يعرف ما يقول، وبالفعل برهنت الامتحانات على أن الرجل دقيق جدًا..

لكنه - (محمود) - لم يجسر بالطبع على سؤاله عن الامتحانات الشفهية. و(فوزي) لم يعرض خدماته.. كأنما اكتفي بأن يعرف (محمود) قدر ما يكفيه بالضبط للنجاح.. وأعلن أنه سيختفي من حياته تمامًا، لكنه يطلب منه خدمة لا بد من تنفيذها..

- «طلب أن تبيعه روحك طبعًا؟ إن عقدة (فاوست) هذه...»

لكن الفتى لم يكن قد سمع عن (فاوست) قط.. وبدا مستعدًا لأن يقسم على أنه لم يلق (فاوست) ولم يتكلم معه.. فقط قال في صدق:

- «طلب مني أن أحذرك مما سيحدث يوم ١٧ يونيو..»

وهو ما حدث، وكان محقًا كالعادة..

بيد ثابتة فتحت باب الحجرة له كي يخرج، لكني أمسكت بمعصمه كي لا يفر، وقلت له:

- «كيف أجد (ماهر) هذا؟»

- «لا أعرف يا سيدي..»

- «وصديقك الذي جلبه لشقتك؟»

- «(شعبان)؟ إنِّه في القرية الآن يا سيدي.. الإجازة و...»

قلت في عصبية (فأنا أعرف كيف أبدو عصبيًا):

- «أريده.. يجب أن يتصل بي أو يأتي إلى هنا.. تذكر أنني أعرف عنك أشياء مرعبة الآن..»

نظر لي في هلع، وأدركت أنه سيفعل كل ما آمره به.. لا أحب القمع لكنه أحيانًا عظيم النفع..

☆ ☆ ☆

٤ - شعبان أبو عبلة..

(شعبان) - على النقيض من ابن قريته - ذكي بلا شك.. عينان خضراوان بلون البرسيم تلمعان تحت شعر بني مجعد.. ليس من الطراز الذي يتعاطى الطموح لكنه ابن سياسة الممكن.. وعرفت أنه سينجح في حياته من دون شك، ليس لأن الطموح سيئ، ولكن لأن ذكاءه مخيف..

كان حذرًا حين جاءني في مكتبي، وكان مختصرًا قاطعًا..

قال لي:

- «(ماهر) هذا ليس صديقي.. قابلته في السجل المدني، بينما أنا أستخرج هوية جديدة... لفت نظره أنني من نفس قريته.. واعترف بأنه هجرها من زمن.. سألني عن (محمود زاهر) قريبه.. وهكذا سارت الأمور.. كانت مصادفة غريبة..»

كان هذا مخيبًا للأمل.. أي أنه لا يعرف مسكنه..

قلت له في ضيق:

- «هذا مخيب للأمل.. أي أنك لا تعرف مسكنه..»

قال وهو يفكر في اهتمام:

- «كلا.. لقد أراني بيته مرة.. قال لي إنّه يسكن هناك..»

وهذا ليس دليلًا.. حيلة قديمة عمرها ألف عام.. مثل حيلة رقم هاتف مرفق المياه الذي أعطيه لكل من يطلب رقم هاتفي.. لكني قررت أن أمضي إلى النهاية...

- «هل يمكن أن تدلني عليه؟»

كان ذكيًا كما قلت، ولهذا لم يضيع الوقت في أسئلة سخيفة.. كان يعرف أن لدي غرضًا مهمًا، وبالطبع لن أصارحه به.. فقط هو مرغم على أن يخبرني..

قال وهو يتهيأ للانصراف:

- «لا بد من أن تأتي معي.. فهو بلا عنوان.. فقط أعرفه حين أراه.. لقد دخلته مرة..»

هنا بدت لي المهمة غير عارية من النفع.. ثمّة خيط.. ثمّة شيء يمكن الإمساك به...

☆ ☆ ☆

طبعًا لم تكن معي سيارة.. سيارتي تقف الآن في مدخل (كفر بدر) إلى جانب الطريق، وقد تحولت إلى علبة تبغ تخلص منها كاره للتدخين، بانتظار رأي تجار الخردة.. ويبدو أنها تحولت إلى عبرة وموعظة لمن يراها... الأطفال الأشقياء الذين لا يشربون اللبن تتحول سياراتهم إلى هذا..

وكان العنوان الذي بلغناه في (حدائق الزيتون).. لم يكن هناك مترو آنذاك، وقد وصلنا بعد رحلة شاقة نوعًا في قطار الضواحي.. وكانت هناك عدة شوارع اجتازها الفتى في ثقة حتى بلغ منزلًا من طابقين، وهناك وقف على الباب ونظر لي نظرة معناها (هذا هو العنوان.. هل لديك تعليمات؟)..

لم أرد. وكان هناك جرس جواز الباب المعدني الموصد فرحت أقرعه في إلحاح وأنظر لأعلى..

- «نعم!»

كان هذا الواقف في شرفة الطابق الثاني شابًا من الطراز المصري التقليدي.. طالب هو في الثانوية العامة غالبًا، مجعد الشعر يقف بالفانلة الداخلية وسروال منامته، جوار قلة الماء الموضوعة في صينية لتبرد على سور الشرفة..

صاح (شعبان) بأعلى صوته:

- «هل (ماهر) موجود؟»

توارى رأسه من الشرفة، ثم سمعنا صوت شبشبه يضرب درجات السلم التي ينزلها اثنتين في المرّة، وانزاح مزلاج وفتح لنا الباب وهو يلوك شيئًا في فمه..

- «(ماهر) في الطابق الأول.. لكنه لم يغادر شقته منذ يومين...»

ثم صعد الدرجات وأشار إلى باب شقّة موصد، وقال:

- «هذا هو.. اقرعا الباب ولكن بعنف، لأنّه لا يفتح إلا بعد إلحاح..»

وقبل أن أسأله سؤالًا آخر كان قد صعد الدرجات بسرعة البرق، تاركًا إيانا نرمق الباب للحظات..

رفعت يدًا مترددة، وقرعت.. لا رد.. قرعت.. لا رد..

في النهاية جاء الصوت المألوف من الداخل...

- «انتظر!»

بهذه السهولة؟

نظرت إلى الفتى في هدوء، ثم قلت له وأنا أربت على كتفه:

- «لقد فعلت ما أردت منك أن تفعله.. والآن يُمكنك الرحيل..»

فقد كانت اللحظات التالية من الأشياء التي لا أرغب في أن يعرفها كل سكان الجمهورية..

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه..

☆ ☆ ☆

لكني لم أتوهم شيئًا..

لقد انفتح الباب ورأيت (فوزي شفيق) يقف هناك.. كما هي العادة على ما يبدو كان يرتدي سروال منامة وفانلة داخلية، وكان ذقنه غير حليق.. باختصار كان في أسوأ حال.. بل أجسر على القول إنِّه مريض.. هذا الشحوب ليس ناجمًا عن الاكتئاب..

لم يبتسم بسماجة.. لم يهز رأسه بثقة.. لم يطوح رأسه إلى الوراء ضاحكًا..

لقد كان مندهشًا بحق.. مذهولًا بحق..

قلت له:

- «من الجلي أنك لم تتنبأ بقدومي..»

- «لم يعد هذا واردًا، ولكن ادخل...»

ودخلت الشقة التي كانت فارغة تمامًا.. لا أثاث فيها من أي نوع اللّهم إلا غرفة مغلقة في طرف المكان، ومن الواضح أنه جمع كل لوازم حياته هناك.. كانت هناك رائحة غير مريحة ناجمة عن نقص التهوية والإفراط في التدخين.. شقّة عزب بلا جدال..

قال لي، وهو يُخفي بعض الخرق المتناثرة على الأرض:

- «معذرة.. أعتقد أن الغرفة ستكون مناسبة..»

كدت أقول له إنني لن أطيل الزيارة، لكن هذا كذب.. بالطبع سأطيلها..

الغرفة بالمناسبة هي فراش غير مرتب، واضح أنه يستعمل كمكتب وأريكة.. ومنضدة عليها أوراق وموقد صغير وبراد شاي.. وثمّة جهاز كاسيت صغير. إنّه عاشق أيضًا لأن هناك صورة قديمة لفتاة على المنضدة.. فتاة رقيقة والصورة ملونة، لكنّها قديمة جدًّا كأنها من عشرينات القرن العشرين.. مستحيل.. لم يكن هناك تصوير ملون أو على الأقل لم يكن متوافرًا للعامة.. ربما كان مجرد حلم في معامل شركة (أديسون)..

جلست على الفراش ووضعت ساقًا على ساق، وقلت له:

- «جئت أشكرك على أنك لم تتركني أدفن حيًا.. صحيح أن إنقاذي تأخر لكنه حدث..»

أخرج لفافة تبغ من علبة شبه فارغة، دسها في فمه وكور العلبة ليقذفها في الركن.. ثم أشعل اللفافة من الموقد المشتعل.. ولم يعلق...

قلت:

- «أضف لهذا أن نبوءتك أخطأت قليلًا.. كان من المفترض حسب كلامك أن يأتيني الخطر في القرية لا خارجها.. ربما لو لم أصغ لنصيحتك لما حدث الحادث..»

- «لو حرف امتناع لامتناع..»

قالها في شيء من السخرية وهو يعتصر لفافة التبغ بأسنانه...

عدت أسأله:

- «هل هذا بيتك منذ زمن؟»

قال وهو ينفث الدخان كثيفًا:

- «الجماعة فوق يؤجرون هذه الشقة.. وقد استقررت فيها منذ ثلاثة أشهر.. إن اسمي هنا (ماهر)..»

- «عرفت هذا.. لكن هل اسمك الحقيقي (فوزي)؟»

قال في لا مبالاة:

- «أسماء.. أسماء... لماذا تعلق عليها هذه الأهميّة؟ أنا هو، أنا بصوتي وشكلي وأفكاري والهالة الخاصّة بي.. فلا يهم أي اسم أحمل..»

قلت له في هدوء:

- «على كل حال أنت تعرف أني لم آت كي أعرف اسمك الحقيقي.. جئت أطلب تفسيرًا..»

- «ولماذا تفترض أنني سأقدمه لك؟»

- «هذا حقي البشري.. أنت ملأت حياتي بالألغاز، ومن واجبك أن تزيل بعض علامات الاستفهام كي أستطيع العودة إلى الحياة..»

- «وأنت أفعمت حياتي تعقيدًا وأفشلت كل شيء.. أنت لن تفهم أبدًا ما خسرته أنا حين أنقذتك من الدفن حيًّا.. كنت مضطرًا.. لم أتحمل أن يموت إنسان ببطء في قبر وأنا أعرف التفاصيل..»

قلت بنبرة المواساة:

- «لا يجب أن تلوم نفسك كثيرًا.. كلنا نلك الرجل.. ثمة ضعف غريب فينا نحن البشر.. نحن لا نتحمل أن يموت إنسان بريء ونحن نعرف بموته.. من المنطقي أن تتركني في القبر وتلتهم بعض الشطائر وتنام ملء جفنيك..»

ظل صامتًا برهة، ثم قال لي وهو يضع أصابعه في حمالتي فانلته بكبرياء:

- «د. (رفعت).. لا أعتقد أنني سأفيدك كثيرًا.. أرجو أن تتركني وشأني..»

وفجأة بدأ يهتز..

أنا أعرف هؤلاء الذين يهتزون.. إنهم لا يوحون بالثقة كثيرًا كما تعلم.

ثم إنّه سقط على الأرض.. عند قدمي..

☆ ☆ ☆

٥ - ميشيل دو نوستراديم..

ها هو ذا قد جاء..

يدخل إلى البلاط فيتصلب الحراس، يرمقونه في فضول.. تتوتر أناملهم على الرماح، والحقيقة أن مسلكهم كان أقرب إلى السخف، فالرجل لا يثير أي رعب في القلب.. هو رجل عجوز طيب كالذي تراه في رسوم (ديزني)، ولو أردنا الدقة لقلنا إنّه يثير الشفقة.. خاصة وهو وسط هذا البلاط المهيب.

ليس بالرجل الذي تتجمد الدماء في العروق لرؤيته كما يقولون..

الملكة (كاترين دو مديتشي) ملكة فرنسا العظيمة جالسة على عرشها في قمة زينتها، ويبدو أنها قررت أن يدب الهلع في قلب هذا الضيف... نوع من القهر النفسي لا مبرر له هو.. نوع من استعراض العضلات..

والحقيقة التي عرفها الجميع هي أن الموضوع يتعلق بامتحان...

الملكة التي قرأت كثيرًا في علم الغيب، وصادقت عرافين كثيرين، كانت تريد أن تمتحن العراف العجوز الواهن..

يقترب الرجل وسط البروتوكول اللزج الذي تفننت فيه فرنسا.. من هنا نشأ فن (الروكوكو) المثير للاشمئزاز الذي نصر على أن نزخرف به صالونات بيوتنا، معتقدين أننا معجبون به، على غرار (فينوس) التي ترضع ابنها، والفتاة على الأرجوحة، والويل كل الويل للعريس الذي لا يبتاع لعروسه صالونًا عليه هذه السخافات..

يقترب الرجل، ثم يتوقف أمام الملكة.. في أدب نعم لكن في كبرياء كذلك.. الملوك يذهبون ويأتون أمّا هو فباق.. أو - على الأقل - يعرف ما لا يعرفون..

قالت الملكة بطريقتها المليئة بالتعالي وهي تعبث بحبات اللؤلؤ على صدرها:

- «اقترب أيها العراف.. أنت (ميشيل دو نوستراديم).. أليس كذلك؟»

- «بلى يا مولاتي.. إنهم يطلقون عليَّ (نوستراديموس)..»

- «أنت من (بروفنس).. أليس كذلك؟»

- «(سالون بروفنس) يا مولاتي..»

فرقعت إصبعين من يدها اليسرى، فتقدم شاب منمق يضع مجموعة من الأوراق بين يديه.. فتحتها وراحت تقلبها، ثم قالت:

- «أنت صاحب هذا الكتاب.. اسمه (قرون).. اسم غريب.. ألا ترى هذا؟»

بدا أنه يغالب رغبته في الانفجار أو أن يقول لها: (وأنتي مالك).. لكنه اكتفي بأن قال:

- «للوهلة الأولى هو كذلك يا مولاتي..»

نظرت حولها حتى وقعت عيناها على عراف.. نعم عراف جدًّا.. لو رأيته في قاموس لعرفت معنى كلمة عراف.. هكذا يرسمونهم في الرسوم الكاريكاتورية التي توضع جوار عمود (حظك اليوم)..

قالت وهي تشير إلى الرجل:

- «هذا منجّم بلاطي.. (جورك).. أنت تعرفه طبعًا..»

في أدب هزّ (نوستراديموس) رأسه وقال:

- «نعم.. لي الشرف..»

- «يقول (جورك) إن زوجي (هنري الثاني) سيموت في مبارزة.. وقد جئت بك - بعدما سمعت عنك - كي تؤكد أو تنفي هذه المعلومة..»

بدا التردد على الرجل.. احمر وجهه قليلًا ثم قال:

- «في نبوءاتي أن سيدتي ستعيش طويلًا.. ولسوف يتربع أولادها الثلاثة على العرش..»

- «أنت لم تجب سؤالي..»

عاد يقول في أدب:

- «في النبوءة رقم 55 سيقوم ابنك (تشارلز التاسع) بإبادة (الهجنوت) ولسوف يشنق رئيسهم..»

بدا التململ الشديد عليها ومن جديد قالت بصوت جليدي:

- «أيها العراف.. أنت تتهرب من الإجابة عن سؤالي..»

ساد البلاط صمت رهيب، وفي النهاية تكلّم الرجل.. كانت كلماته بطيئة محيرة رهيبة تخرج كأبيات الشعر:

«الأسد الصغير سيهزم الأسد الكبير..

في مبارزة فرديّة..

سيخترق عينيه في قفص ذهبي..

يصبح الجرحان واحدًا..

ويموت ميتة شنيعة!»

ثم رفع عينيه الناريتين نحو الملكة وقال ببطء:

ـ «هل أجبت سؤال مولاتي؟»

☆ ☆ ☆

ويميل أحد الحراس على رفيقه يسأله همسًا:

- «من هذا؟»

- «ألا تعرفه يا أحمق؟ إنّه (نوستراديموس) الذي تتحدّث فرنسا كلها عنه.. بل وأوروبا.»

نعرف نحن أن (نوستراديموس) ولد عام 1503 في مقاطعة (بروفنس)، ويقال إنّه يهودي الأصل.. اعتنق أبواه المسيحية قبل ولادته بعامين، فقط كي ينفذا مرسومًا بابويًا يخير اليهود بين المسيحية أو الرحيل..

يقولون إن طفولته كانت غير عادية، وكان له عقل جبار مولع باللغات بأنواعها.. العبرية طبعًا واللاتينية واليونانية.. إنّه في هذا يختلف عن كل العباقرة الذين يكونون في طفولتهم أغبى من الذباب.. وبرغم أنه في شبابه اختير لدراسة الطب، فإن اهتمامه بالفلك كان عظيمًا..

عام 1529 يظهر اسمه في سجلّات جامعة (مونبلييه)، ويمنح درجة الدكتواره في الطب، كما أنه عالج مرضى الطاعون في مدينة (بورد) إبّان انتشار الطاعون فيها..

إلى هنا تنتهي حياته العادية، وتبدأ حياته الأخرى التي هام فيها على وجهه ست سنوات كاملة بعدما تتلمذ على يدي منجم مشهور اسمه (سكاليجر)...

ثمة نبوءة شهيرة عنه في تلك الفترة، حين رأى راعي أغنام يدعى (فليكس بيرتي) في إيطاليا.. هنا دنا منه (نوستراديموس) وجثا على ركبتيه أمامه، وقال:

- «إنني أخضع لقداسته!!»

فيما بعد حين جاء العام 1585 صار الراعي راهبًا ثم صار كاردينالًا.. ثم أصبح هو البابا (سكووتس) الخامس.. وكان هذا بعد أربعين عامًا من كلمات (نوستراديموس)، وبعد موته هو نفسه..

عام 1550 نشر (نوستراديموس) مجموعة نبوءاته التي اشتهرت باسم (قرون)، وهي تحوي نحو ألف نبوءة تشمل تاريخ العالم القادم حتى العام 3797.. وقد كتبها بطريقة الرباعيات الشعرية..

بعض هذه الرباعيات قد ضاع للأبد، والبعض قيل إنّه مدسوس عليه.. لكن الكتاب ولا شك بالغ الشهرة، وقد ساعدت لغته الغامضة الممزوجة بالعبرية واللاتينية على أن تجعله كالثوب الفضفاض الصالح لكل حدث.. لا أريد أن أتدخل في الأحداث، لكني لو نشرت اليوم نبوءة باسمي تقول:

- «غدًا تسيل الدماء في بلاد النهر الأعظم، بينما الحاكم الكبير يرى سقوط مملكته..»

فمن يستطيع أن يكذبني؟ ستكون هذه النبوءة صالحة لصعود وسقوط (بونابرت) و(هتلر) وربما (نيكسون) في حرب فيتنام.. وأية بلدة في العالم ليس بها نهر أعظم؟ بل إنني أضمن لك أنها صالحة للقرون القادمة ما لم تقم الساعة قبلها طبعًا!

دعونا نعد لقصتنا كي نعرف ما حدث للملكة..

☆ ☆ ☆

إن ما تمتاز به القصص على الحياة هي انها تظهر لك الخيط الخفي الذي يربط بين الوقائع، والذي لا تراه أنت في خضم الأحداث..

لقد مرّت أعوام ونسيت الملكة ما قاله عرافها..

لم لا واليوم يوم زفاف ابنة زوجها؟

البلاط كله في أبهى صورة، والأعياد والاحتفالات تعم الشوارع، بينما البسطاء الذين لاناقة لهم ولا جمل وجدوا أنفسهم فرحين - بلا سبب يعنيهم إلا أنّ الملك مسرور - فراحوا يرقصون طربًا..

في البلاط تؤدى الرقصات الرشيقة، مع مزيد ثم مزيد من التحذلق في البروتوكول والترف.. وهو شيء كما قلنا يميز البلاط الفرنسي عن سواه...

ثم يخرج الجميع إلى حلبة المصارعة وهي الطقس الأهم في الأعياد هنا..

الملك (هنري الثاني) يضع خوذته الذهبية الفاخرة على رأسه.. وينزل إلى الحلبة مهيبًا رائعًا.. هو ملك ابن ملك.. هو قوي ابن قوي.. هو متأنق ابن متأنق..

والآن يخرج للقائه نبيل هو الكونت (دي مونتجمري) الشاب الوسيم الذي يحاول أن يبدو فارسًا بالإضافة لوسامته... سيكون هناك الكثير من اللعب بالرماح، فهذا يلهب مشاعر المشاهدين، ولسوف ينتصر الملك على سبيل المجاملة طبعًا لأن أحدًا لن يجرؤ على هزيمة ملك..

هل نسيت أيتها الملكة ما قاله (نوستراديموس) منذ أعوام؟ بالفعل نسيت وهذه - كما قلنا - من النقاط القاسية في الحياة.. يسهل عليك أن ترى الخطر الداهم وأنت تقرأ هذه الأحداث بعد سطور من نبوءة العراف، لكن في الواقع لا تبدو الأمور بهذا الوضوح..

وبسرعة حدثت المأساة..

لقد اندفع الكونت الشاب المتحمس...

«الأسد الصغير سيهزم الأسد الكبير..

في مبارزة فرديّة..»

... والرمح في يده، ولم يدر كيف انغرس الرمح في الخوذة الذهبية لمليكه...

«سيخترق عينيه في قفص ذهبي..

يصبح الجرحان واحدًا..»

... وعلى الفور هوى الملك من فوق فرسه المطهم.. لقد تهتك مخه بعدما اخترق الرمح تجويف عينه..

«ويموت ميتة شنيعة!»

... فقط عندها تذكرت الملكة النبوءة وهبت واقفة..

أطلقت صرخة عاتية.. بعدها ساد الصمت...

☆ ☆ ☆

نبوءات كثيرة نجحت لـ (نوستراديموس)، ونبوءات كثيرة خابت لعل أشهرها ما قاله:

«سيهبط من السماء ملك الرعب العظيم في الشهر السابع من العام 1999.. وسيحكم المريخ كوكب الحرب لصاحب الحق..»

صدرت كتب كثيرة تتوقع إذن أن العالم سينتهي - أو على الأقل سيدمر أكثره - في شهر يوليو عام 1999.. ولما كنا جميعًا هنا والحمد لله، فإننا نجرؤ على الشك في صدق هذه النبوءة، والكلام مطاط على كل حال.. فكلما ثبت خطأ نبوءة، قيل إنها مدسوسة على الرجل..

على كل حال توفي الرجل عام 1566، بعد ما تنبأ بكل شيء.. ربما بالذبابة التي تحوم حولك الآن لدى قراءتك هذه الكلمات.. يقول تلميذه والملخص الدائم له (شافيني) إنّه استودعه إلى الغد، لكن العراف قال له:

- «سأكون ميتًا في الغد..»

ولم يكذب الرجل خبرًا، ربما ليثبت أنه صادق حتى النفس الأخير..

لكن ما دوره في هذه القصة؟

يبدو أنني صرت عجوزًا مخرفًا بالفعل..

☆ ☆ ☆

٦ - فوزي شفيق..

وداعًا أيها الغريب...

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا أيها الغريب..

☆ ☆ ☆

قالت لي الممرضة إنّه أفاق..

كنت أعرف هذا على كل حال حين لمحت ساقه تنثني تحت الملاءة.. وحين سمعته يئن..

وجاء د. (رفعت) زميلي المخضرم، ليهمس في أذني:

- «كل التحاليل تؤكد أنه مريض جدًا، لكن بأي شيء؟»

مطت شفتي السفلى في غباء.. لا أعرف إنسانًا انخفضت خلايا دمه البيضاء إلى هذا الحد، وارتفعت حرارته وسرعة الترسيب في دمه.. بالإضافة إلى كل تلك العقد اللمفاوية تحت إبطيه، وفي خن فخذه.. إن التشخيص المبدئي يوحي بأنها أنيميا فشل النخاع.. ولا يبعد أن يكون سرطان الدم هو السبب..

قلت لـ (رأفت) وأنا أدس المسماع في أذني:

- «سنرتب أخذ خزعة من العقد اللمفاوية، ولربما فحصًا لنخاع العظام.. لا أرى الأمر على ضوء آخر، فلا يوجد ضوء في نهاية النفق..»

ودنوت من الجسد النائم، ووضعت المسماع على صدره الذي كان يعلن بلا كلمات عن الالتهاب الرئوي..

فتح عينيه، وكان ذكيًا من الطراز الذي لا يسأل أين أنا.. أنتم تعرفون أن البشر نوعان: نوع يسأل أين أنا ونوع يستنتج على الفور..

قال لي همسًا (وهو ما سمعته كانما هو من مكبر صوت):

- «يجب أن أرحل.. قل لهم أن يتركوني وشأني..»

قلت وأنا أمرر المسماع:

- «صه لو سمحت.. شكرًا.. كنت أتمنى أن... شهيق! زفير! كنت أتمنى أن أفعل لكنك مريض للغاية يا بني..»

- «ليس هذا بجديد.. وليس بوسعكم عمل شيء..»

- «شهيق! زفير! نحن لم نعرف أصلًا ما هذا الذي لا نستطيع عمل شيء بصدده..»

- «لن تعرفوا.. إن ثلاثين عامًا تفصلكم عن...»

ثم انفجر في السعال.. ومن بين دموعه همس:

- «كح.. كح.. لا تكن أحمق.. إن مرضي لشديد العدوى.. بل إنني لقنبلة على قدمين، كح.. كح.. وإنني لأسائل نفسي عما إذا كنتم قد هلكتم جميعًا!»

ارتجف رعبًا. إنّه يعرف ما لا نعرف..

عدت أسأله:

- «هل لمرضك هذا اسم؟»

- «إنّه مرض (سمولنسك)..»

على قدر علمي لا يوجد مرض يحمل هذا الاسم في أي مرجع طبي.. أنا لست (أبقراط) لكني على الأقل سأذكر الاسم لو صادفته.. لكني عدت أسأله:

- «شهيق! زفير! هل ينتقل بالتنفس؟»

- «على قدر علمي ينتقل بنقل الدماء الملوثة.. لكني لست طبيبًا..»

- «لست طبيبًا؟ يبدو أنني نسيت هذا.. إذن أدعوك لأن تخرس قليلًا..»

انتهيت من الفحص فغادرته، وأنا أفكر في ملابسات ما حدث.. لماذا الآن؟ كان في أتم صحة من قبل.. بل كان غير قابل للهزيمة..

وفي غرفتي بحثت عن مرجع (إيسلباشر) الطبي الرهيب الذي يصفه الطلاب بالتابوت، وأصفه أنا بالكومودينو.. بحثت حتى كلت عيناي عن مرض (سمولنسك) فلم أجده.. طبعًا لم يكن هذا عصر الإنترنت وما كنت لأحسن استعمالها على كل حال..

كالعادة يواصل الأخ (فوزي شفيق) إثارة حيرتي وبعثرة علامات الاستفهام كي أتعثر فيها كلما مشيت في الظلام...

☆ ☆ ☆

قابلت (غيداء) للمرة الأولى عصر ذلك اليوم..

كنت في داري أحاول جاهدًا أن أنتزع من قطعة اللحم المتجمدة ما يكفي لغدائي.. أنتم تعرفون أنني أنسى دومًا أن أخرج اللحم من الفريزر ليذوب، وهكذا أجد نفسي وقت الغداء مهددًا بأن أموت جوعًا، أو أحاول الحصول على أي شيء كأنني كلب (هسكي) وجد بقايا (ماموث) في ثلاجات سيبريا العملاقة..

دق جرس الباب فاتجهت لأفتحه متوقّعًا أن أرى....

يبدو أنّ هناك قانونًا يحتم على من تدعى (غيداء) أن تكون جميلة كأحلام الأطفال.. وقد كانت كذلك.. لكن أهم ما لفت نظري في وجهها هو حساسيته الشديدة.. مرهفة تكاد ترى العروق الزرق تحت بشرة وجهها شبة الشفافة.. ثمّة شيء مألوف في وجهها يذكرك بوجه معين، بالإضافة إلى كل النضارة التي راحت إلى الأبد.. يخيّل إليَّ أنني في زمن ما - لا أعرف متى - كنت نضرًا كزهرة، ثم لم أعد.. وكانت هي قادمة من تلك الحقبة..

شعرت بنفس الارتباك الذي يحسّ به كلب (الهكسي) حين تضبطه وفي فمه قطعة من لحم (الماموث).. يد فيها سكين ويد ملوثة بالدم.. و...

- «عدم المؤاخذة.. أنا...»

قالت باسمة:

- «لا عليك.. لقد جئت من دون موعد.. أنا آسفة..»

بالطبع لم أدعها إلى الدخول، ولم يبد أنها تتوقع مني ذلك.. فقط قالت إنها (غيداء) وإنها جارتنا.. ليس في هذه البناية، وإنها تعرف أنني خبير بأمراض الدم، وقد مرّت عليَّ من فترة لكني لم أكن موجودًا..

- «طبعًا.. كنت في القبر.. أعني.. أعني أنني كنت مشغولًا..»

وبدت لي فكرة أن أدفن دون موت سوقية إلى حد كبير.. بل مخجلة كأنها نكتة بذيئة..

قالت لي في تهذيب:

- «أنا (غيداء فهيم).. كنت قد أردت أن أطلب رأيك بصدد أعراض تتكرر وتخيفني.. أعرف أنه لا عيادة لك، ولم أجد طريقة أخرى لأخذ رأيك إلا أن أدق بابك.. لم أجدك وأخبرني جارك الـ... المهذب أنك لست بالدار من فترة، هكذا قصدت أحد الأطباء.. والحمد لله أشعر بأنني أفضل..»

- «حمدًا لله.. لكن ما دوري ما دمت شفيت؟»

- «أردت الإستيثاق من أن المشكلة انتهت فعلًا..»

بدا لي غريبًا أن أبدي رأيي الطبي وأنا أرتدي المنامة وأحمل سكينًا في يدي.. لكن لم يكن أمامي مفر...

القصة أنها قصدت داري دون أن يعرف أحد من أهلها، لأنها بدأت تخاف تلك الأعراض التي تشعر بها.. كانت حالتها النفسية في غاية السوء حتى طلبتني فلم تجدني.. كانت تعاني نزفًا متكررًا وبقعًا حمراء في الجلد.. ولسبب لا يعلمه إلا الله قررت أنها مصابة بالسرطان.. كل الفتيات يحسبن أنهن مصابات بالسرطان، وإن كن لا يعرفن عنه شيئًا.. يتخيلنه كأخطبوط عملاق جاثم على أنفاسهن، كأنه (كتولو) أو أى وحش من وحوش (لافكرافت) البحرية إياها.. ولم ترد أن تخبر أهلها..

أصغيت إليها بعناية.. كانت القصة معروفة لكل طبيب ولا تستدعي كل هذا القلق.. لكن الطبيب الذي قصدته يومها لم يرحمها.. أصابه الهلع أكثر منها، وأمر بأن تدخل المستشفى ونقل لها وحدتين من الدم، ثم أخبرها في اليوم التالي أنه لا داعي للقلق..

- «وهو رأيي بالضبط.. لا داعي للقلق.. ولو شئت المزيد من التأكد فلا بأس ببعض التحاليل.. ولكن.. ما زلت أجد أن ظروف هذه الاستشارة غريبة نوعًا.. لو زرتني في المستشفى غدًا فلسوف أقوم باللازم..»

عادت تسألني في إلحاح:

- «أي أنك مصر على أنه لا داعي للقلق..»

- «طبعًا.. أظن أنني قلت هذا..»

- «ولم يكن من داع لنقل الدم؟»

- «لا أدري.. لم أرك ساعتها كي أحكم على الموقف.. لكن.. أعتقد أنه لم يكن من داع..»

بدا عليها البِشر.. أشرق وجهها كأنما أنقذتها من سيف الجلاد، وهزت رأسها في رضا واعتذرت عن إزعاجي بهذا الشكل، ثم راحت تثب درجات السلم أربعًا فأربعًا..

ووقفت أنا كالأبله على الباب أتساءل: من أين جاءت هذه الحوريّة ولأين تذهب؟

ثم السؤال الأخطر:

- «ترى هل ذاب اللحم بما يكفي كي....؟»

☆ ☆ ☆

عند المسار اتصل بي أحدهم من المستشفي..

لم يمت (فوزي شفيق) كما توقعتم لكنه فر..

نعم.. فر من المستشفى، ولا يعرف أحد أين هو...

☆ ☆ ☆

٧ - غيداء فهيم..

فيما بعد عرفت بالجزء التالي..

لو كانت لنا عيون تخترق الجدران وتمسح البلاد من عل لرأينا مشهدًا غريبًا بعض الشيء..

سأعرف يومًا ما أن كازينو (العصرية) هو أحد الكازينوهات الصغيرة المطلة على النيل، التي يُمكنك أن ترى برج القاهرة في خلفيتها، والتي تشبه المقاهي المتناثرة على الطريق الزراعي.. ليس فيه رقي ولا جمال، لكنه كازينو إذا كان الكازينو هو المكان الذي يحوي مناضد متآكلة وبه سقاة ويمكن فيه شرب عصير الليمون الرديء الساخن..

هذان رأسان متقاربان.. يُمكنك في ضوء الشمس الغاربة أن ترى أن أحدهما رجل والآخر امرأة.. يمكنك أن تحسبهما عاشقين لو استعدت تراث السينما المصرية العتيد...

لكن لو دنوت أكثر لسمعت محادثة رهيبة أقرب إلى محادثات رجلي أعمال يناقشان الخُطة الزمنية لمشروع جديد، أو رجلي عصابة يخططان لجريمة، أو أي عمل مريب مماثل..

أما الفتى فهو (فوزي شفيق).. ظننت هذا واضحًا.. صحيح أن الشمس تتوارى، لكن من يملك هذا الشعر الثائر الغريب سواه؟

الفتاة طويلة العنق من الطراز الذي لا بد أن يكون اسمه (غيداء).. ظننت هذا مفهومًا كذلك..

هذان الاثنان.. ما العلاقة بينهما؟ كلاهما ظهر في حياتي مؤخرًا، ولم أدر قط أنّ هناك علاقة ما.. فلو رأيت هذا المشهد وقتها لارتجفت هلعًا وتوجسًا..

ماذا يقولان؟

الفتاة تبكي.. هذا واضح.. يمكن أن ترى انعكاس الشمس الباردة على خديها، والفتى مرهق تمامًا يحمل رأسه على كتفية في صعوبة..

يقول لها أغرب ما يمكن سماعه:

- «الآن يحدث التصادم..»

وينظر إلى ساعته في قلق...

تتوتر الفتاة وتنتظر بدورها والدموع متجسدة في عينيها..

بعد ثوان يدوي صوت الفرملة الطويلة القادمة من مكان ما من طريق (الكورنيش)، وينتهي بصوت المعدن المتحطم مما يدل على أنها كانت فرملة متأخرة بعض الشيء..

ترتجف الفتاة وتشهق ثم ترشف جرعة من كوب الليمون المغلي أمامها كي تتماسك..

- «الساقي الأسمر سيتعثر الآن.. سيسكب كل شيء على الأرض..»

بعد دقائق يتعثر ساق أسمر.. يسكب كل شيء على ثياب الرجل البدين الجالس وزوجته..

برغمها تنفجر ضحكًا، ثم تعود للاكتئاب والذهول شاعرة بالذنب، برغم أن المشهد مضحك بالتأكيد كما قال (شابلن).. سقوط المشروبات يكون مُضحكًا فقط لو سقطت على رجل بدين متغطرس، لأن الناس تعشق أن ترى المتغطرسين يفقدون كرامتهم..

قالت له:

- «أنت على حق.. دومًا على حق.»

في أدب ورفق قال ويده ترتجف فيحاول أن يمسكها بيده الأخرى:

- «ليس الأمر استعراض عضلات، ولكني أردت أن أبين لك دقة ما أعرفه..»

- «والحل؟»

- «لا يوجد حل إلا ما قلته لك.. يجب أن أنتزع منك الوعد حالًا..»

فكرت قليلًا وهي ترشف المزيد من الليمون المغلي.. ثم قالت:

- «أنت تعرف أنني لن أستطيع أن أعطي ردًا في الوقت الحالي.. لا بد لي من وقت للتفكير..»

- «أفهم.. هذه أمور لا نعرفها كل يوم..»

- «لكنك لست غاضبًا مني؟»

ابتسم في رقة واهنة:

- «كيف لي أن أغضب منك؟»

ثم نظر إلى ساعته وقال وهو يضع بضع أوراق العملة تحت الكوب:

- «لقد تأخرنا.. فلنعد قبل أن يقلق أهلك عليك يا أماه!»

☆ ☆ ☆

- «لا توجد أية مسببات للمرض في دمه..»

عبر الهاتف قالها لي د. (منصور) المختص بالميكروبات، والذي طلبت منه أن يبحث بنفسه كي أستبعد أخطاء المختبرات المعروفة..

قلت له كي أثير أعصابه:

- «لم تجدوا البكتريا المسببة لمرض (سمولنسك)؟»

في ضيق قال:

- «ما هذه؟»

- «البكتريا المسببة لمرض (سمولنسك) هي التي تسبب مرض (سمولنسك). هذه أشياء معروفة يا (منصور)..»

قال ما معناه إنّه لا وقت لديه لهذا الهراء.. ثم عرض عليَّ أن أتصل به في أي وقت أريد، فوضعت السماعة ورحت أتأمل الجهاز الأسود البراق في شرود...

لقد اختفى (فوزي شفيق) تمامًا، ولم أجده في داره بعد زيارته مرّتين هناك.. ولأسباب ما لم يعد يتحفنى بنبوءاته التي توتر حياتي كلها..

يبدو أن على الحياة أن تعاود دورتها، وأن عليَّ أن أنسى هذه القصة تمامًا..

☆ ☆ ☆

في هذا الوقت تقريبًا نزعت (غيداء) خاتم الخطبة من يدها، ووضعته على المنضدة في صالون دارها..

نظر المهندس (هاشم) إلى الخاتم للحظة ثم نظر لوجهها الجميل.. بالطبع لا يوجد ما يوحي بالقسوة أو التوحش أو الغضب.. لو صدق نفسه لقال إن تعبير وجهها يوحي بالحزن..

هل هو يحلم أم أنّ هذه دمعة تترقرق في عينيها؟

سألها وهو يفرك يديه غير عالم ما يفعله بهما:

- «هل هذا قرارك الأخير؟»

هزت رأسها أن نعم.

- «ودون إبداء أسباب؟»

هزت رأسها أن نعم..

قال في ضيق:

- «أعتقد أن السبب معروف.. أنا لم أتغير وكذا أنت.. من الجلي أنّ هناك آخر..»

قالت بصوت مبحوح وهي تزدرد دموعها:

- «لن أرد على أية أسئلة.. لكن لا يوجد آخر لو كنت مهتمًا بهذه النقطة..»

ثم أضافت كأنما وجدت أنّ هذا واجبها:

- «لا أعتقد أنني سأتزوج أبدًا..»

كان كل هذا غادرًا.. لقد انتهى الأمر بالنسبة له من زمن، وصار يعتبرها قد صارت له.. ذهبا معًا إلى حفل (عبد الحليم حافظ) في عيد الربيع، وارتجفا معًا وهما يسمعان (الموج الأزرق في عينيك)، وعرفا أنهما لن يفترقا أبدًا.. كانا (أنا).. الآن المطلوب أن يتحول هذا (الأنا) إلى (أنا وأنت) توطئة لأن يتحول إلى (هو وهي).. وهي جراحة لا يعرف كيف سيجتازها ويظل حيًا..

والسبب؟ الله وحده يعرف السبب.. ربما لا تعرفه (غيداء) هي الأخرى.. مستنقع النفس الأنثوية الغامض المتشابك وهو قد غرق فيه حتى الساقين..

قال لها وهو يخرج التذكرة من جيبه:

- «لقد حجزت تذكرة الطائرة.. ها هي ذي.. يجب أن أكون في (كييف) بعد يومين.. لكني كنت آمل أن تعطيني ذكرى أفضل وأنا في الغربة.»

هزت رأسها وقالت وهي ترفع رأسها في شمم:

- «لم يعد لهذا الكلام جدوى.. نحن الآن شخصان لا تربطهما علاقة يا باشمهندس..»

حقًّا نعم.. والأسوأ هو أن الموقف مبتذل إلى حد لا يصدّق.. ليس فراق خطيبين بالشيء الذي تهتز له الأرض أو تفور البراكين.. مجرد شيء يحدث كل يوم، لكنه لا يصدّق أنه يحدث له هو بالذات..

نهض ولم يتكلم.. لم يطلب أن يودع أهل الدار، فهم يعرفون قرارها من دون شك..

خرج من الشقة، وهو يعرف أن غربته ستكون قاسية جدًا هذه المرّة..

وفي الشارع ظل يردد كالبلهاء:

- «لكنا سمعنا (عبد الحليم حافظ) معًا.. فكيف حدث هذا؟ كيف؟»

☆ ☆ ☆

فيما بعد عرفت أنّ هذا المشهد قد وقع بحذافيره..

لقد دخل (فوزي شفيق) إلى المصرف، وهو يعرج قليلًا.. كان من الواضح أنه مريض وأن حالته الصحية ليست رائعة.. لكن رواد المصرف استطاعوا أن يروا الشعر الثائر الطويل الهابط على كتفيه.. وأن يدركوا أن حالته المالية أسوأ إلى حدٍ ما..

اتجه إلى موظف بيع الشهادات، وانتظر في أدب حتى فرغ الرجل مما كان يقوم به، ثم قال له:

- «أريد بعض الشهادات ذات الجوائز.. ليكن في حدود خمسين جنيهًا..»

أخرج الرجل الدفتر، وبدأ يدون.. لكن الفتى استوقفه وقال:

- «أريد أرقامًا معينة.. هل يمكن البحث عما إذا كان بعضها متاحًا؟»

مط الموظف شفته السفلى في ازدراء.. وقال:

- «لا أحد يعرف أي رقم سيفوز يا بني.. هذه الأمور عشوائية تمامًا..»

قال الفتى بابتسامة مداهنة:

- «ثمّة أرقام أتفاءل بها أكثر من سواها.. ولكن.. لو كان ما أطلبه عسيرًا...»

هزّ الموظف رأسه في ملل، ثم بدا أنه يفهم هذه الأمور، وقال وهو يخط بعض الأرقام في ورقة أمامه:

- «ليكن.. أعرف أن التفاؤل والتشاؤم أمور لا تخضع للمنطق.. هذه هي الأرقام المتاحة حاليًا.. تبدأ من هذا الرقم وتنتهي بشكل متسلسل لدى هذا.. فاختر ما يثير خيالك منها..»

مال الفني على الشباك يفحص الأرقام، ثم مد يده في جيبه وأخرج وريقة راح يراجع ما فيها.. وريقة بدت للموظف كأنها مقتطعة من جريدة قديمة مصفرة، وإذ رأى نظرة الموظف المندهشة قال له:

- «معذرة.. هناك من يقترح عليَّ الأرقام وأنا.. أنا أصدقه..»

كان الأمر مريبًا بالنسبة للموظف... مريبًا أكثر من اللازم، لكنه كان يعرف حقيقتين: الحقيقة الأولى هي أنه لا يوجد بشري يمكنه التنبؤ بأرقام الشهادات التي ستفوز في السحب العشوائي وهي عملية نظيفة تمامًا.. الحقيقة الثانية هي أنّ هذا ليس من شأنه.. عمله أن يبيع الشهادات الا أن يجري تحقيقًا صحفيًا مع من يشتريها..

في النهاية ناوله الفتى قصاصة عليها رقمان...

تمت عملية الشراء بسرعة، وبالطبع ما كان الموظف ليضيع وقته في مطالعة الصحف ليعرف أية أرقام فازت.. إنّه لا يملك إلا شهادة واحدة لا تفوز أبدًا.. ولطالما سائل نفسه إن لم يكن من الحكمة أن يبيعها لينتفع بمالها..

ثمة ملحوظة أخرى لم يهتم لها..

لماذا خيل إليه في البدء أن عيني الفتى سوداوان، ثم حين رفع رأسه ليناوله الشهادات خيل إليه أن العينين خضراوان؟

إنها ألاعيب الظل هذه..

☆ ☆ ☆

فيما بعد أيضًا عرفت أن المشهد التالي حدث..

هذا فتى يدخل أحد محال بيع الذهب في وسط المدينة..

يذكر البائع إن الفتى بدا له أقرب إلى البدانة له بشرة شاحبة كالحليب، وله عينان خضراوان ثابتتان باردتان خمولان.. عينان جديرتان بأن توضعا في هذا الوجه دون سواه...

جلس وابتسم.. وانتظر حتى فرغ البائع من آخر صفقاته، وراحت عيناه تتفحصان نوافذ العرض المفعمة بالحلي الذهبية.. ولما رأى نظرة البائع المتسائلة قال:

- «أنا بحاجة إلى شراء ذهب..»

- «هل من شيء معين؟ خاتم؟ سلسلة؟»

- «أي شيء.. فقط أريد كمية من الذهب..»

هنا تعالي صوت صاحب المحل من مكان ما وكان يتابع كل ما يدور بشكل ما... وكل أصحاب محلات الذهب يتابعون ما يدور بشكل ما:

- «لا تتوقع ارتفاع أسعار الذهب يا بني.. لو كان هذا ما تفكر فيه فليس هذا بالوقت المناسب... إن أسعار الذهب في انخفاض مستمر.. ويعلم الله أننا نقاسي الأمرين من هذا.. إن السوق (مضروب) وكل ما يحدث هو أننا...»

طبعًا كان يحاول شراء ثقة الفتى بهذه الاعترافات الأريحية، لكن الفتى كان يتصرّف كأنما يتحرك بتوجيه ما..

أخرج رزمة لا بأس بها من الأوراق المالية، وكأنما يشتري بعض البطاطس من أقرب بائعة خضر، أصدر أمره للبائع:

- «زن لي بهذا المبلغ!»

لم تكن هذه هي الطريقة المثلى لشراء الذهب، بل إنّه لم يسأل حتى عن سعر الجرام.. فإما أنه خبير بالأسواق وإما أنه أحمق وإما أنه سرق هذا المال..

على كل حال لم يكن هناك ما يؤخذ على الفتى بشكل مباشر، وتمت الصفقة بسرعة ككل صفقات الحمقى، وحين غادر المحل كان يحمل كيسًا ورقيًا كبيرًا (لأن أكياس البلاستيك السوداء إياها لم تكن موجودة وقتها)..

على كل حال لم يستطع الرجل نسيان هذا الموقف ولا هذا الفتى بسهولة، لأن أسعار الذهب ارتفعت بشكل مرعب بعد ثلاثة أيام..

وهكذا استبعد الرجل الاحتمالين الثاني والثالث ومال بشدة إلى الأول..

الفتى كان يعرف ما يفعله.

☆ ☆ ☆

٨ - براندانو..

هذه (روما) التي عرفناها في الفصل الأول..

لا شك في هذا..

لكن لشد ما تغيرت.. لم يعد ذلك الطابع الروماني المهيب بضخامته وأناقته هو السائد، لكنه طابع آخر استلهم من المسيحية ويصعب وصفه ما لم تره، لكننا نطلق عليه (الطابع البيزنطي)..

ما زالت (روما) مدينة قوية، وما زالت تؤمها أجناس الأرض... ولكن لم يعد القيصر هو الحاكم، ولكن البابا.. في تلك الحقبة كانت للكنيسة السلطة واليد في كل شيء، وكان البابا يقود جيوشًا! نعم.. يبدو هذا غريبًا.. لكنه الحقيقة.. نحن نذكر كيف كان البابا يترك (مايكل أنجلو) معلقًا على السقالات تحت سقف كنيسة (سستين)، كي (يخطف رجله) ويحارب هذا الجيش أو ذاك، أو يهزم هؤلاء المتمردين أو هؤلاء.. ثم يعود إلى (مايكل أنجلو) ليسأله في عصبية: ألم تنته بعد؟

اليوم - طبعًا - صار البابا سلطة روحية فقط..

العام 1517.. الناس تبدأ يومها في روما العظيمة، والشوارع بدأت تزدحم بالأطفال اللاهين والنساء المتأنقات اللاتي تذكرك ثيابهن بثياب المحجبات اليوم.. وبائعي الشليك يجلسون صفًا جوار النافورة..

عندها ظهر ذلك الراهب..

كان حافي القدمين، وهي عادة لا تعرفها روما إلا حين يكون حافي القدمين رجلًا جاء يطلب الصفح عن خطاياه.. في هذه الحالة قد يحمل شمعة ثقيلة ويضع أنشوطة حبل من ليف حول عنقه..

كان حافي القدمين يرتدي أخشن ثياب يمكن تصورها، وفي يده عصا غليظة يضرب بها الأرض ضربًا مع كل خطوة، وكان وجهه مختفيًا خلف غطاء، لكنه كان يفوح برائحة الفقر...

كان يصيح في الشوارع:

- «الويل! الويل!»

راح الناس ينتبهون رويدًا، وتوقف الأطفال عن لهوهم وراحوا يرقبون ما سيقول هذا الراهب غريب الأطوار:

- «الويل لهذه المدينة التي ستقع فريسة في يد الأمم!»

عم يتكلم هذا الرجل؟ إن روما هي أكثر المدن استقرارًا على وجه الأرض، ولم يجرؤ جيش على مهاجمتها منذ خمسة قرون..

- «الويل! الويل!»

ودنت منه فتاة حسناء يبدو أنها تبيع التفاح كذلك، وربتت على ساعده وهي تنظر حولها:

- «هلمّ يا أبت.. اهدأ قليلًا.. لا تدعن أحدًا يسمع ما تقول..»

لكنه رفع عقيرته أكثر، وواصل التهديد:

- «ويحكم يا حمقى! لقد كثر الفساد ونخر فيكم، ولتدفعن ثمن هذا غاليًا»

وراح الناس في البداية يحاولون إسكات الرجل.. لكنهم عرفوا على الفور أنه ما من شيء يسكته إلا الديناميت الذي لم يخترعه الخواجة (ألفرد نوبل) بعد للأسف..

ثم بدءوا يتفرقون عنه وقد أدركوا أن القرب منه كارثة خاصة حين يسمعه الحراس..

- «الويل لهذه المدينة التي ستقع فريسة في يد الأمم!»

وعلى طريقة رجال الأمن في كل مكان وزمان، جاء حارسان يحملان رمحين وفرقا الواقفين، وهما يبتسمان بمعنى أن كل شيء تحت السيطرة..

ثم وضع كل منهما يدًا تحت إبط الرجل واقتاداه بعيدًا، وهو يردد بلا انقطاع:

- «سيأتونكم من وراء جبال الألب.. نعم.. فالويل لكم..»

وقال أحد الرجال وهو يضرب كفًّا بكف:

- «لقد انتهى أمره!»

☆ ☆ ☆

لكن البابا (كليمنت الثامن) لم يكن رجلًا مؤذيًا أو قاسي القلب..

لقد جلس على عرشه يصغي لكلام هذا الراهب - الذي عرف أن اسمه (براندانو). ولم يمنع نفسه من الشعور بالاستمتاع لطرافة الموقف.. هذا الراهب ثائر حقيقي.: ثائر جدًا، ويذكره ببعض قصص التوراة عن حصار بابل..

في النهاية لم يجد ما يقول.. فالرجل مصر على موقفه ومصر على أن كلماته نبوءة..

قال للراهب وهو يتأمل عصا البابوية التي في يده:

- «اسمع أيها الراهب.. أنا لن أؤذيك.. لكني لا أطيق أن تمشي في شوارع مدينتي العظيمة تصرخ بما من شأنه أن يبلبل أفكار الناس ويثير ذعرهم.. لهذا سأكتفي بطردك من روما..»

وأشار إلى الحراس كي ينفذوا الأمر فورًا.. ثم توقف فجأة وقد تذكر شيئًا فصاح بالرجل:

- «لحظة.. لو أنك عدت إلى روما ثانية فلسوف نلقي بك في نهر (التيبر)..»

وكان الإلقاء في الماء من وسائل العقاب المحببة في ذلك العصر..

بل إنهم كانوا يعاقبون الساحرات أو المتهمات بالسحر بطريقة عبقرية.. كانوا يقيدون يديها إلى قدميها ويلقون بها في الماء؛ فإن طفت كانت ساحرة حقًّا، وإن غرقت كانت بريئة مظلومة! ولا تسلني عن جدوى معرفة براءتها بعد ما تموت غرقًا..

المهم أن الراهب نفي..

لكنه كان فنانًا وكان فيلسوفًا.. باختصار كان من هؤلاء المجانين الذين لا يتخلصون من أفكارهم بسهولة..

ومن جديد عاد أهل روما يسمعون راهبًا ساخطًا يردد في الشوارع:

- «ويحكم يا حمقى! لقد كثر الفساد ونخر فيكم، ولتدفعُنَّ ثمن هذا غاليًا!»

ومن جديد حمله حارسان مبتسمان إلى البابا الذي راح ينظر له في حيرة..

كان يكره أن يسبب موت الرجل، لكنه كان يمقت - بشكل أكثر - أن يهزأ به أحد..

وهكذا تم تقييد الراهب من جديد، وفي ذات صباح بهيج خرج الجميع ليشهدوا عملية رميه في نهر (التيبر)..

تضاربت الدوامات وبدأ سطح المياه يهدأ قليلًا، ثم صاح صائح من حديدي البصر:

- «إنّه ما زال طافيًا يا صاحب القداسة..»

بالفعل كان الراهب يسبح كقطعة خشب فوق صفحة الماء، مما أثار غيظ رجال الكنيسة، ولم يعد من مناص من إخراجه.. فما إن بصق ما كان يملأ فمه من مياه حتى راح يصرخ:

- «سيأتونكم من وراء جبل الألب.. نعم.. فالويل لكم..»

قال البابا لرجاله في ملل وهو ينصرف:

- «ألقوا به في السجن.. لا أريد أن أسمع عنه شيئًا..»

وقد كان...

☆ ☆ ☆

فيما بعد تذكر سكان روما نبوءة هذا الراهب طويلًا..

لقد كانت روما منيعة لا تمس، ولم يهاجمها أحد قط حتى نسي الناس الحرب..

وحين اجتاحتها عصابة القتلة، ملوحين بسيوفهم ورماحهم، راح الناس يركضون في الشوارع ويصرخون، بينما الحرائق تشتعل في كل مكان..

كان هؤلاء جيشًا من الجنود المرتزقة يرأسهم وغد هو (شارل دي بوربون).. وكانوا يتمتعون بكل الصفات اللطيفة التي يتمتع بها السفاحون، وربما ـ لو كان خيالنا جامدًا ـ وحشية أية فصيلة في الجيش الإسرائيلي، لكن رجال (دي بوربون) لم يبلغوا هذا الحد من السفالة طبعًا..

تحولت المدينة الجميلة إلى خليط عجيب من المذبح والمقبرة والمحرقة والمستشفى والحانة.. وراح الرجال يبكون والنساء يصرخن والأطفال يموتون..

وفيما بعد دخل المرتزقة السجن وأطلقوا سراح من فيه، على أساس أن المساجين هم أعداء للبابا يمكن الاستفادة منهم..

وكان من بين من أطلق سراحهم راهب عجوز مهدم أضناه السجن والجوع والتعذيب... اسم هذا الراهب هو (براندانو)..

لا نعرف ـ أو لا أعرف أنا ـ ما حدث له بعدها، لكن التاريخ يذكر جيدًا كيف اضطر البابا (كليمنت الثامن) إلى الاستسلام المهين.. ولا بد أنه تذكر تلك النبوءة كثيرًا جدًّا...

ما دورنا في هذه القصة؟

قلت لكم كثيرًا إنني صرت عجوزًا مخرفًا لا يعي ما يقول..

☆ ☆ ☆

٩ - فوزي شفيق (٢)..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

☆ ☆ ☆

من جديد دق جرس الهاتف في داري.. هذا كما تعرفون الجرس الثاني في أسبوع، حتى بدأت أفكر في تغيير رقم الهاتف..

هرعت لأخرسه قبل أن يحطم أعصابي أكثر:

- «ماذا تريد؟»

ونظرت إلى الساعة.. إنها الثالثة صباحًا.. لابد أن يكون شيئًا أكثر أهميّة من الحرب العالمية الثالثة..

جاءني الصوت الهادئ الرخو يقول كأنما يتثاءب:

- «دكتور (رفعت).. يجب أن تهرع إلى المستشفى الآن..»

قلت في ضيق:

- «من يتكلم؟»

- «أنا (فوزي شفيق) طبعًا..»

- «آه.. معذرة.. لم أفهم أنّ هذا مزاح.. لكني أتمنى أن تبحث عن شخص آخر تمازحه في هذه الساعة.. شخص من طرازك..»

عاد يصيح ليمنعني من إغلاق الخط:

- «أقسم لك إنني هو.. تذكر الدفن حيًّا والامتحانات، والنصابة في مكتب البريد، وصديقك المحامي.. كيف أعرف كل هذا لو لم أكن هو؟»

حقًّا هذا عسير نوعًا.. قلت له في حيرة:

- «لو كنت أنت (فوزي شفيق) فأنت قد تغيرت كثيرًا..»

- «لنقل إنِّه المرض.. والآن عليك أن تنذرهم سريعًا في المستشفى لأن حريقًا هائلًا سيشب بعد دقائق.. هناك مريض سيشعل موقدًا، ولسوف تمسك النيران بالملاءة ثم تمتد... أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور.. المريض يدعى (عباس التهامي) في قسم الجراحة العامة..»

قلت له باسمًا:

- «يبدو أنك استرددت قدراتك التنبؤية أخيرًا..»

- «لا وقت للتلميحات الآن.. افعل كما قلت لك..»

ثم وضع السماعة..

نظرت للهاتف صامتًا بضع دقائق، ثم مددت يدي إلى القرص وأدرت رقم المستشفى.. طلبت عاملًا ساهرًا هنالك، أو كان ساهرًا - كما يدل صوته الناعس - فقلت له:

- «اسمع يا (شبيني).. يبدو أنّ هناك أحمق ما في قسم الجراحة العامة.. إنِّه مريض يدعى (عباس التهامي)، وهو موشك على إحراق المستشفي كلها.. أريد أن تذهب إلى هناك وتجده وتمنعه..»

كان مندهشًا كما ينبغي أن يكون، وقال لي:

- «ولكن من أين تتكلم يا دكتور؟»

- «من بيتي طبعًا..»

- «وكيف تعرف إذن أن....؟»

- «لأنني عبقري.. والآن اذهب ولا تضيع الوقت.. حين تفرغ من هذا أرجو أن تتصل بي..»

وجلست جوار الهاتف.. ثم نهضت لأعد لنفسي بعض القهوة التي تساعدني على نوم هادئ كما تعرفون.. إذن ما زال (فوزي شفيق) حيًّا ويعمل.. ولكن أين هو؟ ولماذا تغير صوته إلى هذا الحد؟

من جديد دق جرس الهاتف، وكان هذا هو العامل.. طبعًا قال لي ما كنت أعرف أنه سيقوله، وراح يطري حكمتي وبعد نظري.. كأنه - الأحمق - يعتقد أن كوني أستاذًا يفسر رؤيتي للأمور

الغيبيّة..

- «إن هي إلا دقيقة واحدة، وكانت النار ستشتعل في خمس من أسطوانات الأوكسجين على الباب.. وتلك الأسطوانات دائمًا غير محكمة الغلق.. الخلاصة أن الحريق أوشك أن يكون جهنميًا..»

وضعت السماعة شاعرًا بالرضا عن نفسي.. قليلة هي الفرص التي تتاح للمرء كي ينقذ مستشفى كاملًا من الحريق قبل أن ينام.. والأجمل أن الأمر لم يكلفني إلا بضع كلمات في الهاتف..

وعدت أرشف ما تبقى من القهوة..

طبعا أنتم تعرفون أنني - عكس البشر جميعًا ـ أغيب في النعاس بمجرد أن أرشف. القهوة.. وهكذا وجدت أن الفراش هو الموضع الوحيد الذي يناسبني الآن..

☆ ☆ ☆

في السابعة صباحًا عاد الجرس يدق..

نهضت غائم الذهن فاصطدمت أصابع قدمي المبتورة بالكومود، ثم تعثرت بالملاءة فسقطت على الأرض.. أخيرًا وجدت طريقي إلى الهاتف..

لو كان هذا الفتى يريد أن أتحول إلى سوبرمان المكلف بإنقاذ العالم من نبوءاته، فهو مخطئ..

- «آلو؟»

جاءني صوته يقول في وهن:

- «د. (رفعت).. إنني أموت!»

لدهشتي كان الصوت صوته ولا شك.. صوته القديم المألوف.. ما معنى هذا؟ هل هناك صوت كالحرباء يتغير من لحظة الأخرى؟

قلت له في لا مبالاة:

- «أنا أحسبك تموت من أسابيع يا بني... لكن من الواضح أنك لن تفعل أبدًا، فاطمئن..»

عاد يقول بذات الوهن:

- «اكرر لك إنني أموت.. ويجب أن تنقذني.. ليس لي أحد سواك..»

وضعت العوينات على أنفي كي أستعيد جلاء الصورة.. من الغريب أني لا أستطيع التفكير إلا بعد ارتداء العوينات.. وقلت له:

- «حاولت إنقاذك من قبل، وعجزت عن ذلك.. إن معلوماتنا عن مرض (سمولنسك) هذا...»

- «بل تستطيع.. اليوم أنت تستطيع..»

ثم عاد يقول في إصرار:

- «عنواني هو... الخ الخ... يجب أن تأتي حالًا..»

وهكذا يمكنكم أن تفهموا لماذا ترونني أتعلق بهذه الحافلة، وأحاول ألا يدفعني ذلك الرجل الغليظ بكوعه في وجهي.. لقد نسيت المواصلات العامة لفترة، وعليَّ أن أدفع ثمن سنوات الرفاهية ـ بأن ألعب لعبة لم أتدرب عليها من زمن ـ يجب أن أشترى سيارة في أقرب وقت.. يجب..

وأخيرًا كنت عند العنوان، وهو يختلف عن عنوانه القديم في (حدائق الزيتون).. البيت في شارع هادئ راق، ومن الواضح أن أسعار الشقق هنا ليست ملاليم..

يبدو أن أحوال الفتى المالية صارت أفضل..

كان الباب في الطابق الرابع ومفتوحًا فقرعته مرّتين أو ثلاثًا، ثم توكلت على الله ودخلت لأن أحدًا لم يرد.. دخلت لتطالعني صالة أنيقة، وثمّة مكتبة عملاقة تحتل جدارًا كاملًا منها، وإن خلت من الكتب.. فقط كان فيها جهاز تلفزيون وجهاز كاسيت.. وكانت الإضاءة موزعة بشكل احترافي يوحي بأن مهندس ديكور بارعًا أشرف على تنسيق كل هذا..

ـ «تعال يا دكتور (رفعت)..»

وكان الصوت آتيًا من غرفة بالداخل.. غرفة نوم طبعًا.. لا أدري لماذا أتعامل بهذه الثقة، أنا الذي أشعر بالكمائن كما يشعر بها أي قط.. ولا أدري لماذا يتعامل هو الآخر بذات الثقة.. لكن لم لا؟ أليس عرافًا؟ ألا يعرف يقينًا إن كنت سأقتله بغرض السرقة أم لا؟

دخلت غرفة النوم، فشممت رائحة الخشب المطلي حديثًا، كأنني في معرض أثاث، وهو ما يدل على أنها غرفة جديدة تمامًا.. وكان الفراش مبعثرًا، لكن الفتى على الأقل كان راقدًا فيه.. وأدركت أنه في أسوأ حال ممكن برغم الإضاءة الخافتة المتسللة من الستائر...

قال لي في وهن:

ـ «تعال يا دكتور وانظر إلى ما تحولت إليه..»

كانت هناك قروح قبيحة تملأ وجهه.. على قدر علمي لم أر هذا المشهد قط، ولم أر مرضًا يلتهم لحم الوجه بهذه الصورة المخيفة.. حتى القرحة القارضة التي يعرفها الجراحون لا تحدث كل هذا التشويه..

- «لا تنافقني يا دكتور.. هذه هي المراحل الأخيرة لمرض (سمولنسك)»

قلت بصراحتي المحببة:

- «لن أنافقك.. أنت أسوأ حالة مرضية رأيتها في حياتي.. والأدهى أنني لا أعرف ماذا تشكو منه بالضبط»

ونظرت إلى الغرفة من حولي.. طبعًا كانت على الكومود ذات الأدوية وكوب الماء وبعض القصاصات من الصحف، وبعض القصاصات التي خلت من الكتابة كأنها أوراق صحف قديمة لم تطبع، والصورة.. هذه أشياء يبدو أن القانون يحتم وجودها.. الصورة التي رأيتها في غرفته القديمة من قبل، والآن أراها هنا..

لهذا شعرت بشيء مألوف في وجه تلك الفتاة حين رأيتها على باب داري.. كنت قد رأيت صورتها الفوتوغرافية من قبل لكني لم أتذكر ذلك..

ونظرت للفتى وسألته في حيرة:

- «أنت تعرف (غيداء فهيم)؟»

☆ ☆ ☆

١٠ - غيداء فهيم (٢)..

لم يهتم بالرد عليَّ..

فقط دخل في أعنف حالة من الهستيريا الممزوجة بالغضب، أو الغضب الممزوج بالحزن، أو الحزن الممزوج بالألم..

كان يصيح وهو يوشك على لطم خديه:

- «لقد تبدلت الأمور.. عدت أنا أنا.. والمرض عاد يفتك بي..»

قلت محاولًا أن أهدئ روعه:

- «لو أنك حاولت أن تنام فلربما...»

- «لقد خانتني! حنثت بعهدها وتخلت عني.. كل شيء ينهار من جديد..»

جلست جوار فراشه ووضعت ساقًا على ساق ورحت أفكر وأنا أتأمله، وأتسلى بلسع ساقي النحيلة بأستك الجورب.. القصة إذن مجرد انهيار أعصاب.. صدمة عاطفيّة قاسية من التي يتلذذ المرء باستعادتها وحكايتها لصبي الكواء والسباك ورجال الشرطة في الشوارع..

أم هي المرحلة العقليّة الأخيرة السابقة للموت في مرض (سمولنسك) هذا؟ إن تخاريف الموشك على الموت بفعل التيفوس أو الطاعون لأمر معروف.. إنه الهياج الذي يميز من يموتون بعضة الكلاب المسعورة.. إنّه اضطراب مريض الفشل الكبدي الذي يبدو لمن لا يعلم سخيفًا طفوليًا إلى حد لا يصدّق..

ولكن الفتى يعرف (غيداء)، فما معنى هذا؟ ثمّة احتمال لا بأس به في أن تكون هي صاحبة المقلب العاطفي الأخير.. ولكن هل هما يعبثان بي؟ هل هذه خطة أخرى لإيقاع الأحمق المسن؟

في هذه اللحظة أمسك بثيابي كأنما يوشك على الغرق وصاح:

- «يجب أن تذهب إليها!»

- «سأذهب.. ولكن لمن؟»

- «(غيداء)! أنت تعرفها! هي جارتك!»

- «سأحاول.. ولكن لا تطلب مني أن أخبرها بأن تباريح الهوى أوشكت على قتلك كما كان يفعل شعراء الغزل القدامى..»

صاح وعيناه تتوهجان حمرة:

- «قل لها أن تقطع علاقتها بـ (هاشم) فورًا.. يجب أن تفعل هذا! قل لها إني أموت..»

من ناحية الموت أنا أوافقه على هذا.. لكني برغم كل شيء أجد من الغريب أن ألعب دور (سنيد البطل) في الأفلام العربيّة.. كل دوري هو أن أذهب للبطلة لأخبرها أن البطل يحبّها حقًّا، وأنه يموت وعليها أن تنقذه حالًا..

عدت أسأله في ضيق:

- «ما هي علاقتك بـ (غيداء) هذه؟»

صاح كأنما أنا أكبر معتوه رآه في حياته:

- «هي أمي طبعًا يا أحمق! ظننت هذا واضحًا!»

ابتلعت ريقي وسألته السؤال التالي:

- «ومن هو (هاشم)؟»

استلقي في الفراش وقال منهكًا:

- «هو أبي.. أبي الذي لا أريد أن يكون كذلك!!»

☆ ☆ ☆

أشرق وجهها حين رأتني وهتفت في مرح:

- «كيف عرفت البيت بهذه الدقة؟»

قلت في كياسة:

- «إن بوابي هذا الشارع يصلحون للعمل في الاستخبارات المركزية.. لا بد أنهم يعرفون اسم زوج خالتي الذي لا أعرفه أنا..»

كانت أمها تقف وراءها على مدخل الباب تنقل النظر بيننا في شك.. أم مصرية تقليدية جدًا، لا بد أنها متضايقة لأنني انتزعتها من لف أوراق المحشو أو (تقوير) الكوسة.. تم التعارف بسرعة،

ولكني رفضت أن أدخل.. فقط قلت لها - وقد عجزت عن التخلص من الأم المتشككة - إنني أريد أن أخبرها بشيء خاص..

- «لا توجد أسرار.. هلمّ تكلّم أمام أمي..»

ابتلعت ريقي.. أنا أعرف ما سيفضي إليه هذا الموقف، والمشكلة هي أنني لا أستطيع الإفلات منه.. قلت في كياسة:

- «هناك من يزعم أنه (فوزي شفيق).. وهو ينصحك بالخلاص ممن يدعى (هاشم) لأنّه أوشك على الموت.. أتكلم عن (فوزي) طبعًا.. لقد جن تقريبًا وهو مصر على أنك... أمّه.. لا أعرف كيف برغم أنه يكبرك بخمس سنوات على أقل تقدير.. و...»

لكنّها لم تبد استياء أو تحرك سبابتها جوار صدغها.. فقط قالت باسمة:

- «تقصد (عادل)؟ بالفعل هو مجنون.. هذا الفتى مجنون.. ولا أعتقد أنني مطالبة بالاستجابة لهذيانه.. كلما فكرت في الأمر وجدت هذا أقرب إلى المنطق..»

- «منذ متى تعرفينه؟»

- «منذ أسبوعين أو أقل.. وقد تبادلت معه نصف ساعة من الكلام..»

نظرت إلى الأم في حذر وقلت بصوت شبه هامس:

- «ومتى أعطيته صورتك إذن؟»

قالت الفتاة في كبرياء الأنثى التي أهينت:

- «أنا لا أعطي صورتي لأحد.. خاصة أولئك الذين عرفتهم لمدّة نصف ساعة..»

حاولت في غباء أن أجمع أطراف هذه اللغز لكني فشلت.. قلت لها وأنا أتراجع بظهري:

- «إذن أنت لا تنوين قطع علاقتك بـ (هاشم).. بالمناسبة من هو (هاشم)؟»

- «هو خطيبي... أعني كان خطيبي.. وهو الآن في (كييف) بالاتحاد السوفييتي لأنّه مهندس أوفدته الدولة للدراسة.. وقد أرسل لي يحاول إعادة الود بيننا..»

- «وقد بدأت تلينين نوعًا؟»

مطت شفتها السفلى في ضيق وشمخت برأسها.. بمعنى أنّ هذا ليس من شأني..

تراجعت للوراء معلنًا أنني سأرحل الآن، فقالت الأم في برود:

- «لم لا تتفضل وتتناول الغداء معنا يا دكتور؟»

- «أكرمك الله..»

وهو ذلك الطراز من دعوات الغداء الذي لا يتم إلا وأنت تنصرف.. مما يعني معنى آخر تمامًا.. أنا الآن (برسونا نان جراتا) بالنسبة لهذه الفتاة.. أي شخص غير مرغوب فيه بلغة الدبلوماسية..

☆ ☆ ☆

كان المشهد بهيجًا عندما وصلت إلى ذلك الشارع الراقي..

سيارة إطفاء وعدة سيارات إسعاف وأكثر من جار بالمنامة وأكثر من جارة بثياب النوم، كلهم في الشارع ينظرون لأعلى ولا يكفون عن الصراخ.. ثمّة سيارة شرطة وضابط ينظر لأعلى ويأمر رجاله بشيء ما..

نظرت لأعلى إلى حيث قرر الجميع أن ينظروا فرأيت المشهد المألوف... شاب يقف على الإفريز الخارجي لنافذة مفتوحة وقد ألصق ظهره بالجدار، ومن حين لآخر يرفع قدمه الحافية في الهواء منذرًا بالوثبة فيصرخ الناس ويلطمون الخدود.. من ثم يعيد ساقه للداخل..

الجديد في الأمر هو أن الفتى كان (فوزي شفيق) نفسه..

دنوت من الزحام وحاولت اختراقه، لكن رجلي شرطة متيني البنيان منعاني، ونظر لي الضابط مستفسرا فقلت:

- «عدم المؤاخذة.. أكره أن أعطلكم.. لكن هل تسمح لي بأن أكلم هذا الفتى؟ أعتقد أن كلامي يهمه..»

نظر لي الضابط في شك.. فكر قليلًا ثم أشار برأسه للرجلين كي يطلقا سراحي..

اتجهت إلى أسفل النافذة ونظرت لأعلى.. كان الفتى ينظر لي وقد التصق بالجدار أكثر.. يثير أعصابي في المنتحرين أنهم يميلون إلى الاستعراض والهستيريا.. كان من الممكن أن ينهي الأمر بسرعة لكنه لا بد من أن يحدث ضوضاء، وبعد هذا كله يلتصق بالجدار كالبورص لأنّه يخاف السقوط!

كان يرتدي منامته حافي القدمين، ووجهة في أسوأ صورة له منذ رأيته..

صحت فيه:

-«(فوزي).. هلا كففت عن هذا السخف؟ دعنا نتكلم بصراحة..»

من أعلى صاح:

- «أنا أعرف أنها لم تعدك بشيء، بل واعتبرتني مخبولًا.. لا تحاول الكذب..»

انتحار من أجل عيني (غيداء).. لا أدري لماذا كنت أحسب الفتى أقوى وأعمق من هذا.. كان يبدو غامضًا رهيبًا يعرف الكثير... الآن صار طفلًا سخيفًا يعتمد عليَّ بشدة..

نظرت للأرض لأن الارتفاع أصابني بدوار، وقلت:

- «لم أحاول الكذب لحظة.. نعم هي تعتبرك مجنونًا.. لكن لا بد من أن أصعد وأكلمك.. ليس من حقك أن تموت قبل أن تسمع ما أقول..»

- «ليكن.. ولكن أنت وحدك..»

نظرت للوراء إلى الضابط متسائلًا، فهز رأسه.. بليغ جدًا هذا الرجل.. وأنا ضعيف تجاه هؤلاء الصموتين الذين يفهمون بسرعة..

وهكذا صعدت في الدرج متثاقلًا حتى الشقة المفتوحة..

في الداخل كان الأمر أقرب إلى السيرك.. كان هناك رجال إسعاف ورجال إطفاء ومن يتصفح الكتب في المكتبة، ومن يشعل لصاحبه لفافة تبغ، ومن الحمام خرج مخبر وهو يغلق زمام سرواله ويجفف وجهه بمنديل.. وداخل الغرفة المختارة كان هناك ثلاثة رجال يقفون في النافذة ويصرخون..

أفسحت لنفسي موضعًا بينهم، وأخرجت رأسي..

كان الفتى على بعد مترين فوق الإفريز ومن مكاني رأيت الشارع.. ليس بعيدًا إلى هذا الحد، لكنه قاتل بما يكفي..

قلت له ما يقولونه في كل الأفلام:

- «(فوزي).. أنت لن تحل شيئًا بانتحارك.. صدقني..»

قال وهو يرتجف وينظر للشارع:

- «أنت تعتقد هذا.. لكني أعرف ما لا تعرف..»

- «لا بد من أن أفهم.. أفهم.. أنت جعلت حياتي مجموعة من الألغاز.. كيف لي أن أساعدك وأنا أتحرك في الظلام؟»

صمت برهة ويبدو أنه بدأ يلين..

ثم قال وهو يدنو مني أكثر:

- «ليكن.. سأشرح لك كل شيء.. ولكن بشرط.. أريد أن يرحل هؤلاء الرجال.. لا محاولات بطولية..»

- «هل تعتقد أن صحتي تسمح بالمحاولات البطولية؟»

- «لهذا طلبت أن يرحل هؤلاء الرجال..»

نظرت للرجال القادرين على المحاولات البطولية.. كل هذه العضلات والشوارب الكثة.. واضح أنهم مخبرون يجيدون عملهم ويحبونه...

قلت لهم:

- «هل تسمحون لنا! أعتقد أنّ هناك فرصة..»

في تردد بدءوا يتراجعون نحو باب الغرفة، فصاح الفتى وهو يطل برأسه من النافذة:

- «أغلق الباب بالمفتاح من ورائهم.. لا أريد أن يسمع أحد حرفًا مما أقول..»

☆ ☆ ☆

١١ - عادل هاشم..

قال لي وهو ينفث دخان لفافة التبغ التي ناولته إياها من النافذة، والتي جلبتها له من علبته الموضوعة على الكومود:

- «هل تؤمن بالتنبؤ بالغيب؟»

قلت وأنا أستند على حافة النافذة وأرمق الحشد الواقف في الشارع تحتنا:

- «لا.. بتاتًا.. وإن كنت أنت قد طعنت هذا اليقين طعنة نجلاء..»

قال وهو ينظر للسماء التي صارت قريبة:

- «أنا كذلك لا أؤمن بالتنبؤ بالغيب..»

نظرت له غير فاهم، فقال:

- «نعم.. لو أنك ذهبت إلى دار السينما وشاهدت فيلمًا، ثم عدت مع صديقك في اليوم التالي وشاهدتما الفيلم ذاته، ورحت تحكى له كل واقعة قبل أن تحدث.. لسوف يشعر زميلك بأنك تتنبأ بالغيب.. لكن هذا غير صحيح..»

- «هل تعني؟»

هزّ رأسه وضحك في وحشية ثم راح يسعل.. ثم أضاف:

- «نعم.. أعني أني رأيت كل تفاصيل حياتكم هذه من قبل.. ألم تفهم بعد يا دكتور أنني آت من عالم الغد!»

كان هذا كافيًا لي كي أفهم كل شيء.. الفتى حالة جنون متقدمة.. وقد تلاعب بي كل هذه الأيام على سبيل التسلية..

قلت له في ضيق:

- «ليكن.. ولكن لم لا تقول هذا كله وأنت داخل الغرفة بدلًا من خارجها؟»

قال:

- «أرأيت؟ من الطبيعي أن تعتبرني مخبولًا.. لكن لو فكرت في الأمر لوجدت أنه لا يوجد تفسير آخر.. أنا (عادل هاشم) الذي جاء من العام 2015»

- «بني..»

- «كانت حياتي على ما يرام حتى أصبت بالمرض وقد نقلته إلى كثيرين من حولي وممن أحببت.. وهكذا صار عليَّ أن أجد خلاصًا.. إن مرض (سمولنسك) - كما أطلق عليه العلماء الروس - مرض خطير لا علاج له.. وما تراه على وجهي هو المراحل قبل الأخيرة منه، لكن النهاية أفظع وأخطر.. والأسوأ أنك تظل بكامل وعيك حتى النهاية المريرة وتعيش كل ثانية منها.. لا أقدر على أن أظل ساكنًا حتى يحدث لي هذا، وحتّى أقضم قطعًا من لساني كي أتغلب على الألم.. صدقني.. لقد رأيت هذا المشهد وهو لا يفارق كوابيسي..»

إن الكلام أقرب إلى نوعٍ من قصص الخيال العلمي، وإنني لأنتظر ظهور (آرثر كلارك) في أية لحظة.. لربما (إيزاك أزيموف) كذلك.. على كل حال لقد سمعت من هذيان المجانين ما هو أكثر تعقيدًا وتشابكًا وروعة..

قلت له محاولًا تهدئة روعه:

- «ليكن.. أصابك مرض (سمولنسك) هذا.. وماذا بعد؟».

لكنه أجاب عن سؤالي بسؤال:

- «ما هو أخطر مرض تعرفونه في السبعينات؟»

فكرت قليلًا ثم قلت:

- «ربما السرطان.. مازال عصيًا على العلاج..»

أضاف:

- «أنتم لا تعرفون متلازمة فقدان المناعة المكتسبة.. المرض الذي سيسمونه (الإيدز) في الثمانينات.. إنه مرض خطير بما يكفي لكنه سيكون أقل وطأة من مرض (سمولنسك)..»

الآن طبعًا يدرك القراء أن الفتى صادق تمامًا، أمّا أنا - بخبرات السبعينات الطبية - فلم يكن بوسعي أن أقطع بشيء..

واصل الفتى الكلام وهو يستند إلى النافذة:

- «كان الاتحاد السوفييتي قد انهار تمامًا.. لكن كان هناك من العلماء من يعرفون ما لا يعرفه الأمريكيون، وكانوا يعملون في صمت وبإمكانات لا تذكر.. من بين هؤلاء كان البروفسور (ميخائيل سيلينيوف) الذي تعرفته في (كييف) والذي ابتكر جهازًا صغيرًا لنقل الناس إلى

الماضي.. يبدو هذا الأمر غريبًا.. يبدو أقرب إلى الخيال العلمي... لكنّها الحقيقة أو هكذا ستكون الحقيقة.. والأجمل في هذا الجهاز أنه يتيح لك مشاهدة كل ما حدث في الماضي كأنه شريط فيديو..

«كان أبواي يعيشان في روسيا ولم يعودا إلى مصر قط، لأن أبي المهندس (هاشم) وجد أنه استقر هناك بالفعل.. وقد جاء مصر فقط ليتزوج أمي (غيداء) ويسافر معها ليقيما هناك.. وكنت أنا ولدًا نجيبًا درس التاريخ واهتم باللغات، وقد درست اللغة الفرنسية والإيطالية واللاتينية بالإضافة إلى إجادتي للعربية والروسية طبعًا..

«الآن هناك خيطان.. أنا أعيش مع والديّ.. والبروفسور الذي ابتكر جهاز السفر عبر الأزمان.. هنا اكتشفت أنني مصاب بمرض (سمولنسك)... ويجرى الأطباء فحوصهم ليعرفوا أنه انتقل إلى عبر مشيمة أمي التي أصيبت به في مصر، لكنه لم يترك عليها أعراضًا..

«المزيد من التقصي يبين أن أمي أصيبت به بسبب نقل دماء ملوثة في السبعينات.. لقد ظلت تحمله في دمها لتنقله إلى طفلها الأول أنا.. وبدأ المرض يظهر معي حين بلغت سني هذه.. إن للمرض فترة حضانة غير عادية لأنّه من الفيروسات البطيئة.. يجب أن أقول إن أمي نشرت المرض لدى الكثيرين لأنهّا تبرعت بدمها ثلاث مرات في روسيا، وفي ذلك الزمن كان الخطر موجودًا في الدم لكننا لم نكن نعرف بوجوده.. يقول الأطباء إننا سنكتشف الكثير من الفيروسات الكبدية في الدماء التي ننقلها للمرضى اليوم، لكننا لا نعرفها على الإطلاق.. لقد ظلت المستشفيات أعوامًا تنقل الدم الملوث بالفيروس (ج) دون أن تعرف أنّ هناك فيروسًا بهذا الاسم.. وبعد أعوام عرف الطب كل شيء عن هذا الفيروس، وراح يفتش عن المرضى البؤساء الذين نقل لهم دم في الأعوام السابقة..»

- «وهل هناك فيروس بهذا الاسم؟»

- «ستعرفونه في أوائل التسعينات.. ولنفس السبب اعتبر الأطباء أن كل من تلقى دمًا في الأعوام من 1985 إلى 1990 هو مرشح للبحث عن (الإيدز) في دمه.. لأن الإيدز كان في العالم وقتها لكن أحدًا لم يكن يعرف بوجوده..

«لا يعلم إلا الله من أين جاء كيس الدم الملوث ولا ما أصاب صاحبه.. على كل حال نحن لا نعرف كذلك من أين نشأ الإيدز ولا التهاب الكبد (ج)...

«لقد نقلت أمي المرض لكثيرين، ومنهم أنا.. وهكذا وجدت نفسي أواجه مصيري.. إن أحدًا لم يشف قط من داء (سمولنسك) هذا..

«هنا قابلت ذلك العالم، وكان يبحث عن متطوع متحمس يرحل عبر الأزمان.. كنت راغبًا في الفرار من واقعي راغبًا في التغيير.. قال لي العالم إنّه سيتحكم في كل شيء من معمله في (كييف).. أي أن الجهاز لن يكون معي.. قال لي إنني سأفعل بالضبط كما قلت لك عن الفيلم.. سأدخل لأشاهد الأحداث، لكن عليَّ ألا أتدخل أبدًا.. لو تدخلت أو حاولت أن أحدث تغييرًا، فأنا أجازف بأشياء كثيرة..

«ثمّة قصة شهيرة لـ (راي برادبوري) عن فتى ارتحل إلى الماضي كي يتسلى بمشاهدة ديناصورات ما قبل التاريخ. الغلطة هنا هي أنه داس حشرة صغيرة دون قصد، وحين عاد لعالمنا وجد أن المدن لم تعد مدنًا، وأن لون السماء تغير، وأن البشر اختفوا.. لقد أدى قتل الحشرة إلى تغيرات طفيفة تضاعفت عبر ملايين السنين حتى أدت لعالم مختلف تمامًا..

«قبلت ما قاله الرجل، ورحت أتزود بزاد لا بأس به من المعرفة التاريخية.. رباه! كانت أيامًا من المرح بلا شك.. كنت قد قررت أن أزور تلك البلدان التي أعرف لغتها، وهكذا ارتحلت إلى روما أيام (يوليوس قيصر)، وقد أثار دهشتي أني أنا الذي لعب دور العراف (سبورينا) صاحب الإنذار التاريخي الشهير..»

كنت منهكًا لا أستطيع المقاطعة لأنني لا أصدق حرفًا، لكن غريزة الجدل عندي جعلتني أسأله:

- «ماذا لو كان (قيصر) قد اقتنع؟ ألا يغير هذا التاريخ بالكامل؟»

- «نعم لن يغير.. من المعروف تاريخيًا أنه لن يقتنع بكلام العراف..»

ثم أشعل لفافة تبغ أخرى وقال:

- «في مرة لعبت دور الراهب (براندانو) الذي أنذر بابا روما من الغزاة.. طبعًا كنت أعرف أنه لن يصدقني.. بعد هذا لعبت دور الشاب (شافيني) المستشار المخلص لـ (نوستراديومس)!!»

هذه كانت أقوى من تحملي، فصحت في غيظ:

- «أنت كنت تعمل مع (نوستراديموس)؟»

قال في استمتاع خبيث:

- «وكتبت له أكثر كتابه (قرون).. من السهل تمامًا أن تكون نبوءاتك صادقة حين تكون درست كل ما سيحدث في كتب التاريخ عام 2010.. صحيح أن الرجل كان يرتجل أحيانًا، وكان يحاول أن يخترع معتبرًا نفسه عبقريًا، لكن هذه النبوءات كانت تفشل دومًا... مثلًا تلك النبوءة السخيفة عن نهاية العالم سنة 1999.. إنها من بنات أفكاره.. لكن الرجل كان في نهاية الليل يعود لداره متظاهرًا بالتأمل، ويجلس بين يدي وأنا أحكي له كل ما سيحدث في الأعوام القادمة..»

- «كان يزعم أنه يقرأ الأجوبة على قشر البيض..»

مط شفته في اشمئزاز:

- «هذا لزوم النصب.. الحقيقة أنني لعبت دورًا لا بأس به في تدعيم خرافة التنبؤ في تاريخ البشريّة!»

ثم أردف وهو يُلقي باللفافة على الجمع المغتاظ الواقف في الشارع.. الجمع الذي بدأ الملل يقتله، وبدأ يشعر بأن في تأخير مشهد الانتحار فظاظة لا يمكن وصفها:

- «هنا جاء الاختيار الأخطر في حياتي.. جاءت الخُطة الأكثر طموحًا.. ولم أخبر بها البروفسور، لكني كنت قد رسمتها على الورق بدقة.. لقد جمعت عددًا لا بأس به من قصاصات الصحف القديمة التي تحكي بالتفصيل كل ما سيحدث في هذا العام... وعرفت تفاصيل كثيرة من أمي..

«ماذا لو ذهبت إلى زمنكم هذا ومنعت أمي من تلقي الدم الملوث الذي أعرف بالضبط متى ستتلقاه؟ إن معنى هذا إنقاذي وإنقاذ العشرات... بل وإنقاذ العالم كله من وباء مميت..

«لأسباب تقنية معينة يطول شرحها لم أستطع معرفة المستشفى الذي تلقت أمي الدم فيه، وهي لا تذكر اسمه.. ولا تعرف أين هو.. لكنّها تعرف أنها زارت طبيبًا جارًا لها اسمه (رفعت إسماعيل) فلم تجده.. وتعتقد انها لو كانت طلبت رأيه أولًا لوفر عليها التجربة المريرة..

«رحت أبحث في تفاصيل حياة (رفعت إسماعيل) هذا، فوجدت أنه سيموت في حادث سيارة وهو في قريته.. ولسوف يدفن.. لكنهم حين يفتحون المقبرة بعد عامين سيجدون هيكله العظمي خلف الباب، بما يعني أنه دفن حيًّا.. كان هذا شنيعًا.. والأشنع كان أن أمي لم تلقه قط..

«شاهدت الكثير من مشاهد حياتك على شاشة الجهاز.. شاهدت احتراق المطعم واحتراق الدجاجة، وتلك النصابة التي خدعتك، ومقتل صديقك، وشاهدت ورقة امتحان طلبتك وقمت بتصويرها... عرفت كل شيء واحتفظت بقصاصات تحكى كل شيء..

«لكن كانت مشكلتي هي كيف أنقذك من الموت لتخبر أمي حين تسألك أنه لا داعي لنقل الدم.. صار عليَّ أن أثير توجسك وألاحقك بمقدرتي التنبؤية كي تصدقني فيما هو أكثر.. وقد نجحت في هذا بدءًا باختياري طالبًا أحمق عرفت عنه الكثير وقررت أن أهديه أسئلة الامتحان، وانتهاء بمعرفتي من قبل محاميك.. لكني ظللت عاجزًا عن التدخل المباشر.. لم يكن بوسعي إلا التلميح لأنني ممنوع من تغيير الماضي بأي شكل..

«ثم وقع الحادث.. ودفنت أنت، ولم أستطع أن أظل صامتًا.. لن أتركك تموت هذه الميتة الشنيعة مهما كلفني هذا.. وبالفعل ذهبت إلى أخيك وأقنعته بفتح المقبرة.. لم يكن هذا العمل من أجل مصلحتى، لأن أمي كانت قد تلقت الدم وانتهى الأمر..

«من هذه اللحظة لم يعد من حقي أن أعود إلى زمني.. لقد تخلى عني البروفسور ولعله خشي أن يعيدني فتحدث كارثة.. وبدأ المرض يفتك بي ببطء..»

قلت له:

- «من المنطقي أنك فقدت قدراتك التنبؤية بالنسبة لي..»

- «لا شك في هذا.. أنت بالنسبة لي شخص دفن في تلك المقبرة ولا أعرف عنه شيئًا بعدها.. كل ما حدث لك بعد هذا خارج علمي.. وطبيعي أنني لم أتوقع أن تزورني في داري..»

- «لكن لماذا نصحتني بمغادرة القرية وقد عجل هذا بالحادث؟»

- «إن الأخطاء تحدث.. معلوماتي كانت أنك تموت داخل القرية لا خارجها..»

عدت أربط الخيوط ببعضها، وبدأت بعض الأسئلة تتضح:

- «لهذا كانت صورة (غيداء) معك جوار فراشك؟»

- «من الطبيعي أن يحمل المرء صورة أمّه معه.. هنا اتخذت خطتي منحى آخر.. لم لا أبحث عن أمي (غيداء) وأقنعها بقصتي، وأقنعها بألا تتزوج أبي؟ لماذا لا ترفض الذهاب إلى الاتحاد السوفييتي مع زوجها المقبل؟ هكذا لن أوجد أنا.. أو سيوجد شخص آخر غير مريض.. هناك حل آخر هو أن أقتل (غيداء) لكن هل يقتل المرء أمّه حتى لو كانت لم تنجبه بعد؟ مستحيل! بأي ثمن! لقد قابلتها وحاولت إقناعها.. استعرضت أمامها الكثير من عضلاتي التنبؤية.. اخترت مكانًا أعرف أن حادثًا مروعًا سيقع قربه في أثناء كلامنا.. كما استعملت بعض الارتجال كأن أتنبأ لها بأن أحد السقاة سينزلق وأنا أعرف جيدًا أن الأرض مبتلة وأن السقاة كلهم يمشون في خرق.. في النهاية بدا لي أنها قد اقتنعت وهنا بدأ التغيير..»

كنت الآن أستطيع أن أفهم.. إن الفتى يشبه (غيداء) إلى حد كبير... تشابه لا تميزه إلا لو توقعته.. هو نسخة مشوهة منها لو أردت الدقة..

وواصل (عادل) الكلام:

- «لقد بدأ لون عيني يتغير.. لون بشرتي يتغير.. صرت أميل إلى البدانة.. صرت شخصًا آخر.. ولم يكن لديَّ إلا تفسير واحد.. بالفعل أنا شخص آخر.. لم تعد أمي هي أمي أو لم يعد أبي هو أبي..

«كان على أن أبدأ حياة جديدة في هذا الزمن.. وأية بداية تحتاج إلى مال.. الكثير منه..»

هنا شعرت بالباب ينفتح من ورائي، وظهر أحد هؤلاء الفتية القادرين على المحاولات البطولية.. المخبرين الذين يجيدون عملهم ويحبونه.. صاح بي:

- «فيم كل هذا التأخير؟ هل يحكي لك قصة حياته؟»

- «بالفعل يحكي قصة حياتين لا حياة واحدة!»

وأشرت له كي يخرج، ثم عدت أطل من النافذة على الفتى الذي أرهقه الوقوف كل هذا الوقت، لكن لم يكن أمامه مفر إلا البقاء حيث هو...

عاد يحكي قصته:

- «الأمر سهل حين تكون لديك كل قصاصات الصحف السابقة.. أنت تعرف أرقام شهادات المصرف التي ستفوز في تاريخ معين.. تعرف متى يرتفع سعر الذهب ومتى ينخفض.. لقد كونت

ثروة لا بأس بها، بل ونجحت في منع حريق المستشفى الذي كان سيظهر في الصحف في اليوم التالي.. لما منعت أنت الحريق وجدت أن قصاصة الجريدة تحولت إلى ورقة صفراء بلا كتابة..

«بدأت حياتي تنتظم كما ترى لولا أنني بدأت أستعيد ملامحي القديمة.. بدأ المرض يعود بشكل أكثر شراسة، وأدركت أن لعبة ما تجرى.. العلاقات تتحسن بين (غيداء) و(هاشم) وأنا أعود للوجود من جديد بمرضي.. يبدو أن مراسلات ناجحة قد بدأت تعيد المياه لمجاريها.. إنهما سيتزوجان! لا شك في هذا..

«كان هذا حين اتصلت بك، وانتظرت نتيجة.. لكن الأمور لم تتحسن.. وهكذا لم يبد لي من حل إلا ما أنا بصدده الآن.. إن الموت بهذه الطريقة أقصر أو هذا ما أتوقعه منه...»

- «أنت أحمق!»

ومددت يدي خارج النافذة، وصحت في حماسة:

- «هل تتصور موقف (غيداء) هذه؟ أن يخرج لها شاب يكبرها في العمر يقول لها إنها أمّه، وإن عليها أن تتخلى عن خطيبها الذي سيصير أباه؟ كن معقولًا يا رجل وكف عن المبالغة... لا تطالب الناس بأكثر من طاقتهم على التصديق..»

ثم مددت يدي أكثر وأنا أرى بطرف عيني الشارع كله وقد تحفز لما سيحدث..

قلت له في لهفة:

- «سوف أكلمها.. سأعرف كيف أقنعها.. فإن لم تقتنع سأعمل على أن تحبني أنا.. سأصير وسيمًا وأجري ألف جراحة تجميل.. ربما تزوجتني وانتهت القصة بالنسبة لك.. إنني...»

مد يده لي، وهنا كانت قدمه الحافية قد تلوثت بالعرق أكثر من اللازم، وكانت ساقاه أوهن من اللازم، وكان توازنه قد اختل أكثر من اللازم...

رأيته ينزلق، ثم يهوي من أعلى.. يهوي.. يهوي..

لماذا يقول الأغبياء إن من يسقط من حالق يملأ الدنيا صراخًا؟ الحقيقة أن الفتى لم يجد الوقت ليقول حرفًا..

أسندت جبهتي إلى إطار النافذة وحاولت ألا أفرغ معدتي..

ومن مكان ما لا أعرف ما هو كانت أغنية مجهولة تتردد...

دائمًا تتردد...

☆ ☆ ☆

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنّها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا ايها الغريب..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه..

وداعًا أيها الغريب..

لكن كل شيء ينتهي..

☆ ☆ ☆

وداعًا يا (عادل).. لو كان لي من دور مفيد في هذه القصة فهو أنك لن تلقى ربك منتحرًا، وإنما ضحية حادث سقوط، أو هذا ما أرجوه..

لم يعد من ذيول لهذه القصة، لأنني ما زلت أجد غريبًا أن أطالب (غيداء) بالتخلي عن خطيب المستقبل بسبب مرض (سمولنسك).. أو أطالب (هاشم) بالعودة من الاتحاد السوفييتي حالًا..

القصة غريبة وما زالت لا تستقر بشكل مستريح في أعماقي.. لو كان (عادل) قد أنقذني فعلًا، فمن المفترض أنّ هذا صار ماضيًا.. وكان ما سيعرفه عني في الغد هو أنني دفنت حيًّا وأنّ هناك من أنقذني..

عندما يموت (عادل) في الماضي، فهل معنى هذا أنه اختفى من المستقبل؟ لماذا لم ير نفسه ومحاولاته ولقاءاته مع (غيداء) ومعي؟

إن كل هذه الأسئلة تثير الدوار، وتذكرني بلغز (كريت): أهل (كريت) كذابون.. والمتكلم من (كريت).. إذن هو يكذب.. إذن هم ليسوا كذابين.. إذن كلامه صادق.. إذن...

رباه! سأفقد وعيي!

☆ ☆ ☆

في القصة القائمة أحكي لكم عن شخص متوحد آخر.. غريب الأطوار كما كان (عادل) بالضبط لكن له سرًا آخر..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ٦ ١٦٠

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

المصادر: (الجزء الخاص بنوستراديموس)

- أحمد الشناوي: التنبؤ بالغيب قديمًا وحديثا: اقرأ (201). دار المعارف المصرية 1959
- أنيس منصور: أرواح وأشباح. دار الشروق. الطبعة الثالثة!! عشرة 1992.
- عاطف النمر: نهاية العالم يوليو 1999 حقائق غريبة (1). الطبعة الثانية. المكتب العربي للمعارف 1990
- شبكة الإنترنت.

الفهرس

مقـــدمة

١ - سيورينا..

٢ - رفعت إسماعيل..

٣ - محمود زاهر..

٤ - شعبان أبو عبلة..

٥ - ميشيل دو نوستراديم..

٦ - فوزي شفيق..

٧ - غيداء فهيم..

٨ - براندانو..

٩ - فوزي شفيق (٢)..

١٠ - غيداء فهيم (٢)..

١١ - عادل هاشم..

المصادر: (الجزء الخاص بنوستراديموس)

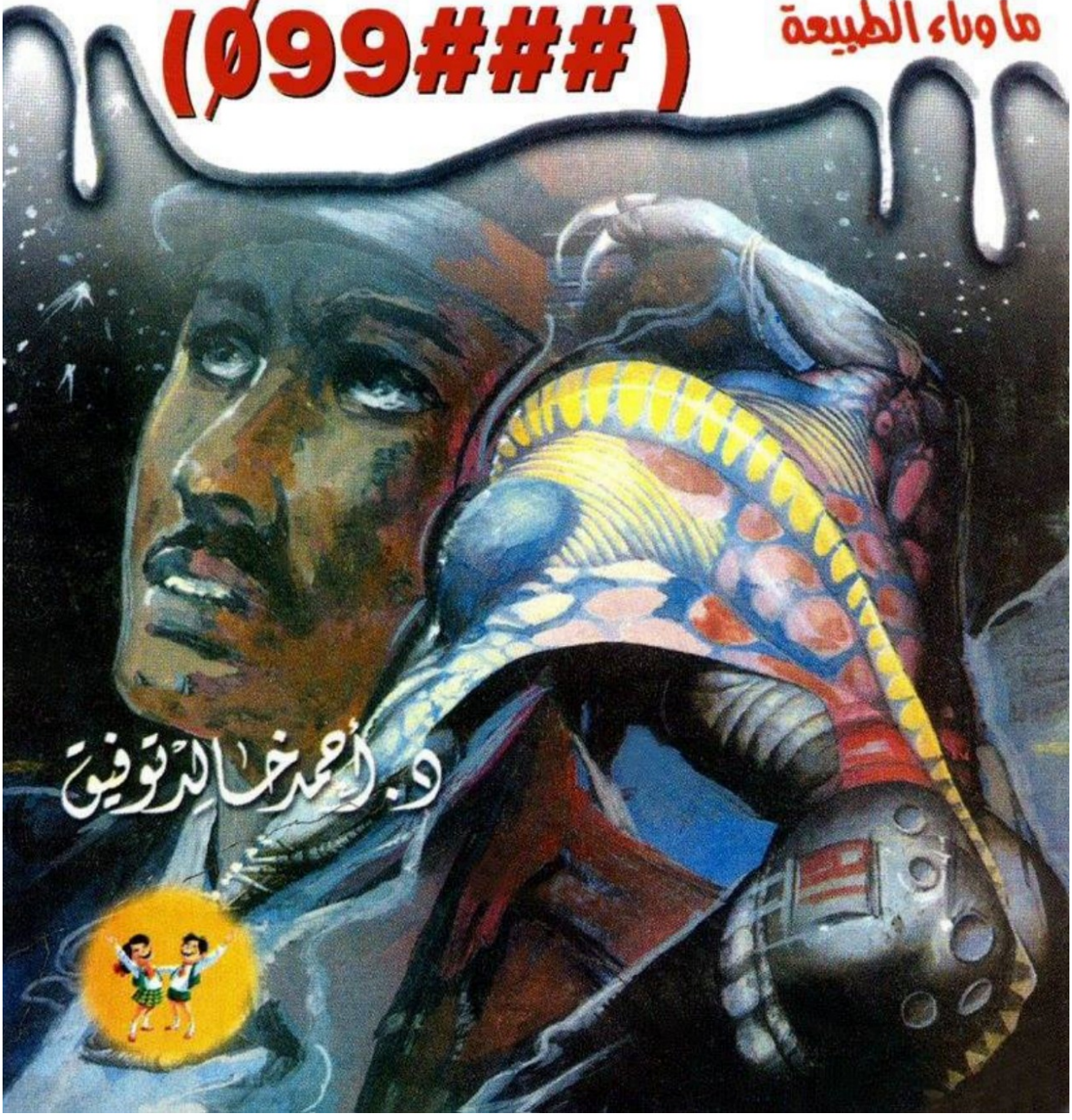
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

55

أسطورة (ø99###)

ماوراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

ليس كل ما يلمع ذهبًا...

هكذا قالوا قديمًا.. وأضيف أنا:

ليس كل من يعوي مذءوبًا..

ليس كل من يخرج من تحت الأرض من الموتى الأحياء..

ليس كل من يمشي بين القبور ليلًا مصاص دماء..

ليس كل من يتحرك في الردهة شبحًا...

ليس كل أنين من الأرض المجاورة لدارك أنين نداهة أو (لاميا)...

ليست كل قلادة غريبة النقوش تعويذة من القرون الغابرة..

ليس..

لأسباب كهذه يمكننا أن نظل أحياء..

لأسباب كهذه نحتفظ بسلامة عقولنا، ونأمل في يوم آخر.

☆ ☆ ☆

تذكرين يا (ريم) مناقشتي السابقة معك عندما حكيت لك قصة المنزل رقم (5)

قلت لي إنني أناقض نفسي حين أقول إنني لا أؤمن بوجود حياة على كواكب أخرى. ثم حكيت لك قصة طويلة عريضة تدور حول بيت كان سفينة فضاء... الحقيقة هي أنني حكيت ما رأيت وما سمعت وإن كنت أعتبر هؤلاء القوم جاءوا من عالم آخر له مقاييس خاصة، وليس بالضبط ما تتكلم عنه روايات الخيال العلمي..

قلت لي إنني فقط أبحث عما هو غريب لأحكيه، ومهما كانت قناعاتي الثابتة..

قلت لي إنني أبدى أحيانًا آراء متعصبة سخيفة.. حين أتكلم عن اقتناعي التام بعدم وجود شيء هناك في أجواز الفضاء..

قلت لي إن الأمر صادر عن غرور تام، إذا افترض أن الكون كله ليس سوى (تابلوه) مرسوم لنا نحن البشر كي نتأمله في إعجاب..

الحقيقة يا (ريم) أنني لم أجد حتى اليوم دليلًا على وجود كائنات أخرى، وهناك ألف حجة وحجة تؤيد كلامي قالها علماء فلك لهم أسماء مهيبة... لكن المنطق البسيط يقول: أين هي تلك الكائنات؟ لماذا لم تظهر بعد تلك الملايين من الأعوام؟ ماذا ينتظرون؟ لدينا أدلة واهية على وجودهم لا تصمد لأي بحث علمي مدقق... صور الأطباق الطائرة هي مجرد سحب مستديرة.. مخلوق (روزويل) يقول خبراء المؤثرات الخاصّة إنّه مزيف مصنوع من اللاتكس.. وغير هذا كثير..

على كل حال أنا أنتهز الفرصة لأحكى لك قصة عن كائن من كوكب آخر!

أراك تلطمين الخد في ذهول ولسان حالك يقول: لا بد أنه مجنون..

من جديد أقول إنني لا أصدق أو أكذب شيئًا..

هذه الصفحات حصلت عليها بكيفية ما.. ولن أذكر تفاصيل هي سر شخصي يهمني وحدي.. لكن أكتفي بالقول إنها تفريغ لرسالة ذهنية لم يكن من المفترض أن تُقرأ أو تُطبع أصلًا.. إنما هي تسري عبر الأثير كالأفكار.. كالأحلام...

أقرؤها عليك يا (ريم) كما هي دون تدخل مني.. وطبعًا من البديهي أنني لست المتكلم، وأنني لا ألعب أي دور في الأحداث لحسن الحظ..

ربما تصدقين وربما تكذبين.. ربما تصدقين القصة وتكذبينني أنا.. ربما تكذبين القصة وتصدقينني أنا.. لا أدري بالضبط..

المهم أن تجديها مسلية.. وأن تريها جديرة بأن تعدى بعض الشاي عندما تصلين لمنتصفها، فقط كي تؤخري النهاية قليلًا..

لو حدث هذا فأنا راضٍ سعيد.. وسأعتبر نفسي قد نجحت..

فهل تمنحينني هذه المتعة؟

☆ ☆ ☆

1

إن التعود يقتل الرعب.. يقتل الغرابة.. يقتل القلق.. هكذا يقولون على الأقل..

لكني في كل غروب أقف وأرمق الأفق الشرقي حيث تلتمع النجمة الأولى، وأتساءل: كيف؟ ما الذي جاء بي إلى هذا الكوكب الغريب المزعج، الذي يسموّنه الأرض؟

☆ ☆ ☆

تحية لكم جميعًا يا أهل (زيفرا)..

لا أدري حقًّا إن كان سيكتب لهذه الرسالة الفكرية أن تصل إليكم.. ولا أدري أصلًا إن كان هناك من يذكرني بينكم أنا العميل (Ø99###) حسب لقب التدليل المختصر الذي كنت أنادى به حين كنت بينكم؛ قبل أن يرسلني مجلس الحكام إلى هذا الكوكب البدائي لدراسة ظروفه وقابليته للاحتلال من جانبنا..

لابد أنهم نسوا من أنا، ونسوا مهمتي من أساسها، ولا بد أنني أُدرجت باعتباري مفقودًا في أثناء العمليات في ذاكرة (سيجورا) الأعظم... لكن الأمل كائن أزلي يستحيل قتله، ولهذا ـ برغم ما أنا فيه ـ مازلت آمل أن يتلقى أحدهم هذه الرسالة يومًا ما ويجيء لإنقاذي، يومها سأقف لأؤدي فروض الولاء أمام (سيجورا) الأعظم وأقول:

ـ «تحية يا متكامل الدوائر... لقد أديت مهمتي خير قيام.. لكن ذلك الكوكب قد استنفد موارده مبكرًا ولم يعد يصلح لسكنى أهل (زيفرا).. وأرى أن ننساه ونبحث عن كوكب آخر..»

عندها سيسألني عن أسبابي، ثم يحيلني إلى التقاعد، وعندها أنعم بالراحة الجزيئية الكاملة وهو الوضع الذي بدأنا الكفاح كي نصل إليه..

☆ ☆ ☆

ولكي أبدأ من البداية يجب يا إخواني أن أحكي عن ذلك اليوم الذي استدعوني فيه.. كنت منهمكًا في تطوير جهاز المعجل الأيوني مع (ب9أ17 / 18Ø!!!)، وهو ـ كما تعلمون ـ أعظم عقل خرج

من أنبوب لقاح على كوكبنا.. حين جاءني مبعوث إليكتروني يقول لي أن أتوجه إلى مجلس الحكام حيث ينتظرني (سيجورا) الأعظم..

الحق يا إخواني أن الفزع تملكني.. قليلة هي المرّات التي يستدعي فيها مجلس الحكام واحدًا من الرتبة (Ø99).. أنتم تعرفون أنّ هذه من الرتب الدنيئة في كوكبنا، ولا يُسمح لأفرادها عامّة إلا بالأعمال اليدوية، فلو كنت من الرتبة (Ø18) لكنت أكثر اطمئنانًا...

ومرتجف الأوصال كما لكم أن تتوقعوا دخلت إلى مجلس الحكام الذي يتصدره (سيجورا) الأعظم..

مررت متوجسًا بين القوارير الزجاجيّة التي تحوي أمخاخ مجلس الحكام، محفوظة في محاليلها، وكانت بعض القوارير تتوهج من حين لآخر بلون أزرق مخيف يدل على عمليات عقليّة معقدة تجرى بداخلها.. مسيكات عديدة مرّت على هذه العقول وهي تمارس هذا العمل (المسيكات هي وحدة زمنية ما.. لهذا سأترجمها بالأعوام أو الساعات حسب موقعها من الكلام: المترجم)..

وفي النهاية وقفت أمام العقل الأعظم (سيجورا) الذي لا يكف عن التوهج وإطلاق الشرر، وهو يسبح في محلوله الحافظ، ومئات الأسلاك تدخل وتخرج إليه..

قلت بفكر مبحوح من الرهبة:

- «تحية يا متكامل الدوائر.. أنا أتساءل عن حقيقتي..»

والتساؤل عن الحقيقة - كما تعلمون - هو أخطر جريمة في عالمنا.. ربما كان هو الجريمة الوحيدة.. تعلمنا منذ الصغر أنه من الخير لنا أن نتجاهل هذه الأمور التي تقود إلى الضلال، و(سيجورا) الأعظم يعرف.. في كل الأحوال يعرف من فعل ذلك ومتى.. وعندها يكون العقاب صارمًا.. إن العذاب الجزيئي لهو شر مستطير لا يمكن وصفه.. ربما أعترف بيني وبينكم أنّ بعض الخواطر السامة جالت بفكري في بعض الأوقات لكني كنت أتجاهلها وأحاول جاهدًا أن أسمو بفكري فوقها..

ترى هل (سيجورا) الأعظم استدعاني ليعاقبني على أفكار كهذه مرّت عليها أعوام؟

دوى صوته المتحشرج الشبيه بالتجشؤ في فكري صافيا رائقا:

- «نعرف هذا يا (###Ø99).. (سيجورا) يعرف كل التفاصيل.. نحن بحاجة إليك في مهمّة استكشافية.. وتقارير الأداء الحيوي تقول إنك الأفضل..»

لم أدر ما أقول.. ترى أية مهمّة هذه؟

أنا الأفضل؟؟ أفضل في أي شيء بالضبط؟

☆ ☆ ☆

قلت كما ينبغي لمثلى أن يقول:

- «هذا شرف عظيم يا متكامل الدوائر.. أية مهمّة هذه؟»

وهنا رأيت الصورة ثلاثية الأبعاد تتجسّد في فضاء القاعة.. كانت تمثل مستنقعًا تتصاعد منه الأبخرة، وفيه يتحرك وحش عملاق له عنق طويل وذيل أطول، وجوار المستنقع كان هناك وحش آخر يمشي على قدميه الخلفيتين، ويُطلق زئيرًا مروعًا من بين أسنان حادة..

قال (سيجورا) الأعظم:

- «أنت تعرف يا (Ø99###) أن موارد كوكبنا تنفذ بسرعة.. لم يعد هناك ما يكفي من الأكسجين والنتروجين للحياة العضوية.. لم يعد ما يكفي من معادن للصناعة.. شمسنا دخلت مرحلة (الإنتروبي) مهددة بالخمود النهائي... لهذا صار من واجبنا البحث عن كوكب بكر آخر لاستيطانه..»

ولثوانٍ ساد الصمت، وواصل الشرر المتصاعد من المحلول انبعاثه، ثم جاء الصوت الفكري المتحشرج:

- «هذا الكوكب هو أحد كواكب مجموعة شمسية في مجرة (أركانا).. علماؤنا يسموّنه (هيسا).. يوجد في هوائه قدر لا بأس به من الأكسجين والنتروجين.. عليه كما تري حياة نباتية وحيوانية، وبالتالي هو يناسب حياة أهل (زيفرا).. هذه الصور وصلتنا بالسيال الضوئي منذ أيام، وكما ترى لم يصل هذا الكوكب لمرحلة أبعد من الديناصورات التي كانت على ظهر كوكبنا من ملايين السنين.. وإلي هذا الكوكب سنرسلك كي تدرس إمكانية الاستيطان... نحن نعرف الكثير جدًّا عن ذلك الكوكب لكن لا بد من قدم من عالمنا تمشي فوقه.. ربما كان هناك خطأ ما في حساباتنا..»

هنا تساءلت وقد عنّ لي خاطر ما:

- «هل هذا الكوكب بعيد؟»

- «ملايين السنوات الضوئية..»

- «ولكن هذا يعني أن السيال الضوئي قد خرج من ذلك الكوكب من ملايين السنين، وقد استغرق أعوامًا لا حصر لها كي يصل إلينا.. بمعنى آخر: لقد تطور ذلك الكوكب ملايين السنين بعد هذه الصورة..»

هنا أقسم أنني ميزت رنة غضب في صوت (سيجورا) الأعظم، وإن كان هذا مستحيلًا لأنّه من الحكمة بحيث لا يستطيع الغضب الوصول إليه:

- «أنت (Ø99).. وبالتالي ليس من حقك التفكير.. التفكير هو ما يقوم به الحكماء وذوو الرتبة (Ø18).. كل ما عليك هو أن تنفذ ما تؤمر به.. وعلى كل حال دعني أؤكد لك أنّ هذا الكوكب لم يتطور.. كل الدراسات تؤكد أنه خلق لتحكمه الديناصورات.. والديناصورات يسهل إبادتها.. ستكون معك قدرتك على التحور المورفولوجي والإحلال، وهذا يعني أنك ستكون في أمان..»

ولم أجد أمامي مناصًا من الرضوخ.. إن (سيجورا) الأعظم ليس من رتبة يمكن الجدال معها.. لكنه كان مخطئًا..

عرفت هذا فيما بعد.. ودفعت ثمنًا فادحًا بسبب هذا الخطأ..

وهو درس لم أنسه حتى اليوم.. حتى العقول المجرّدة العظمى متكاملة الدوائر ترتكب أخطاء من حين لآخر..

☆ ☆ ☆

2

وفي اللحظات التالية أخبرني ذوو الرتبة (18) تفاصيل مهمتي الجاسوسية.. جاسوسية على كوكب لا تسكنه سوى زواحف هائلة.. سيكون عليَّ أن أتأكد من أن كل شيء كما تخيلوه بالضبط.. ألتقط سيالات ضوئية.. آخذ عينات من التربة والهواء وكل شيء ثم أعود... فلو كانت نتائج رحلتي إيجابية؛ عندها يصدر أمر الانتقال الجماعي لحضارتنا إلى الكوكب (هيسا)، ولسوف نحتاج إلى مسيكات عديدة حتى نتمكن من أن نبيد حضارة الديناصورات، ونبني بيوتنا وشوارعنا ومدننا.. لن يكون أمرًا شاقًا لكنه بالتأكيد لن يكون سهلًا..

من يبالي على كل حال ما دام مجلس الحكماء معنا ومعهم (سيجورا) الأعظم؟ إن المرء ليشعر باطمئنان مادام قادرًا على ترك مسئولياته في أيدي عقول كهذه..

وجاء الموعد المحدد لرحيلي..

دخلت جهاز التحويل وتأكدت من أنني أحمل سلاح (زيتا) الرهيب حول معصمي، وهو كما تعلمون أخطر أسرارنا الحربية وقادر على تحويل جيش كامل إلى غبار، وتأكد العلماء من أن قدرتي على التحول المورفولوجي كاملة.. كانوا قد عرضوا عليَّ بعض صور الديناصورات، فاخترت أحدها كي أتحول لما يشبهه وقت الخطر.. إنّه ضخم قوي لا يغري بمهاجمته..

نصحني العلماء بأن أكون مستعدًا للرحيل خلال مائة من المسيكات.. إن الشعاع سيمتصني عائدًا إلى (زيفرا) سواء أنهيت مهمتي أم لم أنهها.. هذا يروق لي لأنني لم أحب قط أن أقضي حياتي وحيدًا على كوكب يعجّ بالعظايا..

وأغلقوا عليَّ الباب المائي، وبدأت تيارات (زيكسا) تؤدي عملها.. هذا المشهد الخالد الذي يعرفه كل سكان (زيفرا).. مشهد انتقال الجزيئات عبر الزمان والمكان.

وكانت رحلة طويلة حقًّا استغرقت ثلاث لحظات، أو ربع ساعة حسب مقاييس ذلك الكوكب الذي اتجهت نحوه.. هذا طبيعي! إن المرء لا يقطع ملايين السنوات الضوئية بالسرعة التي اعتادها على كوكبه..

ولا أذكر من تفاصيل الرحلة إلا ضوءًا يتوهج وينطفئ بلا انقطاع، مما جعلني أفضل إغلاق عيني.. وفي النهاية سمعت الخلية البيولوجية تهنئني بالوصول، ففتحت عيني وأخذت شهيقًا عميقًا..

مرحبًا بي في كوكب (هيسا)!

☆ ☆ ☆

كانت هناك حديقة رائعة الجمال، تستلقي في ظلام الليل، وثمّة مسبح تتلألأ عليه أضواء كهربية هادئة.. هذه أشياء أعرفها لأن أصحاب الرتبة (67**) في كوكبي - وهم المكلفون بإنتاج القصائد والرسوم والموسيقا - يعيشون في بيئات مماثلة.. لكن ما علاقة هذا بما كنت أتوقع أن أراه؟ الديناصورات والمستنقعات والبراكين الوليدة؟

هل حدث خطأ ما؟ بالتأكيد ليس هذا هو العالم الذي جاءنا سياله الضوئي.. هذا الكوكب ليس بكرًا كما حسب (سيجورا) الأعظم..

من الغريب أن يجد المرء نفسه محقًا.. والأغرب أن يكون محقًا أمام (سيجورا) الأعظم.. لكني لم أجرؤ على أن اعترف لنفسي بشيء كهذا..

ورحت أفتش بعيني عن شيء يتحرك..

كان هناك مخلوق حي.. لم يبد لي ديناصورًا، ولم يبد لي ذا تفكير عاقل.. كان حار الدماء يغطيه الشعر الأسود، يمشي على أربع، ويدور حولي في عصبية مرددًا أصواتًا مثل (هو هاو هاو!).. كان يريد إيذائي جسديًا..

لم أكن أستطيع قتله لذا لجأت لأسلوب الإحلال الذي يمارسه أي طفل في كوكبنا ببراعة.. حولت ذراتي إلى طاقة.. كل شيء داخل أو حول جسدي تلاشى، وحتى سلاح (زيتا) الرهيب المحيط بمعصمي ذاب معي.. ثم تسربت إلى كيان الكائن واحتللته... الآن صار تفكيره تفكيري، وحركاته حركاتي.. يمكنني أن أتحرك به في المكان وأعرف أين أنا..

لقد حان الوقت لتصحيح معلوماتي عن (هيسا)..

رحت أستكشف المكان وأنا في أعطاف ذلك الكائن.. المكان عبارة عن مجموعة من الأشجار التي لم تنبت بفعل الطبيعة فقط.. ثمّة سور حديدي يحيط بنطاق الأشجار، ومبنى في المنتصف لايشبه مبانينا على الإطلاق.. إن سكان (هيسا) ليسوا ديناصورات.. بل هم أناس متقدمون إلى حدٍ ما.. ترى هل وصلوا إلى درجة علمنا؟ لا أظن.. لا يوجد ما يشي بتقدم علمي في هذا المكان..

- «(داني)؟ هل أنت هنا؟»

سمعت الصوت.. واندهشت لأنني ميزت اللغة الغريبة، ثم فطنت إلى أنني سمعت الأفكار قبل أن أسمع الصوت.. الأفكار لا لغة لها ويمكن فهمها بسهولة..

كان عليَّ أن أكون طبيعيًا.. لا يجب أن تفشل مهمتي بهذه السرعة..

☆ ☆ ☆

كان الكائن المتكلم دانيًا من مكاني، وواضح أنه يخاطب الكائن الذي أتحرك داخله.. وعرفت أنه ينظر له باعتباره (حيوانًا) وللدقة أكثر (كلبًا).. لا أعرف معنى هذا لكن من الواضح أن الكلب له منزلة اجتماعية أدنى هاهنا، وتأملت ذلك الكائن الغريب.. نموذج ساكن (هيسا) الحديث..

كان مختلفًا إلى حدٍ ما عن سكان (زيفرا)؛ فالرأس صغير ومغطى بالشعر الطويل الناعم الذي ينسدل على جانبي الرأس.. أنتم تعرفون أن أمخاخنا متضخمة تعلو رءوسنا في شكل قبة هائلة، وأنّ هذه القبة تظهر كل تضاريس الدماغ ولا يغطيها شيء.. بالإضافة لهذا كانت الأطراف أقوى وأضخم من أطرافنا.. يبدو أن هؤلاء الناس قد اعتادوا العمل اليدوي الثقيل.. ولم يكن لهم - تصوروا هذا - الممس الخاص باستشعار الحرارة، والذي يتدلى من صدورنا جميعًا..

كان للكائن صوت رفيع حاد.. وقد درست هذه التفاصيل بعناية في ذاكرتي قبل أن أطلق صيحة أو صيحتين بصوت الكائن الذي أعيش فيه: هاو هاو! غريب هذا! إن التعبير عن الرضا يتم هنا بحركة منتظمة من الطرف الخامس الموجود عند مؤخرة الجسد..

داعب الكائن السيد رأس الكائن التابع، ثم اتجه بخطى ثابتة إلى ما بدا لي كمركبة حمراء واقفة أمام المنزل.. رأيته يستقلها ودوى هدير عالٍ يصم الأذان، ثم تحركت المركبة مبتعدة.. يا لبدائيتها! يا للصخب والتلوث الذي تحدثهما! هكذا عرفت بالضبط موقع هؤلاء القوم من سلم التقدم العلمي!

الآن صارت عندي نقطة صالحة للبدء..

ما إن ابتعدت المركبة المضحكة حتى خرجت من جسد الكائن الذي يدعونه كلبًا.. وعلى الفور استعملت موهبة التحول المورفولوجي لأتخذ ببطء شكل الكائن الذي رأيته منذ ثوان، وبالطبع ثيابه

وإن ظل السلاح حول معصمي..

أنتم تعرفون أن بوسع الواحد منا أن يحل في كيان كائن، أو يبدو مثله بالضبط.. يمكن أن أكون مثلك أو يمكن أن أكون أنت.. هذا سلاح قوي وإن كنا نكره أن نستعمله مع بعضنا..

لقد تحولت إلى نسخة كاملة من الكائن طويل الشعر حتى إن الكلب راح يدور حولي، ويهز طرفه الخامس في مرح.. لقد اعتبرني سيده.. لكنني تجاهلته، واتجهت رأسًا إلى البيت.. كنت أعرف أن أمامي وقتًا لا بأس به حتى تتم استعادتي.. يمكنني أن أبدأ أبحاثي من هنا..

كان الباب موصدًا.. باب بدائي مما نراه في متاحف تاريخ كوكبنا.. هذا النوع من الأبواب يفتح بمفتاح.. ومتى كانت المفاتيح عقبة أمام أهل (زيفرا)؟ لقد قمت بتحوير طرف إصبعي إلى ما يشبه المفتاح وأولجته في القفل، وغيرت شكل الإصبع ثانية ليتناسب وانبعاجاته من الداخل.. كليك! انفتح الباب.. ودخلت.. وأثار دهشتي أن الكلب لم يتبعني إلى الداخل.. لابد أن لديه تعليماته بهذا الشأن..

حقًّا كان مسكنًا بدائيًا لكنه يبدو مريحًا وله رائحة عطرة.. رأيت هذا كله باستعمال مرشح الرؤية الليلية المزروع في عيني.. رأيت مرآة عملاقة تحتل جدارًا كاملًا.. ومن الغريب أن انعكاسي فيها لم يكن انعكاس الكائن الذي رأيته، بل انعكاسي أنا (Ø99###)..

هي معلومة مهمّة يجب وضعها في الحسبان: مرايا هذا الكوكب لا تنخدع بالتحول المورفولوجي... إنها تظهرني كما أنا بالضبط..

فيما بعد فهمت أن سكان هذا الكوكب نوعان: نوع طويل الشعر دقيق البنيان كالذي رأيته الآن، ونوع قصير الشعر لكن يعوض ذلك بزيادة في شعر الوجه والجسد، وقوي البنيان إلى حد لم أره على كوكبنا قط.. أمّا كل الكائنات الأخرى تدعى (حيوانات) ولها منزلة اجتماعية أدنى..

☆ ☆ ☆

3

سمعت الباب ينفتح فأجفلت..

وعلى الضوء القادم من الخارج رأيت كائنًا من الرتبة قصيرة الشعر قوية العضلات..

وقفت في براءة أنتظر القادم.. لم لا؟ إنني أشبه الكائن الذي كان يسكن هنا، وبشيء من الحظ يمكن أن يعتبرني هو..

دخل المكان ووقف لحظة ويبدو أنه قد شعر بوجود كائن. آخر..

أضاء مصباحًا ما فغمر ضوء ساطع المكان، وقال بلغته التي لم تعد عسيرة عليّ:

- «(داليا)؟ أنت هنا؟»

كان لابد لي من رد فعل ما، وقد بحثت في أفكاري عن فكرة صالحة.. في النهاية كان الرد الوحيد هو نعم.. وحاولت أن أخرجه من حنجرة ذلك الكائن.. وكانت الاستجابة مثيرة.. لقد صرت أملك قياد النموذج تمامًا كما يقود المرء منا مركبة سلسة الحركة:

- «نعم..»

كان يبدو على قدر من الشراسة والغباء.. لا أعرف.. ربما كانت هذه معالم الرقة واللطف هنا.. وقد مد يده إلى جيبه فأخرج أنبوب عادم أبيض وأشعل نارًا قربها منه، فانبعثت رائحة قوية لها أصل عشبي ما.. هذه العادة كانت عندنا يومًا ما.. استنشاق أعشاب جافة بلا جدوى على الإطلاق..

قال في صوت رتيب:

- «قلت إنك لن تعودي.. كذا كانت كلماتك..»

ما هذه الورطة؟ يمكن أن أنهى كل شيء وأفر من هنا.. لكن اللعبة بدت لي مسلية فقلت:

- «غيرت رأيي..»

- «هذا جنون.. أنتِ جننت فعلًا..»

ثم اتجه إلى الداخل وهو لا يكف عن تلويث الجو بتلك الرائحة.. مد يده إلى جهاز معين بشيء من العصبية فانبعث سيال من الأصوات والصور..

جن جنوني.. لا بد من أن أرى هذا الجهاز..

اتجهت في تؤدة إلى حيث أرى الشاشة.. وكان ما عليها يظهر بلدة ما تجوب مركبات مدرعة شوارعها، ومبان مهدمة، ودماء، وجثث محترقة..

واضح أنّ هذا الجهاز يشبه الراصد في عالمنا، لكنه أكثر بدائية بالطبع.. يبدو أنّ هذه الأحداث تدور في هذه اللحظة بالذات في مكان ما من هذا العالم..

نسيت من أنا وأين أنا، وجلست أتعلم المزيد عن هذا العالم.. مهم جدًا هو هذا الجهاز.. يُمكنك أن تتعلم عن هذا العالم في لحظات معدودة ما كنت تحتاج إلى (أنثراك) كامل لتعرفه.. كان كوكبًا تعسًا يعاني من الحروب والاضطرابات البيئية.. وسكانه لم يتعلموا بعد التحكم في الطقس ولا الزلازل.. كان هناك جوع، وهو شعور لا نعرفه في (زيفرا) لأن وحدات الشحن تغذي عقولنا بإحساس الشبع الدائم، ويجب أن أقول هنا إنني لم أتلق وحداتي منذ بدأت الرحلة، لذا رحت وأنا أشاهد الشاشة أتسلى بحبوب (كارا) المقوية.. وهي وجبتي الأساسية باعتباره من الرتبة (Ø99###) كما تعلمون..

وقلت لنفسي:

- «لو أنني تمكنت من بث هذه الصور إلى (زيفرا) لقدمت لهم أعظم خدمة ممكنة..»

الكائن قصير الشعر يظهر على الباب ممسكًا بشطيرة يلتهمها.. يستند إلى الإطار في تراخ، ويسألني وهو يمضغ:

- «ألن تتناولي العشاء؟»

هززت رأس الكائن بمعنى أنه غير راغب..

- «ألن تنامى إذن؟»

حقًّا أنا بحاجة إلى النوم، لكن ليس هنا.. لا أعرف حرفًا عن طقوس النوم في هذا الكوكب.. لا بد من أن أرتكب خطأ ما.. كلا.. لن أنام..

هزّ رأسه باحثًا عن شيء يُقال، ثم غمغم:

- «اذهبي للحمام إذن واغسلي وجهك..»

الحمام؟ مكان النظافة على الأرجح.. هززت رأسي بمعنى أنّ هذا ممكن على الأقل، ونهضت..

أين الحمام؟

طبعًا ما كنت لأجرؤ على سؤاله، لذا اعتمدت على حاسة الرطوبة التي لديَّ.. إحساس البلل يأتي من هذا الصوب.. لا بد أن الماء هناك..

مشيت إلى حيث البلل.. كان نظامًا لإمداد المياه لا بأس به على الإطلاق.. يذكرك بما تراه في عالمنا.. وكانت هناك مادة دهنية معينة يبدو أنها تمنح المزيد من النظافة..

رحت أغسل وجه الكائن وشعرت بانتعاش لا بأس به..

هنا رأيت ذلك الكائن قصير الشعر يدنو من الباب. يقف بطريقته المتراخية مستندًا إليه.. يبدو أنه بحاجة إلى إطار باب دائم إلى جواره حيث ذهب.. قال وهو مستمر في المضغ:

- «كلما فكرت في الموقف وجدت أن....»

ثم ماتت الكلمات على شفتيه.. وتصلب..

لماذا تصلب؟

أعتقد أنني فهمت. أن انعكاس وجهي في المرآة يبدو ظاهرًا له، وانعكاس وجهي هو - بالفعل - انعكاس وجهي وليس انعكاس وجه الكائن طويل الشعر!

وعلى الفور ابتعدت عن المرآة وواجهته..

ترى ماذا سيقول؟

لم يتكلم أو يعلق.. فقط ظل ينظر لوجه الكائن في حيرة وغباء.. أعتقد أنني أفهم الآن ما يدور في ذهنه: لو لم ير شيئًا.. فقط تخيل الأمر برمته بسبب ضعف الإضاءة.. إن شكلنا غريب فعلًا لا يوحي لهم إلا بالكوابيس.. ومن الأسهل أن يتخيل الواحد من أن يعترف بأن هذا ممكن...

- «ألن تنامي في ليلتك هذه؟»

للمرة الثانية يكرر الاقتراح، لكن الكائن طويل الشعر يهز رأسه... ثم يعود إلى جهاز الصور ويجلس أمامه في نهم...

هز رأسه ثم دخل لينام على ما يبدو..

وجلست أمام جهاز الصور: أفكر... هذا المكان يبدو مناسبًا لي.. ويبدو أنني صرت ألعب دور الكائن طويل الشعر ببراعة.. يمكنني أن أبقى هنا فترة أطول وأتخذه قاعدة انطلاق..

سأنتظر هنا حتى يأتي موعد الرحيل، وفي هذه الأثناء أجمع ما أستطيع من معلومات وسيالات ضوئية.. لقد انتهى السؤال من زمن بالنسبة لي: هل هذا الكوكب خالٍ إلا من الديناصورات؟ طبعًا لا.. هذا كوكب مزدحم لا يصلح على الإطلاق لنا، إلا بحرب إبادة كاملة..

لكني - بضمير حي - كنت راغبًا في أن أجوّد التقرير الذي سأقدمه إلى (سيجورا) العظيم..

وهكذا أمضيت أول ليلة لي في هذا الكوكب أمام جهاز الصور، ولحظات من النوم المختلس..

☆ ☆ ☆

4

حين دخل القاعة في الصباح منكوش الشعر لا يكف عن حك شعره، كان يلبس نوعًا من الثياب أكثر نعومة مما كان يرتديه ليلًا وهو ما جعلني أعتقد أن هؤلاء القوم ينامون بثياب خاصة..

حين دخل القاعة ووجدني ما زلت أجلس أمام جهاز الصور، بدت عليه الحيرة، وقال في غباء:

- «ألم تغمضي عينيك لحظة؟ أنت غريبة الأطوار بحق..»

ثم دنا مني فركع جوار المقعد الطويل الذي كنت أتمدد عليه، فوضع يده في شيء من الغلظة على عنقي، وقال:

- «(داليا).. يجب أن تردي على.. يجب أن تتكلم..»

رفعت عيني نحوه لأفهم ما يريد قوله.. كانت بصيلات الشعر في وجهه قد استطالت مسافة الليلة وهو ما دلني على أن هؤلاء القوم فعلًا يشبهوننا كثيرًا.. كما كنا من ملايين المسيكات..

- «أنت تعرفين أن زواجنا كان خطأ.. لكن كلينا يعذب الآخر بهذه الطريقة.. يُمكنك أن تكرهيني إذا شئت.. لكن لا تعابثيني بهذه الألعاب السخيفة..»

لم أرد وطفقت أنظر لوجهه في ثبات.. لا أفهم حرفًا عما يتكلم عنه لكنه كلام مهم، ومن السهل أن أرتكب خطأ ما.. يجب أن أظل صامتًا..

ثم تذكر شيئًا فسأل وهو ينهض:

- «أين السيارة؟»

هززت رأسي وأنا لا أعرف عم يتكلم كما هي العادة.. فصاح:

- «السيارة أيتها الحمقاء.. السيارة!»

ثم وقف في وسط القاعة وراح يطوح بقبضته في فظاظة.. ويردد حشدًا من التعبيرات التي وجدتها عسيرة الفهم.. تعبيرات حادة لا تخلو من تشبيهات قوية جدًا.. فيما بعد عرفت أنّ هذا سباب.. نعم.. هذا هو اسمه.. نحن لا نستعمل هذه الأساليب كثيرًا لهذا يصعب فهمها بالنسبة لنا، لكن لنقل إنها التعبير اللغوي الأعلى عن حالة الغضب هنا.. حين يغضب الأرضي يصف خصمه بأنه (حمار) مثلًا.. ما جدوى هذا؟

الحمار رتبة بيولوجية مختلفة وليس من المهين في شيء أن تتهم واحدًا آخر بأنه ينتمي إليها.. هذا يسيء إلى دقتك البيولوجية لكنه لا يسيء له على الإطلاق، كما أنّ قولك هذا لا يعني أنه صار حمارًا.. لكن الحقيقة أن أهل هذا الكوكب يفعلون ويقولون أشياء عديدة لا تخضع لأي منطق، وربما كان السبب أنهم في بداية مسيرة التقدم..

الخلاصة أن الكائن أطلق عليَّ فيضًا من السباب..

ثم قال وهو ينزع ثيابه توطئة لأن يلبس ثيابًا أخرى:

- «أنا لا أُخدع بسهولة.. أنا لست طفل الأمس.. أريد السيارة وأريد قائمة الأثاث قبل أن أطلق سراحك.. لن تتخلصي مني وتفوزي بكل شيء بهذه البساطة..»

ثم انصرف غاضبًا، وسمعت باب الدار ينغلق..

هذه المخلوقات تضيع وقتها في أمور غريبة جدًا..

دعنا من هذا السخف..

الآن يجب أن أقوم ببعض عمليات المسح..

هكذا غادرت الدار، وقمت بالتقاط عشرات السيالات الضوئية لكل مكان.. أخذت عينات من التربة وحللتها واحتفظت بالنتائج في ذاكرتي لأنني لن أنقل معي شيئًا في أثناء العودة.. حلّلت الهواء والماء..

وغادرت الحديقة إلى العالم الخارجي... فأدركت أن المكان يعجّ بوحدات سكنية متماثلة.. ولم أكن أعرف وقتها أنّ هذا المكان الذي رأيته يمثل أرقى أنماط السكنى في هذا العالم.. إن صاحب المكان ثري.. وثري كلمة يصعب فهمها بالنسبة لنا حيث لا ملكية فرديّة في عالمنا.. لكن لنقل إنّه يملك من الأسباب ما يتيح له الحصول على مستوى حياة أفضل من رتبته.. في (زيفرا) لا يُمكنك أن تظفر بمسكن مكيف وحديقة إلا لو كنت معدًا لكتابة الشعر والموسيقا.. هنا يمكن لمن لا موهبة له أن يظفر بالشيء ذاته لمجرد أنه ثري.. أي يملك عددًا من وحدات الشراء، حصل عليها من أهله أو كسبها من عمله أو سرقها من سواه.. هذه أشياء يصعب فهمها لكن لا بد من أن نحاول معًا..

عندما دنا المساء انتهيت من جولتي وعدت إلى المقر...

هنا فوجئت بالمركبة الحمراء واقفة في الحديقة.. ما معنى هذا؟

دنوت من البيت أكثر، أصخت السمع فكان ما سمعته أقرب إلى الصراخ..

صوت الكائن طويل الشعر:

- «أنت لا تطاق.. حقًّا لا تطاق.. حسبت أنك تتعذب وأنني سأقدم لك معروفًا بالعودة.. فإذا بك تقابلني بهذا الصراخ..»

أمّا هو فكان يواصل ما بدأه صباحًا:

- «مجنونة.. لا أكثر ولا أقل.. هذا أنت.. وكل ما قلته أمس والسهر ليلة كاملة أمام التلفزيون.. و....»

- «أنت الذي فقد صوابه.. أنا قضيت الليلة عند أمي.. أي تلفزيون تتحدّث عنه؟»

ازداد صوته توحشًا:

- «هذا لأنك جننت فعلًا أو تريدين إصابتي بالجنون!»

ثم دوّت بعض عبارات لم أفهمها جيدًا، واندفع المخلوق طويل الشعر خارجًا من البيت في عصبية واضحة.. كانت ثيابها تختلف عن أمس.. اتجهت إلى السيارة وأوشكت على أن تفتحها ثم توقفت.. نظرت إلى الدار ثم إلى السيارة وبصقت عليها، ثم أخرجت أداة تشبه المفتاح من حقيبة يدها فطوحتها على الأرض وداستها بقدمها وابتعدت..

هنا جاء دوري..

بدأت عملية التحول المورفولوجى لتناسب ثيابي ثياب ذلك الكائن.. ثم اتجهت إلى الدار..

لماذا فعلت ذلك؟ لأنني كنت راغبًا في اختبار هذا الوضع حتى حدوده القصوى، ولأن المكان راق لي.. ثم إن رحيلي صار دانيًا جدًّا ولن تحدث مشاكل أخرى..

الباب كان مواربًا فرفعته ودخلت..

كان ذلك الكائن قصير الشعر جالسًا على الأرض وفي فمه ذلك العادم الدخاني الأبيض.. وقد بدا عليه الهم..

رفع رأسه فرآني.. ابتسمت له..

- «هل تمزحين؟».

كان الجو يفوح بالتوتر.. نحن نشم رائحة التوتر بسهولة، ويقول الأرضيون إنها رائحة هرمون يسموّنه (الأدرينالين).. لا أدري.. لكننا نعرف التوتر حين نراه..

لم أرد واتجهت إلى جهاز الصور وفتحته في شغف..

كانت مجموعة من الكائنات قصيرة الشعر تحمل أسلحة ما، وتطلق نارًا على بيوت بلدة لا أعرف ما هي.. بدأت اندمج في الحدث حين..

أغلق الجهاز في عصبية باستعمال أداة صغيرة سوداء في يده، وقال:

- «قلت لي إنك لن تعودي..»

- «لم أقل..»

قلتها في برود وواصلت النظر إلى الشاشة الخاوية..

هنا لاحظت أنه لم يعد ينظر لي.. كان ينظر - بعينين متسعتين خائفتين - إلى مرآة صغيرة في ركن المكان.. مرآة لم تكن تظهر إلا طرفًا من وجهي.. وبالطبع كان الوجه الذي يراه هو وجهي الحقيقي..

بدلت من جلستي وغصت في المقعد ليتوارى وجهي تمامًا..

لكنه ظل ينظر لي في ذهول..

بعد دقيقة من الصمت المربك همس:

- «أنت.. أنت لست طبيعية..»

ثم مد يده في شيء من الرعب وأمسك بمعصمي، وقال:

- «تعالي معي.. تعالي معي حالًا..»

☆ ☆ ☆

5

كانت الغازات السامة تملأ المكان حتى إننى تصورت أننا في مستنقعات (بيلجور).. وكان الكائن الجالس يملك شعر وجه أكثر بكثير مما رأيته حتى الآن.. لقد طال شعر وجهه حتى غمر أعلى صدره، وكان يضع أمامة ذلك الوعاء الذي يُطلق الغازات السامة ولا يكف عن ترديد كلمات ما..

بقي أن أقول إن مكان هذا الكائن كان عند سفح جبل... والبيت فقير لا يشبه ذلك الذي أقيم فيه.. لكن الكائن القصير الشعر كان يعرف الطريق، وبشكل ما شعرت بأنه قد رتب هذا اللقاء مسبقًا.. من حسن حظه أن الكائن طويل الشعر ترك له تلك المركبة كي توصله إلى هنا.

الكائن قصير الشعر يقول للكائن الآخر:

- «ممسوسة.. أنا متأكد..»

في نظرات شاردة سأله الكائن الآخر:

- «وتقول إن صورتها تغيرت في المرآة؟»

- «نعم. رأيتها أكثر من مرة.. تتشاجر وتهجر البيت ثم تعود إليه بعد دقائق.. وهي تكرر الشيء ذاته أكثر من مرة..»

يهز الكائن ذو الشعر الغزير على وجهة رأسه في فهم ويقول:

- «أعرف هذا النوع من الجان.. إنِّه جان ملحد، ولا بد أن عملًا سفليا موجودًا في موضع ما..»

- «والحل؟»

- «أولًا: لابد من فك العمل.. ثانيًا: لا بد من أن تدفع.. تدفع الكثير.. ولسوف تدفع..»

ثم أخذ شهيقًا عميقًا وأمر الكائن قصير الشعر بأن يتركه معي..

- «لا بد من أن أتكلم مع هذا الجان..»

في تثاقل وشك خرج الكائن قصير الشعر وبقيت وحدي وسط أبخرة الغازات السامة..

لم أكن أفهم ما يُقال وإن أدركت بسهولة أن الرجل طويل شعر الوجه كاذب... كاذب ما دام يزعم أنه يعرف من أنا وما أنا.. أعتقد أن الكلام عن مهمّة (سيجورا) الأعظم الذي أرسلني من (زيفرا) هي أمر لا يمكن أن يخطر له ببال، ومهما بلغ من سعة خيال.. هذان أحمقان أحدهما يخدع الآخر.

وقد قررت أن أداعب الرجل طويل شعر الوجه على طريقتي..

لقد بدأت أمارس خبرة التحول المورفولوجي لأتحول.. لمن؟ أتحول إلى الكائن طويل شعر الوجه طبعًا.. لقد احتفظت بجسد الفتاة لكني غيرت من معالم وجهي قليلًا.. بدأ شعر وجهي يستطيل وفي عيني ارتسمت تلك النظرة الثقيلة السمجة التي لا تخلو من خبث وشر..

وفي الضوء الخافت نظر الرجل لي.. اهتزّ شعر وجهه قليلًا.. وراح يرمش بعينيه..

ثم انتقلت الرجفة إلى شفته السفلى..

لا أعرف إن كان يتذكر جيدًا شكله لكنه على الأقل لم يكن جميلًا على الإطلاق بمقاييس هذا الكوكب. وقد وجدني أتحول إلى كائن قبيح مريب الشكل..

أعترف أنه تأثير مرعب.. لهذا لا نمارسه إلا قليلًا..

وفي النهاية أطلق عواء كعواء ذئاب (داركونيا).. هب صارخًا وركل وعاء الدخان فتناثر في كل صوب، وراح يلطم خديه.. ويركض من مكان لآخر في الغرفة.. وهو يردد:

- «أعوذ بالله! ابتعد عني!!»

وجاء الكائن قصير الشعر من الخارج ليرى سبب هذه الضوضاء، وهنا كنت قد استعدت وجهي القديم.. لهذا لم ير الكائن قصير الشعر أسبابًا جلية لكل هذا الصراخ..

- «ماذا حدث يا عم الشيخ؟»

لكن الكائن طويل شعر الوجه راح يعوي ويصرخ..

ومن بين صرخاته جاءت كلمات يمكن فهمها نوعًا:

- «هذه المرأة! إنها ممسوسة!»

- «يا سبحان الله.. أنت قلت هذا من دقائق..»

لكن الرجل لم يكن على استعداد لقبول المنطق، وفي حركات هستيرية راح يطردنا نحو الباب وهو لا يكف عن العواء والصراخ... كأنه شيطان تمت كهربته من شياطين (موردا) الذين لا يكفون عن الاهتزاز في أية لحظة.. لا يحضرني أي تشبيه آخر..

لا أدري إن كنت مخطئًا أم لا.. لكن هذا الرجل لم ير قط هذا النوع من البشر الذين يعتبرهم (ممسوسين).. إنه لا يملك خبرة على الإطلاق..

وسمعت الكائن قصير الشعر يهمس بشيء كهذا وهو يغادر البيت:

- «أنت نصاب إذن.. للمرة الأولى في حياتك تقابل الشيء الحقيقي..»

ثم فتح لي باب المركبة وقال دون أن ينظر لي:

- «اركبي..»

وتنطلق المركبة الملوثة التي تنثر الغازات السامة في كل مكان.. أعرف أنه معذب.. أعرف أنه يخافني كثيرًا.. وكما توقعت أوصلني إلى البيت وقال دون نظرة أخرى واحدة:

- «سأقضي الليل في الخارج..»

كأنه يكلم أحد أفعوانات (بلجور).. وأدار المحرك المزعج..

ثم ابتعدت المركبة..

مرت عدة مسيكات وأنا في الدار أتسلى بمشاهدة الجهاز ذي الصور.. بعد مسيكات قليلة أعود إلى كوكبي، ولا أخفي أنني لهذا سعيد.. إن المغامرة تفعمني لكني سئمت هذا العالم بحق..

قررت أن أنام ثلاث مسيكات بعدها استعد للرحيل..

لا أعرف هل نمت أم لا.. لكني حين صحوت كنت أدرك أنّ هناك من يعبث في قفل الباب..

هناك من يحاول الدخول...

وهو ليس الكائن قصير الشعر بالتأكيد..

☆ ☆ ☆

كنت واقفًا في الظلام، واستطعت أن أرى الكائنين الداخلين إلى الدار.. كانا من الطراز المشعر قوي العضلات.. كانا يتحركان في توتر وبطء.. وفي يد أحدهما شيء مضيء، وسمعتهما يتكلمان بصوت خفيض.. طبعًا فهمت أفكارهما لا كلماتهما كالعادة، وأمكنني بسهولة أن أعرف ما يتكلمان عنه...

كان الأول يعرف نفسه باسم (شحاتة) والثاني يعرف نفسه باسم (حمزة).. يا لها من أسماء غريبة! كيف يعرف المرء طرزه البيولوجي من أسماء كهذه؟ كان (شحاتة) يقول لصاحبه:

- «متأكد من أن الكلب لن يفيق؟»

- «عيب! كل هذا اللحم لن يضيع هباء.. إن أمامنا ساعتين أو أكثر.. صدقني..»

- «صه! هل تسمع؟ التلفزيون مفتوح!»

وسمعتهما يتقدمان، وفي اللحظة التالية غمرني شعاع الضوء الذي يحمله الأول، وسمعته يشهق في ذهول، ثم تراجع للوراء في وضع دفاعي وكذا فعل صاحبه، وإن كان الأخير أسرع في ردود الأفعال.. لقد مد يده في ثيابه وأخرج شيئًا لامعًا يبدو أنه سلاح بدائي.. وقدَّرت أنه سلاح من النوع الذي يحتاج إلى التحام جسدي، لا كسيوف الطاقة مثلًا..

- «ولا كلمة يا مدام! لو أردت ألا نؤذيك فلا تحدثي جلبة!»

ودون كلمة أخرى، انقض الكائن الشرس عليَّ ملوحًا بسلاحه، وأدركت أنه في سبيله لإيذائي جسديًا... كأن.. كأن هذا ينقصني! المشكلة هي أنني لا أجد الوقت الكافي لهذا السخف.. سلاح (زيتا)؟ لا طبعًا.. إن أخطر سلاح في (زيفرا) لا يستعمل لهذه التفاهات..

كان أمامي حل واحد سهل.. بقدرتي على الإحلال تلاشت جزيئاتي تمامًا ثم احتلت جسد مهاجمي بالذات.. وفي اللحظة التالية لم يعد وجود للكائن الذي يسموّنه (المرأة)، ووجدت نفسي في مركز القيادة لهذا الكائن الشرس المسمى (حمزة)..

كان تأثير هذا على الآخر خارقًا للعادة.. لقد فوجئ بالمرأة تتبخر.. هذا ما رآه، وراح يرتجف ويردد عبارات على غرار:

- «بسم الله الرحمن الرحيم! هذه الليلة لن تمر على خير.. إنها جنية لا امرأة.. هل رأيت ما رأيته؟»

☆ ☆ ☆

6

هذه المرّة كنت أسيطر بشكل كامل على الكيان المدعو (حمزة).. تلاحظون أنني للمرة الأولى منذ قدومي أحل في جسد الكائن قصير الشعر.. لقد جربت ذلك الكائن الصغير الذي يدعونه كلبًا.. وجربت الكائن طويل الشعر.. لكن هذا الكائن..

رباه! يا لقوته! في عالمنا يستحيل أن تجد من يماثله قوة.. لقد استغنينا عن أجسادنا منذ زمن وتضخمت عقولنا، لكنّها بحق كانت تجربة مثيرة..

على أنني لاحظت أن خلايا مخه لا تعمل على ما يرام.. أداؤها أبطأ مما يجب.. انتقال الشحنات الكهربية ليس جيدًا.. وهذا كان يؤدي بالكائن إلى أن يتصرّف مثل (روبوت) تعطلت دوائره المنطقية.. يخيّل إلى أنّ هذا الرجل تحت تأثير عقار ما.. عقار من النوع الذي يؤدي إلى بطء عمل خلايا الدماغ.. لماذا؟ ولأي سبب؟

فيما بعد عرفت أن لكائنات هذا العالم عادة عجيبة هي تعاطى مواد تدمر خلايا الدماغ وتشل حركته، ويطلقون على هذا الطقس اسم (مازاج) أو (مزاج).. كما قلت لكم نحن لن نفهم هذه الكائنات ما حيينا... لكن القوة الغاشمة التي لم أجربها قط كانت تتلاعب في أعماقي، وهكذا لم أقاوم الإغراء.. كورت قبضة (حمزة) - أعني قبضتي - ووجهت لكمة عاتية إلى وجه الكائن الآخر.. زلزلت كيانه بحق.. فصاح والدم يسيل من أنفه:

- «هل جننت أيها الـ....؟»

لكمة أخرى ثم ثالثة.. بعدها هوى على الأرض، وانقطع سيال وعيه..

ومن جديد سمعت قرعات عنيفة على الباب.. ترى من القادم هذه المرّة؟

هذه المرّة كانت القرعات حازمة حاسمة.. قرعات من يملك الحق في الدخول.. ثم تهشّم الباب لينفتح، ورأيت عددًا من الكائنات يقتحم المكان.. كانوا جميعًا يرتدون ثوبًا موحدًا، وكان منهم من يحمل في يده سلاحًا أسود صغير الحجم، استنتجت من منظره أنه يعمل عن بعد..

- «لا تتحرك!»

ووقفت في بلاهة بينما هؤلاء القادمون يكبلون ذراعي وراء ظهري، وأحدهم يتفحّص جسد (شحاتة) الممتد على الأرض.. وأحدهم ـ يبدو ذا مرتبة أعلى - يمسك بجهاز اتصال بدائيًا ويقول فيه:

- «تمام يا فندم.. لقد وجدناهما متلبسين.. (حمزة الهجام) ومعه واحد آخر لا أعرفه.. لقد كان بلاغ الجار صحيحًا..»

وتأملته في اهتمام.. كان قويًا بدوره، له مسحة مسيطرة ما.. وكان الآخرون ينادونه بلفظة (باشا).. وهنا اتضح لي الأمر.. هذان المتسللان يمارسان نشاطًا إجراميًا، أمّا هؤلاء المقتحمون فيمثلون (دوريات التطهير) التي نعرفها عندنا.. إنهم (شرطة).. هذا ما سمعت من أفكارهم.. وعرفت أنهم يملكون سلطة العقاب هنا.. ترى هل سلطة العقاب تتضمن (الإبادة الجزيئية) التي نعرفها في (زيفرا)؟ لا أظن.. هؤلاء القوم لا يملكون معجلات أيونية خارقة..

لن أنتظر حتى أعرف على أي حال.. سرعان ما غادرت جسد الكائن الإجرامي، وقررت أن أجرب حظي في جسد (سيد التطهير) - الباشا كما سمعتهم ينادونه - إلى أن أجد لحظة أنفرد فيها بنفسي.. وبمجرد أن تجسدت فيه شعرت بأنه أفضل من الكائن طويل الشعر.. إن هذا الأخير كان هش التكوين جسديًا ونفسيًا يشعرك بنوع من عدم الراحة كأنما أنت في مركبة متهالكة يمكن أن تتفتت في أية لحظة، أمّا هنا فأنا في مركبة متماسكة راسخة..

ياله من مشهد! مشهد الكائن الإجرامي وقد أفاق من غيبوبته ليجد نفسه مقيّدًا ومحاطًا برجال التطهير! لقد كان ذهوله خارقًا وراح يحاول الإفلات، وهو ما أثار دهشة الكائنات حوله.. لقد كان مسالمًا في البداية إلى حد لا يصدّق، والآن صار في حالة مريعة من الهياج..

وقال أحد الكائنات:

- «يبدو أنه كان تحت تأثير المخدرات يا سيدي.. لقد أفاق الآن فجأة!»

- «فليكمل إفاقته في التخشيبة!»

كنت في هذه اللحظة قد اتخذت مكاني تمامًا داخل جسد الباشا.. وأمكنني أن أفهم نمطه النفسي وأحلامه ومشاكله.. يا لسهولة هذا العمل على هذا الكوكب؟ في كوكبي يعد الإحلال جريمة إذا استخدم مع سكان الكوكب... فقط هو مباح في حالة الحروب مع كوكب (بلجور) عدونا الدائم.. ولحظتها لا يكون سهلًا أبدًا لأن موضوع الإحلال يقاوم بعنف..

على كل حال هذه هي المغامرة الأخيرة لي فقد حان الموعد.. موعد العودة..

تهيأت للانصراف مع رجالي، ولاحظت في سرور أن الباشا يقول أفكاري بلغة هؤلاء القوم.. وهكذا اتجه الجميع إلى إحدى وسائل النقل البدائيّة إياها.. فقط كانت تمتاز بأضواء متلألئة رقراقة تنبعث من مصباح على سقفها، وكان لها صوت مولول مزعج.. واضح أنها وسيلة نقل (دوريات التطهير) على هذا الكوكب.. لم تكن تطير - ويا للغرابة! - ولا هي مزودة بكابحات هيدروجينية، كما أنها لم تكن تستمد طاقتها من الثقوب السوداء الدقيقة كما عندنا.. أية قدرات لهذه الناقلة إذن وفي أي شيء تتميز عن المركبة الحمراء التي كان الكائن طويل الشعر يركبها؟

أما الكائنان الإجراميان فركبا وسيلة نقل أخرى..

وشعرت برضا عن نفسي وأنا أجلس إلى جانب الكائنات.. لقد دنا وقت الرحيل عن هذا الكوكب، ويمكن القول إنني كونت فكرة لا بأس بها عنه.. لم أعرف كل شيء، لكني أعرف أنه بدائي، يسكنه قوم عاقلون عدوانيون، ولن تكون إبادتهم عقبة كأداء بالنسبة لنا باستعمال سلاح (زيتا)، لكن ما جدوى هذا؟ هواؤهم ملوث ومواردهم منهكة فلا شيء يستحق عناء المحاولة.. لكن القرار قرار (سيجورا) الأعظم على كل حال.. المركبة تمشي بسرعة بطيئة في شوارع المستعمرة.. فهمت من أفكارهم أن المركبة تسمى (عربة الدورية) والمستعمرة اسمها (مدينة القاهرة)..

هنا حدث شيء غريب..

☆ ☆ ☆

لقد توهجت السماء، وتلألأت عدة مرات، ثم دوي صوت انفجار مروع في أجواز الفضاء، بعده راح الماء ينهمر من السماء مدرارًا... هذا مطر! كنت قد نسيت أنّ هذا الكوكب لا يتمتع أفراده بالسيطرة على المناخ... لهذا لم أر المطر والبرق في كوكبي إلا نادرًا..

وقال أحد الجالسين من حولي:

- «لقد فعلتها! قالوها في النشرة الجوية ولم أصدق..»

رحت أرمق المشهد المهيب.. مشهد اللسان الكهربي الذي يشق السماء كسيف ليزر عملاق، ثم يهوي إلى الأرض.. يا له من مشهد! أنا الذي رأيت كل الظواهر الكونية على شاشة الراصد: رأيت شموس (كالدا) العشر، وأنهار (مليسا) السماويّة، وجبال (هندسينا) المقلوبة.. وجدت غرابة لا توصف في هذا المشهد...

وهنا سمعت الصوت يتردد في ذهني، من الخلية البيولوجية:

- «يا (Ø99###).. لقد انتهت المسيكات المائة.. هل أنت مستعد لتيارات (زيكسا) تحملك إلى الوطن؟»

- «مستعد يا متكامل الدوائر..»

- «(Ø99###)... لقد انتهت المسيكات المائة.. فهل تجلب إنجازاتك الرضا لمتكامل الدوائر ومجلس الحكماء؟»

- «حقًّا يا متكامل الدوائر»

- «يا (Ø99###).. هل فعلت ما.. كرآآك كرآآك كرآآك.. الأعظم حين.. كرآآك كرآآك.. الاستيطان الأيونـ..»

ثمّة شيء خطأ.. الاتصال لا يتم.. همست في توتر:

- «مستعد يا متكامل الدوائر.. مستعد!»

- « كراااااك! كراااااك..»

لقد تلاشى الاتصال تمامًا..

ما معنى هذا؟ هل فقدوا القدرة على استردادي؟ إن الاسترداد يحتاج إلى دقة هائلة في المواعيد، لأنّه يعتمد على دورة زمنية جزيئية معينة.. هل حدث خطأ ما؟

وتشممت الجو.. إنّه مليء بالكهرباء الاستاتيكية والأيونات.. هذا هو السبب.. هذه العاصفة الحمقاء لم تكن في الحسبان، وقد جعلت عملية الاسترداد مستحيلة.. ولكن.. أنا أرفض قبول هذا.. لا بد من حل.. لا بد من حل.. أنقذني يا متكامل الدوائر!

☆ ☆ ☆

7

كانوا يتكلمون، والبرق يضيء بالخارج يليه الرعد، وأنا أوشك على الصراخ.. اصمتوا قليلًا! أريد أن أفهم! زجاج النافذة غارق بالماء وأداة تتحرك يمينًا ويسارًا تحاول إزالته... نحن نمشي فوق جسر يعبر مساحة من الماء.. الماء في كل صوب.. يا لها من هستيريا.. يا له من جنون!

صرخت بصوت مسموع:

- «مستعد يا متكامل الدوائر.. مستعد.. مستعد.. مستعد!»

نظروا لي في عدم فهم، وبدا عليهم الارتباك.. وفي اللحظة التالية مددت يدي إلى المقود الذي يقود هذه المركبة البلهاء، وأدرته وهو في يد صاحبه بأقصى قوة نحو اليسار، وصحت:

- «أوقف هذا الشيء! أريد أن أنزل!»

أنتم تعرفون مركباتنا.. إن المركبة تتوقف على الفور إذا أدرت المقود لليسار، وقد خطر لي أنّ هذا هو الحال هنا، وبالطبع كنت مخطئًا كالعادة.. هؤلاء القوم لا يفعلون أي شيء كما نفعله.. (فيما بعد عرفت أنّ هذه المركبات تتوقف إذا ضغطت بقدمك على جسم مربع في قاع المركبة. والحقيقة أنني لا أفهم جدوى هذه التعقيدات ولا لماذا ينبغي أن يكون للقدمين دور)..

- «انتظر يا باشا!! إننا..»

ولم أقدر خطورة ما قمت به لأن هذه المركبات لا تتمتع بأي ذكاء صناعي.. لقد انحرفت عن مسارها ولم تعمل الكومبيوترات المنظمة للمسار، وأدركت حقيقة أخرى مروعة: أن الأرض الزلقة لا تسمح بعمل تلك الأشياء التي كان الرجل يدوسها بقدمه.. يبدو أن اسمها (فرامل) بالنسبة لهم.. وتصدر صوتًا مخيفًا كعواء كل ذئاب (بلجور).. هذه هي الصورة الوحيدة التي يمكن أن تستوعبها عقولكم لوصفه..

صراخ.. صراخ.. ثم المركبة تنقلب حول نفسها.. تصطدم بالحاجز الذي يحيط بالجسر.. تطير في الهواء ثم تهوي.. صوت ارتطام يصم الآذان...

أشعر بالماء يحيط بنا.. يتسرب إلى صدري... هذه ليست مشكلة.. لأن رئتي مُعدة لتعمل كخيشوم السمكة.. كل أصحاب الرتبة (Ø99) يمكنهم التنفس تحت الماء لأن جيناتهم معدة لهذا كما تعلمون.. كان التفاعل عنيفًا شرسًا حتى إنني سمعت خلايا الكائن تنفجر من (الغليان المجهري) الذي حدث فيها لحظة الغرق..

أصعد إلى السطح وأسبح إلى الشاطئ..

إن السباحة وسط كل هذا الماء الساقط من السماء، وكل هذه الكهرباء الهابطة من السماء لأمر مستحيل يصعب تصوره..

كان الماء غير مالح.. وكان خاليًا من المذاق الحمضي لمياهنا الملوثة لكنه برغم هذا كله لم يكن نظيفًا.. مازال أمام هؤلاء القوم شوط هائل كي يبلغوا مستويات التلوث عندنا، لكنهم يمضون في هذا الطريق بنجاح..

وألقيت بجسد الكائن على الشط وسط الغبار والظلام...

كانت ألسنة الكهرباء الاستاتيكية تقصد الجسد المبلل.. لكني رحت أصدها عنه بتيارات (دكسا) المضادة.. لا أريد أن أبحث عن جسد آخر بهذه السرعة..

ونظرت إلى المياه بحثًا عن ركاب الناقلة..

لقد هلك البؤساء بالتأكيد بسبب حماقتي واندفاعي.. لكنني أصبت بحالة جنون وقتي مروعة ما كان لها أن تتدبر وتفكر..

جلست على الشاطئ والمطر يغرق جسدي وثيابي، ومن بعيد رأيت زحامًا.. عدد من الكائنات يقف على الضفة ويسلط الكشافات إلى الماء.. لقد نسيت المركبة الأخرى التي كانت تتبعنا.. لقد رأى ركابها سقوط مركبتنا في الماء.. ها هم أولاء يفتشون عن طريقة لإنقاذنا أو انتشالنا.. ولا خطر لي خاطر غريب..

كان سرور القوم بالغًا لأنني نجوت، واقتادوني إلى مركبة أخرى لها شكل غريب، بيضاء اللون تتوهج الأضواء على سقفها، وهناك تفحصوني بعناية.. كانت ثيابي مبتلة، وقد بدت عليّ المعاناة، وكنت أفهم جل كلامهم لكني لا أستطيع بالطبع الكلام بلغتهم، وقد فقدت التحكم في لسان سيد التطهير.. كنت أبدو مثله تمامًا لكني مجرد هيكل..

ولاحظت أنهم فسروا صمتي بالصدمة العصبية التي انتابتني من هول الحادث.. لا بأس.. هذا يعطيني بعض الوقت..

اقتادتني المركبة إلى بناية عملاقة ملأى بكائنات ترتدي ثيابًا بيضاء.. كان هناك عدد من الأجهزة البدائيّة واضح أنها تؤدي وظيفة (التحليل الحيوي) لي، كجهاز (جوكام) على كوكبنا بالضبط.. لكن جهاز (جوكام) كما تعلمون يا إخوان أكثر تعقيدًا ويفعل كل شيء في نفس اللحظة، وقد راح القوم يتساءلون عما حدث بالضبط.. كيف قارف السائق هذا الخطأ؟ وفهمت أنهم أرسلوا بعض الغواصين لانتشال المركبة الغارقة.. أوف!

☆ ☆ ☆

لا تنظروا لي يا إخواني.. لم يكن لديَّ حل آخر.. ولا تنسوا أنني جئت كوكب (هيسا) أصلًا ومهمتي هي التدمير.. أنا أكره تدمير هذه الكائنات التي لم تفارق ذنبًا، لكن ما كان بوسعي عمل شيء آخر..

لقد فقدت صوابي حين عرفت أنني سجين هذا الكوكب للأبد..

هل يرسلون لي إشارة أخرى؟ لا أظن.. أنا لست جاهلًا وأعرف جيدًا التعقيدات التي تنجم عن فشل محاولات الاسترجاع.. إن من لا يرجع في الوقت المناسب هو ببساطة (مفقود في أثناء العمليات).. ومن المستحيل أن نراه ثانية في (زيفرا)..

أكره أن اصدق هذا لكنّها الحقيقة.. أحتاج لبعض الوقت كي أعتادها لكنّها لن تزول..

الآن حان وقت التفكير في مستقبلي.. سأمضي أيامًا تحت الملاحظة في مركز (التجديد الحيوي) هذا - يسموّنه هنا مستشفى - وسيكون عندي من الوقت ما يسمح بتعلم كل شيء عن الكائن الذي استعرت صورته وهيكله وماضيه وحياته.. إنِّه ملائم لحياتي هنا إلى أن يجد قومي سبيلًا لاستعادتي..

☆ ☆ ☆

8

إن التعود يقتل الرعب.. يقتل الغرابة.. يقتل القلق.. هكذا يقولون على الأقل..

لكني في كل غروب أقف وأرمق الأفق الشرقي حيث تلتمع النجمة الأولى، وأتساءل: كيف؟ ما الذي جاء بي إلى هذا الكوكب الغريب المزعج، الذي يسموّنه الأرض؟

☆ ☆ ☆

في البدء وقفت أمام المرآة في غرفتي بمركز (التجديد الحيوي)، ودرست كل شيء عن ملامح الكائن الذي صار مسكني الدائم.. طبعًا كان من السهل أن أرى وجهه في المرآة لأنني هنا أمارس لعبة الإحلال لا التحول المورفولوجي..

إنه قبيح جدًا بمقاييسنا، لكن من الواضح أن شكله محبب لهذه الكائنات.. إن بعض الكائنات طويلة الشعر التي ترتدي الأبيض تقول إنّهِ وسيم.. أستطيع كذلك إدراك أنه قوي.. كل كائنات هذا الكوكب أقوى منا جسديًا، لكنه أقوى من أكثر من رأيت هنا..

كان ينادونه بـ (هاني)... اسم آخر من تلك الأسماء التي لا معنى لها، ولا تدلّ على الطرز البيولوجي أبدًا.. يبدو أن له رتبة ما.. أحيانًا ينادونه بـ (سيادة الرائد).. كما فهمت أنه ـ كما يقولون - (مقطوع من شجرة).. لا أفهم معناها.. هذا الكوكب ما زال يتعامل بنظام الأسرة التي تم إلغاؤها على كوكبنا منذ قرون.. ما زال هناك نوعان من الكائنات ولم تتوحد الأجناس بعد.. لدينا في (زيفرا) - كما تعرفون - جنس واحد موحد.. لا يوجد ما يعرف بالزواج، وإنما هي الحضانات التي تمتزج فيها الجينات لتكوين الجنين الذي يحدد نمطه ورتبته من اللحظة الأولى..

هنا يختلف الأمر كثيرًا.. هنا يوجد كائن قوي قصير الشعر يدعى الذكر، وكائن قادر على حمل الأجنة في بطنه ـ تصوروا! - يدعى الأنثى.. ويتم التزاوج بين الكائنين للحصول على الأجنة... الكائن الوليد يظل مرتبطًا بالذكر ـ ويسميه الأب - والأنثى - ويسميها الأم - وهكذا تتكون الأسرة... هذه أمور غريبة وتذكرنا بما تحكية أجهزة التربية للصغار في الحضانات عندنا.. كنا نعتقد أنّ هذه القصص نوع من تخاريف الروبوتات المكلفة بالتربية، لكن يتضح لنا أن لهذا كله أساسًا علميًا ما.

إن فكرة الذكر والأنثى قوية جدًا هنا، حتى على مستوى اللغة، وهم يعتبرون قمرهم ذكرًا وشمسهم أنثى، ويعتبرون الأرض أمهم، و... و.. تعقيدات تصيب المرء بالصداع، ولا يفهمها سوى (سيجورا) الأعظم نفسه، حتى إنني ازددت تمسكًا بهذا الكائن الذي أعيش فيه.. لا أب ولا أم ولا زوجة ولا أطفال.. هكذا لن تكون هناك لحظات محرجة تفضحني..

☆ ☆ ☆

وفي الأيام التالية - تلاحظون أنني لم أعد أستعمل وحدات المسيكات - حاولت تعلم لغتهم باستعمال أسلوب (ميركا) العظيم.. كان بوسعي الآن أن أستخدم لسان الضابط.. لم تكن هذه مشكلة من البداية لكنّها كانت صعبة إلى حد أنني كنت ألجا للصمت أكثر من اللازم. لكنني كنت بحاجة لفهم كل شيء وقول كل شيء..

لغة سهلة هي يسهل تعلمها.. وقد فسروا زيادة استعمالي لها بتحسن حالتي الصحية، كما تعلّمت التهام طعامهم، وهو خليط مثير للاشمئزاز لكنه كان مفيدًا للكائن.. ولكني رحت أعاني باستمرار من ذلك العرض الأرضي المزعج: الإسهال.. وهو عرض نسيناه منذ دهر في زيفرا..

إن أحشاءنا التي تطهرت تمامًا ولم تعد تتحمل أي عبء مع حبوب (كارا) المقوية، ليست مؤهلة على الإطلاق للتعامل مع كل هذه المواد النشوية والدهنية والبروتينية.. لكن الكائن لا يفيد من تلك الحبوب على الإطلاق.. هكذا تجد إنك بين نارين: الحفاظ على نفسك أو الحفاظ على المركبة التي تستقلها..

حاولت بكل جهد مخلص أن أحافظ على الشيئين معًا.. والسبب هو أنني لا أريد تدمير هذا الكائن الذي لا ذنب له.. يمكنني أن أتركه في أي وقت لأختار مركبة أخرى، لكن ما ذنبه؟ وهنا نجد فارقًا كبيرًا بيننا وبين هذه الكائنات: أنا أكره تدميرهم ولن أفعل هذا إلا مضطرًا، بينما هم لا يشعرون بأي تعاطف نحو أية رتب بيولوجية مختلفة ويعتبرون تدميرها عملًا أخلاقيًا، بل ومحببًا على سبيل الرياضة.. بل إن أفراد نفس الرتبة البيولوجية يدمرون الآخر لمجرد أن لونه مختلف أو لغته مختلفة أو عقيدته مختلفة.. عرفت هذا من جهاز الصور وأثار دهشتي..

وجاء اليوم الذي سمحوا لي فيه بالعودة إلى داري.. أعني دار الضابط بالطبع.. كان يقيم في مبنى صغير عند أطراف المدينة.. فهو ـ كما هو واضح ـ لم يكن ثريًا برغم نفوذه. يبدو أنّ هناك رتبًا بيولوجية تمنح النفوذ ولا تمنح الثروة. بينما ـ على الأرجح ـ تمنح الثروة النفوذ في هذا العالم.

لقد أخذتني مركبة الشرطة إلى هناك.. وهنئوني على سرعة الشفاء، واقترح أحد زملائه ضاحكًا أن أتزوج سريعًا كي أجد من يعني بي..

وأخيرًا وجدت نفسي وحدي في مسكني بكوكب (هيسا)..

كانت دارًا صغيرة ضيقة متواضعة.. واضح أنها لا تلقى أية عناية.. لكني سررت إذ وجدت جهاز تلفزيون صغيرًا.. وأنا أعتبره سفيري لهذا العالم.. كما وجدت كثيرًا من المذكرات والخطابات والسيالات الضوئية التي يسمونها (الصور) جعلتني أتوغل أكثر في عالم هذا الكائن..

كنت الآن أجيد لغتهم المكتوبة، وقد تعلمتها في أثناء مكوثي في مركز (التجديد الحيوي).. وهي لغة سهلة تتكون من عدد محدود من الرموز الصوتية التي ينجم عن دمجها معنى ما... لم تكن كلفتنا الفكرية التي يكفي أن ترى الصفحة المكتوبة حتى تفهم المعنى كاملًا مرة واحدة..

كنت مخطئًا حين حسبت الكائن بلا علاقات بالكائنات طويلة الشعر.. ثمّة علاقة اسمها (خطبة) تربطه بإحدى هذه الكائنات... واضح أنها خطوة تمهيدية للتزاوج هنا.. لقد رأيتها ـ ذلك الكائن طويل الشعر ـ مرارًا في المستشفى، ولم أدر كنهها ولا ما المفترض أن تكون.. إن صورتها ـ سيالها الضوئي ـ هنا، وتبدو فيه قبيحة جدًا بمقاييسنا.. ليس مخها مكشوفًا ولا تملك ممسات حرارية ورأسها صغير جدًا.. بل إن عينيها ـ تخيلوا هذا ـ لونهما أخضر كشياطين كوكب (بلجور)!

لكنها من طرازه، وبالتأكيد يراها جميلة... هذه مشكلته..

مشكلتي أنا هي الفرار منها، والتخلص من قبضتها إذا أردت البقاء في جسد هذا الضابط..

☆ ☆ ☆

هنا دوى رنين شيء.. هذا هو جهاز الاتصال الذي يستعمله هؤلاء: جهاز من اللدائن تمسك بجزء منفصل منه وتضعه على أذنك.. اتجهت نحوه حيث وجدته، ورفعت الجزء المتحرك، وقلت

كما يفعلون:

- «ألو!»

جاءني صوت ذلك الكائن الأنثوي الذي يسموّنه (إيناس):

- «كيف حالك يا (هاني)؟ حمدًا لله على سلامتك! لقد مررت على المستشفى فوجدت أنك خرجت دون أن تخبرني.. ولهذا حسابك معي..»

كيف أرد على هذا الكلام؟ قلت لها في ثبات:

- «لقد تم تجديدي حيويًا ولم يعد من....»

انفجرت بذلك الصوت المتقطع الذي يصدره أهل (هيسا) ويسمونه ضحكًا، وقالت:

- «تجديد حيوي! أمّا أنت! أنا سعيدة سعيدة لأنك استعدت مرحك!»

آه! يجب أن آخذ الحذر وأنتقي تعبيراتي..

قلت لها:

- «أعني أن فترة الشفاء انتهت و....»

- «أعرف.. وهذا يستحق احتفالًا صغيرًا..»

كنت أعرف أنهم لا يقيمون احتفالات تحرر النيترونات هنا، لهذا رحت أنتظر في رعب الاحتفال الذي أعدته لي..

- «إن أمي تدعوك على العشاء هذه الليلة، وقد أعدت لك المكرونة بالبشاميل التي تحبها.. لا بد من إعادة الحياة إليك.. هه؟ لا أعذار.. الثامنة مساء وألا..»

ووضعت السماعة.. سحقًا! كيف يمكن الإفلات من هذا الإعصار؟ ثم كيف الوصول إلى دارها أصلًا؟ وماهي هذه الـ (المكرونة بالبشامل)؟ اسمها وحده كارثة تذكرني بمراكز التطهير الأيوني في كوكبنا.. لن أذهب.. لن أذهب..

☆ ☆ ☆

وذهبت..

في الثامنة إلا الربع بتوقيتهم كانت هناك مركبة عتيقة تحت البيت تعوي كذئاب (بلجور)، وتطالبني بالنزول.. نزلت متوجسًا فوجدت شابًا يشبه (إيناس) تلك كثيرًا، وقدرت أنه ـ حسب

المقاييس هنا - يمت لها بصلة جينية ما.. في الغالب هو أخوها..

قال ضاحكًا:

- «الحمد لله على سلامتك.. جئت أوصلك لأن المشوار قد يرهقك..»

ثم تأملني لحظة وهو يشعل واحدًا من عوادم الغاز السام:

- «هل تريد رأيي؟ أنت تغيرت كثيرًا..» ا

- «هذا طبيعي.. ألم يقع الحادث وبعدها....؟»

- «لا أتكلم عن الحادث.. أتوقع بعض النحول أو. الإرهاق.. إلخ.. لكنك تبدو مختلفًا.. كأنما....»

وفكر بعض الوقت ثم قال وهو يدير المحرك:

- «كان هناك شخصًا آخر يسكن تحت جلدك!»

☆ ☆ ☆

9

- «شخص آخر يسكن تحت جلدك!»

سمعت هذا التعبير عشرات المرّات منذ قمت بالإحلال.. كلهم شعر بشيء ما غريب..

لكن هذه الأمور لا تحدث هنا.. ومن المستحيل أن تحدث.. لهذا كانوا يتناسون الأمر فيما بعد، والحقيقة هي ما قالوه بالضبط.. «هناك شخص آخر يسكن تحت جلدك..»

لكن كيف يعرفون هذا؟ وكيف يصدقونه إذا عرفوه؟

☆ ☆ ☆

وهكذا عرفت هذه اللقاءات الغريبة التي يسمونها (عزومة) على هذا الكوكب.. وهي لقاءات غير فكرية ولا تهدف للتبادل الأيوني، إنما تهدف - صدق أو لا تصدق - إلى ابتلاع المزيد من هذا - الخليط المقزز الذي يأكلونه...

وسمعت بعضًا من أحاديث هؤلاء القوم، لكنني ظللت عاجزًا عن فهم الدعابة كما يسمونها.. فالفتاة - مثلًا - تنظر لي ضاحكة وتقول:

- «لماذا كان الفيل أسود ضخمًا مربع الجسد؟ غلب حمارك؟ لأنّه لو كان أبيض صغيرًا ومستدير الجسد لصار قرص أسبرين! هاهاهاها!»

فأقول في عدم فهم:

- «لكن الأسبرين عقار وليس حيوانًا.. فكيف يحدث الخلط..»

فيتبادلون النظرات بدورهم..

أما أخوها هذا فلا يكف عن الكلام عن كهربائي السيارات النصاب الذي زعم أن العيب في (الكتاوت) بينما هو لم يكن في (الكتاوت).. ويضرب المائدة بقبضته:

- «لكنني سأراه غدًا.. ولسوف يرى!»

ويقول الأب إنّه يفترض أن العيب في (الكتاوت) فعلًا: لكن الفني - على ما يبدو - مصرٌّ حتى الموت على أن العيب ليس في (الكتاوت).. هذا يشبه حفلات تحرر النيوترونات عندنا.. ربما تجده

مسليًا لكن الكارثة أن هؤلاء القوم لا يمزحون.. هم جادون تمامًا..

ثم بعد دقائق أجد أن الفتاة لا تكف عن النظر بعينيها المخيفتين - كشياطين (بلجور) - إليّ.. يبدو أنها نظرة إعجاب معين.. كل هذا مخيف مفزع.. لن أحضر هذه اللقاءات أبدًا مرّة أخرى.. لكن جزءًا معينًا مني.. جزءًا في أعماق روحي بدأ يفهم هذه المشاعر الغامضة التي يشعر بها سكان (هيسا).. يبدو أنّ هذه المشاعر هي ما يسموّنه (الحب).. لا تنسوا أنني أحمل خلايا الكائن وكل كيميائة الغامضة..

ونهضت لأغسل يدي كما يفعل الأرضيون.. كان هناك مغسل صغير، وقطعة من تلك المادة الدهنية التي يسمونها الصابون.. المفترض أن أخلطها بالماء وأفرك يدي.. جاءت الفتاة على سبيل المجاملة حاملة قطعة من نسيج لأجفف يدي بها.. كانت تنظر لي في ثبات.. ثم أدركت أنني مرتبك فبدأت تنظر إلى انعكاس وجهي في المرآة.. باهتمام...

وبعد ثانية صاحت في رعب:

- «ما هذا الذي أراه في المرآة؟!»

☆ ☆ ☆

شعرت بارتباك مريع.. كيف نسيت أن صورتي في المرأة تبدو كحقيقتي لا كما أنا متنكر؟ ماذا تقول إذن وهو ترى الرأس المتضخم والمخ العاري وأقطاب الاستشعار؟

وسمعتها تقول وهي تتأمل الانعكاس:

- «أرى أنك لم تعد تحبني! هذا ما أراه في المرآة..»

تنفست الصعداء.. الانعكاس لا يظهر حقيقتي إلا حين أكون في حالة التحول المورفولوجي.. لكني الآن في وضع الإحلال.. وجه الضابط هو وجه الضابط ولا خدعة هناك.. للحظة نسيت حقائق الأمور...

وهكذا لم أعلق، أضف له، أن الإسهال راح يلوي أمعائي مطالبًا باتخاذ خطوة إيجابية.. تلك الطرق البدائيّة للتخلص من فضلات الجسد لدى قوم لم يتعلموا بعد استعمال حبوب (كارا)، لذا فضلت أن أنصرف فورًا قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه..

ربما بدا هذا للقوم غريبًا..

لكني لم أعد أخاف أن أتهم بغرابة الأطوار..

أحيانا كانوا ينظرون لي ثم يغمغم أحدهم في حزن:

- «الحادث.. إن ما راه لم يكن سهلًا..»

☆ ☆ ☆

في الصباح جاءت مركبة الشرطة تحملني إلى عملي..

هذا أول أيامي في عمل الجديد على (هيسا)..

كان مركز التطهير - أو كما يسموّنه قسم الشرطة - مبني عتيقًا مليئًا بالكائنات ذات الزي الموحد، وكانت هناك غرف شبيهة بالأقفاص الحديدية بها عدد من ذوي الميول الإجرامية..

حقًّا كان هذا الكوكب يمرّ بمشكلة لا حل لها: كثير من الحالات التي تتعلق بالاعتداء على الملكية الفردية أو الأجساد.. وهذا نادر جدًا في كوكبنا كما تعلمون، ثم لا تنسوا أنه ما من ملكية فرديّة في كوكبنا أصلًا!

وإن حدث اعتداء يكون ناجمًا عن طفرات وراثية في أجنة الحضانات، ويُعاقب بـ (الإبادة الجزيئية) فورًا..

لكنهم هنا كانوا يسجنون ذوي الميول الإجرامية بعد إجراء ما يعرف بالمحاكمة..

وسمعت مئات المرّات العبارة الشهيرة:

- «الحمد لله على سلامتك يا باشا..»

- «الحمد لله على سلامتك يا (هاني)..»

واقتادوني إلى غرفة كبيرة فاخرة يجلس بها أضخم هذه الكائنات وأجهرها صوتًا وأعلاها رتبة.. كانوا يسموّنه المأمور، وقد قال لي في مرح: إنّه مسرور لعودتي سالمًا، وإنه ينصحني بنسيان ما كان، لأن الحياة لا بد أن تستمر..

كنت أنا غارقًا في همومى الخاصّة، والأقدار التي شاءت ألا أعود لعالمي، وأن أقضي ما تبقى من حياة جزيئاتي على كوكب بدائي مثل هذا..

يومًا ما سيرسل (سيجورا) الأعظم من ينقذني.. بالتأكيد سيرسلون واحدًا آخر، ولسوف يحدد لي اللحظة المناسبة والمكان المناسب للحصول على جرعة العودة.. لكن متى؟؟؟؟؟

☆ ☆ ☆

وكانت بدايتي في العمل ناجحة بحق، لكن أحدًا لم يدرك هذا سواي..

ها هو ذا أحد الكائنات الخطرة يقتادونه لغرفة المأمور.. لقد أسروه بعد ما اشتبه فيه أحد (رجال المعلومات) هنا.. يبدو أنه قاوم آسريه كثيرًا لأن وجهه كان مليئًا بالبقع الزرقاء والحمراء، وكان في حالة إعياء كما يبدو أن من يقتادونه لم يربطوا كلا معصميه بتلك القيود الحديدية، بل اكتفوا بواحد..

كان هناك رجلان من رجال الشرطة، أحدهما لا يرتدي الزي الموحد إياه، وكان هناك نوع من الاطمئنان والاستخفاف لم أرتح إليهما.. هذا الكائن ليس بالضعف الذي يتظاهر به.. أدركت هذا وفهمته..

في اللحظة التالية حدث ما توقعته.. كان رد فعل الأسير سريعًا يذكرني بسكان (ليبادا) البرقيين.. لقد ضرب أحد الجنديين فأوقعه أرضًا، ثم هوى على زجاج الباب بالقيد الحديدي فهشمه إلى قطع والتقط أكبر القطع وانحنى بها على عنق الجندي الساقط، وصاح بصوت غيرته أسنان مهشمة:

- «لا يتحركن أحدكم وإلا!»

حدث هرج ومرج وارتباك، وتصلب الجميع عاجزين عن اتخاذ القرار الأصوب، وتحسس أحدهم مسدسة المعلق من خاصرته، فرفع المأمور يده وصاح بحزم:

- «لا تتحركوا وافعلوا كما يقول!»

كان الموقف خطرًا. هذا الكائن في حالة عصبية متطرفة ولن يمنعه شيء من استخدام سلاحه هذا.. كان شرسًا متحفزًا لا يقدر العواقب، وقد أدرك المأمور الشيء ذاته فكان قراره حكيمًا..

أعتقد أنه لم يكن في حالة نفسية طبيعية، وربما تكفل الضرب الذي تلقاه من قبل بتحويله إلى وحش جريح..

قال وهو يتقدم منه بهدوء متوتر:

- «(خميس).. لا تتهور.. إلى أين تظن أنك ستذهب؟ وكيف ستخرج من هنا؟ حتى لو استعملت قطعة الزجاج هذه فلن تجرح سوى اثنين.. ثلاثة.. أربعة، بعدها أنت لنا!»

ورسم على وجهه ابتسامة توحي بالثقة لكنّها كانت عصبية بحق..

اهتز المسدس في يد (خميس) هذا ـ ترى ما هو طرازه البيولوجي؟ ـ وقال:

ـ «ثلاثة من رجالك يموتون يا باشا! هل ترضى بهذا؟!»

طبعًا لن يرضى.. ربما كان ترك هذا الكائن يفر أخف ضررًا من مجزرة لا بد أن تحدث..

طال الكلام والمفاوضات من هذا النوع، ووجدت أن الأمر صار مملًا سخيفًا.. لذا قررت أن أغامر باستعمال أساليبي الخاصّة..

كان استخدام الهجوم المباشر مخاطرة تهددني بفقد هذا الجسد الجيد الذي أعيش فيه..

في الوقت ذاته كان استخدام الإحلال خطرًا لأنّه يهدد بكشفي.. لكنه كان الحل الوحيد، وهكذا سرعان ما تخليت عن جسد الضابط وتلاشت جزيئاتي، لتنصب في جسد الكائن الإجرامي..

وبطرف عيني رأيت الضابط ينظر حوله في ذهول، ثم يسقط على الأرض فاقدًا وعيه لحسن حظي.. هذا طبيعي على كل حال.. فلا أحد يستطيع تحمل صدمة كهذه بعدما غاب عن العالم أسابيع طويلة..

الآن أنا في جسد المجرم.. ليس هذا صعبًا.. كان قويًا وشرسًا، لكنه صار فجأة ألعوبة في يدي.. ومن دون كلمة أخرى جعلته يُلقي بقطعة الزجاج المهشمة على الأرض ويمد معصميه، كأنما يطالب بحقه في القيود الحديدية مثل الآخرين.. وعلى الفور انقض عليه أربعة رجال، وأحاطوا معصمه بالقيود، ووجهوا له بعض اللكمات لإطفاء حماسه.. طبعًا لم يكن هناك حماسة على الإطلاق.. بل جعلته خانعًا هادئًا كالـ.. كالـ.. كالشاة قبل ذبحها كما يقولون هنا على ما أذكر..

ورأيت المأمور يتنفس الصعداء ويخرج منديلًا ليجفف عرقه، وهتف:

- «الحمد لله! لقد كانت مناورة منه لا أكثر..»

وقال أحد الواقفين:

- «لقد هزته صلابتك يا باشا..»

هكذا وجدت أن الوقت مناسب كي أغادر جسد الكائن الإجرامي الأحمق، وأعود لجسد ضابطى البائس.. فما إن غادرت الأول حتى راح يتلفت حوله ببلاهة.. متى قبضوا عليه؟ لقد كان يمسك بزمام الموقف منذ ثوان، فمتى انقلبت الأمور؟

أمّا الضابط ففتح عينيه، وصار ملكي من جديد، ورأيت الجميع يرمقونه في شيء من ممزوجة بالشفقة، ثم قال المأمور بلهجة لم يُمح منها اللوم:

- «لا عليكم.. أنتم تعرفون أن المسكين مرَّ بحادث فظيع، ولم تعد أعصابه تتحمل شيئًا!»

كيف لو علموا؟ كيف؟!

☆ ☆ ☆

10

ترى لماذا تأخرتم في اللحاق بي؟

أين قومي الأعزاء؟ أين زملائي من الرتبة (Ø99) لم نكن نعرف معنى الصداقة، لكن التجاذب النوعي يجعلنا نبحث عن مصلحة بعضنا، ويدعونا للتقارب.. حقًّا كانت الوحدة تمزقني هنا..

وبعد أسبوعين - أنثراك كامل عندنا – اتصلت بي الفتاة المدعوة (إيناس) لتقول لي إنّها قلقة عليّ، وإن زملائي يقولون إنني ميال إلى الانعزال والوحدة وقلة النشاط...

- «ثم إنك تركتني دون كلمة حين قلت إنك لم تعد تحبني..»

- «كان الإسهال هو السبب..»

- «إسهال؟ هل سبب لك طعام أمي إسهالًا؟»

- «نعم.. نعم.. إن طريقة الطهي هنا قد....»

- «هل تريد رأيي؟» - قالتها في عصبية - «**أنت صرت لا تطاق!!**»

ووضعت السماعة.. حمدًا لله! يؤسفني ماسببت من مشاكل لهذا الكائن الذي تقمصته لكن ما باليد حيلة.. لا بد لي من تقمص كائن ما على كل حال.. لماذا لم أبحث عن كائن أكثر أهميّة؟ لماذا لم اتقمص حاكمًا أو قائدًا أو حتى ممثلًا شهيرًا ممن أراهم على شاشة التليفزيون؟ السبب هو أنني أبحث عن كائن لا يثير الضوضاء من حوله... كائن متوارٍ نوعًا.. ليست لديَّ طموحات معينة في هذا الكوكب.. أريد أن أظل دون مضايقة حتى أسمع الخلية البيولوجية تناديني للعودة..

بعد قليل جاء صوت المأمور عبر الهاتف ليطلب منى الحضور حالًا.. إن المركبة قادمة لاصطحابي الآن.. هناك جريمة قتل حدثت في إحدى المنظمات التسويقية التي يسمونها هنا (الشركات)، وقد أبلغ عامل المكتب الشرطة منذ دقائق.. لم أكن في الخدمة في تلك الليلة، لكن أوامر الرئيس تشبه أوامر (سيجورا) الأعظم لا يمكن مناقشتها..

- «تذكر يا (هاني).. أنا لم أعد شديد الحماسة لأدائك.. حاول ألا تفشل أو تجبن هذه المرّة..»

قالها بلهجة لا تخلو من تهديد...

☆ ☆ ☆

وبعد دقائق كنت أجتاز باب الشركة في بيت له حديقة من الطراز الذي يسموّنه هنا (فيلا)... معي ستة من الرجال بعضهم لا يرتدي الثياب الرسمية، وكان هناك عدد من رجال (التجديد الحيوي) - الإسعاف - ورجال يلتقطون سيالات ضوئية، وامرأة لا تكف عن العويل ولطم الخدين.. واضح أن القتيل زوجها..

كان القتيل الذي كف عن التواجد البيولوجي رئيسًا لهذه الشركة، وقد اعتاد المجيء ليلًا ليعمل وحده في صمت.. لكن العامل اعتاد أن يقصد المكان في العاشرة مساء ليسأله إن كان يريد شيئًا.. يقول العامل ودموعه تنهمر بغزارة كما هي عادة سكان (هيسا):

- «لقد قرعت الباب مرارًا فلم يسمح لي بالدخول، فتجاسرت ودخلت.. لأجده جالسًا على المكتب والدم يسيل من رأسه.. أصابني الذعر.. لم أجسر على الاقتراب.. هرعت إلى الهاتف أطلب الإسعاف والشرطة وكل من له صلة بالأمر..»

وأدخل المكتب لأرى ذلك القتيل.. فأجده كائنًا مهيبًا - بمقاييس زيفرا - له رأس عملاق أصلع شوه الرصاص جبهته، ولكنّه ظل جالسًا في مكانه... وكانت في مواجهته نافذة عملاقة تطل على حديقة تدثرت بالظلام، وإن سمحت لهواء الليل الملوث بالدخول إلى الحجرة.. وكانت هناك شجرة غليظة تعابث غصونها إطار النافذة.. الإطار الذي تكوم فوقه منديل ملقى بإهمال..

قال أحد رجال المعمل الجنائي كما يسموّنه هنا:

- «لقد فتح أحدهم الباب الخارجي بمفتاح مصطنع، ودخل إلى الغرفة وأفرغ رصاصة من مسافة دانية جدًا في رأس الفقيد، ثم أغلق الباب وغادر المكان.. هذا يضع العامل في بداية القائمة، يليه كل من يملك مفتاحًا..»

- «والهدف من الجريمة؟ الدافع؟»

- «السرقة طبعًا.. الخزانة مفتوحة وخالية من النقد.. قمنا برفع البصمات، ولسوف ينتهي كل شيء سريعًا..»

قال أحد الزملاء في ملل:

- «أعتقد أن الزوجة هي من فعلها.. القصة دائمًا هكذا.. وحتمًا كان لديها نسخ من المفاتيح كلها..»

كنت شارد الذهن أجري - بالمرشح المزروع في عيني - مسحًا حراريًا للغرفة لأعرف من دخل ومن خرج منها في الساعات الماضية.. لكني لم أستطع تمييز وجود طيف حراري في الغرفة لمدّة ساعتين، سوى طيف القتيل ذاته الذي بدأ يبرد رويدًا..

كان عقلي العلمي قد بدأ يتحمس للغز.. لو لم يستطيع ذكائي المتقدم كشف ما حدث فلا أحد يقدر.. قلت لهم وأنا أنهض:

- «معذرة.. أنا بحاجة لدخول الحمام..»

واتجهت إلى حيث أشار لي العامل، فقد كنت بحاجة إلى الانفراد.. إن ما سأقوم به يختصر عدة أيام من البحث.. سأعرف لكنني لن أستطيع الكشف عن مصادري، وهذه مشكلة أخرى..

تلاشت جزيئاتي تمامًا وبعد ثوان كنت قد تركت الضابط المذهول في الحمام وتسربت إلى وعي الزوجة.. الآن هي كتاب مفتوح أمامي، ولم تكن تعرف شيئًا عن الجريمة.. كنت مذهولة حقًّا، حزينة حقًّا.. هكذا - ببساطة - قمت بشطبها من قائمة المتهمين..

تركتها وتسللت إلى كيان العامل.. كان أبسط تركيبًا لكنه مطلق البراءة.. لم يكن يشعر بشيء سوى الذعر، والتوجس من أن تنصب الاتهامات عليه.. قمت بشطبه من قائمة المتهمين بدوره...

إذن من فعلها؟ من؟

عدت في صورة الضابط إلى المكتب المزدحم بالكائنات الثرثارة، وأصغيت لباقي المحادثات.. كان أحد رفاقي يقول لآخر:

- «تقول إن علاقته بزوجته كانت جيدة؟»

- «جدًا.. الكل يؤكد هذا... كان يهيم بها حبًّا.. كان رجل أسرة بمعنى الكلمة كما يقولون.. ويبدو أنه مامن أسباب تدعو الزوجة لقتله.. القاتل لص ولا جدال في هذا..»

كنت أنا غارقًا في خواطري..

1 - لم يدخل أحد الغرفة منذ ساعتين..

2 - الزوجة بريئة..

3 - الزوج يحبّها..

4 - العامل بريء..

5 - الطلقة كانت من مسافة دانية جدًا..

دنوت من أحد زملائي وسألته:

- «هل يمكن أن يقتل الإنسان نفسه ليستفيد المقربون إليه؟»

ابتسم وقال في غموض:

- «طبعًا.. لو كان قد أمّن على نفسه ويريد أن ينالوا مبلغ التأمين..»

هذا شيء لم أعرفه من قبل.. يوجد في هذا الكوكب ما يدعى بنظام التأمين.. ينال المقربون لك مالًا لو تلاشيت بيولوجيًا.. هناك شرط مهم هنا هو أنهم لا ينالون شيئًا لو أنك قتلت نفسك..

دنوت من النافذة، ورحت أمسح الحديقة المظلمة بمرشح الرؤية الليلية، بينما زميلي يقول:

- «هل تشك في انتحار الرجل يا (هاني)؟ أنت تهذي.. منتحر لا يوجد المسدس جواره! يبدو أن الحادث قد أفقدك كل تركيزك العقلي..»

كان مرشح الرؤية الليلية قد سقط على أثر مهم..

☆ ☆ ☆

11

الآن أمكنني أن أرى غصن الشجرة الداني من النافذة ومنه يتدلى ذلك الخيط المطاطي.. خيط من النوع الذي يربط به الناس هنا ثيابهم حول الخصر.. (أستك)؟ هل هذا اسمه؟

نظرت إلى أسفل، ثم أعلنت أنني سأنزل لأتفحص الحديقة..

كان الأمر أعقد مما توقعت حتى مع مرشح الرؤية الليلية لأن أسفل الشجرة كانت هناك غابة كثيفة من الأعشاب.. أعشاب يستحيل معها البحث بدقة.. لكني في النهاية وجدت المسدس، والتقطته بمنديل لأني أعرف موضوع بصمات الأصابع التي يحتاجون إليها هنا، فهم لم يعرفوا بعد بصمة الشخصية التي نستعملها عندنا..

وهكذا عدت إلى المكتب - مسرح الجريمة كما يسمّونه - وأخرجت السلاح ووضعته على المنضدة أمام الخبير الجنائي، وقلت:

- «هذا هو سلاح الجريمة..»

- «رائع! إن البصمات عليه ستفيدنا حتمًا..»

- «لا أظن أنك ستجد بصمات..»

- «لماذا؟»

أشرت إلى المنديل على إطار النافذة، وقلت:

- «لأنّه لفه بهذا المنديل قبل أن يُطلق الرصاص على نفسه!!»

- «هل جننت؟؟؟!!!»

هذه كانت من كل الرجال الواقفين، وقد بدوت لهم كمن أصابه تحلل الخلايا المخية.. وسألني الرجل وهو يضحك ساخرًا:

- «ورماه من النافذة بعد الانتهاء من الانتحار... يبدو لي رجلًا شديد النظام!»

لم أكن أفهم المزاح كما قلت لذا لم أضحك.. شرحت لهم رأيي:

- «لقد ربط المسدس ربطًا غير محكم إلى طرف الرباط المطاطي، أي أنه لف الرباط حوله فقط.. وربط الطرف الآخر في غصن الشجرة الداني، ولف المقبض والزناد بالمنديل ليخفي

البصمات، ثم أطلق الرصاص على جبهته.. لم يطلقه على صدغه كي يبدو الأمر أكثر صعوبة علينا.. أطلق على جبهته وفي موضع شبه مستحيل للمنتحرين... مات.. تخلت قبضته عن المسدس.. طار هذا من النافذة لاحقًا بالرباط المطاطي، ثم تحرر ليسقط أسفل الشجرة وسط الأعشاب.. قد لا يجده أحد ولو وجدناه لحسبنا القاتل هو من تخلص منه هكذا.. لا بد أن الفقيد قد أجرى تجارب كثيرة على هذه العملية قبل تنفيذها..»

- «ولماذا فعل هذا كله يا حضرة العبقري؟»

قلت وأنا أتجه للباب:

- «بالطبع كي تستفيد امرأته من مبلغ التسكين.. الـ.. التأمين.. أعتقد أنه فقد ماله، وأراد أن يكفل لها عيشة كريمة.. لم يجد خيرًا من أن يقتل نفسًا - القتل الذي لا يبدو انتحارًا - ليوفر لها بعض المال..»

- «والخزينة المسروقة؟»

- «كيف تعرف أنه لم يفرغها بنفسه حين جاء إلى المكتب صباحًا؟ هذا يجعل قصة القتل تبدو أقرب للصدق..»

بدا الاهتمام على الرجل، لكن قصتي - كما هو واضح - ظلت مليئة بالثغرات.. لهذا عاد يسأل:

- «ومن أدراه أننا لن نتهمها هي؟»

- «لأننا لن نجد ضدها شيئًا، وفي الغالب هي تملك ما يثبت أنها لم تكن وحيدة عندما تم القتل..»

ودون كلمة أخرى رحلت... كان هذا كافيًا ويمكن لهم أن يتأكدوا بسهولة من صدق ما أقول.. كيف؟ لقد تأكدوا من أن الشركة قد أفلست، ومن أنّ هناك بوليصة تأمين ضخمة تفيد منها الزوجة، ومن أن المسدس خالٍ من البصمات، ومن أن الرجل وضع في داره لفافة مليئة بالنقود التي أخذها من الخزينة.. ومن أنّه شوهد يجرب سقوط أجسام من النافذة ليرى أين تسقط بالضبط، وأثبت الطب الشرعي كما يسموّنه هنا أن الرصاصة أطلقت من مسدس ملاصق للجلد..

لاصق إلى حد أنه أحدث دائرة من الحريق... كما أنّ الطب الشرعي برهن على أن أنامل الرجل ملوثة بالنترات.. أي أنه أطلق الرصاص.. أعتقد أنهم يطلقون على هذا الاختبار اسم (المولاج)..

للأسف أباد الرجل جزيئاته، لكنه لم يظفر بشيء لزوجته.. لأن المنتحر لا ينال ذووه مبلغ التأمين.. لقد خسر كل شيء..

أحيانًا يدهشني في هذا الكوكب معنى التضحية.. التضحية بالنفس التي تصل إلى حد إبادة الجزيئات ذاتها - وهو شيء يستحيل فهمه عندنا في (زيفرا) - من أجل الآخرين.. صحيح أن هدف

التضحية هنا كان مخالفًا للقانون وشريعة العالم لكنه مؤثر برغم كل شيء.. هنا لا يوجد حل وسط.. يُمكنك أن تقتل الآخرين الذين تكرههم، ويمكنك أن تقتل نفسك من أجل الآخرين الذين تحبهم.. هذا إفراط في العواطف يصل إلى درجة الانقلاب والتهور.. ربما لأن نظام الأسرة لم ينقرض بعد..

قال لي المأمور وهو يصافحني مهنئا:

- «ضربة من معلم يا (هاني).. هي قضية نادرة قل أن نرى مثلها.. دائمًا ما يوجد من يحاول إقناعنا أن القتل انتحار.. لم نر قط من يقنعنا أن الانتحار قتل! ولكن كيف خمنت هذا كله؟»

- «الملاحظة يا سيدي.. الملاحظة..»

ضحك والتمعت عيناه سرورًا وقال:

- «إنهم في المباحث لا يصدقون.. يقولون إنك بالتأكيد (مخاوٍ) للجان أو إنك من كوكب آخر!!»

وانفجرت ضحكًا كمن راقت له الدعابة.. لكني لم أفهمهما.. فقط شعرت بتوتر بالغ.. يجب أن أكون أكثر حذرًا في المرّات القادمة.

☆ ☆ ☆

- «انتبه.. انتبه..»

الصوت يتردد في خليتي البيولوجية بإصرار لا يقاوم...

كنت راقدًا في الفراش، وقد غرقت في سبات عميق.. لقد كان الجسد منهكًا، وكذا كانت خلايا عقلي.. لهذا لم أدر كيف ولا متى نمت.. وأنا أحب النوم لأنّه يجعل عضلات الكائن ترتخي.. لا يكون عليه أن يقاوم قوة الجاذبية المرهفة في الواقع، والتي تجر كل ما فيه لأسفل، ولقد سمعت علماء هذا الكوكب يقولون إن من الخير أن ينام المرء على جانبه الأيمن لأن هذا يريح أربطة الكبد التي تشد هذا العضو الثقيل طيلة اليوم..

لقد جربت هذا ووجدته مريحًا حقًّا، فأنا أشعر بكل خلية وكل عصب في هذا الجسد، وهذا يضايقني طيلة الوقت..

- «انتبه.. انتبه..»

الصوت يتردد وأنا لا أعرف من أين يأتي..

- «يا (###Ø99)..نحن نبحث عنك..كرآآآآآآك.. من.... الأمر.... كرآآك..»

إنهم ينادونني! مازالوا يبحثون عني! هذا حق...

المجد لـ (سيجورا) الأعظم الذي لا ينسى شيئًا..

صحت في هذه المرّة بصوت عالٍ دوى في المكان:

- «أنا هنا يا متكامل الدوائر.. أنا هنا»

تعالوا خذوني! لا يمكن أن تفشلوا!

وجريت إلى الشرفة.. فتحتها.. لكن لم تكن هناك رعود ولا بروق في السماء.. هذا الاضطراب الاستاتيكي إذن يحدث من دون سبب واضح..

عاودت الصياح:

- «أنا هنا يا متكامل الدوائر.. أنا هنا»

وفي ذهني راح الصوت المشروخ يتردد:

- «كرااااك... يبحث عنك... كرااااااااك.. مكان لقاء.. كرااااك..»

- «أنا هنا يا متكامل الدوائر.. أنا هنا!»

في هذه اللحظة سمعت صوتًا يتردد من الطابق السفلي:

- «أنت يا من في الطابق العلوي.. كف عن هذا! لو كنت تتدرب على التمثيل.....»

وسمعت صوت امرأة تقول بهمس مسموع:

- «دعه يا (صالح).. إنّه ضابط.. لا تؤذ نفسك!»

شعرت بالارتباك.. ارتباك وليس الخجل طبعًا.. فلتذهب القواعد إلى الجحيم إذا تعلق الأمر بترك هذا الكوكب الكريه.. فقط أكره أن يتساءل أحد عن دوافعي...

وهكذا عدت إلى الداخل، وقد أيقنت أن الاتصال قد توقف..

لقد حاولوا الاتصال بي وفشلوا..

لكن في كلام الرسالة نفسها ما يوحي بالأمل.. شخص ما (يبحث عنك).. (مكان لقاء).. هذا كلام مهم جدًا..

هل أرسلوا واحدًا للقائي؟ مستحيل ببساطة لأن الأمور ليست دائمًا بهذه الروعة، والأمثلة السابقة لهؤلاء الذين فشلوا في العودة واعتبروا مفقودين لا تبرح خيالي..

لست عنصرًا مهمًا في (زيفرا).. إن الرتبة (Ø99) متوفرة فلا توجد مشكلة هناك.. أنا قابل للاستغناء عنه.. ربما ما يميزني في (زيفرا) هو أنني أكثر واحد يمكن الاستغناء عنه، وهذا ليس سببًا كافيًا لأن يجعلهم يستردونني.. لكن كل شيء يقول إنهم فعلوا.. عليَّ أن أصدق هذا..

ماذا أفعل؟

لو كانت معي مؤشرات (نافا) لأطلقت الإشارات من حولي، ولعرف الجميع أين أنا..

إن معي سلاح (زيتا) لكنه سيحدث قدرًا هائلًا من الخراب من حولي.. لا يمكن أن أضحي بمليون من تلك الكائنات التعسة لمجرد أن أطلق إشارة يستدل بها قومي عليَّ..

وهكذا عدت إلى الفراش مهمومًا..

رحت أرمق الضوء الخافت القادم من الشارع، وقلت لنفسي: إن هذا هو حالي بالذات.. ظلام تام لكن ضوءًا خافتًا قد بدا يتضح.. وهذا على الأقل يسليني يومًا آخر..

☆ ☆ ☆

12

إن التعود يقتل الرعب.. يقتل الغرابة.. يقتل القلق.. هكذا يقولون على الأقل..

لكنني في كل غروب أقف وأرمق الأفق الشرقي حيث تلتمع النجمة الأولى، وأتساءل: كيف؟ ما الذي جاء بي إلى هذا الكوكب الغريب المزعج، الذي يسموّنه الأرض؟

☆ ☆ ☆

في الصباح ذهبت إلى عملي..

كان الكائن مرهقًا لكنه يحاول التماسك، وكان الكل راضين عني مما أشعرني بأن مستقبلًا لا بأس به ينتظر هذا الكائن هنا.. لكنه مستقبل لا أريده ببساطة..

دخل أحد الكائنات الذين هم رفاقي في (التطهير) وقال وهو يشعل أنبوب عادم من التي عرفت أن اسمها سجائر:

- «أنت تحقق نجاحًا مستمرًا.. بالمناسبة.. النيابة تطلب أقوالك في القصة إياها..»

- «أية قصة؟»

- «لصوص الفيلا في الزمالك.. قبل الحادث مباشرة..»

ودفن ما تبقى من العادم السام في إناء معدني وقال:

- «رفض الأطباء في المستشفى السماح لك بالكلام، وقد حاولنا تأجيل الأمر كله حتى تشعر بأنك على ما يرام..»

- «سأفعل..»

هنا نظر إليَّ وابتسم في خبث:

- «بالإضافة إلى نجاحك، بدأت تلعب دور فاتن النساء.. المتزوجات هذه المرّة!»

لم أفهم عم يتكلم.. وعلى كل حال قد علمتني التجارب - القاسي بعضها - أن هؤلاء القوم يمزحون كثيرًا.. يمزحون كثيرًا جدًا وأكثر مما تتحمل الأمور في الواقع.. لا تأخذ كل كلمة بمعناها

الحرفي وإنما كن حذرًا..

سألته بصوت محايد:

- «أي نساء تعني؟»

هزّ رأسه كمن يطيل ترقبي، وقال:

- «إنها تلك المرأة.. التي كانت تقيم في الفيلا.. يقول اللصان إنهما هاجماها ويقسمان على ذلك.. لكن أي وزن لقسم اللصوص على كل حال؟ لقد كان الرجلان تحت تأثير المخدرات وحسبا أنهما رأياها، بينما هي لم تكن في الفيلا أصلًا ساعتها.. على كل حال هي هنا وتسأل عنك!»

رفعت رأسي في توتر...

المرأة التي اتخذت أنا صورتها حتى ظن زوجها بها الظنون.. كنت أحسب قصتها انتهت بلا رجعة.. لكنها تطاردني كما هو واضح ولا أفهم لذلك سببًا..

رأى حيرتي فقال متهكمًا:

- «أنت تجيد لعب دور الملائكة..».

الحقيقة أنني كنت ملاكًا فعلًا.. والملاك صفة تلصق بالأبرياء هنا.. لكن المشكلة على هذا الكوكب أنه لا أحد يصدّق أنك لا تفهم فعلًا.. إنما يعتقدون أنك تتظاهر بذلك..

أردف الكائن:

- «المرأة طُلّقت من زوجها بعد خلافات طالت... ماذا تفعل بعد هذا؟ تبحث عن الضابط الوسيم الذي أنقذ دارها من المتسللين، وكاد يموت في أثناء رحلة العودة.. لماذا؟ هل عندك تفسير؟»

قلت بطريقة ميكانيكية:

- «ربما لتشكرني..»

- «هذا هو بيت القصيد! المرأة - التي هي رائعة الجمال - بالخارج تريد مقابلتك لتشكرك..»

ثم حرّك يده أمام وجهة بتلك الطريقة التي يحيي بها رجال التطهير بعضهم البعض بها، وغادر الغرفة.. بعد دقيقة وجدت المرأة تدخل..

لم أتذوق بعد ملامح سكان هذا الكوكب.. لكني بدأت إلى حدٍ ما أفهم أنّ هذا جميل عندهم وهذا قبيح.. بنفس الطريقة التي تبدو بها سحالي (مارافا) متشابهة قبيحة لي ولك.. لكن بعد فترة يتعلم مربي السحالي أن يميزها من بعض، وأن يصف بعضها بالجمال..

لابد أنّ هذه المرأة جميلة بمقاييس هذا الكوكب.. وإن كنت لا أطيق رائحتها.. هذه الروائح الخانقة التي تستعملها النساء على هذا الكوكب لسبب مجهول.. تذكرني بأنفاق الفضلات عندنا..

وخطر لي كم ستدهش هذه المرأة لو عرفت أنني كنت هي يومًا ما.. كنت هي إلى حد أنني خدعت زوجها ذاته..

جلست باسمة وقالت وهي تنظر لي في فضول:

- «جئت لأشكرك يا سيدي..»

قلت في ارتباك:

- «لقد قمت بواجبي..»

- «لم يكن واجبك أن تموت وأنت تدافع عن أمننا..»

- «لكني لم أمت..»

- «كدت..»

ثم همست وهي تنظر إلى يدها في ارتباك:

- «الحقيقة أنني لا أشعر براحة في هذا المكان.. كل هؤلاء المجرمين وكل هذه الأصفاد والأسلحة.. ليست من الأشياء التي تناسب طبيعة حساسة مثلي.. هل يمكن أن نلتقي في مكان أكثر هدوءًا؟»

كنت أكره هذه العادة لدى أهل الكوكب.. عندما يلتقي النوعان الجينيان ليقولا كلامًا فارغًا.. ويختاران لهذا مكانًا هادئًا.. أحيانًا يتبادلان الورود والخطابات وأشياء غريبة جدًا لا يمكن أن أفهمها.. لا يمكن لأي واحد من عالمي أن يفهمها..

تململت بشكل واضح، فقالت مناشدة:

- «أرجوك.. الأمر مهم ولن يستغرق إلا دقائق.. صدقني..»

كما قلت كنت أتصرف ببراءة.. وقد افترضت أنها ما دامت وصفت أسبابها بأنها مهمّة، فإنها لن تجرؤ على ألا تكون الأسباب غير مهمّة.. وفيما بعد عرفت أن الكائنات طويلة الشعر حين تتكلم عن شيء مهم فهي تعني أنه مهم بالنسبة لها وليس للآخرين..

وهكذا ضربت لها موعدًا وحددت هي المكان الهادئ.. أو الذي أعتقد أنه هادئ..

☆ ☆ ☆

في الموعد وقفت أنتظرها..

أخيرًا وصلت المركبة الحمراء التي يبدو أنها ظفرت بها بعدما انفصلت عن زوجها..

كنا في الريف خارج المستعمرة التي يسمونها القاهرة.. لا يوجد شيء على مرمى البصر إلا مساحات شاسعة من الخضرة، وثمّة جسم مثلث يقف شامخًا، وقد عرفت أنّ هذه الأجسام مختصة بتوليد الكهرباء أو تقويتها لا أعرف بالضبط.. لكنّها أجسام يجدر الابتعاد عنها على كل حال.. الليل يقترب وحاجتي إلى الرؤية الليلية تتزايد...

ترجلت من السيارة وكانت تضع على عينيها نظارة سوداء..

سألتني وهي تغلق الباب:

- «هل تأخرت عليك؟»

- «بالعكس.. أنت دقيقة كالأيونات..»

ضحكت كثيرًا في دلال، وقالت:

- «يا لكلماتك العجيبة! زملاؤك قالوا إنك تستعمل هذه الألفاظ طيلة الوقت.. كأنك.. كأنك من عالم آخر..»

كنت قد اعتدت هذه العبارة فلم تعد تؤثر في أو تربكني..

قالت وقد لاحظت ارتباكي:

- «كان هذا هو مخطط عملي منذ جئت إلى هنا..»

مخطط؟

- «أى مخطط؟»

ابتسمت بينما الليل يصبغ وجهها بلون أزرق بارد محايد:

- «في البداية هبطت في نفس الموقع الذي هبطت أنت فيه.. عرفت كل شيء عن الزوج والزوجة دائمي الشجار.. لم تكن أنت أحدهما.. وإن خمنت أنك كنت الزوجة لفترة، لأن الزوج يتحدث عن تغيرات رهيبة في شخصيّة امرأته جعلته يعتقد أنها مصابة بمس.. ثم عرفت عن اللصين والشرطة.. لماذا اعتدى أحد اللصين على الآخر من دون سبب؟ وعرفت عن الضابط الذي تعرض لحادث مروع.. تقمصت شخصيّة الزوجة ورحت أفتش عنك في كل مكان.. تتبعت كل خيط ممكن.. وفي النهاية قادني البحث إلى ضابط شاب بدأ يتكلم بأسلوب غريب كأنه من كوكب آخر.. فلماذا؟ اليوم قابلتك للمرة الأولى، وكانت هالة (Ø99) تشع منك بوضوح تام.. لقد تأكدت من أنك العميل (###Ø99).. عميلنا الذي جئت من أجله!»

☆ ☆ ☆

13

صحت في فرح وأنا أرتجف:

- «أنت من أرسلوه!»

وجثوت على ركبتي لأن الفرحة كانت تمنع الكائن من الاحتفاظ بثيابه..

قالت المرأة التي لم تعد كذلك:

- «كلانا في وضع الإحلال الآن.. ولو غادرنا هذين الجسدين لوجدنا أحمقين يرمقاننا غير فاهمين.. لكنني على كل حال سأترك هذا الجسد الآن..»

وفي اللحظة التالية فتحت المرأة عينيها.. بدا عليها الغباء وعدم الفهم.. نظرت لنا لوهلة، ثم تهاوت على الأرض فاقدة القدرة على التماسك.. إن شعور الكائن لحظة أن يفارقه الواحد منا، ليشبه كثيرًا شعور الروبوت الذي انتزعت منه الوحدة الحسابية المنطقية.. إنّه يتهاوى على الأرض ويفقد وعيه..

لكني لم أعطها اهتمامًا كبيرًا لأنني وجدت أمامي من كان بداخلها..

الضيف القادم من (زيفرا) ليعيدني..

الأمل الذي انتظرته في شغف كل هذا الوقت..

كان من الرتبة (077)..

☆ ☆ ☆

ككل أفراد الرتبة (077) كان طويل القامة.. ربما أطول مني مرّتين.. وكانت مخالبه المكهربة تصدر أزيزًا وهي تتدلى إلى جواره لا تكف عن الفتح والغلق.. ومخه العاري المتضخم تسيل منه الإفرازات لتبلل وجهه.. وكانت عينة الفسفورية الوحيدة تضيء المنطقة حولنا.. أمّا أنيابه فكانت تمزق شفته السفلى.. ومنذ هذه اللحظة كففنا عن الكلام وبدأنا في التخاطر..

قلت له وأنا اتراجع للوراء:

- «أنت (077).. لماذا؟»

قال وهو يتقدم مني:

- «أنت تعرف يا (###Ø99).. لقد أصدر (سيجورا) الأعظم الأمر النهائي..»

- «لكن لماذا؟ أنا لم أقترف ذنبًا.. هناك كثيرون غيري لم يستطيعوا العودة..»

- «ليس وفي حوزتك سلاح (زيتا) أهم أسلحتنا.. وليس وأنت تعرف أن (سيجورا) أخطأ.. إن من يعرف أن (سيجورا) أخطأ لا يعيش مسيكة واحدة أخرى..»

وداس على المرأة وهو يتقدم فسمعت صوت عظامها تتهشم.. البائسة! أنا مثلها بالضبط.. إن الرتبة (077) هم قتلة كونيون لا يملكون ذرة من الرحمة.. ومهمتهم هي الإبادة الجزيئية للمغضوب عليهم من (سيجورا) الأعظم.. وليست لهم هالة مميزة ولا يمكن سماع أفكارهم، لهذا لم أشك لحظة في تلك المرأة التي أُستخدمت مرّتين.. إن لهم رائحة نفاذة مميزة وهذا ما يفسر سر العطر الفواح الذي كانت المرأة تستعمله..

هذا هو سر الحماسة الرهيبة التي دفعتهم لإرسال من يأتي بي.. لم يكن هذا تشبثًا بي بل هي حاجة (سيجورا) الأعظم إلى تصحيح أخطائه باستمرار...

- «أين سلاح (زيتا) يا (###Ø99)؟»

- «عليك أن تجده..»

كانت هذه ورقتي الرابحة الوحيدة.. قلتها.....

ثم أطلقت ساقي للريح.. جريت نحو المحطة العملاقة وأنا أعرف أن جسد الضابط برغم قوته هش.. لايحتمل صراعًا مع (077).. الحقيقة أن (077) هم الشيء الوحيد القوي جسديًا في (زيفرا)... ويقال إن تركيب جيناتهم سرّي لا يعرفه سوى (سيجورا) الأعظم نفسه..

وانطلقت الطلقة الأولى من سلاح (ويبر) لتحرق العشب من حولي..

جريت في خط متعرج، وأنا أعرف أن القاتل سيظفر بي في النهاية.. إنهم لا يخسرون أبدًا..

الطلقة الثانية مرّت بجوار رأسي وشعرت بها تحرق شعر الكائن، ثم ارتطمت بالمحطة فتناثر الشرر في كل مكان..

الطلقة الثالثة أصابت الأسلاك أو الكابلات فهوت على الأرض وراحت تبصق الشرر وتتلوى كأنها ثعابين (بلجور) الجائعة..

تواريت وراء المحطة ورحت ألهث...

إن الموقف مرعب.. لا يمكن الانتصار على هذا الشيء أبدًا.. إلا إذا.....

هذه الكابلات..

أسمع لهاثه وهو يتقدم نحوي على ساقيه القويتين، ويبدو أنه يعد السلاح للطلقة القادمة..

مددت يدي إلى غصن شجرة هناك، وهشمته إلى نصفين.. استخدمت النصفين كأنهما ذراعان أمسكا بطرف الكابل المقطوع الساقط على الأرض يتلوى... لا أريد أن أصعق قبل أن أقوم بمهمتي..

الآن هو يدور حول المحطة والطلقة القادمة هي الأخيرة على الأرجح..

هنا فقط وثبت خارجًا من مكمني ودفنت طرف الكابل المقطوع في وجهه..

تطاير اللهب في كل صوب ولم أدر إن كان أطلق سلاحه أم لا لأن التأثير واحد..

فقط تلوى جسده وعوى بصوت اهتزت له الحقول، ثم اشتعلت النار في جسده.. وتراجع إلى الوراء.. سقط على الكلأ وتلوى للحظات ثم انفجر..

وانفجار واحد من رتبة (077) ليس خبرة جميلة أو سارة لكنه حدث..

ووقفت ألهث على بعد أمتار وسط جحيم من الكابلات الملتوية والنيران والانفجارات الصغيرة..

لقد نجوت.. نجوت..

ثم إني انفجرت بالبكاء كالأرضيين..

هذه هي المساعدة التي لم يجد (سيجورا) خيرًا منها لي.. أرسل من يدمّر جزيئاتي..

لكني ما زلت واثقًا من أنّ هناك خطأ ما..

(سيجورا) الأعظم يعرف.. يعرفني.. يعرف نواياي..

مازالت أمل في أن أعود وأشرح له كل شيء..

☆ ☆ ☆

في الصباح بدأت أشعر بأن هذا الكوكب يحتاج إليَّ.. كوكب تعس هو.. ضعيف بدائي.. وأنا هنا بما أملكه من حضارة (زيفرا).. ليس لديَّ إلا أمل واهٍ في العودة.. فلماذا لا أساعد هؤلاء البؤساء؟ مازال لديهم قتلة وسفاحون ومجرمون ولصوص.. ولا أرى ما يُشين في أن محاربة هؤلاء بأساليبي دون أن يعرف أحد حقيقتي.. كيف لو عرفوا؟؟؟

اتصلت بي (إيناس) وقالت إنها نادمة على غلطتها معي.. فأنا مازلت في مرحلة النقاهة، و«ليس على المريض حرج».. الحق أنني لم أعد أخشاها بنفس القدر.. ربما أستطيع فهم ما يحمله لها الضابط مما يسموّنه حبًّا.. فهم تلك الجاذبية التي تصر على توحيد النوعين معًا لتكوين ذرية.. لكنني لا أجرؤ على الزواج.. لا أستطيع.. دعك من حقيقة أخلاقية مهمّة: أنا لست خطيبها الحقيقي...

☆ ☆ ☆

أنا الضابط (هاني عباس).. شاب وسيم واعد كما يقولون.. يجيد محاربة الجريمة وقد بدأ نجمه يسطع.. له خطيبة تهيم به حبًّا وليست له أسرة.. سأظل هكذا وسألعب هذا الدور كل صباح..

لكني بالنسبة لنفسي سأظل دومًا العميل (###Ø99) الذي أرسله متكامل الدوائر (سيجورا) الأعظم إلى كوكب (هيسا) لدراسة قابليته للاستعمار..

أحمل سلاح (زيتا) الرهيب، وربما أستعمله يومًا ما.. لكن لن يكون هذا ضد أهل الكوكب الأبرياء السذج، بل لحمايتهم.

ستكون أمامي صراعات عاتية، ولسوف أجابه معارك شرسة.. لكنني سأنتصر دومًا لأننى الأفضل والأذكى والأكثر تقدمًا.. إن أهم صفحات مذكراتي لم تكتب بعد..

هذا كل ما أريد منكم يا قوم (زيفرا) أن تعرفوه.

☆ ☆ ☆

ما بعد الخاتمة

انتهت الرسالة يا (ريم)...

لا أدري إن كانت قد راقت لك أم لا.. لا أدري إن كنت قد صدقتها أم لا.. لا أدري إن كنت فهمتها أم لا..

لكنني في كل الأحوال أردت أن أقدم لك بعض التسلية... ويومًا ما سيعتبرني الناس أعظم مغامر عرفه التاريخ منذ السير (والتر رالي).. أو أعظم كذاب عرفه الأدب منذ البارون (منخاوزن)..

لا يهم.. سأكون في القبر وقتها لا أعرف حرفًا عن هذا كله.. المهم أن أكون قد منحتك بعض التسلية، وأن أكون قد كشفت لك عن جزء غامض من هذا العالم لم ترتده بعد..

على كل حال ما زال الجواب سهلًا.. يُمكنك أن تبحثي عن ضابط صغير السن اسمه (هاني عباس) له خطيبة اسمها (إيناس).. هناك احتمال لا بأس به أن يكون هو الشخص المقصود..

لكنني لا أنصح بالتجربة.. أولًا سوف ينكر الأمر بشدة.. ثانيًا لا أضمن ألَّا يحاول الخلاص منك.. أعرف أنه لا يهوى القتل، لكن يمكنه أن يحل في جسدك للأبد، ويترك أهلك حائرين بين عيادات الأطباء النفسيين الذين يتكلمون عن الفصام والمشعوذين الذين يتحدثون عن المس، وأطباء أمراض الدم المسنين الذين يتحدثون عن كائن متوحد قادم من الفضاء..

إن الفتى محاصر، ولا سبيل له إلا أن يستمر في عالمنا ويفعل ما نفعله.. وهو لن يحبّ أبدًا من يرغمه على بدء تجربة جديدة مع قوم آخرين..

أرى أن عينيك احمرتا من السهر، وأن الإرهاق تسرب إلى ردود أفعالك..

لهذا أقول لك: تصبحين على خير، وغدًا أحكي لك قصة جديدة..

ملك الذباب.. هل سمعتها من قبل؟ كلا.. لا أتحدث عن رواية (وليام جولدنج) الرائعة (إله الذباب) والتي رشحته لنيل جائزة (نوبل).. قصصي أنا قد تكون جيدة لكن ليس إلى حد (نوبل) طبعًا..

هل تعرفين ملك الذباب؟ هل تعرفين الظروف التي جعلته ملكًا للذباب؟

إذن اسمعي لما أقول.. إن الرجل الذي....

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

ما بعد الخاتمة

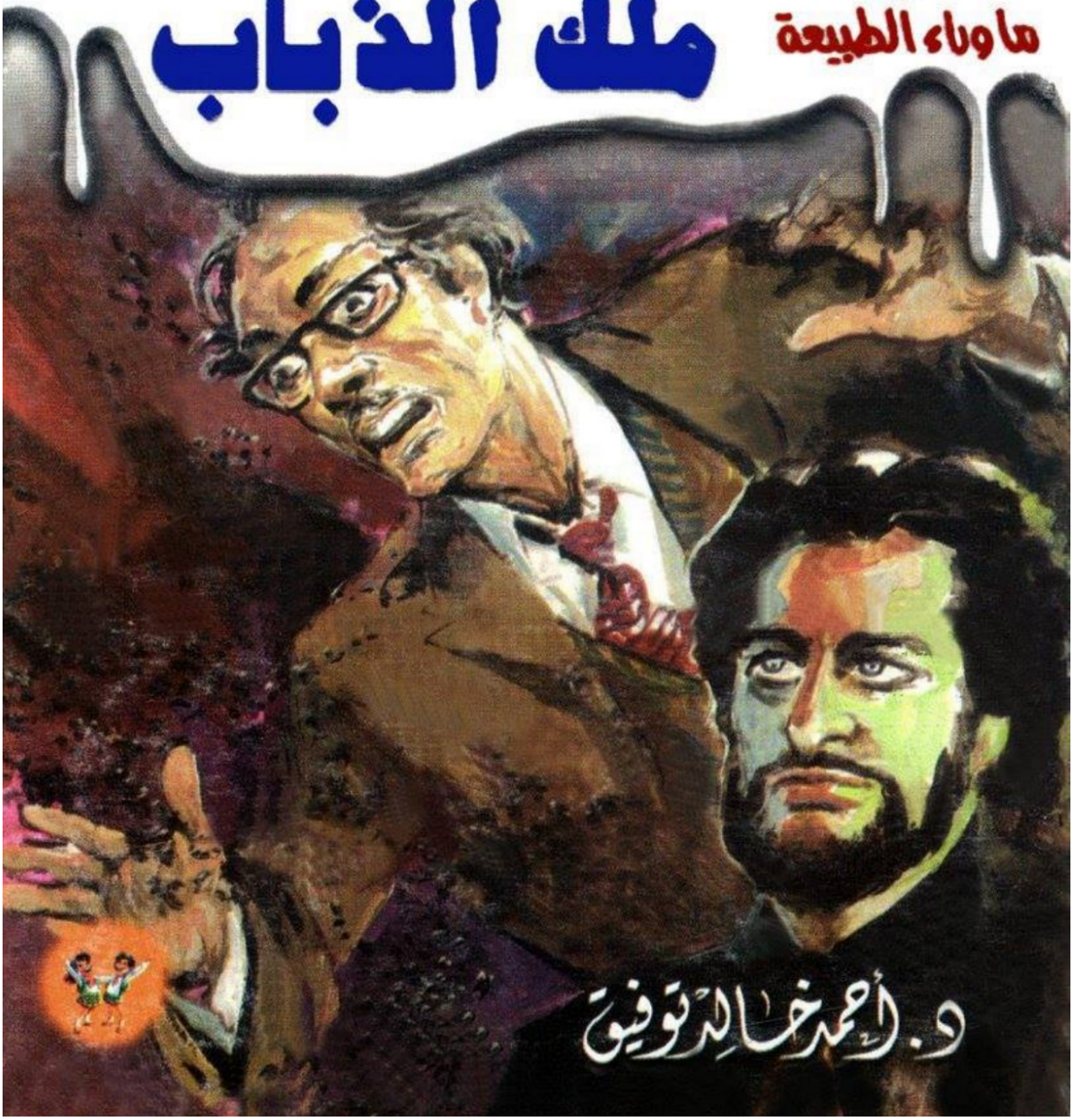
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

56

أسطورة ملك الذباب

ما وراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدِّمـة

هناك دائمًا الأمل في أن نبقى أحياء حتى الصباح..

إن الباب موصد ومفتاحه ليس معنا.. هذا صحيح..

رائحة الكبريت تنتشر، ومن يعرف كتب القرون الوسطى يعرف ما معنى رائحة الكبريت حين تأتي من دون كبريت.. أوافق على هذا..

هذا الضوء الأخضر المريب من تحت الباب.. إنِّه مقلق.. هذا حق..

صوت الحفيف.. أم هو الفحيح؟ لا يريح النفس كثيرًا.. أعترف بهذا..

إن (ليليث) تتحرك بالخارج.. أنا أعرف هذا وأنتم تعرفونه.. وتعرفون من هي (ليليث) لو كان في عروقكم دم لم تمتصه بعد..

لكننا ما زلنا أحياء.. ما زلنا نتنفس..

لا أرى ما يمنعنا من أن نرى ضوء يوم جديد، فهذا الموقف ليس أسوأ ما مر بنا..

كيف ينتهي هذا الموقف؟ كيف نخرج من هذه الورطة؟ لا أدري طبعًا..

تعالوا من حولي.. قربوا الرءوس.. أصغوا لي..

اليوم أحكي لكم عن ملك الذباب..

كلا.. لست بصدد سرقة أو اقتباس أو استيحاء رائعة (وليام جولدنج) التي نال عنها جائزة (نوبل).. الرواية التي تحمل اسم (إله الذباب)، والتي تحكي عن مجموعة من الصبية على جزيرة مهجورة، يحاولون أن يبدءوا مجتمعًا..

إن قصة اليوم لا علاقة لها بهذا الموضوع.. لكن لا توجد طريقة أخرى لوصف ملك ذباب إلا بأنه (ملك الذباب)..

مرعبة؟ ربما.. إنها تخيفني شخصيًا وأكره أن أتذكرها.. لكني مضطر لذلك الآن.. فقط كي أمارس عملية انتقال الخبرات التي هي وقود التطور الأهم.. وربما هي مبرر وجود الشيوخ أصلًا..

مرعبة؟ حتى لو كانت مريعة فلن تتفوق على (ليليث) التي تجول في الخارج، محاولة أن تقتحم الغرفة علينا..

مرعبة؟ لو كانت مرعبة أكون قد قدمت لمن يهوون الرعب ما يريدون.. وإن لم تكن فعلى الأقل قد رفهت عنكم حتى تأتي ساعات النهار..

هذه القصة - إذن - هي نوع من التسلية كي تنسوا ذلك الشيء الذي ينتظر على ناحية الباب الأخرى والذي قد يدخل في أية لحظة..

عندها يعلم الله وحده كيف سنكون...

☆ ☆ ☆

1 - بعد منتصف الليل..

- «لا يوجد ما نفعله إلا أنّ ننتظر..»

قلت له وأنا أرشف القهوة التي طلبها لي:

- «غريب أنت يا أخ (شريف)..»

قال رافعًا حاجب التهكم الأيسر:

- «هل ستكرر نفس ما تقوله في كلّ مرّة، عن أنني جدير بالدراسة ككائن غريب؟ عن أنني لامع نظيف جدير بأن أوضع في كتب القراءة القديمة، التي تتحدّث عن الطالب المثالي؟»

- «ليس هذا ما أعنيه الآن وإن لم أتنازل عنه.. وإنما عنيت أنك تقدم برنامجًا على الهواء، يعتمد على مكالمات المستمعين الهاتفية، وبرغم هذا أنت تقامر.. فعلًا تقامر.. ماذا لو بدأت الحلقة وانتهت من دون أن يتصل أحد؟ لقد مرّت عشر دقائق من دون أن يرن جرس الهاتف..»

قال (شريف) وهو ينظر في ساعته بقلق، وينظر إلى مهندس الصوت:

- «ماذا تريد؟ هل تريد أن ألفق متكلمين مزيفين كما يفعل الجميع؟»

بالطبع لم تكن هذه المكالمة مسموعة، لأن مهندس الصوت كان يقوم بإذاعة عدد لا ينتهي من أغاني (عبد الحليم حافظ) القصيرة المرحة ليضيع الوقت.. وهذا طبعًا بعدما قال (شريف) المقدمة المملة المعهودة عن «حكاياتكم التي ستكون وقودًا لآلة الرعب كي تتحرك»..

كانت هذه إحدى حلقات البرنامج الإذاعي (بعد منتصف الليل) الذي كان يذاع في الواحدة من صباح يوم الجمعة أسبوعيًا.. فلا بد إذن أننا كنا في العام 1969 أو 1970.. لا أذكر بالضبط.. المؤكد بالنسبة لي هو أننا كنا في الشتاء.. ربما شهر فبراير كذلك..

(بعد منتصف الليل).. هذا البرنامج الأسبوعي الذي أعطاني قسطًا لا بأس به من الشهرة - وليس المال - في عصر كان المذياع فيه ذا أهميّة بالغة، وكان بالفعل يمثل بؤرة البيت، والذي تقوم فكرته - البرنامج لا المذياع طبعًا - على تلقي مكالمات المستمعين على الهواء.. دائمًا ما كان الرعب أو الميتافيزيقا موضوع تلك الحلقات، وكنت أرد بما يفتح الله علي به من ردود.. لكني كنت في أكثر الأوقات ألعب دور المشارك المندهش لا الناصح الحكيم..

فيما بعد حدث ما يحدث دائمًا.. هناك أطفال أوغاد - وكل الأطفال كذلك على الأرجح - يظلون ساهرين إلى ما بعد منتصف الليل، وبرغم التحذير الواضح في بداية الحلقات فإنهم كانوا

يستمعون.. ويبدو أن البرنامج كان يثير رعبهم.. نعم.. إن تأثير الأصوات الخارجة من المذياع في سكون الليل يفسح مجالًا هائلًا للخيال، وربما لو كان البرنامج على شاشة التلفزيون لما أحدث هذا التأثير..

هكذا قررت الرقابة إيقافه بعد عام.. لكن ما زالت لديَّ حلقات كثيرة منه.. وبعضها ممتع بلاشك..

قلت للمذيع (شريف السعدني) وأنا أضع قدح القهوة على المنضدة:

- «لا أعني تلفيق المكالمات بل ادخارها.. أن تدخر بعض المستمعين طيلة الأسبوع على أن تضمن اتصالهم بعد منتصف الليل..»

في تفاؤل ابتسم وقال:

- «لا تقلق.. أنت لا تمارس العمل الإعلامي ولا تعرف أنّ هذه المكالمات كالرزق.. لا أحد ينام من دون عشاء، ولن يمرّ البرنامج من دون مكالمات.. ثم إنني أراهن على علم النفس.. إن المواطن العادي لا يمكنه أن يقاوم سماع صوته أو آرائه خارجة من المذياع بينما يسمعها الملايين.. هذه غريزة من الغرائز التي تحرك التاريخ، مثلها مثل غريزة البحث عن الطعام والجنس والنفوذ.. هذا أقوى من التحمل البشري.. ثق أن الجرس سيدق الآن..»

نظرت له مليًّا نظرة طويلة أحرجته.. وقلت:

- «متفائل كالعادة.. دائمًا متفائل.. وهذا يضاف إلى صفاتك العجيبة التي أجدها جديرة بالدراسة.. أنا على عكسك شديد التشاؤم، وأرى أنّ هذا الشيء لن يدق أبدًا..»

قال في غيظ مهذب:

- «تفاؤلي غير عقلاني.. وتشاؤمك غير عقلاني كذلك..»

- «أنا أؤمن بأن الحظ الحسن ليس ضمانًا.. لهذا أحتاط دائمًا.. إن بعض التخطيط لن يضر أحدًا..»

هنا - كأنما ليثير غيظي - دق جرس الهاتف...

☆ ☆ ☆

يبدو أن الحظ يبتسم للذين يثقون به ثقة عمياء..

لقد جاء الصوت عبر الهاتف.. وكان من الواضح أنه من زبائن البرنامج فعلًا.. وتبادل (شريف) ومهندس الصوت نظرة، وعلى الفور توقف صوت (عبد الحليم حافظ) الرخيم، وخرج

من السماعات صوت متحشرج واهن يقول:

- «مساء الخير..»

فهو رجل لا يتمتع بالحس الجغرافي إذن، لأننا (صباح الخير) الآن..

اتخذ صوتي طابعًا (إعلاميًا) رسميًا وقلت:

- «صباح الخير يا سيدي.. هل يمكن أن نتعرفك؟»

- «أنا (مختار سلماوي).. أربعون عامًا.. بلا عمل ولا أسرة حاليًا.. أسرتي من (الدلنجات) بالبحيرة لكني أعيش في القاهرة الآن..»

قال (شريف):

- «أنت لا تضيع وقتًا يا سيدي.. لقد لخصت كل شيء عنك..»

- «لو رأيت ما رأيته لعرفت أن الوقت لا يمكن أن يضيع.. إن حياتي لا تنتهي أبدًا.. والنصر الوحيد الذي أحرزه في نهاية اليوم هو أنه انتهى..»

قلت في حكمة:

- «هذا كلام مرضى الاكتئاب جميعًا..»

صمت الرجل، ثم قال في تؤدة:

- «ما علينا..»

- «هل هناك مشكلة يا سيدي؟»

- «نعم.. الذباب!»

لم أفهم ما يرمي إليه، فعدت أكرر السؤال من جديد:

- «أعني المشكلة التي تمر بها.. المفترض أنّ هناك مشكلة..»

- «قلت لك إنها الذباب..»

هنا بدأت أفهم.. هذا مهرج آخر ممن يكرهون أن يفوتوا فرصة جذب ذيل الكلب الصغير أو ركل القط النائم.. العبث غريزة مدمرة لها سلطانها، وسل عن هذا أي واحد ممن لا يطيقون أن يروا مقعد حافلة إلا ومزقوه بالموسى، ولا يرون لافتة (الرجاء عدم التدخين) إلا وحذفوا (عدم) لتصير (الرجاء التدخين)..

قلت له في ضيق:

- «نحن شاكرون لك يا سيدي.. ونعتذر عن إضاعة وقتك ولكن...»

هنا صار أداؤه عصبيًا بحق:

- «أقول لك إنّه الذباب.. الذباب يحاصرني في كل مكان ولا أقدر على الخلاص منه..»

بدت لي عصبيته حقيقيّة.. لو كان ممثلًا فهو عبقري.. ولو كان مجنونًا فهو من الطراز الذي عرفه الأفلام المصرية، والذين يصفهم الدكتور (شديد) دومًا بعبارة: ما أبدعك!

هنا تدخل (شريف) ليثبت أنه ليس فقط نظيفًا وابن ناس، وإنما هو أيضًا لبق:

- «سنكون لك شاكرين يا أستاذ (مختار) لو تحدّثت بالتفصيل.»

هنا بدأ الإيقاع يهدأ قليلًا.. وبدأت قصة الرجل تولد...

☆ ☆ ☆

قال الأستاذ (مختار):

- «هناك دائمًا بداية لكل شيء.. لكن قصتي بلا بداية ما.. فقط صحوت من النوم لأجد أنني صرت كذلك..»

- «يمكنني أن أتكلم طويلًا عن المحاسب المحترم الذي عاش حياة هادئة بلا تقلبات ولا مشاكل.. حياة هادئة كالنهر.. يُمكنك أن تتنبأ بدقة من أين بدأت.. وأية مسارات تتخذها.. وأين تنتهي.. طبعًا لا تستطيع معرفة متى تنتهي هذه..

«كلية التجارة.. التخرج.. شركة خاصة محترمة.. زوجة صالحة من بنات الأسر.. طفلان جميلان.. بيت هادئ.. سيارة (نصر) صغيرة مستعملة لكنّها تؤدي الغرض.. المصيف في الإسكندرية أسبوعًا كل عام.. مدخرات بسيطة لكنّها تجعلك مطمئنًا نوعًا إلى الغد.. حلم الحجّ قبل أن تموت.. بطيخة وجريدة كل يوم في أغسطس.. نزهة على الكورنيش مع الترمس واللب في ليالي الصيف.. تلفزيون صغير..

«لقد نلت نصيبًا من كل متع الحياة.. نلت نصيبًا صغيرًا جدًّا لكني لم أحرم من شيء.. وعرفت أنني على الأرجح سأحاول الاستمرار برغم أن أسرتي لم تُعرف بطول العمر.. أساعد الولدين في الزواج.. أذهب للحج.. أعود لأجلس على المقهى ألعب الطاولة مع أصدقائي القدامى.. في كل يوم يموت واحد.. في النهاية أعود إلى الدار وأطلب كوب ماء ثم لا أشربه لأنني أكون قد مت بالسكتة القلبيّة.. جنازة.. دموع.. معاش.. صورة ذات شريط أسود في الصالة.. ثم ينسى الجميع كل شيء عني..

«هذا هو النهر الهادئ الذي تعرف في كل لحظة أين سيكون في اللحظة التالية..»

هنا تدخلت كعادتي:

- «ألا تجد أنّ هذه الحياة قد تبدو جحيمًا للبعض؟ إن عشرين عامًا أخرى من شراء البطيخ وأكل الترمس لهي فترة أطول من اللازم..»

قال في هدوء:

- «إن فكرتي عن السعادة هي السريان المنتظم الهادئ.. ربما أنا أغبى أو أذكى من الآخرين.. لكني لست من الطراز الذي يشكو من حياة هادئة كتلك..»

في تأمل قلت:

- «حقًّا.. أذكى أو أغبى.. إما أن تكون في غاية الاكتفاء الذاتي والنضج الفلسفي، وإما أن تكون - معذرة على التعبير - بقرة راضية عن مرعاها.. المهم أنّ هذا السريان الهادي المنتظم تحول إلى حركة دوامية تطبق كل قوانين (برنولي)..»

هنا ضغط (شريف) على ركبتي لأخرس قليلًا.. وأنا إلى حدٍ ما أفهمه..

وواصل الرجل الكلام:

- «نعم.. في ذلك اليوم الأسود - منذ شهرين تقريبًا - صحوت من النوم لأجد أنّ هناك ذبابًا أكثر من اللازم في الغرفة.. نهضت من الفراش، وفتحت الشرفة ورحت أذبه بالمهشة.. لكن عدده كان يتزايد باطراد...

«جاءت زوجتي إلى الحجرة واندهشت لما رأته، لهذا أحضرت مقعد (التسريحة) لتصعد إليه وتمد يدها فوق خزانة الثياب لتحضر زجاجة (الفليت)، ثم ملأت البخاخة بالمبيد، وبحزم وصرامة راحت ترش تلك الحشرات المزعجة وهي تلوم الولدين اللذين يأكلان الحلوى ثم يلمسان كل شيء بأيديهما الملوثة اللزجة.. تساقط الكثير من الذباب وبدا لنا أننا انتصرنا..

«لكن الذباب عاد يحتشد من حولي حين جلست ألتهم الإفطار..

«ذباب على الطبق.. ذباب يحوم حول رأسي.. ذباب على الملعقة.. ذباب فوق طبق الفول.. وفي هذه المرّة نهضت مذعورًا وطلبت من زوجتي أن تعيد استخدام المبيد، لكنّها صاحت في إباء إنها لن تفعل هذا على مائدة الطعام أبدًا..

«هكذا لم أتناول الإفطار وغادرت الدار..

«كنت شارد الذهن فلم أعلّق أهميّة على ما يحدث.. وركبت سيارتي العتيقة إلى العمل..

«غريب هذا! إن هذه السيارة تعجّ بالذباب! كنا في ديسمبر والطقس أقرب إلى البرودة، وبالتالي لم يكن هناك ذباب إلا فيما ندر.. لكني وجدت أنّ هناك عددًا لا بأس به من الذباب اللحوح السمج حول وجهي وأنا أقود..

«لم يكن ذبابًا عاديًا يخضع للذب بسهولة.. بعضه كان من النوع الذي يعتقد أن وجهي مكسو بالصمغ.. وكان له طنين يثير الجنون...

«فتحت النافذة ورحت أحاول أن أبعده حتى كاد هذا يكلّف أحد المارَّة حياته، وفي النهاية وصلت إلى عملي..

«يجب أن أقول إنني حتى تلك اللحظة كنت أفترض أنّ هناك هجومًا غير مبرر للذباب على الجميع.. من الصعب وأنت محاط بالذباب أن تفترض أنه لا يهاجم الآخرين.. لو أن سحابة من الغيوم تمطر حولك أنت وحدك فلن تعرف إلا بصعوبة أنه لا توجد أمطار في موضع آخر..

«دخلت العمل فكانت الملحوظات ذاتها.. ورُشت المبيدات ووُجه اللوم إلى العمال الكسولين.. لكنني بعد قليل بدأت أفهم أنني الوحيد.. فعلًا الوحيد الذي يحيط به الذباب..»

هنا صمت (مختار).. صمت برهة طالت، فسألته وأنا لن أندهش لو كان قد مات:

- «أستاذ (مختار).. ماذا حدث بعد ذلك؟»

- «نعم؟»

كأنه يتكلم من بئر عميقة..

- «قلت لك: ماذا حدث بعد ذلك؟»

قال بطريقة تقريرية:

- «انتهت القصة!»

- «ماذا تقول؟»

- «أقول إن القصة انتهت عند هذا الحد..»

- «أي أنها كانت حادث يوم واحد؟ لقد انتهى الكابوس بلا تفسير..»

- «بل هو مستمر بلا تفسير.. إن سحابة من الذباب تحيط بي الآن!!»

☆ ☆ ☆

2 - ملك الذباب..

قال (مختار):

- «استمرت المشكلة تنغص عالمي.. لم تعد زوجتي تتحمل، ففارقت البيت مع الطفلين.. طبعًا لم تطلب الطلاق لأن مشكلة كهذه ليست من الطراز الذي يمكن الكلام عنه في المحاكم..

«طبعًا في العمل قيل لي إن هذه شركة محترمة، وليس من المستحب أن يعمل بها موظف يحيط به الذباب.. وهكذا طردوني وضميرهم يؤنبهم لأنني كنت بالفعل موظفًا بارعًا مخلصًا.. لو أنني أصبت بالجذام أو الدرن في أثناء العمل، لاعتبرت حالتي عجزًا أو شيئًا من هذا القبيل، ولكانت لي معاملة مالية معقولة.. لكن هل يوجد (قومسيون) طبي يعترف بالذباب كسبب للعجز؟

«وهكذا يا دكتور (رفعت) وجدت نفسي خلال أسبوعين وقد فقدت كل شيء.. العمل والأسرة وراحة البال.. فلم يبق لي إلا البيت الخاوي كي أخفي فيه سري.. والحقيقة إن فكرة الانتحار خطرت لي مرارًا، لكني كما قلت لك رجل متدين عاش حياة محترمة.. فهل أنهي هذه الحياة المحترمة بشرايين مقطوعة؟ من الغريب أن أسرتي امتازت بأجداد يموتون في سن مبكرة لا تتجاوز الأربعين.. لكنني الاستثناء الوحيد هنا كما يبدو، وهذا ليس مما يسعد نفسي»

هنا جاءت اللحظة التي كنت أخشاها منذ بدء المحادثة:

- «ما هو رأيك إذن يا دكتور (رفعت)؟»

ابتلعت ريقي.. لو أنهم أحضروا هنا كل السحرة وخبراء الميتافيزيقا والقوى النفسية وكل الأطباء النفسيين وعلماء الحشرات، فلا أحسبهم سيقولون رأيًا أكثر عمقًا من رأيي الآن:

- «لا رأي لي يا أستاذ (مختار). هذه القصة غريبة حقًّا.. بل إنني لم أسمع مثلها من قبل..»

- «أنا لا أتصل كي تخبرني بأن حالتي غريبة..»

قلت في عصبية:

- «يجب أن تكون عادلًا.. امنحني فرصة لتكوين رأي.. أمّا أن تطالبني بالحكم الفوري فلست (سليمان) الحكيم.. لاحظ أنك تعرف حالتك جيدًا وتألفها، أمّا أنا فلم أسمع عنها إلا منذ عشر دقائق..»

قال (شريف) في رزانة:

- «الأمر يوحي بأن هناك لعنة معينة تطارد الرجل..»

- «يبدو الأمر كذلك.. لكنه كما قال يحيا كنهر هادئ، واللعنات لا تطارد الأنهار الهادئة.. إنها تطارد الدوامات والشلالات ومساقط المياه..»

ثم تكلمت موجهًا الكلام إلى ضيف البرنامج:

- «هل لك احتكاك سابق بعوالم الميتافيزيقا؟ هل.. فتحت مقبرة فرعونية أو آشورية أو تخص أباطرة المانشو؟»

ضحك الرجل بعصبية.. ولم يرد وكان معني عدم الرد بليغًا عدت أسأله:

- «هل تعفن أحد أطرافك؟ هل أنت مصاب بغنغرينا الغاز أو أي جرح ملوث؟»

في ضيق صدر قال:

- «لا..»

- «هل يُمكنك الاتصال بي؟ لابد من لقاء.. إن مشكلتك أعقد من أن تحل على الهواء..»

- «ممكن..»

- «هل تعرف طريقة الاتصال بي؟»

- «أعتقد..»

ثم وضع السماعة..

كان تأثير هذا شبيهًا بالصفعة قليلًا لأنني تعودت على أننا نحن - بسلطة الإعلام - من يضع السماعة في وجوه الآخرين.. من الوقاحة أن تصفع من اعتاد أن يصفع..

قال (شريف) وهو لم يلحظ ارتباكي:

- «حالة غامضة يا دكتور.. وأعتقد أننا لم نتحرك كثيرًا بعد سماع القصة كاملة..»

قلت في ضيق:

- «لا أعرف.. إننا نفترض دومًا أن من يتصل بنا صادق، وأن المازحين العابثين الراغبين في التسلية على خلق الله لا وجود لهم.. وهو افتراض (يوتوبي) إلى حدٍ ما.. بل وأجسر على وصفه بالسذاجة..»

- «لا مصلحة له في اختلاق قصة..»

- «لا تنس متعة العبث.. العبث للعبث.. كما أنّ (أوسكار وايلد) تحدث عن الفن للفن، وتحدث (ليلوش) عن الحياة للحياة..»

- «ربما لكننا - كما قلت أنت - نفترض حسن النية في مستمعينا.. يبدو أن الوقت داهمنا.. ليس أمامنا سادتي إلا أن نشكر... إلخ..»

☆ ☆ ☆

أكون كاذبًا لو قلت إن القصة احتلت أي جزء من عالمي في الأيام التالية..

لقد عدت لممارسة حياتي الرتيبة، وفي الأسبوع التالي عدت إلى الأستوديو لأقدم حلقة أخرى من البرنامج، وكانت قصة الطفلة (نهال) التي كانت تعتقد أن أباها قد مسه تمثال (ست).. أعتقد أنكم تذكرون تلك الحلقة.. كانت قصة غريبة لكن - على الأقل - كان لها تفسيرها..

كنت أستعد في ذلك الوقت للسفر إلى الولايات المتحدة ثم أوروبا، لهذا أخبرت (شريف) أن الحلقات ستتوقف بعض الوقت.. لو لم يكن البرنامج على الهواء لأمكننا أن نسجل حلقتين أو ثلاثًا.. الهدف.. من سفري مؤتمران علميان، لكن النتيجة الفرعية كانت تلك المغامرة الأوروبية التي حكيتها لكم عن اجتماع الساحرات في كهفهن لأكل الأطفال.. ماذا؟ لم أحكها بعد؟ مستحيل.. لابد أنني حكيتها باسم (أسطورة كهف السحرة) أو (أسطورة الغابة) أو شيء من هذا القبيل.. غريب هذا! إنني إذن أشيخ حقًا...

ليكن.. ربما أحكيها في مرة قادمة.. لكن ليس اليوم..

كانت حياتي تمضي بانتظام لكني لم أكف عن تذكر ذلك التعبير الذي قاله (مختار) عن تلك الحياة الهادئة كالنهر.. يُمكنك أن تتنبأ بدقة من أين بدأت.. وأية مسارات تتخذها.. وأين تنتهي.. وطبعًا لا تستطيع معرفة متى تنتهي..

إن حياتي نهر هادئ بالفعل.. لكن مشكلتها هي تلك الشلالات التي تعترض طريقها من حين لآخر ولا أعرف حقًّا إن كنت أتمنى أن أعيش في نهر.. في شلال.. الأول ممل أكثر من اللازم والآخر مثير أكثر من اللازم.. ربما لو أنني منحت حياة شخص آخر لاخترت حياتي هذه.. على كل حال أنا اعتدت جو التعاويذ القديمة والأشباح ومصاصي الدماء الذين يعودون للحياة، ولم أعد أتصور أية حياة أخرى.. ويبدو أنّ هذه الأشياء بدورها لم تعد تتصور أي أحمق آخر سواي..

أعتقد أن السفر هو ما أتوق إليه الآن..

كنت جالسًا في مكتبي - بعد أسبوعين - أراجع بعض الأوراق العلمية حين شعرت بوجود.. وجود له أبعاد هائلة من الطول والعرض والارتفاع.. رفعت رأسي فوجدت أن الواقف على الباب امرأة.. امرأة ضخمة كالكابوس تقف على الباب وتنتظر في أدب حتى أرفع نحوها عينين متسائلتين..

انتزعت عوينات القراءة، وارتديت العوينات الأخرى وهي لحسن الحظ تصغر الأشياء قليلًا، وبالتالى صار بإمكاني استيعاب هذا الكيان العملاق.. وأعدت.. النظر فوجدت أن رأيي الأول كان مصيبًا، وإن كان لها وجه طفولي مريح.. فهي إذن لن تلقيني على الأرض وتركل طحالي حتى يتمزق.. ومن الصعب في هذه الأيام أن تقابل من لا يفعل بك ذلك..

- «دكتور (رفعت)؟ (رفعت إسماعيل)؟»

فلو كانت أسمج قليلًا لقلت لها ردًّا سخيفًا على غرار: إن لم أكن أنا هو فالأمر خطير.. إلخ.

- «أنا هو..»

- «أنا (منيرة عبد اللطيف).. مدام (سلماوي) لو أردت..»

كان الاسمان لا يعنيان لي أي شيء.. لكنني ابتسمت كأنما تعطفت عليَّ أخيرًا بزيارة طال انتظارها.. ودعوتها للجلوس..

جلست فسمعت الأريكة العتيقة تئن احتجاجًا.. ثم قالت وهي تلهث من فرط ما أحرقت من (الأدينوسين ثلاثي الفوسفات):

- «نحن لم ننفصل.. أعني أنّ هذا لم يتم رسميًا.. فقط أنا في بيت أهلي إلى أن يستجد شيء..»

ومدت يدها إلى كوب الماء على مكتبي فرشفت رشفة لا بأس بها.. ثم غمغمت:

- «لا تؤاخذني..»

كأنما هذه المرأة تفترض أنني أذكر كل شيء عن كل إنسان مشى على البسيطة.. لا أعتقد أن كمبيوتر المخابرات المركزية الأمريكية يمكنه أن يزعم هذه القدرة، لذا قلت لها في رزانة:

- «الحق هو ما فكرت فيه.. الانفصال هو آخر حل يلجأ إليه الزوجان.. إن الهدم أسهل من البناء..»

- «هذا ما فكرت فيه..»

- «وهو؟ ألم يأت إلى بيت أهلك قط طالبًا الصلح؟»

- «نعم.. لم يأت.. إن مشكلته تزداد تعقيدًا وهو لا يجد الراحة لحظة واحدة..»

- «هل كرامته ملتهبة إلى هذا الحد؟»

- «بل عيناه هما الملتهبتان.. أنت تعرف أن الرمد لا يفارق عينيه بسبب كل هذا الذباب!»

هنا انتهي فتيل صبري فصحت في عصبية:

- «ذباب؟ عم تتكلمين بالضبط؟»

نظرت لي في غباء.. ثم انفجرت في ضحكة مرهقة تعسة:

- «وأنت عم تتكلم؟ ظننتك فهمت أنني أتحدث عن (مختار سلماوي).. الرجل الذي اتصل بك في أثناء إذاعة برنامجك الإذاعي.. لقد نسيت اسمه..»

هنا عاد إليّ خيط الذكريات بوضوح تام.. هذه زوجة الرجل الذي يطارده الذباب.. ومن الواضح أنها تحاول معاونته بشكل ما..

قلت لها وأنا أجفف عرقي:

- «هل لي أن أعرف سبب تشريفك لي؟ هل أرسلك زوجك؟»

- «قلت لك إنّه لا اتصال بيننا..»

- «وكيف وصلت إلى هنا؟»

- «من يسأل لا يضل الطريق.. المهم أنني جئت أطلب عونك لأنني أعرف أن زوجي لن يتصل بك أبدًا.. إنّه قانط يعرف أنه لا أحد يستطيع مساعدته ولعل اتصاله ببرنامجك كان محاولة أخيرة (من حلاوة الروح) كما يقولون.. لكني أتابع منذ زمن برنامجك الذي نسيت اسمه.. أعرف أنك بارع أو على الأقل أنت أفضل البلهاء أو النصابين الموجودين..»

ثم مالت تسألني في فضول:

- «هل سمعت من قبل عن رجل يطارده الذباب أينما ذهب؟»

قلت - مكلمًا نفسي في الواقع - وأنا أخط بالقلم على الورق:

- «هناك في الأساطير الإغريقية مدينة كاملة ابتليت بالذباب، هي مدينة (أرجوس)، وهذا لأنهّا تسترت على مصرع (أجاممنون) بطل حرب طروادة على يد زوجته (كلتمنسترا) وحبيبها (إيجسن).. في النهاية يقوم ابنها (أورست) بقتلها وحبيبها انتقامًا لأبيه.. لقد عولجت هذه القصة بالتفصيل في ثلاثية (أورستيا) لـ (أسخيلوس)..

«فيما بعد جاء الكاتب الوجودي (سارتر) ليعالج القصة بمفهوم مختلف في مسرحيّة (الذباب).. طبعًا ليجعل (إيجسن) يرمز للنازيين و(كلتمنسترا) ترمز لحكومة (فيشي) الفرنسية العميلة التي تعاونت معهم.. أمّا (أورست) فهو المثقف الوجودي الذي يفعل ما يؤمن به متحديًا (زيوس) نفسه.. وفي النهاية يغادر المدينة رمزًا إلى أنه يصلح للثورة والتحرير لكنه لا يصلح للحكم..»

كانت تصغي لي في انبهار ممصمصة بشفتيها كأنما تسمع شاعرًا يترنم على القيثار، وقالت:

- «ياسلاااااااام! أحسنت! الزوجة الخائنة لابد من أن تجلد بالسياط..»..

نظرت لها ثم تذكرت من هي.. ليس الوقت مناسبًا للكلام عن الميثولوجيا الإغريقية والمفكر الوجودي وحكومة (فيشي).. هي لم ترَ في القصة كلها سوى أن الزوجة الخائنة يجب أن تجلد بالسياط، كأنما تشاهد فيلمًا عربيًا..

هذه زوجة مصرية عادية جدًّا.. أم بطبعها منذ كانت في المهد.. سيدة بيت.. ومن الواضح أنها تجيد صنع المحشو والكفتة.. هاتان اليدان المكتنزتان تشيان بذلك.. يدان خلقت كي تضغطا على كرات اللحم الغارقة في السمن قبل وضعها في الصينية.. لابد بالطبع من أن تدس في فمها بعض السمن البلدي بالمغرفة قبل استعماله على سبيل قياس الجودة والتأكد من أن «السمنة مرملة» هذه سيدة لن تظفر منها برأي عميق أو منطقي لكنّها جديرة بكل احترام كما نحترم أمهاتنا..

أخذت شهيقًا عميقًا وقلت لها:

- «طبعًا هذه أساطير ولا يمكن أن نقيس عليها.. بينما ما حدث لزوجك واقع لا شك فيه. ورأيي الخاص الذي أصر عليه هو أنني لن أقول حرفًا دون لقائه..»

وعدت أسألها:

- «كيف يبدو الأمر؟»

قالت في بساطة:

- «كما قال لك.. حيثما وجد هناك ذباب كثير جدًّا.. مهما جربت المبيدات فلا جدوى.. سرعان ماتحتشد أسراب أخرى.. هذا يجعل الحياة لا تطاق..»

- «وهل تنبعث منه روائح منفرة أو شيء من هذا القبيل؟ هل يعاني من مصدر للتقيح؟»

تكور أنفها اشمئزازًا كأنما قلت شيئًا غليظًا وقالت:

- «البتة.. لكن لا يُمكنك أن تحتفظ بصحتك مع كل هذا الذباب.. بالطبع التهبت عيناه واضطربت معدته.. ولو بقيت معه لأصابنا ما أصابه.. أنا لست قاسية يا دكتور (رفعت).. أنا أحب بيتي وزوجي، ولكن ما يحدث هنالك هو شيء بلا تفسير.. والأهم أنه لا يطاق..»

- «فهمت.. أي أن المرض جاء نتيجة وليس سببًا.. وبالطبع أخذت رأي عدد لا بأس به من الدجالين..»

ارتسم على وجهها تعبير يقول بوضوح: (ما تعدش!).. وراحت تلوح بكفها كأنما تطلب بعض الهواء:

- «يوه.. يوه! عدد لا يحصى منهم.. طبعًا كانوا يتحدثون عن عمل (سفلي).. إلخ.. لكن ما توصلت إليه هو أن هؤلاء القوم لا يعرفون شيئًا.. لا يعرفون شيئًا على الإطلاق..»

ثم وضعت يدها السميكة على المكتب وقالت:

- «لن يأتي إليك أبدًا.. يجب أن تذهب إليه..»

نظرت لها في حيرة وابتلعت ريقي:

- «هل هناك سبب لكل هذه الحماسة؟»

- «أنت تنقذ أسرة من الانهيار.. وتنقذه من الجنون.. هو لن ينتحر لكنه سيفعل إذا جن.. من يدري؟ لعل الله جاعل الخلاص على يديك.. لا تبدو قادرًا على ذلك، لكن الله قادر على كل شيء»

ساد الصمت وهلة.. سأبتلع رأيها فيَّ الذي كونته من خبرة طويلة مع المحشو والكفتة والسمن البلدي.. دعك من أنها لم تبتعد عن الحقيقة كثيرًا..

رحت أرمقها وأنا أدق بإصبعي على المنضدة، ثم قلت لها:

- «حسن.. أريد العنوان..»

ابتسمت في توحش وقالت:

- «المشكلة الأخرى هي أنه لن يلقاك أبدًا بكامل وعيه.. أعتقد أنك ستحاول إقناعه عدة مرات، فإن فشلت فعليك أن تتسلل إلى الداخل!»

☆ ☆ ☆

3 - المقابلة..

يجب أن أكون واضحًا قد يحلو لي بعد قليل من السرد، وقد يحلو للبعض من (صائدي الأبطال) أن يعتبر أني فعلت ما فعلت انطلاقًا من شهامة قلَّ أن نجدها هذه الأيام.. في الحقيقة لا أحب أن أطلق على الأمور أسماء أخرى.. إن الناس قد تعتبر الشخص الممل إنسانًا (يفضل الصمت حين لا يوجد ما يُقال)، وتعتبر الشخص الوقح رجلًا (لا يصمت عن الحق).. والعاشق يتخلى عن فتاته دامعًا لأنّه ملَّها، بينما هي ترتجف تأثرًا بالقلب المرهف الذي يمنحها حريتها مع من هو أفضل منه..

لن أزعم شيئًا من هذا.. لقد كان الفضول هو ما يحركني.. الفضول لتجربة جديدة، وأنا كما قلت لكم أجمع الخبرات كما يجمع غيري علب الثقاب أو سدادات الزجاجات.. هذا الفضول يمكن بسهولة أن يقنع غير المدققين بأنه شهامة لا حد لها.

قالت لي الزوجة وهي تخرج المفتاح من حقيبتها:

- «لم يعد يغادر الدار أبدًا.. لذا ستجده في أي وقت..»

- «سوف يملأ الدنيا صراخًا ويطلب الشرطة.. سأتحول إلى (هجام) كترقية أخيرة في حياتي..»

- «أولًا هو لن يطلب الشرطة أبدًا.. ثانيًا هو يعرف وجهك، ولسوف تنقضي فترة عدم الفهم والمفاجأة سريعًا، ثم يبدأ في الكلام..»

- «ومن قال إنّه لا يوصد الباب بالمزلاج؟»

- «أنا قلت.. ليست هذه من عاداته..»

على كل حال أخذت منها المفتاح وأنا أنوي ألا أستعمله أبدًا.. من أدراني أنّ هذا ليس مقلبًا لتوريطي في تهمة سرقة؟ ليس لي أعداء بشريون كثيرون، لكن هذا وارد.. بعد أعوام رأيت هذا السيناريو حرفيًا في إحدى حلقات (الكاميرا العفوية CANDID CAMERA) الأمريكية، ولكن أفظع ماحدث للمتسلل هو أنه فوجئ بمن يقول له: ابتسم.. أنت في الكاميرا العفوية..

هنا لن يكون الأمر كذلك..

قلت لها وأنا أدس المفتاح في جيبي:

- «ليكن.. سأزوره وأحاول أن أفعل شيئًا..»

ابتسمت في انتصار ثم بدأت في إحراق (الأدينوسين ثلاثي الفوسفات) كي تنهض..

قلت لها:

«هل تعرفين رقم هاتفي؟»

- «نعم.. وأعرف أين أجدك فلا تقلق..»

ثم ناولتني قصاصة صغيرة من الورق لا بد أنها من طرف جريدة، وجدت عليها عنوان بيت أهلها ورقم الهاتف.. طبعًا كانت هناك وريقة أخرى عليها عنوان (مختار) ورقم هاتفه..

البيت كان في القاهرة، في حي شعبي مزدحم.. تحته مقهى يتبادل رواده السباب والبصاق وقرع أحجار الطاولة بطريقة توحي بالانتصار.. وكان هناك متجر لشطائر الفول والطعمية، وأرض خالية في مواجهته اتخذها سمكري سيارات مكانًا يمارس فيه هواية الدق.. لا بد أن صاحبنا كان أصم إذن حين تحدث عن (بيت هادئ).. لقد جعلتني كلماته أتخيّل فيلا هادئة في (جاردن سيتي) أو (الزمالك)..

على أن عينيّ وقعتا في الأرض الفضاء على سيارة (نصر) لا تخص السمكري.. إنها سيارة (مختار) على الأرجح..

في رهبة اتجهت إلى المدخل.. لم يكن هناك بواب.. والدرج كان نظيفًا تفوح منه رائحة مطهر قوي..

أصعد مرهقًا ولا يفوتني أن ألاحظ أن البيت خال تمامًا بلا سكان.. الزوجة قالت لي شيئًا عن هذا وإن صاحب البيت لا يؤجر باقي الشقق، وكانت هذه هي العادة في ذلك الزمن..

على باب الشقة في الطابق الثالث وقفت ألهث وأتحسس عضلات صدري.. لقد صارت الذبحة الصدرية شيئًا طبيعيًا في عالمي إلى حد أنني لا أفهم كيف يمارس الناس حياتهم دون آلام في الصدر..

ثمّة شيء على الأرض.. شيء ليس محبب الرائحة..

انحنيت متوقعًا الأسوأ فلم أجده.. هذه بعض الأكياس تحوي خبزًا وشطائر.. خبز صار كتلة من العفن وشطائر ليست أفضل حالًا.. ثمّة ثلاث جرائد يومية واضح من حالتها أن أحدًا لم يمسها..

طاق طاق!

لأنه لا جرس هناك.. ولا استجابة كذلك..

طاق طاق!

بعنف أكثر

- «أستاذ (مختار)!!»

لا أتلقى ردًا.. عندها أوشك على التراجع.. لكن عقلي لا يتنازل بهذه السهولة: رجل وحيد لا يرد + جرائد لم يقرأها أحد + طعام لم يمس غالبًا كان هناك من يجلبه ويضعه على الباب = ؟؟؟؟

لا يحتاج الأمر إلا إلى رائحة عفن، ومجموعة من المخبرين - وكل المخبرين اسمهم (بسطويسي) - تهشّم الباب بأكتافها، ثم خبر في صفحة الحوادث..

فكرت في الأمر مليًّا، ثم وجدت أن نظرة واحدة لن تضر أحدًا.. الزوجة قالت إنّه لن يرد عليَّ.. فماذا لو كان هذا صحيحًا؟

بحثت في جيبي عن المفتاح ودسسته في الثقب.. كليك! انفتح على الفور كأنما لم يدره الرجل من الداخل على الإطلاق..

أخيرًا رأيت الصالة.. هذا بيت عادي جدًّا ليس موحيًا بالفقر ولا الثراء.. يمكن أن تراه في كل مكان في مصر وربما كان بيتك إذا لم تكن مليونيرًا أو شحاذًا..

عفن؟ بالطبع لا.. لا توجد رائحة إلا تلك المعتادة في مكان مغلق لا يفتح أبدًا.. فقط أدخل وأحاذر الارتطام بالمقاعد وأنا أواصل النداء:

- «أستاذ (مختار)!!»

حتمًا سيظهر الآن.. سيخرج من مكان ما خلفي لينقض عليَّ، عندها لن يتحمل قلبي الصدمة.. أفزعني الخاطر فتلفتت إلى الوراء، وكان هذا سيئًا لأنني بدأت أقلق بحق.. إن الأركان التي لا يبلغها النور أكثر من اللازم هنا..

كانت هناك غرفة.. وكنت أعرف أنه في الغرفة.. هذه أشياء لا يمكن تفسيرها..

خطوت مترددًا إلى هناك ووقفت على الباب أنظر إلى الداخل..

حقًّا كان المشهد لا يصدّق.

☆ ☆ ☆

الذباب على الباب.. الذباب على الجدران..

يمكنك بصعوبة بالغة أن تعرف اللون الأصلي لهذا الجدار..

الذباب على الأرض.. الذباب في الهواء..

هذه حجرة نوم عادية جدًّا من حجرات نومنا حجرة من التي توضع فيها حقائب السفر على خزانة الثياب، مع الصندوق الورق المقوى الذي اشتروا فيه جهاز التلفزيون.. لابد أن خزانة الثياب تحوي كسوة الصيف وقد تم ترصيعها بأقراص (النافتالين) المضادة للعثة..

لكن الأرض كانت مغطاة بعلب المبيدات الحشرية الفارغة على الأرجح..

على الكومود بقايا وجبة التهم الذباب نصفها.. وهناك كومة من الكتب.. وثمّة شرفة أغلق بابها بالشيش والزجاج معًا ولسبب واضح طبعًا..

الفراش مغطى بالذباب، لكنك تستطيع أن ترى الجسد الراقد فوقه والذي تغطى بالذباب تقريبًا.. رجل قد التف بالملاءات وأوشك على تغطية وجهه ذاته لولا أنه ترك بصيصًا للعينين..

وكان يتنفس..

كنت أقترب وأنا أحرك يدي ذات اليمين واليسار محاولًا إبعاد تلك الحشرات اللحوح عني، وفي كل لحظة كنت أرتجف.. هذه التجربة - بحق - من طراز فريد عليَّ تمامًا.. لن أكف عن الدهشة بعد كل ما رأيت كأنما الحياة تتحداني في كل لحظة: تحسب أنك خبرت كل شيء؟ حسن.. سترى يا أحمق!

سمعته يهمس من تحت الأغطية:

- «من؟ من هنا؟ انصرف فلا مال لديَّ.. أنت تضيع وقتك..»

وهو ما كان واضحًا من دون تفسيرات غبية.. لو كنت لصًا لبادرت بالفرار لدى رؤية هذا المشهد لكني لست بهذا القدر من الذكاء طبعًا..

قلت بصوت مرتجف قليلًا:

- «أنا.. أنا دكتور (رفعت إسماعيل)..»..

- «آه.. أرجو أن تسامحني.. إن النظافة هنا ليست مما يناسبك.. لاحظ أنك لم تأخذ موعدًا من السكرتيرة..»

بيني وبينك كان رد فعله غير متوقّع.. وبالتالي ليس مما يريحني.. إنِّه لم يبد الكثير من الدهشة..

تناولت ملاءة ورحت أطرد بها تلك الحشرات.. إن الأمر غريب، لكنّها بالتأكيد ليست جرادًا.. ليست بكثافة الجراد الذي يجعل الفلاحين لا يرون الشمس.. فقط يوحي الأمر بأن هناك كومة من القمامة هنا..

قلت للرجل وأنا أتجه إلى الشرفة لأعالج مزلاجها:

- «اسمع.. لا أعرف فكرتك عن الترفيه، لكن لا يُمكنك أن تبقى في هذا المكان..»

- «أنت لا تفهم شيئًا.. هذه الحشرات تأتي حيث أكون.. لقد جربت كل شيء.. تغيير المكان لن يجدي شيئًا..»

انفتحت الشرفة وتسرب النور إلى الداخل كانت تطل على زقاق خال لكنه نظيف.. أمّا ما أثار رعبي فهو أن الذباب لم يخرج.. كان يأتي من الخارج..

صاح كالمجنون:

- «أغلق الزجاج يا أحمق! أنت فقط تزيد من أعدادها هنا!!»

صحت كمجنون آخر:

- «كف عن هذا أنت وانزع هذه الأغطية.. لابد من أن أفحصك جيدًا..»

وبصعوبة كافحت حتى حررت رأسه من الغطاء ثم بدأ يهدأ قليلًا فحررت باقي جسده.. كان رجلًا في الأربعين من العمر كما قال، نحيلًا هزيلًا يذكرك بمرضى السرطان في مراحله الأخيرة.. وأدركت أنه لم يحلق لحيته منذ أسبوع على الأقل، وفي عينيه نظرات مجنون.. لا ألومه على هذا كثيرًا..

كانت عيناي تفتشان في جسده، وسط أسراب الذباب هذه، عن موضع جرح متعفن.. غنغرينا.. شيء يسبب هذا كله.. كنت أعرف أنني لن أجد شيئًا لأن رائحة الرجل عادية جدًّا..

قال وهو مستسلم في شيء من التهكم:

- «لا تتعب نفسك.. (كان غيرك أشطر).. ما من طبيب لم يبحث عما تبحث عنه الآن..»

- «أكون شاكرًا لو خرست قليلًا..»

كانت عيناه ملتهبتين تمامًا كما قالت زوجته، وواضح أن الذباب لم يرحم ملتحمتي عينيه.. هذا رجل يحتاج إلى المستشفى لفترة لا بأس بها.. أعرف أنّ هناك آنسات سريعات الاشمئزاز هاهنا، لهذا لن أتحدث عن مرض (التدويد)، وهو ما يحدث لشخص يهاجمه الذباب بهذه الحرية..

قلت له وأنا مستمر في الفحص:

- «لماذا لم تأخذ الجرائد ولا الطعام من على الباب؟»

- «لم أعد أستطيع القراءة.. أمّا عن الطعام.. فكيف آكل الآن؟ ولماذا آكل؟ لم يدخل جوفي منذ ثلاثة أيام إلا الماء..»

قلت له في حزم وأنا أعيد تغطيته:

- «الهاتف.. أين الهاتف؟»

- «ولماذا (الهاتف أين الهاتف)؟»

قلت في صبر:

- «سأطلب سيارة إسعاف.. لن أتركك هكذا.. لا بد من تغذيتك والعناية بهذه الـ...»

- «لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم!!»

انطلق في الصراخ مرددًا هذه الكلمات في رعب وانفلات تامين، جعلاني أشعر كأنما فجرت بركان (إتنا).. وفشلت تمامًا في جعله يصمت..

- «لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم!!»

أصابني الرعب فغادرت الغرفة مسرعًا، فإذا بي أسمعه يرتطم بالأرض.. لا بد أنه حاول أن يلحق بي بينما هو لم يحرر قدميه من الملاءة جيدًا.. وهو ما يحدث لي كل يوم وأنا أحاول إخراس المنبه الأحمق..

ها هو ذا الهاتف في الصالة على (البوفيه).. المكان المعتاد للأسر المتوسطة.. طبعًا هو موضوع في أقبح سلّة من الخوص المجدول، لأن (فاتن حمامة) تفعل شيئًا كهذا في أفلامها

- «لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم!!»

أسمعه يعوي من داخل الغرفة، ومن الواضح أنه لن يجد الوقت الكافي ليلحق بي..

- «آلو.. الإسعاف؟ لدينا رجل في حال خطيرة في...»

هنا سمعت الصرخة...

ألقيت بالسماعة وهرعت إلى الحجرة..

كانت خالية إلا من حشود الذباب الحائرة التي لم تحدد وجّهتها بعد.. كأنما هي فقدت أباها..

وباب الشرفة مفتوح..

رسالة بلغة مفهومة لا تحتاج إلى مترجم..

لقد جن الرجل تمامًا...

☆ ☆ ☆

- «هو لن ينتحر لكنه سيفعل إذا جن.. من يدري؟»

☆ ☆ ☆

4 - تخلص منها..

قال لي ضابط الشرطة ونحن نقف وسط حشود الفضوليين:

- «صارت عادة لك يا دكتور (رفعت) أن ينتحر الأشخاص الذين تزورهم لحل مشاكلهم!»

كانت عربة الإسعاف تغلق بابها الكئيب، حين قلت:

- «ربما كنت أقترح حلولًا جذرية أكثر من اللازم؟ لكن - يعلم الله - أنني كنت دائمًا حسن النية في كلّ مرّة.. ولربما كان وجهي يبعث الاكتئاب في نفوسهم.. من يدري؟»

ضحك الرجل وأشعل لفافة تبغ، ثم نظر إلى المتزاحمين شذرًا وقال:

- «على كل حال القصة هنا واضحة تمامًا.. الكل يجمع على أن الرجل صار انعزاليًا لا يخرج أبدًا، وأن زوجته هجرته، وشركته تخلصت منه.. لو كنت طبيبًا نفسيًا لقلت إن هذا أعراض الفصام..»

- «لكنك لحسن الحظ لست كذلك..»

- «إن الخيال يفسر كل شيء.. لكني سأكون شاكرًا لو جئت معنا لنأخذ أقوالك بشكل رسمي..»

هززت كتفي في ضيق.. المزيد من السينات والجيمات..

لا بأس.. لكني متأكد من أنني لن أذكر شيئين.. أولًا لن أتكلم عن المفتاح لأن هذا يعقد الأمور.. ثانيًا لن أتكلم عن الذباب لأنّه لم تعد ذبابة واحدة في شقّة الرجل.. ولا حول جثته.. إن الموت قد حل مشكلته بشكل جذري..

لكن لا.. لا بد من الكلام عن المفتاح لو سألوني.. وإلا فإن الزوجة - وهي من طراز لا يحفظ سرًا - - ستقول كل شيء. وعندها سيجد رجال الشرطة ثغرة لا بأس بها في كلامي.. ثغرة تسمح بدخول فيل..

أمامي يوم عصيب بالتأكيد..

☆ ☆ ☆

جالسة مسربلة باللون الأسود في دار أهلها وعيناها منتفختان كضرع بقرة حلوب، كان من الواضح أنها لم تكف عن البكاء منذ عرفت الخبر..

أخرجت المفتاح ووضعته أمامها، ثم ساد صمت طويل.. بعد قليل همست:

- «أنا آسف.. لم أستطع مساعدته.. يعلم أنني حاولت..»

- «تأخرنا أكثر من اللازم.. هذه هي المشكلة..»

ومدت يدها التي خلقت لطهي الكفتة تمسك بالمفتاح.. وراحت تردد تلك العبارة في صبر..

- «هل سألوك عنه؟»

- «لا.. قلت إنني دققت الباب.. ففتح لي الفقيد.. لم أكن راغبًا في تعقيد الأمور بالنسبة لك ولي..»

جوارها كان أخبث وغدين يمكن أن تراهما في الكوابيس.. ربما تراهما في تلك الأفلام التي تدور حول حثالة القراصنة في البحار.. هذان - طبعًا - كانا ولديها الصغيرين.. لايمكن أن يحمل هذه الوجوه المرعبة المليئة بالشر والشهوانيّة والجشع إلا الأطفال.. أمّا الرجل الأصلع الذي يفوقها بدانة فهو أبوها، والرجل الآخر ذو الشارب الرفيع هو أخوها الذي يعمل في شيء ما.. من الواضح أنه مهم لأن اعتداده بنفسه يفوق الحد..

قالت الزوجة وهي تقرب مني قدح القهوة:

- «ربما لو كنا أسرعنا قليلًا.. ولكن.. الأعمار بيد الله.. ما كنا لنغير شيئًا..»

ولكن لهجتها كانت تقول بوضوح: لو أنك أسرعت قليلًا يا أحمق لكنت أنقذت الرجل، ولكان حيًّا يرزق بدلًا من أن أرى وجهك القبيح.. ياليتك في القبر الآن بدلًا منه..

وهو ما أغاظني بصراحة.. لست مطالبًا بالموت بدلًا من كل شيء كي يرضى أهله عني..

تدخل الأخ المهم رفيع الشارب الذي هو أخوها قائلًا:

- «بعد هذه النهاية المأساوية يا دكتور (رفعت).. ما زلنا راغبين في معرفة وجهة نظرك.. ما سر هذه الحالة الغريبة؟»

قلت في مرارة:

«لو كنت أعرف لما كنا هنا.. لا سوابق في الطب ولا الميتافيزيقا - على قدر علمي - تحكي عن حالة مشابهة.. هناك أشخاص يجذبون الفئران أو الكلاب.. لكني لم أسمع عن رجل يجذب الذباب..»

- «وبم توصي؟»

- «لو كنت أعرف لأوصيت.. لكن القضية في رأيي انتهت تمامًا.. هذا لغز ظهر فجأة وتواري فجأة.. ولا أعتقد أننا سنجد له تفسيرًا أبدًا.. هذا بالطبع لو كان الفقيد قد حكى كل شيء.. ربما هناك تجربة لا يريد أن يحكي عنها..»

قالت المرأة في غيظ غبي:

- «أية تجربة؟ زوجي رجل نظيف بلا تجارب.. لم يكن ينقصه شيء..»

كنت أعرف أنها ستقول الشيء ذاته.. بالنسبة لها لابد من أن تكون التجارب قذرة، وإلا فلماذا هي تجارب إذن؟!!

انتهيت من القهوة التي كانت متقنة الصنع، لكن ظروف الجلسة جعلتها أسوأ ماشربت في حياتي، ونهضت شاكرًا معزيًا معتذرًا متعجلًا مرتبكًا...

- «هل يمكن الاتصال بك في أي وقت؟»

- «الحقيقة أنني مسافر إلى الولايات المتحدة في نهاية هذا الأسبوع.. سأبقى هنالك عشرة أيام..»

لقد تركت في نفوسهم انطباعًا لا بأس به بانعدام الكفاءة، بينما هم تركوا في نفسي انطباعًا بالحمق.. ولأن الانطباعات الأولى تدوم.....

☆ ☆ ☆

عندما يأتي المساء هذه الأيام لا تنثر نجوم الليل لسبب ما..

كنت قد بدأت في إعداد العشاء.. لم أكن مفتوح الشهية إلى هذا الحد، لكني كنت أعرف أنه لا شيء كالطعام يمكنه أن يتكدس فوق الذكريات القاسية فيداريها..

ماذا آكل الليلة؟ لدي بعض السجق في الثلاجة ولدي بعض البيض.. هل تقترح وجبة معينة؟ أحسنت! إن من يفكر في طبق من السجق بالبيض لهو شخص عبقري..

كنت في المطبخ وقد بدأت رائحة القلي الشهية تتصاعد، حين دق ذلك الجهاز الكريه الذي يضعونه في البيوت ليدق..

هرعت إلى الخارج لأرد، وبيد ملوثة بالدهون التقطت السماعة بأطراف أصابعي محاولًا ألا أمسكها أكثر من اللازم:

- «هذا أنا..»

جاء صوت أنثوي لم أتعرفه جيدًا يقول:

- «مساء الخير يا دكتور.. ماذا تفعله الآن؟»

للحظة كدت أرد ثم فطنت إلى أنّ هذه معاكسة وقحة على الأرجح، فقلت في حزم:

- «من المتكلم؟»

- «أنا (منيرة عبد اللطيف) يا دكتور.. ألم تتعرف صوتي بعد؟ كنت أحسبك أذكى من هذا..»

وأكاد أقسم إن صوتها لم يخل من شقاوة أو دلال.. من العسير أن أتصور أنّ هذه السيدة التي توفي زوجها وكانت تبكي عليه ظهرًا، تتصل الآن لتتسلى عليَّ أو معي.. بالإضافة إلى أن سحري الرجولي لم يبلغ هذا المقدار بعد.. إما أنها جُنت أو هناك سر مريع..

قلت وأنا أحاول ألا أكون فظًا:

- «سيدتي.. هل من شيء عاجل هنا؟»

قالت في هدوء وقد استعادت بعض جديتها:

- «لا أستطيع أن أتركك.. فأنت لم تؤذني في شيء.. لهذا أسدي لك نصيحتي القلبيّة.. حاول أن تتخلص من الميدالية التي احتفظت بها.. المهم أن تجد أحمق يأخذها دون أن يرتاب في شيء!»

كانت كلماتها مليئة بالأخبار.. كل مقطع يحتاج إلى سؤال منفرد.. وقد دار رأسي للحظة وأنا أحاول استيعاب ما سكبته على رأسي البائس من أخبار سيئة..

سألتها في إلحاح:

- «أية ميدالية؟»

- «التي أخذتها والتي كان المفتاح معلقًا بها..»

طبعًا لم يكن هذا صحيحًا.. لقد أرجعت المفتاح كما هو.. ولست من هواة جمع الميداليات، ولو كنت كذلك فأنا - حتمًا - لست من هواة سرقتها..

- «لم آخذها يا سيدتي.. أعتقد أنك أضعتها بشكل ما.. لو سألت الجالسين لقالوا إني وضعت المفتاح معلقًا من الميدالية أمامك..»

قالت في صبر وبلهجة من لا ينوي أن يغير وجهة نظره:

- «على كل حال، هي بلا قيمة بالنسبة لي، لكن تذكر.. أنها مصدر الذباب الذي يطاردك!»

- «لا يوجد ذباب يطاردني.. إنني واهن البصر ولكن ليس إلى هذا الحد..»

- «سيأتي يا سيدي.. لا تقلق!!»

- «لكن الميدالية كانت معك ولم تجلب لك خطرًا ما..»

قالت في نفاد صبر باعتبارها لم ترَ أحدًا بهذا الغباء:

- «لأنني حين أخذتها من (مختار) كنت أعرف خطرها.. المرحوم (مختار) لم يعرف.. لم يعرف إلا بعد فوات الأوان وبعد أن صار التخلص منها بلا جدوى.. لقد حاولت أن أساعده بأن أعطيك إياها لكن هذا لم يحدث فارقًا.. الآن صار عليك أن تعطيها لشخص لا يشك في شيء!»

كانت أسئلتي تتلاحق إلى حد أنها تهشّم بعضها البعض.. عقلي دجاجة تبيض بسرعة جنونية فلا يقدر أحد على الحصول على بيضة سليمة واحدة.. لهذا لم أجد إلا أن أقول:

- «أشكرك على هذه الرغبة الملحة في إيذائي. ربما كنت جاهلًا أو غبيًّا، لكني لا أذكر أن أحدًا حاول قتلي لهذا السبب.. كما أنني كنت صادقًا في محاولتي المساعدة..»

وابتلعت ريقي، وأضفت:

- «ما دامت هذه لحظة الحقيقة إذن فاعلمي أن زوجك مجنون.. وأنت لا تقلين عنه جنونًا فيما أظن.. أحسنت بك الظن فحسبتك مجرد بلهاء خاوية العقل، والآن أجد أن زوجك أجاد الاختيار حقًّا..»

تهدج صوتها انفعالًا وقالت:

- «كنت أدافع عن أسرتي، وأعرف أنك لن تفهم هذا أبدًا.. كان الوضع جنونيًا وبدا لي كل شيء مبررًا.. لا بد أن أبعد هذه الأفعى عن زوجي لتلدغ شخصًا آخر.. وقلت لنفسي إنك ربما تستطيع أن تنجو بنفسك بينما سواك لا يستطيع..»

ثم صمتت قليلًا وقالت:

- «ثم إني لم أؤذك.. هأنذا أقدم لك السر والحل.. أعط هذه الميدالية لشخص آخر لا يعرف القصة.. افعل ذلك حالًا لمصلحتك الخاصّة.. خذها نصيحة من أخت تريد لك الخير..»

- «ولكن هذه الأخت...»

وررررررر!

☆ ☆ ☆

الآن يمكن القول إن وجبة السجق والبيض صارت تاريخًا.. لو وجدنا المزاج الرائق لاستكمال إعدادها - فلن نجد المعدة التي تقبل هضمها.. إن القطط التي يتم إطعامها على صوت نباح كلب تصاب بقرحة المعدة خلال أسبوع.. هذه تجربة معروفة..

يمكننا أن نقوم بتقدير الموقف على ضوء ما سمعته:

1 - لو كان كلام المرأة دقيقًا فهناك ميدالية تبدأ حالة (جاذبية الذباب) هذه..

2 - الزوج حصل على الميدالية دون أن يعرف بخطرها.. وهذا بالضبط هو المطلوب لجعلها تعمل..

3 - من أعطاه إياها؟ الزوجة؟ لا.. على الأرجح أعطاه إياها ملك ذباب آخر..

4 - ولربما هذا الملك الآخر هو الذي أنذر الزوجة كي يخلي مسئوليته الأدبية بعدما أنقذ حياته.

5 - يبدو أن الزوجة قررت إنقاذ زوجها عن طريق إعطاء الميدالية لأبله آخر.. ولهذا كان اقتراح أن أدخل البيت وأفتح الباب بنفسي..

6 - وكنت أنا هذا الأبله..

7 - الآن تطالبني بالبحث عمن أعطيه الميدالية من جديد..

تصرفها أناني.. لكنّها ما كانت لتجد من يقبل أخذ الميدالية طواعية...

لكن السؤال الأهم هنا هو: هل الميدالية معي حقًّا؟

نهضت إلى الخزانة فأخرجت كل سراويلي وستراتي.. كل ما له جيب يمكن أن توضع فيه هذه الميدالية وبحثت بعناية.. بالطبع لا وجود لها.. فتشت كل المخابئ السرية في داري التي أضع فيها الأشياء كي لا تضيع، ثم أنسى تمامًا بعدها أين وُضعت.. وجدت عشرين خيطًا احتفظت به كي (أجده عندما أحتاج إليه) وبالطبع كان لا يظهر أبدًا عندما أحتاج إليه.. وجدت إيصالات كهرباء وهاتف.. وجدت صورة لفتاة بلهاء لم أرها في حياتي كتبت على ظهرها: إلى حبي الأوحد (رف رف).. وجدت كل شيء ممكن ما عدا تلك الميدالية..

ما الذي يدعو المرأة للاعتقاد بأنني أخذتها؟

الجواب (الفرويدي) بسيط جدًّا: لأنهّا أرادت ذلك.. (الهي) لديها أرادت ذلك.. بينما منعتها (الأنا العليا) التي هي الضمير.. وهكذا كان الحل الوحيد لعقد صلح بين (الهي) و(الأنا العليا) هو أن تضيع الميدالية وتنسى مكانها، ثم تحسبها عندي.. هكذا حققت رغبتها في الإيذاء ورغبتها في عدم الإيذاء معًا..

الآن أجبت عن السؤال الأول: هل الميدالية معي؟ لا ليست معي.

السؤال الثاني هو: ماذا يدعو المرأة إلى الاعتقاد بأن الميدالية تجلب الذباب؟ هل هذا صحيح؟ يجب أن أستجوبها بدقة.. يجب...

لقد بدأت هذه القصة تثير اهتمامي بحق

☆ ☆ ☆

5 - ري دي موسكاس..

(هذا الجزء ليس من مذكرات د. رفعت لكنه استنتجه فيما بعد)

من جديد تدوي الطلقات..

المشكلة في هذه الخرائب أنك لا تعرف أبدًا من أين يأتي الرصاص والموت.. فقط تنحني وتمرغ رأسك في التراب إلى أن تصمت الضوضاء.. لحسن الحظ أنّ هناك الكثير من هذه الخرائب هنا.. كل جدار يصلح للاختفاء وراءه، وكل جدار هو حصن في حد ذاته.

من الذي يُطلق الرصاص؟ لا تعرف.. عامّة يتم تقسيم الفريقين إلى (أخيار) و(أشرار).. وكما يقولون في الأفلام: نحن الأشخاص الطيبون.. هذا يلخص كل شيء...

الذي يُطلق الرصاص هذه المرّة هم الأشرار.. لماذا يطلقون؟ لأنّهم يعتبروننا نحن الأشرار.. وهو سوء فهم، لكن لا يمكن التغلب عليه لأن الرصاص هو التحية هنا..

طبعًا لا داعي لأن أقول إن الرجلين كانا يجهلان كل شيء تمامًا عن هذه الفوارق الفلسفية.. كانا يتصرفان بعفوية وبالغريزة لا أكثر.. محاولة النجاة بالحياة.. محاولة البحث عن الطعام..

هما لا يعرفان كيف ولماذا جاءا هنا.. ولا يعرفان هدف هذا كله.. ولا يملكان أدنى أمل في الغد.. كل ما يعرفانه هو تلك المحاولة البطولية من أجل الحفاظ على حياتيهما.. وهي محاولة شبه مستحيلة طبعًا..

كانا فلاحين بسيطين.. الأول هو (شعبان التلاوي).. شاب في التاسعة عشرة من عمره من المنوفية.. ومن الواضح أنه قوي الجسد أو كان كذلك قبل أن يفتك الجوع بتكوينه العضلي، ويبدو أن الفئران الصحراوية ليست مغذية جدًّا..

الآخر هو (عيد أبو فراج) من (الدلنجات).. وصحته سيئة حقًّا، لأنّه كان يعاني منذ فترة من لعنة الفلاح المصري التي تطارده منذ عهد الفراعنة.. البلهارسيا التي جعلت طحاله يتضخم وبطنه يتضخم، وهو ما كان جسده قادرًا على مقاومته في البداية، إلى حد أن الطبيب لم ير ما يمنعه من الاشتراك في الحملة.. لكنه ما إن جاء إلى هذا البلد الكريه، وجرب الجوع وأمراضًا غامضة شتى، حتى فقد جسده السيطرة وأعلنت البلهارسيا أنها الرئيس هنا..

كان (عيد) متزوجًا.. وكان لديه طفلان لا يعرف شيئًا عنهما منذ عامين.. لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا على وجه اليقين: أنهما قد صارا يتيمين بالفعل.. ما بقي هو بعض الإضافات التي لن تغير

شيئًا ولن تحدث تأثيرًا يذكر..

واعتصر بندقيته في مرارة..

كانت في حزامه بعض طلقات كما أنّ (السونكي) كان بحالة طيبة.. لكنه لم يكن ينوي القتال أكثر.. كان متعبًا ولا يريد إلا أن يترك ليموت..

أما (شعبان) فكانت طلقاته قد نفدت منذ زمن، لكنه كان يحتفظ بالبندقية لاستعمالها كرمح، كما أنّ منظرها كان يثير ذعر الفلاحين..

كانت الشمس تتوسط السماء، والذباب يطن في كل موضع من هذه الخرائب..

هذا هرم.. هرم عتيق تغطي الرمال أكثره، وهما لم يكونا يعرفان الهرم في مصر لأن أحدهما لم يغادر قريته قط، ولم يكونا يعرفان القراءة.. لهذا بدا لهما المشهد غريبًا.. لكن نماذج العمران في كل مكان من حولهما كانت تقول إن حضارة غريبة قامت هنا منذ زمن.. (مساخيط).. لا بد أن المكان يعجّ بهم..

وقال (عيد) لصاحبه وهو ينظر حوله:

- «الناحية الأخرى من هذا.. يمكننا أن نجلس هناك.. ربما نجد بعض الظل كذلك..»

نظر له (شعبان) بوجه كالح منهك.. حاول أن يتكلم فلم يستطع لأن لسانه كان قد جف تمامًا.. وهكذا مشى الرجلان عبر الرمال الحارقة بأقدام لم تعد فيها أحذية.. لقد سرقوا الأحذية منهما منذ أسبوع، ولو حاولا استردادها لمزقهما الفلاحون..

☆ ☆ ☆

هنا نتوقف كي نضع بعض النقاط على الحروف..

نحن في المكسيك.. في العام 1867.. لابد أنكم خمنتم هذا حين رأيتم شكل الهرم وشكل الخرائب القديمة.. الأهرام التي تبدو منحدرة من ناحية بينما هناك درجات سلم من الناحية الأخرى.. نعم.. هذه هي المكسيك ونحن في قلب حضارة المايا التي سادت البلاد من العام 900 م حتى القرن السادس عشر حين بدأ الأسبان يهلون حاملين الكثير من المرح لسكان هذه البلاد الأصليين...

وكما نعرف لم يعد المايا في يومنا هذا إلا مجرد فلاحين بسطاء لم يتخلوا عن كثير من عاداتهم..

المنطقة التي نحن فيها تدعي شبه جزيرة (يوكاتين) وهي من المواضع التي ترك فيها المايا آثارهم بقوّة.. ومن هذه الأماكن (بالينك) و(أوكسمال) و(تيكال)..

ولكي نفهم تفاصيل ما يحدث أمامنا، لا بد من أن نستعين بشيء من التاريخ..

التاريخ المكسيكي معقد جدًّا، وبالطبع لا يمكن أن نقضي الوقت في دراسته.. كل رقعة في الأرض لها كتب تاريخ وأبطال ومعاهدات، بحيث يصير من المستحيل أن تلم بهذا كله.. إن ما يلزمنا من التاريخ المكسيكي هو بالضبط ما نريده لفهم ما يحدث هنا..

على كل حال يمكن تلخيص التاريخ المكسيكي كله على أنه انقلابات فثورات، فانقلابات على الثورات.. ثم ثورات تطيح بالانقلابات.. مع صراع حدودي مزمن مع الولايات المتحدة تنجح فيه الولايات المتحدة - كالعادة - في انتزاع قطعة من شمال المكسيك في كلّ مرّة.. وهكذا ولدت (أريزونا) و(تكساس) و(كولورادو) و(نيفادا) و(يوتاه)، بينما تحول جنوب المكسيك إلى شماله بمعجزة ما!

في تلك الأعوام برز ثائر مكسيكي مهم اسمه (بابلو خواريز).. تذكر الاسم.. فهو من الأسماء التي قد تقابلها من حين لآخر في قراءاتك.. وقد تولى الحكم لفترة إلى أن دخلت الجيوش الفرنسية التي كان يحكمها (نابليون الثالث) (مكسيكو سيتي) عام 1862.. ففر الرجل وأتباعه وقامت الحكومة التي تولت بتنصيب (ماكسميليان) امبراطورًا للمكسيك..

ما دخل هذا بقصتنا؟ يا أخي اصبر قليلًا.. كيف أكمل قصتي وأكلمك في الوقت ذاته؟

ظل الرجل يحكم مع زوجته قوية الشخصية (كارلوتا) لمدّة عام، ثم قررت فرنسا أن تخرج بقواتها من البلاد.. هكذا وجد (ماكسميليان) نفسه في ورطة.. كيف يظل محتفظًا بحكمه وهو الآن صار في وضع الحكومة العميلة بالنسبة للثوار؟

كان عليه أن يجد جنودًا بأي شكل ومن أي مكان..

هنا ينبري (سعيد) خديوي مصر بعرض خدماته، على أساس أن الملوك يجب أن يتكاتفوا في كل مكان.. وهكذا يحكى لنا التاريخ قصة عجيبة عن الفلاحين المصريين الذين لا يقل عددهم عن عشرة آلاف، والذين أرسلهم الخديوي ليحاربوا من أجل تثبيت حكم الإمبراطور النمساوي (ماكسيميليان) ضدّ أعدائه الثوار!!

كان الفلاح المصري متاحًا دائمًا عبر التاريخ، ولا يكلّف شيئًا ولا يسأل عن مصيره، لأن الألوف هلكوا في حفر القناة في ذلك الزمن، وهم عاجزون عن الاحتجاج.. والآن يرغم الفلاح المصري على الذهاب إلى المكسيك للدفاع عن الحكومة المحافظة على سبيل المجاملة لا أكثر! طبعًا بلا أجر ولا حمد ولا منة[1].

وهنا يمكن أن نفهم أن (شعبان) و(عيد) كانا من هؤلاء التعساء الذين وجدوا أنفسهم في حرب قاسية في بلد غريب..

لكن الدفاع ضدّ حقائق التاريخ كان صعبًا، وسرعان ما تقدمت جيوش الثوار إلى (مكسيكو سيتي)، بقيادة الجنرال (بورفيريو دياز).. تم اعتقال (ماكسميليان) وحوكم محاكمة عسكرية وأعدم..

وطبعًا لا يذكر التاريخ حرفًا واحدًا عن هؤلاء الفلاحين المصريين العشرة آلاف الذين هزموا.. هل ماتوا جميعًا؟ هل هناك من فر؟ لا شيء..

لكننا الآن نملك مزية أن نرى اثنين من هؤلاء الفارين وهما يواجهان لحظات قاسية..

☆ ☆ ☆

كان الفلاح المكسيكي مسالمًا بطبعه..

لهذا لم يؤذ الهاربين لكنه لم يقدم لهما أي عون، فهو يعرف أن الجنرال (دياز) آت، ولسوف يعرف أية قرى أسدت العون للجنود المصريين، الذين هم الآن - برغم إرادتهم - جنود (ماكسميليان)، فإذا أضفنا هذين الفلاحين البائسين القادمين من ريف مصر في القرن التاسع عشر، لا يعرفان القراءة ولا الكتابة ولا كلمة إسبانية واحدة، لأمكننا أن نفهم أنهما في ورطة حقيقيّة..

كانا يسمعان كلمة واحدة يقولها الفلاحون المكسيكيون الخائفون الذين يغطون وجوههم بقبعات القش:

- «ري دي موسكاس!!»

فكان الرجلان ينظران لهؤلاء.. ثم يقرران أنه لا جدوى من هذا المكان.. ويفران إلى موضع آخر..

ذكريات الوطن والنيل وفتاة القرية الجميلة السمراء، والزوجة والولد والمسجد المجاور للترعة.. كلها تبدو شيئًا بعيدًا غريبًا حين تجد نفسك تائهًا في صحراء المكسيك هاربًا من قوات (خواريز)!

- «ري دي موسكاس!!»

وليتك تعرف ما معنى هذه العبارة.. لكن المترجمين ترف لا يملكه المرء حين يريد..

أخيرًا هما يمشيان الآن في شبه جزيرة (يوكاتين) في أطلال مدينة (المايا) العظمي المعروفة باسم (تولوم).. لا يعرفان هذا.. لا يعرفان كذلك أنّ هذه المدينة بنيت في القرن الثالث عشر.. لكن ذلك المبنى العتيق الواقف هناك معروف لنا على الأقل.. إن اسمه معبد (فريسكو وكاستيللو).. وهو من الآثار المهمة جدًّا هنا..

هنا سمعا صوتًا من بعيد يصيح:

- «لوس دوس سولادوس إيجيبسيوس إستين إن لاس روناس!»

وراح الصدى يردد هذه العبارة مرارًا..

لم يفهما ما يُقال لكنهما عرفا على الأقل أنّ هناك من يعرف أنهما هنا.. وهذه النبرة عدوانية عسكرية بلا شك.. فليس المتكلم من الفلاحين البسطاء..

قال (عيد) وهو يلهث ويتحسس بطنه المنتفخ:

- «لقد تعبت يا (شعبان).. فليفعلوا بنا ما يريدون.. سيان قتلونا الآن أم بعد يوم أو يومين»

قال (شعبان) بعينين لامعتين:

- «لن يقتلونا.. ولسوف نراوغهم داخل هذه الجدران..»

لا بد أن وساوس القوة كانت تطارده في مصر.. أكثر من مرة لعب لعبة التحطيب أو تصارع مع أقرانه..

وبرغم أن حاله صار مزريًا فإن إرادة القتال لم تبرحه بعد.. يريد أن يثبت أنه (جدع)...

- «لوس دوس سولادوس إيجيبسيوس إستين إن لاس روناس!»

الصوت يتردد في إلحاح...

فترد عليه أصوات تقول عبارات غير واضحة لكنّها تنتهي دومًا بـ:

- «ري دي موسكاس!!»

يهرع الرجلان إلى داخل المعبد.. الظلام والرطوبة.. هذا أفضل من الشمس الحارقة بالخارج..

هناك أشياء لا يجدها إلا هؤلاء الأشخاص الذين لا يرون شيئًا.. ويمكنني أن أفترض اليوم أن قدم أحدهما تعثرت في حلقة تخرج من الأرض.. وهنا خطرت لهما الفكرة ذاتها: لماذا لا يشدان هذه الحلقة؟ على الأرجح هناك غرفة سرية تحت قدميهما.. يختبئان فيها حتى ينصرف الجنود..

فعلا كما قررا، وكانت الغرفة بالفعل.. ثمّة درجات حجرية هابطة، وثمّة...

هنا حدث الشيء المتوقع..

لقد انغلقت الفتحة فوق الرأسين الخائفين..

وساد ظلام دامس..

لكنه ليس دامسًا جدًّا..

حين بدأت عيناهما تعتادان الظلام قليلًا استطاعا أن يدركا أنهما في مقبرة على الأرجح.. ثمّة أجساد مكفنة.. مساخيط كما يؤمنان هما، ومومياوات كما نعرف نحن.. مومياوات تجلس القرفصاء متراصة في صفوف ملاصقة للجدران.. كل مقابر (المايا) تبدو كذا..

لابد أنهما ارتجفا، ولا بد أنهما بدءا يبسملان ويحوقلان وهما يتحسسان طريقهما إلى الداخل أكثر..

هنا سمعا صوت الذباب..

ذباب.. ذباب كثير.. ملايين منه تحوم هنا وهناك وتصطدم بوجهيهما.. لم يكن هذا غريبًا في مقبرة، وهما خشنان لا يهتمان بهذه الحشرات كثيرًا.. لكن ما لاحظاه هو أنّ هذه الجحافل غاضبة انتحارية قليلًا.. كأنما ضايقها أن يقتحم أحد خلوتها..

هناك ضوء خافت يأتي من مكان ما.. بالتأكيد هناك مصدر للضوء..

- «تعال يا (عيد).. لا بد من مخرج..»

مصدر الضوء كان قاعة في حجم صالة دارك لو كنت تسكن في منزل متسع.. وكان مصدره مجموعة من المشاعل.. من أوقدها؟ من يعني بها؟ لا يمكن معرفة الإجابة..

لكن هذه الغرفة كانت المصدر الأساسي للذباب.. ملايين منه تحتشد على الجدران.. تحلّق.. تزحف.. تتزاوج.. تنز..

والأهم هنا أن كل الذباب يأتي من مصدر واحد...

هذا المصدر هو ذلك الجسم الجالس في صدر القاعة.. متوجسين لكنهما يمضيان بلا تفكير كأنهما في مأساة إغريقية، يدنسو الجنديان التعسان من الجسد الذي لا تظهر معالمه من كل ما احتشد عليه من ذباب..

بأيديهما الخشنة ينفضان الذباب عن ذلك الجسد ليتبينا من هو.. أو ما هو..

هنا فقط دوّت الصرخات..

هنا فقط عرفا ما كان تحت كل هذه الأسراب..

☆ ☆ ☆

6 - شكوك..

فتح لي السفاح الأصغر الباب.. فقلت له باسمًا مكشرًا عن أنيابي:

- «هل ماما هنا؟»

نظر لي في برود وكراهية، ثم أوصد الباب في وجهي بطريقة أقرب إلى الصفعة.. ووقفت حائرًا نحو عشر دقائق لا أدري.. هل أدق من جديد أم أنصرف؟ وهل الأم غير موجودة أم أن الوغد الصغير لم يقل لها شيئًا.. أو هي موجودة ولا...

بعد قليل ظهر لي ذلك الرجل الذي يشغل أهم منصب في العالم.. كان منكوش الشعر يرتدي منامة من (الكستور) ذات خطوط طولية خضراء، وأنا منذ نعومة أظفاري لا أثق كثيرًا بالذين يلبسون منامة (كستور) ذات خطوط طولية خضراء.. صافحني بفتور ودعاني إلى الدخول.. فقلت له في حرج:

- «معذرة.. إن الكتكوت الصغير قد فتح ولم..»

- **«منيرااااااااااااااااااااه!!»**

وقبل أن أسأله عن سبب الصراخ ما دمت لم أفعل شيئًا مشينًا، ظهرت السيدة (منيرة) بوقارها الأسود، فصافحتني وابتسمت ابتسامة شاحبة كأنما صار لنا سر صغير مشترك..

كانت المقاعد مبعثرة غير مرتبة، وكل مطافئ التبغ مليئة.. هذه آثار يوم العزاء السابق.. وهم يستعدون ليوم عزاء جديد.. لكن بعد الإفطار، لهذا لم يفهموا سر حماستي المشبوبة للعزاء..

طلبت من أخيها أن يذهب ليفطر مع الأطفال فرمقني بعين نارية:

- «تفضل لتتناول الإفطار معنا..»

- «شكرًا.. لقد سبقتك..»

فانصرف مع القراصنة.. هنا نظرت لها في جديّة وسألتها همسًا:

- «قصة الميدالية هذه.. هل هي صحيحة؟»

ابتسمت وقالت:

- «هل وجدتها لديك؟»

- «بالطبع لا، لست لص ميداليات يا سيدتي لو كنت تفهمين ما أعنيه.. لكني راغب في معرفة كل شيء..»

قالت في بساطة وهي تعبث في عنقها الشحيم:

- «لا يوجد ما تعرفه سوى ما قلته لك.. كنت أكذب عليك حين جئتك طالبة العون.. الحقيقة أني كنت قد كونت فكرة عن الموقف بالتفصيل.. ولم يبق لي إلا الخلاص من الميدالية..»

- «كان بوسعك أن تعطيها لأي واحد..»

- «أؤذي إنسانًا بريئًا؟ ماكنت أحسبك بهذه القسوة!»

هنا صعد الدم إلى رأسي، ولا بد أن قلبًا صغيرًا نبت هنالك على جبهتي حيث كان الوريد الذي يتوسطها.. وقلت بصوت هامس أقرب للصياح:

- «صحيح.. أنا لست بريئًا.. نسيت هذا!»

- «أنت بريء يعرف هذه الأشياء.. هذا ما فكرت فيه!»

أخذت شهيقًا عميقًا وتمالكت أعصابي.. لأسباب كهذه لا يتزوج الأذكياء مثلي..

- «من وضع في ذهنك قصة الميدالية هذه؟»

- «أهل العلم.. لقد سألت أحدهم.. وقلت له إن كل شيء بدأ بعد عيد ميلاد زوجي الأربعين سألني عن الهدايا التي تلقاها زوجي في عيد ميلاده، فقلت له.. هذه الميدالية رخيصة الثمن تلقاها هدية من خالته.. أول هدية تقدمها له منذ عشرة أعوام.. لاحظ أن المرأة الشمطاء كانت ترغب في تزويجه ابنتها قبل أن يفوز بي! والفتاة لم تتزوج حتى اليوم. لقد استحقت لقب عانس منذ عشرة أعوام..»

هنا بدأت أفهم:

- «إذن.. أنت تعتقدين أنّ هذا عمل سحري.. عمل تنتقم به الأم لابنتها من العريس الهارب ومنك..»

- «أنت تعرف هذه الأمور خيرًا مني..»

- «ولم تسألي نفسك لحظة لماذا لم يحاصر الذباب تلك المرأة؟»

- «لأنهّا كانت تعرف من البداية.. هذه الميدالية لا تعمل إلا مع شخص غافل.. غـ..ـا.. فـ.. ل!»

حككت صلعتي الغافلة مفكرًا وسألتها:

- «لكني الآن أعرف..»

- «لم تكن تعرف حين قبلتها مني وحين سرقتها لنفسك..»

- «من قال هذا الكلام الفارغ؟»

- «أهل العلم كما قلت.. هم يعرفون هذه الأشياء..»

- «ولماذا لم نلق حتى الآن الزبون السابق لخالة زوجك؟ لا بد أنّ هناك شخصًا ما حاصره الذباب.. فأين هو؟»

- «علمي علمك.. لكن زوجي أخذ منها الميدالية وعانى وتعذب.. وحين أخذتها منه أخيرًا وقدمتها لك كان الوقت قد فات..»

رحت أفكر في كلامها.. قصة معقدة جدًّا، لكنّها لا تخلو من إحكام.. ومعنى كلامها أن عليَّ أن أجد أبله يقبل الميدالية من دون شك.. هذا بالطبع مالم أكن مولعًا بالذباب..

لكن من قال إن الميدالية معي؟؟؟

الغريب في التفكير السخيف غير المنطقي هو أنه مُعدٍ.. سرعان ما تجد نفسك تفكر بالطريقة ذاتها.. أذكر مثلًا أنني كنت أنطق في طفولتي لفظة (رقم) بشكلها الصحيح أي بتسكين القاف، حتى وجدت نفسي وسط أناس يصرّون على فتح القاف.. وسرعان ما وجدت أنني أفتح القاف بدوري.. أمس.. سمعت مذيع نشرة يقرؤها بتسكين القاف فتأففت أذني لهذا الخطأ!

حييت السيدة ووعدتها أن أفكر في الأمر، ثم انصرفت..

☆ ☆ ☆

موعد الغداء.. لن أنتهي أبدًا من هذا الهم المقيم.. ينتهي الإفطار فتطرأ مشكلة الغداء.. ينتهي الغداء فيكون السؤال: ما العشاء؟ لعل الناس يتزوجون كي يجدوا من يزيح عنهم هذا العبء.. هذا من الأشياء التي تجعل السفر المرتقب إلى أمريكا محببًا للنفس.. إن تغيير الروتين مطلوب دائمًا.

إما أن أذهب الآن إلى المطعم القريب وإما أن ألفق شيئًا بسرعة.. كانت هناك علبة أنشوجة أخشى أن آكلها من فرط ملوحتها.. ارتفاع ضغط فنزف مخي.. هذا أقل ما يمكن.. لكنّها الحل الوحيد الآن..

ذبابة سمجة.. إنها تلاحقني كأنني تحولت إلى قطعة سكر فجأة..

أفتح علبة الأنشوجة.. في علم الأمراض يطلقون على خراج الكبد الأميبي اسم (منظر صلصة الأنشوجة)، وهو تشبيه طبي شاعري آخر مثل (منظر مربى الخطم) و(منظر القهوة باللبن).. دعك

من منظر (إسهال حساء الفاصوليا).. تلك التشبيهات التي لا تشجع الشهية كثيرًا، وهذا مايسمونه (علم أمراض الأطعمة الجاهزة DELICATESSEN PATHOLOGY)، فلابد أن الأطباء الأوائل كانت معدتهم من حديد..

ذبابة أخرى.. غريب هذا.. وذبابة ثالثة..

لا أعتقد أنّ هناك ما يجذب الذباب في المطبخ، لكن الطقس ليس مناسبًا لهذا الزحام كله..

قمت بتسخين رغيف خبز من الثلاجة وجلست الأكل.. كنت في الصالة لأتمكن من متابعة التلفزيون في أثناء الطعام كما تعودت..

ذبابة.. ذبابة..

أخيرًا بلغ مني السأم مبلغه فاتجهت إلى الحمام وأحضرت علبة المبيد إياه.. وضغطت على أسناني وأطلقت دفعة لا بأس بها على المائدة وعلى الأنشوجة وعلى كل شيء.. لو مات الذباب فقط فهذا نصر، ولو تسممنا ومتنا معًا فقد استرحت..

ثم عدت أواصل الأكل.. إن المبيد يعطيه مذاقًا محببًا.. ولكن ذبابة أخرى!

هنا فقط بدأت أتوتر.. وشعرت بالشعر ينتصب على جانبي رأسي..

ما معنى هذا؟ هل يعني...

☆ ☆ ☆

تأكدت من خلو غرفة النوم من الذباب وأخلدت النوم عميق.. قلت لنفسي إنني قد أصحو صباحًا لأجد أني في وضع مثير للشفقة، أو يتضح أن الأمر.. كله نوع من (فتح القاف) في كلمة (رقم).. لقد أصابتني الزوجة بالعدوى، ولئن كان ما أصاب زوجها حقيقيًا فهو ليس بالضرورة معديًا..

لكني نمت برغم كل شيء.. ونمت جيدًا..

فتحت عيني في الصباح لأجد أن الوضع لم يتحول إلى كابوس.. ثلاث أو أربع ذبابات في غرفة النوم ليست مما يثير القلق ولو أنني لم أفهم بعد من أين.. أتت..

لكني إذ تأهبت للذهاب للعمل أدركت أن الأمر جد غريب..

لايوجد إنسان يحوم الذباب حوله كلما اتجه لمكان.. إلا لو كان هذا الرجل مجرورًا حيًّا..

أنتم تعرفون تلك الكومة من القمامة الموجودة - كنصب تذكاري - قرب مدخل مستشفانا.. لقد مررت جوارها للحظة.. هنا حدث شيء غريب. لقد بدأ الذباب يتخلى عن القمامة وبدأ يحوم حول

رأسي ويتعلق بثيابي..

لقد صارت الظاهرة رسمية إذن.. من الصعب أن أتظاهر بالعكس..

بالطبع لم أستطع التركيز في عملي على الإطلاق لأن أذني كانتا تطنان، وكنت أعد عدد الذباب على معطف د. (رأفت) الأبيض بينما هو يكلمني في موضوع مهم.. وطلبت من العامل أن يرش الغرفة بالمبيد أكثر من مرة.. كما لاحظت أن عنابر المرضى فيها ذباب أكثر من اللازم.. وجعلني هذا عصبيًا..

الحقيقة أنني كنت أُنهي الأمور الفرعية سريعًا استعدادًا لسفري إلى أمريكا، وكنت سعيدًا بفكرة الفرار من غد لا أعرف حقيقته جيدًا..

ترى هل أحمل معي الذباب إلى هناك؟ لا أعرف.. لكن هناك شيئًا لابد من عمله قبل أن أسافر..

☆ ☆ ☆

- «أريد الميدالية..»

- «ليست معي يا دكتور (رفعت)..»

- «وهي ليست معي..»

- «وليست معي.. أنا لا أهيم بها حبًّا..»

وساد صمت طويل على الهاتف.. أنا أتمنى أن أقول لها إنها كاذبة أو مجنونة وهي تتمنى أن تقول لي إنني أحمق وإنها ترجو ألا أتصل بها ثانية.. لقد انتهت علاقتها بهذه القصة للأبد.

عدت أقول لها في صبر:

- «مدام (منيرة).. أعترف أن الذباب بدأ يتكاثر من حولي.. لا أعرف السبب لكن هناك حلًّا واحدًا لا أؤمن به.. أنت تعرفين أن الغريق يتعلق بقشة.. لابد من أن أجد هذه الميدالية بأي ثمن..»

- «ستجدها عندك.. فقط ابحث هنا أو هنا..»

- «لا توجد لدي مصلحة في إخفائها بأي شكل.. لست رائق المزاج للعب دور الضحيّة الهستيريّة..»

قالت في إصرار وتعب، وكأنما رأت ما يكفي من غباء الناس:

- «لا أقول إنك أخفيتها عامدًا.. لربما أضعتها..»

عدت أفكر في ضيق.. من الجليّ أنها تؤمن إيمانًا مطلقًا بأن الميدالية ليست عندها.. ومعنى هذا ببساطة وبحكم خبرتي بالناس أن الميدالية عندها.. كلما كان الأمر خطأ كانوا على ثقة بالغة بصحته..

ذبابة تحوم من حولي.. ذبابة أخرى تتسلق سترتي..

يجب أن أجد تلك الميدالية.. يجب..

☆ ☆ ☆

في المساء رحت أعد الحقيبة، وقد بدا لي أن الذباب سيكون من الأشياء المهمة التي أخذها معي على سبيل الذكرى.. ذباب الوطن الذي لا أستطيع الابتعاد عنه..

هنا دق جرس الهاتف فهرعت أرد متوجسًا..

كان هذا صوت السيدة (منيرة) تقول لي في شيء من الحرج:

- «د. (رفعت).. أنا آسفة.. يبدو أنك كنت محقًا..»

- «أنا محق أكثر الوقت للأسف.. ولكن في أي شيء؟»

بعد دقائق صمت قالت:

- «الميدالية عندي بالفعل.. لقد وجدتها في الشقة..»

كاد يصيبني ذلك النوع من الرثاء للنفس الذي يدفع المرء للبكاء بعد اكتشاف براءته، وبصوت مختنق صحت:

- «ألم أقل لك؟»

- «آسفة.. صدقني لم أتعمد أن أخفيها..»

طيلة الوقت هي مرغمة على كل شيء.. مرغمة على إعطائي الميدالية لتخلّص زوجها.. مرغمة على إضاعتها بينما أحترق أنا في أتون القلق.. والجميل هنا أنها ستنسى كل شيء عن هاتين المحادثتين بعد دقائق، وفي المحادثة التالية ستقول لي إن ذاكرتها حديدية ولا تنسى على الإطلاق..

- «أنا قادم..»

قالت في كياسة:

- «لا أرى إن كان الوقت مناسبًا.. أنت تعرف أنه بعد وفاة زوجي..»

صحت مغضبًا وقد أوشك صوتي على بلوغها دون سماعة:

- «اسمعي.. ليس الوقت مناسبًا للتظاهر بالأنوثة.. لقد تغيرت حياتي جذريًا منذ قابلتك والمرحوم زوجك.. وكنت أنت سبب أكثر هذه المصائب لو صح ما تقولين.. وقد فعلت هذا كله عامدة.. لهذا أريد هذه الميدالية الآن.. ولا أبالي بأية حجج تقال.. إنني مسافر في الصباح..»

ووضعت السماعة...

وفي الطريق إلى دارها (كانت معي سيارة وقتها قبل حادث القرية إياه) رحت أفكر في غيظ.. إن كمية الإيذاء التي سببتها لي هذه المرأة لأعظم من أن أدركها.. تعطيني ميدالية تعرف - أو تعتقد - أنها تسبب لعنة ما. ثم تضيعها ببلاهة.. ثم حين تجدها تقرر فجأة أن تلعب دور المحافظة التي تقدس ذكرى زوجها ولا تسمح للأوغاد - مثلي - بزيارتها بعد العاشرة مساء وهي في بيت أهلها.. وليتها تفتح رأسي لتدرك أنني أفضل مصاحبة سرب من سحالي (البازيليك) على أن أراها مرّة أخرى بوجهها المكتنز السمين المتظاهر بالوقار..

فتح لي أخوها شديد الأهميّة الباب وقبل أن أفتح فمي انطلق في الصراخ:

- «منيرااااااااااااااااااااه!!»

ثم ظهرت هي من الداخل متظاهرة بالخفر والارتباك.. الآن تتظاهر بأن لها سمعة وأنني أسيء لها.. لهذا مددت يدي دون كلام.. فوضعت فيها الميدالية دون كلام هي الأخرى..

سألتها في اشمئزاز وأنا أذب الذباب عني:

- «أين وجدتها؟»

نظرت إلى أسفل إلى حيث كان السفاح الصغير ابنها يرمقني في شك وكراهية وهو يرسم حركات قبيحة بوجهه.. وقالت:

- «كانت في حاجيات (سامح).. لقد وجدها على الأرض فاحتفظ بها.. لكن أخاه الأكبر (فتن) عليه وأخبرني..»

نظرت للطفل.. طبعًا.. هذا شيء متوقّع في هذه الأسرة المزعجة.. لن أندهش لو كان الفقيد يفضل صحبة الذباب على صحبة هؤلاء.. كل هذا ويتكلم عن حياة هادئة و«لقد نلت قدرًا من كل مسرات الكون».. إن للناس أذواقًا غريبة..

المهم أني غادرت المكان والميدالية في جيبي، وقلت لنفسي: على الأقل أنا أمسك بما يمكن أن يكون السبب.. هذا هو الخيط الوحيد لديَّ..

سأسافر وأتحاشى الذباب.. ولدى عودتي سيكون لديَّ وقت كاف للتفكير في هدوء..

☆ ☆ ☆

7 - قارة أخرى..

كانت المشكلة أقل في جامعة (بايلور) بـ (تكساس).. لا أدري إن كان عليَّ أن أتكلم عن هذه الجامعة العريقة، فأرتكب الخطأ الشائع لدى (سومرست موم) في قصصه، حين كان يتكلم عن أماكن وشخصيات لن يكون لها أي دور في القصة بعد ذلك.. حسن.. يمكن القول إن جامعة (بايلور) كانت مجرد مرحلة تمهيدية لما بعدها، لكني أذكر فقط للتسجيل أنّ هذه الجامعة عريقة تعود لعام 1845، ومركزها في (واكو) في (دالاس) التي تقع في شمال شرق ولاية (تكساس)..

إن (دالاس) مدينة كبيرة.. هي ثانية المدن في ولاية (تكساس) بعد (هوستون)، كما أنها ثامنة مدن الولايات المتحدة في ترتيب الحجم.. وتمتاز بعدد لا بأس به من الجامعات والمراكز الثقافية..

لقد فرغت من اعترافي.. الآن يمكنني أن أموت مستريح البال!

أقول من جديد إن المشكلة كانت أخف وطأة هنا..

ربما كانت الإجابة هي أن الذباب أقل، وربما لأنني تصرفت بحذر بالغ.. كنت أتحاشى التنقل على الأقدام، وأغلق زجاج السيارة التي أركبها، وفي الفندق الذي أقيم فيه لم أفتح نافذة واحدة، وهكذا لم أر النور ولا الهواء تقريبًا لمدّة ثلاثة أيام..

قاعة المؤتمرات مكيفة موصدة.. قاعة الطعام مغلقة.. وهي حياة لا تطاق لكن يمكن تحملها لفترة قصيرة..

ثم إني ابتعت من إحدى الصيدليات نوعًا من الدهان الطارد للحشرات كلها، ورائحته عطرية قليلًا.. فحرصت على أن أدهن به كل أجزاء جسمي المكشوفة: الوجه واليدين..

لم أكن خائفًا من الذباب لكن من النظرات الفضولية..

وخطر لي أنني خائف حقًّا من معرفة المدى الذي بلغته المشكلة.. لربما وصلت إلى الذروة التي لا يمكن تصحيحها.. لربما لو خرجت إلى الهواء لوجدت نفسي في ذلك المنظر المريع الذي رأيت به (مختار) في شقته..

لا أريد أن أعرف.. ليس الآن..

من بين كل الأهوال التي رأيتها وسأراها كان هذا أخطرها.. إن حياتك وسط جحافل الذباب التي تقف على كل شيء وتحيل حياتك جحيمًا لأمر مروع حقًّا.. أن تتحلل ببطء وأنت عاجز عن إيجاد

حل.. فيما بعد قرأت لمخرج الرعب الكندي الفظ (ديفيد كروننبرج) تعبيرًا راق لي: إن أشد أهوال الرعب هي تلك المتعلقة بتحلل أجسادنا ذاتها..

طبعًا لا يمكن أن آتي إلى الولايات المتحدة من دون أن أتصل بصديقي العتيد (هاري شيلدون) في (فلوريدا)، الذي كانت لي معه قصص لا بأس بها.. هذا الفتى المندفع الذي يذكرك بأبطال الأفلام.. المستعدين للشجار و(الضرب) في أية لحظة.. وكما قلت ألف مرة من قبل: إن المواطن الأمريكي نفسه شخص لطيف المعشر على الأرجح، حاضر الدعابة يُمكنك أن تحبه بسهولة.. لكن للأمريكيين بعض العادات السيئة حين يحتشدون معًا..

تمنى لي أن أنعم بوقت طيب واعتذر عن المجيء.. الحقيقة أنني كنت في أمس حاجة إلى صديق قديم..

☆ ☆ ☆

انتهى البروفسور الإسرائيلي (ديفيد كيمنسكي) من إلقاء محاضرته.. إنّه رجل قصير القامة أصلع أشكينازي له عينان ضيقتان سامتان وخصلة شعر أسفل ذقنه من طراز (السكسوكة).. وأعترف هنا - من دون تعصب ولا تحيز - أنني لم أقرأ حتى اليوم بحثًا إسرائيليًا بارعًا.. هناك يهود كثيرون مبدعون لكن الصهاينة المتعصبين الذين يذهبون إلى فلسطين ليذبحوا الأطفال، هم على الأرجح بلا موهبة..

إن قشدة الفكر والفن تفضل البقاء حيث هي في أمريكا وأوروبا حيث فرص الحياة والكسب أفضل.. بعضهم يكتفي بمعاونة الصهاينة بالمال أو التعاطف المعنوي، وبعضهم - مثل (أينشتاين) و(شابلن) - استنكر فكرة إسرائيل ذاتها واتهمها بالتعصب والجنون..

بعد المحاضرة كان الرجل يقف وسط مجموعة من مريديه يثرثر ويضحك..

صافحته في حرارة وهنأته على كل هذه العبقرية، وقدمت له نفسي:

- «بروفسور (ريفات إيزميل).. أمي يهودية بولندية لكن أبي من أصول عربية.. لم أر إسرائيل قط..»

- «هذا يفسر ملامحك.. تبدو (منهم) إلى حد كبير.. وهل تتكلم البولندية إذن؟»

- «لا.. كانت العربيّة والإنجليزية هما لغتا التخاطب في بيتنا..»

ثم جرنا الحديث إلى إسرائيل، فراح يحكي لي عن تقدم العلوم بها ومدى الرقي الإنساني الذي بلغته باعتبارها دولة غربية وسط الشرق الأوسط.. واحة من التحضر وسط صحراء بدوية قاحلة..

كانت شفتاي ترجفان انبهارًا.. ورحت أشرب كلامه شربًا..

بعد ربع ساعة كان قد تعب من الثرثرة، فانحنيت وطبعت على ياقة سترته قبلة محبة واحترام:

- «إنني أحيى فيك (آرتز يزرائيل) ذاتها.. الأسطورة التي صارت بفضل رجال مثلك حقيقة..»

ثم بيد مرتجفة حماسًا أخرجت الميدالية من جيبي وقدمتها له:

- «لا أجد شيئًا أقدمه لك إلا هذه.. إنها رخيصة الثمن عظيمة القيمة.. هي آخر ما بقي من أمي بعد المحرقة في (أوشفيتز).. لسوف تكون معك في أمان..»

ارتجف بدوره وأمسك الميدالية التي اشترتها خالة (مختار) له لتكيد لزوجته، ودمعت عيناه تأثرًا، ثم دسها في جيبه وقال:

- «سأحافظ عليها أيها العزيز.. أعدك بذلك..»

حييته وابتعدت في وقار..

أخيرًا تخلصت من الميدالية بطريقة خالية من الدماء.. ولكن هل يختفي الذباب بعد هذا؟

☆ ☆ ☆

في الرابعة صباحًا صحوت من النوم في الفندق، وقلت لنفسي:

- «أنت أحمق.. الطفل المزعج الذي اعتقد أن اسمه كان (سامح).. لقد أخذ الميدالية وأخفاها في حاجياته.. ولو كان موضوع الميدالية صحيحًا لزال الذباب عنك ليطارد الطفل!»

نعم.. أنا أحمق.. ولن تختفي هذه اللعنة..

☆ ☆ ☆

حقًّا لم يختف الذباب!!

حين غادرت الفندق مجربًا المشي الحر، ابتعدت بضعة أمتار، وكان الطقس حارًا إلى حد كبير.. لا غرابة في أن يكون الطقس هنا حارًا، لكن هذا لا يبرر أن أرى كل هذا الذباب.. المارَّة ينظرون لي في دهشة.. فتاة تنظر لي وتهز رأسها.. عاشقان يتوقفان عن الهمس وينظران لي بعيون مفتوحة.

أقف لأجد أن نحو عشرين ذبابة - من المستحيل طبعًا أن تزعم أنني عددتها - تحوم حولي وتتسلق ثيابي، وتمشي على عويناتي.. الأغرب أن الكثير منها يأتي من أماكن لا أعرفها..

ورجل شرطة زنجي يدنو مني في بطء.. لا يعرف هل هذه تهمة يمكن أن يعتقلني بها أم لا.. فقط يقف وينظر لي ونظراتي الحائرة، ثم يمد يده نحوي:

- «أوراقك..»

أخرجت له كل ما كان في جيبي، فنظر إليها نظرة لا تعي شيئًا، وقال:

- «سيدي.. لا أريد أن أكون وقحًا، لكن ربما أفادك حمام سريع الآن!»

هززت رأسي في ارتباك، وانطلقت عائدًا إلى الفندق..

كنت أمشي بسرعة جعلت غيوم الذباب حولي تتبدّد إلى حدٍ ما..

وعلى باب الفندق رأيت ذلك البروفسور (كيمنسكي) واقفًا يثرثر مع فتاة حسناء.. لا يبدو أن ذبابة واحدة تحوم حول هذا الوغد.. رآني فضم كفيه معًا ولوح في الهواء بمرح:

- «الرمز معي! لا تقلق عليه!»

صحت وأنا أجد السير كي لا أضطر للتوقف:

- «لا تتخل عنه أبدًا.. إن روح أمي تناديك!»

فما إن دخلت حجرتي، حتى بحثت عن مبيد الحشرات فأفرغت كمية لا بأس بها في الهواء، وأعدت دهان أطرافي بالدهان الذي يطرد الحشرات..

وارتميت على الفراش مفكرًا..

إنه لمأزق مخيف..

هل كتب عليَّ أن أمضي حياتي وسط سحب مبيد الحشرات حتى أموت بالسرطان، أم أظل وسط الذباب؟

إذن فرضية الميدالية كانت خطأ وكان عليّ أن أتوقع هذا من السيدة (منيرة) التي لا يمكن أن تقدم حلولًا عبقرية لأي شيء.. فقط هي بنت مجموعة من الاستنتاجات الخاطئة التي لا تخلو من غيرة النساء و(العمل) وفكرة الخلاص من اللعنة بنقلها لشخص آخر.. وهي فكرة محببة في وجداننا الجمعي.. ولأسباب كهذه كان مرضي الطاعون في القرون الوسطى يقتحمون بيوت الأصحاء على أساس أن إصابة الأصحاء يمكن أن تشفيهم هم..

فرضية الميدالية خطأ.. إذن لماذا يطاردني الذباب؟ هل أصبت بعدوى ما؟ وهل هناك مرض يسبب هذه الأعراض وقد أصبت به لدى زيارتي الرجل؟

لا أفهم..

حقًّا أنا بحاجة إلى عقل آخر قبل أن أجن...

☆ ☆ ☆

عند السادسة مساء دق جرس الهاتف في حجرتي، فرفعت السماعة..

جاء صوت (البورتر) تقول لي بصوتها المهذب الرتيب:

- «د. (إسماعيل).. هناك مكالمة لك من (نيويورك)..»

ثم جاء الصوت يقول:

- «د. (إسماعيل).. أنا (سام).. (سام كولبي)..»

(سام كولبي)؟ هذا الاسم له رنين يهودي غير مريح.. من هو؟

هنا عاد إلى شريط الذكريات.. ذلك النصاب اليهودي.. الذي كان سبب لقائي بدكتور (لوسيفر) - وهي ليست خدمة جميلة جدًّا كما تلاحظون - والذي جعلني أضل في عوالم (بو) الكابوسية.. اليهودي المرتبك البائس الذي يذكرني بدعابتنا عن فقراء اليهود.. فلا هو خبيث بحيث يملك الثروة والنفوذ، ولا هو بريء طاهر الذيل بحيث يستحق مكانه بين الأخيار..

لكن أن يتصل بي هنا بالذات.. هناك معنى مريب لهذا كله..

- «مرحبًا (كولبي).. هل أجريت جراحة البروستاتا.. بعد؟»

قال في إنهاك:

- «ليس بعد.. لا أثق بجراحي المسالك هنا.. لكن هذا ليس موضوعنا..»

- «إنني أرتجف هلعًا من موضوعنا هذا..»

- «أنا فقط مكلف بإبلاغك بشيء مهم.. هناك.. زميل مخلص - وإن كان غريب الأطوار نوعًا - يدعى (جيمس موهون).. إنّه راغب في لقائك، ولا أعرف السبب.. أرى أن تستقبله جيدًا وتصغي له بانتباه، لأن غضبه ليس بالشيء المحبب للنفس.. ثم إنّه رجل يعرف ما يريد..»

فكرت للحظة.. غريب الأطوار؟ (كولبي) نفسه يرى هذا الرجل غريب الأطوار.. فعليَّ ألا أندهش لو كان القادم بثلاث عيون أو يمشي على الجدران...

- «هل اتصلت لهذا فقط؟ ومن قال لك إنني في الولايات؟ وكيف عرفت الفندق؟»

- «هو!»

ثم وضع سماعة الهاتف...

☆ ☆ ☆

بعد ساعة جاء (جيمس موهون)..
ومن النظرة الأولى عرفت أنه رجل مخيف حقًّا..

☆ ☆ ☆

8 - (موهون) يعرف..

اسمح لي أن أقدم لكم (جيمس موهون)..

يمكنك أن ترى معي أنه رجل فارع القامة يرتدي قميصًا أسود وسترة سوداء وربطة عنق سوداء، فلا يعكر كل هذا السواد إلا قلادة فضية ضخمة تتدلى على صدره.. له نظرات حادة ولحية منمقة تحيط بفمه على طراز (دوجلاس) كما يسميها الشباب.. يلبس حذاء أبيض شاهق البياض مما يذكرك بقتلة المافيا في الثلاثينات.. فلو كان يحمل صندوق كمان يضع فيه بندقية آلية لاكتملت الصورة..

وتوقعت في أية لحظة أن يقول لي:

- «إن الأسرة تريدك.. يبدو أن (الدون) غاضب..»

الحقيقة أن فيه الكثير من د. (لوسيفر) لكني قد قابلت هذا الأخير كثيرًا بحيث لا يمكن أن تختلط.. الأمور على.. فإذا أضفنا المظهر الغريب إلى اسم (موهون) الرهيب الذي لا يمكن أن يكون في شهادة ميلاده، إلى تقديم (كولبي) له.. يمكن القول إن هذا الرجل ساحر أو وسيط أو شيء من هذا القبيل..

قال لي بلهجة تدلّ على أنه أمريكي جدًّا:

- «أعتقد يا بروفسور (إسماعيل) أن عندك فكرة عن قدومي..»

كان صوته قويًا محببًا.. هناك أصوات تشعر أنها تؤكل ولا تسمع..

قلت له وأنا أتأكد من غلق الباب:

- «واضح أن (سام كولبي) صديق مشترك..»

قال في هدوء:

- «أنا (جيمس موهون).. لنقل إنني مهتم بالظواهر الخارقة للطبيعة..»

- «ومن ليس كذلك؟»

قلتها محاولًا إفشاء روح الدعابة.. طبعًا لن يغيب عن ذهن القارئ أنني أصررت على أن يكون اللقاء في غرفتي بالفندق.. هذا هو المكان الوحيد الخالي من الذباب أو الذي أستطيع السيطرة على دخول الذباب إليه..

قال الرجل:

- «سأسمح لنفسي ببعض استنتاجات.. أنت عاجز عن مغادرة الغرفة.. أليس كذلك؟»

قلت في عجب:

- «بلى.. ولكن...»

- «وسأسمح لنفسي بافتراض أن الموضوع يتعلق بهجوم الذباب..»

هنا فقط بدأت أتوتر.. جلست أمامه وفتحت فمي في بلاهة.. ها هو ذا السر العظيم يكشف أولى طبقات الغمام الكثيفة المحيطة به.. أنا متأكد من هذا..

- «ولنفترض أنّ هذا صحيح.. إذن؟»

- «أعتقد أنني أعرف مشكلتك.. وإن كنت لا أزعم أنني أعرف حلّها..»

☆ ☆ ☆

قال (موهون):

- «كنت طيلة حياتي مهتما بأمور شعب (المايا).. لأكون أكثر دقة كنت مهتمًا بأسرارهم الغامضة وسحرهم.. ونحن لسنا بعيدين عن المكسيك على كل حال.. الموطن الأصلي لهذا الشعب الباسل الغامض الذي بلغ ذروة حضارته في القرن السادس قبل الميلاد..

«إن أساطير (المايا) كثيرة وأسرارهم لا تنتهي، تنتظر الإماطة عن لثامها يومًا ما.. وهو ما لن يحدث على الأرجح..

«إلا أنّ هناك أسطورة جذبت انتباهي بشكل ما تتعلق بـ (ملك الذباب).. أو (ري دي موسكاس).. كما يقول القوم هناك بلغتهم الإسبانية طبعًا.. أسطورة حديثة نسبيًا هي..

«هناك في شبه جزيرة (يوكاتين) توجد أطلال مدينة (المايا) العظمي المعروفة باسم (تولوم).. إن ذلك المبنى العتيق الواقف معروف للجميع.. إن اسمه معبد (فريسكو وكاستيللو).. وهو من الآثار المهمة جدًّا في المكسيك.. يُقال إن ملك الذباب موجود هناك.. مدفون هناك.. لكن أين؟ لا أحد يعرف.

«إن ملك الذباب شخصيّة غامضة.. ربما كان ملكًا بالفعل، وربما كان ساحرًا أو طبيبًا ساحرًا.. لا أحد يعرف بالضبط.. فقط نعرف أنه كان موجودًا منذ قرون عديدة، وكان يملك قدرة غير عادية على السيطرة على جحافل الذباب.. تحوم حوله.. تمتثل لأمره.. تهاجم من يريد.. وكان غضب ملك الذباب يعني أن يهاجمك الذباب فلا يترك لك لحظة راحة واحدة.. إنّه عقاب جهنمي لو فكرت في الأمر.. عيناك تلتهبان.. طعامك يفسد.. جلدك يتقرح.. فلا شيء إلا الموت البطيء ينتظرك بعد شهور أو أعوام..

«إن ملك الذباب ساحر لكنه ليس خالدًا، وقد مات.. لا أعرف الطريقة التي استطاع بها القوم أن يدفنوه تحت المعبد.. لكن من عرفوا مكان الدفن لم يظلوا أحياء طويلًا.. يبدو هذا قاسيًا لكن كانت هذه هي الطريقة الوحيدة كي لا يعرف أحد مكان القبر..

«يؤمن القرويون حتى اليوم أن ملك الذباب يجلس هناك تغطيه تلك الأسراب الرهيبة.. ملايين منها.. وأن من يقلق راحته الأبدية ينل غضبه.. يطارده الذباب في كل صوب متى بلغ الأربعين من العمر أو تجاوزها.. ولسن الأربعين سبب مهم هو أن ملك الذباب لقي حتفه في سن الأربعين..

«اليوم يزور الناس المعبد ويلتقطون الصور فيه.. لكن القرويين - المسنين منهم خاصة - لا يجسرون على ذلك.. ويؤمنون أن الحظ العاثر سيجعل أحدهم يكتشف القبر.. عندها لن يستطيع أحد أن ينقذه..»

هنا قاطعت الرجل وقد بدا لي كل هذا القدر من المعلومات أكبر من أن أستطيع ابتلاعه دون أسئلة:

- «لحظة.. القصة تبدو مألوفة.. لكن ماذا تقول عني أنا الذي لم أر المكسيك في حياتي؟»

قال في نوع من نفاد الصبر:

- «لا تعتقد أنني سأنهي القصة دون أن أخبرك ما علاقتك بها..»

وغيّر وضع ساقيه لتصير اليسرى على اليمنى.. كان طرف السروال يرتفع إلى منتصف ساقه فرأيت أنه يلبس حذاء طويل العنق يساعد في إضفاء طابع الغرابة هذا..

واصل السرد:

- «لا أستطيع أن أزعم أنني وسيط جيد.. لكن هناك أشياء غريبة تطاردني منذ زمن.. كان هناك من يأتيني في حالات السبات ليتحدث معي.. لا أعرف من هو.. لا أعرف حتى كيف يبدو.. فقط كنت أشعر بوجود غامض مقبض كأنه الكابوس، وكان يتبادل مع الحديث.. كنت أعرف طيلة الوقت أنه هو ملك الذباب نفسه..

«عرفت منه الكثير عن الظلام.. عن قرون من الوحدة.. عن الذباب الصديق الذي لم يفارقه لحظة.. عن الصمت.. عن الموت.. عن المدنسين..

«نعم.. كان هناك مدنسون.. بالتحديد اثنان منهم.. كانا من وطنك وكانا يحاربان مع الإمبراطور الأخير في حرب لانفع فيها لهما، لكنهما كانا مسخرين..»

كانت هذه أول مرة أسمع فيها معلومة كهذه وقد بدت لي سخيفة جدًّا، لأنني لم أقرأ الفصل الخامس طبعًا، فقلت:

- «هنا نتوقف.. لم يحارب مصري واحد في المكسيك.. هذا لا يتفق مع أبسط القواعد الجغرافية والتاريخية!»

قال في عناد كأنما يريد استكمال القصة سريعًا:

- «كان هناك فلاحان من وطنك عام 1867.. أحدهما كتب عليه أن يموت بلا ذرية والآخر كان مصابًا بمرض عضال، لكنه كان أبًا.. وقد دنّسا القبر عن طريق الخطأ لكن لعنة ملك الذباب لم تتركهما.. لقد ماتا جوعًا أو ظمأً أو مختنقين تحت أطنان الذباب.. لكن اللعنة حلت بالذي له ذرية.. واللعنة تحل بالأكبر من أبنائه وأبناء أبنائه كلما بلغوا سن الأربعين..»

ملت إلى الأمام في غباء محاولًا فهم معني كله، فضحك في نوع من القسوة وقال:

- «هنا نجد نوعًا من الحظ العاثر قابل ملك الذباب أو (الشيء).. إن الابن الأكبر للرجل يموت في مصر في سن الثلاثين.. ثم يموت إبن الابن الأكبر في السابعة والثلاثين.. وهكذا.. كل الأحفاد كانوا ينجبون مبكرًا ويموتون مبكرًا.. حتى ظهر الاستثناء الوحيد.. رجل في الأربعين من عمره يعيش في مصر.. لقد تحركت اللعنة التي انتظرت مائة عام.. وبدأ الهول يحاصر الرجل..

«هنا تدخّل شخص ما بحماقة، وأدت حماقته إلى تعجيل نهاية الرجل الذي جن وقتل نفسه.. تحولت اللعنة لتصيب ذلك الأحمق، الذي منعها من أن تكتمل..

«الأحمق الذي تدخل فيما لا يعنيه..

«الأحمق الذي دفع الرجل من فوق حافة الجنون التي كان يتماسك فوقها..

«الأحمق الذي عرفت أنه الآن في الولايات.. في هذا الفندق بالذات.. وأن (كولبي) يعرفه..

«الأحمق الذي هو أنت يا بروفسور (إسماعيل)..»

☆ ☆ ☆

- «لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف!! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم!!»

☆ ☆ ☆

- «كل شيء بدأ بعد عيد ميلاد زوجي الأربعين.. سألني عن الهدايا التي تلقاها زوجي في...»

☆ ☆ ☆

سألت (موهون) وأنا أرتجف:

- «تريد القول إن (مختار) كان يدفع ثمن خطأ ارتكبه جد له عام 1867؟ وإنني أدفع ثمن محاولتي إنقاذه؟»

- «(مختار)؟ هل كان هذا اسمه؟ بالضبط.. أنت تفهمني جيدًا..»

- «ولو لم أتدخل هل كانت اللعنة ستصيب إبن (مختار) لو بلغ سن الأربعين؟»

بدَّل وضع ساقيه وقال في تؤدة:

- «لا أعرف.. هذا الجزء غامض.. انطباعي هو أن اللعنة تبدأ بالذباب لكنّها لن تنتهي به.. لا أدري حقًّا.. ربما كان (مختار) هو نهاية الحلقة لو لم تحطمها أنت..»

حقًّا هذه خسارة كبرى.. إن الوغد الصغير ابن (مختار) يستحق نهاية كهذه..

- «أنا لم أحطمها.. كلامك يوحي بأنني أقنعت الرجل بالانتحار..»

- «ملك الذباب يرى ذلك، وهذا كاف.. لا توجد محاكمات استئناف هنا لو كنت تفهم ما أعنيه..»

هنا سألت أول سؤال أردت أن أوجهه ومنعني التهذيب:

- «وأنت؟ ماذا تستفيد من إخباري بهذا؟»

نظر لي في حدة وقال:

- «أنا مجبر على طاعته.. لا أخفي عليك أنني أخاف هذا الشيء كثيرًا.. هو طلب مني أن أقابلك.. وأن أخبرك بالمطلوب منك..»

- «وما هو المطلوب مني؟»

- «إنّه يريد أن يراك!»

☆ ☆ ☆

9 - يجب أن تذهب..

- «طلب أن يراني؟»

- «نعم..»

- «ذلك الشيء الذي يزورك؟»

- «نعم..»

- «وهو في المكسيك الآن؟»

- «واضح أنك ذكي حقًّا..»

- «قلت إنك لا تعرف مكانه..»

- «لكنه يعرف مكانك..»

- «ولماذا؟»

- «لا يهم أن تعرف أو أعرف.. المهم أنه هو يعرف..»

- «وماذا لو لم أذهب؟»

- «لن يلومك أحد.. لكنك ستبقى حاملًا هذه اللعنة حتى النهاية المريرة، وصدقني لا أعتقد أنها بعيدة إلى هذا الحد...»

☆ ☆ ☆

كانت بعض الذبابات قد احتشدت في الغرفة لا أدري من أين جاءت.. لاحظتها ولاحظها (موهون).. لا أحاول أن أوحي بشيء لكنني أقسم إنّه ارتجف نوعًا وبدا أكثر عصبية.. هذا الرجل يحتفظ ببعض آدميته..

قلت له باسمًا:

- «لا تخف.. هذا ذباب منزلي عادي من طراز (ماسكا دومستيكا) الوديع.. لاهو ذباب مقابر ولا (تسي تسي) ولا أي شيء.. لقد خطر لي هذا كثيرًا، واصطدت ذبابة فحصتها بالعدسة..»

هزّ رأسه وغمغم:

- «لا تستطيع أن تكون متأكدًا جدًّا.. ولا تستطيع أن تكون حذرًا أكثر مما يجب مهما حاولت..»

وكنت أفهمه.. لهذا تشعر أن الأرض التي زحف عليها الثعبان صارت ملوثة للأبد.. لهذا اعتقد القدماء عندنا أن البرص (بفتح الباء) ينجم عن مرور البرص (بضمها) على جلدك.. إن الخوف من الزواحف والحشرات هو فوبيا أخرى لا تفسير لها، ولا تخضع للمنطق.. فما بالك إذا كان الذباب شيطانيًا أصلًا..

سألت الرجل وأنا أفكر في عمق:

- «أنا لم أذهب إلى المكسيك قط من قبل..»

- «هذه فرصة جيدة لتجرب. ولا تنس أنها على حدود هذه الولاية.. أي أنك تستطيع السفر بالسيارة إذا أردت.. سأرتب لك كل شيء..»

- «ولماذا؟»

- «لأنّه أمرني بهذا وأنا كما قلت أخشاه كثيرًا..»

لم يكن السفر تحت رعاية قاتل المافيا هذا مما يطمئن النفس، لكنه على الأقل شخص مألوف.. الآن صار مألوفًا..

كنت أعرف أنني سأسافر.. السبب هو أن قصته متكاملة منطقية حتى هذه اللحظة.. لا توجد ثغرات.. هذا يعني أنه صادق.. وأنا في ورطة حقيقيّة لا أعرف كيف أتخلص منها.. الآن قد يقدم لي هذا الرجل الحل أو يقربني منه فكيف أرفض؟

- «متى أذهب إذن؟»

- «غدًا صباحًا لو أردت..»

☆ ☆ ☆

في الصباح كنت أتجه إلى المكسيك.. الأمر الذي بدا لي غريبًا.. وتساءلت: ماذا لو لم أكن في (تكساس) أصلًا حين اتصل ذلك (الشيء) بـ (موهون)؟ هل كان سيطالبني بالسفر من مصر إلى المكسيك خصيصًا؟ إذن هذا مسخ من الطراز الذي لا يحاول تضييع وقتي أو جهدي أو مالي.. لقد وجدها فرصة مناسبة لي كى أقابله (بالمرة) ما دمت هنا.. وتكلفة الرحلة ليست باهظة على كل حال لأن المسافة قصيرة..

ماذا أقول لكم عن المكسيك؟

في الحقيقة لم أرها.. أكون كاذبًا لو قلت هذا، لأنني اخترت أن أراها في أعنف فترة من تاريخها الحديث.. وهو شيء معتاد بالنسبة لي على كل حال.. كيف تتصور أن أزور المكسيك في فترة هدوء أو استقرار؟

لقد كانت شوارع العاصمة في ذلك الوقت (لابد أنه كان عام 1969 إذن) تعجّ بمظاهرات الطلبة ضدّ الرئيس (دياز أورداز).. وعلى الأرجح كان هذا جزءًا من ثورة الشباب في العالم كله.. لأن أوروبا كانت تغلي بدورها في هذه السنوات الحاسمة بالذات..

وقد حاول سائق السيارة أن يشرح لي القصة لكني لم أفهم.. كيف يبالي رجل لا يجرؤ على فتح زجاج سيارته خوفًا من الذباب، بأن يعرف سبب ثورة الطلاب؟

إن انطباعنا عن المكسيك دومًا هو الثورات والرجال الذين يلبسون قبعات (السومبريرو) ويحتسون (التاكيلا) ويقذفون القنابل طيلة اليوم..

كان كل مكان متوترًا، وفي كل ركن رجل أمن مستعد لإطلاق الرصاص دون مناقشة.. وقد أسعدني الحظ برؤية مظاهرة كانت الشوارع فيها تشتعل نارًا، ثم ظهرت قوات الشرطة على خيولها وراحت تطلق الرصاص في كل صوب.. وبصعوبة استطاع سائق السيارة أن يبتعد بنا في شارع جانبي قبل أن تصيبنا رصاصة ما..

ولأسباب كهذه كادت الألعاب الأوليمبية التي أقيمت في (مكسيكو سيتي) عام 1968 أن تُلغى..

طبعًا انتهت هذه الاضطرابات عام 1970 بتولي (لويس إيفاريز) منصب رئيس الجمهورية..

يجب أن أقول هنا إن هذه الاضطرابات كانت انعكاسًا خارجيًا لحالتي الشخصية.. كنت أشعر بأن العالم ينتهي بالفعل.. قتال في الخارج وحرب ضروس في الداخل.. كأنما الطلبة يتظاهرون مطالبين بحل مشكلتي مع ملك الذباب هذا..

مشكلتي الشخصية كانت تنغص عليّ كل شيء بحيث فقدت أية قدرة لي على الملاحظة أو الاستنتاج.. وبدا لي أنه لو تبخرت المكسيك كلها فالأمر لا يعنيني كثيرًا..

على كل حال كان انطباعي الأساسي عن البلد أنه كئيب خانق.. ويمكن بسهولة فهم محاولات المكسيكيين الفرار عبر الحدود إلى الحلم الملون باهر الألوان الواقع على حدودهم، والمسمى بالولايات المتحدة.. كأن الحدود هي سد يمنع فيضان الثروة من أن يسيل ليغمر الجانب الجنوبي من الحدود.. أو يمنع فيضان الفقر من أن يغرق الجانب الشمالي منها.. إن الثقافة الإسبانية موجودة في كل مكان، والسبب أن الإسباني السفاح (كورتيز) هو أول من غزا هذا البلد عام 1519 تاركًا وراءه طريقًا طويلًا من الطرق التي تتركها الحضارة.. طريقًا من الأطراف المبتورة والرءوس المقطوعة والبطون المبقورة والعيون المثلومة.. هذا هو ثمن التحضر الباهظ لكن المستعمر الغربي كان يتولى مهمته في صبر وتواضع، وحقًا لم يقتصد الأخ (كورتيز) في الرءوس التي قطعها من أجل التحضر..

أمّا عن رحلتي إلى شبه جزيرة (يوكاتين) فحدث ولا حرج..

إن البلد شديد الوعورة.. عبارة عن منحدر بين سلسلتين من الجبال: (سييرا مادري أوكسيدنتال) وتحدها غربًا و(سييرا مادري أورينتال) وتحدها شرقًا.. إن من عشقوا أفلام رعاة البقر القديمة مثلي يجدون في اسم (سييرا مادري) إثارة خاصة.. المهم أن السلسلتين تلتقيان في سلسلة جبال بركانية اسمها (سييرا مادري دل سور)..

تقع شبه جزيرة (يوكاتين) في الطرف الجنوبي الشرقي من البلاد وهي منخفضة.. وهذا يرحم رئتي قليلًا لحسن الحظ..

يجب أن أذكر هنا أنها هي أول جزء تم اكتشافه من (المكسيك) عام 1517 على يد (فرانسسكو فرناندز دي كوردوبا)..

أخيرًا وصلنا إلى (يوكاتين)..

وكانت أطلال (تولوم) تنتظرنا...

☆ ☆ ☆

10 - تولوم..

لم أكن أعرف حرفًا من الإسبانية..

لهذا كان معي مرشد مكسيكي يجمع بين الإنجليزية والإسبانية.. إنّه يشبه (كانتنفلاس) الممثل المكسيكي الكوميدي فائق الشهرة، وإن كنت أستبعد أن تكونوا رأيتموه في أي فيلم من قبل.

اسمه (إميليو).. هذا كاف على ما أظن.. يبدو إلى أن كل المكسيكيين اسمهم (إيميليو).. فتى نحيل أسمر يلبس صندلًا ويضع على كتفه تلك العباءة التي يسمونها (بانشو)، وله وجنتان بارزتان تميزان جنس الهنود هنا.. كلا.. لا يلبس قبعة وإلا بدا الأمر مبالغًا فيه!

المشكلة هنا هي أنني غير قادر على طلب العون من أحد.. لا أحد على الإطلاق.. أولًا لن يصدقني أحد، ولن يسمحوا لي بالعبث في آثارهم..

أقول إننا وصلنا إلى أطلال (تولوم) الرهيبة قرب الغروب.. وليس هذا الموعد نكاية في النفس كما تفعل أفلام رعب (هامر) حين لا يحلو قتل مصاص الدماء إلا في هذه الساعة بحيث يصير استيقاظه حتميًا.. الفكرة في هذا الموعد أن حركة السياحة تقل جدًّا.. ويخلو الوادي المخيف حول المعبد، من ثم لن يوجه أحد لي أسئلة فضولية..

الذباب يحتشد حولي بشكل مريب، برغم أطنان الدهان طارد الحشرات التي دهنت بها نفسي.. والفتى كان مندهشًا.. هذه المرّة بعدما غادرنا السيارة المغلقة كان مندهشًا..

المعبد ينتظر.. وأنا أتجه إليه في صمت حاملًا.. حقيبتي..

المعبد ينتظر وضوء الغروب الأرجواني يلون كل شيء..

المعبد ينتظر وكذلك الفتى المكسيكي الذي جاء معي، ببساطة لأنّه خائف..

ببساطة لأنني لا أريد شهودًا..

فقط قال كلمة واحدة:

- «ري دي موسكاس!»

لم أطلب أي نوع من الترجمة.. هززت رأسي موافقًا وأشرت له كي يقف حيث هو، واتجهت إلى المعبد.. لم تكن خطواتي شجاعة كخطوات الأبطال، لكنّها كذلك لم تكن خطوات دجاجة مريضة.. إن مشكلتي يجب أن تنتهي الآن أو أموت..

لقد قلت له قبل أن أنصرف:

- «على الأرجح سأعود بعد نصف ساعة.. لكن لو لم أعد انتظر نحو ساعة أخرى ثم انصرف.. انس أنك قابلتني..»

كانت هذه الكلمات الغامضة مما زاده رعبًا وتطيرًا.. ولا أخفي عليك حقيقة أني كنت مستمتعًا بكل هذا الغموض إلى حدٍ ما.. ما زال من الممكن أن تجد طفلًا سخيفًا داخل كهل يوحي بالوقار..

المعبد ينتظر.. وأنا أتجه إليه في صمت حاملًا حقيبتي..

المعبد ينتظر وضوء الغروب الأرجواني قد صار أزرق..

المعبد ينتظر وكذلك أنفاسي..

☆ ☆ ☆

الآن أدخل المعبد القديم..

لم يكن مكانًا مهجورًا أو منسيًا.. لابد أنه كان يعجّ بالسياح منذ ساعتين لا أكثر.. لكنه الآن خال تمامًا، ومن الواضح أن المكسيكيين لا يعينون خفراء لحراسة هذه الأماكن ليلًا..

الحقيبة تتدلى على ظهري، فأخرج منها شيئين: قرص النيتروجلسرين تحسبًا لما لا تحمد عقباه، وكشافًا أهتدي به في هذا الظلام الذي صار دامسًا..

أمشي في طرقات المعبد بين الجدران.. شاعرًا بخيبة أمل.. هذه المعابد لا تمثل ربع قيمة أو جمال معبد (الكرنك) عندنا مثلًا.. ربما كانت المايا حضارة عظمى، لكنهم بالتأكيد لم يكونوا بارعين في هذه الأمور.. هذا المكان لا قيمة له إلا القدم..

ترى متى يناديني الأخ (موسكاس) لو كانت قصة (موهون) صحيحة؟

لم يحدث شيء.. ومن الجلي أنني لو جبت المعبد كله فلن أجد شيئًا..

هكذا رحت أجول كالمجنون.. وقدرت أنه لو طال الأمر أكثر من نصف ساعة فلسوف أعود إلى الأخ (إميليو) وأنسى القصة كلها..

لكن أذني تلاحظ تغيّرًا في طنين الذباب الذي يحوم حولي..

يتعالى.. يتعالى..

ثم يهدأ.. يهدأ..

يتعالى.. يهدأ.. يتعالى..

هنا بدأت في رعب أفهم..

إنّه يمارس معي تلك اللعبة القديمة حين كنا نخبئ شيئًا ما من أحد أصدقائنا، ويدخل هو المكان باحثًا عنه معتمدًا على أزيزنا.. كلما تعالى الأزيز كان معنى هذا أنه أقرب إلى الشيء.. وكلما انخفض كان معنى هذا أنه يبتعد..

رحت أتحرك في حذر معتمدًا على عداد (جايجر) المصنوع من الذباب هذا هنا..

هنا أعلى نقطة للصوت..

إن المكان يقع إلى جوار عمود حجري متآكل..

جثوت على ركبتي وتفحصت الأرض.. كانت عليها طبقة كثيفة من الأتربة والصخور، لكني بين هذه الصخور تمكنت من رؤية المقبض..

يا إله العالمين! هذا صحيح إذن؟

رفعت المقبض بصعوبة، لأنّه من الواضح أنه لم يفتح منذ دهور..

أسلط الكشاف فأرى درجات سلم قديمة.. لا أشك في أن (كارتر) وجد درجات مشابهة في قبر (توت عنخ آمون) وإن كانت بالتأكيد أفضل حالًا.. لم يكن عددها كثيرًا لأن القاع كان على بعد ثلاثة أمتار..

ولما كنت أعرف طالعي جيدًا، فأنا أعرف أنّ هذا الباب ينتظرني كي ينغلق.. هذا ما يحدث معي دومًا..

لهذا بحثت في حقيبتي حتى وجدت الحبل الغليظ، فأخرجته ولاهثًا ربطت طرفه إلى المقبض، والطرف الآخر شددته جيدًا ولففته حول العمود الحجري.. لا بأس.. هكذا لن تكون هناك مفاجآت..

فلنهبط..

☆ ☆ ☆

مقبرة (مايا).. وكهل أحمق أصلع الرأس ينزل فيها وحيدًا.. لو رأيت هذا الكابوس في منامي لسخرت منه.. لكني بالفعل أمارسه الآن..

أسلط الكشاف من حولي.. هنا أرى..

أرى المشهد الكلاسي القديم الذي كنا نراه في صور مقابر (المايا) و(الإزتك).. المومياوات الجالسة في صفوف وقد ضمت أرجلها وأذرعها إلى الرأس.. كأنما رجل يجلس القرفصاء ويسد أذنيه كي لا يسمع.. عشرات منها.. بل مئات.. كأنما تحرس جانبي الممر..

لشد ما تعطى الظلال انطباعًا بالحركة!!

صوبت الكشاف إلى الأرض فرأيت آثار أقدام.. أما الأهم فكان هيكلين عظميين مفتتين.. تناثرت عظامهما في إهمال كأنما سقطا من وضع واقف.. وثمة بندقية عتيقة مغطاة بالغبار إلى جوار أحدهما لا أحتاج إلى دليل سياحي كي أعرف عظام من هذه..

«نعم.. كان هناك مدنسون.. بالتحديد اثنان منهم.. كانا من وطنك وكانا يحاربان مع الإمبراطور الأخير في حرب لا نفع فيها لهما، لكنهما كانا مسخرين..»

هذا هو ما قاله (موهون)، ومن الواضح أنه بارع حقًّا.. أو دقيق جدًّا في نقل ما يسمعه..

كنت قد اتخذت قراري.. أنا لا أحب هذا المكان.. وأعترف أنني أخشى هذه المومياوات كثيرًا.. أنت توافقني على ذلك.. هذه المغامرات لم تخلق ليخوضها واحد ولكن ليخوضها فريق.. أعرف أنّ هذا غير منطقي وغير علمي، وأن المومياوات لا خطر منها، لكن ما ذنبي إذا كان قلبي وساقي لا يستجيبان للمنطق؟ سأرجع الآن بلا مناقشة..

«اقترب أيها الغريب»

من قال هذا؟؟ لا أحد.. وحتّى لو قالها أحد فلن يقولها بالعربية..

«اقترب.. اقترب..»

إنها فكرة تتردد في ذهني.. فكرة مجردة.. لكنّها مدوية كأنما هي صرخة في بهو فارغ..

وأنا لا أحب استعمال كلمة (غريب) هذه لأنهّا بالفعل توحي بالغربة.. توحي بالتعالي الثلجي.. يمكن لهذا الشيء أن يناديني باسمي وهو بالتأكيد يعرفه لكنه غير راغب في هذا القدر من الألفة طبعًا...

وجدت نفسي أمشي كالمخدر إلى تلك القاعة..

القاعة التي يأتي منها النور الخافت..

كراش!

هذه عظمة تهشمت تحت حذائي قطعًا.. لابد أنه ضلع.. ضلع فلاح مصري كان من مائة عام يقف وقفتي هنا، ويفكر ذات أفكاري..

هذه المشاعل..

عشرات منها على الجدران.. وقاعة صغيرة في حجم صالة دارك لو كانت دارك متسعة..

من يشعلها؟ من يعني بها؟

لكنك لا تجد وقتًا للتفكير لأنك تصاب بالهلع من كل أسراب الذباب هذه.. أسراب من كل شكل ولون تحوم حولك وتحاصرك.. لكنك تدرك أنها جميعًا تأتي وتتجه إلى جسم لا يمكن أن تفهم ما هو يجلس في ركن المكان.. يبدو أنّ هذا مقعد مرتفع أو منصة.. مستحيل أن تعرف لأنّه مغطى بطبقة سميكة من الذباب. وتذكرت ما قرأته يومًا عن أنه إذا كتب لذكر وأنثى من الذباب الإنجاب بحرية، ولم يُقض على ذريتهما، فإنّه بعد عامين يكونان قد غطيا الكرة الأرضية كلها بطبقة سمكها سنتيمتر من الذباب.. هذا الذباب واضح أنه ينعم بوقته حقًّا..

مهما كان ذلك الشيء الذي يغطيه الذباب فهو ميت..

لا يتحرك..

☆ ☆ ☆

مددت يدي إلى الحقيبة..

أخرجت زجاجة الكيروسين، وعلى بعد متر رحت أنثر السائل قوي الرائحة على هذا الشيء في الركن، والذي لا أعرف ما هو.. أنثر.. أنثر عليه وعلى الذباب..

فرغت الزجاجة فأخرجت أخرى، ورحت أنثر السائل على الأرض وفي كل مكان..

لو سمعت في هذه اللحظة صوتًا يقول لي: لا تفعل أيها الغريب.. لمت ذعرًا..

لكن هذا لم يحدث... أحمد الله على أنه لم يحدث..

كنت قد وصلت إلى باب القاعة فوقفت هناك أخذت نفسًا عميقًا ثم تناولت أحد المشاعل المعلقة على الجدار، وألقيت به على السائل..

راحت شعلة زرقاء صغيرة تزحف فوق السطح البراق.. الذي بدأ يغلي..

وبعد دقائق كانت الشعلة قد تحولت إلى نيران تغطي على كل شيء..

ابتعدت أكثر بينما الذباب المحترق يتطاير نحوي مغضبًا.. وذلك الشيء في الركن يتحول إلى جذوة وينهار ببطء..

كانت النيران تلقي ضوءها الخافت على طابور المومياوات المتراصة بالخارج، وخطر لي أنها لو كانت مخصصة للحراسة فقد حان الوقت كي تنهض.. ترى هل أتخيّل أم أنها تتحرك فعلًا؟

لكن هذا لم يحدث لحسن الحظ..

يا أحمق.. كف خيالك المريض لحظة.. الموتى لا ينهضون....

اتجهت إلى أسفل الدرج ونظرت لأعلى.. كان المدخل مفتوحًا كما هو..

صعدت في الدرجات المعدودة..

وفي النهاية وجدت نفسي في المعبد، وإن كانت أضواء النيران القادمة من أسفل تدلّ على أن اللهب بلغ ذروة مجده.. لا أعتقد أنه سيغادر القاعة على كل حال ليمسك بالمومياوات.. لا أريد أن أحرق جثة أبدًا حتى لو كانت من (المايا) وإن كنت استثنيت ملك الذباب ذاته لأسباب لا تخفى على أحد..

أغلقت الفتحة ودست عليها جيدًا.. وشعرت كأنما أولد من جديد..

ونظرت لساعتي...

لقد قضيت بالداخل خمسًا وعشرين دقيقة.. هذا معناه أن الفتى ينتظرني بالخارج..

ولكن هل تخلى الذباب عني؟

☆ ☆ ☆

الخـاتمة..

كان يقف هنالك في ضوء القمر..

ولما كان القمر وراءه فقد كان جسده محددًا باللون الأسود بدقة على صفحة السماء بطريقة (السلويت).. فقط ترى حدوده الخارجية..

كلا.. ما كان هذا هو الفتى مرافقي..

☆ ☆ ☆

كان طويل القامة قوي البنيان.. وأدركت أن الأشياء البارزة من رأسه هي على الأرجح قبعة من ريش يضعها هناك..

كان يرفع ذراعيه لأعلى كأنما يستمطر السماء..

ومن الوهلة الأولى أدركت أنه من الأفضل ألا أقترب.. ربما كان من الأفضل أن أرقد على بطني..

أنت تعرف الأشياء غير المريحة حين تراها لكن هل كان يراني؟

كان يضحك بصوت عالٍ.. صوت مدو رهيب.. يتجاوب مع الصدى في الوادي.. ومن عدة أماكن دوّت ضحكات الضباع..

ثم رأيت أن أشياء عديدة تحتشد من حوله.. أشياء مشتعلة صغيرة كأنها فراشات اللهب.. إنها تتجمع عليه.. تقف على كل موضع من جسده..

إنه الذباب..

يفر من المقبرة ليلتف من حوله.. يرقص رقصته المجنونة..

الرجل يضحك.. والضباع تضحك..

ومن المعبد بدأ الدخان يتصاعد ليجعل المشهد ضبابيًا..

ثم - في تودة - ابتعد الرجل نحو الأفق.. وقد صار الذباب يحيط به كأنما هو سحابة كثيفة تحيط بجبل..

والمخيف هنا أن أكثر الذباب كان يحترق ويتهاوى لكنه مصمم على أن يطير في رحلته الأخيرة هذه..

والرجل يبتعد..

☆ ☆ ☆

- «هل حرقت البقايا يا سيدي؟»

جعلني سماع هذه الكلمات أثب مترًا في الهواء، وشعرت بضربات قلبي تختلط ببعضها.. ضربات زائدة.. تسارع فوق بطيني.. إيقاع جيبي.. إيقاع عقدي.. كل اضطرابات ضربات القلب الموجودة في الكتب شعرت بها في هذه اللحظة..

ونظرت للوراء لأجد أن الفتى (إيميليو) على بعد متر مني يتوارى وراء صخرة.. وكان الرعب في عينيه ربما أكثر مني..

قلت له:

- «نعم يا (إميليو).. أنا حرقت بقايا (ملك الذباب)..»

- «كان هذا خطأ يا سيدي..»

وابتلع ريقه وهمس بإنجليزيته العجيبة:

- «هناك رجل له لحية قصيرة ويرتدي بدلة سوداء.. وقف هنا طويلًا بانتظارك على ما يبدو.. وكان عليَّ أن أتوارى في أي مكان.. فجأة اهتزت الأرض نوعًا ثم بدأ دخان قليل يتصاعد من المعبد.. هنا رأيت الرجل يتغير.. أقسم بكل القديسين إنِّه كان يتغير..»

ورسم على صدره الصليب، وأردف:

- «استطالت قامته وانتفشت عضلاته.. ثم راح ينزع ثيابه.. وخيل إلى أنه وضع قبعة من الريش على رأسه.. كان يضع حول صدره وفي معصميه عشرات الحلى.. ثم رأيت الذباب يأتي من كل صوب ليحتشد حوله.. لقد صار (ري دي موسكاس)..

«هنا ظهرت أنت.. لكني لم أستطع إنذارك..»

قلت له همسًا:

- «وكيف عرفت أنني حرقت البقايا؟»

- «يقول أجدادي إن هذا يجعل ملك الذباب يتحرر ليعيش في جسد واحد من الأرضيين.. ومن حظنا الذي كان حسنًا أن أحدًا لم يجد القبر قط.. من يجد القبر تهاجمه اللعنة وأسراب الذباب فلا يجد تحررًا إلا بالموت أو بحرق البقايا.. وهذا يحرر ملك الذباب من جديد..»

نظرت له في غباء.. ثم همست:

- «هل يمكننا أن نعود الآن أم أن المنطقة خطرة؟»

- «أعتقد أن بوسعنا الفرار بشكل ما لو كنا سعيدي الحظ..»

وقد كنا...

☆ ☆ ☆

في أثناء عودتي إلى (تكساس) كنت غارقًا في الأفكار السوداء..

طبعًا لا خلاف على أن الرجل الذي (له لحية قصيرة ويرتدي بذلة سوداء) هو (موهون) ذاته.. وهكذا يكون قد تحول إلى ملك الذباب هو نفسه.. فلماذا جاءني وحكى لي تلك القصة؟ لأنّه كان مكلفًا بأن يتحول إلى الملك الجديد.. وهذا معناه أن الأمر كله كان مقصودًا كي أجد نفسي أمام الجثة عندها هل أحرقها بكامل إرادتي؟ كان الرهان أنني سأفعل وقد فعلت..

يمكن أن نتصور أن اللعنة كما يلي: اللعنة تحل بمن يدنس المقبرة.. ثم أولاده وأحفاده إلى أن يأتي أحدهم إلى المقبرة ويحرق الرفات ويفعل ما عجز عنه الآخرون.. هنا ظهر أحمق يدعى (رفعت إسماعيل) قادم إلى الولايات المتحدة قريبًا.. وهذا الشخص يصلح لينتقل الذباب إليه. الطريقة الوحيدة للخلاص هي أن يزور المعبد.. وأن يحرق البقايا باختياره الخاص ودون توصية من أحد..

هذا هو الخطأ الأعظم الذي يحرر الكابوس من محبسه..

والآن لا أريد أن أفكر في أطلال (تولوم) التي يجول فيها ملك ذباب جديد منتعش.. أهديته أنا للبشريّة دون قصد طبعًا..

ترى هل يجدونه؟ هل يقتلونه؟

لا أعرف ولا أريد أن أعرف..

ما يهمني في القصة كلها هو أنني تحررت من الذباب الذي كان يطاردني، وأنني متعب وبحاجة ماسة إلى العودة إلى داري.. داري البعيدة عن كل هذا، وإن كنت مازلت قلقًا بصدد أجدادي.. من

كانوا وماذا فعلوا في حياتهم بالضبط؟ لو عرف (مختار) أنه دفع ثمن خطأ جد جده الذي مات في معبد بالمكسيك لاتهمني بالجنون..

ترى أية أخطاء على كل منا أن يدفع ثمنها يومًا ما؟

☆ ☆ ☆

كانت هناك رحلة إلى أوروبا قبل أن أعود إلى مصر..

وكانت المقبرة تنتظرني.. هناك مقابر ومقابر.. لكن ما سأحكي لكم عنه أنا (رفعت إسماعيل) هو مقبرة.. وعندما أقول مقبرة فأنا..

ولكن هذه قصة أخرى...

رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـدّمـــة

1 - بعد منتصف الليل..

2 - ملك الذباب..

3 - المقابلة..

4 - تخلص منها..

5 - ري دي موسكاس..

6 - شكوك..

7 - قارة أخرى..

8 - (موهون) يعرف..

9 - يجب أن تذهب..

10 - تولوم..

الخـــاتمة..

Notes

[1←] حقيقة وقد أوردها الأستاذ (محمد حسنين هيكل) في كتابه (من نيويورك إلى كابول).

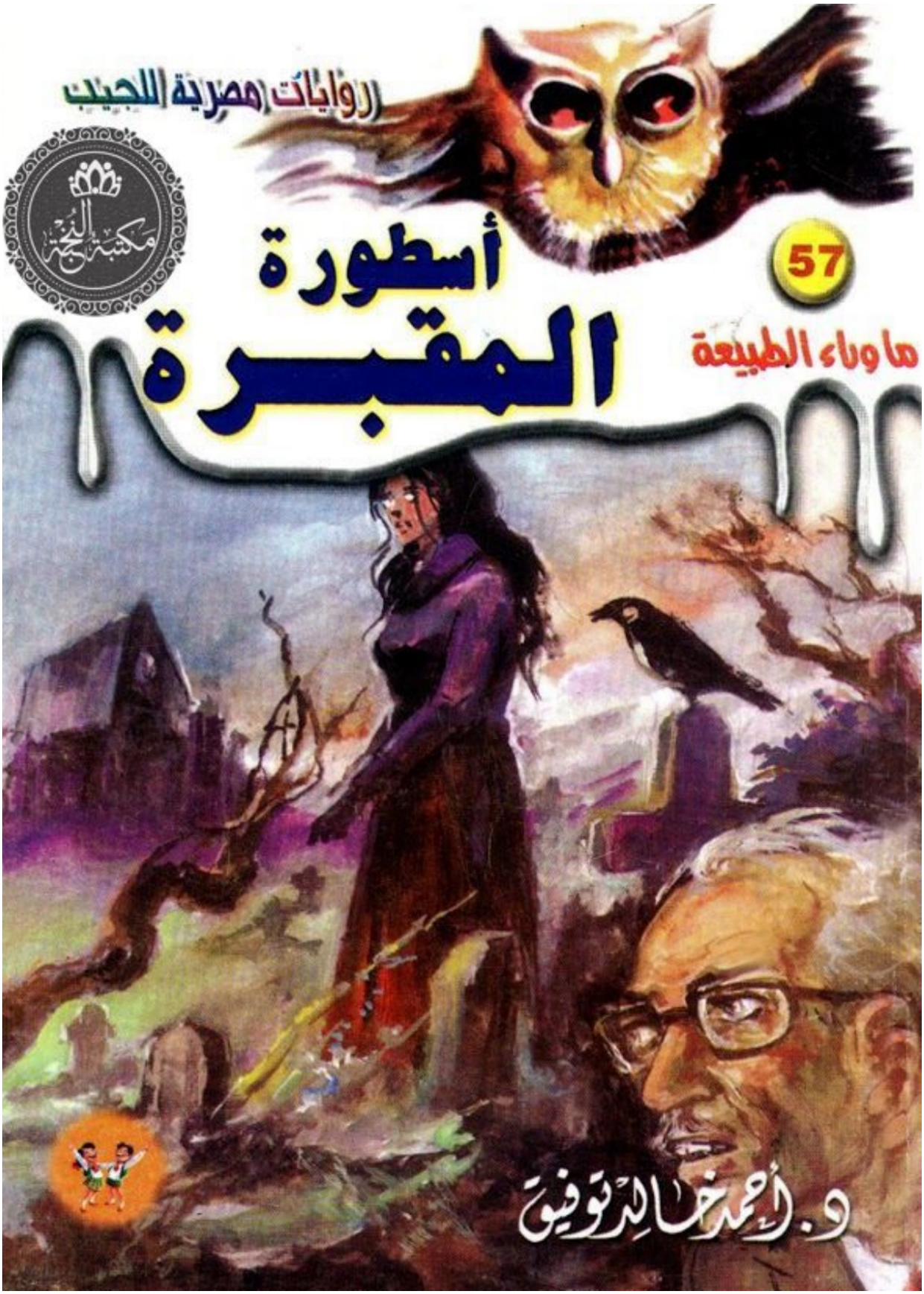
روايات مصرية للجيب

مكتبة النخبة

57

ما وراء الطبيعة

أسطورة المقبرة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

أنتم تعرفون (نجيب السمدوني) فلن أعلق كثيرًا..

يمكننا أن نتجاهل ما يقول كلية، فلم تعد سني ولا صحتي تسمحان لي بأن أحقق في هذا النوع من القصص.. لو كنت أصغر من هذا ثلاثين عامًا، لذهبت إليه وبحثت في كل ركن من داره عن تلك البقع..

بقع دموية على البساط.. كلما غُسلت ظهرت من جديد.. هذه القصة معتادة وقد قابلتها مرارًا.. لقد صرت أغلق بابي كي لا أصطدم بهؤلاء الذين يرون بقعًا دموية على بساطهم.. افتح النافذة يدخل عشرة منهم.. افتح صنبور المياه ينزل لك خمسة منهم..

لكن الجديد في قصة هذا الرجل هي الخادمة الطفلة التي تنام في المطبخ، والتي تدخل زوجته المطبخ ليلًا لتشرب لتفاجأ بأن طولها صار ثلاثة أمتار، حتى إن قدميها تتسلقان الجدار.. دعك من ملامح وجهها التي تذكرها وقتها بأسد عجوز نائم..

أنتم تعرفون (نجيب السمدوني).. لهذا يمكننا أن ننسى هذه القصة وإن اتضح أنها صحيحة فلن نخسر الكثير.. إن الخادمات اللاتي يستطيل جسدهن ليلًا موجودات في كل مكان.. لقد صرت أغلق بابي كي لا أصطدم بهن.. افتح النافذة تدخل عشرة منهن.. افتح صنبور المياه تنزل لك خمس منهن..

ثم القط.. القط الذي يضحك ضحكة بشريّة واضحة.. أنتم تعرفون (نجيب السمدوني).. لهذا دعونا نتجاهل هذا أيضًا.. لا أجد شيئًا مسليًا في هذا كله.. لقد صرت أغلق بابي كي لا أصطدم بالقطط التي تضحك ضحكة بشريّة.. افتح النافذة يدخل لك عشر منها.. افتح صنبور المياه ينزل لك خمس منها..

ولكن دعونا من هذا الهراء ولنبدأ قصتنا..

سأحدثكم عن أسطورة المقبرة..

أعرف أن المقابر المفزعة ليست موضوعًا جديدًا.. ماذا تقولون؟ تقولون إن هذه القصة معتادة وقد قابلتموها مرارًا؟ تقولون إنكم صرتم تغلقون الأبواب.. كي لا تصطدموا بمقبرة مفزعة؟ تقولون إنكم تفتحون النافذة فتدخل عشر منها.. تفتحون صنبور المياه فتنزل لكم خمس منها؟

أنتم تتلفظون بكلمات غريبة على مسمعي، وإنني لعاجز حقًّا عن فهم شباب اليوم..

من أين تأتون بهذه السخرية المقيتة؟

من علمكم تسفيه الأخرين إلى هذا الحد؟

على كل حال، سأحكي لكم القصة.. وأعرف أنكم ستحبونها.. إنها مرعبة.. وأنتم تعرفون أن الرعب يحتاج إلى قدر كبير من الخيال.. إلى سعة صدر وصفاء بال.. يحتاج إلى هدوء.. يحتاج إلى ليل..

هذا هو ما قاله (لافكرافت) الذي اعتبر كاتب قصص الرعب مسكينًا، يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ كي يعترف القارئ بأنه خاف..

تعالوا الآن واصغوا إليّ..

إن (رفعت إسماعيل) العجوز سيحكي لكم قصة أخرى.....

☆ ☆ ☆

العام ١٦٧٥..

المكان: (ليفورد).. البلدة الهادئة في مقاطعة (تيركونل) كما كانت تعرف في ذلك العصر أو (دونيجال) كما نعرفها الآن.. إن الخبراء منكم في أمور أيرلندا يعرفون أن (دونيجال) مقاطعة في أقصى شمال (أيرلندا) تطل على المحيط الأطلسي من جهتين. إنها مقاطعة رعوية وعرة مليئة بالجبال، وتشكل حاليًا جزءًا من جمهورية أيرلندا، وجزءًا مما يعرف بـ (أولستر) التي تتكون من تسع مقاطعات.. و... إن الموضوع معقد جدًّا لهذا لن أدخل في التفاصيل التي تجدونها في أي كتاب جغرافيا أو تاريخ..

الآن يحتشد أهالي البلدة الهادئة التي لا يحدث فيها شيء على الإطلاق.. اليوم من الأيام النادرة التي تحدث فيها أشياء، ولهذا لم يبق واحد في داره..

الحدث: أي حدث غير حرق الساحرة طبعًا؟

في هذه البلدة لا يحدث شيء مثير سوى تعذيب أحد المهرطقين من حين لآخر، أو حرق ساحرة.. وتهمة الساحرة هذه مطاطة تتسع لأية امرأة تعالج المرضى بطريقة غريبة، أو تشاهد عند المستنقعات ليلًا، أو توجد في جسدها علامة ما يفترض أن الشيطان يتركها في زوجاته.. كما قلت سابقًا كل هذه التفاصيل الدقيقة مشروحة في كتاب (مطرقة الساحرات) الرهيب..

عندها يكون الاستجواب.. ثم التعذيب.. والتعذيب أسلوب عبقري في استخلاص الحقائق، يستطيع أن يقنع فأرًا بأن يعترف بقتل الأسد، أو يقنعك بالاعتراف بتزعم عصابات المافيا في الثلاثينات..

كثيرات بريئات هلكن بهذه الطريقة.. أمّا المرأة التي تصمد فكانوا يقيدونها ويلقون بها في الماء.. فإن غرقت اتضح أنها بريئة للأسف، وإن طفت عرف الجميع أنها ساحرة وعندها تعدم!

يجب أن نقول هنا إن (هيلين) أو (رونيل السوداء) - كما يدعونها في البلدة - كانت غريبة الأطوار جدًّا..

أولًا كانت جميلة جدًّا.. كان جمالها من الطراز الذي يخطف الأبصار ويذهل العقول.. هناك أمثلة نادرة جدًّا من هذا الطراز من (الجمال المؤلم).. وكما نعرف يقولون عن المرأة بارعة الجمال إنها (ساحرة).. يسهل إذن تصديق ما يُقال عنها في هذا الصدد..

ثانيًا: لماذا لم تتزوج (رونيل السوداء)؟ لقد هام بها السير (باتريك مليجان) حبًّا وفعل كل ما هو ممكن كي تقبل أن تكون له.. إن السير (مليجان) ليس سيئًا.. ويمكن بسهولة أن تدرك أنه ثري.. فما الذي ترفضه هذه الراعية الفقيرة في رجل كهذا؟

الشباب؟ هذا وارد.. إذن لنر ما سيحدث حين يتقدم إليها أقوى شاب في البلدة وأكثرهم وسامة.. إنه (جون أونيل) الذي لم يقل أحد قط إنّه ليس حلم كل فتاة في البلدة.. لقد كلمها ثم قابل أمها العجوز.. مائة مرة.. لكن الإجابة دومًا هي: لا.. (لا) غير مسببة هي نوع من النقد الانطباعي الذي لا نفع له..

هذه النقطة هي الأخرى لابد أن تثير التساؤل..

ثالثًا: لماذا تلتزم بثياب الحداد السوداء طيلة الوقت؟

رابعًا: ماذا يدفع فتاة حسناء ترتدي الأسود إلى الذهاب إلى المقابر ليلًا وحدها؟ هناك من شاهدوها وهم يقسمون على أنها كانت تمشي بخفة بالغة.. برغم أن طريق المقابر وعر مليء بالمستنقعات.. لم تكن تمشي بل كانت (تسري).. (تنساب).. هكذا يؤكدون.. ومما يزيد الأمور سوءًا أنها تختار الليالي القمرية لهذه الرحلات وإلا ما رأوها أصلًا..

وهكذا أخبر (جيمس) العجوز زوجته.. وزوجته أخبرت (إليوت).. و(إليوت) أخبر (جاك).. و(جاك) أخبر القس.. والقس - الذي تذكر أنه لم ير الفتاة في كنيسته منذ زمن - أخبر السيد (كيليبارون) الحاكم..

وهكذا دارت العجلة الشهيرة..

وقد تمت محاكمة سريعة وإن كان من العسير أن نزعم أنها ظالمة.. إن للفتاة كهفًا قرب المقابر.. وكان هذا الكهف يحوي أشياء تقشعر لها الأبدان، حتى إن القس لم يتحمل نفسه وأفرغ معدته لدى رؤيتها.. كانت الحقيقة التي أدركها الجميع هي أن (رونيل السوداء) كانت تفعل بالأطفال ما تفعله أية ساحرة شريرة أخرى.. كانت تلتهمهم.. لكن غرض الالتهام لم يكن الجوع طبعًا، بل استكمالًا لطقوس أهم..

هذه إذن من المرّات القليلة التي كانت فيها تهمة السحر مؤكدة وعادلة..

والآن جاء اليوم الكبير..

خرج أهل البلدة جميعًا والحماسة تغلبهم كي يروا المشهد الذي لا يجود الزمان بمثله إلا كل عام..

ثم إن رجال الشرطة في البلدة ظهروا وبينهم كانت الفتاة التي بدت شاحبة جدًّا، لكن من الظلم أن نقول إنها كانت خائفة.. كانت ترتدي ثوبًا من الخيش البسيط وقد وضعت يديها في قطعة من الخشب تحيط بعنقها في أسلوب (الفلقة) الشهير، الذي كان يعتقد أنه ضروري لتوبة الساحرات...

كان القاضي (ستيوارت بارنيل) المحترم موجودًا، وعلى المنصة وقف الجلاد جوار العمود الخشبي يضع الحطب والقش..

صعدوا بها الدرجات الخشبية.. وأعلى الدرج كان القس ينتظرها..

سألها في اقتضاب:

- «هل تعلنين توبتك الآن؟»

فالحقيقة أنه لم يكن خبيرًا في هذه الطقوس، بينما كان الأسبان والألمان والفرنسيون علماء فيها.. إن التاريخ يحكي لنا قصصًا نادرة جدًّا عن حرق الساحرات في الجزيرة.. بينما يعجّ بتلك القصص في أسبانيا، كما تشتهر (سيلم) الأمريكية عبر المحيط الأطلسي بسمعة سيئة مماثلة.

كانت الإجراءات مقتضبة وكذا كان رد فعل الفتاة..

نظرت للقس بعينين متسقين تنبعث منهما النيران تقريبًا.. لا يعرف السبب لكن هذه النظرة الحاقدة هزته من الأعماق وجعلته يصمت تمامًا..

ولنفس السبب لم ينظر لها الجلاد كثيرًا وهو يقيدها إلى العمود..

هنا دوّت صرخة ألم من بين الجمع:

- «الرحمة!»

ونظر الناس ليروا الشاب (جون أونيل) الذي انفجر فجأة في بكاء هستيري جدير بالمراهقات، من العسير نوعًا أن ترى حبيبتك في هذا الموقف حتى لو قيل لك إنها ساحرة شريرة..

ويحاول الفتى القوي أن يشق طريقه إلى المنصة، لكن القوم تكأكأوا من حوله، وقيده أشداء الرجال من ذراعيه كي لا يتهور..

على حين نظر الجلاد إلى (بارنيل) ينتظر إشارته..

وكان هذا الأخير لا يتميز برقة القلب.. كان من جلادي الساحرات المعروفين الذين يعطون المحرقة مزية الشك.. من الخير حرق خمس بريئات بدلًا من ترك ساحرة واحدة تعيش..

هز الرجل رأسه في وقار فقذف الجلاد بالشعلة على الخشب..

بدأت الزهرة البرتقالية المخيفة تهمس بأسرارها.. تتوهج.. تضطرم..

وتصاعدت شهقات رعب ممزوج بالنشوة من الواقفين..

هنا فقط تكلمت (رونيل السوداء)..

كان الدخان يتصاعد فلم يتبين القوم ملامحها وإن أكد البعض أنه لم يعد وجهها..

فقط كان الصوت أغلظ مما يمكن تصوره.. صوتًا ذا صدى كأنما ألف شيطان يتكلمون بصوت واحد:

- «أيها البلهاء! لقد حكمت بالويل على أحفادكم! وليكونن انتقامي شنيعًا!! سأعود بعد لـ.. ا.. مـ.. ا.. ئة.. عام.. كي.....»

لقد تلاشى صوتها مع النيران التي راحت تتعالى..

ليس في هذا شيء جديد..

كل الساحرات يهددن أو يقلن نبوءة كريهة ما وهن على المحرقة.. إن الساحرة التي لا تفعل ذلك إنما تجازف بسمعتها.. وقد اعتاد أهل البلدة على هذا..

لكن كانت هذه هي المرّة الأولى التي تلقي الكلمات كل هذا الرعب فيهم..

ولم ينتظر الكثيرون حتى تتلاشى سحب الدخان كما هي العادة ليروا الجسد المتفحم..

لسبب ما عاد أكثرهم إلى داره، ليغلق الباب عليه وعلى أطفاله، ثم يندس تحت الأغطية راجفًا مرددًا الصلوات..

لسبب ما لم يبد الفخر على الجلاد بعدما أتم عمله الرهيب..

لسبب ما لم يحاول أحد الكلام عن هذا اليوم قط..

وفي قبر بلا شاهد في مقبرة المدينة وضعوا بقايا (رونيل السوداء).. ومن يومها نسى الجميع أو تناسوا هذه القصة المؤسفة..

وبعد هذا بثلاثمائة عام زارت المكان امرأة أسكتلندية شقراء..

كان اسمها (ماجي ماكيلوب)...

☆ ☆ ☆

العام ١٩٧٥..

المكان: (ليفورد) في (دونيجال) كما نعرفها الآن و(تيركونل) أو (أودونيل) كما كانت تعرف في الماضي..

في الفترة الأخيرة، يبدو أن حارس المقابر (جيمس إدوود) قد لاحظ عدة أشياء لا تبعث الراحة في النفس.. كل حراس المقابر يلاحظون أشياء غريبة أهمها غالبًا الجثث التي تحاول الخروج من القبور ليلًا.. وليس الرجل استثناء..

لكن ما لاحظه هو كالتالي:

- «في الليالي المقمرة بالذات.. بعضها لا كلها.. أرى عددًا من النساء يمرّ عبر شواهد القبور.. لا أستطيع أن أصفهن بدقة، لكني أعرف جيدًا أنهن مسربلات في عباءات طويلة وأن شعورهن منكوشة ثائرة... لا داعي لأن أقول إنني تجاسرت أكثر مرة ولحقت بهن لكنني كنت أصل إلى هناك فلا أرى أحدًا على الإطلاق... وقد قررت أن أقنع نفسي بأن هذا كله نوع من الهلاوس الليلية.. إن منظر المقابر في ضوء القمر ليثير شتّى أنواع الخيالات في النفس حتى بالنسبة لمن كانت تلك مهنته..

«لكني من جديد أرى هذا المشهد من حين لآخر ومن جديد ألاحظ أنهن يحمن حول قبر بعينه.. يصنعن حوله دوائر وربما يرقصن رقصًا مجنونًا مخيفًا.. الحقيقة أن الأمر كله يذكرني بشيء ما مخيف.. بحفلات سحرية.. بلون من طقوس الخصوبة يمارس هنالك في الظلام.. لا أدري.. لكنني كلما أخبرت واحدًا بهذه القصة ضحك كثيرًا، وقال لي: إننا في أيرلندا يا رجل.. وفي أي قرن؟ في القرن العشرين.. كف عن هذا الهراء..

«أمّا الأذكياء بحق فكانوا يسألونني عن أنواع الكحول التي أشربها في الآونة الأخيرة.. وهم جميعًا يعرفون أنني لا أقرب الخمور.. من السهل أن أكون مجنونًا لكن من المستحيل أن أكون ثملًا..

«إنني أؤمن بأن مقبرة (ليفورد) تحوي سرًا مخيفًا..»

☆ ☆ ☆

ولم تكن (ماجي ماكيلوب) تعرف شيئًا من هذا..

إن لها أسبوعين في أيرلندا وهي ليست زيارتها الأولى.. لكنّها في هذه المرّة كانت على موعد.. (رفعت إسماعيل) قادم لأحد المؤتمرات العلمية في جامعة (دوبلين).. أي أنه سيكون قريبًا جدًّا منها وكانت هي تنوي من البداية أن تقضي بعض أيام في (أيرلندا) لأن هواية التصوير القديمة عادت تغلبها هذه الأيام.. وقد اختارت (دونيجال) كي تزورها، وتقضي الوقت في تصوير القلاع القديمة المهيبة على الساحل هناك.. قلعة (كيلبارون) قرب (باليشانون) وقلاع ملوك (أيرلندا) الأوائل في (لوسويلي)..

كانت (ماجي) قد نشأت في قصر.. الحقيقة أنها كانت قلعة مخيفة إلى حدٍ ما.. ومن الطبيعي أن حياتها فيها وحيدة بعد وفاة أبيها كانت خبرة مرعبة..

لكنها تعلّمت فن (تذوق القلاع) من نشأتها.. وأدمنت ذلك الشعور الغامض الذي هو مزيج من الرعب والرهبة والافتتان وسحر التاريخ والجمال الذي نشعر به حين نرى القلاع..

أشباح؟ إن قلاع اسكتلندا تعجّ بها، وهي لم تتصور قط أنّ هناك بعض الأشباح قد بقيت لأيرلندا.. من المستحيل أن يبقى شبح واحد لشعوب الأرض المسكينة بعدما احتكرتها اسكتلندا جميعًا. إن كثيرًا من المفكرين الساخرين اعتبروا أشباح اسكتلندا موظفين في السياحة هناك.. ولن يكون غريبًا أن تقبض هذه الأشباح راتبها آخر الشهر من الحكومة..

لكن قلاع أيرلندا الرهيبة لها مذاق خاص لم تعتده (ماجي)، وهي لم تعرف لنفسها طيلة حياتها إلا هوايتين محببتين حقًّا: دراسة الفيزياء - لو كانت هذه هواية - والتصوير الفوتوغرافي الذي لم تكن موفقة فيه في البداية، ثم أجادته بشدة وصار يسري في عروقها كالدماء..

الجديد هنا أنها كانت ترى البلاد بعينين بريئتين فيهما بكارة.. هاتان العينان اللتان يملكهما أي طفل وتجعلانك ترى كل شيء بمنظور مختلف كأنك تراه للمرة الأولى..

الحقيقة أن الصغيرة (إليانور ماكدوجلاس) ذات السبعة أعوام طفلة رائعة الجمال.. أضف الشعر الأشقر الطويل حتى الخصر إلى العينين الزرقاوين الواسعتين، تجد أنها دمية حقيقيّة، وكانت تحب (ماجي) بجنون.. السبب الظاهر طبعًا هو أنها قريبتها.. لكن لو أحب كل إنسان أقاربه بهذا الجنون لتحول العالم إلى جنة.. إن (ماجي) برغم ذكائها الخارق وأعوامها التي تجاوزت الأربعين طفلة رائعة الجمال هي الأخرى.. ولا تحتاج إلى مجهود كبير كي تفكر وتضحك وتحلم كالأطفال، وكانت غريزة الأطفال الجهنمية لا تخطئ في هذا الصدد.. دعها تدخل أية قاعة مزدحمة.. تجد الأطفال يتجهون نحوها لاشعوريًا.. دعها تداعب رضيعًا تجده يقرقر ضحكًا، بينما لو داعبته أنا لانفجر في بكاء مجنون حتى يزرقّ لونه ويموت..

(إليانور) إذن في ضيافة (ماجي).. وهي ضيافة كانت (ماجي) تتوق لها من زمن... وهكذا تأخذ ضيفتها الصغيرة في رحلتها تلك إلى أيرلندا، وإن رسمت لها خططًا أكثر طموحًا.. ماذا عن فرنسا؟ ماذا عن إيطاليا؟ بل ماذا عن الشرق الأقصى وربما مصر؟

فقط لو أنّ أهلها سمحوا لها، وهذا مستحيل على كل حال.. ولو أنها تركت لنفسها العنان لاختطفت الطفلة إلى مكان قصي، ويومها لن تراها أمها إلا بعد ما تدفع ثمن التذكرة في كلّ مرّة..

الآن قدمنا لك الأسباب التي دفعت (ماجي) إلى القدوم إلى هذا المكان بالذات..

أما عن سبب ذهابها إلى المقبرة ليلًا فبسيط جدًّا.. إنه القمر.. إنّه مكتمل الليلة، ولك أن تتصور المشهد المهيب للكنيسة العتيقة الواقفة تغلفها الظلال والأشعة الفضية الباردة.. صحيح أن المقابر تقع على مرمى حجر من الكنيسة، لكن من قال إن المقابر لا تصلح لوحة رائعة ذات طابع قوطي محبب؟

كانت الاستعدادات بسيطة.. (بول أوفر) سميك لها والسويتر ذو الكبود للطفلة.. ثم القفازات.. لا غنى عن القفازات.. فيلم حساس يناسب التصوير الليلي مع حامل لا غنى عنه لهذه الصور طويلة التعريض..

وغادرت الفتاتان الخان في التاسعة مساء.

سألتها المسز (بانكروفت) عن سبب خروجها ليلًا، فقالت (ماجي) ضاحكة:

- «بعض صور للكنيسة في ضوء القمر..»

قالت صاحبة الخان ذات الشعر الأبيض المعقوص:

- «ولكن.. ليكن.. أنت ذات حساسية للصور الجيدة..»

- «لقد كففت عن اعتبار نفسي هاوية منذ زمن.. سيأتي يوم تتقاتل فيه الصحف على تعييني..»

- «خذي الحذر إذن من الحفر.. إن بلدتنا وعرة.. ولكن لا.. لابد أن القمر قد جعل الرؤية كأنما هي في النهار.. أنت فاتنة يا عزيزتي..»

وهكذا خرجت (ماجي) مع الطفلة ميممتين وجهيهما شطر المقبرة..

كانت البلدة خالية تمامًا.. البرد والظلام جعلا الجميع يكمنون في ديارهم جوار المدفأة.. وكانت (ماجي) تفضل هذا على كل حال.. إن سكان هذه البلدان الصغيرة يتعاملون مع الكاميرا باعتبارها جسمًا شاذًا هبط من المريخ..

أخيرًا ترى (ماجي) المشهد المهيب الذي وصفناه.. تشهق انبهارًا ثم تنصب الحامل وتعالج سرعة التعريض.. إنها تفضل فتحات الحاجب الضيقة مع سرعة تعريض أطول لأن هذا يجعل الصور حادة نوعًا..

قالت (إليانور) وهي تلتصق بها:

- «فلنسرع.. إن المكان مخيف بحق..»

ابتسمت (ماجي) في رفق.. هي تحب هذه اللحظات حين يشعرون بالخوف ويلتصقون بها كقطط صغيرة عندها تشعر بأنها (هرقل) ذاته.

كليك.. كليك.. كليك.. ثم:

- «فلنغير الزاوية..»

وحملت الحامل على كتفها وباليد الأخرى أمسكت بيد الصغيرة الدافئة في قفازها الصوفي، وراحت تشق طريقها في حذر نحو الغرب محاولة ألا تتعثر في الحفر..

آه! من هذه الزاوية ترى المقابر بوضوح تام..

الشواهد الباردة بما عليها من كلمات صار من العسير قراءتها.. وما بقي عليها من زهور جفت أو ذرتها الريح.. تستحم في الضوء الفضي المصفر قليلًا..

قشعريرة زحفت على سلسلة ظهر (ماجي) لكنّها تجاهلتها.. وبدأت تضبط مجال الرؤية..

- «أنا خائفة..»

- «ليس هنا سوى أحجار.. لا تتوقعي أن تنفتح القبور ويمد لنا الموتى أيديهم الباردة كي...»

وهوت على ساعد الصغيرة بأناملها تعتصره، ورسمت على وجهها نظرة مخيفة ضاحكة، فأطلقت الفتاة صرخة هلع:

- «(ماجيييي): أنا لم أر إنسانًا أخبث منك ولا أشر؟»

- «ستقابلينه يا عزيزتي.. ستقابلينه.. إنّه نائم في مكان ما من إنجلترا الآن.. ولسوف يكون زوجك بعد عشرة أعوام!»

ولسبب ما فكرت في (رفعت).. هل لأن الكلام كان عن الزواج؟ أم هو مشهد المقابر الرهيب؟ أم هي سيرة الخبث والشر؟ لا أعرف طبعًا..

إنه قادم خلال أيام، ولسوف يبهرها بالمزيد من الضمور الجسدي والأمراض المزمنة.. مع هذا الرجل يمرّ العام الواحد كأنه خمسة.. ولن تدهش هذه المرّة لو وجدت أنه فقد عينًا أو ساقًا أو أصيب بالشلل الرعاش.. فقط ستدهش لو مات، لأنّه برهن على قدرة خارقة في أن يظل حيًّا برغم هذا كله..

كليك.. كليك.. كليك.. ثم.. كليك..

ولا بد من كليك هنا أيضًا..

لو أن الصور خرجت كما تراها الآن فهذه أروع مجموعة التقطتها منذ عام..

هنا هتفت الطفلة وهي تلتصق بها أكثر:

- «هناك أشخاص!»

بالفعل كان هناك أشخاص..

لا تستطيع (ماجي) تحديد العدد بالضبط، لكنه يقترب من الخمسة أو الستة.. لمزيد من الدقة اللغويّة خمس أو ست، لأن كل شيء يوحي بأن هذه أشباح نساء..

ثمة شيء ما لا يريح في هاته النسوة..

إنهن مسربلات في عباءات فضفاضة وشعورهن ثائرة.. يمكنها أن ترى أن شعورهن ثائرة برغم أنهن على بعد خمسين مترًا على الأقل..

إنهن يمشين وسط المقابر.. ما الذي يدفع مجموعة من النسوة كي يمشين وسط المقابر ليلًا؟

وبشكل غريزي مدت يدها الهشة تضعها على فم الطفلة، وغاصت في موضعها أكثر.. لحسن الحظ أنها تقف خلف شاهد حجري يسمح لها ببعض الاختباء لا كله..

النسوة يتجهن إلى مكان معين في المقبرة.. يقفن فيما يشبه الدائرة.. إنهن يرسمن شيئًا على الأرض.. ثم يلتففن ويشبكن أيديهن صانعات دائرة بأجسادهن..

إنهن يدرن كأنهن يلعبن لعبة أطفال.. تزداد السرعة.. وطيلة الوقت يرددن شيئًا ما لا يمكن أن تتبينه.. لكنك تشعر به..

هنا فقط خرجت (ماجي) من شبه الغيبوبة التي شلت حركتها، وخطر لها أن ما تراه مهم جدًّا.. وعلى الفور أخرجت عدسة (الزوم) وقامت بتثبيتها إلى الكاميرا، وبدأت تلتقط بعض الصور لهذا الجمع...

شهيق الطفلة يتعالى من فرط إثارة وتوتر.. ولا شك أنها توشك على الفرار في أية لحظة..

النسوة يقمن الآن بإخراج أقفاص صغيرة.. يخرجن ما بها.. الآن فقط تفهم (ماجي) أنّ هذه طقوس سحرية.. يمكنها أن ترى بعين الخيال أن ما رسم على الأرض لن يكون إلا نجمة خماسية.. يمكنها أن ترى بعين الخيال أن ما يخرجنه من تلك الأقفاص حيوانات صغيرة يقمن بذبحها..

ثم بدأ الجنون.. فعلًا الجنون..

رقصات مجنونة لا يمكن وصفها لا بد أن قبائل (البوشمان) لم تقم بمثلها حول النار ليلًا.. تلك الضحكات الرفيعة الماجنة التي تضحك بها الساحرات في السينما..

صوت غراب يدوي من بعيد، فتزداد حماسة الراقصات..

ترى هل تفهم الصغيرة معنى هذا الذي تراه؟ على الأرجح لا.. ولعل هذا من حسن الطالع.. هي فقط خائفة وهذا من حقها...

ولكن ما هذا؟ هل ثمّة قبر يفتح ببطء؟

هل هذا الذي يخرج منه دخان فعلًا؟

لماذا تصلبت النسوة وكففن عن الاحتفال الصاخب؟

وقدرت (ماجي) أن الوقت قد حان كي تجمع حاجياتها وتفر.. لقد رأت الكثير.. هذا المكان يحتاج إلى زيارة صباحية لرؤية ما كانت هاته النسوة يفعلنه..

لكن الآن لا بد من الـ...

ضربة في مؤخرة رأسها فأطلقت صرخة عالية واستدارت.. فقط لترى ذلك الغراب الكريه يفر مبتعدًا.. لا شيء يخيف.. إن الغربان تهاجم الأجسام اللامعة، وقد كانت الكاميرا تلمع في ضوء القمر..

لكن المشكلة هي أن النسوة سمعن الصرخة..

إنهن قد تصلبن..

إنهن يتحركن نحو مصدر الصوت..

وهنا فقط صرخت (ماجي) في الطفلة:

- «فلنفر يا (إليانور)!!»

ولم تكن الطفلة بحاجة إلى شرح، لأنهّا كانت قد انفجرت في البكاء الهستيري..

جذبتها (ماجي) من يدها وانطلقتا تركضان وسط الأراضي الوعرة.. حامل الكاميرا في يد والطفلة في يد.. حفر.. حفر.. وهدة.. حفرة.. حفرة.. صخرة..

ولم تجسر قط على النظر إلى الوراء.. لسوف ينتابها الهلع.. لسوف تتعثر..

لابد من فرار سريع بلا تردد..

وعندما تصل إلى الخان، سيكون هذا الكابوس.. قد انتهى..

لكن هذه كانت - كما نعرف جميعًا - هي البداية..

☆ ☆ ☆

١ - لقاء تأخر..

أنهيت أعمال المؤتمر وصرت حرًا..

لا أزعم هنا أنني أمقت المؤتمرات.. بشكل ما أنا أعتبر نفسي خبير مؤتمرات متمرسًا.. ولا أخفي سرًا إذا قلت إن ملاحقة المؤتمرات عبر العالم هي المتعة الوحيدة لي في الحياة.. أنت تسمع أفكارًا جديدة وتعرف أشياء جديدة وترى أناسًا جديدين طيلة الوقت.. تصوّر شيئًا كهذا بالنسبة لشخص ملول مثلي.. الأمر نوع من المهرجانات العلمية، والأهم أنك لا تتكلف شيئًا تقريبًا.. لأنني أُدعى إلى أكثر هذه المؤتمرات، كأنهم يحتاجون دومًا إلى تعكير مزاجهم بوجود (رفعت إسماعيل) الكئيب.

طبعًا كانت لمؤتمر (دوبلين) هذا مزية مهمّة، هي أنني على أرض (ماجي).. ومعنى هذا أنني سأقابلها بالتأكيد.. وقد عرفت أنها ستكون في (أيرلندا) في هذا الوقت بالذات.. وحددت لي بلدة (ليفورد) في (دونيجال) للقاء.. لم أكن أعرف هذا المكان طبعًا لأنني لست ملكة بريطانيا، لكني عرفت أنها تقع في أقصى شمال البلاد، وتطل على المحيط الأطلسي.. كانت مع (ماجي) طفلة هي قريبتها وقد ضايقني هذا نوعًا، لأنني لا أطيق الأطفال ولا الزهور ولا الربيع كما تعرفون عني، لكن (ماجي) تستحق تضحية صغيرة كهذه..

وجاء اليوم الموعود..

كانت بانتظاري حين بلغت البلدة.. (ماجي) الرقيقة التي تمشي على العشب دون أن تثني منه عودًا واحدًا..

(رفعت) الملول العصبي غريب الأطوار كان يملك عالمًا لم يخط فيه بشري من قبل.. أرض (اللا بشر) لو صح التعبير.. فقط واحدة استطاعت أن تخطو فوق هذه الأرض.. تغزوها.. تغرس فوقها علمها الخاص.. ومنذ ذلك اليوم صرت رجل امرأة واحدة..

أتشاجر.. أفرح.. أفكر.. أخاف.. أطمئن.. لكنّها هناك..

أسافر.. أعود.. أنام.. أصحو.. لكنّها هناك..

وكما يقول (صالح جودت): فأنت المنتهى وهنا المصب..

هل كان هذا في صالحي؟ الحقيقة أنني لا أدري بالضبط.. هذا الحب العتيد الذي أحسبه ولد قبل أن أولد.. ربما بينما المصريون القدماء يحنطون مسلاتهم.. ربما بينما (التي ركس) العملاق يتحرش بـ (برونتوساوروس) وديع قرب المستنقع.. ربما بينما القمر يولد من المحيط الهادي..

هذا الحب قد جعلني عمليًا عاجزًا تمامًا عن ممارسة حياة طبيعية.. جعلني ذئبًا متوحدًا يحيا هنا في مصر، بينما قلبه ينبض هناك في (إنفرنسشاير).. ولعمري ما أطول تلك الدورة الدموية!

لم تتغير.. حقًّا لم تتغير.. إن الأيام تعاملها معاملة غير عادلة.. فبينما تترك كل دقيقة ندية لا تمحى على وجهي، تلتف الأعوام حولها تزيل الغبار المتراكم.. قرر الزمن أن يضع قناعًا ويدخل غرفة الجراحة لبصير جراح تجميل خصوصًا لها..

هذه هي (ماجي).. خمسة وخمسون كيلوجرامًا من السحر والرقة والرقي والمرح.. حساسة كزناد تفجير لغم نازي مدفون تحت رمال العلمين.. كتلة من الأعصاب المرهفة مغطاة بالجلد..

وأنا...

أهيم بها...

☆ ☆ ☆

قالت لي حين رأتني:

«للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستكون ملكي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى...»

وتوقعت أن أكمل العبارة الأخيرة، لكن الروتين هو الروتين.. لقد خنقني التأثر كالعادة..

قالت ضاحكة وهي تقدم لي الطفلة:

- «(إليانور ماكدوجلاس).. المفترض أنها قريبتي لكنّها في الحقيقة شريكتي..»

انحنيت وصافحت الطفلة بشكل رسمي مبالغ فيه، وتأملت ملامحها.. بارعة الجمال كما لابد أن يكون كل ما يمت لـ (ماجي).. هذا باستثنائي طبعًا ما دمت أعتبر أنني أمتّ لها..

- «تشرفنا أيتها الآنسة.. هل سبق لي أن حظيت.. بشرف معرفتك؟»

نظرت لي في فضول بعينيها الزرقاوين الصافيتين وقالت:

- «بالواقع... لا..»

كأنه من الممكن أن ينسى المرء (رفعت إسماعيل) بسهولة!

كان الخان الذي اختارته لنا مريحًا له ذات الطابع البريطاني بل الأيرلندي طبعًا- الودود الذي يذكرك بقصص (أجاثا كريستي).. كانت قد اتخذت هي والطفلة غرفة.. واختارت لي غرفة جميلة لا تطل على شيء على الإطلاق لأنهّا تعرف ذوقي..

قالت للمسز (بانكروفت) صاحبة الخان وهي تقدمني:

- «هذا هو البروفسور (إسماعيل) الذي حجزت له الغرفة رقم (١٢).. مسز (بانكروفت)..»

هززت رأسي متظاهرًا بالرقي، وقلت:

- «تشرفنا..»

كانت امرأة في المائتين من عمرها، لها شعر أبيض ناعم عقصته بعنف بتلك الطريقة التي توحي لك بأن فمها صار في موضع أعلى وأنها لن تستطيع إغلاق جفنيها للأبد.. وكان لها وجه لطيف ملئ بالتجاعيد لكن فيه شيئًا من الخبث بالتأكيد..

قالت لي (ماجي):

- «يُمكنك أن تذهب لغرفتك وتتأهب للعشاء، أو نجلس هنا نتحدث..»

وكان اللوبي لهذا الخان شيئًا أقرب إلى قاعة الجلوس في البنسيونات الصغيرة.. جو حميم دافئ.. ثمّة نار مشتعلة في مدفأة، ومجموعة من الرجال لا يبدو عليهم أنهم من طبقات المجتمع الراقية، لكنهم ليسوا كذلك من طبقة العمال.. كانوا يشربون ويدخنون ويرمقوننا في فضول..

قلت لـ (ماجي) إنني أفضل الجلوس قليلًا.. فهزت رأسها راضية.. الغريب أن (ماجي) هي الشخص الوحيد في الكون الذي أعرف جيدًا أنه يحبّ وجودي ويستمتع به.. فأنا أبصر روحها كما أبصر روحي أنا.. إن أختي تحبني بالتأكيد لكنني أشكل لها ظاهرة تعجز عن فهمها، ولا شك أن وجودي يسبب لها توترًا غريبًا.. (عزت)؟ من المجنون الذي يزعم أن (عزت) يحبّ وجودي؟ إنني أجلب له المصائب في كل لحظة.. لكني لن أبالغ.. بالتأكيد هناك أشخاص كثيرون يحبون وجودي، لكني لا أستطيع أن أزعم هذا بالثقة التي أتكلم بها عن (ماجي)..

قالت لي باسمة وقد أسندت ذقنها على قبضتها وراح كشافاها الأزرقان يتفحصانني:

- «هممم؟ ماذا فعل الزمان بك؟ هل فقدت أشياء أو اكتسبت أشياء؟»

- «أضفت أمراض البروستاتا وتصلب عدسة العين وحصوة كلية صغيرة إلى قائمة أمراضي.. بينما فقدت إصبعين من قدمي..»

تقلص وجهها ذعرًا وهتفت:

- «ماذا؟ إصبعين؟ متى؟»

قلت في لا مبالاة وأنا أحتسي الشيكولاتة الساخنة التي طلبتها لنا:

- «ليلة في ثلاجة الموتى مع وباء يشبه التيفوس.. قضمة صقيع.. أنت تفهمين هذه الأمور!»..

نظرت لي في هلع ثم ارتجفت أهدابها بضحكة تحاول أن تكتمها.. كانت ترغب في التأثر لكن لامبالاتي جعلت الأمر أقرب إلى دعابة:

- «أنت لن تتغير!»

- «وأنت؟ هل تغيرت؟»

قالت وهي تداعب شعر الصغيرة:

- «بمناسبة حضورك.. عندي لك قصة مثيرة حدثت منذ ثلاثة أيام، وأعتقد أنها تنتمي إلى عالمك..»

- «هاتها..»

وهكذا بدأت (ماجي) تحكي لي القصة التي يعرفها الجميع الآن باستثنائي طبعًا...

- «كنت راغبة في تصوير الكنيـ.....»

☆ ☆ ☆

- «.. حتى وصلنا إلى الخان وعرفنا أننا في أمان..»

انتهت القصة، بينما أنا أصغى باهتمام.. وكانت الطفلة بدورها تصغي وقد بدا عليها نوع من الفخر لأنهّا شاركت في هذه المغامرة الليلية..

سألت (ماجي) في توتر:

- «وطبعًا عدت في الصباح إلى نفس البقعة؟»

- «ولم أجد شيئًا غريبًا.. لقد تم تنظيف البقعة بعناية..»

- «ولم تتخيلي ما حدث؟»

- «أوه.. إن ما معي من جرعات عقار الهلوسة قد انتهى للأسف..»

نظرت في عينها بثبات وقلت:

- «وهل فهمت الآن أنك رأيت اجتماعًا للسحرة؟ يقول الأوروبيون إن الغراب الذي يحضر هذه الاجتماعات هو الشيطان ذاته!»

قالت في ضيق:

- «(رفعت).. كف عن هذا السخف.. نحن في القرن العشرين يا بني..»

- «على قدر علمي لم يتوقف الإنسان عن ممارسة السحر منذ فجر التاريخ حتى هذه اللحظة.. لاحظي عدد الجماعات السرية Cult التي تمارس طقوسًا سحرية في أمريكا حتى اليوم.. لاحظي هذا الجمع الغريب بين ذروة التقدم التكنولوجي وممارسة السحر.. لا يوجد ما يمنع وكل خبراتي في الحياة تؤكد هذا.. سواء كان هؤلاء يمزحون أو يأخذون الأمور بجديّة..»

ثم رحت أقدم محاضرة قصيرة عن الموضوع:

- «كان الاعتقاد السائد في القرون الوسطى هو أن السحرة كائنات اجتماعية جدًّا.. ولهذا يجتمعون في أطراف السهول أو الأحراش الموحشة.. ثمّة سمعة سيئة بالذات لجبال (هرتز) شمال ألمانيا.. وتظهر الرسوم أنّ هذه الاحتفالات كانت استعراضًا لأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا في التنكر وتغيير الشكل.. بعض السحرة كانوا يحضرون على أشكال حيوانات غريبة.. وبالطبع لا بد من عصي المكانس التي هي بمثابة بطاقة الدعوة لتلك الحفلات.. ويقولون إن الشيطان كان يحضر هذه الاجتماعات على شكل قط أو - على الأرجح - غراب.. وكان إثبات أن امرأة ما حضرت اجتماعًا كهذا كفيلًا بحرقها في غالبية الأحوال.. لقد أُحرق رجل يدعى (جودفري) عام ١٦١١ لأنّه حضر واحدًا من هذه الاجتماعات دون أن يشارك فيه.. وأحرقت طفلة تدعى (كاترين ناجوي) في فرنسا لأنهّا وصفت شيئًا شبيهًا بهذا..»

هنا نظرت إلى الطفلة وتذكرت أين أنا فابتلعت كلامي.. الحقيقة أنها الآن مؤهلة تمامًا للعقاب لو كانت في القرون الوسطى..

واصلت كلامي:

- «ما رأيته أنت في المقبرة كان اجتماع سحرة.. لا شك في هذا..»..

قالت (ماجي) باسمة:

- «على كل حال لدى ما يثبت أنني لم أكن واهمة.. لقد قمت بتحميض الصور وهي عندي..»

- «جميل.. وهل أبدى ستوديو التحميض إعجابه بها؟»

- «لا أحد يعلق على هذا.. وعلى كل حال لا يمكن فهم ما تدور حوله الصور إلا لو كنت تعرف ما تبحث عنه..»

ثم نهضت وقالت:

- «سأحضرها لك..»

- «بشرط أن يتم ذلك خلسة.. لا أحب أن يلتف حولنا خمسون متحمسًا..»

- «طبعًا..»

وانطلقت تعدو بخفتها المعهودة نحو حجرتها.. لن أصدق أبدًا أنّ هذه الطفلة المرحة تجاوزت الأربعين إلا لو صدقت أنني في العشرين من عمري..

هنا - ما إن ابتعدت (ماجي) - فوجئت بالطفلة الأخرى تهتف بي:

- «يا للروعة!!»

ونظرت إلى حيث أشارت..

وكان ما رأيته يخطف الأنفاس..

☆ ☆ ☆

٢ - حسناء سوداء..

وقفت الفتاة ذات الثياب السوداء أمام مسز (بانكروفت) مستندة إلى (الكاونتر)..

كل شيء فيها كان أسود مثل د. (لوسيفر).. الشعر الأسود المنسدل حتى الكتفين شديد البريق، مما يذكرني بالسطوح المعدنية.. المعطف الأسود الطويل.. التنورة السوداء.. الجوربان الأسودان.. الحذاء طويل الرقبة الذي تتدلى سلسلة ذهبية على طرفه العلوي.. ثياب غالية الثمن توحي بأنها من أصل راق لا شك فيه.. ربما من سلالة إحدى الأسر المالكة في أوروبا.. إنهم تحت كل حجر هنا..

كانت جوارها على الأرض حقيبة، وكان هناك سائق يلبس ثيابًا لا أستطيع شراءها ولو ادخرت راتبي لعشرة أعوام..

سألها باحترام وبتلك اللكنة الأوكسفوردية الخاصّة بأساتذة الجامعات:

- «هل ترغب الآنسة في شيء آخر؟»

قالت بصوت خشن قليلًا قوي النبرات:

- «لا شيء يا (إدموند).. يُمكنك الانصراف ولا تنس الموعد..»

ثم استدارت إلى مسز (بانكروفت) وقالت:

- «بخصوص الغرفة التي حجزتها هاتفيًا..»

كان الأمر الآن أقوى من تحمل العجوز البريطانية الفضولية.. وللحظات بدا أن الأسئلة تزدحم في ذهنها بحيث لا تعرف من أين تبدأ.. الحقيقة أن أسئلة مماثلة كانت تحتشد في ذهني..

من هذه الحسناء؟ ما الذي يدفع مثلها إلى هذا الخان؟ هل لأنّه الوحيد في (ليفورد)؟ وما أهميّة (ليفورد) أصلًا؟ ليست مكانًا سياحيًّا مهمًّا وبالتأكيد لا يوجد.. كثيرون من هواة القلاع هنا.. أنت تفهمني.. طراز هذه الحسناء الثرية تجده حيث تذهب الحسناوات الثريات.. أي مكان غير هذا بالتأكيد..

ثم إن الحسناء أخرجت بعض الأوراق وقالت:

- «مس (بلاك).. (لورين بلاك).. من (شيفيلد)..»

ثم تهجأت الاسم بصوت عالٍ:

- «L.. O.. R.. E.. A.. N.. E»

إذن المرأة كتبت الاسم Lorine كما كنت سأفعل أنا نفسي.. لماذا لا تنطقه الفتاة (لوريان) كما أتوقع؟

ثم دارت محادثة لم أستوعب منها الكثير، لأنني كنت أرمق الجالسين في المكان والذين أرهفوا جميعًا السمع لالتقاط ما يمكن سماعه.. الحقيقة أن دخول الفتاة أحدث توترًا ودهشة لا يختلفان عما لو كان وشق الاستبس هو الذي دخل..

كان هناك عجوز راح يمضغ غليونه.. وشاب التهم المنديل الورقي بدلًا من قطعة الحلوى في طبقه.. وامرأة اتسعت عيناها حتى لا تفوتها شاردة أو واردة.. فضول.. فضول.. وهو ما يقول لي إنني لست مخطئًا في دهشتي.. هذه البلدة لا ترى الغرباء، فإن رأتهم كانوا مثل (ماجي) التي لا تشعر أبدًا بأنها غريبة عنك، وأنا بمظهري الذي يقول بوضوح: لا خطر منه.. إنّه على الأرجح سيموت خلال دقائق..

وجاء صوت العجوز:

- «كم من الوقت تنوين الإقامة هنا؟»

- «ربما بقيت أسبوعين.. لا أعرف بالضبط.. على كل حال سيعود سائقي بعد أسبوعين..»

وهكذا جاء الخادم (ويليام) ليحمل حقيبتها.. وأصدرت له المديرة الأمر: رقم (١٣).. هذا الخان إذن ليس ممن يحذفون الرقم ١٣ من أرقام الغرف منعًا للتشاؤم.. وفي ثقة مشت الحسناء وراءه بينما صوت كعبي الحذاء يحدثان ذلك الصوت المنتظم: تيك.. توك.. تيك.. توك..

أخيرًا عاد مستوى الأدرينالين في دماء الجالسين إلى مستواه الطبيعي..

سألتني الصغيرة في خبث:

- «هي أعجبتك كثيرًا.. أليس كذلك؟»

انحشر شيء ما في حنجرتي، فعالجت ربطة العنق لأريح رقبتي، وقلت:

- «بلى.. بل نعم.. لم تعجبني.. إن.. ما الذي يدفعك لقول كهذا؟»

- «لم ترفع عينيك عنها ثانية!»

وهو كذب واضح وافتراء لأنني قضيت أكثر الوقت أراقب وجوه الجالسين.. لكني قلت لها:

- «إنها غريبة على هذا المكان.. هذا كل شيء..»

هنا كانت (ماجي) قد عادت حاملة مظروفًا.. وجذبت مقعدها لتجلس ثم مدت يدها تحت المنضدة وناولتني الصور..

رحت أتفحصها من تحت المنضدة.. حقًّا كانت صورًا شديدة الإبهام.. هناك نسوة في أوضاع راقصة.. ومنظرهن عامّة ليس مما يبعث الطمأنينة في النفس.. لكن تأثير عدسة الزوم قاتل، مع فترة التعريض الكبيرة التي جعلت الاهتزازات كثيرة..

أعدت لها المظروف وقلت هامسًا:

- «لا يوجد ما يثير الريبة فعلًا.. لكن ربما كان من الأفضل ألا يعرف أحد بأمرها..»

تدخلت الطفلة - كغراب البين - لتعلن أنني كنت معجبًا بالزائرة الحسناء.. وطبعًا كان لا بد أن تعرف مني (ماجي) كل شيء عن تلك الزائرة الحسناء.. حكيت لها كل شيء فقالت:

- «هذا غريب.. لكني مسرورة لأن شيئًا من الحياة مازال ينبض فيك.. إن كل ما تعانيه من أمراض لا يمنعك من أن تكون وغدًا..»

برغم هذا سررت للعصبية التي تكلمت بها.. هذا يعني أن كل شيء على ما يرام.. وما لا تفهمه هذه الحمقاء أنني - فعلًا - أراقب الناس في فضول كمن يراقب نوعًا غريبًا من البكتريا تحت مجهر.. لا انفعالات ولا عواطف من أي نوع.. إلا لو حسبنا أن عالم البكتريا إذ يبتسم وهو ينظر في مجهره، إنما يغازل العصويات التي يراها!

قلت لـ (ماجي) وأنا أنهض:

- «الآن أعتقد أنني في أمس الحاجة إلى قسط من الراحة.. غدًا نبدأ استكشاف هذه البلدة..»

هزت رأسها موافقة.. وابتسمت لي في رقة وهي تضم الطفلة إلى صدرها..

☆ ☆ ☆

تقع غرفتي رقم (١٢) في الطابق الثاني.. ويلاحظ من يجيدون الرياضيات منكم أن الرقم (١٢) ملاصق للرقم (١٣).. لمزيد من الدقة يواجهه.. إذن جارتي هنا هي الأخت (لورين بلاك)... أمّا (ماجي) فغرفتها رقم (٩) في الطابق ذاته..

فتحت الغرفة واتجهت إلى النافذة كعادتي..

كانت موصدة بحيث لا يمكن فتح الزجاج الذي تغطيه ستارة رقيقة.. لكني كنت أستطيع أن أرى من هذا الموضع أجمل مساحة من الفراغ رأيتها في حياتي... لا معالم على الإطلاق ماعدا مرجًا واسعًا يمتد إلى ما شاء الله.. إن (ماجي) تعرف ذوقي بالضبط..

كانت التدفئة تعمل على ما يرام، فبدأت ارتداء منامتي ووضعت حاجياتي في الخزانة.. الحق أنني مرهق فعلًا..

طرقات على الباب.. هذا هو (ويليام) طبعًا فلا بأس أن يراني بالمنامة..

فتحت الباب فأصابني الهلع لأن القادم كان المس بلاك) بالذات.. أولًا أصابني الخجل من مظهري، ثانيًا لا أعرف بالضبط كنه الشيء المخيف في هذه الفتاة حين تراها عن قرب.. إنها جميلة.. ربما هي جميلة أكثر من اللازم أو المقبول.. وهي في هذا.. تشبه جرعة زائدة من السكر تصيبك باضطراب الهضم وربما الغثيان.. ملعقة العسل الأبيض الكبيرة التي كانت أمك ترغمك على شربها برغم أنها (تشحط) في حلقك.. وقدرت أنها في العشرينات من عمرها، وأنها على شيء لا يخفى من القسوة..

قالت بصوتها الخشن العميق:

- «معذرة على التطفل يا سيدي.. لكن الخادم لا يرد على الجرس.. كنت بحاجة إلى عون..»

- «نعم.. نعم.. أي شيء..»

- «نافذة الغرفة غير قابلة للفتح.. كنت بحاجة إلى بعض الهواء النقي..»

- «في هذا البرد؟ لكن.. ليكن.. لحظة حتى أرتدي الروب..»

وطبعًا خجلت من أن أقول لها إنني عاجز عن فتح نافذة حجرتي ذاتها.. الرجال لا يرفضون طلبات من هذا النوع لأنهّا من صميم كرامتهم..

لحقت بها في حجرتها وكانت نسخة طبق الأصل من حجرتي أنا.. اتجهت للنافذة وأمسكت بعارضتها ورفعت لأعلى، وهوب! تدفق الهواء البارد ليلسع صدري...

كانت غير موصدة أصلًا.. لا بأس.. لقد أنقذنا كرامتنا الرجولية ولو بنصر مزيف..

قالت لي في امتنان:

- «شكرًا جزيلًا.. أنا أقدّر هذا.. بالمناسبة.. لا تبدو لي من القارة أصلًا.. لنقل إن ملامحك شرق أوسطية..»

اعتدت دومًا أن أبدو أجنبيًا في كل مكان.. في إفريقيا أنا أبيض جدًّا، وفي أوروبا أنا أسمر جدًّا، وفي آسيا أنا أحمر جدًّا.. على كل حال هذه الفتاة تتمتع بالملاحظة الدقيقة..

- «أنا مصري.. دكتور (إسماعيل).. (رفعت إسماعيل)..»

- «(لورين بلاك).. مس.. كاتبة قصصية محدودة الشهرة.. من (شيفيلد)..»

هكذا بدأت القصة تبدو على شيء من المنطق.. لا يزور هذه الناحية إلا مجنون مثلي و(ماجي) أو كاتب قصصي يريد أن يعيش بيئة قصته.. لعلها تكتب عن قلاع (أيرلندا).. لقد تعودت أشياء كهذه من الكاتبات البريطانيات، حتى إنني أتخيّل أن (أجاثا كريستي) أو (دافني دو موربيه) لم تجلسا قط إلى مكتب في داريهما.. طيلة الوقت هما في فنادق في كل ركن من العالم..

- «أي نوع من القصص تكتبين؟»

- «أشباح!! لا تنس أنك في بريطانيا حيث أحفاد (هنري جيمس).. هنا تجد الرعب البريطاني الذي يلمّح بالخطر لكنك تراه.. يصفونه بأنه (رعب الأشياء التي تتحرك خارج مجال بصرك.. فإذا أدرت وجهك نحوها لم ترها)..»

كاتبة رعب في غرفة جوار (رفعت إسماعيل)! لو تعرف هذه الفتاة أي كنز يقف أمامها الآن! رعب الأشياء التي تتحرك خارج مجال بصرك.. يا سلام! فماذا عن رعب الأشياء التي تقف أمامك، وتعرف عنوان دارك، وتمشي في شقتك ليلًا وتقف جوار فراشك؟

على كل حال لا أنكر أن اسمها له رنين مرعب.. ويبدو أنّ هذا شرط مهم لنجاح كتاب الرعب.

تمنيت لها ليلة طيبة وعدت إلى غرفتي..

ولم يفتني قبل أن أغلق باب غرفتي أن ألاحظ أن موضوع النافذة هذا كان ذريعة.. لو أنّ طفلًا مد يده لفتحها..

هذه الفتاة أرادت أن تفتح اتصالًا معي.. فلماذا؟

أي رجل آخر سيقول إن سحره الرجولي بدأ يعمل.. أما أنا فأعرف نفسي جيدًا..

هناك سر غامض وراء هذه الفتاة.. غامض وآمل ألا يكون مخيفًا كذلك..

☆ ☆ ☆

٣ - أحداث ليلية..

كنت قد غبت تمامًا في ملكوت النوم، حين تصير غير ذي حول ولا قوة.. إنّه الموت بكل تفاصيله ولا شيء إلا إرادة الله التي تجعلني أفتح عيني بعد هذا كله وأتثاءب، بدلًا من أن أبدأ في التصلب الرمي فالتعفن.

طرقات على الباب.. طرقات.. طرقات..

بشكل ما دخلت هذه الطرقات إلى الحلم كعادة أحلام (المنبه)، ثم أفقت فهرعت إلى الباب.. الخان يحترق بالتأكيد، والدم كله احتشد في قدمي فترنحت وقد اسود العالم للحظة..

في النهاية وجدت المفتاح ففتحت، وكان من رأيت هو (ماجي) والطفلة.. كلاهما ممتقع الوجه منكوش الشعر يرتدي الروب..

- «كم الساعة الآن؟»

صاحت (ماجي) دون أن تنتظر حتى أعرف الإجابة:

- «(رفعت)! لقد سُرقت غرفتي!»

يا فتاح يا عليم.. يا رزاق يا كريم! لا أحد يريد أن يتركني أسترد توازني.. وهكذا وجدت نفسي أضع الروب على كتفي، وأثبت العوينات، وألحق بها في غرفتها...

كانت باردة كثلاجة - الغرفة لا (ماجي) - برغم أن جهاز التدفئة يعمل جيدًا.. ولم أستطع أن ألاحظ شيئًا غير عادي أو منفرًا.. لكنّها لم تحك قصتها بعد.. لهذا واصلت الكلام وهي تمرر يدها في شعر الطفلة الأشقر حتى كادت تصيبها بالصلع:

- «أنت تتساءل لم النافذة مفتوحة.. أنا أيضًا أتساءل! لقد نمت مع (إليانور) بعد رحيلك بساعة.. وكانت النافذة موصدة.. هل تفهم؟ موصدة! ثم صحوت شاعرة بأنني موشكة على التجمد.. وجدت أن النافذة مفتوحة.. ووجدت أنّ هناك من عبث في حاجياتي.. لم يختف مال ولا حلي.. فقط الصور اللعينة وكل ما كان معي من أفلام تم تحميضها!»

رحت أحك رأسي محاولًا أن أبعث بعض النشاط في كتلة الهلام تلك:

- «غريب.. وهل.. الكاميرا؟»

- «موجودة!!»

- «هذا غريب..»

وأضفت:

- «هلا أطلقت سراح الطفلة؟ إن شعرها كله قد انتصب بالكهرباء الاستاتيكية.. لسوف تنبعث منها الصواعق حالًا..»

واتجهت إلى النافذة فعالجتها كما فعلت مع تلك التي في غرفة الفتاة.. واختلست نظرة إلى الخارج.. هل هذا الواقف على الشجرة هناك غراب؟ لا.. هذه أوهام.. هناك إفريز يمرّ تحت النافذة بالضبط.. فهمت.. إفريز يمرّ تحت كل نوافذ الطابق.. النوافذ ذات الرقم الفردي مثل ٧ و ٩ و ١١ و١٣ و ١٥..

من هذا الطريق جاء المتسلل الذي لا بد أنه رشيق كالفراشة.. إن نوم (ماجي) ليس عميقًا على الإطلاق ولا يستطيع التسلل جوار فراشها إلا فراشة..

أغلقت النافذة وكانت لينة فعلًا سهلة الإغلاق..

ثم جلست على طرف الفراش ورحت أفكر قليلًا..

قلت لها وأنا أتسلى بهز خفي المتدلي من قدمي التي وضعتها على ركبتي:

- «الأمر واضح ولن نضيع الكثير من الوقت في فهمه.. الصور كانت تمثل خطرًا بالنسبة للبعض في هذه البلدة.. إنها الدليل على أنهم كانوا في المقبرة في تلك الليلة.. هذا سلوك من يريد الصور بأي ثمن..»

تربعت على الأرض المغطاة بالموكيت، وحركت خصلات شعرها الأشقر مفكرة ثم قالت:

- «لكن الصور لم تكن بهذا الوضوح..»

- «بالنسبة لنا.. لكن لو أنّ أحد أهالي البلدة رآها لهتف: ويلي! هذه (جين)!! يا للغرابة! هذه (ماري)! إن من يعرف تلك الوجوه من قبل سيتعرفها على الفور في الصور..»

- «ومن قال لهم إن هذا الفيلم معي؟»

- «أولًا هن رأين فتاة ومعها طفلة تركضان.. والفتاة تحمل حامل كاميرا.. ما كل هذا الذكاء؟ لاحظي أن حامل الكاميرا يستخدم غالبًا لحمل كاميرا، ويندر أن يستعمل لتنظيف الأذن.. ثانيًا: أعرف طريقتك الشهيرة في افتراض أن كل شيء آمن وأنني مصاب بالبارانويا.. بالطبع هناك ألف واحد رأوا هذه الصور معك..»

ظلت تنظر للموكيت كأنما تريد أن تثقبه.. من الغريب أنها في أروع صورها بهذا الشعر المنكوش، وذلك الوجه شبه المنتفخ من النوم.. قالت لي:

- «ومن فعلها؟»

- «أحد سكان الغرف فرديّة الرقم مثل ٧ و٩ و١١ و١٣ و١٥.. أو خادم الغرف لو كانت هناك غرفة خالية.. أو أي واحد من أهل البلدة يمكنه تسلق ماسورة المياه إلى هذا الطابق.. إن الاحتمالات محدودة جدًّا كما ترين!»

- «وماذا ترى؟»

- «أعتقد أنه لم يسرق منك شيء ذو أهميّة بالغة.. صور القلاع يمكن إعادة التقاطها.. لا داعي لإحداث شوشرة لن تقود إلى شيء، ولربما كان إخبار مسز (بانكروفت) هو الحل الأصوب.. هذه النافذة تحتاج إلى تقوية..»

ابتسمت في غموض وقالت:

- «هناك شيء مهم قد سُرق..»

- «وما هو؟»

- «الإحساس بالأمن.. لا أطيق أن أتصور أن متسلل كان في غرفتي، بينما أنا والطفلة نائمتان واهنتان هشتان..»..

نهضت واتجهت إلى الباب، وقبل أن أخرج قلت لها:

- «(ماجي).. هل تتزوجينني؟»

قالت في بساطة وهي تمسك بالباب:

- «لا..»

- «إنني سأحميك من المتسللين الليليين.. على الأقل سأموت أولًا فأمنحك فرصة الفرار..»

- «سأفكر في الأمر..»

☆ ☆ ☆

فرغنا من مشاهدة معالم البلدة، وقد تظاهرت بالحماسة فقط كي أرضيها.. لكني عاجز تمامًا عن الانبهار بمجموعة من القلاع العتيقة تطل على المحيط.. دعك من أنني مصري، حيث نجد أثرًا مهمًا تحت أي حجر بلا أدنى مبالغة.. ألم يكن الملاحون ينتزعون قطعة من معبد (السيرابيوم) كلما احتاجوا إلى بعض الحجر الأبيض؟ ألم يطه البدو عشاء الإيطالي المغامر (بلزوني) على

المومياوات المشتعلة باعتبارها أفضل من الأخشاب؟ كيف أتحمس بعد هذا لقلعة البارون (فلان) والإيرل (علان)؟

في النهاية قادتنا الجولة إلى المقبرة الرهيبة..

إنها مكان يثير من الأفكار أكثرها جموحًا وسوداوية بالفعل..

من هذا المكان ترى الكنيسة من بعيد، وترى مروجًا خضراء تبدو كأن بشريًا لم يمش فيها من قبل..

مشت (ماجي) وسط الشواهد كأنها تعرف بالضبط ما تبحث عنه.. ثم توقفت في موضع ما وهتفت في انتصار:

- «بالضبط هنا..»

كانت تتحدّث عن حفل تلك الليلة..

مشيت إلى حيث وقفت ورحت أتأمل الأرض.. حقًّا لا يوجد أثر لشيءٍ.. لو كانت هناك آثار ما فقد أزيلت بعناية.. توجد بعض آثار الطبشور لكنك لا تستطيع أن ترى شيئًا.. لن تجد نجمة خماسية لو كنت تفكر في هذا..

أما ما لفت نظري هو أنّ هذا المكان قبر... كان هناك شاهد قبر تشابكت عليه الأعشاب والنباتات الشيطانية بحيث صار من المستحيل أن ترى بقعة معقولة من الحجر.. لكن - وهذه نقطة مهمّة - كان العشب ممزقًا في أكثر من موضع، كأنما هناك من كشف هذا الشاهد، ثم أعاد تغطيته..

أزحت العشب بلا رفق.. وكان هناك عدد لا بأس به من الأشواك، لكني كنت ألبس قفازًا..

أخيرًا تمكنت من رؤية الشاهد واضحًا.. كان جليًّا أنه قديم جدًّا.. لكن لا خطأ هنالك.. لا يوجد حرف واحد على الحجر، فلم تكن عوامل التعرية هي السبب..

قلت لها وأنا راكع على ركبة واحدة:

- «هل تفهمين؟ لم يُكتب حرف واحد على هذا الشاهد.. فماذا تستنتجين؟»

قالت في توتر وهي تنفث الدخان الأبيض من فمها:

- «أعتقد أنها كانت من علامات الحرمان الكنسي في القرون الوسطى.. أو ربما صاحب هذا القبر كان على صلة بأعمال.....»

- «كان ساحرًا وأعدم.. لماذا لا تقولينها؟»

- «لأن هذا كلام فارغ..»

- «حسن.. لنقل إنني لا أعرف إن كان ساحرًا أم لا.. لكن المؤكد أن من حوله حسبوه كذلك..»

وساد صمت طويل.. فقط رحت أنظر إلى المقبرة الخالية، والطفلة (إليانور) التي وقفت هنالك في الخارج تنتظرنا.. طبعًا لم يكن من المستحب أن تزور معنا هذا الجزء..

قلت له (ماجي):

- «وهاته النسوة كن يقمن احتفالهن في هذه البقعة بالذات..»

- «نعم..»

- «إنهن يأتين في الليالي المقمرة!»

جاء هذا الصوت من خلفي فأجفلت واستدرت لأرى المتكلم..

كان من الطراز الذي تراه في مراجع علم السموم وقد كتبت تحته (أعراض الكحول المزمن).. سكير بلغة أقرب إلى فهمنا.. كان رث الثياب أحمر الأنف.. في العقد السادس من عمره.. يترنح بشدة..

قال وهو يحاول الوقوف منتصبًا:

- «أنا (جيمس إدوود) حارس هذه المقابر.. هك! ولا داعي.. هك! أن أقول لك إنني أعرف عم تتكلمان.. أعرفه تمامًا..»

لهجة أيرلندية قوية لا يمكن أن تخطئها.. كأنما يقلد شخصًا أيرلنديًا!

تشممت (ماجي) الهواء في اشمئزاز وغمغمت بصوت مسموع:

- «كحول في هذا الوقت!»

صاح الرجل وقد سمع ما قالت:

- «أنا لم أقرب الخمر قط! كلهم يحاول إثبات أنني سكير وأن كل هذه هلاوس.. لكني أعرف ما أقول.. هؤلاء النسوة يأتين عندما يكتمل القمر ليمارسن طقوسًا لا يعلم إلا الله ما هي..»

قلت له في حذر:

- «أنت لا تقترب الكحول؟ لعلك مصاب بخلل في المخيخ إذن؟»

- «الآن أقربها! أقربها كثيرًا! لقد دمرت هذه المقبرة اللعينة أعصابي والمشكلة أن سني لا تسمح لي بالرحيل والبحث عن عمل جديد!»

سألته (ماجي) وهي تدس يديها في جيبي معطفها الطويل:

- «هل تعرف صاحب هذا القبر؟ هذا الشاهد الذي بلا اسم؟»

- «هي! منذ عهد جد جدي ونحن حراس هذه المقابر.. حكى لي جدي شيئًا عن ساحرة دفنت هنا.. ساحرة حرقوها في ساحة البلدة.. هذه القصص كثيرة على كل حال.. هك!»

ثم ابتعد وهو يترنح ويقول كلامًا أيرلنديًا كثيرًا لم أستوعب منه حرفًا..

قالت (ماجي) باسمة بعدما رحل:

- «ما رأيك؟ القصة واضحة ومكتملة.. إن الساحرات يزرن أمهن الروحية..»

- «يبدو الأمر كذلك.. لست من الطراز المتفائل، لكني أعتقد أن القصة انتهت عند هذا الحد..»

هذا خطأ آخر.

أنتم تعرفون أنّ هذا خطأ آخر..

☆ ☆ ☆

٤ - عن (رونيل السوداء)..

في التاسعة مساء جلسنا في قاعة الجلوس نثرثر، والجريدة أمامي لا أفهم عم تتكلم..

إن (ماجي) لم تتغير قط.. قلت هذا مائة مرة وأقوله مرّة أخرى.. دعابات تلقيني من على المقعد ضحكًا، ورقة (تكاد تنبت الزهر في قلب الصخرة الجلمود) على رأي عمنا العبقري (الشابي).. ولربما (طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العتيد) كذلك..

رحت أرمقها وهي تتكلم.. كالعادة لم أع حرفًا مما تقول لأن خواطري تزاحمت.. أصغيت لها أكثر من اللازم حتى لم أعد أفهم شيئًا..

لماذا لا نتزوج؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال ألف مرة، والإجابة تبدو واهية لكنّها الحقيقة.. كل منا يريد أن يبقى الآخر على مسافة كي يظل رمزًا عزيزًا أبدًا.. حين يتحول الآخر إلى معنى..

لكن ما يثير جنوني بصدد (ماجي) هو التفكير في كل الساعات التي تعيشها بعيدًا عني.. كل الأفكار الذكية والدعابات والرقة التي تشعها من حولها، بينما أنا في شقتي الكئيبة أقاسم الأشباح الطعام.. يمضني ذلك الشعور المزمن بأنها (ستنفد).. لن يبقى منها شيء لي لأن مصير الشموس كلها الخمود (الإنتروبي).. لو استطعت لاستوليت على ماضيها وحاضرها وغدها بوضع اليد.. كل الأعوام التي فاتتني وهي طفلة، وكل الأعوام التي ستفوتني حين أختفي في القبر.. كل هذا يجب احتكاره.. ربما لو كان هناك محام بارع لاستطاع أن...

- «(رفعت)! أنت لا ترفع عينيك عنها!»

تبًّا لكنّ من ظالمات! أنا أرتدي عوينات القراءة ولا أرى أبعد من متر أو أقل.. ثم إنني غارق في التفكير فيك وبرغم هذا...

- «لا أعرف عمن تتكلمين..»

- «تلك المرأة السوداء.. نزيلة أمس.. طبعًا..»

هنا فقط فهمت عمن تتكلم، وبدلت العوينات عوينات المسافات كي أرى أفضل.. كانت تلك الأنسة جالسة إلى منضدة مجاورة تشرب الشاي وتطالع الجريدة مثلي.. رفعت عينها فرأتني فهزت رأسها في رقة، وهتفت:

- «عمت مساء يا دكتور.. صارت نافذة غرفتي سلسة.. شكرًا لك!»

همست (ماجي) بصوت كالفحيح:

- «نافذة غرفتها؟ متى وكيف؟»

قلت وأنا أبدل العوينات:

- «نافذة غرفتها كانت متيبسة.. وقمت بفتحها لها..»

- «ومنذ متى تجيد فتح النوافذ؟ ألاحظ أن فتح الجريدة قد أصابك بنوبة قلبيّة..»

في هذه اللحظة دخل المكان شاب على درجة من الوسامة.. كان فارع القامة قويًا يبدو أنه خلق ليمثل أفلام رعاة البقر مع (جاري كوبر) أو (جون واين).. حين كان أبطال الأفلام يوجهون لكمات قوية إلى فك أعدائهم، قبل أن يظهر اختراع الركلات.

وتصايح الجالسون:

- «قد عاد (أونيل)!»

عاد؟ أين كان إذن؟

بدأ الحوار الأيرلندي الذي أقنعني بالفعل أن الأيرلندية لغة لا علاقة لها بالإنجليزية.. حين يتحدث هؤلاء القوم مع بعضهم يأخذون راحتهم ويستحيل عليك فهم حرف واحد، بينما حين يكلمونك يحرصون على جعل كلامهم مفهومًا لك.. نفس الظاهرة تلاحظها مع الأسكتلنديين.. ومع رعاع لندن حين يستعملون لهجة (الكوكني)..

قالت (ماجي):

- «هذا الفتى كان في (دوبلين) يجرب حظه في التمثيل مع فرقة مسرحيّة ما..»

- «سينجح لوكان الدور المطلوب هو باب مخزن..»

ثم إن الفتى نظر نظرة عابرة إلى الفتاة السوداء الجالسة وجدها.. رأيته يترك المحيطين به ويتجه نحوها.. يقف أمامها.. يتكلم معها في لباقة والفتاة تبتسم ثم تضحك.. تشير إليه كي يجلس.. هذه الفتاة أرستقراطية لكنّها ذات ميول بروليتارية لا شك فيها.. فالفتى لا يبدو من طبقتها على الإطلاق..

وقف رجل مرح جوار منضدتنا وقال:

- «(ويليام أونيل).. إن الفتى يعرف كيف يروق للنساء..»

ثم مد يده لي مصافحًا وقال:

- «باتريك بارنيل).. من أعيان البلدة.. بمعنى آخر أنا عاطل بالوراثة...»

نظرت له (ماجي) في فضول وهتفت كمن دق الاسم جرسًا في رأسه:

- «أنت...»

- «نعم.. من أسرة (بارنيل).. وهي أسرة اشتهرت في سلك القضاء.. إننا علامة على هذه البلدة.. لكنني لم أدرس القانون أو بمعنى آخر لم أستكمل دراسته..»

دعوته للجلوس فشد مقعدًا وجلس، ومد يده يداعب شعر (إليانور).. لن أندهش لو عادت الطفلة لأمها صلعاء تمامًا بعد هذه الرحلة.. لسبب ما يفترض الجميع أنها كلب (بلاك جاكت) يجب المسح على رأسه.

بعدما تم التعارف قال لي:

- «لا تؤاخذنا.. نحن الأيرلنديين قوم حارو العواطف مرحون، ولسنا ثقيلي الظل منشين كالإنجليز.. يقولون إننا سريعو الغضب ميالون للشجار.. هذا صحيح.. لكن هذا يدلك أكثر على طيبة قلوبنا..»..

وأشار إلى الجالسين حولنا وبدأ يشرح لي:

- «كل واحد من الجالسين هنا لم يترك البلدة قط.. كل واحد يعرف أجداده وأجداد الآخرين.. يمكنك أن ترى الجميع هنا لأن هذا الخان أقرب إلى النادي.. هل ترى هذا الرجل المتأنق كث الحاجبين؟ إنه السير (جون مليجان) سليل أسرة (مليجان) الأرستقراطية.. كانوا دومًا أكثر الناس ثراء في هذه البلدة.. هل ترى هذا العجوز البدين الذي ينظر في ساعة الصديري؟ إنّه آخر أحفاد (كيليبارون) الذين حكموا هذه البلاد في عصر الإقطاع.. أنت رأيت قلعتهم.. لكنه لا يعيش هناك.. هذا الذي يحتسي القهوة هو القس (كيرباتريك).. وهو من أسرة قساوسة لا تدري من أين بدأت.. ربما منذ دخول المسيحية إلى أيرلندا..»

قلت مبتسمًا في خبث:

- «يبدو أن الزمن لا يتغير هنا.. لو كان في هذه القاعة خبير قنابل ذرية، فلا شك أنك ستقول إن جده كان خبير قنابل نوويّة في القرن الخامس..»

- «هو ما تقول.. هو ما تقول..»

هنا مالت (ماجي) عليه وسألته السؤال الذي كنت سأسأله بنفسي:

- «اليوم وجدنا قبرًا ليس على شاهده كتابة.. لقد أثار هذا فضولنا.. هل تعرف هذه القصة؟»

قطب للحظة كأنما يتذكر ثم هتف في مرح:

- «آه! يا للغرابة! (رونيل السوداء)!! كنت قد نسيت هذه القصة تمامًا!!»

هنا دوى صوت تهشّم الزجاج!!

☆ ☆ ☆

قالت (لورين) بصوتها الخشن نوعًا:

- «آسفة.. سأدفع ثمن ما هشمت..»

قالت مسز (بانكروفت) وهي تجمع بقايا براد الشاي الخزفي بالمكنسة:

- «لا عليك.. هذه أشياء تحدث لأي واحد..»

وقال الشاب في شهامة وهو يجفف مفرش المائدة:

- «إن مسز (بانكروفت) تعرفني.. سوف أسوّي الأمر فلا تقلقي..»

راح مرافقنا السيد (بارنيل) ينظر إلى الفتاة في فضول، ولاحظت نظراته بدورها فنظرت له في حدة لا شك فيها.. ثم التفت لي وتساءل:

- «ما زلت لا أفهم سبب وجودها هنا..»

- «كاتبة قصصية هي.. أنت تعرف هؤلاء الكتاب..»

- «قلت إن اسمها (لورين)؟ غريب.. ليكن.. والآن أكمل قصتي.. أين كنا؟ آه.. هل تعرف أن (رونيل السوداء) هذه اتهمت بالسحر، وكان القاضي الذي حكم عليها بالحرق هو جدي القاضي (ستيوارت بارنيل) المحترم؟ كان صارمًا يختلف كثيرًا عن أحفاده، وقد أعدم ساحرات كثيرات برغم أنّ هذه القصص نادرة في إنجلترا.. لسنا في إسبانيا أو فرنسا..»

دخل المكان رجل يوحي بعدم الكفاءة.. لو كان سباكًا فهو خائب، ولو كان طبيبًا فهو غبي، ولو كان...

- «هذا رئيس الشرطة (آرثر بيرك).. إنّه لا يعمل شيئًا على الإطلاق وراتبه يناسب ما يعمله بالفعل..»

هذا رئيس شرطة! في بلدة هادئة مسالمة كهذه يكون هذا الرجل كحارس المرمى الذي لم يختبر.. لكنني أعرف نتائج عمله جيدًا من شاربه الكث المتهدل ونظرة عينية الرخوة، وثيابه الزرية..

ثم إن الرجل - (بارنيل) - راح يحكي لنا ما أعتقد أنك قرأت ملخصه في بداية الكتيب.. هناك تفاصيل معينة أخرى أبقيها لنفسي، وتفاصيل نسيتها، وتفاصيل يحسن أن أنساها..

ظللنا نتحدث طويلًا جدًّا حتى إن الطفلة احمرت عيناها، ثم وضعت رأسها الأشقر الصغير على كتف (ماجي) وراحت تغط.. أعترف أنني إن كنت أكره الأطفال فأنا أحبهم نائمين.. إنهم يبدون ملائكة بالفعل يختلفون تمامًا عن الشياطين التي يكونونها وهم متيقظون.. وقالت (ماجي) في رفق:

- «سأضعها في الفراش ثم أعود..»

وأسندت الطفلة متحاملة حتى تصل بها إلى الغرفة..

نهض القس أولًا وحيانا جميعًا في رصانة، ثم اتجه إلى الباب..

في هذه الأثناء بدا أن صداقة حقيقيّة انعقدت بين الفتى (أونيل) وتلك الأرستقراطية..

رأيتهما ينهضان وهما يواصلان حديثًا ضاحكًا هامسًا، ثم اتجها إلى الباب بدورهما.. ونظر (إليوت) من وراء كتفه إلى الرجال نظرة من طراز (إياكم - أن - تتناولوا - سيرتنا - بالسوء - وإلا - الويل - لكم).. فخفض الجميع عيونهم إلى أكوابهم..

لكن ما إن خرج حتى هتف (باتريك بارنيل):

- «بارع هذا الفتى بحق!»

وغمغم أحدهم في ضيق:

- «إنهن منطلقات في (شيفيلد) ولسن مثل نسائنا اللواتي يحلقن ذقونهن يوميًا..»

ثم ساد الصمت لأن (ماجي) قد عادت، وهي تفهم الإنجليزية لو كنت تدرك هذا!

ثم بدأ أكثر الموجودين في الانصراف.. هنا دوى صوت الغراب..

تبادلنا النظرات.. لم يكن التأثير العام مريحًا، لولا أن قطع (بارنيل) الصمت بترديد مقطع من قصيدة (بو) الشهيرة (الغراب)..

- «غربان هنا؟ لم أسمع أحدها هنا قط..»

- «هذه الأشياء تحدث..»

وحياني الرجل ونهض.. بينما جلست مع (ماجي) لمدّة ساعة أخرى..

هناك دائمًا تلك اللحظة المؤسفة التي تدرك فيها حقيقة أنك لن تظل هنا للأبد.. لا بد من كلمة (مساء الخير).. ثم تصعد إلى حجرتك ثملًا بالأحلام.. تترنح في صعود الدرج، وتنزلق قدمك.. تدخل غرفتك ورأسك ينبض بأشياء كثيرة إلى حد أنك لا تعرف فيم كنت تفكر على الإطلاق..

أعرف هذه الأعراض جيدًا..

وفي الصباح عرفنا نبأ موت الضحيّة الأولى..

☆ ☆ ☆

٥ - وتهاوى السد..

لم يكن هناك الكثير مما يُقال..

لم يعرف أحد بنبأ الوفاة إلا في السابعة صباحًا حين جاء بائع الجرائد إلى الخان، وكان معتادًا على أن يجتاز الزقاق المجاور.. هذا ممر لا يهواه الكثيرون لأنّه قذر، لكن الفتى كان يحبه لأنّه يختصر الكثير من الوقت...

وكانت جثة القس ممددة على الأرض، ويبدو أنه لم يتعذب كثيرًا لأن الضربة التي هشمت رأسه من الخلف فعلت كل شيء في الوقت ذاته..

طبعا أصيب الفتى بالهستيريا، وركض إلى الخان وهو يولول ويصرخ.. يصرخ ويولول.. وكانت هذه الضوضاء هي ما أيقظنا من سباتنا..

تحول المكان إلى خلية نحل.. فهذه البلدة لم ترَ حدثًا غير تقليدي ربما منذ حرق (رونيل السوداء).. وجاء رجل الشرطة غير الكفء (آرثر بيرك) وقد بدا عليه ارتباك شديد.. هو لا يعرف كيف يبدأ..

راح يسأل هذا ويسأل ذاك ويسجل أشياء في دفتره، لكنه كان عاجزًا عن تجميع أفكاره..

المشكلة هي أنه كان جالسًا فعلًا عندما غادر القس الخان.. أي أنه يعتبر واحدًا من آخر من رأوه.. والسؤال هنا هو: من يكره القس إلى حد ضربه بمطرقة على مؤخرة رأسه؟

- «كيس رمل! ليس مطرقة بل كيس رمل! لا تنس أننا في إنجلترا بلد (أجاثا كريستي) حيث يحبون القتل بكيس رمل ملئ.. أو قطعة ثلج سرعان ما تذوب جوار الضحيّة ليختفي سلاح الجريمة!»

قالتها (ماجي) في شيء من السخرية المريرة ونحن جالسون إلى مائدة الإفطار.. ثم أضافت:

- «أنت هنا! الواقع أنني بدأت أتساءل عن الكارثة ولماذا لم تحدث!»

- «هذا غير عادل..»

جاء (بيرك) وطلب قدحًا من الشاي، ثم اتجه إلى حيث جلسنا إلى المنضدة، فقال:

- «معذرة أيها السيدان.. الحقيقة أنني يجب أن أثقل عليكما بالأسئلة لأنكما غريبان في هذه البلدة..»

قلت له باسمًا:

- «هذا من حقك يا سيدي.. لكن لاحظ أننا كنا جالسين أمامك.. ثم صعد كل منا إلى حجرته أمامك أيضًا.. هل غادر أحدنا الخان ليلًا؟»

- «لا.. مسز (بانكروفت) تقول لا.. لقد تأكدت من هذا..»

وداعب شاربه في حنكة بوليسية ثم أضاف:

- «هناك تلك الفتاة من (شيفيلد).. لكن (أونيل) لم يتركها لحظة.. وقد عادت إلى الخان بعد ساعة.. أنا أثق بـ (أونيل) طبعًا..»..

قلت له وأنا أرشف القهوة:

- «أعتقد أنك بحاجة إلى آخرين.. (سكوتلاند يارد) أو شيء من هذا القبيل..»

- «هناك فريق جنائي قادم اليوم.. لكن من واجبي أن آخذ بعض البيانات..»

وبالفعل جاء بعض السادة شديدي الأهميّة عند الظهيرة.. كانوا يرتدون المعاطف الخاكية ويرمقوننا في شك، ومعهم عربة إسعاف وضعوا فيها الجثة، ثم راحوا يستجوبون الجميع ويعرفون كل شيء..

في النهاية - عندما اقترب المساء - نظروا لنا في كراهية ثم انطلقت سياراتهم عائدة إلى حيث جاءت.. إلى أين؟ إلى المكان الذي يأتي منه الرجال شديدو الأهميّة الذين يرتدون المعاطف الخاكية..

لا أدري لماذا شعرت بحاجة إلى أن أمشي قليلًا في البلدة في هذه الإضاءة الغريبة.. إضاءة المساء المقبل..

قدماي حملتاني إلى المقبرة إياها.. ووقفت فوق مرتفع صخري أرمق المشهد الرهيب..

من المؤسف أنني لن أكون هنا الشهر القادم حين يكتمل القمر.. لربما لو رأيت مشهد الساحرات هذا لخطرت لي بعض الأفكار، لكن القمر كان مكتملًا قبل قدومي بثلاثة أو أربعة أيام.. سأكون وقتها في مصر..

هنا لمحت ذلك الشبح يتحرك بين شواهد القبور..

ما كل هذا الثبات؟ كأنها تمثل فيلمًا سينمائيًا والمخرج قد طلب منها أن تبدو رهيبة ثابتة الجنان.. كما أنها تعرف التأثير المسيطر الغريب للشخص الذي يضع يديه في جيبي معطفه الأسود الطويل، وينقل كعبي حذاءيه طويلي الرقبة في ثقة.. كل من رأى نمط الجنرالات النازيين في السينما يعرف ما أقصد..

كانت هذه هي كاتبتنا الشابة الواعدة (لورين)..

تمنيت ألا تراني.. لسبب ما لا أطيق وجودها..

لكنها رأتني.. وهكذا مشيت بنفس الثقة إلى حيث كنت واقفًا أرتجف من البرد.. وقالت:

- «هالو.. أنت تجد ذلك السحر الشاعري في المقبرة مثلي؟»

- «ليس موضوع شاعرية.. فقط أحب زيارة البيت الذي سأعيش فيه للأبد بعد قليل..»

أخرجت علبة تبغ، وجذبت منها لفافة غريبة طويلة تشبه القلم الذهبي، وأشعلتها في أناقة وقالت:

- «أحيانًا تشعر بأنك أقوى من الموت ذاته.. أنك كنت هنا يومًا ثم تحررت وعدت.. وأن الحياة تبدأ من جديد ولا تنتهي.. أحيانًا تشعر بأنك في زمن آخر في مكان آخر كنت واحدًا آخر.. لكن هل كنت تعرف ذاتك وقتها؟ هل كنت تعرف أنك هو أنت؟ لو لم يكن الأمر كذا فلا قيمة له.. هل تفهمني؟»

- «لا..»

- «تبدو لي ذكيًا لا يحتاج إلى كلمات كثيرة..»

قلت وأنا أنظر إلى المقبرة التي لم يعد فيها إلا درجات اللون الأزرق:

- «لو كنت تتحدثين عن تناسخ الأرواح فأنا لا أؤمن به..»

- «لا أتحدث عن تناسخ الأرواح.. بل أتحدث عن عودتها إلى عالم المادة..»

هززت رأسي غير راض.. ساد الصمت برهة ثم سألتني وهي تنفث ذلك الدخان العطر:

- «تحبها؟»

-«من؟»

- «تلك الفتاة الأسكتلندية.. مس (ماكيلوب).. لا أعتقد أنها تميل لك كثيرًا.. أنتم الرجال تخلطون بين المجاملة والمعاملة اللطيفة والحب..»

- «يمكنني أن أكون فظًا وأقول إن هذا ليس من شأنك.. لكن لا.. سأريحك.. أحبها جدًّا.. ولا يهمني رأيها في الأمر.. لن أتغير.. سأظل منتميًا لها..»..

كانت وقحة لكني لسبب غير واضح لم أستطع أن أخرسها كما يجب.. ربما أرتج عليَّ.. قالت لي في مكر:

- «كما تحب..»

كانوا يقولون عن ممثلة الرعب العظيمة (باربرا ستيل)، إنها ترمز إلى المرأة (كآخر).. المرأة كعدو خارجي مخيف غامض.. هذه الفتاة جعلتني بالفعل أتذكر هذه الكلمات..

وفي صمت مشينا معًا عائدين إلى الخان.. لكن هذه المحادثة ظلت في ذهني طويلًا..

☆ ☆ ☆

في المساء وجدوا جثة (كيليبارون).. العجوز البدين..

هذا الرجل تعذب كثيرًا لأن كل أطرافه كانت مهشمة، وقد التوى عنقه للخلف بتلك الطريقة الشهيرة في القرون الوسطى للذين قتلتهم الشياطين.

إن الرجل يعيش وحيدًا في داره بعد ما رحل أولاده وماتت زوجته.. هناك كالعادة مدبرة بيت عجوز هي مسز (سميث) - ككل مدبرات البيوت - وكانت قد أخذت إجازة لهذا اليوم على أن تعود في المساء..

- «فكرت في زيارة أختي..»

فلمّا عادت، كان ما لفت نظرها أن المنزل مغلق من الداخل جيدًا.. فتحت الباب بالمفتاح ودخلت، ولما لم ترَ أثرًا للحياة، افترضت أن الرجل ذهب ليقضي سهرته في الخان..

- «ثم سمعت صوت المذياع مفتوحًا..»

وبالطبع ذهبت لتعرف سبب ترك المذياع مفتوحًا.. فوجدته في قاعة الجلوس..

كان راقدًا على السجادة، وخطر لها أنها نوبة قلبيّة.. لكنّها أدركت أن اتجاه وجهه لأعلى لا يعني أن بطنه في نفس الاتجاه! هنا أصيبت هي نفسها بنوبة قلبيّة.. واحتاجت إلى بضع دقائق وقرص من موسع الشرايين تحت لسانها حتى استطاعت استخدام الهاتف وطلب الشرطة..

وعندما جلست مع (ماجي) والطفلة في قاعة الجلوس، كان الخبر قد انتشر كالنار في الهشيم.

- «(كيليبارون) مات!»

- «(كيليبارون) مات!»

وصاحت مسز (بانكروفت) في رعب:

- «ماذا حدث في هذه البلدة؟ فقدنا شخصين من خيرة أهلنا في يوم واحد!!»

أخفيت وجهي في مفرش المنضدة كي لا تقول شيئًا على غرار (الخير على قدوم الواردين).. والحقيقة أنني أعرف نفسي جيدًا بحيث صرت لا أغضب لتهمة من هذا النوع بل وأؤكدها.. فعلًا

الخير على قدوم الواردين في حالتي على الأقل.. ما إن أظهر في مكان حتى يتحول إلى جحيم.. وهي كما ترون موهبتي الوحيدة التي تؤهلني لسرد هذه القصص..

وجاء (بارنيل) ليجلس إلى مائدتنا، وقال:

- «رجل آخر يعض التراب.. كنا كل يوم نتوقع أن يحدث هذا.. مع كل الكوليسترول الذي يفعم شرايينه، وكل ما يجثم على روحه من شحم، لكننا توقعنا أن يمنحنا وقتًا.. عناية مركزة.. شلل.. فترة ما تجعل الرحيل تدريجيًا، لكن من المؤلم أن يرحل بهذه الطريقة.. تهشيم أطراف ولي عنق؟ هذا رهيب!»

قلت له همسًا:

- «قل لي.. هل هناك من نتهمه بهذا؟»

نظر لي كأنما يراني لأول مرة، وهتف:

- «سيكون هذا غريبًا.. من يستطيع عمل هذا؟ لابد أنه كتلة من العضلات..»

- «لنتكلم بصراحة أكثر.. ألا يوحي الأمر بشيء خارق للطبيعة؟»

بدا الإرهاق على وجهه وقال:

- «بلى. ربما.. لكن هذه الأشياء لا تحدث على قارعة الطريق.. أنا بعد كل هذا العمر لم أر ظاهرة خارقة في حياتي..».

- «أنت إنسان سعيد الحظ..»

ومن جديد بدأت الأسئلة المملة والتحقيقات.. لن أتحمل البقاء في هذه البلدة بعد القتيل الثالث مالم يكن أنا بالذات.. وقد تساءل كثيرون:

- «ما الذي يربط بين القس وهذا الرجل (كيليبارون)؟»

لم تكن هناك إجابة واضحة..

☆ ☆ ☆

٦ - كشف الأوراق..

أما عن وفاة السير (مليجان) فالأمر يحتاج إلى وقفة ما..

كنت قد انتهيت من التحقيقات الطويلة التي لا تفضي إلى شيء والتي يسكبها رجل الشرطة (بيرك) على رأسي ورأس (ماجي).. كلها أسئلة غبية كان يرى رجال الشرطة يسألونها في الأفلام لو كان يرى بعضها.. أين كنت عندما قتل (كيليبارون)؟ ومتى قتل (كيليبارون) يا سيدي؟ ماذا؟ لا أعرف.. ظننتك أنت تعرف.

وهكذا.. الكثير من هذا الهراء، حتى إنني شعرت بحاجة ماسة إلى استنشاق الهواء النقي..

غادرت و(ماجي) الخان والطفلة تمسك بيدي.. الحقيقة المخجلة هنا هي أننا صرنا صديقين.. الحقيقة الأكثر إثارة للخجل أنني صرت مرتبطًا بها بشدة.. إنها طفل مسالم لطيف أقرب إلى دمية جميلة..

مشيت و(ماجي) في الممر الذي يقود إلى الشارع الرئيسي، وكنا صامتين.. لكنني كنت أملك ألف تعليق على ما يحدث.. لكن السؤال الأهم هو (لماذا الآن بالذات؟)

قالت (ماجي) وهي تعقد ذراعيها على صدرها في أثناء المشي:

- «لا أعرف.. أنا لا أثق كثيرًا بموضوع النحس هذا.. لقد بدأ الشيء مع قدوم الغرباء.. أنا أعرفك وأعرف نفسي وأعرف أننا لسنا من الطراز الذي يلوي عنق الشيوخ للخلف.. هنا يبرز بقوّة اسم (لورين بلاك) هذه.. هذه الفتاة لا تريحني على الإطلاق.. ربما لا ترى الرأي ذاته، لكن حاسة الأنثى لا تخطئ..»

قلت في ضيق:

- «أنا أرى الشيء ذاته هناك إشاعة مغرضة تملأ البلدة أنها فاتنة.. حسن.. أنا لا أرى هذا..».

- «لكنك لا تنكر إنها ساحرة؟»

- «ساحرة.. نعم.. بالمفهوم المجازي.. و...»

ثم تلاقت عيناننا.. لماذا فكرنا في الشيء ذاته في نفس اللحظة؟

كانت هناك سيارة واقفة إلى جانب الطريق في هذا الموضع المهجور نسبيًا.. سيارة صغيرة بريطانية جدًّا.. ولسبب ما لم تبد لنا وقفتها مريحة هنالك في الظلام الذي ملأ المكان..

قالت لي وهي مستمرة في المشي:

- «لو فرضنا جدلًا أنها هي.. هل تتوقع أنها تجيد لي أعناق الناس؟»

قلت في شرود:

- «القصة غير واضحة.. لا أستطيع أن أراها قاتلة.. ولأي غرض؟»

هنا كنا قد وصلنا قرب السيارة..

ألقيت نظرة عابرة إلى داخلها، وفي اللحظة التالية وجدت أنني على الأرض وألم حاد يمزق خصري..

وأمامنا وقف السير (ميليجان)..

كان هو ولم يكن هو..

إنه ينزف من عشرة مواضع على الأقل، وقد جعلته لحظة اقتراب الموت متوحشًا.. لا أعرف كيف استطاع فتح السيارة لكنه فعل وبقوّة كاسحة.. ربما عالج المقبض بقدمه.. لا أدري بالضبط..

وهنا فهمت.. وقف الشعر على جانبي رأسي حين فهمت.. لقد كان مكمم الفم، مقيد اليدين إلى ظهره، ومن كل أوردته العملاقة كانت هناك خراطيم تتدلى.. خراطيم تتصل بإبر كأنما كان يتلقى الحقن الوريدية من خلالها، لكن هذه الخراطيم كانت تنزف.. ومن الجلي أنه نزف كثيرا جدًّا.. أنا أعرف أن من يقطعون شرايين معصمهم يصابون بحالة جنون هياجي قرب النهاية، وكان السير (ميليجان) قد دنا من النهاية..

مشى جوارنا.. وهو يصدر خوارًا كالثيران..

ثم رأى (ماجي) فاتسعت عيناه وراح يترنح وهو يركض نحوها.. الطفلة لا تكف عن العواء..

صرخت (ماجي) وبدأت تجري.. لكني صرخت فيها بدوري:

- «لا تهربي منه! ساعديه!!»

وهرعت لألحق بالبائس.. فقط ليوجه لي ركلة في أسفل بطني جعلت الهواء يخرج من أذني.. لم يرفسني حضان من قبل لكن لا بد أن الأمر أفضل من هذا..

استندت إلى الجدار بينما صرخات الطفلة تجعل الأمر أقرب إلى الجحيم.. اخرسي قليلًا بالله عليك!!

إن الدم.. يعود.. إلى.. رأسي.. من.. جديد أنا.. قوي.. التحمل.. برغم.. ضعف.. صحتي... لن.. أموت.. بقدم رجل قتيل أصلًا..

في هذه اللحظة سقط الرجل على الأرض بينما الطفلة لا تكف عن إطلاق سرينتها...

وأدركت من ثبات وضعه أن الأمر قد انتهى..

سألتني (ماجي) باكية وهي تعتصر الطفلة:

- «هل أنت بخير؟»

- «سأعيش.. والآن هلا عدنا إلى الخان؟ لابد.. من... غوث...»

☆ ☆ ☆

جاء الدكتور (ك. أوجليفي) بعد ربع ساعة.. وكان الأمر قد انتهى.. كانوا قد أحضروا الجثة مغطاة بالملاءات، وساد صمت رهيب.. الموت بحضوره المقبض.. من المجاملة أكثر من اللازم أن نقول إنّه ضيف ثقيل لا تجد راحتك في حضوره.. بل لا تستطيع الكلام بحرية...

كان الطبيب أصلع الرأس قصير القامة متأنقًا جدًّا، وقد راح يجفف العرق المتراكم على جبينه برغم الطقس البارد، وقال لنا:

- «أفهم من هذا أن دماء هذا الرجل استنزفت حتى الموت؟»

قلت له في نفاد صبر:

- «تشخيصك دقيق أيها الزميل..»

- «ومن الذي يفعل شيئًا كهذا؟»

مططت شفتي السفلى في غباء.. إنّه الشيطان ذاته لو كان يجيد تركيب الإبر الوريدية..

هذه المرّة بدا أن البلدة كلها احتشدت في الخان، وهو ما كان ليسعد فؤاد مس (بانكروفت) لو لم تكن فعلًا سيدة طيبة القلب لا تحب موت زبائنها..

شعرت بالحضور إياه فنظرت وراء كتفي.. كانت الكاتبة السوداء عائدة من الخارج مع الأخ (أونيل) الذي لم يعد يفارقها في الآونة الأخيرة، ومعهما سيدة أخرى في الخمسين لم أرها من قبل.. لو كنا في مصر لقلت إنها أمّه تتعرف عروسة المقبلة كانت (لورين) تضع نظارة سوداء فلمّا شعرت بأن هناك تجمعا مريبًا نزعت نظارتها، وهزت رأسها ثم ودعت الفتى واتجهت إلى غرفتها..

كانت (ماجي) تنظر إلى المشهد وكذا أنا.. فتحت شفتيها ومطت عنقها نحوي في إيماءة أعرفها جيدًا، فملت عليها بأذني لأسمع، وقبل أن تتكلم قلت أنا:

- «نعم.. نعم.. المرأة التي مع (أونيل)..»

- «تعرفها.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. لكني عاجز عن تذكر متى وأين...»

مع (ماجي) تخطر الفكرة في ذهني فترد هي عليها من دون كلام.. بل إن بوسعي أن ألومها على فكرة سخيفة لم تصرح بها.. توارد خواطر قاتل نعرفه من أيام بعثتي القديمة هنا..

قالت في خبث:

- «الصور! هذه إحدى النساء اللاتي كن يرقصن في المقبرة!»

- «هل.. تعتقدين هذا؟»

ونظرت للمرأة.. لست متأكدًا لأنني لم أر الصور بما يكفي.. لكن وجهها بالتأكيد مألوف، وفي الغالب انطبع في ذهني من وقتها.. ما معنى هذا؟

سرى الإشعاع السايكوفيزيائي بين الجالسين، وتقدم رجل متأنق بدين معتد بنفسه إلى وسط الدائرة، وقال في تؤدة:

- «يجب أن نتحدث بصراحة يا رفاق.. هذا الذي يحدث في بلدتنا الهادئة لا يصدّق.. ويوحي بلعنة ما تتجاوز فهمنا.. هل هناك من يربط مثلي بين هذه الأحداث وقدوم غرباء إلى البلدة؟»

تعالت الهمهمة فصاح أمرًا:

- «من ير هذا فليرفع يده..»..

ارتفعت عشرات الأيدي.. ما كنت أحسب أن كل واحد من هؤلاء القوم له ست أذرع إلا بعد ما رأيت هذا بنفسي..

صراحة قالت (ماجي) في تحد:

- «حسن.. ومن ير أننا قتلنا هؤلاء الثلاثة فليقل هذا صراحة..»

لم يتكلم أحد.. فقالت في هدوء:

- «أنا ومرافقي سنرحل غدًا صباحًا.. لو كنا نجلب الشيطان معنا فنحن سنريحكم..»

هنا هتف رجل الشرطة (بيرك) في رعب:

- «هذا لن يكون.. لن يفارق أحد البلدة قبل قدوم رجال التحريات الجنائية.. سأطلق الرصاص على أول من يفكر في الخروج..»

على الأقل هو يتصرّف بشكل صحيح من حين لآخر، لكن ها نحن أولاء قد صرنا محاصرين..

هنا هتف رجل من الجالسين:

- «لحظة.. من يشعر بارتياب في تلك الفتاة من (شيفيلد) فليرفع ذراعه..»

هذه المرّة ارتفعت مائة ذراع.. هؤلاء ليسوا بشرًا.. إنهم عشيرة من الأخطبوط..

- «هي لا تكتب شيئًا وتكاد لا تمضي وقتًا في حجرتها.. إنها تجوب البلدة طيلة اليوم.. كلنا رآها في المقابر.. ماذا تفعل هناك؟ من هي حقًّا؟»

هنا قرر الفتى (أونيل) أن يقوم بواجبه، فهب يمسك بقائل هذا من ياقة سترته، وكور قبضته العملاقة وشدها إلى الوراء في وضع مألوف.. إنّه بالفعل يتصرّف كأنه زميل (جاري كوبر):

- «من يقل حرفًا واحدًا يسيء لها سأهشم وجهه!»

قال الرجل الأول المعتد بنفسه:

- «الحقيقة يا بني أنك صرت في قبضتها.. إنك مفتون بها..»

- «بل أنتم مرضى النفوس.. الحقيقة أنها بهرتكم جميعًا.. وحين لا ينال الرجل فرصته فإنّه يختلق الأكاذيب ويتحول إعجابه إلى حقد.. (لورين) اختارت رجلًا واحدًا في هذه البلدة التعسة وأنتم لا تطيقون هذه الفكرة..»

كلامه صحيح حتى إن كان لا ينطبق على هذه الحالة.. إن كل من قرأ أو شاهد رواية (زوربا اليوناني) للعظيم (كازنتزاكيس) يذكر جيدًا مشهد قتل الأرملة الجميلة على يد رجال القرية بدعوى الحفاظ على الأخلاق.. والحقيقة أنهم قتلوها لأنهّا لم تختر واحدًا منهم..

المهم أن الموقف تحول إلى نار متأججة وكادت اللكمات تتطاير، لولا أن الرجل المعتد بنفسه وقف وصاح:

- «يا رجال.. أنا أقترح أن نحبس الغرباء في غرفهم إلى أن يأتي رجال التحريات.. لا نريد مشاكل جديدة.. أنا أعتذر لهم بشدة على هذا لكنهم يفهمون دوافعنا..»

صاحت (ماجي) في عصبية:

- «يحبسوننا؟ بأي حق؟!»

لكني ضغطت على معصمها وهمست:

- «لا مشكلة في إجراء كهذا.. إنها ليلة واحدة بعدها نترك هذه البلدة بمشاكلها.. لا داعي لتصلب الرأي..»

وهكذا بدأ الحشد يتفرق من حولنا ليفسح لنا الطريق..

هنا توقفت وقلت بصوت عالٍ:

- «بالمناسبة.. أين مستر (بارنيل)؟ (باتريك بارنيل)؟»

لم يكن هنا.. ونظر لي القوم في دهشة، فقلت بنفس الصوت العالي:

- «أقترح أن تحرسوه جيدًا.. لو حدث له شيء فنحن أبرياء من دمه!»..

سألني رجل الشرطة في دهشة:

- «ماذا تقول بالضبط؟»

- «أعتقد أن كثيرين منكم خمنوا ما أعنيه.. كل هؤلاء الذين ماتوا كانت لهم علاقة ما بموت (رونيل السوداء).. أنتم تعرفون القصة وتذكرون التفاصيل.. لا أعرف كل من تورط في هذه القصة، لكن المرشح رقم واحد للموت الآن هو (باتريك بارنيل).. حفيد قاضي الساحرات الرهيب!»

☆ ☆ ☆

٧ - أسطورة المقبرة..

لم يكن البقاء في غرفتي سيئًا.. أنتم تعرفون أنني حريص على كل نشاط بشري يحرمني مخالطة البشر! لكن (ماجي).. الشعور من جديد بأنها ستنفد.. لو عرفت تلك الطفلة (إليانور) كم هي مجدودة الحظ..

قضيت الوقت أصغي للمذياع، وأكتب بعض الملاحظات عن المؤتمر الأخير الذي حضرته..

فتحت الستائر لأرمق الظلام في الخارج.. هل هذا غراب الذي يقف على تلك الشجرة البعيدة؟ هو كذلك، ولا أنفي لحظة أنه يبدو لي كمن يراقب نافذتي.. أنا عصبي وقد اعتدت هذه الأمور.. أنا هستيري مجنون ولن أترك ملحوظة كهذه تدمر أعصابي..

ثم تسرب النوم إلى جفوني لا أدري كيف، فدخلت الفراش المريح الدافئ.. الذي يحتضنك احتضانًا.. وكان للدفء الكلمة الأخيرة قبل الإرهاق..

إنني..

☆ ☆ ☆

في الثالثة صباحًا سمعت القرعات على بابي، فنهضت.. تعثرت في الغطاء السميك طبعًا وأطلقت الكثير من السباب إلى أن وجدت الباب.. وفي اللحظة ذاتها كان المفتاح يدور فيه من الخارج، فلا تنس أنني حبيس هنا..

هناك كان رجل الشرطة الأحمق (بيرك) ومعه مسز (بانكروفت) التي بالفعل صارت عيناها خارج جمجمتها.. وعرفت على الفور أن كارثة حدثت..

- «كارثة حدثت يا سيدي..»

- «إنني أرتجف قلقًا..»

ثم سمحت لهما بالدخول وبحثت عن الروب.. ثم جلست على طرف الفراش وتثاءبت كفرس النهر بينما قال الشرطي عديم الكفاءة:

- «لقد توفي السيد (باتريك بارنيل).. لقد كنت محقًا يا سيدي..»

أدرت الخبر في فمي لأتذوقه جيدًا.. هذا الرجل لطيف المعشر الذي راح يكلمنا كأننا صديقان قديمان له، والذي عرفت منه كل تفاصيل هذه القصة قد مات..

- «كيف؟»

صمت الرجل وشهقت المرأة.. مما جعلني أعرف أنه مات بطريقة لا يمكن سردها.. أشياء كهذه لا تقال للأطفال مثلي..

ثم إن الشرطي قال وهو ينهض:

- «أعتقد أنه لم يعد من داعٍ لهذا السجن.. يُمكنك الخروج إذا أردت يا سيدي..»

في هذه اللحظة ظهر رتل من الرجال الذين لا أعرفهم على الباب.. لكنهم كانوا غاضبين كالجحيم.. كانوا يريدون تدمير أي شيء أو قتل أي واحد.. يبدو أن المنظر أثار حفيظتهم بحق.. وهنا رأيت من جديد الدليل القاطع على ما يروونه عن حدة طباع الأيرلنديين أنا جربتها وكدت ألقي حتفي لو كنتم تذكرون قصة اللهب الأزرق والأخ (شاكال)..

فيما بعد عرفت تفاصيل موت الرجل - (بارنيل) لا (شاكال) طبعًا - ولن أحكيها بالتأكيد.. لكنّها كانت جديرة بصاحب أعظم جرم بالنسبة لـ (رونيل السوداء).. إن حفيده تلقى العقاب كاملًا غير منقوص.. ويكفي القول إن الطبيب فقد وعيه حين رأى المشهد، وأن الرجل ذا الكلمة المسموعة إياه في حالة هستيرية الآن..

قلت وأنا أقف أمام الباب:

- «مس (بلاك)؟»

- «ليست هنا.. إنها لم تعد في الخان قط منذ اتفقنا على تحديد إقامتكم.. نعتقد أنها غادرت غرفتها من النافذة..»

وقالت مسز (بانكروفت):

- «لا أكتمك سرًا أننا فتشنا أوراقها.. لم نجد قصصًا على الإطلاق.. كانت هناك صفحات ملأى برموز غريبة كالتي تستعمل في السحر.. مئات العبارات اللاتينية التي تجمد الدم في العروق.. تلك الفتاة ليست طبيعية..»

فكرت في المعلومة بعض الوقت، ثم قلت للرجل:

- «هل معك قلم؟»

ناولني قلمًا من الرصاص في تردد، فأمسكت به وبخط كبير واضح كتبت على الجدار: LOREANE..

صاحت مسز (بانكروفت) في غضب:

- «بحق السماء.. ماذا تحسب أنك فاعل؟»..

لم أرد، وهتفت في القوم:

- «كيف تتهجون اسم تلك الساحرة التي حرقها أجدادكم؟ RONAELE؟»

هنا صاح أحد الأذكياء:

- «حقًّا.. نفس الأحرف.. ونفس الرنين في الأذن.. وكلاهما سوداء.. (بلاك)»

هنا بللت طرف منديلي بلعابي، ورحت أزيل الدمار الذي أحدثته في جدار الخان كي لا تقتلني صاحبته..

نظرت لي مسز (بانكروفت) في حدة، وسألت:

- «هل تحاول التلميح إلى أن الساحرة عادت اليوم لنا في ثوب تلك الفتاة من (شيفيلد) وأنها تنفذ انتقامها؟ كيف؟ هل غادرت قبرها؟ هل حلت روحها بتلك الفتاة؟ كلها افتراضات لا تقبل..»

وقال واحد من الواقفين:

- «ولماذا اليوم بالذات؟ لماذا تنتظر ثلاثمائة عام؟»

- «يُمكنك أن تسألها..»

ثم أردفت وأنا أشعر بإرهاق شديد من فرط هذا الجهد العصبي:

- «الفتاة تكمل بالضبط ما كانت (رونيل) تفعل.. الشخص الوحيد الذي وثقت به هو الفتى (أونيل) ولا أشك في أنه حفيد (أونيل) القديم الذي كاد يُلقي بنفسه في النيران من أجلها.. ثم يموت حفيد القس الذي شك فيها.. وحفيد الحاكم.. وحفيد القاضي الذي أمر بحرقها.. وحفيد الثري الذي كان يحبّها، والذي ربما كان له دور في إدانتها.. لا أعرف كل من تورط في هذه القصة، لكن (رونيل) عادت.. أنا متأكد من هذا.. وانتقامها شامل ماحق.. والمشكلة هنا أن من ماتوا حتى الآن هم الورثة الوحيدون لأسرهم، فماذا عن الأسر التي تفرعت وتشعب أحفادها؟»

ساد الصمت ثم تساءل أحد الرجال:

- «والحل؟»..

- «أرى أنه لابد من نبش قبرها.. أعتقد أن الجواب الصحيح يكمن في المقبرة..»

كان الرجال بحاجة إلى أي شيء يبدد طاقاتهم الثائرة، لهذا تصايحوا في حماسة كأنما أدعوهم إلى السيرك:

- «المقبرة... نعم.. المقبرة!!»

- «في الصباح يمكننا أن..»

لكنهم لم يكونوا على استعداد للانتظار حتى الصباح..

مشكلة الأيرلنديين الغاضبين هي أنهم لا يسمحون لكل مثلي بالنوم..

وسط الزحام رأيت (ماجي) تشق طريقها بوجه ممتقع، وقد حملت الطفلة متمسكة بعنقها.. بدا لي المشهد غريبًا لأنني لم أر طفلة تحمل طفلة قط.. ثم إن (إليانور) لم تكن رضيعة بالتأكيد..

قالت لي همسًا:

- «أنت قلت نفس ما أفكر فيه.. لكن ما كان يجب أن تقوله علانية..»

- «ولم لا؟»

- «رد الفعل الجماهيري غير المنضبط.. أنت كمن يفتح قمقمًا فيه جني حبيس.. لو أنهم قابلوا الفتاة الآن؛ حتى لو كانت بريئة لأطاروا عنقها بلا مناقشة.. السبب الأهم هو أنني متأكدة من أن عددًا من هؤلاء القوم يعرف ما تتكلم عنه.. ربما كان يرقص حول المقبرة في تلك الليلة.. أكره البارانويا لكن الحذر واجب..»

اعترفت في خجل بأنها محقة لكن العجلة دارت.. من العسير ابتلاع الكلمات..

وفي هياج - كتنين أسطوري هائل عقله في قدميه - تحرك الجمع نحو المقابر..

قلت لها:

- «أغلقي بابك بإحكام وكوني حذرة.. ربما كان من الحكمة أن تنزلي لتقضي الوقت مع مسز بانكروفت)..»

☆ ☆ ☆

في ضوء المشاعل يبدو المكان بهيجًا..

عشرات الناس والمشاعل التي تشبه (الكلوبات) في سوق الخضار عندنا، وكشافات نيون وكشافات عادية تعمل بالأحجار الجافة.. غبار.. عرق.. زحام..

لقد خضت هذا الموقف مرارًا من قبل ومن بعد، بحيث يبدو لي الآن أنني قضيت عشرة أعوام من عمري وسط أناس ينبشون قبرًا ما..

كنا جميعًا نتّجه إلى المكان الذي لن أنساه ما حييت..

القبر الوحيد الباقي والذي لا يحمل شاهده أي اسم.. ربما كانت هناك قبور أخرى لكن لا أحد يذكر مكانها..

أين حارس المقابر؟ كان هناك وسط الزحام وقد تحول إلى فزاعة من فعل الكحول.. يصعب عليَّ أن أصدق أنّ هذا الرجل لم يذق الخمر من قبل..

وقفنا هناك.. وكانت الأعشاب تغطي الشاهد، فيما عدا ما قمت بإزاحته حين كنت مع (ماجي).. وبدأت المعاول والأظفار تعمل..

بدأ التراب يتراكم.. وعرفت أنها مدفونة من دون تابوت ولا كفن على سبيل الانتقام..

أخيرًا بدأت معالم الحفرة تتضح..

وتكأكأ القوم حول الحفرة كل يحاول أن يجد موطئ عين.. وشعرت بأنني أختنق.. الكل يدفعني إلى الحفرة، وتساءلت في سرّي: ألا يستحم هؤلاء القوم؟

عظام.. عظام بالية نخرة مفتتة..

تلوت: «كل نفس ذائقة الموت»، ثم جثوت على ركبتي أتفحصها، ورفعت عيني فوجدت الدكتور (أوجليفي) جاثيًا جواري يتفحّص العظام بدوره في ضوء كشاف..

- «ما رأيك أيها الزميل؟ أي!!»

قالها وهو يتلقى كوعًا في كتفه.. فقلت بينما ركبة صلبة تضربني في مؤخرة رأسي:

- «مثل رأيك.. آي!! هذه العظام محترقة وتتماشى مع القصة.. لا أعرف عمرها لكن لا أستبعد أنها دفنت هنا منذ ثلاثمائة سنة..»

هكذا أعلن على الناس أن الجثة في مكانها.. الساحرة لم تغادر القبر لتلتهم حناجركم يا شباب فاطمئنوا!!

كنت أنا شارد الذهن أفكر.. ما معنى تلك الزيارات الليلية إلى هذا الموضع إذن؟ طبعًا أنا لم أتوقع.. لحظة أن تنهض الجثة من قبرها لأن هذا مستحيل.. فمن هي (لورين) إذن؟ لا أقبل كذلك قصة التناسخ. ما خطر لي هو أنّ هناك من سرق الرفات من أجل عمل سحري ما.. لكن من الواضح أنّ هذا لم يحدث.

هنا توقف الطبيب الأيرلندي الأصلع وقال:

- «هذه العظمة.. آي! ما رأيك فيها؟»

نظرت إلى العظمة وفهمت ما يعنيه..

سألته:

- «في أي سن هلكت (رونيل السوداء)؟»

- «كانت قد تجاوزت العشرين..»

وكانت العظمة التي يحملها لا تحتمل الشك.. هذه عظمة طفل.. الخط الكردوسي واضح تمامًا وحجم العظمة نفسه واضح لكل طفل..

هذه الرفات ليست رفات (رونيل السوداء)...

☆ ☆ ☆

٨ - المؤامرة..

على ضوء الفجر البكر حيث وضعنا العظام على ملاءة، أمكنني الآن التأكد من أنني كنت مخطئًا في البداية.. فعلًا هذه عظام طفل..

صاح أحد الرجال في عصبية:

- «من فضلكم لا تقولوا إنها فتحت القبر وذهبت..»

قلت في هدوء لأمتص غضبه:

- «لا شيء من هذا.. هناك من أخذ العظام لغرض ما.. ربما ليدفنها في قبر أفضل أو من أجل طقوس لا نعرفها..»

ثم تنهدت ونظرت إلى الساعة.. إنها السابعة صباحًا.. لقد استغرقت كل هذه الأحداث أربع ساعات.. وأنا جائع وموشك على التجمد.. قلت لهم إن الوقت حان للعودة إلى الخان وترتيب الخطوات التالية..

ومشى الموكب عائدًا في ضوء النهار الخجول الذي لا يجرؤ على أن يفصح أنه نهار..

من بعيد كان الخان، وقدرت أنني سأغسل وجهي وأصلي وأتناول الإفطار، ثم أنام عشر سنوات في الفراش الدافئ حتى توقظني الساحرة لتخبرني بأن الدور دوري..

لكن الجو لم يكن مريحًا.. في البداية وجدنا أن مسز (بانكروفت) ليست هناك.. ثم صعدت إلى الطابق الذي أقيم فيه، فوجدت أن باب غرفة الفتاة مفتوح عنوة...

هناك من اقتحمه.. كنت وحدي الآن فلم أستطع طلب عون، لكن القصة واضحة.. لقد عادت أو عاد كي يأخذ الأوراق التي هي بالتأكيد مهمّة جدًّا، وكان غضبها مستطيرًا حين وجدت أنه لا شيء منها في الغرفة..

و... (ماجي)!!

هرعت إلى غرفتها وكانت المصيبة التي توقعتها أن الباب مفتوح..

اقتحمت الغرفة لأجدها نائمة على الفراش بكامل ثيابها.. ليست هذه نومة استرخاء أو نومة من قضى الليل ساهرًا.. سقط قلبي في قدمي ودنوت منها في حذر.. بسبب ارتباكي فشلت فعلًا في أن أرى إن كان صدرها يعلو ويهبط أم هو ثابت كالحجر..

لكنها كانت تتنفس..

بالحقيقة تتنفس..

جوار الفراش جثوت وأنا أغالب دموعي.. حمدًا لله.. للمرة الأولى أفطن إلى أن (ماجي) كائن حي يعيش ويموت وليست رمزًا.. كنت أحسبها كالعدل أو الحقيقة.. هل رأيت يومًا جثة عدل أو أشلاء حقيقة؟

في النهاية فتحت عينيها وكانتا حمراوين كالدم..

لا داعي للمزيد من البحث.. هاتان عينا إنسان يفيق من مخدر..

بالمناسبة أنا لا أرى الطفلة من حولها..

هتفت من بين شفتين التصقتا من القشور:

- «إليانوووووووور»

كما توقعت بالضبط..

جلبت بعض الماء وسقيتها إياه.. ثم سكبت الباقي على وجهها.. وماء أيرلندا بارد.. بارد..

أخيرًا جلست في الفراش وراحت ترمش بعينيها في بلاهة، ثم سألتني من جديد:

- «أين (إليانور)؟»

- «حسبتك أقدر مني على الإجابة عن هذا السؤال..»

نهضت من الفراش في حزم صائحة:

- «خطفوها!»

القصة كما حكتها لي هي أن المسز (بانكروفت) جاءت في الخامسة صباحًا تقرع الباب.. قالت لها إنها راغبة في إخبارها بشيء مهم.. وهكذا لم يكن هناك من مبرر لإبقاء الباب موصدًا.. فتحته فدخلت المرأة ذات الشعر المعقوص.. قالت لها كلامًا كثيرًا عن خوفها من أن تكون هي الضحيّة التالية.. ربما لأن جدة جدتها كانت في تلك القصة المشئومة..

طمأنتها (ماجي).. وكانت الطفلة نائمة في الفراش فلم تسمع شيئًا من المحادثة.. إلا أن (ماجي) نهضت إلى الحمام كي...

وهذا آخر ما تذكره من القصة..

حدث أي شيء.. على الأرجح منديل مبلل بالكلوروفورم على الأنف أو شيء من هذا القبيل بعدها وجدت نفسها في الفراش وأنا أوقظها كالكابوس..

- «هذا يعني أن مسز (بانكروفت) متواطئة كنت أعرف أنها تبدو كساحرة..»

- «أنت قلت لي أن أثق بها وأمضي الوقت معها..»

- «أنا قلت هذا؟ إذن كنت حمارًا.. ما علينا..»..

قالت وهي مازالت متحشرجة الصوت، ويبدو أن رأسها مازال غير ثابت:

- «ربما لم يكن لها دور.. ربما هوجمنا معًا..»

- «وهذا يجعلنا نتساءل أين هي؟ وأين الطفلة؟»

كنت أتمنى أن أقول إن هذا خبر طيب لي، لكني لست بهذه القسوة طبعًا.. لقد اختطفت الطفلة وبيد أشخاص لم يبد حتى هذه اللحظة أن في قلوبهم أدنى ذرة من الرحمة.. إن من ير جثة (بارنيل) يعرف جيدًا معني ما أقول..

قالت في توتر وهي تتجه إلى الباب:

- «سأعرف حالًا.. أقسم لك إنني لن أغادر هذه البلدة إلا وهي معي.. وأنت..»

ثم نظرت في عيني وهمست كأنما تذكرت شيئًا:

- «للأبد؟»..

كانت تقولها من دون هيام، بل في توتر.. كانما تستوثق من أنني لم أتغير بعد، أو تطمئن على أن أسلحتها محشوة.. قلت لها:

- «ماذا؟»

- «ملكي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى...»

ثم توقفت.. هذه المرّة لأن رجل الشرطة الأحمق اقتحم الغرفة.. وهتف إذ رآني:

- «أين مسز (بانكروفت)؟»

- «هذا ما كنا نتكلم فيه حين دخلت دون استئذان..»

وبسرعة حكيت له القصة فازداد شاربه كثافة وتقلص وجهه كأنما يموت.. ثم ابتلع ريقه وقال:

- «هناك امرأة ماتت في البلدة هذا الصباح.. لا.. ليست مسز (بانكروفت).. ماتت بنفس الطريقة الشنيعة.. هذه المرّة طار عنقها من على كتفيها، لكننا لا نعرف شيئًا عن علاقتها بالقصة..»

قلت في ملل:

- «لا بد أنها من أخبر القس.. كي يخبر (كيليبارون) بأن... إلى آخر هذا الهراء..»

أضاف بنفس اللهجة الخطرة:

- «الفتى (أونيل) كذلك اختفى..»

- «المختفون أكثر من اللازم في هذه البلدة.. هل تعني أنهم غادروها؟»

- «بل على الأرجح هم مختفون في مكان ما.. إن (أوليفر كليباتريك) لم ير أحدًا يخرج من البلدة منذ أمس.. إن (أوليفر كليباتريك) هو...»

- «نعم.. نعم.. هو رجل يمكنه أن يعرف من غادر البلدة.. وفر شرح ما لا طائل وراءه.. وهل في بلدتكم مخابئ؟»

فكر قليلًا وهو يعتصر شفته السفلى كأنما ليمزقها، ثم قال:

- «هناك الكنيسة بدهاليزها الخفية.. هناك القلعة.. هناك كهفان..»

ضربت (ماجي) بكفها على صدغها كأنما تلطم وهتفت:

- «يا إله السماوات! يمكن إخفاء كتيبة من الجيش الروماني في تلك الأماكن.. نحن لن نجد هؤلاء أبدًا..»

قلت لها في ثبات نافشًا صدري:

- «لكننا سنبحث فيها جميعًا.. فقط أريد دقائق كي أدخل غرفتي وأستعيد كياني.. لسوف يكون يومًا طويلًا..»

قلتها بلهجة أبطال الروايات شديدي المراس ودخلت إلى حجرتي، ثم نمت.. نمت وأنا أستند إلى حوض غسيل الوجه.. ثم نمت حين خرجت.. ثم نمت وأنا أقول لنفسي إنني لن أنام..

☆ ☆ ☆

ظهرت بعد ساعة ونصف متظاهرًا بالانتعاش.. وكان الجميع جالسين في قاعة الجلوس، وقد جلست (ماجي) جوار رجل في الخمسين من عمره ممن يعرفون ما يفعلونه، وقد فردوا على المنضدة خارطة مرسومة بالقلم الأسود العريض للبلدة.. ورأيته ينظر إلى مجموعة من الرجال الأشداء يرتدون سترات ثقيلة ويحملون العصى:

- «(رايان) و(أوليفر).. الكنيسة.. القبو (ج)..»

وانطلق الرجال.. هنا فهمت أنهم يشكلون فرقًا للبحث.. إنهم أشداء فعلًا وأحمد الله على أنني لست تلك الفتاة (لورين بلاك)..

وجدت مقعدًا جوار المنضدة فجلست، وكانت هناك قهوة مددت يدي لها دون أن أسأل من شرب منها.. نظرت (ماجي) لعيني الحمراوين ففهمت على الفور النشاط الذي كنت أمارسه، وابتسمت في رفق ابتسامة عصبية سريعة.. تذهلني قوة تحمل النساء أحيانًا..

إنهن لا يملكن قوة جسدية لكنهن يتحملن الأوضاع الصعبة أكثر منا نحن الرجال بمراحل، وعلى قدر علمي هي لم تنم أمس إلا قدر مانمت أنا: لاشيء تقريبًا..

قال لي الرجل الذي يعرف ما يجب عمله:

- «دكتور.. هلا انتحينا جانبًا؟ أريد كلمة معك..»

نظرت له في عدم فهم، ثم نهضت واتجهنا إلى ردهة جانبية تقود إلى السلم.. كان كما قلت في الخمسين، ضخم الجثة مما يوحي بأنه رياضي قديم ذلك الترهل القوي الذي يميز من كانوا يمارسون رياضة عنيفة ثم توقفوا، وكأنه حليق الوجه بعناية وله عينان ثاقبتان..

أشعل لفافة تبغ غليظة، وقال لي:

- «لقد سمعت القصة من الآنسة.. هناك كما فهمت جماعة سرية تحاول إعادة (رونيل السوداء) إلى البلدة.. إن الآنسة لم تحك قصتها مع المقبرة إلا الآن..»

- «هل تعتقد أن الجماعة مازالت تحاول؟ أعتقد أنها نجحت.. وإلا فمن هي (لورين)؟ وماسر حالات الوفاة هذه؟»

- «لن نعرف أبدًا.. ربما كان الانتقام مطلوبًا كي تستطيع الساحرة العودة..»

- «هذا يضعنا في مأزق آخر.. كيف عادت؟ هل غادرت قبرها؟ هل مسَّت تلك الفتاة (لورين)؟»

قال من جديد:

- «لن نعرف أبدًا.. لكن هناك شيئًا مؤكدًا يجب أن تعرفه ولا تخبر به الآنسة.. لأنهّا لو عرفت لفقدت صوابها.. الطفلة في خطر داهم.. ولربما انتهى هذا كله»

- «لماذا؟»

- «لأن (رونيل السوداء) كانت تلتهم الأطفال ألم يخبرك أحد بهذا؟»..

وتصلبت.. واستندت إلى الجدار..

كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا الجزء..

هذا جزء لم يخطر لي ببال قط..

☆ ☆ ☆

٩ - أين هم..

كان الفريق الذي ضمني الرجل إليه مكلفًا بتفقد كهف عتيق على حدود البلدة..

وقررت في هذه المرّة أن آخذ (ماجي) معي في كل خطوة.. لن أمارس من جديد سيناريو (لقد - نسينا الآخرين - وانشغلنا - بوهم)..

عند الظهيرة وصلنا هناك.. ظهيرة (أيرلندا) الباردة الشبيهة بالغروب عندنا.. وكان الكهف يقع فيما يعد جغرافيًا جزءًا من مرتفعات (إريجال).. يرتفع عن الأرض حوالي سبعة أمتار، وهو ما يجعله من الكهوف المرعبة بالنسبة لي.. كانوا قد وضعوا حبالًا تغلق مدخله كي لايدخله الأطفال، وبدا لنا أنّ هذه الحبال لم تمس..

في الداخل على ضوء الكشافات كان المشهد مروعًا.. الرائحة عطنة أقرب إلى الماء الآسن.. وكان الماء بالفعل يتساقط من هوابط السقف..

هناك وطاويط انتظرت لحظة ثم هرعت تفر من المكان وقد تضايقت من هذا الإزعاج..

شعرت بيد (ماجي) النحيلة تضغط على يدي.. فضغطت أكثر، وإن كنت أعرف جيدًا أنه لا يوجد شيء مقلق هنا.. ليس الأمر بهذه السهولة.. ولو قابلنا السحرة فلن يكون هذا وسط كل هؤلاء الرجال الأشداء.. حين تقابل السحرة سيكون هذا بشروطهم في أسوأ ظروف ممكنة.. وأنت وحدك تمامًا أعزل كطفل رضيع..

يجب أن أقول هنا إن (ماجي) - وهذا من حقها - تغيرت تمامًا.. لم تعد تملك أي روح دعابة.. صارت عصبية متوترة مكتئبة كالبومة.. إنها تحب الطفلة حقًّا..

رحنا نفتش في الكهف الذي كان عميقًا.. لكن لم يكن هناك شيء.. وضايقني أنهم يضيعون وقتًا أكثر من اللازم في إثبات حقيقة واضحة من اللحظة الأولى..

في النهاية قال قائدنا لاهثًا:

- «لا احتمالات للخطأ.. هؤلاء القوم ليسوا هنا..»

- «وأخيرًا!»

وقالت (ماجي) وهي تحكم إغلاق سترتها على رأسها:

- «لنعد إلى الخان.. فلعل الآخرين ظفروا بحظ أفضل..»

☆ ☆ ☆

يمكن دون جهد كبير أن تصف اجتماعنا في الخان مرهقين، تجمدت عروقنا بردًا، بأنه (مجمع الخائبين).. وكان الخان قد تحول إلى غرفة عمليات بالفعل، والنسوة رحن يعددن القهوة الساخنة للرجال العائدين الذين لم يجدوا شيئًا.. كما شممت رائحة تدلّ على أنّ هناك حساء يتم إعداده.. لو أنّ المسز (بانكروفت) مازالت حية فلابد أنها كانت ستموت لو رأت ما حل بالخان الأنيق الجميل..

لقد بدا الأمر كأن عشيرة من ثيران المسك اتخذت سكناها هنا.. الأحذية على المناضد والدخان في الهواء.. رماد التبغ على البساط والعلب الفارغة في كل مكان.. هناك من يبصقون على الأرض لكنهم قلة لحسن الحظ..

لكنني كنت سعيدًا.. برغم كل شيء كنت سعيدًا..

أنا وأنت هنا.. في هذا الموضع الدافئ بينما العاصفة تزأر بالخارج.. أنا وأنت هنا نواجه نفس الخطر ونفكر في الأشياء ذاتها.. ما يهددك يهددني وما يطمئن يطمئنني.. فلتزأر العاصفة.. فلتزأر العاصفة..

إن الليل يقترب بسرعة دون نتائج..

لم نجد أثرًا للطفلة ولا الفتى (أونيل) ولا العجوز (بانكروفت) ولا الفتاة (لورين)..

قال الرجل الذي يعرف ما يجب عمله:

- «لماذا لم يصل رجال البحث الجنائي هؤلاء؟ إنهم أقدر على حل كل هذه الألغاز..»

ثم نظر حوله وهتف:

- «هل الجميع هنا؟؟؟ لا نريد أن نترك خلفنا أحدًا..»

تقريبًا كانت البلدة كلها هنا.. لاتنس أنّ هذه البلدان قد يكون تعداد سكانها مائتين أو ثلاثمائة.. لسنا في مصر هنا حيث يبلغ تعداد مدينة واحدة دولة أوروبية بأكملها.. لكن بالتأكيد هناك مواطن واحد قد نسيناه، وهذا الواحد ميت الآن بطريقة بشعة..

ساد الصمت ورحنا نصغي لصوت الريح بالخارج والنار في المدفأة التي أشعلتها النسوة.. وجاءت فتاة شقراء متجهمة الوجه كبيرة اليدين تحمل دلوًا فيه مغرفة.. وصبت لي بعض الحساء الساخن في طبق ووضعته أمامي، ثم تركتني لتفعل الشيء ذاته مع (ماجي).. ذكرني مظهرها بساعة توزيع (اليمك) في السجون.. نفس الدلو وأقسم على هذا.. صرنا كأننا في معسكرات الإيواء بعد الكوارث.. أمّا عن الحساء نفسه فقد اعتدت حساء اليورانيوم في كل أوروبا فلم يعد يثير اشمئزازي.. لكن ماذا عن حساء الأحذية؟

راحت (ماجي) ترشف الحساء شاردة الذهن..

فجأة هتفت وقد تذكرت شيئًا:

- «لحظة.. هناك كهف في المقابر.. قربها لا أدري.. الكهف الذي وجدوا فيه حاجيات تلك الفتاة (لورين السوداء) كما حكى لنا السيد (بارنيل).. هل رأيتم هذا الكهف؟»

قال الرجل الذي يعرف ما ينبغي عمله:

- «لا أحد يذكر مكان هذا الكهف.. على قدر علمي قد اندثر منذ زمن..»

- «وعلى قدر علمي الكهوف لا تندثر بل تتواري فتحاتها.. البلدة لم تشهد زلازل قط..»

تبادل رجلان النظرات، ثم قال أحدهما وهو يضع طبق الحساء جانبًا:

- «ربما يعرف (إدوود) شيئًا عن هذا؟»

قال الرجل الذي يعرف ما يجب عمله:

- «ليكن.. (أونولان) و(رايان) و(أوليفر).. اذهبوا لتروا (إدوود) لو كان مازال حيًّا.. خذ معك ما يلزم يا (رايان)..»

هنا وضعت حسائي بدوري.. وأشرت لـ (ماجي) أن تنهض معي.. هذه المرّة سيكون هذا الكهف مهمًا بحق.. لو كان له وجود..

- «خذوا المشاعل.. ولا بأس من السلاح..»

وارتدينا السترات الثقيلة والقفازات.. هذه المرّة لم يعد من مجال للخجل، لذا وضعت على رأسي القلنسوة الصوفية التي كانت عندي ولم أجسر على ارتدائها قط.. القلنسوة ذات أذني الحمار التي تذكرك بالشيالين في شونة غلال (أبو كبير).. إنها تجلب الكثير من الدفء، لكنّها لا تترك لك شيئًا من الوقار أو عزة النفس.. رأتها (ماجي) فلم تملك برغم اكتئابها إلا أن تقول:

- «باتمان!»

كان متاع الرجل حقيبة حملها (رايان) على ظهره، وغادرنا الخان، وكانت الساعة الثامنة مساء، لكن كل شيء يوحي بأنها الساعة الخمسون مساء..

وركبنا سيارة عتيقة اتجهت بنا إلى المقابر عبر شوارع باردة لكنّها جافة لحسن الحظ..

المقابر جاثمة في الظلام كالكابوس، ومن بعيد شبح الكنيسة.. لايوجد قمر هذه المرّة.. لكن الأفق يتألق بضوء غريب كأنه النذير.. أعتقد أنها ظاهرة فيزيائية في شمال أوروبا كثيرة كالذباب.. ليس الشفق القطبي أغربها..

هناك اتجه أحدنا إلى الغرفة التي يقيم فيها حارس المقابر وقرع الباب.. كنت أعرف يقينًا أننا سنجده قد مات.. لماذا؟؟ لأنني أعرف ما يكفي من هذه القصص..

لكن - وهذا غريب - الرجل فتح الباب.. يبدو أنني صرت أثق بنفسي أكثر من اللازم هذه الأيام.. هل تذكرون مراحل قيادة السيارات الأربع؟ المرحلة الأولى أنت أخرق ترتكب الكثير من الأخطاء.. المرحلة الثانية لا ترتكب أخطاء لكنك لا تستطيع تلافي أخطاء الغير.. ثم تتعلم كيف تتلافي أخطاء الغير كذلك.. المرحلة الرابعة أنت واثق بنفسك تعتقد أنك أفضل من يقود سيارة على وجه الأرض.. عندئذ.. طاخ!! أي.. إن أكثر الأخطاء - في كل شيء - تحدث من معدومي الخبرة ومن الواثقين بأنفسهم أكثر من اللازم؟

كان (إدوود) يترنح.. ليس هذا جديدًا.. وقد أصغى إلى سؤالنا لبرهة ثم قال:

- «كهف (رونيل السوداء)؟ هناك شيء كهذا لكن المكان خطر.. لا أنصحكم بأن...»

- «دع نصائحك وقدنا إليه..»

هكذا مشى الرجل ونحن خلفه بين شواهد المقبرة.. مكان رهيب فعلًا ويثير الخيال.. تعرفون الملصق الشهير.. اليد تخرج من القبر لتمسك بساق المار فوقها؟ حسن.. لم تبد هذه الفكرة بذات الغرابة وقتها..

أخيرًا وصلنا إلى أطراف المقبرة حيث السهل الخالي المقفر..

كان هناك تل صغير ارتفاعه خمسة أمتار.. وكانت هناك شجيرات تكسو أسفله..

- «هنا بالضبط..»

- «كيف؟»

- «ليس هذا من اختراعي.. كنت منذ طفولتي أعرف أنه هنا، لكنني لم أضطر لاستكشافه قط.. إنه مجرد تجويف في مرتفع لا شيء فيه يثير..»

ومد يده وبدأ يزيح الشجيرات - التي لم تكن كلها ذات جذور في الأرض - على ضوء الكشاف بالفعل كانت هناك فتحة في الصخر.. هنا هتفت أنا غير فاهم:

- «هذا يعني أنّ هذا الكهف خال.. ما كان أحدهم ليغطيه بالشجيرات بعد أن يدخل..»

قالت (ماجي) وهي تسلط الكشاف على الأرض:

- «لايا (رفعت).. واضح أنهم كثير.. هناك من دخل، ومن بقي بالخارج ليغطي المدخل بالشجيرات المتشابكة..»

كانت آثار الأقدام على الأرض تحكي قصة واضحة..

- «هل ندخل؟»

هتفت (ماجي) في عصبية:

- «هل تمزح؟ لو كان هناك احتمال واحد في المائة أن (إليانور) هنا فلسوف أدخل..»

كان معنا ثلاثة رجال أشداء.. أعتقد أن الواحد منهم يستطيع تهشيم أعناق أربع ساحرات.. وكان أحدهم مسلحًا ببندقية.. ثم إنني لست عاجزًا.. أحيانًا أستطيع توجيه ركلات قوية إلى قصبات الأرجل، بشرط أن تعطيني المساحة الزمنية والمكانية.. لا أرى ما يمنع من أن نجرب الآن..

صاح حارس المقابر وهو يتراجع للوراء:

- «أمّا بعد هذا فلا أعرف.. أنا لم أعد ذا نفع لكم فاسمحوا لي بالانصراف..»

ثم انطلق يركض بين الشواهد.. رحنا نرمقه ونتمنى أن يسقط فيدق عنقه..

وعلى ضوء كشاف وكلوب، رحنا نعالج الشجيرات حتى كشفناها كلها.. بالفعل كان أكثرها مجرد تعمية (كاموفلاج) كالتي يستعملونها في الجيش..

أخيرًا بدا لنا مدخل الكهف.. كأنما هو فم الموت الفاغر..

وأخذنا شهيقًا عميقًا ثم دخلنا..

☆ ☆ ☆

١٠ - الداخل..

كان هناك ممر طوله نحو خمسة أمتار..

مشينا فيه.. ولم يفتنا أن نرى بعض قطع العظام مدفونة في الأرض.. عظام أطفال على الأرجح..

وشعرت بـ (ماجي) تتنفس بعمق من طاقتي أنفها.. كدت أحطم رأسها لأنني لا أطيق هذا الصوت بالذات.. كانت منفعلة ولهذا اعتقدت أن من حقها أن تتحول إلى صافرة سفينة..

في نهاية الممر كان هناك باب موارب.. باب عبارة عن قضبان حديدية.. كأنه باب قفص.. ولم يكن مغلقًا.. كان جنزير معلقًا جواره وقد ثبت فيه قفل مفتوح.. ودون كلمة واحدة أطفأ الرجال جميع مصادر الضوء.. وحبسوا الأنفاس.. السبب هو أن الضوء كله كان يأتي من الجهة الأخرى..

ولبثنا في الظلام ننظر عبر باب القفص إلى القاعة المجاورة.. الآن نفهم أشياء عن المكان.. واضح أننا الآن تحت الأرض لأن الممر كان ينحدر بزاوية شديدة لأسفل.. ومن الواضح كذلك أنّ هناك نظام تهوية ومدخنة تخرج كل هذا الدخان إلى مكان بعيد عن المقبرة..

هناك نار.. نار مشتعلة.. وهناك من يرقص حولها..

يمكنك أن ترى النساء اللاتي يرقصن حول النار بالداخل.. كلهن منكوشات الشعر يضحكن في هستيريا وجنون.. بعضهن شابات مليحات وبعضهن قهرمانات في التسعين من العمر.. هل ترى هذه المرأة؟ نعم.. هي مسز (بانكروفت).. لقد تغيرت كثيرًا جدًّا لكن من الصعب أن تخطئها.. بالطبع لم تكن إذن في ذلك الحفل الذي رأته (ماجي) في تلك الليلة وإلا لعرفناها في الصور..

هناك رجال كذلك.. وهم يلبسون ثيابًا حمراء فاقعة اللون.. وقلنسوات.. هذا الفتى ضخم الجثة هو (أونيل) طبعًا أمّا هذا فهو - صدق أو لا تصدق - الشرطي عديم الكفاءة.. ثمّة رجلان أعرفهما لكن لا أعرف اسميهما.. إذن عاد (أونيل) من (دبلين) خصيصًا من أجل موعد الطقوس هذه..

الغناء يتعالى ولا يُمكنك أن تفهم حرفًا منه..

هناك ما يوحي بأن حفل شواء سيقام حالًا.. هناك قدر يغلي على النار وهناك نطع كبير عليه شاطور.. وهناك..

في منتصف المكان يوجد سرير حجري.. وعلى هذا السرير الطفلة مقيدة!

من بين أسنانه ووسط هذا الصخب همس (أونولان) بصوت كالفحيح:

- «واضح أن الحفل في ذروته.. لا شك أن موعد التضحية البشريّة قادم.. الخُطة كمايلي.. سأقتحم المكان أنا ورفيقاي.. ونناولكما الطفلة.. غادر المكان أنت والآنسة ولا تنظر للوراء أبدًا.. نحن نعرف كيف ندبر أمورنا..»

خطة محكمة.. والحقيقة أنه لا توجد خطة أخرى.. يمكن مثلًا أن تدخل المكان وتطالبهم بتسليمك الطفلة لكن من يعرف كيف يتصرّف هؤلاء المخابيل؟ ربما يسارعون بقتلها قبل أن تأخذها أنت..

- «الآن!!»

وركل الباب ليقتحم القاعة مع رفيقيه.. انطلق الرصاص في الهواء فتساقطت حجارة من السقف.. وعلى الفور انقض (أوليفر) على رجلين ليخنقهما، بينما راح الثاني يركل من يسدون طريقه، وهرع إلى السرير الحجري أو مائدة التقديمات، وبخنجر مزّق الحبال التي تربط الفتاة..

كان المشهد الآن قد تحول إلى جحيم.. وراحت (بانكروفت) تعوي كالذئاب:

- «لن تهربوا أيها المدنسون! لن تهربوا!! إن (رونيل السوداء) سوف...»

في هذه اللحظة وجدت الطفلة بين ذراعي، فتذكرت الخُطة وهرعت أركض في الممر و(ماجي) تركض ورائي وهي تنشج..

نظرت للوراء، فوجدت مشهدًا لا يصدّق..

إن (رايان) يمسك بجركن كبير تخرج منه خرقة من القماش، فأشعل طرفها ثم طوحها إلى داخل القاعة.. وسرعان ما جرى الرجال يغادرون المكان..

كلينج!

كان هذا صوت الباب المعدني إذ يغلق في وجه السحرة، ثم لف (أوليفر) الجنزير ليوصده بإحكام.

- «افتح أيها المدنس!!»

هنا كانت النار من الفتيل قد أمسكت في البنزين الذي يملأ الجركن، وسرعان ماتوهجت النار كأنما هي قنبلة..

هذا المشهد يأخذ مكانه في ثقة في ألبوم كوابيسي ليظل هناك إلى يوم الدين.. رباه!!

هذه الوجوه الكالحة الكريهة الممسوخة تتشبث بالباب الحديدي وتعوي كالذئاب محاولة الخروج.. تمد أيديها المخلبية نحونا.. بينما النار تنتشر وتتفاقم..

هرعنا إلى الخارج حيث ظلام المقبرة الموحي بالسلام، وكانت (ماجي) تعتصر الطفلة كأنما تريد ضغطها داخل ضلوعها.. حتى لا تسمع كل هذا الصراخ غير الكوني.. حتى لا تشم كل هذا الشياط..

انتهى الأمر.. لقد صارت الطفلة مجنونة بالتأكيد. ستحتاج إلى علاج نفسي لمدّة عشرة أعوام.. ولو لم تجن ستتحول إلى مدمنة مخدرات مثلما حدث فيما بعد للطفلة (ليندا بلير) التي قامت ببطولة فيلم (طارد الأرواح الشريرة).. إنها في منتصف العمر الآن - علم ٢٠٠١ - لكنّها مازالت تعالج من تجربة الفيلم..

أمسكت بـ (أونولان) من ياقة سترته وصحت:

- «قاتل!! لماذا فعلت هذا؟ كان بوسعنا أن نحبسهم ونأتي برجال القرية هنا..»

قال دون أن ينظر لي:

- «لقد اتفقنا على هذا مع رجال البلدة.. لايوجد مظلومون في هذا القبو.. كانوا سيجدون سبيلًا للفرار.. إنهم سحرة..»

- «لكنك حرقتهم أحياء وبدم بارد..»

- «قلت لك لم يكن مناص من ذلك ولا تستفزني أيها الطبيب.. أنت رأيت بعينيك أنهم كانوا يوشكون على التهام الطفلة..»

هل نبلغ الشرطة عن هذا؟ سوف نقرر حالًا.. المهم الآن أن نطمئن على الصغيرة..

كانت ترتجف لكنّها في حال طيبة.. طبعًا لا إجابات على أية أسئلة.. ذهول لا شك فيه.. وجهها ملطخ بالدماء لكنّها ليست دماءها.. إنها دماء رسمت عليه..

قالت (ماجي) في حزم:

- «الآن نعود إلى الخان.. غدًا نترك هذه البلدة اللعينة بأسرع ما يمكن..»

ودون أن تنتظر ردي أو ضوءنا، حملت الطفلة وراحت تشق طريقها عبر المقبرة..

☆ ☆ ☆

الخاتمة..

في التاسعة صباحًا دققت باب غرفة (ماجي) ففتحت لي..

كانت ترتدي الروب، وقد اغتسلت وتخلصت من آثار الليلة السوداء، فعادت (ماجي) التي أعرفها.. في يدها كوب من عصير البرتقال لا أدري من أين جاءت به، وعلى وجهها ابتسامة منتعشة لطيفة..

قالت لي:

- «برغم كل شيء لم نخسر واحدًا من رجالنا.. سنعود بكامل عتادنا..»

ثم غمغمت وهي تنظر في عيني:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستكون ملكي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى...»

ثم تذكرت ما جئت من أجله، فقلت لها وأنا أنظر من فوق كتفها:

- «هل الطفلة نائمة؟»

- «طبعًا.. لم تنم إلا منذ ساعتين.. ولا ألومها على شيء..»

قلت لها وأنا أتنحى جانبًا:

- «هلا ارتديت ثيابك ولحقت بي؟ إن الغرفة رقم (١٣) فارغة وبابها مفتوح.. أريد أن نتكلم هناك على حريتنا..»

ثم اتجهت إلى الغرفة المذكورة.. غرفة (لورين بلاك) الرهيبة التي بدأت كل هذه الأحداث.. جلست على الفراش ورحت أرتب أفكاري.. بعد قليل ظهرت (ماجي) على الباب في ثياب بسيطة غاية في الأناقة كعهدها..

قلت لها بعد فترة صمت:

- «صباح اليوم عدت إلى المقبرة.. كنت وحدي هذه المرّة..»

- «عدت؟ ولماذا؟»

- «كانت علامات استفهام كثيرة تضايقتي.. لم أستوعب جيدًا ما حدث البارحة.. وماذا تظنين أنني رأيت فوق شاهد قبر (رونيل السوداء)؟»

اتسعت عيناها بمعنى أنها غير راغبة في الاستنتاج، فقلت:

- «جثة مس (لورين بلاك)!!»

لم أصف لها منظر الجثة.. ولن أصفه لكم لأن هذه قصة وليست مرجعًا في الطب الشرعي أو دليلًا للسفاحين.. لكني وجدت جوارها حقيبتها بين الأعشاب وكانت تحوي رزمة من الأوراق..

- «لقد سمعت ما قلناه على الأرجح وفضلت الفرار.. عن طريق النافذة.. لقد أدركت أنها صارت هدف غضب الموجودين.. لكنّها اتجهت إلى المقابر في الظلام أو هذا ما أحسبها فعلته.. ثم...»

ومددت يدي لـ (ماجي) برزمة الأوراق التي كتبت بخط دقيق منمق..

راحت تتأملها وقالت:

- «هل قرأت الملحوظات؟»

قلبت الأوراق ثم راحت تقرأ بصوت عالٍ:

- «تنبأت الساحرة بأنها ستعود بعد ثلاثمائة عام.. من الجميل أن أكون في القرية في هذا الوقت.. يجب أن أعيش التجربة كاملة.. ألبس الأسود وأزور مقبرتها من حين لآخر.. سأتخيل أني هي.. ولن أكتب حرفًا قبل أن أتقمص الدور كاملًا..»

وتوقفت ومطت شفتها السفلى وقالت:

- «ما معنى هذا؟»..

- «معناه أن (لورين) لم تكن أكثر من كاتبة قصص رعب ثرية غريبة الأطوار، كما حسبناها من البداية.. ظلمها جمالها فجعلنا نصدق أي شيء يُقال عنها.. بينما عملية استعادة (رونيل السوداء) تتم ولا علاقة لها بها..»

- «ومن قتل هؤلاء؟»

- «ليست هي طبعًا.. هناك عدد كبير في هذه الجماعة.. لا بد أن أحدهم كان ينفرد بالضحية.. معظم الأعمال تحتاج إلى أكثر من واحد على كل حال.. طبعًا لم يكن القاتل هو مسز (بانكروفت) لأنها كانت أمامنا أكثر الوقت.. لابد أن (أونيل) الشاب لعب دورًا لا بأس به.. كذلك الشرطي..»

- «ولماذا لم نجد هذه الأوراق في حجرة مس (لورين)؟»

- «لاحظي أن الشرطي و(بانكروفت) هما من فتش الحجرة.. هل رأى أحدنا المخطوطات اللاتينية التي زعما أنهما وجداها؟ بالطبع لا.. كانا يريدان أن تثبت الصورة في أذهاننا أكثر..»

ثم مددت يدي في جيبي وأخرجت بعض الأشياء:

- «هل تعرفين هذه؟»

مدت يدها وراحت تتفحص الصور التي التقطتها في المقبرة، وهتفت:

- «كيف وجدتها؟»

- «تحت نافذتك.. لم يتخلص منها أحد.. لقد ألقيت إلقاء..»

ثم أخذت منها الأوراق ورحت أقلب حتى وجدت نص كلمات (لورين) على شكل خاطرة:

- «الآن أرجو أن تصغي لهذا الجزء: لم أفهم جيدًا نص كلمات (رونيل السوداء) وهي على المحرقة.. لكن من كانوا دانين سمعوها تتحدّث عن العودة بعد ثلاثمائة عام لتنتقم.. ستعود في شكل طفلة اسمها في المرآة.. لا أفهم هذا..»

نظرت لي في غباء فأخرجت قلمًا من جيبي وخططت على الجدار:

- «RONAELE.. ELEANOR»

وقلت في تؤدة:

- «لو قرأت (إليانور) بالمقلوب لصارت (رونيل).. كأنك تضعين الحروف أمام مرآة.. بالمناسبة الساحرة اسمها الأصلي (هيلين).. و(إليانور) تنويع على اسم (هيلين).. وجدت هذا في قاموس (وبستر) الذي أحمله دائمًا..» [1]

هبت واقفة وصاحت:

- «أكرر.. ما الذي تعنيه؟»

- «أعني أن ما رأيناه أمس لم يكن طقوس تضحية بالطفلة.. بل كانت طقوس تنصيب!! إن (رونيل السوداء) قد استحوذت على الطفلة وسوف تبدأ دورة حياة جديدة معها!!»

- «أنت مجنون!!»

- «وما الدافع الذي جعلك تأتين هنا بالذات مع الطفلة في هذا الوقت بالذات؟ يسهل أن نتصور أن من سرق الصور هي الطفلة ذاتها وهي من رماها من النافذة.. كانت قد بدأت تتحول لكن التحول لم يكن تامًا.. كان لابد من تنفيذ الانتقام أو بعدها يتم الحفل الصاخب..»

- «نحن قاطعنا هذا الحفل في ذروته..»

- «بل متأخرًا جدًّا..»

كان هذا الصوت من وراء كتف (ماجي) فأجفلنا ونظرنا للوراء..

كان صوت أنثى في منتصف العمر لكننا وجدنا أمامنا (إليانور) ذاتها حافية القدمين في قميص نومها.. وعلى وجهها ضحكة لن تصدقها مالم ترها..

كانت تقف على الباب ترمقنا بمزيج من حقد وتلذذ وسخرية وكراهية.. وقالت:

- «تأخرتما كثيرًا جدًّا.. لقد عادت (رونيل السوداء) وهذه المرّة لن يمسها سوء لأن هذا العصر لا يعترف بحرق الساحرات!»

صحت وأنا أرتجف هلعًا:

- «نحن نعرف كل شيء..»

- «لكنكما لن تستطيعا المس بي.. يومها ماذا تقولان للشرطة؟ كانت ساحرة؟»

ثم انفجرت في ضحكة مستهترة قبيحة ماجنة كريهة وخرجت من الغرفة..

وسقطت (ماجي) على الأرض باكية.. أعترف أن أعصابي لم تسمح لي إلا بالاستناد إلى الفراش.. وهتفت (ماجي) وهي تنشج:

- «لن أتركها.. إنها قريبتي.. سآخذها معي إلى (إنفرنسشاير) وسأفعل المستحيل كي تشفى..»

- «تأخذين معك من تعيش داخلها ساحرة شريرة؟»

- «لا تتوقع مني أن أربطها إلى عمود وأحرقها. إنها حالة نفسية لاأكثر.. ربما فصام من فرط كل ما عانته..»

قلت لها:

- «أنا كذلك أعتقد أن شفاءها ممكن.. إنها ممسوسة أو مجنونة.. لأن الساحرة لم تعد للحياة ولم تغادر قبرها.. ربما أمكن أن نجد حلًا..»

ولبثنا ساعات على الأرض نرتجف.. ونفكر في المستقبل الغامض..

☆ ☆ ☆

لم تنته قصة (إليانور) وكانت لي معها تتمة سأحكيها فيما بعد.. لكني كنت مرغمًا على العودة إلى مصر، وقد أنذرت (ماجي) بأن تتخلص من الطفلة في أقرب فرصة.. طبعًا كان هذا نفخًا في قربة مثقوبة لأنني أعرفها.. وأعرف نفسي..

هل الطفلة مريضة أم ممسوسة؟ لم أعرف هذا إلا بعد فترة..

أما عن أرض العظايا فكانت تنتظرني بقصة لا بأس بها من (سالم وسلمى)..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

العام ١٦٧٥ ..

العام ١٩٧٥ ..

١ - لقاء تأخر..

٢ - حسناء سوداء..

٣ - أحداث ليلية ..

٤ - عن (رونيل السوداء)..

٥ - وتهاوى السد..

٦ - كشف الأوراق..

٧ - أسطورة المقبرة..

٨ - المؤامرة..

٩ - أين هم..

١٠ - الداخل..

الخاتمـــة ..

Notes

[1←] حقيقة..

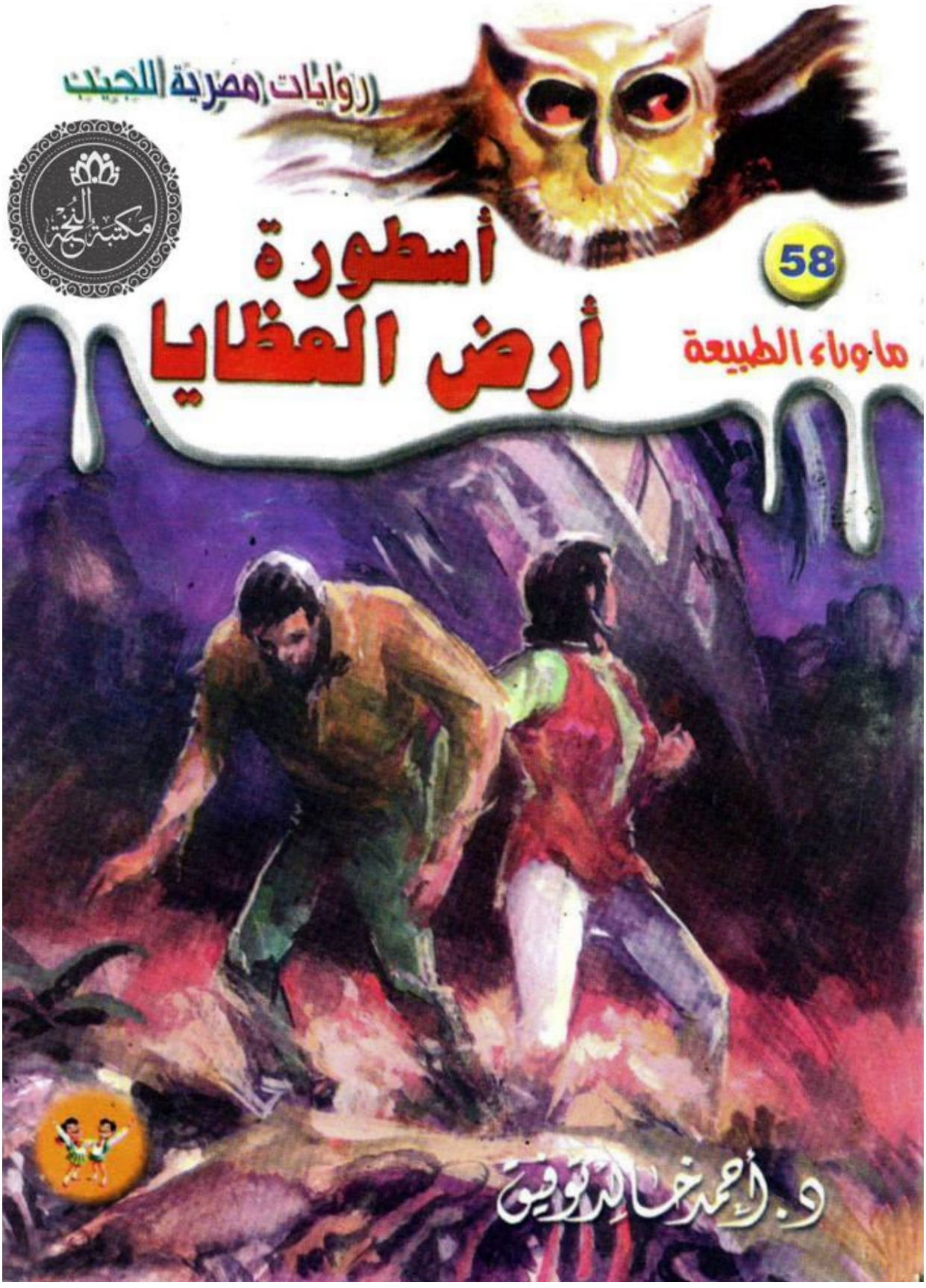
روايات مصرية للجيب

مكتبة النخلة

58

ما وراء الطبيعة

أسطورة أرض العظايا



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



حقًّا إنني أعيش في زمن أسود..

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..

الجبهة الصافية تفضح الخيانة..

والذي ما زال يضحك..

لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب..

أي زمن هذا؟

برتولت بريخت

Bertolt Brecht

(شاعر وكاتب مسرحي ألماني)

مقدمة المقدمة

هناك ذلك الظل الذي تراه أمامك.. ثم تنظر للوراء فلا ترى أحدًا..

هناك ذلك الحفيف الذي يضايق العصبيين، والذي لا مصدر له..

هناك تلك الغمغمة التي تقسم إنها ضحكة ساخرة، لكن لا أحد يضحك ضحكات ساخرة..

هناك الخوف من المجهول.. هناك التوجس.. هناك المفارقة الدرامية، حين تعرف أن الخطر ينتظر هنالك خلف الباب الموصد، لكن صوتك لا يصل - ولن يصل - إلى الأحمق الذي يوشك على فتح الباب..

هناك الخوف من الغد.. وهو - لعمري - أشد أنواع الرعب شناعة لماذا لا يكتبون على ملصقات الأفلام التي تناقش الخوف من الغد عبارة (ممنوع لأقل من 16 سنة)؟

أنا العجوز الأحمق (رفعت إسماعيل) الذي يحاول مراوغة الموت.. للدقة أكثر: مراوغة التفكير في الموت، وهذا عن طريق حكاية قصص مسلية لكم.. قصص تتمسح بالرعب.. تدنو منه أو تبتعد.. تتأبط ذراع الظواهر الخارقة أحيانًا.. تلبس عباءة الغرائب أحيانًا أخرى..

لكنها قصص لعوب.. خبيثة.. تحاول بأية طريقة كانت أن تلفت النظر لنفسها، وهي في سبيل ذلك تفعل أي شيء..

عم نتكلم اليوم؟

هل حكيت لكم قصة (المقبرة)؟ نعم؟ لم أستكملها بعد؟ غريب هذا.. خيل لي أنني أكملتها.. لكني سأطلب منكم معروفًا.. لقد تأهبت لحكاية أرض العظايا.. منذ أعوام وأنا أتوق لأرض العظايا.. القصة مكتوبة بخط الأخ (سالم) ولن تحتاج مني إلى جهد غير القراءة.. مع تصحيح بعض أخطاء القواعد، التي يمارسها بدقة غريبة كأنها هي القواعد ذاتها..

اتفقنا؟ سأفسح المجال لـ (سالم وسلمى) على أن نلتقي على خير في المرّة القادمة، ونكمل قصة المقبرة..

لماذا أفعل هذا؟

لأنكم اعتدتم نزوات (رفعت إسماعيل)، وعرفتم أنه لا يفعل شيئًا أبدًا كما يفعله السادة المهذبون الآخرون.. يبدأ من النهاية، ويتوقف في الوسط، ويخرج من النوافذ، ويشم الهواء من الأبواب..

فلنصغ إذن لـ (سالم وسلمى)..

ملحوظة مهمّة: أكثر المصطلحات والأسماء الغربية الواردة هنا قمت بكتابتها بالإنجليزية، والسبب ليس التحذلق ولكن الآن بعض الأصدقاء طالبوني بهذا مرارًا، ليسهل عليهم معرفة الهجاء الصحيح، فالبحث عن المزيد من التفاصيل في الإنترنت إذا أرادوا.. هذا مطلب عادل مهم.. ولسوف أحاول الالتزام به في كل ما أكتبه فيما بعد إن شاء الله..

مقدمة

أنتم تعرفوننا جيدًا.. أنا (سالم) وهي (سلمى).. الدليلان الحيان على وجود ما يعرف بالعوالم الموازية، وهو دليل لا يمكن إذاعته للأسف..

هي (سلمى) وأنا (سالم).. صحيح أننا زوجان لكننا كذلك نوشك على أن نكون الشخص ذاته، وهذا يسبب لنا الكثير من الضيق والهم.. سؤال الفلاسفة الأزلي: هل تشابه الطباع أفضل أم توافقها؟ كيف تستطيع المشي لو كانت كلا قدميك يمنى؟ لو رأت عيناك الشيء ذاته لفقدت القدرة على التجسيم..

نحن نجول في العوالم التي تشبه الأرض مع اختلاف بسيط.. مرة نحن في عالم لم يعرف بعد اللغة الهيروغليفية، ومرة نحن في عالم لم يظهر فيه (قطز) قط..

إن مغامراتنا حقيقيّة.. أؤكد لك هذا.. لكن كتّاب الأرض يكتبون نوعًا من الأدب يشبه ما نمر به، ويطلقون عليه اسم (التاريخ البديل) أو Allohistory.. وقد يطلقون عليه مصطلحات مثل (الخيال المضاد Counterfactuals) أو قصص (ماذا إذا؟) أو (الأوكرونيات Uchronias)..

على كل حال لن أطيل عليكم.. إن المصطلحات هي الشيء الذي يجعل الماء شيئًا مستحيل الشرب أو الفهم..

أنا وزوجتي ضيفان هنا، وقد عرفتمونا في (أسطورة أرض أخرى) و(أرض المغول).. لماذا لا تعرفوننا من جديد في (أرض العظايا)؟

لا مزيد من التفاصيل، ولن أضيع أربع صفحات في تلخيص القصتين السابقتين كما يفعل (رفعت إسماعيل).. إنّه يملك الكثير من الوقت والكلمات، بينما نحن نعاني حالة مزمنة من الشح فيهما..

هل نبدأ؟

فلنبدأ..

☆ ☆ ☆

١ - أرض أخرى..

لا أعرف السبب في أن كل مغامرة جديدة لنا تبدأ ونحن في أسوأ حال ممكن..

٢٥٠ – ٧٧..

هذا هو المكان والزمن الذي حملنا إليه الجهاز.. لو كان لي أن أحكم بالحدس فإن هذا الكوكب بهيج.. أنا مولع بالكواكب التي تبدأ برقم ٢٥٠ كما تعرفون..

كان كعبي يوشك على قتلي.. من قرءوا المغامرة السابقة يعرفون أنني تلقّيت رصاصة فيه، ولا أعرف إن كانت قد غادرته أم لا يداي غارقتان في دماء متجمدة لا أعرف إن كانت تخصني أم تخص الجثث التي قمت بسرقتها كالضباع.. أضف لهذا أن يدي نفسها متجمدة من الجليد..

٢٥٠ - ج - ٧٧..

(سلمى) ليست أفضل حالًا وإن كانت غير جريحة.. لكنها تشعر بالألم ذاته في كعبها..

كنا راقدين على الأرض وسط الرمال.. الطقس حار فعلًا وإن لم نشك من هذا..

قالت لي وهي تتحسس رأسها:

- «لا أعرف أي شيء عن هذا العالم، ولا ما سنلاقيه هنا، لكن أول تجربة سنمر بها هي اعتقالنا بتهمة التشرد.. إن منظرنا لا يوحي بالثقة..»

- «في أرضي أنا يطلقون على هذا (محضر اشتباه وتحر)..»

ثم راحت تتشمم الهواء الساخن من حولنا.. وقالت:

- «(سالم).. أعتقد أننا في المنطقة العربيّة هذه صحراء عربية ولتقطع ذراعي إن لم أكن على حق..»

- «الصحراء هي الصحراء في كل مكان فلا داعي للرهان..»

ونهضت وساعدتها على النهوض.. كنت أتواثب كاللقلق وخطر لي أنني أمشي في ثقة إلى النهاية الإغريقية المحتومة.. التلوث.. الغنغرينا.. بتر قدمي من تحت الركبة.

لا بد من حل ما..

أضفت وأنا أرمق الأفق حيث الجبال تحيط بنا من الجهات الأربع:

- «ثمة مشكلة أخرى، هي أننا لا نعرف طريق العودة.. لا نعرف أين يوجد الناس.. أرى أن تجربي مجموعة أخرى من الأرقام..»

قالت وهي تتواثب بدورها:

- «لكن المغامرة لم تبدأ بعد..»

- «حتى المغامرة لا تعرف كيف نصل إليها.. لابد من اتجاهات صحيحة تدلنا على مكان المغامرات هنا..»

قالت في ضيق:

- «(سالم)، لا تضايقني.. على الأقل لا يوجد أي عامل ضغط من حولنا.. نحن حران مسيطران على الموقف فلماذا لا نتمهل بدلًا من إحباط كل شيء قبل أن يبدأ؟»

وكانت هذه هي المزية الفريدة لتجربتنا.. أنا أحب الأماكن التي يوجد لها باب هرب خلفي للطوارئ.. في اللحظة التي تسوء فيها الأمور، تمسك بالجهاز و(كليك.. كلاك..).. تنتهي كل المشاكل في ثانية.. وتبدأ من جديد.. لطالما تمنيت في كل مأزق حياتي - قبل أن ألقي (سلمى) - لو كان عندي هذا الباب الخلفي..

ثمّة مشكلة واحدة.. هي أنني لا أعرف على الإطلاق ما هي حياتي الحقيقية.. ما هي مشاكلي الحقيقية.. لابد من نقطة ارتكاز تقف عليها وتجرب الاحتمالات.. لكني بدأت في أفقد نقطة الارتكاز هذه.. كان (أرشميدس Archimedes) يقول: هاتوا لي نقطة ارتكاز خارج الكرة الأرضية، ولسوف أخترع روافع تحرك الأرض.. حتى (أرشميدس) لم يجد نقطة ارتكاز..

واصلنا السير..

وأنا نمطي جدًّا في مشاعري.. ما إن أرى الصحراء حتى أشعر بالظمأ.. هكذا دون أن أعطي خلاياي فرصة تجربة الجفاف.. وقد بدا لي الأمر رهيبًا..

- «هل تشعرين بالظمأ؟»

- «كف عن المزاح.. أنت تعرف أننا متطابقان شعوريًا.. لكن الأمور لم تتطور إلى هذا الحد..»

سبحان الله.. منذ ربع ساعة كنت أرتجف بردًا وسط الثلوج.. والآن أنا أموت عطشًا في الصحراء..

كنا نمشي وسط الرمال الناعمة الساخنة.. لا توجد نقطة ظل من أي نوع.. لابد أنه متوار في مكان ما تحت أقدامنا.. لعابي لزج ثقيل.. الهواء الساخن يخرج من أنفي كأنما يخرج من فتحة فرن..

قلت لها في ضيق:

- «أرى أنّ هذا يكفي..»

- «ربع ساعة في هذا العالم؟ إذن أنت لن تجد مكانًا يناسبك في الكون كله.. تريد مكانًا بلامعاناة من أي نوع؟»

- «أصبت! هذا من حقي ما دمت أملك الاختيار..»

☆ ☆ ☆

لكن الأمور لم تتحسن..

لابد أننا مشينا نحو ساعة أو أكثر بلا جدوى..

هناك جبال من بعيد.. جبال تعسة فقيرة لا تسر الناظرين، عليها بعض نباتات أو طحالب كئيبة المنظر وعلى كل حال ليس بلوغ هذه الجبال بالهدف المحبب لا بد أن تلك التجاويف تحوي ثعابين أو عقارب أو أي شيء من تلك الأشياء التي تعرف كنهها، لكنّها بشعة تتحرك!

وفجأة تعالى صوت الهدير من بعيد..

بللت شفتي السفلى بلسان جاف وهمست:

- «طائرة!»

قالت وهي تنظر لأعلى:

- «هذا صحيح.. لكن أين؟»

الهدير يأتي من كل مكان، ثم بدأ الأمر يتحسن..

إنه آت من الغرب..

أخيرًا لاحت لنا الطائرة العمودية.. قادمة من الأفق تزحف نحونا في إصرار وتؤدة..

لسبب ما لم أحب هذه الطائرة..

وثبت (سلمى) في الهواء ملوحة بيدها.. وراحت تصدر أصواتًا مثل (أووه! هيييه! نحن هنا!)

قلت لها في توجس:

- «اصمتي يا بلهاء.. هؤلاء قد لا يكونون ملاكًا إن الملائكة لا تأتي دومًا بطائرات مروحية..»

ونظرنا لأعلى.. لم يكن لكلامي جدوى، فالسمع ليس من الحواس التي يحتاج إليها هذا الطيار؛ لأننا منظوران واضحان تمامًا.. لو لم يرنا هذا الطيار فهو أول طيار كفيف في التاريخ..

الآن صارت الطائرة فوقنا، والذي أثار دهشتي أنها لم تطلق وابلًا من النيران.. لم تقذف علينا قنبلة.. لم ترسل لنا سلمًا من الحبال.. لم تفعل شيئًا على الإطلاق..

ظلت تحوم حولنا على ارتفاع أمتار، واستطعت أن أرى أنّ هناك من يطل من بابها..

وكان يحمل كاميرا..

بعد قليل فهمت أنهما رجلان ينظران لنا باهتمام وكلاهما يحمل كاميرا..

..ESF

متى رأيت هذه الحروف وكيف؟ لا أعرف.. فيما بعد عرفت مصدرها.. كانت مكتوبة على الطائرة، لكني لم أجد الوقت الكافي لتبينها، ولهذا تسربت إلى عقلي الباطن.. هذا شيء معروف.. كل خبير في علم نفس الإعلان يعرف هذا..

على الرغم منى ابتسمت محاولًا أن أكون وسيمًا.. وتخيلت صورتي من أعلى أنظر إليهما بأغبى نظرة ممكنة..

لماذا لا يمدون لنا يد العون؟ لماذا لا يقتلوننا؟ لماذا لا يقولون شيئًا؟

قالت (سلمى) وهي تنظر لأعلى محاولة أن تتحاشى نور الشمس.. الشمس التي تتوارى خلف الطائرة كاشفة عن أنيابها من حين لآخر لتحرق عيوننا بألف نصل ساخن:

- «(سالم).. يبدو أنك كنت على حق..»

- «أنا دومًا على حق.. ولكن لماذا؟»

- «هناك رجل ثالث يصوب بندقية نحونا!»

☆ ☆ ☆

٢ - أرض العظايا..

انطلقت الرصاصة..

لم أعرف ما حدث.. وحسبت أنها أخطأت طريقها..

لكني نظرت إلى الوراء نحو (سلمى) فوجدتها تجثو على ركبتها وتمد يدها إلى شيء في كتفها.. كانت تترنح..

هتفت كمن يولول:

- «أيها الأوغاد!!»

وتواثبت نحوها.. رأيت ذلك الشيء مغروسًا في كتفها.. لم تكن هناك دماء.. كان هناك ما يشبه الريشة الهفهافة البيضاء يخرج من ثيابها.. ولم أفهم في البدء ثم تذكرت:

- «هذه طلقة مخدرة.. إنهم...»

لكنّها كانت تترنَّح مغمضة العينين.. ثم هوت على وجهها وسط الرمال..

نظرت لأعلى ولوحت بقبضتي وأطلقت فيضًا من الشتائم، لكني حين نظرت لركبتي وجدت ذلك السهم ذا الريشة يتشبث بلحمي في ثبات! لقد أصابوني لا أعرف متى ولا كيف..

الظلام يبدأ من مركز الرؤية ثم ينتشر كبقعة من الحبر..

أسمع صوت الطائرة يتعالى..

أشعر بالهواء العنيف من مراوحها..

..ESF

..ESF

أعرف أنها تهبط وأنني...

☆ ☆ ☆

حين فتحت عيني كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها د. (ستارسكي)..

حاولت تحريك ذراعي فلم أستطع.. السبب طبعًا هو أنني مكبل بسيور جلدية إلى مقعدي..

المكان خليط غريب من المختبر وقاعة المحاضرات والمطبخ ومكتب وكيل الوزارة.. أمّا الرجل الذي ينظر في عيني باستعمال كشاف صغير فهو د. (ستارسكي) كما عرفت فيما بعد..

كان يمسك بلوح كتابة من الطراز الذي تثبت فيه الأوراق بمشبك.. وجواره يقف ثلاثة يرتدون المعاطف ويحمل كل منهم شيئًا مماثلًا..

قلت في وهن:

- «أين نحن؟»

نظر إلى من حوله، وقال بلهجة واثقة:

- «كما قلت لكم.. هو يتكلم لغة ما.. أحسبها العربيّة..»

نسيت أن أقول إنّه قالها بالإنجليزية.. لست خبيرًا في اللهجات لكني أحسبها إنجليزية أمريكية.. كما ينطقونها في الأفلام.. كأن كل أمريكي مصاب باللحمية إلى أن يثبت العكس..

لم أكن ضليعًا في الإنجليزية، لكني تلقّيت قسطًا هائلًا من التدريب في القصة السابقة، وصرت بالفعل أجيدها لهذا عدت أكرر سؤالي بالإنجليزية:

- «أين نحن؟»

ثم تذكرت السؤال الأهم:

- «أين (سلمى)؟»

نظر إلى جواري نظرة ذات معنى، فاستدرت لأرى أن (سلمى) مقيدة على مقعد مجاور لي.. كانت غائبة عن الوعي لكنّها حية.. صدرها يعلو ويهبط ورأسها يموج بحركة ما..

قال الرجل وهو ينظر إلى الآخرين:

- «يعرف الإنجليزية.. هذا غريب..»

ثم قال لي وهو يواصل تفحص عيني:

- «اسمها (سلمى)؟ هذا اسم عربي على ما أظن؟»

- «من أنت؟»

- «ما سبب تلك الطلقة في كعب قدمك؟»

وهنا تذكرت الطلقة، ونظرت لأسفل لأجد أن كعبي مضمد بعناية لا بأس بها.. والأهم أن الألم زال تمامًا.. هؤلاء السادة لم يتركوا قدمي تتعفن حتى تبتر.. هذه نقطة لهم.. لكني لست سريع الصفح بهذه الدرجة:

- «من أنت؟»

هنا جاءت الإجابة من أحد الواقفين:

- «هل نحلل عينات الدم الآن يا د. (ستارسكي)؟»

هز رأسه أن نعم.. ثم مد يده إلى جيبه وأخرج شيئًا..

كنت حتى هذه اللحظة أعاني دوارًا كأن هناك طبقة ضباب ملتصقة بوعيي والعالم كله.. عوينات متسخة بالشحم لا يمكن خلعها أو غسلها..

لكني رأيت ما في يده فتنبهت حواسي على الفور..

هذا هو جهاز الانتقال.. طبعًا كان في جيب (سلمى) ووجدوه، وطبعًا لا يعرفون كنهه.. ومن الواضح أننا سنعاني الكثير حتى نسترده ثانية.. لقد ولدت المغامرة والحمد لله!

قال لي في برود:

- «ما هذا الجهاز؟»

كانت هناك كذبة واحدة جاهزة، وقد قررت أن أستعملها لمرّة أخرى:

- «هذا منظم لضربات القلب.. إنها تعتمد عليه للبقاء حية..»

ابتسم ونظر في عيني:

- «أنت سمعتهم يدعونني بـ (دكتور).. أنا طبيب وليس من السهل خداعي.. ثق من أنني رأيت كل أنواع منظمات القلب.. وعلى كل حال لا أفهم من أين يُمكنك الحصول عليه؟»

- «هذا هو الطراز الذي لم تره..»

- «ليكن.. سأتحمل المخاطرة وأفترض أنك كاذب.. والآن هلا قلت لي كنه هذا الجهاز؟»

- «ليس لديَّ سوى ما قلت..»

- «ماذا تفعلان في أرض العظايا؟»

- «لا أعرف عم تتحدّث..»

نظر لي كأنما أسقط في يده بفضل ثباتي وقوة شكيمتي.. ثم التفت إلى الرجال وقال:

- «خذوهما إلى الداخل..»

إذن نحن في الخارج.. ولم أدر كيف ولا متى فكوا قيودي.. ولا كيف صارت (سلمى) تمشي على قدميها بطريقة ثملة تدعو إلى الشفقة..

لكننا في النهاية وجدنا مجموعة من الأقفاص البائسة.. أنا لا أعرف شكل الأقفاص التي كان الرومان يسجنون فيها العبيد قبل المصارعة، لكن هذه لم تختلف كثيرًا..

رائحة عطنة.. ظلام دامس.. باب حديدي صدئ ينغلق.. قفل ثقيل يوضع..

ثم شيء يزاح من تحت الحديد.. طعام على الأرجح أخيرًا نطقت (سلمى):

- «هل.. هل الجهاز معك؟»

أرحت ظهري إلى حديد القفص وتنهدت:

- «أخذوه طبعًا يا حمقاء.. ماذا كنت تتوقعين؟ لقد صار هذا مملًا..»

بللت بلسانها شفتها السفلى.. فزحفت على ركبتي إلى حيث كان الشيء الذي أدخلوه لنا.. تحسست بيدي فشعرت بأصابعي تنغرس في مادة لزجة.. غالبًا هي تؤكل لكن ملمسها لا يدعو إلى الحماسة، وثمّة دورق ماء يحيط به البلل الرطيب الجميل..

حملته وزحفت إلى حيث كانت جالسة في الظل.. أراها بصعوبة لكنّها غير مختفية.. ناولتها الدورق فراحت تجرع الماء في نهم حتى اكتفت.. ثم تناولت الدورق لأنال نصيبي..

قالت وهي تلهث في الظلام:

- «أين نحن بالضبط؟»

قلت لاهثًا بدوري من دون سبب:

- «سألت كل هذه الأسئلة السخيفة من قبل.. بل وسألت: من هؤلاء.. وماذا يريدون منا.. لا إجابة.. المؤكد أن هؤلاء أمريكيو هذا العالم.. وأنّ هناك من يدعي الدكتور (ستارسكي).. يبدو أنه عالم أو شيء من هذا القبيل وقد اصطادونا بطريقة تذكرني بصيد الغزلان البرية النقطة الأخيرة هي أنّ هذه أرض العظايا..»

كررت الاسم في استهجان:

- «عظايا؟»

وضغطت على (العين) كأنها موشكة على القيء.. ثم أردفت:

- «ما دور العظايا في الموضوع؟»

- «لا أدري.. وأكون مشكورًا لو عرفت منك ماهي العظايا..»

قالت في الظلام:

- «العظايا هي الديناصورات.. عظايا الرعب (وساوروس).. العظايا الطاغية (تيرانوسوروس).. إلخ.. هل رأيت أية سحلية هنا؟»

- «لم أر.. لاحظي أنني غبت عن الوعي بعدك بدقيقة..»

قطبت (سلمى) في الظلام.. تسألني كيف عرفت؟ ألا تعرف الصوت المقطب حين تسمعه؟

قالت:

- «ترى ما هو سر هذه الأرض؟»

☆ ☆ ☆

٣ - ESF..

- «منذ متى أنتما هنا؟»

أجفلنا من الرعب، ثم تبينت أنّ هذا الصوت المنهك يأتي عبر القضبان..

قلت لها وقد أمسكت بيدي رعبًا:

- «لا تخافي.. هذا هو الموقف الشهير.. مع (الكونت دي مونت كريستو) يكون هذا الجار هو السجين (فاريا) الذي يعرف سر الهروب.. حتى في السجون عندنا تسمعين من الزنزانة المقابلة من يسألك: ما هي تهمتك يا (زمل)؟ بضم الزاي والميم طبعًا..»

ثم بحثت عن مصدر الصوت وهتفت:

- «نحن هنا من دقائق.. من أنت؟»

وهنا فَطنْتُ لحقيقة أنه يتكلم العربيّة.. عربية غريبة مُضَعْضَعَة نوعًا لكنّها كافية..

قال الصوت المتعب من مكان ما عبر القضبان:

- «أنا (إسماعيل خان).. عالم باكستاني.. لا أعرف إن كان هذا يفيدكما..»

قلت له في تعب:

- «أعتقد أنك تملك الإجابة عما يحدث هنا..»

- «سوف تريان..» - قالها في غموض - «سوف تريان..»

حتى رفيق السجن أو (الزمل) - بضم الزاي والميم طبعًا - لا يبدو ثرثارًا هنا.. كل الأطراف غير عادلة تتوقع منا أن نعرف بنفسينا وإلا فلا.. على كل حال أعتقد أنّ هذا الرجل ليس عربيًا على الإطلاق ربما هو هندي أو أفغاني أو ماليزي..

وهكذا مرّت علينا الساعات.. بين نوم واكتئاب، واكتئاب ونوم.. وتساؤلات لا تنفد أبدًا..

بعد ساعات أو أيام أو أشهر - لا يمكن معرفة الوقت في هذا الظلام الدامس - جاء من يصحبنا إلى ما يشبه غرفة التحقيق..

لا بد أنها كانت ساعات.. لانني لم أحتج إلى استعمال الحمام مرة واحدة ولو احتجت لوجدت نفسي في مأزق..

☆ ☆ ☆

الآن وقد ثبت إلى رشدي قليلًا يمكن أن أصف لكم الدكتور (ستارسكي).. إنّه رجل ذو ملامح مزعجة.. يمكن أن تقول بشكل سطحي إنّه وسيم أشقر.. لكن في وجهه قسوة وبرودًا، وهو من طراز الوجوه التي لا تشيخ مما يثير الرعب في عروقك.. كأنه وجه مصاص دماء أو (زومبي)..

كان هناك مقعدان، وكان هناك عدد من الحراس مفتولي العضلات يدسّ كل منهم سماعة في أذنه.. لا أعرف من اكتشف أن الرأس الأصلع يجعل المرء يبدو أضخم وأشرس، لكن هذا الاكتشاف بلغ هذا العالم.. وكانوا يلبسون بزات عسكرية ما لكن بلا غطاء رأس.. هذا المكان عسكري إذن..

لماذا يلف كل منهم حول عضده شارة تقول ESF؟ ما معناها؟

ثمة جهاز تسجيل يدور ببطء، وثمّة إضاءة تذكرك بغرف استجواب النازيين..

ما إن دخلنا حتى أشار لنا بالجلوس، وقال:

- «هل أقدم لكما مشروبًا؟»

- «بالتأكيد..»

فالحقيقة أن الحرارة كانت مرهقة بالفعل.. من الواضح أننا لم نفارق المنطقة الصحراوية بعد..

جاء أحد الحراس حاملًا زجاجة بها سائل أصفر، وبعض الأكواب الملأى بالثلج، فقال الطبيب وقد رأى ارتباكنا:

- «عصير برتقال لا أكثر.. نحن في وحدة عسكرية ولا يسمح بالكحوليات.. أعرف أنكما معشر العرب لا تشربونها أصلًا..»

وهكذا أمسكت بالكوب.. ونظرت إلى (سلمى).. كانت ترشف ما في كوبها، وخلاياها تنتعش.. تينع بعد جفاف فعلت مثلها وشعرت بما شعرت به..

هنا نظرت إلى المنضدة فرأيت الجهاز العزيز.. جهاز الإنتقال.. إنّه هنا..

قال الطبيب وهو يصب لي كوبًا آخر:

- «والآن هل يُمكنك أن تتكلم؟ من أنتما؟ لماذا أنتما هنا؟ هل أنتما عربيان حقًّا؟»

ثم لوح بالجهاز:

- «وهذا؟ ما وظيفته بالضبط؟»

قالت (سلمى) وقد بدا أنها تحبس أنفاسها:

- «هذا جهاز خاص للترجمة.. هل تسمح لي؟»

مد يده في تردد ووضع الجهاز في كفها المفتوحة أراح ذقنه على قبضته وراح يتابع ما تفعله..

- «نطلب رقمًا.. ليكن ٣٠٠ مثلًا.. ثم نضغط حرفًا.. ليكن (الهاء).. ثم...»

كان الجهاز على حجرها، وكانت تضغط على بإصبع واحد، ثم إنها مدت يدها اليسرى في رفق بيدي اليمني من تحت مستوى النظر..

- «نختار رقمًا مثل...»

هنا هتف الرجل:

- «كفى!»

- «لحظة.. ٢.. ٨...»

- «قلت كفى!!»

ثم نهض بسرعة البرق وانتزع - ذلك الوغد الذكي - الجهاز من يدها قبل أن تتم عمليتها، وقال وهو يدسه في جيبه:

- «لا أعرف ما أنت بصدده لكني لن أسمح بأن تنجحي فيه.. والآن أرجو أن تجيبا عن أسئلتي..»

قلت له وأنا أضع الكوب:

- «أسئلتي مثل أسئلتك بالضبط.. من أنتم؟ لماذا أنتم هنا؟ هل أنتم أمريكيون؟»

تبادل النظرات مع الرجال تم سألني:

- «ما معنى (أمريكيون)؟»

تبادلت نظرة مع (سلمى).. إما أن تمييزي للهجات فاشل وإما أنّ هذا هو الاختلاف الأساسي.. هذا عالم لا توجد فيه أمريكا.. طبعًا سيتضح أن (كولومبوس Colombes) لم يصل إلى ساحل أمريكا، ربما لأنّه كان أحمق، وقد غرقت سفينته.. أو لأن بحارته ثاروا وألقوه لأسماك القرش.. وهو ما كان سيحدث في عالمي على كل حال لولا أنهم بلغوا الشط قبل أن يتموا خطتهم..

هكذا لم أجب وأجابت (سلمى) عن السؤال بآخر:

- «ما حقكم في احتجازنا؟ هل أنتم شرطة؟»

تنهَّد الرجل في إنهاك، وراح يصف أوراقه، ثم قال دون أن ينظر لنا:

- «واضح تمامًا أننا لن نصل لطريق مشترك.. كلما سألت سؤالًا تلقّيت آخر.. لا بد من أن يجيب أحد الطرفين عن الأسئلة أحيانًا..»

- «قل هذا لرجالك ولنفسك..»

أشار إلى الشارة المعلقة على عضد الحارس الواقف جواره، وقال:

- «نحن من الـ ESF.. هل هذا كاف؟ هذا يعطينا كل الحق في استجوابكما..»

- «وما هي الـ ESF؟»

بدا كأنما تعلم أسلوبنا في عدم الإجابة على شيء، فنهض ورتب أوراقه، ثم قال وهو يغادر المكان:

- «ثمّة طائرة ستحملكما إلى (لوس أنجلس) صباحًا.. أعتقد أنهم هناك سيعرفون عنكما كل شيء..»

(لوس أنجلس)؟ إذن ما معنى أنه لا يعرف معني لفظة (أمريكيون)؟

دنا منا أحد الحراس.. إنِّه غير مسلح لكن من الواضح أنه لن يتورع عن استخدام العنف.. وهكذا مشينا معه في تهذيب.. لكنه لم يقتدنا إلى الأقفاص إياها.. بل إنّه أجلسنا في مكتب مكيف مريح نوعًا.. مكتب لا يحوي إلا جهاز كمبيوتر وثلاجة صغيرة.. ثمّة نافذة صغيرة وأريكة وثيرة وبعض نباتات الظل.. هناك - لحسن حظ الجميع - حمام صغير نظيف في غرفة صغيرة جانبية..

ثم أغلق الحارس الباب..

بمجرد خروجه فعلت (سلمى) الشيء الذي كنت أعرف أنها ستفعله باعتبارها بارعة في الإلكترونيات.. لن أقول إنها أكثر براعة مني، لأنّه لا براعة لي على الإطلاق.. لا يمكن أن تقارن بيننا على أساس كثافة شعر اللحية أو نسبة هرمون الأنوثة.. هذه أمور غير واردة أصلًا..

لقد فتحت جهاز الكمبيوتر! هذه معجزة كما ترى..

قالت في ضيق وهي تتأمل الشاشة:

- «ليس لديهم نظام تشغيل أعرفه.. مثل (الخوارزمي) أو (الإدريسي).. لا أعرف كيف يبدأ البحث في هذا الشيء..»

تذكرت أن الكمبيوتر في عالمها اختراع عربي صرف، وليس لديهم أسماء كالتي نستعملها على غرار (ميكروسوفت) و(النوافذ).. الخ..

لكن على الشاشة - حيث ما تسمونه سطح المكتب - كانت هناك صورة عملاقة الديناصور (سبيونوسوروس Spinosaurus) ضخم يقف جوار بحيرة واعدًا بخراب بيت من يقترب.. وكانت هناك الحروف المعتادة ESF كتبت بحروف مجسمة عملاقة كأنما تطير مع السحب في السماء..

فيما عدا هذا بدا كأن الشاشة جدار مبهم لا يمكن تجاوزه..

حتى الصور الصغيرة - هل تسمونها الأيقونات؟ - كلها تمثل ديناصورات منوعة..

أغلقت الجهاز وقالت:

- «لا أعرف.. لا يبدو لي هذا المكان ذا طابع عسكري.. كأني بهذا الحاسوب خاص بصبي يهوى الديناصورات..»

قلت لها في ضيق:

- «صدقيني أنا لا أهتم كثيرًا سوى بالحصول على الجهاز الكريه.. في المرّة المقبلة يجب التأكد من أنه مخفي بعناية.. ربما لو ابتلعته لكان الأمر أفضل..»..

قالت وهي تجوب الغرفة جيئة وذهابًا:

- «لو تركنا الأمر لك لانتهت كل احتمالات هذا الجهاز خلال ساعة.. ولن نعرف شيئًا أبدًا..»

- «أنا لا أبالي كثيرًا.. لاحظي أننا نتعلم عن عوالم أخرى، لكننا لن نعود أبدًا للعالم الذي تكون فيه هذه المعلومات ذات قيمة.. هل تفهمين ما أقول؟ لفظة (عجيب) و(غريب) لا معنى لها إلا في أرضي أنا.. أمّا هنا فلا قيمة لرأيك..»

لم تكن تسمع ما أقول.. كانت تنظر إلى النافذة..

ثم اتجهت لها ورفعت الزجاج.. كانت هناك شبكة دقيقة مخصصة لإبعاد البعوض، لكن لا توجد حماية أخرى من أي نوع.. ومن الخارج كان الظلام وبعض مصابيح قصية ونسمة هواء حانية رقيقة..

- «إنهم حمقى.. ما رأيك؟»

- «ومن أدراك أن الخارج أفضل؟»

- «لا أحتاج إلى حكمة العالم كي أختار الفرار من أي مكان مغلق يقف على بابه حارس.. سل عن هذا أية قطة أو ذبابة تحترم نفسها.. أي مكان هو أفضل من المكان المغلق الذي يقف عليه

حارس..»

- «والجهاز؟»

- «لن نستطيع استرداده لو حملونا إلى (لوس أنجلس).. ثق بهذا..»

ثم بحثت قليلًا حتى وجدت فتاحة ورق على المكتب غرستها في السلك فبدأ ينهار..

تبًّا! لابد أن قرحتي عادت تنشط من جديد..

تدريجيًا اتسعت الثغرة أكثر فأكثر.. وهكذا نظرت لي باسمة، ثم حشرت جسدها في الفتحة.. نسيت طبعًا أن أقول إننا في الطابق الأرضي..

لم يبد لي هذا مريحًا.. ليس الأمر بهذه البساطة لا يجب أن يكون بهذه البساطة..

على كل حال انتهى ما كان يربطني بهذه الحجرة، فحشرت نفسي عبر الفتحة لا يكلفك هذا أكثر من بضعة تمزقات في الكفين، لكنك تعبر في النهاية..

أخيرًا نقف في الخارج..

الرمال والبرد والظلام.. نحن في الصحراء ليلًا.. هذا واضح..

لا يوجد حراس.. هذا واضح.. هناك كشافات من بعيد، لكنّها كشافات محايدة ودود لا تبحث بل تنتظر..

مشينا في الظلام عاجزين عن معرفة وجهتنا بالضبط لا فارق عندنا إن سمعنا (قف!) أم لم نسمعها.. المشكلة الوحيدة هي أن نسمع صوت الطلقات.. لكن لا يبدو أنّ هناك طلقات حتى الآن..

كان هناك هدير محرك، والهدير كان آتيًا من سيارة تقف هنالك على اليسار.. سيارة عسكرية هي.. شاحنة عليها علامة ESF اللعينة المعتادة، وكانت تلوث الهواء بلا كلل..

هناك جندي يقف على بعد يثرثر مع صديقه ويبدو أنه يمزح.. لكمات على الكتفين وسباب إنجليزي فظ..

وبالطبع خطرت لنا نفس الفكرة معًا..

اتجهنا إلى مؤخرة العربة.. وثبت إلى ظهرها، ومددت يدي إلى (سلمى) أساعدها على الوثب..

كانت هناك أغطية لعلها قماش خيام.. لا أعرف.. إن الظلام يجعلني لا أرى يدي كما لاحظتم..

المهم أننا تدثرنا بهذه الأغطية ورقدنا على بطنينا وهكذا صرنا في معزل عن الأبصار.. محرك يهدر.. معني هذا أن الرجل سيرحل، ولو عاد ليغلق المحرك وينام لقتلني الغيظ..

فجأة سمعت (سلمى) تهمس في أذني:

- «هناك أشياء صلبة تحت قدمي.. هل تشعر بها؟»

- «لا.. لا أعتقد..»

مدت يدها تتحسس وهي تغمغم:

- «صبرًا.. سأرى.. يبدو لي أن...»

ثم صرخت صرخة أنثويّة هستيرية متقنة جدًّا:

- «(سالم)!! هذه السيارة محملة بعظام بشريّة!!»

☆ ☆ ☆

٤ - الصيادون..

مددت يدي تحت الغطاء ورحت أتحسس..

حقًّا هناك عظام.. لكن من قال إنها بشريّة؟ كل العظام تتشابه وإلا ما كان تمييز العظام المفتتة معضلة معروفة في الطب الشرعي.. هذا بالطبع مالم تجد جمجمة واضحة تنهي التساؤل..

قلت لها همسًا:

- «خفّضي صوتك يا بلهاء.. هناك عظام لكن من قال إن؟»

- «أنا أعرف هذا...»..

حسن.. ها نحن أولاء نعود إلى الحدس الأنثوي.. النقطة التي لا نجرؤ معها نحن الرجال على الكلام ويخرسننا بها.. هن شفافات نقيات الروح ونحن ماديون مغلقو الروح كالحجارة.. ليكن.. لكن هذا لا يغير من خطتنا شيئًا سنبقى هنا لأن مغادرة السيارة قد يكون أخطر من ركوبها..

الحق أنّ هذا القرار كان صعبًا لأنهّا دخلت في حالة هستيرية وراحت ترتجف وتتشنج..

هنا تعالى صوت هدير المحرك.. وكان يوحي بالحركة هذه المرّة..

إننا ننطلق..

هكذا توارى صوت نشيجها ورحنا نفكر صامتين، بينما رأسانا يرتفعان ويهويان..

لحظات توقف وكلام ثم تحرك.. واضح أنّ هناك نقاط حراسة يقدم عندها السائق أوراقه.. أرجو ألا تكون هذه النقاط تفتش الحمولة..

أخيرًا يبدو أن السيارة تنطلق فعلًا..

أزحت الغطاء قليلًا فرأيت الصحراء المظلمة.. النجوم جلية محددة كما لم أرها قط.. ثقوب صنعت بدقة في الغطاء الأسود الذي يغلف الكون.. ومن بعيد وحوش لا يمكن أن تعتقد أنها جبال ما لم تلمسها..

ومن أمامنا لم يكن يشق الظلام إلا ضوء السيارة الخافت.. كأنه عصا سيدنا (موسى) تشق أمواج البحر الأحمر.. طريق يولد في كل لحظة ويختفي في اللحظة ذاتها ليولد مزيد منه..

الأغرب هنا أنني أرى مشهدًا على كوكب آخر.. مجرة أخرى! لا أعرف كيف أصف هذا.. لا أعرف كيف أصدقه.. لكنه بالتأكيد حقيقي..

ارتجفت رهبة.. تمالكت نفسي.. ثم ألصقت وجهي بوجه (سلمى) وقلت بصوت عالٍ هذه المرّة:

- «أعتقد أنّ هذه العظام آدمية بالفعل و...»

- «قلت لك هاذاااا!!»

وبدأت في مزيد من الصراخ، فوضعت يدي على فمها لتخرس قليلًا:

- «لم أطلب منك استئناف الهستيريا.. دعيني أكمل كلامي.. ما دامت هذه العظام آدمية وهذا معسكر حربي، فمن الواضح أن الأمر يتعلق بجريمة حرب ما.. هذه العظام تخص ضحايا المعسكر!»

- «وماذا تقترح؟»

- «ثمّة احتمال لا بأس به في أن يكون هدف هذه الرحلة التخلص من هذه العظام - بقايا مذبحة ما في الصحراء بعيدًا عن العيون، وهذا يضع أمامنا احتمالًا لا بأس به أن تكون الصحراء نهاية الرحلة وبعدها يعود الرجل إلى المعسكر أي أننا لسنا ذاهبين إلى أي مكان.. إن هي إلا رحلة في هواء الليل بعدها نعود حيث كنا..»

بدأت تستجمع ذكاءها نوعًا، وقالت:

- «لا أرى هذا.. لن يستطيع السائق وحده إفراغ العربة.. لا بد من أيدٍ عاملة معه..»

- «ومعنى هذا؟»

- «معناه أنه بالفعل ذاهب إلى مكان ما.. قاعدة أو محطة أو مدينة..»

وهكذا لبثنا راقدين نراقب الصحراء.. الصحراء الصامتة العجوز التي لا تعبأ بشيء.. لقد رأت الكثير ولم تعد تهتم بسيارة عابرة..

فقط ارتجف لفكرة أنّ هناك في الظلام تتحرك ألف حياة وحياة.. ألف حياة تنتهي بين أنياب ألف حياة تحاول الاستمرار.. ترقد بين العظام تحت غطاء من النجوم في صحراء مجهولة قاصدة وجهة لا تعرفها.. كل هذا على مجرة لم تسمع عنها قط لكنّها تشبه عالمنا سطحيًا..

وفكرت في منظر السيارة وهي تعبر المدى الصحراوي في هذه الساعة.. مسكينة هي الأشباح والغيلان في الفيافي! لا بد أنها تصاب بهلع كبير حين ترى هذا المشهد المخيف يقطع خلوتها..

لا بد أنني نمت.. من اليقين أنني لم أغمض عيني ثانية واحدة، لكن كيف تفسر أن وعيي غاب عن الكون للحظات، بعدها شعرت بـ (سلمى) تهز كتفي..

- «يبدو أننا ندنو من شيء..»

رفعت رأسي، فوجدت بوابة عملاقة تدنو منا ببطء..

بوابة تحرس ما بدا لي كمدينة صحراوية كاملة.. رقعة تستحم في أضواء باهرة.. وثمّة مبان حقيقيّة تتناثر هنا وهناك..

قالت لي:

- «هل ترى أن نثب الآن؟»

فكرت حينًا ثم هززت رأسي أن نعم.. ليس من مصلحتنا أن نجتاز هذه الأسوار.. لا نعرف ما يوجد بالداخل، ثم إن الاحتمال الأعم هو أن يأتي عمال ليفرغوا الشاحنة.. هذا هو ما توقعته..

لا أعرف ما يدور خلف هذه الأسوار.. هل هذا مدفن عملاق لضحايا المعسكر السابق؟ لن أندهش لشيءٍ حتى ولو اتضح أنّ هذه (لوس أنجيليس) نفسها..

كانت سرعة السيارة الآن أقرب إلى التوقف منها إلى السير.. نهضنا ثم وثبنا..

وبعد قليل كنا على الرمال الباردة المبللة بالندى..

هكذا يمكن إلى حدٍ ما القول إننا عدنا إلى لحظة البداية.. فقط ازددنا علمًا - أو حيرة - وفقدنا الجهاز..

خلف أحد الكثبان القريبة رقدنا منبطحين ورحنا نراقب المشهد الذي يدور من بعيد.. البوابة تفتح والسيارة تتقدم ببطء إلى الداخل.. البوابة تغلق.. الأضواء الصامتة لا تثرثر بالكثير..

قلت لـ (سلمى):

- «تعالي نحاول ترتيب ما عرفناه.. أولًا هذا عالم لا توجد فيه أمريكا لكن يوجد فيه أمريكيون.. ولا أعرف كيف..»

قالت وهي تفكر في عمق:

- «للديناصورات أهميّة خاصة في هذا العالم.. لاتنس أننا في أرض العظايا ويعلم الله ما معنى هذا..»

أضفت أنا:

- «هؤلاء القوم وحدة عسكرية ما.. ربما طبية كذلك والأمر على الأرجح يتعلق بضحايا مذبحة يتم التخلص منهم..»

ثم نظرت لها في غباء وفردت كفي:

- «جميل.. لكن ما معنى هذا؟»

- «لا معنى له.. ثمّة قطع كثيرة تحتاج إلى قطعة تربط بينها كما يحدث مع ألغاز الأطفال Jigsaw.. وهذه القطعة لابد أن تكون طرفًا آخر لا نعرفه..»

- «هل تعرفين؟ أعتقد الآن أنه كان من الخطأ أن نثب قبيل دخول المدينة.. لو كانت هناك إجابات فهي في الداخل..»

ونظرت إلى المدينة الصحراوية الملتفة بالأنوار، ومن بعيد كثبان الرمال..

شعرت بقشعريرة تزحف على عمودي الفقري وغرقت في تفكير عميق..

فجأة حدث الشيء الذي لا تتوقعه والذي يغير كل شيء بشكل غير مسبوق..

دوى انفجار هائل من وسط المدينة.. لسان برتقالي تصاعد إلى السماء، ثم دوى الصوت المروع الذي اهتزت له الصحراء..

قبل أن نتساءل إن كان هذا هو الروتين هنا، دوّت صفارات الإنذار.. ثم تعالت الصيحات، وكأنما بعصا ساحر برزت عشرات العربات.. كلها تطلق الأضواء المجنونة، وكلها تتسابق نحو مركز المدينة..

ثم دوّت طلقات البنادق الآلية.. من كل مكان وفي كل اتجاه.. كأنك تجلس في قاعة سينما تتمتع بنظام (دولبي Dolby) ممتاز..

راتاااا.. راتاااا.. راتاااا!

من أين وأين؟ هذا أبسط حقوقنا.. نحن بلاناقة أو جمل في هذا الذي يحدث، ومن حقنا أن نعرف من أين ياتي الخطر لنتفاداه..

شعرت بيد (سلمى) تضغط على يدي وتشير لأعلى..

نظرت إلى حيث أشارت.. إلى الوراء.. لأعلى..

كان هناك عدد من الرجال يقفون فوق تلة تعلو مستوانا قليلًا ويطلقون البنادق الآلية بلا توقف.. ثم ينبطحون..

هذا يفسر تأثير (الستيريو) العجيب الذي شعرنا به.. إن الطلقات تأتي من فوقنا ومن أمامنا في الوقت ذاته.. ومن الجلى أنهم لم يرونا في الظلام.. لقد كنا وسط السواد كأننا مجموعة من الصبار..

- «فلنتوار قبل قدوم الطائرات!»

كان قائل هذا أحد الرجال، وقاله بالعربية.. عربية واضحة جدًّا لم أصدق أنني أسمعها..

طبعًا كان من الواضح أنني لا أستطيع أن أعلن عن وجودي.. لا أستطيع أن أقف لأتكلم لأن الكلمة الأولى منهم ستكون طلقة من هذه الطلقات..

لكن (سلمى) تصرفت بلا تفكير..

رفعت ذراعها دون أن تنهض وصاحت:

- «نحن هنا! لا تطلقوا الرصاص!!»

- «(سلمى) يا بلهاء! لا تـ...»

طلقة واحدة مرّت جوارها وبعثرت الرمال في كل مكان.. ثم...

انقطعت الطلقات من أعلى ولم تعد إلا طلقات من أسفل.. من موضع المدينة الصحراوية..

صاح صائح من عل:

- «من أنتما وهل عربيان؟»

- «نعم.. ونقسم على هذا..»

فليس الوقت مناسبًا لأخذ قياسات الجمجمة وعينات الحمض النووي.. آخر وقت ومكان يصلح للدراسات الأنثروبولوجية هو في ميدان رماية رصاص..

- «إذن تعاليا معنا بسرعة. إن هذه المنطقة ستتحول إلى محرقة حالًا..»

وثبنا من مكاننا ورحنا نتسلق بينما قلبانا في حلقينا..

أخيرًا صرنا وسط هؤلاء، ولم يكن الوقت مناسبًا لتبين وجوههم أو إجراء تعارف مناسب للسادة المهذبين.. فقط راحت أيد قوية تقودنا كما يفعلون بالدلاء في الحرائق.. يد تلو يد تلو يد، حتى صرنا عند مدخل كهف في سفح تل من التلال...

- «ادخلا بسرعة!!»

ولم أدخل بالسرعة الكافية.. استغرقت وقتًا يكفي لأن أرى.. أرى سيلًا من القذائف النارية كأنها النيازك ينطلق من المدينة الصحراوية قاصدًا المكان الذي كنا فيه.. هذه القذائف غريبة جدًّا.. إنها لا تسقط كما تسقط القنبلة العادية.. بل هي تنتشر أولًا كأنما هي مليئة بسائل ناري، ثم تشتعل كل البقعة بلهب أخضر عجيب.. يلي هذا انفجار يذكرك بالبراكين التي تراها في السينما..

كان هذا كافيًا كي أدخل..

وفي اللحظة التالية انغلقت فتحة الكهف وصرنا بالداخل..

☆ ☆ ☆

٥ - أبو العتاهية وآخرون..

لم يكن المشهد عبارة عن مدينة داخل الجبل كما توقعنا..

كان كهفًا بالفعل.. لا يميزه شيء إلا عشرات المشاعل، وكان هؤلاء الرجال متناثرين فيه.. وكانوا...

فجأة ارتج المكان لأن قنبلة على ما هو واضح ارتطمت بالكهف من الخارج..

سقطت على الأرض.. وسقطت (سلمى).. لكن بدا أن قوانين الجاذبية لا تؤثر في هؤلاء..

قلت وأنا أنهض:

- «سيهدمون هذا المكان على رءوسنا..»

قال أحدهم وهو يجلس على الأرض:

- «لا.. الجبل أصلب مما تتوقع.. ثم إنهم لا يملكون أدنى فكرة عن كوننا بالداخل.. هم يتوقعون أننا متوارون في مكان ما بالخارج.. هكذا نتعامل معهم.. كل جبل هنا غرفة عمليات نخرج منها ونفعل ما نريد ثم نعود لنتوارى فيها..»

وقال آخر:

- «وفي كلّ مرّة يتساءلون: أين ذاب هؤلاء؟ لكن برغم كل شيء تظل الفتحة واضحة لمن يدقق البحث.. لا بد من واحد منا ياتي فيما بعد ليسدها بعناية من الخارج..»

برغم كل شيء فأنا سعيد بكوني أسمع العربيّة.. عربية لا أنسى أبدًا أنها عربية مجرة أخرى، لكن هذا لا يمنع شعور الألفة الذي شعرت به..

نسيت أن أصفهم لكم.. كانوا مجموعة من الثوار كيف عرفت هذا؟ لأنني عبقري طبعًا.. كل منهم يحمل بندقية آلية وقد لف حزامين من الطلقات على كتفيه على شكل X على طريقة الأخ (زاباتا Zapata)، وعلى وجهه ملامح العيش الخشن.. ذقون غير حليقة.. قسمات سمراء قاسية.. ثياب هي خليط من عدة أجناس معًا.. هناك كوفية منقطة أو اثنتان..

ومد اثنان ساعدين قويين، وتصافحا ثم تعانقا وتبادلا القبلات على الخدين:

- «نجحت العملية!»

- «حمدًا لله!!»

لا يحتاج الأمر إلى مترجم كي يعرف أن هؤلاء القوم هم الذين دبروا الانفجار داخل تلك المدينة الصحراوية..

الآن جاء وقت السؤال المهم.. السؤال المهم الذي وجهوه لنا:

- «من أين جئتما؟»

قالت (سلمى) وهي تنفض الرمال عن شعرها:

- «من ذلك المعسكر.. ذلك الى ESF.. ركبنا في مؤخرة شاحنة للفرار ووثبنا قبل أن تدخل المدينة..»

- «أنتما سعيدا الحظ.. فررتما في الوقت المناسب بالضبط.. لقد كانت هذه الشاحنة ملغمة وقد انتظرنا هنا حتى مرّت من البوابة ثم... هوب!!»

شعرت بركبتي تتهاويان من تحتي.. إذن كانت الشاحنة تحوي أشياء أخرى غير العظام.. أشياء لا تقل هولًا..

وقال آخر:

- «هل رأيتما ما كانت الشاحنة تحمله؟»

ابتلعت ريقي ولم أرد...

- «حسن.. لقد دفنا تلك العظام في الصحراء مع جنود عديدين منهم..»

قالت (سلمى):

- «لا أدعي أني أفهم شيئًا في حروب العصابات ولا الاستراتيجية.. لكن ما جدوى إطلاق البنادق الآلية إذن؟ لقد حسبنا أنكم ستهاجمون أو تحمون ظهر زميل لكم بالداخل..»

ضحك الرجل الذي بدأ الكلام طويلًا وقال:

- «هذا توقيعنا!! حتى لا يعتقدوا أن ما حدث كان بفعل حادث.. نقول لهم إننا الفاعلون..»

ثم صافحني بيد تشبه جرافة البلدوزر لو أنّ هذه كانت شديدة الخشونة، وقال:

- «أنا (أبو العتاهية).. وأنت؟»

بدا لي الاسم غريبًا.. هو على الأرجح اسم حركي.. قلت له:

- «أنا (سالم).. هذه زوجتي (سلمى)..»

قالت (سلمى) في مودة:

- «مساؤكم حليب..»

تلك التحية المستعملة في عالمهم، والتي ما زلت أشعر بأنها ذات طابع سوقي، بينما تصر هي على أن (مساء الخير) أكثر سوقية..

سأل الرجل:

- «ومن أين جئتما؟»

آه! سأفسد كل شيء إذن.. لكنه قاطعني قبل أن أرد ملوحًا بيده:

- «لا عليك.. كلنا لا نعرف من أين جئنا.. لكننا هنا..»

قالت (سلمى) وهي التي لم تعتد أن تحبس أسئلتها كثيرًا:

- «لا أزعم أنّ هذا يضايقني، لكن ما الذي يدعوكم للثقة بمن ترونه لأول مرة منذ ربع ساعة؟»

- «لهجتك.. هذه اللهجة لا يتكلمها إلا عربي مثلنا.. ولو تصنَّعها أحدهم لفضح نفسه.. كما أنه لا يوجد جواسيس بيننا.. هؤلاء القوم لا يستخدمون الجواسيس..»

نظرت إلى الكهف، فوجدته ينتهي عند هذا الحد لا يوجد امتداد.. هذا مكان جيد للاختباء لكن أين حياتهم ذاتها؟ أين قراهم؟ أين واحاتهم؟ أين نحن بالضبط؟

لسبب ما عرفت أن عليَّ ألا أسأل كثيرًا، وقد خمنت (سلمى) الشيء ذاته.. هم اعتبرونا منهم بشكل ما، واعتبروها بديهية.. لو بدأنا في الأسئلة سيعرفون على الفور أننا متسللان.. ربما جاسوسان.. ولتكونن غضبتهم مرعبة..

من الأفضل أن نستمر في أداء الدور الذي برعنا فيه لا نتكلم على الإطلاق ونجيب عن الأسئلة بأسئلة..

قال أحد الرجال:

- «أعتقد أنه من الأفضل أن نتفرق..»

ثم أشار لنا:

- «أعتقد أن (جمشيد بن عباس) يجب أن يراهما..»

دنت مني (سلمى) وهمست في شيء من التوتر:

- «ما هذه الأسماء الغريبة؟»

- «ليست غريبة.. إنها أسماء من أعلام العرب.. (جمشيد) عالم من علماء الجبر..»

قالت في غيظ هامس:

- «ياللعبقرية! إن هذه الأسماء موجودة في كوكبي كذلك.. بل هي التي حددت تاريخ الكوكب كله، لكن ألا ترى من الغريب أن تتخذ هذه كأسماء كودية لمجموعة من الثوار؟»

تذكرت أن وضع العرب في عالم (سلمى) يخطف الأنفاس.. إنهم قوة عسكرية واقتصادية مرعبة.. (أ.ع.م) أو (أمة عربية متحدة).. وبالتأكيد هناك من العلماء العرب من لم نسمع نحن عنهم في أرضنا.. لكن اعتراضها وجيه بحق..

ما معنى هذا؟

هنا وجدنا الرجال يشيرون لنا كي نلحق بهم.. إلى الجهة الأخرى من الكهف..

فتحة كالتي دخلنا منها.. يزاح الغطاء فترى الصحراء من جديد.. هذه المرّة وقد بدأت تستحم بلون الفجر الوردي.. يخرج أول الرجال جسده من الفتحة ويتلصص حوله، ثم يزحف إلى الخارج ونتبعه نحن..

في الخارج كنا على الجانب الآخر من التل، لكن الحقيقة هي أننا كنا على ارتفاع كبير.. لم أدرك هذا إلا حين ارتقيت التل أكثر وألقيت نظرة..

من الغريب أن المدينة الصحراوية تحولت إلى بقعة صغيرة عند قدمي، وبدا لي هذا غريبًا.. إن الكهف لم يبد لي بهذا الاتساع قط..

خرجنا أربعة من الكهف كما ترى، فعكف آخرنا على سد الفتحة.. أو يضع قطعة من الورق المقوى ليسد بها الفتحة، ثم يهيل عليها بعض الرمال المبتلة المعجونة بالماء من قارورة يحملها، ثم يضع بعض نباتات الصبار.. حين تجف هذه مع الشمس سوف يكون من العسير تبينها إلا لعين مدربة تعرف ما تبحث عنه..

لا أعرف كم من الوقت مشينا لكن الشمس كانت قد بدأت تعتلي السماء..

كنت أفكر.. ماذا لو ظهرت طائرة عمودية جديدة؟ لقد مررنا بموقف مماثل، ووجدناه سيئًا بما يكفي.. ماذا يضمن لهم أمن هذه المسيرة فوق الرمال مكشوفين كنمل على مرآة؟

قالت (سلمى) وقد عرفت ما أفكر فيه:

- «يبدو أنهم يعرفون أماكن ومواعيد تلكم الدوريات..»

وتوقفت عن الكلام، لأن أحد الرجال كان يفتح فجوة من الرمال المزيفة والصبار في كهف..

هؤلاء القوم يجدون طريقهم ببراعة حقًّا، لكن أية حياة هذه؟

☆ ☆ ☆

والآن دعني أقدم لك الأخ (جمشيد بن عباس)..

أولًا هو مسن جدًّا كما ينبغي أن يكون.. لحية طويلة بيضاء على صدره، وغطاء رأس عربي (شماغ) يغطي به رأسه من دون عقال.. وجه مسن مفعم بالتجاعيد.. ربما يذكرك بلحاء شجرة عجوز في مدرستك القديمة.. لكن تحت هذا الرأس الواهن هناك جسد قوي لم تذبل عضلاته بعد على الأقل هو أقوى من جسدي أنا.. ولدرجة ما كان منظره يذكرني بصورة (انتوني كوين) في دور (عمر المختار)..

جواره تجد (الفارابي) و(أبو الأسود الدؤلي) و(الخليل ابن أحمد الفراهيدي).. هكذا أسماؤهم التي عرفتها فيما بعد مما يدل على أن ملاحظتنا كانت صائبة.. لن تجد كل هذه المجموعة من أعلام العرب في مكان واحد مهما حاولت.. إلا في الموسوعات طبعًا..

كانوا مدججين بالسلاح يفترشون الأرض.. وكانت هناك أقداح قهوة و(دلة).. بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الرجال.. وكان سقف الكهف مجوفًا بطريقة تجعله أقرب إلى مدخنة.. ويبدو أنّ هناك نظامًا ما للتخلص من الدخان وإدخال الهواء.. بدائي لكنه فعال..

يبدو أنّ هذا هو مقر القيادة الرئيسي.. كل شيء يوحي بهذا..

نظر لنا (جمشيد) من تحت حاجبيه الكثّين، وقال:

- «السلام عليكما.. من أين جئتما؟»

كان له صوت عميق مليء بالحكمة.. صوت لا يجب أن تمزح معه.. لا تستطيع المزاح معه كانت ليلة منهكة ولم يغمض لنا جفن منذ ساعات، لذا قلت كلمات غبية على غرار:

- «لسنا من هنا.. نحن من هناك.. تسألني لماذا جئنا من هناك.. أقول لأن هنا أفضل من هناك..»

هراء كثير من هذا الطراز، وكان هو ينصت ويهز رأسه كأنما يصدّق كل حرف لكن الشك في عينيه العجوزين صار عادة..

قال أحد مرافقينا:

- «إنهما فرا من معسكر الـ ESF.. ركبا شاحنة ترجلا منها قبل المدينة..»

- «إذن هما مجدودا الحظ.. لو بقيا بضع دقائق لانفجرا..»

ثم ناول كلًّا منا قدحًا.. وأمر بمن يصب لنا القهوة العربيّة في الأقداح.. فلمّا فرغت من قدحي عاد الرجل يصب فيه المزيد.. قالت لي (سلمى) همسًا:

- «لو اكتفيت هزّ القدح حتى لا يعيد ملأه لك..»

ما هذا المكان؟ أسماء عربية وتقاليد عربية تمارس بدقة أمينة.. ثمّة خاطر يسيطر عليَّ.. هؤلاء القوم يجاهدون لاهثين للاحتفاظ بهويتهم.. إن هذه الأسماء هي صورة رمزية لمن ينشب أظافره في تراب أرضه كي لا ينتزع منها..

ظل الرجل ينظر لنا بعض الوقت، ثم قال:

- «هل ترغبان في المشاركة؟»

- «بالتأكيد..»

دون أن ندري ما هذا الذي نشارك فيه.. لكني احتفظت بسياسة الموافقة على أي شيء كي لا أسأل..

قال الرجل:

- «إنهما متشابهان كتوءمين..»

فعلًا تعالت أصوات الرجال تؤكد أن نعم.. هذا غريب.. حقًّا..

- «وملامحهما تختلف عنا.. بشيء من المعالجة يمكن أن يبدوا منهم.. هل أنتما أخوان؟»

قلت في حرج:

- «زوجان..»

- «هذا غريب.. لا يوجد ما يدعو لتشابه الأزواج إلا في ظروف نادرة.. عندما يكون تفاهمهما مطلقًا..»

هنا سألني أحدهم وهو من يدعونه (سلمان):

- «هل تتكلم لغة غربية؟»

قلت في ارتباك:

- «نعم.. الإنجليزية... بالفعل..»

ابتسم الوجه العجوز وقال:

- «هذا يرجح الكفة أكثر.. لا أحد منا يجيد لغة غربية.. هذه نقطة مهمّة.. ثم إن جسديهما من القياس ذاته..»

ثم أشار لنا إلى بعض الأغطية على الأرض.. وقال بلهجة آمرة:

- «أنتما منهكان.. الآن تنامان وعند الاستيقاظ تعرفان ما يجب عمله..»

بالطبع لم تكن بنا من حاجة إلى هذا الأمر.. ولم نغرق في التفكير طويلًا لأننا حين اتخذنا وضعًا أفقيًا تصرفنا كتلك الألغام النازية: التي لم تكن تنفجر إلا حين تميل نوعًا إلى المستوى الأفقي.. وانفجارنا كان غطيطًا وخليطًا من الأحلام..

فقط أذكر أن آخر كلمة قالتها العزيزة (سلمى):

- «هل لاحظت هذا المدعو (سلمان)؟»

قلت في تعب:

- «م م م م؟»

- «يبدو لي أنّ هذا هو اسمه الحقيقي لا الحركي.. اسمه (سلمان).. ألا ترى شيئًا غريبًا؟»

- «م م م م.. وما في... م م م.. ذلك؟»

- «إنّه يبتسم ابتسامة بزاوية فمه اليسرى!! ابتسامة تبدو لي مألوفة..»

☆ ☆ ☆

٦ - التنكُّر..

حين صحونا عند العصر، قدموا لنا وجبة تتكون من الفول المهروس.. وكان هناك الكثير من التمر.. معنى هذا أن لهؤلاء القوم مكانًا آخر غير هذا.. ربما واحة قريبة..

لم يكن المكان مريحًا.. ربما هو خانق كذلك، يذكرك كثيرًا بشبكة المجاري التي كنا نعيش فيها في أرض المغول، وإن كانت الكهوف أنظف وأعطر رائحة من المجاري طبعًا..

كنت في حاجة ماسة إلى شخص يجلس معنا ونبدأ في سؤاله.. من البداية.. قل لنا يا أخي: ما معنى كذا وكذا؟ لماذا يبدو كذا كذا؟ ما اسم اللعبة وما قواعدها؟

لكننا لا نجرؤ أبدًا.. في هذا العالم وسط هذه الأحداث يسهل اعتبارك مجنونًا - لوكنت سعيد الحظ - أو جاسوسًا..

☆ ☆ ☆

عند الغروب ظهر (جمشيد بن عباس).. أين كان؟ لا أدري لكننا لم نره في الكهف لدى استيقاظنا..

كانت ثيابه قد اختلفت قليلًا وإن كان مدججًا بالسلاح، وقد التف حوله عدد من الرجال، سأعرف أسماءهم فيما بعد وإن كانوا يحملون أسماء مثل (امرؤ القيس) و(جابر بن حيان)..

ابتسم لنا وبصعوبة يُمكنك أن تعرف أنّ هذا الأخدود الذي ظهر في ملامحه ابتسامة.. وقال:

- «نمتما جيدًا؟ ليكن.. هل تحبان (فيروز)؟»

طبعًا كان هذا آخر سؤال يمكن أن نتخيله في التاريخ.. بالصدفة كلانا يعشق (فيروز) لكن ما أهميّة هذا السؤال الآن وهنا؟

مد أحد الرجال يده إلى جهاز عتيق وضغط على زر، وعلى الفور تصاعد الصوت الرخيم يحكي عن (شادي) الذي (ركض يتفرج) وهو مازال (بعد صغير عم يلعب عالتل)..

كان الجهاز في أسوأ حال، حتى لم يكن يصلح إلا كمبراة، كما أنّ الحجارة الجافة المثبتة إليه تم غليها عدة مرات.. دعك من آثار العض التي تدلّ على محاولة إطالة عمر تكررت كثيرًا..

قال (أبو العتاهية) وقد لاحظ دهشتنا:

- «نعم.. لا توجد حجارة جافة في أي مكان.. لكننا سرقنا عددًا منها منهم منذ سنين..»

قال (جمشيد) وهو ينظف سلاحه:

- «هناك جولة اليوم.. حوالي مائتين قادمون.. نعتقد أنكما قادران على الاندماج بينهم.. تريد معرفة كل شيء عن العرض.. ماذا ستريان؟»

تبادلت و(سلمى) النظرات..

الحقيقة أننا لا نفهم شيئًا على الإطلاق..

هنا جاء أحد الرجال يحمل ثيابًا نظيفة مطوية بعناية.. هناك شعر مستعار أشقر وأشياء أخرى لا أعرف ما هي..

قال (جمشيد) دون أن ينظر لنا:

- «ستدخلان الآن إلى إحدى الفتحات الجانبية لتستبدلا هذه الثياب بما تلبسان.. ثمّة لمسات نضيفها نحن.. لكن لا تنسيا أننا فقدنا الكثيرين من رجالنا كي نحصل على هذه الثياب حافظا عليها..»

وهكذا دخلنا أنا و(سلمى) أحد الشقوق في الكهف، وعلق لنا أحدهم مشعلًا كي نري بعضنا.. كنا في حالة مروعة من الغباء لكننا لا نجسر على توجيه أسئلة.. ثيابنا واحدة على كل حال.. قميص بلون خاكي وسروال (جينز) أزرق.. ثم حذاءان رياضيان..

فرغنا من ارتداء هذا كله، ثم إن (سلمى) ثبتت الشعر الأشقر المستعار على رأسها، فكانت النتيجة. لا بأس بها.. صحيح أن بشرتها خمرية، لكن طقس الصحراء هذا يجعل أية بشرة تحترق..

ثبتت أنا الجمة على رأسي، ولم أر نفسي لكنّها هزت رأسها بمعني أنه لا بأس بي..

ثمّة أشياء في الجيب.. مددت يدي أبحث، فوجدت بطاقة بلاستيكية مزودة بدبوس تصلح لتعليقها على الصدر.. فهمت الآن لماذا رأى الرجل أنه لا مشكلة.. إن الصورة لرجل أشقر، مع كثير من الظلال ورداءة التصوير تجعل تعرف ملامحه مستحيلًا.. فقط كانت البطاقة المغلفة تحمل شارة ESF.. لاحظت أن الجنسيّة تشير إلى أننا (ولايات شرق).. لم أفهم معنى هذا..

فيما بعد عرفت أن أهميّة (ولايات شرق) هذه أن بوسعنا أن نتكلم إنجليزية غير متقنة.. فلا يفتضح أمرنا لأن إنجليزيتنا لن تخدع غربيا بالتأكيد..

وكذا خرجنا إلى القوم فأبدوا الكثير من الإستحسان..

أضافوا بعض اللمسات مثل كاميرا حول كتفي.. وحقيبة ظهر لـ (سلمى).. وزجاجتي ماء لكل منا.. ثم أضافوا أسوأ جزء في الموضوع.. عدسات ملتصقة زرقاء اللون.. لقد تبدل منظرنا تمامًا، وأستبعد أن تتعرفني (سلمى) لو لم ترني أتنكر أمامها..

هؤلاء القوم مستعدون تمامًا.. لكن يمكن القول إن هذه الأشياء كلها مسروقة من غربيين حقيقيين.. ربما ميتين كذلك.. هذا مفهوم.. وإن كنت لا أحب كثيرًا أن أسأل أسئلة بصدد مصدر العدسات الملتصقة!

كنت قد كونت - بعبقريتي المعهودة - بعض الاستنتاجات.. هم يريدون منا أن نتنكر كغربيين.. لماذا؟ طبعًا لنندس.. نندس في ماذا؟ في الجولة التي بها نحو مائتين..

حقًّا إن الترتيب المنطقي يقود إلى الحل دائمًا!

قال (جمشيد):

- «لا بأس.. لاحظا كل شيء.. (أبو العتاهية) سيقودكما إلى هناك..»

ثم انصرف إلى أحد رجاله، وبدا كأنما نسى الموضوع تمامًا وفتح موضوعًا آخر..

☆ ☆ ☆

تحت ستار الظلام نتسلل في الصحراء ماشين خلف (أبو العتاهية).. النجوم تعطي ضوءًا لا بأس به أبدًا.. تشعرك بالألفة برغم أنك لا تميز نجمًا واحدًا مألوفًا لك.. لابد أن (وعاء الذب الأكبر) هنا يدعى (طشت غسيل التمساح) أو أي شيء مماثل..

كان هناك ضبع نظر لنا من بعيد، ثم قرر أنه بائس وحيد ففضل الانصراف..

لا بد أننا مشينا نحو نصف ساعة.. كنا في الحقيقة ندور حول تلك المدينة الصحراوية الغامضة.. رأسانا يزدحمان بالأسئلة لكننا لا نجرؤ، وعلى كل حال كنا قد قدرنا أنّ هذه الجولة ستشرح لنا كل شيء.. ستلعب دور كتاب التاريخ الذي قرأته أنا في أرض المغول فأعفانا من أسئلة مربكة..

قال لنا (أبو العتاهية) وهو يتقدمنا:

- «النصيحة المهمة هي: لا تتبادلا أية كلمة عربية.. أنتما غربيان في كل شيء.. ثم إنكما وحيدان تمامًا ولو وقعتما في أيديهم فلا علاقة لكما بأي شيء.. لن تعرفا كيف تجداننا..»

ثم أشار إلى الكاميرا وقال:

- «هذه لا تعمل.. لكنّها تطلق ضوءًا.. حاول أن تبدو فضوليًا..»

هذا الجزء بالذات لا يحتاج إلى توصيات.. لن يحتاج إلى أي جهد منا.. إن الفضول يقتلنا بالفعل..

أخيرًا رأينا مشهدًا عجبًا..

كان هناك سياج من السلك.. سلك مضلّع يذكرك بالذي تثبته في دارك لتتقي البعوض.. ومن بعيد - على مسافة ثلاثين مترًا - كانت هناك طائرة متوسطة الحجم.. لها ذات منظر حاملات القوات التي تراها في الصور.. إنها تخص الجيش.. جيشًا لا يعلم كنهه إلا الله.. وعلى بعد أكبر كانت هناك طائرتا هليكوبتر وطائرة تبدو لي كالمقاتلات..

كانت الطائرة المعنية واقفة تهدر كالوحوش، غارقة في الأضواء.. وأدركت أنها وصلت من فورها.. كانت هناك حركة غير عادية، مع عملية تقريب سلم على عجلات من بابها..

- «بالضبط في الموعد..»

قالها (أبو العتاهية) وهو يدنو من السور ويثبت أظافره في فجوات السلك..

ثم نظر لنا وقال:

- «حين ينزل الركاب تدخلان.. لا توجد حراسة هنا، ويسهل أن تندمجا وسط الفوج.. الركاب سينتشرون في كل مكان ومن المستحيل مراقبتهم.. كما أننا نعرف أنهم لا يجرون حصرًا لهم.. الجولة تنتهي غدًا في نفس الوقت.. سأكون هنا لأساعدكما على الرحيل..»

هتفت (سلمى):

- «تتكلم كأنه لا يوجد سلك..»

ابتسم ومد يده ليرفع جزءًا من السور.. واضح أن هؤلاء القوم مزقوا أجزاء من السياج من قبل، صانعين بابًا يدخلون منه متى أرادوا.. وحين يعود السلك لمكانه ويثبتونه بالخيط يصعب أن تلاحظ أنه ممزّق..

أخيرًا بدأ الركاب ينزلون من الطائرة..

بالفعل سادت الفوضى، وبدا كأن الساحة أمامنا تحولت إلى نوافذ الدرجة الثالثة قبل مباراة كرة قدم.. هم مائتان لكنهم يقومون بما يقوم به ألف من صخب وفوضى..

وفي هذه اللحظة همس (أبو العتاهية):

- «هيا.. لا تنظرا للوراء.. كونا طبيعيين..»

يبدو أن للرعب دورًا مهمًا في اتخاذ القرارات الحاسمة.. لا أعرف كيف ولا متي وجدنا نفسينا بالداخل، ولا كيف اجتزنا المسافة الحرجة بين السور والزحام، لتتحول من (متسللين) إلى (ربما

كان هذان معنا من البداية)..

ولم ننظر إلى الوراء.

الزحام كله من الغربيين.. والأجمل هنا أن أكثرهم يلبسون مثلنا.. هذه ثياب صالحة للرحلات أو لغرض (السافاري).. وقد ذكرني منظرهم بالسياح الواقفين عندنا خارج معبد الكرنك بانتظار الدليل الذي يلوح لهم طالبًا أن يتبعوه..

سرعان ما اندمجنا وسط الزحام.. وكانت هناك كلمات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية.. فتاة تلتقط الصور لصديقتها وصديقها.. رجل يجمع بعض الرمال في كيس.. مزاح.. بعض العجائز الأثرياء من طراز المومياوات إياه الذين نراهم في مصر، والذين يجمعون المال طيلة حياتهم لينفقوه في رحلة العمر.. وبعض السياح الشباب الذين لا ينفقون أكثر من ربع دولار يوميًا والذين تعرفهم مصر كذلك..

بعد قليل ظهر رجل يبدو انه عسكري، وكان يضع (بادج) صغيرًا يقول: ESF وأمسك بمكبر صوت وقال بإنجليزية جيدة:

- «إن المركز الصحراوي الرئيسي يرحب بكم..»

وكررها ثلاث مرات إلى أن انتهت الضوضاء وصار قادرًا على سماع نفسه..

- «.. ستكون هذه رحلة الأحلام، وقد خصصنا لكم خيامًا مكيفة ووجبة عشاء ساخنة.. تبدأ الجولة صباحًا، إلا إذا رغب بعضكم في استكشاف الصحراء ليلًا هناك طائرات عمودية مخصصة لهذا..»

ثم دسّ يده في جيبه وقال:

- «هل من أسئلة؟»

رفعت إحدى الفتيات يدها وبلهجة أمريكية سألته:

- «كيف يتم تمويل المشروع؟ هل أنتم جهة حكومية؟»

قال في (ألاطة) لا بأس بها وهو يدير عينيه في وجوهنا:

- «أكثر تمويلنا من الجامعات.. ومن ESF... وبعض النفقات يتم تدبيرها برحلات سياحية باهظة الثمن مثل هذه!»

تعالت ضحكات عصبية لا مبرر لها.. واضح أنها دعابة قوية فعلًا..

قال أحد الواقفين ضاحكًا:

- «خمسمائة (كومون) عن الفرد.. هذا ليس مبلغًا زهيدًا..»

قال الرجل الذي يبدو عسكري:

- «أنا لا أحدد الأسعار.. لكن ما أعرفه حقًّا هو أن كل من زارنا لم يشعر بعد الزيارة بأنه دفع أكثر من اللازم.. والآن هل هناك من يرغبون في استكشاف الصحراء؟»

ارتفعت بعض الأيدي، فرفعت أنا و(سلمى) أيدينا.. كنا في حاجة إلى الفهم.. وعدم ترك فرص لهذه العملية..

- «جميل.. هناك خمسون منكم.. سنحاول ترتيب الطائرات اللازمة..»

☆ ☆ ☆

في المقصف انتظرنا في طابور طويل حتى جاء دورنا.. كان الطعام الذي حملناه في صينية هو نوع من اللحم الممهوك أو الممزق.. لا أعرف بالضبط.. مع كوب من الكولا الباردة وبعض البطاطس المحمرة..

لم أتحمس كثيرًا للحم لأنني لا أعرف نوعه.. ربما هم يأكلون الذئاب على العشاء في هذا الكوكب، والأدهى أن تكون ذئابًا مخنوقة كذلك!! لكن البطاطس كانت جيدة.. وعرفت أن (سلمى) أحبتها كذلك..

ترى كيف يبدو تنكرنا في الضوء الساطع داخل المقصف؟ لحسن الحظ أنه لا أحد ينظر إلى الآخر..

بعد العشاء تجمعنا حول الطائرات الهليكوبتر، وقد قسمونا إلى مجموعات..

بدأت طائرتنا ترتفع.. ترتفع.. دورة حول المدينة التي لم تظهر معالمها بوضوح مجرد نقاط لا حصر لها من الأضواء.. ثم ننطلق في السماء الشاسعة التي تملؤها ثقوب النجوم.. متى قرأت عن الثقوب في السماء، والبرق الذي يحاول أن يرفوها كأنه إبرة خياط؟ متى كان هذا؟ في قصة أطفال؟ ديوان شعر؟ من المستحيل أن أتذكر الآن..

ومن تحتنا بدت الصحراء الغامضة المسربلة في السواد.. كأنها طلسم لا قبل لأحد بفتحه..

(سلمى) جواري.. تدنو مني أكثر وتهمس بالإنجليزية (على سبيل الاحتياط):

- «هل تشعر به؟ هل تحسه؟»

فألمس يدها.. ألثمها وأصمت.. الليل والصحراء والصمت وهدير المحرك.. لا بد أن شيئًا تحرك فيها كما تحرك في.. ليس هذا وقته، لكن العواطف كالعضلات تبحث عن لحظات تستجمع فيها

أنفاسها.. لا يمكن أن تكون الحياة كلها تخطيطًا ومؤامرات ومحاولات للفهم والنجاة بالحياة.. لا بد من لحظة ما يتقارب فيها رأسان يرمقان الليل..

تقول لي:

- «منذ متى لم تقل إنك تحبني؟»

في الحقيقة لا أذكر أنني قلتها على الإطلاق - هل تذكر أنت؟ - لكني أكذب فأقول:

- «منذ راح جهازك هذا يلقينا من حفرة لحفرة.. ومن بركان لبركان.. لا بد من كوكب ما يصلح لالتقاط الأنفاس..»

- «لقد بدأت أعتقد أن عالمي هو أفضل العوالم المحتملة..»

الطائرة تحلّق فوق تلال لا نعرف عددها، ولا نهايتها..

ثم...

ظهر وميض ناري من على أحد التلال...

وشهق البعض وصرخ البعض.. على حين صاح الطيار:

- «تماسكوا! إن صاروخًا حراريًا يتجه نحونا!!»

☆ ☆ ☆

٧ - الجولة..

- «يا ساتر يا رب!» دوّت الصيحة من (سلمى) وهي تتكور حول نفسها..

لو أصابنا هذا الصاروخ الحراري فلن نعرف هذا.. طريف أن تتحول إلى فتات من اللحم المشوي تقضمه فئران الصحراء، بعد ثانية من كلامك عن الحب والعوالم المحتملة..

فيما بعد سيكون لي أن أقلق بصدد من سمعوا (سلمى) تصرخ بالعربية فيما بعد..

الطيار يرتفع بحركة عصبية، ثم يأتي بحركة مناورة جعلتنا نرتطم ببعضنا.. والبطاطس المحمرة تصعد إلى الحلوق.. لا بد أنه يقوم برسم حرف Z الشهير الذي يتفادون به الصواريخ الحرارية.

ثم رأينا وميضًا إلى اليسار، والتفتنا فرأينا انفجارًا في السماء يضيء المكان..

- «استرخوا يا شباب.. لقد تفاديناه!!»

قالها الطيار، فتصاعدت شهقات الارتياح... وبكت بعض النسوة من فرط الإجهاد العصبي..

لا أعتقد أنّ هذا المشهد جزء مدبر من الجولة لإمتاعنا.. هو حقيقي.. وأعتقد أن صاحب هذا الصاروخ ينتمي لـ (جمشيد بن عباس) ورجاله...

- «من (إنتريبيد - ٣) إلى الإوزة الأم... من (إنتريبيد - ٣) إلى الإوزة الأم.. صاروخ عند (دلتا إكس – ١٨).. حوّل..»

كانت هذه من الطيار طبعًا..

وبعد دقائق، أشار لنا إلى الأفق في نغمة انتصار ورأينا ثلاث مقاتلات قادمة من بعيد..

هتف الناس واحتشدوا يتزاحمون ليروا ما سيحدث من النوافذ.. لم تفعل المقاتلتان على الجانبين شيئًا، لكن الوسطى انفصلت لـ (تتعامل معهم) - كما يقولون في سلاح الطيران - والتعامل معهم يعني أنها ارتفعت قليلًا وفي اللحظة ذاتها انطلق منها صاروخ طار ليضرب بالضبط النقطة التي هوجمنا منها..

وهوب! لا أعرف نوع هذه القنابل العجيبة، لكنّها تشبه ما رأيته من قبل.. الانتشار على مساحة واسعة.. اللهب الأخضر.. رأيت مرة نارًا تشتعل في كيروسين، وقد بدا المشهد مماثلًا لهذا بالضبط..

المهم أن الأفق تحول إلى نيران، على حين حلقت المقاتلات مبتعدة..

وهلل الركاب.. وراحوا يلوحون مودعين..

تبادلت نظرة مع (سلمى).. على الأرجح لم يحدث شيء للمهاجمين، لأنّهم - كما رأينا أمس - أطلقوا صاروخهم وتواروا في إحدى الفتحات..

ليتنا نفهم ما يحدث هنا..

☆ ☆ ☆

- «معذرة.. لكن اسميكما ليسا عندي على الإطلاق..»

قالها الرقيب وهو يراجع الأسماء المكتوبة أمامه..

كان عليّ أن أتمادى في التمثيل أكثر، فصحت في عصبية:

- «ونحن كنا نحسب أنه لا أخطاء تحدث في جهاز بهذا الحجم.. والآن قل لي.. هذا أنا أمامك وهذه زوجتي وقد دفعنا ثمن هذه الجولة.. لا تتوقع منا أن ننام في الصحراء..»

قال في حرج وحزم عسكري برغم هذا:

- «آسف.. لا أستطيع أن أقدم لكما خيمة..»

رحت أضرب كفًّا بكف، على حين بدا الاشمئزاز على (سلمى) من (كل هذا الإهمال).. في النهاية جاء رجل أرفع رتبة فرأى المشهد، وسمع ما يُقال فهتف:

- «(سميث).. لتكن أكثر مرونة.. أعطهما استراحة المقصف.. على مسئوليتي..»

- «ولكن...»

- «بقيت أربع ساعات على الصباح.. هذا لن يضير أحدًا..»

استسلم (سميث) الأحمق، على حين قلت أنا في تبجح وأنا أصافح الأعلى رتبة:

- «أخيرًا هناك شخص ذو عقل في هذه القاعدة.. حسبتهم لا يختارون إلا أمثال هذا الـ (سميث)..»

لم يبد (سميث) سعيدًا بكلامي، ولا ألومه على هذا.. إلا أنه اصطحبنا إلى غرفة ضيقة ملحقة بالمقصف.. هناك فراش واحد، وحالة الغرفة توحي بأنها كانت استراحة للبط أو وشق الأستبس.. لكنه على الأقل موضع يسمح لك بوضع أفقي..

انغلق الباب علينا فقالت (سلمى) في مرح:

- «أنت...»

- «حذار! بالإنجليزية وبصوت خفيض..»

قالت بالإنجليزية:

- «أنت ممثل بارع حقًّا.. من يرك في غضبك يقسم على أنك صاحب حق..»

- «لدينا مثل يقول (الحقوهم بالصوت) ولا أعرف إن كان في أرضكم أنتم أيضًا.. إذا كنت أنت الطرف الخطأ الذي لا حق له، فعليك أن تكون الأعلى صوتًا والأكثر صراخًا.. هذا يقنع الناس بعدالة قضيتك!»

على كل حال.. لقد نمنا.. وكان نومنا عميقًا بالفعل..

لولا الطرقات الحازمة على الباب في الصباح تخبرنا أن موعد الإفطار قد حان..

☆ ☆ ☆

في الصباح بدأنا الجولة التي لا نعرف أي شيء عن كنهها..

كان المكان ذا طابع عسكري لا تخطئه العين، لكن الجميع كان يتظاهر بالمودة واللطف..

هذه المرّة اقتادونا كالخراف الضالة إلى مبنى عملاق له ذات الطابع المميز للمتاحف في كل مكان.. وفوقه اللافتة اللعينة ESF التي تطاردنا في كل صوب.. اصطففنا على الباب، ودنا مني رجل مسن يحمل زوجًا من الكاميرات وقال لي في لهفة:

- «فيلم.. هل تعرف من أين أبتاع واحدًا؟»

ثم رأى البطاقة على صدري فهتف في مرح:

- «ولايات شرق؟ أنت إبن وطني إذن!!»

يا للمصيبة!

عاد يسألني وهو غير عازم على أن يخرس:

- «لطيفة زوجتك.. وإن كانت تشبهك كثيرًا.. لا أقول هذا بصيغة الذم! هل أنت من (وارسو)؟ لا بد أنك يهودي مثلي..»

ثم قال عبارة ما بلغة لا أستبعد أنها البولندية.. فهززت رأسي وقلت الكلمة التي فتح الله على بها:

- «(بوخارست)..»

أعتقد أنّ هذا أقرب إلى الحكمة.. ما دمنا نتكلم عن الشرق، وما دام هو بولندا فمن الحكمة أن أدّعي الرومانية.. هزّ رأسه في أسى وحيانا وابتعد..

على الباب اصطففنا كما قلت لك، ثم ظهر رجل له ذات السمت العسكري، وهتف:

- «سندخل في مجموعات.. لا داعي لأن أذكّركم بأن اللمس ممنوع..»

ثم أضاف:

- «لقد أنفق صندوق الأنواع المنقرضة الكثير على هذا المتحف..»

هنا بدأت أفهم.. (صندوق الأنواع المنقرضة).. أو Extinct Species Fund.. من هنا جاءت الى ESF التي تطاردنا في كل مكان.. أعرف هذه المشروعات.. ما يوشك على الانقراض مثل دب الكوالا والباندا والنسر الأمريكي الأصلع، وما انقرض فعلًا مثل ذئب (تسمانيا) الذي لم يكن ذئبًا ولم يكن من (تسمانيا)..

سمعت (سلمى) خواطري (لا يوجد خطأ مطبعي هنا) فقالت:

- «أنت مخطئ.. لا تنس أنّ هذه أرض العظايا.. لا بد أن الموضوع يتعلق بالديناصورات..»

صحيح.. نسيت هذا..

طبعًا لابد في المدخل أن نجد ذات الهيكل المعهود للـ (تي ركس) أو (Tyrannosaurus Rex) المحبب للأطفال.. لا بد من آثار أقدام على الطين الذي تحول إلى حفريات.. لا بد من نباتات متكلسة وعظام متحجرة لطائر (الإصبع المجنح) المثير Pterodactyl..

ووثب قلبي طربًا.. أنا أحب الديناصورات.. من الذي لا يحبّها؟

وتقدمنا في تؤدة إلى الداخل..

كانت هناك خارطة كبيرة تحتل أهم موقع في المكان.. ثم رأينا عينات متكلسة لا تعرف كنهها.. لا توجد هياكل للديناصور لكن هناك هياكل عظمية آدمية واقفة وقد حفظت في واجهات عرض..

ثمة قاعات جانبية في إحداها جمل كامل محنط.. لا أعرف.. هل انقرض الجمل في هذا الزمن؟

هناك ثياب عربية معلقة على مشاجب.. وأجزاء من خيام.. هناك قطع من تماثيل.. وأسلحة آلية صغيرة..

هناك صور لمطربين نعرفهم.. ما معنى هذا؟

قال المرشد وهو يتقدم الحشود الذين لا يكفون عن التقاط الصور:

- «في الداخل هناك نماذج حية.. سندخل ولكن بهدوء من فضلكم.. إن الزحام قد يكون خطرًا.. تذكروا أنّ هذه العينات غالية جدًّا ونادرة جدًّا..»

وفي هدوء مشى إلى ممر جانبي، فمشينا وراءه..

بالداخل كانت هناك نوافذ عرض.. وكان بداخلها أشخاص.. أحياء..

النوافذ عملاقة جدًّا مما يتيح أن يوجد بالداخل بيت صغير، وأسرة كاملة مكونة من أب وزوجته وأولاده ينظرون لنا في خوف وتوجس وملل.. كانوا سود البشرة يبدو أنهم من إفريقيا..

ثمة لافتة على الزجاج تقول: أوضح نموذج لـ Homo erectus.. تم العثور على هذه العينة في (تنزانيا)..

ألصقت (سلمى) وجهها بالزجاج وراحت ترتجف رآها طفل أسود بالداخل فاقترب منها وقد غلبه الفضول لكن أمّه ركضت لتبعده..

- «ممنوع لمس الزجاج يا آنسة!»

قالها المرشد في عصبية، فابتعدنا..

وفي واجهة أخرى كانت أسرة من الأستراليين البدائيين.. و...

هتفت (سلمى) بصوت مبحوح:

- «(سالم).. هل فهمت ما هي العظايا المنقرضة؟ إننا لا نتكلم نفس اللغة! إن العظايا هي نحن!»

☆ ☆ ☆

٨ - فلنفر من هنا..

كنا في حالة نفسية بالغة السوء، ونحن نتقدم إلى الطائرة.. طائرة كبيرة نوعًا هي التي رأيناها أمس رابضة في المطار.. أين؟ (أبو العتاهية) قال إن موعدنا في الليل، ومازال الليل بعيدًا..

لقد ارتفعت الطائرة في الهواء، وبدأت تعلو باستمرار..

لحسن الحظ كانت هناك مقاعد خالية وإلا لافتضح أمرنا لدى الصعود.. هذه الرحلات ليست تامة العدد فيما يبدو..

ولم نتبادل الكلمات.. لم نفتح فمنا بكلمة واحدة..

لأننا لو تكلمنا لانفجرنا في شلال من الأسئلة والاحتجاجات والهستيريا..

الليلة لو نجونا سنذهب إلى (جمشيد بن عباس).. سنلقي بأنفسنا تحت قدميه نتوسل إليه أن يشرح لنا كل شيء.. لا تقل إن الحقيقة هي ما فهمناه نحن.. قل إننا غبيان.. قل إننا حماران.. قل أي شيء.. لكن من فضلك لا تقل ما نعرف الآن هو الحقيقة..

- «يمكنكم أن تروا النيل لو نظرتم إلى الجانب الأيمن..»

كان هذا صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته..

تصاعد الكثير من (الواو) و(الياي) ونظر الجميع من النوافذ اليمنى، حتى شعرت بأن الطائرة تميل مهددة بالسقوط..

- «انهضي..»

قلتها لـ (سلمى) في كآبة لأن منظرنا بدا غريبًا الآن..

نهضنا ونظرنا من النوافذ وأطلقنا الكثير من الـ (واو) بدورنا..

دوى صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته:

- «من الناحية اليمنى ترون الأهرام..»

وتكرر المشهد من جديد بحماسة كبير.

- «جوار الهرم الأكبر تجدون معبد (فيلة) و(الكرنك)..»

ما هذا التخريف؟ هل هذا من أنواع الخلط الشهيرة بين العوالم؟ لكن لا.. ثمّة شيء يقول لي إن هذا ليس خلطًا..

- «والآن ترون أجزاء من سد (مأرب).. وأطلال (بترا).. ثمة آثار قرطاجية بالغة الأهميّة لو...»

هنا لم تتحمل (سلمى) أكثر فهتفت:

- «لحظة.. أنت تجمع أقصى اليمين مع أقصى اليسار في مكان واحد.. هذه الآثار مقلدة طبعًا؟»

لا أدري كيف سمعها فقد دوى صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته يقول:

- «بل هي أصلية طبعًا.. هذا عملنا هنا في ESF.. لقد تمكنا من نقل هذه الآثار المهمة للحضارات الغابرة، وجمعناها كلها في مكان واحد.. هذا يسهل زيارتها وصيانتها ويحميها من التلف..»

الآن نرى بقايا من الحضارة الآشورية.. وبعض بقايا الرومان في ليبيا..

- «يمكن القول إننا استبقينا بعض الأجناس بهدف علمي بحت، لكن خطتنا مستمرة لجعل كل شيء تحت السيطرة..»

أخيرًا انتهت الجولة، فبدأت الطائرة تدور بالعكس لنرى نفس المعالم من جديد..

بعد ساعة أو أقل كانت الطائرة تنحدر لتهبط في المطار..

وترجلنا أنا و(سلمى) شاعرين بحاجة ماسة إلى العثور على مكان نستجمع فيه خواطرنا.. مكان بلا بشر..

وقف أحد العسكريين على باب الطائرة وهتف في مكبر الصوت:

- «هناك وجبة عشاء جاهزة لكم، بعدها جولة حرة قبل ركوب الطائرة الـ (شارتر) للعودة..»

كانت الحماسة قد بلغت بالقوم مبلغها، وراحوا يلتقطون الصور لكل شيء.. لاحظت أنّ هناك شعبيّة كبرى للرمال.. الكل حريص على أن يحتفظ ببعضها في كيس..

ثم جاء وقت العشاء..

تناولناه في شرود، بعدها وقفنا في المطار بينما الطائرة الضخمة التي سترحل بهؤلاء تدور ببطء على الأرض، وصخب المحركات يصم الآذان.. يبدو أن تزويدها بالوقود قد تَمْ..

إن فتحة السور هناك.. لو وجدنا اللحظة المناسبة لتسللنا إلى هناك ورفعنا السلك و..

فوجئت بالعجوز البولندي الثرثار إياه يقترب منا ومعه فتاة.. فتاة من طراز أبيض الشعر أحمر الجلد رمادي العينين، حتى لتشعر بأنها صورة سلبية تمشي على قدمين..

قال لي بالإنجليزية:

- «معذرة.. أنت (بوخارست).. هه؟»

قلت باسمًا في عصبية:

- «وأنت (وارسو)!!»

رفع يد الفتاة وقال:

- «هذه (ناديا) من (بوخارست) هي الأخرى! كانت تبحث عن رفقة فقلت لها إن مواطنيها هنا!»

توارى الكون كله خلف غشاوة بينما الفتاة تضحك في مودة، وتنطلق في حديث بالرومانية جدير بأن يخرج من فم الكونت دراكيولا نفسه..

نظرت لـ (سلمى) ونظرت للفتاة ثم هززت رأسي بمعني أنني لا أفهم.. إشارة غبية جدًّا لا معنى لها.. ربما لو كنت أثبت جنانًا لاتهمت الفتاة بأنها نصابة وأن ما تتكلمه ليس الرومانية..

وقف رقيب ما على باب الطائرة وصاح:

- «فليركب الجميع..»

تأهب الجميع للصعود، لكني سمعت صوتًا يقول:

- «لحظة!! ثمّة نقطة لا بد من استيضاحها..»

نظر الجميع لمصدر الصوت.. كان هذا هو العجوز البولندي اليهودي..

قال في حماسة ضاغطًا كلماته:

- «هذان الشابان.. لا أستريح لهما على الإطلاق.. يزعمان أنهما رومانيان وهما لا يعرفان حرفًا من الرومانية.. وأكاد أقسم إنهما لم يكونا معنا في الطائرة عندما جئنا!»

صاح صائح:

- «بالفعل.. لم نرهما قط..»

هنا - كما في الكوابيس - ظهر الجندي (سميث) الذي تشاجرت معه البارحة.. تدخل في الكلام قائلًا:

- «بالفعل.. هذان لم يكن اسمهما في الأوراق!! نحن لانرتكب أخطاء.. لا تسقط منا أية أسماء سهوًا..»..

وهتفت عجوز شمطاء أخرى:

- «الفتاة كانت معنا أمس في الطائرة العمودية.. وصاحت حين رأت الصاروخ بعبارة لم أسمعها من قبل بأية لغة!!»

هنا أدركت أننا وقعنا في الشرك..

لكن الشرك لن يكون السجن هذه المرّة.. أنا أعرف ما يحدث لمن يقع في يد الجماهير الغاضبة..

الجميع ينظر لنا الآن.. حوالي مائتي سائح متحمس، ومعهم عدد من رجال القاعدة أو المدينة... لو كان الجهاز معنا الآن! هذا وقت مناسب جدًّا لضغط الأزرار..

بالفعل راحت أناملي تضغط على زر وهمي فوق قماش سروالي..

☆ ☆ ☆

في اللحظة التالية حدث ما يمكن أن تسميه (أسلوب جريفث) في الإنقاذ على اللحظة الأخيرة..

لقد دوى انفجار مروع في مكان ما من المطار.. وفي اللحظة التالية كانت سحابة كثيفة من الدخان تغلف الجميع، وتفرق الناس في رعب.. وتعالت عبارات (النجدة) وSecours و Help و...

هنا شعرت بيد قاسية عنيفة كالمنجل تطبق على معصمي وسط الدخان..

حدث الشيء ذاته مع (سلمى) على ما يبدو.. وشعرت بأننا نُجر كالخراف إلى السور وأخيرًا وجدت الفتحة فاجتزتها..

- «تمرغا! بسرعة أيها الأحمقان قبل أن ينقشع الدخان!»

كان هذا سهلًا لأن هناك منحدرًا، وسرعان ما راح جسدانا يدوران فوق الرمال كأننا حزمة من الصبار الجاف.. ومعنا حزمة ثالثة بدأت أفهم أنها أبو العتاهية..

أخيرًا وجدنا أننا نرقد فوق الرمال التي يبللها السواد والندى..

لا بد أن تأثير اختفائنا كان دراميًا بالنسبة لهؤلاء القوم بمجرد أن زال الدخان...

قال (أبو العتاهية):

- «أعددت قنبلة دخان لاستعمالها لو ساءت الأمور، ويبدو أنني كنت حويطًا في هذا.. ما كانوا ليسمحوا لكما بالفرار مهما حدث..»

ثم هتف وهو ينهض:

- «نبتعد الآن.. هناك فجوة كهف قريبة.. يجب أن نتوارى قبل أن تأتي الطائرات العمودية.. للأسف افتضح أمر هذه الفجوة في السلك..»

رحنا نركض بين الرمال حتى بلغنا فتحة من تلك الفتحات المعالجة بعناية.. يزيل الرمال المعجونة.. ينزع الورقة المقواة.. ثم ندخل.. الخطر في الدخول هو أنه مهما حاولت من الداخل، فإن الفتحة تظل واضحة للعيان منتهكة.. بينما الفتحات التي تعالج من الخارج يستحيل اكتشافها..

أخيرًا جلسنا في الكهف المظلم، فأشعل مشعلًا ما جعل الأمور أفضل..

قال لي باسمًا:

- «فقدت شعرك المستعار يا صاح..»

قلت له منهكًا:

- «لهذا خير من أن أفقد إحدى عيني..»

بعد تفكير قالت (سلمى):

- «لدينا عشرات الأسئلة..»

قال وهو يضع بندقيته الآلية جانبًا:

- «نحن لدينا مئات الأسئلة لكننا لن نتكلم عن شيء إلا أمام (جمشيد بن عباس)..»

للمرة الأولى أظهرت (سلمى) جهلها بقواعد هذا العالم وكانت عامدة:

- «هل هذا اسمه الحقيقي أم الحركي؟»

نظر لها في حيرة، ثم قال بصدق:

- «اسمه الحقيقي طبعًا.. (جمشيد بن عباس بن محمود).. نحاول أن نبقي أسماء جدودنا حية ساخنة.. إن ابني اسمه (فرناس).. لهذا صار محتمًا أن يكون اسم ابنه - لو رزقه الله بابن - هو (العباس بن فرناس)..»

قلت لـ (سلمى) مفسرًا:

- «رائد حلم الطيران..»

هزت رأسها في غيظ:

- «أعرف.. بالله العظيم أعرف.. لدينا واحد منه كذلك..»

وأطبقنا شفاهنا على الكلمات.. وأخلدنا لصمت طويل اختلط بلحظات نوم عميق..

☆ ☆ ☆

٩ - كيف بدأ كل شيء..

- «الحقيقة يا (جمشيد) أننا لسنا من هذا الكوكب على الإطلاق.. لا أعرف إن كنت تصدق هذا أم تكذبه، لكننا لانطلب منك التصديق أو التكذيب، ولا نبالي برأيك.. فقط نريد فهم ما يدور هنا..»

كان (جمشيد) جالسًا على الرمال، يجدل سلّة صغيرة، وقد جلس حوله طفلان..

المكان كان واحة صغيرة.. لا.. لا أجسر على أن اسميها واحة.. لنقل إنها بئر جواره ثلاثة أكواخ من الشعر.. ثمّة نساء هنا وأطفال، وبضع أشجار النخيل..

لم يبد عليه أنه سمع ما نقول.. فقط واصل جدل السلة، وعيناه العجوزان المنهمكتان تحاولان قدر الإمكان أن تريا ما تقومان به.. ثمّة نظارة ذات إطار من السلك مثبتة على أنفه ومن الجليّ أنها لا تقدم له الكثير..

الحقيقة أنني لم أفهم قط السر الذي جعل هذا المكان آمنًا بالنسبة لطيران قادر على الوصول إلى أي مكان.. ثم فهمت أنه من الأماكن المختارة للجولات السياحية الطائرة.. لا أحد يهاجمه لأنّه مكان محبب للسياح..

من الواضح أن ما يعرفه هؤلاء القوم في ESF هو أنّ هذه الواحة تضم بدويًا مسالمًا وزوجتيه وبعض الأطفال لكن الحقيقة كانت أنها ملتقى محبب لرجال المقاومة.. (جمشيد) ورجاله..

كذلك لا يمكن الآن الجدل في حقيقة أن (جمشيد) هو الحاكم الفعلي لهذا العالم السفلى المتشابك الرهيب.. إنّه عقل على جسد ليس واها تمامًا بينما رجاله عضلات..

لكن ما يضايقني الآن هو أن الرجل لا ينصت لنا على الإطلاق..

قلت له بعد قليل:

- «(جمشيد).. هل تسمعني؟»

قال دون أن ينظر لي:

- «كلمات.. كلمات.. سمعنا منها الكثير فلم أعد أبالي بها.. ما الفارق بين أن تكون من هنا أو هناك؟ ما المطلوب مني بالضبط؟»..

وهو ما يقول بوضوح إنّه لا يصدّق حرفًا: نحن مجنونان أو عميلان.. وهو يميل إلى الرأي الأول لأن الجاسوس لا يكون بهذه الحماقة..

قلت له:

- «النقطة الأولى هي جهازنا.. الجهاز الذي أخذوه منا في القاعدة الأولى.. من أخذه طبيب يدعى (ستارسكي)..»

- «أعرفه..»

- «النقطة الثانية هي ما معنى هذا الذي يحدث؟؟ سواء صدقتنا أم لم تصدق، فنحن لا نعرف البتة كيف حدث هذا، ولا متى وضع الهرم جوار آثار (بترا).. من هم العظايا؟ من هؤلاء الناس؟»

قال وهو ينزع النظارة:

- «سأحكي كل شيء.. ربما لأذكر نفسي، سأسألكما أسئلة كثيرة بعد ما تنتهي قصتي..»

☆ ☆ ☆

قال (جمشيد) وهو يرشف القهوة العربيّة:

- «إنهم يحاولون إبادتنا بالكامل.. بعدما انتصروا علينا وسادوا البر والبحر والسماء، يحاولون أن يزيلونا من على وجه الأرض..

«فيما مضى كان هناك عالمان.. عالم الشرق وعالم الغرب هذا قديم جدًّا.. وكان التناقض بين العالمين قويًا جدًّا برغم المحاولات العديدة لتقريبهما، لكن الغربيين كانوا يؤمنون بأن العالمين لن يلتقيا.. وقديمًا قال أحد أدبائهم إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدًا..»

كان يتكلم عن (رديارد كيبلنج RUDYARD KIPLING).. لديهم واحد منه هنا إذن..

واصل (جمشيد) الكلام:

- «كانت هناك شعوب عدة في الشرق.. العرب.. الهنود.. بالإضافة إلى بعض الشعوب الصغيرة مثل تلك الموجودة في قلب إفريقيا وأجزاء من أستراليا.. وكان الصدام الحضاري قاسيًا وصل درجة الحروب في أوقات ما.. المشكلة بالنسبة لنا العرب هي أن ثرواتنا كانت عظيمة، ولم يكن الغرب ليستطيع تكوين صناعة ناجحة من دون الاعتماد علينا كما أنّ بعض دولنا - مثل مصر - تميّز بموقع جغرافي غير عادي يحتم السيطرة عليه..

«(بونابرت) الغازي الشهير قال (إن مصر أهم بلد في العالم).. وكان يعني بهذا أن من يسيطر على مصر يسيطر على العالم.. كما كانت هناك دول بالغة الأهميّة.. مثل الصومال التي تشكل نقطة حاكمة على ساحل إفريقيا وعلى الخليج الهندي..

«كانوا أذكياء بارعين.. وقد طوروا علومهم بحيث استطاعوا السيطرة علينا.. كانوا يأخذون منا الثروات ليصنعوها، ثم يبيعوها لنا بسعر باهظ.. وكان اعتمادنا عليهم كليًا..

«النقطة الثانية هي أنهم استطاعوا أن يزيلوا الخلافات بينهم.. لم يعودوا شتى.. بل كونوا جيشًا موحدًا.. وصارت لهم تجارة واحدة واقتصاد واحد..»

قالت (سلمى) في حماسة:

- «نفس الشيء حدث في عالمي.. لكن العرب هم من صنع هذا..»

لم يهتم الرجل بملحوظتها وواصل الكلام:

- «صارت هناك الولايات الشرقية في شرق أوروبا.. والولايات الوسطى في غرب أوروبا ووسطها.. ثم الولايات الغربية عبر المحيط.. هذه الدولة الكبرى ذات الموارد غير المحدودة اسمها (إمبيريا)..

«لكننا في زمن التكتلات هذا ازدادت خلافاتنا ومشاكلنا كلما تقاربوا هم تباعدنا نحن.. تكالبنا على مصالحنا الشخصية الضيقة.. غرقنا في الشعارات والشعر.. ومن حين لآخر يقول قائل: فلنكف عن الخطب.. حان وقت العمل.. ثم تتحول كلماته هذه إلى خطبة جديدة.. ولم نستطع الإتفاق على شيء واحد حتى كدنا نختلف حول ما إذا كنا في النهار أم الليل.. والنتيجة هي إننا تلاشينا.. فجأة لم نعد قوة لها حساب.. وصاروا قادرين على أن يعملوا بنا ما يريدون.. بدءوا بالبلد (أ) وقالوا إن هذا لمصلحتنا.. فتناسينا الأمر.. ثم انتقلوا إلى البلد (ج) زاعمين أنّ هذا ضروري.. ثم جاء دور البلد (د).. أنتم تعرفون قصة الثيران الثلاثة الشهيرة التي (أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض).. الآن لم يبق منا إلا بلد واحد على الساحل الغربي لشمال إفريقيا.. وهم لا ينوون تضييع الوقت.. إن دوره قادم حتمًا..

«المشكلة الأخطر هي أن ثرواتنا انتهت.. نفدت.. وهكذا انصرفوا عنا.. حتى الاحتلال حمل عصاه ورحل تاركًا بعض المعسكرات المتناثرة.. في الماضي كانوا يصدّرون لنا الطائرات والسيارات والأجهزة الإلكترونية.. أمّا الآن فلم يعد لدينا ما نعطيه.. بالتالي لم يعد لديهم ما يقدمون.. وبالتدريج لم يعد لدينا دواء ولا كساء ولا أي شيء.. يسهل تصوّر هذا إذا تذكرت أنهم يصنعون القلم الرصاص ذاته..

«هنا وجد هؤلاء القوم أنفسهم في مشكلة.. إن الشعوب التي نفدت ثرواتها أو لم تعد لها أهميّة ما، تشكل خطرًا دائمًا.. إنها غاضبة جوعى، والجائع الغاضب يفعل أي شيء..

«لم يكن الغربيون ممن يهتمون بالحياة البشريّة إلى هذا الحد.. إن إبادة الهنود الحمر بالرصاص أو التجويع أو حتى البطاطين الملوثة بالجدري لأمر لا ينكره التاريخ.. وقد جاء الدور علينا.. لا بد من استئصال الشعوب التي لم يعد لها أهميّة..

«استغرقت حملات الإبادة مائة عام.. والنتيجة هي أننا كدنا نزول بالفعل.. هنا يبرز الجانب الإنساني المنافق لهؤلاء القوم.. إنهم يبيدوننا بيد ويقدمون لنا العون بيد أخرى.. ليس الغرض هو الحفاظ على أرواحنا ولكن الحفاظ على جزء مهم من تاريخ هذه الأرض.. نحن كنز ثقافي علمي لا بد من إبقائه..

«وهكذا تكونت الى ESF وهي هيئة علمية شبه عسكرية، تعمل على الحفاظ على ما تبقى من آثار تلك الشعوب التي بادت أو كادت.. ثمّة متحف - زرتماه أمس - يضم ما بقي من عينات بشريّة حية أو ميتة.. هياكل.. أدوات كنا نستعملها.. إلخ وهم يجمعون أي عظام في الصحراء باعتبارها كنزًا ثمينًا يزداد قيمة يومًا بعد يوم..

«قاموا بجمع كل الآثار في مكان واحد كما رأيتما لتسهل زيارتها وصيانتها.. وهم يطلقون لفظة (العظايا) على كل شيء يحاولون الحفاظ عليه.. بدءًا بعظام الديناصور وانتهاء بعظامنا نحن..»

ابتلعت ريقي وقلت:

- «إن كلامك مخيف.. والآن أعرف الاختلاف بين الكوكبين.. ليس جوهريًا.. إنّه اختلاف زمني لا أكثر! فقط أنتم تسبقوننا في الأعوام!»

سألته (سلمى):

- «وأنتم؟ ماذا تفعلون؟»

قال منهمكًا:

- «نحاول ما يفعله أي كائن آخر وما فعله الهنود من قبل.. نحاول أن نبقى.. أن نحافظ على حضارتنا.. نقاومهم.. نقاومهم بشراسة لكننا في الحقيقة لا نحدث أكثر من بعض الخدوش في الدبابة..

«نحاول التشبث بهويتنا.. نحافظ على ديننا.. نحافظ على لغتنا.. على أسمائنا.. كل واحد منا يحمل اسم علم من أعلام العرب هكذا لاننساهم أبدًا.. لاحظت أن طعامنا غارق في التقاليد العربيّة.. حتى الأغاني لا نسمعها للمتعة ولكن لأنها تجعلنا على خطوط اتصال مفتوحة بماضينا.. نتناسل.. نعلم أطفالنا..»

سألته (سلمى):

- «هل تعتقد أنهم سينجحون في إبادتكم؟»

- «لا أتساءل.. لقد نجحوا فعلًا!! فقط آخر معقل لنا هو ذلك القطاع في شمال إفريقيا.. ومن الواضح أن اجتياحه قادم.. لسوف يبقى عشرات منا يمثلون ما يمثله الهنود في أمريكا الشماليّة.. مجرد أثر أنثروبولوجي عالي القيمة.. ولربما يظهر بعضهم في السينما من حين لآخر في أدوار السحرة الهنود الذين يعرفون الأسرار كلها!»

قلت في غيظ:

- «هذا مهين حقًّا يا (جمشيد)... توضعون في المتحف وتنظم الزيارات لرؤيتكم..»

قال ببساطة:

- «من أنكر هذا؟ لا حاجة بك إلى أن تخبرني.. لكنك تراني أقاتل ولسوف أموت وأنا أحمل بندقيتي..»

- «هذا غير كاف.. الهنود كانوا من أبسل الشعوب وأشجعها.. وليس منهم من لم يمت وهو يقاتل.. لكنهم انقرضوا برغم هذا..»

ابتسم في قسوة لأنّه وجد ساذجًا يهذي، وقال:

- «إذن قل لي ما أفعله ولسوف أكون شاكرًا..»

قالت (سلمى):

- «يتكلم عن السلاح طبعًا.. ما هي حالة تسليحكم؟»

لوح بالبندقية وقال باسمًا:

- «هذا.. وبعض المتفجرات.. بعض الصواريخ الحرارية.. لا يوجد الكثير..»

- «نعني الأسلحة المحترمة.. ما هو وضعكم النووي؟»

ارتجفت للفكرة، لكني نظرت لها وقلت في استخفاف:

- «ماذا تتوقعين؟ هذه الأشياء تحتاج إلى قدر هائل من العلم والمال..»

قال (جمشيد) في جديّة:

- «كما تقول.. لكن هناك كذلك القنبلة الأيونية، وهي لا تقل خطرًا عن النوويّة.. هناك عالم باكستاني استطاع أن يصنع قنبلة أيونية خفيفة الوزن رخيصة الثمن، وبحث كثيرًا عمن يموله لكن الجميع خشي الكلفة أو المسئولية.. الرجل الآن ضائع ولا يعرف أحد مكانه..»

ثم لعق شفته السفلى الجافة وغمغم:

- «رحمه الله إن كان ميتًا.. اسمه كان (إسماعيل خان)..»

هتفت (سلمى) وهي تثب على قدميها:

- «(إسماعيل خان) لقد كان سجينًا في المعسكر الأول..»

☆ ☆ ☆

١٠ - عملية ليلية..

قلت في ملل:

- «أعتقد أن كل الباكستانيين اسمهم (حشمت خان) أو (إسماعيل خان).. هذا لا يضيف شيئًا..»

لكن (جمشيد) كان مهتمًا بالأمر.. قال لنا في جديّة:

- «على قدر علمي لا يوجد في المنطقة إلا هذا الـ (إسماعيل خان)..»

جلس وللمرة الأولى تتفحص عيناه القويتان وجوهنا.. سألنا عن كل التفاصيل.. كان يعرف المعسكر جيدًا، ولكنّه يجهل كل شيء عمن فيه.. كانوا يطلقون عليه (مجزر ستارسكي).. و(ستارسكي) هذا هو مدير المشروع والمسئول عنه بالكامل..

ومن جديد عاد يسألنا عن تفاصيل زيارتنا السياحية إياها فلمّا انتهينا من سرد قصتنا، قال لنا وهو ينهض:

- «ستظفران بقسط من الراحة.. إن هذا الخبر أهم شيء سمعته منذ سنين.. (إسماعيل خان) حي..»

دخلنا إلى أحد الأكواخ حيث مارسنا تلك المتعة العظمى: خلع الحذاء.. وجاءتنا امرأة بجرة مليئة بالماء كي تغسل وجوهنا ونشرب.. ثم جلبت جرة بها لبن بارد لا بد أنه لبن ماعز..

قلت لـ (سلمى) وأنا أرقد على الأرض التي غطتها بعض الجلود:

- «لا أعرف ما هي تلك القنبلة الأيونية..»

قالت في ثقة وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها:

- «موجودة في عالمي.. إنها شديدة الفتك..»

قلت لها في ضيق:

- «أنا أكره الدمار أينما كان.. وعلى قدر علمي لم يمتلك إنسان سلاحًا إلا وجرّبه.. لقد كانت الحرب العالمية قد انتهت تقريبًا لكن الأمريكان وجدوا أن (أوبنهايمر OPPENHEIMER) اخترع القنبلة الذرية فعلًا.. هكذا كان الإغراء أكبر من أن يرفض..»

- «تعني أنهم ألقوها على اليابان لمجرد أنهم يستطيعون؟»

- «هذه هي الحقيقة..»

شردت (سلمى) وابتسمت بزاوية فمها اليسرى قائلة:

- «على قدر علمي لا يوجد طريقة لحفظ السلام إلا أن تملك ما يملكه خصمك.. فيما عدا هذا لا توجد أسس للسلام.. لقد عرف العرب في عالمي هذا الدرس مبكرًا وطبقوه بعناية.. إن هذا هو توازن الرعب.. لا أعرف إن كان عندكم هذا المصطلح أم لا.. لو امتلك العرب هنا قنبلة أيونية فإنهم يستطيعون الحفاظ على حضارتهم العريقة من الانقراض..»

ثم أضافت وهي تعتصر قبضتها:

- «ثم أي شيء يمكن أن يصمد أمام هذه المهانة؟ رحلات سياحية وعروض في نوافذ عرض؟ اسم المشروع نفسه مهين (صندوق الأنواع المنقرضة).. هل تقبل لنا أن نتحول إلى نوعٍ؟»

الحقيقة أن كلامها لم يخل من منطق.. وتذكرت الاسم الذي اختاره (بن جوريون) في عالمي لمشروع القنبلة الذرية الإسرائيلية: ميكرع هاكول.. عبارة عبرية معناها (قبل أن يضيع كل شيء)!

لو كان الهنود الحمر يملكون مدافع وديناميت وجيوشًا منظمة لظلوا أحياء.. ولربما طردوا الغزاة الأوروبيين كذلك.. لقد صدقوا مقولة (إن الشجاعة تكفي).. لكنهم لم يعرفوا أن (التكنولوجيا تقهر الشجاعة)..

قلت وأنا أغمض عيني:

«أرجو فقط أن يكون هدف هؤلاء هو التهديد لا أكثر..»

☆ ☆ ☆

في المساء رأيناهم.

كانوا عشرة من الرجال الأشداء كاملي التسليح.. لقد لفوا الكوفيات ملثمين وجوههم فبدوا شديدي المراس مرعبين وكانوا يرسمون على الرمال خطة كاملة لعملية الليلة..

قلت لهم وأنا أقدم رجلًا وأؤخر أخرى:

- «هل آتي معكم؟»

قال (سلمان) وهو ينظر لي في ثبات:

- «لا يا أخي.. فأنت خائف..»

كيف عرف هذا؟ بالطبع لو كان هو أنا.. لا بد أنه يعرف ما أشعر به.. هو كذلك خائف لكن للضرورة أحكامها.. ودت لو بقي فترة أطول لأساله عما إذا كان يحبّ القطط الصغيرة وقراءة الصحف في الحمام ومصاب بالقرحة.. طبعًا لا مجال لأسئلة سخيفة كهذه في هذا الوسط الذكري القاسي شديد الخشونة.. لا بد أنه لم ير جريدة ولا حمامًا قط..

وقال (جمشيد) الذي وقف وسط الرجال:

- «مهمتهم خطرة ووصفك للمكان دقيق.. إن ذهابك معهم سيعوقهم..»

ثم نظر لهم نظرة ذات معنى وقال:

- «أتوقع ألا يعود منهم إلا ثلاثة لو كانوا مجدودي الحظ لهذا أطلب منهم الاستعداد للشهادة من الآن.. لقد أبلغنا أسركم بأنكم قضيتم نحبكم ظهر اليوم..»

دنوت منه في خجل وقلت:

- «ثمّة شيء آخر يهمني.. (ستارسكي) هذا... إن معه جهازًا في حجم قبضة اليد.. جهازًا يشبه الآلة الحاسبة لو رأيتم واحدة.. آلة حاسبة عليها حروف وأرقام عربية.. هذا الجهاز هو مفتاح عودتنا إلى عالمنا.. لا أعرف إن كنت تصدق أم لا.. أعرف أنك لا تصدق.. لكني راغب فعلًا في استرداد هذا الجهاز سليمًا..»

نظر إلى الرجال وقال:

- «سمعتم ما قال.. لا داعي للشرح.. لكني أرجو أن تحاولوا استرداد هذا الجهاز.. لو اضطررتم إلى تهديد (ستارسكي) فلا بأس..»

ثم نظر لي وسألني:

- «كيف تقول (الجهاز الصغير) بالإنجليزية؟»

قلت في ارتباك:

- «ديفايس.. أو فلنقل.. سمول أباريتص..»

- «ليكن.. لا تنسوا هذه العبارة.. سمول أباريتص..»

ثم لوح بقبضته وهتف:

- «أريد الباكستاني.. أقسموا على أن تأتوا به لي..»

أقسم الرجال وتعانقوا مع (جمشيد).. حتى أنا نالني عناق أو اثنان برغم أنه لا دور لي في هذه القصة..

ثم إن الصحراء المظلمة ابتلعت الرجال..

قال (جمشيد) وهو يجلس:

- «لن يعود من تبقى منهم إلا في الصباح.. لنشرب بعض القهوة ثم نخلد إلى النوم..»

☆ ☆ ☆

لكن النوم مستحيل في ليلة كهذه..

الشعور بأنك مسئول عن حياة هؤلاء الرجال، وأنك ربما كنت مخطئًا.. الشعور بأن كل هذا مستحيل.. لقد فررنا بنوع من السهولة من المعسكر في المرّة السابقة ولكن هذا لأنّهم تصرفوا معنا بإهمال.. لكن ماذا عن إهمالهم الآن؟

ورحت أشق بعيني المسافات..

أرى الرجال يتسللون إلى المعسكر..

يقطعون السلك الكهربي الذي يتصل بالسياح، ثم يقطعون السلك الشائك نفسه.. يزحفون على البطون إلى الداخل ثمّة حارس يقابلهم فيلتحمون معه بالسلاح الأبيض..

يفتشون بين الغرف.. يلتحمون مع حراس آخرين.. الآن لم تعد هناك حاجة للسلاح الأبيض لأن بعض الطلقات انطلقت بالفعل، ودوَّت صفارات إنذار..

الآن صارت العملية أكثر قسوة.. وبدأت الطلقات تدوي.. ثم أخيرًا يدخل أحدهم السجن فيجد الشكل القابع في الظلام.. يُطلق الرصاص على القفل ليخرجه..

مزيد من الطلقات..

(ستارسكي) يغادر مكتبه فيجد فوهة بندقية تلتصق بصدغه.. يعود إلى المكتب شاحب اللون عاجزًا عن الكلام لقد فعل الكثير بالعرب من قبل، ولو كان من يهدده الآن يعرف هذا لانتهى أمره..

لكن من يقتاده إلى المكتب يسأله بلغة إنجليزية فظيعة:

- «سمول.. سمول أباريتص.. أباريتص.. سمول..»

يفرغ كل أدراج مكتبه من أي (أباريتص).. يضعها على المنضدة وعيناه لا تفارقان الفوهة.. يبحث المهاجم بين الأجهزة ثم يلتقط ذلك الجهاز الذي وجده مع الغريبين في الصحراء.. يدسه في جيبه.. ينظر له.. ثم يغادر المكتب..

يجلس (ستارسكي) يجفف عرقه غير مصدق.. لو عرف الأحمق أنه أضاع أكبر فرصة للانتقام في التاريخ.. الحقيقة أن (ستارسكي) أجرى على العرب تجارب تفوق ما كان (يوسف منجيل) الرهيب قد أجراه على اليهود.. تفوقها عددًا وتنوعًا.. لكن في هذا العالم - كما في أي مكان آخر - يوجد ثمن للدم اليهودي بينما لا ثمن لأي دم آخر..

الحقيقة هنا أن هؤلاء الرجال لم يتلقوا تعليمات بقتل (ستارسكي) إلا لو قاوم..

المهاجمون يغادرون المعسكر وهم يطلقون النيران.. تنفجر طائرتان عموديتان كان الكل يعتمد عليهما في مطاردة الهاربين عبر الصحراء..

هناك من سقطوا من المهاجمين.. لكنهم جثث هامدة.. لا يمكن استجوابهم..

واحد فقط وثب على مجموعة من الحراس.. ثم دوى انفجار مريع وتناثرت الشظايا في كل صوب.. لقد لغَّم نفسه..

حقًّا لم أستطع النوم وأنا أحلم بهذا كله..

نظرت إلى (سلمى) فوجدتها تنعم بنوم هادئ..

غادرت الخيمة وخرجت إلى العراء..

كان (جمشيد) يجلس أمام جهاز صغير.. دنوت أكثر فوجدت أنه جهاز تلفزيون.. أقدم جهاز رأيته في حياتي، وعلى شاشته كانت أسوأ صورة رأيتها في حياتي.. المتكلم لا يكمل جملة واحدة من دون أن تتلاشى الصورة إلى ذرات. من ثم يقوم (جمشيد) بتحريك الجهاز أو لفه.. بعد قليل تتحول الذرات إلى متكلم..

كان الجهاز يعمل بالبطاريات الجافة.. ورأيت أن سلكًا يخرج منه علقه (جمشيد) إلى أقرب نخلة..

جلست جواره وغمغمت:

- «تلفزيون.. لم أعرف أن عندكم واحدًا..»

- «الأخير.. يساعدنا في معرفة ما يدور هناك.. لكننا لا نعرف أية لغة أجنبيّة، لهذا نشاهد الصور فقط..»

- «من عرف لغة قوم أمن شرهم..»

- «هذا حق.. لكن لا يوجد معلمون هنا كما ترى.. هل تقبل تعليمنا؟»

كنت لا أرغب ولا أتمنى أن أظل هنا إلى هذا الحد، لكنّها فكرة لا بأس بها.. من المفيد أن تُعلِّم هؤلاء القوم شيئًا.. إنهم عرب برغم أنهم على كوكب آخر في مجرة أخرى!

أضاف في شيء من الفخر:

- «لدينا كذلك كاميرا وشريط فيديو.. لم نستخدم هذين قط لكنهما قد يصلحان يومًا..»

على الشاشة كان هناك مجموعة من السادة يبدو عليهم الهم مع الكثير من الجديّة..

قلت لـ (جمشيد):

- «إنهم قلقون بصدد وجود مجموعات إرهابية في المنطقة الغربية من الشمال الإفريقي..»

قال ضاحكًا:

- «هم دائمًا قلقون.. منذ مائة عام وهم قلقون.. أحرقوا أطفالنا وقراننا ومساجدنا، وما زالوا قلقين.. يملكون الطائرات والقنابل النوويّة والهيدروجينية والنيوترونية والأيونية وما زالوا قلقين.. عروا نساءنا واقتحموا ديارنا ومازالوا قلقين.. لا أعرف كيف نطمئنهم على أنه لا خطر منا!»

هزتني كلماته فرحت أراقب الشاشة صامتًا كي لا يتهدج صوتي..

قلت له:

- «يبدو أنهم ينوون تجريد حملة لتطهير هذا القطاع...»

- «بالتأكيد.. كلنا يعرف هذا.. سيمرحون كثيرًا هناك..»

ثم نظر إلى الأفق وقال وهو ينهض:

- «إنّه الصياح.. ربما يعود رجالنا أو لا يعودون.. لكني على كل حال سأخفي السلك الآن حتى لا تلاحظه الطائرات.. من الخير أن نختفي نحن أيضًا فلربما كانت جولة سياحية مبكرة..»

ثم توقف ونظر للأفق وهتف:

- «لم تعد عيناي على ما يرام.. هل ترى رجالًا هناك؟»

نظرت إلى حيث أشار وقلت:

- «نعم.. هناك رجال وأحدهم يحمل رجلًا على كتفه.. إنهم رجالك.. أعني رجالنا..»

☆ ☆ ☆

١١ - ميكرع هلكول..
أو (قبل أن يضيع كل شيء)

كانوا قد صاروا خمسة..

تركوا منهم خمسة هناك جثثًا هامدة.. لم يتركوهم إلا بعدما تيقنوا من أنهم جثث هامدة، لأن تعذيب (ستارسكي) ينتزع الأسرار من حوض الاستحمام ذاته..

لماذا لم يعذبنا حين كنا في قبضته؟ ثمّة رأيان.. الرأي الأول يقول ما معناه (لا تتعجل رزقك.. كل شيء كان في الطريق).. الرأي الثاني يقول: لأننا كنا غريبين غير معتادين بالنسبة له. وكان يشعر أننا قد نفيده أكثر مما لو عذبنا وتركنا حطامًا بشريًا..

والسؤال هنا: ماذا بقي من ذلك الباكستاني لو كان هو المطلوب؟

أما الخبر السيئ فهو أن (سلمان) قد كان من الذين لم يعودوا قط.. ولن يعودوا أبدًا.. كُتب لي و(سلمى) أن تلقى نسختنا هنا الشهادة.. نحن اللذان لم نتبادل معه أكثر من ثلاث عبارات..

وصلوا إلى الخيام وبسرعة تمت عملية إخلاء عاجلة..

لم يبق إلا عدد محدود منا دخلوا إلى الخيام، بينما ذاب أكثرهم في الجبال.. إن الطائرات قد تصل في أية لحظة..

كان الباكستاني في حالة مريعة.. تذكروا أننا لم نره في النور قط.. بل لم نره في الظلام.. وقد بدا لي مثل (روبنسون كروزو) بعد أعوام من محبسه.. أظفار طويلة ولحية تغطى أعلى بطنه وأسمال بالية.. لكني رأيت عينيه فأدركت أنهما تشعان ذكاء.. إنهم لم يقضوا عليه بعد..

كان أول سؤال سألناه له:

- «هل تكلمت؟»

قال بعربية واهنة عرجاء:

- «لا..»

وهكذا هدأت النفوس قليلًا وبدأت عملية إطعام الرجل وسقي الرجل وغسل جسد الرجل وإبدال ثياب الرجل وإراحة الرجل طبعًا قامت (سلمى) بالجزأين الأول والثاني، بينما وقعت الأجزاء

الثلاثة الباقية على عاتقي..

في نهاية اليوم كان قد بدأ يبدو بشريًا لكنه ظل عاجزًا عن الوقوف.. الآن فقط أجد أنه يبدو كالعلماء وليس كالمجاذيب.. وهكذا جلسنا على الرمال في حلقة صغيرة حول نار متقدة.. ودارت الدلة تقدم لنا القهوة العربيّة..

قال له (جمشيد) وهو يقدم له بعض اللبن:

- «منذ متى وأنت معهم؟»

- «خمس سنوات!»

- «ولماذا احتفظوا بك كل هذا؟»

- «خمنوا أن ما لديَّ خطير.. لكني لم أتكلم.. لهذا كان الحل الوحيد أن يبقوني حبيسًا..»

قال (جمشيد) وهو يعقد يديه أمام وجهه:

- «دعني أقل لك إننا لم نفقد خمسة من رجالنا لأننا نحب ذلك.. نحن نعرف أنك الوحيد القادر على صنع أو اختراع القنبلة الأيونية.. ومصيرنا كله معلق بها..»

قال الباكستاني واللبن يسيل على ذقنه:

- «لقد صنعتها بالفعل!».

هنا ساد صمت رهيب.. وسقطت بعض الأقداح من الأيدي.. إذن كانت القنبلة موجودة طيلة هذه الأعوام ولا أحد يعرف..

- «وهل تستطيع عمل سواها؟»

- «مستحيل! لم يعد الزمن ذات الزمن.. قمت بتركيب آخر جزء منها وأنا في قسم الفيزياء في (كراتشي) قبل أن تسقط البلاد.. إنها مدفونة في الصحراء هنا في موضع لم أنسه قط.. لكني في السجن منذ خمس سنوات.. وكنت أتمنى لو خرجت وفجرتها في قلب (إمبيريا).. في هؤلاء الكلاب الذين عذبونا وأهانونا..»

ولمعت عيناه ببريق متوحش:

- «أتمنى أن أرى لحمهم يحترق ويذوب.. أن أسمع صرخات نسائهم.. أن..»

هنا تدخلت أنا في عصبية:

- «اسمع يا سيدي.. قبل أن تدخل في تفاصيل. هذه القنبلة لن تُلقى على بشر.. سيتم استعمالها كورقة ضغط!»

نظر لي متحديًا بعينية الواهنتين وقال:

- «ومن أنت كي تحدد لي؟»

قال (جمشيد) وهو يهدئ الأمور:

- «هذا هو الرجل الذي لولاه لقضيت في محبسك وإنني لأرجو سماع خطّته قبل أن نتحرك..»

تكورت على نفسي ودنوت أكثر من النار، وبحثت عن (سلمى) فوجدتها تبتسم لي مشجعة.. قلت بلهجة حاسمة:

- «أولًا.. يجب تفجير هذه القنبلة.. هنا في الصحراء..»

قال (جمشيد) في غيظ:

- «إذن أنت تمزح.. كل هذا الجهد كي نفجر أملنا الأخير في الصحراء؟»

قلت ضاغطًا على كلماتي:

- «ليس هدف القنبلة التدمير بل التخويف.. لا بد من أن تصل الرسالة كاملة.. هل هناك محطات تلفزيونية هنا؟ أعني شبكات عالمية للأخبار؟»

قال (جمشيد):

- «هناك شبكات عدة كلها في المدينة الصحراوية إنها تبث إلى العالم الغربي أخبار العظايا..»

- «وما هي قدرتكم على توصيل شريط فيديو لهم؟»

- «أعتقد أن رجال قادرون على ذلك.. هناك صناديق بريد على كل حال..»

- «إذن سيتم التفجير في أقرب فرصة.. وسنقوم بتصويره.. أنت قلت إن هناك كاميرا..»

قال (جمشيد) باسمًا:

- «لا داعي للتصوير.. ما إن يتم الانفجار حتى تلتقطه الأقمار الصناعية.. سيعج المكان برجالهم خلال ساعات.. لو أن ثعبانًا تثاءب في هذه الصحراء لالتقطوا صورته..»

- «لكني أريد التصوير.. لن أسمح بالمجازفة أو أن يمرّ الانفجار دون أن يلاحظه أحد..»

انتهيت من كلامي فاسترخيت قليلًا، هنا قال لي (جمشيد) وهو يضحك ضحكة ذات معنى:

- «بالمناسبة عندي هدية لك..»

- «وما هي؟»

كان الجهاز ناقل الجزيئات في يده.. لم أر قط جهازًا أجمل من هذا.

مددت يدي لكن يد (سلمى) كانت الأسرع.. لقد انتزعت الجهاز وراحت، تقلبه في يدها في نهم ضغطت زرًا صغيرًا لتتأكد من أن البطاريات بحال جيدة.. لم يخدش لحسن الحظ، وكان من السهل أن تخترقه رصاصة..

قالت لي في خبث:

- «ما رأيك؟»

- «مثل رأيك.. لم يحدث قط أن استرددناه بهذه السهولة..»

- «هل نرحل؟»

- «لا.. لا بد من اتمام مهمتنا.. لكني أوصيك به خيرًا.. أنت لا تفعلين شيئًا إلا إضاعته كأنما يدفعون لك راتبًا من أجل هذا..»

ونظرت لـ (جمشيد) طويلًا وابتسمت.. ومن قلبي همست:

- «شكرًا..»

☆ ☆ ☆

تم التفجير في السابعة صباحًا بعد يومين..

كانت القنبلة تعمل جيدًا، وكان العالم قد دفن جوارها أجهزة التحكم عن بعد اللازمة لهذا التفجير..

ابتعدنا مسافة كافية في تقدير العالم - حوالي كيلومترين - ثم تم الانفجار.. ولم تفارق عين (سلمى) العدسة لحظة واحدة..

حقًا كان أغرب انفجار رأيته في حياتي.. له ذات الطابع الذي رأيته للقتال في هذا العالم.. الانتشار الشبيه بالسوائل، ثم اللهب الأخضر.. لكنه انفجار ضخم مريع.. سحابة زرقاء تتصاعد لتنتشر على ارتفاع كيلومتر من سطح الأرض لكنّها لا تشبه سحابة عش الغراب الشهيرة..

كان الباكستاني في حالة مريعة من التوتر والقلق.. إنّه لم يجرب قنبلته قط وكان من السهل أن يفشل.. لهذا بكى فرحًا حين رأى الانفجار..

توقعت أن يقول (أنا قد صرت الموت.. مدمر العالم) كما فعل (أوبنهايمر) بعد نجاح أول تجربة للقنبلة الذرية في (لوس ألاموس) على كوكبي.. لكنه لم يكن يعرف هذه الصلاة الهنديّة على كل

حال..

المهم أن الفيلم كان ناجحًا..

بعد هذا عدنا إلى الأكواخ..

بدأنا بتعليق ملاءة كبيرة على الجدار لتكون خلفيّة محايدة للصورة..

ثم جاء دوري..

كنت قد كتبت الخطبة عدة مرات، وتدربت على إلقائها.. في النهاية صرت أحفظها عن ظهر قلب..

جلست (سلمى) أمامي وبدأت تشغيل الكاميرا العتيقة..

كنت أظهر بوجهي كاملًا الآن.. لوسارت الأمور كما نريد فلن نكون هنا حين يفتشون عنا..

أشارت لي باسمة كي أبدأ الكلام فابتلعت ريقي..

كنت أنا الوحيد الذي يمكن أن يلقي هذه الخطبة لأنني أجيد الإنجليزية.. ولأنني و(سلمى) لن نكون هنا كما قلت لك، حين يشرع الجنود يفتشون تحت كل حجر..

فقط عليهم ألا يعرفوا أننا كنا في هذه القرية.. لهذا وضعنا الملاءة..

قلت بصوت هادئ:

- «نعم يا سادة.. ما رأيتموه هو انفجار تجريبي للقنبلة الأيونية التي تمكنا من صنعها بمعونة بروفسير باكستاني، الذي يدهشني أنه كان في قبضة د. (ستارسكي) ولم ينتزع منه أية أسرار بل وتركه يفلت من يده.. والأهم هنا أنني كنت أنا نفسي في قبضة د. (ستارسكي)..»

كان هذا نوعًا من (الإسفين) أدقه عمدًا.. وأنا أعرف أن حالة الهياج والذعر التي ستحدث كفيلة بسلخ الرجل حيًّا..

واصلت الكلام:

- «الحقيقة المخيفة يا سادة هي أنّ هناك أربع قنابل من ذات النوعية موجودة الآن في مخابئ حصينة في أربع مدن مهمّة من مدنكم.. أية مدينة هي؟ هل (لندن)؟ (لوس أنجلس)؟ (شيكاغو)؟ (بوخارست)؟ إن الحدس متروك للجميع.. لكني أؤكد لكم أنّ هذه القنابل تم تركيبها بالداخل على أيدي عملائنا وبخامات محلّيّة.. وهناك شاب مسئول عن كل قنبلة.. هذا الشاب من ذويكم ويتقاضي أجرًا على مهمته هذه.. وهو لا يعرف أي شيء عنا ولا عن القنابل الأخرى، لكنه سينفذ مهمته بمجرد أن يتلقي إشارتنا.. والإشارة قد تكون أغنية أو إعلانًا في التلفزيون.. قد تكون رسالة وقد تكون موعدًا محددًا..»

- «والآن لنا يا سادة أن نتخيل ماسيحل بمدنكم المزدحمة لو وجدت فيها ذات المشهد الذي رأيتموه في الصحراء.. هل تخلون مدنكم؟ مستحيل.. لا يمكن أن تخلوا كل مدينة من مدنكم.. ولو أنني حددت المدن المستهدفة لكان الأمر سهلًا..»

- «هل هذا ابتزاز؟ نعم ياسادة.. إنّه ابتزاز.. لِمَ لا وقد تعلّمنا منكم النفاق والخداع وازدواج المقاييس منذ زمن.. أنتم أبدتم قومنا وفي الوقت ذاته تنفقون المليارات من أجل الحفاظ علينا لمتاحفكم وتطلقون علينا ذلك اللفظ المهين (العظايا).. أي أننا انقرضنا لأننا لم نتطور..»

- «لقد تعلّمنا الدرس كاملًا، ومن اللحظة سيكون توازن الرعب حقيقة واقعة..»

- «نحن لا نهدد الآمنين.. لانخيف أحدًا.. فقط نحن نحمي وجودنا وحضارتنا من صياديكم.. وما نطلبه منكم بسيط جدًّا.. لا تأتوا إلينا.. نحن لن نذهب إليكم، فلا تأتوا إلينا.. إن هناك حملة يتم إعدادها لإبادة غرب القارة عما قريب (لأنكم قلقون).. وأنا أقول لكم إن هذه الحملة لن تتم.. لأن لحظة بدئها ستكون هي إشارة التفجير للقنبلة الأولى.. ثم يتم تفجير قنبلة كل يومين..»

- «لا تقنطوا يا سادة.. فلا تنسوا أنكم فعلتم شيئًا مماثلًا في اليابان منذ أعوام ولم يتحدث أحد عن الابتزاز.. كان تفكيرًا عمليًا حقن دماء جنودكم كما قلتم وقتها..»

- «نحن نفعل نفس الشيء فلا تكونوا خاسرين سيئين.. يجب أن تتحملوا الهزيمة بروح رياضية..»

- «ستظل القنابل في مكانها ولن تعرفوا مكانها أبدًا.. ولسوف تسحبون قواتكم وفرق الدراسات إياها.. لسوف تتعاونون مع الحكومات الجديدة التي ستنشأ في هذه المناطق.. لسوف تمولون مشروعات التعمير وما يلزم لإنشاء دولة.. هذا نذر يسير من كل الثروات الطبيعية التي سرقتموها من هذه البلدان.. نحن لا نطلب إلا الحق في الحياة وهو مطلب عادل.. كما أنّ كلامنا واضح: لا تأتوا إلينا فلن نذهب لكم..»

- «ستبحثون عني يا سادة لكنكم لن تجدوني.. لا تتعبوا أنفسكم في استجواب الأبرياء وتعذيبهم.. فلا أحد يعرف أين أنا.. لا أحد يعرف مكان القنابل سواي.. ودعوني أؤكد لكم أننا نعتبر تعذيب الأبرياء أو البروفسير الباكستاني خرقًا واضحًا منكم ربما يستدعي تفجير واحدة من هذه القنابل..»

- «شكرًا يا سادة.. وأكرر: نحن لم نفعل إلا تطبيق ما تعلمناه منكم..»

انتهى التسجيل فرحت ألهث.. العرق يغمرني.. ونسبة الأدرينالين في دمي تجعلني كأنما أنا خرقة بالية.. بينما رفعت (سلمى) إبهامها بمعنى أنني كنت رائعًا..

سألت (جمشيد):

- «الآن هل يمكنكم توصيل الشريط إلى إحدى وكالات الأنباء؟»

قال في رضا وهو يأخذه مني:

- «بالتأكيد.. سيلقيه رجالي في صندوق بريد الآن..»

قالت لي (سلمى) باسمة:

- «هذه فكرة لا بأس بها»

قلت لها:

- «كانوا سيفجرون القنبلة على سبيل الانتقام لا أكثر.. وكنا سنفقدها بثمن بخس.. بهذه الطريقة من (البلف) يشعرون بأننا أقوى من حقيقتنا.. بالإضافة إلى أن يدنا لم تتلوث بجريمة حرب مثلهم..»

☆ ☆ ☆

وفي نشرات المساء رأينا الصورة مرارًا وسمعت كلماتي تتردد مترجمة لعديد من اللغات..

أمّا الأجمل فهو حالة الاضطراب العامة التي بدت واضحة.. مظاهرات في الشوارع.. مشاجرات برلمانية.. فرق بحث وهدير الطائرات فوق رءوسنا عدة مرات خلال نصف ساعة من إذاعة الرسالة مما دلني على أن وقت الرحيل قد حان لقد صرت فجأة صاحب أشهر وجه في العالم الغربي..

ثم أعلن المذيع أن وفدًا من (إمبيريا) قادم إلى الشرق الأوسط لدراسة إجراء مفاوضات مع بقايا العظايا.. قالها في النشرة الأولى ثم عدل الاسم إلى (المتمردون العرب).. وفي النشرات التالية تحول الاسم إلى (الثوار العرب)..

هكذا! كاد يستفزني إلى حد أن أفجر قنبلة ثانية!

جاءت، أخبار أخرى عن وقف الزحف نحو القطاع الشمالي الغربي من إفريقيا.. ستتوقف العمليات بعض الوقت حتى ينبلج الضباب.. ليس هذا خضوعًا للابتزاز - كما قالوا - لكن حرصًا على سلامة مواطنيهم..

- «إنهم خائفون لكنهم يتظاهرون باللامبالاة!»

قالها (جمشيد) في رضا وهنو يتابع الأخبار فهززت رأسي في فخر..

قلت وأنا أنهض:

- «يجب أن يخافوا... هم مهددون بفقد كل شيء.. بينما نحن - عمليًا - لن نفقد أي شيء إلا حياة لا قيمة لها.. سيظل شبح القنابل الباقية جاثمًا فوق رءوسهم لأعوام عديدة.. يجب أن يعرفوا

أن الخوف لعبة يلعبها اثنان.. وأنه لا يوجد بشر بلا ثمن لأرواحهم.. أعتقد الآن أنكم في الطريق الصحيح.. لا أعرف طوله لكنه مرهق شاق..»

قال في حكمة وهو يطفئ جهاز التلفزيون:

- «ليكن خمسين عامًا أو مائة.. هذا لا قيمة له في حياة الشعوب.. أنا سأكون في القبر خلال عام أو عامين، لكني سأموت راضيًا لو عرفت أن وجودنا لن يزول.. وأننا لم نعد عظايا..»

- «العظايا انقرضت لأنها بلا عقل ولا إرادة.. لا يمكن أن نكون عظايا أبدًا إلا لو فقدنا عقولنا وإرادتنا..»

ثم عانقته طويلًا.. كان يعرف أننا الآن راحلون..

- «شكرًا لك يا (سالم).. فقد ساعدتنا كثيرًا..»

- «شكرًا لك يا (جمشيد) فقد علمتنا كثيرًا..»

وأمسكت بيد (سلمى) على حين ضغطت هي على أزرار الجهاز بالترتيب المعروف..

وتلاشت الصحراء من حولنا..

☆ ☆ ☆

الخاتمة..

الآن أعود لكم أنا (رفعت إسماعيل) العجوز بعد ما فرغت من قراءة هذا الخطاب..

ما زالت عندي قصة أخيرة للأخ (سالم) هي (أرض الظلام).. ولا أعرف لماذا لم يزرني منذ اليوم الذي قدم لي فيه قصته (أرض أخرى).. هل مازال على كوكبنا أم أننا كنا مجرد مرحلة من جولته عبر الأكوان؟

على كل حال آمل أن تكونوا قد أحببتم قصته هذه.. إنها كئيبة لكني لا أعد بأن تكون (أرض الظلام) أقل قتامة.. قصة يكون هذا عنوانها - والمفترض أنه أكثر أجزائها بهجة وجاذبية - فكيف تكون أحداثها إذن؟

في الكتيب القادم أعود لكم بقصتي.. أو شهادتي عن تلك الطفلة قريبة (ماجي) التي جنت أو مستها (رونيل) السوداء..

لقد راهنت على أنني سأجد الحل بسهولة لكني كنت مخطئًا لأن...

ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة المقدمة

مقـــدمة

١ - أرض أخرى..

٢ - أرض العظايا..

٣ - ESF..

٤ - الصيادون..

٥ - أبو العناهية وآخرون..

٦ - التنكُّر..

٧ - الجولة..

٨ - فلنفر من هنا..

٩ - كيف بدأ كل شيء..

١٠ - عملية ليلية..

١١ - ميكرع هلكول..أو (قبل أن يضيع كل شيء)

الخاتمـــة..

روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

أسطورة رونيل السوداء

59

ماوراء الطبيعة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة

هذا أنا مرة أخرى..

لا بد أن البعض رحب بي بحرارة، ولا بد أن الكثيرين ركلوا الجدار أو الأرض في غيظ، وهتفوا: هو ذا ذلك العجوز النصاب من جديد! ألم يمت بعد؟!

حسن.. لا بد لي من أن أعترف أن عشرة أعوام كاملة مع العجوز (رفعت إسماعيل) لهي أكثر من اللازم.. هذا بالطبع ما لم تكن عقابًا جديرًا بالأساطير الإغريقية..

قليلون منكم لاحظ بالفعل أن عشرة أعوام كاملة قد مرّت، وأنا لا أكف عن الثرثرة، منذ يناير 1993 حتى يناير 2003 وكنت أنوي الاحتفال بذلك في الكتيب رقم 58، ثم قررت أن تهنئة النفس أسلوب غير محبب.. ما دام أحد لم يلحظ فلا داعي للتنويه بذلك..

والمشكلة أنكم لا تلقون العجوز (رفعت إسماعيل) إلا والأمطار تنهمر أو قيظ الصيف يحرقكم.. هذا لا يبدو طقسًا محببًا للقراءة، لكنه - إلى حدٍ ما - يناسب قصص الرعب..

أين كنا إذن؟

كنت راغبًا اليوم في حكاية قصتي مع (البيروسات) أو مع (ليليث) أو... لكني أراكم مصرين على أن أستكمل قصة المقبرة.. وإنها لعادة غريبة.. لسبب ما تصرون على أن من بدأ قصة لابد أن ينهيها..

في الكتيب السابق فضّلت أن أبدأ بـ (أرض العظايا) لأسباب لا تخفى على أحد، لكن اليوم لم يعد ثمة مبرر للتأجيل أكثر.. حسن.. سأحكي لكم الجزء الثاني من.. القصة وقد اخترت له اسم (رونيل السوداء)..

أنتم تعرفون أن الطفلة (إليانور) لم تكن طفلة وتعرفون أن الساحرة (لورين) لم تكن ساحرة.. وتعرفون أن العبقرية (ماجي) لم تكن عبقرية.. وتعرفون أنّ الأحمق (رفعت) لم يكن أحمق..

هذا جميل..

يمكننا البدء إذن ما دمتم تذكرون كل شيء!

☆ ☆ ☆

1 - المشكلة تنتظر..

نظرت لي في غباء فأخرجت قلمًا من جيبي وخططت على الجدار:

- «RONAELE.. ELEANOR»

وقلت في تؤدة:

- «لو قرأت (إليانور) بالمقلوب لصارت (رونيل).. كأنك تضعين الحروف أمام مرآة.. بالمناسبة الساحرة اسمها الأصلي (هيلين).. و(إليانور) تنويع على اسم (هيلين).. وجدت هذا في قاموس (وبستر) الذي أحمله دائمًا..»

هبت واقفة وصاحت:

- «أكرر.. ما الذي تعنيه؟»

- «أعني أن ما رأيناه أمس لم يكن طقوس تضحية بالطفلة.. بل كانت طقوس تنصيب!! إن (رونيل السوداء) قد استحوذت على الطفلة وسوف تبدأ دورة حياة جديدة معها!!»

- «أنت مجنون!!»

- «وما الدافع الذي جعلك تأتين هنا بالذات مع الطفلة في هذا الوقت بالذات؟ يسهل أن نتصور أن من سرق الصور هي الطفلة ذاتها وهي من رماها من النافذة.. كانت قد بدأت تتحول لكن التحول لم يكن تامًا.. كان لابد من تنفيذ الانتقام أو بعدها يتم الحفل الصاخب..»

- «نحن قاطعنا هذا الحفل في ذروته..»

- «بل متأخرًا جدًّا..»

كان هذا الصوت من وراء كتف (ماجي) فأجفلنا ونظرنا للوراء..

كان صوت أنثى في منتصف العمر لكننا وجدنا أمامنا (إليانور) ذاتها حافية القدمين في قميص نومها.. وعلى وجهها ضحكة لن تصدقها مالم ترها..

كانت تقف على الباب ترمقنا بمزيج من حقد وتلذذ وسخرية وكراهية.. وقالت:

- «تأخرتما كثيرًا جدًّا.. لقد عادت (رونيل السوداء) وهذه المرّة لن يمسها سوء لأن هذا العصر لا يعترف بحرق الساحرات!»

صحت وأنا أرتجف هلعًا:

- «نحن نعرف كل شيء..»

- «لكنكما لن تستطيعا المس بي.. يومها ماذا تقولان للشرطة؟ كانت ساحرة؟»

ثم انفجرت في ضحكة مستهترة قبيحة ماجنة كريهة وخرجت من الغرفة..

وسقطت (ماجي) على الأرض باكية.. أعترف أن أعصابي لم تسمح لي إلا بالاستناد إلى الفراش.. وهتفت (ماجي) وهي تنشج:

- «لن أتركها.. إنها قريبتي.. سآخذها معي إلى (إنفرنسشاير) وسأفعل المستحيل كي تشفى..»

- «تأخذين معك من تعيش داخلها ساحرة شريرة؟»

- «لا تتوقع مني أن أربطها إلى عمود وأحرقها. إنها حالة نفسية لا أكثر.. ربما فصام من فرط كل ما عانته..»

قلت لها:

- «أنا كذلك أعتقد أن شفاءها ممكن.. إنها ممسوسة أو مجنونة.. لأن الساحرة لم تعد للحياة ولم تغادر قبرها.. ربما أمكن أن نجد حلًا..»

ولبثنا ساعات على الأرض نرتجف.. ونفكر في المستقبل الغامض..

☆ ☆ ☆

قال (سمير) وهو يلتصق بي أكثر، محاولًا أن يخفي رأسه الصغير في خصري:

- «أنا خائف يا أبي..»

في الحقيقة ونظرًا إلى الجو العام المقلق من حولي، لا أجد أنه يبالغ في هذا الذي يشعر به.. لكن واجبنا نحن الكبار أن نتظاهر بالصلابة والتماسك، حتى لو كانت أعصابنا قد بلغت آخر مدى لها قبل أن تنقطع..

داعبت شعره الأسود الناعم الذي ورثه عن أمّه وليس عني لحسن الحظ، وهمست في أذنه:

- «سينتهي كل شيء.. هل تتصور أننا سنصير جثتين متعفنتين تنتثر أحشاؤهما خارجًا؟»

قال بصدق:

- «طبعًا..»

- «إذن أنت مخطئ.. هذا مشهد أبشع من أن تتصوره وبالتالي هو لن يحدث لنا..»

هذه قاعدة (يحدث للآخرين فقط).. لقد حان الوقت كي يتعلمها.. فهي تثبت دومًا براعتها في بعث الطمأنينة في النفوس، كما انها - حين يتضح خطؤها - تجعل تصديق ما حدث عسيرًا.. لهذا يبدأ الخط الدفاعي الثاني (هذا لا يحدث لي فعلًا).. بعد هذا يأتي الخط الدفاعي الثالث الصدمة العصبية والنشاط الزائد للعصب الحائر Vagus من ثم تفقد الوعي.. تفقده لفترة مريحة يمكن أن يحدث فيها أي شيء لك. هناك خطوط دفاعية أخرى مثل مادة (الإندورفين Endorphin) التي يفرزها مخ الفأر وهو بين أنياب القط.. وهي نوع من المورفين الداخلي الذي يلغي إحساسه بالألم.. هذه هي الحكمة الإلهية العليا: كل ألم يأتي معه برحمته..

واحتضنت (سمير) أكثر..

هذه هي مزية أن تكون متفردًا بلا أسرة.. أنت وحدك تتحمل ما يحدث لك وانتهى الأمر.. أمّا مع وجود ابني في هذه القصة فالموضوع أقسى بمراحل..

فكرت في هذه الأشياء بينما الدخان يتصاعد من الكهف.

لقد جاءت اللحظة.. لم يكن كل ما توقعناه كذبًا..

ترى أين زوجتي الحبيبة وسط هذا كله؟

☆ ☆ ☆

أعود بذاكرتي إلى بداية القصة..

كما تعرفون كان لا بد لي أن أعود إلى مصر.. كان لدي طن من الأعمال الطبية والأسرية، ولم يكن من المنتظر أن أبقى إلى الأبد في (ليفورد - دونيجال)، حتى تقرر الآنسة الصغيرة أن تعلن عن حقيقتها..

كنت أعرف أنها قمينة بأن تحيل حياة (ماجي) إلى جحيم.. هاته الفتيات الصغيرات الممسوسات يجدن هذه الأشياء، وقد عرضها الكاتب الأمريكي اللبناني (بيتر بلاتي Blatty) بالتفصيل الممل في قصة (طارد الأرواح الشريرة Exorcist) حيث استدارة الرأس ١٨٠ درجة إلى الوراء وإفراغ خليط أخضر من الفم على سجادة الصالون أمور عادية جدًّا.. لم يعد هناك جديد في هذا الصدد.. دعك بالطبع من الكلام باللاتينية لأن هذه كما يبدو من سمات هذه الشياطين المثقفة.. لهذا يقولون: اقتل أي شخص يتكلم اللاتينية بطلاقة، ما لم يكن هو القس الكاثوليكي.

لكنني - وأنت تقدر موقفي - أجد من العسير على أن ألغي حياة لي في مصر من أجل خاطر قد يكون وقد لا يكون.:

هكذا عدت لحياتي في مصر.. الكلية.. المستشفى.. (كفر بدر).. السهرات الكئيبة لدى (عزت).. لقاءات مع (كاميليا).. بعض عيادات الأصدقاء حيث أكتشف المزيد من الأسباب التي ستُكتب في شهادة وفاتي.

كانت لي قصة قصيرة سخيفة مع الدودة التي تكبر يومًا بعد يوم، والتي توشك على أن تحتل عالمي كله.. لا أعرف إن كنت سأحكيها يومًا ما.. ربما أفعل لو اتسع الوقت..

ثم إنني تلقّيت خطابًا من (ماجي).. هكذا أجَّلت كل شيء وكل تفاصيل حياتي إلى أن أقرأه، وكان يستحق الاهتمام حقًّا:

«إنفرنسشاير في.....

«الأعز(رفعت):

«الحقيقة أنني أفتقدك بشدة في هذه الأيام، وأعرف أنك تشعر بالشيء ذاته، وهذا ما يجعل علاقتنا فريدة.. أنا أعرف أنك تشعر بما أشعر به بلا مجاملة ولا مداهنة ولا افتعال..

(... جزء محذوف من خطابها لأن من حقي أن أحتفظ بشيء سرًا.. لست معروضًا في واجهة محل لو كنت تفهم ما أعنيه...).

أحيانًا أستعيد شريط كل ما واجهناه في (دونيجال)، وتلك الأيام الغريبة، فأشعر أنّ هذا كله كابوس ثقيل، وأنه لم يحدث شيء مما حسبنا أنه حدث..

«أستعمل أدوية الاكتئاب بكثرة هذه الأيام، وقد برهنت على أنها لا تجدي مع الذكريات أبدًا.. أتمنى لو أمد سكينًا إلى مخي وأنتزع كل ما يمت بصلة لتلك الرحلة الغريبة إلى أيرلندا..

«لكن حتى لو وجدت هذه السكين السحرية، فلا أعتقد أنني سأستطيع نسيان (إليانور) الصغيرة، وما مرّت به..

«هي معي في كل لحظة من اليوم.. نحن لا نفترق الآن.. وقد رتبت كل شيء مع أهلها بحيث تمضي عامًا معي هنا في (إنفرنسشاير).. هم يعرفون بعض الحقيقة لا الحقيقة كلها.. يعرفون أنه كانت هناك متاعب مع بعض الشيطانيين، لكنهم لا يعرفون الجدل الدائر حول ابنتهم وهل هي جزء من هؤلاء الشيطانيين أم لا.. تعرف طبعًا أنّ هذه من الأشياء التي لا تقال، ولو قيلت فكيف تقال؟

«ما إن عدت إلى قصر أبي، حتى رتبت لها إقامة مريحة واعتنيت بكل التفاصيل بما فيها اللّهو والدراسة.. لا أنكر هنا أنني كنت أشعر بسعادة لا بأس بها.. الشعور بأنها صارت ملكي.. هذا الشعور الذي لن تفهمه أنت يا (رفعت) والذي تشعر به طفلة تعود إلى دارها حاملة الدمية التي اشترتها.. ينتظرها مستقبل حافل من تمشيط الشعر وانتقاء الثياب المناسبة لهذه الدمية..

«ومرت الأيام بشكل طبيعي باسم.. لا مشاكل.. لا خدوش على جانب الفراش بالأظفار ليلًا.. لا قيء على سجادة الصالون - وأنا أعرف أنّ هذا في ذهنك - وقد بدأت أعتقد أن ما حدث كان

وهمًا..

«لقد مرّت الفتاة بضغط نفسي هائل، لو مر به أي عقل مهما بلغ ما بلغ من ثبات وقوة، فلسوف ينهار.. لفترة مؤقتة أو هذا ما أرجوه..

«الآن أنت متحفز للأسوأ تتساءل: متى بدأ الجزء القذر من القصة؟ متى ظهر الجانب المظلم من القمر؟

«لا تقلق يا (رفعت).. لقد بدأ كل شيء من.. أسبوع...

☆ ☆ ☆

2 - مشاكل تربوية..

باقي خطاب (ماجي)...

«كنا في تلك الأيام نخلد إلى النوم في العاشرة مساء..

«في الحقيقة كنت أقنعها بأنني فعلت ذلك، ثم أتسلل إلى مكتبي لأعود إلى بعض الأبحاث الفيزيائية الخاصّة بي.. إن هذه الأمور تحتاج إلى تركيز، ومن المستحيل أن تقوم بها نهارًا.. هناك في مكتبي تجد جهاز الكمبيوتر مفتوحًا وقد انتثرت عليه الجداول، والآلة الحاسبة مفتوحة مع مجموعة من صور أشعة إكس للبلورات.. والحقيقة إنني أحب هذا المنظر لكني غير متحمسة لمحتواه.. إن ساحة المعركة مغرية وتوحي بالانهماك والعلم، لكنّها لم تعد تسفر عن مواقع مهمّة..

يدق رئيس الخدم الباب أنت تذكره.. إنّه آخر بقايا الإمبراطورية ومرآه يعيد لي ذكريات عجيبة بعض الشيء عن الحملة على الهند، والأدميرال (نلسون) وسياسة المستعمرات.. إلخ..

- «هل تطلب الآنسة شيئًا؟»

- «لا يا (جراهام).. يُمكنك أن تنام الآن..»

«هكذا يغادر المكان وأعرف أنني وحيدة تمامًا في هذا القطاع من القصر.. دعك من أصوات الأشباح الماشية في الردهة وقعقعة الدروع الواقفة في الخارج.. هذه أشياء محتمة في أي قصر أسكتلندي على ما يبدو، ولم تعد تؤثر فيَّ لحظة.. بل إن الليلة التي لا أسمع فيها خطوات السير (أرشيبالد ماكيلوب) خارج المكتبة هي ليلة سوداء تفعمها الوحدة.. أفتقد حتى وحش (لوخ نس) الساحر..

«أحاول أن أركز.. أن أستجمع أفكاري.. لكن لا.. الذكرى الأليمة لا تترك لي مجالًا للتنفس..

«وهكذا أعد لنفسي المزيد من عصارة الأفكار التي يطلقون عليها (كابوتشينو)، وأشعر بالمشروب الثري يتخلل خلاياي ليعيدها إلى الحياة..

«مشيت بالقدح الساخن في يدي، وأنا أفكر..

«كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط.. تلك الغرفة التي أحلتها قطعة من (ديزني لاند) بالستائر الجميلة، وورق الحائط المزركش بالأزهار، وكل الدمى التي نشرتها فيها.. إن الشيطان الذي يتسلل إلى هذه الحجرة لهو شيطان طفل بالتأكيد..

«كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط.. حين سمعت المحادثة القادمة من الداخل.. لم أميز ما يُقال ولكني أؤكد لك أنهم كانوا خمسة.. على الأقل..

«كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط.. وأذني.. ملتصقة بالباب.. أحاول أن ألتقط حرفًا من تلك المحادثة.. لا لم تكن باللاتينية، أنا أعرف أنّ هذا السؤال دار بذهنك..

«كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط.. وأمد يدي إلى المقبض.. وأديره..

«في اللحظة الثانية فتحت الباب بحركة درامية.. ونظرت إلى الفراش في الضوء الخافت القادم من الردهة..

«كانت الفتاة جالسة على الفراش في وضع القرفصاء، ولم يكن حولها أحد.. لكني رأيت ثلاثة فئران تركض فارة، في عدة اتجاهات.. برررررر! أنا أمقت الفئران كأية أنثى أخرى.. لكني أمقت الفئران التي تحيط بطفلة أكثر والمقت يبدأ كدرجات السلم الموسيقى نوعًا من الاشمئزاز والنفور ثم يتصاعد ليتحول إلى غضب مجنون.. هذه هي اللحظة التي يتم القتل فيها..

«وهكذا أضأت النور ورحت أفتش كالمخبولة عن تلك الثدييات المريعة.. من المستحيل أن تجد فأرًا حين تبحث عن واحد..

قلت وأنا أغلي من الغيظ:

- «صبرًا.. فئران في بيتي النظيف!! سأخبر (جيمس) غدًا، ولسوف يطلب خبير التطهير.. إن هذه من الأيام القليلة التي أغبط فيها نفسي على أنني لست فأرًا..»

ثم وضعت يدي على كتفها في رفق:

- «هل أنت بخير يا حبيبتي؟»

لم ترد.. فقط زامت في سكون..

نظرت لها بدقة أكثر ففهمت لماذا تزوم..

من الصعب أن تتكلم بحريتك بينما هناك ذيل فأر يتدلى من فمك!

☆ ☆ ☆

«لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى خيال كبير يا (رفعت) كي تخمن ما دار في ذهني.. كل ما قلت وكل ما فعلت..

«لم يكن ما حدث لنا مجرد خيال.. إن الفتاة مريضة ومريضة جدًّا لو أردنا الدقة..

«رباه! وأنا التي اعتقدت أن الكابوس انتهى، وأنني رأيت أسوأ ما فيه.. أتذكر هنا ما قلته لي من أن ما لم نعتده يثير رعبنا أكثر من أي مسخ في الأرض.. من المعتاد - بل المحبب والمريح - أن ترى الدم ينزف من إصبعك حين يجرح.. أمّا إذا لم يحدث هذا فهو ليس خبرًا بهيجًا على الإطلاق...

«دعك من هذه التفاصيل..

«في هذه اللحظة بالذات عرفت أنني بحاجة إلى طبيب نفسي أو خبير في الماورائيات (ميتافيزيكس Metaphysics) أو كليهما..

«الواقع إنني إنسانة محظوظة لأن لي أصدقاء غير عاديين.. كلا.. لا أعتبرك منهم فأنت في قائمة مختلفة بعض الشيء.. هناك (ويليام ماكلارين) وهو صديق طبيب نفسي، لكنه كذلك - ربما مثلك - مهتم بما لا يرى ولا يسمع ولا يشم.. وهو أقرب إلى الفيلسوف منه إلى أي شيء آخر..

«هكذا دعوته لتناول الشاي ومقابلة الطفلة الجميلة (إليانور) التي التهمت فأرًا أمس..

«كان رأيه أنّ هذا نوع من الـ Pica وهو الميل المرضي لما ليس طعامًا، وهو يظهر لدى الحوامل وفي الاضطرابات النفسية.. فصارحته أنني رأيت حوامل كثيرات لا يأكلن الفئران ولا يتحدثن معها قبل الأكل..

«قال لي إن هناك زاوية سلبية وزاوية موجبة.. الزاوية السلبية هي تبرهن على أن الطفلة لا تشكو من مرض نفسي ما.. والزاوية الموجبة هي أن تبرهن على أن لدى الطفلة قوة نفسية معينة..

«هكذا أجرى عليها حشدًا من التجارب النفسية وقياسات الذكاء، وكانت النتيجة رائعة.. ذكاء الفتاة طبيعي ونفسيتها مستقرة كقدم الخرتيت.. إن الزاوية السلبية قائمة.. لكن هناك عددًا من علامات الاستفهام هنا..

«الساحرة لم تعد للحياة.. فهل عادت روحها لتتقمص الطفلة وتولد من جديد عبرها؟ أعتقد أنّ هذا غير مقبول لك لأنك لا تؤمن بنظرية التناسخ.. على كل حال أنا لا أعرف ما تعرفه ولا ما يعرفه (ويليام).. بالواقع لا أعرف ما يعرفه أي واحد في هذه القصة..

«كان القرار الذي استقر عليه هو.. هو.. نعم بالفعل.. جلسة استحضار ارواح.. سيحاول الاتصال بتلك المرأة (رونيل) السوداء، ولسوف يفهم منها القصة الكاملة لتلك اللعنة.. سيعرف لماذا تضطهد الطفلة.. باختصار سيحاول مفاوضتها بعد أن يعرف ما نعرفه.. سيحاول عقد اتفاقية عدم اعتداء.

«ما رأيك في هذا الجنون؟ أعتقد أن الأمر يروقك.. لم.. يبق إلا موسيقا تصويرية لـ (برنشتاين Bernstein) مع بعض المونتاج البارع، ليصير لدينا فيلم رعب ممتاز.. المنافس الجديد لطارد الأرواح الشريرة أو (داميان).. باختصار كل أفلام الأطفال الأشرار الذين تحوي عيونهم البراءة والرقة، لكنهم أفاع يجب تدميرها..

«موعد الجلسة الليلة..

«سوف أكتب لك بالتفصيل.. الحقيقة أننا نفتقدك هنا، وآمل أن تلحق بي في أقرب فرصة..

(ماجي)

☆ ☆ ☆

طبعًا - كما ترى أنت - كان الخطاب سيئًا.. وكان يحمل أخبارًا نصفها مزعج ونصفها مخيف..

أنا لا أحب الأطفال بطبعي.. أحبهم حين يكونون عاجزين محتاجين إلى الكبار.. باختصار وهم في المهد وقد تلوثت شفاههم باللبن، لكني لا أطيقهم لحظة بمجرد أن يدخلوا حقبة الركبة الملوثة بالميكروكروم.. حقبة تعذيب القط وتمزيق أوراقك الهامة وإتلاف التلفزيون.. أنا لا أحب الأطفال الطبيعيين فكيف بالأطفال الذين يحوم حولهم شك ما؟

لقد كلمتنا الطفلة بصوت خشن لا شك فيه.. لم تكن هذه هلوسة سمعية.. أنا أعرف جيدًا أن شيئًا كريهًا حل وأعرف أن لعنة (رونيل) السوداء عادت بعد كل هذه الأعوام لتنتقم ممن كانوا السبب في حرقها، وتعد البلدة بـ (رونيل) جديدة.. فهل تبدأ (رونيل) تلك الطفولة؟ إذن (ماجي) ستكون معلمتها..

المشكلة هنا أنك تستطيع الخلاص من كل كلب يسيل لعابه أكثر من اللازم - خشية أن يكون مصابًا بالسعار - أو قط أجرب.. لكن من العسير أن تبرر الخلاص من طفلة بريئة المظهر خاصة لو كانت قريبتك..

على كل حال قلبي يحدثني بأن جلسة التحضير هذه ستكون مهمّة.. أنا لا أؤمن بتحضير الأرواح، وأشك في قدرة بشر على استدعاء الروح.. لكني أؤمن أنّ هذه الجلسات تحدث ثغرة في جدار الوعي تؤمن اتصالًا معينًا مع عالم ما وراء الطبيعة.. ربما لأن الشياطين تتصل بمن يجرب..

يقول عالم النفس الكبير (يانج Jung) تلميذ (فرويد) المشاغب: إن المجموعة الجالسة في جلسة تحضير أرواح تمثل ثقافة فرعية أو ثقافة مضادة، تصر على أو تؤيد حقيقة أحداث معينة تنفيها الثقافة السائدة.. أي أن (اللاوعي الجمعي) للجالسين ينفصل عن (اللاوعي الجمعي) للمجتمع الخارجي.. وحين تنجح هذه المجموعة في عزل نفسها عن العالم الخارجي بمعتقداته المعادية، فإن حقيقة معينة تولد[1]..

الخلاصة أنّ هذه الجلسات تقود إلى معلومات.. بعضها زائف وبعضها مصيب.. لكني لا أزعم لحظة أنّ هذا ناجم عن الاتصال بالروح..

والآن ماذا أفعل؟

طبعًا لا شيء أعمله إلى أن يأتي خطابها الثاني، وهو لن يتأخر طبعًا لأنهّا ستكتبه بعد الجلسة.. أي سترسله بعد يوم أو أقل من إرسال خطابها السابق الذي وصلني فعلًا..

لكن مصلحة البريد لا تعترف بحساباتي على كل حال.

لقد وصل الخطاب بعد أسبوع كامل.. وقد لاحظت من البداية أن خط (ماجي) الأنيق النضيد قد بدا بالغ الارتباك على المظروف.. إنها في حال سيئة...

كنت في مكتبي بالكلية، لذا نهضت وأغلقت الباب بالمفتاح.. في الغالب سيفترض القادمون أنني أمر بنوبة قلبيّة كالعادة، فهذا من روتين حياتي هنا.. وقد تعلموا.. ألا يزعجوني كي أستمتع بالنوبة القلبيّة وحدي في سلام..

الآن أفتح الخطاب وأدعو الله ألا يكون محتواه مصيبة..

«إنفرنسشاير في.....

«الأعز(رفعت):

«كما قلت لك في الخطاب السابق، أعددت كل شيء لتلك الجلسة التي رتبها د. (ويليام مكلارين) في بيتي.. وكنا قد اتفقنا على أن تبدأ الجلسة بعد العاشرة حين تخلد (إليانور) للنوم، وبالطبع كلفت مسز (أوركهارت) مدبرة المنزل بأن تعنى بالفتاة وتراقبها.. لا أحد يرغب في مفاجآت غير سارة في أثناء انهماكنا في تلك الطقوس.. كنا بحاجة الطرف ثالث لذا استعنا بصديقة هي عارضة الأزياء الحسناء (إلستري).. وهي فتاة من الطراز الذي تلتوي له أعناق الرجال فيذهبون لأطباء العظام.. لا أرى فيها سحرًا خاصًا.. فهي جميلة جمالًا مسطحًا (ماسخًا) جديرًا بعارضات الأزياء فعلًا، حيث لا يجب أن يطغى جمالها على الثوب الذي تعرضه.. على كل حال لن أفهم هذه الأمور حتى أصاب بأول ورم يفرز هرمونات الذكورة فتنمو لحيتي وأتحول إلى رجل...

«طبعًا بصفتي فيزيائية لم أفوت الفرصة، وحرصت على تسجيل الواقعة صوت وصورة مع وضع بعض أجهزة القياس.. إن الفيزيائي الذي لا يقيس الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية وترددات الصوت في جلسة تحضير أرواح لهو فيزيائي فاشل.. استعملت فيلمًا حساسًا من طراز 16 ملم كي لا يفوتني شيء[2].

«في العاشرة والنصف أدار (ويليام) جهاز تسجيل يذيع موسيقا هادئة لـ (موزارت) سعيًا للحصول على ما يُطلق عليه الروحانيون اسم (تأثير موتسارت أو Mozart Effect).. يقولون إن موسيقا (موتسارت) بالذات تنشط الظواهر الفائقة للطبيعة ولا يوجد تفسير واضح لهذا..

«قمنا بتخفيض الإضاءة والتففنا حول منضدة دائرية صغيرة، وبالطبع كنا نستعمل أسلوب الكوب ولوحة الحروف، لأنّه لم يكن بيننا وسيط موثوق به..

«طلب (ويليام) استدعاء روح (رونيل السوداء) أو (هيلين) من (تيركونل)..

«بعد صمت طال بدأنا نشعر بذلك الوجود الثقيل يجثم على أنفاسنا.. بالفعل لم نكن وحيدين، وأدركت أن الكوب يتحرك حركة لا شك فيها.. ليست مجرد أعصاب تالفة أو خيال زائد بفعل الظلمة..

«قالت الحروف: ماذا تريدون؟

«بصوت مسموع قال (ويليام) الذي حضر عشرات الجلسات من قبل إنّه يريد معرفة ما تريد (رونيل) أولًا..

«الانتقام.. هذا هو ما قالته الحروف..

«لكنك انتقمت بالفعل في (تيركونل).. لقد مات أحفاد كل من تسبب في محاكمتك..

«وهنا حدث شيء غريب.. لم تعد ترد علينا بالحروف.. بل دوّت آهة قوية ثم شعرنا أن صوتًا قويًا خشنًا يأتي من مكان في الظلام.. بالأحرى يأتي من لا مكان في الظلام وأجفلت بينما شهقت (إلستري).. إنها حسناء لكنّها بلا عقل طبعًا، وأعتقد أن واجبها نحو نفسها هو الهستيريا..

«لكن د. (ويليام) قال في الظلام بحزم:

- «لا تفقدا أعصابكما.. الجلسة مستمرة ولم يتغير شيء..»

هنا عاد الصوت يقول بإنجليزية عنيفة شكسبيرية جدًّا:

- «أريد الانتقام من البشر جميعًا.. أريد أن أستكمل ما بدأته من ثلاثمائة عام..»

- «والطفلة يا (رونيل).. ما ذنب الطفلة؟»

- «ذنبها أنه لا بد لي من طفلة.. وكانت هي في المكان الخطأ في الوقت الخطأ..»

حتى هذه اللحظة القصة عادية يا (رفعت).. هذه جلسة تحضير أرواح يسودها الود والتهذيب، لو كان شيء كهذا ممكنًا.. وكانت مؤشرات القياس الخاصّة بي هادئة هذه اللحظة..

فجأة بدأ الجحيم الفعلي.. كل المؤشرات بدأت تتراقص بجنون.. تتواثب لأعلى وأسفل.. شريط التسجيل يجري بسرعة جنونية.. الدخان الأزرق يتصاعد من الأرض كما يحدث في حفلات الروك المجنونة.

وبدأت أعصابنا تفلت، لكن الدكتور (ويليام) كرر النظر بحدة.. عيناه تلمعان ببريق مخيف في الظلام يجعلك تفضل البقاء حيث أنت..

فجأة طار الكوب ليرتطم بالجدار ويتهشم إلى فتات..

الدخان يتزايد إلى درجة أنني بدأت أقلق مما سيحدث..

ثمّة شيء ما خطأ.. شيء يفلت من أيدينا..

هل هذه الأشياء التي تجرى تحت قدمي هي...

فئران؟ بالفعل..

عشرات منها تخرج من تحت المنضدة.. عشرات منها تركض على السقف والجدران.. من أين تأتي؟

صرخت في هستيريا ووثبت عن مقعدي، وفعلت (إلستري) شيئًا كهذا على نطاق أوسع...

فئران.. فئران!

فأر ضخم نوعًا هوى من السقف فوق كتفي فصرخت، وأزحته بقبضتي..

فأر آخر هوى فوق المنضدة فأحدث ارتطامًا هائلًا ثم ركض مبتعدًا..

- «لاااااااااااه!!»

هذه (إلستري) طبعًا وليس أنا...

صاح (ويليام) وهو يثب فوق المقعد بدوره:

- «أجهضوا التجربة! أجهضوا التجربة!!»

يا لك من معتوه! التجربة لم تحمل حتى تجهض.. وقد فشلت على كل حال من لحظة تصاعد البخار..

- «لاااااااااااه!!»

قلت وأنا أركل الأرض مرارًا:

- «ألن تصرف الروح أو تصنع شيئًا من هذا القبيل؟»..

ثم ركض نحو الباب.. اغلقت أجهزة التسجيل الصوتي والمرئي، وركضنا خلفه بينما (إلستري) تحولت من عارضة أزياء إلى سرينة سيارة إسعاف..

- «لاااااااااااه!!»

هذه (إلستري) طبعًا وليس أنا...

وفي النهاية كنا في الخارج نلتقط أنفاسنا.. لم أر هذا قد العدد من الفئران إلا في فيلم (نوسفيراتو Nosferatu) والسبب هو أن السفينة التي تحمل تابوت مصاص الدماء قد ألقت مراسيها خارج ميناء البلدة..

مصاص دماء!

- «لاااااااااااه!!»

هذه (إلستري) طبعًا وليس أنا...

كان صراخها يجعل الأمر جحيمًا.. لهذا نظرت نحوها في حزم، ثم هويت على خدها بأقوى ما استطعت..

كانت تعرف أنّ هذه الطريقة تنجح في السينما لذا أكملت دورها، وانفجرت في بكاء صامت وهدأت..

قال لي د. (ويليام) في عصبية:

- «ما الذي تحاولين عمله؟ إن البائسة في صدمة عصبية..»

- «وهذا هو العلاج الناجح للصدمة العصبية.. أو على الأقل هذا ما أعرفه عن الموضوع..»

- «معلوماتك تفاهات..»

- «وأنت لا تفعل شيئًا إلا التظاهر بالغموض والعلم..»

- «لا أسمح لك..»

ورفع كفه عازمًا كما يبدو على ضربي في صف أسناني العليا، وتأهبت أنا كي أعض قبضته هذه.. ثم توقف وقد بدأ يفهم:

- «القصة واضحة.. إنها بثت فينا العصبية والكراهية.. علينا أن نفهم هذا..»

حقًّا.. كنت أشعر بالدخان الأسود يحتشد في صدري.. وكان على وشك أن ينبعث من رأسي كما في القصص المصورة.. هناك نوع غريب من الحقد يعتمل في نفسي.. على كل حال كنا في أمان خارج الغرفة وإن عرفت أن القصر في مشكلة حقيقيّة.. أين ذهبت كل هذه الفئران التي ركضت خارجة من الغرفة؟

قلت لدكتور (ويليام) وأنا أتحسس جبهتي:

- «لقد تلقينا الجواب على كل أسئلتنا.. لقد عادت الساحرة أقوى مما كانت.. وهذا الذي يحدث لا علاقة له بالهستيريا أو الهلوسة..»

قال وهو يجفف عرقه:

- «لقد قرأت الكثير، لكن هذا الذي يحدث يفوق قدراتي.. لقد انفجر بركان فئران في قصرك..»

قالت (إلستري) وهي تجفف دموعها:

- «بالمناسبة.. أين الطفلة من كل هذا؟!!!»

☆ ☆ ☆

3 - أن تكون هناك..

باقي خطاب (ماجي)...

«هرعنا إلى غرفة (إليانور) فوجدناها نائمة كالملائكة.. شخص آخر كان نائمًا كالملائكة هو المسز (أوركهارت)، التي كانت تجلس جوار فراشها تحتضن كتاب (خرافات أيسوب) وتحتضن دمية كبيرة لدب واضح أنها كانت تحكي حين غلبها النعاس.. وابتسمت في قرارة نفسي لأنهّا كانت تبدو كطفل بدين كبير أشيب الشعر وهي نائمة.. هذا جزء منها لم أره قط تحت شخصيتها الصارمة..

«هكذا اطمأننا إلى أن اللعبة القديمة لم تحدث.. ننهمك نحن مع الفئران على حين ينفرد الخطر الحقيقي بالفتاة في فراشها..

«ودعت د.(ويليام) و(إلستري) على أن نتبادل آراءنا غدًا..

«وكان أول ما فعلته طبعًا هو أن فتشت حجرتي بعناية، فلم أجد ما يريب.. لو كان القصر مليئًا بالفئران فهي لم تصل هنا.. وهكذا استبدلت ثيابي وحاولت أن أنام وهو نوع من التفاؤل المخجل.. كيف ينام من رأى ما رأيت؟

«هكذا ظللت في الفراش كالديدبان حتى أشرقت الشمس ثم إنني استقللت سيارتي الصغيرة إلى البلدة لأحمض الفيلم الذي التقطته أمس، وطلبت إحدى شركات التطهير كي تنظف لي القصر..

«وعند الظهيرة جاءت سيارة التطهير المميزة التي ثبتت على ظهرها تمثالًا كبيرًا لفأر شرس.. وقد بحث الرجل كثيرًا جدًّا في الأقبية والحجرات والمطبخ.. ثم قال لي في حنق:

- «من الصعب أن أزعم أنني فتشت القصر كله يا آنسة لكن بوسعي أن أزعم أنه لا توجد هنا فئران.. إن لي في هذه المهنة عشرين عامًا.. يمكن القول إنني أشم رائحتها وأشعر بها قبل أن أراها أو أسمعها.. لا توجد فئران في هذا القصر.. إنّه نظيف كفراش الملكة..»

كنت أتوقع شيئًا كهذا وإن لم أصدقه..

هذه فئران من الطراز الذي قلته لك.. فئران (نوسفيراتو) التي تعلن عن وجود الشر.

بعد الظهيرة وصلني طرد يحوي الفيلم الذي أرسلته للتحميض، وهكذا هرعت إلى آلة العرض فقمت بتركيب الفيلم في لهفة وأسدلت الستائر، ورحت أنتظر في لهفة حتى تزول تلك الخدوش والأرقام..

أخيرًا أرى مشهد تحضير الأرواح.. لحسن الحظ أنه لم يتلف وكنت قد توقعت هذا.. ثمّة قوة لا يمكن وصفها أو تعريفها في هذا المكان.. وهذه القوي تتلف الأفلام في كل القصص المماثلة..

كانت الأمور تسير على النحو الذي أعرفه.. لا يوجد جديد...

فقط بدأ الجديد حين دوى صوت (رونيل) تتكلم..

هنا فطنت للحقيقة.. كنا ثلاثة على المنضدة فمن أين جاء الرابع؟!!

كانت الإضاءة سيئة طبعًا لكني أعدت الشريط عدة مرات وأوقفت الكادر، وفي النهاية تبينت بوضوح أنّ هذا الرابع ليس سوى (إليانور) نفسها!

كانت جالسة معنا إلى المنضدة، وكانت هي التي تتكلم وترد على الأسئلة..

كانت معنا وإن لم نرها.. لكننا سمعنا صوتها.. كيف عرفت أنه صوتها؟ لأنهّا تتحرك معه، وتحرك يديها ورأسها بما يتفق مع سكناته..

إنها هي..

ثم جاء مشهد الفئران الرهيب ورأيت نفسي أركض وسط الدخان والفئران نحو الكاميرا لأغلقها ثم أفر...

وهكذا انتهى العرض الرهيب.. وجلست أفكر في معنى هذا الذي رأيته..

رباه!! تقتلني رعبًا فكرة أن (إليانور) كانت معنا وترد على أسئلتنا بينما لم نرها.. وبينما هي نائمة في الفراش جوار مسز (أوركهارت)..

لم يعد ثمّة شك في أن الطفلة تحت سيطرة مخيفة.. أنا بحاجة إلى من يجيد عمله.. إن (ويليام) يعرف الكثير لكنه لم يصل بعد إلى درجة طرد الأرواح الشريرة.. أعتقد أنه على الأقل يعرف من يعرف..

والآن ما رأي بطلي الهمام في هذا كله؟

أعتقد أن (ماجي) العجوز المنحطة تستأهل مجاملة صغيرة منك.. بعض الجنيهات تنفقها على مكالمة بدلًا من انتظار وصول الرسالة لي، وهو ما يعني أنني سأنتظر رأيك عشرة أعوام أخرى..

(ماجي)

☆ ☆ ☆

طبعًا - كما ترى أنت - كان الخطاب سيئًا.. وكان يحمل أخبارًا نصفها مزعج ونصفها مخيف..

ليست ظاهرة التواجد في مكانين في الوقت ذاته Bilocation بالشيء الجديد على عوالم ما وراء الطبيعة.. إنها شائعة إلى حد بدأت أعتقد أنني الوحيد في العالم الذي لا يملك هذه الموهبة..

لكن الفئران؟ الفئران التي تأتي من لا مكان وتذهب إلى لا مكان؟

والدخان؟ لو كان (ويليام) مشعوذًا والمكان ليس دار (ماجي)، لقلت إن هذه كلها تمثيلية بصرية يُراد بها الإبهار.. أمّا والقصة كهذا و(ماجي) من هي في الدقة والموضوعية، فلا جدال في أنّ هذا حدث فعلًا..

وقررت أن الوقت قد حان للاتصال بـ (ماجي).. نعم.. هي تستحق تضحية كهذه..

ماذا أقول في المكالمة؟ سأنصحها بالتخلص من الطفلة.. لا.. ليس بأن تحرقها في ساحة البلدة بل بأن تعيدها لأهلها مع شرح مطول عماحدث وما يمكن أن يحدث.. لسوف يزور أهلها خليطًا من الأطباء النفسيين والمشعوذين وطاردي الأرواح الشريرة، لكن هذه ابنتهم على كل حال..

ولكن هل تتحول الطفلة فعلًا إلى (رونيل)؟ هل تم التحول أم هو في علم الغيب؟

لا أعرف.. لكني كذلك أومن أن أحدًا لن يعرف..

هكذا نزلت من داري واتجهت إلى أقرب (سنترال) وطلبت الرقم إياه..

سوف تغرد البلابل بعد قليل.. أي بعد يوم كامل من المحاولات الخرقاء..

لكن الاتصال تم بسرعة غير معتادة في هذا الزمن.. سرعان ما وجدت نفسي أمسك بالسماعة وأنتظر سماع الـ (هاللو) المحببة للنفس، سواء من (ماجي) أو ممن سيقودني إلى (ماجي)..

لكن الهاتف ظل يدق بلا استجابة من أحد.. يدق.. يدق.. ثم:

- «لا أحد يرد يا أستاذ..»

قلت لنفسي إن (جراهام) رئيس الخدم صار غليظ الصوت.. بل يتكلم العربيّة بطلاقة، ثم فطنت إلى أنّ هذا صوت موظف الهاتف يخبرني ألا جدوى هنالك.. هكذا غادرت الكابينة مبلبل الفكر..

لا داعي لأن أقول إنني جربت الشيء ذاته عدة مرات في اليومين التاليين..

ثمة شيء خطأ هنا..

لم أعتد قط ألا يرد أحد.. لا بد من (ماجي) أو مدبرة منزلها أو رئيس الخدم.. ولو كان هناك خطأ ما لما طلبت منى الاتصال بها أو لأخبرتني بالمستجدات في خطابها الأخير..

هناك خطأ ما.. ولكن ما هو؟

☆ ☆ ☆

لا أعرف متى اتخذت قراري بالعودة إلى (إنفرنسشاير).. أنا لم أفعل هذا من دهر.. لكني اتخذته..

كانت هناك قيمة واحدة مهمّة في حياتي كلها هي (ماجي)، والمرء لا يفكر مرّتين إذا هدد بفقد هذه القيمة.. وأنا حدثتك كثيرًا عنها وتعرف أن ما أحمله نحوها خليط من مشاعر العاشق المتيم، والطفل نحو أمّه، والتلميذ نحو معلمته، ووشق الأستبس نحو الأستبس ذاته..

الخلاصة: لو حدث لها شيء فقد انتهيت.. لا يوجد مبرر للاستيقاظ من النوم صباحًا ولا رؤية شمس جديدة.. سأقبع في غرفة وحدي إلى أن أموت، أو سأمشي مفتوح الفم في الأزقة بأسمال بالية حاملًا عصا ربطت إليها أوراق شجرة، ولسوف يتسلى الأطفال بقذفي بالحجارة..

هكذا يمكنكم أن تفهموا لماذا أتجه إلى المطار حاملًا قلقي وحقيبتي وأحلامي..

(أن تكون هناك) عنوان فيلم شهير لـ (بيتر سيلرز Peter Sellars).. هذا العنوان يلخص الموقف.. أن أكون هناك.. لا أعرف ما سأفعله حين أكون هناك.. ولا ماذا ينتظرني.. ولا من أية نقطة أبدأ.. لكني سأكون هناك..

وحين ارتفعت الطائرة في السماء نظرت إلى الأرض المتأرجحة تحتي وشعرت ببعض الراحة...

☆ ☆ ☆

4 - فيم تفكر يا بروفسور؟

من البداية كانت الرحلة غير موفقة..

هذا طبعًا برغم جو الربيع الذي ينعش النفس والذي أعلن سلطانه على كل شيء.. لم أحتج إلى خيال كبير كي أراه بعباءته الأنيقة التي ازدانت بالورود واليعاسيب والفراش يمشي عازفًا على ناي بين المروج.. الربيع هنا يختلف بالتأكيد عن ربيع مصر حيث الرمد الصديدي وعواصف الخماسين.. من العجيب أن أجمل فصول مصر هو الشتاء..

ما إن نزلت من سيارة الأجرة، ووقفت أمام الباب بحقائبي، حتى شعرت بأن المكان لا يرحب بي كما اعتدت.. تذكرت أيام الشباب في هذا البيت الشامخ.. والأستاذ العظيم (جيمس ماكيلوب) الذي حلمت أن أكون مثله يومًا ما، والذي على قدر ما أعلم هو آخر طبيب ينتمي لجيل (ليبمان Libman) و(أوسلر Osler) و(هالستد Halsted).. وكل أولئك العظام الذين تراهم في بداية أي مرجع طبي كبير.. هؤلاء السادة بحق.. تصوّر أن (هالستد) الذي كان يعيش في (نيويورك) كان يكوي قمصانه في فرنسا! فهو لم يكن بحاجة إلى الطب كي يكسب عيشه، وإنما اهتم به كفن راق نبيل..

لكم حلمت بأن أرى رأسي الأصلع القبيح بين تلك الصور.. حسن.. لم يتحقق هذا ولن يتحقق، وإن كنت أزعم أنني حصلت على مكانة بين بين.. لا هي بالرفيعة ولا هي بالوضيعة..

وفي الوقت ذاته كان السير (ماكيلوب) يعني لي أشياء أخرى.. يعني ابنته الرقيقة الدقيقة الأنيقة (ماجي) التي تمشي على العشب دون أن تثنى منه عودًا واحدًا، والتي قال الجميع إن القصة محتومة.. هذان سيتزوجان يومًا ما.. طبعًا لم يحدث هذا ومن الواضح أنه لن يحدث أبدًا.. لكني لا أعرف مخلوقين متباعدين على وجه الأرض، يحملان لبعضهما من الحب والتقدير قدر ما نحمله لبعضنا.. وكما تقول (ماجي): لعل السبب الأهم في هذا أننا متباعدان!

فتح لي الباب رئيس الخدم الراقي جدًّا الذي كان يثير هلعي (جراهام).. والذي يتكلم الإنجليزية الأوكسفوردية بتلك الطريقة الملتفة الجديرة بالخواجة (تشرشل):

- «لو سمح لي سيدي، فإنني سأسمح لنفسي بالقول: إن وجه سيدي ينم عن أن هواء المرتفعات الأسكتلندية يناسب صحة سيدي لو كان لي أن أقول هذا..»

هكذا وكان بوسعه أن يقول: تبدو لي بصحة طيبة.. وانتهى الأمر...

المهم أنه فتح الباب لي، ولم يبد مسرورًا كثيرًا بقدومي.. صحيح أنني أبرقت لهم بموعد وصولي، ولم أتوقع طبعًا أن تنتظرني فرقة موسيقا القرب عند مدخل البلدة، لكني توقعت أن يكون أكثر ترحابًا..

قلت له وأنا أدخل الرواق الكبير:

- «أين ما... أين الآنسة (ماكيلوب)؟»

قال وهو يغلق الباب:

- «إن الآنسة ليست هنا.. لقد ارتحلت إلى (ألمانيا) من أسبوع يا سيدي.. وحسبت أنها أبلغتك بذلك..»

هوى على هذا الخبر كأنه لسان من البرق.. السؤال هنا هو...

☆ ☆ ☆

ماذا يحدث هنا؟ في كل لحظة أدرك أنّ هناك خطأ ما وأن الأمور لا تسير على ما يرام..

إن نوافذ القصر كلها موصدة، وقد أسدلت الستائر وتم .. تثبيتها بشريط لاصق كي لا تفارق النوافذ أبدًا.. كأن النور هو ضيف غير مرغوب فيه هنا..

دعك بالطبع من رائحة المكان الغريبة.. عطنة قليلًا توحي بالقدم وليس القذارة..

لقد شممت هذه الرائحة من قبل، ولكن أين؟ أين؟

☆ ☆ ☆

- «ما الذي تفعله في ألمانيا؟ هي لا تعرف أحدًا هناك..»

هزّ رأسه بمعنى أنه لا يجد ما يقول، لكن فطنت إلى هزال منطقي.. هل أنا أعرف كل من تعرفه (ماجي)؟

من حقها تمامًا أن تذهب إلى (تمبكتو) لو أرادت فأنا لست وصيًّا عليها، ولكن هذا الرحيل دون مبرر واضح يثير ريبتي.. خاصة في الظروف التي ذكرتها..

لا يحتاج الأمر إلى أن تكون (شيرلوك هولمز) كي تعرف أنّ هذا الرحيل له علاقة بقصة (رونيل)..

لو كنت أثق بـ (جراهام) أقل لقلت إنِّه يكذب وإنه تخلص من (ماجي).. لكن هذا طبعًا كلام فارغ، لو تذكرنا أن الرجل هو الأخير من سلالة ظلت تعني بهذا القصر العتيق عبر أجيال عدة..

في النهاية عدت إلى وعيي ببطء، فسألته:

- «والطفلة؟»

- «الآنسة الصغيرة مع الآنسة (ماكيلوب) في ألمانيا..»

الآن أسقط في يدي ماذا بوسعي أن أفعل؟ أين أقضي زيارتي؟ أين؟

☆ ☆ ☆

في دارنا بـ (كفر بدر).. كانت هناك حظيرة صغيرة خلف الدار.. وكانت كأية حظيرة مخصصة للمواشي، لكننا كنا أفقر من الفقر في تلك الفترة، لهذا ظلت حظيرتنا خالية مغلقة تؤمها الفئران.. هذه الرائحة هي رائحة الفئران في مكان مغلق..

ولكن كيف تنبعث رائحة الفئران في هذا القصر المعتنى به جيدًا؟ دعك من أن (ماجي) قالت إنها لم تجد فئران بشهادة الأخ (طارد الفئران) نفسه..

هذا البيت تسيطر عليه لعنة مقبضة كئيبة، ومن حسن الحظ أن (إليانور) ليست هنا.. ربما تخلت قبضتها قليلًا عن هذا البيت الذي أحبه.. ولكن معنى هذا أنها الآن تتسلى بـ (ماجي)..

ترى ماذا يحدث في ألمانيا الآن؟ هذا بالطبع لو افترضنا أنها في ألمانيا فعلًا.. أعتقد أنني سأجد مذكرة تشرح كل شيء في...

☆ ☆ ☆

- «في الغرفة التي أعدتها لك الآنسة..»

قالها الرجل في حيادية كأنما سمع ما يدور بذهني.. أنا لم آت كل هذه المسافة من مصر كي يُقال لي أنه لا أحد في الدار من ثم أحمل حقائبي وأعود..

على الأقل رتبت (ماجي) لإقامتي هنا.. من يدري؟ ربما وجدت مذكرة ما تشرح كل شيء.. ربما هي عائدة سريعًا..

وهكذا تم ترتيب إقامتي.. عرفت أنه هنا مع مسز (أوركهارت).. ليس هناك سواهما الآن وربما طاهية شابة.، بعد ما كان البيت يعجّ بالخدم.. ليس الأمر عن فآقة لأن (ماجي) وارثة لثروة لا بأس

بها، ولكن لأنهّا لا تستقبل أحدًا، ولم تعد بحاجة إلى كل هذا العدد من الخدم.. هذا البيت قد شهد أيامًا يستقبل فيها عشرين أستاذًا مرموقًا أو فنانًا شهيرًا أو سياسيًا ناجحًا.. أبوها كان يحبّ ثاني أوكسيد الكربون.. بينما (ماجي) مثلي تعشق الأكسجين ومساحات الفراغ الهائلة..

اقتادني الرجل بذات الكبرياء عبر رواق طويل تقف الدروع إياها على جانبيه.. كلها تقول لي: انتظر حتى المساء.. سوف نمرح كثيرًا جدًّا..

كأن هذه الدروع الكاملة ذات المنظر البشري خلقت كي تمشي في الرواق لي؟.. بعضها يحمل سيفًا وبعضها يطوح تلك الكرة المعدنية المعلقة من سلسلة.. أنا لم أمر في حياتي بموقف مماثل، لكن الفولكلور الأسكتلندي قد جعل هذا شيئًا روتينيًا إلى حد أن المرء سيشعر بخيبة أمل لو لم يحدث..

أخيرًا يفتح لي باب الحجرة.. كنت أود أن أقول لك إنها حجرة ذات طابع قوطي مفزع، لكنّها غرفة عصرية جدًّا ورحبة.. جدران وردية حالمة وزهور وملاءات تناسب خدر عذراء وليس (رفعت إسماعيل)..

يجب أن أقول إنها كانت تطل على بحيرة بعيدة وسط المرتفعات.. لن أنسى هذه البحيرة ما حييت.. (لوخ نس Loch Ness).. ربما كان الأخ (نيسي) - صديقي القديم - يسبح الآن تحت المياه باحثًا عن شخص يثير رعبه. لكن الحقيقة إن البشر يثيرون رعبه أكثر مما يثير هو رعبهم.. هل تذكرتني (ماجي) حين اختارت هذه الغرفة بالذات؟ يدهشني كم أن الحاضر الأليم يتحول إلى ذكرى ذات شجون بمجرد أن نبتعد عنه..

كان أول ما بحثت عنه حين دخلت هو تلك الرسالة.. المظروف المغلق على الوسادة أو على الكومود.. لا شيء.. هي لم تترك لي أى تفسير من أي نوع..

وشعرت بخيبة أمل.. هناك فصل كامل من الفيلم لم يعرضه عامل العرض النصاب.. لكني سأحاول استنتاج ما حدث.. لقد جربت هذا الموقف مرارًا في سينما (...) التي تعرض ثلاثة أفلام معًا.. لهذا كان عامل العرض يحذف فصلين أو ثلاثة من كل فيلم تاركًا الأمر لذكائك الخاص.. لقد اختفى البطل الفلاني.. البطلة تحمل كدمة على وجهها فلابد أن أحدًا ضربها.. إذن البطل الفلاني ضربها واختفى.

سأعرف كل شيء.. ولكن بعد ما أظفر ببعض النوم ووجبة ساخنة.. إن حبيبات (نيسل) في خلايا مخي قد نضبت، وأحتاج إلى وقت أكثر كي تعيد تجميع نفسها من جديد..

- «العشاء في التاسعة يا سيدي»

سرني هذا.. الرجل يعرف ما أفكر فيه بشكل يثير دهشتي..

- «ستكون السيدة موجودة!»

سيدة؟ هل هناك سيدات؟

رسمت علامتي استفهام بحاجبي المرفوعين، فقال:

- «السيدة (جيلبرت).. إنها ضيف فوق العادة مثلك، وأعتقد أن سيدي سيجد في صحبتها متعة لأنهّا شديدة الذكاء..»

ثم انصرف بينما جلست أنا أفكر في معنى هذا.. من هي؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم بين صديقات (ماجي).. لكن يمكن بسهولة أن أعرف أنها مرتبطة بالقصة.. رحلة مفاجئة إلى ألمانيا.. سيدة (جيلبرت).. كل هذه حبات في مسبحة واحدة ولكن ماذا؟

سأعرف.. سأعرف

☆ ☆ ☆

أخيرًا اتجهت إلى مائدة العشاء..

هذا المشهد الرهيب الذي كان يثير رعبي.. فقط في الأفلام السينمائية يمكن أن تجلس في قاعة طعام مثل هذه.. لكن الجو كان باردًا ثقيلًا.. لا دعابات وما من حديث دافئ حار..

ظهرت فتاة نحيلة ترتدي المريولة، وصبت في طبقي بعض الحساء على حين وقف (جراهام) يراقب المشهد أكره هذا لأنني أشعر بأن الأكل يهبط في أحشائي بالسم..

هنا شعرت بوجود غريب..

رفعت رأسي فرأيت امرأة بارعة الحسن.. بارعة الحسن في مفهوم البشر الآخرين، لكنك لن تستطيع أن تبيعها إياي مقابل حزمة من الكرفس إنِّه جمال بارد ثقيل سمج.. لا تحب أن تراه ولا تشعر براحة لدنوك منه..

كانت ترتدي ثياب السهرة وقد تحلَّت بمجوهرات. لا أفهم فيها، لكن سعرها بالتأكيد لن يقل عن أربعين جنيهًا ونصف.. نعم يبدو لي هذا الرقم معقولًا..

(أين رأيت هذا الوجه من قبل؟ هذا الشعور يضايقني)

ضحكت كاشفة عن أسنان بيضاء هي نوع من الأحجار الثمينة بدورها، وقالت وهي تمد يدها برشاقة:

- «البروفسور (إسماعيل)؟»

لست بهذه الثقافة لكني أزعم أنني أعرف اللهجة - الأيرلندية حين أسمعها.. إن من يعرف الإنجليزية جيدًا ويعجز عن تبين اللهجة الأيرلندية لهو في مشكلة.. كل الحروف المتحركة تنطق خطأ وبطلاقة وحماسة مشتعلتين..

بفم مليء قلت:

- «هم م م!»

مددت يدي وأنا أتأهب للنهوض ولمست كفها بإصبع واحد، ثم عدت ألتهم طعامي..

- «أنا (جلوريا جيلبرت).. حدّثتني (ماجي) كثيرًا عنك..»

ابتلعت ما في فمي بسرعة وسألتها:

- «إذن أنت تعرفين أين ذهبت.. لا أعني أين ذهبت بالضبط.. بل أعنى لماذا ذهبت؟»

ابتسمت بغموض وقالت:

- «أوه.. أنت تسأل أسئلة كثيرة يا بروفسور (إسماعيل)..»

هنا قام (جراهام) بما كان يجب أن أقوم به، فاتجه في رشاقة إلى مقعد مجاور لي وجذبه ليساعدها على الجلوس.. فقالت وهي تجلس برشاقة:

- «شكرًا أيها العزيز (جراهام).. أنت لطيف جدًّا..»

وصبت لها الفتاة بعض الحساء، فراحت تشرب برشاقة من دون الـ (سليرب سليرب) التي أقوم بها.. لقد قمت بتصنيفها على الفور.. إنها (دليلة) أخرى أو (جامعة رجال).. مهمتها أن يسقط في حبالها كل من تلقاه.. بعد هذا يتم التصنيف، كما يفعل الأخ (كارلوس لينيوس Linnaeus) بمجموعة من الخنافس.. هذا لا لزوم له.. هذا يصلح نوعًا.. هذا أحمق ويمكن خداعه بسهولة.. هذا رائع ويجب إبقاءه بلا فكاك..

كنت أنا خارج القوائم كلها.. وحرصت على أن أترك في نفسها انطباعًا واحدًا: هي لم تترك لديَّ أي انطباع برغم هذا الأداء المسرحي الذي تقوم به..

(ما سر حرف الـ R المعلق في تلك القلادة؟ ألم تقل إن اسمها جلوريا؟؟)

سألتها وأنا أقضم بعض الخبز:

- «من أنت؟ (ماجي) لم تحدثني عنك قط..»

- «نحن صديقتان حميمتان.. وقد تواريت من عالمها من زمن.. كنت في الولايات المتحدة.. لكني عدت مؤخرًا.. لم أستطع الذهاب معها، لذا عرضت عليّ أن أقيم هنا حتى تعود.. وأخبرتني أن عليّ أن أعني بك.. كما..»

واتسعت ابتسامتها أكثر ولمست عقدها بيدها وأردفت:

- «كما تعني هي بك..»

سرت قشعريرة في ظهري لهذا التلميح.. هل هو إغراء؟ لا أدري.. لقد وصل إلى أجهزة التحليل المعقدة في رأسي على صورة تهديد.. تهديد بماذا؟ لا أعرف.. لكنه أثار ذعري.. لو أنّ قاتلًا من مطاريد الجبل قال لي وهو يخرج بندقيته (المقروطة) من جيبه: سنعني بك.. لما أصابني كل هذا الذعر الذي أصابني من كلامها..

رحت أقطع اللحم بالسكين، بينما أنا أرتب أفكاري..

كنت قد رأيت الكثير في حياتي لهذا صرت أعرف هذه القصص حين أراها..

سأختصر الوقت والجهد: هذه هي (رونيل) السوداء على الأرجح.. نعم.. لا داعي لإضاعة الوقت في الاستنتاجات.. (ماجي) تختفي في هذه الظروف والقصر خال.. بينما تظهر امرأة أقل ما نقول عنها إنها خطرة.. امرأة يبدو أنها تعتبر الدار دارها وتسيطر على كل شيء المنطقي هنا أنّ هذه (رونيل) السوداء أو - لنقل - امرأة على علاقة وثيقة بها.. دعك من أنني سمعت هذا الصوت الناضج الخشن من قبل.. ودعك من أنّ هذا تفسير مريح لحرف R المعلق في عنقها.. هذا تلميح (شبحي) خفيف اعتدته من قبل..

لقد شعرت معها بنفس ما شعرت به حين كنت أكلم تلك الكاتبة (لورين) جوار المقبرة.. الفارق الوحيد هو أن (لورين) كانت بريئة تفتعل الغموض.. فماذا عنك يا أختاه؟

ولكن أين (ماجي) والطفلة من هذا كله؟

يبدو أنها تقرأ أفكاري بشكل ما لأنّها قالت في ثبات وهي تنظر لوجهي:

- «فيم تفكر يا بروفسور؟»

☆ ☆ ☆

5 - السيدة تظهر..

انتهى العشاء فجففت فمي بالمنشفة.. وكنت متعبًا كحيوان (الكسلان) بعد عناء يوم شاق من السفر بكل وسائل المواصلات الممكنة، لذا وجهت شكرًا رقيقًا لـ (جراهام) وأعلنت أنني ذاهب إلى غرفتي..

ثم هززت رأسي لها في لطف وانسحبت..

أخيرًا أنفرد بالحجرة التي تحمل في كل ركن منها لمسات (ماجي).. أعرف أنها كانت هنا وأعدت كل شيء ثم ذهبت.. ذهبت لأين؟ هل هي بخير؟ لا أعرف...

المشكلة هنا أنني لا أملك خططًا من أي نوع.. لا أعرف حركة واحدة في لعبة الشطرنج هذه..

لكنني على الأقل كنت أملك استنتاجات.. الاستنتاج المنطقي الأول هو أن ما يحدث له علاقة بـ (رونيل).. الاستنتاج الثاني هو أن شيئًا ما قذرًا يجري هنا الاستنتاج الثالث ليس استنتاجًا لكنه حدس أو شعور في أحشائي كما يقول الإنجليز Gut Feeling أنّ هذه المرأة المتحذلقة هي (رونيل).. ما هو دليلي؟ لا دليل سوي حدس الأحشاء هذه.. وأحشائي لم تكن يومًا بحال طيبة على كل حال.. إن قرحة المعدة والإمساك والتهاب القولون لا يتركون لها فرصة كي تشعر بشفافية..

لو كانت هذه المرأة هي (رونيل) السوداء فأنا في مأزق.. مأزق شنيع..

يومًا بعد يوم صرت أقبل هذه الخوارق العجيبة كأنها حقائق.. ويبدو أنني صرت مخرفا حقًّا..

لكن لو لم تكن تلك المرأة (رونيل) فأنا في مأزق آخر.. لا يوجد أي شيء أفعله على الإطلاق..

كنت قد فرغت من إفراغ حقيبتي حين دق الباب.. طبعًا صار هذا الموقف بدوره مكررًا.. ستكون هي ولسوف تطلب مني شيئًا تافهًا.. شباك غرفتها لا يغلق أو شباك غرفتها لا يفتح.. طبعًا الغرض الوحيد هو تعميق علاقة ما.. والعلاقة ليست لسواد عيني ولا لوسامتي التي تخجل الشمس منها، ولكن لأكون الأحمق الذي يتم توريطه في شيء ما..

لقد مررت بهذا الموقف ألف مرة من قبل ومن بعد، ويبدو أن في مظهري ما يوحي بأنني ذلك الأحمق الذي يعتقد أن حسناء هامت به حبًّا بعد خمس دقائق من لقائهما..

شعرت بغيظ عارم من كل هذه الإهانات التي أتلقاها بلا سبب وفتحت الباب في عصبية..

كانت هي بالفعل..

السيدة (جيلبرت)...

(أين رأيت هذا الوجه من قبل؟ هذا الشعور يضايقني)

قالت لي وهي تستند إلى الباب في إنهاك:

- «أوه.. إنِّه الصداع.. الصداع اللعين.. بحق (أبراكساس).. خطر لي أن المرء سعيد الطالع إذ يكون في الغرفة المجاورة له بروفسور في الطب..»

ثم وضعت يدها على صدغها لتبين لي كم أن الألم شنيع هنا بحثت في حقيبتي حتى وجدت أقراص الأسبيرين، وناولتها ثلاثة.. حرصت على أن يحمل وجهي كل معالم المقت والاشمئزاز كأنها جاءت تطلب غدتي الثيموسية وليس علاجًا للصداع..

(أبراكساس؟ هل قالت: بحق أبراكساس؟)

أمسكت بالأقراص في قبضتها كأنما تزنها، وكأنما ترى هل تنجح هذه الأقراص الخفيفة في علاج صداعها العظيم، ثم قالت:

- «أوه.. شكرًا.. لطيف.. لطيف..»

ثم تقدمت إلى داخل الحجرة، وبحركة مسرحيّة رفعت الأقراص إلى شفتيها المخضبتين بالأحمر، وقالت:

- «هل يسمح لي الأستاذ العظيم بكوب من الماء؟»

(أبراكساس؟ هل قالت: بحق أبراكساس؟)

لا أعرف إن كنت قليل الذوق، أم أن الإنهاك والتوتر جعلاني كذلك.. لكني وجدت نفسي أتكلم بلا توقف وكانت كلماتي عصبية تحمل الكثير من الإهانات:

- «بالطبع ليس عندي.. ودعني أقل لك إن هذه الحركات المسرحية لا تؤثر في.. إن كان الغرض هو خداعي - وهذا ما أرجحه - فقد اخترت الشخص الخطأ.. وإن كان الغرض إغرائي - لسبب لا أعرفه - فقد اخترت أكثر الأشخاص خطأ في العالم.. فأنا لا أريد من الحياة إلا أن أراقبها تحت المجهر، بالإضافة إلى أنك - واغفري لي خشونتي - لا تروقين لي على الإطلاق.. ولربما لو كنت فأر المنك لفكرت في الأمر، أو خضت نوعًا من الصراع مع نفسي.. أمّا وأنت أنت فإنني أتمنى لك ليلة طيبة، وأرجو أن تفكري في كل الأدوية التي قد تريدينها الليلة.. فأنا لن افتح بابي ثانية..»

أنهيت هذه الكلمات وعجبت أنني قلتها.. لو كانت هذه (رونيل) فقد انتهى الأمر.. لا أحتاج إلى أكثر من هذا كي أقضي حياتي فأرًا.. ولو لم تكن (رونيل) فلسوف توجه لي صفعة جديرة بالأساطير.. ربما تطير لي قاطعين ونابًا..

فقط نظرت لي للحظة

(أبراكساس؟ هل قالت: بحق أبراكساس؟)

نظرة باردة طويلة.. بلا أي تعبير.. المخيف أنها بلا أي تعبير..

ثم - دون كلمة واحدة - غادرت الغرفة.. وأغلقت الباب وراءها..

يبدو أنني كنت مخطئًا.. لقد آذيت شعور هذه الفتاة البريئة المصابة بالصداع.. لن أكف عن لعب دور الأحمق ما حييت.. على كل حال أنا في حالة عصبية كريهة.. من الخير لها ألا تحتك بي أبدًا..

غسلت أسناني وارتديت منامتي.. وتأهبت لليلة طويلة مريحة.. سأنام كجثة من العصر (الباليوزي).. حتى وإن كنت قلقًا فلسوف أقلق بشكل أفضل حين أصحو وأسترد قواي.

(ماجي) العزيزة.. أين أنت؟

شيء في أعماقي خافتًا كقطعة جمر تحت الرماد، يقول لي إن الأمر ليس بهذا التعقيد.. ستعود (ماجي) سالمة.. على الأرجح هي سمعت عن طبيب نفسي ألماني بارع وقررت أن تجرب حظها مع الطفلة هناك.. رحلة خاطفة وتعود بعدها...

طك.. طك!

هذا صوت الباب لو لاحظتم..

هذه المرّة لن أكون فظًا.. سأتكلم بشيء من العقل والهدوء..

اتجهت للباب وفتحته.. هنا وجدت (جراهام) الوقور يقف حاملًا كوبًا على صينية أنيقة، ويقول برصانة:

- «أوامر الآنسة (ماكيلوب). معذرة يا سيدي.. لكن بوسعك ألا تشرب..»

نظرت للكوب في عناية.. هذا لبن بارد ممزوج بالشيكولاته.. لمسة أخرى من لمسات عناية (ماجي) بي، فهي لم تنس أنني كنت أشربه قبل النوم في الزمن الغابر.. تفاصيل كهذه تدير رأسي حقًّا.. وقد كففت عن شرب اللبن أساسًا من زمن لكن اللبن لا يرد.. دعك من تلك اللمسة الرقيقة.. حتى بعد رحيلها حرصت على أن...

- «شكرًا يا رجلي الطيب..»

وتركته يضع الصينية على النضد.. ثم خرج وأغلق الباب، فرفعت الكوب إلى شفتي ورشفت رشفة طويلة.. طويلة.. وكأن هناك شلالًا يصب الذكريات في قلبي..

أغلقت النور ورقدت في الفراش أتأمل تلك الشاشة السوداء المعلقة في هواء الغرفة، والتي تعكس أفكارنا بوضوح..

قلت لنفسي وأنا أتثاءب: برغم كل شيء.. هذه المرأة هي (رونيل) ذاتها.. الآن أتذكر من هو (أبراكساس) هذا.. إنّه من شياطين العالم السفلي ذوي الشهرة والشعبيّة... مثله مثل (بيلفاجور) و(عشتروت) وسواهم..

لم تقلها سهوًا، ولكن كانت تنقل لي رسالة واضحة...

لكن ما هي؟

☆ ☆ ☆

الصباح...

الشمس الأسكتلندية الجميلة تتسلل من النافذة، وأنا لم أر الشمس الأسكتلندية إلا ست مرات في حياتي..

يا للعذوبة! هذا هو الربيع الذي أحكم سيطرته على كل شيء.. لم تعد هناك تفاصيل منسية..

بحيرة (لوخ نس) تتمطى بعد نعاس طويل، ومن بعيد ترى التلال التي غطتها الخضرة..

إنه موعد الإفطار.. إن الشاعرية تحرك لديَّ غريزة الجوع، ولا أعرف السبب.. ملاحظة سبقني إليها العبقري (أحمد رجب) حين وصف ما يُسمّى بالغدة (الأكلوغرامية) التي تجعل العاشق يترنم ناظرًا للسماء قائلًا: (أه ياليل يا قمر).. ثم ينظر إلى أسفل قليلًا فيقول من دون مناسبة: و(المنجة طابت عالشجر..)

قررت أن أنزل إلى الحديقة قليلًا.. هناك حديقة لا بأس بها أبدًا هنا، وقد شعرت أنني - ربما منذ زمن سحيق - أريد أن أرى الأزهار.. إنني أكتسب عادات سيئة في الفترة الأخيرة.. يبدو أنني سأحب الأطفال كذلك..

خرجت من القصر، ومشيت في الحديقة.. ترى من يعني بها الآن؟ لا بد أنّ هناك بستانيًا غير متفرغ يأتي للعناية بها لأن شأنها أعقد من أن تكلف بها مسز (أوركهارت) أو (جراهام)..

الآن أنا أمشي تحت نافذتي.. أراها من أسفل.. أطأ العشب فأشم رائحته الطازجة الرطيبة..

هذه نافذة أخرى مفتوحة.. لا أحتاج إلى ذكاء كبير كي أعرف أنها نافذة تلك المرأة الغامضة.. ترى هل أفاقت من نومها؟ ترى كيف تبدو في الصباح؟

وابتسمت في سري.. كما يقولون: لا يحتاج الأمر إلى معجزة كي تكون جميلًا في الربيع!

ثمة أشياء غريبة نوعًا على الأرض.. يمكن ألا تراها لكني فعلت.. وقد انحنيت على ركبتي لأتفحصها بعناية أكثر.. بدلت عويناتي لأحسن مجال الرؤية.. الإرسال التالف قد تحسن بعد ضبط الهوائي...

هذه أشلاء أرنب.. لا أعرف سببًا واحدًا لوجود أرنب هنا، لكنه بحال طيبة والطقس دافئ.. لم تكن هذه بقايا وجبة من وجبات (إليانور) الصغيرة التي تأكل الفئران وإلا لتعفنت..

ثم ما هذا أيضًا؟ حمامة وعصفور دوري رقيق.. لقد تمت إزالة الريش عن بطن الطائرين، وتم تمزيق البطن بعناية ربما لانتزاع الأحشاء..

لا أعرف السبب في وجود هذه الأشياء.. هل رزقهم الله بنمس؟ لكن هل النمس يزيل ريش ضحاياه قبل التهامها؟ نمس انتقائي جدًّا يمارس عمله كأساتذة الجراحة.. بل هو راق كذلك..

الخلاصة أنني لم أشعر براحة لما رأيت وهذا من حقي.. لكن ما هو أسوأ هو أنني لا أفهمه..

هل تلك المرأة تجلس وحدها في حجرتها، تتسلى بأكل الأرانب والعصافير الدورية نية؟

كنت لأقبل هذا التفسير وأرحب به لو أنها التهمت هذه الكائنات البريئة بالكامل..

وهكذا تبدل مزاجي إلى النقيض ولم يعد الربيع يبدو لي ربيعًا إلى هذا الحد..

عدت إلى الداخل، وتمنيت لو أعتذر عن الإفطار.. لكني أمقت الأسئلة الكثيرة...

☆ ☆ ☆

- «أخبرتني أن عليّ أن أعني بك.. كما..»

واتسعت ابتسامتها أكثر ولمست عقدها بيدها وأردفت:

- «كما تعني هي بك..»

☆ ☆ ☆

على مائدة الإفطار وجدت كوب اللبن بالشيكولاتة إياه.. كان هناك عصير برتقال وقهوة.. لكني وجدت نفسي راغبًا بحق في أن أظفر بالشيء الوحيد الذي يحمل أثر (ماجي) هنا.. أن أشعر به في أحشائي.. وأن يسري في عروقي...

قلت لها في سرّي:

- «يا لك من خائنة.. تخليت عني وسط هذه الألغاز.. وكنت أمل في أن تكوني بجانبي..»

وأفرغت كوب اللبن في جوفي، ثم جففت بمنديل ورقي ذلك الشارب الأبيض الذي تكوَّن لي حتمًا، بينما سمعت خطوات السيدة قادمة..

جلست جواري.. فرفعت عيني نحوها متسائلًا..

كانت مشرقة كالشمس.. وخطر لي أن مزاجي السيئ أمس جعلني لا أحسن القول ولا الفعل..

ولا تقدير الجمال!

إن من لا يعتبر هذه السيدة واحدة من أجمل خمس نساء على وجه الأرض، فلابد أنه مجنون أو كفيف.. صحيح أنه (لا يحتاج الأمر إلى معجزة كي تكون جميلًا في الربيع).. لكنك تحتاج إلى مليون معجزة كي تكون فاتنًا في الربيع..

قلت لها متوددًا:

- «أرجو أن يكون الصداع قد زال..»

نظرت لي وابتسمت.. لقد زالت العاصفة إذن وكلماتي لم تترك ندبة لا تزول..

(لم تربط معصمها؟ هل جرحته أمس؟)

قالت:

- «الصداع زال فعلًا وإني لك لشاكرة.. كما زال أثر كلماتك القاسية..»

- «كنت مرهقًا بفعل السفر لا أكثر.. وكنت أشعر أن الكون يستفزني في مباراة كلامية..»

- «كلنا ذلك الشخص.. ألسنا كذا؟»

وراحت تنقل لطبقها كميات هائلة من (البيكون) الذي لم أمسسه بطبيعة الحال.. لكني اندهشت من تلك المرأة التي تبدأ يومها بالتهام كل هذا اللحم..

وكالعادة سمعت السؤال في ذهني.. هي بارعة جدًّا في سماع الأفكار كما لاحظت..

قالت وهي تنقل المزيد:

- «أنا على نقيض النباتيين تمامًا.. أؤمن أن اللحم والسمك والبيض هم عماد الجمال.. إن جسدك يتكون من البروتين، فكيف تعطيه ما ليس بروتينيًا؟ دع للنباتيين طعامهم ينعمون به.. يأكلون الكرفس على الإفطار والبطاطس على الغذاء والبازلاء في العشاء، ثم يقولون إنهم يبحثون عن الخلود والجمال..»

قلت باسمًا:

- «يسهل الاعتقاد بصحة نظريتك حين ينظر المرء لك طويلًا.. لقد بدأت أفكر في شراء بقرة حية لأضعها في مطبخ داري بالقاهرة.. ولسوف اقتطع منها قطعة قبل كل وجبة!»

ضحكت طويلًا فضحكت أنا الآخر.. يحبّ أي رجل المرأة التي تضحك لدعاباته.. ثم سألتها:

- «لا أريد التدخل في شئون خاصة.. لكن أين المستر (جيلبرت)؟»

ابتلعت ريقها.. وصارت كلماتها بطيئة مما جعلني أوقن أنّ هذه ذكرى أليمة أو على الأقل ليس لي حق السؤال عنها:

- «نحن منفصلان.. وآخر ما سمعته عنه أنه في ألمانيا وأنه سجين..»

انتهى الطعام فخرجنا معًا نمشي على شاطئ (لوخ نس)..

كنت سعيدًا كخنزيـ... كدودة في مقبرة جماعية (ما دمتم لا تحبون التشبيهات الصادمة).. وبدا لي أن كل ما شعرت به أمس كان وهمًا..

لا أعرف متى تأبطت ذراعي وراحت تتحدّث.. تتحدّث عن أشياء كالحلم لا تعرف ما هي ولا تذكرها، لكنك تنبهر بها.. وبدأت أدرك أنني لست قبيحًا إلى الحد الذي حسبته.. إنها لا تفتعل شيئًا.. هي فعلًا تميل لي..

وعند العصر كانت تجلس على صخرة تطل على البحيرة، وبصوت رخيم عميق راحت تغني.. كانت تغني أغنية لاتينية لم أفهم منها حرفًا لأنها تبدو للأذن كصفحة من كتاب تشريح (جراي).. لكن هذا بالضبط ما أريد..

☆ ☆ ☆

يقولون: اقتل أي شخص يتكلم اللاتينية بطلاقة، مالم يكن هو القس الكاثوليكي..

☆ ☆ ☆

عندما جاء الظلام، تناولنا العشاء معًا ونحن لا نبعد عيوننا عن بعض..

كنت فيما مضى أسخر من فلسفة (السوليبسيزم Solipsism) أو إيمان الشخص بأنه لا حقيقة في الكون إلا ذاته.. لكني بدأت أعتقد أنني كنت أحمق.. هناك حقيقتان.. أنا وهي..

ما أجمل هذا! القصر كله لنا للأبد.. وحيدان عند نهاية العالم، حيث لا صخب يعكر صفونا إلا صيحات (نيسي) العزيز في الليل لو كان ما زال في البحيرة..

وحين عدت إلى فراشي رحت أدندن وأنا أنظر إلى الليل الصامت بالخارج:

- «ابتديت دلوقتي بس.. أحب عمري.. ابتديت دلوقتي أخاف للعمر يجري!»

وهنا - كالعادة - تذكرت شيئًا.. دائمًا أتذكر شيئًا قبل النوم كأن ذلك العقل الواعي في داخلي لم يكن معي.. كان منهمكًا يقلب الدفاتر والمراجع وعويناته على أنفه.. كئيبًا جادًا كموظف أرشيف لا يعرف المزاح.. مفتش في الجهاز المركزى للمحاسبات لا يرتشي ولا يسعى إلا للحقيقة.. وفجأة في هذه اللحظة بالذات يعلن ما توصل إليه بعد يوم شاق من العمل:

- «قلب حمامة.. كلية أرنب بري.. كبد عصفور دوري ربما رحم (سنونو) كذلك.. (رفعت) يا بني.. هذه هي مقادير (رحيق الحب) الذي كانت الساحرات يصنعنه في القرون الوسطى!»

قلت في لا مبالاة وأنا أصاحب الإيقاع بأناملي على خشب الفراش:

- «وما في هذا؟»

- «معناه أن تلك المرأة كانت تحضر لك ذلك المزيج في غرفتها أمس.. وأنت شربته! غالبًا مع اللبن الممزوج بالشيكولاتة..»

- «وما المشكلة؟»

- «رحيق الحب يا أحمق كانت الساحرات يقدمنه لأي شخص يرغبن في أن يقع في هواهن.. إنهن يمزجن هذه الأشياء بقليل من دمهن.. ألم ترَ أن معصمها مربوط اليوم؟»

- «وما في ذلك؟»

- «ألا ترى أنك تميل إليها بشدة؟ وأن رأيك تغير كثيرًا جدًّا؟»

قلت في ضيق وأنا أغلق عيني:

- «كيمياء الحب تعمل أحيانًا بشكل تلقائي.. لا يجب أن تشرب مزيجًا من رحم السنونو والدم كي تقع في الحب..»

كاد يتكلم لكني أخرسته مغنيًا بصوت عالٍ:

- «اللي شفته.. قبل ما تشوفك عنيا..

عمر ضاااااااايع.. يحسبوه إزاي عليا؟»

☆ ☆ ☆

إللي شفته!!

☆ ☆ ☆

6 - اجتماعيات..

ما حدث بعد ذلك؟

آه!!! تسأل أسئلة غريبة..

كيف لي أن أعرف ما حدث بعد هذا؟ إن السعادة لا تُحكى ولكن تُعاش.. عد قصائد الهم والأسى والشجن في الأدب العربي والعالمي، ستجدها ملايين.. عد قصائد الهناء والرضا والنشوة فلن تجدها تقريبًا.. الكلام للشكوى أمّا الصمت فلتذوق اللحظة الآتية.. وقد كنت أتذوق اللحظة الآتية حقًّا...

أيام كأنها الحلم.. أيام هي الحلم.. أيام فاقت الحلم.. أيام يحلم بها الحلم..

(جراهام) يمرّ بنا من بعيد ليبتسم.. إن الوغد يعرف كل شيء.. إنّه يعمل في صفها.. لم يكف عن جعل إقامتنا مريحة قدر الإمكان..

تري متى ينتهي هذا الحلم؟ كيف ينتهي؟

لم أخبرك طبعًا بالتفاصيل كلها.. لقد تزوجت!! ألم تعرف بعد؟!!

لا أعرف كيف أحكي هذا الجزء لأني بالفعل لا أذكر عنه أي شيء.. لكنّها أكدت لي ذلك، وقالت إننا تزوجنا كما يفعل المسلمون، حين قصدنا (أدنبرة) وطلبت مشورة الجالية المسلمة هناك.. هكذا قالت ولا أستطيع أن أنفي أو أؤكد.. لماذا تكذب عليَّ؟ أين الأوراق؟ لم تأت من (أدنبرة) بعد..

فقط أعرف أنّ هناك صورًا لي أضحك في بلاهة وأجلس معها وسط مجموعة من الناس فيما يشبه حفل زواج.. بعض وجوه هؤلاء يمكن أن تكون العرب هناك خاتم حول إصبعي.. تقول إننا اشتريناه في ذلك اليوم من أدنبرة..

حقًّا لا أذكر شيئًا من هذا لكني أثق فيما تقول..

فقط رحت أضحك حتى استلقيت على قفاي.. هنا بالذات؟ ومع هذه المرأة التي لم أكن أعرف عنها حرفًا من أسبوع؟ هل هكذا تنتهي أسطورة العزب الأبدي (رفعت إسماعيل)؟

كل الثرثرة عن حياتي التي لا تتحملها زوجة؟ كل الرومانسية الصناعية مع (هويدا) وكيف أنهار كل شيء فجأة؟ كل قصتي الأبدية مع (ماجي)، والكلام عن وجه القمر الذي من الخير لنا أن

نبقى بعيدين؛ كي لا نرى ما عليه من فجوات وبثور؟ كل عروض (عزت) و(محمد شاهين)؟ كل هذا انتهى هنا ومع (جلوريا)؟

انتهت أسطورة العزب الأبدي.. فارس (النينجا) المتوحد الذي لو تزوج لفقد سر تميزه..

أتمنى فقط أن أرى وجه (ماجي) لو كانت حية حين تعود لتجد أنني تزوجت أعز صديقة لها! والجميل أنني أمضي شهر العسل في قصرها بالذات!

مصر؟ لم أعد أذكر كم بقيت هنا.. العمل والشقة و(عزت) وقريتي.. هل هذه الأشياء وجدت حقًّا؟ إنها حلم بعيد.. لا بد أنني هنا منذ قرون منذ أطلق (التيروداكتيل) صرخة الميلاد وحلق فوق برك القطران، حيث تغرق الديناصورات على الأقل حظًا.. منذ انفصلت الأمريكتان عن إفريقيا وغاضت (الأطلنطس) في قاع المحيط..

حقًّا كانت (جلوريا إسماعيل) - نعم.. هذا هو اسمها الآن - ساحرة.. لكن أي سحر!

رحيق الحب؟ وما في ذلك؟ ما أجمل أن تريدك المرأة لدرجة أن تقضي الوقت في صنع تلك الوصفات المقززة لتفوز بك.. هذا يزيد من قدرها في نظري..

ويبدو أننا مشينا على شاطئ (لوخ نس) ملايين المرّات.. يبدو أنها غنت باللاتينية آلاف المرّات.. يبدو أنني قطفت لها كل زهور (جرامبيان).. وشربت العشرات من أكواب اللبن الممزوج بالشيكولاتة..

فقط هناك أشياء تضايقني..

أشياء صغيرة جدًّا..

كنت قد انتقلت للإقامة معها في غرفة أوسع أعدها لنا (جراهام).. وأول ما لاحظته هو أنّ هناك ضجيجًا يأتي من داخل الجدران.. بالذات في الليل. كأن هناك ممرات سرية تمشي فيها الفئران.. صوت الخدوش المستمر هذا..

و(ماجي) الحمقاء تزعم أنه لا توجد فئران في هذا القصر..

ثم عاداتها الغريبة.. عادات (جلوريا) لا (ماجي) طبعًا..

تخيل أن تدخل الحمام بعد دقائق من استحمام شخص فيه بلبن الحمير! هذا شيء غريب.. لكني سمعت عن هذه العادة من قبل، وهي إحدى وسائل التجميل الشهيرة للحفاظ على نضارة الجلد.. لكن.. لبن حمير! ومن أين تأتي بكل هذه الكمية في. (إنفرنسشاير) أنا الذي لم أر إلا حمارًا واحدًا في مرآة الحمام؟

مثلًا ما كل هذه الأعشاب الغريبة التي تحتفظ بها في الشرفة لتجففها كما تفعل أمهاتنا مع الملوخية أو النعناع؟

مثلا.. ماسر أدوات التجميل الغريبة التي تحتفظ بها هنا؟ أدوات تجميل من خامات طبيعية ولا تمت بصلة لأية شركة أعرفها.. ومنذ متى كانت الضفادع الميتة مهمّة للتجميل؟

لكن هذه أشياء بسيطة جدًّا.. سمعت عن نساء يضعن القشدة على وجوههن، ويثبتن قناعًا من قشر الخيار، مع وضع نصف ليمونة على كل جفن.. حتى يصعب عليك أن تتصور أنّ هذه امرأة وليست زومبيًا سينهض بعد قليل ليفتح جمجمتك ويلتهم مخك...

إن المرأة من أجل الجمال تفعل كل شيء، وليست (جلوريا) باستثناء..

ولا أنكر هنا أن أساليبها ناجعة.. إن النتيجة تتحدّث عن نفسها بلا حاجة إلى أية إيضاحات أخرى..

فقط كن صريحًا معي.. لا تقل إلا الحق.. هل رأيت في حياتك من هي أجمل وأرق أو أكثر فتنة منها؟ ألا ترى معي أنها المادة الخام للأنوثة.. حتى لتشعر بأن النساء الأخريات هن أجزاء منها؟

☆ ☆ ☆

وقالت لي:

- «هل تريد أن تستعيد شبابك؟ بوسعي ذلك.. فقط دع نفسك لي..»

قلت لها باسمًا:

- «جربت ذلك ذات مرة، وكانت النتيجة مؤسية.. وكانت أستاذ فلسفة تبدل لي كوافيلي المتسخة لمدّة أسبوع.. أمّا إن كنت تتكلمين عن الخلود فهو مستحيل.. ولو حدث جدلًا - وهو كما قلت مستحيل - فلن يزيد على موقف (تيتون) و(أورورا) في الأساطير الإغريقية.. لقد منحته الخلود لكنه ظل يشيخ إلى أن فقدت القدرة على تحمله وقد صار عجوزًا طاعن السن.. هكذا أحالته نطاط حقل..»

قالت باسمة:

- «هل تظن أنني قد أحيلك نطاط حقل يومًا ما؟»

نظرت لعينيها الزرقاوين الواسعتين وقلت بصدق:

- «نعم.. للأسف نعم..»

☆ ☆ ☆

لا أدري لماذا خطر لي ذات مرة أن أدخل حجرتها القديمة.. إنني أعرفها لأني وقفت تحتها ذات مرة..

كان الباب مفتوحًا والإغراء قويًا.. وخطر لي أنني أريد أن ألقي نظرة على زوجها السابق.. لا بد أن له صورة على الكومود.. هو مجرد فضول لا أكثر ولا يعني شيئًا، لأن بوسع أي شخص في العالم أن يكون أجمل وأقوى مني.. هذا لا يحتاج إلى موهبة ما.. كل شخص يمكن أن يكون جميلًا في الربيع، وكل شخص يمكن أن يكون أفضل من (رفعت إسماعيل)..

(لكنني تزوجتها برغم كل شيء.. وحُرمت أنت منها يا أحمق!)

بالفعل كانت الغرفة خاوية تمامًا.. لقد أفرغت من أكثر الأشياء التي تخصها، ويبدو أنه لم يتم تنظيفها من فترة طويلة.. إن المسز (أوركهارت) مسنة طبعًا، ولا أتوقع منها أن تعنى بكل التفاصيل.

الغريب هنا أن الستائر جميلة جدًّا.. بنفسجية من أرق وأجمل درجة يمكن وصفها برغم مقتي لهذا اللون عامّة.. هناك ورق حائط زاهي اللون مزركش بالأزهار.. وهناك دمى معلقة.. لا ليست دمى (فتيش) ولكن دمى لشخصيات (ديزني).. وهناك قضيب قطار ألعوبة يدور حول نطاق الغرفة كلها.. قطار صغير مضحك له عينان وشارب بدلًا من الكشافات وعارضة التصادم الأماميّة..

هذه الغرفة لا تناسب امرأة ناضجًا، وبالتأكيد لا تناسب ساحرة..

أزحت ستار النافذة ورحت أرمق المشهد من عل.. من هذه النافذة ألقت ببقايا السنونو والأرنب.. ولا بد أن الحجرة كانت تختلف عن هذا كثيرًا.. ذلك الشيء منطقي فلا يمكن أن تترك أي أثر سابق يدل على نشاط مريب..

هنا سمعت موظف الأرشيف الجالس في ذهني يتململ..

☆ ☆ ☆

«كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط.. تلك الغرفة التي أحلتها قطعة من (ديزني لاند) بالستائر الجميلة، وورق الحائط المزركش بالأزهار، وكل الدمى التي نشرتها فيها.. إن الشيطان الذي يتسلل إلى هذه الحجرة لهو شيطان طفل بالتأكيد..»

☆ ☆ ☆

(ماجي) قالت هذا في خطابها.. فلماذا أتذكره الآن؟

يوجد خاطر أبله يتلاعب في ذهني ولا يمكن أن نعطيه أي قدر من الاهتمام أو الاحترام..

لكن.. أنت رجل منطقي.. والمنطق يؤكد شيئًا واحدًا.. هذه كانت حجرة (إليانور) الطفلة يومًا ما ثم تركتها.. فلماذا اتخذتها (جلوريا) مسكنًا لنفسها؟

ومن جديد أواصل البحث عن دليل ما..

هناك حمام ملحق بالغرفة كغرف الفنادق والمستشفيات أفتحه وأدخل..

توجد مرآة.. يوجد مغطس صغير.. ثمّة ثياب معلقة وراء الباب ومكدسة في حاوية صغيرة من البلاستيك.. لماذا لم تأخذ (جلوريا) هذه الثياب معها بعد انتقالها إلى (عش الزوجية)؟

لست فضوليا إلى هذا الحد، لكن شيئًا في هذه الثياب جعلني اتفحصها بعناية..

السبب هو الحجم.. ثمّة ثياب قصيرة صغيرة الحجم تناسب طفلة.. طفلة في الثامنة لا أكثر.. ولكن.. هناك ثياب أكبر حجمًا.. ثياب تناسب فتاة مراهقة في الثالثة عشرة أو ما هو أقل من السادسة عشرة.. ثمّة ثياب تدلّ على شابة في العشرين تقريبًا.. كلها ثياب لا تناسب (جلوريا) ولهذا أفهم لماذا لم تأخذها معها..

ما معنى هذا؟

انتصبت شعرتان أو ثلاث في رأسي هي مابقى كما تعلمون..

الجواب الخافت الذي أعلن عن نفسه من قليل يصيح الآن بحرارة:

ألم تفهم بعد أيها الأحمق؟ هذه المرأة (جلوريا) التي صارت زوجتك.. هذه المرأة التي في العقد الثالث من عمرها.. هي ذاتها الطفلة (إليانور)!!!

☆ ☆ ☆

7 - المزيد من الاجتماعيات...

نعم.. أعرف أنّ هذا التفسير أبله..

أعرف أنه غريب..

أعرف أنه يحتاج إلى الكثير من الصودا والمهضمات كمعقب، كي يمكن هضمه..

لكن هذا هو الحل الوحيد، وإلا فـ (ماجي) كانت تستضيف في هذه الغرفة كتيبة من الفتيات من أعمار متباينة..

أما الشيء الغريب فهو أنني لم أشعر بخوف ولا نفور ولا دهشة..

بدا لي الأمر منطقيًا تمامًا..

تذكرت الطفلة (إليانور) الرقيقة الخائفة تحتمي بـ (ماجي) وكيف أنقذناها من السحرة فقط لندرك أننا جئنا متأخرين.. هذه الطفلة بمعجزة ما قد صارت زوجتي!

إن الأيام تجري.. لكن ليس بهذه السرعة!

لو كان كلامي دقيقًا فالطفلة قد نمت العشرين عامًا في شهر ونصف.. وهذه هي مشكلة أن تكون جربت كل شيء حتى لم تعد تندهش لشيءٍ.. أنا مررت بتجربة مماثلة، وكانت د. (كاميليا) تقول إنها كانت تراني أكبر أمام عينيها! لهذا أفهم أن يحدث شيء كهذا.. أفهمه ولا أصدقه..

أنا تزوجت الطفلة (إليانور) التي صارت - بشكل ما - (رونيل) السوداء..

☆ ☆ ☆

في الأيام التالية حملَت (جلوريا) ورُزقت بطفل..

لا أعرف كيف أفسر.. كل شيء هنا يتم بسرعة غير معقولة، والغريب أنني لا أجد هذا غريبًا..

رزقت به في صباح يوم جميل من شهر (يونيو)، وكان أقرب في كل شيء إليها.. يقولون إن الطفل الأول يشبه أباه في كل شيء لكن هذا الطفل كان نسخة منها.. ليس أصلع وليس نحيلًا.. وكنت أتخيّل ابني يشبهني في كل شيء.. ربما يحمل شاربي وعويناتي بينما يطل رأسه من (القماط) صارخًا..

على كل حال حملت الصغير بين ذراعي، وقد بدا لي رقيقًا لطيفًا.. إن هذه الأشياء التي تحدث لي هذه الأيام بالذات لجديرة بكتيب لكل منها.. شمّ رائحتي فتقلصت كل ملامح وجهه الصغير، ثم عطس عطسة لا بأس بها أبدًا.. إنه محبب كهرة صغيرة.. على الأقل هو لم يمت هلعًا حين رآني..

فقط أدعو الله ألا ترضعه حليبًا ممزوجًا بالشيكولاتة.. هذا الحليب الذي جعلني لا أعرف من أنا من زمن..

سألتني وهي منهكة شاحبة كما تجيد الأمهات أن يبدين:

- «ماذا ستطلق عليه؟»

لا أعرف.. لم أجرب خبرة إطلاق اسم على طفل رضيع من قبل.. إن اسم (كمال) لا بأس به لكن (كمال رفعت) اسم دبلوماسي مصري مرموق، وأنا أكره أن أسيء له بأن استخدم الاسم ذاته المشكلة مع اسم (رفعت) إن الخيارات الموسيقية محدودة جدًّا و...

- «(سمير) طبعًا.. لا أعرف اسمًا آخر.. أنا لم اختره لكنه اختارني..»

- «هل له معنى في العربيّة؟»

- «صديق.. صاحب.. ونيس.. شيء من هذا القبيل..»

وبرفق وضعته جوارها محاذرًا من أن ينخلع عنقه الصغير ويتدحرج على الأرض..

قالت باسمة وهي تربت على ذراعه:

- «سيكون رفيقك في رحلتنا المزمعة.. ستكون بحاجة إليه..»

- «رحلتنا المزمعة؟»

نظرت لي في ثبات وقالت:

- «نعم.. أنا وأنت راحلان إلى (روشتوك)..»

عرفت من طريقتها المصممة أننا فعلًا راحلان إلى (روشتوك).. لا مفر من هذا.. ولكن...

- «ما هي (روشتوك) هذه؟»

- «ألمانيا الشرقية.. قرب ساحل (البلطيق).. حسبتك تعرف أوروبا جيدًا..»

ما موضوع ألمانيا هنا؟ أسمع عنها أكثر من اللازم هذه الأيام..

- «هذا جميل.. ولكن ما هو المبرر القوي كي..؟»..

من جديد قالت في ثبات:

- «أنت لا تسأل أسئلة.. فقط تمتثل..»

حقا كنت أعرف أنها قوية جدًّا.. لا أعرف السبب لكني لم أكن أشعر بشيء مريب أو مقلق في هذا.. والحقيقة أنني منذ قابلتها لأول مرة أتحرك بالضبط في المسار الذي تحدده لي.. لقد تزوجتني ولم أتزوجها.. هي تريد أن تأخذني إلى ألمانيا الشرقية، وأنا لا أرغب في الذهاب هناك.. لكني سأفعل..

وهكذا ابتسمت لها في غباء وغادرت الحجرة..

☆ ☆ ☆

كانت في غرفتنا، وكنت أجوب الردهة مفكرًا في عمق..

هنا خطر لي خاطر.. ماذا حدث لحجرة (ماجي)؟ من الغريب أنني جبت كل أرجاء القصر، لكني لم أدخل حجرتها بعد.. لقد دخلتها عدة مرات في زيارات سابقة لكني لم أرها هذه المرّة، ولعل الأحداث المتلاحقة التي انهالت على منذ جئت هنا، جعلتني عاجزًا عن إيجاد الوقت الملائم..

كانت غرفتها موصدة، ولم أجسر على أن أطلب مفتاحها من (جراهام).. لا أحب الأسئلة..

فكرت في مكتبها.. قد كان هو مكتب أبيها قبل وفاته وهو يحمل قدرًا لا بأس به من رائحتها.. اتجهت إلى هناك ودعوت الله ألا يكون موصدًا.. بالفعل أجيب دعائي، وأدرت المقبض لأجد نفسي في ذلك العالم الخاص.. الكمبيوتر على المكتب.. وفي ذلك العصر كان الكمبيوتر شيئًا ديناصوريًا لا يملكه إلا الأثرياء ولا يتعامل معه إلا العباقرة.. وكانت سعة أفضل الأجهزة لا تتجاوز 64K.. باختصار كان الكمبيوتر المنزلي وهمًا من أوهام الخيال العلمي.. أوراق مكومة من أطروحة ما.. آلة حاسبة.. أجهزة فيزيائية لا أعرفها وأشك في أن الخواجة (نيوتن) يعرف ما هي..

جوار الأوراق كان هناك قدح جفَّ ما به، لكني لا أشك في أنه (الكابوتشينو).. عصارة الأفكار كما تقول (ماجي)، حتى أنني صرت أنظر إلى هذا المشروب الكريه نظرة احترام..

وجوار الأوراق - أيضًا - كان إطار صورة صغير يقف شامخًا.. في هذا الإطار كان وجه أعرفه.. صحيح أنه أجمل وأغزر شعرًا لكنه وجهي..

ولم أتمالك دمعة سالت على خدي..

أين أنت؟ ماذا حل بك؟

الغريب أنها لم تقل لي قط إنها تضع صورة لي على مكتبها.. بالأحرى كانت تنكر ذلك بعنف كأنما أهينت...

جلست إلى المكتب ورحت أقلب الأوراق.. هنا لمست يدي شيئًا له ملمس مألوف.. هذه الأوراق..

كانت هذه هي الأوراق التي وجدتها جوار جثة (لورين بلاك) والتي عرفت منها موضوع (إليانور).. إنني لم أقرأها بعناية، وحين رحلت تركتها لـ (ماجي).. فهل مازال فيها ما يهم؟

من الجلي أن (ماجي) كانت تدرسها بعناية.. هناك قاموس صغير للغة لا أعرف ماهي (هل الجرمانية القديمة؟) وضع على المكتب وقد أغلق على قلم رصاص.. (ماجي) بذلت جهدًا كبيرًا في فهم بعض المخطوطات الجرمانية.. هذا واضح..

دسست هذه الأوراق في جيبي وواصلت البحث.. أراهن على أنّ هناك الكثير مما يهمني على هذا الكمبيوتر، لكني لا أعرف كيف أفتحه ولا كيف أبحث عن شيء فيه.. لو كانت (ماجي) تركت لي رسالة عليه فهى حمقاء..

وهكذا حملت غنيمتي واتجهت إلى الحديقة..

كان هناك مقعد جوار نافورة صغيرة، وهي ليست نافورة بالضبط بل هي أقرب إلى إناء شرب للطيور.. من هنا يمكن الحصول على سنونو أو عصفور دوري.. لا بد أنّ هذا هو المكان..

نظرت حولي فلم أر متلصصين.. فتحت الأوراق وبدأت أقرأ..

من البداية...

☆ ☆ ☆

بعد ساعة من التركيز بدأت أكون رأيًا..

هذه الأوراق تحوي مجموعة من الكلام الفارغ.. نقاط تنوي الكاتبة الفقيدة أن تفيد منها فيما بعد هناك ملحقات باللغة التي لا أعرفها يبدو أنها من وثائق أصلية وقد نسخت نسخًا باليد.. رسمتها الكاتبة كما ترسم أنت نقوشًا هيروغليفية لا تفهم ما هي.. لا أفهم هذا الجزء على كل حال.. فقط كانت الفقرات المهمة هي التي قرأتها على (ماجي) في المرّة الأولى..

لكن الفقرة التالية هي الجديرة بكل هذا العناء:

- «كانت مشكلتي هي معرفة من أين بدأت (رونيل).. أين تعلّمت السحر ومتى صارت شريرة؟ تتبع (رونيل) نفس الخيط الذي يقود إلى ساحرات أخريات ظهرن في أوروبا في تلك الحقبة.. لاحظت أن الساحرات اللاتي يُعدمن يواصلن الحياة بشكل آخر في أجساد أطفال.. وهؤلاء الأطفال ينمون ويصيرون سحرة بدورهم.. والخيط يبدأ أو ينتهي عند جزر البلطيق.. هل هذه هي بلاد القوط الشرقيين؟ على الأرجح الإجابة هي نعم.. إن الأسطورة قوية جدًّا، وقد سمعتها بأكثر من

توزيع، لكنّها جميعًا تتحدّث عن الشيء ذاته.. لقد انتقل السحر إلى (رونيل) من واحدة أخرى أعدمت في زمن سابق.. وهذه الأخرى أخذت العدوى من أخرى.. كأننا نتحدث عن مرض الكلب هنا (بكسر اللام لقراء العربيّة طبعًا)..

«هناك في إحدى الجزر ببلاد القوط الشرقية يقع ذلك الكهف.. كهف يمتد لمسافة طويلة داخل أعماق الجزيرة، وهذا الكهف يعيش به مكبّلًا سجينًا ساحر قديم يدعي (جيلبرت)..»

(جيلبرت).. الاسم (جيلبرت)...

☆ ☆ ☆

«أنا (جلوريا جيلبرت).. حدّثتني (ماجي) كثيرًا عنك..»

«نحن منفصلان.. وآخر ما سمعته عنه أنه في ألمانيا.. وأنه سجين..»

☆ ☆ ☆

«هناك سجنه أستاذه (كاتيوم) منذ قرون لا حصر لها، لأنّه تجرأ عليه وسبه.. وقد قيده إلى عوارض خشبية عليها نقوش قوطية قديمة.. تقول الأسطورة إن هذا الساحر سيظل هناك حتى يجده ساحر آخر ويحرره[3]..

«..هناك في ألمانيا الشرقية سمعت الناس والفلاحين يقولون إن (جيلبرت) يبحث عن ساحر يحرره..

«إذن فهذه القصة تبدأ بـ (جيلبرت).. ومنه يبدأ الخيط عدة أجيال آخرها - بالنسبة لي - (رونيل) السوداء..

«فهل كانت (رونيل) تتأهب للذهاب إلى (البلطيق) لتحرر هذا الساحر لكن الناس أعدموها قبل ذلك؟ في هذه الحالة هي لم تتم عملها وسوف تعود.. لكن في صورة من؟»

- «في صورة (إليانور) يا عزيزتي.. في صورة (إليانور) التي كبرت في شهر أو أكثر.. وادعت فيما بعد أن اسمها (جلوريا)..»

قلتها بصوت مسموع مخاطبًا روح الكاتبة الشابة التي حاولت تقمص أفكار وشخصية الساحرة..

ودسست الأوراق في جيبي واختلست نظرة إلى الشرفة البعيدة...

زوجتي الحبيبة تقف هناك والطفل على كتفها.. من الواضح أنها تراقبني..

لا أعتقد أنها تقرأ ما في يدي من مسافة عشرين مترًا، لكني لا أستبعد شيئًا بالنسبة لها.. وما في ذلك؟ هي تعرف أنني عاجز عن الفرار.. عاجز عن اتخاذ قرار.. ما أن أراها حتى أتحول إلى الأبله المنبهر بجمالها، والأب الطيب لطفلها..

يمكن القول إنني الآن أعرف ما سيحدث..

وإن كنت عاجزًا عن منعه..

ستذهب إلى ألمانيا ولسوف تحاول أن تحرر هذا الـ (جيلبرت) لو كانت الأسطورة صحيحة..

هنا يبرز سؤال مهم: ما دوري في هذا كله؟ كان بوسعها عمل ذلك دون أن تتزوجني أو تنجب مني..

فلماذا أنا دون غيري.. لماذا؟

لو كانت تريد زوجًا - أي زوج - فهناك ألف واحد يصلح، وحتّى (جراهام) رئيس الخدم يصلح وهو أجمل منى بكثير..

السؤال الثاني: هل (ماجي) في ألمانيا فعلًا؟ ماذا تفعل هناك وحدها؟ ولماذا تركت الطفلة هنا؟ هل كانت الطفلة قد بدأت في النمو بذلك الشكل المفزع الغريب؟

السؤال الثالث: ماذا ينتظرني هناك؟

وخطر لي أنه لا بد من إعادة هذه الأوراق لمكتب (ماجي) حالًا...

☆ ☆ ☆

8 - دي إنزيل..

قال لي (سمير) وهو يمسك يدي بيده الصغيرة:

- «لماذا نحن ذاهبون إلى ألمانيا يا أبي؟»

لم أدر ما أقول.. طبعًا يصعب عليه أن يفهم قصة (جيلبرت) والكهف..

صحيح أنه ينمو بسرعة لا تصدق.. صحيح أنه الآن في السابعة من عمره حسب نموه العقلي والنفسي والبدني، لكن عمره شهر حسب تاريخ المولد، إلا أنّ هذه الأشياء تظل بعيدة عن فهمه..

يجب أن أقول هنا إنّه كان يتكلم العربيّة والإنجليزية معًا.. هكذا يتفاهم مع أبيه وأمه..

قلت له وأنا ألثم جبهته:

- «ذاهبون إلى ألمانيا لأننا لا نعرف مكانًا آخر نذهب إليه..»

حقًّا يجب أن تظل هذه القصة سرًا لو خرجت منها سالمًا.. أنا تزوجت (إليانور) الطفلة التي لم تعد طفلة، وأنجبت منها خلال شهر، طفلًا هو الآن في السابعة من عمره بعد شهر آخر..

هل هذا القصر يتميز بظاهرة تعجيل الزمن؟ أنا لم أفهم النسبية قط لكني أعتقد أنها تتحدّث عن أشياء كهذه.. ولكن بالعلم هذه المرّة..

إن الفارق بين الرعب القوطي ورعب الخيال العلمي هو أن المسوخ والخوارق يفزعوننا في النوع الأول بينما الآلة هي التي تفزعنا في الثاني.. يقولون إن الكتاب لم يجدوا مشكلة عندما ولد أدب الخيال العلمي.. حل العالم المجنون محل الساحر.. وحل الاختراع العجيب محل الشبح.. لكن الحبكة ظلت هي هي..

لو كانت النسبية تفسر ما أنا فيه فقد حان وقت دراستها جدًّا.. وإنني لأحسد (ماجي) لأنها تفهمها

☆ ☆ ☆

تقع (روشتوك) - التي شيدت في القرن الثاني عشر - شمالي شرق (ألمانيا) الشرقية.. لم تكن ألمانيا موحدة وقتها طبعًا، وكانت تعاني من ذلك الصدع القديم يوم دخل السوفييت (برلين) من الشرق ودخل الأمريكان (برلين) من الغرب، وانتحر (هتلر).. من يومها ظلت ألمانيا مقسمة..

الشرق ينتمي إلى عالم الشيوعية والحزب والبروليتاريا.. والغرب ينتمي إلى عالم الهامبرجر وديزني لاند وشعار (العالم الحر).. الشرق يعد بجنة على الأرض يوم تعم الحتمية التاريخية وتثور البروليتاريا في كل العالم، والآخر لا يعد لكنه يقدم بالفعل جنة أرضيّة صناعية قوامها الكولا والهامبرجر وأفلام (هوليوود) المبهرة..

خلف الستار الحديدي كما يقول (تشرشل Churchil).. هكذا عبرنا إلى عالم آخر بمقاييس أخرى..

تقع المدينة على نهر (فارنوف).. قرب بحر (البلطيق).. وهي مركز بحري حساس وميناء بالغ الأهميّة.. وفيها أقدم جامعة في شمال أوروبا..

ويمكنك بسهولة أن ترى آثار القذف أثناء الحرب العالمية الثانية.. بعض هذه الآثار لا ينوون التخلص منها لأنهّا نوع من التاريخ الحي الناطق..

كانت (جلوريا) - أم هي (إليانور) أم (رونيل)؟ - معي.. ويجب أن أقول إنها كانت هي (رجل البيت).. كانت المسئولة عن الإنفاق والتنقل وحجز القطار والفندق.. وكانت تتحرك كأنما مارست نفس الرحلة ألف مرة..

وفي ذات يوم الوصول اتجهت إلى المرفأ وبحثت عن يخت صغير للإيجار..

سألها البحار بالألمانية عن شيء ما، ثم راح يهرش رأسه في حيرة.. لم يبد على استعداد لتصديق ما تقول..

سألتها حين عادت عما طلبته ومنذ متى تجيد الألمانية.. فقالت باسمة:

- «أنا أجيد أشياء كثيرة.. أمّا ما طلبته فهو يخت نبحر به في بحر البلطيق Baltic.. إن الجزيرة التي أبحث عنها غير مرسومة على الخارطة لكنهم يعرفونها ويكرهونها.. ويطلقون عليها هذا الاسم المحايد (الجزيرة).. Die Insel..»

سألتها متظاهرًا بالبراءة:

- «يكرهونها؟ لماذا؟»

قالت متظاهرة بالبراءة هي الأخرى:

- «وكيف لي أن أعرف؟ إن البحارة قوم شديدو التطير.. لو غرقت سفينتان قرب هذه الجزيرة لاعتبروها مشئومة.. ثم يتناقلون هذه القصة حول النار ليلًا وهم يدخنون غلاييـنهم.. بعد قرنين تصير حقيقة لا يناقشها أحد..»

ثم قالت بلهجة عملية براجماتية:

- «الليلة نتحرك إلى هناك!»

صحت في جزع:

- «ومن قال إنني أجيد الملاحة؟»

- «أنت لا تجيد أي شيء.. لكن كما قلت لك أنا أعرف الكثير من الأشياء..»

ومشينا في المدينة.. مررنا بجامعتها العتيقة التي تعود إلى عام 1419.. وكانت هناك مجموعة من الكنائس قوطية الطابع.. طبعًا.. أنت هنا في بلاد القوط ذاتها..

لكن ما كانت تبحث عنه هو كنيسة (سانت ماري).. كانت هناك في ساحتها ساعة غريبة الشكل هي أقرب إلى مزولة.. نظرت لها وقالت ضاحكة:

- «هذه ساعة فلكية تعمل بدقة تامة من عام 1472 حتى اليوم.. ولم تتوقف لحظة..»

أصابتني الدهشة، وإن دهشت أكثر لاهتمامها البالغ بالآثار.. لكنّها قالت وقد رأت حيرتي:

- «ما أقوم به لا يعتمد على توقيت محلي.. إنني أعتمد على التوقيت الفلكي ذاته.. وهذه الساعة تخبرني بأن عليَّ الرحيل هذه الليلة.. سيتم (الأمر) الليلة..»

ساد صمت طويل ثم سألتها:

- «هل أنت مندهشة لأنني لا أسألك عن شيء؟»

- «بل سأندهش لو فعلت..»

وانطلقت تجد السير مبتعدة عني بقامتها الرشيقة الفارعة، وهتفت دون أن تنظر لي:

- «سنحتاج إلى ثياب تقينا برد البحر وبلله..»

- «وطعام؟»

- «لا طعام!! هيه هيه! صدقني لن تحتاج إلى طعام!»!

☆ ☆ ☆

يطلقون عليها (الجزيرة).. تحاشيًا للمزيد من التفاصيل..

لقد جاء الليل..

ومعه تحركت (رونيل) السوداء..

لن أناديها بعد اليوم باسم (جلوريا).. لن أناديها بـ (إليانور).. إنها هي (رونيل) السوداء ذاتها..

تقف خلف الدفة كأنها الشيطان يرتاد نهاية العالم.. ترتدي سترة واقية من البلل وعيناها الزرقاوان الوحشيتان تلمعان في ضوء لا أعرف من أين يأتي..

تقاوم بحر البلطيق ذاته.. تقف شامخة على الدفة.. بينما الرذاذ يتطاير ليغرق شعرها.. فتزيحه لتسلط عينًا واحدة على البحر من جديد.

إنها تتكلم باللاتينية ماذا تقول؟ لا أعرف.. تضحك أحيانًا ثم تصمت.. أرجو أن تكون ساحرة حقًّا وليست مجرد مجنونة وإلا فنحن ضائعون لا محالة.. لا يستطيع مقاومة هذه العاصفة إلا بحار محنك أو ساحرة..

وأرتجف.. أمسك بيد (سمير) حيث جلسنا في موضع آمن من اليخت.. وقد دفنَّا رءوسنا في ستراتنا الثقيلة الواقية من البلل..

ما هذا الذي مضينا إليه؟ ما هذا الذي سنلقاه؟

يقول (سمير) راجفًا:

- «أبي.. إن أمي عصبية جدًّا.. أنا خائف!»

فأوشك على أن أقول له إن الحال واحد، ثم أصمت..

بحر البلطيق الرهيب الذي يقع بين (ألمانيا) و(فنلندا) و(الدنمارك) و(السويد) و(أستونيا) و(بولندا).. بحر العواصف الذي لا يرفق بالسفن أبدًا.. متوحش مثل.. مثل (رونيل) السوداء..

إنه ليس ببعيد عن بحر الشمال الأسطوري.. فقط تربطه به قناة (القيصر فلهلم)..

كنت أفكر في هذا وأتحسس ذلك القضيب الحديدي الملقى على السطح الزلق بقربي..

فقط بعض الشجاعة.. بعض الحسم.. ضربة واحدة وينتهي الكابوس.. سيجن الطفل هلعًا لكنه لا يعرف أنني أنقذه.. أنقذ العالم كله في الواقع..

أمد يدي وأعتصر القضيب أكثر..

أنهض مترنحًا.. فيقول شيئًا لكني أشير له كي يخرس..

أتقدم إلى الأمام.. وفجأة...

(بحر العواصف الذي لا يرفق بالسفن أبدًا..)

موجة كاسحة تنهض من سباتها كالديناصور.. تزحف تحت اليخت فأجد أننا نرتفع إلى عنان السماء ثم نهوي.. وأسقط على الأرض.. يسقط القضيب من يدي.. أتشبث في آخر لحظة بعارضة معدنية، وأنكمش على نفسي حتى تستقر السفينة..

- «إن البحر في صفي يا (رفعت) فلا تتجاهله!»..

قالتها وانفجرت في الضحك..

كيف عرفت؟ إنها لم تنظر للوراء لحظة..

إنها تعرف الكثير من الأشياء حقًّا..

الخلاصة إنها ليلة سوداء...

☆ ☆ ☆

يطلقون عليها (الجزيرة).. لأنّهم يتطيرون من اختيار اسم لها..

وقد كنا الآن نراها من الشاطئ.. نقف خارج حزام الصخور المحيط بها..

يبدو أنها صغيرة جدًّا.. وإن بدت لي شريرة بما يكفي.. إن هذا المكان يحوي طاقة نفسية مرعبة.. أعرف هذا.. أشعر به..

كانت (رونيل) - أو المدام - تحمل حقيبة ثقيلة على كتفها.. وراحت بعدما ترجلت تشق طريقها بثقة وقد بلغ الماء خصرها.. لم أدر ما أفعله فوضعت الصغير على ظهري، كأنه يركب حصانًا.. كل ساق على كتف ورحت أشق طريقي في الماء خلفها.. إن الظلام يجعل الأمر كابوسًا.. هناك قمر خلف الغيوم لكنه لا يعمل جيدًا.. مزاجه متعكر بعض الشيء، وقد أرغم على السهر بانتظارنا..

أخيرًا وقفت على الشط وراحت تتشمم الهواء في استمتاع، وقالت:

- «استعددت لهذه الرحلة طيلة حياتي..»

- «هذه الحياة فقط؟»

ابتسمت في خبث وتقدمت الطريق.. كانت تعرف وجهتها وكانت مصممة على الوصول إليها..

نظرت للشاطئ الرهيب خلفنا.. هل أنا أحلم أم أنّ هذا شبح قارب يقف وحيدًا مظلمًا فارغًا بين الأمواج؟

من يدري؟ لربما غرقت سفن أكثر من اللازم قرب هذه الجزيرة الملعونة..

هناك ذلك الكهف.. إنني أراه بوضوح..

إنه خبيث الشكل ككل شيء على تلك الجزيرة..

دون تردد دلفت (رونيل) من المدخل، فتبعتها وأنا أمسك بيدي الصغير.. كانت تعرف طريقها في الظلام، أمّا أنا فاضطررت إلى التوقف حتى لا أحطم عنقي.. سمعتها تغمغم بشيء ما.. ثم منذ متى كانت تحمل مصباحًا؟ لم أرها تحمل مصباحًا، لكني أرى بقعة من النور أمامها.. وها هي ذي تتقدم الطريق فنتبعها وظلالنا ترسم رسومًا سريالية مفزعة على الجدران.. تمزق خيوط العنكبوت وهي تمشي.. وتفزع الوطاويط التي تحلّق لمكان آخر..

صحت فيها والصدى يولول بدوره:

- «سأترك الطفل في الخارج!»

ودوى الصدى مرارًا: رج.. رج.. رج... كان الإغريق يعتقدون أن الصدى هو الفتاة (إيكو Echo) التي لعنتها (هيرا) وجعلتها تردد آخر مقطع من كل جملة تقال أمامها.. يبدو أن الأخت (إيكو) كانت تنتظرنا من زمن..

صاحت بدورها بينما بقعة النور تواصل التقدم:

- «خطر جدًّا.. إنّه أكثر أمنًا هنا..»

نا.. نا.. نا... نا!

أعرف أننا نهبط باستمرار.. أعرف أننا الآن تحت مستوى البحر ذاته.. والكهف ممتد.. الهوابط من أعلى تقطر ماء، والطحلب يغطيها..

أخيرًا هناك تلك البوابة الخشبية العملاقة ذات الخشب الذي أعجب لكونه لم يتلاش حتى اللحظة.. إن الصناعة القوطية بارعة حقًّا..

على الباب شعار عملاق.. وكل الشعارات على ما يبدو تحوي التنين والنسر.. وهناك كتابة بلغة عجيبة لا أعرف حروفها.. لا.. ليست اليونانية ولا اللاتينية.. هي أقرب إلى مجموعة من نقوش..

لكنّها تقف هناك.. تسلط ضوءها الذي لا أعرف مصدره على الحروف، وبصوت جهوري تهتف:

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

هنا فقط بدأ الدخان يتصاعد.. يخرج من تحت الباب ومن فجواته.. يخرج من كل شقّ فيه.. دخان كثيف أزرق له رائحة الكبريت..

وشعرت بشعبي الهوائية تتقلص ورحت أسعل، أمّا (سمير) فلك أن تتصور حالته.. رباه.. لاتبك.. أرجوك لا تبك.. فهذا يقضي على أعصابي تمامًا..

قلت لها في حزم:

- «لا أعرف ما تنوين عمله.. ولا حيلة لي في الخلاص منك.. لكن تذكري أنّ هذا ابنك!»

نظرت لي بجانب وجهها.. وضع ثلاثة أرباع خلفي كما يقول المصورون، وهتفت من جديد:

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

الصدى يقول: **برت.. برت.. برت!!**

الباب ينفتح ببطء.. ينفتح..

☆ ☆ ☆

9 - السجين يتحرر..

لم نر ما يوجد بالداخل لأنهّا شقت الطريق وحدها..

ووقفت مع (سمير) وحدنا بالخارج عاجزين عن الفرار.. عاجزين عن اللحاق بها..

الدخان يزداد كثافة.. الرائحة خانقة فعلًا.. أوشك على الموت بالربو حالًا.

متى تلقّيت الضربة على رأسي؟ لا أذكر.. لكنّها جاءت في وقت لم أكن أرى فيه شيئًا على الإطلاق.. وساد الظلام كما هي العادة..

شعور السقوط الأبدي إلى أسفل..

إلى أسفل..

إلى أسفل..

إلى أسفل..

☆ ☆ ☆

يطلقون عليها (الجزيرة).. لأنّهم يتطيرون من اختيار اسم لها..

والآن حين فتحت عيني أدركت أننا لم نكن وحدنا على الإطلاق..

كم كان عدد الرجال؟ عشرة؟ ربما.. لكنني لم أتبين وجه واحد منهم.. وتذكرت كيف كان يبدو الوباء ذو الكلمات السبع.. إن هذه الكائنات الظلامية تعرف كيف لا تبدو في النور أبدًا.. لا بد من أن ينسدل غطاء الرأس بحيث لا ترى إلا لمحة من وجوهها في كلّ مرّة.. وهذه اللمحة لا تكفي إلا لإثارة الذعر..

هل جاء هؤلاء القوم في سفينة أخرى؟ تلك التي وجدتها قرب الشاطئ؟

الحقيقة الأهم هي أنني مقيد في وضع النسر المحلق.. مقيد بالسلاسل إلى منضدة خشبية عتيقة.. هذا هو وضع التضحية الوثنية الشهير، ولن أندهش لو كان باقي البرنامج يتضمن شقّ حنجرتي من أجل.. من أجل من؟

ونظرت جواري فرأيت في ضوء المشاعل أن (سمير) راقد في وضع مماثل..

منذ فترة قصيرة كانت الطفلة (إليانور) تمر بالتجربة مثلنا.. لكنّها لم تكن في خطر على حياتها.. كانت في خطر على مستقبلها.. لم تعد طفلة عادية بل صارت ساحرة.. فهل مستقبل مماثل ينتظرنا؟

تبًّا.. ينسى هؤلاء القوم إننى لا أطيق النوم على ظهري.. إن عسر التنفس يداهمني على الفور.. أو كما يقولون (تضيق روحي).. لو كانوا يريدون التضحية بي فليفعلوا ذلك وأنا نائم على جانبي الأيمن..

أخيرًا زوجتي الحبيبة تظهر من مكان ما وسط هذا الكهف المقبض..

مازالت جميلة وإن ارتدت كل ما يلزم للمسرحية القادمة.. بدا لي كأنما عدنا بآلة الزمن إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر.. وكان شعرها مغطى بخيوط العنكبوت فبدا متناغمًا مع ثيابها..

قلت لها وأنا أجاهد كي أرفع رأسي:

- «سأكون شاكرًا لو شرحت لي ما يحدث..»

قالت وهي تحرك ذراعيها كأنها رقصة هنديّة ما:

- «إن خلاص (جيلبرت) من (كاتيوم) عسير.. والدليل هو كل السحرة الذين فشلوا عبر القرون في تحريره.. ودعني أقل لك أيها العزيز إن تحرره يعني نهاية التاريخ كما تعرفه..»

- «أعرف هذا.. لكن ما دورى أنا؟»

- «الطقس الأول هو البنوة.. يجب أن يضحي الساحر بابنه..»

ارتجفت لهول الفكرة.. هي لم تنجب إذن إلا ليكون لديها من تضحي به..

- «الطقس الثاني: الدَمَان.. يجب أن يسيل على قيود (جيلبرت) دم أب وابنه..»

بدأت أفهم.. هي إذن ستضحي بي كذلك.. كانت بحاجة الأب وابن.. على أن يكون الابن ابنها كذلك.. هكذا تضرب عصفورين بحجر.. ولكن لماذا أنا بالذات؟ لماذا لم تتزوج (جراهام) الخادم أو بائع الصحف أو أي أحمق سواي؟

الانتقام!

نعم.. الانتقام.. هذا معقول.. أنا من كشف أن الطفلة هي ذاتها (رونيل) وكاد يفسد الكثير من الأشياء في أيرلندا.. ربما لهذا نمت بهذه السرعة الجهنمية.. ربما لهذا تم اختياري لهذا الفخ.. فقد كانت تعرف أنني قادم إلى (إنفرنسشاير)..

- «الطقس الثالث هو المحرقة!»

هذا الجزء لا يروق لي.. هل تنوي حرقنا بعد قتلنا أم العكس؟

المهم أنها راحت تدور في المكان وهي تؤدي مشهدًا طويلًا معقدًا من مسرحيّة لا وجود لها.. لو كانت هناك نسخة من (هاملت) باللغة القوطية القديمة فلا شك أنها تؤديه الآن..

وفطنت إلى أنها تتلو ما تقرؤه من أوراق.. هناك نوع من التلقين إذن.. ليست بهذه الذاكرة الحديدية..

هذه الأوراق أعرفها.. حتى من مكاني هذا وفي هذه الإضاءة الخافتة المتوهجة بالمشاعل.. هذه الأوراق التي كانت مع الكاتبة والتي جاهدت (ماجي) كي تترجمها..

الوقت يمرّ..

الطفل يولول..

الدخان يتصاعد..

القراءة تستمر..

ثم إنها صعدت إلى ما يشبه العمود المنصوب في ركن الكهف.. وارتخى جسدها تمامًا بينما تقدم رجلان يقيدانها بسلاسل لا أعرف من أين جاءت..

إنها تصيح فيهما بالإنجليزية هذه المرّة:

- «حين أنتهي أنا.. قدموا التضحية!»

ما معنى هذا؟ تبًّا! لقد فهمت؟

☆ ☆ ☆

صرخت في تلك المخبولة وأنا أحاول النهوض:

- «لا تفعلي يا حمقاء. كل هذا وهم.. أنت لن...»

لكن ضحكة الانتصار كانت تشيع على وجهها بينما الرجلان يشعلان النار في كومة من الخشب عند قدميها.. إنها المحرقة كما قالت لي! ستحرق نفسها من أجل (جيلبرت) كجزء من تلك الطقوس.. ربما لأنهّا تلقت وعدًا بأن تكون منه أو له.. لا أعرف.. لا أفهم هذا الهراء..

ألسنة النار تتعالى.. لو لم أكن مخطئًا فقد مرّت هذه المرأة بهذه التجربة الشنيعة عشرات المرّات.. لقد صار الاحتراق هواية محببة لها!

الآن يتقدم الرجال حاملين خناجرهم نحو الضحيتين المقيدتين.. أنا والطفل..

عندما تلفظ هي آخر أنفاسها ستهوى النصال علينا ويمتزج الدمان.. ثمن غال جدًّا كي يتحرر (جيلبرت)..

صرخت بأعلى صوتي:

- «لا تفعلي يا حمقاء! كل التعاويذ التي قلتها خطأ!»

اتسعت عيناها في شك من وراء الدخان المتصاعد..

- «لقد قامت (ماجي) بتزييف تلك الأوراق.. ترجمتها ثم حذفت عبارات وبدلت أخرى.. عرفت هذا وأنا أفتش مكتبها.. إن ما قمت بتلاوته كلام فارغ!!»

صارت عيناها الآن بلون الدم.. وراحت تحاول التملص..

لكن اللهب ارتفع أكثر..

عندها نظرت إلى سقف الكهف وأطلقت عواء كعواء الذئب.. أقسم أنني رأيت وجهها الحقيقي وقتها، ولم يكن يمت لوجهها الذي عرفته بصلة.. سوف يزور كوابيسي إلى الأبد...

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

ثم سكنت صرختها..

لقد ماتت دونما ثمن، والأسوأ أنها عرفت هذا في اللحظة الأخيرة..

وفي اللحظة التالية انقض الرجال - الذين لم يفهموا ما قلت - علينا بمديهم..

وفي اللحظة التالية ارتج الباب الموارب في طرف القاعة..

رباه! إن هذا صحيح...

☆ ☆ ☆

هوى الباب مرة واحدة.. لم أر شيئًا من الدخان..

لكن.. بين الغمام ترى شيئًا من حين لآخر.. ترى الرجل المقيد العملاق.. ترى الأسمال التي يلبسها.. يُمكنك أن تفهم أنه مقيد الذراعين بالسلاسل إلى عارضة خشبية فوق كتفيه..

يُمكنك - بشكل ما - أن تفهم أنه انتزع العارضة التي قيد إليها إنّه يقتحم المكان كأنه (شمشون) يهدم المعبد فوق رءوس أعدائه..

ثم يرتفع الدخان ثانية فلا ترى شيئًا..

لكنك تسمع وربما ترى.. تسمع الرجال - أو المسوخ - إذ يجثون على ركبهم ويرددون شيئًا ما بتلك اللغة الغامضة..

انتهى الأمر.. كانت مناورة وفشلت.. لقد كنت حمقاء يا (ماجي)...

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

لا بد أن معناها (لقد لبينا النداء يا جيلبرت) أو (قد جئنا لنحررك يا جيلبرت) أو شيء من هذا الهراء..

لكن الأمور لا تسير على مايرام..

إن هذا الشيء الذي كان حبيسًا من قرون يتحرك في هياج.. يرفع رأسه لسقف الكهف ويعوي..

يعوى لا كعواء (رونيل) ولكن كعواء الشياطين في سقر، أو ديناصور سقط في بركة قطران فلم يبق إلا رأسه.. ترتج جدران الكهف.. تسقط الهوابط المدببة على جسدي ومن حوله..

(هل ابني سليم؟)..

يرتطم بالجدران الصخرية جحيم من الدخان والغبار.. ثمة زلزال أم هو وقع قدميه الثقيلتين؟

يتلوى.. يصرخ.. يعوي..

يعوي.. يصرخ.. يتلوى..

ثم يتقهقر إلى الوراء.. نحو الباب المفتوح..

وغاب وسط الدخان الأزرق الكثيف من حيث جاء..

وفي ثانية لم يعد الرجال من حولنا عشرات الفئران تجري فارة من الكهف..

بعضها يتسلق الجدران، وبعضها يزحف فوق ساقي وبعضها يسقط من أعلى..

ثم ساد الصمت الرهيب..

☆ ☆ ☆

10 - خاتمة..

كم من الوقت فقدت رشدي؟

لا أحد يستطيع الحكم على هذه الأشياء..

فقط فتحت عيني لأرى ظلام الكهف من حولي.. لقد ماتت المشاعل جميعًا...

ظلام دامس يجثم على روحي.. وصمت مطبق رهيب..

- «(سمير).. هل أنت بخير؟»

لا رد..

- «(سمير).. هل أنت بخير؟»

لا رد..

كنت أعرف الإجابة.. هذه الهوابط المدببة التي سقطت من أعلى لعبت دور ألف مدية تسقط فوقك في آن واحد أنا نجوت ببساطة لأنني أنجو دائمًا من هذه الأشياء.. لطالما تصورت نفسي وقد كونت أسرة أقود سيارتي على الطريق السريع.. ينفجر الإطار الأمامي.. تنقلب في الترعة.. عندها من ينجو؟ من يخرج من الماء بلا خدش؟ إنِّه أنا طبعًا.. بينما لا يبقى أحد حيًّا من أعزائي.. كان هذا الكابوس يؤرقني.. مشكلتي أنني أظل حيًّا بعد من أحب..

فقدت (سمير) ولا أدري من أفقد بعد هذا..

ورحت أنشج بصوت عالٍ في الظلام..

أنشج وأنا ما زلت في وضع النسر المحلق.. لا سبيل للخلاص لأن هؤلاء القوم يستعملون السلاسل..

سأكون أسطورة أخرى يتناقلها البحارة وهم يدخنون غلاييهم ليلًا حول النار.. العجوز الذي يبكي ليلًا في كهف في (الجزيرة).. لقد سمعه كثيرون.. وصوت بكائه يجمد الدم في العروق.. لا تقربوا الجزيرة ففيها ساحر حبيس وعجوز يبكي وساحرة متفحمة.. و...

من أين يأتي هذا الضوء؟

هذا كشاف وأقسم على هذا..

صوت أنثى.. أنثى.. و....

إنني أعرفه.. وأعرفها..

(ماجي)!!

☆ ☆ ☆

كانت تحاول فك السلاسل في هستيريا وهي تنشج وتردد:

- «يا صغيري.. ماذا فعلوا بك؟ ماذا فعلوا بك؟»

قلت لها وأنا متأكد من أنها غير موجودة.. هذه هلاوس ما قبل الموت:

- «لم يفعلوا.. كانوا سيحققون نجاحًا عظيمًا.. لولا...»

ثم نظرت ليديها فلم أجد كشافًا.. من أين يأتي الضوء إذن؟

(أين ذهب سمير.. لقد كان على بعد متر مني؟)

هنا سمعت صوتًا غليظًا وقحًا يقول في الظلام:

- «إنها سلاسل قذرة.. هؤلاء الأوغاد كانوا يجيدون صنع الصلب.. لكني سأجد حلًا..»

هذه اللهجة الأسكتلندية القحة والطريقة المقتحمة الفظة..

ورأيت على ضوء الكشاف الذي يحمله وجه (إيوان فريزر).. الصياد الفظ الذي اشترك معي في محاولة اصطياد (لوخ نس).. والذي كاد يسلبني (ماجي)..

قلت له باسمًا:

- «لو كان وجهك هو آخر وجه أراه في هلاوس الموت، فأنا في ورطة!»

قال وهو يلوك لفافة تبغ:

- «لست خيرًا إلى هذا الحد أيها الصبي العجوز.. فقط الأخيار يموتون بسهولة.. أنت حي وإن كنت أشك في ذلك من مظهرك..»

ثم نظر إلى أعلى وسأل (ماجي):

- «هذه الأشياء القذرة المتدلية من أعلى.. هل هناك المزيد منها؟؟ لا أريد أن تمزق أحشاءه الآن..»

- «لقد سقط أكثرها..»

- «إذن.. أفضل الحلول هو أعنفها!»

دوّت طلقتان في فراغ الكهف.. حتى شعرت كأنما أطلقهما على أذني.. الصفير يتردد بإلحاح مريع.. وتساقط المزيد من الغبار من السقف..

لكن يديَّ تحررتا وإن ظل السوار متمسكًا بكل معصم قلت له في غيظ:

- «كان بوسعك أن تنذرني أيها الحيوان أنك ستطلق الرصاص.. ومن هذه المسافة؟!»

هنا دوّت طلقتان أخريتان! لقد نسيت إن قدمي مربوطتان بدورهما!

نهضت مترنحًا والغبار يتساقط من جسدي.. ورفعت رأسي لأجد أنني أحدق في أبشع وجه صارخ رأيته في حياتي.. جثة محترقة مربوطة بالسلاسل ولم يبق منها شيء تقريبًا..

قلت بصوت كالفحيح وأنا أتراجع للوراء:

- «هذه (إليانور).. أو ما تبقى منها..»

قالت (ماجي) بلهجة ذات معنى:

- «فهمت هذا على الفور.. إنها (رونيل) السوداء الآن..»

- «ولكن أين (سمير)؟ أين ابني؟»

وضعت (ماجي) يدها على يدي وقالت مواسية:

- «لن تجده يا (رفعت).. لقد أخذوه معهم.. على الأقل لم يقتلوه أمامك وأنت مكبل بالأصفاد.. تذكر أنت لا تعرف كيف جاء للعالم.. إنّه ابنها.. فيه منها أكثر مما فيه منك، وقد أنجبته لغرض واحد.. يجب أن تنساه..»

ونظر (فريزر) إلى الباب الموارب في ركن المكان، وقال وهو يلوك لفافة تبغه:

- «أرى أن نرحل الآن قبل أن يجد جديد.. هذا الكهف يشبه بيت الأشباح في الملاهي.. ويعج بالمفاجآت..»

☆ ☆ ☆

- «داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت!!»

☆ ☆ ☆

كنا جالسين في تلك الكافتيريا في مدينة (روشتوك) نرمق بحر البلطيق الذي لم يهدأ ساعة واحدة منذ البارحة.. أمامي و(ماجي) قدحا قهوة، بينما (فريزر) يشرب (الشنابس) ليبرهن على أنه فظ خشن..

قالت لي (ماجي) مواصلة القصة التي بدأتها من ساعة:

- «.. وعرفت أن الفئران ليست بفئران.. بل هي تلقنها دروسها الأولى في عالم السحر.. إنها (رونيل) لكنّها لا تملك ذاكرة (رونيل) هناك أشياء لا تعرفها أو تحتاج لاسترجاعها.. هكذا عكفت على دراسة الأوراق التي كانت في حوزة الكاتبة وعرفت منها الكثير عن الساحر (جيلبرت).. عن هذه الجزيرة.. عن التعويذة التي ستحرره..

«في هذا الوقت كنت أرى (إليانور) الصغيرة وهي تكبر بطريقة أثارت هلعي.. لاحظت أن الملاءة لم تعد تغطى جسدها.. أحذيتها تضيق بسرعة.. وبدأت أدرك أن الأمر لا يتعلق بالفصام.. بل هو أخطر من هذا.. إن الوقت يضيق..

«هكذا اتخذت قراري بالذهاب إلى ألمانيا.. وحدي.. ما كنت لأصطحب الفتاة معي في رحلة كهذه.. لم يعرف بالقرار قبلها إلا (جراهام).. (جراهام) الوفي الذي أوصيته بألا يندهش ولا ينفعل ولا يترك القصر مهما حدث ومهما رأى.. كما أوصيته بأن يتجاهل الهاتف تمامًا حتى لا يسأله أحد عن سبب رحيلي.. إن الطفلة مسئوليته بالكامل وأخذت معي من الأوراق.. لكني أولًا وقبل أن أرحل قمت بعملين كما تعرف: أولًا قمت بعمل تزوير دقيق لتلك التعاويذ القديمة.. بدلت كلمة من هنا وهناك وغيرت فقرات.. كل هذا بدقة متناهية مستعينة بالمجهر أحيانًا.. وكان تقديري أنّ هذا احتياط مهم لو صح توقعي، ولم تكن (رونيل) تحفظ التعاويذ كما يجب.. سوف تفتش عن الأوراق في مكتبي وسوف تجدها..»

قلت لها وأنا أرشف القهوة:

- «هذا أقسى مقلب شربته في حياتها..»

أردفت (ماجي) دون أن تبتسم:

- «العمل الثاني هو أني شرحت تزويرى للأوراق في تلك الرسالة التي تركتها لك خلف إطار الصورة على مكتبي.. كان تقديري أنك أذكى من أن تعتبر الصورة مجرد لمسة رومانسية بلهاء..»

قلت مرددًا كلمات رسالتها والتي لم أنسها قط:

- «الأعز (رفعت).. لو حدث وجئت هنا فاحرص على ألا تمس الأوراق على المكتب.. لقد قمت بتزوير الوثائق القوطية القديمة.. وأريد أن تجدها (رونيل) كن حذرًا.. (ماجي)»

- «وبعد هذا طلبت عون (إيوان فريزر)..»

ابتسم الرجل في ثقة وبصق على الأرض ليبين كم هو محترف.. فأردفت:

- «لم أكن لأستطيع الوصول إلى هذه الجزيرة وحدي.. ما كنت لأقدر على عمل أي شيء من دونه وهو الرجل شديد المراس الذي يعرف كيف يحقق ما يريد.. وكانت فكرتي هي أن نتمكن من تدمير الساحر قبل أن تحاول (رونيل) تحريره.. وطبعًا كنا على الجزيرة في تلك الليلة حين رأينا حشدًا من ثلاثة أنت منهم، ينزلون على الشاطئ.. قررنا أن ننتظر ونرى.. عرفنا أنّ هناك عددًا من الرجال لا يعلم إلا الله كيف جاءوا.. ما كنا لنقدر على مواجهة هؤلاء جميعًا..»

قال (فريزر) كاشفًا عن أسنانه الملوثة بالطباق:

- «اللعبة الطريفة هنا هي أن (ماجي) قد بدلت التعويذة بما يناسب الغرض الجديد.. إن ما قالته (رونيل) - دون أن تدري ما تقول - كان استدعاء لقوة (كاتيوم).. لقبضته.. التي بدأت تتراخي.. إنها تنذره من محاولة (جيلبرت) الهرب.. وهكذا تحرر (جيلبرت) جزئيًا فقط ليعود إلى سجنه من جديد...»

ثم فتش في علبة التبغ التي يحملها فوجدها فارغة:

- «اللعنة! إن علب التبغ هنا من أردأ الأنواع.. لن تجد أسوأ من هذا في أقذر جحر في (غينيا).. لكني مضطر..»

ونهض مبتعدًا..

قلت لـ (ماجي) وأنا أراقبه وهو يمشي مشيته المعتادة، في تحد وعدوانية كأنه خرتيت يطلب القتال:

- «ألم تجدي خيرًا من هذا الحيوان ليساعدك؟»

قالت في خبث:

- «نعم.. لم أجد.. هناك رجال يصلحون للحوار الهادئ حول كتاب، ورجال يصلحون لاقتحام الكهوف التي يمارس فيها السحرة طقوسهم.. إن (إيوان) كريم النفس إذ قبل أن يساعدني في عمل كهذا بداعي الصداقة.. بداعي قصة مشتركة لم يعد لها وجود الآن.. ثم إنك لا تملك ترف الغيرة.. لقد تزوجت وأنجبت خلال شهرين من غيابي..»

قلت وأنا أتأمل القدح فارغًا:

- «وصرت أرمل وفقدت ابني.. كل هذا في شهرين..»

ربتت على يدي وقالت:

- «وأنا فقدت الطفلة التي كنت أهيم بها حبًّا.. هي لم تتزوجك لجمال منظرك.. كانت تريد أحمق يعطيها طفلًا والهدف هو أن يسيل دم الأب والابن على المذبح.. وابنك لم يكن ابنك لكنه ابنها لو كنت تفهم ما أعنيه.. أنت كنت في غيبوبة غارقًا في رحيق الحب، ولست مسئولًا عن أي من قراراتك.. ولو كنت مكانك لحذفت هذا الجزء نهائيًا من سجل ذكرياتي.. أنت لم تتزوج ولم ترزق بطفل..»

قلت في شرود:

- «ترى أين هو الآن وماذا يفعل؟»

- «لن تجد إجابة.. ربما رحل مع هؤلاء القوم الفئران وربما هو سجين مع (جيلبرت).. لن تعرف أبدًا.. فقط تذكر هو ليس ابنك لمجرد أنه يحمل نصف عدد كروموزوماتك.. إنّه ابنها هي.. بالكامل..»

- «وهل يتحرر (جيلبرت) يومًا ما؟»

- «لا أعرف.. لكن هذا لن يحدث في حياتنا على الأرجح..»

- «وهل تعود (رونيل)؟»

- «لا أعرف.. لكنّها للمرة الأولى قد خدعت بحق.. ولم تكن لها الضحكة الأخيرة.. أعتقد أنها لن تعود أبدًا..»

وساد صمت طويل، وتمنينا معًا ألا نراها مرّة أخرى في أية صورة كانت...

☆ ☆ ☆

الآن أعود إلى مصر..

تفهمون الآن أنني أكذب عليكم حين قلت إنني لم أتزوج ولم أنجب.. لا أعتبر نفسي قد فعلت.. (رونيل) هي التي فعلت..

هذه الأيام العابرة القاسية قد انقضت سريعًا، ولم تترك أثرًا في حياتي.. ولا أعتقد أنه سيكون لها أثر..

إلا أن حياتي ذاتها لم تتبدل كثيرًا..

كان المتحف الأسود ينتظرني.. وتذكرة زيارته باهظة الثمن قد تعني الحياة نفسها..

ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت اسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٤

الفهرس

مقـــدمة

1 - المشكلة تنتظر..

2 - مشاكل تربوية..

3 - أن تكون هناك..

4 - فيم تفكر يا بروفسور؟

5 - السيدة تظهر..

6 - اجتماعيات..

7 - المزيد من الاجتماعيات...

8 - دي إنزيل..

9 - السجين يتحرر..

10 - خاتمة..

Notes

[1←]
لـ (فرويد) تلميذان عظيما الشأن اختلفا معه كثيرًا، هما (يانج) و(أدلر).. الأول أعلى من شأن الوجدان الجمعي وحقيقة أننا نحمل تراث أجدادنا في أذهاننا، والثاني أعلى من شأن مركب النقص، وأن كل حياتنا محاولة للانتصار على مركبات نقص نشعر أنها فينا..

[2←]
في هذا الوقت طبعًا لم تكن هناك كاميرات فيديو متاحة للجمهور..

[3←]
أسطورة حقيقيّة

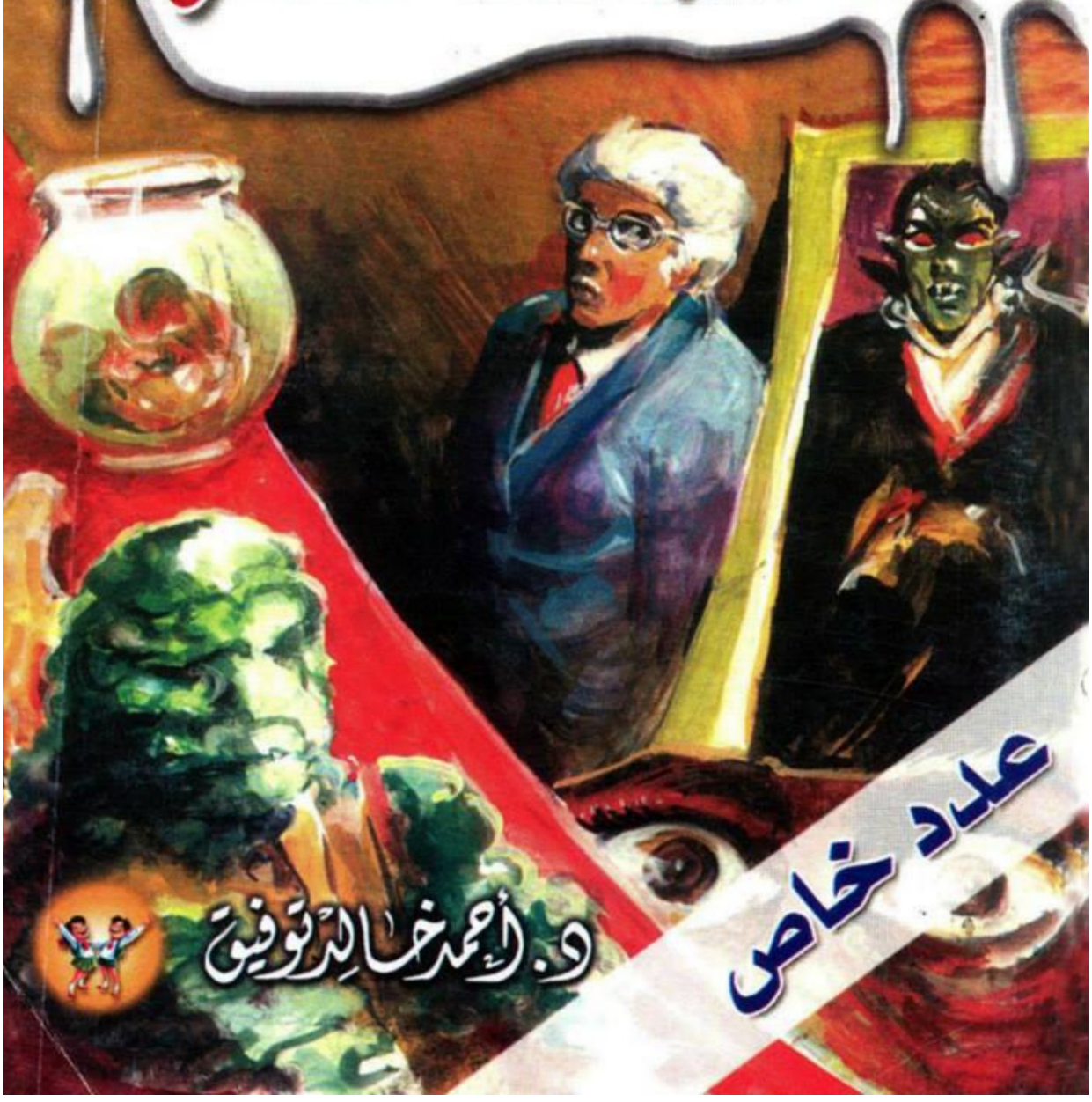
روايات مصرية للجيب

مكتبة النجمة

60

المُتحف الأسود

ما وراء الطبيعة



عدد خاص

د. أحمد خالد توفيق

مكتبة

Telegram Network

2021

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



مقدمة المقدمة

لمن لم يلحظوا أنّ هذه حلقة رعب.. أقولها بصراحة ووضوح وصدق: هذه حلقة رعب..

ولمن يتساءلون عن معنى (المتحف الأسود) أقول بصراحة ووضوح وصدق: هناك متحف في هذه القصة.. ويبدو أنه أسود..

ولمن لا يعرفون أنني (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المسن، أؤكد هذا بلا تردد..

قدمت لكم عددًا من حلقات الرعب من قبل.. ذات مرة جلسنا في الإسكندرية عاجزين عن العودة إلى القاهرة، وراح كل منا يحكي عن خبراته مع طراز معين من الرعب.. في مرة جربنا طالعنا مع أوراق التاروت، وكانت نبوءاته كلها مما تتقلص له الأحشاء.. في حلقة رعب أخرى قمت بإذاعة بضع حلقات من برنامج (بعد منتصف الليل) الذي يحكى فيه المستمعون عن خبراتهم المخيفة.. ثمة حلقة تحدث فيها كل منا عن خبرته مع باب مغلق يكمن وراءه ما يخيف.. وآخر حلقاتنا كانت مع جانب النجوم، حيث تنتظر المسوخ كي تحكم علينا.. أينا الأكثر شرًا..

إنه ذلك الأسلوب الذي أحكي فيه قصصًا قصيرة كحبات في عقد قصة أكبر تربط بينها جميعًا.. ولعل أقدم المحاولات في هذا الصدد كانت (ألف ليلة وليلة) وقصص (الديكاميرون Decamerone) للإيطالي (بوكاتشيو Boccaccio).. وفيما بعد اكتسب هذا النوع من القصص - كالعادة - مصطلحا مرعبًا هو (بورتامنتو Portamento)، وهو مصطلح موسيقي أصلًا.. هناك شركة بريطانية اسمها (أميكوس) تخصصت في هذا الطراز من أفلام الرعب.. و....

لماذا أقول هذا الكلام الفارغ؟

لا أدري.. يبدو أنني لن أتخلص من هذه العادة الذميمة: أن أذكر ما أعرفه حين توجد مناسبة لذلك..

على كل حال هذه هي حلقة (البورتامنتو) الـ.. معذرة.. حلقة الرعب السادسة..

ماذا جرى فيها؟ من كان ضيوفها؟

أحسب أن الأمر صار واضحًا الآن.. فما دام هناك متحف أسود فالقصة لا تحتاج إلى شرح أكثر..

هل جاء الجميع؟

جميل.. جميل.. لقد ازداد عددكم ثلاثة أو أربعة، لكن هناك وجهًا أفتقده.. أين هو؟ آه! ها هو ذا.. أفسحوا له من فضلكم.. إنّه صغير الحجم ولن يسمع أو يرى شيئًا وسط هؤلاء العمالقة الجالسين في الصف الأول..

وأنت كم سنك يا بني؟ عشرة أعوام؟ لا أعرف إن كان ماسأقصه الآن مما يناسبك.. ستقول لي إنّه كذلك ولسوف تضحك ملء شدقيك.. وبعد انتهاء القصة ستعلن في فخر أنها غير قادرة على إخافة قط صغير.. أعرف هذا.. أصدقه.. لكنك ستعود لدارك وتخلو بنفسك.. عندها تفكر: مضحك هذا العجوز.. ولكن كم يكون مخيفًا لو حدث بالفعل أن..

ثم تفكر قليلًا.. تقرر أن تبقى إضاءة الغرفة فترة أطول قبل النوم.. إن القط الصغير لا يملك خيالًا.. أمّا أنت فتملك.. أنا لا أتحدث عنك بالذات.. لم أقصد أن أهينك.. فقط قلت إنني أفترض..

حسن؟ تريد البقاء؟ ليكن..

والآن نبدأ حلقة الرعب السادسة، فأصغوا إليَّ..

☆ ☆ ☆

مقدمة

إنّه الخريف أخيرًا..

أنا أعشق هذا الفصل بحق، وأعتبره أجمل فصول السنة في مصر.. لو أنصف (فريد الأطرش) لغنى: «وآدي الخريف عاد من تاني».. احتفظ أنت بربيعك بعواصف خماسينه، والرمد الحبيبي الذي يحرق عينيك، وجو الامتحانات المخيف الذي لا يعنيني في شيء. لكنه يسمم الجو بما يكفي بحيث تتقلص أمعاؤك كلما فتحت الشرفة؛ لترى ذلك الطالب يقف بالفانلة الداخلية في الشرفة، ممسكًا بكتاب عملاق وهو يحك رأسه محاولًا إيصال بعض الدم إلى مخه المكدود انظر لليمين لترى جارتك الشابة تجلس على الأرض في الشرفة، منكوشة الشعر مثل (ميدوسا) وهي لا تنفك تحملق في الأفق محاولة تذكر مساحة (كورستاريكا).. أضف لهذا أغنية (شادية) «الشمس بانت من بعيد».. خارجة من المذياع ليكتمل الجو الجدير بأفلام الرعب..

لا من فضلك.. إن عندي ألف سبب لأكره الربيع.. أمّا عن الصيف فلا تعليق.. الشتاء يمكن أن يكون محببًا لو لم تكن تمطر طينًا في كثير من الأحيان، ولو كانت عظامي تتحمله..

إنه الخريف.. الفصل العذب الراقي الذي لا يلبس (المايوه) ولا يعطس في وجهك، ولا يتنهد وهو يقطف الورد من المرج..

كنت جالسًا في الشرفة بعد الفجر بقليل أتحسس لذعة برد محببة، وأرشف الشاي، وأتسلى بقراءة خطاباتي..

تلك المجموعة المعتادة من الخطابات التي تهددني بخراب بيتي، أو تلومني على شيء لا أذكر أنني فعلته، أو تطلب أشياء يستحيل أن أفي بها.. ثمّة خطاب من (ماجي) أبقيته إلى النهاية طبعًا.. ثمّة خطاب من ابن خالي في (المنصورة).. خطاب من شخص يهددني بأن يفضحني لأن عنده الوثائق كلها.. طبعًا لا أعرف حرفًا عن الموضوع، ومن حقه أن يفضحني لكنني أرجو أولًا أن يشبع فضولي..

ثم كان الخطاب..

كان مقتضبًا إلى حد كبير، لكنه أثار اهتمامي.. وكان مكتوبًا بالعربية بخط أنيق نضيد يذكرك بالأسنان في إعلانات معجون الأسنان.. يقول:

عزيزي د. إسماعيل:

«أعرف أنك رأيت الكثير.. ومازال أمامك الكثير لتراه.. يقولون إن المال يجلب المال.. وأنا أعتقد أن الرعب يجلب الرعب كذلك.. ما أطلبه هو زيارة منك لداري المتواضعة للقاء.. ولسوف تشرح الأمور نفسها، لأني أمقت المقدمات..»

وفي نهاية الخطاب كان هناك اسم (مازن أبو يوسف) مطبوعًا وليس بخط اليد وتحته توقيع أنيق يصلح شعارًا لأسرة من نبلاء القرون الوسطى.. وكان هناك رقم هاتف يبدو أنه من الإسكندرية..

طبعًا لا يحمل الخطاب أي وعد ولا يقول أية تفاصيل هذا بالضبط هو المثير فيه.. أذكر منذ سنوات أن أمريكيًا نشر في الصحف كلها يقول: «إنها فرصتك الأخيرة.. أرسل دولارًا إلى العنوان التالي..»

هذا الإعلان لم يتضمن أي وعد من أي نوع، لهذا أرسل كل الناس تقريبًا دولاراتهم إلى العنوان المذكور، فلابد أنّ هذا العبقري الخبير بعلم النفس قد صار مليونيرًا!

هكذا وضعت الخطابات جانبًا.. وانتظرت حتى يأتي وقت مناسب للاتصال.. أعتقد أنه العاشرة صباحًا.. وطلبت الرقم المذكور..

جاءني صوت (مازن) وقورًا هادئًا يتساءل عمن هنالك، فأخبرته.. قال في سرور حقيقي:

- «سعيد باستجابتك هذه..»

- «أنا أحب الأشخاص الذين لا يعدون بشيء..»

- «وأنا أحب الأشخاص الذين لا ينتظرون وعدًا..»

- «فقط أطلب وعدًا بأن الموضوع ليس تافهًا.. أنت تفهم هذه الأمور..»

- «أعدك بأن الموضوع ليس تافهًا..»

- «هناك من يطلبون مني أن أذهب إليهم للأهمية، ثم يتضح أنهم يريدون معرفة رأيي في دواء الإمساك الذي يأخذونه على الريق، أو حيرتهم في الاختيار ما بين ابنة خالتهم الجميلة لكنّها بلهاء قليلًا.. وزميلة الدراسة المتزنة لكنّها قبيحة كالأبالسة..»

ضحك طويلًا ثم قال:

- «لا شيء من هذا. اطمئن.. أنا لا أعاني الإمساك وأكبر سنًا من العواطف..»

كان التفاهم ممتازًا كما ترى، وهكذا حصلت منه على عنوان داره.. إنها في الإسكندرية كما قلت لك، لكني لن أذكر تفاصيل أكثر من فضلك.. لا داعي لأن أقول كذلك إن اسم الرجل وهمي..

اتفقنا على يوم الخميس في السادسة مساء، وهكذا عادت حياتي لانتظامها..

لماذا قبلت؟ لا أعرف كالعادة.. هناك هذا الخليط من الفضول والشعور بالوحدة والرغبة في جمع الخبرات الجديدة كدأبي.. دعك من حدسي الخاص الذي قال لي إن هذا الرجل ليس أحمق..

أما السبب الأكبر والأهم فهو أنني لم أر الإسكندرية منذ فترة، وأنا مُغرَم بالإسكندرية في الخريف والشتاء كما تعرفون..

☆ ☆ ☆

في السادسة مساء دققت الجرس..

هل وصفت لكم المكان؟ لا؟ حسن.. الأمر هو البساطة ذاتها.. فيلا أنيقة من طابقين. لها طابع فيلات الستينات الذي لا تخطئه العين، ومن الواضح أنها حديثة البناء.. ذوقها راق بلا شك.. وذلك الحرص الموسوس على استخدام اللون الأبيض في كل شيء.. إنها تذكرني بفيلا الدكتور (سامي) إلى حدٍ ما مع فارق هائل في الثراء طبعًا.. إن د. (سامي) يربح الكثير كما هو واضح..

يجب أن أذكر هنا أنه لا يوجد بواب ولا حراسة.. أنت تدخل بحريتك كأي لص عبر البوابة المفتوحة، لأنّه لا أحد يجيب على الجرس.. تمشي في ممر طويل مرصوف بحجر الإسكافي بين أنواع من الأزهار يؤسفني أنني لا أعرف ما هي.. إن الأزهار بالنسبة لي حمراء وصفراء وبيضاء.. برائحة أو بلا رائحة.. لابد أن لها اسمًا مثل (الدالكونيا) أو شيء من هذا القبيل..

وفجأة رأيته أمامي..

أسود اللون.. يتطاير الشرر من عينيه.. يكشر عن أنيابه بينما انتصبت شعيراته كلها.. وهو يقف تلك الوقفة التي تباعد بين السيقان قليلًا ليكسب مساحة ارتكاز أكبر كما يفعل أي لاعب (جيدو) محترف قبل المواجهة..

لا يهز ذيله القصير.. ذيله؟ طبعًا.. إنني أتكلم عن كلب طبعًا.. حسبت هذا واضحًا..

كلب (دوبرمان) شرس المظهر يذكرك برجال العصابات.. يقف في الممر منذرًا بالويل.. عندما تكف الكلاب عن هزّ ذيولها وتصدر ذلك الزئير المكتوم، تكون لحظة المواجهة قريبة جدًّا..

تصلبت حيث أنا وقلت له وأنا أتراجع خطوة للوراء حتى انغرست قدمي في حوض (الدالكونيا):

- «اهدأ يا أحمق.. أنا لست عدوًا.. اهدأ..»

ونظرت للأرض كي لا أستفزه.. لكنه واصل التحرش.. لا مفر من هنا وعليَّ أن أتصرف..

دنا مني قليلًا، فتذكرت القاعدة القديمة: من يستطع مداعبة ما تحت ذقن الكلب يكسب وده. لكن لا تربت على رأسه أبدًا لأنّه يفترض أنك ستضربه..

هكذا مددت كفي كأنني متسول نحو رأسه محاولًا أن أنزل بها تحت ذلك الفم المخيف..

- «صبرًا.. صبرًا.. كلب لطيف..»

أين ذهب هؤلاء الحمقى؟

كدت أقترب أكثر حين دوى الصوت من مكان ما:

- «لا تحاول... لا تصدق كلام الكتب!»

نظرت إلى مصدر الصوت فرأيته.. وكان قادمًا بسرعة وحزم نحو الكلب.. وهو يقول:

- «دعه يا (نوسفيراتو).. إنّه صديق..»

(نوسفيراتو Nosferatu)؟ ماشاء الله! إنّه اسم مناسب جدًّا، لكنه يحمل نذيرًا ما.. لا أحد يُسمّي كلبه (نوسفيراتو) ما لم يكن هو الكونت (دراكيولا) نفسه..

تصلب الأخ (نوسفيراتو) وهو ينظر لصاحبه مترددًا نظرة البلطجي الذي يقول: دعني ألتهم حنجرته هذه المرّة فحسب.. سأكون كلبًا مطيعًا في المرّة القادمة..

ثم قرر أن يستسلم وبدأ يهز ذيله، على حين تقدم السيد (مازن) ليربت على عنقه، وأطبق أصابعه على الطوق.. على حين رحت أحرر قدمي من حوض أزهار (الدالكونيا).. وقال لي وهو يحك عنق الكلب بعنف:

- «معذرة لهذا الاستقبال البارد.. لكن لا تثق كثيرًا بموضوع التربيت تحت الذقن مع كلاب الدوبرمان.. أحيانًا تدعي هذه الكلاب أنك لم تفعل..»

قلت في ضيق:

- «كان عليك أن تربطه بعناية.. إن مواعيدي دقيقة.. ولو لم تشعر بنا لوجدت بضع عظام وكلبًا مصابًا بعسر الهضم..»

- «فلننس ما فات.. ما دام لم يؤذك..»

- «بالمناسبة.. أنت تجيد زراعة (الدالكونيا)..»

- «زراعة ماذا؟»

- «لا عليك.. لا عليك..»

وأشار لي في تهذيب، فتقدمت عبر الممر إلى باب الدار نفسها..

☆ ☆ ☆

طبعًا كنت مشغولًا بالكلب فلم أصفه لك - الرجل لا الكلب طبعًا - وهذه مهمّة سهلة.. كان ضئيل الحجم دقيقًا إلى حد لن تصدقه ما لم تره.. وهو من الطراز الذي تندهش كيف يصدر منه هذا الصوت العميق الضخم.. له شعر أبيض تمامًا مما يوحي بأن هذا ليس شيبًا عاديًا إنما هو أمر يتعلق بالجينات.. له شيء مبهم أبيض على شفته العليا، فلا تستطيع أن تتذكر إن كان بشارب أم لا.. عوينات؟ لا.. إنّه ينزعها ويضعها عشر مرات في الدقيقة فلا يمكن أن تصفه بامتلاكها.. أما عن السن فهو من الطراز مشدود الجلد الذي لا يشيخ بسهولة لذا يصعب التكهن بسنه، لكن لو تذكرنا كلامه عن العواطف فلا أستبعد أنه تجاوز الخمسين.. أضف لهذا عشر سنوات لأنني أحمق كالعادة، فلابد أنه في الستين إذن..

كان يلبس الروب القصير اللامع وتحته ربطة العنق، حتى ليذكرك بالأوغاد في السينما المصرية.. أعني من يمثلون أدوار الأوغاد طبعًا.. الذين يقشرون التفاح ويصبون الشامبانيا ويخدعون الفتيات البريئات طيلة اليوم..

البيت راق جدًّا وجدير بمظهره الخارجي.. لا أعرف كيف أصفه لك لأنّه من الطراز المبهر الذي ينسيك التفاصيل.. على كل حال نحن لم نأت لشرائه.. لا داعي لإطالة الوصف..

فتح جهاز تسجيل ما لتنبعث أوبرا (مدام باترفلاي).. ثم استرخى على أريكة مريحة واضعًا ساقًا على ساق، ومد يده إلى علبة سيجار فقضم طرف واحد، وعرض عليّ واحدًا.. لكن صحتي لم تعد تتحمل هذه الطوربيدات..

قال وهو ينفث السحابة كثيفة في الغرفة:

- «خذ راحتك.. أنا وحدي هنا..»

- «هل توفيت زوجتك؟»

ضحك حتى غلبه السعال.. وقال:

- «ليس بالضرورة. ثمّة احتمال أن أكون مطلقًا.. ثمّة احتمال ثالث أن أكون عزبًا.. هل لك في بعض المياه الغازية؟»

- «سيكون هذا محببًا..»

لكنه لم ينهض.. هذا رجل يتقيد بحرفية الكلمات كأنه كان يسأل للعلم فقط وليس للاقتراح.. دار بعدها الحديث في كلام فارغ، وما أكثر الكلام الفارغ في هذا العالم.. ربما نصف ساعة أو أكثر..

ثم إنّه استرخي في مقعده أكثر، وقال لي وهو يعيد إشعال السيجار:

- «على أنني لم أطلبك لأجل ذلك.. القصة يطول شرحها.. أنت طبعًا واسع العلم بعالم ما وراء الطبيعة يا دكتور (رفعت)..»

قلت باسمًا:

- «سأكون صريحًا معك يا سيدي.. لا أحد يستطيع أن يزعم ذلك.. وأعتقد أنني أزداد جهلا بهذه الأمور يومًا بعد يوم.. لقد فقدت غرور الشباب التقليدي، واكتسبت كآبة الشيوخ وعلمهم بحدود إمكاناتهم..»

- «إذن لنقل إنك شديد الاهتمام بذلك العالم..»

- «ولا حتى هذه النقطة.. فقط تصادف أنني دائمًا الشخص الخطأ في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.. وكنت دائمًا أنجو لأن أجلي لم يحن بعد وليس لبراعة خاصة مني..»

كنت أعرف خيبة الأمل التي تسببها كلماتي هذه لمن يسمعها.. لكن الرجل لم يبد متأثرًا بما سمع.. إما انه يعتبرني كاذبًا أو أنّ هذا لا يحدث فارقًا..

قلت له:

- «كنت أتمنى لو بدأنا الكلام فورًا.. أنا لم آت إلى الإسكندرية لأشرح وجهة نظري في الحياة.. كما أنني اخترت السادسة كي لا أعود في ساعة متأخرة.. إن القيادة مرهقة فعلًا..»

- «معك حق..»

كانت مدام (باترفلاي) لا تكف عن الصراخ، حين راح يتأمل طرف السيجار المشتعل، ثم قال بتؤدة:

- «قضيت حياتي أطارد أسرار ما وراء الطبيعة.. أنت تورطت فيها بالصدفة أو بحكم الشهرة، أمّا أنا فكنت أبحث عنها بحثًا.. جربت كل شيء.. والسبب هو أني كنت أقوم بتدريس الفلسفة فيما سبق..»

قلت بلهجة من وجد الخلاص:

- «فهمت.. يا**آآه!** علاقة قوية فعلًا..»

ابتسم.. هذا الرجل يفهم الدعابة فعلًا.. وقال:

- «أنت تسخر مني، لكني بالفعل حسبت أن السبيل الأمثل لفهم الكون هو فهم ما وراء الكون.. من نحن وماذا نفعل هنا؟ إن الفلسفة تحاول فهم الجدار.. وأنا حاولت أن أنظر إلى ما وراء الجدار.. يجب أن أقول هنا إنني لم أفهم الكثير، فالإجابات عملة نادرة، لكن أكثر ما اصطدمت به هو الرعب.. إن الأشياء الغامضة مخيفة يا د. (رفعت).. مخيفة ولا أفهم لذلك سببًا..»

في هذا كان أحمق.. نحن نخاف ما لا نعرفه.. كل حمار جر يعرف هذا.. انظر إلى عيني طفل في الخامسة تطلب منه أن يصافح (عمو).. (عمو) الذي يراه الآن للمرة الأولى.. انظر إلى بدائي من صحاري أستراليا يرى التلفزيون لأول مرة.. راقب عيني طالبة يستوقفها غريب في الشارع ليسألها عن شيء ما.. سوف ترى دومًا تلك النظرة.. نظرة الأرنب الخائف الذي يفر ليختبئ منك وقد رآك قادمًا..

قلت له بنفس التهكم السابق:

- «هكذا رحت تبحث عن عملتك النادرة بين تراب الرعب..»

- «حاولت واتسخت أناملي كثيرًا.. لكني لم أفهم أفضل وسؤالي لك بعد كل خبراتك هذه.. هل فهمت أفضل؟»

قلت له في غيظ:

- «ألم أنذرك من أن تأتي بي إلى الإسكندرية للكلام عن خواطرك الخاصّة؟»

لم يولِ كلامي اهتمامًا وقال في جديّة:

- «أنا لم أفهم الكثير عن عالم ما وراء الطبيعة.. لكني فهمت الكثير عن فلسفة الرعب.. ولو قررت أن أكتب في الرعب لصرت أبرع من (بو Poe) ذاته.. إن للرعب ست ثيمات أساسية في رأيي المتواضع.. يمكن القول إن لحصن أمنك النفسي ستة أبواب.. يمكن أن تُداهم من أحدها في أية لحظة.. ولو اتخذت عدتك لهذا الاقتحام لصرت في أمان..»

- «سيكون أمنى النفسي في خير حال لو تكرمت بالدخول في الموضوع..»

ضحك من جديد.. هذا الرجل يضحك بلا انقطاع كالضباع.. وقال وهو ينهض:

- «إنني أكتب كتابًا عن (سيكولوجية الرعب).. وهذا الكتاب ليس بالكتاب الهين.. إنّه كتاب عمر كامل.. لسوف يتخذ مكانه على رفوف أية مكتبة محترمة مثله مثل (الوجود والعدم) و(تفسير الأحلام) و(عن حركة القلب).. إلخ.. لاحظ أنني لا أتحدث عن الكتب الدينية هنا طبعًا.. لكني لن أعتبر أنني بلغت الكمال إلا لو أخذت رأي خبير رعب مثلك..»

ثم أشار لي باتجاه الدرج وأردف:

- «لو تكرمت معي بالذهاب إلى الطابق الثاني لفهمت بعض ما أريد منك..»

نهضت بصعوبة ومشيت معه..

إنه يتجه إلى درج خشبي أنيق يصعد فيه.. ومن موضعي العالي هذا اختلست نظرة فهمت بها جغرافية المكان وإحداثياته.. هذه فيلا كأية فيلا أخرى، وإن لم يكن صاحبها ثريًا جدًّا.. ذوقه راق بحق، لكنه ليس مفرطًا في البذخ..

هناك ممر.. والممر يقود إلى قاعة واسعة في نهايته..

ابتسم وقال لي وهو يعالج الباب:

- «هذا مكتبي.. سوف تحب المكان..»

بالفعل كان في الداخل مكتبة.. لكني لم أحب المكان.. غرفة مكتب واسعة هي، تزدان جدرانها بالكتب من الأرض إلى السقف كل الكتب مجلدة بعناية دون كتابة على كعوبها.. لكنّها مراجع ثقيلة.. يمكن أن تكون عن القانون المدني أو الفقه الإسلامي أو الفلسفة الإغريقية أو تشريح الرقبة أو حتى مجلات (ميكي) منذ صدورها حتى اليوم..

يوجد مكتب مهندم عليه بعض الأوراق.. وثمّة إضاءة خافتة جدًّا.. لقد أعد هذا الضوء بعناية كي يسقط على وجه الجالس أمام المكتب، بينما يظل من خلفه في الظل، كما يفعل رؤساء منظمات التجسس في القصص الرديئة..

طبعًا مع غرفة مكتب مثل هذه أتوقع أن....

بالفعل.. إن الرجل يتجه إلى مكتبة جدارية عملاقة، فيلفها.. إنها تتحرك حول محور رأسي لتنفتح كالباب لقد صار هذا المشهد مملًا.. خلفها توجد قاعة لا أعرف ما فيها..

وقف على باب القاعة وقال بطريقة مسرحيّة:

- «إن هذا هو مقري الخاص يا دكتور (رفعت).. وإنني لأقضي فيه من الوقت أضعاف ما أقضيه في المكتب نفسه..»

دخلت القاعة في حذر..

يمكن أن أقول تقريبًا إن طولها ستة أمتار وعرضها أربعة.. تذكرني إلى حدٍ ما بمتحف علم الأمراض في كليتي أو أي متحف عمومًا.. والسبب هو تلك الواجهات الزجاجيّة المتراصة بطول الجدارين.. ثمّة رائحة عضوية قوية وأنا أكره تلك الروائح التي يكون مصدرها حيوانيا أو آدميا.. إنها تثير تقززي نوعًا.. أمّا سبب الجو الخانق فهو أنه لا توجد نوافذ هنا هناك جهاز تكييف لكنه يعمل بأقل طاقة لديه..

- «لا بد من التكييف حتى لا تفسد العينات.. برغم أن الطقس معتدل.. أنت تفهم هذا..»

الإضاءة خافتة تنبعث من مصابيح جدارية مركبة بحيث ينبعث الضوء منها لأعلى.. راسمة مثلثات مخيفة من النور على مسافات منتظمة.. لكنّها تتعطف بعض الشيء على الواجهات فتلقي عليها ضوءًا بخيلًا لا يزيل الغموض..

هناك لوحات على الجدار.. لوحات تذكرك برسوم (دالي Dali) السيريالية العجيبة، التي تمزج المقاييس التشريحية الصارمة بتشوه الهلاوس..

لم أستوعب ما أراه.. فوقفت هنيهة صامتًا ثم قلت:

- «لا أعرف كنه هذا المكان.. لكنه أقرب إلى متحف..»

- «بل هو متحف.. لكنه أغرب متحف في العالم..»

ثم نظر لي ليرى وقع الكلمات على وقال:

- «إنّه المتحف الأسود..»

لم يكن الاسم غريبًا عليّ.. هناك متحف أسود في (سكوتلانديارد) يضم آثار الجرائم التي حيرت رجال الشرطة في الماضي.. لكن من الواضح أن الأمر يتعلق بتشابه أسماء لا أكثر..

دنوت من الواجهات الزجاجيّة متوجسًا.. فأدركت أن محتواها يناسب هذا التوجس..

في الواجهة الأولى ثمّة يد بشريّة.. يد مبتورة عند المعصم محفوظة في سائل (الفورمالين).. هذا جميل وربما هو من المناظر المبهجة بالنسبة لطبيب مثلي.. لكن ما يثير الحيرة - وربما الرعب - هو تلك الأظفار الطويلة الشبيهة بالمخالب التي تخرج منها وعلى الزجاج كانت صورة رجل وقور يبتسم.. هل هذه يده؟ إذن لماذا يبتسم؟

في الواجهة الثانية لا يوجد شيء مخيف، باستثناء هيكل عظمي كامل.. هيكل متآكل يبدو عليه القدم.. لكن.. لحظة من فضلك.. ثمّة خطأ هنا.. إن له أنيابًا حادة قاطعة بدلًا من الأسنان..

هناك قفازان من الجلد الأسود في واجهة ثالثة.. هناك مادة هلامية متجمدة كأنها شمعة عملاقة ذابت كلها هناك قطع من مادة حمراء كأنها مشعة أو كأنها حجر كريم.. ثمة عباءة في واجهة، ومجموعة من أوعية حفظ العينات كما في متاحف علم الأمراض..

هناك كلب محنط يقف متحفزًا في إحدى الواجهات.. لا شيء يميزه غير أن لونه أحمر بالكامل كأنه الدم.. هل تم طلاؤه؟ الخلاصة أنني لا أستطيع استيعاب كل شيء بهذه السرعة..

في انبهار التفت إلى الرجل الذي كان يرمق دهشتي، وقلت:

- «هذه مجموعة مثيرة للاهتمام.. لكنك لم تتقاض مني رسم الزيارة..»

قال في مرح أخافني:

- «فيما بعد.. فيما بعد.. هذه أمور يمكن أن تنتظر..»

قلت له وأنا آخذ نفسًا عميقًا:

- «حسن القصة واضحة.. أنت قضيت حياتك تجمع آثار عالم الرعب الذي نجهله..»

- «هو ما تقول.. ولكل واجهة من هذه الواجهات قصة مثيرة أتمنى لو سمعتها.. وأتمنى لو حاولت الفهم معي.. من أين يأتي الرعب؟ ما سرّه؟»

عقدت ذراعي على صدري وانتظرت ما سيقول..

لم لا؟ أنا متأكد من أنّ هذا الرجل ليس د. (لوسيفر) وليس خصمًا قديمًا لي.. لقد صرت ذا خبرة في هذه الأمور.. إن ما سيقصه عليّ قد يكون مهمًا لأقصى حد، وقد يكون مجرد تفاهات..

هكذا بدأت حلقة الرعب السادسة..

وكان مقدرًا لي ألا أعود إلى داري في تلك الليلة كما توقعتم..

☆ ☆ ☆

- ١ -

وقف (مازن) ينظر إلى الواجهة الأولى من نهاية القاعة.. لم تكن شيئًا خارقًا للعادة، فيما عدا عباءة سوداء قديمة مغبرة تمزقت بعض أطرافها، معلقة في إهمال على غصن شجرة.. طريقة عرض أراها كثيرًا في محلات وسط القاهرة، ولا أرى فيها شيئًا غريبًا..

قال لي:

- «قصة هذه العباءة غريبة بعض الشيء.. وقد اقتضاني الأمر أن أرتحل إلى (ترانسلفانيا) كي أحصل على القصة والعباءة معًا..»

قلت باسمًا:

- «القصة واضحة الآن.. (ترانسلفانيا) وعباءة سوداء أنت تتحدّث عن مصاص دماء يا صديقي.. ربما كان الكونت (دراكيولا) ذاته..»

ضحك بدوره وقال:

- «نعم فلن أنسى أنك محترف إلى حدٍ ما واسع الخبرة، لكني أراهنك على أن القصة التي سأحكيها من الطراز الذي يروق لك.. إنها تمثل طرازًا معينًا من الرعب.. رعب الغفلة.. رعب (كان الأمر واضحًا لكني لم أنتبه له وقتها).. الدخان ينقشع ببطء وأنت لا تعرف ماذا يحدث. هو ذا يشكل المعالم الخارجية لجسد.. الآن يزول الدخان تمامًا وتفهم أنك تقف أمام شيطان.. هنا تدرك أن الأمر كان واضحًا.. كيف لم تنتبه لهذا في اللحظات الأخيرة؟»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

بدأت القصة منذ فترة في (ترانسلفانيا)..

كان المخرج الأمريكي الشاب (جوناثان بيكر) يجيد عمله حقًّا.. إنّهِ واحد من جيل (الصبيان المزعجين) في السينما الأمريكية.. يمتازون بالذكاء والنشاط.. هم دومًا قادرون على تحقيق أفضل نتيجة ممكنة بالميزانية المطلوبة في الوقت المطلوب.. لكن لا تتوقع منهم عبقرية خارقة..

وكان الفيلم المزمع تصويره والذي قبل السيناريو الخاص به هو فيلم آخر من أفلام مصاصي الدماء..

حين عرض عليه المنتج المنفذ السيناريو، تصفحه بسرعة ثم قال في ضيق:

- «لم يعد أحد يتحمل أفلام مصاصي الدماء يا (ويلي) لقد انهارت شركة (هامر Hammer)..»

كان المنتج رجلًا ضخم البطن راضيًا عن نفسه، وبالتالي يعتبر أن الجميع حمقى أو أوغاد، وقد قال له وهو يفتح علبة من الجعة:

- «لقد قدمت شركة (هامر) محاولات تجديد لا بأس بها..»

- «لكنّها انهارت برغم هذا.. لقد عزف الناس عن محاولات التجديد لأنهّا (ليست مما ألفوه).. بينما عزفوا عن أفلامها التقليدية لأنهّا (مما ألفوه).. هناك لحظة تقرر فيها الجماهير فجأة أن اللعبة انتهت.. ولا أحد يعرف متى ولا لماذا..»

قال المنتج وهو يفرغ محتويات العلبة في بطنه العملاق:

- «لقد صار الناس أكثر ميلًا إلى الرعب الأمريكي بعد ما قدمنا (طارد الأرواح الشريرة Exorcist) و(طفل روزماري Rosemarys Baby).. انتهى الرعب البريطاني رخيص التكاليف.. رعب الأحمر والأسود.. لم يعد أحد يخاف من رجل يضع أنيابًا من البلاستيك ويزأر متظاهرًا بالوحشية.. الآن جاء عصر الرعب الأمريكي بلونيه الأزرق والأخضر رعب الميزانيات العملاقة.. رعب المؤثرات التي لا تصدقها ما لم ترها..»

فكر الفتى وهو يداعب لحيته الشقراء القصيرة:

- «لا أعرف يا (ويلي).. ما زلت مترددًا..»

هشم المنتج العلبة التي فرغ من شربها.. ثم قال في برود:

- «هذا هو السيناريو.. وأنا أريد منك أن تصنع منه شيئًا خارقًا للعادة.. خذه أو اتركه.. هناك عشرات المخرجين غيرك يتمنون فرصة كهذه..»

لم يفكر المخرج مرّتين طبعًا.. كان طموحًا وكان يعرف أن الطريق لتحقيق طموحه وأن يفعل ما يريد هو أن يبدأ بفعل ما لا يريد.. قال وهو يأخذ السيناريو:

- «ليكن يا (ويلي).. سأخرج هذا الفيلم..»

☆ ☆ ☆

كما هي العادة في السينما الأمريكية، كانت الميزانية سخية جدًّا.. الجديد هنا أن التصوير سيتم في (ترانسلفانيا) بالذات.. في قلعة الكونت دراكيولا ذاتها..

وقد انتقل فريق العمل إلى هناك، وتمت إعدادات المعسكر التي تشبه أية إعدادات (لوجيستية) لأي جيش معاصر إن الجزء الذي سيتم تصويره في (ترانسلفانيا) معقد وهو الأصعب في عملية التصوير، بينما الجزء الخاص بالولايات المتحدة سهل على الأرجح.. مجموعة من العلماء يتناقشون في شك.. حسناء خائفة في غرفة نومها.. إلخ.

يتضمن السيناريو أن سائحًا أمريكيًا يضل طريقه في قلعة الكونت (دراكيولا).. يصرخ كثيرًا ويحاول كثيرًا وفي النهاية يقهره التعب فينام.. آخ.. كيف لم يعرف هذا الأحمق أن المكان الذي اختاره للنوم هو القبو؟ كيف لم يعرف أنه ينام إلى جوار تابوت الكونت (دراكيولا) نفسه؟ التابوت الذي فشل من بحثوا في القصر في العثور عليه، لكنه وجده بضربة حظ أو سوء حظ..

الآن تتسرب رائحة اللحم البشري إلى منخري الكونت لقد بدأ هذا ينعش خلاياه.. إنّه ينهض.. إنّه يرفع غطاء التابوت.. إنّه يستولي على روح السائح.. لكنه ما زال واهنًا لا يقدر على مغادرة القلعة..

بعد هذا يصير السائح خادمًا له.. يكلفه بإحضار الناس إلى مقبرته.. والهدف هنا أن تتم طقوس معينة فوق تابوت الكونت.. هذه الطقوس سوف تعيد له قدراته كاملة.. إن الضيوف يعتبرون مايدور مزاحًا لكن السائح الأول هو الوحيد الذي يفهم معنى ما يحدث..

وفي اللحظة المروعة يتحرر (دراكيولا) وقد صار قويًا كما كان.. ينقض على الضيوف ويفتك بهم.. ثم يخرج إلى العالم الخارجي ويعبر المحيط إلى الولايات المتحدة..

كان (جوناثان) الشاب يعرف أن الجزء الفائت لا جديد فيه.. يمكن أن تقدمه (هامر) بسهولة أو تكون قد قدمته منذ أعوام في أفلامها التي لا حصر لها عن (دراكيولا)..

وقالت له مساعدته ذلك.. وهي فتاة فاتنة بالمقاييس الأمريكية - تدعي (ويلما).. كانت جالسة تتأمل القلعة الجاثمة كالكابوس وسط الضباب من بعيد..

قال لها وهو يريح ساقيه على مقعد أمامه ويرفع رأسه ليتأمل الشمس:

- «أعرف هذا.. لكني أراهن على عدة اشياء.. أولًا شخصيّة (دراكيولا) ذاتها لن تكون مسطحة مثل شخصيات (هامر) المعتادة.. سوف نتحاشى أسلوب التنميط أو القولبة Archetyping الذي تجيده تلك الشركة.. (دراكيولا) كما سنقدمه نحن شخصيّة ثلاثية الأبعاد لم ترد في السينما قط ثانيًا: أراهن على مجموعة المؤثرات البارعة التي سنحاول أن نقدمها.. هذه أشياء لا يقدر البريطانيون عليها ثالثًا: سأحاول أن أستفيد من أخطائنا هنا لأصححها في الولايات حين نعود.. يمكن أن يقوم الكونت بأشياء مرعبة فعلًا حين يذهب إلى هناك..»

راحت تدون بعض الأرقام في لوح الكتابة الذي تمسك به.. ثم سألته:

- «هل حددت أماكن التصوير داخل القلعة؟ إن تصريح الحكومة الرومانية لن يدوم للأبد..»

كان لا يعترف.. لنفسه بالحقيقة.. هو بالفعل لم يحبّ قط هذه القلعة.. إن لها شخصيّة قميئة لو كانت للأماكن شخصيات.. وهذه الشخصية القميئة لا علاقة لها بالهستيريا أو التأثر بما قيل عن القلعة قديمًا هو ليس من هذا الطراز.. إن لهذه القلعة وجودًا نفسيًا لا شك فيه، والعارفون بهذه الأمور يقولون إن أي مكان جرت فيه مذابح سابقة يحمل هذا الوجود النفسي..

لهذا ظل يؤجل لحظة البدء بالتصوير داخل القلعة.. راح يضيع الوقت في التقاط مشاهد عامّة لها من الخارج.. وكان من الواجب أن يسعده كون القلعة كئيبة.. هذا يسيل له لعاب أي مخرج رعب.. لكن الحقيقة هي أنها كانت كئيبة أكثر مما يلهم مخيلته أو يسعده..

عادت (ويلما) تسأله:

- «لم تستقر بعد على ممثل (دراكيولا)..»

كانت هذه ورقة لعب مهمّة يحتفظ بها.. إن ممثل دور (دراكيولا) سيكون - للمرة الأولى على قدر علمه - نبيلًا رومانيًا أصلًا.. رجلًا يتكلم الرومانية بطلاقة ويتكلم الإنجليزية بصعوبة ولكنة شرق أوروبية ثقيلة..

قال لها في ضيق:

- «سوف أجده حتمًا.. لا تقلقي..»

وكان مساعده الآخر الروماني أو ما يمكن أن نطلق عليه (منسق الجزء الروماني من التصوير) شابًا متحمسًا يدعي (إيزاك).. مهمته كانت أن يقابل هؤلاء الراغبين في التمثيل.. يطلب منهم تلاوة بعض السطور ثم يهز رأسه ويعد بالاتصال بهم.. كان الوقت يمرّ والمخرج يزداد قلقًا لكنه لم يكن مستعدًا للاستعجال:

- «للمرة الأولى أعطي دورًا محوريًا بهذه الأهميّة لشخص لم يقف أمام الكاميرا في حياته.. هذه مقامرة مريعة..»

قال مساعده الروماني وهو يشعل لفافة تبغ:

- «لهذا بالذات لا أحد يصلح حتى هذه اللحظة.. كلهم لا يجيد قراءة سطر واحد..»

هكذا أمضى المخرج أيامًا قلقة.. إن اليوم يكلّف مالًا باهضًا، وبدأ يتساءل إن لم يكن من الواجب استدعاء ممثل روماني أو أمريكي محترف عبر المحيط لإنقاذ الموقف؟

في اليوم الثالث جاءه المساعد يلهث وهتف:

- «وجدتها.. أعني وجدته!»

- «من هو؟»

- «ممثلك المرموق.. الكونت (دراكيولا).. تعال معي حالًا..»..

هكذا ترك ما في يده، واتجه عبر المقطورات المتراصة إلى حيث كان بعض رجاله يحيطون برجل فارع القامة.. من النظرة الأولى عرفه أنّه هو.. كان مهيبًا غريبًا له طابع ارستقراطي لا تخطئه العين، لكن الأهم من هذا أنه كان لا يشبه (كرستوفر لي Christopherlee) في شيء وهذه مزية مهمّة لمن يحاول أن يختلف عن (هامر)..

دنا من الرجل كانت له عينان ثاقبتان رائعتان..

قال المساعد الروماني:

- «هذا هو (يوجين أولاف) مدرس متقاعد يهوي التمثيل، وهو يرغب في فرصة معنا..»

راح المخرج يدور حول الرجل بتلك الطريقة غير الإنسانية التي يجيدها المخرجون، كأنما يتعاملون مع مقعد حمام أو مضخة ماء.. كانت ملامح الرجل الحادة ونظراته الثاقبة لا تقاوم..

- «هل يعرف كيف يمثل؟»

تكلّم المساعد مع الرجل بالرومانية، فنفش هذا صدره وبلهجة فظيعة قال:

- «أكون أو لا أكون.. تلك هي المسألة..»

واستمر في أداء مونولوج (هاملت) الذي يحفظه جيدًا، لكن ملامح وجهه كانت تعبر بصدق أكثر مما يعبر لسانه يمكن أن تتابع الحوار من عينيه..

قال له (جوناثان) بعدما فرغ من الكلام:

- «أنت تعرف (هاملت).. هذا جميل..»

قال بنفس اللهجة وبوقار لا حد له:

- «كنت أدرّس الأدب الإنجليزي منذ أعوام.. إنني أجيد الإنجليزية يا رئيس..»

وبصرف نظر عن موضوع ما يعتقد أنه إجادته للإنجليزية وبصرف النظر عن مناداة (جوناثان) بـ (رئيس) وهي طريقة لم يحبّها قط، فإن المخرج بدأ يعتقد أن الحظ قد أسدى له خدمة.. لقد وجد ممثلًا لا بأس به.. بعض التدريبات ستكون كافية.. ولسوف يتساءل الناس عن عبقرية المخرج الذي وجد هذا الممثل البارع الذي لم يمثل قط من قبل.. سيكون (يوجين أولاف) حديث (هوليود) لفترة، إلى أن يُنسى موضوع الفيلم، عندها لن يجد من يهتم به أبدًا..

☆ ☆ ☆

بالفعل برهن (أولاف) على أنه ممثل بالفطرة.. كان مطيعًا واجتاز كل اختبارات الكاميرا بتفوق، كما أنه خضع لعدة دروس في الإلقاء.. لم يكن المطلوب إخفاء لكنته الثقيلة بل إظهارها أكثر..

كما أنه لم يتحدث في الماديات على الإطلاق.. لقد قبل أي مبلغ عرضوه عليه.. وإن راقت له فكرة أن الجزء الباقي من التصوير سيستكمل في الولايات المتحدة..

ذهب مصمم الإنتاج مع مساعد المخرج إلى البلدة هناك ابتاعا بعض الإضافات الضروريّة للشخصية، ووجدا لدى أحد الغجر المسنين الذين كفوا عن الترحال أشياء مهمّة.. عباءة سوداء تصلح للدور وقلادة غريبة الشكل.. كلها أشياء مهمّة وتنشط الخيال بلا شك..

أخيرًا جاء اليوم الموعود وسُلطت الأضواء.. وارتدى (أولاف) الثياب السوداء وتدثر بالعباءة، فشعر كل من راه برجفة تزحف عبر عموده الفقري.. وهمس (جوناثان) في أذن مساعدته:

- «لا أحب كثيرًا أن أمشي في طريق مقفر مظلم لأجد هذا الرجل أمامي.. وهل تعرفين معنى هذا؟»

نظرت له متسائلة، فهتف في مرح:

- «معناه أننا سننجح يا صغيرة! سننجح!»

كان المشهد يمثل الكونت (دراكيولا) وهو راقد في التابوت.. وقد بدأ يستعيد قواه..

كان ذلك التابوت العتيق موجودًا في القبو منذ زمن، وقد راق للمخرج لأنّه من طراز فريد.. إنّه حجري ثقيل عليه نحت قوطي لا بأس به أبدًا.. تحتاج إلى ثلاثة رجال كي تزيح غطاءه.. والأهم من هذا أنه كان فارغًا..

من المثير أن الممثل الصاعد رفع قدمه بلا تردد وخطا داخل التابوت كأنما كان يفعل هذا طيلة حياته.. أمّا الأهم فهو أن التابوت كان يناسبه بالضبط.. لا يوجد سنتيمتر واحد أطول ولا أقصر.. يذكرك هذا بأسطورة (أوزيريس Osiris) الفرعونية الشهيرة.. حينما لم يكن في الحفل كله من يصلح جسده للتابوت إلا هو..

ماذا فعل المخرج وطاقم التصوير؟ هللوا طربًا لكل هذه المصادفات السعيدة..

في رأيي أنه توجد علامات مريبة.. الكثير منها في الواقع..

ألا تراها معي؟ إن الصورة تتجمع.. تحتشد ببطء لكن أحدًا لا يراها

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

ظل المخرج الشاب (جوناثان) يعمل في الأيام التالية.. لقد بدأ يتغلب على نفوره من القلعة والتقط فيها مشاهد ناجحة.. لقد اقتربت مشاهد (ترانسلفانيا) من الانتهاء على كل حال، بعد هذا يعود إلى الوطن ومعه ذلك الممثل البارع الذي لم يمثل قط..

وسأل مساعدته وهو يفتح علبة من المياه الغازية:

- «كيف حال ممثلنا الصاعد؟».

- «إنِّه قليل الكلام لكنه بخير حال.. ملتزم تمامًا بمواعيد التصوير.. يأتي قبلها بساعتين، ويعود بعدها بساعتين.. أنت تعرف أنه يسكن قريبًا من هنا.. وهو غير متزوج وبلا أطفال.. لعل هذا يفسر كل هذا الالتزام..»

- «ولماذا لا يقيم مع طاقم العمل هنا؟»

- «إنّه غير مولع بالاجتماعيات.. ولا يحبّ مخالطة البشر.. على كل حال لن يبدأ تحطيم عاداته الانعزالية بالاختلاط بأمريكيين..»

وضحكًا معًا.. إن الأمريكيين قوم غير متحفظين بطبعهم أميل إلى المرح والصخب، بينما هذه الطباع المنغلقة يناسبها البريطانيون أكثر.. وهذه من نقاط تهكم الأمريكيين على البريطانيين التقليديين بناة الإمبراطورية التي لم تعد كذلك..

نظر إلى لوح الكتابة الذي ثبتت إليه الأوراق بمشبك في يده، وسألها:

- «هل أعددت كل شيء لمشهد الحفل؟»

- «كل شيء جاهز لكنه سيكون مشهدًا معقدًا.. إن هناك مجاميع.. وليكونن التتابع مشكلة..»

- «إنهم لم يرسلوني هنا لأنني درست الإخراج بالمراسلة..»

وبدأ الفتية يتوافدون.. هم مجموعة من الرومانيين من الجنسين أكثرهم يجيد الإنجليزية.. وكانوا سعداء بفكرة الظهور على شاشة السينما في (هوليوود) مع احتمال ضئيل جدًّا أن يروا أنفسهم، لأن الحكومة لن تسمح بعرض الفيلم على الأرجح..

راح (جوناثان) يراجع الأحداث مع الفتاة.. مط شفته السفلى وبدا غير مستريح، ثم غمغم:

- «الطقوس التي ستقام على تابوت الكونت لا تريحني.. فيها افتعال واضح.. كأنما هم أطفال يلعبون.. أريد أن تبدو أكثر أصالة..»

- «وهل تعرف كيف نجعلها أكثر أصالة؟»

- «أطلبي (إيزاك).. هذا الفتى يعرف الكثير من الحلول..»

وجاء الفتى (إيزاك) المتحمس، وهو يلهث ويعرق بغزارة كعادته.. لقد أمضى أسود ساعات حياته مع كل هؤلاء الشباب الذين لم ير أي منهم كاميرا من قبل، لكنّها أسود وأهم ساعات حياته كذلك..

قال لـ (جوناثان) بعد ما أخبره بمشكلته:

- «يمكن أن أستشير الغجر (التسجاني).. هناك واحد منهم في البلدة.. أعتقد أن كل هؤلاء القوم مارسوا السحر يومًا ما.. أو كان لهم قريب يمارسه..»

ألح عليه (جوناثان):

- «أريد تفاصيل كاملة دقيقة.. هذه الأشياء قد لا تعني الكثير لمشاهد أمريكي، لكن لا بد في هذا الزمن الأسود من أمريكي من أصل روماني أو كان ساحرًا أو مصاص دماء ليقول لنا إن ما قدمناه في الفيلم هراء..»

لم يفهم (إيزاك)، لكنه فهم شيئًا واحدًا فقط.. عليه أن يكون دقيقًا..

وهكذا عاد بعد يومين حاملًا ثلاث ورقات مليئة بالتفاصيل.. يبدو أنّ هناك دم طائر سيسيل على التابوت هناك شمعة سوداء.. إلخ.. هذه تفاصيل لن أخوض فيها يا د. (رفعت).. أنت تفهم هذه الأمور..

تمت عدة بروفات على المشهد.. ثم أعلن (جوناثان) أنهم سيبدءون التصوير حالًا..

رقد (أولاف) في التابوت، وحرصوا على رفع الغطاء قليلًا عن طريق وضع رافعة معدنية تحته كي لا يختنق الرجل.. فالتابوت - كأي تابوت آخر - سيئ التهوية..

وهكذا بدأت الكاميرات تدور.. نعم كاميرات لأن (جوناثان) قرر أن يصور هذا المشهد بالذات بثلاث كاميرات، لأنّه معقد بما يكفي.. ولسوف يستطيع فيما بعد انتقاء اللقطات الصالحة..

الشباب يحتشدون حول التابوت.. يتبادلون عبارات المزاح بالرومانية.. زجاجات.. ضحك.. فتاة تنهض لترقص في هيستيريا.. هذا الحوار كتبه (إيزاك) بالرومانية طبقًا لتعليمات المخرج..

(ستيفن) الممثل الأمريكي الذي يقوم بدور خادم (دراكيولا) يقف وسط الشباب.. يلوح بيده طالبًا الصمت:

- «لحظة يا شباب.. إن هناك لعبة مرحة ستضفي إثارة على الأمسية..»

قالها بالإنجليزية.. واتسعت عيناه كأنما يخيف طفلًا، فصاحت فتاة:

- «هل ستمارس السحر الأسود؟»

- «تقريبًا..»

وببطء بدأت الطقوس.. ذبح الطائر.. الشمعة السوداء النجمة الخماسية اللعينة على الأرض.. ثم وقف (ستيفن) عند رأس التابوت وفرد ذراعيه.. وبدأ يتكلم بالرومانية.. لقد كان يحفظ ما يُقال عن ظهر قلب، وإن كان بالطبع لا يفقه منه حرفًا.. فقط كان يعرف متى يتحمس ومتي يخفض صوته إلى درجة الهمس.. الخلاصة أنه بدا ممثلًا شكسبيريًا يؤدي دورًا لا يعرف حرفًا واحدًا عنه..

وشعر الواقفون بتلك الرجفة التي خلقت فينا منذ مشينا على ظهر الأرض.. الرجفة الوحشية الأولى التي تشعر بها وأنت تمرر يدك على ظهر قط متوتر لسبب ما..

الحق أن تأثير صوت الرجل وكلماته التي يستحيل فهمها.. مع الإضاءة الخافتة.. والصمت التام ما عدا ذلك كل هذا كان له تأثير التنويم المغناطيسي (المدوخ).. وبدا أن كل من يقف أمام الكاميرا أو خلفها يعاني الشيء ذاته..

هل كل هذا تمثيل؟ لقد ود (جوناثان) لو يقول هذا ويصف الممثل بأنه عبقري، ويصف نفسه بأنه أفضل مخرج عرفه، لكنه كان يعرف ما هو أفضل..

ثمة شيء ما لا يريح في هذا كله..

هنا فقط سمع الجميع صوت الأنين..

وبدأ غطاء التابوت يتحرك..

كري ي ي ي ي!

صرخت إحدى الفتيات وقد أفزعها المشهد، وارتجف (ستيفن) ذاته وبدت عليه علامات الغباء..

- «اقطع!!»

كذا صاح (جوناثان) وقد أدرك أن التناغم الأولي للمشهد قد فسد..

وهب الجميع نحو التابوت الذي انفتح إلى النصف الآن.. وتعاون الرجال على إزاحة الغطاء الثقيل ليخرجوا (أولاف) منه.. كيف انفتح هذا الغطاء الثقيل الذي لا يستطيع إلا ثلاثة رجال زحزحته؟

خرج (أولاف) من التابوت.. وبدا كأنما هو مذعور أو مذهول؛ لذا طلب منهم الإذن وابتعد مسرعًا..

وهتفت المساعدة في عصبية:

- «لماذا أوقفت التصوير؟ كان من المفترض أن ينفتح التابوت..»

نظر لها (جوناثان) نظرة ذات معنى، وقال:

- «كان الغطاء سينفتح قليلًا.. لكن ليس في هذه اللحظة بالذات.. وكان سينفتح بأيدى العمال الذين يشغلون الرافعة وليس من تلقاء ذاته..!»

☆ ☆ ☆

في اليوم التالي اختفى (أولاف) تمامًا..

لقد بحثوا عنه كثيرًا، وذهب مساعد المخرج إلى البلدة فلم يجده..

كان (جوناثان) الآن في أسوأ حال من التوتر والعصبية.. لقد انتزع أكثر شعيرات لحيته شبه النامية.. لقد اختفى الممثل الرئيس، ومعنى هذا أن كل ما تم تصويره لم يعد ذا جدوى..

طلب الشرطة لكنه كان يعتقد أنهم يستقلون شأنه.. هم لا يهتمون إلا بالحوادث ذات الشأن، لكنهم لا يحترمون كثيرًا هؤلاء السادة المترفين الذين يبحثون عمن يؤدي دور (دراكيولا)..

واتصل بالولايات المتحدة ليخبرهم بالكارثة، فانهالت عليه الصواعق.. عبثًا حاول إفهامهم أنه لم يقتل الرجل ولم يخفه في جيبه.. لكن (العمل هو العمل) ولا مجال للعواطف أو الأعذار..

وعبر المحيط سمع المنتج يزأر من دون حاجة للهاتف:

- «وماذا تنتظر يا أحمق؟ ابحث عن ممثل آخر فورًا وعليك أن تعيد تصوير كل هذه اللقطات في زمن قياسي.. إنك متأخر عن جدولك أصلًا، وإنني لأتوقع منك معجزة..»

- «سأفعل يا (ويلي)..»

لكنه بشكل ما أدرك أنه انتهى.. لن يعهدوا له بفيلم عن بالوعات المجاري فيما بعد.. هذا الارتباك الذي لا ذنب له.. فيه لا يفعل إلا أن ينثر الغبار من حوله.. ومع الغبار لا يستطيع أحد أن يعرف من كان المخطئ..

وهكذا جلس مع مساعدته يحاولان إنقاذ ما يمكن إنقاذه..

بعض اللقطات لم يظهر فيها (أولاف) وهذا جيد.. المشهد الكارثي لم يكن مفروضًا أن يظهر فيه (أولاف) إلا كلمحة عابرة.. هذا شيء يمكن إنقاذه بالمونتاج دون إعادة تصوير الحفل الصاخب ثانية..

قال لها وهو يتأمل ما ينبغي إعادته من لقطات:

- «أعتقد أننا سننجح.. لكننا قد عدنا إلى نقطة البحث عن ممثل..»

- «سنجد واحدًا، لكن سيكون عليك أن تتنازل قليلًا.. لم نعد نملك كل الوقت كما كنا في الماضي..»

- «إن جدّتي تصلح للدور.. فلو استطعت أن آتي بها لأنقذت الموقف، لكنّها متوفاة منذ عامين..»

هكذا عادت الحياة إلى انتظامها ما عدا عملية البحث المحمومة عن رجل يصلح لأداء دور الكونت..

وفي اليوم الخامس ظهر (أولاف) من جديد..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

كان ظهور الرجل دراميًا، حتى شعر (جوناثان) بأنه موشك على البكاء.. فلولا الوقار لارتمى في أحضان الرجل وبكى ساعتين على كتفه.. فما إن انتهت إجراءات الترحيب، حتى سألوه عن سبب اختفائه غير المبرر..

اكتفي الرجل بأن هزّ رأسه في وقار وابتسم:

- «إنها أسباب دينية يا رئيس..»

- «دينية؟»

- «أنا أنتمي لجماعة تمارس ديانة خاصة لا يعترف بها القوم هنا، وهذه من مناسباتنا الدينية التي نعتزل فيها في جبل (زاراندولي)..»

تماسك (جوناثان) كي لا ينفجر في الرجل.. لن يتكلم كذلك عن الشرط الجزائي في العقد.. لا يريد أية مشاكل.. إنه بالفعل تحت رحمة الرجل تمامًا..

- «كان بوسعك أن تخبرني.. المرء لا يذهب للتعبد فجأة..»

- «لا بد من أن يتم التعبد فجأة يا رئيس..»

على كل حال لم يعد باستطاعة (جوناثان) أن ينفعل أكثر من هذا حتى لا يموت بنوبة قلبيّة.. وقد حاول عبثًا إقناع نفسه بأن أسوأ ما في الموضوع قد مر..

ومن جديد عاد النشاط إلى عالم التصوير..

في اليوم التالي كان (جوناثان) مشغولًا بالعمل، حين سمع الرومانيين يتهامسون وساد جو عام من القلق.. ثمّة مشكلة ما لا يعرف ما هي..

- «هيه! (إيزاك)! ماذا هنالك؟»

دنا منه الفتى وهو يجفف عرقه بمنديل عملاق، وبصق على الأرض ليظهر انهماكه وقال:

- «جثة يا سيدي..»

- «آه.. حسبت الأمر مقلقًا..»

ثم تنبه لخطورة ما قاله الفتى، فعاد يستزيده من التفاصيل.. قال هذا وهو يشير لما وراء الأطلال:

- «جثة أحد الكهربائيين الرومانيين.. وجدوها صباح اليوم خلف هذا الطلل.. من الواضح أن الوفاة غير طبيعية..»

- «وهل طلب أحدكم الشرطة؟»

- «إنهم في الطريق.. دعني فقط أشرح لك كيف أن الوفاة غير طبيعية.. لقد وجدوا ثقبين في عنق الرجل هنا..»

وأشار إلى عنقه حيث الوريد الودجي.. وأردف:

- «ثم إن الجثة خالية من الدماء!»

هنا - كما نتوقع - جن جنون المخرج، فصاح وهو يمسك بالفتى من سترته:

- «كف عن السخف.. ليس لأننا نمثل فيلمًا عن مصاصي الدماء تأتي لتقول..»

- «أنا لم أقل شيئًا يا سيدي.. الجثة هي التي تقول..»

وهرع (جوناثان) يشق زحام الأهالي الواقفين.. ليجد بين أقدامهم تلك الجثة التي لن تصدق وجودها مالم ترها.. كانت جدة (جوناثان) قد أصيبت بسرطان المعدة، وكانت تنزف دمها كله من الفم والشرج.. يذكر وجهها في آخر أيامها حين كان يخاف الدخول إلى حجرتها في دارهم.. هذا الوجه المصفر الذي لو اعتصرته لما خرجت منه قطرة دم واحدة.. العينان الغائرتان الجاحظتان.. إن المشهد الآن يتكرر لكن ما يجعله مرعبًا بحق هو هذان الثقبان في العنق..

هل مصاصو الدماء حقيقيون؟ نعم هو يعرف أنهم حقيقيون.. لكن ليس بالشكل الأسطوري الذي تراه في السينما أو تقرأ عنه في القصص.. ليسوا وطاويط آدمية تنام النهار وتصحو ليلًا.. وتموت لو غرس وتد في صدورها.. هم مرضى نفسيون يحبون مذاق الدم لا أكثر ولا أقل.. بعض حالات (البورفيريا Porphyria) تحتاج إلى الحديد وتحصل عليه بشكل شنيع.. فلو أضفنا لهذا ملامح مريض البورفيريا الشاحب ذي الجلد المتسلخ، والعينين الحمراوين، والشحوب البالغ والأسنان المدببة والخوف من الضوء، لأمكننا أن نعرف من أين ولدت أساطير مصاصي الدماء والمذءوبين..

كان الرومانيون يرددون لفظة:

- «فامفيري.. فامفيري..»

وهو لم يكن غبيًّا ولم يحتج إلى عبقرية كي يعرف أنها تعني (مصاص دماء).. هي تشبه (Vampire) إلى حد كبير..

الخلاصة أنه كان يومًا عصيًا خاصة حين جاء رجال الشرطة وأجروا تحقيقاتهم مع الجميع.. أين (أولاف)؟ لماذا يختفي هذا الأحمق كلما احتاجوا إليه؟

عرفوا أن الكهربائي - الذي يسموّنه حسب مصطلحات السينما الأمريكية بـ (الفتى الأفضل Best Boy) - شوهد للمرة الأخيرة ليلة أمس، وقد ترك رفاقه في المعسكر وذهب إلى الأطلال.. لماذا؟ للتبول طبعًا.. لا توجد أسباب أخرى.. هناك دورة مياه هنا لكن هؤلاء الأشخاص يتبعون قدرهم بإصرار غريب..

هكذا مرّت ليلة سوداء أخرى..

كان (جوناثان) في مقطورته يشعر بأنه بحق ملعون.. كل الكون قد خرج ليظفر به ويمنعه من النجاح.. المصادفات حين تحتشد تجعل الأمر موحيًا بعدم الكفاءة.. من الناحية الأخرى من المحيط لا يعبأ أساطين الشركة كثيرًا بالقصص عن اختفاء الممثل الأهم من أجل عيد ديني لا يعرفه أحد، ولا عن مصاص الدماء الذي يتسلى بامتصاص فريق العمل.. كل ما يعرفونه هو أن (جوناثان بيكر) فشل مع أول ميزانية ضخمة تمنح له..

في الثامنة صباحًا سمع من يدق على باب المقطورة..

فتح الباب فوجد المساعد الروماني مع رجل نحيل أسمر له شاربان طويلان شائبان يتدليان على جانبي فيه إلى أعلى عنقه.. وكانت ثيابه مبهرجة الألوان، وفي قدميه حذاءان برقبة.. على كتفه حقيبة يبدو أنها ثقيلة، وقد نزع قبعته وضمها إلى صدره احترامًا..

قال له المساعد:

- «هذا الرجل من غجر (التسجاني).. إنّه من عرفنا منه تلك الطقوس.. يبدو أن لديه أشياء مهمّة يجب أن تعرفها..»

سمح للرجل بالدخول وهو ينظر في ريبة إلى شكله العجيب.. وتبادل نظرة مع المساعد من طراز (ما - هذه - المخلوقات - الغريبة - التي - تحضرها - لي -؟)، فمط المساعد شفته السفلى بمعنى الاعتذار..

جلس الغجري على مقعد خشبي في وسط المقطورة وبدأ يتكلم بالرومانية، فراح المساعد يترجم:

- «نحن غجر (التسجاني) كنا خدم الكونت (دراكيولا) منذ كان يدعى (فلاد الوالاشي) ويعيش هنا.. نحن نعرف الكثير من الأسرار.. لقد منحنا الكونت ثقته.. ونحن نعرف منذ زمن أنه يحاول العودة والعودة قد لاحت علاماتها بشكل غير مسبوق.. نعرف أنه سيأتينا رجلًا عاديًا.. وسيكون علينا أن نقيم له بعض الطقوس التي نعرفها من فوق التابوت الذي سيرقد فيه.. هذا يعيد له قواه الكاملة.. هكذا يتحول إلى (فامفيري) ويستعيد القدرة على الطيران واختراق الحجب ببصره، مع القوة الخارقة التي لا يصمد أمامها صامد..»

في نفاد صبر قال (جوناثان)

- «هل يُمكنك أن تختصر؟»

قال الغجري بعد ما نقلت له الترجمة:

- «لهذا أرجو أن تلحق بي إلى الأطلال المجاورة الآن.. هناك ما أن تراه..»

- «هل يمكن أن ينتظر هذا حتى ينتهي يوم التصوير؟؟»

في ذعر هتف الغجري:

- «لا.. لا.. لا يمكن.. يجب أن يحدث هذا ليلًا..»

وهكذا تحرك الرجال الثلاثة الأطلال.. لم تكن الحركة في موقع التصوير قد نشطت بعد، لذا لم يسأل أحد أسئلة مريبة.. واتجه الجميع إلى منحدر وعر يقود إلى حفرة تحيط بها بقايا الحجارة حجارة ربما تعود إلى القرون الوسطى أو أقدم.. حين كان الرومان يحتلون هذا المكان..

كانت هناك فتحة في جدار مهدم.. مد الغجري يده وراح يعبث حتى أزاح بعض الأعشاب والنباتات التي تسدها.. وفي النهاية وجدوا أنهم يحدقون في تابوت خشبي رديء الصنع..

تعاونوا على إخراجه من موضعه.. وهتف (جوناثان) وهو يتحسس الخشب بيده:

- «من جاء بهذا هنا؟ لا يبدو عتيقًا..»

مد الغجري أظفارًا كالمخالب وانتزع الغطاء.. كان غير مثبت.. وفي ضوء الشمس عرف (جوناثان) حقيقة ذلك الجسد المسجى بالداخل.. إنّه (أولاف).. كان نائمًا.. لا بل كان ميتًا.. لا بل كان (غير ميت)..

وعلى شفتية المسترخيتين كانت قطرات من دم لم يجف بعد..

دم ليس دمه هو.

☆ ☆ ☆

قال الغجري:

- «كما ترى.. لقد عاد بكل قواه.. طقوسكم أعادته للحياة.. لقد حسبتم أنكم تمثلون لكنه كان بحاجة إلى هذه الطقوس.. وهو الآن ينام هنا صباحًا ويجول في المنطقة ليلًا ليظفر بأي عاثر حظ يقابله..»

كان (جوناثان) يرتجف بالكامل - ومن يلومه على ذلك؟ - لكنه قرر أن يحتفظ بدور (الرئيس) كما كان (أولاف) يناديه، لهذا وقف ينظر إلى الجثة وسأل المساعد:

- «لا أفهم.. هل هذا هو الكونت (دراكيولا) ذاته؟ هل هذا ما تحاول بيعي إياه؟»

قال الغجري بعد ما سمع السؤال:

- «لا.. إنّه تجسيد آخر له.. وقد وجدت القبر باستعمال عيني.. إن الطيور لا تحلّق أبدًا حيث يوجد قبر مصاص دماء...»

- «ولماذا لجأ لهذه الحيلة؟ كان بوسعه أن يجد من يقوم له بهذه الطقوس بدلًا منا؟»

- «لم يكن ليجد من يقبل، وما كان ليجد سبيلًا للدخول إلى القلعة من دون مساعدتكم.. في ذلك الوقت كانت قواه لم تتطور بعد.. كان بشرًا عاديًا..»

- «ولماذا تخبرني بهذا كله؟ لقد حصلنا على الطقوس منك.. أي أنك في صفه..»

- «كنت مرغمًا على هذا.. أمّا الآن فلن أحمل على رأسي دم الضحايا الذين سيهلكون.. إنني أعترف بما فعلت.. وأطالب بتصحيحه..»

- «ولماذا لا يبيت في القلعة حيث تابوته؟»

- «لأن الزحام شديد بالداخل، وهو معرض طيلة الوقت لمن يفتح التابوت من أجل التصوير..»

وساد صمت ثقيل لا يقطعه إلا صوت أنفاسهم وصوت ذباب يحوم لا تعرف من أين أتى..

في النهاية قال (جوناثان) مطرقًا:

- «تتحدّث عن إصلاح الخطأ.. كيف؟»

فتح الغجري حقيبته وببطء - كما يفعل بائع فخور يعرض عليك ما بجعبته من تحف - أخرج مطرقة ووتدًا وسكينًا هائلة الحجم.. ثم نظر إلى (جوناثان) متسائلًا..

هتف (جوناثان) في ذعر:

- «أنت لن تفعل هذا! هذه جريمة قتل!»

قال المساعد في رفق:

- «سيدي.. لا توجد محكمة في العالم تتهم هذا الراقد في التابوت بأنه مصاص دماء.. لكننا نعرف ذلك.. كلنا نؤمن بذلك الآن.. هل لديك شك في حقيقة ما رأيناه؟»

هزّ (جوناثان) رأسه عاجزًا عن الإجابة بنعم.. عاجزًا عن الإجابة بلا..

- «سيدي هذا هو الحل الوحيد..»

هتف (جوناثان) في رعب:

- «لن أفعل هذا.. لماذا لا يفعله هو ما دام مستريح الضمير؟»

- «إنّه مستريح الضمير.. لكنه حسب أنك مهتم بمعرفة ما حل بممثلك الأول.. إنّه ميت ياسيدي وقد دفن نفسه بالفعل.. لن نفعل أكثر من أن نصحح مسار الطبيعة ونريحه للأبد.. ولن يعرف أحد أننا فعلناها..»

صرخ (جوناثان) وهو يدير ظهره:

- «أنتما مجنونان..»

وسمع من وراء ظهره مساعده يقول في تؤدة:

- «نحن في (ترانسلفانيا) و(ترانسلفانيا) ليست (لندن)..»

نفس الكلمة التي قالها الكونت (دراكيولا) في قصة (ستوكر Stoker) الشهيرة..

وسمع صوت شيء يدق على الوتد، ثم سمع صوت العظام وهي تهشّم واللحم وهو يتمزق.. كان هذا مريعًا لعل الصوت كان أشنع من المشهد ذاته، لهذا راح يركض نحو المقطورة وهو يسد أذنيه..

☆ ☆ ☆

ظل طيلة اليوم في المقطورة لا يغادرها، زاعمًا أنه متوعك..

لكن مشاهد النهار لم تفارق خياله..

وعند منتصف الليل سمع من يطرق على الباب فهتف أن أدخل.. كان هذا مساعده الشاب (إيزاك).. وقد بدا راضيًا عن نفسه والحياة برغم كل شيء..

قال له وهو يجلس على المقعد الخشبي:

- «لقد أرحناه يا سيدي.. ثق من هذا..»

لم يستطع (جوناثان) التخلص من فكرة أنّ هذا الفتى قطع رأس رجل وغرس وتدًا في صدره هذا الصباح بالذات.. وبرغم هذا هو هادئ مرح.. سأله دون أن ينظر له:

- «هل دفنتموه حيث كان؟»

- «نعم.. لكننا حشونا فمه بالثوم.. لا بد من هذا.. أحيانًا يحرقون الجثة لكن هذا كان سيلفت الأنظار..»

ابتلع (جوناثان) قرصًا من المهدئ وقال:

- «جميل.. جميل.. لقد بحثنا عمن يمثل الكونت (دراكيولا).. ووجدنا واحدًا بارعًا.. ثم اتضح لنا أنه مصاص دماء فعلًا.. وأننا أعطيناه قدرة غير محدودة بسبب حماستنا البلهاء في التصوير..»

- «يبدو هذا يا سيدي..»

ثم بعد قليل تساءل المساعد في كياسة:

- «هل سنبحث عن ممثل آخر؟»

صاح في هياج وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- «ألم تفهم بعد؟ لا أريد كلمة واحدة عن هذا الفيلم اللعين. لقد انتهى عملي هنا وانتهت قصتي ومستقبلي.. غدًا سأجد عملًا في مغسلة سيارات أو موزعًا للصحف! ولا كلمة عن الفيلم اللعين!»

قال المساعد في رفق:

- «لا أريد أن أضايقك يا سيدي.. لكن هناك فرصًا أخرى.. لقد أجاد الغجري تصوّر ما حدث.. لكنه أخطأ في بعض التفاصيل.. الأمر لم يكن متعلقًا بمحاولة الكونت (دراكيولا) للعودة.. الأمر يتعلق بتلك العباءة التي كان الغجري يحتفظ بها..»

وطوح بالعباءة لتسقط عند قدمي (جوناثان) وأردف بلهجته ذات الطابع الشرق أوروبي:

- «كانت هذه عباءة مصاص دماء فعلًا.. ويبدو أنها كانت تحوي لعنة ما.. الغجري لم يكن يعرف وقد تخلى عنها لي لأنّه يجهل خطرها فقط كان يشمئز منها ولم يجسر على تجربتها قط.. حينما جاءك (أولاف) لم يكن مصاص دماء.. لم يكن متآمرًا.. كان مجرد شخص له منظر فريد ويريد أن يمثل في فيلم أمريكي.. لكنه بدأ يتغير مع ارتداء العباءة.. لقد بدأ يتحول بالتدريج، ولم يكن لتلك الطقوس أي دور.. برغم أنها جعلته يفتح غطاء التابوت بقواه المخيفة.. والآن انظر لي يا سيدي..»

رفع (جوناثان) وجهه ليرى أشنع منظر رآه في حياته.. لقد تغير وجه (إيزاك) بالكامل.. هل كانت أذناه بهذا الطول؟

منذ متى كان له نابان يوشكان على تمزيق شفته السفلى؟

قال (إيزاك) وهو يبتسم تلك الابتسامة القذرة التي تجيدها المسوخ:

- «أنا جربت العباءة أمام المرأة على سبيل الدعابة.. ومن هنا عرفت السر.. وقد اكتمل تحولي الليلة..»

وثب (جوناثان) فوق فراشه وراح يبكي بصوت مبحوح متقطع.. لقد فقد القدرة على الصراخ..

قال (إيزاك):

- «بدأت اليوم بالتخلص من منافس لي.. لكن لا تخف يا سيدي.. سوف أتركك وأبحث عن دماء أخرى.. أحب أن أبدأ حياتي كـ (فامفيري) بدماء رومانية خالصة.. لكني أنصحك ألا تلعب بالنار كثيرًا.. وأنصحك كذلك بالتخلص من هذه العباءة.. إنها لعنة تتوارثها الأجيال.. فلا تدع أحدًا يعشها من بعدي!»

ورفع (جوناثان) عينية المخضلتين بالدموع، فلم ير (إيزاك)..

فقط خيل له أن وطواطًا يحلق خارجًا من المقطورة..

من يدري؟ لربما كان واهمًا في هذا.. إن تأثير الدموع على البصر قد يكون غريبًا.

☆ ☆ ☆

- ١ -

مد (مازن) يده ففتح الواجهة.. وتناول منها العباءة السوداء، وفردها على ساعده كما يفعل تاجر الجلود بقطعة من جلد ثعبان، وقال في تأمل أقرب إلى التلذذ:

- «ما رأيك؟ هل تصدق هذا؟»

أجبت عن سؤاله بسؤال آخر كما يفعل أي لص احترف التحقيقات في المخفر:

- «وكيف عرفت أنت هذه القصة؟»

- «أنا لست من الهواة يا دكتور (رفعت).. قلت إنني قضيت حياتي بحثًا عن الحقيقة.. وها هي ذي الحقيقة..»

- «تبدو لي حقيقة غريبة مغبرة نوعًا..»

قال ضاحكًا:

- «هل نجرب ارتداء هذه العباءة؟ ها هوذا السؤال ماثل أمامك.. إن تحولت إلى مصاص دماء فالقصة صادقة وإن لم أتحول فهذه أكذوبة أخرى.. لا أنكر أن الموضوع قد اكتسب صبغة غير مريحة، وأنّ هذه العباءة صارت تزن أطنانًا بكل ما اكتسبته من هالة نفسية..»

- «وهل جرؤت أنت على ارتدائها؟»

ابتسم ابتسامة غامضة، ولم يرد.. فقط اتجه إلى الواجهة الأخرى.. وقلت لنفسي: لقد ارتداها.. بالتأكيد ارتداها.. لكن ماذا كانت النتيجة؟

وأمام الواجهة الثانية وقف لحظة، ثم أشار إلى محتواها.. هناك جنين كامل محفوظ في سائل الفورمالين.. لا مشكلة هنا... الأمر أقرب إلى متحف الطب الشرعي في أية كلية طب بها متحف طب شرعي.. لكن لا بد أنّ هناك قصة ما تحيط بهذا الجنين..

وقال بنفس الصوت الخفيض الغليظ:

- «النوع التالي من الرعب هو رعب ستتعرف طرازه على الفور..»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

حين تزوجت (هالة) كانت سعيدة بحق..

(هالة) مهندسة شابة رقيقة من الطراز الذي لا يعتقد أن في العالم أي نوع من الشر.. وأحيانًا كان يخطر لأهلها أنها تعاني نوعًا خاصًا من الغباء.. تكلمها عن المذابح.. عن السرقات.. عن خيانة الأصدقاء فيتقلص وجهها في ألم غير مصدقة.. ثم تنسى الموضوع بعد ثوان وتثق بالجميع كما كانت دومًا..

بالنسبة لأبيها كان هذا نوعًا خاصًا من التخلف العقلي الذي لا يمكن قياسه علميًا.. كان مستشارًا متقاعدًا وقد عاش حياة حافلة رأى فيها النفس البشريّة في أشنع حالاتها.. باختصار لم يعد يثق بأحد على الإطلاق، وأعاش أولاده في قوقعة بعيدًا عن عالم الواقع تمامًا.. لكنه الآن صار في حاجة إلى أن يخبرهم بتلك الحقيقة: إنِّه عالم قاس شرير ذلك الذي ينتظركم بالخارج..

لكن دروسه ظلت عسيرة على أفهام أولاده.. وكان هذا يثير جنونه..

ذات مرة سمع باب الشقة يُفتح، فنظر إلى المنبه المضيء بجوار الفراش، ليجد أنها الرابعة صباحًا.. من يفتح الباب في الرابعة صباحًا؟ أيقظ امرأته في هلع، وركض ليبحث في الشقة.. هنا كان الخبر المروع.. إن (هالة) ابنة الخامسة عشرة - وقتها - ليست في الدار..

هبط في الدرج يبحث عنها حافي القدمين وبمنامته..

خرج إلى الشارع المظلم الساكن.. وراح يناديها.. إن قلبه يتمزق جزعًا.. يتمزق فعلًا..

في النهاية وجدها راكعة على ركبتيها على الإفريز تنظر تحت سيارة واقفة.. لقد فرت قطتها من النافذة كعادتها في الأشهر الماضية.. لكنّها لم تعد حتى الساعة، ومعنى هذا أن مكروهًا أصابها..

تمالك أعصابه وراح يرتجف كورقة.. ثم مد يده تحت السيارة فلمست كتلة الفراء الساخنة الغاضبة.. حملها في غل عائدًا إلى الدار وهو لا يصدّق.. فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تغادر الدار في الرابعة صباحًا من أجل قطة.. أي جنون! أى غباء! أي بعد عن الواقع!

مشكلة هذه البلهاء أنها لا تعرف أي خطر هنالك في الشوارع المظلمة.. تعتبر العالم كله مكانًا آمنًا مناسبًا للأطفال والفتيات والقطط..

☆ ☆ ☆

كبرت (هالة) وجاء ذلك الذي يعتقد أنها ممتازة، لهذا ستكون زوجة صالحة له هو بالذات.. إن الرجل يبحث عن أفضل واحدة لمجرد أنه هو، ولا يفكر لحظة إن كان هو الآخر أفضل واحد أم

لا.. فلابد أنه كذلك..

لكن (كمال) كان هو الأفضل فعلًا..

كان (كمال) مهندسًا، وكان على درجة من الثراء سمحت له بأن يدرس في الخارج.. رجل وسيم هو، وعلى درجة من الثراء والتهذيب.. لهذا كانت محاولته الأولى للزواج هي الأخيرة، لأنّه ما من أسرة بكامل قواها العقليّة ترفضه.. وبالنسبة للأب بدا له الفتى بلا غبار عليه.. فقط هو يهوى المزاح أكثر من اللازم، لكنه بالتأكيد يمكن أن يحل محله في رعايتها..

وكما اتفق الجميع، كان سيتزوج ثم يأخذ زوجته معه إلى ألمانيا الشرقية حيث يدرس ويعمل.. في تلك الأيام كان كل مهندس يذهب إلى ألمانيا الشرقية يومًا ما..

وتم كل شيء.. دموع كثيرة ذرفها الجميع وهي تصعد على سلم الطائرة بثوب الزفاف مضفية لمحة درامية ما على المشهد.. وكان عليها للمرة الأولى في حياتها أن تبدأ وحدها..

لم ينغص ليلة الزفاف الأولى خارج الوطن إلا شيء واحد.. شيء بسيط في الواقع..

في الليل كانت تشعر بظمأ شديد، فنهض زوجها المحب يحضر لها كوبًا من الماء من المطبخ.. وأثار دهشتها أنه يتحرك بسلاسة تامة في الظلام.. لم يتعثر مرة، ولم يرتطم بشيء مرة.. لا غرابة في هذا، على كل حال لو كان هذا بيته.. لكنّها شقّة استعارها من صديق مصري، إلى أن يفرغ من استكمال شقّة الزوجية.. بعبارة أخرى كان يجرب المشي هنا لأول مرة..

وفي الصباح كان في الحمام، فجربت بنفسها أن تغمض عينيها وتمشي في المسار ذاته فاصطدمت بألف قطعة أثاث وكادت تحطم عنقها..

فجأة شعرت بأنها تغوص بين ذراعين قويتين، فأجفلت وفتحت عينيها لتجده ينظر لها في ثبات ضاحكًا:

- «ماذا تحاولين عمله؟!»

شهقت في رعب.. ثم ضحكت وقالت:

- «أحاول أن أعرف كيف تمشي في الظلام الدامس في هذه الشقة..»

اعتصر أذنيها في رفق كأنها طفل شقي وقال:

- «ملاك صغير هو أنت.. لهذا اخترتك.. لهذا همت بك حبًّا..»

كانت هذه إجابة كافية على كل حال..

أحبت (برلين) وأجادت اللغة الألمانية إلى حدٍ ما.. وصارت لها صديقتان أو ثلاث..

الأولى تدعي (إنريكه) والأخرى (هيلدا).. وكانت الأولى تعمل مع زوجها من قبل.. أمّا الأخرى فجارتها في البناية التي تسكن فيها.. صديقتان لطيفتان جدًّا لو طلبت رأيي..

الحادثة الثانية كانت (هيلدا) طرفًا فيها..

كانت (هالة) وزوجها جالسين يتناولان طعام الغداء.. طعامًا مصريًا صميمًا برعت هي في إعداده وأحبته صديقتاها.. هنا سمعا صوت صراخ يمزق السكون.. كان آتيًا من الشقة المجاورة..

وثب زوجها وبأربع خطوات واسعة كان عند باب الشقة المجاورة.. فتحه واندفع إلى الداخل..

(هيلدا) تقف على باب الحمام تعوي كالذئاب.. الحمام له نافذة من الزجاج المصنفر تتراقص من ورائه تلك الزهرة البرتقالية المخيفة.. لا يحتاج الأمر إلى أن تكون عبقريًا كي تعرف أنّ هناك حريقًا وأنّ هناك شخصًا بالداخل..

نظرة تبادلها الجميع.. فهتفت (هيلجا) وهي تركل الباب بساقها بعنف:

- «(كارل) بالداخل! لا بد أنه سخان الغاز! إنِّه لا يرد!»

هتفت (هالة) والطعام الذي كانت تمضغه يتساقط من فمها:

- «المطافئ! لماذا لا؟ ماذا عن؟»

لكن زوجها كان أسرع من المطافئ وأكفأ.. أدار المقبض بعنف فانفتح.. ثم - قبل أن تفهم ما يحدث - اجتاز الباب وبعد دقيقة كان قد غاب وسط ألسنة اللهب..

- «يا أحمق! انتظر! أنت لن..»

قبل أن تكمل العبارة كان يخرج من وسط اللهب سليمًا تمامًا وهو يحمل الأخ (كارل) بين ذراعيه.. لم يكن (كارل) قطة صغيرة خفيفة الوزن، لكن (كمال) أيضًا لم يكن ضعيفًا.. لقد شقّ طريقه إلى الخارج، وهتف في جنون:

- «ماء!! أريد ماء!»

وألقى بالزوج على الأرض.. كان هذا الأخير ما زال بثيابه كاملة لحسن حظه.. لا بد أنه أوقد السخان وتأهب لنزع ثيابه حين حدث ما حدث.. وكانت الثياب كلها تحترق في حماسة غريبة..

هرعت الزوجة من المطبخ حاملة دلوًا من الماء تساقط أكثره على الأرض.. وأفرغته مرة واحدة على زوجها وسرعان ما تحولت ثيابه إلى عجينة من الرماد المبتل..

- «أطلبي المطافئ الآن..»

وحينما جاء رجال الإطفاء أخيرًا أثنوا على (كمال) بشدة..

بينما وقفت (هالة) ترمقه في انبهار.. كان يقف لامعًا عريض المنكبين.. منهكًا بشكل رجولي.. تفوح منه رائحة الشياط وقد تفحم نصف شاربه، لكنه - كذا خطر لها - كان رائعًا.. الرجال يبدون رائعين حين تلوح عليهم علامات المعاناة والصراع.. إنّه النسر المصري الذي جاء عبر البحر المتوسط لينقذ ابن الراين.. كذا فكرت وهي تتأمله في افتتان تام..

رباه! لكم أنا محظوظة!!

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

في اليوم الذي تلا عودة (كارل) من المستشفي أصر الزوجان على دعوة (كمال) و(هالة) إلى بيتهما للاحتفال.. وقد قبلا على الفور.. كان الجو العام - كما لك أن تتوقع - هو مزيج من الامتنان من جهة والفخر المهذب من جهة أخرى..

وقال الزوج وهو يتحسس الضمادات على أعلى صدره:

- «سخانات الغاز هذه لا تؤدى أي عمل إلا أن تنفجر في وجهك.. من حسن الحظ أن زوجك كان هنا..»

وبدأت المأدبة العامرة بالطعام الألمانى كريه المذاق.. لم يتفق الأوروبيون بعد على ما إذا كان أسوأ طعام هو الألماني أو البريطاني، لكنهما متقاربان جدًّا في هذا اللقب الفريد..

وفي المطبخ وقفت (هالة) مع جارتها الألمانية تحاول أن تكون مفيدة.. الحقيقة أن إجادتها للغة لم تصل لهذا الحد بعد، لكنّها كانت تحاول جاهدة، وكان الألمان الذين يكلمونها يضغطون تلقائيًا على كوابح ألسنتهم ليخرج الكلام أبطأ وأوضح..

قالت (هيلدا) وهي تقطع كعكة كبيرة:

- «إن زوجك رائع وأراهن على أنك فخور به..»

في صدق وحرارة قالت (هالة):

- «بالتأكيد..»

- «هل يحبك كثيرًا؟»

ابتسمت (هالة) في خجل.. هذه أشياء لا تسأل ولا يرد عليها.. هذا يشبه سؤالك (هل ستدخل الجنّة؟).. طبعًا أنت تتمنى ذلك، لكنك لا تملك القرار ولا تملك الإجابة.. فقط تحاول..

نقلت (هيلدا) شريحة كبيرة إلى طبق، وقالت:

- «هل هو ساحر؟»

- «إنّه كذلك..»

- «أحدثك بالمعنى الحرفي للكلمة هناك أشياء غريبة لاحظتها في لحظة الحريق.. أشياء أردت أن أفهمها منه.. مثلًا كيف استطاع فتح باب الحمام؟ لقد كان موصدًا بإحكام من الداخل كيف اخترق النيران وعاد دون أن يحترق شيء ما عدا نصف شاربه؟»

فكرت (هالة).. حقًّا خطر لها هذا السؤال لكن الأحداث كانت متلاحقة لا تسمح لك بإدارة الأفكار في فمك لتحسن تذوقها.. إنّه قام بما يشبه المعجزة.. بل هي معجزة.. فهل يقلل من شأنها أنها كانت معجزة أكثر من اللازم؟

وهكذا عادا إلى غرفة المعيشة، وإن خطر لها أن الغيرة ليست بالشيء المستبعد حتى على زوجة ألمانية.. إن الغيرة قد تتخذ شكلًا مخادعًا لا تميزه بسهولة.. قد تتخذ شكل موضوعية مبالغًا فيها..

☆ ☆ ☆

في السوبر ماركت وقفت (هالة) مع (إنريكه) تنتظران دورهما للدفع.. كانت (هالة) مرتبكة لأنهّا لم تتعامل قط مع (سوبر ماركت) من قبل[1].. وهو سوبر ماركت اشتراكي فقير جدًّا يشبه محل بقالة مما نراه اليوم، لكنّها لم ترَ مثله من قبل على كل حال.. وكانت المعلبات الكثيرة تسبب لها الارتباك وقد اكتشفت أنها وضعت علبتين من اللحم المحفوظ المخصص للقطط في السلة..

قالت لها (إنريكه) ضاحكة:

- «زوجك من هواة أطعمة الحيوانات المحفوظة هذه.. كما أنه يبتاع كميات لا تصدق من اللحم.. هل لديكما أسد في بيت الزوجية؟»

بدا عليها الارتباك.. لا يوجد لديهما أي حيوان في الدار فمتى وكيف أبتاع زوجها هذه الأشياء؟

قالت (أنريكه) وقد وقفت أمام الصراف:

- «كان يشتري أشياء غريبة جدًّا قبل قدومك إلى هنا كنت أتسوق معه من حين لآخر.. وكان يقول إن هذه الأشياء للكلب..»

- «لم يكن لديه كلب قط.. لا الآن ولا قبل قدومي..»

ابتسمت (إنريكه) في رفق، وهزت رأسها بمعنى أن الزوجات قد يعرفن كل شيء في العالم إلا أزواجهنّ.. وهكذا توارت هذه الذكرى لتتخذ مكانها على رف الأرشيف.. الأرشيف الذي سيفتح في لحظة معينة كي يجيب عن أسئلة عديدة.

☆ ☆ ☆

- «لم يكن عندي كلب قط.. هذه المرأة تخرف..»

قالها في ثقة منها هذا الجزء من المناقشة، وراح يتحسس شاربه في عصبية وهو لا يرفع عينيه عن الجريدة..

قالت له في كياسة:

- «إذن ماذا نفعل بكل هذا اللحم الذي تشتريه؟»

لم يرفع وجهه عن الجريدة وقال بنفس اللامبالاة:

- «لم أشتر لحمًا بكميات، لكن لو فعلت.. فما المشكلة في إنسان أكول؟ لاحظي أنني لم أفعل هذا قط منذ جئت إلى هنا..»

- «هذا حق..»

مع امرأة أخرى كانت هذه الإجابات - التي لا تسمن ولا تغنى من جوع - غير كافية، لكنّها بالنسبة لـ (هالة) البريئة التي تعتقد أن أفظع شخص قابلته في حياتها هو نفسها، كانت إجابات مقنعة جدًّا وكافية جدًّا..

وهكذا جلست تشاهد التلفزيون شاعرة برضا تام عن الحياة.. بدأت تكتب خطابًا لأمها تحكى فيه كم هي سعيدة.. كم هي راضية.. كم هي محظوظة..

إنها نائمة الآن.. ظلام دامس.. هدوء محبب.. تشعر بأنفاسه المنتظمة بقربها.. إنّه ينهض.. إلى أين؟ لا شك إلى الحمام.. تريد أن تتكلم لكنّها واهنة جدًّا ومفككة الأوصال جدًّا..

هل هذا صوت باب الشقة؟

نعم.. إنّه يفتحه.. لكنّها لا تريد النهوض.. لا ترغب في النهوض.. إنها تنزلق من حين لآخر إلى ما (خلف جدار النوم) كما يقول (لافكرافت Lovecraft) ثم تعود إلى ما أمامه.. حلم غريب.. هناك ضيوف.. هناك حفل مأدبة.. كل شيء جميل وهي مسرورة، فيما عدا تفصيلًا بسيطًا.. إنها هي الوجبة الأساسية لهذا الحفل!

الضيوف هم (هيلدا) و(أنريكه) وآخرون.. زوجها يقف وسطهم يقطع أوصالها بالسكين، ويقدم لكل واحدة قطعة في طبقها.. المخيف هنا أنها راضية.. أنها مسرورة.. أنها ترحب بمن يأكلونها كأنها ربة بيت حريصة على إرضاء ضيوفها..

ثم تعود إلى ما أمام جدار النوم فتسمع زوجها يتكلم مع أحدهم.. من هذا؟ من هو؟ ثم تنزلق من جديد خلف الجدار لتعاود الحلم.. ثم.. لا شيء..

إنه الظلام الدامس هذه المرّة..

☆ ☆ ☆

في الصباح لم تكن تشعر بأنها على ما يرام..

ذهب زوجها إلى العمل، على حين جلست هي أمام التلفزيون تشاهد برامج الأطفال.. خطر لها أن تتناول الإفطار لكن الفكرة جعلت العصارة الحمضية تصعد إلى أعلى مريئها..

هل هي حامل؟ ارتجفت للفكرة.. بالنسبة لها كانت هذه آخر فكرة ممكنة في العالم.. طفل حي يصرخ ويبكي ويرضع يخرج من أحشائها هي؟ هذا نوع من الخيال العلمي لا شك فيه..

دق جرس الباب ففتحته..

على الباب كانت جارتها (هيلدا).. وهي كما نعرف لا تعمل هي الأخرى.. هكذا يبدأ حفل الزوجات الذي يتميز بالنميمة كطقس أساسي.. لم تكن (هالة) من الطراز الذي يشكو زوجها.. أولًا لأنهّا لم تجد فيه عيوبًا حتى الآن.. ثانيًا لأنهّا ليست من هذا الطراز.. يمكن أن تجلس لتمتدحه وعينها متورمة زرقاء من لكمته، أو وهي تضع قطعة ثلج على خدها لتخفف من آلام صفعته لها..

كانت جلسة طويلة عرفت فيها كل شيء عن عادات (كارل) وطباعه.. عن طفولته ومراهقته وأمراضه..

في وسط الكلام قالت الصديقة الألمانية بشكل عابر:

- «لا أحب التدخل فيما لا يعنيني.. لكن ما سر هذه الزيارات الليلية؟»

- «زيارات ليلية؟»

- «هؤلاء القوم الذين يأتون بعد الثانية صباحًا لداركم.. إننا نسمعهم.. أعترف أنهم لا يحدثون صخبًا لكن هذا غير مريح.. خاصة أنني لمحت وجوههم من فرجة الباب لا يوحي مظهرهم بالراحة أبدًا..»

فشعريرة عبرت ظهر (هالة) وهي تسمع هذه الكلمات..

هل هذا صوت باب الشقة؟

نعم.. إنّه يفتحه.. ثم تعود إلى ما أمام جدار النوم فتسمع زوجها يتكلم مع أحدهم.. من هذا؟ من هو؟

لم تكن تخرف إذن..

بالفعل هناك من زارهم ليلًا.. وهو يحرص على أن يزيل أي أثر لزيارته بعد رحيله.. يزيله بدقة لا توصف، لأن الشقة في الصباح تبقى كما هي..

ولكن كيف ولماذا؟ أشد ما يثير الضيق في هذه الأمور أن تشعر بأنك آخر من يعلم.. لهذا شعرت بمقت شديد لـ (هيلدا) وتمنت لو تخرس قليلًا..

قالت لها (هيلدا) وقد لمحت حيرتها الواضحة:

- «واضح أنك لا تعرفين شيئًا عن الموضوع.. على كل حال أن أقول إنك تثقين بزوجك أكثر من اللازم.. ولو كنت مكانك لفتشت حاجياته بعناية.. ولظللت ساهرة أنتظر..»

- «سأسأله.. هذا سهل..»

- «ما دام أنكر حتى الآن يا صغيرة فلسوف ينكر إلى الأبد..»

وصمتت (هالة) وراحت تراقب المرأة على الشاشة وهي تعد نوعًا ما من الحساء.. تتكلم لكنّها لا تفهم حرفًا من كلامها..

لكنّها لم تسأله عن شيء..

للمرة الأولى في حياتها تصرفت بخبث وكتمان.. إلا أنها لم تصح قط في الليل كي تحضر هذه الزيارة الغامضة.. دومًا كانت تنام كلوح الخشب إلى أن يشرق النهار، وعلى كل حال كانت قد بدأت تنسى تلك الكلمات المسمومة التي سمعتها.. وعامة حرصت على أن تتجنب لقاء (هيلدا) أو التعامل معها.. هذه المرأة على أسوأ حال من الخلاف مع زوجها، وبالتأكيد صممت على أن تهدي للوجود هدية هي المزيد من المقت..

مرّت الأيام وجاء اليوم الموعود..

لقد كانت تلاحظ ذلك الانتفاخ في بطنها لكنّها لم تعره أهتمامًا بالقدر الكافي.. ثم صار الأمر حقيقيًا لا ريب فيه.. ذهبت إلى المستشفى وهناك حللوا بولها وأخبروها بأنها حامل..

هذا يفسر كل ما كانت تمر به من مقت للطعام ومن حموضة، ومن قيء صباحي..

إنها ستصير أمّا.. هي الطفلة الخائفة ستصير أمًّا لطفلة خائفة أخرى..

حين عاد (كمال) من العمل، راحت تلعب دور الزوجة اللطيفة في الأفلام المصرية.. لدي مفاجأة لك.. اليوم شعرت بتوعك.. ذهبت للطبيب.. قال لي.. إنك.. بعد أشهر.. سوف..

قاطعها في نفاد صبر:

- «حامل؟ أعرف هذا.. لا داعي لهذه المقدمات..»

شعرت بخيبة أمل.. كانت تتوقع أن يكون رقيقًا ويقبل بلاهتها هذه.. وأدرك أنه جرحها فقال في رفق:

- «يا ملاكي لا يحتاج الأمر إلى طبيب.. عروس شابة انقطع منها الطمث وتقيء يوميًا ويكبر بطنها يومًا بعد يوم.. فهل هذه مجرد غازات؟»

قالت لنفسها إن كلامه منطقي بلا شك، وإن كانت تفضل أن يكون أكثر شاعرية ورقة..

على كل حال جلست تكتب لأهلها هذه المفاجأة الصاعقة، وبرغم كل شيء لم تنكر في خطابها لحظة أنها سعيدة.. سعيدة أكثر من اللازم..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

بعد أشهر كانت في السوبر ماركت مع (إنريكه).. وكانت تبتاع ما يلزم من ثياب للفترة القادمة.. لقد اشترت ثياب الوليد وبعض الألعاب لحجرة نومه، وكانت تسأل صديقتها باستمرار عما يخطر ببالها.. إن (إنريكه) أم مطلقة..

لكن (إنريكه) لم تكن على ما يرام.. كانت شاردة ترد باقتضاب.. وفي مرة من المرّات خيل لها أنها ترى دمعة في عينها..

فجأة قالت لها ونظرة غريبة في عينها:

- «(هالة).. نريد أن نتكلم في مكان منعزل..»

سقط قلبها في قدميها، فهي لا تحب أبدًا هذه المقدمات.. لكنّها وافقت..

وفي إحدى الكافتيريات الهادئة طلبت (إنريكه) لنفسها قهوة وابتلعت قرصًا مهدئًا أخرجته من حقيبتها، ثم أشعلت لفافة تبغ - فهي من هذا الطراز - وقالت في تؤدة:

- «هل قرأت قصة (طفل روزماري Rosemarys Baby)؟»

هزت (هالة) رأسها أن لا.. بدا لها الاسم مألوفًا فأردفت (إنريكه):

- «هذه من قصص الرعب الشهيرة جدًّا.. وقد تحولت إلى فيلم بالغ النجاح أخرجه (رومان بولانسكي).. إن القصة تدور حول زوجين اختارا لسكنهما بناية تعجّ بالسحرة.. هما لا يعرفان ذلك.. لكن الزوج ينقاد إلى الفخ ببطء شديد وهكذا تكتشف الزوجة أنها حامل.. لكن ليس من زوجها.. بل من الشيطان ذاته.. وأن الطقوس تقام كل ليلة حول جسدها الغائب عن العالم بفعل المخدر.. وفي النهاية تنجب.. تنجب ابنًا للشيطان!»

اتسعت عينا (هالة) رعبًا.. لماذا تخبرها بهذا الكلام؟

قالت (إنريكه) وهي تنفث الدخان بكثافة:

- «الحقيقة هي أنّ هذا السيناريو يتم تطبيقه معك حرفيًا إن (أبراكساس) يتردد على دارك كل ليلة ومعه أتباعه.. إن زوجك العزيز يقوم بتخديرك كل ليلة بقرص من المنوم يدسة لك مع العصير الذي تشربينه بعد العشاء..»

- «(أبراكساس)؟»

- «نعم.. (أبراكساس) وهو من شياطين العالم السفلي أنت حامل منه يا صغيرة..»

هبت (هالة) واقفة في عصبية وأوشكت على الصراخ، لكن يد (إنريكه) المعروقة قبضت على معصمها بقوّة:

- «لا داعي للهستيريا.. لم نأت هنا كي نلفت الأنظار..»

جلست (هالة) صورة مجسمة للغباء والبلاهة.. فأردفت (إنريكه):

- «أنت حكيت لي عن زوجك.. كيف يمشي في الظلام بلا عائق.. كيف اخترق النار والدخان وأنقذ (كارل).. أنا حكيت لك عن كميات اللحم التي يبتاعها.. ألم تلحظي ذلك؟ ألم تلحظي أنه متكامل إلى حد يصعب تصديق أنه بشري؟ الحقيقة أنك حمقاء.. لقد لمّحت لك مرارًا وكذا فعلت (هيلدا) إلى الحقيقة، لكنك لا تريدين الفهم.. الحقيقة أننا من أتباع هذه الجماعة السرية التي تحاول إعادة (أبراكساس) إلى العالم، والتي زوجك عضو فيها.. لكنك بريئة جدًّا.. طاهرة جدًّا، وبصراحة لم تعد واحدة منا ترغب في أن تدفعك أنت بالذات لهذا الدور القذر.. لهذا أنصحك بشيء واحد: فتشي حاجياته جيدًا.. ابحثي مرارًا.. هذه الليلة بالذات لا تشربي العصير.. يجب أن تعرفي من يدخل بيتك ولماذا.. فإن كان كلامنا صحيحًا فعليك بالفرار بأسرع وقت.. ربما تولت سفارتكم حل هذه المشكلة..»

ثم أفرغت باقي قدح القهوة في فمها، وأخرجت ورقة مالية دستها تحت الطبق، وغادرت المكان من دون كلمة واحدة..

☆ ☆ ☆

لو أن (إنريكه) فجرت لغمًا تحت المنضدة، أو أوصلت سلكًا كهربيًا عالي الجهد بأصابع قدميها وأولجت الفيشة في القابس، لما أحدثت كل هذا التأثير لدى (هالة)..

كأنها ثملة عادت (هالة) إلى دارها.. احتاجت إلى وقت لا بأس به حتى تجد المكان..

دخلت الشقة شاردة.. ظلت تدور حول نفسها ساعة على الأقل وتمشي من غرفة الأخرى.. في النهاية وجدت أنها تتجه كالمنومة مغناطيسيًا إلى غرفة مكتب زوجها..

وقفت وراء المكتب لحظات، ثم فتحت الدرج الكبير إنّه يضع فيه المفتاح الذي يفتح الأدراج الصغرى.. هي تعرف هذا وهو يعرف أنها تعرف، لكنه يثق بها ويعرف أنها أطهر من أن تتسلل لتتفحص أسراره..

أخرجت المفتاح وعالجت الدرج الأول..

انفتح..

لا شيء..

الدرج الثاني.. به..

به أشياء تخصها.. هذا هو الجورب الذي لا تفهم كيف أضاعته.. هذا هو دبوس الشعر الذي اختفى فجأة.. هناك عدة صور لها.. من أين أتى بها؟ إنها تخصها حين كانت في مصر.. صور من المدرسة الثانوية.. لابد أنه أخذها من أهلها ولم يخبرها.. ثمّة دمية صغيرة مصنوعة من القماش المخيط.. ما معناها؟ هناك شعيرات على رأس الدمية.. ملتصقة به كأنه شعرها هي.. الحصول على هذه سهل لأنهّا تحرص على قص الخصلات الزائدة، وأحيانًا تهمل التخلص منها..

ثمة علبة أقراص كتب عليها (باربيتيوريت).. هي تذكر الاسم.. إنِّه منوم كان أبوها يتعاطاه أحيانًا..

هناك لوحة ملفوفة حول نفسها.. فتحتها فوجدت ذلك الرمز المخيف.. النجمة الخماسية وحولها كلمات بلغة لا تعرف ما هي..

لا تفهم أكثر هذه الأشياء.. لكن القصة واضحة..

☆ ☆ ☆

- «ملاك صغير هو أنت.. لهذا اخترتك.. لهذا همت بك حبًّا..»

☆ ☆ ☆

المهندس المصري الشاب تورط في خبرة مريعة حين ذهب إلى ألمانيا.. ووعد جماعته بأن يذهب إلى مصر ليعود بعروس (أبراكساس).. إن ما تراه في الدرج لغامض لكنه يخبرها بوضوح أنها هدف لعمل سحري..

في المساء عاد.. كان ضحوكًا متألقًا، أمّا هي فكانت في أسوأ حال.. لكنّها قررت ألا تثير ريبته بأي شكل..

راح يتناول العشاء ويثرثر، ثم نهض كعادته إلى المطبخ ليعد لهما العصير.. للمرة الأولى تفطن إلى أنّ هذه عادته وأنه حريص عليها.. عاد حاملًا الكوبين وبحرص وضع كوب اليد اليمنى أمامها واختار هو كوب اليد اليسرى..

- «لا أريد أن أضايقك.. لكني أطمع في مزيد من التدليل..»

- «قولي ما شئت.. فأنت الحامل لا أنا لو لم تخني الذاكرة..»

- «نسيت إحضار الفاكهة من الثلاجة.. فهل جلبت لي بعضها؟»

هكذا انصرف، وهكذا وجدت وقتًا كافيًا كي تتخلص من العصير.. أين؟ أين؟ المزهرية الموضوعة على المنضدة..

في اللحظة المناسبة قبل أن يعود، وحين عاد كان كوبها فارغًا وهي تمسح شفتيها في امتنان..

بعد دقائق أعلنت أنها راغبة في دخول الفراش..

بدأ يخلي المنضدة من الأطباق.. على حين اتجهت إلى الحمام لتغسل وجهها، ثم دلفت إلى الفراش.. وبعد دقائق تعالى صوت تنفسها المنتظم..

لن تنام.. مهما كان الإغراء فلن تنام.. يجب أن تعرف.. أناملها تعتصر السكين تحت الوسادة.. السكين التي أخفتها في الحمام ثم تحت الروب..

لابد أنها استعادت ذكريات شبابها كاملًا وحينما نظرت إلى المنبه جوار الفراش.. إنها الثالثة صباحًا.. هو يرقد جوارها ويبدو نائمًا في عمق، وهي لا تجرؤ على أن تتحرك..

الآن ينهض ببطء.. الآن يمشي في الخارج.. الآن يفتح باب الشقة..

هذه هي اللحظة التي تعرف فيها كل شيء..

كانت تشهق في انفعال.. ترتجف كورقة.. لكن أذنيها مرهفتان كقط صغير..

تسمع صوت أناس يتكلمون بالخارج.. رجال ونساء يتحدثون.. زوجها يقول:

- «إنها نائمة.. لا تقلقوا.. خذوا راحتكم..»

صوت غليظ يقول:

- «إذن ماذا تنتظر أيها البشري؟»

زوجها يقول لصاحب الصوت في لهفة:

- «أنت سيدي.. أنت سيدي.. إن الشرف يغمرني..»

ثم صوت واحدة.. تبًّا.. إنها هي (هيلدا) ذاتها.. تقول:

- «خذوا الحذر.. لقد بدأت تشعر بريبة..»

الصوت الغليظ يقول:

- «إن البذرة فيها الآن.. لا أحد يقاوم (أبراكساس) أبدًا..»

الآن كانت تبكي بلا انقطاع.. وصار جسدها متوترًا كأنه وتر القوس..

الأصوات تدنو.. والصوت الغليظ يقول:

- «هلموا يا أبنائي لنبدأ الطقوس..»

يقول زوجها:

- «بالمناسبة.. هي متيقظة الآن وتتابعنا! لقد أفرغت كوب العصير في المزهرية بينما كنت أنا في المطبخ! تحسبني لم ألحظ ذلك!»

إنهم على باب الغرفة الآن..

إنهم..

وفي اللحظة التالية وثبت من الفراش.. اندفعت كالسهم نحوهم..

لم تستطع إلا أن ترى زوجها وسط بعض الناس، وكان ينظر لها بدهشة.. وفي اللحظة التالية وثبت فوقه كقطة مسعورة، وغرست السكين في عنقه..

غرسته.. غرسته.. غرسته.. وشعرت بالزوج يتهاوى كالبالون المثقوب أمامها..

وقبل أن تغيب عن الوعي سمعت (هيلدا) تصرخ في هستيريا:

- «ماذا فعلت يا حمقاء؟! هذه كانت دعابة.. مجرد دعابة ثقيلة! إن زوجك يهوى الدعابات!»

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (مازن):

- «فيما بعد عرفت الزوجة القصة كاملة.. في الحقيقة لم يكن المشي في الظلام موهبة ما.. هناك أشخاص يرون أفضل من سواهم في الظلام.. بعد موضوع حريق الحمام وشجاعة الزوج الحقيقية النادرة خطر لـ (هيلدا) أن تبدأ نسج هذه الدعابة التي راقت للزوج.. كان يحب أن يتندر على سذاجة (هالة) واستعدادها لتصديق كل شيء.. وببطء راحت (هيلدا) و(إنريكه) تسممان حياة الزوجة بأكاذيب عن الزوج.. لم يكن هناك زوار يأتون ليلًا بل (هيلدا) وزوجها طرقا الباب ذات مرة ليكلمهما الزوج ويغرسا قصة ملفقة عن الزوار الليليين.. لم تكن هناك أقراص منومة ليلًا لكنهما أقنعا (هالة) بذلك.. في النهاية عرف الجميع أن (هالة) لن تتناول العصير وستبقى متيقظة، ولسوف تفتش مكتب زوجها.. طبعًا كان كل شيء معدًا كي تجد ما وجدته.. هنا تتم الزيارة المرهوبة.. لكنهم لم يقدروا أن الدعابة قد تتحول إلى مأساة، وأن الشخص الرقيق كالزوجة يمكن أن يتوحش عندما يقتله الرعب..»

قلت له وأنا أبتلع ريقي الذي جف:

- «دعابة ثقيلة جدًّا، وأشعر أن الزوج استحق الذبح فعلًا.. كما أرى أن (هيلدا) و(إنريكه) كانتا بالفعل تحقدان بشدة على الزوجة المصرية الهانئة..»

هزّ رأسه موافقًا.. ثم أضاف:

- «لكن الأمور ليست بهذا الوضوح دومًا.. هنا يبرز سؤال مهم عن كيف فتح (كمال) مقبض الحمام؟ لم تكن الدعابة واردة في ذلك الوقت.. ولم تكن الزوجة لتترك زوجها يحترق لمجرد أن تكون الدعابة محكمة.. هذه نقطة..»

ثم مد يده إلى الوعاء الذي حفظ فيه الجنين وهو يقول:

- «لم تحتفظ (هالة) بوليدها في المصحة التي نقلت إليها.. لقد أجهضت.. وقد احتفظ أحد الأطباء بالجنين إلى أن حصلت عليه أنا.. والسبب هو هذا..»

وأدار الوعاء.. فرأيت بوضوح تام أن الفقرات العصعصية للجنين كانت متحورة على شكل ذيل كامل.. ذيل كامل مشقوق..

هتفت في رعب:

- «هل تعني أن؟»

قال وهو يبتسم:

- «ثمّة رواية شهيرة اسمها (36 ساعة) للأديب (كارل هيتلمان Carl Hittleman) تحكي عن ذلك الضابط الأمريكي الذي كان يعرف كل كلمات الشفرة وموعد هجوم الحلفاء على ألمانيا.. كان من المستحيل أن يتكلم مهما عذبوه وقد عرف الألمان هذا، لذا خدروه واختطفوه وأجروا جراحة جعلته يتقدم في العمر شكليًا.. نقلوه إلى مكان أعدوه سلفًا يبدو في كل شيء كأنه قاعدة أمريكية.. الأطباء الذين يحيطون به يبدون أمريكيين ويتكلمون الأمريكية بطلاقة.. حين أفاق أفهموه أنه في قاعدة أمريكية، وأن الحرب انتهت منذ أعوام، وأنه فقد وعيه وذاكرته، لكنه الآن بخير.. عليه أن يأخذ راحته..

«ثم بدأ العلاج النفسي.. مطلوب منه - على سبيل تنشيط الذاكرة - أن يذكر كل شفرات القوات الأمريكية في الحرب.. متى كان الهجوم.. أين؟ إلخ.. بالطبع تكلّم الرجل.. لكنه فيما بعد اكتشف الحقيقة لأن جرحًا كان في إصبعه منذ أيام، ومن المستحيل أن تنتهي الحرب ولما يشف هذا الجرح بعد.. هكذا صار عليه أن يبرهن على أنه اكتشف الخدعة مبكرًا وأنه كان يخدع النازيين من البداية.. ويبدو أنه نجح في ذلك..»

كنت أعرف القصة جيدًا بل رأيت الفيلم عدة مرات، فقلت له في عصبية:

- «ما دور هذه القصة هنا؟»

ابتسم في غموض وقال:

- «لعب أتباع (أبراكساس) نفس الدور تقريبًا.. لقد خُدعت الزوجة مرّتين.. فكر في الأمر جيدًا ولسوف تجد أنني على حق.. إن الشبه بين القصتين شديد..»

ثم تنهد واتجه إلى الواجهة الثالثة ووقف يتأملها بعض الوقت، حيث كانت تلك المادة الهلامية المتحجرة.. كأنها شمعة عملاقة ذابت تمامًا..

كنت الآن قد وصلت إلى حقيقة مفروغ منها: هذا الرجل ليس رجلًا.. سوف تشرق الشمس لأجد أنه لا وجود له.. لقد عشت هذا الموقف مرارًا.. لكني على الأقل أعرف أن قصصه حقيقيّة.. ثم كيف أتأكد من نظريتي هذه؟ لا سبيل إلا أن أنتظر..

قال لي بصوته الغليظ:

- «القصة الثالثة تتحدّث عن نوع ثالث من الرعب (ماذا يجري في ذلك البيت؟).. إنّه شعور بدائي مخيف لكنه موضوع قصتنا التالية..»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

في العام ١٩٦٥ كان هناك مختبر قرب (كييف Kiev) في الاتحاد السوفييتي..

كان هذا المختبر يمارس بعض التجارب الغامضة التي لم تتضح طبيعتها.. كنا في ذلك الوقت في ذروة عصر الحرب الباردة.. والعلاقة بين القوتين العظميين علاقة من الشك المتبادل والمقت.. وكانت أمريكا لا تعرف بالضبط مدي ما بلغه السوفييت من تقدم علمي، مما أدى إلى المبالغة في أحيان كثيرة.. إلى حد أنهم سألوا أحد علماء الفضاء الأمريكيين عما يتوقع أن يجدوه لو وصلوا إلى القمر، فقال بثقة: السوفييت طبعًا!

لهذا لنا أن نتوقع أن أحدًا على وجه البسيطة لم يعرف بكنه التجارب التي تدور في ذلك المختبر ولا طبيعتها.. باستثناء أفراد محدودين جدًّا في الحزب وفي الجامعة.. ولما كان هذا المختبر قد تلاشى تمامًا الآن فإنني أعتقد - بلا فخر - أنني وأنت الوحيدان اللذان يعرفان يقينًا ما كان يحدث هناك..

كان المشرف على المختبر أستاذًا سوفيتيًا يدعى (أندريه أنسيمفتش خارين) - يمكننا أن نكتفي باسم (خارين) فهو يبدو محببًا للسمع - وكان طبيبًا بشريًا قبل أن يهتم بالظواهر الخارقة للطبيعة، والسوفييت كما نعلم هم أول من اهتم بهذه الأشياء بشكل علمي وحاولوا أن يقننوها..

وكان (خارين) كثير السفر واسع العلم، وقد ارتحل مرارًا إلى إفريقيا وأمريكا الجنوبيّة.. رأى الكثير جدًّا وشاهد ما هو أكثر.. وفي النهاية عاد إلى مختبره ليطبق ما وجده..

لكن الحكومة وجدت بعد أعوام أنّ هذه التجارب لم تقدم شيئًا.. إنها تستهلك الكثير من الإنفاق الحكومي ولا تبدو لها نتيجة ملموسة ولهذا قررت أن تغلق هذا المختبر وأن توقف التجارب..

كانت الصدمة عنيفة على (خارين)، لهذا اعتكف في داره لفترة، ثم طلب إذنًا لحضور أحد المؤتمرات في (بلجيكا).. وذهب هناك مع مساعده.. ثم ذاب تمامًا لم يعد أحد يعرف أين هو ولا ماذا فعل.. هؤلاء القوم حمقى، فلو سألوني لقلت لهم إن هذا هو ما سيحدث بالضبط..

لم تكن هذه حادثة غير مسبوقة على كل حال.. كثيرون حاولوا الفرار من وراء الستار الحديدي.. بعضهم نجح وحصل على حق اللجوء السياسي واستغله الأمريكان كبوق دعاية ضدّ الشيوعية، وبعضهم فشل.. عندها لا نسمع عنهم ثانية.. ربما تعامل معهم الـ KGB بشكل ينهي أوهامهم.. هذا هو الأرجح على كل حال..

حسن.. لا أحد يعرف شيئًا عن الدكتور (خارين) منذ العام ١٩٦٨.. وبمرور الوقت لم يعد هناك مختبر قرب (كييف).. ولكن القصة لم تنته..

بالواقع كانت قد بدأت

☆ ☆ ☆

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا غريب الأطوار..

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا لا يتكلم كثيرًا..

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا لا يحبّ الأطفال..

كان (جان بيير) الصغير يقول: جارنا يبدو ككائن من كوكب (يوريك) ينتظر لحظة الغزو..

وكان الأب يقول: اخرس يا (جان بيير)..

هذه طريقة تربوية أثبتت فعاليتها منذ الأزل.. وقلما تفشل..

لكن الأطفال في السابعة لا يستجيبون للطرق التربوية الناجحة.. لقد راح الصبي يأخذ حوض السمك الكروي الفارغ ويثبته على رأسه، ثم يخرج فاردًا ذراعيه في الصالة وهو يردد بلا توقف:

- «يا أهل الأرض.. استسلموا لجيش (يوريك) العظيم قبل أن نحرقكم بالأشعة الكونية..»

ويطارد أخته الصغرى عبر الحجرات وهي تصرخ.. فلا ينقذها إلا أن تركض إلى غرفة المكتب حيث الأب يراجع أوراقه.. هنا يدخل الصغير فيثب الأب مذعورًا ويصرخ:

- «ستختنق يا أحمق!!»

وينزع الحوض عن رأسه ثم يأتي بفرشاة الشعر، ويرقد (جان بيير) على ركبتيه كي يوسع مؤخرته ضربًا..

هذه طريقة تربوية ناجحة أخرى.. والحقيقة أن الصغير لن يفكر بعد اليوم في ارتداء الحوض على رأسه من دون أن تؤلمة مؤخرته..

☆ ☆ ☆

إنّه (إبريل) حيث كل شيء جميل براق.. نظيف..

في الصباح كان الأب يذهب إلى العمل.. يقبل زوجته ويعبر الحديقة إلى حيث تنتظر سيارته الصغيرة الحمراء فكان أحيانًا يلقى جارهم وهو يأخذ بريده فيحييه بهزة رأس..

بالفعل لا يعد السيد (روسكوف) ودودًا على الإطلاق.. إنّه عجوز أصلع الرأس لكن ما بقي منه على جانبي رأسه يوشك أن يبدو كقطع قطن لصقها هنالك على عجل.. وله وجه قاتم مكفهر يجعلك تتوقع أن تبدأ يومك بنيزك يهوي فوق رأسك..

يبدو أنه مهاجر من شرق أوروبا.. للغته الفرنسية طابع شرق أوروبي لا يمكن أن تخطئه.. وقد جاء إلى المنطقة منذ أشهر، وهو لا يتكلم كثيرًا.. لا يتكلم على الإطلاق، ولا يخرج تقريبًا.. واضح أنه يحصل على كل حاجياته من السوبر ماركت هاتفيًا.. وحتّى هذه اللحظة لا يبدو أنه كان يمارس عملًا معروفًا..

في هذه المرّة بدا أن الرجل راغب في بعض الكلام لقد هزّ رأسه مرّة أخرى..

سأله الأب:

- «يوم جميل.. هه؟»

فهز الرجل رأسه من جديد بمعنى أنّ هذا يوم جميل..

كانت هذه أطول محادثة ممكنة مع الرجل، وبدا للأب أنّ هذا يوم خارق للعادة.. هكذا انتهى من هذه الثرثرة وأدار محرك سيارته مبتعدًا.. إنّه (إبريل) حيث كل شيء جميل براق... نظيف..

وقف الضيف يرمق السيارة حتى ابتعدت تمامًا ثم عاد إلى داره..

☆ ☆ ☆

- «أؤكد لكما أنه غريب.. قادم من الفضاء..»

- «لماذا؟ الغرباء لا يبدون كذلك.. دائمًا هم يبدون مثلي ومثلك، لكن حين يجرحون يسيل منهم دم أخضر أو يخرج شعاع نور ساطع من الجرح..»

- «من الممكن أن يأتي غريب يبدو غريبًا..»

كان هذا طبعًا هو (جان بيير) مع صديقية (سيمون) و(كلود).. إنهم ثلاثة شياطين فقط لو فهمت كيف يمكن لطفل في السابعة أن يكون شيطانًا.. وكل منهم لديه أخت صغيرة مزعجة لا تكف عن الشكوى، وأم تصدق الأخت دومًا، وأب يصدّق الأم طبعًا لأنّه لا يستطيع أن يفعل غير هذا..

كانوا يتحدثون عن المسكين المسيو (روسكوف) طبعًا..

وهكذا قضى الصبية الوقت يلعبون أمام باب الرجل محاولين أن يروه في لمحة ما.. ولما لم يخرج كما هي العادة تمددوا على بطونهم عبر الطريق من الجهة الأخرى، كما يفعل رجال العمليات الخاصّة إذ يراقبون معسكرًا..

كان البيت من طابقين، صغيرًا جدًّا، وله حديقة غير منسقة.. لكن حرص الرجل على أن يغلق كل الستائر بدا لهم مرضيًا.. أحيانًا كان يفتح نافذة ما، بحيث لا يبدو منها ثم يغلقها ثانية..

ثم قرروا أن يبدءوا تقنية أخرى هي لعب الكرة.. لعبها بحيث تضرب باب الرجل من آن لآخر.. إن الصبية يجيدون هذه الأعمال المزعجة.. وفي مصر هناك مثل شعبي معناه (إن أردت أن تطرد أحدهم من القرية، فأطلق عليه الأطفال)..

بوم!!

هكذا ارتطمت الكرة بالباب.. فارتج..

انفتح الباب وبرز الجار العجوز وقد ازداد وجهه كآبة.. ونظر عبر الطريق فرأى الصبية واقفين في نوع من التحدي له.. كان قد اعتاد هذه الأمور كما هو واضح.. لا بد أن كثيرين تحرشوا به من قبل.. والسبب هو الاستفزاز الذي يسببه الرجل المنغلق الغامض.. كأنه يهين الآخرين.. أو كأن في انغلاقه درجة ما من التعالي.. لو كان ثرثارًا يقف في وسط الطريق ولا يكف عن السباب لتركه الناس وشأنه..

لكن الرجل كان عمليًا.. نظر إلى الأرض فوجد الكرة.. انحنى وحملها تحت إبطه كما تحمل أنت بطيخة وعاد إلى الداخل وأوصد الباب خلفه..

- «كرتي!!»

كذا صاح (كلود) وهو يركل الأرض في عصبية..

ثم إنِّه استدار إلى (جان بيير) وصاح مغضبًا:

- «أنت صاحب الفكرة.. هذه الكرة غالية الثمن ومفضلة لدي..»

قال (جان بيير) في برود:

- «أنا لم آخذها.. هو فعل.. لو كنت تريدها بهذا القدر فلماذا لا تطلبها منه؟»

- «أنت صاحب الفكرة..»

- «وأنت صاحب الكرة..»

هكذا دار الجدل المحتدم العصبي.. وبدا أنه ما من واحد من هؤلاء الشجعان يرغب في الدنو من الرجل أكثر من اللازم.. لماذا؟ ألم نتفق على أنه غريب من كوكب (يوريك) جاء ليعد للغزو؟

في النهاية قال (جان بيير) وهو بالمناسبة أكبر الثلاثة سنًا.. صحيح أن الفارق بضعة أشهر، لكن هذه الفوارق تغدو قرونًا في عالم الأطفال:

- «سأدق بابه أنا وأستعيد الكرة...»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

بخطوات مرتبكة متعثرة عبر (جان بيير) الطريق متجهًا لباب الرجل.. نظر للوراء نحو صديقيه، ثم رفع قبضته دق على الباب.. ثم إنّه لاحظ وجود جرس هناك فضغط عليه..

وفي هذه اللحظة بالذات خطر له أن يفر هاربًا، ثم تماسك وقد أدرك أن صديقيه يرمقانه..

انفتح الباب وظهر الوجه الكئيب العجوز..

- «معذرة يا سيدي.. نحن لم نقصد أن نضرب بابك بالكرة..»

ظل الرجل يرمقه في ثبات كأنما هو صامت لا يتكلم.. فابتلع الفتى ريقه اللزج، وقال:

- «هل تسمح لنا باسترداد الكرة؟»

لدهشة الصبيين أفسح الرجل الطريق ليدخل (جان بيير) من الباب..

وكما حكى (جان بيير) فيما بعد اقتاده الرجل إلى الحديقة الخلفيّة.. هناك كان صندوق من الخشب موضوعًا على العشب، وكان يشبه صناديق الاقتراع ذات الفتحة في أعلاها..

دنا منه الرجل وأشار إليه باشمئزاز ولا مبالاة وقال:

- «كرتك بالداخل.. خذها ولاتعد هنا أبدًا..»

كانت الفتحة صغيرة لا تسمح برؤية ما بداخل الصندوق ولم يتساءل الصبي لحظة عن كيف دخلت الكرة هنا، فقد افترض أن للصندوق بابًا جانبيًا أو سفليًا.. لكن الفتحة كانت تسمح بدخول اليد.. هكذا أدخل يده دون تفكير وبلا حذر..

بخ خ خ خ خ خ!

دوى الصوت الحاد البري من داخل الصندوق، وشعر بشيء يخمش يده فوثب إلى الوراء مذعورًا.. هنا انفجر العجوز ضاحكًا..

لم تكن ضحكة عادية، إنما هي ضحكة من ضحكات السينما المفتعلة المبالغ فيها.. كان يرجع رأسه للوراء ويغمض عينيه، وقد فتح فاه كاشفًا عن فم خال من الأسنان تقريبًا ما عدا سنين مصفرتين في الفك السفلي..

ها ها ها ها ها؟

ولم يعرف الصبي متى ولا كيف فر من أمام الرجل عابرًا المنزل ركضًا..

ها ها ها ها ها!

ها ها ها ها!

ها ها ها!

الضحك مستمر لكنه يخفت تدريجيًا وهو يخرج من الباب الأمامي باكيًا.. يعبر الطريق في ثلاث وثبات ليكون مع صديقيه.. ولم يدر الصبيان لماذا ولأي سبب راح ثلاثتهم يجرون مذعورين، بينما الضحكات المجنونة تلاحقهم..

لا بد أنهم كفوا عن الجري عند حدود (تنزانيا) مثلًا..

هناك وقفوا يلهثون ويلتقطون الأنفاس.. أخيرًا رفع (جان بيير) يده ليرى ما دهاها.. كان هناك خدش واضح دام على ظهر يده وفي كفها.. وقد راح يمتص الدم وهو يبكي في غل:

- «إنّه شرير.. لقد أخافني..»

قال (سيمون):

- «ألم تعرف ما كان في الصندوق؟»

- «كيف لي ذلك؟ غالبًا هو قط أو كلب صغير.. لكنه شرس..»

- «سنخبر بابا..»

- «لا.. هذا سيضعنا في مشكلة.. لماذا تضايقون هذا العجوز الطيب؟ طاخ طاخ!»

للأسف كان هذا حقيقيًا.. لكنهم فقط كانوا يدركون شيئًا واحدًا: هذا العجوز قد خدعهم بشكل خسيس قاس ولابد من انتقام.. آه ه! إن تصوّر ضحكة النصر على ثغره القبيح الآن لأمر يثير الجنون! كان كل منهم الآن على استعداد لمصارعة أسد - لو اقتضى الأمر - فقط كي يزيل هذه الضحكة عن وجه الرجل.

☆ ☆ ☆

قال الأب وهو يلتهم الجبن في نهاية الوجبة كما هي العادة الفرنسية:

- «لقد دعوته إلى العشاء معنا..»

قالت الأم محتجة:

- «لا يبدو لي ضيفًا مريحًا..»

- «لكنه مثير.. لا بد أن عنده قصصًا غريبة.. هؤلاء المهاجرون من شرق أوروبا يملكون حكايات مسلية للغاية، وأنا أعترف لك هنا بأن الفضول يقتلني لمعرفة من هو..»

- «وهل قبل الدعوة بهذه البساطة؟»

- «لم أترك له فرصة الاعتراض.. قلتها وانصرفت قبل أن يرفض..»

كان (جان بيير) يلتهم غداءه في اشمئزاز كعادة الصبية في سنه.. لكن ما قاله الأب جعله يلتهب حماسة، وفي عينيه التمعت نظرة غادرة شيطانية..

- «لن يكون في داره هذه الليلة.. هذه فرصة نادرة..»

قال (كلود) وهو ينظر له بتشكك:

- «كيف تضمن هذا؟»

- «لأنّه سيكون في دارنا.. يلتهم طعام أمي!»

- «أوه! يا للقرف!»

- «المهم أن بيته سيكون خاليًا.. ولسوف نعرف كيف ندخله..»

- «والغرض؟»

- «سنتلف كل شيء! سنرى ما يهتم به ونتلفه لو كان رسامًا سنخلط الأصباغ على سجادته.. لو كان كاتبًا سنسكب الحبر على أوراقه.. لو كان فضائيًا سنتلف مكوكه المخصص للعودة!»

- «لا تعتبرني معكم..»

نظر (جان بيير) إلى (سيمون) نظرة من يستثير نخوته:

- «وأنت؟ المفترض أن تغضب لأن الرجل أهان صديقك..»

بدا التردد على وجه (سيمون) ثم قال:

- «نعم.. أريد الانتقام لكن دخول بيته.. آسف.. هذه جريمة.. ثم من أدرانا ما يوجد هناك؟ لربما كان يربي النمور..»

- «ولو كان يربي النمور فلسوف نطلق سراحها!»

ثم قال في قلق:

- «إذن لا أحد معي؟»

قال (سيمون) الحل الوسط الذي وجده ما بين المخاطرة الزائدة والجبن الملوم:

- «سأراقب المخرج حتى لا يفاجئك أحد..»

- «إذن موعدنا الثامنة مساء..»

☆ ☆ ☆

في السابعة والنصف جاء الضيف..

لم يقابله (جان بيير) لأنّه أخبر أمّه أنه لا يرغب في تناول العشاء، وكان على كل حال يعرف أنّ هذا سيسرها آخر شيء تريده لدى قدوم ضيف للبيت لأول مرة أن تجد طفلًا مزعجًا عليك أن تراقب تصرفاته.. هكذا سمحت له بعدم تناول الطعام.. بل الخروج إذا أراد..

وكان السبب الآخر الذي راق له هو أنه لا يرغب بأي شكل في أن يراه الرجل.. سيكون هذا محرجًا..

وفي الثامنة مساء كان يقف قرب بيت الرجل على الجهة الأخرى من الطريق، في ذات الموضع الذي راقبوه منه أول مرة..

بعد قليل جاء (سيمون) وهو يجر قدميه.. يسهل معرفة كيف تتم هذه المواقف.. إنها عبارة عن مجموعة أشخاص يخشى كل منهم أن يتهم بالجبن هكذا تتحرك عجلة التاريخ..

- «أنا هنا!»

قالها وهو يرقد على العشب..

قال (جان بيير) وهو يخرج كشاف الجيب الصغير:

- «هناك باب خلفي.. على الأرجح سأتمكن من الدخول منه.. سأدخل وأفسد أشياء ثم أعود إليك.. لو رأيت أحدًا أطلق صيحة البومة..»

- «أنا لم أسمع بومة في حياتي!»

- «إذن اصرخ بأعلى صوتك..»

ونظر حوله في الظلام فلم ير أحدًا.. إن غرفة الطعام في داره مضاءة والمأدبة على قدم وساق.. ما زال هناك وقت.. وهكذا عبر الطريق جريًا، ودار حول منزل الرجل.

كانت الحديقة الخلفيّة مهملة تناثرت فيها بعض الصناديق الخالية.. مشى في حزم وخفة وأدار المقبض، لكن الباب لم ينفتح.. جرب مرّتين دون جدوى.. هذا الوغد حذر.. وهو - (جان بيير) - لم يلق قط من يتذكر غلق باب المنزل الخلفي..

هكذا راح يدور حول البيت بحثًا عن ثغرة ما..

كانت هناك فتحة قرب الأرض.. واضح أنها مخصصة الدخول وخروج الكلاب.. هو لم ير أي كلب هنا على الإطلاق.. إنها لا تكفي لدخول أي لص يحترم نفسه، لكن ماذا عن الصبية؟

هكذا دسّ جسده في الفتحة وراح يحشر.. ويحشر أخيرًا وجد نفسه في الداخل..

كان قلبه الآن يخفق كطبل هذه أكبر جريمة ارتكبها منذ ولد، وقد ارتكبها فعلًا، ولم تعد هناك أعذار..

الظلام دامس بالداخل.. يشعل الكشاف فيرى أقذر بيت يمكن تخيّله.. كل شيء ليس في مكانه.. كل شيء مهمل أو مبعثر.. لو كان خنزير يعيش هنا لكان تفسيرًا منطقيًا..

هكذا راح يفتش البيت في رفق.. في حذر.

وفي كل لحظة يزداد الانطباع في ذهنه.. هذا الرجل مجنون.. لا يمكن أن يتحمل الحياة هنا إلا مجنون..

هذه هي الثلاجة.. ترى ما الذي يأكله؟

فتحها فدهش لأنّه لم يجد بها أي طعام.. بل عشرات من الزجاجات.. حجم الزجاجة أقل من زجاجة المياه الغازية.. ربما النصف.. ربما كانت تحوي خمرًا لكنه نوع من الخمر كتب اسمه بحروف عجيبة.. هذا الرجل إذن لا يأكل بل يشرب..

كان هناك قبو تقود له درجات سلم..

وخطر له أن القبور في القصص يخفي دومًا الشر الأكثر إرعابًا.. لو كان الرجل من كوكب (يوريك) فلسوف يحوي القبو أسلحة الدمار الكوني.. فليلق نظرة..

☆ ☆ ☆

نظر الرجل في ساعته ومسح فمه بالمنشفة، ثم قال بلهجته الثقيلة:

- «عشاء ممتاز يا سيدتي.. لكني تأخرت!»

تبادل الزوج وزوجته نظرة ذات معنى، ثم هتف في العجوز:

- «لم نتكلم بعد.. كنا سنجلس في غرفة المعيشة وندخن بعض الوقت..»

- «أنا لا أدخن..»

ضحك الزوج طويلًا:

- «ولا أنا.. فقط أردت أن نجلس قليلًا و...»

تجشأ الرجل في فظاظة وهو ينهض وأفرغ بقايا الكأس في فمه وقال:

- «مأدبة عظيمة يا سيدتي.. لكني مضطر للانصراف أكره ألا أدخل فراشي قبل التاسعة..»

قال الزوج مجاملًا:

- «أنت عسكري سابق حين كنت في (تشيكوسلوفاكيا).. لا بد أن حياتك كانت تتحرك بدقة الساعة..»

- «هذا صحيح..»

قالها وهو يتجه إلى الباب..

وهمست الزوجة من بين أسنانها:

- «إنّه فظ فعلًا.. التهم طعامي الطيب ثم هو ينصرف.. من دون أن نتبادل عشر جمل مفيدة.. في المرّة القادمة يجب أن تحسن انتقاء من تدعوهم للعشاء..»

وكان الرجل قد فتح الباب فعلًا:

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

كان الأمر أقرب إلى مختبر..

الآن يفهم (جان بيير) سر الشيء الذي خمش يده هذه الأقفاص تحوي تلك القردة الصغيرة الصلعاء التي يعرفها لكنه لا يعرف اسمها.. وهي ترمقه بعيون متسعة خائفة تلتمع في وهج الكشاف..

(تبًّا! هل القردة تنقل السعار؟)

إذن هذا الرجل يربى القردة سرًا.. لا بد أن سيارة جاءته منذ أيام في الليل ونقلت له حمولتها.. إن القبو يجعل سرها مكتومًا لا يعرفه أحد.. لن يسمع أحد صراخها..

كانت هناك أنابيب اختبار.. أجهزة علمية لا يفهم ما هي..

وكان هناك (مرطبان) كبير ألصقت عليه بطاقة مكتوبة بحروف لا يمكن قراءتها.. (المرطبان) يحوي مسحوقًا أبيض غامضًا أقرب إلى السكر.. وقد دون تحته تاريخ أمس بالذات..

هناك لوح كتابة دونت عليه كتابة غريبة.. ثمّة صور فوتوغرافية معلقة على الجدار.. صور بالأبيض والأسود مع لمسة البني المميزة لصور الماضي.. هذا هو (روسكوف) إنّه شاب لكنه أصلع الرأس كما هو، يقف باحترام جوار رجل عسكري كث الشارب.. ثمّة صور له في مختبر.. صورة له يقف مع رجال عسكريين ويشير إلى شيء ما على الأرض في حقل..

كانت فكرة الانتقام قد خطرت له الآن..

اتجه إلى (المرطبان) وفتحه.. بحث حوله فوجد كيسًا صغيرًا من البلاستيك، فتحه وأفرغ فيه ملء قبضة اليد من محتوى (المرطبان).. ثم غادر القبو..

لسبب ما بدأ يشعر بالذعر الآن.. لسبب ما قرر جهاز الهلع النائم في عقله أن يعمل..

لكنه لن يخرج من هنا قبل أن ينهي مهمته..

اتجه إلى الثلاجة ففتحها.. أمسك بأول زجاجة فأزال غطاءها.. كانت لحسن حظه من الطراز غير (المبرشم).. هكذا أفرغ بعض المسحوق الكريه فيها وأغلقها بإحكام.. مهما كان مضمون هذا المسحوق فالرجل سيتلقاه في أحشائه وكرر الشيء ذاته مع باقي الزجاجات التي كانت على السطح..

(الباب ينفتح!)

وفي اللحظة ذاتها سمع صراخ (سيمون).. صراخًا سخيفًا يحاول التظاهر بأنه بومة أو وحش ليلي..

وثب قلبه في فمه.. ركض إلى.. لا.. ليس القبو..

(هل انتهت المأدبة؟ كيف عاد بهذه السرعة؟)

ركض إلى حجرة الجلوس.. المشكلة أنه نسي أين كانت الفتحة التي دخل منها.. هل كانت في الصالة؟؟؟

في النهاية قرر أن يتوارى خلف مقعد عملاق من الطراز الذي يسموّنه Arm Chair.. وحبس أنفاسه وهو يسمع الرجل يتكلم.. كان يسب لكن بلغة غريبة.. لا يصعب أن تعرف السباب حين تسمعه.. أغلق الباب.. الضوء يغمر المكان..

سمع الرجل يمشي في الصالة.. صوت الثلاجة يفتح ثم.. الرجل يدخل الغرفة التي هو فيها.. يسترخي على المقعد الذي يتواري وراءه.. رائحة أنفاسه كريهة لا تطاق.. إنها بالفعل تلوث المكان الذي يجلس فيه..

كان يغني في إنهاك وبلا اتساق أو تناغم كما يفعل السكارى: كالينكا.. كالينكا!

صوت (لق لق لق).. الرجل يجرع من زجاجة ما بنهم شديد.. أبهذه السرعة؟ لقد فرغت.. يلقيها أرضًا لتقع جوار (جان بيير).. ثم يبدو أنه يشرب زجاجة أخرى بذات النهم..

فجأة دوّت صرخة مريعة..

لم يدر الصغير المذعور ما حدث.. فقط شعر بأن الرجل يسقط من على المقعد.. يصدر صوتًا مخيفًا كأنما شخص يذبح حيًّا.. الحشرجة من حلقه وصوت الرغاوي المقزز..

الرجل يصيح كمن لا يصدّق بشيء ما.. إنّه مذهول لكن لماذا؟

هنا فقط كان الذعر قد بلغ نهاية الفتيل.. فخرج (جان بيير) من تحت المقعد..

الرجل العجوز ممدد على الأرض وقد بدا فاقد الوعي.. كرشه في الهواء يعلو ويهبط.. جواره زجاجتان فارغتان من ذلك المشروب الذي كان يملأ الثلاجة.. لا يمكن المرور من هنا إلا من فوق ذراعه.. ترى هل يشعر؟

قرر أن يجازف.. رفع ساقه بحذر وعبر فوق الذراع..

وفي اللحظة التالية هب الرجل من رقدته..

شعر (جان بيير) بيد كالملزمة تطبق على كاحله فصرخ، وسقط على الأرض..

على حين جثم العجوز فوقه كالجاثوم.. بدا أكبر من الواقع.. أكبر من الحياة ذاتها..

- «أنت أيها الفأر الصغير! أنت من فعل هذا!!»

أطلق الصبي أنينًا وحاول التملص بلا جدوى..

قال الرجل وهو يقرب وجهه من (جان بيير):

- «ما دامت هذه لحظة الحقيقة فلتعلمن أنني البروفسور (أندريه أنسيمفتش خارين) من كبار علماء الاتحاد السوفييتي.. حاليًا أنا هارب من هناك.. متخفٍ كي لا يجدني رجال (كي جي بي).. أنت نزلت إلى القبو أيها الفأر.. لا تنكر ذلك! لقد رأيت صورتي مع (ستالين) الحديدي ومع المارشال (زوكوف).. لقد كنت رجلًا شديد الأهميّة وفي لحظة قرروا أن أبحاثي هراء.. والسبب أنني لم أكن أعرف ما أعرفه.. حتى العام ١٩٦٨ لم أكن أعرف ما أعرفه..»

فتح الصبي فمه وأطلق صرخة كفيلة بشفاء الصم لكن الرجل كوم منديلًا قذرًا ودسه في فمه بحنكة وبراعة لا تصدقان.. هنا فقط أدرك (جان بيير) أن مصيره أسود.. بالتأكيد يختلف عن شد أذنيه.. لماذا لا يريد الرجل أن يسمع صرخاته أحد؟ لماذا لم يجره من أذنه إلى داره كي يطلب أن يعاقبه أبواه؟

قال الرجل بلهجته الغريبة ذات الطابع الروسي:

- «أنت دسست لي المسحوق في زجاجة (الفودكا).. لقد شعرت بالشيء.. لا تكذب.. وأنت لا تعرف بالضبط ما دسسته لي ولا خطره.. كان هذا خطأ لأنك ستشرب زجاجة كاملة منه معي!!»

أنَّ الصبي في وهن.. وانتفض جسده لكن لا مجال لمقارنة الوزنين..

أردف (خارين) وهو يحك ذقنه:

- «كان هذا نيزكًا سقط في أمريكا الجنوبيّة.. وقد حصلنا عليه قبل أي واحد آخر عن طريق أجهزة استخباراتنا.. يقولون إن فرصة أول لقاء مع كائنات حية من الفضاء الخارجي لن تكون مع أشخاص خضر اللون لهم هوائيات على الرءوس.. إن فرصة اللقاء - حسب القوانين الإحصائية - ستكون مع بكتريا أو فيروس أو كائن وحيد الخلية.. هذا هو نوع اللقاءات الممكنة.. وقد حدث هذا بالفعل.. إن ما يحتويه النيزك كان نوعًا معقدًا من الحياة أقرب إلى فطر.. نعم فطر كامل.. لم تقض عليه رحلته وقد حاولت كثيرًا أن أعيد له الحياة بلا جدوى.. وحينما فررت من الاتحاد السوفييتي كنت أحمله معي..»

ثم صمت وراح يلعق شفته بلسانه كأنما يستوثق من تغيرات جديدة هناك.. وأردف:

- «عدت أمارس تجاربي بدقة.. وفي النهاية عرفت مكمن الخطأ.. لقد عادت الحياة إلى هذا الفطر بعد أعوام من السكون.. وقد جربته على القردة والقطط.. هذا الفطر هو أعتى سلاح

بيولوجي عرفه الإنسان على الإطلاق إنّه يحيل قردًا كامل النمو إلى كتلة هلامية من العجين خلال دقائق.. يكفي أن يأكله أو يحقن في دمه ولسوف ترى القرد يذوب أمامك.. تصوّر هذا!»

ثم اتسعت عيناه ونظر في وجه الصبي:

- «وأنت دسسته لي في شرابي؟! لقد شربت زجاجتين منه.. لقد عرفت هذا على الفور.. هل تعرف لماذا؟»

وفي اللحظة التالية كانت كفه في وجه الصبي.. لكن لم تكن هناك أصابع.. لقد تحولت اليد الآن إلى عجين هلامي أقرب إلى شمعة ذائبة..

قال الرجل وهو يمد يده إلى زجاجة على الأرض:

- «لقد انتهى أمري.. لكني لن أموت قبل أن أراك تشرب زجاجة كاملة منه!»

وانتزع المنديل من فم (جان بيير) فراح هذا يصرخ ويركل.. الزجاجة تقترب من فمه.. الـ...

فجأة بدأ وجه الرجل يذوب بالفعل كأنه تمثال من الشمع وضعت تحته شمعة.. ثمّة نوع من العفن الأخضر كعفن الخبز ينتشر فوق ملامحه بسرعة. أحيانًا يزحف على السطح وأحيانًا يتواري.. لكنك تراه طيلة الوقت.. لو أنك أحرقت منديلًا ورقيًا مكومًا لرأيت شعلات النار تفعل الشيء ذاته..

إنه يتهاوى.. بصعوبة سحب الصبي نفسه من تحت الشيء البشع الجاثم فوقه..

- «ستش بو.. بلو... بلو!!»

صدر هذا الصوت من كتلة الهلام الذائبة التي ما زالت تحتفظ بحقد غريب..

إنّه يتحرر.. يركض نحو الباب.. ينظر للوراء فيرى الكتلة تتهاوى والسائل الهلامي يخرج من كل فتحات ثيابها.. الباب.. أدار المقبض فانفتح.. الحديقة والليل.. حمدًا لله!

راح يركض عابرًا الطريق وهو يولول.. لا يصدّق أنه نجا..

وهناك كان (سيمون) ينتظره ممتقع الوجه.. وفتح فمه ليتكلم لكن الصبي أخرسه صائحًا:

- «اجر معي!! إنّه قادم!»

وظل الصبيان يجريان.. ويجريان.. ويجريان!

☆ ☆ ☆

عاد إلى البيت فلم يقل لأبويه شيئًا..

كان أول ما يريد هو أن يغسل وجهه ويبدل ثيابه كي لا تكون هناك أسئلة مريبة..

وقف أمام المرآة وبدأ يغسل أذنيه فوجهه.. تمضمض بالماء عدة مرات إن ملامح وجهه تكشف عن كارثة لا بد من أن يبقى في غرفته لفترة ما..

كل عضلة في جسده ترتجف.. لقد ذاب الرجل في دقائق.. ذاب في دقائق.. وكان سيرغمني على شرب ذلك الـ.. كان سيرغمني على شرب.. كان سيرغمني على شرب.. كان سيرغمني على شرب.. ذاب في دقائق.. لقد ذاب الرجل في دقائق..

ثم تصلب..

لقد لاحظ للمرة الأولى منذ يوم ذلك الخدش في يده اليمنى.. الخدش الذي أصابه من القرد في الصندوق

(يكفي أن يأكله أو يحقن في دمه، ولسوف ترى القرد يذوب أمامك.. تصوّر هذا!)

هو أمسك بالمادة التي تشبه السكر بقبضته.. هو قد..

وهنا لاحظ للمرة الأولى شيئًا لم يلحظه من قبل.. منذ متى كان إصبعه الأوسط ملتحمًا بالسبابة بهذا الشكل؟

وكلما أطال النظر أدرك أنهما يذوبان ليلتحما معًا على حين راح خنصره يلتوي كأنما هو شمعة تذوب..

هرع إلى باب الحمام وجثا على ركبتيه صارخًا بصوت مبحوح:

- «ماما!! ماما!!»

- ١ -

قال (مازن):

«بالطبع تحول الصبي (جان بيير) إلى كتلة هلامية هي التي تراها أمامك.. وقد حصلت على الكتلة وحصلت على المسحوق إياه.. قبل أن ينتهي الصبي تمامًا حكى القصة لأبويه كاملة، وقد جرى تحقيق عن الموضوع ولم تعرف الصحف شيئًا عنه.. وظل المسحوق في المختبرات الفرنسية لكني حصلت على بعضه..»

قلت له وأنا أعيد تأمل الكتلة خلف الواجهة:

- «إذن هذا طفل أو ما بقي منه!»

- «هو كذلك.. ويجب القول إنّه تلقى أقسي عقاب ممكن على شيطنته.. هذه طريقة تربوية ناجحة أخرى..»

- «وهل جربت المادة؟»

قال باسمًا وهو يتجه إلى الواجهة الرابعة:

- «ماذا تظن؟ إن الفضول هو القوة المسيطرة على الوجدان الجمعي.. أقوى من أي شيء آخر.. والآن لنر هذه الواجهة..»

نظرت إلى ساعتي.. لقد توغل الليل كثيرًا.. لقد صارت العودة إلى القاهرة اليوم وهمًا.. والغريب أننا كنا واقفين طيلة هذا الوقت فلم تتعبنى ساقاي.. لكنني قدرت أن أمامي ساعتين على الأقل قبل أن أعرف ما يجب معرفته، ومعنى هذا أن عليَّ أن أمضي ما بقي من الليل في الإسكندرية..

طلبت منه أن نستريح قليلًا فوافق، وعدنا إلى غرفة مكتبه..

غاب بعض الوقت ثم عاد حاملًا صحفة عليها بعض الشاي والشطائر.. وقد سرني هذا.. جلس يراقبني وأنا ألتهم الطعام وهو يتأمل سيجاره أكثر مما يدخنه..

- «هناك غرفة نوم يمكن أن تقضي فيها ما تبقى من الليل..»

ابتلعت ما بفمي، وقلت ضاحكًا:

- «لا أعتقد أن الأمور بهذا السوء.. إن النهار قد اقترب..»

صمت وراح يراقبني في نفاد صبر، ولسان حاله يقول: ألن تنتهي أبدًا من هذا الأكل؟ ما زال أمامنا الكثير..

بالفعل فرغت من الطعام وشربت الشاي، فنهض متعجلًا إلى المتحف دون أن يقول كلمة أخرى، وهكذا نهضت وراءه وأنا لم أفرغ من المضغ بعد..

ووقفنا أمام الواجهة الرابعة..

كانت الواجهة تحوي إناء آخر من أوعية الفورمالين الشفافة.. وبالداخل كان هناك قضيبان من الزجاج ثبتت على كل عود عين بشريّة كاملة.. كأنه عود من المكرونة في نهايته بيضة مسلوقة؛ لو لم تكن ممن يكرهون هذه التشبيهات.. على العموم كل أطباء علم الأمراض يحبونها ويطلقون عليها (باثولوجي مطعم الوجبات الجاهزة.. Deilcatessen Pathology)..

قال الرجل:

- «النوع الرابع من الرعب يتعلق بالتغيرات التي تطرأ ولا يمكن تفسيرها، على أكثر مخلوق تعرفه في الوجود - أو هكذا تحسب - أنت!»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

لم يحبّ (عادل السلاموني) زيارته لـ (موسكو) قط..

كان يشعر طيلة الوقت بأن هناك جوًا خانقًا يحيط به طيلة الوقت، وبأنّه مراقب وبأن هناك نوعًا من التوتر في كل شيء.. كانت هذه فترة السيطرة المطلقة للحزب، مما يعطي الجو كله طابعًا (أورويليًا) لا يُمكنك أن تتحمله..

كان (عادل) طبيبًا في العقد الثالث من عمره، لم يتزوج بعد.. وقد جاء إلى الاتحاد السوفييتي في بعثة تعليمية بهدف الحصول على درجة الدكتوراه في أمراض العيون.. كانت أكثر البعثات الدراسية تتجه إلى الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت..

قلت إن (عادل) لم يحبّ (موسكو) قط.. والسبب على الأرجح كل قصص الجاسوسية وأفلام (جيمس بوند) التي قرأها في صباه، والتي جعلته يشعر بأن (موسكو) مخبر كبير يراقب كل سكناته، وكان يؤمن بأن لدى الناس ما يقولونه لكنهم خائفون..

هكذا راح في لهفة يترقب الفرصة التي تنتهي فيها بعثته ويعود إلى مصر..

(أولجا)؟ من أخبرك بموضوع (أولجا)؟ إنها فتاة رائعة حقًّا من ناحية الجمال وتمثل كل أحلامه عن المرأة، حتى إنّه يتخيل صورتها في أي قاموس تحت كلمة (امرأة).. وهي تحبه بجنون ويعتقد أنه يحبّها بجنون.. لكن هناك تلك المشكلة التي لا حل لها.. إنها لا تؤمن بشيء.. تكتب في خانة الديانة في أية استمارة تملؤها كلمة (لا يوجد)..

وكان (عادل) متدينًا وقد أدرك أنه لا يستطيع الزواج منها لأنّه - ببساطة - لا يريد لها أن تربي أطفاله..

لهذا - يمكننا أن نفهم - لم تحمل له (موسكو) أية ذكرى سارة على الإطلاق سوى ذكرى الحب المستحيل.. وهي ذكرى تناسب الشعراء والأدباء، ويمكنها أن تجلب لهم رزقًا واسعًا بكل القصائد التي سيكتبونها عنها.. لكنّها لا تناسبه هو الإنسان العملي الذي لم يقرأ قصيدة ولا رواية في حياته..

كان يعد الأيام والأشهر بانتظار انتهاء البعثة، إلى أن صار شهر يفصله عن الوطن..

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

كان الأستاذ السوفييتي (يوري زاجالوف) رجلًا غاية في البدانة.. ثقيلًا جدًّا من الطراز الذي لو جلس لجلس للأبد، ولو وقف لوقف للأبد.. هناك نظرة منهكة في عينيه من الطراز الذي يقول: (أنت لن تبهرني بشيء فلا داعي لأن تتعبني معك).. كان هو المشرف على دراسة (عادل)..

قال له وهو يعبث في نموذج صغير للكرة الأرضية على مكتبه:

- «يؤسفنا أنك سترحل قريبًا يا د. (عادل) كنت طالبًا مجدًا وأعتقد بشكل ما أنك لم تحب (موسكو). لكني ما زلت أتمنى ألا تنسي أصدقاءك هنا..»

لم يرد (عادل) حتى لا يتورط في مجاملة هي أقرب إلى كذبة.. لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: لربما كره (موسكو) لكنه أحب الكثيرين من الموسكويين بلا شك..

قال البروفسور وهو ينهض:

- «إنني راغب بحق في أن أهديك شيئًا.. كلما رأيته تذكرت أستاذك (زاجالوف).. لو جئت معي إلى مكتبي..»

كانا يتكلمان في غرفة الجلوس في منزل البروفيسور.. الثلج ينهمر بالخارج، والمدفأة مريحة تجعل فكرة الانصراف من هنا كابوسًا.. لا بد أنك ستتلقى نزلة برد تزيلك من على وجه الأرض..

كان يشرب الشيكولاتة الساخنة، وهو يستشعر لذة المشروب الساخن الدسم يتسرب إلى أحشائه.. لهذا حمل الطبق في يده ومشى وراء البروفسور..

كان مكتب البروفسور مريحًا دافئًا هو الآخر، ومنسقًا بعناية.. هناك جدار تحتله بالكامل كتب طبية أكثرها كتب بالروسية.. الجدار الآخر تحتله مكتبة أدبية عملاقة تحمل أسماء مثل (تشيكوف Chekhov) و(جوجول Gogol) وغيرهم من الكتاب الكبار الذين لم يعد أحد يرحب بهم في الاتحاد السوفييتي (لأنّهم رجعيون)..

ثمة جدار ثالث تحتله واجهة زجاجية ملأى بالتذكارات.. تشبه الواجهة التي نقف أمامها..

أشعل البروفسور سيجارًا روسيًا غليظًا كريه الرائحة وقال مفكرًا:

- «هل درع التميز الطبي؟ لا.. إنني بحاجة إليه.. ثمة قلادة من سيبيريا أحتفظ بها. لكن.. ماذا عن هذه الرصاصات؟ إنها ألمانية من أيام حصار (ستالينجراد).. وهذه؟ قطعة من شظية.. هل تحب الدمى؟ هناك دمية من (أوكرانيا).. لكن.. نعم.. هي الدمية.. إنها جميلة..»

ومد يده الممسكة بالسيجار والتقط دمية خزفية تمثل فلاحة روسية تربط شعرها بإيشارب..

فوجئ (عادل) بذلك الإناء الزجاجي.. الإناء الذي نراه أمامنا الآن.. وكان متواريًا بين التذكارات فلا تكاد ترى ما فيه.. فقال في دهشة:

- «ما هذا يا بروفسور؟»

نظر البروفسور إلى الإناء وهز رأسه في تقزز:

- «هذا.. كلام فارغ.. قل إنّه تذكار لحماقتي..»

عاد (عادل) يلح على الرجل:

- «ما الذي يدعوك للاحتفاظ بعينين كاملتين في خزانة ذكرياتك؟»

قال البروفسور:

- «في شبابي كنت أحمق.. مثلك.. كل الشباب حمقى في الواقع.. وكان هناك ذلك العراف الذي قالوا إنّه يعرف الكثير من الأسرار.. وقد باعني أشياء كثيرة، غريبة لكن أغربها كان هاتين العينين..»

ثم ابتسم في سخرية ونفث سحابة كثيفة من الدخان:

- «ما رأيك في امتلاك عيني (راسبوتين) ذاته؟»

☆ ☆ ☆

- ٢ -

قال (مازن):

بالطبع ارتجف (عادل) لهذه الكلمات الغريبة.. وعاد يستوثق من المعلومة..

قال البروفسور وهو يتأمل الدمية الخزفية:

- «زعم العراف أن جثة (راسبوتين Rasputin) لم تدفن بعينيها.. لكن هناك من انتزعهما، ووضعهما في سائل حافظ ثم حقنا المحجرين بالصلصال.. ومن يومها يتوارث العرافون هذه التحفة العتيقة قال لي إن لهاتين العينين قوة مغناطيسية لا يمكن وصفها، وإنه من الخير لي ألا أطيل النظر فيهما.. قال كذلك إنني لو زرعتهما لأي شخص لاكتسب قوة (راسبوتين).. دعني أقل لك إنّه لو كانت هاتان عيني (راسبوتين) لوجدت منظمة (اليونسكو) كلها تقف خارج باب هذه الغرفة، ولربما أرسلوني إلى (سيبيريا) بتهمة اختلاس أملاك الدولة.. طبعًا انبهرت بهذا الشيء وقتها وابتعت هذه العينة المقززة، وحرصت على ألا أنظر إليها أبدًا.. ومن حينها هي عندي في هذه الخزانة لا أجد الشجاعة كي أتخلص منها..»

قال (عادل) باسمًا:

- «هذا العراف كان يفترض أنهم يزرعون العين كاملة في محجر العين..»

- «طبعًا.. هذا ما يعتقده العامة. لا يعرفون أننا نأخذ القرنية فقط بال (كيراتوم Keratome).. وحتّى على هذا الصعيد لا يمكن أن تزرع قرنية تعود لعام ١٩١٦ الخلاصة أن مالي ضاع هباء»

وقف (عادل) يرمق الإناء في نهم.. الحقيقة أن العينين فتنتاه ولا يعرف لهذا سببًا..

- «بروفسور.. هل تهديني هاتين العينين؟»

مضغ البروفسور سيجاره ونظر لـ (عادل) كأنما مجنونًا.. نفث سحابة كثيفة وقال:

- «هل جننت؟ هل هذه هدية؟»

- «قلت إنك راغب في الخلاص منها..»

- «نعم.. لكني لا أحب إهداءها لأصدقائي..»

- «إن هذه ما أتمناه فعلًا..»

نظر له البروفسور طويلًا، ثم مد يده في الخزانة وأخرج الإناء الزجاجي..

☆ ☆ ☆

كلما ذكرت كلمة (كاريزما) تداعت إلى الذهن صورة الروسي (جريجوري يفيموفتش راسبوتين)[2].. الرجل الذي كان راهبًا جوالًا ثم مرق واتجه إلى حياة الرذيلة.. إن صوره ما زالت حية بعينيه القويتين الثاقبتين ولحيته السوداء الكثيفة وثيابه السوداء التي تجعله ينضم بجداره إلى عالم المسوخ.. الفارق هنا أنه كان شخصًا من لحم ودم يمشي على الأرض..

كان يقدم نفسه للناس على أنه معالج روحاني..

كانت له سطوة نفسية لا يمكن وصفها، وكانت عيناه قادرتين على جعل أقوى الرجال يرتجف خوفًا.. أمّا النساء فكن يسقطن صرعى هواه بلا تحفظ، ويقال إنّه نموذج للرجل الذي تعلن النساء أنهن يكرهنه ويشمأززن منه فقط لأنهن يعرفن كم هن ضعيفات أمامه..

يجب أن نضيف هنا أنه كان في غاية الفجور، وكان يتحدث دومًا عن أن الأرض السوداء تنتج أشهى الثمار.. لهذا كان يبحث عن الرذائل بالمجهر ليرتكبها..

بشكل ما وصل صيته إلى البلاط القيصري، حيث كان ابن القيصر يعاني مرضًا نزفيًا متكررًا هو (الهيموفيليا Hemophilia).. وكان هناك من نصح القيصرة بأن تجرب قدرات هذا الرجل العجيب..

هكذا بدأ الطفل يتحسن، وسرعان ما تنامى نفوذ (راسبوتين) في البلاط إلى حد أنه كان بالفعل يحكم روسيا كلها من خلال القيصر وزوجته.. فقد كانت الزوجة تثق به ثقة عمياء وتعتقد أنه أطهر رجل عرفته..

وفي العام ١٩١٦ قررت مجموعة من نبلاء البلاط أن يتخلصوا من هذه الكارثة.. هكذا دسوا له السم في شرابه.. فقط ليعرفوا أن السم لا يؤثر فيه.. وقد كاد يفتك بهم بجسده العملاق المخيف، هكذا أطلقوا عليه الرصاص..

ويقال إن (راسبوتين) كان هو المسمار الأخير في قبر آل (رومانوف Romanov) الذين لاقوا نهاية مفجعة في ثورة ١٩١٧ التي جاءت بالشيوعيين إلى الحكم وأطاحت بالنظام القيصري..

أين دفن (راسبوتين)؟ لست متأكدًا من هذه النقطة لكن السؤال الأهم هو: هل دفن وعيناه في محجريهما؟

☆ ☆ ☆

هكذا عاد (عادل) إلى مصر وهو يحمل في متاعه إناءً زجاجيًا حرص على تبطينه وتغليفه بعناية كي لا يتهشم، ولحسن حظه لم يفتح أحد حقائبه لأنّه كان سيجد عسرًا في تفسير حمله لعينين آدميتين معه..

التذكار الوحيد الذي يحمله من (موسكو) هو هاتان العينان وبعض الصور مع (أولجا) وخطابات منها..

لم يكن (عادل) متزوجًا كما قلنا، ولم يكن له بيت في المدينة.. كان حتى هذه اللحظة يقيم في بيت أسرته بقريته وهي قرية تتبع محافظة (...) لديهم هناك بيت من الطوب من طابقين.. فهي أسرة على قدر من اليسر.. لكنه كان يخطط للحياة في المدينة فقط ما إن يستقر ويجد زوجة المستقبل.. وقد حرص على أن يعد غرفته هناك بعناية، ووارى الإناء في خزانته التي احتفظ بمفتاحها منعًا للحوادث المؤسفة..

فلمّا جاء الليل وانتهى مسلسل استقبال الأقارب والأصدقاء صعد إلى غرفته وارتدى جلبابًا للنوم..

لا يعرف السبب.. لكن لهفة غير عادية كانت تغمره، مع رغبة عارمة في أن يتأمل هاتين العينين..

فتح الخزانة وأخرج الإناء ووضعه على منضدة صغيرة هناك.. ثم جذب مقعدًا خشبيًا عتيقًا وجلس عليه ينظر إلى هاتين الكرتين ترمقانه من خلال الزجاج عبر السائل الشفاف..

من الخطأ أن يتكلم المرء عن عينين قويتين.. إن ما يعطي الانطباع بالنظرة هو أشياء أخرى.. شكل الأهداب.. شكل الحاجبين.. اتساع فتحة العين.. كل هذه أشياء لا بد منها لتعرف إن كانت النظرة قوية أم لا.. أمّا أن تضع كرتين في حوض زجاجي فهما ذات الكرتين لدى أي شخص آخر.. كأنك تتأمل إطار سيارة منزوعًا ثم تحاول الكلام عن فخامة السيارة ذاتها وانسيابيتها..

لكن هاتين العينين كانتا تملكان قوة جذب لا يعرف سببها..

ولوقت لا بأس به ظل يتأملهما في ضوء الغرفة الشاحب الخافت الذي يبعثه مصباح وحيد يتدلى من السقف..

كانت تنقلاته إلى عوالم غريبة لم يرها من قبل.. إنّه يرى (الكرملين) والثلج يتساقط من حوله.. هناك عربية تجرها الخيول.. أميرة روسية تغمض عينيها في افتتان.. حفلات راقصة صاخبة.. الضباط بثيابهم الأنيقة المزركشة يرفعون سيوفهم في رشاقة.. وجوه تضحك.. وجوه تبكي خيول.. ذئاب بيضاء..

كل هذا وهو ينظر إلى العينين الثابتتين..

فجأة نظر إلى ساعته ففطن لحقيقة مروعة.. إنّه هنا ينظر لهاتين العينين طيلة ساعتين كاملتين! هكذا أعادهما إلى الخزانة.. وأطفأ النور..

كانت هذه أول ليلة له في مصر منذ أعوام، وقد نام نومًا عميقًا بلا أحلام..

☆ ☆ ☆

قال الأستاذ المصري وهو يقلب صفحات الرسالة السميكة:

- «ليس بوسعنا الانتهاء من هذه سريعًا.. أعتقد أنك ستتأخر خمسة أشهر على الأقل..»

قال (عادل) في ضيق وهو ينهض من مقعده:

- «سيدي.. أنا في وضع معلق بين مصر و(الاتحاد السوفييتي).. أريد الانتهاء سريعًا كي أعرف موضع قدمي.. هم قد فرغوا من هناك ولم تبدءوا معي هنا.. لا يمكنني العودة لهم.. ولا يمكنني معاودة حياتي هنا..»

قال أستاذه وهو ينزع عويناته:

- «أفهم كل هذا لكني لا أعرف كيف أفيدك.. هل أجيز بحثًا لم أقرأه؟»

- «إذن لماذا لا تفعل؟»

لاحظ دون قصد أنه يتكلم في حدة.. الأستاذ نفسه لاحظ هذا فرفع عينه متسائلًا..

فجأة اتسعت عيناه.. نبتت قطرات عرق على جبينه، فأخرج منديله بيد مرتجفة. وقال:

- «نعم.. نعم.. أعدك أن أنتهي من ذلك في أسرع وقت..»

بنفس اللهجة الحازمة التي لم يتعمدها قال (عادل):

- «أسبوعًا واحدًا على الأكثر؟»

قال الأستاذ وهو يجفف العرق على جبينه:

- «نعم.. نعم.. أسبوعًا على الأكثر..»

- «شكرًا يا سيدي..»

قالها بذات الطريقة الحازمة الآمرة.. ودون أن تفارق عيناه عيني الرجل، ثم غادر المكتب..

حينما اختلي بنفسه لم يصدّق أنه فعلها.. قال لنفسه: لا بد أنني أملك تأثيرًا نفسيًا هائلًا لا أستخدمه.. كل هذا الحزم وكل هذا الإصرار.. والغريب أنه لم يتعمد ذلك قط..

من الغريب أن تكتشف في سن الثلاثين أنك قوي الشخصية.. يحسب المرء أنه عرف كل شيء عن نفسه متى بلغ العشرين.. لكن النفس البشريّة تشبه البصلة.. كلما أزلت المزيد من الأغشية عنها بدت لك طبقات أخرى لامعة نظيفة لم ترها من قبل..

لا بد أن تجربة الغربة قد أفادته وصقلته.. هو يكره أن يخاطب أستاذه بهذه الطريقة، لكنه إلى حدٍ ما كان يرغب في ذلك.. إن حياته متوقفة على رأي هذا الأستاذ..

☆ ☆ ☆

- «السينما هذه الليلة؟ مستحيل!!»

قالتها (تغريد) وهي تتراجع إلى الوراء في غضب..

كانت (تغريد) هي مشروع زواجه قبل أن يسافر إلى الاتحاد السوفييتي، وهي فتاة لا بأس بها لكنّها لا تقارن بـ (أولجا) من ناحية الجمال طبعًا.. لا يزعم أبدًا أنه أحبها لأنّه كما قلنا رجل عملي جدًّا.. كان يريد زوجة وكانت هي تصلح، وقد راق له أنها لم تكن قد ارتبطت بأحد لدى عودته من البعثة..

قال لها بلهجة حازمة:

- «لا أرى ما يضير في دخول السينما معي.. لست مراهقًا سخيفًا..»

- «هذا هو بيت القصيد.. لست مراهقًا سخيفًا ولا أنا مراهقة سخيفة.. لهذا لا أرى داعيًا على الإطلاق لهذه الدعوة.. أنت وعدت بأن تطلب يدي هذا الأسبوع.. فلنفترض أن أبي رفض؟ لماذا أختلي برجل لن يكون لي؟»

- «لن يرفض..»

- «وقد يفعل.. لهذا أرى أن الانتظار قد..»

نظر لها بحدة وقال وهو يضغط على كلماته:

- «(تغريد).. ستذهبين معي إلى السينما لأنني أريد ذلك.. موعدنا في السادسة مساء يجب أن أنتهي مبكرًا كي أعود إلى قريتي..»

كانت تنظر له وقد اتسعت عيناها.. متى رأى هذه النظرة من قبل؟.. شفتاها منفرجتان ترتجف السفلى منهما.. ثم قالت بصوت مبحوح:

- «ليكن.. أمرك.. أمرك.»

سُرَّ من نفسه.. لم يكن يريد شيئًا من هذه الدعوة إلا أن تقبلها.. فقط يريد أن تحقق إرادته انتصارًا ما.. وقد حققه.. حياته كلها تتحول إلى انتصارات متلاحقة...

وقال لنفسه وهو ينتظر أمام باب السينما:

- «إن شخصيتي تزداد قوة.. إنني أتمتع بكاريزما لا شك فيها!!»

☆ ☆ ☆

- ٣ -

قال (مازن):

في الفترة التالية توالت انتصارات (عادل) في معركة الإرادة.. الأب رحب به بلا تردد ووافق على أن يتزوج ابنته.. صاحب البيت الذي كان متمسكًا بمبلغ معين، وجد نفسه يتنازل عن نصفه بسهولة مطلقة.. وهكذا وجد (عادل) نفسه وقد خطب (تغريد) وامتلك شقّة لا بأس بها في المدينة، وأجيزت رسالة الدكتوراه الخاصّة به..

وقد أخبر أهله في القرية أنه سينتقل إلى المدينة.. إنّه بحاجة إلى البحث عن عيادة..

لم يرفض أحد.. بالواقع لم يعد أحد يرفض أي طلب له من زمن..

وهكذا نجد الآن أن (عادل) يقيم في شقّة وحده في المدينة، وقد كون عادات جديدة.. لكن العادة الوحيدة التي لم يتخل عنها هي الجلوس أمام العين ومراقبتها لمدّة ساعات.. لقد أدمن تلك العوالم الغامضة التي تنقله إليها..

قالت له (تغريد) ذات مرة وهو في دارها:

- «لا أعرف السبب لكن هل ثمّة مرض ما في عينيك؟»

مط شفته السفلى في تهكم، لكنّها واصلت الكلام:

- «أنا لا أمزح.. لقد تغيرتا كثيرًا وإنني لأخافهما أحيانًا..»

تجاهل ما تقول.. لكنه إذ دخل الحمام وقف بعض الوقت أمام المرآة.. وهو لم يكن من الأشخاص المولعين بوجوههم على الإطلاق.. كان يعرف أنه لابد من وجه حتى لا يمشي بعظام الجمجمة عارية.. لكنه في هذه المرّة أطال النظر وبرغمه شعر برجفة تتخلل عموده الفقري.

كأنما قد أحاط عينيه بكحل كثيف قبل أن ينزل من داره.. الحاجبان صارا كثين جدًّا يتدليان فوق عينيه.. فتحة العين ذاتها صارت واسعة جدًّا.. الخلاصة أنّ هناك بحيرة كاملة من اللون الأسود تحيطان بعينين لايمكن مقاومتهما.. عينين من الطراز الذي لا تستطيع معه تذكر إن كان هناك وجه أم لا..

شعر بقلق فحاول أن يبعد المنظر عن ذهنه..

إنه طبيب عيون.. ولو كان هناك مرض اسمه (نظرات العين الثاقبة أكثر من اللازم) لكان هو أول من يسمع به.. قال لنفسه إن عينيه نافذة على روحه. وروحه قلقة عجول لا تريد أن يضيع من

العمر يوم واحد آخر.. لهذا لم يعد يقبل من يجادله أو يخالفه الرأي.. يريد طاعة عمياء..

هذا هو كل شيء..

☆ ☆ ☆

على أن القلق عاوده حين كان في ذلك المتجر تلك الليلة، وكانت هناك أم تحمل طفلًا رضيعًا على كتفها وتمسك بيد طفلة في الثامنة.. وقف وراءها فرأى الرضيع يرمقه بعينين متسعتين في رعب ثم انفجر في صراخ هستيري مجنون.. عواء إذا أردت الدقة..

نظر لأسفل فرأى الطفلة تنظر له بذات الرعب.. ثم تنكمش في ثوب أمها دون أن تفارقه بعينيها..

نظر لأعلى من جديد فوجد الأم تنظر للوراء.. تغمغم في جزع:

- «بسم الله الرحمن الرحيم..»

ثم تجر طفليها بعيدًا عنه بسرعة الفار من المجذوم..

ما معنى هذا؟ والأسوأ هو أن البائع ظل يرتجف وأوقع أشياء على الأرض.. وبدا كأنما لا يريد شيئًا في العالم قدر أن يرحل هذا القادم..

في اليوم التالي كان في المستشفى.. حين صرخت الممرضات أن المريضة الفلانية تعاني ألمًا عنيفًا..

دخل العنبر ليجد مجموعة من الأطباء الشبان يحيطون بفراش مريضة.. هناك الكثير من الصراخ والهستيريا.. هناك من يحقنها بأشياء.. نظر لهم متسائلًا رافعًا حاجبيه على شكل علامتي استفهام، فقال له طبيب شاب يعرق بغزارة:

- «إننا نعدها للجراحة غدًا.. لكنّها تصرخ من ألم مبهم في عينيها.. تشعر بأنهما ستنفجران..»

راجع التذكرة الخاصّة بالمريضة، ثم غمغم:

- «جراحة حول بسيطة ستجرى لها غدًا.. هذه المريضة لا تعاني ألمًا حقيقيًا.. هذه هستيريا لا أكثر..»

- «قل لها ذلك يا سيدي.. لقد حاولنا كل شيء..»

كانوا قد جربوا كل الأساليب المعروفة فعلًا بدءًا بالكلام الهادئ المطمئن، مرورًا بحقن محلول الملح الزائفة، وانتهاء بالصفعات.. لكنّها كانت تصرخ كقطار السكك الحديدية، وبدا أنها لن تكف

حتى تموت..

- «ربما لو طلبنا من يخدرها يا سيدي..»

- «ليس إلى هذا الحد..»

ودنا من المرأة.. الحقيقة أنها كانت قد كفت عن الصراخ فعلًا في اللحظة التي رأت فيها عينيه.. نظر لها في ثبات ووضع أنامله على جبهتها وإبهامه على جفنها العلوي.. بدأت تصمت.. تراخت معالم وجهها، ثم أغمضت عينيها ونامت.. لماذا فعل هذا؟ من أخبره أنه قادر على هذا؟ لا يعرف..

وقال أحد الأطباء الواقفين:

- «هذا سحر يا سيدي..»

الحقيقة أنه كان يعرف ذلك.. يعرف أن الكلمة تعني معناها حرفيًا..

ابتسم في تهكم يدارى الكثير من التوجس وانصرف..

هكذا بدأ القلق يعصف به.. وكان أول ما ابتاعه في طريق العودة إلى الدار نظارة سوداء.. هكذا يخفي هاتين العينين القويتين فلا يكشفهما إلا عند الضرورة، وكما يفعل الفارس الذي لا يخرج سيفه من غمده إلا عند الحاجة.. الآن يفهم كلام شعراء العرب عن (جردت نظرتها) أو (أعادت عينيها إلى غمدها)..

من الغريب أنه - وهو الذكي - لم يربط حتى هذه اللحظة بين العينين وما يحدث..

وهكذا راح يمضي أيامه في تأمل العينين وفي مراقبة ما يحدث لعينيه هو في دهشة بالغة..

إن الأمر يزداد وضوحًا.. الكل يفسح له الطريق حين يمشي في الشارع.. في الحافلة يتحاشى الناس الاحتكاك به ويطرقون بأبصارهم.. في العمل لم يعد أحد يواجهه على الإطلاق..

كان قد أطال شعر رأسه قليلًا في الفترة السابقة، وهو ناعم منسدل بطبعه.. مما جعله يبدو بالفعل مثل صور (راسبوتين) التي نراها ذات خشونة في بدايات القرن العشرين..

لكنه لم يعِ هذا التحول إلا في وقت متأخر للغاية..

وفي مساء يوم جلس كعادته إلى المنضدة يراقب العينين خلف السائل الشفاف هذا اللون الأزرق الغريب.. هذا الصفاء الذي يخترق كل شيء..

بعد ساعة من المراقبة غمغم هو يغمض عينيه..

- «الآن أعرف أن الأسطورة حقيقيّة.. هاتان العينان هما عينا (راسبوتين).. لا أرى الموضوع على أي ضوء آخر!!»

☆ ☆ ☆

ثم ماذا؟

إن هذا الاكتشاف لم يفقده حياته.. لم يكلفه مالًا.. فقط جعله أكثر نجاحًا وتأثيرًا.. فقط جعل الناس يعاملونه على أن أحلامه أوامر.. على قدر علمه لم تسبب التجربة أي ضرر..

إنها الثامنة مساء..

عليه أن يبدل ثيابه لأن لديه موعدًا مع خطيبته.. يجب أن أقول هنا إن الفتيات صرن ينظرن له بمزيج من الخوف والانبهار في كل مكان.. إنها تلك النظرة الثاقبة التي تخبرهن أنهن بلا دفاع.. وخطيبته (تغريد) لم تكن استثناء..

هكذا وقف أمام المرآة يصلح من ربطة عنقه.. إنّه وسيم على الأقل هو يعتقد هذا.. لو تناسى متاعبه الأخرى فهو شاب ناجح في الثلاثين من عمره وما زال العمر أمامه و....

إنها التاسعة والنصف!

نظر في هلع إلى الساعة المعلقة على الجدار خلفه..

هذا صحيح! ساعة ونصف مرّت وهو أمام المرآة يصلح ربطة عنقه..

الأخطر أنه مشعث مغبر.. وأنّ هناك بقعة دم على كتف القميص!!

متى حدث هذا؟ كيف؟

من الواضح أن (تغريد) انتظرته طويلًا.. ثم رحلت.. ولكن هذه ليست المشكلة الآن..

ماذا حدث وما الذي فعله في ساعة ونصف ظل يرمق فيها نفسه في المرآة؟ من أين جاء الدم؟

في كل لحظة كان يدرك الحقيقة المخيفة أكثر.. لقد صارت عيناه ضده إنهما تتلاعبان به!

ما حدث هو أنه نوَّم نفسه مغناطيسيًا وهو أمام المرآة!!

☆ ☆ ☆

من هذه اللحظة صارت عيناه غريبتين عليه.. إنهما عدوان خطران..

صار يقضى أغلب اليوم حتى في الظلام واضعًا النظارة السوداء على عينيه.. ما الذي فعله في تلك الساعة والنصف؟ ومن أين جاء الدم؟

هذا ما لم يعرفه قط ولم يحاول معرفته.. لقد غاب عن العالم ساعة ونصف ساعة صار فيها مشعثًا مغبرًا ببقعة دم على قميصه.. إن النتائج واضحة لكن التفاصيل لا تهم.

لقد صار غريبًا مخيفًا.. الناس يهابونه وهو يهاب نفسه.. والسبب....

هاتان العينان اللعينتان.. اللتان حملتا كل شرور صاحبهما..

إنه يملك قوة هائلة لكن ما نفعها لو استدارت هذه القوة نحوه هو نفسه؟ إنها نوع من الأسلحة الفاسدة في حرب ١٩٤٨ التي كانت تنفجر في صدور أصحابها بدلًا من صدور الصهاينة..

جلس إلى مكتبه وأمسك بالقلم وكتب في حسم جملة واحدة:

- «هاتان العينان.. يجب أن تزولا للأبد..»

اتجه إلى الخزانة حيث احتفظ بالوعاء الزجاجي..

في حسم حمله إلى الحمام..

أزال الغطاء الذي أغلقوا به الوعاء يومًا ما منذ خمسين عامًا.. ومن الوعاء تصاعدت أبخرة زيت الغنطرة الكريهة الحارقة.. نظر إلى المرحاض وأخذ نفسًا عميقًا..

سيقوم الآن بعمل كان يجب أن يقوم به منذ أشهر.. إنِّه سهل لكنه كان عسيرًا أمس فقط..

نظر إلى المرآة المعلقة فوق الحوض فرأى وجهه الصارم ينظر له في حدة.. هل هذا وجهه فعلًا؟ بشيء من الخيال يمكنه أن يقول إن هذا وجه (راسبوتين) ذاته..

إنِّه.....

لقد اقتنصته العينان!

إنه يرى (الكرملين) والثلج يتساقط من حوله.. هناك عربة تجرها الخيول.. أميرة روسية تغمض عينيها في افتتان.. حفلات راقصة صاخبة الضباط بثيابهم الأنيقة المزركشة يرفعون سيوفهم في رشاقة.. وجوه تضحك.. وجوه تبكي.. خيول.. ذئاب بيضاء.. فلاحون يرقصون (الكازاتشوك).. رجل مدثر بالفراء يمشي بصعوبة وسط العواصف.. طفل ينزف من أنفه.. طلقات رصاص.. خيول (القوزاق) تنقض من أعلى التلال..

لا داعي لتدمر عيني (راسبوتين).. إنهما أثر ثمين إنهما لشاهدتان على تاريخ بأكمله.. هناك عينان مؤذيتان يمكن تدميرهما ولن تسببا خسارة لأحد...

لا يعرف متى ترك الإناء سليمًا بما فيه.. متى ذهب إلى المطبخ.. متى انتقى سكينًا حادًا مدببًا.

متى عاد ليقف أمام مرآة الحمام..

متى..

إن مأساة (أوديب Oedipus) قد تتكرر بذات التفصيل في زمننا هذا..

☆ ☆ ☆

- ١ -

قال (مازن):

- «هكذا فقد (عادل) عينيه.. وقد عرفت منه القصة فيما بعد، واحتفظت بهاتين العينين كأثر ثمين لا يجب أن نبدده، برغم أنه توسل إليَّ ألا أفعل.. أعتقد أن اللعنة قد تركته الآن لكنّها دمرته إلى الأبد.. والآن أسألك عن رأيك في هذه القصة؟»

فكرت قليلًا.. إن هذه القصة بالذات تحمل الكثير من الجو المقبض الكريه..

قلت في كياسة:

- «لست متأكدًا.. لكن هل حاولت أن تطيل النظر في هاتين العينين أنت نفسك؟»

ابتسم ابتسامته الغامضة إياها وقال:

- «كثيرًا جدًّا! ربما عدة ساعات..»

- «نظراتك لم تزدد حدة أو إقناعًا..»

- «لم تزدد حدة لكن كل شيء في أعماقي تغير.. إن كل جزء من هذا المتحف الأسود قد ترك علامة دائمة في ذاتي.. وأعتقد أن نفسيتي تشبه هذه الواجهات ذاتها..»

وقبل أن أعلق قال:

- «القصة التالية سأريك الواجهة الخاصّة بها فيما بعد.. فقط أقول الآن إنها تحكي عن رعب (إن ما فعلته لن يمرّ لا بد من انتقام مخيف)..»

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

في الواحدة بعد منتصف الليل على الطريق الزراعي قرب (بنها).. هناك تلك الشاحنات المندفعة بأقصى سرعة، وسائقها الذي لم ينم منذ وقت طويل.. إن (التباع) يغفو جواره منذ زمن، وصوت المذياع الذي يبعث بصوت (فايزة أحمد) لا يساعده على الاستيقاظ..

في الواحدة بعد منتصف الليل والمطر قد بدأ يهطل والطريق زلق كظهر ضفدع.. والسائق يشعل لفافة تبغ أخرى متظاهرًا بأن الدخان يساعده على البقاء متيقظًا لكنه يعرف أنّ هذه أكذوبة..

هنا تأتي اللحظة الدرامية المتوقعة.. هناك من يعبر الطريق..

يا للكارثة! يضغط على آلة التنبيه.. يحرك الضوء متراقصًا.. لو ضغط الفرملة الآن لأنقلب فورًا.. كلا.. لا يستطيع.. فقط يأمل أن يتوقف هذا العابر أو يتراجع للوراء..

أو يسرع..

لكن العابر يواصل طريقه في تؤدة كأنما لديه كل الوقت..

ورأى السائق شيئًا يختفي تحت مقدمة الشاحنة.. ثم لا شيء..

إنه يستطيع التوقف بعد خمسمائة متر، لكن ما جدواه؟ هو يعرف أنّ هذا العابر العابث قد انتهى أمره.. وهو لم يكن ممن يملكون الشجاعة الأدبية الكافية.. على الأقل هو لم يرتكب خطأ.. القتيل هو من فعل..

وهكذا واصل طريقه وكل عضلة في جسده ترتجف..

☆ ☆ ☆

هناك من وجد الضحيّة وحملها إلى المستشفى..

كان الدكتور (ممدوح) طبيب الامتياز الشاب يحاول أن فقط يبقى ساهرًا باحتساء كوب شاي أعدته الممرضة.. لكنه كان يتوقف للحظات وكوب الشاي في الهواء.. يغيب عن العالم.. ثم يفيق فيشرب جرعة أخرى.. إن البرد مع تأثير الدفء داخل المستشفى لمما يجعل النعاس قوة لا تقهر..

فقط سمع صوت سيارة الإسعاف الكئيب وهي تقف كان يحفظ هذه الأصوات جيدًا.. صوت الباب المنزلق في ظهرها يفتح.. صوت فرد المحفة.. صوت العجلات وهي تجري على الأرض.. كان لهذا تأثير أقوى بمراحل من أي منبه يأخذه بالفم أو بالحقن..

هب على قدميه وضم المعطف.. وركض إلى الخارج ليرى المصيبة القادمة..

بالفعل كانت مصيبة.. هناك رجل أشيب في الخمسين من عمره، يرقد على المحفة وهو متدثر بخرق لا تدري كنهها بالضبط لكنّها ملوثة بالطين والدم ومبتلة.. وبدا من شحوبه أنه لم يعد بوسع (ابن سينا) نفسه أن يساعده لو كان ساهرًا في الاستقبال العام في هذه اللحظة..

بقدمين ترتجفان جرى الطبيب الشاب محدود الخبرة، وطلب من الممرضة التي كانت شبه نائمة بدورها أن تلف جهاز الضغط حول ذراع المصاب.. ودس طرفى المسماع في أذنه.. لاشيء

يحدث.. لا يوجد صوت على الإطلاق.. جرب مرّتين فلم يسمع شيئًا..

ألصق المسماع بصدر الضحيّة فلم يسمع شيئًا.. راح يفرك صدره.. لاشيء..

لا داعي لإيقاظ الطبيب المقيم إذن.. إن يومًا عصيبًا ينتظره غدًا، ولسوف تنهمر عليه الصواعق لو أيقظه من أجل رجل ميت فعلًا..

هكذا مط شفتيه علامة العجز، ونظر إلى المسعف نظرة تقول كل شيء..

ومن دون كلمات جاءت الممرضة بملاءة وغطت بها وجه المتوفي، على حين اتجه المسعف إلى الهاتف ليطلب جهة ما.. كان الدكتور (ممدوح) يشعر الآن أنه حارس مرمى لم يختبر، لكن - على الأقل - لم تهتز شباكه.. لم يتسبب في موت المريض.. هذا يعوضه بعض الشيء عن، وفاته..

وبيد مرتجفة كتب الديباجة التي حفظها عن ظهر قلب: يبلغ السويتش وينقل المتوفي إلى المشرحة بعد ساعتين..

بعد قليل جاء ذلك المريض المعتاد.. المريض الذي أصابه مغص كلوي في الثالثة صباحًا.. إنّه قادم مع خمسة من أهله وهو لا يكف عن العواء.. بعض العواء مفتعل لا شك في ذلك، يبرر به المريض إزعاج كل هولاء في ساعة كهذه وتحت هذه الأمطار..

هكذا انهمك د. (ممدوح) في عمل يعرفه ويجيده وينجح فيه.. ووقفت معه الممرضتان الموجودتان تعينانه.. الكثير من الصخب والصراخ والضوضاء.. لا بد أن الأمر استغرق نصف ساعة..

ثم عاد الهدوء الى المكان..

وعاد د. (ممدوح) يشرب آخر جرعة من الشاي الذي تحول الى ماء بارد سكري أسود..

هنا سمع الممرضة تشهق.

- «د. (ممدوح)..»

- «هممم..»

- «د. (ممدوح)..»

صاح بلهجة متذمرة وقد نفد صبره:

- «ماذا عندك؟»

- «المتوفي الذي كان على المحفة.. لقد اختفى!»

نهض (ممدوح) مذهولًا لا يفهم ما يحدث.. ركض إلى الردهة الجانبية حيث كانت المحفة.. حقًّا لا يوجد أحد.. لكن أين وكيف ولماذا؟

لا يوجد إلا احتمال واحد هو أنه لم يسمع جيدًا.. لقد كان الرجل حيًّا لكنه فقد الوعي.. لا بد أن الارتباك جعله عاجزًا عن قياس ضغط الدم وسماع القلب.. هذا هو التفسير الوحيد..

وشعر بالدم يحتشد في وجهه.. ماذا يقول للشرطة حين تصل بعد قليل؟ ماذا يقول للطبيب المقيم حين يصحو؟

ليته يستطيع أن يكذب عليهم.. ليته يستطيع أن يقول إن القتيل قد نهض وانصرف لحال سبيله..

لكنه لم يدر أنّ هذه هي الحقيقة.. بالضبط هي الحقيقة..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

في الثانية صباحًا وبعد رحيل آخر المواسين دخلت (محاسن) الغرفة الأخرى في الدار.. فلم يكن ممكنًا أن تنام في ذات غرفة الزوجية بعد كل ما حدث..

كانت مرهقة، لكنّها قدرت أن الأرق نديمها هذه الليلة..

شريط الأحداث يتوالى أمام عينيها فلا تملك أن تبعده.. (سليم) زوجها، صحيح أنه لم يكن أفضل زوج في العالم.. صحيح أنه لم يكن بذلك اللطف.. لم يكن بذلك الكرم لم يكن بهذه الأريحية.. لكنه زوجها، والمرء لو اعتاد أن ينام جوار ثعبان (بوا) لمدّة عشرين عامًا فلا بد أن يفتقد هذا الثعبان إذا مات..

تزوجا منذ عشرين عامًا.. وأقاما في هذه القرية.. كان يحبّ حياة القرية.. ويرفض الحياة في (بنها) أو الابتعاد عن أقاربه.. وقد ابتنى هذا البيت منذ خمسة وعشرين عامًا، وبالتدريج صارت حياتهما مزيجًا خاصًا فريدًا من حياة القرية وحياة المدينة.. لم تحب هذه الحياة أصلًا لكنّها قبلتها كما يقبل المرء كل شيء آخر في حياته.. وكانت تدرك أن فرصها في الاعتراض محدودة لأنهّا لم تنجب، وهناك ألف شخص ينصحون رجلها بالزواج كي يحافظ على اسم الأسرة (وكأنها أسرة محمد علي).. لكنه قاوم.. حتى هذا الشهر بالذات..

الحقيقة التي لا يعرفها القراء هي أنها قتلته..

هي لا تعتقد أنّ هذا يجعلها زوجة غير صالحة.. فهي تشعر بأنها تفتقده برغم كل شيء..

لقد جاء أخوها عصرًا ولم يكن في الدار غيرهما.. دارها بعيدة عن باقي القرية منعزلة من الطراز الذي (يقتل فيه القتيل فلا يعرف أحد).. وكان هذا هو المطلوب بالضبط.. جلس الرجلان يشربان الشاي على سطح البناية.. بعد قليل بإشارة سريعة من عينيها قامت وأخوها بقتله.. إن صفحات الحوادث تعجّ بالقصص الرهيبة المماثلة، فلا داعي لوصف التفاصيل.. فقط نقول إنها وأخاها قتلاه لأنّه كان ينوي أن يتزوج امرأة أخرى.. إنها لم تنجب، وكان الميراث الذي سيضيع من العوامل المهمة التي جعلها لا تفكر مرّتين.. لم تكن من النسوة البلهاوات اللاتي يقتلن بسبب الغيرة، ولكن لأسباب ماديّة ملموسة يمكن تحويلها إلى أرقام..

كانت فترة غروب الشمس حافلة بالأحداث، حيث تعاونت مع أخيها في حمل الجثة قرب الدار.. تحت شجرة التين العجوز.. لم تفضل إلقاءها في (الرياح) لأن هذه الطريقة تفتضح دائمًا.. إنها ليست بلهاء..

لكنها على الأقل احترمت الجثة فتركت أخاها ليستكمل الدفن، وعادت إلى دارها..

الآن قد أزالت آثار كل ما حدث داخل البيت.

عندها فقط راحت تجوب القرية بحثًا عن زوجها.. طرقت كل دار وأطلقت الكثير من الصراخ الهستيري.. ليس من دأبه أن يتأخر إلى هذه الساعة، لا بد أن مكروهًا أصابه..

وتدخل خوفها من افتضاح أمرها، ليجعل من أدائها عملًا أكاديميًا يمكن تدريسه في معاهد المسرح العالمية.. لقد كانت خائفة فعلًا، وقد نجحت في استخدام هذا الخوف في أدائها، كما يفعل أي محترف تدرب في (ستوديو الممثل) في (هوليوود)..

وبالتالي بدأت ليلة عصيبة كريهة.. كانت عليها واجبات اجتماعية هائلة من العويل ولطم الخدين إلخ.. كل هذا باعتبار ما سيكون.. لكن أحدًا لم يعرف كم هي صادقة..

وعندما توغل الليل انصرف الجميع مع كلمة عن (النهار الذي له عينان) و(غدًا يأتي الفرج)..

الخلاصة أنها الآن مرهقة تمامًا..

ترغب في النوم.. تشتهيه.. وقد ساعدها هذا على نسيان خوفها.. أضف لهذا أنها كانت امرأة شديدة المراس أقوى أعصابًا من أي رجل عرفته.. المرأة التي تخاف من النوم في بيت قتلت فيه زوجها هي امرأة مدللة مائعة.. هذا رأيها..

ترقد في الفراش تتأمل الجدار المطلي بالجير، والذي أحالته إلى شاشة ذكريات..

لكنّها تسمع من يدخل الغرفة.. تسمع صوت خطوات..

توقف تنفسها.. إنها وحيدة تمامًا في هذه البناية.. ما معنى هذا؟

رفعت رأسها وفي الظلام استطاعت أن ترى ذلك الشخص الذي يدخل غرفة النوم.. من هذا القادم؟ فتحت فمها لتصرخ لكن الصرخة احتبست في حلقها..

إنّه هو.. هو بالذات..

كان يلبس ذات الثياب وإن صارت حالتها رثة.. ممزقة متسخة بمزيج من الدم والأوحال مبتلة تمامًا.. وكان يتصرّف بطريقة عادية تمامًا كأن شيئًا لم يكن..

- «مساء الخير يا (محاسن)..»

قالها بصوته الذي تعرفه جيدًا، ثم أردف وهو ينزع الثياب عن نصفه العلوي:

- «هاتي لي جلبابًا.. إن هذه الثياب مبتلة تمامًا..»

هنا فقط خرجت الصرخة من فمها.. عميقة حادة رفيعة تصم الآذان..

☆ ☆ ☆

كان اليوم التالي أسود يوم في حياتها كما يحق لنا أن نتوقع..

لقد كان عليها أن تصمت وأن تمارس حياتها بشكل طبيعي.. الجيران والجارات يأتون ليهنئوها على عودة الرجل، ويسألن ترى أين كان.. بينما هو يجلس في وسط الدار صامتًا كئيبًا لا يفتح فمه ولا يقول شيئًا.. نظرة ذاهلة كمن نوم مغناطيسيًا..

لقد فقدت وعيها لدى رؤيته في المساء.. حسبته شبحًا وهو التفسير المريح، أو هو لم يمت وجاء للانتقام.. لكن الغريب في الأمر أنه لم يقل شيئًا ولم يفعل شيئًا.. ارتدى جلبابًا ما ورقد في الفراش ليواصل النوم كأن ما مر به كان يومًا معتادًا..

هي خارج الغرفة ترتجف.. ولقد فكرت أكثر من مرة في أن تحضر الفأس لتكمل ما بدأته.. أو تتخلص من حياتها.. أو تهيم على وجهها صارخة في أزقة القرية..

لكنها عدلت عن هذه الحلول جميعًا.. كلها غير عملية، وسوف تلفت إليها الأنظار.. ولسوف يعرف الناس ما كان.. هكذا ظلت ما بقي من الليل وحدها خارج الدار ترمق صوت الكلاب البعيد وتصغي للظلام وتشم البرد نعم.. لا يوجد خطأ هنا.. لقد اختلطت حواسها بالفعل..

كانت موقنة من أنها وأخاها قتلاه فأحسنا القتلة.. لا توجد أخطاء.. ضربتان محكمتان على رأسه، ثم الخنق.. هل كان يجب إزالة رأسه تمامًا؟ دفناه بعناية فكيف ومتى استعاد وعيه وغادر القبر؟

هكذا كان العذاب الأول هو أن تبقى وهذا الشيء في دارها.. والعذاب الثاني - والأشنع - أنها لن تظهر أبدًا أية علامة هلع أو ذعر.. ليس أمام الناس.. ليس أحب إليها من أن تصرخ قائلة: لكنه ميت! أنا متأكدة من هذا!؟ أنا قتلته!! لكن هذه الأشياء لا تقال طبعًا.. هي لا تملك هذا الترف..

هي الآن في الدار.. الجيران يأتون ليطمئنوا.. لا تجرؤ على النظر إليه.. لا تجرؤ على النظر إليهم..

أحد الرجال يقول:

- «إنّه لا يتكلم.. لماذا لا تطلبون له الطبيب؟»

ويقترح آخر أن الحل الأمثل هو عصير القصب.. كان له عم أصيب بشيء كهذا فابتاع له عصير قصب.. ولكن من أين عصير القصب في قرية كهذه لا توجد فيها معصرة؟ هكذا يتطوع أحدهم ويحمل (شفشق) من البلاستيك ويتجه إلى (بنها) لإحضار بعضه، وقد رسم على وجهه علامات الخطورة كأنه ذاهب للبحث عن (يورانيوم ٢٣٥) من أجل مفاعل نووي..

لكم ودت لو تتخلص منهم! وفي الآن ذاته لم تتمن لحظة أن يرحلوا لتواجه هذا الشيء وحدها..

هي لا تعرف شيئًا اسمه (الزومبي) طبعًا، فلو كانت تعرفه لكان أدق وصف هو (ثمّة زومبي في داري)..

وكان أول ما خطر لها هو أن تهرع إلى المكان الذي دفناه فيه..

يجب أن تتأكد من آثار الحفر.. هل هناك من أخرجه أم هو من أخرج نفسه..

هكذا تأكدت من أن الجميع انصرف، ثم خرجت من الدار جارية حافية القدمين تقصد تلك البقعة التي تعرفها جيدًا، والتي حفرتها مع أخيها أمس..

لون الغروب الأزرق يغلف المكان.. في هذا الوقت بالضبط كانت منهمكة مع أخيها في حمل القتيل.. واليوم؟

إن الحفرة موجودة.. هل كانت بهذا الاتساع من قبل؟

من الواضح أنّ هناك من أزال عنها طبقة التراب الكثيفة التي كانت تغطيها.. لكن الأمر يبدو وكأن إزالة الغبار تمت من الداخل..

هذا هو ما توقعته.. لقد كان حيًّا عندما دفناه، وقد راح ينبش حتى أخرج نفسه.. لكن هذه الأمور يمكن تصحيحها.. لسوف تعود إلى أخيها وتخبره بكل شيء.. وهذه الليلة ينتهيان من هذا كله..

هكذا فكرت في اشمئزاز وهي تقف في ضوء الغروب تتأمل المشهد..

لكن.. صبرًا.. تكاد تقسم إنها ترى قدمين عاريتين في هذه الحفرة.. ليست خالية.. بل إن هناك من يرقد فيها وإن لم يتم دفنه بعناية.. ولكن..

هناك جسدان متجاوران!

ما معنى هذا؟

دنت من الحفرة أكثر..

إن ضوء الغروب الأزرق الخافت يجعل الرؤية عسيرة.. لهذا تنتظر أكثر حتى ترى..

الآن تقبض على الغبار وتزيله عن الوجه الأول وهي ترتجف.. هذا الوجه.. هذا الوجه.. هذا الوجه..

كما توقعت بالضبط..

هذا الراقد في الحفرة الآن ليس زوجها..

إنه أخوها!

ملامح الرعب على وجهه تقول إنها لم تكن ميتة سهلة على الإطلاق..

راحت تشهق محاولة أن تمنع الصرخة من أن تغادر فمها.. يجب أن تتماسك.. يجب.. يجب أن تفهم..

هنا سمعت من يتنحنح من خلفها:

- «إن الحفرة تكفي ثلاثة يا (محاسن)!!»

عرفت الصوت.. نظرت للوراء فوجدت زوجها يقف هناك تحت الشجرة العتيقة..

وكان يبتسم.. للمرة الأولى منذ عصر أمس تراه يبتسم..

☆ ☆ ☆

- ١ -

نظرت إلى ساعتي.. من العسير أن تعرف في هذه الحجرة إن كنا في الليل أم النهار، لكن ساعتي تقول إنها الثامنة صباحًا.. ليلة كاملة قضيتها في المتحف الأسود ومن الغريب أنني لست منهكًا..

قلت لـ (مازن):

- «هذه القصة على كل حال يمكن تفسيرها.. الزوج لم يمت.. لم يمت جيدًا لو أردت الدقة.. وقد انتصر على الأخ ودفنه هو في الحفرة، ثم عاد ليصفي الحساب مع زوجته..»

ابتسم ابتسامته الودود الشهيرة وقال:

- «هذا تفسير لا بأس به.. لكننا لم نفهم بعد كيف نجا من ارتطامه بالشاحنة ولا كيف شخَّص الطبيب وفاته، ثم لم يجده على المحفة.. ثم كيف نفهم معنى حديثه عن الحفرة التي تسع ثلاثة..»

في حدة قلت:

- «الموتى لا يعودون للحياة إلا عندما تقوم الساعة.. لا تبنِ أية افتراضات على أسس غير هذه..»

- «ثمّة تفصيل آخر لا يعرفه سواي.. لقد قطع الأخ الرأس بعد رحيل أخته.. كان هذا على سبيل الانتقام!!»

هززت رأسي غير مصدق يصعب أن أتخيّل الزوج يعيد تثبيت رأسه على كتفيه ثم يغادر القبر ليقتل الأخ، ثم يعود لداره..

قال (مازن) ضاحكًا كعادته:

- «كلانا لا يؤمن بصحوة الموتى من دون قيامة، لكني لا أعتقد أنك ترفض فكرة الأشباح التي عادت لتنتقم.. الأشباح التي اكتسبت وجودًا ماديًا من الاكتوبلازم يجعلها لا تبدو كذلك.. لقد قتل (سليم) أو شبحه الأخ ودفنه، ومشى متجهًا لداره شارد الذهن لا يعرف أين هو.. لم يصدّق لحظة أنه شبح حتى دهمته تلك السيارة.. الحقيقة أنها لم تفعل شيئًا يذكر.. وفي المستشفى لم يعرف الطبيب أنه يفحص قشرة من الإكتوبلازم.. ثم فر الزوج وقد بدأ يستعيد توازنه.. كان يريد الخلاص من زوجته، لكن - الأهم - كان يريد أن يثير ذعرها.. لقد عاشت عذابًا لم يرد في الأساطير الإغريقية في يومها الأخير..»

قلت له في ضيق:

- «اسمح لي.. أنت تبني افتراضات.. لكن لا يمكن البرهنة عليها.. أعتقد أنها مجرد قصة قتيل لم يكن كذلك..»

لم يعلق واتجه نحو الواجهة التالية..

قال (مازن):

- «النوع التالي من الرعب هو نوع شهير جدًّا.. ربما أقدم أنواع الرعب.. ألا وهو الرعب مما ينتظرنا خلف الباب المغلق..»

كان يقول هذه الكلمات وهو يقف جوار شظية صخرية هائلة الحجم يبدو كأنما انتزعت من جدار قديم..

☆ ☆ ☆

قال (مازن):

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر.. لم يكن في مكان تعرفه..

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًّا، بل كان أقرب إلى جدار سميك يهدم ولا يفتح..

لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا..

☆ ☆ ☆

كان هذا في كهف قرب قرية في (ويلز)..

كان الناس يمرون جوار الكهف، ويتحدثون عن (خريولسن) الحبيس هناك.. عن الساحرة التي أنجبته.. والتي أعدمتها محاكم التفتيش هناك وكيف دفنوها فيما يعرف بزنزانة (خريولسن)..

هنا قاطعته في دهشة:

- «لحظة.. (خريولسن)! أنا كنت هناك!»

نظر لي كأنما أنا أكذب وقال بشك:

- «أنت من دون غيرك يا دكتور؟ وفتحت الجدار؟»

- «نعم..»

- «ورأيت ما وراءه؟»

- «بالتأكيد.. كانت هذه أشنع خبرة واجهتها في كل حياتي.. أحمد الله على أنني سأموت فتموت هذه الذكرى معي..»

عاد يسألني في شك:

- «رأيت كل شيء؟ حتى الـ.....؟»

صحت في عصبية:

- «لا تقل من فضلك.. دعنا نصغِ إلى باقي قصتك لنرى إن كانت تختلف عن خبرتي..»

عاد يقول:

- «عندما احترقت الساحرة أنذرت الناس بأن ولدها (خريولسن) سيعود بعد أعوام حين يفتح الزنزانة رجل أجنبي.. وما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة طيلة عمرها المديد..

«وبعد أعوام جاء مغامر إلى الكهف.. كان هذا بريطانيًا يدعى د. (هنري لستر).. فتنته الأسطورة وصمم على أن يجد رجلًا أجنبيًا يفتح تلكم الزنزانة..

«كانت فكرته أن يناول الضيف المطرقة، ثم يطلب منه أن يفتح الجدار بنفسه لأنّه ضيفهم..

«طبعًا ما كان الضيف الأحمق ليعلم أنه أول دم أجنبي يدخل الكهف منذ سبعة أجيال. حقًّا لم أتصور أنك كنت أنت هذا الضيف.. إن معلوماتي تقول إن.....»

☆ ☆ ☆

هنا قطع (مازن) كلامه لأن..

☆ ☆ ☆

الخاتمة

كان هناك صوت سيارة من الخارج..

صوت المحرك الدائر ثم صوت التوقف.. ثم صوت الأبواب تُفتح..

قال لي (مازن) في عجلة وهو يخرج من المتحف:

- «إنهم جاءوا.. تعال يا د. (رفعت) فهناك أشخاص أرغب بحق في أن تقابلهم..»

قلت له وأنا أرمق باقي الواجهات:

- «لكن.. ألن نستكمل هذه الواجهات؟ هناك....»

ونظرت إلى نهاية القاعة.. كان هناك رأس.. رأس آدمي محنط موضوع فوق عمود كأنه نصب تذكاري.. ولسبب ما بدا لي مألوفًا إلى حدٍ ما..

عدت ألحف عليه:

- «وهذه الواجهة.. إن هذا الرأس يبدو..»

قال وهو يقتادني إلى الخارج ويدير المكتبة ليغلقها:

- «فيما بعد.. فيما بعد.. سنكمل المشاهدة بمجرد أن تقابل هؤلاء السادة..»

- «من هم؟»

نظر لي نظرة ذات معنى، وغمغم وعيناه متسعتان في خطورة:

- «فقط حاول أن تبدو طبيعيًا.. سأخبرك بحقيقتهم فيما بعد.. والآن انزل..»

مترددًا نزلت في الدرج الخشبي، وأنا أتساءل عن كنه هؤلاء القوم.. ما معنى أن (لهم حقيقة ما)؟ ما القصة التي يحملها هؤلاء؟ في الغالب هذه هي لحظة الحقيقة.. لقد انتهت سهرتي مع هذا الشيء.. نظرت للوراء فلم أر (مازن) يتبعني طبعًا..

انفتح الباب وسمعت صوت طفلة تصيح.. ثم رأيت في الضوء القادم من الخارج رجلًا وامرأة شابة وحقائب.. ثم لمحت الطفلة ذاتها وكانت تتواثب في مرح.. كان ظلهم يمتد على الأرض مستطيلًا غامضًا كأنما جاءوا من كوكب آخر..

لكن الدهشة لم تطل.. فقد أدركت أنهم طبيعيون جدًّا، وبدأت أفهم القصة..

☆ ☆ ☆

كنت الآن قد وصلت إلى حقيقة مفروغ منها: هذا الرجل ليس رجلًا.. سوف تشرق الشمس لأجد أنه لا وجود له.. لقد عشت هذا الموقف مرارًا.. لكني على الأقل أعرف أن قصصه حقيقيّة.. ثم كيف أتأكد من نظريتي هذه؟ لا سبيل إلا أنّ أنتظر..

☆ ☆ ☆

الآن أرى الرعب في عيني الرجل والمرأة.. والطفلة ذاتها كأنما رأت شبحًا..

هتف الرجل:

- «من أنت؟»

ابتلعت ريقي وقلت في كياسة:

- «أنا ضيف السيد (مازن).. هل لي أن أسأل نفس السؤال؟»

صاح الرجل وهو يمسك بيد زوجته متوترًا متأهبًا للانطلاق كالسهم نحوي:

- «(مازن)؟ (مازن) من؟»

الآن بدأت أجد شيئًا مألوفًا في المشهد.. أكره أن أكون على صواب في كلّ مرّة.. لكن التفسير سيكون عسيرًا بعض الشيء، فأنا الآن متسلل بلا إذن إلى دار هؤلاء القوم.. وكان من أنقذني هو الزوجة التي قالت وهي تربت على كتفه:

- «إنّه منهم يا (محمود).. منهم.. لقد تكرر الأمر..»

كوَّر الرجل قبضته كأنما هو يمثل أحد أفلام (جون واين)، الأحمق.. أنا لا أبدو تهديدًا لبعوضة..

قلت له:

- «أتمنى أن تهدأ قليلًا.. تبدو لي عصبيًا لا يسعدك شيء في الوجود إلا أن تهشم وجهي..»

- «هو كذلك فعلًا..»

قلت وأنا أجلس على أريكة هناك:

- «واضح أنّ هذا الموقف تكرر معك مرارًا.. يحدث كلما سافرت في رحلة طويلة. أليس كذلك؟ بلى؟ وليس هناك من يدعى (مازن) هناك؟»

قالت الفتاة التي كانت أقرب إلى التعقل والهدوء:

- «(مازن أبو سيف) هو زوجي يا سيدي.. لكننا في كلّ مرّة نجد من يتحدث عن (مازن) الذي دعاه للبيت وأراه مجموعته من تذكارات الرعب..»

- «والمتحف؟ لا وجود له؟».

- «بالفعل لا وجود له.. يقولون إنّه موجود في غرفة المكتب خلف مكتبة جدارية عملاقة.. الحقيقة أنه لا يوجد أي تجويف خلفها.. لقد أزحناها وفحصنا المكان بعناية..»

قلت وأنا أنهض وأداعب شعر الطفلة المذعورة:

- «هناك متحف أسود.. بالفعل هناك واحد، فأنا لم أكن فريسة هلاوس بصرية بهذا التعقيد.. لكن ما يقودنا إليه ثغرة ما.. ثغرة في عالم الواقع.. هي هناك وراء المكتبة لا يفتحها إلا مضيفي نفسه.. ويبدو أنه لا يكف عن استعراض مجموعاته كأي هاوي جمع تحف في عالمنا حتى الأشباح تملك نقاط ضعف مثل البشر..»

وهنا فقط استعدت ذكرى الرأس المقطوع الذي كان آخر ما رأيته في المتحف..

كان هو رأس (مازن) نفسه.. أعني رأس من ادّعى أنه (مازن).. لقد تعجلني فلم أستغرق الوقت الكافي كي أحفر الانطباع في ذهني..

لقد ضم رأسه إلى مجموعته بكل رضا وسرور.. ولا شك أن المتحف يضم قطعًا أخرى منه حين كان حيًّا..

هو قال إنّه جرب كل شيء في المتحف.. لو كانت قصصه صحيحة فما من بشري يمكن أن يمرّ بهذه الخبرات جميعًا.. إما أنه لم يعد بشريًا أو لم يكن كذلك منذ البداية..

ثمّة افتراض أكثر جرأة: لماذا لم أر الواجهة الخامسة؟ هل الواجهة الخامسة هي تلك التي تحوي رأسه؟ هل كان هو (سليم) نفسه؟ لقد استبقى هذه الواجهة للنهاية باعتبارها سرّه الأخير.. والحقيقة أنني حين أستعيد قصته أتساءل: كيف عرف كل هذه التفاصيل؟ لقد هلك (سليم) وهلك الأخ وهلكت الزوجة.. فكيف عرف هذا كله؟ في كل القصص السابقة كان هناك من يحكي القصة كاملة: المخرج.. الزوجة.. الصبي الذي قتله الفطر.. الطبيب الذي فقأ عينيه.. في هذه القصة بالذات بدا لي (مازن) كأنه هو الراوي كلي المعرفة Omniscient الذي يعرف كل شيء ويتواجد في كل مكان يمكن أن يقص هذه القصة لو لعب دور (الشخص الثالث المحدود).. أي لو كان هو (سليم) ذاته..

قلت للزوج الذي بدأ يهدأ قليلًا:

- «هل كونت فكرة عما يحدث؟»

- «لا.. لقد طلبت رأي الكثيرين لكن أحدًا لا يعرف.. تكرر هذا السيناريو ثلاث مرات وأنت الرابع.. من الواضح أنّ هناك شبحًا يتسلى هنا.. يجلب عابري السبيل ويقنعهم أنه صاحب المكان.. يدخن السيجار الخاص بي ويقدم لهم الشاي والشطائر من مطبخي.. يحكي لهم قصصًا حتى يأتي الصباح.. هو لا يفعل هذا إلا حين نسافر لفترة.. وتتم القصة ليلة عودتنا.. ذات مرة راقب رجال الشرطة البيت في أثناء سفري، لكن - كما هي العادة في تلك الأمور - لم يحدث شيء.. وقد افترضوا أنني مخبول لا أكثر أعتقد أنني سأبيع هذا المكان.. فلم أعد أتحمل..»

وقفت أفكر حينًا.. ثم سألته:

- «أنا تحت تصرفك.. لو أردت أن تستدعي الشرطة لاتهامي بالتسلل إلى دارك فهذا حقـ..»

قال باشمئزاز وهو يسترخي على أريكة ويفك ربطة عنقه:

- «لا شيء من هذا.. لقد فعلت هذا مرّتين من قبل بلا جدوى.. انصرف من فضلك ولا تعد هنا أبدًا..»

اتجهت إلى الباب شاعرًا بالامتنان.. فلا أريد أن أقضي بقية اليوم في تفسير موقفي.. أدرت المقبض ووقفت أرمق الحديقة التي غمرتها الشمس وقلت:

- «والكلب؟»

- «كلهم يقول هذا.. لا يوجد كلب يا سيدي.. أنا أكره الكلاب...»

وراح ينظر إلى السقف كمن انهارت كل آماله..

هكذا أغلقت الباب ومشيت شارد الذهن.. مبلبل الفكر.. غير قادر على موازنة خطواتي بعد ليلة طويلة منهكة من سماع القصص الغريبة.. أمر بحوض أزهار (الدالكونيا) مودعًا..

وفي سرى تمنيت لو أنّ هذه الأسرة اللطيفة تأخرت قليلًا.. كانت الواجهات عديدة، ولكم اشتهيت لو سمعت باقي القصص.. مثلًا ما هو ذلك الكلب الأحمر؟ ما سر اليد المبتورة؟ ماذا عن الهيكل العظمي ذي الأنياب؟

لكني كنت أعرف أنني سأقابل (مازن) يومًا ما لنستكمل مشاهدة المتحف الأسود.. نعم.. بالنسبة لي كان ذاك الذي أمضيت معه أمسيتي هو (مازن) الأول. الحقيقي.. والأكثر تسلية..

إنه يعرف عنواني.. ويعرف كيف يكتب خطابًا.. وكيف يرسله..

لسوف يجدني..

عندها أريد أن أسأله أسئلة كثيرة.. أولها: من هو فعلًا؟ هل استنتاجي صحيح بصدده؟

إن قصته - بالتأكيد - لجديرة بأن تكون من قصص حلقة الرعب القادمة..

☆ ☆ ☆

كانت هذه حلقة الرعب السادسة..

المزيد من (البورتامنتو).. لكن حتى (البورتامنتو) - برغم اسمه المرعب - ينتهي ككل شيء آخر..

والشيء كان ينتظرني.. إنها قصة مقززة تحكي عن شيء ما.. هذا هو ما يمكن قوله عن الموضوع.. و...

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت اسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة المقدمة

مقـــدمة

الواجهة الأولى: حكاية الرجل الذي أجاد دوره

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الثانية: ابن (أبراكســـاس)

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الثالثة: جـارنـــا

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الرابعة: عينـا راســبوتين

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

الواجهة الخامسة: (سليم) قد عـاد

- ١ -

- ٢ -

الواجهة السادسة: زنزانة خـريولسن

- ١ -

الخـاتمة

Notes

[1←]
لا تنس أننا نتحدث عن زمن قديم.

[2←] سنتحدث عنه بالتفصيل في كتيب (فانتازيا) رقم ٣٨ إن شاء الله..